

فتوح الغيب

فتوح الغيب

في الكشف عن قناع الرب

تأليف: الإمام شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي

الطبعة الأولى: ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

جميع الحقوق محفوظة لجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ©

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية بالأردن: (٢٠١٠/٧/٢٥٣٣)

الرقم المعياري الدولي: ٩٧٨٩٩٥٧٢٣١٨٠٤

ما ورد في حواشي هذا الكتاب يعبر عن رأي محققه ولا يعبر بالضرورة عن رأي الجائزة

ص.ب. ٤٢٠٤٢ دبي - الامارات العربية المتحدة

هاتف: ٩٧١٤٢٦١٠٦٦٦+

فاكس: ٩٧١٤٢٦١٠٠٨٨+

الموقع على الانترنت: www.quran.gov.ae

البريد الالكتروني: Rs@quran.gov.ae

جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم

وحدة البحوث والدراسات

أشهر في نشر هذا الكتاب

ADIB



مصرف أبوظبي
الإسلامي

فتوح الغيب

في الكشف عن قناع الرب

وهو حاشية الطيبي على الكشاف

للإمام شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي

المتوفى سنة ٧٤٣ هـ رحمه الله تعالى

الجزء الثالث عشر

تفسير السور من يس إلى نهاية فصلت

حقق هذا الجزء

الدكتور عمر حسن القيسار

الباحث بجامعة العلوم الإسلامية العالمية بالأردن

المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب

الدكتور محمد عبد الرحيم سلطان العلماء

جائزة الدولة التقديرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يس
مكية، وهي ثلاث وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[يَس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١-٧﴾]

قُرئ: (ياسين) بالفتح، كـ «أين» و«كيف»، أو بالنَّصْبِ على: أتْلُ ياسينَ؛ وبالكَسْرِ

سورة يس
مكية وهي ثلاث وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: («ياسين» بالفتح كـ «أين»)، والمشهورة «ياسين» مبنية على السكون، أبو بكرٍ وحزرة والكسائي: بإمالة فَتْحَةِ الياء، والباقون: بإخلاص فتحها^(١).
وقال ابنُ جني: فَتَحَ النونِ قراءةُ ابنِ أبي إسحاق [بخلاف]^(٢) والثقفى^(٣)، وبكسر النونِ أبو السَّمال، وبالرفعِ هارون^(٤). أما الفتح والكسر فكلاهما لالتقاء الساكنين وذلك

(١) لتمام الفائدة انظر: «حجّة القراءات» ص ٥٩٥.

(٢) زيادة من «المحتسب» يقتضيهما السياق.

(٣) يعني عيسى بن عمر الثقفى.

(٤) عبارة ابن جني في «المحتسب»: وهارون عن أبي بكر الهنلي عن الكلبي: «ياسين» بالرفع.

على الأصل، كـ«جَيْرٍ»، وبالرفع على: هذه ياسينُ، أو بالضم كـ«حَيْثُ». وفخمت الألفُ وأميلت. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: يا إنسانُ في لغة طيِّئ. والله أعلمُ بصحته. وإن صحَّ فوجهه أن يكون أصله: يا أنيسين، فكثُر النداءُ به على ألسنتهم حتى اقتصروا على شَطْرِهِ، كما قالوا في القَسَم: مُ اللهُ، في: ايْمُنُ اللهُ. ﴿الْحَكِيمُ﴾: ذي

أنه بنى الكلامَ على الإدراج، لا على وَقْفِ حُرُوفِ المعجم؛ فحزرك لذلك، وَمَنْ فَتَحَ هربَ إلى خِفَةِ الفتحَةِ لأجلِ ثَقَلِ الياءِ قَبْلَها والكسرة، وَمَنْ كَسَرَ جاء به على أصلِ حركة التقاء الساكنين. وهو نظيرُ جَيْرٍ وَهَيْتَ لَكَ وإيه وسبيويه وعمرويه وباهما. وَمَنْ ضَمَّ احتمل أمرين: أحدهما لالتقاء الساكنين كـ«جَيْرٍ» و«هَيْتَ لَكَ»، وفي الآخر: ما عندي فيه وهو^(١): يا إنسانُ؛ لكنّه اكتفى منه بالسينِ وحذفَ الفاءَ والعينَ وجعلَ السينَ اسماً قائماً بذاته، فـ«يا» فيه حرفُ نداءٍ، ونظيره ما جاء في الحديث: «كفى بالسيفِ شا»^(٢) أي: شاهداً، فحذفَ العين واللام. ويؤيِّده ما ذهبَ ابنُ عباس رضي الله عنهما إليه في «جمسق» ونحوه أنها حروف من جملة أساء الله تعالى، وهي: رحيمٌ وعليمٌ وسميعٌ وقديرٌ ونحو ذلك^(٣).

قوله: (كـ«جَيْرٍ»)، الجوهرِيُّ: جَيْرٍ؛ بكسرِ الراءِ^(٤): يمينُ العربِ، ومعناه: حقاً، وقال: وايْمُنُ اللهُ: اسمٌ وُضِعَ للقَسَمِ هكذا بضمِّ الميمِ والنونِ وألفه أَلْفٌ وَصَلٌ، ورُبما حذفوا منه النونَ فقالوا: أيْمُ اللهُ، ورُبما حذفوا الياءَ وقالوا: أم اللهُ، ورُبما^(٥) أبقوا الميمَ وحذفوا مضمومةً وقالوا: مُ اللهُ.

(١) هذا نُقِلَ غيرِ محرَّر، وعبارةُ ابنِ جِتي: ويحتملُ ذلك عندي وجهاً آخرَ ثالثاً، وهو أن يكونَ أراد: يا

إنسانُ، إلّا أنه اكتفى من جميعِ الاسمِ بالسين.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ عبد الرزاق في «المصنّف» (١٧٩١٨) من حديث الحسن البصري مرسلًا، وأصلُ

الحديثِ ثابتٌ في «صحيح مسلم» (١٨١٢) بلفظ «كفى بالسيفِ شاهداً» من حديثِ سعد بن عبادَةَ

رضيَ اللهُ عنه، وذكره الحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٢٣٠: ٤) وقال: ولم أرَ قولَه: «كفى

بالسيفِ شا» إلّا في مرسل الحسن.

(٣) «المحتسب» (٢: ٢٠٣-٢٠٤)، ولتأمام الفائدة انظر: «تفسير ابن كثير» (٧: ١٨٩).

(٤) في النسخة (ف): «الياء».

(٥) من قوله «حذفوا الياءَ وقالوا» إلى هنا، سقط من (ف).

الحِكْمَة، أو لأنه دليلٌ ناطقٌ بالحِكْمَة كالحَيِّ، أو لأنه كلامٌ حكيمٌ، فوصِفَ بصفة المتكلم به. ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ خبرٌ بعد خبر، أو صلةٌ لـ ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾. فإن قلت: أيُّ حاجةٍ إليه خبراً كان أو صلةً، وقد علم أن المرسلين لا يكونون إلا على صراطٍ مستقيمٍ؟ قلت: ليس الغرضُ بذكره ما ذهبتُ إليه من تمييزٍ من أُرسِلَ على صراطٍ مستقيمٍ عن غيره ممَّن ليس على صِفَتِهِ، وإنما الغرضُ وصفُهُ

قوله: (أو لأنه دليلٌ ناطقٌ بالحكمة كالحَيِّ) أي: نَسَبَ الحكيمَ إلى ضميرِ القرآن، وجعل القرآن على سبيلِ الاستعارةِ المكنيةِ كالشخصِ الناطقِ بالحكمة، والقرينةُ نسبةُ الحكيمِ إليه، أو أسندَ الحكمةَ إليه إسناداً مجازياً؛ لأنه صدرَ من الحكيمِ، وإليه الإشارةُ بقوله: «فوصِفَ بصفة المتكلم به».

قوله: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ خبرٌ بعد خبرٍ أو صلةٌ لـ ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾، روى صاحبُ «المُرشد» عن الزجاج أنه قال: الأحسنُ في العربيةِ أن يكونَ ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ خبراً ثانياً، والمعنى: إنك لمن المرسلين، إنك على صراطٍ مستقيمٍ، ويجوز أن يكونَ ﴿عَلَى صِرَاطٍ﴾ من صلةٍ ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾، أي: المرسلين^(١) الذين أرسلوا على طريقةٍ مستقيمة^(٢)، وقال القاضي: يجوز أن يكونَ حالاً من المستكن في الجار والمجرور، وفائدته وصفُ الشرعِ بالاستقامةِ صريحاً وإن دلَّ عليه: ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٣) التزاماً^(٤).

قوله: (ليس الغرضُ بذكره ما ذهبتُ إليه من تمييزٍ من أُرسِلَ على صراطٍ مستقيمٍ عن غيره) إلى قوله: (وإنما الغرضُ وصفه) إلى آخره، وقال صاحبُ «الفرائد»: لم يُحصَلْ مما ذكِرَ جوابَ السؤالِ من الأولِ، وأما الثاني فهو قوله: فإن التأكيدَ فيه دلٌّ على أنه أُرسِلَ من بين الصُّرُطِ المستقيمةِ على صراطٍ مستقيمٍ^(٥) لا يُكْتَنَهُ كُنْهه، فمنظورٌ فيه، لأن الصراط^(٦)

(١) من قوله: «إنك على صراطٍ مستقيمٍ، ويجوز أن يكون» إلى هنا سقط من (ح) و(ف).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٢٧٧-٢٧٨).

(٣) من قوله: «وقال القاضي» إلى هنا سقط من (ح).

(٤) «أنوار التنزيل» (٤: ٤٢٥).

(٥) قوله: «على صراطٍ مستقيمٍ» سقط من (ف).

(٦) في النسخة (ح) و(ط): «الطريق».

المستقيم واحد؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

والجواب أن يقال: هذه الآية لردِّ قول الكفار، لأنهم كانوا يقولون: لست مُرسلاً، وإنك تركت الطريق المستقيم، ألا ترى إلى قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ٢]، فلا بدَّ في الجواب من ذكرهما، وما ذكر آتاه على صراط مستقيم لا يُكْتَنه وَضْفُهُ، مُسَلِّمٌ إِلَّا أَنَّهُ وَاحِدٌ وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ مُتَعَدِّدًا.

وقلت: مَنْ لَمْ يَقِفْ عَلَى الْأَسَالِيبِ كُلِّهَا، وَلَمْ يَسْتَوْعِبْ مَعْرِفَةَ أَفَانِيَّتِهِمْ بِأَسْرِهَا لَا بُدَّ أَنْ يَحْضَلَ عَلَى شَيْءٍ فِي أَمْثَالِ هَذَيْنِ الْجَوَابَيْنِ: أَمَّا الْجَوَابُ الْأَوَّلُ، فَنَحْوُهُ قَوْلُ صَاحِبِ «الْمِفْتَاحِ»: وَإِنَّمَا لِأَنَّ كَوْنَهُ، أَي: الْمُسْنَدُ إِلَيْهِ مُتَّصِفًا بِالْخَيْرِ [يَكُونُ] ^(١) هُوَ الْمَطْلُوبُ لَا نَفْسَ الْخَيْرِ، كَمَا إِذَا قِيلَ لَكَ: كَيْفَ الزَّاهِدُ؟ قُلْتَ: الزَّاهِدُ يَشْرَبُ وَيَطْرُبُ ^(٢). وَأُورِدَ صَاحِبُ «الْإِبْضَاحِ» ^(٣) أَنْ قَوْلَهُ: «لَا نَفْسَ الْخَيْرِ» يُشْعِرُ بِتَجْوِيزِ أَنْ يَكُونَ الْمَطْلُوبُ بِالْجُمْلَةِ الْخَبَرِيَّةِ نَفْسَ الْخَيْرِ وَهُوَ بَاطِلٌ، لِأَنَّ نَفْسَ الْخَيْرِ تَصَوُّرٌ لَا تَصْدِيقٌ، وَالْمَطْلُوبُ بِهَا إِنَّمَا ^(٤) أَنْ يَكُونَ تَصْدِيقًا وَإِنْ أَرَادَ بِذَلِكَ وَقُوعَ الْخَيْرِ مُطْلَقًا فَغَيْرُ صَاحِبِ «الْإِبْضَاحِ» ^(٥).

وأجيب: بأن مضمين الجملة مشتلمة على أمرين: الإخبار عن الوقوع، وعن اتصال المسند إليه بالمسند وقد يُقصد أحدهما قصداً أولياً، ويكون الآخر تبعاً له. قال الإمام في «النهاية» ^(٦): وقد يتصور في الفعل أن يكون المراد به وقوعه من الفاعل، وأن يكون مجرد اتصاله به. تمَّ كلامه. وههنا ليس الغرض في إيقاع «على صراط مستقيم» خبراً أو صلة

(١) زيادة من «مفتاح العلوم».

(٢) «مفتاح العلوم» ص ٨٤.

(٣) يعني الخطيب القزويني.

(٤) في النسخ الخطية: «إنها»، وصوبناه من «الإيضاح».

(٥) «الإيضاح في علوم البلاغة» ص ٥٦.

(٦) يعني «نهاية العقول في الكلام في دراية الأصول».

مُجَرَّدَ الإخبارِ، وإِنَّمَا الغرضُ ^(١) أَنَّهُ صلواتُ اللَّهِ عليه وسلامُهُ مُستَقَرٌّ فيه ثابتٌ عليه، وأنه جادَّته بل هو عادته.

وقال المصنَّفُ في قوله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِشَالِكٍ﴾ [يس: ١٤]: «وإذا كان الكلامُ مُنصَّباً إلى غرضٍ من الأغراضِ جُعِلَ سياقه له وتوجُّهه إليه كأنَّ ما سِوَاهُ مرفوضٍ مطرَحٍ» ^(٢).

وأما الجوابُ عن الثاني فعلى التجريد. قال ابنُ جنِّي - في قراءة الحسن: «اهدنا صراطاً مستقيماً»: - أراد - والله أعلم - التذللُ لِلَّهِ تعالى وإظهارَ الطاعةِ له، أي: قد رَضِينَا مِنْكَ يَا رَبَّنَا بما يقالُ له: «صراطٌ مستقيم»، ولسنا نريدُ المبالغةَ في قولٍ من قال: «اهدنا الصراطَ المستقيم» أي: الصراطَ الذي قد شاعتْ استقامته وتُعولتْ في ذلك طريقته، فإنَّ قليلَ هدايتِكَ لنا زالكٌ؛ وزاد في حُسنِ التنكيرِ ما دَخَلَهُ من المعنى، وهو أديمُ هدايتِكَ لنا فإنك إذا فعلت ذلك بنا فقد هَدَيْتَنَا إلى صراطِ مستقيم، فَجَرَى حينئذٍ مَجْرَى قولك: لئن لقيتَ رسولَ اللَّهِ ﷺ لتلقينَ منه رجلاً مُتناهياً في الخيرِ، ورسولاً جامعاً لسُبلِ الخيرِ، فقد آل إلى معنى التجريد ^(٣)، وأنشد أبو علي:

أفَاءتْ بنو مروان ظلماً دماءنا وفي الله إن لم يعدلوا حَكَمٌ عدل ^(٤)

واللهُ تعالى أعرَفُ المعارفِ، وقد سباه الشاعرُ حَكَمًا عدلاً، فأخرجَ اللفظَ مخرجَ التنكيرِ، فقد ترى كيفَ آلَ الكلامُ من لفظِ التنكيرِ إلى معنى التعريفِ، وعليه قوله عزَّ اسمُهُ: ﴿وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٨]. وإليه يُنظرُ قولُ «المصنَّف»: «على أنه أُرْسِلَ من بينِ الصُّرُطِ المستقيمةِ على صراطِ مستقيم لا يُكْتَنَهُ وَصْفُهُ» كأنه جعلَ الصراطَ المستقيمَ الصُّرُطَ ^(٥) كلها، ثم جَرَّدَ منها صِرَاطَ مُستقيم وهو هي، والله أعلم.

(١) في النسخة (ط): المراد، وهما بمعنى.

(٢) انظر ما سيأتي ص ٢١.

(٣) «المحتسب» (١: ٤١).

(٤) عزاه ابن الشجري في «الحماسة» ص ٤ لأبي الخطار الكلبى، وذكره ابن جنِّي في «الخصائص» (٢): (٤٧٧).

(٥) في النسخِ الخطية: «الصراط» والجادة ما هو مثبت، وكلامُ الزمخشريِّ دالٌّ عليه.

ووصف ما جاء به من الشريعة، فجمع بين الوصفين في نظام واحد، كأنه قال: إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت، وأيضاً فإن التنكير فيه دل على أنه أرسل من بين الصراط المستقيمة على صراط مستقيم لا يكتنه وصفه. وقُرى: (تنزيل العزيز الرحيم) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وبالنصب على: أعني، وبالجر على البدل من ﴿القرآن﴾. ﴿قوماً ما أنذروا آباؤهم﴾: قوماً غير مُنذِر آباؤهم على الوصف، ونحوه قوله: ﴿لئنذر قوماً ما أنذروا من نذير من قبلك﴾ [القصص: ٤٦]، ﴿وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾ [سبأ: ٤٤]، وقد فُسر ﴿ما أنذروا آباؤهم﴾ على إثبات الإنذار. ووجه ذلك: أن تجعل ﴿ما﴾ مصدرية: لتندر قوماً إنذار آباؤهم، أو موصولة منصوبة على المفعول الثاني: لتندر قوماً ما أنذره آباؤهم من العذاب، كقوله تعالى: ﴿إننا أنذرتكم عذاباً قريباً﴾ [النبا: ٤٠]. فإن قلت: أي فرق بين تعلقي قوله: ﴿فهم غفلون﴾ على التفسيرين؟ قلت: هو على الأول متعلق بالنفي، أي: لم يُنذروا فهم غافلون، على أن عدم إنذارهم هو سبب غفلتهم، وعلى الثاني: بقوله: ﴿إنك لمن المرسلين﴾ لتندر، كما تقول: أرسلتك إلى فلان لتنذره، فإنه غافل، أو: فهو غافل. فإن قلت: كيف يكونون مُنذرين غير مُنذرين لمناقضة هذا ما في الآي الأخر؟ قلت: لا مناقضة؛ لأن الآي في

قوله: (وقرى: «تنزيل») قرأ حفص وابن عامر وحمزة والكسائي: بالنصب، والباقون بالرفع^(١). قال أبو البقاء: «تنزيل العزيز» أي: هو تنزيل، والمصدر بمعنى المفعول، أي: مُنزل العزيز، ويُقرأ بالنصب على أنه مصدر، أي: نُزل تنزيلاً، وبالجر أيضاً صفة للقرآن، وقوله: ﴿لئنذر﴾ يجوز أن يتعلق بـ ﴿تنزيل﴾، وأن يتعلق بمعنى قوله: ﴿من المرسلين﴾ أي: مُرسَل لتندر.

قوله: (أو موصولة منصوبة على المفعول الثاني) وعلى النافية كان صفة لـ «قوم»، وعلى المصدرية مفعولاً مطلقاً.

قوله: (كيف يكونون مُنذرين غير مُنذرين؟) هذا السؤال وارد على ترتيب من ذهب

(١) لتبام الفائدة انظر: «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (٢: ٢١٤).

نَفِي إِذَارِهِمْ لَا فِي نَفِي إِذَارِ آبَائِهِمْ، وَأَبَاؤُهُمُ الْقُدَمَاءُ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَكَانَتِ النَّذَارَةُ فِيهِمْ. فَإِنْ قُلْتَ: فِي أَحَدِ التَّفْسِيرَيْنِ أَنَّ آبَاءَهُمْ لَمْ يُنذَرُوا، وَهُوَ الظَّاهِرُ، فَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟ قُلْتُ: أُرِيدُ آبَاؤَهُمُ الْأَدْنَوْنَ دُونَ الْأَبَاعِدِ. ﴿الْقَوْلُ﴾: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، يَعْنِي: تَعَلَّقَ بِهِمْ هَذَا الْقَوْلُ وَثَبَتْ عَلَيْهِمْ وَوَجِبَ؛ لِأَنَّهُمْ مَمَّنْ عَلِمَ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ عَلَى الْكُفْرِ.

[﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [٨-٩]

ثم مثل تصميمهم على الكفر، وأنه لا سبيل

إلى إثبات الإنذار، وأن «ما» مصدرية أو موصولة. يعني: دَلَّ عَلَى إِثْبَاتِ الْإِنذَارِ كَمَا قُلْتَ: لَتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ، أَوْ مَا أُنذِرَهُ آبَاؤُهُمْ، وَدَلَّ قَوْلُهُ: ﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الفصل: ٤٦] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤] ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] عَلَى أَنَّ الْإِنذَارَ لَمْ يَوْجَدْ رَأْسًا. وَأَجَابَ: أَنَّ الْآيَاتِ لَمْ تَدَلَّ إِلَّا عَلَى نَفِي إِذَارِهِمْ، أَمَّا عَلَى نَفِي إِذَارِ آبَائِهِمْ فَلَا يُشَكُّ فِي أَنَّ التَّفْسِيرَيْنِ مُتَنَافِيَانِ لِدَلَالَةِ أَحَدِهِمَا أَنَّ آبَاءَهُمْ مَا أُنذَرُوا، وَالثَّانِي عَلَى أَنَّ آبَاءَهُمْ أُنذَرُوا. فَاجَابَ: أَنَّ الْمُرَادَ مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمُ الْأَقْرَبُونَ دُونَ الْقُدَمَاءِ.

قوله: (ثم مثل تصميمهم على الكفر)، الانتصاف: يَكُونُ تَصْمِيمُهُمْ عَلَى الْكُفْرِ مُشَبَّهًا بِذِي الْأَغْلَالِ، وَاسْتِكْبَارُهُمْ مُشَبَّهًا بِالْإِقْمَاحِ، لِأَنَّ الْمُقْمَحَ لَا يُطَاطَعُ رَأْسُهُ^(١).

وقوله: ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ تَمَّةٌ لِلزُّومِ الْإِقْمَاحِ، وَعَدَمُ النَّظَرِ فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ مُشَبَّهًا بِالسَّدِّ مِنْ خَلْفِهِمْ، وَعَدَمُ النَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ الْمُسْتَقْبَلَةِ مُشَبَّهًا بِسَدِّ مِنْ قَدَامِهِمْ.

ونقل صاحب «الفرائد» عن صاحب «اليسير»: الْأَغْلَالُ مَعَ الْأَيْدِي مَجْمُوعَةٌ إِلَى الْأَذْقَانِ: عِبَارَةٌ عَنْ مَنَعِ التَّوْفِيقِ حِينَ كَانُوا مُتَكَبِّرِينَ مُسْتَقْبَلِينَ لِلْحَقِّ، لِأَنَّ التَّكَبُّرَ يُوصَفُ

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ٥).

إلى ازعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين؛ في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوّه، ولا يطأطئون رؤوسهم له، وكالحاصلين بين سدّين لا يبصرون ما قدّامهم ولا ما خلفهم، في أن لا تأمل لهم ولا تبصّر، وأنهم مُتعامون عن النظر في آيات الله. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾؟ قلت: معناه: فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها؛ وذلك أن طوق الغل الذي في عنق المغلول، تكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود، نادراً من الحلقة إلى الذقن، فلا يُخلّيه يطأطئ رأسه ويوطئ قدّاله، فلا يزال مُقمحاً. والمقمح: الذي يرفع رأسه ويغضّ بصره. يقال: قمح البعير فهو قامح: إذا روي فرفع رأسه، ومنه: شها قماح؛ لأن الإبل ترفع رؤوسها عن الماء؛ لبرده فيها، وهما الكائونان.

بانتصاب العنق، والمتواضع يُوصف بضده، قال تعالى: ﴿فَطَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَمَّا خَضَعِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦].

قوله: (إلى ازعوائهم)، أي: امتناعهم وإمساكهم، يقال: ارعوى عن القبيح: إذا كفّ عنه.

قوله: (نادراً من الحلقة إلى الذقن)، الأساس: ندر: نادر من الجبل: إذا خرج ونتاج، ونذر من بيته: خرج.

قوله: (والمقمح: الذي يرفع رأسه)، الراغب: القمح: رفع الرأس لسفّ الشيء، ويُسمى السويق من القمح - أي البرّ - قميحه، ثم يقال لرفع الرأس كيف ما كان قمح، وقمّح البعير رأسه وأقمّحت البعير: شدّت رأسه إلى خلف، وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ تشبيه بذلك، ومثّل لهم، وقصد إلى وصفهم بالتأبّي عن الانقياد للحق والتأبّي عن الإنفاق في سبيل الله، وقيل: إشارة إلى حالهم يوم القيامة إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل^(١).

(١) «مفردات القرآن» ص ٦٨٣.

ومنه: اقتمحتُ السَّوِيقَ. فَإِنْ قُلْتَ: فما قولك فيمن جعل الضميرَ للأيدي، وزَعَمَ أَنَّ الغُلَّ لَمَّا كَانَ جامِعاً لليدِ والعُنُقِ - وبذلك يسمَّى جامِعَةً - كَانَ ذِكْرُ الأعناقِ دالًّا على ذِكْرِ الأيدي؟ قُلْتَ: الوجهُ ما ذَكَرْتُ لك، والدليلُ عليه: قوله: ﴿فَهُمْ مُقَمَّحُونَ﴾، ألا ترى كيف جعل الإقحاحَ نتيجةَ قوله: ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾؟ ولو كان الضميرُ للأيدي لم يكن معنى التسبُّبِ في الإقحاحِ ظاهراً، على أَنَّ هذا الإضمارَ فيه ضربٌ من التعسُّفِ،

قوله: (اقتَمَحْتُ السَّوِيقَ). عن بعضهم: أقمحتُ الدواء: إذا ألقىته في فمك، ويقال: اقتمحتته؛ أي: أشفقتة، وذلك إنها يكونُ عند رفع الرأس.

قوله: (فما قولك فيمن جعل الضميرَ للأيدي؟) قال محيي السنة: فهي كنايةٌ عن الأيدي وإن لم يُجْر لها ذِكْرٌ، لأن الغلَّ يجمَعُ اليدَ إلى العنق. وقال الزجاج بعد ما ذَكَر نحواً من هذا: ولم تُذكَر الأيدي إيجازاً واختصاراً، لأن الغلَّ يتضمَّنُ اليدَ والعنقَ^(١)، ومثله قول الشاعر:

وما أدري إذا يَمُمْتُ أرضاً أريد الخيرَ أيُّهما يَلِينِي
الخيرُ الذي أنا أبتغيه أم الشرُّ الذي هو يبتغيه؟^(٢)

فذكر الخيرَ وحده، وقد عَلِمَ أَنَّ الخيرَ والشرَّ مُعَرَّضانِ للإنسان، ونحوه قوله تعالى: ﴿سَرَّيْلَ تَقِيحِكُمُ الْوَحْرَ﴾ [النحل: ٨١]^(٣).

قوله: (ولو كان الضميرُ للأيدي لم يكن معنى التسبُّبِ في الإقحاحِ ظاهراً)، الانتصاف: ويحتملُ أن تكونَ الفاءُ للتعقيبِ كقوله: ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾، أو للتسبُّبِ، فإنَّ ضغَطَ اليدِ مع العُنُقِ يُوجبُ الإقحاحَ، لأنَّ اليدَ تبقى مُمسكةً بالغلِّ تحتَ الدَّفَنِ رافعةً لها، ولأنَّ اليدَ إذا كانت مُطلقةً كانت راحةً للمغلُولِ، فربما تحيَّلَ بها على فكاك الغلِّ فيكونُ مُنبهاً على انسدادِ بابِ الحيلة^(٤).

(١) «معالم التنزيل» (٧: ٩).

(٢) البيتان للمثقَّب العبدى من نونته المشهورة، انظر: «الفضليات» ص ٢٩٢.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٢٧٩-٢٨٠).

(٤) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ٥).

وتركُ الظاهر الذي يدَعُو المعنى إلى نفسه إلى الباطن الذي يَجْفُو عنه تركُ للحقِّ الأبلج إلى الباطل اللَّجْلَج. فإن قلت: فقد قرأ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: (في أيديهم)، وابنُ مسعود: (في أيماهم)، فهل تجوِّز على هاتين القراءتين أن يُجْعَلَ الضميرُ للأيدي أو للأيمان؟ قلت: يأبى ذلك وإن ذهب الإضمارُ المتعسِّفُ ظهورُ كونِ الضميرِ للأغلال، وسدادُ المعنى عليه كما ذكرتُ. وقرئ: ﴿سَدًّا﴾ بالفتح والضم، وقيل: ما كان من عمَلِ الناسِ فبالفتح، وما كان من خَلْقِ الله فبالضم. ﴿فَأَغَشَيْنَهُمْ﴾: فأغشينا

قوله: (ظهورُ كَوْنِ الضميرِ للأغلال) فاعلُ «يأبى»، و«سدادُ المعنى» عطفٌ على «ظهور».

قال الزجاج: مَنْ قرأ «في أيماهم» أو «في أيديهم» المعنى واحد، وذلك أن الغلَّ لا يكونُ في العنقِ دونَ اليدِ ولا في اليدِ دونَ العنقِ، فالمعنى: إنا جعلنا في أعناقهم وفي أيماهم أغلالاً، ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ كنايةٌ عن الأيدي لا عن الأذقان^(١) لأن الغلَّ يجعلُ اليدَ إلى^(٢) الذَّقْنِ، والعنقُ هو مُقارِبٌ للذَّقْنِ لا^(٣) يجعلُ الغلَّ العنقَ إلى الذَّقْنِ^(٤).

قوله: (وقرئ: ﴿سَدًّا﴾ بالفتح والضم) بالفتح: حمزةٌ والكسائيُّ وحفص، والباقون: بالضم^(٥).

الراغب: أصلُ السَّدِّ مصدرٌ: سَدَدْتُهُ. وشبَّه به الموانعُ، والسَّدَّةُ كالظَّلَّةِ على الباب، وقد يُعبَّرُ به عن البابِ كما قيل: الفقيرُ الذي لا يُفْتَحُ له سُدُّ السلطان، والسَّداد والسَّدَدُ: الاستقامة، والسَّدادُ: ما يُسَدُّ به الثَّلْمَةُ والثَّغْرُ، واستُعيِرَ لما يُسَدُّ به الفقر^(٦).

(١) في النسخة (ح) و(ط): «الأعناق» والجادة ما هو مثبت، وهو على الصواب في «معاني القرآن».

(٢) في (ح) و(ف): «على».

(٣) في (ط): «مقارِبٌ لا».

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٢٧٩).

(٥) لتمام الفائدة انظر: «حجّة القراءات» ص ٥٩٦.

(٦) «مفردات القرآن» ص ٤٠٣.

أبصارهم، أي: غطيناها وجعلنا عليها غشاوة من أن تطمخ إلى مرئي. وعن مجاهد: ﴿فَاعْشَيْنَهُمْ﴾: فألبسنا أبصارهم غشاوة. وقرئ بالعين؛ من العشى. وقيل: نزلت في بني مخزوم؛ وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً يصلي ليرضخن رأسه، فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدهمغه، فلما رفع يده أثبتت إلى عنقه ولزق الحجر بيده، حتى فكوه عنها بجهد، فرجع إلى قومه فأخبرهم، فقال مخزومي آخر: أنا أقتله بهذا الحجر، فذهب، فأعمى الله بصره.

[﴿ وَسَاءَ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿ ١٠-١١ ﴾]

فإن قلت: قد ذكر ما دل على انتفاء إيمانهم مع ثبوت الإنذار، ثم قفاه بقوله: ﴿ إِنَّمَا ﴾، وإنما كانت تصح هذه التفسيرية لو كان الإنذار منفيًا. قلت: هو كما قلت،

قوله: (وقرئ بالعين؛ من العشى). قال ابن جني: هي قراءة ابن عباس وعكرمة وغيرهما من: عسى يعشى؛ إذا ضعف بصره، فعشي وأعشيته، كعمي وأعميته. وأما قراءة العامة فهي على حذف المضاف، أي: فأعشينا أبصارهم. وينبغي أن يعلم أن (ع ش ي) يلتقي معناها مع (غ ش ي)^(١)، فإن العشاوة على العين كالغشي على القلب، كل منهما يركب صاحبه ويتجلله، غير أنهم خصصوا ما على العين بالواو وما على القلب بالياء من حيث كانت الواو أقوى من الياء، وما يبدو للناظر من العشاوة على العين أبدى إلى الحس مما يخامر القلب، ولهذا في هذه اللغة نظائر ما لو أودع كتاباً لكبر حجمه^(٢).

قوله: (وإنما كانت تصح هذه التفسيرية لو كان الإنذار منفيًا)، الانتصاف: في سؤاله سوء أدب، وكان ينبغي أن يقال: ما وجه ذكر الإنذار الثاني^(٣)؟

(١) في «المحتسب»: (غ ش و)، بالواو. ولعل ما أثبتناه هو الأشبه بالصواب.

(٢) «المحتسب» (٢: ٢٠٤-٢٠٥).

(٣) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٦: ٤).

ولكن لما كان ذلك نفيًا للإيمان مع وجود الإنذار، وكان معناه: أن البغية المرومة بالإنذار غيرُ حاصلة، وهي الإيمان؛ فقي بقوله: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ على معنى: إنما تحصل البغية بإنذارك من غير هؤلاء المنذرين، وهم المتبعون للذكر - وهو القرآن، أو الوعظ - الخاشون ربهم.

وقلت: توجيه السؤال أن قوله: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ يستدعي سبق عدم الإنذار، أي: إنك لا تُنذِرُ مَنْ لم يتبع الذكر، وإنما تُنذِرُ مَنْ اتبعه، فكيف أثبت الإنذار بقوله: ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ ءَلَمْ تُنذِرْتَهُمْ ﴾ ثم عقبه بقوله: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾؟ وحاصل الجواب: أنه نزل وجود الإنذار الذي لم يُفَضَّ إلى المقصود منزلة العدم، كأنه قيل: ما أنذرت أولئك لأنهم لم يؤمنوا، إنما تُنذِرُ هؤلاء الذين انتفعوا به.

قال صاحب «المفتاح»^(١) - في قوله: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنِ يَخْشَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٥] - لا يخفى على أحد ممن به مُسَكَّةٌ أن الإنذار إنما يكون إنذاراً ويكون له تأثيرٌ إذا كان مع من يؤمن بالله والبعث والقيامة وأهوالها^(٢).

والنظم يساعد عليه، لأن أصل الكلام واردٌ على تقسيم المنذرين، وذلك أن قوله: ﴿ إِنَّا لَنِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرُوا أَبَاؤَهُمْ ﴾ مطلق شاملٌ في المنذرين الذين لا ينفع فيهم الإنذار وفيمن ينفع فيهم ذلك، ثم قَسَمَ المنذرين في قوله: ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ ﴾ على قسمين، وحكم على أكثرهم أنهم لا يؤمنون، وأكد ذلك بالجملة القسمية، وسجله بسبق التقدير كما تعلق بهم هذا القول، أي: قوله: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٩] وثبت عليهم ووجب، ثم علل ذلك بخلق الكفر فيهم وجعلهم مُصمِّمين عليه، وأذن حبيبه صلوات الله عليه بالإياس عنهم بقوله: ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، وجعله كالتخلص إلى ذكر الفريق الأقلين وهم المتبعون للذكر الخاشون ربهم، ولهذا التقرير البليغ والتقدير المُقتضي ينبغي أن يستسلم العاقل ولا يُكابِر النصَّ القاطع.

(١) في (ح) و(ف): «وقال الزجاج»، ولم أجده في كتابه «معاني القرآن وإعرابه».

(٢) «مفتاح العلوم» ص ٢٩٤.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ

مُبِينٍ ﴿ ١٢ ﴾

نحْيي الموتى: نبعثهم بعد مماتهم. وعن الحسن: إحيائهم: أن يُخرجهم من الشرك

قوله: (وعن الحسن: إحيائهم: أن يُخرجهم) يعني: يجوز أن يُحمل ﴿يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ على الحقيقة كما سبق، وعلى المجاز كما ذهب إليه الحسن.

اعلم أن التعريف في ﴿الْمَوْتَى﴾ يحتمل أن يُجرى على الجنس وعلى العهد. وعلى الثاني: إما أن يُراد بهم المصمّمون على الكفر المعني بقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أو المنتفعون بالإنذار في قوله: ﴿مَنْ أَتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾، أو الفريقان جميعاً، وقول الحسن مُنزّل على الثالث. وتقريره: أنه تعالى لما أمره صلواتُ الله عليه وسلامه بإنذار هؤلاء وبشارتهم بالمغفرة والأجر الكريم أتمه لسائل أن يسأل: لم خص هؤلاء بهذين الأمرين؟ فأجيب لأننا نخرجهم من الشرك إلى الإيمان ونكتب ما قدّموا وآثارهم من الخير والشر فنغفر سيئاتهم ونُثيبهم على حسناتهم.

وتقرير الوجه الثاني هو: أن الله تعالى لما ذكر ما دلّ على انتفاء إيمان أولئك المصمّمين، ورفاه بما دلّ على انتفاع الإنذار في حق هؤلاء، ورثب على الثاني البشارة بالمغفرة والأجر، قيل: إذا كان حُكْم هؤلاء هذا فما حُكْم أولئك المصمّمين؟ فقيل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ الآية. وتحرير المعنى: اشتغل بمن ينتفع بإنذارك وبشرهم بالفوز بالبعثتين ودغ أولئك الموتى إلينا^(١)، فإننا نبعثهم ثم نُنبئهم بما عملوا كما قال: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]، قال المصنف: هؤلاء الموتى - يعني الكفرة - يبعثهم الله ثم إليه يُرْجَعُونَ، فحينئذ يسمعون، وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى إسماعهم^(٢).

وأما تقرير الجمع أو الجنس فمحمول على الفريقين وعلى أعمّ منهم، فيقدّر الاستئناف على ما يقتضيه المقام، والله أعلم.

(١) سقط لفظ «إلينا» من النسخة (ف).

(٢) انظر: (٦: ٧٦).

إلى الإيمان. ﴿وَنَكَّسْتُ مَا﴾ أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها، وما هلكوا عنه من أثر حسن، كعلم علموه، أو كتاب صنّفوه، أو حبس أحبسوه، أو بناء بنوه: من مسجد، أو رباط، أو قنطرة، أو نحو ذلك؛ أو سيئ؛ كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين، وسكة أخذتها فيها تخسيرهم، وشيء أحدث فيه صد عن ذكر الله؛ من الحان وملاه، وكذلك كل سنة حسنة أو سيئة يستن بها، ونحوه قوله عز وجل: ﴿يَبْنُوا لِلْإِنْسَانِ يَوْمَئِذٍ مِمَّا قَدَّمُوا لِأَنفُسِهِمْ﴾ [القيامة: ١٣] أي: قدّم من أعماله، وأخر من آثاره. وقيل: هي آثار المشائين إلى المساجد. وعن جابر: أردنا النقلة إلى المسجد والبقاع حوله

قوله: (وما هلكوا عنه) أي: ماتوا وتركوا، وهو عطف على «ما أسلفوا»، وقوله: «أثر حسن»^(١) نشر لقوله: «ما أسلفوا»، وقوله: «أو سيئ كوظيفة» نشر لقوله: «وما هلكوا».

قوله: (أو حبس)^(٢) أي: وقف. النهاية: يقال: حبست أحبس حبساً، وأحبست أحبس إحباساً، أي: وقفت. والاسم الحبس بالضم.

قوله: (أو سكة)^(٣) أخذتها فيها تخسيرهم) أي: فيها ذهب مال المسلمين. الأساس: ومن المجاز: أخذ في هذه السكة أي: في هذه الطريقة وأنت على سكة واضحة. وعن بعضهم: السكة: الحديد التي يخرت بها. وسكة الدراهم، وطريقة النخل، وواحد السكك سكة إذا أثبتته.

قوله: (وعن جابر) الحديث من رواية الترمذي عن أبي سعيد قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ [يس: ١٢]، فقال رسول الله ﷺ: «إن آثاركم تُكْتَبُ» فلم يتقلوا^(٤).

(١) في (ج) و(ف): «من الرحمن».

(٢) في النسخة (ط): «حبس»، وهو صواب، ولكنه مخالف لنص «الكشاف».

(٣) كذا في الأصول الخطية، وكذا هو في نص «الكشاف» من (ط)، لكن في الأصل الخطي من «الكشاف» وفي المطبوع: «وسكة» بالواو.

(٤) حديث جابر بن عبد الله أخرجه مسلم (٦٦٥)، أما حديث أبي سعيد الخدري فقد أخرجه الترمذي (٣٢٢٦) وقال: هذا حديث حسن غريب. وفي الباب عن أنس عند البخاري (٦٥٥).

خالية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتانا في ديارنا، وقال: «يا بني سلمة، بلغني أنكم تريدون الثقل إلى المسجد»، فقلنا: نعم، بعد علينا المسجد، والبقاع حوله خالية، فقال: «عليكم دياركم، فإنما يكتب آثاركم». قال: فما ودنا حضرة المسجد لما قال رسول الله ﷺ. وعن عمر بن عبد العزيز: لو كان الله مُغفلاً شيئاً لأغفل هذه الآثار التي تُعفيها الرياح. والإمام: اللوح. وقرأ: (ويكتب ما قدموا وآثارهم) على البناء للمفعول، (وكل شيء) بالرفع.

[﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ * قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ سَمَاءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ * ١٣ - ١٥]

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا﴾: ومثل لهم مثلاً، من قولهم: عندي من هذا الضرب كذا، أي: من هذا المثال، وهذه الأشياء على ضرب واحد، أي: على مثال واحد. والمعنى: واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية، أي: اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية. والمثل الثاني بيان للأول. وانتصاب ﴿إِذ﴾ بأنه بدلٌ من ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾.

قوله: (وهذه الأشياء على ضرب واحد) أي: مثال واحد.

ذكر في «الأساس» في قسم المجاز: هم ضربائي، وقولهم: هو ضربُه وضربُه، أي: مثله.

قوله: (والمثل الثاني بيانٌ للأول). قال أبو البقاء: قيل: التقدير: واذكر مثلاً أصحاب القرية، والثاني بدلٌ من الأول، والظاهر أن «اضرب» بمعنى: اجعل، ف﴿أَصْحَابَ﴾: مفعول أول، و﴿مَثَلًا﴾ مفعول ثانٍ^(١)، واختار مكي هذا. وقال: أصح ما يُعطي القياس فيه هذا^(٢).

(١) «البيان في إعراب القرآن» (٢: ١٠٧٩).

(٢) «مشكل إعراب القرآن» (٢: ٦٠٠).

والقرية: أَنْطَاكِيَّةَ. ﴿وَالْمُرْسَلُونَ﴾: رُسل عيسى صلوات الله عليه إلى أهلها، بَعَثَهُمْ دُعَاةَ إِلَى الْحَقِّ، وَكَانُوا عَبْدَةَ أوثان، أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ اثْنَيْنِ، فَلَمَّا قَرَّبَا مِنَ الْمَدِينَةِ رَأَى شَيْخًا يَرعى غُنْيَاتٍ لَهُ، وَهُوَ حَبِيبُ النَّجَّارِ صَاحِبُ يَاسِينَ، فَسَأَلَهُمَا فَأَخْبَرَاهُ، فَقَالَ: أَمَعَكُمَا آيَةٌ؟ فَقَالَا: نَشْفِي الْمَرِيضَ وَنُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ، وَكَانَ لَهُ وَلَدٌ مَرِيضٌ سِتَيْنِ، فَمَسَحَاهُ، فَقَامَ، فَأَمَّنَ حَبِيبٌ، وَفَشَا الْخَبْرَ، فَشَفِيَ عَلَى أَيْدِيهِمَا خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَرُقِّيَ حَدِيثُهُمَا إِلَى الْمَلِكِ، وَقَالَ لَهُمَا: أَلْنَا إِلَهُ سِوَى آلِهَتِنَا؟ قَالَا: نَعَمْ، مَنْ أَوْجَدَكَ وَأَهْتَكَ، فَقَالَ: حَتَّى أَنْظَرَ فِي أَمْرِكُمَا، فَتَبِعَهُمَا النَّاسُ وَضَرَبُوهُمَا. وَقِيلَ: حُبْسًا. ثُمَّ بَعَثَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامَ شَمْعُونَ؛ فَدَخَلَ مَتَنَكَّرًا، وَعَاشَرَ حَاشِيَةَ الْمَلِكِ حَتَّى اسْتَأْذَنُوا بِهِ، وَرَفَعُوا خَبْرَهُ إِلَى الْمَلِكِ، فَأَنْسَبَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ ذَاتَ يَوْمٍ: بَلَّغْنِي أَنَّكَ حَبَسْتَ رَجُلَيْنِ، فَهَلْ سَمِعْتَ مَا يَقُولَانِهِ؟ فَقَالَ: لَا، حَالُ الْغَضَبِ بَيْنِي وَبَيْنَ ذَلِكَ، فَذَعَاهُمَا، فَقَالَ شَمْعُونَ: مَنْ أَرْسَلَكُمَا؟ قَالَا: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَلَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ، فَقَالَ: صِفَاهُ وَأَوْجِزَا. قَالَا: يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيُحْكَمُ مَا يُرِيدُ. قَالَ: وَمَا آيَتُكُمَا؟ قَالَا: مَا يَتَمَنَّى الْمَلِكُ، فَذَعَا بَغْلَامَ مَطْمُوسِ الْعَيْنَيْنِ، فَذَعَوْا اللَّهَ حَتَّى انشَقَّ لَهُ بَصَرٌ، وَأَخَذَا بُنْدُوقَتَيْنِ فَوَضَعَاهُمَا فِي حَدَقَتَيْهِ فَكَانَتَا مُقْلَتَيْنِ يَنْظُرُ بِهِمَا، فَقَالَ لَهُ شَمْعُونَ: أَرَأَيْتَ لَوْ سَأَلْتَ إِلَهَكَ حَتَّى يَصْنَعَ مِثْلَ هَذَا فَيَكُونُ لَكَ وَلَهُ الشَّرْفُ. قَالَ: لَيْسَ لِي عِنكَ سِرٌّ، إِنَّ إِلَهَنَا لَا يُبْصِرُ وَلَا يَسْمَعُ وَلَا

وقد ذكرنا تعليقه في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ [النحل: ١١٢] وهو اختيار المصنف هناك^(١).

قوله: (صاحب ياسين) روى صاحب «الجامع» عن رسول الله ﷺ أنه قال حين قتل ثقيف عروة بن مسعود: «مثل عروة مثل صاحب يس، دعا قومه إلى الله تعالى فقتلوه»، ولعل معنى النسبة مجيء ذكره في هذه السورة، وقريب منه تسمية السورة بالبقرة ونحوها لذكرها فيها.

(١) انظر: (٩: ٢٠٧).

يضرُّ ولا ينفع، وكان شمعونُ يدخل معهم على الصَّئمِ فيصلِّي ويتضرَّعُ ويحسبون أنه منهم، ثم قال: إِنَّ قَدَرَ إِلَهُكُمَا عَلَى إِحْيَاءِ مَيِّتِ آمَنَّا بِهِ، فَدَعَا بِغِلامٍ مَاتَ مِنْ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، فَقام وقال: إِنِّي أُدخِلْتُ فِي سَبْعَةِ أوديةٍ مِنَ النَّارِ، وَأنا أَحَدُكُمْ مَا أَنْتُمْ فِيهِ فَأَمِنُوا، وقال: فُتِحَتْ أَبْوابُ السَّماءِ فرأيت شابًّا حَسَنَ الوِجْهِ يَشْفَعُ لِهؤلاءِ الثَّلاثَةِ، قال المَلِكُ: وَمَنْ هُمْ؟ قال: شمعونُ وهذان، فَتَعَجَّبَ المَلِكُ. فلما رأى شمعونُ أَنَّ قولَه قد أثارَ فِيهِ نَصَحَه، فَأَمَنَ، وَأَمَنَ قومٌ، وَمَنْ لَمْ يَؤْمِنْ صَاحَ عَلَيْهِم جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهَلَكُوا. ﴿فَعَزَّزْنَا﴾: ففَوَّيْنَا. يقال: المَطَرُ يُعَزِّزُ الأَرْضَ: إِذا بَدَّها وشَدَّها، وتَعَزَّزَ الحِمُّ الناقَةَ. وَقرئَ بِالتَّخْفِيفِ مِنْ عَزَّه يَعُزُّه: إِذا غلبه، أَي: فَغَلَبْنَا وقَهَرْنَا، ﴿بِثَالِثٍ﴾ وهو شَمْعون. فَإِنْ قُلْتَ: لَمْ تُرِكَ ذِكْرُ المَفْعُولِ بِهِ؟ قُلْتَ: لِأَنَّ الغَرَضَ ذِكْرُ المَعَزَّزِ بِهِ وهو شَمْعونُ، وما لَطَّفَ فِيهِ مِنَ التَّدْبِيرِ حَتَّى عَزَّ الحَقُّ وَذَلَّ الباطِلُ، وَإِذا كانَ الكَلَامُ مَنْصِبًا إِلى غَرَضٍ مِنَ الأَغْراضِ جُعِلَ سِياقُهُ لَهُ وَتَوَجَّهَ إِليه، كَأَنَّ ما سِوَاهُ مَرفُوضٌ مَطْرَحٌ، ونظيرُهُ قولُكَ: حَكَمَ السُّلطانُ اليَوْمَ بِالحَقِّ، الغَرَضُ المُسَوِّقُ إِليه: قولُكَ: بِالحَقِّ؛

قوله: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾: ففَوَّيْنَا، الراغب: العِزَّةُ: حالَةٌ مانِعَةٌ لِلإنسانِ مِنْ أَنْ يُغَلَبَ، مِنْ قولِهِم: أَرْضٌ عَزاز. أَي: صُلْبَةٌ، وَتَعَزَّزَ اللَحْمُ: اشْتَدَّ وَعَزَّ، كَأَنَّهُ حَصَلَ فِي عَزازٍ يَصْعَبُ الوِصُولُ إِليه، بِقولِهِم: تَظَلَّفَ، أَي: حَصَلَ فِي ظَلْفٍ مِنَ الأَرْضِ، وَالعَزِيزُ: الَّذِي يَقْهَرُ وَلَا يُقْهَرُ، وَعَزَّ المَطَرُ الأَرْضَ: غَلَبَها، وَعَزَّ الشَّيْءُ: قَلَّ، اعتبارًا بِما قِيلَ: كُلُّ مَوْجُودٍ مَمْلُولٍ، وَكُلُّ مَفْقُودٍ مَطْلُوبٍ^(١).

قوله: (وَقرئَ بِالتَّخْفِيفِ) أبو بكر: بِتَخْفِيفِ الزَّايِ، وَالباقونَ: بِتَشْدِيدِها^(٢)، وَهما لُغتانِ كَشَدَّه وَشَدَّدَه، أَي: قَوَّيْنَاهُما.

قوله: (لَمْ تُرِكَ [ذِكْرُ] المَفْعُولِ بِهِ) أَي: لَمْ يُقَلَّ: فَعَزَّزْنَاهُما بِثالِثٍ.

(١) «مفردات القرآن» ص ٥٦٣.

(٢) ولتأيم الفاتحة انظر: «حجّة القراءات» ص ٥٩٧.

فلذلك رفضت ذكّر المحكوم له والمحكوم عليه. إنما رُفِعَ ﴿بَشْرٌ﴾ هنا ونُصِبَ في قوله: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١]؛ لأنَّ «إِلَّا» تنقُضُ النفي، فلا يبقى لـ«ما» المشبهة بـ«ليس» شبهة، فلا يبقى له عمل. فإن قلت: لم قيل: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ أولاً، و: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ آخرًا؟ قلت: لأنَّ الأوَّل ابتداءٌ إخبار، والثاني جوابٌ عن إنكار.

[﴿قَالُوا رَبَّنَا يَا عَلِمُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ١٦-١٧]

وقوله: ﴿رَبَّنَا يَا عَلِمُوا﴾ جار مجرى القسم في التوكيد، وكذلك قوله: شَهِدَ اللهُ، وَعَلِمَ اللهُ. وإنما حَسُنَ منهم هذا الجوابُ الوارد على طريق التوكيد والتحقيق مع قولهم: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: الظاهرُ المكشوف بالآياتِ الشاهدة لصحته؛ وإلا فلو قال المدَّعي: واللَّهِ إِنِّي لَصَادِقٌ فِيهَا ادَّعِي، ولم يُحْضِرِ البَيِّنَةَ؛ كان قبيحاً.

[﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾ ١٨-١٩]

قوله: (لأنَّ الأوَّل ابتداءٌ إخبار) فيه نظر، لأنَّ قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ يدلُّ على إنكارٍ سابق، ولا سيَّما وقد سبق ﴿أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾، فلا بُدَّ من كلامٍ كُذِّبَ فيه، والجُمْلَةُ الابتدائيةُ هي التي يُتَلَقَّى بها خالي الذهن، وتكونُ خُلُوعاً من المؤكِّدات.

قوله: (مع قولهم: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾) متعلِّقٌ بقوله: «وإنما حسن»، يريد: لولا قولهم: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ لم يحسن قولهم: ﴿رَبَّنَا يَا عَلِمُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾؛ لأنَّ هذا قول العاجز من الدليل الذي لم يبقَ له مُتَشَبِّهٌ يَتَشَبَّهُ به سوى هذه الكلمة، قال في قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣]: أي: لا تستشهدوا بالله، ولا تقولوا: اللهُ يشهدُ أن ما ندَّعيه حقُّ كما يقوله العاجز عن إقامة البَيِّنَةِ على صحَّةِ دَعْوَاه. وحينَ كان مُعْتَرِفاً به وهو أمارَةٌ على إقامة البَيِّنَةِ فَجَازَ وَحَسُنَ، لأنَّ البلاغَ إنما يكونُ مُبِيناً إذا كان مُؤكِّداً بالمعجزاتِ الظاهرة والآياتِ المشاهدة.

﴿تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾: تشاءمنا بكم؛ وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منهم نفوسهم، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه وآثروه وقبّلته طباعهم، ويتشأموا بما نَفَرُوا عنه وكرهوه، فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا: ببركة هذا، و: بشؤم هذا، كما حكى الله عن القبط: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وعن مشركي مكة: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء: ٧٨]. وقيل: حُبِسَ عنهم القَطْرُ فقالوا ذلك. وعن قتادة: إن أصابنا شيء كان من أجلكم. ﴿طَيَّرْكُمْ مَعَكُمْ﴾، وقرئ: (طَيَّرْكُمْ)، أي: سببُ شؤمكم معكم؛ وهو كفرهم، أو أسبابُ شؤمكم معكم؛ وهي كفرهم ومعاصيهم. وقرأ الحسن: (اطَيَّرْكُمْ) أي تطيّرْكم. وقرئ: ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ بهمزة الاستفهام وحرف الشرط، و: (إِن ذُكِّرْتُمْ) بالالف بينهما، بمعنى: أتطَيَّرُونَ إن ذُكِّرْتُمْ؟ وقرئ: (أَنَّ ذُكِّرْتُمْ)

قوله: ﴿تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ تشاءمنا بكم، الراغب: الطائر: كلُّ ذي جناح يسبح في الهواء، وتطَيَّرَ فلانٌ واطَيَّرَ، وأصله التفاؤل بالطير، ثم يُستعمل في كلِّ ما يُتفاءلُ به ويُتشاءمُ وقوله: (إنما طائرهم عند الله) أي: شؤمهم: ما قد أعدَّ الله لهم بسوء أعمالهم^(١).

قوله: (وقرئ: «اطَيَّرْكُمْ») قال الزجاج: طائرٌ وطَيَّرٌ بمعنى واحد، ولا أعلم أحداً قرأ «طَيَّرْكُمْ» بغير ألف^(٢).

قوله: (وقرئ: ﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ بهمزة الاستفهام وحرف الشرط) وهي المشهورة، وقرأ أبو عمرو وقالون وهشام: «أَيْنَ» بالالف بينهما، وهو استفهامٌ وشرطٌ محذوفُ الجواب، تقديره: أئن ذُكِّرْتُمْ، أي: وُعظِّمْتُمْ وُرُجِرْتُمْ عن الشرك تطيَّرْتُمْ؟

(١) «مفردات القرآن» ص ٥٢٨.

(٢) قد ذكر ابن خالويه أن الحسن البصري قد قرأ: «طَيَّرْكُمْ». انظر: «مختصر شواذ القرآن» ص ١٢٥، وزاد أبو حيان فذكر ابن هرمز، وعمرو بن عبّيد، وزر بن حُبَيْش. انظر: «البحر المحيط» (٩: ٥٤)، ثم قال: وقرأ الحسنُ فيما نُقِلَ: «اطَيَّرْكُمْ» مصدر اطَيَّرَ الذي أصله «تطَيَّرَ»، فأذغمت التاء في الطاء، فاجتلبت همزة الوصل في الماضي والمصدر. انتهى. وانظر كلامَ الزجاج في «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٢٨٢).

بهزمة الاستفهام و«أن» الناصية، بمعنى: أتظيّرتم لأن ذكّرتم؟ وقرئ: (أن)، و: (إن) بغير استفهام بمعنى الإخبار، أي: تظيّرتم لأن ذكّرتم، أو: إن ذكّرتم تظيّرتم. وقرئ: (أين ذكّرتم) على التخفيف، أي: شوؤمكم معكم حيث جرى ذكركم، وإذا شئتم المكان بذكركم كان بحلوهم فيه أشأم. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ في العصيان،

قوله: (وقرئ: «أن») إلى آخرها شواذ، قال ابن جني: قرأ الماچشون: «أن ذكّرتم» بهزمة واحدة مفتوحة مقصورة ولا ياء بعدها، والأعمش وأبو جعفر: «أين» بهزمة بعدها ياء ساكنة والنون مفتوحة. «ذكّرتم» مضمومة الذال خفيفة الكاف. أما «أن ذكّرتم» فمنصوبة الموضع بقوله: ﴿طَيَّرَكُمْ مَعَكُمْ﴾، فإتهم لما قالوا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أجيبوا: بل طائرکم معکم أن ذكّرتم، أي: هو معكم لأن ما ذكّرتم، فلم تذكروا ولم تنتهوا، فاكتمى بالسبب الذي هو التذكير من المسبب الذي هو الانتهاء، كما وضّعوا الطائر موضع مسببه وهو التشاؤم لما كانوا يألّفونه من تكاثرهم نعيق الغراب أو بروحه. وأما «أين ذكّرتم» أي: (١) حلّتم وكنتم ووجدتم فذكّرتم، فاكتمى بالمسبب الذي هو الذكّر من السبب الذي هو الوجود، و«أين» هاهنا شرط وجوابها محذوف لدلالة ﴿طَيَّرَكُمْ مَعَكُمْ﴾ عليه، أي: أين ووجدتم ووجد شوؤمكم معكم. ولا يجوز الوقف على هاتين القراءتين على ﴿مَعَكُمْ﴾، لاتصال «أن» و«أين» بها (٢)، لكن جاز على الاستفهام لأن الاستفهام يقطع ما قبله عما بعده (٣).

قوله: (وإذا شئتم المكان بذكركم). أي: هو من باب الكناية، وذلك أن أجري ذكركم في مكان دليل على أن المكان حامل على ذكركم لأماره أو أثر شوؤم منهم فيه، ويقرب منه قوله تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

قوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ في العصيان هذا مبني على أن الإضراب من قوله:

(١) من هنا بدأ سقط طويل في (ح)، ستأتي الإشارة إليه في نهايته بعد صفحات.

(٢) في النسخة (ف): لها. وهو على الجادة في «المحتسب».

(٣) «المحتسب» (٢: ٢٠٥-٢٠٦).

وَمِنْ ثَمَّ أَتَاكُمْ الشُّؤْمُ، لَا مِنْ قَبْلِ رُسْلِ اللَّهِ وَتَذَكِيرِهِمْ، أَوْ: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ فِي ضَلَالِكُمْ مَتَمَادُونَ فِي غِيِّكُمْ، حَيْثُ تَتَشَاءُ مُؤْنٌ بِمَنْ يَجِبُ التَّبَرُّكُ بِهِ مِنْ رُسْلِ اللَّهِ.

[﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * ءَأَتَّخِذُ

﴿ قَالُوا طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾، وَخَدَهُ. فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿إِنِ دُكِّرْتُمْ﴾ شَرْطًا جَزَاءً مَحذُوفٌ لِدَلَالَةِ ﴿تَطِيرْنَا بِكُمْ﴾، وَالشَّرْطُ وَالْجَزَاءُ مُعْتَرِضَةٌ، وَإِلَيْهِ أَشَارَ بِقَوْلِهِ: «أَتَطِيرُونَ إِنْ دُكِّرْتُمْ؟» أَثَبَتَ أَوْلَى ﴿طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ بِمَعْنَى: أَسْبَابُ شُؤْمِكُمْ مَعَكُمْ، وَهُوَ كُفْرُهُمْ وَمَعَاصِيهِمْ، وَهُوَ التَّقْدِيرُ الثَّانِي، وَأَكَّدَهُ بِالْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ، ثُمَّ أَضْرَبَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ أَي: مُسْرِفُونَ فِي عِصْيَانِكُمْ، فَمِنْ ثَمَّ أَتَاكُمْ الشُّؤْمُ لَا مِنْ قَبْلِ رُسْلِ اللَّهِ^(١). «أَوْ: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ فِي ضَلَالِكُمْ مُتَمَادُونَ» هَذَا مُبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ الْإِضْرَابَ مِنَ الْمَجْمُوعِ بِمَعْنَى: أَتَطِيرْتُمْ لِأَنَّ دُكِّرْتُمْ؟ وَإِلَى التَّلْفِيظِ أَشَارَ بِقَوْلِهِ: «حَيْثُ تَتَشَاءُ مُؤْنٌ» بِمَعْنَى: سَبَبُ شُؤْمِكُمْ - وَهُوَ كُفْرُهُمْ - لِأَجْلِ أَنْ دُكِّرْتُمْ فَلَمْ تَذَكَّرُوا وَلَمْ تَنْتَهُوا، وَهُوَ التَّقْدِيرُ الْأَوَّلُ، ثُمَّ أَضْرَبَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ أَي: مُسْرِفُونَ فِي ضَلَالِكُمْ، مُتَمَادُونَ فِي غِيِّكُمْ حَيْثُ تَتَشَاءُ مُؤْنٌ بِمَنْ يَجِبُ التَّبَرُّكُ بِهِ.

قال القاضي: ﴿إِنِ دُكِّرْتُمْ﴾ شَرْطٌ جَوَابُهُ مَحذُوفٌ، أَي: وَعِظْتُمْ تَطِيرْتُمْ أَوْ تَوَعَّدْتُمْ بِالرَّجْمِ وَالتَّعْذِيبِ؛ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادْتُمْكَمُ الْإِسْرَافُ فِي الْعِصْيَانِ. فَمِنْ ثَمَّ جَاءَ الشُّؤْمُ وَالْإِسْرَافُ فِي الضَّلَالِ، وَمِنْ ثَمَّ تَوَعَّدْتُمْ^(٢) وَتَشَاءُ مَعْنَى يَجِبُ أَنْ يُتَّبَرَكَ بِهِ^(٣).
وَأَمَّا مَا قَدَّرَهُ أَبُو الْبَقَاءِ: إِنْ دُكِّرْتُمْ ثُمَّ كَفَرْتُمْ^(٤)، فَلَيْسَ بِشَيْءٍ لِأَنَّ الْكَلَامَ مَعَ الْكُفَّارِ، وَالْكَفْرُ مَوْجُودٌ فَلَا يَجُوزُ تَعَلُّقُ الشَّرْطِ بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) زاد في (ح) هنا: «أي: مسرفون!»

(٢) في النسخ الخطية: «توعدتكم» وصوبناه من «أنوار التنزيل» للقاضي البيضاوي.

(٣) «أنوار التنزيل» (٤: ٤٢٩).

(٤) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١٠٧٩).

مِنْ دُونِهِ ۚ ءَالِهَةٌ إِنْ يُرَدِّدِ الرَّحْمَنُ بَصِيرَةَ لَّا تُغْنِي عَنْكَ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ *
إِنِّي إِذْ أَلْفَيْ ضَلَّلٍ مُّبِينٍ * إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٠-٢٥﴾

﴿رَجُلٌ يَسْتَعِي﴾: هو حبيب بن إسرائيل النجار، وكان ينحت الأصنام، وهو ممن آمن برسول الله ﷺ، وبينهما ست مئة سنة كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل وغيرهما، ولم يؤمن بنبي أحد إلا بعد ظهوره. وقيل: كان في غار يعبد الله، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه وقاويل الكفرة، فقالوا: أو أنت تخالف ديننا؟ فوثبوا عليه فقتلوه. وقيل: توطؤوه بأرجلهم حتى خرج قُضْبُهُ من دُبُرِهِ. وقيل: رَجَمُوهُ وهو يقول: اللهم اهد قومي؛ وقبره في سوق أنطاكية، فلما قُتِلَ غَضِبَ اللهُ عليهم فأهلكوا بصيحة جبريل عليه السلام. وعن رسول الله ﷺ: «سَبَّاقُ الْأُمَمِ ثَلَاثَةٌ، لَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَصَاحِبُ يَاسِينَ، وَمُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ». ﴿مَنْ لَّا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ كلمة جامعة في الترغيب فيهم، أي: لا تخسرون معهم

قوله: (خرج قُضْبُهُ) القُضْبُ: الأمعاء وبه سُمِّيَ القَصَابُ، لأنه يُزَاوِلُ الأمعاء.

قوله: (اللهم اهد قومي) روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: كَاتِي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدَمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»^(١).

قوله: (كلمة جامعة في الترغيب فيهم) وذلك أن القائل أوما بقوله: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى أن المرسلين واجب^(٢) الاتباع، وأن من أرسله الله تعالى ليرشد الخلق ويخرجهم من الظلمات إلى النور كان صلاحهم في الدارين متابعته، وتعقيبه ذلك بقوله: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا﴾ تميم؛ معناه: وأن من سعى في أمر لا بد أن يطمع ويتوقع أجره، وهؤلاء السادة بخلاف ذلك، ويقولون ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ إشارة إلى أن غرضهم في ذلك ليس إلا تحض النصح لا متابعة أمر الشهوة والرياء، وأن يكونوا موطن العقب^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٧) ومسلم (١٧٩٢).

(٢) في الأصول الخطية: «واجب».

(٣) وهو كناية عن كثرة الاتباع.

شيئاً من دُنْيَاكُمْ وترَبِّحُونَ صِحَّةَ دِينِكُمْ فينتظمُ لكم خيرُ الدنيا وخيرُ الآخرة، ثم أبرزَ الكلامَ في معرضِ المناصحةِ لنفسِهِ وهو يريدُ مناصحتَهُمْ؛ ليتلطفَ لهم ويداريَهُمْ؛ ولأنه أدخلُ في إِمْحَاضِ النُصْحِ؛ حيثُ لا يريدُ لهم إلا ما يريدُ لِرُوحِهِ، ولقد وضع

وهو إيغالٌ^(١) في نهاية من الكمال. روى ابنُ الأفلح^(٢) الكاتبُ في المقدمة^(٣): أن النابغةَ الذبيانيَّ كان يُضربُ له قُبَّةُ أَدَمَ بسوقِ عُكَاظ، وتأتيه الشعراءُ فتعرضُ عليه أشعارها فأثابه حَسَنًا فأنشده، وأثابه الأعشى فأنشده، ثم أتتهُ الخنساءُ فأنشدته القصيدةَ الرائيةَ فلما بلغت:

وإنَّ صَخْرًا لتَأْتِمُّ الهداةُ به كأنه عَلِمَّ في رأسِهِ ناراً^(٤)

فقال لها: أما كفاكِ أَنْ جَعَلْتِهِ عَلِمًا حَتَّى صَبَّرْتِ في رأسِهِ ناراً، والله لولا أن^(٥) أبا بصيرٍ^(٦) أنشدني آتِفًا لقلتُ: إنك أشعرُ أهلِ زمانِكَ^(٧) من الجنِّ والإنسِ.

(١) وقد عرّفه الطيبي بقوله: «وهو ختمُ الكلامِ بنكتةٍ زائدةٍ. قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ [البقرة: ١٦] فقوله: «وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» إيغال، لأن مطلوبَ التجارِ في مُتَصَرِّفاتِهِمْ سلامةُ رأسِ المالِ والربح، وربما يضيعُ الطلبتان، وتبقى معرفةُ التصرفِ في طريقِ التجارةِ فيتحيلُ بها لطرقِ المعاش، وهؤلاء قد أضاعوا الطلبتين وضلوا الطريقَ فدمروا. انتهى من «التيان» ص ١٨٠، ولتنام الفائدة انظر: «تحرير التحرير» لابن أبي الأصبغ المصري ص ٢٣٢.

(٢) هو الأديب الشاعر أبو القاسم علي بن أفلح العسبي الشاعر المشهور (ت ٥٣٥ هـ). شاعر ظريف، له رسالة في بيان علم الفصاحة والبلاغة، له ترجمة في «وفيات الأعيان» (٣: ٣٨٩).

(٣) قد ذكر ابن الأثير خير هذه المقدمة في «المثل السائر» (١: ٣٣٥) فقال: ووقفتُ على كتابٍ يقال له: «مقدمةُ ابن أفلح البغدادي» قد قصّرَها على تفصيل أقسام علم البلاغة والفصاحة، وللعراقيين بها عناية، ولما تأملتُها وجدتها قشوراً لا لبَّ تحتها، لأن غاية ما عند الرجل أن يقول: وأما الفصاحةُ فإنها كقولِ النابغة مثلاً، أو كقولِ الأعشى أو غيرهما، ثم يذكر بيتاً من الشعر أو آياتاً، وما بهذا تُعرَفُ حقيقةُ الفصاحة... في كلامٍ طويلٍ لا يتسع المقامُ لإيراده.

(٤) سبق تحريجه.

(٥) في (ط): «والله أن».

(٦) يعني الأعشى. وهي كنيةٌ جرت فيها العربُ على عاداتها في ارتقابِ السلامة من الآفاتِ والعَلَلِ، كما قالت في اللديخ: هو السليمُ.

(٧) في (ط) «أشعرُ زمانِكَ».

قوله: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ مكان قوله: وما لكم لا تعبدون الذي فطرَكُمْ، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؟ ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أَرْجَعُ، وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ يريد:

قوله: (ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أَرْجَعُ)، قال صاحب «المفتاح»: ولولا التعريض لكان المناسب: وإليه أَرْجَعُ، وكذا ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدِّدِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ ﴿إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ المراد: أتناخذون^(١) من دونه آلهة إن يردكم الرحمن بضر لا تُغني عنكم شفاعتهم شيئاً ولا ينقذوكم إنكم إذا لفي ضلال مبين، ولذلك قيل: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾^(٢) وأتبعه ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ ولا تعرف حُسن موقع هذا التعريض إلا إذا نظرت إلى مُقامه وهو يطلب إسماع الحق على وجه لا يورث طالبي دم المُسمع مزيد غَضَبٍ، وهو ترك المُواجهة بالتضليل والتصريح بارتكاب الباطل^(٣).

قلت: قد ذهبا إلى أن قرينة التعريض هو قوله: ترجعون، ولولاه لم يكن تعريضاً كأن هذا تعريضٌ منهما بالواحدِي حيث قال: فلما قال هذا، أي: الرجل: ﴿يَنْقَوِرَ أَتْبَعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى آخره، فرفعوه إلى الملك فقال له الملك: أفأنت تتبعهم؟ فقال: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: أي شيء لي إذا لم أعبد خالقي وإليه تُرْجَعُونَ، تُردون عند البعث فيجزىكم^(٤) بكفرِكُمْ؟ تم كلامه^(٥).

وذلك أنه إذا رجَعَ الإنكارُ إليه لا إلى القوم لم يكن لخطاب القوم بقوله: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ معنى، وكان الظاهرُ إليه أَرْجَعُ.

(١) قوله: «المراد: أتناخذون» سقط من (ح) و(ف).

(٢) زاد في «المفتاح»: «دون بري».

(٣) «مفتاح العلوم» ص ١٠٧.

(٤) في (ف): «فيجازيكم»، وما هو مُثبت من (ط) موافق لتفسير الواحدِي.

(٥) «التفسير الوسيط» للواحدِي (٣: ٥١٢).

فاسمعوا قولي وأطيعوني، فقد نبهتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه: أن العبادة لا تصح إلا لمن منه مُبتدؤكم وإليه مرجعكم، وما أذفع العقول وأنكرها لأن تستحبوا

وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ كَانَ فِي غَيْظٍ شَدِيدٍ مِنْ تَكْذِيبِهِمُ الرِّسْلَ، وَقَوْلِهِمْ: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَيْمَسَّكُمْ مَتَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وَانْتَهَزَ الْفُرْصَةَ لِلانْتِقَامِ، فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْ تَهْدِيدِهِمْ أَوْقَعَ قَوْلَهُ: ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾ فِي الْبَيِّنِ؛ أَي: مَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي مَنْ عَلَيَّ بِبِنِعْمَةِ الْإِبْرَاهِيمِ وَنِعْمَةِ الْانْتِقَامِ مِنْكُمْ وَالتَّشْفِي مِنْ (١) غَيْظِكُمْ إِذْ تُرْجَعُونَ إِلَيْهِ، فَيَجْزِيكُمْ بِكُفْرِكُمْ وَتَكْذِيبِكُمْ الرِّسْلَ وَعِنَادِكُمْ، لَكِنَّ النِّظْمَ يُسَاعِدُ عَلَى الْأَوَّلِ، فَإِنَّ التَّقْدِيرَ: اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ فِي عِبَادَةِ الْمَلِكِ الْعَلَامِ الضَّارِّ النَّافِعِ، وَتَرْكُ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا نَفْرَ وَلَا تَنْفَعُ، وَمَا لَكُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ لَا تَتَّبِعُونَهُمْ، وَلَا تَعْبُدُونَ الَّذِي فَطَرَكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فَيَجْزِيكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ؛ إِنَّ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى ضَلَالَتِهِمْ، وَأَنَّهُمْ عَلَى خِلَافِ مَا عَلَيْهِ الرِّسْلُ مِنَ الْإِهْتِدَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وَرَشَّحَ التَّنْبِيَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَسْمَعُونَ﴾ أَي: اسْمَعُوا مَا قَلْتُ لَكُمْ مِنْ حَالِ الرِّسْلِ وَحَالِكُمْ ثُمَّ حَالِي، لَتَقَرُّ قَوَائِمُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَتَتَّبِعُوا الرِّسْلَ.

وقد يقال: إنَّ الأسلوبَ من الالتفاتِ المعنويِّ حيثُ التفتت من حكاية النفس في ﴿وَمَا لِي﴾ إِلَى الْخُطَابِ (٢) فِي ﴿تُرْجَعُونَ﴾، وَلَا بِأَسْرٍ بِاخْتِلَافِ الْمَفْهُومَيْنِ، لِأَنَّ الْمُرَادَ مَا لَكُمْ كَمَا سَبَقَ، وَقَرِيبٌ مِنَ الْأَسْلُوبِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يُدْعِي اللَّهُ مَعْلُوثًا غَلَتِ أَيْدِيَهُمْ﴾ [المائدة: ٦٤] قَالَ الْمَصْنُفُ: ﴿يُدْعِي اللَّهُ مَعْلُوثًا﴾ عِبَارَةٌ عَنِ الْبُخْلِ، وَ﴿غَلَتِ أَيْدِيَهُمْ﴾ دَعَاءٌ عَلَيْهِمْ بِغُلِّ الْأَيْدِي حَقِيقَةً، وَالطَّبَاقُ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ وَمِلَاحِظَةُ أَصْلِ الْمَجَازِ كَمَا يَقُولُ: سَبَّي سَبَّ اللَّهُ دَابِرَهُ، أَي: قَطَعَهُ، لِأَنَّ السَّبَّ أَصْلُهُ الْقَطْعُ (٣).

قوله: (وما أذفع العقول وأنكرها لأن تستحبوا) معناه: ما أذفع العقول وأنكرها

(١) من قوله: «أي: أحللتهم وكنتم» - قبل ٦ صفحات - إلى هنا سقط من (ج).

(٢) في (ط): «خطاب القوم».

(٣) انظر: (٥: ٤١٦).

على عبادته عبادة أشياء إن أرادكم هو بضرّ وشفّع لكم هؤلاء لم تنفع شفاعتهم ولم
 يمكّنوا من أن يكونوا شفعاء عنده، ولم يقدرُوا على إنقاذكم منه بوجه من الوجوه،
 إنكم في هذا الاستحباب لواقعون في ضلالٍ ظاهر بين لا يخفى على ذي عقل وتمييز.
 وقيل: لما نصح قومه أخذوا يرجونه فأسرع نحو الرسل قبل أن يُقتل، فقال لهم:
 ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ أي: اسمعوا إيماني تشهدوا لي به. وقرئ: (إن
 يردني الرحمن بضرّ) بمعنى: إن يُورِذني ضرّاً، أي: يجعلني مورداً للضرّ.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ • بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ
 الْمُكْرَمِينَ﴾ [٢٦-٢٧]

أي: لما قُتل ﴿قِيلَ﴾ له: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾. وعن قتادة: ادخله الله الجنة وهو فيها
 حيٌّ يرزق. أراد قوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاكُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ • فَرِحِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].
 وقيل: معناه البشري بدخول الجنة وأنه من أهلها. فإن قلت: كيف مخرج هذا القول
 في علم البيان؟ قلت: مخرجه مخرج الاستئناف؛ لأن هذا من مظان المسألة عن حاله
 عند لقاء ربه، كأن قائله قال: كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب في نصرة دينه
 والتسخي لوجهه بروحه؟ فقيل: قيل: ادخل الجنة، ولم يقل: قيل له؛ لانصباب
 الغرض إلى المقول وعظمه، لا إلى القول له مع كونه معلوماً، وكذلك ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي
 يَعْلَمُونَ﴾ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم.
 وإنما تمنى علم قومه بحاله؛ ليكون علمهم بها سبباً لاكتساب مثلها لأنفسهم، بالتوبة
 عن الكفر، والدخول في الإيمان، والعمل الصالح المفضيّن بأهلها إلى الجنة. وفي
 حديث مرفوع: «نصح قومه حيّاً وميتاً».

لاستحبابكم عبادة أشياءكم على عبادة الله؛ إن أراد الله أن يضرّكم فهؤلاء لم يتمكّنوا من
 الشفاعة.

قوله: (نصح قومه حيّاً وميتاً) أما نصحه حيّاً فظاهر، وأما في الممات فإنه لما تمنى من الله

وفيه تنبيهٌ عظيم على وجوب كَظْمِ الغيظ، والحِلْمِ عن أهل الجهل، والترؤفِ على مَنْ أدخل نفسه في غُمارِ الأشرار وأهل البغي، والتشمُّرِ في تخليصه، والتلطُّفِ في افتدائه، والاشتغالِ بذلك عن الشَّاتَةِ به والدعاءِ عليه، ألا ترى كيف تَمَنَّى الخَيْرَ لِقَتَلْتَهُ والباغينَ له الغوائلَ وهم كفرةٌ عبدةُ أصنام؟ ويجوزُ أن يتمنى ذلك ليعلموا أنهم كانوا على خطأٍ عظيم في أمره، وأنه كان على صوابٍ ونصيحةٍ وشفقةٍ، وأنَّ عداوتهم لم تُكسِبْه إلا فوزاً، ولم تعقبه إلا سعادة؛ لأنَّ في ذلك زيادةً غبطةً له وتضاعفَ للذةٍ وسرور. والاولُ أوجهٌ. وقُرى: (المكْرَمين). فإن قلت: «ما» في قوله تعالى: ﴿يَمَّا

تعالى أن يعلم قومه بأنه تعالى غفر له وجعله من المكرمين لا يبعد أن الله تعالى أعطى مناه وحقق متمناه وأعلمهم ذلك إما بإلهام أو برؤية صادقة، وكان علمهم بذلك سبب لاكتساب مثلها لأنفسهم إلى آخر ما أشار إليه المصنف. هذا معنى نصح الميت.

قوله: (في غُمار) يُقال: دَخَلْتُ في غُمارِ الناسِ وغُمارِ الناسِ؛ بفتحٍ وبضمٍّ، أي: كثرتهم ورزحمتهم.

قوله: (والاولُ أوجهٌ) وهو أن يكونَ قوله: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ تَمَنَّى عِلْمَ قَوْمِهِ بحاله ليكونَ عِلْمُهُم بذلك سبباً لاكتسابِ مثلها، لا تَمَنَّى أن يَنْتَهوا عن خطيئهم وصوابه، لِما يُنبئُ ذلك على أنه نَصَحَ قَوْمَهُ حَيًّا وَمَيِّتًا؛ ولما اشتملَ على تلك الفوائد المتكاثرة على سبيل الإدماج بخلافه في الثاني، فإن فيه شائبةً حظَّ النفس من الشَّاتَةِ بهم والاعتباط^(١) بما قال، فلا يطابقُ قوله: ﴿أَتَسْمِعُوا مَنْ لَا يَسْمَعُ لَكُمْ آتِرًا وَهُمْ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ كما سبق أن غرضهم في الدعوة لم يكن سوى محضِ النَّصْحِ.

قوله: (وقُرى: «المكْرَمين»)، وهي شاذة^(٢).

(١) في النسخة (ف): «والاعتباط» من الغيظ، وليس بصواب.

(٢) وذكرها القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٢٠) وأبو حيان في «البحر المحيط» (٩: ٥٩) من غير عزو لأحد.

عَفَّرَ لِي رَبِّي ﴿ أَيُّ الْمَاءِ هِيَ؟ قُلْتُ: الْمَصْدَرِيَّةُ أَوْ الْمَوْصُولَةُ؛ أَيُّ: بِالَّذِي عَفَّرَهُ لِي مِنَ الدُّنُوبِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ اسْتِفْهَامِيَّةً؛ يَعْنِي: بِأَيِّ شَيْءٍ عَفَّرَ لِي رَبِّي؟ يَرِيدُ بِهِ مَا كَانَ مِنْهُ مَعَهُم مِنَ الْمُصَابِرَةِ لِإِعْزَازِ الدِّينِ حَتَّى قُتِلَ، إِلَّا أَنَّ قَوْلَكَ: بِمِ غَفَرَ لِي، بَطْرَحِ الْأَلْفِ أَجْوَدُ وَإِنْ كَانَ إِثْبَاتُهَا جَائِزاً؛ يُقَالُ: قَدْ عَلِمْتُ بِمَا صَنَعْتَ هَذَا، [أَيُّ: بِأَيِّ شَيْءٍ صَنَعْتَ]، وَ: بِمِ صَنَعْتَ.

[﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً وَجِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ ٢٨-٢٩]

المعنى: أن الله كفى أمرهم بصيحة ملك، ولم يُنزل لإهلاكهم جنداً من جنود السماء، كما فعل يوم بدر والخذقي. فإن قلت: وما معنى قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾؟ قلت: معناه: وما كان يصح في حكمتنا أن نُنزل في إهلاك قوم حبيب جنداً من السماء؛ وذلك لأن الله عز وجل أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون البعض، وما

الراغب: الإكرام والتكريم: أن يُوصَلَ إلى الإنسان نفع لا تلحقه فيه غصاصة، أو جعل ما يُوصَلَ إليه شيئاً شريفاً، قال تعالى: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ صَنِيفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]، أَي: جَعَلَهُمْ كِرَاماً، وَقَالَ: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] مُنْطَوٍ (١) عَلَى الْمَعْنَيْنِ (٢).

قوله: (بطرح الألف أجود وإن كان إثباتها جائزاً) (٣)، أنشد في «المطلع»:

إِنَّا قَتَلْنَا بِقَتْلَانَا سَرَاتِكُمْ أَهْلَ اللِّوَاءِ فَفِيهَا يَكْتُمُ الْقَتْلَ (٤)

قال: «ففيها» بالألف.

(١) في النسخة (ط): «منطبق».

(٢) في النسخة (ف): «اللغتين»، وصوبناه من «مفردات القرآن» ص ٧٠٧.

(٣) في النسخة (ط): «خيراً». وما أثبتناه هو الأشبه بالصواب.

(٤) البيت لكعب بن مالك ذكره السهيلي في «الروض الأنف» (٦: ٩٤).

ذلك إلا بناءً على ما اقتضته الحكمة وأوجبه المصلحة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ [المنكوت: ٤٠]؟ فإن قلت: فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدرٍ والخذق؛ قال تعالى: ﴿لَمَّا رَمَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، ﴿يَأْتِي مِنَ الْمَلَكِ مَرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، ﴿بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَكِ مُمْزِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]، ﴿بِخَمْسَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَكِ مَسُومِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]؟ قلت: إنما كان يكفي ملكٌ واحد، فقد أهلكت مدائن لوط بريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحته، ولكن الله فضل محمداً ﷺ بكل شيء على كبار الأنبياء وأولي العزم من الرسل، فضلاً على حبيب النجار، وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما

قوله: (فضلاً عن حبيب النجار) وفي بعض النسخ^(١): «على حبيب النجار»، وهو مفعولٌ مطلق، يعني: فضل الله تعالى محمداً صلوات الله عليه على كبار الأنبياء فضلته على حبيب النجار، يعني: له أسوة بسائر الأنبياء في أن لم يُنزل الله تعالى في إهلاك قومهم جنوداً من السماء، لأن ذلك من خصائص سيدهم صلوات الله عليه وعليهم.

فإن قلت: أي فرق بين الاستعمالين؟

قلت: على الأول ينعكس المعنى وذلك أنه تعالى لما قال: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾^(٢) وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿ على معنى: ما كان يصح في حكمة الله أن يُنزل في إهلاك قوم حبيب جنوداً من السماء، لأن ذلك من عظام الأمور التي لا يؤهل لها حبيب النجار، ولو أريد ذلك المعنى لقليل: ولكن الله تعالى فضل محمداً صلوات الله عليه على كبار الأنبياء حيث خصه بهذه الفضيلة ولم يُعطيها أحداً منهم فضلاً عن حبيب النجار، فيلزم منه تنقيص الحبيب، لأن «فضلاً» إذا عُدِّي بـ«عن» ضُمَّنَ معنى التجاوز، واستعمل في

(١) وهي النسخة التي بين أيدينا من «الكشاف».

(٢) من قوله: «لأن ذلك من خصائص» إلى هنا سقط من (ط).

لم يُؤلِه أحداً؛ فمن ذلك أنه أنزلَ له جنوداً من السماء، وكأنه أشار بقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا﴾، ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ إلى أن إنزال الجنود من عظام الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك، وما كنا نفعله بغيرك. ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً﴾: إن كانت الأخذة أو العقوبة إلا صيحة. وقرأ أبو جعفر المدني بالرفع على «كان» التامة، أي: ما وقعت إلا صيحة، والقياس والاستعمال على تذكير الفعل؛ لأن المعنى: ما وقع شيء إلا صيحة، ولكنه نظر إلى ظاهر اللفظ، وأن الصيحة في حكم فاعل الفعل، ومثلها قراءة الحسن: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا أَسَنُكُنْهُمُ﴾ [الأحاف: ٢٥]، وبيت ذي الرمة:

موضع يُستبعد فيه الأدنى ويُراد به استحالة ما فوقه، وما كان طريقاً إلى بيان فضله كان أولى بالسلوك مما فيه بيان نقصه.

قوله: (وأن الصيحة في حكم فاعل الفعل) قال الزجاج: من قرأ بالتصبي فالمعنى: ما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة، ومن قرأ بالرفع فالمعنى: ما وقعت عليهم عقوبة إلا صيحة واحدة^(١).

وقال ابن جني: في الرفع ضعف لتأنيث الفعل، ولا يقوى أن تقول: ما قامت إلا هند، لأن الكلام محمول على: ما قام أحد إلا هند، وأما محمول الآية فقد كان هناك صيحة واحدة فجيء بالتأنيث، ومثله قراءة الحسن: «فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم» [الأحاف: ٢٥]، وقول ذي الرمة:

طوى النخز والأجرأز ما في غروضها وما بقيت إلا الصدور الجراشع^(٢)

أي: ما بقي شيء منها إلا الضلوع، وفي رواية:

برى لحمها سير الفيا في وحرها

طوى، أي: أضمر. والنخز: الضرب بالأعقاب في الاستحثاث.

(١) ولتتام الفائدة انظر: «النشر في القراءات العشر» (٢: ٣٩٣).

(٢) «ديوان ذي الرمة» ص ٤٣٠.

وَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الْجُرَاشِعُ

وقرأ ابن مسعود (إِلَّا زَقِيَّةً وَاحِدَةً)، مِنْ زَقَا الطَائِرُ يَزُقُو وَيَزْقِي؛ إِذَا صَاحَ، وَمِنْهُ الْمَثَلُ: أَنْقَلُ مِنَ الزَّوَاقِي. ﴿حَكِمِدُونَ﴾ خَمَدُوا كَمَا تَخْمَدُ النَّارُ، فَتَعْوَدُ رَمَادًا، كَمَا قَالَ لَبِيدُ:

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشُّهَابِ وَصَوْنِهِ
يَجُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ

﴿يَنْحَسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [٣٠]

..... ﴿يَنْحَسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ﴾

والأجزاء: الأحمال والأرضون التي لا نبت بها، جمع جُرُز. والغروض: جمع غَرَضٍ، وهي الغرضة بضم الغين المعجمة. والتصدير: وهو للرخل بمنزلة الحزام للسرّج. والجراشع: جمع الجُرْشُع، وهو المنتفخ الجنب يملأ الحزام. يقول: هَزَلَ النَّيَاقُ الْإِسْتِحْنَاثُ وَالْإِرْتِحَالُ وَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّرُوعُ الْمُنْتَفِخَةُ.

قوله: (وقرأ ابن مسعود: إِلَّا زَقِيَّةً وَاحِدَةً). قال ابن جني: يُقَالُ: زَقَى الطَائِرُ يَزُقُو وَيَزْقِي زُقُوعًا وَزُقِيًّا: إِذَا صَاحَ، وَهِيَ الزُّقُوعُ وَالزُّقِيَّةُ، وَإِنَّمَا اسْتَعْمِلَ هُنَا صِيَاحَ الطَائِرِ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الْبَعْثَ مِنْ عَظِيمِ^(١) الْقُدْرَةِ، وَإِعَادَةَ مَا اسْتَرَمَّ مِنْ إِحْكَامِ الصَّنْعَةِ، وَإِنْشَارَ الْمَوْتَى مِنَ الْقُبُورِ: سَهْلٌ كَزَقِيَّةِ الطَائِرِ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا نَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَجَدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] (٢).

قوله: (أَنْقَلُ مِنَ الزَّوَاقِي) قال الميداني: قال محمد بن قدامة: سَأَلْتُ الْفَرَّاءَ عَنْهَا فَلَمْ يَعْرِفْهَا، فَقَالَ جَلِيسُ لَهُ: إِنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَسْمُرُ بِاللَّيْلِ، فَإِذَا زَقَتِ الدِّيَكَةُ اسْتَقْلَتْهَا لِأَنَّهَا تُؤَذِّنُ بِالصُّبْحِ، فَاسْتَحْسَنَ الْفَرَّاءُ قَوْلَهُ (٣).

(١) في (ط): «البعث بما فيه عظيم».

(٢) «المحتسب» (٢: ٢٠٧-٢٠٨).

(٣) «مجمع الأمثال» (١: ١٥٦).

نداءٌ للحسرة عليهم، كأنها قيل لها: تعالِي يا حسرةُ فهذه من أحوالك التي حقك أن تحضري فيها، وهي حال استهزائهم بالرُّسل. والمعنى: أنهم أحقُّاء بأن يتحسَّر عليهم

قوله: (نداءٌ للحسرة عليهم) قال الزجاج: هذا [من] (١) أصعب مسألة في القرآن، لأن الحسرة مما لا يُجيب، فالفائدة في مناداتها كما أنك تقول لمن هو مُقبلٌ عليك: يا زيد، ما أحسن ما صنعت! فإنه أوكد وأبلغ من إذا قلت: ما أحسن ما صنعت! لتنبهه بالنداء على المطلوب، فكذا إذا قلت: وأنا أعجب مما فعلت، فقد أفدته أنك مُتعجب، ولو قلت: واعجابه مما فعلت! كان أبلغ في الفائدة، والمعنى: يا عجب أقبل فإنه من أوقاتك، وإنا نداء العجب تنبيه لأن يتمكن علمُ المخاطب بالتعجب من فعله.

والحسرة: هي أن يركب الإنسان من شدة الندم ما لا نهاية بعده حتى يبقى حسيراً.

قوله: (وهي حال استهزائهم) بيان لاسم الإشارة في «فهذه»، أي: حال استهزائهم بالرُّسل حال من أحوالك يا حسرة، فاحضري فيها. وفيه: أن قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ بيان للكلام السابق، كأنه لما قيل: ﴿يَحْسِرُونَ عَلَى الْآبَادِ﴾، قيل: لأي شيء؟ فأجيب بأنه ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فالتحسر إما عامٌ يعني بلغ الأمر بفخامته وشِدته إلى حيث كل من يأتي منه التلهف إذا نظر إلى حالة استهزائهم الرسل تحسَّر عليهم، وقال: فيا لها من خسارٍ وخيبةٍ على هؤلاء المُجازفين حيث بدلوا الإيمان بالكفر، والسعادة بالشقاوة، وإما كل من يُعْتدُّ منه التحسُّر كما في قوله لهم: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] وهو المراد من قوله: من جهة الملائكة والمؤمنين، وأما التحسُّر من الله فمجاز.

وذلك أن التحسُّر هو تلهفٌ ورقةٌ تعترى الإنسان لما يلحق بصاحبه من مشقةٍ وشدةٍ، وغايته أن يستعظم ذلك الأمر، ويُنكِر على مُرتكبه، ويتعجب منه كيف تورط فيه، وفي حق الله تعالى محمولٌ على غايته لا على بدايته، وإليه أشار بقوله: في تعظيم ما جنوه على أنفسهم إلى آخره.

(١) زيادة من «معاني القرآن وإعرابه».

المتحسرون، ويتلَهَّفَ على حالهم المتلهِّفون. أو: هم متحسِّرٌ عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثَّقَلَيْنِ. ويجوزُ أن يكونَ مِنَ الله عزَّ وِعلا على سبيل الاستعارة في معنى تعظيم ما جَنَّوهُ على أنفسهم ومَحَنُوها به، وفَرَطِ إنكاره له وتعجيبه منه، وقراءة من قرأ: (يا حَسْرَتَا) تعضدُ هذا الوجه، لأنَّ المعنى: يا حَسْرَتِي. وقرئ: (يا حَسْرَةَ العِبَادِ)،

قوله: (على سبيل الاستعارة) إلى قوله: (وتعجيبه منه)، قال في قوله تعالى: «بل عَجِبْتُ ويسخرون» [الصفات: ١٢] بضم التاء: معنى التعجب من الله تعالى: إمَّا مجرَّدُ الاستعظام، أو يُتَخَيَّلُ العَجَبُ ويُفْرَضُ^(١). وسيجيء بيانه إن شاء الله تعالى في «الصفات».

قوله: (وقرئ: «يا حَسْرَةَ العِبَادِ»^(٢))^(٣) قال ابنُ جنبي: هي قراءة ابنِ عَبَّاسٍ والضَّحَّاكِ وأبي بن كعب. وقرأ الأعرجُ ومُسلم بن جُنْدَب: «يا حَسْرَه» ساكنةً الهاء، ففيه نظر، لأنَّ قوله: ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾ متعلِّقٌ بها، أو صِفَةٌ لها، فلا يحسُنُ الوقفُ عليها دونَه إلا أن يقال: إنَّ العربَ إذا أَخْبَرَتْ عن الشيءِ غَيْرَ مُعْتَدِّ به^(٤)، ولا معتزِمةً عليه، أسرعَت فيه، ولم تتأنَّ على اللفظ المعبر عنه، قال:

قلنا لها: قفي لنا، قالت: قاف

أي: وَقَفْتُ. فاقترصت من جملة الكلمة على حرفٍ منها تهاوناً بالحال، وتناقلاً عن الإجابة، أو أن ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾ غيرُ مُتعلِّقٍ بـ ﴿يَحْسَرَةُ﴾ بل بمُضْمَرٍ يدلُّ عليه ﴿حَسْرَةَ﴾، كأنه قيل: أتحسَّرُ على العباد.

وأما الإضافة فعلى وجهين: أحدهما: أنَّ العبادَ فاعلون في المعنى كقولك: يا قيامَ زَيْدٍ،

(١) انظر ما سيأتي ص ١٣٠ - ١٣١.

(٢) من قوله: «إلى قوله وتعجيبه منه» إلى هنا سقط من (ط).

(٣) في (ح) و(ف): «يا حَسْرَةَ على العباد»، وصوبناه من «المحتسب» (٢: ٢٠٧)، وعبارة ابن جنبي: وقرأ: يا «حَسْرَةَ العباد» مضافاً: ابن عباسٍ والضحَّاك وعلي بن حسين ومجاهد وأبي بن كعب.

(٤) كذا في النسخ الخطية، وفي «المحتسب»: «مُعْتَمَدَتَه».

على الإضافة إليهم؛ لاختصاصها بهم؛ من حيث إنها موجهة إليهم. و (يا حسرة على العباد) على إجراء الوصل مجرى الوقف.

[﴿الْتَرِيْرُوْا كَمْ اَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُوْنِ اَنْتُمْ اِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُوْنَ﴾ * وَلَنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيْعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُوْنَ ﴿٣١-٣٢﴾].

﴿الْتَرِيْرُوْا﴾: ألم يعلموا، وهو معلق عن العمل في ﴿كَمْ﴾؛ لأن «كم» لا يعمل فيها عامل قبلها، كانت للاستفهام أو للخبر؛ لأن أصلها الاستفهام، إلا أن معناه نافذ

ويا جلوس عمرو، وكان العباد إذا شاهدوا ذلك تحسروا. وثانيهما: أن العباد مفعولون في المعنى، وشاهدته القراءة الظاهرة، أي: يتحسّر عليهم من يعنيه أمرهم، ويحسّر ما يهتمهم^(١).

ويؤوي الوجه الأول قول صاحب المطلع: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُوْلٍ﴾ كالبيان لسبب حسرتهم، كأنه قيل: ما سبب تحسّرهم؟ فقيل: استهزأهم بالرسول. والقراءة بالإضافة تدل على هذا المعنى. قال صاحب «الكشف»: ﴿يَحْسِرَةُ عَلَى الْعِبَادِ﴾ نداء مطوّل مشابه للمُضَافِ لتعلق الجار بالمصدر، فهو كقولهم: يا خيراً من زيد^(٢). وفي «المتقى»: وقفوا بالهاء الساكنة على ﴿حَسْرَةَ﴾ وقفاً طويلاً تعظيماً للأمر ثم قال: ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾. وفي «اللوامح»: وقفوا على الهاء مبالغة في التحسّر لِمَا فِي الْهَاءِ مِنَ التَّأَهُُّ كالتأوه، ثم وصلوه على تلك الحال.

قوله: (لأن «كم» لا يعمل فيها عامل قبلها)، قال الزجاج: موضع «كم» نصب بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، لأن «كم» لا يعمل فيها ما قبلها خبراً كانت أو استخباراً، تقول في الخبر: كَمْ فَرَسَخَ سِرْتُ؟ تريد: سرت فراسخ كثيرة. ولا يجوز: سرت كَمْ فَرَسَخَ، وذلك أن «كم» في بابها بمنزلة «رُبَّ» وإن كان أصلها الاستفهام والإبهام، فكما أنه لا يجوز في الاستفهام: سرت كَمْ فَرَسَخًا، كذا في الخبر، لأن الإبهام قائم^(٣).

(١) «المحتسب» (٢: ٢٠٧).

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١١١٥).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٢٨٥).

في الجملة، كما نفذ في قولك: ألم يروا إن زيدا لمُنطلق، وإن لم يعمل في لفظه. و﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ على المعنى، لا على اللفظ، تقديره: ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كوتهم غير راجعين إليهم. وعن الحسن: كسر «إن» على الاستئناف. وفي قراءة ابن مسعود: (ألم يروا من أهلكنا)، والبديل على هذه القراءة بَدَلٌ اشتمال، وهذا مما يردُّ قول أهل الرَّجعة. ويحكى عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قيل له: إن قوماً يزعمون أن علياً مبعوثٌ قبل يوم القيامة، فقال: بسّ القوم نحن إذن؛ نكحنا نساءه وقسمنا ميراثه. قرئ: ﴿لَمَّا﴾ بالتخفيف، على أن «ما» صلةٌ للتأكيد،

قوله: (و﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ على المعنى لا على اللفظ)، قال صاحب «الكشف»: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بَدَلٌ مِنْ مَوْضِعِ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، وليس بدلاً من «كم» وحده، لأن العامل في «كم» هو ﴿أَهْلَكْنَا﴾ ولا يعمل ﴿أَهْلَكْنَا﴾ في «أن»، إذ ليس المعنى: أهلكنا أنهم لا يرجعون، والتقدير: ألم يروا أنهم إليهم لا يرجعون^(١)، تقديره: ألم يروا كثرة إهلاكنا، أي: ألم يعتبر كفار مكة بكثرة من أهلكنا من قبلهم واستئصالنا وتدميرنا إياهم حتى لم يبق منهم أثر فيقلعوا عما هم فيه!

قوله: (والبديل على هذه القراءة بَدَلٌ اشتمال) لأن «من أهلكنا» ذات، وعلى الأول: كان بَدَلٌ الكلِّ، فإن كوتهم غير راجعين عبارة عن إهلاكهم، لأنه لازم له وهو المراد من قوله: ﴿بَدَلٌ عَلَى الْمَعْنَى لَا عَلَى الْفَرْقِ﴾.

قوله: (مما يردُّ قول أهل الرَّجعة) أي: التناسخية، يقال: فلان يؤمن بالرجعة، أي: بالرجوع إلى الدنيا بعد الموت.

قوله: (وقرئ: ﴿لَمَّا﴾ بالتخفيف) عاصم وابن عامر وحزرة: بتشديد الميم، والباقون: بتخفيفها^(٢)، وسبق تفسيره في سورة «هود».

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١١١٧).

(٢) ولتأمل الفائدة انظر: «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (٢: ٢١٥).

و«إن»: مخففة من الثقيلة، وهي متلقة باللام لا محالة؛ و﴿لَمَّا﴾ بالتشديد، بمعنى: إلا، كالتي في مسألة «الكتاب»: نشدتك بالله لَمَّا فعلت، و﴿إِنْ﴾ نافية، والتنوين في ﴿كُلُّ﴾ هو الذي يقع عوضاً من المضاف إليه، كقولك: مررت بكل قائماً. والمعنى: أن كلهم محشورون مجموعون محضرون للحساب يوم القيامة. وقيل: محضرون: معذبون. فإن قلت: كيف أخبر عن «كل» بـ«جميع» ومعناها واحد؟ قلت: ليس بواحد؛ لأن «كلاً» يفيد معنى الإحاطة، وأن لا ينفلت منهم أحد، والجميع: معناه: الاجتماع، وأن المحشر يجمعهم. والجميع: فعيل بمعنى مفعول، يقال: حي جميع، و جاؤوا جميعاً.

[﴿وَأَيُّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ

قوله: (ليس بواحد؛ لأن «كلاً» يفيد معنى الإحاطة) والجميع: معناه: الاجتماع. الانتصاف: ومن ثم أوقع «أجمع» في التوكيد تابعاً لـ«كل»^(١).

قوله: (يقال: حي جميع)، الأساس: وهو جميع الرأي، وجميع^(٢) الأمر، وحي جميع: الجوهرى: والجميع: الحي المجتمع، قال لبيد:

عَرَيْتُ وَكَانَ بِهَا الْجَمِيعُ فَأَبْكُرُوا
مِنْهَا وَغُودِرَ نُؤْيُهَا وَثَمَامُهَا^(٣)

واعلم أن ألفاظ التوكيد كأجمع وأكتع وأبضع، لا تكون إلا تأكيداً وتابعاً لما قبله، لا يبتدأ بها، ولا يُحْبَرُ عنها، ولا تكون فاعلاً ولا مفعولاً، ولفظ^(٤) «جميع» من التوكيد الذي يقع تارة اسماً وأخرى تأكيداً، مثل: نفسه وعينه وكله. ويكون صفة كقولهم: حي جميع، ولهذا قال: والجميع فعيل بمعنى مفعول.

(١) «الانتصاف» (٤: ١٤).

(٢) من قوله: «معناه الاجتماع» إلى هنا، سقط من (ح) و(ف).

(٣) «ديوان لبيد بن ربيعة» ص ٩٩.

(٤) من قوله: «ألفاظ التوكيد» إلى هنا سقط من (ح) و(ف).

أَيِّدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ
أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣-٣٦﴾

الْقِرَاءَةُ بِـ ﴿الْمَيْتَةِ﴾ عَلَى الْخِفَّةِ أَشْبَعُ؛ لَسَلْسِهَا عَلَى اللِّسَانِ. وَ﴿أَحْيَيْنَهَا﴾ اسْتِثْنَاءٌ،
بَيَانٌ لِكُونِ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ آيَةً، وَكَذَلِكَ ﴿نَسَلَخُ﴾ [يس: ٣٧]، وَيَجُوزُ أَنْ تُوصَفَ الْأَرْضُ
وَاللَّيْلِ بِالْفِعْلِ؛ لِأَنَّهُ أُرِيدَ بِهِمَا الْجِنْسَانِ مُطْلَقَيْنِ لَا أَرْضَ وَلَيْلَ بِأَعْيَانِهِمَا؛ فَعُومِلَا مَعَامِلَةَ

قَوْلِهِ: (بَيَانٌ لِكُونِ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ آيَةً) كَأَنَّ قَائِلًا قَالَ: كَيْفَ تَكُونُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ آيَةً؟
فَقَالَ: ﴿أَحْيَيْنَهَا﴾. قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: ﴿آيَةً﴾ مَبْتَدَأُ وَ﴿لَهُمْ﴾ الْخَبَرُ، وَ﴿الْأَرْضُ﴾ مَبْتَدَأُ
وَ﴿أَحْيَيْنَهَا﴾ الْخَبَرُ، وَالْجُمْلَةُ تَفْسِيرُ الْآيَةِ. وَقِيلَ: ﴿الْأَرْضُ﴾ مُبْتَدَأُ وَ﴿آيَةً﴾ خَبَرٌ مُقَدَّمٌ
وَ﴿أَحْيَيْنَهَا﴾ تَفْسِيرُ الْآيَةِ، وَ﴿لَهُمْ﴾ صِفَةُ الْآيَةِ^(١).

قَوْلِهِ: (وَيَجُوزُ أَنْ تُوصَفَ الْأَرْضُ وَاللَّيْلُ بِالْفِعْلِ) أَي: بِـ ﴿أَحْيَيْنَا﴾ وَ﴿نَسَلَخُ﴾، لِأَنَّهُ
أُرِيدَ بِهِمَا الْجِنْسَانِ، وَالتَّقْدِيرُ: وَآيَةٌ لَهُمْ أَرْضٌ مَيْتَةٌ مِنَ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ أَحْيَيْنَاهَا، وَلَيْلٌ مِنَ
اللَّيَالِي سَلَخْنَا مِنْهَا النَّهَارَ.

الْإِنْتِصَافُ: غَيْرُ الزَّمْخَشَرِيِّ يَمْنَعُ مِنْ وَقُوعِ الْجُمْلَةِ وَصَفًا لِلْمَعْرِفَةِ وَإِنْ كَانَتْ جِنْسًا،
وَيُرَاعَى الْمِطَابَقَةُ اللَّفْظِيَّةُ^(٢).

قَلْبٌ: قَدْ ذَكَرْنَا عَنْ ابْنِ جَنِّيٍّ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ نَكْرَةَ الْجِنْسِ تُفِيدُ مُفَادَ مَعْرِفَتِهِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّكَ
تَقُولُ: خَرَجْتُ إِذَا أَسَدٌ بِالْبَابِ، فَتَجِدُ مَعْنَاهُ مَعْنَى قَوْلِكَ: خَرَجْتُ إِذَا الْأَسَدُ بِالْبَابِ، لَا
فَرَقَ بَيْنَهُمَا، وَذَلِكَ أَنَّكَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ لَا تَرِيدُ أَسَدًا وَاحِدًا مُعَيَّنًا، وَإِنَّمَا تَرِيدُ: خَرَجْتُ إِذَا
بِالْبَابِ وَاحِدًا مِنْ هَذَا الْجِنْسِ^(٣).

وَقَالَ ابْنُ الْحَاجِبِ: الْمُحَقِّقُونَ قَالُوا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ:

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١٠٨٢).

(٢) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٤).

(٣) «المحتسب» (١: ٢٧٨).

النِّكِرَاتِ فِي وَصْفِهَا بِالْأَفْعَالِ، وَنَحْوُهُ:

وَلَقَدْ أَمَرْتُ عَلَى اللَّئِيمِ يُسْبِنِي

وقوله: ﴿فَمِنْهُ يَا كَلُونُ﴾ بتقديم الظرف؛ للدلالة على أَنَّ الْحَبَّ هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ مُعْظَمُ الْعَيْشِ وَيَقُومُ بِالِارْتِزَاقِ مِنْهُ صِلَاحُ الْإِنْسَانِ، وَإِذَا قَلَّ جَاءَ

وَلَقَدْ أَمَرْتُ عَلَى اللَّئِيمِ يُسْبِنِي

إِنَّ قَوْلَهُ: «يُسْبِنِي» صِفَةٌ، لِكَوْنِهِ لَمْ يَقْصِدْ لئِيماً مَعْهُوداً، فَجَرَى فِي ذَلِكَ مَجْرَى الْمُنْكَرِ لَمَّا كَانَ بِاعْتِبَارِ الْمَوْجُودِ مِثْلَهُ (١).

قوله: (وَلَقَدْ أَمَرْتُ عَلَى اللَّئِيمِ يُسْبِنِي)، تَمَامُهُ:

فَمَضِيئْتُ نُمَّتْ قَلْتُ لَا يَعْنِينِي (٢)

فَإِنْ قُلْتُ: لِمَ تَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ «لَا يَعْنِينِي» حَالاً لَا صِفَةً وَيُرَادُ: لئِيمٌ مَعْهُودٌ؟ قُلْتُ: كَانَ الشَّاعِرُ يَصِفُ نَفْسَهُ بِالتَّوَدُّةِ، وَأَنَّهُ حَلِيمٌ ذُو أَنَاةٍ، وَلَا يَسْتَتِبُّ لَهُ ذَلِكَ بِمُرُورِهِ مَرَّةً عَلَى لئِيمٍ وَلَا مَرَّتَيْنِ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِكَ مَلَكَةً رَاسِخَةً.

قوله: (بتقديم الظرف) للدلالة على أَنَّ الْحَبَّ هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ مُعْظَمُ الْعَيْشِ يَعْنِي: عَقِيبَ إِخْرَاجِ الْحَبِّ الْأَكْلِ مَعَ تَقْدِيمِ صِفَةِ الْأَكْلِ الْمُفِيدِ لِلاخْتِصَاصِ. وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الْمَأْكُولَ غَيْرُ مُخْتَصِّ بِهِ، لَكِنْ قُدِّمَ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ الْأَصْلُ فِي الْارْتِزَاقِ وَالْمَأْكُولَاتُ تَابِعَةٌ لَهُ (٣)، أَلَا تَرَى أَنَّهُ إِذَا قَلَّ نَزَلَ الْقَحْطُ وَإِذَا حَصَرَ جَاءَ الْهَلَاكُ، فَالِدَوْرَانُ مَعَهُ، فِإِرَادَةُ التَّخْصِيسِ عَلَى الْمِبَالِغَةِ وَالْإِدْعَاءِ نَحْوِ إِطْلَاقِ اسْمِ الْجَنْسِ عَلَى فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِ كَحَاتِمِ الْجَوَادِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَقْدَمَ رِعَايَةً لِلْفَوَاصِلِ.

(١) انظر: «الكافية» لابن الحاجب بشرح الإسترابادي (٣: ٢٣٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) قوله: «تابعة له» سقط من النسخة (ط).

الْفَحْطُ ووقع الضَّرّ، وإذا فُقِدَ حَضَرَ الهلاكُ ونَزَلَ البلاء. **﴿وَفَجَّرْنَا﴾** بالثقل والتخفيف، والفَجْرُ والتفجير، كالفَتْحِ والتفتيح لفظاً ومعنى. **﴿ثَمَرِهِ﴾** بفتح تين، وضمّتين، وضمّة وسكون، والضميرُ لله تعالى، والمعنى: ليأكلوا ممّا خَلَقَهُ اللهُ مِنَ الثَّمَرِ **﴿و﴾** مِنْ **﴿مَاعَمَلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾** مِنَ الْغَرَسِ وَالسَّقِي وَالْإِبَارِ، وغير ذلك من الأعمال إلى أن بَلَغَ الثمرُ مُنتَهَاهُ وَإِبَانَ أَكْلِهِ، يعني أَنَّ الثمرَ فِي نَفْسِهِ فَعَلَ اللهُ وَخَلَقَهُ، وفيه آثَارٌ

قوله: **﴿وَقُرِّي﴾** **﴿وَفَجَّرْنَا﴾** بالثقل هي المشهورة.

قوله: **﴿وَقُرِّي﴾** **﴿ثَمَرِهِ﴾** بفتح تين وضمّتين بالضمّتين: حمزة والكسائي^(١). وقوله تعالى: **﴿مِنَ الْعَيْونِ﴾** «مِنْ» على قول الأَخْفَشِ زائدة، وعلى قولٍ غيرِه: المفعولُ محذوفٌ، أي: مِنَ الْعَيْونِ مَا تَنْتَفَعُونَ بِهِ.

قوله: **﴿و﴾** (والمعنى: ليأكلوا ممّا خَلَقَهُ اللهُ مِنَ الثَّمَرِ **﴿و﴾** مِنْ **﴿مَاعَمَلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾** «فما» على هذا موصولةٌ وهو مع^(٢) صِلَتِهِ، عَطْفٌ على ما بيّنه قوله: **﴿مِنَ الثَّمَرِ﴾** وهو ما خَلَقَهُ اللهُ. وتلخيصُه ما قال: إِنَّ الثَّمَرَ فِي نَفْسِهِ فَعَلَ اللهُ، وفيه آثَارٌ مِنْ كَدِّ بَنِي آدَمَ.

وعن بعضهم: في «ما عملته» ثلاثة أوجه: أحدها: أن تكون «ما» موصولة، والثاني: أن تكون نكرة موصوفة. وعلى الوجهين هو في موضع جرٍّ عَطْفاً على **﴿ثَمَرِهِ﴾**، ويجوزُ نَصْبُهُ على موضع **﴿مِنَ الثَّمَرِ﴾**. والثالث: أن تكون نافية، أي: ليأكلوا مِنْ ثَمَرِهِ ولم تعمله أيديهم، ويُقرأ بغير هاء. وتحتل الأوجه الثلاثة إلا أن كونها نافية ضعيف، لأن «عملت» لم يُذكر له مفعولٌ، وهو مِنْ قَوْلِ أَبِي الْبَقَاءِ^(٣).

قوله: **﴿وَالْإِبَارُ﴾**، الجوهري: تَأْبِيرُ النَّخْلِ: تَلْقِيحُهُ. يُقَالُ: نَخَلٌ مُؤَبَّرَةٌ، والاسمُ منه الإبار، على وَزْنِ الْإِزَارِ.

قوله: **﴿وإِبَانَ أَكْلِهِ﴾** إِبَانُ الشَّيْءِ بِالْكَسْرِ والتشديد: وَقْتُهُ، يُقَالُ: كُلُّ الْفَوَاكِهَةِ فِي إِبَانِهَا، أي: فِي وَقْتِهَا.

(١) ولتأمل الفائدة انظر: «حجّة القراءات» ص ٥٩٨.

(٢) في (ح) و(ف): «موضع».

(٣) انظر: «البيان في إعراب القرآن» (٢: ١٠٨٢) و«الكشف عن وجوه القراءات السبع» (٢: ٢١٦).

خَلَقَ اللهُ وَلَمْ تَعْمَلْهُ أَيْدِي النَّاسِ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ. وَقُرِئَ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ: (وما عملت) من غير راجع، وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك، وفي مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام مع الضمير. ﴿الْأَزْوَاجَ﴾: الأجناس والأصناف. ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾: ومن أزواج لم يُطلعهم اللهُ عليها ولا توصلوا إلى معرفتها بطريق من طرق العلم، ولا يبعد أن يخلق اللهُ تعالى من الخلائق الحيوان والجِهاد ما لم يجعل للبشر طريقاً إلى العلم به؛ لأنه لا حاجة بهم في دينهم ودنياهم إلى ذلك العلم، ولو كانت بهم إليه حاجة لأعلمهم بما لا يعلمون، كما أعلمهم بوجود ما لا يعلمون. وعن ابن عباس رضي الله عنه: لم يسمَّهم. وفي الحديث: «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بله ما أطلعتهم عليه» فأعلمنا بوجوده وإعداده، ولم يعلمنا به ما هو، ونحوه. ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وفي الإعلام بكثرة ما خلق مما علموه ومما جهلوه ما دلَّ على عظم قدرته واتساع ملكه.

﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [٣٧]

سَلَخَ جَلَدَ الشَّاةِ: إِذَا كَشَطَهُ عَنْهَا وَأَزَالَه. وَمِنْهُ: سَلَخَ الْحَيَّةَ لِحُرْشَائِهَا، فَاسْتَعِيرَ لِإِزَالَةِ الضُّوءِ وَكَشْفِهِ

قوله: (وَقُرِئَ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ) أي: على أن تكون «ما» موصولة. قال القاضي: وَيُؤَيِّدُهُ قِرَاءَةُ الْكُوفِيِّينَ عَنْ حَفْصِ بِلَاهَاءٍ، فَإِنَّ حَذْفَهُ مِنَ الصَّلَةِ أَحْسَنُ مِنْ غَيْرِهَا^(١).

قوله: (وَفِي الْحَدِيثِ: «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ») الحديث، أخرجه في سورة السجدة^(٢).

قوله: (وإعداده) أي: قوله: ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٣) [آل عمران: ١٣٣].

قوله: (فاستعير لإزالة الضوء وكشفه) يعني: استعار لإزالة الضوء السَّلَخَ، وهي

(١) «أنوار التنزيل» (٤: ٤٣٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) من قوله: «قوله: وفي الحديث: ما لا عين رأت» إلى هنا سقط من (ط).

عن مكان الليل ومُلقي ظله. ﴿مُظْلِمُونَ﴾: داخلون في الظلام، يقال: أظلمنا، كما تقول: أعتمنا وأدجينا.

استعارة تَبعية مُصرّحة، والجامع ما يُعقلُ مِن تَرْتبِ أَحدهما على الآخر.

وقوله: (عن مكان الليل ومُلقي ظله): ظاهره مُشعرٌ بأنَّ النهارَ طارٍ على الليل. قال المَرْزوقي: الآية دلت على أن الليلَ قَبْلَ النهارِ، لأنَّ المسلوخَ منه يكونُ قَبْلَ المسلوخِ، كما أنَّ المغطى قبل الغطاء^(١).

وقال الفراء: الأصلُ هي الظلمة، والنهارُ داخلٌ عليها إذا غرَبَتِ الشمسُ سُلخَ النهارِ من الليل، أي: كُشِطَ وأزِيلَ فتنظهُرُ الظلمة^(٢).

قال محيي السُّنة: معناه: نذهبُ بالنهارِ ونجِيءُ بالليلِ، وذلك أنَّ الأصلَ هي الظلمة، والنهارُ داخلٌ عليها^(٣).

ويؤيدُه ما روى الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ والترمذيُّ عن عبدِ الله بنِ عمرو بنِ العاصِ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ خلقَ خلقَه في ظلمة، ثم ألقى عليه من نوره، فمَن أصابه من نوره اهتدى، ومَن أخطأه ضلَّ»^(٤)، لكنَّ قولَه في سورة الرعدِ في قوله تعالى: ﴿يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الرعد: ٣] أي: يُلبِسه مكانه، فيصيرُ أسودَ مُظلماً بعدَ ما كان أبيضَ مُنيراً، مؤذناً بأنَّ بينَ الليلِ والنهارِ تواجلاً وتداخلاً، قال الله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥] قال^(٥): إنَّ الليلَ والنهارَ خِلْفَةٌ؛ يذهبُ هذا ويغشى مكانه هذا، وإذا غَشِيَ مكانه، فكانها ألبسه ولفَّ عليه كما يُلَفُّ اللباسُ على اللباسِ.

(١) انظر: «الأزمنة والأمكنة» للمرزوقي ص ٢١.

(٢) «معاني القرآن للفراء» (٢: ٣٧٨) بتصرفٍ ملحوظ.

(٣) «معالم التنزيل» (٧: ١٧).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٦٦٤٤) والترمذي (٢٦٤٢) وصححه ابن حبان (٦١٧٠) وفيه تمام تخريجه.

(٥) انظر ما سيأتي ص ٣٤٠.

[وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ

وأما قولُ صاحبِ «المفتاح»: المستعارُ له ظهورُ النهارِ والمستعارُ منه ظهورُ المسلوخِ من جلدته^(١)، فمأخوذٌ من تفسيرِ الزجاجِ قال: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَيْلٌ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ معنى نسلخُ: نُخْرِجُ مِنْهُ النَّهَارَ إِخْرَاجًا لَا يَبْقَى مَعَهُ شَيْءٌ مِنْ ضَوْءِ النَّهَارِ، وذلك من العلاماتِ الدالةِ على توحيدِ الله وقدرته^(٢)، فصَحَّ قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ أي: داخلونَ في الظلام. وفي «النهاية»: كَتَبَ عُمَرُ إِلَى [أبي] ^(٣) عبيدة رضي الله عنها: «فاظهر بمن معك من المسلمين إليها»، أي: إلى الأرض، يعني: اخرج بهم إلى ظاهرها^(٤).

وفي حديثِ عائشة رضي الله عنها: «كان يُصَلِّي العَصْرَ ولم يَظْهَرِ الفَيْءُ بَعْدُ مِنْ حُجْرَتِهَا»^(٥)، أي: لم يرتفع ولم يخرج إلى ظهريها.

وفي «المغرب»: أصلُ الظهورِ خلافُ الخفاءِ، وقد يُعَبَّرُ به عن الخروجِ والبُرُوزِ، لأنَّهُ يَرْدُفُ ذلك؛ أي: هو كنايةٌ عنه. هذا التفسيرُ موافق لما ذهب إليه المصنف؛ لأن الظهورَ بمعنى الزوال، وقد قال: «إذا كَشَطَهُ عَنْهَا وَأزَالَ». حكى الجوهري يقال:

وهذا أمرٌ ظاهرٌ عنك عارُهُ، أي: زائل.

وفي «النهاية»: لَمَّا قِيلَ لِابْنِ الزَّيْرِ: يَا ابْنَ ذَاتِ النِّطَاقِينَ، تَمَثَّلْ بِقَوْلِ أَبِي ذَوْيْبٍ^(٦):

وتلك سَكَاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها

يقال: ظَهَرَ عَنِي هَذَا الْعَيْبُ: إِذَا ارْتَفَعَ عَنكَ.

(١) «مفتاح العلوم» ص ١٧١.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٢٨٧).

(٣) زيادة من «النهاية» لابن الأثير وبها يستقيم الخبر.

(٤) انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٣: ١٥٠).

(٥) أخرجه البخاري (٥٤٥) ومسلم (٦١١).

(٦) الهنلي. وقد سبق تخريجُه. وانظر الخبر في «النهاية في غريب الحديث» (٣: ١٥٠).

حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْيَلُّ سَابِقَ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٨-٤٠﴾

﴿لُمُسْتَقَرِّ لَهَا﴾: لحدُّها مؤقَّتٌ مقدرٌ تنتهي إليه من فلَكِها في آخر السَّنَةِ، شُبِّهَ بمسْتَقَرِّ المسافر إذا قَطَعَ مسيرَه، أو لمتَّهَى لها من المشارق والمغارب؛ لأنها تنقِصُها مشرقاً ومشرقاً ومغرباً ومغرباً حتى تبلغ أقصاها، ثم ترجع، فذلك حدُّها ومستقرُّها؛ لأنها لا تُعَدُّوه، أو لحدُّها من مسيرها كلَّ يوم في مرأى عيوننا؛ وهو المغرب.

قوله: (لحدُّها مؤقَّتٌ مقدرٌ) بيانٌ لقوله: «مؤقَّتٌ»، فاللامُ في ﴿لُمُسْتَقَرِّ﴾ للاختصاص، لأنَّ جزيها مختصٌّ به كما تقول: أتيتُه لعشرِ خلونٍ من الشهر. قال المصنّف في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]: «لوقتنا الذي وقَّتنا له وحددنا، ومعنى اللام الاختصاص».

ولو قيل: إلى مُسْتَقَرِّها، كان للغاية والانتها، ومعنى الاختصاص يعودُ للانتها، لأنَّ جزيها لِمَا يَخْتَصُّ بها ينتهي إليه، ولهذا قال: ينتهي إليه.

قوله: (أو لمتَّهَى لها من المشارق والمغارب) يريدُ أنَّ الشمسَ كلَّ يوم لها مشرقٌ ومغربٌ إلى ستة أشهر إلى أن تنتهي إلى غاية ارتفاعها في زمانِ الصيف، فذلك حدُّها^(١) في الارتفاع لا تعدوه، ثم ترجع على تلك المُقنطراتِ ستة أشهر أخرى إلى أن تنتهي إلى غاية انخفاضها في زمانِ الشتاء، فذلك حدُّها في الانخفاض لا تعدوه، واختلافُ المشارق والمغارب بحسبِ ارتفاعها وانخفاضها وحركاتها المخصوصة شيئاً فشيئاً بحسبِ التدرُّج^(٢) أو التلوي، وهو المرادُ من قوله: لأنها تنقِصُها مشرقاً ومشرقاً ومغرباً ومغرباً.

الأساس: تقصَّيْتُ المكانَ: صرْتُ في أقصاهُ، وهو مِنِّي بالقصا^(٣)، أي: بالبُعد.

(١) في النسخة (ف): أخذها. وهي قراءةٌ محتملة.

(٢) سقط لفظ «التدرج» من النسخة (ط).

(٣) في النسخ الخطية: «بالقضايا» وهو على الجادة في «أساس البلاغة».

وقيل: مستقرها: أجلها الذي أقر الله عليه أمرها في جزيها، فاستقرت عليه؛ وهو آخر السنة. وقيل: الوقت الذي تستقر فيه وينقطع جزيها، وهو يوم القيامة.

وُقِرَى: (تجري إلى مستقر لها)، وقرأ ابن مسعود: (لا مُستقر لها) أي: لا تزال

قوله: (وقيل: مُستقرها: أجلها)، فعلى هذا: المستقر اسم الزمان، وعلى الأول: اسم

المكان.

قوله: (وقيل: الوقت الذي تستقر فيه وينقطع جزيها وهو يوم القيامة)، فالمستقر أيضاً: أجلها الذي أقر الله عليه أمرها في جزيها.

الأساس: يُقال: قرّرت عند الخبر فتقرّر، ويؤيد هذا التأويل ما روينا عن أبي ذر قال: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد عند غروب الشمس فقال: «يا أبا ذر، أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «تذهب لتسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، فيقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾». متفق عليه، أخرجه البخاري ومسلم والترمذي^(١).

قوله: (وقرأ ابن مسعود: «لا مستقر لها»^(٢)) قال ابن جني: قرأها ابن عباس وعكرمة وعطاء وظاهرها العموم، ومعناه الخصوص؛ لأن «لا» النافية^(٣) للجنس لا تدخل إلا نفيًا عامًا؛ فقولك: لا رجل عندي، جواب عن سؤال عام، أي: هل عندك قليل أو كثير من هذا الجنس الذي يُقال لواحدة: رجل؟ فقوله تعالى: «لا مُستقر لها» نفي أن تستقر أبداً، ونحن نعلم أن السماوات إذا زلن بطل سائر الشمس أصلاً، فاستقرت مما كانت عليه من السير. ونعوذ بالله أن نقول: إن حركتها دائمة كما تذهب إليه المُلحّدة. ونحوه قول الشاعر:

أبكي لفقْدِكَ ما ناحتْ مطوّفةٌ وما سما فنن يوماً على ساق

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٩) ومسلم (١٥٩) والترمذي (٢١٨٦).

(٢) من قوله: «فيقال لها: ارجعي من حيث جئت» إلى هنا، سقط من (ح).

(٣) في النسخ الخطية: «الثانية»، وهو على الجادة في «المحتسب».

تجري لا تستقر. وقرئ: (لا مُستقرُّ لها) على أن «لا» بمعنى «ليس». ﴿ذَلِكَ﴾ الجري على ذلك التقدير والحساب الدقيق الذي تكلُّ الفطن عن استخراجِه، وتحرير الأفهام في استنباطه، ما هو إلا ﴿تَقْدِيرٌ﴾ الغالب بقدرته على كلِّ مقدور، المحيط علماً بكلِّ معلوم.

قُرئ: (والقمرُ) رفعا على الابتداء، أو عطفاً على ﴿أَيُّلُ﴾ [يس: ٣٧]، يريد: ومن آياته القمر، ونصباً بفعلٍ يفسره ﴿قَدَّرْنَاهُ﴾، ولا بدَّ في ﴿قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ من تقدير مضاف؛ لأنه لا معنى لتقدير نفس القمر منازل، والمعنى: قدرنا مسيره منازل، وهي ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل القمر كلَّ ليلة في واحدٍ منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه،

أي: ما^(١) عشت أبداً بكيِّشك، كذلك «لا مُستقرُّ لها» ما دامت السماوات على ما هي عليه^(٢).

قوله: (على أن «لا» بمعنى «ليس») المعنى: ذلك الجري على ذلك التقدير: ليس بمُستقرٍّ للشمس، ذلك تقدير الغالب بقدرته على كلِّ مقدور.

قوله: (قُرئ: «والقمرُ»، رفعا على الابتداء) قرأها الكوفيون وابنُ عامرٍ: بالنصب، والباقون: بالرفع^(٣). قال أبو البقاء: «والقمرُ» بالرفع مُبتدأ، و﴿قَدَّرْنَاهُ﴾ الخبر، وبالنصب على فعلٍ مُضمَّر، أي: وقَدَّرْنَا القَمَرَ، لأنه معطوفٌ على اسمٍ قد عملَ فيه الفعل، فحُمِلَ على ذلك، ومن رفع قال: هو محمولٌ على ﴿وَأَيُّهُ لَهْمُ﴾ في الموضعين أو على ﴿وَالشَّمْسُ﴾ وهي أسماءٌ لم يعمل فيها فعل، و«منازل»؛ أي: ذا منازل، فهو حالٌ أو مفعولٌ ثانٍ لأن «قَدَّرْنَا» بمعنى: صَيَّرْنَا، وقيل: التقدير: قَدَّرْنَا له منازل^(٤).

(١) كذا في النسخ الخطية، وفي «المحتسب»: لو.

(٢) «المحتسب» (٢: ٢١٢).

(٣) وهو الذي رجحه مكِّي في «الكشف عن وجوه القراءات» (٢: ٢١٦) وعلَّله بأن عليه أهل الحَرَمِين وأبا عمرو بن العلاء.

(٤) «البيان في إعراب القرآن» (٢: ١٠٨٢-١٠٨٣).

على تقدير مستوٍ لا يتفاوت، يَسِيرُ فيها من ليلةِ المسْتَهْلِ إلى الثامنة والعشرين، ثم ليلتَيْنِ أو ليلةً إذا نقصَ الشهرُ، وهذه المنازلُ هي مواقعُ النجوم التي نَسَبَتْ إليها العربُ الأنواءَ المُستَمطَرة، وهي: الشَّرطان،

قوله: (الأنواءُ المُستَمطَرة)، المغرب: الأنواء: جمع نَوْءٍ وهي منازلُ القمرِ. وكانت العربُ^(١) تعتقدُ أنَّ الأمطارَ والخيرَ كلُّهُ يجيءُ منها^(٢).

الجوهرى: النَوْءُ: سقوطُ نَجْمٍ من المنازلِ في المغربِ مع الفجرِ، وطلوعُ رَقِيهِ من المَشْرِقِ، ويُقابله من ساعته في كلِّ ليلةٍ إلى ثلاثةَ عَشَرَ يوماً، وهكذا كلُّ نَجْمٍ منها إلى انقضاءِ السِنَةِ ما حَلا الحَبْهَةَ^(٣)، فإن لها أربعةَ عشرَ يوماً. قال أبو عبيد: ولم نَسْمَعْ في النوءِ أنَّه السقوطُ إلَّا في هذا الموضع، والعربُ تُضيفُ الأمطارَ والرياحَ والحَرَ والبرَدَ إلى الساقطِ منها. وقال الأصمعيّ: إلى الطالعِ منها في سُلطانهِ فتقولُ: مُطِرْنَا بنوءِ كَذَا، والجمعُ أنواءٌ ونُوآنٌ أيضاً مثلُ عَبْدٍ وعُبدانٍ وبَطْنٍ وبُطنانٍ.

قوله: (الشرطين^(٤))، قال المرزوقي في كتاب «الأزمنة والأمكنة»: الشَّرطانِ سُمِّيَ بذلك لأتَمِّها كالعَلامَتَيْنِ، أي: سقوطُهما علامةٌ ابتداءً المطرِ، والشرطُ: العلامةُ، ولهذا قيل لأصحابِ السُلطانِ: الشَّرطُ لأنَّهم يلبسونَ السوادَ كأَتَمِّهم جَعَلُوا لأنفُسِهِم علامَاتٍ يُعرَفونَ بها، ويقال: أَيْمها قَرْنَا الحَمَلَ، وهما أوَّلُ نُجومِ فصلِ الربيعِ ونوؤه ثلاثةَ أيامٍ^(٥).

والبطين: وسُمِّيَ بذلك لأنَّه بَطْنُ الحَمَلِ، ونوؤه ثلاثِ لَيالٍ^(٦).

(١) سقط لفظ «والعرب» من النسخة (ف).

(٢) «المغرب في ترتيب المغرب» (٢: ٣٣٢).

(٣) في النسخة (ط): «الجهة»، وهو على الجادة في «الصحاح» (نوء).

(٤) كذا في الأصول الخطية؛ بالياء، وكذا هو في نص «الكشاف» من (ط)، لكن في الأصل الخطي من «الكشاف» وفي (ط): «الشرطان» بالألف.

(٥) «الأزمنة والأمكنة» ص ٢٣٤.

(٦) في النسخة (ف): «ثلاثة أيام»، وهو على الجادة في «الأزمنة والأمكنة» ص ٢٣٤ وزاد بعده: وهو شرُّ الأنواءِ وأنزرها، وقلَّما أصابهم إلَّا أخطأهم نوءُ الثريا.

والثريا: وَيُسَمَّى النَجْمَ وَالنَّظْمَ، وهو تصغيرُ ثُرْوَى من الكثرةِ وَتَوَّهَ خَمْسُ لِيَالٍ^(١).
والدَّبْرَان: وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ دَبَّرَ الثُّرْيَا، أَي: صَارَ خَلْفَهَا وَيُسَمَّى الْمَجْدَحَ، وَتَوَّهَ
ثَلَاثُ لِيَالٍ.

فإن قيل: أتقول لكل ما دبر كوكباً الدبران؟ قلت: لا، لأنه قد يختص الشيء من جنسه
بالاسم حتى يصير علماً له، وإن كان المعنى يعم الجميع، وعلى ذلك قولهم: النابغة، في
الجعدي [والذبياني]^(٢)، وابن عباس في عبادة، وأنشد:

وردن اعتسافاً والثريا كأتها . على قمة الرأس ابن ماءٍ مُحَلَّقٍ
تبدت^(٣) على آثارها دبرانها . فلا هو مسبوقة ولا هو يلحق^(٤)

والهَقْعَةُ: تَشْبِيهَا سَمِيَتْ بِذَلِكَ تَشْبِيهَا بِهَقْعَةِ الدَابَّةِ تَكُونُ عِنْدَ رِجْلِ الْفَارَسِ فِي جَنْبِ
الدَّابَّةِ، يُقَالُ: فَرَسٌ مَهْقُوعٌ، وَهِيَ ثَلَاثَةُ كَوَاكِبَ تُسَمَّى رَأْسَ الْجُوزَاءِ وَنَوَّهَ سِتُّ لِيَالٍ، وَلَا
يَذْكُرُونَ نَوَّهَهَا إِلَّا بَنُو الْجُوزَاءِ، وَتُسَمَّى الْأَثَائِي لِأَنَّهَا ثَلَاثَةٌ صِغَارٌ مَنَقَاةٌ^(٥).

والهنعة: وهي منكبُ الجوزاء الأيسر، وسميت بذلك من قولهم: هنت الشيء: عطفته
وثبتت بعضه على بعض، وكان كل واحدٍ منها مُنْعَطَفٌ على صاحبه، ونوؤها لا يذكر،
وهو ثلاثُ ليالٍ، وإنما يكونُ في نوءِ الجوزاء. والذراع: ذراعُ الأسد وله ذراعان: مقبوضةٌ
ومبسوطة، ونوؤها خمسُ ليالٍ، وقيل: ثلاثُ ليالٍ وأحدُ كوكبي الذراع الغميصاء وهي تُقابلُ
العَبُورَ وَالْمَجْرَةَ. ويُقالُ لِكوكبِهَا الْآخِرِ: الشَّهَالُ الْمُرْزَمُ، وَيُرْوَى^(٦) وَمُرْزَمُ الْجُوزَاءِ، وَلَا نَوَّهَ لَهَا.

(١) «الأزمنة والأمكنة» ص ٢٣٤.

(٢) زيادة من كلام المرزوقي في «الأزمنة والأمكنة» ص ٢٣٤.

(٣) كذا في النسخ الخطية، ووقع في «الأزمنة والأمكنة»: يدف، من الدفيف، وهو السير اللين.

(٤) «الأزمنة والأمكنة» ص ٢٣٥.

(٥) وفي «الأزمنة والأمكنة»: متعينة.

(٦) هذا نقلٌ غير محرر عن المرزوقي في «الأزمنة والأمكنة» ص ٢٣٥ وعبارته ثمة:

وناحية صوتها رابعٌ بعثت إذا خنق المرزم

ويروى: إذا ارتفع المرزم. انتهى. فعبارة الطيبي لا تخلو من اختصار يقف على تخوم الإخلال.

والنَّثْرَةُ: وهي ثلاثة كواكب، وسُمِّيَتْ نَثْرَةً لِأَنَّهَا مَحْطَةٌ مَحْطَهَا الْأَسَدُ^(١) كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ سَحَاب. وَيَجُوزُ أَنْ تُسَمَّى بِذَلِكَ لِأَنَّهَا كَأَنَّهَا مِنْ سَحَابٍ قَدْ نَثَرَ، وَالنَّثْرَةُ الْأَنْفُ، وَتَوَوَّهَا سَبْعُ لَيَالٍ.

وَالطَّرْفُ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا عَيْنَا الْأَسَدِ، يُقَالُ: طَرَفَ فُلَانٌ، أَي: رَفَعَ طَرْفَهُ، وَنَوَّوهُ ثَلَاثُ لَيَالٍ.

وَالجِبْهَةُ: جِبْهَةُ الْأَسَدِ، وَتَوَوَّهَا سَبْعُ لَيَالٍ.

وَالزُّبْرَةُ: زُبْرَةُ الْأَسَدِ، أَي: كَاهِلُهُ، وَقِيلَ: زُبْرَتُهُ شَعْرُهُ الَّذِي يَزُبُّ عِنْدَ الْغَضَبِ فِي قَفَاهُ، وَتَوَوَّهَا أَرْبَعُ لَيَالٍ.

وَالصَّرْفَةُ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْبَرْدَ يَنْصَرِفُ بِسُقُوطِهَا، وَقِيلَ: أَرَادُوا صَرْفَ الْأَسَدِ رَأْسَهُ مِنْ قَبْلِ ظَهْرِهِ، وَأَيَّامُ الْعَجُوزِ فِي نَوْنِهَا وَهُوَ ثَلَاثُ لَيَالٍ.

وَالعَوَاءُ: يُمَدُّ وَيُقَصَّرُ، وَالْقَصْرُ أَجْوَدُ وَأَكْثَرُ، وَهِيَ خَمْسَةُ كَوَاكِبٍ^(٢) كَأَنَّهَا أَلْفٌ مَعْطُوفَةٌ الذَّنْبِ، وَسُمِّيَتْ الْعَوَاءَ لِلانِعْطَافِ وَالِاتِّوَاءِ الَّذِي فِيهَا، تَقُولُ الْعَرَبُ: عَوَيْتُ الشَّيْءَ: عَطَفْتُهُ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ «عَوَى»: إِذَا صَاحَ، كَأَنَّهُ يَعْوِي فِي أَثْرِ الْبَرْدِ. وَهَذَا سُمِّيَتْ طَارِدَةً الْبَرْدِ، وَتَوَوَّهَا لَيْلَةً^(٣).

وَالسَّمَاكُ: سُمِّيَ السَّمَاكُ الْأَعَزَلُ لِأَنَّ السَّمَاكَ الْآخَرَ يُسَمَّى رَاحِمًا لِكُوكِبِ تَقَدَّمَهُ كَأَنَّهُ رُحْمُهُ، وَنَوَّوهُ أَرْبَعُ لَيَالٍ، وَسُمِّيَ سِمَاكًا لِأَنَّهُ سَمَكٌ، أَي: ارْتَفَعَ.

وَالغَفْرَةُ: وَهِيَ ثَلَاثَةُ كَوَاكِبٍ. قِيلَ: هُوَ مِنَ الْغَفْرَةِ، وَهُوَ الشَّعْرُ الَّذِي فِي طَرَفِ ذَنْبِ

(١) يعني برج الأسد، فهي متناثرة حوله.

(٢) في النسخة (ف) و(ط): «جمّة الكواكب».

(٣) «الأزمة والأمكنة» ص ٢٣٠، ونقل عن بعضهم أنها إنما سميت العواء لأنها خمسة كواكب، كأنها خمسة كلاب تعوي خلف الأسد.

الأسد، وقيل: سُمِّيَت العَفْرَةُ لأَنتها يَنْقُصُ صَووُها، ويقال: عَفَرْتُ الشَّيْءَ: إِذا عَطَيْتَهُ، فعلى هذا هو في معنى مفعول. ونوؤها ثلاثُ لِيالٍ، وقيل: بل ليلة^(١).

والزَّباني: وسُمِّيَ بزباني العُقرب^(٢)، وهما قَرْنَاهَا. كوكبانِ [وهو] مأخوذٌ من الزين: الدَّفْع. وكلُّ واحدٍ منهما مُنْذَعٌ عن صاحبه غيرُ مَقارِنٍ له، ونوؤها ثلاثُ لِيالٍ.

والإكليل: وهي ثلاثةُ كواكبٍ مُصْطَفَّةٌ على رأسِ العُقرب، ولذلك سُمِّيَتْ به، كأنه من التكلُّل وهو الإحاطة. ونوؤها أربعُ لِيالٍ، وهو من العُقرب^(٣).

والقَلْبُ: وهي كوكبٌ أَحْمَرٌ نَيِّرٌ. سُمِّيَ بالقَلْبِ لأنَّه في قَلْبِ العُقرب، ونوؤها ليلة. والقلوبُ أربعة: قَلْبُ العُقرب، وقَلْبُ الأَسَدِ، وقَلْبُ الثور، وهو الدَّبْران، وقَلْبُ الحوت.

والشَّوْلة: سُمِّيَتْ بذلك لأَنتها ذَنْبُ العُقرب، وذَنْبُها سائِلٌ^(٤) أَبداً. والحجازيون يُسَمُّونها الإِبْرَةَ، ونوؤها ثلاثُ لِيالٍ، وهما كوكبانِ مُضِيَّتان.

والنعائم: وهي ثمانيةُ كواكبٍ: أربعةٌ منها في المَجْرَّةِ وتُسَمَّى الوارِدة، لأَنتها شَرَعَتْ في المَجْرَّةِ كأنَّها تشرب، وأربعةٌ خارِجةٌ تُسَمَّى الصادِرة، وإِنما سُمِّيَتْ نَعائِمَ تشبيهاً بالخشبِاتِ التي تكونُ على البئر، ونوؤها ليلة.

والبلْدَةُ: وهي فُرْجَةٌ بين النعائمِ وبين سَعِدِ الذابِحِ، وهو موضعٌ خالٍ ليس فيه كوكبٌ،

(١) «الأزمنة والأمكنة»، ص ٢٣١، وأنشد لبعضهم:

فلَمَّا مضى نَووُ الثرِيَا وأَخْلَفَتْ هِوَادٍ مِنَ الْجُوزَاءِ وانعَمَسَ العَفْرُ

(٢) في «الأزمنة والأمكنة»: «العرب»، وهو خطأ.

(٣) «الأزمنة والأمكنة» ص ٢٣١، وأنشد لجرانِ العَوْدِ يَصِفُ رُفقاءه:

مُطَرِّفِينَ على مِثْنَى أَيْسا مِنْهُمْ راموا النِزْوَلَ وقد غابَ الأَكالِيلِ

قال المرزوقي: جمع الإكليل، كأنه جعل كل كوكبٍ إكليلاً، ثم جمعه.

(٤) أي: مرتفع.

البُطِين، الثُّرَيَّا، الدَّبْرَان، الهَقْعَةُ، الهَنْعَةُ، الذَّرَاع، النَّثْرَةُ، الطَّرْف، الجَبْهَةُ، الزُّبْرَةُ، الصَّرْفَةُ، العَوَّا، السَّمَك، الغَفْرُ، الزُّبَانِي، الإكْلِيل، القَلْب، الشَّوْلَةُ، النَّعَائِم، البَلْدَةُ، سَعْدُ الذَّابِح، سَعْدُ بُلْع، سَعْدُ السُّعُود، سَعْدُ الأَخْيِيَّة، فَرَعُ الدَّلْوِ المُقَدَّم، فَرَعُ الدَّلْوِ المُؤَخَّر، الرَّشَاء. فإذا كَانَ فِي آخِرِ مَنْزَلِهِ دَقٌّ وَاسْتَقْوَسَ، و﴿عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾؛ وَهُوَ عُوْدُ العِدْق، مَا بَيْنَ شَهَارِيخِهِ إِلَى مَنْبِتِهِ مِنَ النَّخْلَةِ. وَقَالَ الزَّجَاجُ: هُوَ فَعْلُون، مِنَ الانْعِرَاجِ؛ وَهُوَ الانْعِطَافُ. وَقُرئ: (العُرْجُونُ) بِوِزْنِ الفِرْجُونِ؛ وَهِيَ لُغْنَانُ،

وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ تَشْبِيهًا بِالفُرْجَةِ الَّتِي تَكُونُ بَيْنَ الحَاجِبَيْنِ غَيْرَ مَقْرُونَيْنِ^(١). يُقَالُ: رَجُلٌ أْبَلَدٌ؛ إِذَا اقْتَرَنَ حَاجِبَاهُ. وَنَوَوُهَا ثَلَاثُ لَيَالٍ، وَقِيلَ: لَيْلَةٌ.

والذابح: سُمِّيَ بِذَلِكَ لِكَوْكَبٍ بَيْنَ يَدَيْهِ يُقَالُ: هُوَ شَأْنُهُ الَّتِي تُذْبَحُ. وَنَوَوُهُ لَيْلَةٌ.

والبلع: سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ الذَّابِحَ مَعَهُ كَوْكَبٌ بِمَنْزِلَةِ شَاتِهِ، وَهَذَا لَا كَوْكَبَ مَعَهُ، فَكَأَنَّهُ قَدْ بَلَعَ شَاتَهُ. وَقِيلَ: سُمِّيَ بِهِ لِأَنَّ صُورَتَهُ صُورَةٌ فَمِ فُتِحَ لِيَبْلَعَ، وَنَوَوُهُ لَيْلَةٌ.

وسعد السُّعُود: سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ فِي وَقْتِ طُلُوعِهِ ابْتِدَاءً مَا بِهِ يَعِيشُونَ وَتَعِيشُ مَوَاشِيَهُمْ، وَنَوَوُهَا لَيْلَةٌ.

وسعد الأَخْيِيَّة: وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِكَوْكَبٍ فِي كَوَاكِبِهَا عَلَى صُورَةِ الحِجَابِ. وَقِيلَ: لِأَنَّهُ يَطْلُعُ قَبْلَ الدَّفْعِ فَيُخْرِجُ مِنَ الهَوَامِّ مَا كَانَ مُحْتَبَأً. وَنَوَوُهُ لَيْلَةٌ.

وفرعُ الدَّلْوِ المُقَدَّم: وَيُقَالُ الأَعْلَى. وَقَالَ: إِنَّمَا سُمِّيَ بِهِ لِأَنَّ فِي وَقْتِهِ تَأْتِي الأمْطَارُ كَثِيرًا، فَكَأَنَّهُ فَرَعُ دَلْوٍ، وَهُوَ مَصَّبُ المَاءِ، وَنَوَوُهُ ثَلَاثُ لَيَالٍ.

وفرعُ الدَّلْوِ المُؤَخَّر: وَنَوَوُهُ أَرْبَعُ لَيَالٍ.

والرِشَاءُ: وَهُوَ السَّمَكَةُ، وَيُقَالُ: بَطْنُ السَّمَكَةِ وَقَلْبُ الحُوتِ. تَمَّ كَلَامُ المَرْزُوقِيِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قوله: (العُرْجُونُ) وَهُوَ المِحْسُ، أَي: مُسْطَطٌ تُدَلِّكُ بِهِ الدَّابَّةُ مِنَ الحَدِيدِ.

(١) فِي (ح) وَ(ف): «مُقَرَّنِينَ»، وَصَوَّبْنَاهُ مِنَ «الأَزْمَنَةِ وَالأَمَكَنَةِ» ص ٢٣٢.

كالبزبيون والبزبيون؛ والقديم المحول، وإذا قَدَمَ دَقٌّ وانحنى واصفرَّ، فُسِبَّ به من ثلاثة أوجه. وقيل: أقلُّ مدَّة الموصوفِ بالحوْل، فلو أن رجلاً قال: كلُّ مملوك لي قديم فهو حُرٌّ، أو كَتَبَ ذلك في وصيته: عَتَقَ منهم مَنْ مَضَى له حَوْلٌ وأكثر. وقرئ: (سابقُ النهار) على الأصل، والمعنى: أن الله تعالى قَسَمَ لكلِّ واحدٍ من الليل والنهار

قوله: (البزبيون والبزبيون)، الجوهري: بالضمِّ: السُّنْدَس.

قوله: (والقديمُ المحوْلُ)، الجوهري: أحالَ عليه الحوْلُ، أي: حالٌ وأحالت الدارُ وأحوَلت، أي: أتى عليه حَوْلٌ، فهو مُحِيلٌ. قال الكُمَيْت:

وما أنتَ والطلُّ المُوْحِلُ؟^(١)

قوله: (فُسِبَّ به من ثلاثة أوجه) أي: هو مِن تشبيه الهيئة الحاصلة من مجموع أمورٍ بمثلها، نحو تشبيه النجمِ بعنقودِ الكرمِ في الهيئة الحاصلة من تقارُن الصور البيض المستديرة الصغارِ المقاديرِ في المرثيِّ على كيفية مخصوصة إلى مقدارٍ مخصوص، وفي معنى التدرُّجِ والعودِ الذي يُعْطِيَانِه «حتى» و«عاد» الإشعارُ بأنَّ الابتداءَ إنما هو من الشَّبهِ بالعُرْجونِ حتى يتدرَّج إلى أن يصيرَ بَدْرًا ثم ينزِلُ إلى العودِ إلى ما بُدِيَ منه.

قوله: (وقرئ: «سابقُ النهار» على الأصل^(٢))، قال أبو البقاء: وقرأ بعضهم: «سابقُ النهار» بالنصبِ بلا تنوين، وهو ضعيفٌ، وجوازُهُ على أن يكونَ حذفَ التنوينِ لالتقاءِ الساكنين^(٣).

(١) صَدْر البيت:

أبْكَأَ بِالْعُرْفِ الْمُنزِلُ؟

(٢) قد ذكر المبرِّد في «الكامل» (١: ٢٠١) أنه سمع عمارة بن عقيل يقرأ ﴿وَلَا أَيْلَ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ بضم القاف من «سابق» ونصب الراء من «النهار»، فقال له: ما تريد؟ فقال: ﴿سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يعني بالتنوين. ولتمام الفائدة انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣٣).

(٣) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١٠٨٣).

وَأَيَّتَيْهَا قِسْمًا مِنَ الزَّمَانِ، وَضَرَبَ لَهُ حَدًّا مَعْلُومًا، وَدَبَّرَ أَمْرَهُمَا عَلَى التَّعَاقُبِ، فَلَا يَنْبَغِي

قوله: (وَأَيَّتَيْهَا قِسْمًا مِنَ الزَّمَانِ) عطفٌ تفسيريٌّ على قوله: «الليل والنهار» نَحْو: أَعْجَبَنِي زَيْدٌ وَكَرُمَهُ، وَهُمَا النِّيْرَانِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَحْوَنَاءَ آيَةِ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] وَإِنَّمَا فَسَّرَ بِهِ لِيَنْطَبِقَ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ كَأَنَّهُ قِيلَ: وَلَا الْقَمَرُ سَابِقُ الشَّمْسِ لِيَنْطَبِقَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. قَالَ الْقَاضِي: وَإِبْلَاءٌ حَرْفِ النَّفْيِ الشَّمْسَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهَا مُسَخَّرَةٌ لَا يَتَيَسَّرُ لَهَا إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهَا^(١).

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مِنَ الْمُغْضَلَاتِ، وَقَدْ زَادَ فِي إِشْكَالِهَا عِبَارَةَ الْمُصَنِّفِ؛ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ مَعْنَاهُ: لَا يَتَسَهَّلُ لَهَا أَنْ تَتَصَرَّفَ فِي سُلْطَانِ الْقَمَرِ، وَفِي اللَّيْلِ لَوْ قَوَّعَ التَّدْبِيرَ^(٢) فِي الْمَعَاقِبَةِ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَذَلِكَ أَنَّ سُلْطَانَ الْقَمَرِ فِي اللَّيْلِ فَلَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ فِيهِ، فَتُزِيلُ سُلْطَانَهُ وَتَصْرِفُهُ عَنِ مَطَارِحِ ضِيَائِهِ وَصَبْغِهِ الْفَوَاكِهَ^(٣) وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا الْيَلُّ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ مَعْنَاهُ: لَا يَتَسَهَّلُ لِلْقَمَرِ أَنْ يَكُونَ ذَا سُلْطَانٍ فِي النَّهَارِ بَلْ تَرَاهُ جِزْمًا لَا نُورَانِيَّةَ لَهُ، وَلَا بَهَاءَ فِيهِ، فَضَلًّا أَنْ يُزِيلَ سُلْطَانَ الشَّمْسِ.

تَلْخِيصُهُ: أَنَّ كَلًّا مِنْهَا مُدَبَّرٌ بِأَمْرِ مَعْلُومٍ وَمَقَامٍ مُخْتَصِّصٍ بِهِ، وَتَسْخِيرٌ مُعَيَّنٌ فِي السَّيْرِ، نَحْوُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِتًّا إِلَّا لَهُ، مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] وَيَنْصُرُهُ النَّظْمُ.

أَمَّا السِّبَاقُ فَقَوْلُهُ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا.. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ وَالسِّبَاقُ ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: وَلَا يَزَالُ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ إِلَى أَنْ يُبْطَلَ^(٤) اللَّهُ مَا دَبَّرَ مِنْ ذَلِكَ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَتَصَرَّفَ فِي اللَّيْلِ

(١) «أنوار التنزيل» (٤: ٤٣٤).

(٢) في النسخة (ف): «الوقوع» وهو خطأ.

(٣) كذا في النسخ الخطية، ولم يتبين لي معناه.

(٤) في «النسخ الخطية»: يتصل. وهو تحريف.

للشمس - أي: لا يتسهّل لها، ولا يصحّ، ولا يستقيم؛ لوقوع التدبير على المعاقبة، وإن جُعِلَ لكلّ واحد من النيرّين سلطاناً على حياله - ﴿أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ فتجتمع معه في وقتٍ واحد، وتُدْخِلُهُ في سُلْطَانِهِ فَتَطْمَسَ نُورَهُ، وَلَا يَسْبِقُ اللَّيْلُ النَّهَارَ، يعني: آيةُ اللَّيْلِ آيةُ النَّهَارِ، وهما النيرّان، ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن يُبْطِلَ اللهُ مَا دَبَّرَ

ولا القمر أن يتصرّف في النهار. ويردّ على هذا التأويل إشكالٌ وهو أن يقال: إن كان المراد من ذلك عدمُ تسهّلِ تصرّف كلّ واحد في سلطان الآخر، فلمْ خولفَ بين العبارتين بالسبق والإدراك^(١)؟ وهو المراد من قوله: لمْ جُعِلَتِ الشَّمْسُ غَيْرَ مُدْرِكَةٍ وَالْقَمَرُ غَيْرَ سَابِقٍ؟

وخلاصةُ الجواب: أنه روعيَ المناسبةَ بين العبارتين لا غير، لأن إثباتَ صفةِ الإدراكِ وسلبها مُناسِبٌ لِلشَّمْسِ، كما أن إثباتَ صفةِ السبقِ ونفيها مُناسِبٌ لِلْقَمَرِ لِشُرْعَةِ سَيْرِ الْقَمَرِ وَبُطْءِ سَيْرِ الشَّمْسِ.

ويؤيّدُ هذا التأويلُ ما روى مُحمي السنّةِ عن بعضهم: لا يدخلُ أحدهما في سلطانِ الآخر؛ لا تَطْلُعُ الشَّمْسُ بِاللَّيْلِ^(٢)، ولا يَطْلُعُ الْقَمَرُ بِالنَّهَارِ وَلَهُ^(٣) ضَرْءٌ، فإذا اجتمعَا، وأدرك كل واحد منهما صاحبه، فلقد قامت القيامة. وقيل: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ أي: لا يجتمعُ معه في فلكٍ واحدٍ تم كلامه^(٤).

فإن قلت: لم عدل عن الظاهر، وأن يُقال: ولا القمرُ سابقُ الشمسِ كما صرح به المصنّف، ولا يسبقُ الليلُ النهارَ، أي: آيةُ الليلِ آيةُ النهارِ؟

قلت: ليؤدّنَ بالتعاقبِ بين الليلِ والنهارِ، ومنصوصيّةِ التدبيرِ على المعاقبة، فإنه مُستفادٌ من الحركةِ اليوميةِ التي مدارُ تصرّفِ كلّ واحدٍ منهما عليها، والله أعلم.

(١) في (ط): «والمراد واحد».

(٢) سقط لفظ «الليل» من النسخة (ط).

(٣) في النسخ الخطية: «له»، وهو على الجادة في «معالم التنزيل».

(٤) «معالم التنزيل» (٧: ١٩).

من ذلك، وينقُص ما أَلْف فيجمع بين الشمس والقمر، ويُطلِع الشمس من مغربها. فإن قلت: لم جُعِلَت الشمس غير مُدْرِكَة، والقمر غير سابق؟ قلت: لأن الشمس لا تقطع فلكها إلا في سنة، والقمر يقطع فلكه في شهر، فكانت الشمس جديرة بأن توصف بالإدراك؛ لتباطؤ سيرها عن سير القمر، والقمر خليقاً بأن يوصف بالسبق؛ لسرعة سيره. ﴿وَكُلُّ﴾ التنوين فيه عَوْضٌ من المضاف إليه، والمعنى: كلُّهم، والضميرُ للشمس والأقمار على ما سبق ذكره.

[﴿وَأَيُّهُ لَمَّمْنَا أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ * وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ * وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقَهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَدُونَ * إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [٤١-٤٤]

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: أولادهم ومن يهتهم حملهُ. وقيل: اسمُ الذرّيّة يقع على النساء؛ لأنهن مزارعُها، وفي الحديث: أنه نهي عن قتل الذراري، يعني النساء. ﴿مِن مِثْلِهِ﴾: من مثل الفلك ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ من الإبل، وهي سفائنُ البرّ. وقيل: ﴿الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾: سفينة

قوله: (والضميرُ للشمس والأقمار على ما سبق ذكره) أي: في «سورة الأنبياء»، قال فيها: «والضميرُ للشمس والقمر والمرادُ بهما جنسُ الطوالعِ كلِّ يوم وليلة، جعلوها متكاثرةً لتكاثُرِ^(١) مطالعها» وقد شرّخناه. وإنما جُمِعَا بالواو والنون لهما وصفاً بما يختصُّ بذوي العقول وهو السَّبْح. قال الزجاج: ومعنى «يسبحون» يسرون^(٢) فيه بانسباط، وكُلُّ مَنْ انبسط في شيء فقد سَبَح فيه، ومن ذلك السباحة في الماء^(٣).

قوله: (وقيل: اسمُ الذرّيّة يقع على النساء لأنهن مزارعُها)، قال في «الفائق»: قال حنظلة الكاتب: كنا في غزاة مع^(٤) رسولِ الله ﷺ. فرأى امرأةً مقتولةً فقال: «هاه! ما كانت

(١) سقط لفظ «لتكاثُر» من النسخة (ف).

(٢) قوله: «يسرون» سقط من (ح) و(ف).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٢٨٨).

(٤) في النسخ الخطية: «عند». وصوبناه من «الفائق» ومصادر التخریح.

نوح، ومعنى حَمَلَ اللهُ ذُرِّيَّاتِهِمْ فِيهَا: أَنَّهُ حَمَلَ فِيهَا آبَاءَهُم الْأَقْدَمِينَ، وَفِي أَصْلَابِهِمْ هُم وَذُرِّيَّاتِهِمْ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ ذُرِّيَّاتِهِمْ دُونَهُمْ؛ لِأَنَّهُ أْبْلَغُ فِي الْإِمْتِنَانِ عَلَيْهِمْ، وَأَدْخَلَ فِي التَّعْجِيبِ مِنْ قُدْرَتِهِ، فِي حَمْلِ أَعْقَابِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي سَفِينَةِ نُوحٍ. ﴿وَمِنْ مِثْلِهِ﴾: مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ الْفُلْكِ مَا يَرَكِبُونَ مِنَ السُّفُنِ وَالزُّوَارِقِ. ﴿فَلَا صَرِيحٌ﴾: لَا مُغِيثٌ. أَوْ: لَا إِغَاثَةَ. يُقَالُ: أَتَاهُمُ الصَّرِيحُ. ﴿وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ﴾: وَلَا يُنْجُونَ مِنَ الْمَوْتِ بِالْفَرْقِ ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾: إِلَّا لِرَحْمَةٍ مَنَّا وَلِتَمْتَعِ بِالْحَيَاةِ، ﴿إِلَى حِينٍ﴾: إِلَى أَجَلٍ يَمُوتُونَ فِيهِ لَا بَدَّ لَهُمْ مِنْهُ بَعْدَ النِّجَاةِ

هذه تُقَاتِلُ، الْحَقُّ خَالِدًا وَقَلٌّ: لَا تَقْتُلَنَّ ذُرِّيَّةً وَلَا عَسِيفًا^(١). وَهِيَ تَسْأَلُ الرَّجُلَ^(٢)، وَقَدْ أَوْعَتْ عَلَى النَّسَاءِ كَقَوْلِهِمْ لِلْمَطْرِ سَمَاءً.

وقال الراغب: الذرية: أصلها الصغار من الأولاد، وإن كان يقع على الصغار والكبار معاً في التعازف، ويستخدم في الواحد والجمع، وأصلها الجمع، قال الله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٣٤] وفيه ثلاثة أقوال: قيل هو مَنْ ذَرَأَ اللهُ السَّخْلَقَ فَتَرَكَ هَمْزُهُ كـ «رَوِيَّةٍ»، و«برية» وقيل: أصله ذرؤية، وقيل: هو فُعْلِيَّةٌ^(٣) مِنَ الذَّرِّ نَحْوُ قُمْرِيَّةٍ^(٤).

قوله: (لا مُغِيثٌ أَوْ لَا إِغَاثَةَ) وفي «اللباب»: الصريح والصارخ: المغيث، والصريح والصارخ: المُسْتغِيثُ.

قوله: (لا يُنْجُونَ مِنَ الْمَوْتِ بِالْفَرْقِ) ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ (إلا لرحمة منا) مُشْعِرٌ بِأَنَّ الْإِسْتِثْنَاءَ مُتَّصِلٌ وَالْمُسْتَثْنَى مِنْهُ أَعْمُ عَامِّ الْمَفْعُولِ لَهُ.

(١) «الفاثق في غريب الحديث» (٢: ٧) والحديث أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٧٦١٠) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢: ٣٨٢) وابن ماجه (٢٨٤٢) والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٦٢٧) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣: ٢٢٢) وصححه ابن حبان (٤٧٩١) وانظر تمام تنقيده في «مسند الإمام أحمد».

قلت: العسيف: الأجير.

(٢) في (ح) و(ف): «للرجل».

(٣) في النسخ (ف): «فعيلة»، وسقط هذا اللفظ من النسخة (ط).

(٤) «مفردات القرآن» ص ٣٢٧.

من موتِ العَرَقِ. ولقد أحسنَ مَنْ قال:

ولم أسلمَ لِكَيِّ أَبْقَى، وَلَكِنْ سَلِمْتُ مِنَ الْحِمَامِ إِلَى الْحِمَامِ

وقرأ الحسنُ رضي الله عنه: (نغرِّفهم).

[﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ

آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٤٥-٤٦﴾]

قال أبو البقاء: هو مفعولٌ له أو مصدر، وقيل: استثناء منقطع^(١). وقد اختار المصنّف في «الأنعام» هذا وتقديره: ولا هم ينجون من العَرَقِ البتّة ولكن رَحْمَةً رَبِّي هي التي تُنجيهم. قوله: (ولم^(٢) أسلم) البيت^(٣). يقول: إن أسلم من مَرَضٍ لم أَبْقِ خالداً، ولكن سَلِمْتُ من الموتِ بهذا المرضِ إلى الموتِ بمرضٍ أو سَبَبٍ آخر.

الانتصاف: القائل أبو الطيب، أخذ المعنى من هذه الآية، أخبر الله تعالى أنهم إن يَسلموا من موتِ العَرَقِ فذلك سَلَامَةٌ إلى أجل يموتون فيه لا بد لهم منه^(٤).

قوله: (﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ كقوله: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [سبأ: ٩]) وجهُ المشابهة: إحاطة العذابِ بهم من كلِّ أدب^(٥)، وأنهم أينما ساروا فإنه أمامهم وخلفهم مُحِيطٌ بهم لا يَقْدرون الخروجَ عما هم فيه يدل عليه قوله ﴿إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ: ٩] وهذا هو الوجهُ لقوله ﴿فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقِذُونَ﴾^(٦) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا﴾ ولذلك قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

(١) «البيان في إعراب القرآن» (٢: ١٠٨٣).

(٢) كذا في النسخ الخطبية وفي «الكشاف»: «ولم»، وفي «ديوان المتنبي»: «وان»، وعليه يدور كلام الواحدي في «الشرح».

(٣) «ديوان المتنبي» بشرح الواحدي (١: ٣٣٧).

(٤) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ١٨).

(٥) كذا في (ح) و(ف)، ولعل الصواب «حذب».

(٦) من قوله: «أدب وأنهم أينما ساروا» إلى هنا سقط من (ط).

﴿ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ أَفَتَرَبُّوا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [سبا: ٩]، وعن مجاهد: ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر. وعن قتادة: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ من الوقائع التي خَلَّتْ، يعني: من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذبة بأنبيائها، ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾: من أمر الساعة، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴾: لتكونوا على رجاء رحمة الله. وجواب ﴿ إِذَا ﴾ محذوفٌ مدلولٌ عليه بقوله: ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾، كأنه قال: وإذا قيل لهم: اتَّقُوا: أَعْرَضُوا. ثم قال: ودأبهم الإعراض عند كل آية وموعظة.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ بَشَاءَ اللَّهُ أَطَعَمَهُ ۖ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [٤٧]

كانت الزنادقة منهم يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون:

قوله: (ودأبهم الإعراض عند كل آية) إشارة إلى أن قوله: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ ﴾ كالتذييل للكلام السابق.

قوله: (كانت الزنادقة). في «المغرب»: قال الليث: الزنديقُ معروف. وزندقته: أنه لا يؤمن بالآخرة ووخدانية الخالق. وعن ثعلب: ليس «زنديق» من كلام العرب، ومعناه ما تقول العامة: مُلحدٌ ودُهري^(١).

وقال الإمام: الزنادقة هم المانوية، وكان المزدكية يسمون بذلك، ومزدك هو الذي ظهر في أيام قباد، وزعم أن الأموال والحرم مشتركة، وأظهر كتاباً سماه «زندا»، وهو كتاب المجوس الذي جاء به زردشت الذي زعموا أنه نبي فَنَسِبَ أصحابُ مزدك إلى زُند، وعُرِبَت الكلمة ف قيل: زنديق^(٢).

(١) «المغرب في ترتيب المعرب» (١: ٣٧٠).

(٢) «مفاتيح الغيب» (١٣: ٨٩).

لو شاء الله لأغنى فلاناً، ولو شاء لأعزّه، ولو شاء لكان كذا؛ فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله. ومعناه: **أَنْطَعِمُ الْمَقُولَ فِيهِ هَذَا الْقَوْلُ بَيْنَكُمْ؟** وذلك أنهم كانوا دافعين أن يكون الغنى والفقير من الله؛ لأنهم معطلّة لا يؤمنون بالصانع. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان بمكة زنادقة، فإذا أمرُوا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله، أَيْفِرُهُ اللهُ وَنُطْعِمُهُ نَحْنُ؟! وقيل: كانوا يُوهِمُونَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا كَانَ قَادِرًا عَلَى إِطْعَامِهِ وَلَا يَشَاءُ إِطْعَامَهُ فَنَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ. نزلت في مشركي قُريش حين قال فقراء أصحاب رسول الله ﷺ: **أَعْطُونَا مِمَّا زَعَمْتُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ أَنَهَا لِلَّهِ، يَعْنُونَ قَوْلَهُ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦]**، فحرموهم وقالوا: لو شاء الله لأطعمكم.

﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ قول الله لهم. أو حكاية قول المؤمنين لهم. أو هو من جملة جوابهم للمؤمنين.

قوله: (أَنْطَعِمُ الْمَقُولَ فِيهِ هَذَا الْقَوْلُ)، فـ ﴿مَنْ﴾ موصولة، وصلته الجملة الشرطية، ولذلك أوله بالمقول فيه، وجعل المجموع في تأويل المفعول به لقوله ﴿أَنْطَعِمُ﴾، والظاهر أن الصلة مُتَّفَقَةٌ إِلَى التَّأْوِيلِ، كما قال في قوله تعالى: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً﴾ [النساء: ٩]: ما معنى وقوع «لو تركوا» وجوابه صِلَةٌ لـ ﴿الَّذِينَ﴾؟ وأجاب: معناه: لِيَخْشَ الَّذِينَ صِفَتُهُمْ وَحَالُهُمْ أَتَمُّ لَوْ شَارَفُوا أَنْ يَتْرَكُوا خَلْفَهُمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا^(١). ويمكن أن يقال: إن الصلة والموصول كشيء واحد، فلذلك جاز تأويله بالموصولة تارة والصلة أخرى بذلك.

قوله: (ولا يشاء إطعامه فنحن أحق بذلك)^(٢) قال القاضي: هذا من فرط جهالتهم، فإن الله يطعم بأسباب منها حث الأغنياء على إطعام الفقراء وتوفيقهم له^(٣).

(١) انظر: (٤: ٤٥١).

(٢) من قوله: «قوله: ولا يشاء إطعامه» إلى هنا سقط من (ط).

(٣) «أنوار التنزيل» (٤: ٤٣٦).

[وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨ - ٥٠﴾]

قُرئ: (وهم يَخِصِّمُونَ) بإدغامِ التاءِ في الصادِ مع فتحِ الخاءِ وكسرها، وإتباعِ الياءِ الخاءِ في الكسر، و: (يَخِصِّمُونَ) على الأصل، و(يَخِصِّمُونَ) مِن: خَصَمَهُ. والمعنى: أنها تَبَغْتَهُمْ وهم في أَمْنِهِمْ وغفْلَتِهِمْ عنها، لا يُحْطِرُونَهَا ببالهم مُسْتَغْلِبِينَ بِخُصُومَاتِهِمْ فِي مَتَاجِرِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ وَسَائِرِ مَا يَتَخَصَّمُونَ فِيهِ وَيَتَشَاجِرُونَ. ومعنى يَخِصِّمُونَ: يَخِصِّمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وقيل: تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ يَخِصِّمُونَ فِي الْحُجَّةِ فِي أَنَّهُمْ لَا يَبْعَثُونَ، لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُوصُوا فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِهِمْ ﴿تَوْصِيَةً﴾، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ

قوله: (وهم يَخِصِّمُونَ) قرأ ابن كثير ووزش وهشام: بفتح الخاء وتشديد الصاد، وقالون وأبو عمرو: باختلاس فتحة الخاء وتشديد الصاد، والنص عن قالون: بالإسكان، وحمزة: بإسكان الخاء وتخفيف الصاد، والباقون^(١) - وهم: عاصم وابن ذكوان والكسائي -: بكسر الخاء وتشديد الصاد. قال مكّي: من قرأ بفتح الياء وكسر الخاء مُشَدِّدًا فأصله يَخِصِّمُونَ ثم إذا ألقى حركة التاء على الخاء وأدغمها في الصاد. ومن قرأ بفتح الياء وكسر الخاء مُشَدِّدًا، فإنه لم يُلقِ حركة التاء على الخاء إذا أدغمها، ولكن حذف الفتحة لما أدغم فاجتمع ساكنان: الخاء والمُشَدَّد، فكسر الخاء لالتقاء الساكنين. وكذلك التقدير في قراءة من اختلس فتحة الخاء، اختلسها لأنها ليست بأصل في الخاء ولم يُمكنه إسكان الخاء لئلا يجمع بين ساكنين، فيلزمه الحذف والتحريك^(٢).

قوله: (وقيل: تأخذهم) عطف على قوله: يَخِصِّمُ إلى آخره. قيل: قوله: «يَخِصِّمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا» قَرِيبٌ مِنْ مَعْنَى «يَخِصِّمُونَ» و«يَخِصِّمُونَ» بالتشديد. وقوله: «وهم عند أنفسهم يَخِصِّمُونَ فِي الْحُجَّةِ» مِنْ قَوْلِهِمْ: خَصَمْتُهُ أَي: غَلَبْتُهُ بِالْحُجَّةِ، أَي: أَتَمُّهُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ

(١) من قوله: «وقالون وأبو عمرو باختلاس» إلى هنا، سقط من (ف).

(٢) «مشكل إعراب القرآن» (٢: ٦٠٥) ولتمام الفائدة انظر: «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (٢: ٢١٧-٢١٨).

الرجوع إلى منازلهم وأهاليهم، بل يموتون بحيث تفجؤهم الصيحة.

[﴿وَيُفَخَّ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ * قَالُوا يَا بُولَلْنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥١-٥٢)]

قُرئ: ﴿الصُّورِ﴾ بسكون الواو؛ وهو القرن، أو جمع صورة، وحركها بعضهم، و﴿الْأَجْدَاثِ﴾: القبور. وقُرئ بالفاء. (يَنْسِلُونَ) يَعْدُونَ، بكسر السين وضمها، وهي النفخة الثانية. قُرئ: (يا ويلتنا). وعن ابن مسعود رضي الله عنه: (مَنْ أَهَبْنَا)، مِنْ هَبَّ مِنْ نومه؛ إِذَا انْتَبَهَ، وَأَهَبَهُ غَيْرُهُ. وقُرئ: (مَنْ هَبْنَا) بمعنى أَهَبْنَا، وعن بعضهم:

لا يُغْلَبُونَ بِالْحُجَّةِ فِي عَدَمِ الْبَعثِ فِي الْوَاقِعِ مَغْلُوبُونَ مَحْجُوجُونَ. الجوهري: خَاصَمْتُهُ مُحَاصِمَةٌ وَخِصَامًا، وَالْأَسْمُ الْخِصُومَةُ. وَخَاصَمْتُهُ فَخِصَمْتُهُ أَخْصِمُهُ بِالْكَسْرِ وَلَا يُقَالُ بِالضَّمِّ إِلَّا فِي الشَّدْوِذِ. وَمِنْهُ قِرَاءَةُ حِمزة «وَهُمْ يَخِصِّمُونَ»^(١).

قوله: (قُرئ: ﴿الصُّورِ﴾ بسكون الواو) وهي قراءة العامة، وحركها بعضهم^(٢) كما تقول: دُررٌ وَدُرورٌ^(٣)، وكذا ﴿يَنْسِلُونَ﴾ بكسر السين.

قوله: (وقُرئ: «مَنْ هَبْنَا») قال ابن جني: هي قراءة أبي بن كعب. و«مَنْ أَهَبْنَا» بالهَمْزِ عن ابن مسعود، وهي أَقْسُسٌ. ويقال: هَبَّ مِنْ نومه أَي: انتبه، وَأَهَبَيْتُهُ أَنَا: أَي: أُنْبَهَيْتُهُ. قال:

أَلَا أَيُّهَا النَّوَامُ وَيَحْكُمُ هَبُوا
أَسَائِلِكُمْ هَلْ يَقْتُلُ الرَّجُلَ الْحَبُّ؟^(٤)

وَأَمَّا أَهَبْنِي أَي: أَيْقِظْنِي فَلَمْ أَرَلْهَا أَصْلًا، وَلَا مَرَّ بِنَا فِي اللَّغَةِ مَهْبُوبٌ بِمَعْنَى مُوقِظٍ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَرْفُ الْجُرِّ مَحذُوفًا أَي: هَبَّ بِنَا، أَي: أَيْقِظْنَا ثُمَّ حَذَفَ وَأَوْصَلَ الْفِعْلُ وَلَيْسَ

(١) وعَلَّه بقوله: «لَأَنَّ مَا كَانَ مِنْ قَوْلِكَ: فَاعَلْتَهُ فَفَعَلْتُهُ، فَإِنَّ يَفْعَلُ مِنْهُ يُرَدُّ إِلَى الضَّمِّ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ حَرْفٌ مِنْ حُرُوفِ الْخَلْقِ مِنْ أَيِّ بَابٍ كَانَ مِنَ الصَّحِيحِ». انتهى من «الصَّحاح» (خضم).

(٢) لتِمَامِ الْفَائِدَةِ انظُر: «المحتسب» (٢: ٥٦).

(٣) فِي (ط): «درة ودررة».

(٤) البيت لجميل بثينة فِي «ديوانه». وانظُر: «الأمالي» للقالبي (٢: ٣٠٢).

أراد هَبَّ بنا، فحذف الجارَّ وأوصل الفعل. وقُرى: (مِنْ بَعَثْنَا)، و(مِنْ هَبَّنَا)، على «مِنْ» الجازة والمصدر، و﴿هَذَا﴾ مبتدأ، و﴿مَا وَعَدَ﴾ خبره، و﴿مَا﴾ مصدرية أو موصولة. ويجوزُ أن يكون ﴿هَذَا﴾ صفةً للمرقد، و﴿مَا وَعَدَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا وعدُ الرحمن، أي: مبتدأ محذوف الخبر، أي: ﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ حقُّ عليكم. وعن مجاهد: للكفار هَجْعَةٌ يَجِدُونَ فِيهَا طَعْمَ النُّومِ، فإذا صِيحَّ بأهل القبور، قالوا: مَنْ بَعَثْنَا؟ وأما ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ فكلامُ الملائكة. عن ابن عباس، وعن الحسن: كلامُ المتقين. وقيل: كلامُ الكافرين يتذكرون ما سمِعوه من الرُّسل فيُجيبون به أنفسهم، أو بعضهم بعضاً. فإن قلت: إذا جعلت ﴿مَا﴾ مصدرية؛ كان المعنى: هذا وعدُ الرحمن وصدقُ المرسلين، على تسمية الموعودِ والمصدقِ فيه بالوعد والصدق، فما وجهُ قوله: ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ إذا جعلتها موصولة؟ قلت: تقديره: هذا الذي وعدَه الرحمنُ، والذي صدَّقه المرسلون، بمعنى: والذي صدَّق فيه المرسلون، مِنْ قولهم: صدَّقوهم الحديث والقتال،

المعنى على: مَنْ هَبَّ فَهَبْنَا معه، وإِنَّا معناهُ: مَنْ أَيْقَظْنَا كما أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ يَتُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] ليس معناهُ أَنَّهُ تَعَالَى ذَهَبَ وَذَهَبَ بِنُورِهِمْ مَعَهُ، بَلْ أَذْهَبَ نُورَهُمْ، فَذَهَبَ بِهِ كَأَذْهَبَهُ، أَي: أَزَالَهُ فَاعْرِفْ ذَلِكَ (١).

قوله: (وقُرى: «مِنْ بَعَثْنَا») قال ابنُ جَنِّي: قَرَأَهَا عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فَمِنْ الْأُولَى مُتَعَلِّقَةٌ بِالْوَيْلِ، أَوْ حَالٌ مِنْهُ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ، أَي: كَانَتْ مِنْ بَعَثْنَا، وَجَازَ أَنْ يَكُونَ حَالاً مِنْهُ كَمَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَبِراً مِنْهُ، كَقَوْلِ الْأَعَشَى:

وَيْلِي عَلَيَّكَ وَوَيْلِي مِنْكَ يَا رَجُلَ

وَمِنْ فِي ﴿مِنْ مَرَقِدِنَا﴾ مُتَعَلِّقَةٌ بِنَفْسِ الْبَعَثِ (٢).

(١) «المحتسب» (٢: ٢١٤).

(٢) «المحتسب» (٢: ٢١٣). وانظر: «ديوان الأعشى» ص ٥٧.

ومنه: صَدَقَنِي سِنَّ بَكْرِهِ. فَإِنْ قُلْتَ: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدَانَا﴾؟ سَوَّالٌ عَنِ الْبَاعِثِ، فَكَيْفَ طَابَقَهُ ذَلِكَ جَوَاباً؟ قُلْتُ: مَعْنَاهُ: بَعَثَكُمْ الرَّحْمَنُ الَّذِي وَعَدَكُمْ الْبَعْثَ وَأَنْبَأَكُمْ بِهِ الرَّسُلَ؛ إِلَّا أَنَّهُ جِيءَ بِهِ عَلَى طَرِيقَةٍ: سَيِّئَتْ بِهَا قُلُوبُهُمْ، وَنُعِيَتْ إِلَيْهِمْ أَحْوَالُهُمْ، وَذَكَّرُوا كُفْرَهُمْ وَتَكْذِيبَهُمْ، وَأَخْبِرُوا بِوُقُوعِ مَا أَنْذَرُوا بِهِ، وَكَأَنَّهُ قِيلَ لَهُمْ: لَيْسَ بِالْبَعْثِ الَّذِي عَرَفْتُمُوهُ، وَهُوَ بَعْثُ النَّائِمِ مِنْ مَرْقَدِهِ، حَتَّى يَهْمَكُمُ السُّؤَالُ عَنِ الْبَاعِثِ، إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَعْثُ الْأَكْبَرُ ذُو الْأَهْوَالِ وَالْأَفْزَاعِ، وَهُوَ الَّذِي وَعَدَهُ اللَّهُ فِي كُتُبِهِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ الصَّادِقِينَ.

قوله: (ومنه: صَدَقَنِي سِنَّ بَكْرِهِ) أي: فِي سِنَّ بَكْرِهِ. مَضَى شَرْحُهُ فِي «الْأَحْزَابِ» عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

قوله: (فَكَيْفَ طَابَقَهُ ذَلِكَ جَوَاباً) يَعْنِي: سَأَلُوا عَنِ الْفَاعِلِ (١) وَعَنِ الْبَاعِثِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدَانَا﴾؟ وَكَانَ مِنَ الظَّاهِرِ أَنْ يُجَابُوا بِأَنَّهُ الرَّحْمَنُ أَوْ اللَّهُ، فَكَيْفَ قِيلَ: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾؟

وَأَجَابَ: أَنَّ ذَلِكَ الْقَدْرَ لَيْسَ بِكَافٍ فِي الْجَوَابِ ظَاهِراً، لِأَنَّ قَوْلَهُمْ: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدَانَا﴾ حِكَايَةٌ عَنِ قَوْلِهِمْ هَذَا عِنْدَ الْبَعْثِ بَعْدَ مَا سَبَقَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فَلَا بُدَّ فِي الْجَوَابِ مِنْ قَوْلٍ يَتَضَمَّنُ مَعْنَيْنِ (٢) فَإِذَا مُقْتَضَى الظَّاهِرُ أَنْ يُقَالَ: بَعَثَكُمْ الرَّحْمَنُ الَّذِي وَعَدَكُمْ الْبَعْثَ، وَأَنْبَأَكُمْ بِهِ الرَّسُلُ كَمَا صَرَّحَ بِهِ الْمُصَنِّفُ. لَكِنْ عَدَلَ إِلَى مَا يُشْعِرُ بِتَكْذِيبِهِمْ وَتَصْوِيرِ حَالِ كُفْرِهِمْ لِيَكُونَ أَهْوَلَ وَفِي التَّقْرِيعِ أَدْخَلَ.

وَالْجَوَابُ وَارِدٌ عَلَى الْأَسْلُوبِ الْحَكِيمِ يَعْنِي: لَا تَسْأَلُوا عَنِ الْبَاعِثِ فَإِنَّ هَذَا الْبَعْثَ لَيْسَ كَبَعْثِ النَّائِمِ (٣)، وَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِمَّا يَهْمُكُمْ الْآنَ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَهْمُكُمْ أَنْ تَسْأَلُوا: مَا هَذَا الْبَعْثُ ذُو الْأَهْوَالِ وَالْأَفْزَاعِ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ.

(١) فِي (ح) وَ(ف): «الْغَافِلُ» بِالْغَيْنِ وَالْفَاءِ، وَالصَّوَابُ مَا أَثْبَتْنَاهُ.

(٢) فِي النِّسْخَةِ (ط): «مُعَيَّنٌ».

(٣) فِي (ط): «الْقَائِمُ».

[إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِفُونَ * هُمْ فِيهَا فَكَّهُةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ * سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٣-٥٨﴾]

﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ قرئت منصوبةً ومرفوعة. ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾، ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ﴾ حكاية ما يقال في ذلك اليوم. وفي مثل هذه الحكاية زيادة تصوير للموعد، وتمكين له في النفوس، وترغيب في الحرص عليه وعلى ما يُثمّره. ﴿فِي شُغْلٍ﴾: في أيِّ شُغْلٍ وفي شُغْلٍ لا يوصف، وما ظنك بشُغْلٍ مَنْ سَعِدَ بدخول الجنة التي هي دار المتقين، ووَصَلَ إلى نيل تلك الغبطة وذلك الملك الكبير والنعيم المقيم، ووقَّع في تلك الملاذ التي أعدّها الله للمتّصِّين من عباده، ثواباً لهم على أعمالهم مع كرامةٍ وتعظيم، وذلك بعد الوَلِّهِ والصَّبَابَةِ، والتفصِّي من مشاقِّ التكليف ومضاييق

قوله: (في أيِّ شُغْلٍ) إلى آخره، بيان لإطلاق ﴿شُغْلٍ﴾، وتقريرٍ لمعنى التثكير فيه.

الراغب: الشُّغْلُ والشُّغْلُ: العَارِضُ الذي يُذْهِلُ الإنسان، وقد شُغِلَ فهو مشغول، ولا يقال: أشغَلَ. وشُغِلَ شاغِلٌ^(١).

قوله: (بعد الوَلِّهِ): الوَلِّهِ: التحيُّرُ من شدّة الوجود، و«الصَّبَابَةُ»: رقة الشوق وحرارته. وذلك إشارة إلى قوله: «شُغِلَ مَنْ سَعِدَ» إلى آخره، أي: فما ظنك بشُغْلٍ^(٢) مَنْ سَعِدَ بالمذكور بعد الوجد والتشويق إلى نَيْلِ المَبَاغِي، ثمَّ إلى قوله: «الحشية» متعلِّق بالأمر الدنيوية، ومن قوله: «وتخطي الأهوال» إلى آخره، متعلِّقُ بما عند الموت والبرزخ إلى آخر أخطار القيامة.

وفي معناه قولُ القائل: الوصولُ إلى المطلوبِ بعد النَّصَبِ أعزُّ من المنساقِ بلا تعب.

(١) «مفردات القرآن» ٤٥٧.

(٢) في النسخة (ط): بسعِد. وقوله: «إلى آخره، أي: فما ظنك بشُغْلٍ» ساقط من (ط).

التقوى والحشية، وتخطي الأهوال، وتجاوز الأخطار، وجواز الصراط، ومُعَايَنَةُ مَا لَقِيَ الْعَصَاةَ مِنَ الْعَذَابِ؟! وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: فِي افْتِضَاضِ الْأَبْكَارِ. وَعَنْهُ: فِي ضَرْبِ الْأُوتَارِ. وَعَنْ ابْنِ كَيْسَانَ: فِي التَّزَاوُرِ. وَقِيلَ: فِي ضِيَاغَةِ اللَّهِ. وَعَنْ الْحَسَنِ: شَغَلَهُمُ عَمَّا فِيهِ أَهْلُ النَّارِ: التَّنَعُّمُ بِمَا هُمْ فِيهِ. وَعَنْ الْكَلْبِيِّ: هُمْ فِي شُغْلٍ عَنِ أَهَالِيهِمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، لَا يَهْتَمُّهُمْ أَمْرُهُمْ وَلَا يَذْكُرُونَهُمْ؛ لِثَلَا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ تَنْغِيصٌ فِي نَعِيمِهِمْ. قُرئ: ﴿فِي شُغْلٍ﴾ بِضَمِّتَيْنِ، وَضَمَّةٍ وَسُكُونٍ، وَفَتْحَتَيْنِ، وَفَتْحَةٍ وَسُكُونٍ. وَالْفَاكِهَةُ وَالْفَاكَةُ: الْمُتَنَعِّمُ وَالْمُتَلَذِّذُ، وَمِنْهُ: الْفَاكِهَةُ؛ لِأَنَّهُ تَمَّا يُتَلَذَّذُ بِهِ، وَكَذَلِكَ: الْفَاكِهَةُ؛ وَهِيَ الْمَزَاحَةُ. وَقُرئ: ﴿فَكَهُونَ﴾، وَ﴿فَكَهُونَ﴾، بِكَسْرِ الْكَافِ وَضَمِّهَا، كَقَوْلِهِمْ: رَجُلٌ حَدَّثَ وَحَدَّثَ، وَنَطَسَ وَنَطُسَ. وَقُرئ: ﴿فَاكُهَيْنَ﴾،

قوله: (وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: فِي افْتِضَاضِ الْأَبْكَارِ^(١)) شُرُوعٌ فِي تَقْيِيدِ ﴿شُغْلٍ﴾ بَعْدَ تَفْسِيرِهِ بِمَا يُنْبِئُ عَنِ الْعُمُومِ أَوْ الْإِطْلَاقِ وَمَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْحَضَرِ، فَتَارَةً قَيْدَهُ بِ«فِي» وَأُخْرَى بِ«عَنْ» فِي قَوْلِهِ: «شَغَلَهُمُ عَمَّا فِيهِ أَهْلُ النَّارِ».

قوله: ﴿فِي شُغْلٍ﴾ بِضَمِّتَيْنِ الْحَرَمِيَّانِ وَأَبُو عَمْرٍو: بِإِسْكَانِ الْغَيْنِ، وَالْبَاقُونَ بِضَمِّهَا^(٢).

قوله: (وَكَذَلِكَ الْفَاكِهَةُ؛ وَهِيَ الْمَزَاحَةُ) الرَّاغِبُ: الْفَاكِهَةُ: حَدِيثُ ذَوِي الْأُنْسِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَهَيْنَ بِمَاءِ النَّهْمِ رَيْمٌ﴾.

قوله: (رَجُلٌ حَدَّثَ وَحَدَّثَ)، الْجَوْهَرِيُّ: رَجُلٌ حَدَّثَ - بِضَمِّ الدَّالِ وَكَسْرِهَا - أَي: حَسَّنَ الْحَدِيثَ.

قوله: (وَنَطَسَ وَنَطُسَ)، الْجَوْهَرِيُّ: التَّنَطُّسُ: الْمَبَالِغَةُ فِي التَّطَهُّرِ وَكُلُّ مَنْ أَدَقَّ النَّظَرَ فِي الْأُمُورِ وَاسْتَقْصَى عِلْمَهَا فَهُوَ مُتَنَطِّسٌ وَمِنْهُ: رَجُلٌ نَطَسَ بِضَمِّ الطَّاءِ وَكَسْرِهَا.

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو نُعَيْمٍ الْأَصْبَهَانِيُّ فِي «صِفَةِ الْجَنَّةِ» (٣٧٦)، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «صِفَةِ الْجَنَّةِ» (٢٦٤)

مَوْقُوفًا عَلَى ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَلِتِمَامِ الْفَائِدَةِ انظُرْ: «الدَّرُ الْمُنْتَوِرُ» لِلْإِمَامِ السِّيُوطِيِّ (٧: ٦٥).

(٢) وَهَمَّا لُغَتَانِ كَالشُّحْتِ وَالشُّحْتِ. انظُرْ: «الْكَشْفُ عَنْ وَجْهِ الْقِرَاءَاتِ السَّبْعِ» (٢: ٢١٩).

و(فَكِهَيْن) على أنه حال، والظرف مُسْتَقَرٌّ. ﴿هُمُ﴾ يحتمل أن يكون مبتدأ، وأن يكون تأكيداً للضمير في ﴿فِي شُغْلٍ﴾، وفي ﴿فَنَكْهُونَ﴾ على أن أرواحهم يُشارِكُنْهم في ذلك الشُّغْل والتفكُّه والاتِّكَاء على الأرائك تحت الظلال. وقُرئ: (في ظُلِّل)، والأريكة: السَّرِيرُ في الحَجَلَة. وقيل: الفِرَاشُ فيها. وقرأ ابنُ مسعود: (مُتَكِين). ﴿يَدْعُونَ﴾ يفتعلون، من الدعاء،

قوله: («فكهين» على أنه حال)، قال أبو البقاء: ويُقرأ ﴿فَنَكِهَيْنَ﴾ على الحال من الضمير في الجارِّ، وعلى المشهورة: ﴿فَنَكْهُونَ﴾ خبرٌ ثانٍ، والأول ﴿فِي شُغْلٍ﴾، أو هو الخبرُ، و﴿فِي شُغْلٍ﴾ يتعلَّقُ به^(١).

قوله: (وقرئ: «في ظلِّل») حمزة والكسائي: بضمِّ الظاء من غير ألف، والباقون: بكسرها وبالألف^(٢). وقال أبو البقاء: ﴿فِي ظِلِّلٍ﴾ يجوزُ أن يكونَ خبرَ ﴿هُمُ﴾، و﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ استئناف، ويجوزُ أن يكونَ الخبرُ ﴿مُشْكُوفُونَ﴾، و﴿فِي ظِلِّلٍ﴾ حالٌ و﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ منصوبٌ بمتكئون. وظلال: جَمْعُ ظِلٍّ، كذئبٍ وذئاب، أو جَمْعُ ظِلَّةٍ، كقبةٍ وقباب، والظُلِّلُ: جَمْعُ ظِلَّةٍ لا غير^(٣).

قوله: (في الحَجَلَة) وهي واحدةٌ حِجَالِ العروسِ وهي بَيْتٌ يُزَيَّنُ بالثياب.

قوله: (يفتعلون من الدعاء) قال مكِّي: أصلُ ﴿يَدْعُونَ﴾: يَدْتَعِينُونَ، على وَزْنٍ: يَفْتَعِلُونَ، من: دَعَا يَدْعُو، فَاسْكِنَتِ الْبِاءُ بَعْدَ أَنْ أَلْقَيْتَ حَرَكَتَهَا عَلَى مَا قَبْلَهَا وَحَذَفَتْ لِسُكُونِهَا وَسُكُونِ الْوَاوِ بَعْدَهَا، وَقِيلَ: بَلْ صُمِّمَتِ الْعَيْنُ لِأَجْلِ وَاوِ الْجَمْعِ بَعْدَهَا، وَلَمْ تُلْقَ

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١٠٨٤).

(٢) وَحُجَّةٌ مِنْ قَرَأَ بِالضَّمِّ: أَنَّهُ جَعَلَهُ جَمْعَ «ظِلَّةٍ» كغُرْفَةٍ وَغُرْفٍ، وَدَلِيلُهُ إِجْمَاعُهُمْ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي ظِلِّلٍ مِّنَ الْفَسْكَارِ﴾ [البقرة: ٢١٠]. وَحُجَّةٌ مِنْ كَسْرِ الظَّاءِ أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَيْضاً جَمْعَ «ظِلَّةٍ» كَبُرْمَةِ وَبِرَامٍ، فَتَكُونُ الْقِرَاءَتَانِ بِمَعْنَى، وَهُوَ الْاِخْتِيَارُ، لِأَنَّ الْأَكْثَرَ عَلَيْهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَمْعُ «ظِلٍّ» كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَنْفَعُونَ ظِلُّهُ﴾ [النحل: ٤٨]. انْتَهَى مِنْ «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (٢: ٢١٩).

(٣) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١٠٨٤).

عليها حركة الياء، لأنَّ العَيْنِ كَانَتْ مُتَحَرِّكَةً فَصَارَتْ يَدْعَوْنَ، فَأُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الدَّالِ وَكَانَ ذَلِكَ أَوْلَى مِنْ إِدْغَامِ الدَّالِ فِي التَّاءِ، لِأَنَّ الدَّالَ حَرْفٌ مَجْهُورٌ، وَالتَّاءُ حَرْفٌ مَهْمُوسٌ وَالمَجْهُورُ أَقْوَى، فَكَانَ رَدُّ الأَضْعَفِ إِلَى الأَقْوَى أَوْلَى، فَأَبْدَلُوا مِنَ التَّاءِ دَالًا فَأُدْغِمَتِ فَصَارَتْ: يَدْعَوْنَ.

و«ما» ابتداءً بمعنى: الذي، أو مَصْدَرٌ، أو نَكْرَةٌ وَمَا بَعْدَهَا صِفَةٌ لَهَا وَ«لهم» الخبر^(١).

وقال أبو البقاء: وقيل: الخبرُ ﴿سَلِّمْ﴾، وقيل: ﴿سَلِّمْ﴾ صِفَةٌ ثَانِيَةٌ لـ «ما»، وقيل: هو بَدَلٌ مِنْ «ما»، ويُقْرَأُ بِالنَّضْبِ عَلَى المَصْدَرِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ «مًا» أَوْ مِنْ الهَاءِ المَحذُوفَةِ، أَي: ذَا سَلَامَةٍ أَوْ مُسَلِّمًا، وَ﴿قَوْلًا﴾: مَصْدَرٌ، أَي: يَقُولُ اللهُ أَوْ المَلَائِكَةُ قَوْلًا، وَ«مِنْ» صِفَةٌ لـ ﴿قَوْلًا﴾^(٢).

قوله: (هو بَدَلٌ مِنْ «ما») هذا إِذَا كَانَتْ «ما» نَكْرَةً مَوْصُوفَةً فَظَاهِرٌ، وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ مَعْرِفَةً مَوْصُولَةً فَجَائِزٌ عِنْدَ بَعْضِهِمْ وَقَالَ: مَنْ ذَهَبَ إِلَى اشْتِرَاطِ النِّعْتِ فِي البَدَلِ فَقَوْلُهُ فَاسِدٌ وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ:

إِنَا وَجَدْنَا بِنْسِي سَلَّمِي بِمَنْزِلَةٍ كَسَاعِدِ الضَّبِّ لَا طَوْلَ وَلَا قِصْرُ^(٣)

ف«لا طَوْلَ» وَ«لا قِصْرُ» نَكْرَتَانِ، وَهُمَا بَدَلَانِ مِنْ «سَاعِدِ الضَّبِّ» وَلَمْ يُنْعَتَا، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَا نِعَتَيْنِ، لِأَنَّ سَاعِدَ الضَّبِّ مَعْرِفَةٌ.

قال الإمام: لَيْسَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ يَدْعُونَ لِأَنْفُسِهِمْ دَعَاءً فَيُسْتَجَابُ بَعْدَ الطَّلَبِ، بَلْ مَعْنَاهُ: لِهَمِّ مَا يَدْعُونَ لِأَنْفُسِهِمْ أَي: هُمْ ذَلِكَ فَلَا حَاجَةَ إِلَى الدُّعَاءِ كَمَا أَنَّ المَلِكَ إِذَا طَلَبَ مَمْلُوكَهُ مِنْهُ شَيْئًا يَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ فَفَهِّمَ مِنْهُ تَارَةً أَتَىكَ مُجَابٌ إِلَى مَطْلُوبِكَ وَأُخْرَى الرَّدِّ، أَي: إِنَّ ذَلِكَ حَاصِلٌ لَكَ فَلِمَ تَطْلُبُهُ؟ أَي: هُمْ مَا يَدْعُونَ وَيَطْلُبُونَ فَلَا طَلَبَ لَهُمْ، أَوْ لَهُمُ الطَّلَبُ وَالإِجَابَةُ،

(١) «مشكل إعراب القرآن» (٢: ٦٠٧).

(٢) في (ح) و(ف): «لهؤلاء»، وهو خطأ.

(٣) ذكره في «لسان العرب» من غير عزو لأحد باختلاف يسير في الرواية.

أي: يَدْعُونَ به لأنفسِهِم، كقولك: اشتوى واجتَمَلَ؛ إذا شوى وجَمَلَ لنفسِهِ. قال لبيد:

فاشتوى لَيْلَةَ رِيحٍ واجتَمَلَ

ويجوزُ أن يكون بمعنى يتداعونَه، كقولك: ارتمَوْه، وترامَوْه. وقيل: يتمنون، من قولهم: ادعِ عليَّ ما شئتَ، بمعنى: تمنَّه عليَّ، و: فلانٌ في خيرٍ ما ادعى، أي: في خيرٍ ما تمنى. قال الزجاج: وهو من الدعاء، أي: ما يدعُو به أهلُ الجنةِ يأتيهم. ﴿سَلِّمْ﴾

فإن الطلبَ أيضاً لذَّةً وكذلك العطاء، فإن من يتمكَّن من أن يُحاطَبَ الملِكُ في حوائجِه فله منصبٌ عظيمٌ^(١).

قوله: قال لبيد أوله:

وَعْلَامٍ أَرْسَلْتَهُ أُمَّهُ بِالسُّوِكِ فَبَدَّلْنَا مَا سَأَلُ
أَرْسَلْتَهُ فَاتَاهُ رِزْقُهُ فاشتوى لَيْلَةَ رِيحٍ واجتَمَلَ^(٢)

الألوك: الرسالة، والجميل: الإهالة^(٣) المذابة، أي: أذاب وشوى لنفسِهِ.

قوله: (يتداعونَه) قال الإمام: فهو افتعالٌ بمعنى التفاعلِ كالاقتتالِ بمعنى التقاتلِ^(٤)، ومعناه ما ذكرنا: أن كلَّ ما يصحُّ أن يدعُو أحدٌ صاحِبَه إليه أو يُطلبَه أحدٌ من صاحِبِه فهو حاصل.

قوله: (قال الزجاج)، والمذكورُ في تفسيرِه: ﴿مَا يَدْعُونَ﴾ معناه: ما يتمنون، يُقال: فلانٌ في خيرٍ ما ادعى، أي: ما تمنى، وهو مأخوذٌ من الدعاء، أي: كلُّ ما يدعونه أهلُ الجنةِ يأتيهم.

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٢٩٥).

(٢) «ديوان لبيد بن ربيعة» ص ٨٠، ولتأمام الفائدة انظر: «خزانة الأدب» (٩: ٣٠٠).

(٣) الإهالة: كلُّ شيءٍ من الأدهان يؤتدَّمُ به كالحلِّ والزيتِ ونحوهما. وفي حديث أنسٍ عند أحمد (١٢٣٦٠) وغيره: أنه مشى إلى النبي ﷺ. بخبزٍ شعيرٍ وإهالةٍ سَنَحَةَ - بفتح السين وكسر النون والخاء المعجمة - وهي المتغيرَةُ الرائحةُ من طولِ الزمان.

(٤) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٢٩٥).

بدل من ﴿مَا يَدْعُونَ﴾، كأنه قال لهم: سلامٌ يقال لهم ﴿قَوْلًا مِّنْ﴾ جهة ﴿رَبِّ رَحِيمٍ﴾. والمعنى: أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة، أو بغير واسطة، مبالغة في تعظيمهم، وذلك مُتمنّاهم، وهم ذلك لا يُمنعون. قال ابن عباس: فالملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين. وقيل: ﴿مَا يَدْعُونَ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿سَلَّمَ﴾، بمعنى: وهم ما يدعون سالمٌ خالصٌ لا شوب فيه. و﴿قَوْلًا﴾ مصدر مؤكّد لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ * سَلَّمَ * أي: عِدَّةٌ مِّنْ رَبِّ رَحِيمٍ. والأوجه: أن ينتصب على الاختصاص،

﴿سَلَّمَ﴾: بدل من «ما»، المعنى: لهم ما يتمنّونه سلام، أي: هذا منى أهل الجنة أن يسلم الله عليهم^(١).

قوله: (أو بغير واسطة مبالغة في تعظيمهم، وذلك مُتمنّاهم) فيقال له: ليس أبلغ في التعظيم وألذّ الملاذ أن ينظروا مع ذلك إلى وجهه الكريم، على ما روينا عن ابن ماجه، عن جابر عن النبي ﷺ: «بيننا أهل الجنة في نعيمهم إذ سَطَعَ لهم نورٌ، فرفعوا رؤوسهم فإذا الربُّ قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلامُ عليكم يا أهل الجنة، قال: وذلك قوله تعالى: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِّنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] قال: فنظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره»^(٢)، وماذا على المصنّف لو آمن به وترك التعصّب.

قوله^(٣): «يحتجب عنهم»: الاحتجاب: جعل الخلق في حجاب من رؤيته، ويجوز أن يقال: الله تعالى محتجب وليس بمحجوب، لأن الاحتجاب اقتدارٌ وقهرٌ، والمحجوب مقهور، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قوله: (والأوجه أن ينتصب على الاختصاص) أي: ﴿قَوْلًا﴾ إذا جعل منصوباً على

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٢٩٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٨٤)، وضعفه البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١: ٢٦) لضعف الفضل بن

عيسى الرقاشي، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧: ٩٨) وعزاه للبخاري، وأعله بالعلّة السابقة.

(٣) يعني رسول ﷺ في الحديث السابق.

وهو من مجازة. وقُرئ: (سَلَمٌ) وهو بمعنى السَّلَام في المعنيتين. وعن ابن مسعود: (سَلَامًا) نصبٌ على الحال، أي: لهم مرادهم خالصاً.

﴿وَأَمْتَنُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [٥٩]

﴿وَأَمْتَنُوا﴾ وانفردوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة، وذلك حين يُحْشَرُ المؤمنون ويُسَارُّ بهم إلى الجنة. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذِ يَنْفِرُونَ﴾ * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [الروم: ١٤-١٦]. يقال: مازَه فانمازَ وامتازَ. وعن قتادة: اعتزلوا عن كل خير. وعن

المدح كان أوجه من أن ينتصب على المصدر بفعل محذوف، أو على أنه مصدرٌ مؤكَّد لمضمون الجملة، لأن المقام من مجاز المدح، لأن هذا القول صادرٌ عن ربِّ رحيم في مقام التعظيم، وكان جديراً بأن يُفخِّم أمره ويُعظِّم قدره، ويكون جملةً مُستقلةً مفصولةً عما سبق.

وأما جوازُ أن يكون النصبُ على المدح نكرةً، فقد سبق في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

قوله: (وذلك حين يُحْشَرُ المؤمنون ويُسَارُّ بهم إلى الجنة)، أي: يقال للمجرمين: وامتازوا عن المؤمنين ليسار بهم إلى النار كما يسار بالمؤمنين إلى الجنة، ويُحاطبون بها يُقابله، أي: وامتازوا اليوم أيها المؤمنون؛ على تضمين ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ هذا المعنى.

وبيانه: أن قوله ﴿وَلَا يُحْزَنُونَ﴾ خطابٌ مُجْمَلٌ يعمُّ أهلَ المحشر وفيهم الفريقان، وتفصيله قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وقوله: ﴿وَأَمْتَنُوا﴾، فلا بد من ذلك التقدير ليصح عطفُ الطلبي على مثله، وإتمامه يُقدَّرُ بخلافه بأن يُقال: إن أصحاب النار كذا، لأن المُجْمَل وهو ﴿الْيَوْمَ﴾ ﴿يُحْزَنُونَ﴾ خطاب، والمناسب أن يكون التفصيل أيضاً خطاباً ليطابق المُجْمَل، وإلى الإجمال والتفصيل الإشارةُ باستشهاده بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذِ يَنْفِرُونَ﴾ [الروم: ١٤] إلى آخر الآيات.

قوله: (فانمازَ وامتازَ)، الجوهرى: مزت الشيء أميزُ مِيزاً: عزلته، وكذلك: مِيزته تمييزاً، فانمازَ وامتازَ وتمييز واستماز: كلُّه بمعنى، يقال: امتازَ القومُ: إذا تمييز بعضهم من بعض.

الضحَّاك: لكلِّ كافر بيتٌ من النار يكونُ فيه، لا يرى ولا يُرى. ومعناه: أن بعضهم يمتازُ من بعض.

[﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَبيَ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْهُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَن أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ٦٠-٦١]

العَهْدُ: الوصية، وعَهْدَ إليه: إذا وصَّاه. وعَهْدَ اللهُ إليهم: ما ركَّزَ فيهم من أدلَّة العَقْلِ، وأنزلَ عليهم من دلائلِ السَّمْعِ.

وعبادةُ الشيطان: طاعته فيما يُوسوس به إليهم ويزيئه لهم. وقرئ: (إعْهَد) بكسر الهمزة، وبابُ «فَعِلَ» كلُّه يجوزُ في حروفٍ مُضارِعته الكسْرِ، إلَّا في الياء؛ و(أعْهَد) بكسر الهاء. وقد جَوَّزَ الزجَّاجُ أن يكونَ من باب: نَعَمَ يَنْعِمُ وَضَرَبَ يَضْرِبُ؛ و(أَحْهَدَ) بالحاء، و(أَحَدَ) وهي لغةٌ تميم، ومنه قولهم: دَحَّا حَحًّا. ﴿هَذَا﴾: إشارةٌ إلى ما عَهَدَ إليهم من معصيةِ الشيطان وطاعةِ الرحمن؛ إذ لا صراطَ أقومُ منه، ونحوُ التنكيرِ فيه ما في قول كثيرٍ:

لَئِن كَانَ يُهْدَى بَرْدُ أَنْبِإِهَا الْعَلَا
لَأَفْقَرَ مِنِّي إِنْسِي لَفَقِيرُ

قوله: (وقد جَوَّزَ الزجَّاجُ)، وذكر في «تفسيره»: ويُقرأ «أعْهَدَ» بالكسْرِ، والأكثرُ الفَتْحُ، على قولك: عَهْدَ يَعْهَدُ، والكسْرِ على ضَرْبَيْنِ: على: عَهْدَ يَعْهَدُ، مثل: حَسِبَ يَحْسَبُ^(١).

قوله: (قولهم: دَحَّا حَحًّا)، قال في «المطلع»: وقرئ بالحاءِ مكانَ العينِ، وبحاءِ مُشَدَّدةٍ على الإدغامِ والقلبِ بالحرفينِ، وهي لغةٌ تميم، ومنه قولهم: «دَحَّا حَحًّا» في: دَعَّهَا مَعَهَا، أي: دَعَّ هَذِهِ الْقُرْبَةَ مَعَ هَذِهِ الْمَرَاةِ.

قوله: ﴿هَذَا﴾ إشارةٌ إلى لفظِ ﴿هَذَا﴾ في قوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

قوله: (لئن كان يُهدى) البيت^(٢)، قال المرزوقي: أفقرٌ لا يصحُّ أن يكونَ من افتقر

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٢٩٢).

(٢) عزاه ابن أبيك الصفدي لكثير عزة في «نصرة الثائر على المثل السائر» (١: ٦٠). ولم أجده في «ديوانه»، وقيل: هو لمزاحم العقيلي، وهو من غير عزو في «التذكرة السعدية» (١: ٤٥) وبغده:

أراد: إنني لفقيرٌ بليغُ الفقر، حقيقٌ بأن أوصف به لكمال شرائطه في، وإلا لم يستقم معنى البيت، وكذلك قوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾،

لأن شَرَطَ بناءِ التفضيلِ أن يكونَ من الثلاثيِّ ولكنَّ من «فَقِرَ» المرفوضِ استعماله. أو بُيِّنَ منه على حَذْفِ الزوائدِ نَحْو: رِيحٌ لاقِح، أي: مُلْفَح، ويُهْدَى: من الإهداء: الإتحاف، أو من الهداء: الزفاف.

أنيابها العلى؛ أي: الشريفة العالية أو الأعالي، فإنها مواضع القبل.

وقوله: «إِنِّي لَفَقِيرٌ»؛ فعيلٌ: بناءٌ مبالغة، ولا سِيَّما أُطْلِقَ إطلاقاً، فلا يُقالُ: فقيرٌ إلى كذا وكذا، فيخصَّص، أي: لا غايةً لفقري.

قوله: (وإلا لم يستقم معنى البيت) أي: لو لم يُحْمَلْ «لَفَقِيرٌ» على: بليغِ الفقرِ؛ لم يستقم معنى البيت، لأنَّ أفعَلَ التفضيلِ يَسْتَدْعِي أن يكونَ المُهْدَى إليه كذلك كأنه قيل: لم تجد أحداً أفقرَ مِنِّي لأني بلغتُ غايته، كما قال المرزوقي. كذلك لو لم يُحْمَلْ ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ على المبالغة لم يتمَّ معنى قوله: ﴿لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ... وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ لأنَّ النهيَ عن عبادةِ الشيطانِ نَهْيٌ عن مُتَابَعَةِ سَبِيلِهِ، وهو جميعُ طُرُقِ الصَّلَاةِ والأهواءِ والبِدَعِ، والأمرُ بعبادةِ الرحمنِ^(١) أمرٌ باختصاصِ مُتَابَعَةِ سَبِيلِ الْحَقِّ، كأنه قيل: لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ وَخُصَّصُونِي بِالْعِبَادَةِ، لأنَّ صِرَاطِي بليغٌ في استقامته، وأيضاً إنَّ قَوْلَهُ ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ على بيانِ الموجِبِ فلو لم يُحْمَلْ على ما شَرَحَهُ لم يتمَّ ذلك.

ونحوه ما روينا عن النسائي والدارمي عن ابن مسعود: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنِ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَقَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ

فهل يأتيني بالطلاق بشير؟

= فما أكثر الأخبار أن قد تزوجت

(١) لفظ «الرحمن» لم يرد في النسخة (ف).

يريد: صراطٌ بليغٌ في بابهِ، بليغٌ في استقامته، جامعٌ لكلِّ شرطٍ يجبُ أن يكونَ عليه. ويجوزُ أن يُرادَ: هذا بعضُ الصُّرُطِ المستقيمة؛ توبيخاً لهم على العُدولِ عنه، والتَّفادي عن سُلوِكِهِ، كما يتفادى الناسُ عن الطريقِ المَعْوَجِ الذي يؤدي إلى الضلالةِ والتَّهلُكَةِ، كأنه قيل: أقلُّ أحوالِ الطريقِ الذي هو أقومُ الطُّرُقِ: أن يُعتَقَدَ فيه كما يُعتَقَدُ في الطريقِ الذي لا يُضِلُّ السالِكَ، كما يقولُ الرجلُ لولده وقد نَصَحَهُ النُّصَحَ البالغِ الذي ليسَ بعَدَه: هذا فيما أظنُّ قولٌ نافعٌ غيرُ ضارٍّ؛ توبيخاً له على الإعراضِ عن نصائحه.

[﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ * هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * أَضَلَّوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿٦٢-٦٤﴾

يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] (١).

قوله: (يريد: صراطٌ بليغٌ في بابهِ، بليغٌ في استقامته)، قال صاحبُ الفرائد: الذي حمَّله على هذا البيانِ أنَّ حَقَّ المَقَامِ في الظاهرِ التعريفُ لإرادةِ الحَضْرِ بِأن يُقالَ: هذا الصراطُ المستقيم، أو هذا هو الصراطُ المستقيمُ ليكونَ إثباتاً له ونفيًا لغيره؛ لأنَّ الصراطِ المُستقيمَ لم يمكنَ أن يكونَ غيرَ هذا، لكنَّ لهذا المعنى الدقيقِ اللطيفِ عدلٌ إلى التنكيرِ.

قوله: (ويجوزُ أن يُرادَ: هذا بعضُ الصُّرُطِ المُستقيمةِ توبيخاً لهم عن (٢) العُدولِ عنه)، أي: أنَّ قوله: ﴿هَذَا﴾ بعضُ الطرقِ المُستقيمةِ، مع أنَّ الواقعَ أنَّه كلُّ الطُّرُقِ، بل ليسَ الطريقُ إلَّا هو، للإيذانِ بأنَّ المُخاطَبَ قد تَفَادَى وتَحَامَى وانزوى عن سُلوِكِهِ، يعني: هَبْ أنَّ هذا الطريقَ ليسَ مِنَ الطُّرُقِ التي بلغتْ في الكمالِ غايةَ، أليسَ أنَّه بعضٌ منها؟ وأقلُّ ما عليكَ أن تَعْتَقَدَ أنَّه طريقٌ لا يُضِلُّ السالِكُ فيه، فهَضَمَ مِنْ حَقِّهِ لِيَكُونَ توبيخاً للمخاطَبِ على عِدَمِ التفاتِهِ إليه، وأهَجَمَ به على الغلْبةِ وأبعثَ على التَّفَكُّرِ لِأَنَّهُ مِنَ الكلامِ المُنْصِفِ (٣).

(١) سبق تخرجه.

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «على».

(٣) في النسخ الخطية: «المُصنِّف» ولعلَّ ما أثبتناه هو الأثْبَةُ بالصواب.

قُرئ: (جُبَلًا) بضمَّتَيْن، وضمِّمة وسكون، وضمَّتَيْن وتشديده، وكسر تَيْن، وكسرة وسكون، وكسر تَيْن وتشديده، وهذه لغاتٌ في معنى الخَلْق. وقُرئ: (جِبَلًا) جمع جِبَلَة، كِفَطِرٍ وَخَلَقَ، وفي قراءةٍ عليّ رضي الله عنه: (جِبَلًا) واحد الأجيال.

[﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾]

[٦٥]

يُروى: أنهم يَجِدُونَ وَيُخَاصِمُونَ؛ فيشهدُ عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرهم، فيحلفون ما كانوا مُشركين، فحينئذٍ يُخْتَمُ على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم. وفي الحديث: «يقول العبد يوم القيامة: إني لا أُجِيزُ عليّ شاهداً إلا من نفسي، فيُخْتَمُ على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطقُ بأعماله، ثمَّ يُخَلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعداً لَكُنَّ وَسُحْقاً، فعنكنَّ كنتُ أناضِلُ»، وقُرئ: (يُخْتَمُ على أفواههم)، و(تتكلم أيديهم)،

قوله: (قُرئ: جبلاً): قرأ نافعٌ وعاصمٌ: بكسر الجيم والباء وتشديد اللام^(١)، وأبو عمر وابن عامرٍ: بضم الجيم وإسكان الباء وتخفيف اللام، والباقون: كذلك غيرَ أنهم صموا الباء^(٢).

قوله: (وهذه لغاتٌ في معنى الخَلْق). قال الإمام: الجيمُ والباءُ واللامُ لا تخلو من معنى الاجتماع^(٣).

قوله: (أناضِلُ) أي: أدافع. الجوهرى: فلانٌ يُناضِلُ عن فلانٍ: إذا تكلم عنه بعدِّه ودَفَع.

(١) وحجَّتُها إجماعُ القراءِ على قوله تعالى: ﴿وَالْحِجْلَةَ الْأُولَىٰ﴾ [الشعراء: ١٨٤].

(٢) قال أبو زرعة: وهو الأصل، وذلك أنه جمعُ «جِبَلًا»، وجبيلٌ معدولٌ عن مجبول، مثل «قتيل» من «مقتول». ثم جمع الجبيلُ جِبَلًا كما يُجمع السبيلُ سُبُلًا والطريقُ طُرُقًا. قالوا: ولا ضرورةٌ تدعو إلى إسكان حرفٍ مستحقٍ للتحرريك. انتهى من «حجّة القراءات» ص ٦٠١-٦٠٢.

(٣) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣٠١).

وقرئ: (ولتكلمنا أيديهم وتشهد) بلام «كي» والنصب، على معنى: ولذلك نختم على أفواههم. وقرئ: (ولتكلمنا أيديهم ولتشهد) بلام الأمر والجزم، على أن الله يأمر الأعضاء بالكلام والشهادة.

[﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ * وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مِضِيًّا وَلَا يُرْجِعُونَ ﴾ ٦٦-٦٧]

الطمس: تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة. ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ لا يخلو من أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل. والأصل: فاستبقوا إلى الصراط، أو يضمّن معنى: ابتدروا، أو يجعل الصراط مسبوقة لا مسبوقة إليه،

قوله: (وقرئ: «ولتكلمنا أيديهم»)^(١) قال ابن جني: قرأها طلحة^(٢)، وفيه حذف، أي: لتكلمنا أيديهم ولتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ما نختم^(٣) من أفواههم، كقولك: أحسنت إليك ولشكرك ما أحسنت إليك، وأنتك سؤلك^(٤).

قوله: (أو يضمّن معنى: ابتدروا) قال في «الأساس» في قسم الحقيقة: واستبقوا الصراط: ابتدروه. وقال أيضاً: تبادلوا الباع وابتدروها.

قوله: (أو يجعل الصراط مسبوقة لا مسبوقة إليه) يعني: على الاتساع، كقوله:

وَيَوْمَ شَهِدْنَا^(٥)

(١) في الأصول الخطية: «وقرئ: نختم ولتكلمنا أيديهم»، والمثبت من «الكشاف».

(٢) يعني ابن مبرّف. سبقت ترجمته.

(٣) في «المحتسب»: «على».

(٤) «المحتسب» (٢: ٢١٦).

(٥) سبق تخريجه، ورواية البيت:

ويوم شهدناه سلبياً وعامراً
قليل سوى الطعن النّهال نوافله

أو ينتصب على الظرف. والمعنى: أنه لو شاء لمسح أعينهم، فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المهيع الذي اعتادوا سلوكه إلى مساكنهم وإلى مقاصدهم المألوفة التي ترددوا إليها كثيراً كما كانوا يستبقون إليه ساعين في متصرفاتهم موضعين في أمور دنياهم؛ لم

الجوهري: واستبقنا في العدو، أي: تسابقنا.

قوله: (أو ينتصب على الظرف)، على نحو قوله:

كما عسل الطريق الثعلب^(١)

على تقدير: في^(٢)، وفيه^(٣) إشكال، لأن حكم مؤقت المكان كحكم غير الظرف.

قوله: (والمعنى أنه لو شاء)، اعلم أنه ذكر في ﴿فَأَسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ وجهاً على اللف، ومن هنا شرع في التثنية، فقوله أولاً: «فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق» مبني على حذف «إلى» وإيصال الفعل، أو على تضمين معنى «ابتدروا».

وقوله ثانياً: «فلو أرادوا أن يمشوا مستبقين في الطريق المألوف» مبني على أن ينتصب ﴿الصِّرَاطَ﴾ على الظرف، فأبرز لذلك لفظة «في».

وقوله: «فلو طلبوا أن يخلفوا الصراط» مبني على أن ﴿الصِّرَاطَ﴾ مفعول به، وإليه أشار بقوله: «أو يجعل الصراط مسبوقة». وعن بعضهم: استبق الصراط: جاوزها. و﴿فَأَنْتَ يُبْصِرُونَ﴾ أي: لا تبصرون، لأن معنى ﴿فَأَنْتَ﴾ في هذا المقام معنى «كيف» على الإنكار.

قوله: (إلى الطريق المهيع)، وفي حاشية «الصحاح»: طريق مهيع، أي: مسلوكة. وأبو عبيد: المهيع: الطريق الواسع الواضح.

قوله: (موضعين)، الجوهري: وضع البعير وغيره، أي: أسرع في سيره.

(١) سبق تخريجه.

(٢) يعني في الطريق كما هو عبارة سيبويه في «الكتاب» (١: ٢١٤).

(٣) في النسخة (ف): «وقته».

يَقْدِرُوا، وتعايا عليهم أن يُبْصِرُوا وَيَعْلَمُوا جَهَةَ السُّلُوكِ فَضْلاً عَنْ غَيْرِهِ. أو: لو شاءَ لأَعْمَاهُمْ، فلوا أَرَادُوا أن يَمْشُوا مُسْتَبِقِينَ فِي الطَّرِيقِ الْمَأْلُوفِ كَمَا كَانَ ذَلِكَ هِجْرَاهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا. أو: لو شاءَ لأَعْمَاهُمْ، فلو طَلَبُوا أَنْ يُخْلَفُوا الصَّرَاطَ الَّذِي اعْتَادُوا الْمَشْيَ فِيهِ لَعَجَزُوا وَلَمْ يَعْرِفُوا طَرِيقاً، يعني: أنهم لا يَقْدِرُونَ إِلَّا عَلَى سُلُوكِ الطَّرِيقِ الْمَعْتَادِ دُونَ مَا وَرَاءَهُ مِنْ سَائِرِ الطَّرِيقِ وَالْمَسَالِكِ، كما ترى الْعُمَيَّانِ يَهْتَدُونَ فِيهَا أَلْفُوا وَضَرَوْا بِهِ مِنْ الْمَقَاصِدِ دُونَ غَيْرِهَا. ﴿عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾، وقرئ: (على مكاناتهم)، والمكانة والمكان واحد، كالمقامة والمقام. أي: لمسخناهم مسخاً يُجْمَدُهُمْ مَكَانَهُمْ لا يَقْدِرُونَ أَنْ يَبْرَحُوهُ بِإِقْبَالٍ وَلَا إِدْبَارٍ وَلَا مُضِيٍّ وَلَا رُجُوعٍ. واختلَفَ فِي الْمَسْخِ؛ فعن ابنِ عَبَّاسٍ: لَمَسَخْنَاهُمْ قَرْدَةً وَخَنَازِيرَ. وقيل: حجارة. وعن قتادة: لأَقْعَدْنَاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ وَأَزْمَنَاهُمْ. وقرئ: ﴿مُضِيًّا﴾ بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ، فَالْمُضِيَّ وَالْمِضِيَّ كَالْعُتْبِيِّ وَالْعَيْتِيِّ، وَالْمِضِيَّ كَالصَّبِيِّ.

قوله: (وتعايا عليهم)، الأساس: عي بالامر وتعبي به وتعايا، وأعياء الأمر: إذا لم يَضِبْطُهُ.

قوله: (وضرّوا به) أي: تعودوا. الجوهري: وقد ضريّ الكلب بالصيد ضرّاةً: تعود.

قوله: (وقرئ: «على مكاناتهم») قرأ أبو بكر: بالجمع، والباقون: على التوحيد^(١).

قوله: (وقرئ: ﴿مُضِيًّا﴾ بالحركات الثلاث)، بالضم: هي المشهورة، وبالفتح والكسر: شاذ^(٢).

(١) وهو الذي اختاره مكّي بن أبي طالب في «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (١: ٤٥٣)، وعلله بقوله: لأنه مصدر يدل على القليل والكثير من صنفه، من غير جمع ولا ثنية، وأصل المصدر أن لا يُنْتَى ولا يُجْمَع لأن فائدته فائدة الفعل... إلى قوله... والتوحيد أحب إلى لأن الجماعة عليه، ولأنه أخف، ولأنه الأصل انتهى.

(٢) ومن قرأ بالفتح أبو حيوة. انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٥٠)، ومن قرأ بالكسر أبو حيوة وأحمد بن جبير الأنطاكي عن الكسائي اتباعاً لحركة الضاد. حكاه أبو حيان النحوي في «البحر المحيط» (٩: ٧٩).

﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [٦٨]

(نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ): نَقَلِيهِ فِيهِ فَنَخْلُقُهُ عَلَى عَكْسِ مَا خَلَقْنَاهُ قَبْلًا؛ وَذَلِكَ أَنَا خَلَقْنَاهُ عَلَى ضَعْفٍ فِي جَسَدِهِ، وَخَلَوُ مِنْ عَقْلِ وَعِلْمٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ يَتَزَايَدُ وَيَنْتَقِلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَيَرْتَقِي مِنْ دَرَجَةٍ إِلَى دَرَجَةٍ، إِلَى أَنْ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَيَسْتَكْمِلَ قُوَّتَهُ، وَيَعْقِلَ وَيَعْلَمَ مَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ، فَإِذَا انْتَهَى نَكَّسْنَاهُ فِي الْخَلْقِ فَجَعَلْنَاهُ يَتَنَاقَصُ، حَتَّى يَرْجِعَ فِي حَالٍ شَبِيهَةٍ بِحَالِ الصَّبِيِّ فِي ضَعْفِ جَسَدِهِ وَقَلَّةِ عَقْلِهِ وَخَلَوِهِ مِنَ الْعِلْمِ، كَمَا يُنَكِّسُ السَّهْمَ فَيُجْعَلُ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ. قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [الحج: ٥]، ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ [التين: ٥]، وَهَذِهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مَنْ يَنْقُلُهُمْ مِنَ الشَّبَابِ إِلَى الْهَرَمِ، وَمِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الضَّعْفِ، وَمِنَ رَجَاةِ الْعَقْلِ إِلَى السَّخَرَفِ وَقَلَّةِ التَّمْيِيزِ، وَمِنَ الْعِلْمِ إِلَى الْجَهْلِ بَعْدَمَا نَقَلَهُمْ خِلَافَ هَذَا النَّقْلِ وَعَكْسَهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَطْمَسَ عَلَى أَعْيُنِهِمْ وَيَمَسَّحَهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ وَيَفْعَلَ بِهِمْ مَا شَاءَ

قوله: (وهذه دلالة على أن من ينقلهم من الشباب إلى الهرم) إلى قوله: (قادر على أن يطمس [على] أعينهم ويمسحهم) يريد أن قوله ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ ﴾ الجملة معطوفة على متعلّق علّة محذوفة، المعنى: لو نشاء لفعلنا الطمس، ولو نشاء لفعلنا (١) المسخ، لأننا قادرون على كل شيء وعلى قلب الحقائق، ألا ترى كيف نُقَلِّبُ الْإِنْسَانَ فِي الْخَلْقِ فَنَخْلُقُهُ عَلَى عَكْسِ مَا خَلَقْنَاهُ قَبْلًا، وَهَذَا لَيْسَ بِأَغْرَبَ مِنْ ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ تَنْبِيهُ عَلَى التَّفَكُّرِ وَتَوْبِيخٌ لِمَا لَوْ عَسَى أَنْ يُنَكِّرَ مُنَكِّرٌ أَنَّهُ تَعَالَى كَيْفَ يَحْتِمُ عَلَى الْأَفْوَاهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَتَكَلَّمَ الْأَيْدِي وَتَشْهَدُ الْأَرْجُلُ، وَمِثْلُهُ مَا رَوَيْنَا عَنِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ [الفرقان: ٣٤] أَيْحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْسَاهُ عَلَى الرَّجُلَيْنِ فِي الدُّنْيَا

(١) سقط لفظ: «لفعلنا» من النسخة (ف).

وأراد. وقرئ بكسر الكاف، و﴿نَتَكْسُهُ﴾، و﴿نُنَكِسُهُ﴾ من التنكيس والإيكاس.
﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ بالتاء والياء.

[﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ * لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا
وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ٦٩-٧٠]

كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: شاعرٌ، وروى: أن القائل: عقبه بن أبي معيط،
فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ أي: وما علمناه بتعليم القرآن الشعر، على معنى: أن القرآن
ليس بشعر،

قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة^(١). قال قتادة حين بلغه: بلى وعزة ربنا.

قوله: (وقرئ بكسر الكاف و﴿نَتَكْسُهُ﴾): عاصمٌ وحَمزة: ﴿نَتَكْسُهُ﴾ بضم
النون الأولى، وفتح الثانية، وكسر الكاف وتشديدها. والباقون: بالفتح للنون الأولى وإسكان
الثانية وضم الكاف مُحْفَفة^(٢).

قوله: (أي: وما علمناه بتعليم القرآن الشعر، على معنى: أن القرآن ليس بشعر) يعني:
قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ كنايةٌ تلويحيةٌ عن كون القرآن ليس بشعر، وأن رسول الله ﷺ
ليس بشاعر، لأن الآية ردٌ لقولهم: هو شاعر، وذلك أنهم ما سمعوا من رسول الله ﷺ
منذ نشأ بين ظهرانيهم ما يُنبئ عن الشعر ولا نُسبوه إلى الشاعرية أصلاً، فلما سمعوا منه هذا
القرآن المجيد نسبوه إليها إيداناً بأن القرآن شعرٌ فقيل لهم: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ ودلَّ به على
أن القرآن ليس بشعر، أي: وما جعلنا تعلّمنا القرآن له ذريعةً إلى تعلّم الشعر حتى يكون
شاعراً، فإذا لم يكن تعليم القرآن ذريعةً إليه، فلا يكون القرآن شِعراً، ولا يكون هو شاعراً،

(١) أخرجه البخاري (٤٧٦٠) ومسلم (٢٨٠٦) وغيرهما.

(٢) وهما لغتان مثل قتل وقتل. وأنكر الأَخْفَشُ التخفيفَ ولم يعرف إلا التشديد، وقال: لا يكادون
يقولون: تكسُّته إلا لما يُقْلَبُ فيجعل رأسه أسفل. وروى عن أبي عمرو أنه أنكر التشديد. انتهى
بحروفه من «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (٢: ٢٢٠).

فالباءُ في قولِ المصنّف: «وما عَلَّمْنَاهُ بتعليمِ القرآنِ الشُّعْرَ» للاستعانة، وذلك أن مَنْ يُبارِسُ الدواوينَ والأشعارَ ربما^(١) يستعينُ به على قَرْضِ الشُّعْرِ. وإذا لم يكنِ القرآنُ من الشُّعْرِ في شيءٍ فكيفَ يُستعانُ به عليه؟ وإليه الإشارةُ بقوله: فأينَ الوِزْنُ وأينَ التَّقْفِيَةُ، وأينَ المعاني وأينَ النِّظْمُ وأينَ الأساليبُ؟

والعَرَضُ في ارتكابِ هذه الكِنَايَةِ تطبيقُ هذا الرَدِّ على قولهم لرسولِ ﷺ: إنه شاعرٌ، وتلْفِيْقُ قوله ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ﴾ فقوله: «وما ينبغي له» اعتراضٌ لتقريرِ أنه ليس بشاعر، وقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ تقريرٌ للمُقَدَّرِ.

وأوردَ أن هذا ليسَ من قبيلِ الكِنَايَةِ فَضْلاً عن أن يكونَ تلوِيحِيَّةً لأنه انتقالٌ من ملزومٍ واحدٍ إلى اللازمِ، فيقالُ: لا ارتيابُ أن دَلَالَةَ ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ﴾ على أن القرآنَ ليسَ بشُعْرٍ، ودَلَالَةُ ذلك على نَفْيِ الشاعرِ ليسَ من قبيلِ المَفْهُومِ الحَقِيقِيِّ، وهو نَفْيُ تعليمِ الشُّعْرِ منه. ولا من قبيلِ المَجازِ عند مُقتني صِنَاعَةِ البَيَانِ؛ لا من أنواعِ المُفْرَدِ منه ولا المُركَّبِ، أي: الاستعارة التمثيلية أو الإسنادِ المَجازِيِّ، فوجبَ المَصرُّ إلى الكِنَايَةِ باستعانة^(٢) اقتضاءِ المَقَامِ كما سبقَ لما يلزَمُ من نَفْيِ الشاعرِيَةِ حينئذِ نَفْيُ كَوْنِ القرآنِ شعراً ومن نَفْيِ تعليمِ الشُّعْرِ بواسطةِ القرآنِ، فأذنَ الانتقالُ من قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ﴾ أي: أن القرآنَ ليسَ بشُعْرٍ، ومن ذلك إلى أنه صلواتُ الله عليه ليسَ بشاعرٍ انتقالٌ من اللازمِ إلى الملزومِ بمرتبَتَيْنِ، ولا يَعْنِي بالتلوِيحِ الأبعَدُ والانتقالُ؛ ألا ترى إلى ما أنشدَه صاحبُ «المفتاح» من قولِ ابنِ هَرَمَةَ:

لا أمتنعُ العُودَ بالفِصالِ ولا أبتاعُ إلا قريبةَ الأجلِ

فإنه استعانَ بوساطةِ مقامِ المدحِ وتسلُّلِ اللوازمِ على أنه مضياف، والله أعلم^(٣).

وأما بيانُ النِّظْمِ فإنَّ قولَه ﴿أَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾ الآيةُ خاتمةُ لبيانِ

(١) في (ط): «عما».

(٢) في (ط): «باستدعاء».

(٣) «مفتاح العلوم» ص ١٧٧، ولتعام الفائدة انظر: «الأغاني» (٥: ٢٦٩).

وما هو من الشعر في شيء، وأين هو عن الشعر، والشعر إنما هو كلامٌ موزون مقفى،

أحوال المعاد، وكالتخلص^(١) إلى ذكر أحوال المكذبين من قوم رسول الله ﷺ، وتقريرهم وتوبيخهم، وهو قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: لا تتعجبوا بما نختم على أفواههم في القيامة، ولو شئنا الآن لطمسنا على أعينهم، فلو أرادوا أن يمشوا مُستبِقين في الطريق المألوف لم يستطيعوا، ولو نشاء لمسخناهم مسخاً يُجمدُهم مكانهم لفعلنا، ومن تكاذبهم قولهم في القرآن وفي مَنْ أُنزِلَ عليه: إنه شاعرٌ وهو شعرٌ حتى ردَّ عليهم بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ إلى قوله: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وهذا المعنى يُلمح إلى ما افتتح به السورة من قوله: ﴿لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرُوا وَأَبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * .

قوله: (والشعرُ إنما هو كلامٌ موزون مقفى)، الراغب: الشعرُ معروف، والجمعُ أشعار، قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا﴾ [النحل: ٨٠] وشعرتُ: أصبتُ الشعرَ، ومنه استعير: شعرتُ: كذا، أي: علمتُ علماً في الدقة كإصابة الشعر. قيل: وسُمي الشاعرُ شاعراً لفظنته ودقة معرفته. فالشعرُ في الأصل: اسمٌ للعلمِ الدقيق في قولهم: لبتُ شعري، وصارَ في التعارفِ اسماً للموزون المقفى من الكلامِ والشاعرِ المختصِّ بصناعته. وقوله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿بَلِ أَقْرَبُّهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥] كثيرٌ من المفسرين حملوه على أنهم رموه بكونه أتى بشعرٍ منظوم مقفى حتى تأولوا عليه ما جاء في القرآن من كُلف لفظية تشبه الموزون من نحو قوله تعالى: ﴿وِحْقَانٍ﴾^(٢) كالجوابِ وقُدورِ رَاسِيَتِ ﴿[سبأ: ١٣].

وقال بعضُ المحصلين: لم يقصدوا هذا المقصدَ فيما رموه به، لأنه ظاهرٌ من هذا الكلام أنه ليس على أساليب الشعر، ولا يخفى ذلك على الأغمات^(٣) من العجم فضلاً عن بلغاء العرب، وإنما رموه بالكذب، فإن الشعرَ يُعبرُّ به عن الكذب، والشاعرُ: الكاذبُ، حتى سُمي قومُ الأدلة الكاذبة الشعرية، ولهذا قال في وصفِ عامة الشعراء: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ

(١) في (ط): «فالتخلص».

(٢) في النسخة (ط): «وجفون».

(٣) من الغنم، وهو العجمة في المنطق.

يدلُّ على معنى، فأين الوزن؟ وأين التَّقْفِيَّة؟ وأين المعاني التي يَنْتَحِيها الشُّعْرَاءُ عن معانيه؟ وأين نظمُ كلامهم عن نظْمِهِ وأساليبه؟ فإذا لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حَقَّقْتَ، اللهم إلا أن هذا لفظه عربي، كما أن ذاك كذلك. ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾: وما يصحُّ له ولا يتطلَّب لو طلبه، أي: جعلناه بحيث لو أراد قرَّض الشعر لم يتأتَّ له ولم يتسهَّل،

الْفَاوِنُ ﴿[الشعراء: ٢٢٤] وَلِكُونِ الشُّعْرِ مَقَرَّ الكَذِبِ، قيل: أحسنُ الشعرِ أكذبه، وقال بعضهم: لم يُرْ مُتَدِينٌ صادقٌ اللَّهجةَ مُفْلِقاً في شعره. والشُّعْرَاءُ: الثوبُ الذي يلي البدنَ لما سبَّه الشعرَ. والشُّعْرَاءُ: ما يُشْعِرُ به الإنسانُ نفسه في الحربِ أي: يُعلمُ، والشُّعْرَاءُ ذبابُ الكلبِ لملازمته شعره (١).

قوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ وما يصحُّ له ولا يتطلَّب، رُوِيَ عن المصنِّف أنه قال: في «كتاب سببونه حرفٌ واحد: كلُّ فعلٍ فيه علاجٌ يأتي مطاوعه على الانفعال، كضربٍ وطلبٍ وعلمٍ، وما ليس فيه علاجٌ كعدمٍ وفقدٍ لا يتأتى في مطاوعه الانفعال البتة (٢).

وقال ابن الحاجب: ﴿وَمَا يَنْبَغِي﴾ بمعنى: لا يستقيم عقلاً كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وُلْدًا﴾ [مريم: ٩٢]؛ لأنه لو كان ممَّن يقول الشعر لتطرقت التهمة عند كثيرٍ من الناس في أن ما جاء به من قبل نفسه. ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكُفْرِيِّينَ﴾؛ لأنه إذا انتفتت الرِّبِّيَّة لم يبق إلا المعاندة، فيحقُّ القول عليهم (٣). أشار إلى اتصال هذه الآية بما قبلها وما بعدها كما قرَّزناه آنفاً.

قال الإمام: وفيه وَجْهٌ أحسنُ من ذلك، وهو أن الشعر لا يليقُ بمثله، ولا يصلحُ له، لأن الشعرَ يدعو إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن، ولأن أحسنه المبالغة والمجازفة والإغراق في الوصف، وكلُّها تستدعي الكذب، وجلَّ جنابُ الشارع عنه؛ فما هو إلا كتابٌ

(١) «مفردات القرآن» ص ٤٥٥.

(٢) ذكره بنحوه في «المفصل» ص ٣٧٣ وزاد بعده: ولهذا كان قولهم: انعدم، خطأ، يعني: لأن ليس فيه علاج.

(٣) «أمالي ابن الحاجب» (١: ٢٦٤-٢٦٥).

كما جعلناه أمياً لا يتهدى للخط ولا يُحسنه؛ لتكون الحجة أثبتة والشبهة أذخض.
وعن الخليل: كان الشعرُ أحبَّ إلى رسولِ الله ﷺ من كثيرٍ من الكلام، ولكن كان لا يتأتى له. فإن قلت: فقولُه:

أنا النبيُّ لا كذبُ أنا ابنُ عبدِ المُطلبِ

وقولُه:

هَلْ أَنْتِ إِلَّا أَصْبُعُ دَمِيَّتِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيْتِ

سماوي يُقرأ في المحارِبِ ويُتلى في المُتعبَداتِ، ويُنالُ بِتلاوَتِهِ الفَوْزُ في الدارينِ، فكَم بينه وبينَ
الشعرِ الذي هو من هَمَزاتِ الشياطينِ^(١)؟

روينا عن البخاريِّ ومسلمٍ وغيرهما عن أبي هريرةَ: أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «لأنَّ
يَمْتَلِئُ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قِيحاً حَتَّى يَرِيَهُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْراً»^(٢).

وفي «مسندِ أحمدَ بن حنبلٍ» عن عائشةَ قالت: كان أبغضَ الحديثِ إليه الشعرُ^(٣).

وفي «المسند» أيضاً عن عبدِ اللهِ بن عمرو بن العاص: أنه سَمِعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ:
«ما أبالي ما رَكِبْتُ إذا شَرِبْتُ ترياقياً أو عَلَقْتُ تَمِيمَةً، أو قُلْتُ شِعْراً مِنْ قَبْلِ نَفْسِي»^(٤).

قوله: (أنا النبي لا كذب، أنا ابنُ عبدِ المُطلبِ)، قاله صلواتُ اللهِ عليه يومَ حُنينٍ حين
نزلَ ودعا واستنصرَ في حديثِ أخرجه البخاريُّ ومُسلمٌ والثَّرمذي عن البراء.

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه مسلم (٢٢٥٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٣) «مسند الإمام أحمد» (٢٥٠٢٠) وأخرجه الطيالسي في «المسند» (١٤٩٠) ومن طريقه البيهقي في
«السنن الكبرى» (١٠: ٢٤٥) بإسناد صحيح.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٦٥٦٥) وأبو داود (٣٨٧١) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩: ٣٥٥)

بإسنادٍ ضعيفٍ لأجل عبد الرحمن ابن رافع التنوخي المصري، ضعيف الحديث.

قلت: ما هو إلا كلامٌ من جنسِ كلامه الذي كان يرمي به على السليقة، من غير صنعة فيه ولا تكلف، إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك كما يتفق في كثير من إنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة لا يسميها أحدٌ شعراً، ولا يخطر ببال المتكلم ولا السامع أنها شعر، وإذا فتشت في كل كلام عن نحو ذلك وجدت الواقع في أوزان البحور غير عزيز، على أن الخليل ما كان يعدُّ المشطور من الرجز شعراً. ولما نفى أن يكون القرآن من جنس الشعر قال: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ يعني: ما هو إلا ذكرٌ من الله تعالى يوعظُ به الإنسُ والجن، كما قال: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧]، وما هو إلا قرآنٌ كتابٌ سماوي، يُقرأ في المحارب، ويُتلى في المتعبّدات، ويُنال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين، فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين؟ ﴿يَسْذَرُ﴾ القرآن، أو الرسول،

وعن البخاريِّ ومُسلم عن جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ أَصَابَهُ حَجَرٌ فَدَمِيَّتْ أَصْبَعُهُ، فَقَالَ:

هَلْ أَنْتِ إِلَّا أَصْبَعٌ دَمِيَّتْ وفي سبيلِ اللَّهِ مَا لَقِيَتْ (١)

قوله: (على السليقة)، الجوهرى: هي الطبيعة يقال: فلان يتكلم بالسليقة، أي: بطبعه، لا عن تعلُّم وهي منسوبة (٢).

قوله: (المشطور من الرجز)، عن بعضهم: المشطور: الذي أخذ شطره، وهو الذي ليس بمُصرَّع، كقوله:

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعٌ أَحَبُّ فِيهَا وَأَضَعٌ (٣)

(١) حديث البراء بن عازب أخرجه البخاري (٢٨٦٤) ومسلم (١٧٧٦) والترمذي (١٦٨٨)، أما حديث جندب بن عبد الله فأخرجه البخاري (٢٨٠٢) ومسلم (١٧٩٦).

(٢) في هامش «الصحاح» (٤: ١٤٩٨) (سلق): كذا. وفي «اللسان»: «وقيل: يقرأ بالسليقة. وهي منسوبة، أي بالفصاحة».

(٣) لدريد بن الصمة. انظر: «الأغاني» (٩: ٧٣).

وَقُرِّي: (لِتُنذِرَ) بالتاء، و(لِيُنذِرَ): مِن: نَذَرَ به؛ إِذَا عَلِمَهُ. ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أَي: عَاقِلًا مُتَأَمِّلًا؛ لِأَنَّ الْغَافِلَ كَالْمَيِّتِ؛ أَوْ مَعْلُومًا مِنْهُ أَنَّهُ يُؤْمِنُ فِيحْيَا بِالْإِيمَانِ، ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ﴾:

قوله: (وَقُرِّي: ﴿لِتُنذِرَ﴾) بالتاء: نافع وابن عامر، والباقون: بالياء التحتانية^(١).

قوله: (مِن: نَذَرَ به؛ إِذَا عَلِمَهُ)، الجوهرى: وَنَذَرَ الْقَوْمَ بِالْعَدُوِّ بِكَسْرِ الذَّالِ الْمَعْجَمَةِ؛ إِذَا عَلِمُوا.

قوله: (أَوْ مَعْلُومًا مِنْهُ أَنَّهُ يُؤْمِنُ)، عَطْفٌ عَلَى «عَاقِلًا مُتَأَمِّلًا»، وَعَلَى الْأَوَّلِ ﴿حَيًّا﴾ اسْتِعَارَةٌ مُصَرَّحَةٌ بِحَقِيقَتِهِ اسْتَعِيرَ الْحَيَاةَ لِلْعَقْلِ لِجَامِعِ التَّكْمِيلِ وَالتَّزْيِينِ. وَعَلَى الثَّانِي اسْتِعَارَةٌ لِلْإِيمَانِ كَذَلِكَ، ثُمَّ مَجَازٌ بِاعْتِبَارِ مَا يُؤُولُ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ابْتَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] قَالَ: سَمَّاهُمْ قَبْلَ الدَّخُولِ فِي الْإِيمَانِ مُؤْمِنِينَ لِمَشَارَفَتِهِمْ ذَلِكَ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لِيُنذَرَ مَنْ كَانَ مَالٌ أَمْرُهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ لِأَنَّهُ الَّذِي يَنْتَفَعُ بِالْإِيمَانِ^(٢)، وَلِذَلِكَ رَتَّبَ «فِيحْيَى بِالْإِيمَانِ» عَلَى قَوْلِهِ: «مَعْلُومًا مِنْهُ أَنَّهُ يُؤْمِنُ».

وَقَالَ بَعْضُ الْمَشَاهِيرِ: أَطْلَقَ كَانَ وَالْمَرَادُ يَكُونُ مَجَازًا بِاعْتِبَارِ مَا يُؤُولُ، فَيُقَالُ: «كَانَ» فِي هَذِهِ الْآيَةِ نَحْوُهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]؛ وَلِذَلِكَ قَالَ: «مَعْلُومًا مِنْهُ أَنَّهُ يُؤْمِنُ». وَهَذَا الْوَصْفُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ ثَابِتٌ لِلْمَوْصُوفِ، وَكَذَا عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ.

قَالَ الرَّاعِبُ: «كَانَ» يُسْتَعْمَلُ مِنْهُ فِي جِنْسِ الشَّيْءِ مُتَعَلِّقًا بِوَصْفٍ لِيُنْبَهَ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْوَصْفَ لَازِمٌ لَهُ قَلِيلُ الْإِنْفِكَافِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وَمِنْ ثَمَّ قُوبِلَ بِهِ قَوْلُهُ: ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ لِأَنَّهُ مُعَبَّرٌ بِهِ عَنِ الْعِلْمِ الْأَرْثِيِّ، وَاخْتِيارَ قَوْلِهِ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ عَلَى «مَنْ يَكْفُرُ»؛ أَي: وَجَبَ وَثَبَتْ فِي عِلْمِ اللَّهِ اسْتِمْرَارُهُ عَلَى الْكُفْرِ كَمَا ثَبَتَ فِي

(١) فَمَنْ قَرَأَ بِالتَّاءِ فَعَلِيَ الْخُطَابِ لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّهُ هُوَ النَّذِيرُ لِأُمَّتِهِ، وَمَنْ قَرَأَ بِالياءِ فَعَلِيَ الْإِخْبَارِ عَنِ الْقُرْآنِ لِأَنَّهُ نَذِيرٌ لِمَنْ أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ. قَالَ أَبُو زُرْعَةَ: وَيُقَوَّى التَّاءُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ [الرعد: ٨]. انظر:

«حجّة القراءات» ص ٦٠٣.

(٢) انظر: «الكشاف» (١١: ٤٣٣).

وَنَجِبُ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الَّذِينَ لَا يَتَأَمَّلُونَ وَلَا يُتَوَقَّعُ مِنْهُمْ الْإِيْمَانُ.

[أَوْلَازٍ يَرَوْنَ أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمْنَا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَهُمْ فِيهَا مَتَّعِفٌ وَمَشَارِبٌ أَفْلا يَشْكُرُونَ ﴿٧١-٧٣﴾]

﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾: مِمَّا تَوَلَّيْنَا نَحْنُ إِحْدَاثَهُ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى تَوَلَّيْهِ غَيْرُنَا، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِبِدَائِعِ الْفِطْرَةِ وَالْحِكْمَةِ فِيهَا، الَّتِي لَا يَصِحُّ أَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهَا إِلَّا هُوَ. وَعَمَلُ الْأَيْدِي: اسْتِعَارَةٌ مِنْ عَمَلٍ مَنْ يَعْمَلُونَ بِالْأَيْدِي، ﴿فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾ أَي: خَلَقْنَا هَا لِأَجْلِهِمْ فَمَلَكْنَاهَا إِيَّاهُمْ، فَهُمْ مَتَّعِرٌ فَوْن فِيهَا تَصَرَّفَ الْمَلِكُ، مَخْتَصِصُونَ بِالْإِتِّفَاعِ بِهَا لَا يُزَاخُونَ. أَوْ: فَهُمْ هَا ضَابِطُونَ قَاهِرُونَ، مِنْ قَوْلِهِ:

عَلِمَ اللهُ دُخُولَ ذَلِكَ فِي الْإِيْمَانِ، فَظَهَرَ مِنْ هَذَا التَّقَابِلِ: أَنَّ الْكَافِرَ كَالْمِيْتِ وَالْمُؤْمِنَ كَالْحَيِّ.

وقوله: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الَّذِينَ لَا يَتَأَمَّلُونَ) مَقَابِلٌ لِقَوْلِهِ: أَي عَاقِلًا مَتَأَمِّلًا. وَقَوْلِهِ: «وَلَا يُتَوَقَّعُ مِنْهُمْ الْإِيْمَانُ» مَقَابِلٌ لِقَوْلِهِ: «أَوْ مَعْلُومًا مِنْهُ الْإِيْمَانُ» وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قوله: (وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِبِدَائِعِ الْفِطْرَةِ) يَعْنِي: إِنَّمَا قَرَنَ إِنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ وَأَثَرُ صِيغَةِ التَّعْظِيمِ وَالْأَيْدِي مَجْمُوعَةٌ لِيَدُلَّ عَلَى إِبْدَاعِ خَلْقٍ عَجِيبٍ وَإِبْدَاعِ صُنْعٍ غَرِيبٍ فِيهِ، لِأَنَّ الْيَدَ إِذَا اسْتَعْبِرَتْ لِلْقُدْرَةِ دَلَّتْ عَلَى دِقَّةٍ فِي الْمَقْدُورِ.

قوله: (وَعَمَلُ الْأَيْدِي اسْتِعَارَةٌ مِنْ عَمَلٍ مَنْ يَعْمَلُ^(١)) يَعْنِي: اسْتَعْبِرَ عَمَلُ الْأَيْدِي مِنْ مَكَانٍ يُسْتَعْمَلُ فِيهِ هَذَا اللَّفْظُ حَقِيقَةً، وَهُوَ الْإِنْسَانُ، لِمَنْ لَا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ عَمَلُ الْأَيْدِي إِلَّا جِزَاءً، وَهُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَنَحْوُهُ اسْتِعْمَالُ الطَّلْعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيْطَانِ﴾ [الصَّافَات: ٦٥] فِيهَا لَا طَلْعَ لَهُ مِنَ الشَّجَرِ، وَاسْتِعْمَالُ الْمُرْسَنِ فِي أَنْفٍ لَا رَسْنَ لَهُ.

قوله: (أَوْ: فَهُمْ هَا ضَابِطُونَ) فَالْمَلِكُ بِمَعْنَى الْقَاهِرِ وَالْقَادِرِ مِنْ مَلَكْتُ الْعَجِيزِ: إِذَا أَجْدَتْ عَجْنَتَهُ فَقَوَّيْتَهُ، وَمِنْهُ أُجِدَّ الْمَلِكُ لِأَنَّهُ الْقُدْرَةُ عَلَى الْمَمْلُوكِ، وَالْفَاءُ عَلَى الْأَوَّلِ لِلتَّسْبِيْبِ وَهِيَ فَصِيحَةٌ لِتَقْدِيرِ فَمَلَكْنَاهُمْ وَهَذَا أَوْجَهُ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ وَتَقْسِيمَهُ بِالرُّكُوبِ

(١) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ، وَفِي «الْكَشَافِ»: «يَعْمَلُونَ».

أَصْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السَّلَاحَ وَلَا أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا

أي: لا أضببطه، وهو من جُملة النعم الظاهرة، وإلا فَمَنْ كان يَقْدِرُ عليها لولا تذييله وتسخيره لها؟ كما قال القائل:

يُصَرِّفُهُ الصَّبِيُّ بِكُلِّ وَجْهِ وَيَجْسُئُهُ عَلَى الْحَسْفِ الْجَرِيرِ
وَتَضْرِبُهُ الْوَالِدَةُ بِالْهَرَاوِي فَلَ غَيْرَ لَدَيْهِ وَلَا نَكِيرِ

ولهذا ألزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة ويسبح بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣]. وقرئ: ﴿رَكَوْبُهُمْ﴾ و﴿رَكَوْبَتُهُمْ﴾،

والأكل يدل على الضبط والقهر فدَلَّ «مالكون» على أن أحداً لا يمنعهم من التصرف فيها ودَلَّ ﴿وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾^(١) على أنها في أنفسها لا تمتنع من التصرف فيها بما أراد صاحبها، وعلى الوجه الثاني: ودَلَّلْنَاهَا لَهُمْ عَطْفٌ تفسيري على قوله: ﴿مَلِكُونَ﴾ وليس بقوي.

قوله: (أَصْبَحْتُ) البيت^(٢)، وبعده:

وَالذَّنْبَ أَخْشَاءُ إِنْ مَزْرْتَ بِهِ وَخَدِي وَأَخْشَى الرِّيَاحَ وَالْمَطْرَا

سُئِلَ عَنْ أَبِي هَرْمَةَ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ فَأَنْشَدَ الْبَيْتَيْنِ.

قوله: (بُصِّرَفَهُ الصَّبِيُّ) البيتين، الجرير: حَبْلٌ يُجْعَلُ للبعير بمنزلة العذار للدابة غير الزمام، والخسف: الذل. والهراوي: جمع الهراوة وهي العصا الصخمة، والغير: اسم من قولهم: غيَّرتُ الشيء فتغير، أو جمع غير.

قوله: (وَقُرئ: ﴿رَكَوْبُهُمْ﴾)، وهي قراءة العامة. قال ابن جني: قرأ الحسن^(٣) والأعمش بضم الراء. وقرأت عائشة رضي الله عنها رَكَوْبَتُهُمْ، وأما الضم فمصدر، والكلام محمول

(١) من قوله: «وتقسيمه بالركوب والأكل يدل» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) للربيع بن صبيح الفزاري. انظر: «كتاب سيبويه» (١: ٨٩).

(٣) في النسخة (ف): «الحسين»، وهو على الجادة في «المحتسب»، يعني به الحسن البصري رحمه الله.

وهما ما يُرَكَّب، كالحلُوب والحلوبة. وقيل: الرُّكوبة: جمعٌ. وقرئ: (رُكوبهم) أي: ذو رُكوبهم، أو: فمن منافعها رُكوبهم. ﴿مَنْفَعٌ﴾: مِنَ الْجُلُودِ وَالْأُوبَارِ وَالْأَصْوَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. ﴿وَمَشَارِبٌ﴾: مِنَ اللَّبَنِ، ذَكَرَهَا مُجْمَلَةً، وَقَدْ فَصَّلَهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ الآية [النحل: ٨٠]. والمشارب: جمعُ مشرب؛ وهو موضعُ الشُّرب، أو الشُّرب.

[﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يَنْصَرُونَ﴾ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَصَرُونَ * فَلَا يَخْزُنَاكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [٧٤-٧٦].

اتَّخَذُوا الْآلِهَةَ طَمَعًا فِي أَنْ يَتَّقَوْا بِهِمْ وَيَعُضِدُوا بِمَكَانِهِمْ، وَالْأَمْرُ عَلَى عَكْسِ مَا قَدَّرُوا؛ حَيْثُ هُمْ جُنْدٌ لآلِهَتِهِمْ مُعَدُّونَ

على حَدِّفِ المضاف، أي: ذو رُكوبهم، وهو المركوبُ ومَرَجَعُهَا إلى قراءةٍ مَنْ قَرَأَ بِفَتْحِ الرَّاءِ وَإِنْ شِئْتَ قَدَّرْتَ: فَمِنْ مَنَافِعِهَا أَوْ مِنْ أَعْرَاضِهَا رُكُوبُهُمْ، وَأَمَّا رُكُوبَتُهُمْ فَهِيَ الْمَرْكُوبَةُ كَالجَزُورَةِ وَالْحَلُوبَةِ، أَي: مَا يُجْرَى^(١) وَيُحَلَبُ^(٢).

وقال مَكِّي: رُكُوبَتُهُمْ: الْأَصْلُ عِنْدَ الْكُوفِيِّينَ؛ لِيُفَرِّقَ بَيْنَ مَا هُوَ فَاعِلٌ وَبَيْنَ مَا هُوَ مَفْعُولٌ، يَقُولُونَ: امْرَأَةٌ صَبُورٌ وَشُكُورٌ فَهَذَا فَاعِلٌ، وَيَقُولُونَ: نَاقَةٌ حَلُوبَةٌ وَرُكُوبَةٌ فَهَذَا مَفْعُولٌ^(٣).

قوله: (هو موضعُ الشُّربِ، أو الشُّربُ)، في «المطلع»: مشاربٌ: جمعُ مشرب، بمعنى موضعِ الشُّربِ، أو هي مَصْدَرٌ بمعنى المشروب، وهو لَبْنُهَا وَخَيْضُهَا وَالزَّبْدُ وَالسَّمْنُ وَالْأَقِطُ وَالجَبْنُ وَالرَّائِبُ وَغَيْرُهَا.

(١) في (ط): «يجزر».

(٢) «المحتسب» (٢: ٢١٥) وزاد: وقد أشبعنا هذا الموضع في كتابنا المعروف بالخطيب، وهو شرح كتاب «المذكر والمؤنث» ليعقوب بن السكيت.

(٣) «مشكل إعراب القرآن» (٢: ٦٠٩).

﴿مُحْضَرُونَ﴾ يَخْدُمُونَهُمْ وَيَذُبُّونَ عَنْهُمْ، وَيَغْضَبُونَ لَهُمْ، وَالْأَلَهَةُ لَا اسْتِطَاعَةَ بِهِمْ وَلَا قُدْرَةَ عَلَى النَّصْرِ، أَوْ: اتَّخَذُوهُمْ لِيَنْصُرُوهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَيَسْفَعُوا لَهُمْ، وَالْأَمْرُ عَلَى خِلَافِ مَا تَوَهَّمُوا؛ حَيْثُ هُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جُنْدٌ مُعَدُّونَ لَهُمْ مُحْضَرُونَ لِعَذَابِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يُجْعَلُونَ وَقُوداً لِلنَّارِ.

قُرئ: ﴿فَلَا يَحْزُنُكَ﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّهَا، مِنْ حَزَنَهُ وَأَحْزَنَهُ. وَالْمَعْنَى: فَلَا يَهْمَنَّكَ تَكْذِيبُهُمْ وَأَذَاهُمْ وَجَفَاؤُهُمْ، فَإِنَّا عَالِمُونَ بِ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ مِنْ عِدَاوَتِهِمْ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾،

قوله: (﴿مُحْضَرُونَ﴾ يَخْدُمُونَهُمْ) أَي: يَخْضَرُونَهَا لِخِدْمَتِهَا وَعِبَادَتِهَا، لِقَوْلِهِ: «مُحْضَرُونَ لِعَذَابِهِمْ» حَيْثُ صَرَّحَ بِاللَّامِ.

وَأَمَّا اتِّصَالُ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا قَبْلَهَا فَأَنْ تُجْعَلَ حَالاً مُقَرَّرَةً لِحُجَّةِ الْإِشْكَالِ، أَي: إِنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ وَقَعَلْنَا كَذَا وَكَذَا وَهُمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ، وَمَعَ ذَلِكَ إِنَّهُمْ يَذُبُّونَ عَنْهَا وَيَغْضَبُونَ لَهَا، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: وَالْأَمْرُ عَلَى عَكْسِ مَا قَدَّرُوا.

قوله: (قُرئ: ﴿فَلَا يَحْزُنُكَ﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّهَا): نَافِعٌ: بِالضَّمِّ، وَالْبَاقُونَ: بِالْفَتْحِ^(١).

قوله: (وَالْمَعْنَى: فَلَا يَهْمَنَّكَ تَكْذِيبُهُمْ وَأَذَاهُمْ وَجَفَاؤُهُمْ) إِلَى آخِرِهِ، لِأَنَّ هَذِهِ الْفَاءَ مِنْ كَلَامٍ تَتَّصَلُ بِهِ، وَالَّذِي يَصِلُحُ لِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾، لِأَنَّهُ فِي جَوَابِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ شَاعِرٌ وَالْقِرَاءُ شِعْرٌ.

وَأَمَّا بَيَانُ النَّظْمِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ مَا رَدَّ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ: إِنَّهُ شَاعِرٌ، أَتَى بِقَوْلِهِ: ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ الْآيَاتِ، مُسَلِّياً حَبِيبَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، يَعْنِي: لَكَ التَّأْسِي بِرَبِّكَ، فَإِنَّهُ تَعَالَى أَرَاهُمْ تِلْكَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةَ، وَأَوْلَاهُمْ تِلْكَ النُّعَمَ الْمُتَظَاهِرَةَ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِهَا، وَمَعَ ذَلِكَ كَابَرُوا وَعَانَدُوا وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً أَشْرَكُوهَا بِهِ فِي الْعِبَادَةِ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ، لِأَنَّا مُجَازَوْهُمْ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاكَ إِشْرَاكَهُمْ بِ.

(١) وَقَدْ سَبَقَ تَحْرِيجُ الْقَوْلِ فِي هَذَا الْاِخْتِيَارِ وَتَعْلِيلُهُ. وَلِتِمَامِ الْفَائِدَةِ انظُر: «الْكَشْفُ عَنْ وَجْهِ الْقِرَاءَاتِ

وإنا مجازوهم عليه، فحقٌّ مثلك أن يتسلى بهذا الوعيد ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة؛ حتى ينقشع عنه الهم ولا يرهقه الحزن. فإن قلت: ما تقول فيمن يقول: إن قرأ قارئ: (أنا نعلم) بالفتح: انتقضت صلاته، وإن اعتقد بها يعطيه من المعنى: كفر؟ قلت: فيه وجهان؛ أحدهما: أن يكون على حذف لام التعليل، وهو كثير في القرآن والشعر، وفي كل كلام وقياس مطرد، وهذا معناه ومعنى الكسر سواء، وعليه تلبية رسول الله ﷺ: «إن الحمد والنعمة لك»، كسر أبو حنيفة وفتح الشافعي، وكلاهما تعليل. والثاني: أن يكون بدلاً من ﴿قَوْلُهُمْ﴾، كأنه قيل: فلا يحزنك، إنا نعلم ما يُسرون وما يُعلنون. وهذا المعنى قائم مع المكسورة إذا جعلتها مفعولة

قوله: (ينقشع عنه الهم ولا يرهقه الحزن)، الجملتان مُقرّرتان على النفي والإثبات طرداً وعكساً.

قوله: (وعليه تلبية رسول الله ﷺ)، عن البخاري ومسلم ومالك وغيرهم، عن ابن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يهل مُلبّداً يقول: «[لبيك]»^(١) اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والمُلك، لا شريك لك»^(٢) لا يزيد على هذه الكلمات.

النهاية: التليد: هو أن يُسرح الشعرُ ويُجعل فيه شيء من صمغ ليلتزق ولا يتشعث في الإحرام.

قوله: (مع المكسورة) يعني: هذا المحذور أيضاً قائم مع المكسورة على تقدير المقول، فعليك أن لا تُقدّر البدل فاتحاً، ولا تُقدّر مقول القول كاسراً لأنه على التقديرين نهي رسول الله ﷺ عن الحزن على كون الله عالماً بسرهم وعلايتهم، بل يُقدّر على الفتح، والكسر للتعليل، وهو المراد بقوله: وإنا يدوران على تقديرك: فينصل إلى آخره على أن ذلك جائز على سبيل التعريض كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥].

(١) زيادة من مصادر التخريج.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩١٥) ومسلم (١١٨٤).

للقول، فقد تبين أن تعلق الحزن بكون الله عالماً وعدم تعلقه لا يدوران على كسر «إن» وفتحها، وإنما يدوران على تقدير، تفضل إن فتحت بأن تقدّر معنى التعليل ولا تقدّر البدل، كما أنك تفضل بتقدير معنى التعليل إذا كسرت ولا تقدّر معنى المفعولية، ثم إن قدرته كاسراً أو فاتحاً على ما عظم فيه الخطب ذلك القائل، فما فيه إلا نهي رسول الله ﷺ عن الحزن على كون الله عالماً بسرهم وعلانيتهم، وليس النهي عن ذلك ما يوجب شيئاً، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِّلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧]، ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]؟

[﴿أَوْلَئِىرَ الْإِنسَانِ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُعِى الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنشَأْتُم مِّنْهُ تُوقُودُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ٧٧-٨٣]

قبح الله عز وجل إنكارهم البعث تقبيحاً لا ترى أعجب منه وأبلغ، ودل على تمادي كفر الإنسان وإفراطه في جحود النعم وعقوق الأيادي، وتوغله في الحسة،

قوله: (قبح الله عز وجل إنكارهم البعث تقبيحاً)، قال القاضي: هذه تسلية ثانية بتهوين ما يقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشر^(١). يريد أن قوله: ﴿أَوْلَئِىرَ الْإِنسَانِ﴾ * معطوف على قوله: ﴿أَوْلَئِىرَؤُا أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ * وأسلوبها أسلوبها في التعكيس، يعني: أنا كما تولينا إحدات النعم ليكون ذريعة إلى أن يشكروها فجعلوها وسيلة إلى الكفران، كذلك خلقناهم من أحسن الأشياء وأمهنها، ليخضعوا ويتذللوا، فإذا هو خصيم مبين.

(١) «أنوار التنزيل» (٤: ٤٤٢).

وتغلغل في القحّة؛ حيث قرّره بأن عنصره الذي خلقه منه هو أخس شيء وأمهنة؛ وهو النطفة المدرة الخارجة من الإخليل الذي هو قنأة النجاسة، ثم عجب من حاله بأن يتصدى مثله على مهانة أصله ودناءة أوله لمخاصمة الجبار، ويبرز صفحته لمجادلته، ويركب متن الباطل ويلجج، ويمحك ويقول: من يقدر على إحياء الميت بعدما رمّت عظامه؟! ثم يكون خصامه في الزم وصف له وأصقه به؛ وهو كونه منشأ من موات، وهو ينكر إنشاءه من موات، وهي المكابرة التي لا مطمح وراءها، ورؤي: أن جماعة من كفار قريش منهم أبي بن خلف الجمحي وأبو جهل والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة تكلموا في ذلك، فقال لهم أبي: ألا ترؤن إلى ما يقول محمد: إن الله يبعث الأموات، ثم قال: واللات والعزى لأصيرن إليه

قوله: (في القحّة)، الجوهرى: وقح الرجل إذا صار قليل الحياء، وهو وقح ووقاح بين القحّة والوقاحة، والهاء عوض من الواو.

قوله: (ويمحك) (١)، الجوهرى: المحك: اللجاج، وقد محك يمحك فهو رجل محك ومماحك.

قوله: (ثم يكون خصامه في الزم وصف) ثم هذه يجوز أن تكون للاستبعاد؛ يعني ينكر الحشر، ويخاصم مع مهانتة الجبار مع مهابته في شيء في غاية من الظهور والجلاء! ما أبعد ذلك من العاقل (٢)!

قوله: (والعاص بن وائل)، عن بعضهم: العاص، صح بالرفع، لأنه من الأغياص، من العوص لا من العصيان (٣)، والأغياص من قريش وهم أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر، وهم أربعة: العاص وأبو العاص، والعيص وأبو العيص، والعيص الأضل.

(١) في النسخة (ف): «يُمَحَّل» باللام.

(٢) في النسخة (ف): «الغافل»، وهو تصحيف.

(٣) قوله: «لا من العصيان» سقط من (ف).

وَأَخْصِمْتَهُ، وَأَخَذَ عَظْمًا بَالِيًا فَجَعَلَ يَفْتَهُ بِيَدِهِ وَهُوَ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَرَى اللَّهَ يُجِيبِي هَذَا بَعْدَمَا قَدْ رَمَّ؟! قَالَ ﷺ: «نعم، وَيَبْعَثُكَ وَيُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ». وقيل: معنى قوله: ﴿فَإِذَا

قوله: (وَأَخْصِمْتَهُ)، وَخَاصَمْتُ فَلَانًا فَخَصَمْتُهُ أَخْصِمُهُ بِالكَسْرِ، وَلَا يُقَالُ بِالضَّمِّ، وَهُوَ شَاذٌ. وَمِنْهُ قِرَاءَةُ حَمْزَةً: «وَهُمْ يَخْصِمُونَ»^(١).

قوله: (نعم، وَيَبْعَثُكَ وَيُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ)^(٢)، مِنَ الْأَسْلُوبِ الْحَكِيمِ، أَي: إِحْيَاؤُهُ مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ، فَسَلَّ عَنْ جَالِكَ كَيْفَ تَصِيرُ إِلَى جَهَنَّمَ؟ قِيلَ: لَيْسَ هَذَا مِنَ الْأَسْلُوبِ الْحَكِيمِ فِي شَيْءٍ، بَلْ أَجَابَ وَزَادَ فِي الْجَوَابِ بِالْبَعْثِ وَالْعِقَابِ.

فَيُقَالُ: الْأَسْلُوبُ الْحَكِيمُ: هُوَ تَلَقُّي الْمَخَاطَبِ بغيرِ مَا يَتَرَقَّبُ وَالسَّائِلِ بغيرِ مَا يَتَطَلَّبُ، فَقَوْلُهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ: «وَيَبْعَثُكَ وَيُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ» هُوَ الْجَوَابُ الْمَفْحَمُ، وَقَوْلُهُ: «نعم» تَوْطِئَةٌ لِلْجَوَابِ، وَاللَّعِينُ لَمْ يَتَرَقَّبْ ذَلِكَ، عَلَى أَنَّ سؤَالَ ذَاكَ لَمْ يَكُنْ سؤَالَ مُسْتَرَشِدٍ طَالِبٍ لِلْحَقِّ بَلْ سؤَالَ مُتَعَنِّتٍ مُتَهَكِّمٍ^(٣) لَمْ يَقْنَعْ بِلا وَنعم. فَكَيْفَ لَا وَقَدْ أُسْلِفَ: أَلَا تَرَوْنَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ: إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ الْأَمْوَاتَ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَهُ، نَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٨] جَوَابًا عَنْ قَوْلِهِمْ: ﴿أَيُّ ذَا مِثْنًا وَكُنَّا نُرَابًا وَعِظْلَمًا أَيُّنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٦] عَلَى أَنَّ الزَّائِدَ عَلَى الْجَوَابِ لَا يَتَبَيَّنُهُ إِلَّا الْحَكِيمُ الْحَازِقُ.

قال الراغب: السؤال ضربان: سؤال جدلٍ وحقه أن يطابقه جوابه لا زائداً عليه ولا ناقصاً عنه؛ وسؤال تعلمٍ وحق المعلم أن يصير فيه كطبيبٍ رقيق يتحرى شفاء سقيم فيطلب ما يشفيه طلبه المريض أو لم يطلبه^(٤).

(١) وقد سبق بيان علل اختيار القراء في هذا الحرف.

(٢) ذكره الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣: ١٦٧) وقال: غريبٌ بهذا اللفظ. ثم ذكر أن الحاكم قد أخرجه من حديث ابن عباس بلفظ: «نعم. يُميتك الله ثم يُحييك ثم يدخلك جهنم» وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

قلت: هو في «المستدرک» (٢: ٤٦٦).

(٣) في (ط): «منكر».

(٤) «تفسير الراغب» (١: ٤٤٤).

هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾: فإذا هو بعدما كان ماءً مهيناً رَجُلٌ مُمَيِّزٌ مِنْطِيقٌ قَادِرٌ عَلَى الْخِصَامِ، ﴿مُبِينٌ﴾: مُعْرِبٌ عَمَّا فِي نَفْسِهِ فَصِيحٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَنْ يُنَشِّئُ فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ عَيْرٌ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٨]. فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ سَمَى قَوْلَهُ: ﴿مَنْ يُعْجِي الْعَظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ مَثَلًا؟ قُلْتُ: لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ قِصَّةٍ عَجِيبَةٍ شَبِيهَةٍ بِالْمَثَلِ؛ وَهِيَ إِنْكَارُ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى. أَوْ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّشْبِيهِ؛ لِأَنَّ مَا أَنْكَرَ مِنْ قَبِيلٍ مَا يُوصَفُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْقُدْرَةِ عَلَيْهِ، بِدَلِيلِ النِّشْأَةِ الْأُولَى، فَإِذَا قِيلَ: مَنْ يُعْجِي الْعَظَامَ؟ عَلَى طَرِيقِ الْإِنْكَارِ لِأَنَّ يَكُونُ ذَلِكَ مِمَّا يُوصَفُ اللَّهُ تَعَالَى بِكَوْنِهِ قَادِرًا عَلَيْهِ؛ كَمَا تَعَجِيزُ اللَّهُ وَتَشْبِيهًا لَهُ بِخَلْقِهِ فِي أَنَّهُمْ غَيْرُ مُوصُوفِينَ بِالْقُدْرَةِ عَلَيْهِ. وَالرَّمِيمُ: اسْمٌ لِمَا بَلَى مِنَ الْعِظَامِ غَيْرُ صِفَةٍ، كَالرَّمَّةِ وَالرُّفَاتِ، فَلَا يُقَالُ: لِمَ لَمْ يُوَثِّثْ وَقَدْ وَقَعَ خَبْرًا لِمُوَثِّثٍ؟ وَلَا هُوَ فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ أَوْ

وَقُلْتَ: مِثَالُهُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ مَرَّةً السُّودَاءُ إِذَا طَلَبَ مِنَ الطَّيِّبِ تَنَاوُلَ الْجُبْنِ فَيَقُولُ: عَلَيْكَ بِمَائِهِ كَمَا أُجِيبَ عَنْ قَوْلِهِمْ ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِيَّةِ﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيْتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩] وَإِذَا طَلَبَ مَنْ قَهَرَهُ الصُّفْرَاءُ الْعَسَلَ فَيَقُولُ لَهُ: مَعَ الْخَلِّ، وَعَلَيْهِ مَا نَحْنُ بِصُدْدِهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْتَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّوَالِدَيْنِ﴾ [البقرة: ٢١٥].

قَوْلُهُ: (مِنَ التَّشْبِيهِ؛ لِأَنَّ مَا أَنْكَرَ) إِلَى آخِرِهِ، تَلْخِيصُهُ: أَنَّ إِحْيَاءَ الْأَمْوَاتِ مِنْ قَبِيلِ الصِّفَاتِ الَّتِي يُوصَفُ بِهَا الْبَارِي لِيَمْتَازَ عَنِ الْخَلْقِ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّي الَّذِي يُعْجِي وَيُمَيِّتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ يُعْجِي وَيُمَيِّتُ﴾ [الدخان: ٨]، فَإِذَا أَنْكَرَ ذَلِكَ لَزِمَ مِنْهُ الْعَجْزُ وَهُوَ مَا يُوصَفُ بِهِ الْمَخْلُوقُ، فَلِذَلِكَ قِيلَ: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ أَيِ شَبَهْنَا بِالْمَخْلُوقِينَ.

قَالَ الْإِمَامُ: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ جَعَلَ قُدْرَتَنَا كَقُدْرَتِهِمْ وَسَيَّى خَلْقَهُ الْعَجِيبَ وَبَدَّاهُ الْغَرِيبَ^(١).

قَوْلُهُ: (وَلَا هُوَ فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَاعِلٍ) قِيلَ: هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ «غَيْرُ صِفَةٍ». وَفِي

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣٠٨).

مفعول. ولقد استشهد بهذه الآية من يثبت الحياة في العظام، ويقول: إن عظام الميتة نجسة؛ لأن الموت يؤثر فيها من قبل أن الحياة تحلها. وأما أصحاب أبي حنيفة فهي عندهم طاهرة، وكذلك الشعر والعصب، ويزعمون أن الحياة لا تحلها؛ فلا يؤثر فيها الموت، ويقولون: المراد بإحياء العظام في الآية ردها إلى ما كانت عليه غضة رطبة في بدن حي حساس. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم كيف يخلق، لا يتعاطمه شيء من خلق المنشآت والمعادات ومن أجناسها وأنواعها وجلائلها ودقائقها. ثم ذكر من بدائع خلقه انقذاح النار من الشجر الأخضر، مع مضادة النار الماء وانطفائها به وهي الزناد التي توري بها الأعراب وأكثرها من المرخ والعفار، وفي أمثالهم: في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار، يقطع الرجل منهما غصنين من مثل السواكين وهما

«المطلع»: الرميم اسم غير صفة كالرمة والرقات لا فعيل بمعنى فاعل أو مفعول، ولأجل أنه اسم لا صفة لا يقال: لم يؤنث وقد وقع خبر لمؤنث؟ قال القاضي: والرميم: ما بلي من العظام، ولعله فعيل بمعنى فاعل؛ من: رم الشيء، فصار اسماً بالعلبة، ولذلك لم يؤنث، أو بمعنى مفعول؛ من: رمته، وفيه دليل على أن العظم ذو حياة فيؤثر فيه الموت كسائر الأعضاء^(١).

وقال محيي السنة: لم يقل رمية لأنه معدول عن فاعلة، وكل ما كان معدولاً عن وجهه ووزنه كان مضر وفاقاً عن أخواته لقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ يَغِيّاً﴾ [مریم: ٢٨] أسقط الهاء؛ لأنها كانت مصروفة عن: باغية^(٢).

قوله: (في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار)، استمجد: يستعمل في تفضيل الفاضل على الفضلاء، قال الميداني: يقال مجدت الإبل كمجد مجوداً إذا نالت من الخلق قريباً من الشبع، واستمجد المرخ والعفار، أي: استكثرا وأخذوا من النار ما هو حسبها؛ شبعها

(١) «أنوار التنزيل» (٤: ٤٤٣).

(٢) «معالم التنزيل» (٧: ٢٩).

حَضْرَاوان، يقطر منها الماءُ فَيَسْحَقُ الْمَرْخُ، وهو ذَكَرٌ، على الْعَقَارِ، وهي أُنثى، فتنقِدِحُ النارُ بإذن الله. وعن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: ليس من شجرةٍ إِلَّا وفيها النارُ إِلَّا الْعُنَابَ. قالوا: ولذلك تُتَّخَذُ منه كُدَيْبِقَاتُ الْقَصَارِينِ. قرئ: ﴿الْأَخْضِرِ﴾ على اللفظِ، وقرئ: (الخصراء) على المعنى، ونحوه قوله تعالى: ﴿مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ * فَالِقُونَ مِنْهَا الْبَطُونَ * فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٢-٥٤]. مَنْ قَدَرَ على خَلْقِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ مع عِظَمِ شأنهما فهو على خَلْقِ الْإِنْسَانِ أَقْدَرُ، وفي معناه قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وقرئ: (يَقْدِرُ). وقوله: ﴿أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ معنيين: أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ فِي الصُّغَرِ وَالْقِمَاءِ بِالإِضَافَةِ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَوْ: أَنْ يُعِيدَهُمْ؛ لِأَنَّ الْمَعَادَ مِثْلٌ لِلْمُبْتَدَأِ وَلَيْسَ بِهِ،

بِمَنْ يُكثِرُ الْعَطَاءَ طَلِبًا لِلْمَجْدِ، لِأَنَّهَا يُسْرِعَانِ الْوَزْيَ. يُضْرَبُ فِي تَفْضِيلِ بَعْضِ الشَّيْءِ عَلَى بَعْضٍ، وَلَيْسَ فِي الشَّجَرِ أَوْرَى زِنَادًا مِنَ الْمَرْخِ. وَالرَّزْدُ الْأَعْلَى يَكُونُ مِنَ الْعَقَارِ، وَالْأَسْفَلُ مِنَ الْمَرْخِ.

قال:

إِذَا الْمَرْخُ لَمْ يُورِ تَحْتَ الْعَقَارِ (١)

قوله: (والقماءة)، الجوهري: قَمُو الرجلُ قَمَاءً وقَمَاءةً، وصار قميئاً، وهو الصغير الدليل، وأقماؤه: صَغَرْتُهُ وَذَلَّلْتُهُ فهو قميءٌ؛ على: فَعِيل.

قوله: (لأن المعاد مثل للمبتدأ وليس به) أي: أن المعاد مثل المبتدأ وليس بعينه، كما فسره صاحباً «المطلع» و«التقريب». وقال صاحب «التقريب»: وفيه نظر لأنه خلاف المذهب، وقد أحسن وأجاد بعض فضلاء العصر حيث قال: ما ذكره المصنف مُنَافٍ لما صرَّح به قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لأن الضمير في ﴿يُحْيِيهَا﴾ و﴿أَنْشَأَهَا﴾ راجع إلى أمرٍ واحدٍ. فيكون المحيي هو المُنشِئُ أَوَّلَ مَرَّةٍ فالمعاد عين المبتدأ، ولأن قولهم: ﴿مَنْ يُعْيِي﴾

(١) البيت للكميته. انظر: «مجمع الأمثال» (٢: ٧٥).

﴿الْعَظَمَ﴾ إنكارٌ لسخَلَقَ تلك العظامِ الرميمةِ الباليةِ بَعَيْنِهَا إحياء، فلو لم يكن المرادُ من قَوْلِهِ: ﴿يُحْيِيهَا﴾ أن الله يجعلها أحياءً بَعَيْنِهَا لم يطابق السؤالُ الجواب.

وقال الإمامُ رحمه الله: إعادةُ المَعْدومِ عندنا جائزٌ خلافاً لجمهورِ الفلاسفةِ خذَلَمَ الله، والكراميةِ وطائفةٍ من المعتزلة. وقال أيضاً: والدليلُ على أن حَشَرَ الأجسادِ حَقٌّ أن عَوَدَ البدنِ في نفسه ممكنٌ واللهُ قادرٌ على كلِّ المُمكنات. وعالمٌ بكلِّ المعلوماتِ فكان القولُ بالْحَشْرِ ممكناً والأنبیاءُ قد أَخْبَرُوا عن وقوعه، والصادقُ إذا أَخْبَرَ عن وقوعِ شيءٍ مُمكنٍ وَجِبَ القَطْعُ بِصِحَّتِهِ، وإِنما احتَجْنَا إلى إثباتِ القُدرةِ والعِلْمِ، لآتِه تعالى إذا عَلِمَ بِجميعِ المعلوماتِ عَلِمَ بأجزاءِ تلكِ العظامِ النَّخْرَةَ والجلودِ المَتمزقةِ المُتلاشِيةِ في أقطارِ الآفاقِ، وإذا قَدَرَ على جَمِيعِ المَقْدوراتِ كان قادراً على تَمييزِ الأجزاءِ وَجَمْعِهَا وإعادتها كما كانت أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسُبْحانَ الخَلِيقِ العَليمِ. هذا تلخيصُ كلامِ الإمامِ (١).

وقال: قد جَمَعَ اللهُ سُبْحانَهُ وتعالى هذه المَقَدِّماتِ بأسْرِها صريحاً في جوابِهِ عن قولِهِم ﴿مَنْ يُحْيِ الْعَظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، أما ما (٢) يدلُّ على إثباتِ القُدرةِ على المُمكنِ (٣) فهو قَوْلُهُ: ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً﴾ إلى آخِرِهِ، وأما ما يدلُّ على إثباتِ العِلْمِ بالجزئياتِ (٤) فهو قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، وأما ما يدلُّ على الإخبارِ عن الصادقِ فهو قَوْلُهُ: ﴿قُلْ﴾، أي: قُلْ أَيُّهَا الصَّادِقُ المصدوقِ المشهورِ عِنْدَهُم بِالآمِنِ، الثابتُ بُبُوَّتِهِ بالدلائلِ والبراهينِ، فَظَهَرَ أَنَّ الوجْهَ الأوَّلَ مِنَ الوجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرَهُمَا المصنِّفُ هو الوجْهُ تَصْحيحاً ودَوْقاً.

أما التَّصْحِيحُ فَكَمَا مَرَّ، وأما الذوقُ فَإِنَّ لَفْظَةَ «مِثْلُ» هُنَا كِنَايَةٌ عَنِ الْمُخَاطَبِينَ نَحْوَ قَوْلِكَ: مِثْلُكَ يَجُودُ، وهو المرادُ من قَوْلِهِ: «أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ» فِي الصَّغَرِ والقَمَاءِ ثُمَّ الِاتِّفَاتِ

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣١٠).

(٢) سقط لفظ «ما» من النسخة (ف).

(٣) من قَوْلِهِ: «موجوداً فلا وَجْهَ» إلى هنا، سقط من (ف).

(٤) من قَوْلِهِ: ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إلى هنا، سقط من (ف).

﴿وَهُوَ الْخَالِقُ﴾: الكثيرُ المخلوقات ﴿الْعَلِيمُ﴾: الكثيرُ المعلومات. وقُرئ: (الخالق).
 ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾: إنها شأنه ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾: إذا دَعَاه داعي حِكْمَةٍ إلى تكوينه ولا
 صَارِفَ ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾: أن يكونه من غير توقُّف ﴿فَيَكُونُ﴾ فيحدث، أي:
 فهو كائنٌ موجود لا محالة. فإن قلت: ما حقيقةُ قوله: ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾؟ قلت: هو
 مجازٌ من الكلامِ وتمثيل؛ لأنه لا يمتنعُ عليه شيءٌ من المكوّنات، وأنه بمنزلة المأمورِ
 المطيع إذا وَرَدَ عليه أمرُ الأمرِ المُطَاع. فإن قلت: فما وجهُ القراءتَيْنِ في ﴿فَيَكُونُ﴾؟
 قلت: أما الرفعُ؛ فلأنها جملةٌ من مبتدئٍ وخبر؛ لأنَّ تقديرها: فهو يكون، مَعطوفةٌ على
 مثلها؛ وهي: أمره أن يقول له: كن. وأما النصبُ؛ فللعطفِ على ﴿يَقُولُ﴾،

من قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾ إلى قوله: ﴿مِثْلَهُمْ﴾ لمزيد الاحتقارِ والازدراءِ أي: مثل
 أولئك البُعداء، ولأنَّ وِزَانَ هذه الآيةِ وِزَانُ قَوْلِهِ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ
 خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] ولو جُعِلَ المِثْلُ بمعنى مثل المبتدأ لَفَات أَكْبَرُ هذه الفوائد.

قوله: (وتمثيلٌ لأنه لا يمتنعُ) أي: تمثيلٌ لعدم الامتناع، فاللامُ صلَةٌ وليس بتعليل.
 والضَّميرُ فيه للبيان، وقوله: «وأنه بمنزلة المأمور» عطفٌ تفسيريٌّ عليه، والضميرُ للشيء؛
 فالممثلُ الشيءُ المكوّن والممثلُ به المأمورُ المطيع، والتَّمثيلُ «كُنْ فيكون» لأنه اللفظُ المُستعارُ
 لذلك المعنى، ولو أريد^(١) التعليلُ لقليلُ تمثيل، لأنه ليسَ نَمَّ قَوْلٌ ولا أمرٌ ولا مأمورٌ حقيقةً.
 قوله: (فما وجهُ القراءتَيْنِ في ﴿فَيَكُونُ﴾؟) يعني الرفعُ والنصبُ. النصبُ ابنُ عامرٍ
 والكسائي، والباقون بالرفع^(٢).

قوله: (وأما النصبُ فللعطفِ على ﴿يَقُولُ﴾)، قال أبو علي في «الإغفال»^(٣): لا يجوزُ
 أن يكونَ جواباً لقوله: «كن» لأنَّ الجوابَ بالفاءِ إنما يكونُ لغيرِ الموجبِ نَحْو: النفيِ والأمرِ
 والنهيِ والتمنيِ والعرضِ^(٤).

(١) في النسخة (ف): «أزِيل»، وهو تصحيف.

(٢) ولتنام الفائدة انظر: «حجّة القراءات» ص ٦٠٣-٦٠٤.

(٣) في النسخة (ف): «الاعتقاد»، وهو خطأ.

(٤) «الإغفال» للفارسي (١: ٣٩٠).

فإن قلت: فَقَدْ تَقَدَّمَ ﴿كُنْ﴾ وهو أمر فهلاً جاز انتصابه به نحو: أُتَيْتَنِي فَأَعْطَيْكَ؟

قلت: كُنْ وإن كَانَ عَلَى لَفْظِ فَلَيْسَ بِأَمْرٍ، لَأَنَّ الْأَمْرَ يَقْتَضِي مَأْمُورًا مَوْجُودًا أَوْ مَعْدُومًا، فَإِنْ كَانَ مَوْجُودًا فَلَا وَجْهَ لِلْأَمْرِ، وَإِنْ كَانَ مَعْدُومًا^(١)، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُؤْمَرَ الْمَعْدُومُ بِالْكُونِ وَالْحُدُوثِ لِأَنَّ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ الْمَأْمُورُ الْمَعْدُومُ فَاعِلًا لِنَفْسِهِ كَمَا يَكُونُ الْمُتَلَقِّي لِمَا يُؤْمَرُ بِهِ وَذَلِكَ فَاسِدٌ. وَإِذَا لَمْ يَكُنْ أَمْرًا كَانَ خَبْرًا، وَإِذَا كَانَ خَبْرًا لَمْ يَجُزْ انْتِصَابُ الْفِعْلِ بِغَدِّهَا عَلَى حَدِّ مَا تَنْتَسِبُ الْأَفْعَالُ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -: فَإِنَّمَا يُكُونُ فِيكَونُ، فَفَاعِلُ الْفِعْلِ اسْمُ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَمَّا مَا فِي «النَّحْلِ» فَالرَّفْعُ عَلَى «فَهُوَ يَكُونُ»؛ لَأَنَّ الْمَعْنَى لَيْسَ عَلَى جَوَابِ الْأَمْرِ كَقَوْلِكَ: قُمْ فَأَعْطَيْكَ، فَالْأَوَّلُ أَمْرٌ وَالثَّانِي ضَمَانٌ، فَقَوْلُهُ: كُنْ «لِلْأَمْرِ فِيكَونُ» مَا يَقَعُ مِنَ الْمَأْمُورِ.

وعن أبي العباس^(٢): فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فِيكَونُ «رَفْعٌ وَلَا يَجُوزُ إِلَّا الرَّفْعُ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَقْفَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِكَكُمْ﴾ [طه: ٦١] لَأَنَّ الْأَوَّلَ مِنْهُمْ وَالثَّانِي مِنْ غَيْرِهِمْ، وَوَجْهُ النَّصْبِ عَلَى الْجَوَابِ. فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي مِنْ وَاحِدٍ، فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا الْعَطْفُ، فَقَوْلُهُ: ﴿كُنْ فِيكَوْتُ﴾ لَيْسَ مِنْهُ الْقَوْلُ وَمِنَ الْمَخْلُوقِ شَيْءٌ، وَلَيْسَ هُوَ أَكْثَرَ مِنَ التَّكْوِينِ وَالْإِيجَادِ.

وقال أيضاً: لَيْسَ كُنْ مِثْلَ قُمْ فَأَعْطَيْكَ، لَأَنَّ أَحَدَ الْفِعْلَيْنِ مِنَ الْمُخَاطَبِ وَالْآخَرَ مِنْكَ، وَمَنْ نَصَبَ فَهُوَ عَلَى مَا ذَكَرَ، وَلَيْسَ عَلَى الْجَوَابِ. ذَكَرَهُ فِي الْبَقْرَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ [البقرة: ١٠٢].

وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّكَ إِذَا قُلْتَ لِزَيْدٍ: اضْرِبْ عَمْرًا فَضْرَبَ، فَهِيَ أَنْ ضْرَبَهُ مُسَبَّبٌ عَنِ قَوْلِكَ، لَا عَنِ اضْرِبَ.

(١) من قوله: «موجوداً فلا وجه» إلى هنا، سقط من (ف).

(٢) يعني المبرد. وانظر كلامه في «المقتضب» (٢: ١٨).

والمعنى: أنه لا يجوزُ عليه شيء مما يجوزُ على الأجسام إذا فعلت شيئاً مما تقدّرُ عليه؛ من المباشرة بمحالِّ القدرِ، واستعمالِ الآلات، وما يتبعُ ذلك من المشقة والتعب واللغوب، إنها أمره - وهو القادرُ العالم لذاته - أن يخلَصَ داعيه إلى الفعل، فيتكوّن، فمِثْلُه كيف يعجزُ عن مقدورٍ حتى يعجزَ عن الإعادة؟ ﴿فَسُبْحَانَ﴾: تنزيهٌ له ممّا وصفه به المشركون، وتعجيبٌ من أن يقولوا فيه ما قالوا. ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾: هو مالكُ

قوله: (والمعنى: أنه لا يجوزُ عليه شيءٌ مما يجوزُ على الأجسام)، يعني: إنّنا عقّب بقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ ما سبق من إثباتِ القدرة على خلق السموات والأرض وخلقِ مثلهم، لئلا يقيسَ الجاهلُ المنكِرُ الغائبَ بالشاهد، والقادرَ على الإطلاقِ بالعاجزِ المحتاجِ، لأنّ الباري عزَّ شأنه إذا^(١) تعلّقت إرادته بإيجادِ شيءٍ يحدثُ بلا توقُّفٍ لا محالة. على أن هذا تفهيمٌ وتقريب.

قوله: (العالمُ لذاته)، مذهبه.

قوله: (وتعجيبٌ من أن يقولوا فيه ما قالوا)، أي: الجماعةُ من كفّارِ قريش، منهم: أبي بن خلف، وأبو جهلٍ والعاصُ والوليد كما سبق؛ تكلموا في البعثِ وأنكروه كلّ الإنكارِ حتى أخذَ أبي عَظْماً بالياً، فجعلَ يفتنه بيده ويقول: يا محمّد، أترى يُحيى هذا بعد ما رمّ؟ ولما أجابَ الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وعقّبه بقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ رتبَ عليه بالفاءِ قوله ﴿فَسُبْحَانَ﴾ تأكيداً وتقريراً أي: إذا تقرّرَ هذا ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فكانَ من حقِّ الظاهر أن يُقال: بيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ وإليه يُرجعُ الأمرُ كلُّه، فخصَّ رجوعَ المشركينَ بالذكرِ دلالةً على غضبٍ شديدٍ وتهديدٍ عظيمٍ، لقولهم: مَنْ يُحيي العظامَ وهي رميمٌ؟ ولهذا السرُّ أيضاً أجابَ نبيُّ الله ﷺ أبيتاً عن هذا القولِ بقوله: «نعم. وبيعتك ويدخلك جهنم»^(٢) كما سبق.

(١) في (ط): «عزَّ شأنه إنها شأنه إذا».

(٢) سبق تحريجه.

كُلُّ شَيْءٍ وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِ بِمَوَاجِبِ مَشِيئَتِهِ وَقَضَايَا حِكْمَتِهِ. وَقُرِي: (مَلَكَةٌ كُلُّ شَيْءٍ)،
و(مَمْلَكَةٌ كُلُّ شَيْءٍ)، و(مُلْكٌ كُلُّ شَيْءٍ)، والمعنى واحد. ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بضم التاء وفتحها.
وعن ابن عباس رضي الله عنه: كنتُ لا أعلمُ ما رُوي في فضائل يس وقراءتها كيف
خُصَّت بذلك، فإذا إنَّه لهذه الآية.

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا، وَإِنَّ قَلْبَ الْقُرْآنِ ﴿يَس﴾،

قوله: (وَقُرِي: «مَلَكَةٌ كُلُّ شَيْءٍ»)، قال ابن جنِّي: قرأها طلحةُ وإبراهيمُ^(١)
والأعمشُ، أي: عِصْمَةٌ كُلُّ شَيْءٍ، وهو مِن: مَلَكْتُ الْعَجِينَ: إِذَا أُجِدَّتْ عَجْنَتُهُ، فَقَوِيَّتَهُ
بذلك. ومنه: المَلِكُ؛ لأنه القُدْرَةُ على المملوك، ومنه المُلْكُ لأنَّ به قِوَامَ الْأُمُورِ. والمَلَكُوتُ:
فَعَلَوْتُ مِنْهُ لِلْمُبَالِغَةِ، ولهذا لا يُطْلَقُ إِلَّا على الْأَمْرِ الْعَظِيمِ، ونظيره: الجَبْرُوتُ والرَّعَبُوتُ
والرَّهْبُوتُ^(٢).

قوله: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بضم التاء): العائمةُ، وفتحها: شاذ^(٣).

قوله: (إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا وَإِنَّ قَلْبَ الْقُرْآنِ ﴿يَس﴾) الحديثُ مِن رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ عَنْ
أَنَسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبٌ، وَقَلْبُ الْقُرْآنِ ﴿يَس﴾، وَمَنْ قَرَأَهَا
كَتَبَ اللَّهُ لَهُ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ عَشْرَ مَرَّاتٍ»^(٤).

وروى الإمامُ عن حُجَّةِ الْإِسْلَامِ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّهَا كَانَ قَلْبَ الْقُرْآنِ، لِأَنَّ الْإِيْمَانَ صِحَّتُهُ
الاعترافُ بِالْحَشْرِ وَالنَّشْرِ، وَهَذَا الْمَعْنَى مُقَرَّرٌ فِيهِ بِأَبْلَغِ وَجْهِ^(٥).

(١) يعني التَّيْمِيَّ كما صرَّح به ابن جنِّي.

(٢) «المحتسب» (٢: ٢١٧-٢١٨).

(٣) ومن قرأها: أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ وَزُرُّ بْنُ حُبَيْشٍ وَأَصْحَابُ ابْنِ مَسْعُودٍ. انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٦٠).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٨٨٧) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من حديثِ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ... وهارون أبو محمد شيخ مجهول. انتهى، وانظر تمام تحريجه وتنقيده في «تخریج أحاديث

الكشاف» للحافظ الزيلعي (٣: ١٦٨-١٧٠).

(٥) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣١١).

ورَوَيْنا في «مسند الإمام أحمد بن حنبل» وأبي داود عن معقل بن يسار، عن رسول الله ﷺ قال: «اقرأوا سورة ﴿يَس﴾ على موتاكم»^(١).

قال الإمام: وذلك أن اللسان حينئذٍ ضعيفُ القوَّة والأعضاء ساقطةُ المُنَّة، لكنَّ القلب قد أقبلَ على الله بكلِّيَّته، فيقرأُ عليه ما تزدادُ قوَّة قلبه، ويشتدُّ تصديقُه بالأصول، فهو إذنَ عمَلُه^(٢).

وقلتُ - والعلمُ عند الله -: إنَّ هذه السورة الكريمةَ من فاتحتها إلى خاتمتها في تقريرِ أمهاتِ علمِ الأصولِ وجميعِ المسائلِ المُعتبرة التي أوردَها العلماءُ في مُصنَّفاتهم بأبلغِ وجهٍ وأتمِّه: فقوله تعالى: ﴿يَس﴾ * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿ وقوله: ﴿تَنْزِيلِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ في إثباتِ المعجزة، فإنَّ الحكيمَ بمعنى مُفْعِلٍ؛ أي: المُحكِّمِ المُتقينِ الرصينِ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، تنزِيلٌ من حكيمٍ حميدٍ، فهو مُحكَّمٌ في نفسه، فلو حَامَ حَوْلَهُ بِسْمَةُ الحدوثِ ووَضَمَةُ العَدَمِ لم يكنْ مُحكَّمًا في نفسه، ولم يكنْ تنزِيلًا من عزيزٍ رحيمٍ، ومُحكَّمٌ في ترصيفه وتركيبه، فلو عورِضَ بِمِثْلِهِ لم يكنْ مُحكَّمًا في ترصيفه وترتيبهِ ولم يكنْ منزلاً من لدنِّ عزيزٍ رحيمٍ^(٣).

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْتَلِكُوا أَجْرًا وَهُمْ مُتَهْتَدُونَ﴾ في بيانِ المسائلِ المُعتبرة في النبواتِ من التبليغِ والبشارةِ والنُّذارةِ وكيفيةِ دعوةِ الأُمَّةِ واستعمالِ اللَّينِ والرفقِ فيها وعَدَمِ الطمعِ في الأجرِ، وأحوالِ الأُمَّمِ وقبولِ البعضِ وإيائِ الآخرينِ، وبيانِ خاتمةِ السُّعداءِ منهم والأشقياءِ، وقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٠٣١٤) وأبو داود (٣١٢١) وابن ماجه (١٤٤٨) وصحَّحه ابن حبان (٣٠٠٢) وإسنادهُ ضعيفٌ لاضطرابه وجهالةِ بعضِ رواته، وانظر تمامَ تنقيده في التعليق على «مسند أحمد» (٤١٧-٤١٨).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣١١).

(٣) من قوله: «ومُحكَّمٌ في ترصيفه وتركيبه» إلى هنا سقط من (ف).

إثباتِ القَدْرِ وَأَنَّ الكائِنَاتِ كُلَّهَا واقعة^(١) بِقَدْرِ اللّهِ ولا يخرجُ شيءٌ منها من عِلْمِهِ، وقولُهُ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ الآياتُ في إثباتِ القضاءِ. وأن أفعالَ العبادِ مخلوقةٌ لِلّهِ تعالى، وإن كان كسباً لهم، فعَلِمَ أَنَّهُ لا يَجْرِي في المُلْكِ والمَلَكوتِ طَرْفَةٌ عَيْنٍ ولا فَلَنتُهُ خَاطِرٌ إلا بِقَضَاءِ اللّهِ وَقَدَرِهِ وإرادَتِهِ ومَشِيئَتِهِ وقولُهُ: ﴿وَمَا لِي لَأَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقولُهُ: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ وقولُهُ: ﴿وَأَن أَعْبُدُ فِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ في إثباتِ التوحيدِ وَتَفْيِ الأضدادِ والأندادِ ومَواجِبِ العبادةِ.

وقولُهُ: ﴿وَأَيُّهُمُ الأَرْضُ أَلْمِيْنَةُ أَحْيَيْنَها﴾ إلى آخِرِ الآياتِ كالبحرِ الزاخرِ في إثباتِ الصفاتِ المُعتَبَرةِ في أصولِ الدين مُدْجِماً بِدليلِ الآفاقِ والأَنْفُسِ على أتمِّ وجهِ.

وقولُهُ: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ إثباتٌ لأماراتِ الساعَةِ لِأَنَّها هي النَفْخَةُ الأولى، يَدُلُّكَ عليه قولُهُ: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ على ماروينا عن مُسلمٍ: «وهم في ذلك دارٌ رَزَقُهُمْ حَسَنٌ عَيْشُهُمْ»^(٢)، وفيه: «أَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْصَ إِبِلِهِ» الحديث^(٣). كما أن قولُهُ: ﴿وَيُفَيْخُ فِي الصُّورِ﴾ إثباتٌ للنَفْخَةِ الثانيةِ، وقولُهُ: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ العِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ إلى آخِرِهِ في بيانِ الإعادةِ، وقولُهُ: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ في بيانِ الحشرِ.

وقولُهُ: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُخْضَرُونَ﴾ بيانٌ للحُضُورِ في العَرَصاتِ والموقفِ.

وقولُهُ: ﴿فَالْيَوْمَ لا تَنْظَلِمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ إثباتٌ للحسابِ وِالجزاءِ.

وقولُهُ: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الجَنَّةِ الْيَوْمَ﴾ وقولُهُ: ﴿وَأَمْتَدُّوا الْيَوْمَ﴾ في بيانِ المرجعِ والمآبِ بعد الحسابِ: فريقٌ في الجنةِ وفريقٌ في السعيرِ.

(١) في النسخة (ف): «واقفة».

(٢) في النسخ الخطية: «عيشتهم» بالتاء، وصَوَّبناه من «صحيح مسلم».

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٤٠) من حديثِ عبدِالله بن عمرو بن العاصِ.

مَنْ قَرَأَ ﴿يَس﴾ يريدُ بها وَجْهَ اللَّهِ، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، وَأُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ كَأَنَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ مَرَّةً، وَأَيُّهَا مُسْلِمٌ قُرئِ عِنْدَهُ إِذَا نَزَلَ بِهِ مَلَكُ الْمَوْتِ سُورَةَ ﴿يَس﴾ نَزَلَ بِكُلِّ حَرْفٍ فِيهَا عَشْرَةُ أَمْلاكٍ يَقُومُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ صَفُوفًا يَصَلُّونَ عَلَيْهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ، وَيَشْهَدُونَ غَسَلَهُ، وَيَتَّبِعُونَ جِنَازَتَهُ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ، وَيَشْهَدُونَ دَفْنَهُ، وَأَيُّهَا مُسْلِمٌ قَرَأَ يَاسِينَ وَهُوَ فِي سَكْرَاتِ الْمَوْتِ لَمْ يَقْبِضْ مَلَكُ الْمَوْتِ رُوحَهُ حَتَّى يُحْيِيَهُ رِضْوَانُ خَازِنِ الْجَنَّةِ بَشْرِيَّةً مِنْ شَرَابِ الْجَنَّةِ يَشْرِبُهَا وَهُوَ عَلَى فِرَاشِهِ، فَيَقْبِضُ مَلَكُ الْمَوْتِ رُوحَهُ وَهُوَ رِيَّانٌ، وَيَمَكُثُ فِي قَبْرِهِ وَهُوَ رِيَّانٌ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى حَوْضٍ مِنْ حِيَاضِ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى يَدْخَلَ

وقوله: ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ في بيان أن لهم ما تشتهي الأنفس.

وقوله: ﴿سَلَّمٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ﴾ في بيان حصول ما يلدُّ به السَّمْعُ وتَقَرُّ به الأَعْيُنُ، وَهُوَ نَيْلُ الْحَسَنَةِ الْكَبْرَى وَالْبُغْيَةِ الْأَسْنَى وَهِيَ رُؤْيَةُ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ الْمُصْطَفَى وَقَدْ أوردناه في موضعه من هذه السورة.

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ كالفذلكة للمذكورات.

وقوله: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كالحاتمة المشتملة على أسرار عجيبة، تَتَحَرَّرُ فِيهِ الْأَفْهَامُ، وَتَكْتَلِمُ مِنْ شَرْحِهِ الْأَلْسُنُ وَالْأَقْلَامُ، وَهَذَا قَالَ حَبْرُ الْأُمَّةِ عَلَى مَا رَوَاهُ الْمُصَنِّفُ: كُنْتُ لَا أَعْلَمُ مَا رُوِيَ فِي فِضَائِلِ ﴿يَس﴾ وَقَرَأْتَهَا كَيْفَ خُصِّتْ بِذَلِكَ، فَإِذَا إِنَّهُ هَذِهِ الْآيَةُ (١).

وفي تقديم بعض هذه الأصول وتأخير بعضها معانٍ لا تكاد تنضب. هذا ومن رام التفصيل فقد حاول نرف البحر هيهات ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩] فليله تعالى في كل كلمة من القرآن كلماته التي ينفذ البحر دون

(١) يعني قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣] والأثر المذكور عن

ابن عباس لم أهد إليه فيما بين يدي من مصادر التخريج.

الجنة وهو رَيَّان». وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ فِي الْقُرْآنِ سُورَةً يُشْفَعُ قَارِئُهَا، وَيُغْفَرُ لِمُسْتَمِعِهَا، أَلَا وَهِيَ سُورَةُ يُس».

نفاذها. والله دُرُّ شَيْخِنَا شَيْخِ الْإِسْلَامِ قُدَّسَ سِرُّهُ وَإِنشَادُهُ فِي كِتَابِهِ «العوارف»:

أَنْعَى إِلَيْكَ قَلُوباً طَالَ مَا هَطَلَتْ سَحَابُ الْوَحْيِ فِيهَا أَبْحَرَ الْحِكْمِ^(١)

تمت السورة

حامداً لله ومصلياً على خير خلق الله

* * *

سورة «الصفّات»

مكيّة، وهي مئة وإحدى وثمانون، وقيل: اثنتان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا * فَالزَّجَرَتِ زَجْرًا * فَالتَّيَلَّيْتَ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوْحَدٌ * رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ ١-٥]

أقسام سبحانه بطوائف الملائكة، أو بنفوسهم الصفّات أقدامها في الصلاة، من

سورة «الصفّات»

مكية، وهي مئة وإحدى وثمانون آية، وقيل: اثنتان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (بطوائف الملائكة) عن بعضهم: أي: بالطوائف الصفّات أو بنفوسهم الصفّات، وهي جمع صافّة؛ لأنه لا يُقال في الملائكة صافات، وهو من قولهم: صَفَّتِ الإبِلُ قوائمها وهي صافّة، والناقّة تصفّ يديها^(١) عند الحلب، وَصَفَّتُ القومَ فاصطفوا. وقال أبو مسلم^(٢): لا يجوزُ حملُ هذه الألفاظِ على الملائكة؛ لأنها مُشعرةٌ بالتأنيث، والملائكةُ مُبرءونَ من هذه الصفة.

وأجاب الإمام: إن «الصفّات» جمعُ الجمع، فإنه يُقال: جماعةٌ صافّةٌ ثم يُجمعُ على

(١) في (ف): «تذبيها»، وهو تصحيف.

(٢) من مفسري المعتزلة، سبقت ترجمته، وقوله هذا قد نقله الفخر الرازي وأجاب عنه كما سيأتي تخريجه.

قوله عز وجل: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴾ [الصافات: ١٦٥]، أو أجنحتها في الهواء واقفةً مُنتظرة لأمر الله. ﴿ فَالزَّجْرَاتِ ﴾ السحاب سَوْقًا، ﴿ فَالْتَلَيَاتِ ﴾ لكلام الله من الكتب المنزلة وغيرها. وقيل: الصافات: الطير، من قوله تعالى: ﴿ وَالطَّيْرُ صَفَّتْ ﴾ [النور: ٤١].

والزاجرات: كل ما زجر عن معاصي الله، والتاليات: كل من تلا كتاب الله، ويجوز أن يقسم بنفوس العلماء العمال الصافات أقدامها في التهجيد وسائر الصلوات وصفوف الجماعات، ﴿ فَالزَّجْرَاتِ ﴾ بالمواعظ والنصائح، ﴿ فَالْتَلَيَاتِ ﴾ آيات الله والدارسات شرائعه، أو بنفوس قواد الغزاة في سبيل الله التي تصف الصفوف وتزجر الخيل للجهاد،

صافات، ولأن التائيث المعنوي هو الذي لا يحسن أن يُطلق عليهم، لكن اللفظي لا مانع منه، وكيف وهم المسمون بالملائكة؟^(١).

الراغب: الصف: أن يجعل الشيء على خط مستقيم كالناس والأشجار ونحو ذلك، وقد يجعل - فيما قال أبو عبيد - بمعنى الصاف. قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ، صَفًّا ﴾ [الصف: ٤]^(٢).

قوله: ﴿ فَالزَّجْرَاتِ ﴾: السحاب سَوْقًا) الراغب: الزجر طرد بصوت، يقال: زجرته فانزجر^(٣). قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ ﴾ [النازعات: ١٣]، ثم يستعمل في الطرد تارة، وفي الصوت تارة، قال تعالى: ﴿ فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا ﴾ أي: الملائكة التي تزجر السحاب.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ [القمر: ٤] أي: طرد ومنع من ارتكاب المآثم، واستعمال الزجر فيه لصياحهم بالمطروء، نحو: اغرب وتنع وراءك^(٤).

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣١٤).

(٢) «مفردات القرآن» ص ٤٨٦.

(٣) من قوله: «سوقاً. الراغب: الزجر» إلى هنا، سقط من (ج).

(٤) «مفردات القرآن» ص ٣٧٨.

وتتلو الذِّكْر مع ذلك لا تشغُلها عنه تلك الشواغل. كما يُحكى عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه. فإن قلت: ما حُكِمَ الفاء إذا جاءت عاطفةً في الصِّفات؟ قلت: إمّا أن تدلَّ على ترتُّب معانيها في الوجود، كقوله:

يَالْهَيْفَ زِيَابَةَ لِلْحَارِثِ الصُّ صَابِحِ فَالْغَانِمِ فَالْأَيْبِ

كانه قيل: الذي صبحَ فغنمَ فأب؛ وإمّا على ترتُّبها في التفاوتِ من بعض الوجوه، كقولك: خذِ الأفضَلَ فالأكمل، واعملِ الأحسنَ فالأجمل؛ وإمّا على ترتُّب موصُوفاتها

قوله: (كما يُحكى عن عليِّ رضي الله عنه)، قيل: كان عليُّ رضي الله عنه يخرجُ من الصَّفِّ، وسيفه ينطفُ^(١) دماً، فإذا رقيَ رباوةً يأتي بالخطبةِ الغراء. هكذا وجدته في «الحاشية»^(٢).

وذكر ابنُ عبد البرِّ في «الاستيعاب»: سُئِلَ الحسنُ البصريُّ عن عليِّ رضي الله عنه، فقال: كانَ والله سهماً صائباً من مرامي الله على عدوِّه، وربانيَّ هذه الأمة، وذا فضلها، وسابقتها، وذا قرابتها من رسولِ الله ﷺ، لم يكنْ بالنَّومة عن أمرِ الله، ولا بالملومة في دينِ الله، أعطى القرآنَ عزائمه ففازَ منه برياضٍ موقنة، ذلك عليُّ بنُ أبي طالب^(٣).

قوله: (وإمّا على ترتُّبها في التفاوتِ من بعض الوجوه) يعني: يجوزُ أن يكونَ بين الشيئينِ تفاوتٌ بحسبِ اعتبارين، فإن الشيءَ قد يكونُ أفضلَ من الآخرِ من بعضِ الوجوه وذلك الآخرُ أفضلَ منه من وجهٍ آخر، فعمِلَ بالفاءِ هاهنا معاملةً ثمَّ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٧]، وقد ذكرَ في قوله تعالى: ﴿فِيآئِنِهِمْ بَغْتَةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٢-٢٠٣]: ليسَ المعنى ترادفُ رؤيةِ العذابِ ومفاجأتهِ وسؤالِ النَّظَرِ فيه في الوجود^(٤)، وإثنا المعنى ترتُّبها في السَّدَّة. وترى «ثمَّ» يقعُ في هذا الأسلوبِ فيحلُّ موقعه^(٥).

(١) في (ح): «يقطر»، وهما بمعنى.

(٢) ولتمام الفائدة انظر: «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد (٢: ٧٦).

(٣) «الاستيعاب» (٣: ١١١٠).

(٤) في (ف): «الوجوه».

(٥) انظر: «الكشاف» (١١: ٤٢٥).

في ذلك، كقولك: رَحِمَ اللهُ المَحْلِقِينَ فالمَقْصَرِينَ؛ فعلى هذه القَوَانِينِ الثلاثةِ يَنسَاقُ أَمْرُ الفَاءِ العَاطِفَةِ فِي الصِّفَاتِ. فَإِنِ قُلْتَ: فعلى أَيِّ هذه القَوَانِينِ هِيَ فِيمَا أَنْتَ بَصَدِيدِهِ؟ قُلْتَ: إِنَّ وَحَدَّتِ الموصوفَ كانتَ للدلالةِ على تَرْتِيبِ الصِّفَاتِ فِي التَّفَاضُلِ، وَإِنْ ثَلَّثْتَهُ،

قوله: (رَحِمَ اللهُ المَحْلِقِينَ فالمَقْصَرِينَ) أَي المَحْلِقُ أَقْرَبُ مِنَ المَقْصَرِ، والفَاءُ لَدُنْوَ رِتْبَةِ المَقْصَرِ مِنَ المَحْلِقِ. وروينا عن ابنِ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ ارْحَمِ المَحْلِقِينَ» قَالُوا: والمَقْصَرِينَ يَا رَسولَ اللهِ. قَالَ: «اللَّهُمَّ ارْحَمِ المَحْلِقِينَ» قَالُوا: والمَقْصَرِينَ يَا رَسولَ اللهِ. قَالَ: «والمَقْصَرِينَ». أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَمَالِكٌ وَأَبُو داوُدَ (١).

عَطَفُوا قَوْلَهُمْ: «والمَقْصَرِينَ» على قَوْلِهِ صَلواتُ اللهِ عَلَيْهِ: «المَحْلِقِينَ» وَيَسْمَى مِثْلُ هَذَا العَطْفِ عَطْفًا (٢) تَلْقِينَ، كقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَيَنْ دُرِّي قِي﴾ [البقرة: ١٢٤]، فعلى هذا خَرَجَ الحَدِيثُ عَن أَنَّ يَصْلَحُ لِلإِسْتِشْهَادِ، وَيُسْتَشْهَدُ لَهُ بِمَا رَوَيْنَا عَن التِّرْمِذِيِّ، عَن مَصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَن أَبِيهِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الأنبياءُ ثُمَّ الأمثُلُ فالأمثُلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ على حَسَبِ دِينِهِ» (٣). الحَدِيثُ.

قوله: (إِنِ وَحَدَّتِ (٤) الموصوفَ كانتَ للدلالةِ (٥) على تَرْتِيبِ الصِّفَاتِ فِي التَّفَاضُلِ)، وَقُلْتُ: قَدْ ذَكَرَ فِي القَوَانِينِ أمثلةً ثلاثةً، والقِسْمَةُ الصَّحِيحَةُ أَرْبَعَةٌ؛ لِأَنَّهُ كَمَا جازَ فِي الصِّفَاتِ الدَّلالةُ على تَرْتِيبِ معانيها فِي الوجودِ كَذَلِكَ يَجوزُ فِي الموصوفاتِ، كَمَا تَقولُ: حَلُّ المِتمتَعِ فالقارنُ فالْمفْرِدِ. وإِنَّمَا لَمْ يَعتَبَرُ فِي الآيَةِ التَّرْتِيبُ فِي الوجودِ لِأَنَّ الصِّفَاتِ وَلَا فِي الموصوفاتِ؛ لِأَنَّ ما يُقسَمُ بِهِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَظِيمَ الشَّانِ وَلَهُ مَزِيَّةٌ فِي نَفْسِهِ، وَلَا يَدْخُلُ التَّرْتِيبُ فِي الوجودِ فِي مَعْنَى التَّعْظِيمِ سِوَاكَ كَانَ فِي تَوْحِيدِ الموصوفِ وَتَعَدُّدِ الصِّفَاتِ أَوْ فِي تَعَدُّدِ الموصوفاتِ.

(١) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (١٧٢٧) وَمُسْلِمٌ (١٣٠١) وَمَالِكٌ فِي «الموطأ» (١: ٣٩٥) وَأَبُو داوُدَ (١٩٧٩).

(٢) سَقَطَ لَفْظُ: «عَطْفًا» مِنْ (ف).

(٣) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٣٩٨) وَابْنُ ماجَه (٤٠٢٣) وَغَيرَهُمَا، وَاُنظُرْ تَمَامَ تَخْرِيجِهِ فِي «صحيح ابنِ جَبان» (٢٩٠٠).

(٤) فِي (ف): «وَجَدَّتْ» بِالْجِيمِ، وَهُوَ تَصْحِيفٌ.

(٥) فِي الأَصُولِ الخَطِيئَةُ: «الدَّلالةُ»، وَالتَّصْوِيبُ مِنْ «الكِشاف».

فهي للدلالة على ترتب الموصوفات فيه، بيان ذلك: أنك إذا أجريت هذه الأوصاف على الملائكة وجعلتهم جامعين لها؛ فعطفها بالفاء يُفيد ترتباً لها في الفضل، إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْفَضْلُ لِلصَّفِّ ثُمَّ لِلزَّجْرِ ثُمَّ لِلتَّلَاوَةِ، وَإِمَّا عَلَى الْعَكْسِ، وَكَذَلِكَ إِنْ أُرِدَتْ الْعِلْمَاءُ وَقَوَادِ الْغُرَاةِ.....

قوله: (إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْفَضْلُ لِلصَّفِّ ثُمَّ لِلزَّجْرِ ثُمَّ لِلتَّلَاوَةِ) وذلك أنه تعالى أقسم بطوائف الملائكة الصافات بأقدامها^(١) في الصلوات إجلالاً وتعظيماً، وبأجنتها منتظرةً لأمر الله تدبيراً، فالزجاجات الغير وعظاً وتذكيراً أو السحاب حياةً للبلاد ورحمةً على العباد^(٢)، فالتاليات لكلام الله لا غير.

وإمَّا عَلَى الْعَكْسِ، فَأَقْسَمَ بِطَوَائِفِ التَّالِيَاتِ لِكَلَامِ اللَّهِ الْعَامَلَاتِ بِمَا فِيهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا﴾ الآية [فاطر: ٢٩] كما مرّ، فالزجاجات السحاب رحمةً للعباد، فالصافات بأجنتها في الهواء لا غير، هذا ما يمكن أن يُقال على ما قال. «وإمَّا عَلَى تَرْتِبِهَا فِي التَّفَاوُتِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ».

قوله: (وَكَذَلِكَ إِنْ أُرِدَتْ الْعِلْمَاءُ وَقَوَادِ الْغُرَاةِ)، أي: مثل ذلك الحكم من التنزل والترقي، ومن توحيد الموصوف وتثليثه يجري في العلماء والغرزة، مثله العالم في صفوف الجماعات مكمل لنفسه، وفي الوعظ والتذكير مكمل لغيره، فبقوارع الآيات يزجر المستمعين، وبكواشيفها يدعوهم إلى الصراط المستبين، وبالعكس، فإن التالي لنفسه أحط منزلة ممن يشتغل بإكمال غيره تارةً بالقلب واللسان، وأخرى باليد واللسان.

رَوَيْنَا عَنْ مُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ وَأَبِي دَاوُدَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكَرًا فَلْيَغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَكَذَلِكَ أَوْضَعُ الْإِيمَانَ»^(٣).

(١) في (ح): «أقدامها» بحذف الباء، والنصب على المفعولية لاسم الفاعل.

(٢) في (ح): «ورحمة للعباد».

(٣) أخرجه مسلم (٤٩) والترمذي (٢١٧٢) وأبو داود (١١٤٠).

قَالَ صَاحِبُ «الانْتِصَافِ»: جَعَلَ الرَّخْشَرِيُّ الْأَوَّلَ لِلْأَفْضَلِ بَدْءًا بِالْأَهَمِّ فَالْأَهَمُّ وَعَكْسُهُ مِرَاعَاةٌ لِلتَّرْقِي (١).

وقلت: مثَالُ الْأَهَمِّ مَا رَوَيْنَا مِنْ حَدِيثِ مِصْعَبٍ: «ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ»، وَمِثَالُ التَّرْقِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِيآتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٢-٢٠٣].

وقَالَ صَاحِبُ «الْفَرَائِدِ»: وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: الْمِرَادُ الطَّوَائِفُ الَّتِي يَحْصُلُ مِنْهَا الصَّفِّ وَالزَّجْرُ وَالتَّلَاوُةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَطَلَبِ رِضَاةٍ، سِوَاهُ كَانُوا مَلَائِكَةً أَوْ غَيْرَهَا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالغَزَاةِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ طَائِفَةٍ حَصَلَتْ فِيهَا هَذِهِ الصِّفَاتُ، وَلِذَلِكَ أُطْلِقَتْ.

وقلت: يُمْكِنُ أَنْ يُرْجَّحَ الْوَجْهُ الْأَوَّلُ - وَهُوَ أَنْ يِرَادَ صَفُوفُ الْمَلَائِكَةِ (٢) - بِمَا رَوَى مُحَمَّدِي السَّنَّةِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالحَسَنِ وَقَتَادَةَ (٣): هُمُ الْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ يَصْفُونَ كَصَفُوفِ الْخَلْقِ فِي الدُّنْيَا (٤). وَبِمَا رَوَيْنَا عَنِ الْبَخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَغَيْرِهِمَا عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا تَصْفُونَ كَمَا تَصَفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ» قُلْنَا: وَكَيْفَ تَصَفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟ (٥) قَالَ: «يُتَمَوَّنَ الصَّفُوفَ الْمَقْدَمَةَ وَيَتَرَاصُونَ فِي الصَّفِّ» (٦). وَبِمَا يَقْتَضِيهِ قَوْلُهُ: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾، وَالْمِرَادُ الْمَذْكُورَاتُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ فِي تَفْسِيرِهِ: يَرِيدُ مَا ذَكَرَ مِنْ خِلَاقِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْمَشَارِقِ وَالْكُوَاكِبِ وَالشُّهُبِ الثَّوَابِقِ وَالشَّيَاطِينِ الْمُرْدَةِ، وَغَلَبَ أَوْلَى الْعَقْلِ عَلَى غَيْرِهِمْ.

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ٣٣).

(٢) من قوله: «فيه كل طائفة حصلت إلى هنا، سقط من (ح).

(٣) في (ف): «والقادة».

(٤) «معالم التنزيل» (٧: ٣٣).

(٥) من قوله: «قلنا: وكيف تصف الملائكة» إلى هنا، سقط من (ح).

(٦) أخرجه مسلم (٤٣٠) وهو من أفرادهِ، فليس هو في البخاري كما ذكر المصنف، وهو الذي جزم به

الحميدي في «الجمع بين الصحيحين» (١: ٣٣٩) برقم (٥٢٢).

وإن أجريت الصفة الأولى على طوائف والثانية والثالثة على آخر؛ فقد أفادت ترتب الموصوفات في الفضل، أعني أن الطوائف الصافات ذوات فضل، والزاجرات أفضل، والتاليات أبهر فضلاً، أو على العكس، وكذلك إذا أردت بالصافات: الطير، وبالزاجرات: كل مايزجر عن معصية، وبالتاليات: كل نفس تتلو الذكر؛ فإن الموصوفات مختلفة.

وُقرئ بإدغام التاء في الصاد والزاي والذال. ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ خبرٌ بعد خبر، أو خبرٌ مبتدئٌ محذوف. والمشارِق: ثلاثُ مئة وستون مَشْرِقاً، وكذلك المغارب، تَشْرِقُ

قوله: (وُقرئ بإدغام التاء) أدغم حمزة التاء فيما يليها لتقاربها من طرف اللسان وأصول الثنايا من غير إشارة^(١)، والباقون: يكسرون التاء^(٢) في الجميع من غير إدغام إلا ما كان من مذهب أبي عمرو في الإدغام الكبير.

قوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ خبرٌ بعد خبر) يعني ﴿إِنَّ إِلَهَهُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جملةٌ وهذا متصلٌ به داخلٌ في خبر جواب القسم. قال القاضي: والفائدة في قوله: ﴿إِنَّ إِلَهَهُمْ لَوَاحِدٌ﴾^(٣) تعظيمُ المُقسَمِ به وتأكيده المُقسَمِ عليه على ما هو المؤلفُ في كلامهم^(٤)، وأما تحقيقه فبقوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فإن وجودها وانتظامها على الوجه الواقع مع إمكان غيره دليلٌ على وجود الصانع الحكيم ووحديته، وما بينهما يتناول أفعال العباد وأنها من خلقه.

قوله: (والمشارِق ثلاث مئة وستون مشرقاً، وكذلك المغارب) قال القاضي: تشرقُ

(١) وهي القراءة التي نقرأ منها الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حين سمعها. قال الإمام النحاس: وهي بعيدة في العربية من ثلاث جهات: إحداهن أن التاء ليست من مخرج الصاد والزاي والذال، والثانية: أن التاء في كلمة وما بعدها في كلمة أخرى، والثالثة: أنك إذا أدغمت جمعت بين ساكنين من كلمتين. وإنما يجوز الجمع بين ساكنين في مثل هذا إذا كانا في كلمة واحدة نحو دابة وشابة. انتهى بتقريب معناه من «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٦١).

(٢) في (ح): بكسر التاء.

(٣) من قوله: «جملةٌ وهذا متصلٌ به» إلى هنا، سقط من (ح).

(٤) «أنوار التنزيل» (٥: ٥).

الشمس كل يوم في مَشْرِقٍ منها وتغرُب في مَغْرِبٍ، ولا تَطْلُعُ ولا تغرُبُ في واحدٍ يومين.
فإن قلت: فماذا أراد بقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]؟ قلت: أراد
مشرقَي الصَّيفِ والشتاءِ ومغربَيْهما.

[﴿إِنَّا رَزَقْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بَرِينَةَ الْكَوَاكِبِ * وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ ٦-٧]

﴿الدُّنْيَا﴾: القُربى منكم. والزينة: مصدر كالتسبية، واسمٌ لِمَا يُزَانُ به الشيء،
كاللَّيْقَةِ: اسمٌ لما تُتْلَقُ به الدَّوَاةُ، ويحتملُها قوله: ﴿بَرِينَةَ الْكَوَاكِبِ﴾، فإن أردتَ المصدر:
فعلى إضافته إلى الفاعل، أي: بأن زانتها الكواكب، وأصله: بزينة الكواكب، أو على

كلِّ يومٍ في واحدٍ، وبحسبِها تختلفُ المغارب، ولذلك اكتفى بذكرها مع أن الشروق
أدلُّ على القدرة وأبلغُ في النعمة، وما قيل: إنها مئةٌ وثمانونَ إنما يصحُّ لو لم تختلف أوقاتُ
الانتقال^(١)، وإليه الإشارةُ بقوله: «ولا تطلعُ ولا تغربُ في واحدٍ يومين».

قوله: ﴿الدُّنْيَا﴾: القُربى منكم) قال القاضي: إن تحقَّق قولهم: إن الكواكبَ كلِّها
سوى القمرِ ليست في السماءِ الدنيا لم يقدح في ذلك؛ لأن أهل الأرض يرونها بأسرها
كجواهر مشرقة متلاثلة على سطحها الأزرق بأشكالٍ مختلفة^(٢). وقيل: «من» في قوله:
«القُربى منكم» ليست مما يُستعملُ مع أفعل التفضيل؛ وإلا لم تجتمع مع الألف واللام، بل
هي صلة «القُربى»، نحو «قُربى منك».

قوله: (كاللَّيْقَةِ: اسمٌ لما تُتْلَقُ به الدَّوَاةُ)، وعن بعضهم: هو من قولهم: لاقَتِ الدَّوَاةُ
تليق أي: لصقت، ولقنتها أنا يتعدى ولا يتعدى؛ إذا أصلحت مدادها.

قوله: (وأصله: بزينة الكواكب)، عاصمٌ وحمزةٌ بالتَّوْنين^(٣)، والباقون: بغير تَونين.
أبو بكر: «الكواكب» بالنصب، والباقون: بالخفض^(٤).

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٥).

(٢) المصدر السابق (٦: ٥).

(٣) جعلوا الكواكب هي الزينة، وهي بدَّل منها لأنها هي هي.

(٤) لتبام الفائدة انظر: «حجّة القراءات» ص ٦٠٤.

إضافته إلى المفعول، أي: بأن زان الله الكواكبَ وحسَّنها؛ لأنها إنما زُيِّنت السماءَ لحسَّنها في أنفسها، وأصله: (بزيئة الكواكب) وهي قراءةُ أبي بكرٍ والأعمشِ وابنِ وثابٍ؛ وإن أردتَ الاسمَ: فللاضافةِ وجْهان: أن تقعَ الكواكبُ بياناً للزينة؛ لأنَّ الزينةَ مُبهمة في الكواكبِ وغيرها مما يُزيان به، وأن يُرادَ ما زُيِّنت به الكواكب. وجاءَ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: ﴿بزيئة الكواكب﴾: بضوء الكواكب. ويجوزُ أن يُرادَ أشكالها المختلفة؛ كشكلِ الثريا وبناتِ نعش والجوزاء، وغير ذلك، ومطالعها ومسايروها. وقرئ على هذا المعنى: (بزيئة الكواكب) بتنوين «زينة» وجر «الكواكب» على الإبدال. ويجوزُ في نصبِ (الكواكب) أن يكونَ بدلاً من محلِّ ﴿بزيئة﴾،

قال ابنُ الحاجب: الزينةُ: تُطلقُ على ما يُتزيَّنُ به وعلى المصدرِ، كقولك: زانته زينةً. فمن قرأ بالاضافةِ احتملَ أن يرادَ ما يُتزيَّنُ به من أصنافٍ متعدِّدة، فأضيفَ إلى صنفه^(١)؛ ليتبيَّنَ أنه المراد، وأن يُرادَ المصدرُ على أن التزيينَ بما اشتملتَ عليه الكواكبُ من الصفاتِ المخصوصةِ من النورِ والترتيبِ والهيئةِ المخصوصةِ التي هي عليها، وإضافتها كإضافةِ «ضرب» إلى زيد. ومن قرأ بالتنوينِ وخفضِ ﴿الكواكب﴾ فعلى البدلِ أو عطفِ بيانٍ من «الزينة» التي هي مصدر، ومن نصبَ قدَّرَ فعلاً «أعني: الكواكب»، والزينةُ أيضاً بمعنى ما يُتزيَّنُ به؛ لأن الكواكبَ كالتفسيرِ لها، إلا أن يُقدَّرَ «أعني: زينة الكواكب» وحذفَ المضافُ وأقيمَ المضافُ إليه مقامه، ويجوزُ أن يكونَ في قراءةِ النَّصبِ بدلاً من ﴿السماء﴾ على أنه بدلُ اشتغال، كأنه قيل: إنَّا زينا الكواكبَ في سماءِ الدنيا بزينة، فتكونُ الزينةُ بمعنى المصدر^(٢).

قوله: (وجاءَ عن ابنِ عباس: ﴿بزيئة الكواكب﴾: بضوء الكواكب)، استشهادهُ لقوله: وأن يُرادَ ما زُيِّنت به الكواكب؛ لأن ما زُيِّنت به الكواكبُ هو الضوءُ وأشكالها المختلفةُ ومطالعها ومسايروها.

قوله: (ويجوزُ في نصبِ «الكواكب» أن يكونَ بدلاً من محلِّ ﴿بزيئة﴾)، أي أنه في موضع

(١) مثل إضافة خاتمٍ إلى حديد.

(٢) «أما لي ابن الحاجب» (١: ٢٧٠-٢٧١).

و﴿ وَحِفْظًا ﴾ مما تحمل على المعنى؛ لأن المعنى: إِنَّا خَلَقْنَا الْكَوَاكِبَ زِينَةً لِلسَّمَاءِ وَحِفْظًا مِنَ الشَّيَاطِينِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾

نصب، وهو قول الزجاج^(١). وقال صاحب «الكشف»: مثله قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨] إلى قوله: ﴿مِثْلَهُ أَيُّكُمْ أَنْزِلْنَاهُ﴾، يجوز أن يكون التقدير: وجاهدوا في دين الله، فيكون ﴿مِثْلَهُ أَيُّكُمْ﴾ بدلًا من موضع الجار والمجرور^(٢). وقال ابن الحاجب: وهو ضعيف^(٣) ضعف قولهم: مررت بزيد أخاك، فلا ينبغي أن يُحمّل عليه قراءة ثابتة صححتها، ووجه ضعفه: أنه إذا جعل بدلًا كان في المعنى معمولًا للعامل الأول، ولا يستقيم أن يكون العامل الأول مسلطًا باعتبار المعنى بنفسه، ألا ترى أنك لو قلت في^(٤) «مررت بزيد أخاك»: «مررت أخاك» لم يجز، كذلك هذا^(٥).

قوله: ﴿ وَحِفْظًا ﴾: مما تحمل على المعنى) أي: قوله: ﴿ وَحِفْظًا ﴾ عطفٌ ومنصوبٌ لا بد له من معطوف عليه ومن ناصب، فإما أن يُعطف على ﴿زِينَةٍ﴾ من حيث المعنى؛ لأنه في الحقيقة مفعولٌ له لقوله: ﴿زَيْنًا﴾، والتقدير: خلقنا الكواكب زينة وحفظًا، وإما أن يُقدّر الناصب ويؤخر، وهو «زيناها» ليفيد الاهتمام، أو يُقدّم بأن يُقال: وحفظناها حفظًا؛ ليفيد التوكيد، قال المبرد: إذا ذكرت فعلًا ثم عطفت عليه مصدر فعل آخر، نصبت المصدر لتدلّ به على فعل آخر، نحو قولك: افعل وكرامة، أي افعل ذلك وأكرمك كرامة^(٦).

وقلت: وفيه توكيد آخر من هذه الحيثية ودلالة على أن الحفظ أهم من التزيين وأعنى، ولذلك أتبعه الله عز وجل: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾.

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ٢٩٨).

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٤٠ و ٢٥١) بتحقيق د. عبد القادر السعدي، و(٢: ١١٢٢) بتحقيق

د. محمد الدالي.

(٣) يعني اختيار الزجاج.

(٤) قوله: «مررت بزيد أخاك» إلى هنا، ساقط من (ط).

(٥) «أمالي ابن الحاجب» (١: ٢٧١).

(٦) ذكره بنحوه في «المقتضب» (٤: ٣٨٠).

[الملك: ٥]، ويجوزُ أن يُقدَّرَ الفعلُ المعلَّل، كأنه قيل: ﴿وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ﴾ زَيْنَاهَا بالكواكب. وقيل: وَحَفِظْنَاهَا حَفْظًا. والمارد: الخارجُ من الطاعة المتملِّس منها.

[﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِمِلَا الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ دُخُورًا وَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ ٨-١٠].

الضميرُ في (لا يَسْمَعُونَ) لكلِّ شيطان؛ لأنه في معنى الشياطين. وقرئ بالتخفيف والتشديد، وأصله: يتسمعون. والتسمع: تطلب السماع. يقال: تسمع فسمع، أو فلم يسمع. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم يتسمعون ولا يسمعون. وبهذا يُنصر التخفيفُ على التشديد. فإن قلت: (لا يَسْمَعُونَ) كيف اتصل بها قبله؟ قلت: لا يخلو

قوله: (المتملِّس^(١) منها) أي: الخارجُ من الطاعةِ على وجهٍ لا يخالطه شيءٌ منها، الجوهرى: انملس من الأمر إذا أفلت منه، وناقته ملسى أي: تملس وغمضي لا يتعلَّق بها شيءٌ من سرعتها.

الترائب: المریدُ والماردُ من شياطين الجنِّ والإنس: المتعري من الخيرات، من قولهم: شجرٌ أمرد، إذا تعرى من الورق^(٢).

قوله: (وقرئ بالتخفيف والتشديد) حفصٌ وحمزةٌ والكسائيُّ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ بتشديد السينِ والميم، والباقون: بإسكانِ السينِ وتخفيفِ الميم^(٣).

قوله: (وبهذا تُنصرُ قراءةُ التخفيفِ^(٤) على التشديد) وذلك أنه أثبت التسمع، فلا يبقى للتفي في قراءة التشديد معنى، ولأن اتصال قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ بقوله: ﴿وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ تَارِدٍ﴾ يقتضي ذلك التقدير؛ لأن الحفظَ مسبوقٌ بتطلبِ سماعِ منهم، أي: هم يتطلبون

(١) في (ف): «المتمس».

(٢) «مفردات القرآن» ص ٢٠.

(٣) ولتمام الفائدة في تعليل هذا الحرف انظر: «حجة القراءات» ص ٦٠٥-٦٠٦.

(٤) كذا في (ح) و(ف)، وفي «الكشاف»: «وبهذا يُنصرُ التخفيف».

مِنَ أَنْ يَتَّصِلَ بِمَا قَبْلَهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ صِفَةً لـ ﴿كُلِّ شَيْطَانٍ﴾، أَوْ اسْتِنَافًا فَلَا تَصِحُّ الصِّفَةُ؛ لِأَنَّ الْحِفْظَ مِنْ شَيَاطِينٍ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَسْمَعُونَ لَا مَعْنَى لَهُ، وَكَذَلِكَ الْاسْتِنَافُ؛ لِأَنَّ سَائِلًا لَوْ سَأَلَ: لِمَ تُحْفَظُ مِنَ الشَّيَاطِينِ؟ فَأَجِيبَ بِأَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ: لَمْ يَسْتَقِمْ؛ فَبَقِيَ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا مُنْقَطِعًا مُبْتَدَأً اقْتِصَاصًا لِمَا عَلَيْهِ حَالُ الْمُسْتَرْقَةِ لِلسَّمْعِ، وَأَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَسْمَعُوا إِلَى كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ يَسْمَعُوا وَهُمْ مَقْدُوفُونَ بِالشُّهْبِ مَدْحُورُونَ عَنِ ذَلِكَ، إِلَّا مَنْ أَمْهَلَ حَتَّى خَطِفَ خَطْفَةً وَاسْتَرَقَّ اسْتِرَاقَةً؛ فَعِنْدَهَا تُعَاجِلُهُ الْهَلَكَةُ بِاتِّبَاعِ الشُّهَابِ الثَّاقِبِ. فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَصِحُّ قَوْلُ مَنْ زَعَمَ أَنَّ أَصْلَهُ: لثَلَا يَسْمَعُوا، فَحُذِفَتْ اللَّامُ كَمَا حُذِفَتْ فِي قَوْلِكَ: جِئْتُكَ أَنْ تَكْرِمَنِي، فَبَقِيَ أَنْ لَا يَسْمَعُوا، فَحُذِفَتْ «أَنْ»

السَّمْعَ فَلَا يَتِمَكَّنُونَ مِنَ الْإِصْغَاءِ^(١) فَضْلًا عَنِ السَّمْعِ، وَلِأَنَّ «يَسْمَعُونَ» يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاً﴾ [النَّبَأُ: ٣٥] فَلَمَّا عُدِّيَ بِهِ «إِلَى» فَسَرَّ تَارَةً بِقَوْلِهِ: «لَا يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ مَائِلِينَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى»، وَأُخْرَى «لَا يَصْغُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى»، وَأَمَّا الْاسْتِنَافُ فَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عَلَى وَجْهِ آخَرَ غَيْرِ مَا ذَكَرَهُ وَهُوَ بَأَنَّهُ لَمَّا قِيلَ: ﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ أَي: حِفْظُنَاهَا حِفْظًا، فَقِيلَ: فَمَا يَكُونُ إِذَنْ؟ فَأَجِيبُ: لَا يَسْمَعُونَ أَوْ لَا يَتَطَلَّبُونَ السَّمْعَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى^(٢)، أَي: لَا يَنْتَهِي طَلِبُهُمُ السَّمْعَ إِلَى مَكَانِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى؛ لِأَنَّهُمْ يُقْدَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دَحْورًا.

قَوْلُهُ: (فَبَقِيَ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا مُبْتَدَأً اقْتِصَاصًا) يَعْنِي: مُسْتَطَرِدًا، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ الْكَوَاكِبَ إِنَّمَا خُلِقَتْ لِلتَّرْتِيبِ وَأَنَّ الْحِفْظَ هُوَ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ أَتَى بِمَا عَلَيْهِ حَالُ الْمُسْتَرْقِ اقْتِصَاصًا.

قَوْلُهُ: (هَلْ يَصِحُّ قَوْلُ مَنْ زَعَمَ أَنَّ أَصْلَهُ: لثَلَا يَسْمَعُوا؟) وَجْهُ ثَالِثٌ لِلْمَنْعِ مِنْ اتِّصَالِ ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ بِمَا قَبْلَهُ، قَالَ صَاحِبُ «الْاِتِّصَافِ»: أَبْطَلُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً وَأَنْ يَكُونَ أَصْلَهُ «لثَلَا يَسْمَعُوا»^(٣) لِاجْتِمَاعِ حَذْفَيْنِ، وَكَلَا الْوَجْهَيْنِ صَحِيحٍ، وَعَدْمِ اسْتِمَاعِ الشَّيْطَانِ

(١) فِي (ح): «الْإِخْفَاءِ».

(٢) قَوْلُهُ: «وَأَمَّا الْاسْتِنَافُ فَيُمْكِنُ» إِلَى هُنَا، سَاقَطَ مِنْ (ط).

(٣) مِنْ قَوْلِهِ: «لِلْمَنْعِ مِنْ اتِّصَالِ ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح).

وأهدِرَ عَمَلُهَا، كما في قولِ القائل:

ألا أيهدا الزاجري أحضر الوغى؟

قلت: كلُّ واحدٍ من هذَيْنِ الحَدْفَيْنِ غيرُ مردودٍ على انفراده، فأما اجتماعهما

إنما كان بسببِ الحفظ، فحالُه عند الحفظِ أن لا يسمعَ فيصيرَ موصوفاً حالةَ الحفظِ بذلك، ومثله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ﴾^(١) [النحل: ١٢] فالعاملُ^(٢) في «مسخراتٍ» - وهي حالٌ - قوله: «سخر»، فالحالُ التي سخرها ملازمةٌ لكونها مسخرة، وقد أشارَ الرَّخْشَرِيُّ في هذه الآيةِ إلى ما يقربُ من هذا، لكنه ذكرَ معه تأويلاً آخرَ كالمستبعد^(٣) لهذا الوجه، فجعله جمعَ «مسخرٍ» كممزقٍ، وجعلَ معناه أنواعاً من التسخير^(٤).

ومن هذا النمط: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ [المؤمنون: ٤٤] وليسوا رسلاً إلا بعد الإرسال. وأما إنكارُ اجتماعِ حذفين؛ فقد ساءَ في قوله: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] أي: لتلا تضلُّوا^(٥).

قوله: (ألا أيهدا الزاجري أحضر الوغى)، وتماؤه:

وأن أشهد اللذات هل أنت مُخلدي^(٦)

«أحضر» محمولٌ على حذفِ «أن» لدلالةِ عطفِ «أن أشهد» عليه، فلو لم تُقدَّرْ حتَّى تكونَ بتقديرِ المصدرِ لزمَ عطفُ المفردِ على الجملة، وهو غيرُ مستقيم.

(١) أي على القراءة بالنصب في لفظتي «النجوم» و«مسخرات»، وتقدم الكلام فيها في سورة النحل.

(٢) في (ج): «فالفاعل».

(٣) في (ف) و(ط): «كالمبعد»، والذي في «الانتصاف»: «كالمستشكل»، وهو الأشبه بالصواب.

(٤) انظر: (٩: ٩٠ - ٩١).

(٥) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ٣٥ - ٣٦).

(٦) سبق تخريجه.

فمنكَّر من المنكَّرات، على أن صَوَّنَ القرآنَ عن مثْلِ هذا التعسُّفِ واجب. فإن قلت: أيُّ فَرْقٍ بين: سمعتُ فلاناً يتحدَّثُ، وسمعتُ إليه يتحدَّثُ، وسمعتُ حديثه، وإلى حديثه؟ قلت: المعدى بنفسه يُفيد الإدراك، والمعدى بـ«إلى» يُفيد الإصغاء مع الإدراك.

والملا الأعلى: الملائكة؛ لأنهم يسكنون السماوات، والإنس والجن: هم الملا الأسفل؛ لأنهم سكان الأرض.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الكتبة من الملائكة. وعنه: أشراف الملائكة. ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾: من جميع جوانب السماء من أيِّ جهة صعدوا للاستِراق، ﴿دُحُورًا﴾ مفعولٌ له، أي: ويُقدِّفون للدُّحور؛ وهو الطَّرْد، أو مدحورين على الحال، أو لأنَّ القذف والطَّرْد مُتقاربان في المعنى، فكأنه قيل: يُدحرون، أو: قذفاً. وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ

قوله: (والمعدى بـ«إلى» يفيد الإصغاء مع الإدراك) الإصغاء: الإمالة للسَّماع، ومنه الحديث: «كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَصْغِي الْإِنَاءَ لِلهَرَّةِ»^(١).

قال القاضي: وتعدية السَّماع يلى لتضمينه معنى الإصغاء مبالغةً وتهويلاً لما يمنعه عن، ويدلُّ عليه قراءةٌ من قرأ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ بالتشديد^(٢) وهو طلبُ السَّماع^(٣).

قوله: (يُدحرون، أو: قذفاً) هذا من الإجازاتِ الحسنة، أي تُقدَّرُ «يُدحرون دُحُورًا» أو «يُقدِّفون قذفاً».

(١) أخرجه أبو داود (٧٥) وابن ماجه (٣٦٧) والترمذي (٩٢) وغيرهم من حديث أبي قتادة رضي الله عنه، وقال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح. وهو قولُ أكثرِ العلماء من أصحابِ النبي ﷺ والتابعين ومن بعدهم مثل: الشافعي وأحمد وإسحاق: لم يَرَوْا بسُورِ الهَرَّةِ بأساً. انتهى. وانظر تمام تخرجه في «صحيح ابن جبان» (١٢٩٩).

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي وحفص. انظر: «حجة القراءات» ص ٦٠٥.

(٣) «أنوار التنزيل» (٦: ٥).

بفتح الدال على: قَدْ فَا دَحُورًا طَرُودًا. أو: على أنه قد جاء مجيء القبول والولوع. والواصب: الدائم، وصب الأمر وُضُوبًا، يعني أنهم في الدنيا مَرَجُومُونَ بالشَّهْب، وقد أُعِدَّ لهم في الآخرة نوع من العذاب دائم غير مُتَقَطِّع. ﴿مَنْ﴾ في محلِّ الرفع بَدَلُ من الواو في (لَا يَسْمَعُونَ)، أي: لَا يَسْمَعُ الشَّيَاطِينُ إِلَّا الشَّيْطَانَ الَّذِي ﴿حَطَفَ الحَطْفَةَ﴾.

وقرئ: (حِطْفًا) بكسر الخاء والطاء وتشديدها، و(حَطْفًا) بفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها، وأصلهما: اخْتَطَفَ. وقرئ: ﴿فَاتَّبَعَهُ﴾، و(فَاتَّبَعَهُ).

قوله: (بفتح الدال) قال ابن جني: هذا على وجهين: أحدهما: على أنه من المصادر الذي جاء على فعول؛ بفتح الفاء. وثانيهما: على أن المعنى: وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ بِدَاحِرٍ أَوْ بِنَا يَدْحَرُ، على حذف حرف الجر وإرادته^(١).

قوله: (مجيء القبول والولوع) ومنه الزوع، وليس في المصادر «فعول» سوى هذه الثلاثة، قال سيبويه: رُوي: تَوَضَّأَتْ وَضُوءًا وَتَطَهَّرَتْ طَهْرًا^(٢)، والوجه الضم.

قوله: (وقرئ «حِطْفًا» بكسر الخاء والطاء وتشديدها) قال الزجاج: هذا لا وجه له إلا وجهها ضعيفًا جدًا، ويكون على إتباع الطاء كسر الخاء^(٣)، وهو أخذ الشيء بسرعة، وقيل: وجه «حِطْفًا» بكسرتين: أنهم حرَّكوا الخاء بحركة الهمزة بعد حذفها، فلما سكنوا التاء وقلبوها وأدغموا احتيج إلى تحريك الطاء فحرَّكوها بالكسر على أصل التقاء الساكنين. ووجه «حِطْفًا» بفتح الخاء وكسر الطاء، أنهم نقلوا حركة التاء إلى الخاء وحذفت همزة الوصل، ثم قلبوا التاء وأدغموا وحرَّكوا الطاء بالكسر على أصل التقاء الساكنين. والقراءتان شاذتان^(٤).

قوله: ﴿فَاتَّبَعَهُ﴾ هي المشهورة، والتشديد: شاذة.

(١) «المحتسب» (٢: ٢١٩).

(٢) «الكتاب» لسيبويه (٤: ٤٢).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٢٩٩).

(٤) وذكرهما ابن خالويه في «مختصر شواذ القرآن» ص ١٢٧.

[﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ (١١)]

الهمزة وإن خرجت إلى معنى التقرير فهي بمعنى الاستفهام في أصلها؛ فلذلك قيل: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾؛ أي: استخبرهم ﴿ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا ﴾؟ ولم يقل: ففَرَّزْهُمْ. والضمير لمشركي مكة. وقيل: نزلت في أبي الأشد بن كلدة، وكُني بذلك لشدة بطشه وقوته ﴿ أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾ يريد: ما ذَكَرَ مِنْ خَلَاتِقِهِ: مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالْمَشَارِقِ، وَالْكَوَاكِبِ، وَالشُّهُبِ الثَّوَابِقِ، وَالشَّيَاطِينِ الْمَرْدَةِ، وَعَلَّبَ أُولَى الْعَقْلِ عَلَى غَيْرِهِمْ، فَقَالَ: ﴿ مَنْ خَلَقْنَا ﴾، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ: قَوْلُهُ بَعْدَ عَدِّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾ بِالْفَاءِ الْمُعَقَّبَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿ أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾ مُطْلَقًا مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِالْبَيَانِ، اِكْتِفَاءً بِبَيَانِ مَا تَقَدَّمَ، كَأَنَّهُ قَالَ: خَلَقْنَا كَذَا وَكَذَا مِنْ عَجَائِبِ الْخَلْقِ وَبِدَائِعِهِ، فَاسْتَفْتِهِمْ: أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ الَّذِي خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَلِكَ،

قوله: (الهمزة وإن خرجت إلى معنى التقرير) أي: الهمزة في ﴿ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا ﴾ وإن خرجت^(١) عن موضوعها الأصلي وهي الاستفهام؛ لأنه طلب لما في الخارج لينتقش مثل ذلك في الذهن إلى تقرير الثابت؛ لأن هذا الأمر المسؤول مقرر معين لم يحتج إلى أن يُستفهم منه، لكن أجريت على الاستفهام ظاهراً؛ ليُجعل المقرر غير مقرر فيصح دخول «استفتهم» عليها، والفائدة الإنكار والتوبيخ، كأنه لم يعلم ذلك فاستفهم وهو معين مقرر، والأسلوب من باب سوق المعلوم مساق غيره، وعليه قول الخارجية:

أيا شجرَ الخابور، مالك مورقاً؟
كأنك لم تجزغ على ابن طريف^(٢)

(١) من قوله: «التقرير، أي: الهمزة في» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) البيت لليل بنت طريف الخارجية من قصيدة ترثي بها أخاها الوليد بن طريف الشاري من شراة الخوارج. وبعده:

فنى لا يجب الزاد إلا من النقى
ولا المسأل إلا من قنأ وسيوف
عليك سلامُ الله حسنأ فلنني
أرى الموت وقاعاً بكل شريف

انظر: «أمالي القاضي» (٢: ٢٧٤) و«الأغاني» (١٢: ١١٦).

وَتَقَطَّعُ بِهِ قِرَاءَةٌ مِّنْ قِرَاءٍ: (أَمَّنْ عَدَدْنَا) بالتخفيف والتشديد. و﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾: يَحْتَمِلُ أَقْوَى خَلْقًا، مِنْ قَوْلِهِمْ: شَدِيدُ الْخَلْقِ، وَ: فِي خَلْقِهِ شِدَّةٌ، وَأَصْعَبُ خَلْقًا وَأَشَقُّهُ، عَلَى مَعْنَى الرَّدِّ لِإِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ وَالنَّشْأَةَ الْآخَرَى، وَأَنَّ مَنْ هَانَ عَلَيْهِ خَلْقُ هَذِهِ الْخَلَائِقِ الْعَظِيمَةِ لَمْ يَصْعَبْ عَلَيْهِ اخْتِرَاعُهَا كَانَ خَلْقُ الْبَشَرِ عَلَيْهِ أَهْوَنَ. وَخَلَقْتَهُمْ ﴿مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ ﴿إِمَّا شَهَادَةٌ عَلَيْهِمْ بِالضَّعْفِ وَالرَّخَاوَةِ؛ لِأَنَّ مَا يُصْنَعُ مِنَ الطِّينِ غَيْرُ مَوْصُوفٍ

قَوْلُهُ: (وَتَقَطَّعُ بِهِ قِرَاءَةٌ مِّنْ قِرَاءٍ: «أَمَّنْ عَدَدْنَا») أَي: تَبَيَّنَتِ الْحُجَّةُ وَتَجَعَلَ الدَّلِيلُ قَاطِعًا، يَعْنِي: يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ خَلْقَنَا كَذَا وَكَذَا قِرَاءَةٌ مِّنْ قِرَاءٍ «أَمَّنْ عَدَدْنَا»^(١) دَلَالَةٌ قَاطِعَةٌ. فَقَوْلُهُ: «خَلَقْنَا» كِنَايَةٌ عَنِ ذَلِكَ الْمَعْدُودِ. وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤] قَالَ فِيهِ: إِنَّهُ جَارٍ مَجْرَى الْكِنَايَةِ الَّتِي تَعْطِيكَ اخْتِصَارًا^(٢).

قَوْلُهُ: (وَأَصْعَبُ خَلْقًا) قَسِيمٌ لِقَوْلِهِ: «أَقْوَى خَلْقًا»^(٣)، وَهُوَ الْإِحْتِمَالُ الثَّانِي. وَقَوْلُهُ: «عَلَى مَعْنَى الرَّدِّ» مُتَّصِلٌ بِالْإِحْتِمَالِ الثَّانِي دُونَ الْأَوَّلِ؛ لِقَوْلِهِ: هَانَ عَلَيْهِ لَمْ يَصْعَبْ.

قَوْلُهُ: (إِمَّا شَهَادَةٌ عَلَيْهِمْ بِالضَّعْفِ وَالرَّخَاوَةِ) إِلَى آخِرِهِ، مَعْنَاهُ: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ كَالْتَعْلِيلِ لِمَا يَتَوَلَّدُ مِنْ مَعْنَى^(٤) الْإِسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ فَإِذَا فَسَّرَ بِقَوْلِهِ: «أَهْمُ أَقْوَى خَلْقًا» عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ كَانَ دَلِيلًا عَلَى إِثْبَاتِ الضَّعْفِ وَالرَّخَاوَةِ لَهُمْ، وَإِذَا فَسَّرَ بِقَوْلِهِ: «أَصْعَبُ خَلْقًا وَأَشَقُّهُ» كَذَلِكَ كَانَ احْتِجَاجًا عَلَيْهِمْ بِإِهَانَتِهِمْ وَسَهُولَةِ تَأْتِيهِمْ مِنْ حَيْثُ الْمَخْلُوقِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْمُنْكَرَ حَيْثُ خَصَّوهُمْ وَإِنْكَارُهُمْ الْبَعْثَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَابًا﴾ فِيهِ لَفٌّ وَنَشْرٌ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: «بَلْ عَجِبْتَ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الْخَلَائِقِ الْعَظِيمَةِ» مَبْنِيٌّ عَلَى الْإِحْتِمَالِ الْأَوَّلِ، وَقَوْلُهُ: «أَوْ مِنْ إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ» عَلَى الْإِحْتِمَالِ الثَّانِي، وَالْمَقَامُ يَقْتَضِي الْإِحْتِمَالِ الثَّانِي؛ لِقَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿لَهُ ذَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «وَهَذَا الْمَعْنَى يَعْضُدُهُ مَا يَتْلُوهُ مِنْ ذِكْرِ إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ».

(١) مِنْ قَوْلِهِ: «أَي تَبَيَّنَتِ الْحُجَّةُ وَتَجَعَلَ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح).

(٢) انظر: (٢: ٣٣٤).

(٣) فِي (ح): أَمْرُكَ.

(٤) فِي (ح): «حَرْف».

بالصَّلابة والقوَّة، أو احتجاجٌ عليهم بأن الطينَ اللازب الذي خُلِقوا منه تراب، فمن أين استنكروا أن يُخلَقوا من تُرابٍ مثله حيثُ قالوا: ﴿أَوَدَا كُنَّا تَرَابًا﴾ [الرعد: ٥]. وهذا المعنى يَعُضُّدُهُ ما يتلوه من ذِكْرِ إنكارهم البعث. وقيل: ﴿مَنْ خَلَقْنَا﴾ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وليس هذا القولُ بملائم.

وقلت: ويعضدُ المعنى الأولَ ما سبقَ من مَفْتَحِ السُّورَةِ إلى هاهنا؛ لأنه في شأنِ إثباتِ التوحيدِ وإظهارِ القدرةِ الكاملة، يعني كيفَ يشركونَ ويستكبرونَ عن عبادتي؟ ألا يرونَ إلى ما خلَقْنَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ وَالْكَوَاكِبِ، كيفَ انقادوا وأطاعوا مع عظمِ خَلْقِهِمْ وقوَّةِ بَطْشِهِمْ لما أَرَدْنَا فِيهِمْ؟^(١) كقولهِ تعالى: ﴿قَالَتَا أَنِنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وهم يمتنعونَ عن الانقيادِ ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ ولذلك عَقِبَهُ بقولهِ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾.

قولُهُ: (وقيل: ﴿مَنْ خَلَقْنَا﴾ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ) عطفٌ على قولهِ: «يريدُ: ما ذَكَرَ^(٢) من خلائقِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ».

قولُهُ: (وليسَ هذا القولُ بملائم) لأنَّ ﴿مَنْ خَلَقْنَا﴾ مطلقٌ يُحْمَلُ على المقيدِ، ولم يسبقْ للأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ذِكْرٌ، وقد سبقَ ذِكْرُ الْمَلَائِكَةِ وَالسَّمَاوَاتِ وَغَيْرِهِمَا فوجبَ تقييدُهُ بها، وإليه الإِشَارَةُ بقولهِ: «وقولُهُ: ﴿أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ من غيرِ تقييدٍ بالبيانِ اكتفاءً ببيانِ ما تقدّمه»، وأيضًا الفاءُ في قولهِ: ﴿فَأَسْتَفِينَهُمْ أَمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ يقتضي ترتبَ الثاني على الأولِ، وإليه الإِشَارَةُ بقولهِ: «والدليلُ عليه قولُهُ بعد هذه الأشياءِ: ﴿فَأَسْتَفِينَهُمْ﴾ بالفاءِ المعقبة».

قالَ صاحبُ «الفرائد»: هذا القولُ مذكورٌ في «التيسير»، قال: ﴿فَأَسْتَفِينَهُمْ﴾ أي: فاسألِ المشركينَ يا محمد: أَمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الَّذِينَ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا؟ فإن أجابوك بأنهم أشدُّ من سلفِ قَلِّ لهم: إننا خلَقْنَاهم، أي: خلَقْنَا جميعَهُمْ من طينٍ لازب، يعني: أصلُهُم منه وهو آدمٌ عليه السَّلام، ممَّا^(٣) خلَقَهُم

(١) في (ح): «منهم».

(٢) سقط لفظ: «ذكر» من (ف).

(٣) رسمت في الأصول الخطية: «م»، كما ترسم في الاستفهام، وليس هذا موضعه، والله أعلم.

منه، فكيف صاروا هم أشدَّ منهم؟ وكيف توهموا الشدَّتهم عند أنفسهم أنهم يعجزونني وأنا خالق جميعهم وموجدُهم من العدم؟ وعليه جمهورُ المفسرين سوى الإمام^(١).

ثم قال صاحبُ «الفرائد»: يمكنُ أن يُقال: ﴿فَأَسْتَفِينِهِمْ﴾ يتعلَّقُ بما قبله وهو أنه تعالى أقسمَ أن الإلهَ واحدٌ؛ لإنكارِهِم ذلكَ وادعائِهِم الشرك، ثم ذكرَ ما لا مقالَ لهم فيه احتجاجًا عليهم وهو خلقُه السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْبَدَائِعِ وَالْعَجَائِبِ، فَالزَّمَهُم بِهَا ذَكَرَ أَنْ يَقْرُوا بِأَنَّهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلَمَّا لَمْ يَقْرُوا وَعَانَدُوا مَعَ وَضُوحِ الدَّلِيلِ كَمَا عَانَدَ مَنْ قَبْلَهُمْ وَدَامُوا عَلَى الشَّرِكِ كَمَا دَامُوا عَلَيْهِ، قِيلَ لَهُمْ: فَانْتَظِرُوا الْإِهْلَاكَ؛ لِأَنَّكُمْ لَا تَكُونُونَ أَشَدَّ خَلْقًا مِنْهُمْ، وَقَدْ أَهْلَكُوا بِمِثْلِ هَذَا الْعِنَادِ، فَانْتَمِ أَيْضًا سَتُهْلَكُونَ بِهِ، فَوَضَعَ ﴿فَأَسْتَفِينِهِمْ﴾ مَوْضِعَهُ لِإِفَادَتِهِ مَعْنَاهُ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ لِاسْتِكْبَارِهِمُ الْمُتَّبِعِ لِلْعِنَادِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥] ويدلُّ على ما ذَكَرْتُ الْإِضْرَابَ بَعْدَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ وَقَوْلُهُ بَعْدَهُ حِكَايَةَ عَنْهُمْ: ﴿أَوَدَا مِنَّا﴾ الْآيَةَ، ذَكَرَ اسْتِعَادَهُمْ بَعْدَ الْإِضْرَابِ، فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ غَيْرُ مُتَعَلِّقٍ بِمَا قَبْلَ الْإِضْرَابِ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْلَمُ بِمَفْهُومِ كَلَامِهِ وَبِالْمُرَادِ مِنْهُ.

وقلتُ - والله أعلم - : خالفَ المصنّفُ في أمور، أحدها: أنه مجرّى على ظاهره فيمن يعقلُ دون التّغليب. وثانيها: أن ﴿فَأَسْتَفِينِهِمْ﴾ موضوعٌ موضع: فلَمَّا لَمْ يَقْرُوا وَعَانَدُوا إِلَى آخِرِهِ، وَالْمَصْنَفُ جَعَلَهَا لِلتَّعْقِيبِ^(٢)، وَجَعَلَ الْهَمْزَةَ لِلتَّقْرِيرِ، وَالسَّوَالُ لِلتَّبَكِيتِ، يَعْنِي: إِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَاسْتَفِينَهُمْ. وَثَالِثُهَا: أَنْ قَوْلَهُ: ﴿أَوَدَا مِنَّا﴾ لَا يَصِحُّ أَنْ يَتَّصَلَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَسْتَفِينِهِمْ﴾.

هذا ولا يخفى على الخذاقِ بِمَعْرِفَةِ التَّالِيفِ وَالتَّنْظَامِ وَعَلَى ذَوِي دُرْبَةٍ بِأَسَالِيبِ الْكَلَامِ أَنْ الْقَوْلَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمَصْنَفُ؛ لِأَنَّ وَزَانَ الْآيَةِ مَعَ السَّوَابِقِ وَاللَّوْحِ وَزَانُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١]، وَقَدْ سَبَقَ تَقْرِيرُهُ

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣٢٢).

(٢) في (ف): «للتغليب»، وما أثبتناه هو الأشبه بالصواب، وعليه دار كلام الزمخشري.

وَقُرِّئَ: (لازم)، و(لا تَب)، والمعنى واحد، والثاقب: الشديد الإضاءة.

[﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ وَإِذَا ذُكِرُوا لَا يَنْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ ١٢-١٤].

﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ من قدرة الله على هذه الخلائق العظيمة ﴿ و ﴾ هم ﴿ يَسْخَرُونَ ﴾ منك ومن تعجبك ومما تُريهم من آثارِ قُدرةِ الله، أو من إنكارِهم البعث وهم يَسْخَرُونَ من أمر البعث.

وَقُرِّئَ بضم التاء، أي: بَلَغَ مِنْ عِظَمِ آيَاتِي وَكَثْرَةِ خَلَائِقِي أَيْ عَجِبْتُ مِنْهَا، فكيف بعبادي وهؤلاءِ بجَهْلِهِمْ وَعِنَادِهِمْ يَسْخَرُونَ مِنْ آيَاتِي؟! أو: عَجِبْتُ مِنْ أَنْ يُنْكِرُوا

في موضعه، وقوله: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧].

وأما معنى «بل» في قوله: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ فهو إضرابٌ عن الأمرِ بالاستفتاء^(١)، أي: لا تستفتهم فإنهم معاندون مكابرون لا ينفَعُ فيهم الاستفتاء ولا يتعجبون من قدرة الله على خلقِ هذه المذكوراتِ وعلى قدرته على إعادتكم وأنتم ترابٌ كما كنتم؛ لأنهم صمُّ بكم عُمي، وإنما يتعجبُ مثلكَ ممن له إنصافٌ ونظرٌ صحيحٌ موفِّقٌ من عند الله، ألا ترى كيف قيده بقوله: ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ وعطفَ عليه ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَمْ دَا مِئْنَا وَكُنَّا نُرَآهَا ﴾ الآية. قوله: (وَقُرِّئَ بضم التاء) حمزة والكسائي^(٢)، والباقون: بفتحها.

(١) في (ح): «بالاستثناء».

(٢) واحتج لها أبو عبيدٍ بغير واحدٍ من الأخبار، ثم قال: «والشاهدُ لها مع هذه الأخبارِ قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَعَجَّبْتَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ [الرعد: ٥] فأخبر جلَّ جلاله أنه عجب». انتهى من «حجّة القراءات» ص ٦٠٧.

وقال الزجاج في «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٠٠): وقد أنكر قومٌ هذه القراءة وقالوا: الله عزَّ وجلَّ لا يعجب، وإنكارهم هذا غلط، لأن القراءة والرواية كثيرة: والعجب من الله خلافة من الآدميين كما قال: ﴿ وَيَمَكُرُ اللَّهُ ﴾ [الأنفال: ٣٠] و﴿ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢]، والمكر من الله والخداع خلافة من الآدميين.

البعثَ مَنْ هذه أفعاله، وهم يَسْخَرُونَ مَنْ يصف الله بِالْقُدْرَةِ عليه. فإن قلت: كيف يجوزُ الْعَجَبُ على الله تعالى، وإنما هو رَوْعَةٌ تُعْتَرِي الإنسانَ عند استعظامه الشيءَ، والله تعالى لا يجوز عليه الرَّوْعَةُ؟ قلت: فيه وَجْهان؛ أحدهما: أن يجرّد الْعَجَبُ لمعنى الاستعظام، والثاني:

قوله: (مَنْ هذه أفعاله) «مِنْ» متعلّق بقوله: «أن يشكروا».

قوله: (رَوْعَة) الجوهرية: الرَّوْعُ - بالفتح -: الفرع، والرَّوْعَةُ: الفرعة. الأساس: ومن المجاز: وفرس رائع، يروغُ الرَّائِي بجماله، يريد: يدخلُ رُوْعَهُ الهيبة، ومنه الحديث: «إن رُوْحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوْعِي»^(١).

قوله: (أن يُجَرِّدَ الْعَجَبَ لمعنى الاستعظام) هذا على أصول المتكلمين، قالوا: عامّةُ صفاتِ الله التي تستدعي الجسميّة تفسّرُ على أحوالنا لأعراضنا في الانتهاء لا في الابتداء^(٢)، فيُحْمَلُ التَّعَجُّبُ على الاستعظام، فإن مَنْ رأى مَنْ أَمْرًا عَظِيمًا لم يرهْ قَبْلُ تَفَجُّؤُهُ الرَّوْعَةُ فيستعظمه، لذلك فاللهُ تعالى منزّهٌ عن المعنى الأولِ فيُحْمَلُ على الثاني، وأوردَ بأن ترتّب الاستعظام على عكسِ ما ذُكِرَ ضرورةً أنه يُستعظَمُ الشَّيْءُ أولاً ثم تعتري الرَّوْعَةُ، وتعريفهُ المذكورُ في «الكشاف» دالٌّ عليه، فيقال: الوجدانُ حاكمٌ أن استعظامَ الشَّيْءِ مسبوقٌ بانفعالٍ يحصلُ في الرَّوْعِ من رؤيةٍ أمرٍ غريب^(٣)، كمشاهدةِ جوهرةٍ نفيسةٍ أو درّةٍ يتيمة، هذا هو المعنى بالرَّوْعَةِ عند التَّعَجُّبِ.

وأما قوله: «وتعريفهُ المذكورُ دالٌّ عليه» فممنوع، ولفظُ «عند» في قوله: «عند استعظامه الشَّيْءِ» لا ينافي ما ذكرنا؛ لأنه إنما دلّ على المعية الزمانية، على أن الإمامَ نصّ في هذا المقام على هذا المعنى، حيثُ قال: القانونُ في هذا البابِ أن هذه الألفاظُ محمولةٌ على نهاياتِ الأعراضِ لا على بداياتها، ومن تعجّبَ من شيءٍ فإنه يستعظمه، والتَّعَجُّبُ في حقِّ الله تعالى محمولٌ

(١) سبق تخريجه.

(٢) يعني أن تحمّل على غاياتها مثل أن تحمّل الرحمة في حقِّ الله تعالى على إرادة الإحسان.

(٣) في (ح): «عجيب».

أَنْ يُتَخَيَّلَ الْعَجَبُ وَيُفْرَضَ، وقد جاء في الحديث:

على أنه تعالى يعظم تلك الحالة، إن كانت قبيحةً فترتب عليها العقاب، وإن كانت حسنةً فترتب عليها الثواب، تم كلامه^(١).

والحاصل في إضافة التعجب إلى الله تعالى وجهان: عجب مما يرضى، ومعناه الاستحسان والخبر عن تمام الرضا^(٢)، وعجب مما أنكره ومعناه الإنكار والذم له، والله أعلم.

قوله: (أَنْ يُتَخَيَّلَ الْعَجَبُ وَيُفْرَضَ) أي: يُجْعَلُ التَّرَكِيبُ مِنَ الْإِسْتِعَارَةِ التَّخْيِيلِيَّةِ، كما في قولهم: لسان الحال ناطقٌ بكذا، فيكون إثبات التعجب لله سبحانه وتعالى كتخييل اللسان^(٣) للحال.

وقال صاحب «الفرائد»: إن كان المراد من التخييل أنه يفرض له^(٤) تعالى ذلك - ولم يكن - كان كذباً عليه، وإن كان أنه مفروض له وكان جائزاً عليه - ومعلوم أنه لا يجوز - فكان كذباً أيضاً، فلا وجه للفرض، ويمكن أن يُجاب بأن يُقال: هو عند الله تعالى بمنزلة لو جازَ عليه العجب لعجب، ويمكن أن يُقال: عجب، أي: حمل على العجب؛ لأن الحامل على الفعل يسمى فاعلاً. تم كلامه.

والعجب أنه سدَّ باب الاستعارة بهذا البيان، وقد صرح المصنّف بلفظ الاستعارة في «يس» عند قوله: ﴿يَحْسَرَةُ عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠]. وأما التفصي عن الكذب فيصيب القرينة كما نص عليه صاحب «المفتاح»^(٥)، فيتصور معنى يليق بجلال الله عز وجل - وإن لم تُعرف كيفيته - موافقاً للأمر المتعارف يعني التعجب، ثم يُطلق على هذا المتصور اسم المتعارف، والقرينة نسبتُه إلى ذاته المقدسة عن صفات المخلوقين.

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣٣٤).

(٢) في (ح): «القضا».

(٣) في (ط): «الإنسان».

(٤) سقط لفظ: «له» من (ح).

(٥) «مفتاح العلوم» ص ٣٧٣.

«عَجِبَ رُبُّكُمْ مِنْ أَلْكُمِ وَقُنُوطِكُمْ وَسُرْعَةِ إِجَابَتِهِ إِيَّاكُمْ». وكان شُريحُ يقرأ بالفتح، ويقول: إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ، وإنما يعجبُ مَنْ لَا يَعْلَمُ. فقال إبراهيمُ النَّخَعِيُّ: إِنَّ شُريحًا كَانَ يُعْجِبُهُ عِلْمُهُ، وَعَبْدُ اللَّهِ أَعْلَمُ. يريد عبدُ الله بن مسعود، وكان يقرأ

وقريبٌ منه قولُ الإمام مالكٍ رضي اللهُ عنه في قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]: الاستواءُ معلومٌ والكيفيَّةُ مجهولة^(١). والله أعلم.

وأما الإسنادُ المجازيُّ فوجهٌ حسنٌ، نقلَ محيي السُّنةِ عن سيِّدِ الطائفةِ جُنيدٍ قُدَّسَ سرَّهما، قال: اللهُ تعالى لا يعجبُ مِنْ شَيْءٍ، ولكنَّه تعالى وافقَ رسولَه ﷺ لَمَّا عَجِبَ رسولُه ﷺ وقال^(٢): ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥] أي هو كما تقوله^(٣).

قوله: (عَجِبَ رُبُّكُمْ مِنْ أَلْكُمِ)، النِّهاية. وفي الحديث: «عَجِبَ رُبُّكُمْ مِنْ أَلْكُمِ وَقُنُوطِكُمْ»^(٤)، الأَلُّ: شدَّةُ القُنُوطِ، ويجوزُ أن يكونَ مِنْ رَفْعِ الصَّوْتِ بالبكاءِ، يُقالُ: أَلَّ يَيْئُلُ أَلًّا، قالَ أبو عبيدٍ: المُحدِّثونَ يروونه بكسرِ الهَمْزةِ، والمُحفوظُ عندَ أهلِ اللُّغةِ الفَتْحُ، وهو أشبهُ بالمصادر.

قوله: (إِنَّ شُريحًا كَانَ يُعْجِبُهُ عِلْمُهُ، وَعَبْدُ اللَّهِ أَعْلَمُ) وعن بعضهم: مثله ما ورد: «نَعِمَ اللَّهُ بِكَ عَيْنًا»^(٥)، وَحُدِّثَ بِهِ فِي مَجْلِسِ شَعْبَةَ فَأَنْكَرَهُ شَعْبَةُ، فَحُدِّثَ إِنْكَارُهُ ابْنَ الْأَعْرَابِيِّ فَقَالَ:

(١) ذكره ابن عبد البرِّ في «الاستذكار» (٢: ٥٢٩) وزاد: وسؤالك عنه بدعة، وأراك رجلٌ سوء. وهي في «سير أعلام النبلاء» (٨: ١٠٦).

(٢) قوله: «لما عجب رسولُه» ساقط من (ح) و(ط)، ولفظة: «وقال» ساقطة من (ح).

(٣) «معالم التنزيل» (٧: ٣٦).

(٤) ذكره البغوي في «شرح السنة» (١٤: ٣٦٥) من غير إسناد، وقال الزيلعي في «تفريح أحاديث الكشاف» (٣: ١٧٥): غريب.

(٥) قد أخرج أبو داود في «السنن» (٥٢٢٧) من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ عن قتادة أو غيره أنَ عِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ قال: كُنَّا نَقُولُ فِي الجَاهِلِيَّةِ: أَنْعَمَ اللَّهُ بِكَ عَيْنًا، وَأَنْعَمَ صَبَاحًا، فَلَمَّا كَانَ الإِسْلَامُ نُهِينَا عَنْ ذَلِكَ» قال عبد الرزاق: قال مَعْمَرٌ: يُكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: أَنْعَمَ اللَّهُ بِكَ عَيْنًا، وَلَا بِأَسْمٍ أَنْ يَقُولَ: أَنْعَمَ اللَّهُ عَيْنَكَ.

بالضم. وقيل: معناه: قل يا محمد: بل عَجِبْتَ. ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾: ودأبهم أنهم إذا وَعِظُوا بشيء لا يَتَّعِظُونَ به، ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾: من آياتِ الله البينة؛ كانشقاقِ القَمَرِ ونحوه، ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾: يُبَالِغُونَ في السُّخْرِيَةِ، أو يَسْتَدْعِي بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ أَنْ يَسْخَرَ مِنْهَا.

[﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ * أَمْ دَأَبْنَا رَأَابًا وَعِظْلَمًا أَمْ نَا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوْلُونَ﴾ * قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَخِرُونَ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ١٥ - ١٩]

و(آبَاؤُنَا) معطوفٌ على محلِّ (إِنَّ) واسمِها، أو على الضميرِ في (مبعوثون)، والذي جَوَزَ العطفَ عليه الفصلُ بهمزة الاستفهام. والمعنى: أَيَّبَعْتُ أَيضاً آبَاؤُنَا؟! على زيادة

أَعْدَرُهُمْ فإنهم لا يعلمون. قَالَ المصنّف: وجهُه أن الباءَ هاهنا للتعدية، أي: أنعمك الله عينا، أي: أقر عينك، وظنُّ شعبةُ أن العينَ وقعَ تمييزاً من الفاعلِ وأن الباءَ^(١) بمنزلةِ الباءِ في: سررتُ به وفرحتُ، ولذلك أنكره. وتأويلُ الآيةِ على قراءةِ عبدِ الله: أن الله تعالى ذكرَ إنكارَه عليهم ما هم فيه من الكفرِ والتكذيبِ، وذكرَ سُخْطَهُ عليهم، وهم يسخرونَ ويستَهزئونَ ولا يتذكرونَ.

قوله: (الفصلُ بهمزة الاستفهام) قرأ قالونُ وابنُ عامرٍ: «أو آبَاؤُنَا»^(٢) بإسكانِ الواو، والباقونَ: بفتحِها، أي: لولا همزةُ الاستفهامِ والفصلُ بها لما جازَ^(٣) العطفُ على الضميرِ المرفوعِ بالصریحِ من غيرِ تأكيد. قَالَ القاضي: أصلُه: أَنبَعْتُ أُنْذًا مِثْنًا؟ فبدلوا الفعليةَ بالاسميةِ وقدموا الظرفَ وكرروا همزةَ مبالغةٍ في الإنكارِ وإشعارًا بأن البعثَ مستنكرٌ في نفسه، وفي هذه الحالِ أشدُّ استنكاراً، ويمكنُ أن يُجعلَ الكلامُ ذا جملتينِ معطوفتين، والتقدير: أَنبَعْتُ إِذَا كُنَّا تَرَابًا وَعِظَامًا؟ وَيُبعثُ أَيضاً آبَاؤُنَا الأقدمونَ؟ ثم أدخلَ همزةَ الإنكارِ^(٤) بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه لمزيدِ الاستبعادِ^(٥).

(١) في (ف): «التاء» في الموضعين.

(٢) انظر: «حجة القراءات» ص ٦٠٨.

(٣) في (ط): «لجاز».

(٤) من قوله: «أن يجعلَ الكلامُ» إلى هنا، سقط من (ح).

(٥) «أنوار التنزيل» (٥: ٧).

الاستبعاد، يَعْنُونَ أَنَّهُمْ أَقْدَمُ، فَبَعَثَهُمْ أَبْعَدُ وَأَبْطَلُ. وَقُرئ: ﴿أَوْ آبَاؤُنَا﴾. ﴿قُلْ نَعَمْ﴾: وَقُرئ: (نَعِمٌ) بِكسْرِ الْعَيْنِ، وَهِيَ لُغْتَانِ. وَقُرئ: (قَالَ نَعِم) أَي: اللَّهُ تَعَالَى أَوْ الرَّسُولُ ﷺ. وَالْمَعْنَى: نَعِم تَبْعَثُونَ ﴿وَأَنْتُمْ ذَاخِرُونَ﴾: صَاغِرُونَ. ﴿فَإِنَّمَا﴾ جَوَابٌ شَرْطٍ مُقَدَّرٌ، تَقْدِيرُهُ: إِذَا كَانَ ذَلِكَ فَمَا ﴿هِيَ﴾ إِلَّا ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ وَهِيَ لَا تَرْجِعُ إِلَى شَيْءٍ، إِنَّمَا هِيَ مُبْهَمَةٌ مُوَضِّحُهَا خَبَرُهَا.

ويجوز: فإنما البعثة زجرة واحدة؛ وهي النفخة الثانية. والزجرة: الصيحة، من

قوله: (إنما هي مبهمة موضحها خبرها) وهي ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، ونظيرها قول الشاعر:

هي النفس ما حملتها تتحمل^(١)

وقال الآخر:

هما خطّتا إمسا إسمار ومنة وإما دم، والقتل بالحر أجدر^(٢)

الخطّة: الحال والأمر. والإسار: القُد الذي يُشدُّ به خشبُ الرّحل. والإسار: الأسر.

قوله: (ويجوز: فإنما البعثة زجرة واحدة) أي: لفظة ﴿هِيَ﴾ يجوز أن ترجع إلى شيء، وهي البعثة المفهومة من قوله: ﴿لَتَبْعُوثُونَ﴾. قَالَ الرَّجَّاجُ: الْمَعْنَى: قُلْ لَهُمْ: نَعِم تَبْعَثُونَ وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ^(٣)، ثُمَّ فَتَرَ أَنْ بَعَثَهُمْ يَقَعُ بِزَجْرَةٍ وَاحِدَةٍ؛ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَجِيُونَ وَيَبْعَثُونَ بَصْرَاءَ يَنْظُرُونَ﴾^(٤).

وقول المصنّف: «إِذَا كَانَ ذَلِكَ» أَي: الْقِيَامَةُ أَوْ نَفْخَةُ الْقِيَامَةِ، هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِ الرَّجَّاجِ: «ثُمَّ فَتَرَ أَنْ بَعَثَهُمْ».

(١) لمعلي بن الجهم في «ديوانه» ص ١٦٢ من قصيدة يمدح بها المتوكل، وتمام البيت:

وللدهر أيام تجور وتعدّل

(٢) لتأبط شراً في «ديوانه» ص ١٧.

(٣) قوله: «وأنتم صاغرون» سقط من (ح).

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٠١).

قَوْلِكَ: زَجَرَ الرَّاعِي الْإِبِلَ أَوْ الْغَنَمَ؛ إِذَا صَاحَ عَلَيْهَا فَرِيَعَتْ لَصَوْتِهِ، وَمِنْهُ:

زَجَرَ أَبِي عُرْوَةَ السَّبَاعِ إِذَا أَشْفَقَ أَنْ يَحْتَلِطْنَ بِالْغَنَمِ

يُرِيدُ تَصْوِيَتَهُ بِهَا. ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أَحْيَاءُ بُصْرَاءَ ﴿يَنْظُرُونَ﴾.

[﴿ وَقَالُوا يَتَوَلَّىَٰنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ * هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكْذِيبُوكَ ﴿ ٢٠-٢١ ﴾]

يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ﴿ هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ أَحْشُرُوا ﴾ [الصافات: ٢٢] مِنْ كَلَامِ الْكُفْرَةِ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، وَأَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ، وَأَنْ يَكُونَ ﴿ وَقَالُوا يَتَوَلَّىَٰنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ كَلَامَ الْكُفْرَةِ، وَ﴿ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ مِنْ كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ جَوَابًا لَهُمْ. وَيَوْمَ الدِّينِ: الْيَوْمُ الَّذِي تُدَانَ فِيهِ، أَي: تُجَازَى بِأَعْمَالِنَا. وَيَوْمُ الْفَصْلِ: يَوْمُ الْقَضَاءِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ فَرْقِ الْهُدَى وَالضَّلَالَةِ.

[﴿ أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ

* وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنصُرُونَ * بَلْ هُمْ آلُيَوْمِ مَسْتَسِيمُونَ ﴿ ٢٢-٢٦ ﴾]

﴿ أَحْشُرُوا ﴾ خِطَابُ اللَّهِ لِلْمَلَائِكَةِ، أَوْ خِطَابٌ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، ﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾:

قَوْلُهُ: (زَجَرَ أَبِي عُرْوَةَ) الْبَيْتَ (١)، الْمَصْنُفُ: «زَجَرَ» يُرْوَى بِفَتْحِ الرَّاءِ، عَنْ بَعْضِهِمْ: وَهُوَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَنْ يَكُونَ مُصَدَّرًا، وَأَنْ يَكُونَ فِعْلًا مَاضِيًا، وَالْأَصْلُ: زَجَرَ، ثُمَّ خُفِّفَ، وَيُرْوَى بِرَفْعِهَا، وَهُوَ مُصَدَّرٌ لَا غَيْرَ. فِيهِ نَظَرٌ.

رَوَى الْمَصْنُفُ: أَنَّ أَبَا عُرْوَةَ كُنِيَ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ فِي سُورَةِ «الْحَجَرَاتِ»، وَأَنْشَدَ الْبَيْتَ، وَقَالَ: زَعَمَتِ الرَّوَاةُ أَنَّهُ كَانَ يَزْجُرُ السَّبَاعَ عَنِ الْغَنَمِ فَيَفْتَقُ مَرَارَةَ السَّبْعِ فِي جَوْفِهِ، وَلَمْ أَجِدْ لِهَذَا أَصْلًا. وَكُنِيَّتُهُ فِي «الاسْتِيعَابِ» وَ«جَامِعِ الْأَصُولِ»: أَبُو الْفَضْلِ (٢).

(١) لِلنَّابِغَةِ الْجَعْدِيِّ. انظُر: «الْكَامِلُ» لِلْمَبْرُودِ (٢: ١٢٣).

(٢) انظُر: «الْاسْتِيعَابِ» (٤: ١٩٠٨) وَ«جَامِعِ الْأَصُولِ» (١٢: ٥٦٢).

وَضْرِبَاءَهُمْ، عن النبي ﷺ؛ وهم نظراؤهم وأشباؤهم من العُصاة: أهل الزنى مع أهل الزنى، وأهل السرقة مع أهل السرقة. وقيل: قرناءهم من الشياطين. وقيل: نساءهم اللاتي على دينهم، ﴿فَأَهْدُوهُمْ﴾: فعرفوهم طريق النار حتى يسلكوها. هذا تهكمٌ بهم وتوبيخٌ لهم بالعجز عن التناصر بعدما كانوا على خلافٍ ذلك في الدنيا متعاضدين متناصرين. ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُتَسَلِمُونَ﴾: قد أسلم بعضهم بعضاً وحذله عن عجز، وكلهم مُستسلم غير مُتصير. وقرئ: (لا تتناصرون)، و: (لا تناصرون) بالإدغام.

[﴿وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسَاءَ لَوْ﴾ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ * ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذٰلِقُونَ﴾ * فَأَعْوَبْتَكُمْ إِنَّا كُنَّا غٰوِينَ * ﴿فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ * إِنَّا كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٢٧-٣٥﴾]

قوله: (وَضْرِبَاءَهُمْ) الضَّرْبَاءُ والأَضْرَابُ: الأمثال. قال: سمعتُ غيرَ واحدٍ من العرب يقول: هذا ضربه، أي: مثله، بكسر الضاد، وبعضه قوهم: مثل ومثيل، وشبه وشبيه، وأنهم جمعوه على أضراب، والذي في الكتب المضبوطة: بفتح الضاد.

قوله: (وهم نظراؤهم وأشباؤهم) قال الزجاج: تقول: عندي من هذا أزواج، أي: أمثال، وكذلك: زوجان من الخفاف، أي: كلٌ واحدٌ نظيرُ صاحبه، وكذلك: الزوج: المرأة، والزوج: الرجل، وقد تناسباً بعقد النكاح^(١).

وقال أبو البقاء: الجمهورُ على نصب ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: احشروا أزواجهم، وهو بمعنى «مع»، وهو في المعنى أقوى، وقرئ شاذاً بالرفع عطفاً على الضمير في ﴿ظَلَمُوا﴾^(٢).

قوله: (وقرئ: لا «تناصرون») روى البرقي عن ابن كثير^(٣).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٠١).

(٢) «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ١٠٨٩).

(٣) انظر: «التيسير» للداني ص ٨٣.

اليمينُ لَمَّا كانت أشرفَ العضوينِ وأُمَّتَنَّهُما وكانوا يَتِيَمُّونَ بها؛ فيها يُصَافِحُونَ ويُبَاسِحُونَ ويُتَناولُونَ وَيَتَنَاوَلُونَ، ويُزاولون أكثرَ الأمورِ، ويتشاءمُون بالشمّال؛ ولذلك سَمَّوها: الشُّؤمى، كما سَمَّوا أختَهَا اليُمْنى، وتِيَمَّنُوا بالسَّانِحِ، وتَطَيَّرُوا بِالْبَارِحِ، وكان الأَعسرُ مَعِيباً عندهم، وَعَضَدَتِ الشَّرِيعَةُ ذلكَ، فَأَمَرَتْ بِمُبَاشَرَةِ أَفْضَلِ الأُمُورِ بِالْيَمِينِ، وأَرادَها بالشمّال، وكان رسولُ اللَّهِ ﷺ يَحِبُّ التِيَمَانَ في كُلِّ شيءٍ، وجُعِلَتِ اليَمِينُ لِكاتِبِ الحَسَنَاتِ، والشمّالُ لِكاتِبِ السيِّئَاتِ، ووَعِدَ المُحْسِنُ أن يُؤْتى كِتَابَهُ بيمينه، والمُسِيءُ أن يُؤْتاه بِشمّاله - استُعيرتْ لجهةِ الخَيْرِ وجانبِهِ، فقيل: أتاه عن اليَمِينِ - أي: مِن قِبَلِ الخَيْرِ وناحيَتِهِ - فصَدَّه عنه وأضَلَّهُ.

وجاء في بعضِ التفاسيرِ: مَنْ أتاه الشيطانُ من جهةِ اليَمِينِ: أتاه من قِبَلِ الدِّينِ فَلَبَّسَ عليه الحَقَّ، وَمَنْ أتاه من جهةِ الشَّمَالِ: أتاه مِن قِبَلِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ أتاه من

قولُهُ: (ويُباسِحون) قيل: يعاقدون ويعاهدون، أو يتبركون. التَّهْيَاةُ: إِنَّمَا سُمِّيَ عيسى بالمسيح؛ لأنه كان لا يمسحُ بيده ذا عاهةٍ إِلَّا بَرِيءٍ.

قولُهُ: (وتِيَمَّنُوا بالسَّانِحِ)، التَّهْيَاةُ: هو ما مرَّ مِنَ الطَّيْرِ والوحوشِ بَيْنَ يَدَيْكَ مِن جِهَةٍ يساركِ إِلَى يَمِينِكَ، والعَرَبُ تَتِيَمَّنُ به؛ لأنه أَمَكَنُ لِلرَّمِيِ والصَّيْدِ، والبَارِحُ: ضِدُّهُ.

قولُهُ: (وكانَ الأَعسرُ مَعِيباً) الجوهري: يُقال: أَعسرُ بَيْنَ العَسَرِ، الَّذِي يَعْمَلُ بيسارِهِ.

قولُهُ: (استُعيرتْ لجهةِ الخَيْرِ) جوابُ «لما».

قولُهُ: (فقيل) متَّصِلٌ بقولِهِ: «استُعيرتْ»، وقصدُهُ بقولِهِ: «أتاه» يعني: لَمَّا كانتِ اليَمِينُ أشرفَ العضوينِ استُعيرتْ لجهةِ الخَيْرِ^(١)، قيل: أتاهُ من جهةِ الخَيْرِ، فصَدَّه عن الخَيْرِ، وعليه معنى الآية، وتَحْرِيرُهُ: قالَ بعضُ أهلِ الجحيمِ لبعضِ: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ مِن قِبَلِ الخَيْرِ وتصدَّوننا عن الإيَّمانِ وتضلُّوننا عن سبيلِ الحَقِّ، ولذلك كانَ جوابُ البعضِ الآخرِ: ﴿بَلْ لَو تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

(١) من قوله: «جوابُ لما» إلى هنا، سقط من (ح).

بين يديه: أتاه من قبَلِ التّكذيب بالقيامةِ وبالثوابِ والعقابِ، ومن أتاه من خَلْفه: خوْفُه الفقرَ على نفسه وعلى من يُخَلِّفُ بعده؛ فلم يصلِ رَحْماً، ولم يؤدِّ زكاةً. فإن قلت: قولهم: أتاه من جهةِ الخيرِ وناحيته: مجازٌ في نفسه، فكيف جُعِلتِ اليمينُ مجازاً عن المجاز؟ قلت: من المجاز ما غَلَبَ في الاستعمالِ حتى لَحِقَ بالحقائق، وهذا من ذلك؛ ولك أن تجعلها مُستعارةً للقوّة والقَهْر؛ لأنَّ اليمينَ موصوفةٌ بالقوّة، وبها يقعُ البَطْشُ. والمعنى: أنكم كنتم تأتوننا عن القوّة والقَهْر، وتقصدوننا عن السُّلطانِ والغلبةِ حتى تحمِلونا على الضلالِ وتفسرُونا عليه.

وهذا من خطابِ الأتباعِ لرؤسائهم، والغواةِ لشياطينهم، ﴿بَلْ لَأَرْتَكِبُونَ مُؤْمِنِينَ﴾

قوله: (قولهم^(١)): أتاه من جهةِ الخيرِ) يعني قولهم: أتاه من جهةِ اليمينِ كما تقرّر، مستعارٌ من قولهم: أتاه من جهةِ الخيرِ، والخيرُ لا جهةَ له، فكيف يُستعارُ منه؟ وأجابَ أَنَّهُ مجازٌ في المرتبةِ الثانيةِ، فهو كالمسافة، وهي موضعُ الشَّمِّ في الأصل، من سافه [إذا] شَمَّهُ، ثُمَّ استُعيرَ لبعْدِ ما بينَ الموضوعين، ثُمَّ استُعيرَ لفرقِ ما بينَ الكلامين.

قوله: (ولك أن تجعلها مُستعارةً) عطفٌ على قوله: «اليمينُ لما كانت أشرفَ العضوين»، ويجوزُ أن يُقال: إِنَّهُ عطفٌ من حيثِ المعنى على قوله: «استُعيرتْ لجهةِ الخيرِ»، وهما نشرٌ لِمَا لُفَّ في قوله: «وكانوا يَتَمَيَّنُونَ بها، فبها يُصافِحون» إلى آخره؛ لأنَّهُ مُناسبٌ لقوله: «اليمينُ لما كانت أشرفَ العضوين»، كما أنَّ قوله: «مُستعارةٌ للقوّة والقَهْر» مُناسبٌ لقوله^(٢): «وأمتنهما» وليست هذه الاستعارةُ من التي مَبناها على التّشبيه، بل هي من إطلاقِ السَّببِ على المُسبَّبِ، وقد جمعَ المعنيينِ مَنْ قال:

وكنّا الأيمنينِ إذا التقينا وكان الأيسرينَ بنو أئينا^(٣)

(١) سقط لفظ: «قولهم» من (ح).

(٢) من قوله: «اليمينُ لما كانت» إلى هنا، سقط من (ح).

(٣) لعمر بن كلثوم من معلقته المشهورة. انظر: «شرح المعلقات السبع» للزوزني ص ٢٣٠.

بل أبيتُم أنتم الإيَّانَ وأعرضتُم عنه، مع تمكُّنِكُم منه مختارينَ له على الكُفْر، غيرَ مُلجَّينَ إليه، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن تَسَلُّطٍ نَّسَلِبُكُم بِهِ تَمَكُّنَكُمْ وَاسْتِخَارَكُم﴾ ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا﴾ ﴿مُخْتَارِينَ الطُّغْيَانَ﴾ ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾: فلزِمْنَا ﴿قَوْلَ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ يعني: وَعِيدَ اللَّهِ بِأَنَّا ذَائِقُونَ لعذابه لا محالة؛ لعِلْمِهِ بحالِنَا واستحقاقِنَا بها العقوبة، ولو حكى الوعيدَ كما هو لقال: إنكم لذائقون، ولكنه عَدَلَ به إلى لفظِ المتكلم؛ لأنهم متكلمون بذلك عن أنفسِهِم، ونحوه قولُ القائل:

لقد زَعَمْتَ هَوَازِنُ قَلِّ مَالِي

ولو حكى قولها لقال: قَلِّ مَالِك.

ومنه قولُ المُحَلِّفِ لِلْحَالِفِ: احلفْ لأخْرُجَنَّ، ولتخرُجَنَّ؛ الهمزة لحكاية لفظِ الحالف، والتاء لإقبال المُحَلِّفِ على المُحَلِّف. ﴿فَأَعْوَبْتَكُمْ﴾: فدَعَوْنَاكم إلى الغيِّ دعوةً مُحصِّلةً للبغيِّة، لقبولِكُم لها واستجابتِكُم الغيِّ على الرُّشد، ﴿إِنَّا كُنَّا غَوِيْنَ﴾ فأرَدْنَا

قوله: (يعني وعيد الله بأننا ذائقون لعذابه لا محالة؛ لعلمه بحالنا) قال القاضي: بينوا بقولهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلَ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ أن ضلالَ الفريقين ووقوعهم في العقاب كان أمراً مقضياً لا محيص لهم عنه، وأن غاية ما فعلوا بهم أنهم دعَوْهُم إلى الغي؛ لأنهم كانوا على الغيِّ فأحبُّوا أن يكونوا مثلهم، وفيه إيحاءٌ بأنَّ غوايتهم في الحقيقة ليس من قبيلهم^(١).

قوله: (لقد زَعَمْتَ هَوَازِنُ قَلِّ مَالِي) تمامه:

وهل لي غيرُ ما أنفقْتُ مالاً؟^(٢)

قوله: (دعوةٌ مُحصِّلةٌ^(٣) للبغيِّة) يريدُ أن الإغواءَ ضدَّ الهداية، كما أنَّ الهدايةَ معناها

(١) «أنوار التنزيل» (٩: ٥).

(٢) ليزيد بن الجهم. انظر: «الحماسة البصرية» (٢: ١٢).

(٣) في (ف): «مُحصِّلة».

إغواءكم؛ لتكونوا أمثالنا، ﴿فَاتَّبَعْتُمْ﴾ فَإِنَّ الْأَتْبَاعَ وَالْمُتَّبِعِينَ جَمِيعًا، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿مُشْرِكُونَ﴾ فِي الْعَذَابِ كَمَا كَانُوا مُشْرِكِينَ فِي الْغَوَايَةِ، ﴿إِنَّا﴾ مِثْلُ ذَلِكَ الْفِعْلِ ﴿نَفَعَلُ﴾ بِكُلِّ مُجْرِمٍ، يَعْنِي: أَنَّ سَبَبَ الْعُقُوبَةِ هُوَ الْإِجْرَامُ، فَمَنْ ارْتَكَبَهَا اسْتَوْجَبَهَا. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا﴾ سَمِعُوا بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ نَفَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا وَأَبَوْا إِلَّا الشِّرْكَ.

[﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا﴾ الْهَيْئَةَ لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ * بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ * إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ * وَمَا تَحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ٣٦ - ٣٩]

﴿لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ يَعْنُونَ مُحَمَّدًا ﷺ، ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ رَدًّا عَلَى الْمَشْرِكِينَ ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وَقُرِي: (لذائقوا العذاب)، بِالنَّصْبِ عَلَى تَقْدِيرِ النَّوْنِ، كَقَوْلِهِ:

ولا ذاكرِ الله إلا قليلا

بتقدير التنوين.

الدَّلَالَةُ الْمُوَصَّلَةُ إِلَى الْبَغِيَّةِ، كَذَلِكَ الْإِغْوَاءُ، لَكِنْ عَلَى الْعَكْسِ، وَلِذَلِكَ قَابَلَ الْغِيَّ بِالرُّشْدِ فِي قَوْلِهِ: «اسْتَحْبَابِكُمْ الْغِيَّ عَلَى الرُّشْدِ».

قَوْلُهُ: (ولا ذاكرِ الله إلا قليلا)، أَوْلُهُ:

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتَبٍ

قَبْلَهُ.

فَذَكَرْتُهُ ثُمَّ عَاتَبْتُهُ عِتَابًا رَقِيقًا وَقَوْلًا جَمِيلًا^(١)

أَي: غَيْرَ رَاجِعٍ بِالْعِتَابِ عَنْ قَبِيحِ مَا فَعَلَ. وَالْأَصْلُ: وَلَا ذَاكِرًا لِلَّهِ إِلَّا قَلِيلًا؛ بِالتَّنْوِينِ وَنَصْبِ «اللَّهِ»، إِلَّا أَنَّهُ حَذَفَ التَّنْوِينَ لِالتَّقَاءِ السَّاكِنِينَ لَا لِلإِضَافَةِ، وَلِهَذَا كَانَ مَنْصُوبًا، وَ«ذَاكِرٍ» مَجْرُورٌ، عَطْفٌ عَلَى «مُسْتَعْتَبٍ».

(١) لَأَبِي الْأَسْوَدِ الدُّوَلِيِّ. انظر: «خزانة الأدب» (١: ٢٨٤).

وَقُرِّئَ عَلَى الْأَصْلِ: (لذائقون العذاب). ﴿إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: إِلَّا مِثْلَ مَا عَمَلْتُمْ
جَزَاءً سَيِّئًا بَعْمَلٍ سَيِّئٍ.

[﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ أَوْلَيْكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكُهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ
* عَلَى شُرُومٍ مُنْقَلَبِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ
عَنْهَا يُنْفَرُونَ * وَعِنْدَهُمْ قَصْرَاتُ الْأَطْرَافِ عَيْنٌ * كَانَتْهُمْ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٠ - ٤٩﴾]

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ﴾: ولكن عباد الله، على الاستثناء المنقطع.

فُسِّرَ الرِّزْقُ المَعْلُومُ بالفواكه؛ وهي كُلُّ مَا يُتَلَذَّذُ بِهِ وَلَا يُتَقَوَّتُ لِحِفْظِ الصِّحَّةِ،

قوله: (ولكن عباد الله على الاستثناء المنقطع) وفي «المطلع»: المعنى: لكن الموحِّدون الذين
أَخْلَصَهُمُ اللهُ بِأَهْدَى وَإِيْمَانٍ أَوْلَيْكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ فِي الْجَنَّةِ بَدَلُ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ لِلْكَفَرَةِ.
وقيل: الاستثناء متَّصِلٌ بِالْجِزَاءِ، أَي: إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ فَإِنَّ جِزَاءَهُمْ يُضَاعَفُ أضعافاً
تَفْضُلاً مِنْهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَقِيلَ: مُتَّصِلٌ بِالذُّوقِ، أَي: يذوقون إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ.

وقلت: وَالَّذِي عَلَيْهِ ظَاهِرُ كَلَامِ الْمُصَنِّفِ أَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِالْجِزَاءِ، لَكِنْ عَلَى الْإِنْقِطَاعِ،
وَالْتَقَابُلُ حَاصِلٌ؛ لِأَنَّ جِزَاءَهُمْ - كَمَا سَبَقَ - هُوَ ذَوْقُ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ إِهَانَةً، وَجِزَاءُ أَوْلَيْكَ
الرِّزْقُ المَعْلُومُ وَالْفَوَاكِهِ كِرَامَةٌ.

وقال القاضي: هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي ﴿يُخْرَجُونَ﴾ لِجَمِيعِ الْمَكَلِّفِينَ^(١)
فِي كَوْنِ اسْتِثْنَائِهِمْ عَنْهُ بِاعْتِبَارِ الْمِثَالَةِ، فَإِنَّ ثَوَابَهُمْ مُضَاعَفٌ، وَالْمُنْقَطِعُ أَيْضًا هَذَا الْإِعْتِبَارُ^(٢).

قوله: (فُسِّرَ الرِّزْقُ المَعْلُومُ بالفواكه)، يعني ﴿فَوَاكُهُ﴾ عَطْفُ بَيَانٍ لِلرِّزْقِ، وَفِي الْمَطْلَعِ:
بَدَلٌ مِنْهُ بَدَلُ الْكُلِّ مِنَ الْكُلِّ، وَعَلَى أَنْ يُرَادَ ﴿رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ مَنَعُوتٌ بِخِصَائِصٍ بَدَلُ الْبَعْضِ
مِنَ الْكُلِّ؛ لِأَنَّ الْفَوَاكِيَ بَعْضُ رِزْقِكُمْ.

(١) فِي النِّسْخِ الْخَطِيئَةِ: «لِجَمْعِ»، وَصَوَّبْنَاهُ مِنْ «أَنْوَارِ التَّنْزِيلِ».

(٢) «أَنْوَارِ التَّنْزِيلِ» (٩: ٥).

يعني: أن رزقهم كله فواكه؛ لأنهم مُستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات بأنهم أجسام مُحَكِّمة مخلوقة للأبد، فكلُّ ما يأكلونه يأكلونه على سبيل التلذُّذ. ويجوزُ أن يُراد: رزقُ معلومٍ منعوتٌ بخصائصِ خُلِقَ عليها: من طيبِ طعم، ورائحة، ولذَّة، وحُسنِ منظر. وقيل: معلومُ الوقت، كقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

وعن قتادة: الرزقُ المعلوم: السجَّة. وقوله: ﴿فِي جَنَّتٍ﴾ يَأباه. وقوله: ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ هو الذي يقوله العلماء في حدِّ الثواب

وقلت: يمكن أن يُقال: إنَّ قوله: ﴿مَعْلُومٌ﴾ إمَّا محمولٌ على المُتعارف، أي: كما عُرِفَ في الدُّنيا عندَ أهلها، فيكونُ بَدَلُ الكُلِّ مِنَ الكُلِّ لقوله: وَرِزْقُهُمْ كُلُّهُ فَوَاكِهِ، وإمَّا محمولٌ على المعروف، أي كما عُرِفَ عندَ أهلِ التَّزَوُّفِ والتَّنْعَمِ، فيكونُ أيضًا بَدَلُ الكُلِّ؛ لأنَّ قوله: (من طيبِ طعمٍ ورائحةٍ ولذَّةٍ وحُسنِ منظر) كُلُّهُ صِفَةُ الفَوَاكِهِ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُ الإمام: المقصودُ من ذِكْرِ الفَاكِهَةِ التَّنْبِيهُ بِالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى^(١)، يعني: لَمَّا كَانَتِ الفَاكِهَةُ حَاضِرَةً أَبَدًا كَانِ الْإِدَامُ أَوْلَى بِالْحَضُورِ، وإمَّا محمولٌ على الوقتِ كقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] فيكونُ ﴿فَوَاكِهَةً﴾ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ وَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ، والمرادُ بالفَوَاكِهِ كُلُّ طَعَامٍ يُؤْكَلُ لِلتَّلَذُّذِ، كما مرَّ في الوجهِ الأوَّلِ.

قوله: ﴿فِي جَنَّتٍ﴾ يَأباه) قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: ﴿فِي جَنَّتٍ﴾ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ظَرْفًا أَوْ حَالًا أَوْ خَبْرًا ثَانِيًا، وَكَذَلِكَ ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾. وَيَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ ﴿عَلَى﴾ بِـ ﴿مُنْقَلِبِينَ﴾، وَيَكُونَ ﴿مُنْقَلِبِينَ﴾ حَالًا مِنْ ﴿مُكْرَمُونَ﴾، أَوْ مِنَ الضَّمِيرِ فِي الْجَارِ، وَ﴿يَطَافُ عَلَيْهِمْ﴾، يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ^(٢) مُسْتَأْنَفًا وَأَنْ يَكُونَ كَالَّذِي قَبْلَهُ، وَأَنْ يَكُونَ صِفَةً لـ ﴿مُكْرَمُونَ﴾، وَ﴿مِنْ مَعِينٍ﴾ نَعْتٌ^(٣) لـ «كَاسٍ»، وَكَذَلِكَ ﴿بَيْضَاءَ﴾ وَ﴿عَنَّا﴾ يَتَعَلَّقُ بِـ ﴿يُنزَلُونَ﴾^(٤).

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣٣٢).

(٢) من قوله: «ظرفًا أو حالًا أو خبرًا» إلى هنا، سقط من (ح).

(٣) في (ف): «يُعْقِب». وهو على الجادة في «التيبان».

(٤) «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ١٠٨٩).

على سبيل المدح والتعظيم، وهو من أعظم ما يجب أن تتوق إليه نفوس ذوي الهمم، كما أن من أعظم ما يجب أن تنفر عنه نفوسهم هو أن أهل النار وصغارهم. التقابل أتمُّ للشُرور وآنس. وقيل: لا ينظر بعضهم إلى قنفا بعض. ويقال للزُّجاجة فيها الخمر: كأس، وتسمى الخمرُ نفسُها كأساً، قال:

وكأسٍ شَرِبْتُ على لَدَّةٍ

قوله: (على سبيل المدح) مُقرَّن بقوله^(١): «العلماء»، يعني: يقولون: الثَّوابُ هو الخَيْرُ الذي يوصلُ إلى العالمِ^(٢) على سبيلِ التَّعْظِيمِ، احْتَرَزُوا بِهِ عن الاستدراج، فقوله: ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ كالتَّكْمِيلِ للكلامِ السَّابِقِ، والظَّاهِرُ أَنَّهُ كالتَّنْذِيلِ.

قوله: (ويقال للزُّجاجة فيها الخمر: كأس)، الجوهري: الكأسُ: مؤنثة، قال اللهُ تعالى: ﴿يَكْأَسِ مِن مَّعِينٍ * بَيْضَاءَ﴾.

وَأَنشَدَ الْأَصْمَعِيُّ:

مَنْ لَا يَمُتُ عَبْطَةً يَمُتُ هَرَمًا الموت كأسٌ والمرءُ ذائقها^(٣)

قال ابنُ الأعرابي: لا يسمَّى الكأسُ كأساً إلا وفيها الشَّرَابُ. يُقال: ماتَ فلانٌ عَبْطَةً، أي: صحيحاً شاباً؛ بالبَاءِ المُوَحَّدَةِ والعَيْنِ المَهْمَلَةِ.

قوله: (وكأسٍ شَرِبْتُ على لَدَّةٍ)، تمامُهُ للأعشى:

وأخرى تداوَيْتُ منها بها

وبعده:

(١) في (ح): «مَقُولٌ لقوله».

(٢) في (ط): «العامل».

(٣) سبق تخريجه.

وعن الأخفش: كلُّ كأسٍ في القرآن فهي الخمر، وكذا في تفسير ابن عباس. ﴿مَنْ مَعِينٍ﴾: من شرابٍ معين. أو: من نهرٍ معين؛ وهو الجاري على وجه الأرض، الظاهر للعيون، ووصفَ بما يوصف به الماء؛ لأنه يجري في الجنة في أنهارٍ كما يجري الماء، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْهَرْنَا مِنْ حَمْرٍ﴾ [محمد: ١٥].

﴿بَيْضَاءَ﴾: صفةٌ للكأس، ﴿لَذَّةٌ﴾ إما أن توصفَ باللذة كأنها نفسُ اللذة وعينها؛ أو هي تأنيتُ اللذة، يقال: لذَّ الشيءُ فهو لذٌّ ولذيدٌ، ووزنه: فَعِل، كقولك: رَجُلٌ طَبَّ، قال:

وَلَذٌّ كَطَعْمِ الصَّرْحَدِيِّ تَرَكَتُهُ
بَارِضِ الْعِدَايِ مِنْ حَخْشِيَةِ الْحَدَثَانِ

يريدُ النوم. الغول: من غاله يَغُولُه غولاً؛ إذا أهلكه وأفسده. ومنه: الغول الذي في تكاذيب العرب. وفي أمثالهم: الغضبُ غولُ الحلم. و﴿يَنْزَفُونَ﴾ على البناء

لِكَيْ يَعْلَمَ النَّاسُ أَنِّي أَمْرٌ
أَتَيْتُ الْمَعِيشَةَ مِنْ بَابِهَا^(١)

يقول: رَبُّ كَأْسٍ شَرِبْتُ لَطَلَبِ اللَّذَّةِ وَكَأْسٍ شَرِبْتُ لِلتَّداوِي مِنْ خَمَارِهَا.

قوله: (وُصِفَ بِمَا يَوْصَفُ بِهِ الْمَاءُ)، قَالَ الْقَاضِي: وَذَلِكَ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ مَا يَكُونُ لَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الشَّرَابِ جَامِعٌ لِمَا يُطَلَّبُ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَشْرِبَةِ؛ لِكِمَالِ اللَّذَّةِ^(٢).

قوله: (الصَّرْحَدِيُّ) أَي: الشَّرَابِ الْمُنْسُوبِ إِلَى الصَّرْحَدِ، وَهُوَ مَوْضِعٌ بِالشَّامِ.

قوله: (يَرِيدُ النَّوْمَ)، الْأَسَاسُ: لَذَّ الشَّيْءُ لَذَّةً وَلَذَاذَةً وَالتَّدَّ التَّدَاذًا، وَشَيْءٌ لَذٌّ وَلَذِيدٌ، وَهُوَ فِي لَذٍّ مِنَ الْعَيْشِ، وَلَهُ عَيْشٌ لَذٌّ. وَأَنْشَدَ الْبَيْتَ.

قوله: (الغضبُ غولُ الحلم)، أَي الْعَقْلُ، قَالَ الْمِيدَانِيُّ: أَي مُهْلِكُهُ، وَيُقَالُ: آيَةُ غَوْلٍ

(١) سبق تخريجه.

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ١٠).

للمفعول، مِنْ: نُزِفَ الشَّارِبُ؛ إِذَا ذَهَبَ عَقْلُهُ. وَيُقَالُ لِلسَّكَرَانِ: نَزِيفٌ وَمَنْزُوفٌ. وَيُقَالُ لِلْمَطْعُونِ: نُزِفَ فَمَاتَ؛ إِذَا خَرَجَ دَمُهُ كُلَّهُ. وَنَزَحَتُ الرَّكِيَّةَ حَتَّى نَزَفْتُهَا؛ إِذَا لَمْ تَرَكَ فِيهَا مَاءً. وَفِي أَمْثَالِهِمْ: أَجِبْنُ مِنَ الْمَنْزُوفِ ضَرَطًا.

وَقُرِئَ: (يُنْزِفُونَ)؛ مِنْ: أَنْزَفَ الشَّارِبَ؛ إِذَا ذَهَبَ عَقْلُهُ أَوْ شَرِبَهُ. قَالَ:

أَعُولُ مِنَ الْغَضَبِ؟ وَكُلُّ مَا اغْتَالَ الْإِنْسَانَ فَأَهْلَكَهُ فَهُوَ عُولٌ^(١).

قَوْلُهُ: (أَجِبْنُ مِنَ الْمَنْزُوفِ)^(٢) ضَرَطًا، وَقَالَ فِي «الْمُسْتَقْصَى»: وَقِيلَ: سَافَرَ رَجُلَانِ فَلَاحَتْ لِهَما شَجَرَةٌ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَرَى قَوْمًا رَصَدُونَا، وَقَالَ الْآخَرُ: إِنَّمَا هِيَ عُسْرَةٌ^(٣)، فَظَنَّهُ يَقُولُ: عُسْرَةٌ، فَجَعَلَ يَقُولُ: وَمَا غَنَاءُ اثْنَيْنِ فِي عُسْرَةٍ وَيَضْرِبُ حَتَّى مَاتَ^(٤). وَقِيلَ: هُوَ دَابَّةٌ بَيْنَ الْكَلْبِ وَالذَّنْبِ إِذَا صَبَحَ بِهَا أَخَذَهَا الضَّرَاطُ مِنَ الْجِبِينِ.

العُسْرَةُ: اسْمُ شَجَرَةٍ. وَقَالَ الْمِيدَانِيُّ: وَمِنْ حَدِيثِهِ: أَنَّ نِسْوَةً مِنَ الْعَرَبِ لَمْ يَكُنْ لهنَّ رَجُلٌ، فَزَوَّجْنَ إِحْدَاهُنَّ رَجُلًا كَانَ يَنَامُ الضُّحَى، فَإِذَا أَتَيْتَهُ بِصَبُوحٍ، فَيَقُولُ لهنَّ: لَوْ نَبَّهْتُنِّي لَعَادِيَةٌ^(٥)؟ فَلَمَّا رَأَيْنَ ذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُنَّ لِبَعْضٍ: إِنَّ صَاحِبَنَا لَشَجَاعٌ، فَتَعَالَيْنِ حَتَّى نُجَرِّبَهُ، فَأَتَيْنَهُ كَمَا كُنَّ يَأْتِيَنَّهُ فَأَيَقَطَّنَهُ، فَقَالَ: لَوْ لَعَادِيَةٌ نَبَّهْتُنِّي؟ فَقُلْنَ: هَذِهِ نَوَاصِي الْخَيْلِ، فَجَعَلَ يَقُولُ: الْخَيْلُ الْخَيْلُ، وَيَضْرِبُ حَتَّى مَاتَ^(٦).

قَوْلُهُ: (وَقُرِئَ: «يُنْزِفُونَ»)^(٧) قَرَأَهَا حَمْرَةُ وَالْكِسَائِيُّ.

(١) «مجمع الأمثال» (٢: ٦١).

(٢) فِي (ح): «المعروف».

(٣) فِي (ف): «عُسْرَةٌ» بِالْعَيْنِ الْمَفْتُوحَةِ وَالنَّاءِ السَّاكِنَةِ، وَهُوَ تَصْحِيفٌ، وَفِي (ط): عُسْرَةٌ، وَالْعُسْرَةُ: بَضْمٌ الْعَيْنِ وَفَتْحُ الشَّيْنِ؛ هِيَ شَجَرَةٌ لَهَا صَنْعٌ، وَهُوَ مِنَ الْعَضَاءِ. انْتَهَى مِنَ «الصَّحَاحِ» (عشر).

(٤) «المستقصى فِي أمثال العرب» (١: ٤٣).

(٥) يَعْنِي خَيْلَ الْأَعْدَاءِ الْمُغِيرَةِ فِي الصَّبَاحِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْمُعْدِيَاتِ صَبِيحًا * وَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ [العاديات:

[٢-١].

(٦) «مجمع الأمثال» (١: ١٨٠).

(٧) وَلِتَهَامِ الْفَائِدَةُ انْظُرْ: «حِجَّةُ الْقَرَاءَاتِ» ص ٦٠٨.

لَعَمْرِي لَيْتُنْ أَنْزَفْتُمْ أَوْ صَحَوْتُمْ لَيْسَ النَّدَامَى كُنْتُمْ آلَ أَبَجْرَا

ومعناه: صارَ ذا نَزْفٍ، ونظيره: أَقْسَعَ السَّحَابِ، وقشَعته الرِّيحُ، وأكَبَّ الرَّجُلُ وكَبَيْتُهُ، وحقِيقَتُها: دَخَلَا فِي القَشْعِ والكَبِّ. وفي قراءة طَلْحَةَ بِنِ مَصْرَفٍ: (يَنْزِفُونَ) بضم الزاي، مِنْ: نَزَفَ يَنْزِفُ، كَقَرَّبَ يَقْرُبُ؛ إِذَا سَكِرَ.

والمعنى: لا فيها فسادٌ قطُّ من أنواع الفساد التي تكون في شرب الخمر؛ من مَغْصٍ، أو صُدَاعٍ، أو حُمَارٍ، أو عَرَبْدَةٍ، أو لَغْوٍ، أو تَأْتِيمٍ، أو غير ذلك، ولا هُمْ يَسْكُرُونَ، وهو أعظمُ مفسادها فأفرزَه وأفرده بالذِّكْر. ﴿قَلَصِرْتُ الطَّرْفِ﴾: قَصَرْنَ أَبْصَارَهُنَّ عَلَى أزْوَاجِهِنَّ، لا يمدُّنَ طَرْفًا إِلَى غيرهم، كقوله تعالى: ﴿عُرْيًا﴾ [الواقعة: ٣٧]. والعين:

قوله: (لَعَمْرِي) البيت، يُخَاطَبُ آلَ أَبَجْرَا، ويقول: بئسَ النَّدَامَى أنتم سكارى أو صاحين. قال الزَّجَّاج: الشَّعْرُ لِلأَبْيَرِدِ اليزْبوعِي^(١)، وَأَبَجْرَا: هُوَ الحَرْبِيُّ جَابِر العِجْلِيُّ، وَأَنْزَفْتُمْ: نَفَدَ شَرَابِكُمْ وَفَنِي، وَيُرْوَى: أَوْ سَكِرْتُمْ.

قوله: (لا فيها فسادٌ قطُّ) معنى قوله: «لا فيها عَوَلٌ ولا هم يسكرون»: معنى ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يَنْزِفُونَ﴾، فيكونُ من عَطْفِ الخَاصِّ عَلَى العامِّ، وَلِذَلِكَ قال: «وهو أعظمُ مفسادها فأفرزَه».

قوله: (مِنْ مَغْصٍ)، الجَوْهَرِيُّ: المَغْصُ - بالتَّسْكِينِ -: تَقَطُّعٌ فِي المَعَى وَوَجَعٌ، وَالعَامَّةُ تقول: مَغْصٌ؛ بالتَّحْرِيكِ.

قوله: (أَوْ عَرَبْدَةٍ) قال: عَرَبْدَةٌ عَلَيْهِ: إِذَا أَسَاءَ إِلَيْهِ، وَلَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي السُّكَارَى، مُسْتَقْتٌ مِنَ العَرَبِيدِ، وَهِيَ حَيَّةٌ تَنْفُخُ وَلَا تُؤْذِي.

قوله: (أَوْ تَأْتِيمٍ) أَي: نِسْبَةُ الرَّجُلِ إِلَى الإِثْمِ.

قوله: (كقوله تعالى: ﴿عُرْيًا﴾ [الواقعة: ٣٧]) قال: هُوَ جَمْعُ عَرُوبٍ، وَهِيَ المَتَحَبِّبَةُ إِلَى رُؤُوسِهَا الحَسَنَةُ التَّبَعْلُ.

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٠٣-٣٠٤).

النَّجْلِ الْعَيُونِ، شَبَّهَهُنَّ بَبَيْضِ النَّعَامِ الْمَكُونِ فِي الْأَدَاحِي، وَبِهَا تُشَبَّهُ الْعَرَبُ النِّسَاءَ وَتَسْمِيَهُنَّ بَبَيْضَاتِ الْخُدُورِ.

[﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسَاءَ لَوْنَ ﴾ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدَّتْ لَتُرْدِينَ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿ ٥٠-٥٧ ﴾ .]

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾؟ قلت: على ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾، والمعنى: يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشُّرب، قال:

قوله: (في الأداحي)، الجوهري: مذحى النعام: موضع يبضها، وأدحيتها: موضعها الذي تُفَرِّخُ فيه، وهو أفعولٌ من دَحَوْتُ؛ لأنها تدحوه برجلها ثم تبيض، وليس للنعام عُشٌّ. قال صاحبُ «المطلع»: شَبَّهَهُنَّ بَبَيْضِ النَّعَامِ الْمَكُونِ فِي الْأَدَاحِيِّ الَّتِي لَا يُصَيِّبُهَا شَمْسٌ وَلَا رِيحٌ وَلَا عُبَارٌ فَيُغَيِّرُ لَوْنَهَا^(١). وقال: ألوانهنَّ ألوان ببيض النعام. ويجوز أن يكون ﴿ مَكُونٌ ﴾ مصون، يقال: كُنْتُ الشَّيْءَ؛ إِذَا سَرَّتُّهُ وَصُنَّتُهُ، فهو مكنون.

قوله: (فيتحادثون على الشراب كعادة الشُّرب)، الجوهري: الشُّرب: جمعُ شارب، مثل: صاحبٌ وصَحْبٌ.

واعلم أنه لما قيل: ﴿ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴾ وجيء بالأخبار المتواليّة، أو لها: ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾، وثانيها: ﴿ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾، وثالثها: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾، وعلق بـ ﴿ يُطَافُ ﴾ قوله: ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصْرَاتُ الْطَّرْفِ عِينٌ ﴾ تكميلاً للذّة الشُّرابِ بلذّة الحسانِ الوجوه، وأريد تميمٌ معنى تلك النعمة التي في خلدِهِم تذكّر ما كانوا عليه في الدنيا مع القرينِ السوء الذي كاد أن يُفَوّتَ عليهم هذا النعيمِ المُقيم؛ ليزيد غيبتَهُم وتبجّحَهُم، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ قال أبو البقاء: في جنّات^(٢).

(١) من قوله: «وليس للنعام عُشٌّ» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) من قوله: «قال أبو البقاء» إلى هنا سقط من (ط).

وما بَقِيَتْ مِنَ اللَّذَاتِ إِلَّا أَحَادِيثُ الْكِرَامِ عَلَى الْمُدَامِ

فَيُقْبَلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿يَسَاءَ لُونٌ﴾ عَمَّا جَرَى لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا، إِلَّا أَنَّهُ جِيءَ بِهِ مَاضِيًا عَلَى عَادَةِ اللَّهِ فِي أَحْبَارِهِ. وَقُرِيَ: ﴿لَيْنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ مِنَ التَّصَدِيقِ، وَ(مِنَ الْمُصَدِّقِينَ) مُشَدَّدُ الصَّادِ، مِنَ التَّصَدُّقِ.

وقيل: نزلت في رجل تصدق بماله لوجه الله، فاحتاج فاستجدي بعض إخوانه؛ فقال: وأين مالك؟ قال: تصدقتُ به ليعوّضني الله به في الآخرة خيراً منه، فقال: أئنك لمن المصدقين بيوم الدين؟ أو من المتصدقين لطلب الثواب؟ والله لا أعطيك شيئاً. ﴿لَمَدِينُونَ﴾: لمجزئون، من الدين؛ وهو الجزاء. أو: لمسوسون مرؤوبون. يقال:

قوله: (وقرئ: ﴿لَيْنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾) بتشديد الدال: المشهورة، وتشديد الصاد والدال: شاذة، قال الزجاج: المُصَدِّقِينَ، خفيفةُ الصاد، من: صَدَقْتُ فَأَنَا مُصَدِّقٌ، ولا يجوزُ بتشديدها؛ لأنَّ المُصَدِّقِينَ الَّذِينَ يُعْطُونَ الصَّدَقَةَ، وَالْمُصَدِّقِينَ الَّذِينَ لَا يُكْذِبُونَ^(١). يريدُ: أن معنى التصدُّق غيرُ مناسبٍ لقوله: ﴿أَيُّدَا مِنَّا وَكُنَّا نَرَابًا﴾ بل هو مناسبٌ للتصديق وملائمٌ له، فالمعنى: كان لي قرينٌ يقول: إِنَّكَ مَن يُصَدِّقُ بِالْبَعْثِ بَعْدَ أَنْ يُصِيرَ تَرَابًا وَعِظَامًا، فَأَحَبُّ قَرِينُهُ الْمُسْلِمُ أَنْ يَرَاهُ بَعْدَ أَنْ قِيلَ لَهُ: ﴿هَلْ أَشْرُمُظْلِعُونَ﴾ أي: هل تُحِبُّونَ أَنْ تَطَّلِعُوا فَتَعْلَمُوا أَيْنَ مَنْزِلَتِكُمْ مِنْ مَنْزِلَةِ أَهْلِ النَّارِ؟ فَاطَّلَعَ الْمُسْلِمُ فَرَأَى قَرِينَهُ الَّذِي كَانَ يُكْذِبُ بِالْبَعْثِ فِي وَسْطِ الْجَحِيمِ.

قلت: هذا تقريرٌ حسنٌ ملائمٌ للنظم، ويُؤَيِّدُهُ ما رواه محيي السُّنَّةِ: هُمَا اللَّذَانِ قَصَّ اللَّهُ خَبْرَهُمَا فِي الْكَهْفِ ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢] يقول: أئنك لمن المُصَدِّقِينَ بِالْبَعْثِ^(٢)؟

قوله: (فاستجدي) أي استعطى، الجوهرِي: الجَدَا: العَطِيَّةُ، والجدوى: مثله.

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٠٤).

(٢) «معالم التنزيل» (٧: ٤١).

دأته: سأسه، ومنه الحديث: «العاقل من دان نفسه».

﴿قَالَ﴾ يعني ذلك القائل: ﴿هَلْ أَنتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ إلى النار لأريكم ذلك القرين. قيل: إن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى أهل النار. وقيل: القائل هو الله عز وجل. وقيل: بعض الملائكة يقول لأهل الجنة: هل تحبون أن تطَّلِعُوا فتَعَلَّمُوا أين منزلتكم من منزلة أهل النار؟ وقرئ: ﴿مُطَّلِعُونَ﴾ * فَأَطَّلَعَ، و﴿فَأَطَّلَعَ﴾ بالتشديد، على لفظ الماضي والمضارع المنصوب؛ و﴿مُطَّلِعُونَ فَأَطَّلَعَ﴾، و﴿فَأَطَّلَعَ﴾ بالتخفيف على لفظ الماضي والمضارع المنصوب، يقال: طَلَعَ علينا فلان، واطَّلَعَ وأطَّلَعَ بمعنى واحد، والمعنى: هل أنتم مُطَّلِعُونَ إلى القرين فأطَّلَعَ أنا أيضاً؟ أو عُرض عليهم الاطَّلَاعُ فاعترضوه، فأطَّلَعَ هو بعد ذلك.

قوله: (ومنهُ الحديث: «العاقل من دان نفسه») والحديث من رواية الترمذي عن شداد عن رسول الله ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله المغفرة»^(١).

دان نفسه: حاسبها في الدنيا قبل أن تحاسب يوم القيامة.

قوله: (يعني ذلك القائل) وهو المذكور في قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أي: قرين في الدنيا ينكر الحشر، ﴿هَلْ أَنتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ لأريكم ذلك القرين؟ وقال الواحدي ومحيي السنة: قال المؤمن لإخوانه في الجنة: هل أنتم مُطَّلِعُونَ إلى النار لتنظروا كيف منزلة أخي؟ فقال أهل الجنة: إنك أعرف به منا فأطَّلَعَ أنت، فأطَّلَعَ فرأى أخاه في وسط الجحيم^(٢).

قوله: (والمعنى) أي: على أن «اطَّلَعَ» و«أَطَّلَعَ» بمعنى واحد، فقوله: «هل أنتم مُطَّلِعُونَ إلى القرين فأطَّلَعَ أنا أيضاً»، هذا على أن يكون «أَطَّلَعَ» مضارعاً جواباً للاستفهام، نحو قوله تعالى: ﴿فَهَلْ لَنَا مِن شُعْمَاءَ فَيَسْفَعُونا لَنَا﴾ [الأعراف: ٥٣].

قوله: (أو عُرض عليهم الاطَّلَاعُ فاعترضوه)، هذا على أن يكون «اطَّلَعَ» ماضياً

(١) سبق تخريجه.

(٢) التفسير الوسيط للواحدي (٣: ٥٢٦) و«معالم التنزيل» (٧: ٤١).

وإن جعلت الإطلاع من: أطلعه غيره، فالمعنى: أنه لما شرط في إطلاعه إطلاعهم، وهو من آداب المجالسة؛ أن لا يستبد بشيء دون جلسائه - فكأنهم مُطَّلِعوه. وقيل: الخطاب على هذا للملائكة. وقرئ: (مُطَّلِعون) بكسر النون، أراد: مُطَّلِعُونَ إِيَّاي؛

﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ بمعنى الأمر، نحو قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ [المائدة: ٩١]؛ ولذلك قال: فاعترضوه، أي: فامتثلوا أمره. و«اعترض» مطاوع «عرض»، أي قبلوا عرضه وقالوا: نعم. فالفاء في ﴿فَأَطَّلَع﴾ فصيحة؛ لأن «فاعترضوه» سبب لقوله: فأطلع، كقوله: ﴿أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠].

وَيَنْصُرُهُ مَا رَوَيْنَا عَنِ الْوَاحِدِيِّ: «فَأَطَّلَعِ أَنْتَ، فَأَطَّلَعِ فَرَأَى أَحَاهُ»، بالأمر والماضي.

قوله: (وإن جعلت الإطلاع من: أطلعه) معطوف على قوله: «وأطلع وأطلع بمعنى واحد»، أي لك أن تجعل قراءة من قرأ «مُطَّلِعُونَ» من: أطلعه^(١) غيره فأطلع هو، فالمعنى: فهل أنتم مُطَّلِعُونَ إِيَّاي على حال ذلك القرين فأطلع أنا؟ يعني انظروا إلى حاله حتى أنظر إليه، فإن نظري إليه متوقف على نظركم. وإليه الإشارة بقوله: «إنه لما شرط في إطلاعهم إطلاعهم يقول هذا بعضهم لبعض»، بدليل قوله: «وهو من آداب المجالسة أن لا يستبد بشيء دون جلسائه».

قوله: (فكأنهم مُطَّلِعوه) جزاء «لما»، وما توسط بينهما اعتراض. وهذا المعنى يشتمل على التقديرين: الماضي والمضارع. ولا يجوز أن يكون القائل الله تعالى ولا الملائكة، نعم يجوز أن يكون الخطاب للملائكة، فيقول: هل أنتم يا ملائكة الله مُطَّلِعِيَّ على حال قريني فأطلع أنا عليها؟ أي: أطلعوني قريني أيها الملائكة لأطلع أنا قرنائي من أهل الجنة.

قوله: (وقرئ «مُطَّلِعون» بكسر النون). قال أبو البقاء: وهو بعيد جداً؛ لأن النون إن كانت للوقاية فلا تلحق بالأسماء، وإن كانت للجمع فلا تثبت في الإضافة^(٢).

(١) من قوله: «معطوف على قوله» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١٠٩٠).

فوضع المتصل موضع المنفصل، كقوله:

هُمُ الْفَاعِلُونَ الْخَيْرَ وَالْأَمْرُونَ

أو شبه اسم الفاعل في ذلك بالمضارع لتآخ بينهما، كأنه قال: تُطْلِعُونَ، وهو ضعيفٌ لا يقع إلا في الشعر. ﴿فِي سَوَاءٍ الْجَحِيرِ﴾: في وسطها، يقال: تَعَبْتُ حَتَّى انْقَطَعَ سَوَائِي، وعن أبي عبيدة: قال لي عيسى بنُ عمر: كُنْتُ أَكْتُبُ - يَا أَبَا عُبَيْدَةَ -

وَقَالَ الرَّجَاجُ: فَهُوَ شَاذٌ بِالْإِجْمَاعِ، وَلَهُ وَجْهٌ ضَعِيفٌ، وَقَدْ جَاءَ فِي الشَّعْرِ:

هُمُ الْفَاعِلُونَ الْخَيْرَ وَالْأَمْرُونَ إِذَا مَا خَشَوْا مِنْ مُحَدَّثِ الْأَمْرِ مُعْظَمًا

وكلُّ أسماءِ الفاعلين إذا ذَكَرْتَ بعدها الْمُضْمَرَ لم تَذْكُرِ النُّونَ ولا التَّنوينَ، تقول: زَيْدٌ ضَارِبِي، وهما ضارباك، وهُم ضاربوك، ولا يجوزُ هو ضارِبِي، ولا هم ضارِبُونَكَ إلا في الشعر؛ إلا أَنَّهُ قد قُرئ: «مُطْلِعُونَ» على: مُطْلِعُونِي، فَحَذَفَ الياءَ كما تُحذفُ في رُوءِ سِ الْآيِ، وَبَقِيَتِ الكسرةُ دليلاً عليها. وَأَجْرَدُ القِراءةِ وَأَكْثَرُها: ﴿مُطْلِعُونَ﴾؛ بِتَشْدِيدِ الطَّاءِ وَفَتْحِ النُّونِ، وَيْلِيهِ: «مُطْلِعُونَ» بِالتَّخْفِيفِ وَالفَتْحِ^(١).

قوله: (حتى انقطع سوائي) أي وسطي وهو الظاهر.

الرَّاعِبُ: سَوَاءٌ: وَسَطٌ، وَقِيلَ: سَوَاءٌ وَسَوَى. قَالَ تَعَالَى: ﴿مَكَانًا سَوَى﴾ [طه: ٥٨] أَي: يَسْتَوِي طَرَفَاهُ، وَيُسْتَعْمَلُ ذَلِكَ وَصْفًا وَظَرْفًا، وَأَصْلُ ذَلِكَ مَصْدَرٌ. وَالشَّيْءُ الْمَسَاوِي، كَعَدَلٍ وَمُعَادِلٍ وَقَتْلِ وَمُقَاتَلِ، تَقُولُ: سَيَّانٍ زَيْدٌ وَعَمْرُو، وَأَسْوَأُ: جَمْعُ سَيِّ: كَنَقْضِ وَأَنْقَاضِ، يُقَالُ: قَوْمٌ أَسْوَاءٌ، وَالْمَسَاوَةُ مُتَعَارَفَةٌ فِي الْمَثْمَنَاتِ^(٢)، يُقَالُ: هَذَا الثَّوبُ يَسَاوِي كَذَا، وَأَصْلُهُ سَاوَاهُ فِي الْقَدْرِ^(٣).

قوله: (يا أبا عبيدة) قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّ كَانَتِ الْهَمْزَةُ بَعْدَ حَرْفِ النِّدَاءِ هَمْزَةً قَطَعَ أَسْقَطَتْ

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٠٥).

(٢) في (ح) و(ف): «الثياب».

(٣) «مفردات القرآن» ص ٤٤٠-٤٤١.

حتى ينقطع سوائِي. ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة، وهي تدخل على «كاد» كما تدخل على «كان»، ونحوه ﴿إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا﴾ [الفرقان: ٤٢]، واللأم هي الفارقة بينها وبين النافية. والإزداء: الإهلاك. وفي قراءة عبد الله: (لَتَغْوِينَ). ﴿نِعْمَةٌ رَّبِّي﴾ هي العصمة والتوفيق في الاستمساك بعروة الإسلام، والبراءة من قرين السوء، أو: إنعام الله بالشواب، وكونه من أهل الجنة. ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ مِنَ الَّذِينَ أُحْضِرُوا الْعَذَابَ كَمَا أُحْضِرْتَهُ أَنْتَ وَأَمْثَالُكَ.

[﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَعْتَبَرِينَ﴾ * إِلَّا مَوْلَانَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ٥٨-٥٩]

الذي عطف عليه الفاء محذوف، معناه: نحنُ مخلدون متعمون، فما نحنُ بمبيّنين ولا معذّبين. وقرئ: (ببائيتين)، والمعنى: أنّ هذه حال المؤمنين وصفتهم وما قضى الله

الألف وأثبت الهمزة، وإن كانت الهمزة همزة وصلٍ أسقطت الهمزة وأثبتت الألف، كقولك: يا ابني.

قوله: ﴿نِعْمَةٌ رَّبِّي﴾ هي العِصْمَةُ إلى آخر ما قدر؛ لأنها لما كانت مُطْلَقَةً قُيِّدَتْ بِحَسَبِ اقْتِضَاءِ الْمَقَامِ بِهَا ذَكَرَ.

قوله: ﴿أَنَحْنُ مُخْلَدُونَ مُنَعَمُونَ﴾ هي الجملة المقدّرة بعد الهمزة التي عطف عليها: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَعْتَبَرِينَ﴾، والهمزة للتقرير، وهو مقول آخر للمؤمن على سبيل الاحتياط^(١) والابتهاج، فإن تذكر الخلود في الجنة لذةٌ دونها كل لذة، وفي عكسه أشد المتنبّي:

أشدُّ الغمِّ عندي في سرورٍ تيقن عنه صاحبه انتقالاً^(٢)

قوله: (وما قضى الله) عطف تفسيري على حالهم، و«أن لا يدوق» مفعول «قضى»، وقوله: «للعلم بأعمالهم» اعتراض أتى به بياناً لمذهبه.

(١) في (ح): «الاحتياط».

(٢) «ديوان المتنبّي» بشرح الواحدي (١: ١١١).

به لهم - للعلم بأعمالهم - أن لا يذوقوا إلا الموتة الأولى، بخلاف الكفار، فإنهم فيما يتمنون فيه الموت كل ساعة، وقيل لبعض الحكماء: ما شر من الموت؟ قال: الذي يُتمنى فيه الموت.

[﴿ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ * لِئَلْ يَسْتَعْمَلَ الْعَمَلُونَ ﴿ ٦٠-٦١ ﴾]

يقوله المؤمنُ تحدثاً بنعمة الله واغتياباً بحاله وبمسمع من قرينه، ليكون توبيخاً له يزيد به تعذُّباً، وليحكيه الله فيكون لنا لطفاً وزاجراً. ويجوز أن يكون قولهم جميعاً، وكذلك قوله: ﴿ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أي: إن هذا الأمر الذي نحن فيه. وقيل: هو من قول الله عزَّ وعلا تقريراً لقولهم وتصديقاً له. وقرئ: (هو الرزق العظيم)، وهو ما رزقوه من السعادة.

[﴿ أذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَبَّارِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا الْبَاطُونَ ﴾]

قوله: (وليحكيه الله) عطف على «ليكون»، يريد: أن هذا القول معروف معلوم ما أتى للإعلام بل للاغتياب والتحدث بنعمة الله تعالى توبيخاً ولطفاً.

قوله: (ويجوز أن يكون قولهم جميعاً) أي: المؤمن وأصحابه، وهو عطف على قوله: «يقوله المؤمن»، والمعنى: لما فرغ القرين من توبيخ قرينه^(١).

وذكر عصمة الله له من تلك الورطة حمداً لله تعالى أتبع ذلك هو ومن صحبه من عباد الله المخلصين اغتياباً وتحدثاً بنعمة الله.

قوله: (وقيل: هو من قول الله) أي قوله: ﴿ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ * لِئَلْ يَسْتَعْمَلَ الْعَمَلُونَ ﴿ وعلى الوجهين السابقين كان من قول المؤمن أو المؤمنين^(٢).

(١) في (ف) و(ط): «القرين».

(٢) هذه الفقرة وردت في الأصول الخطية بعد الفقرة التالية، وقدّمها مراعاة لترتيب الكلام في «الكشاف».

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ * إِنَّهُمْ أَلْفَاءُ آبَاءِ مُرْسَلِينَ *
فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٦٢-٧٠﴾.

تَمَّتْ قِصَّةُ الْمُؤْمِنِ وَقَرِينِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى ذِكْرِ الرَّزْقِ الْمَعْلُومِ فَقَالَ: ﴿أَذَلَّكَ﴾ الرزقُ ﴿خَيْرٌ نُزْلًا﴾ أي: خير حاصلاً ﴿أَمْ شَجَرَةُ الرَّقُومِ﴾؟ وأصل النُّزْلُ: الفضل والرَّيْعُ في الطَّعامِ، يقال: طعامٌ كثيرُ النَّزْلِ، فاستُعيرَ للحاصل من الشيء، وحاصلُ الرزقِ المعلوم: اللدَّةُ والسُّرورُ، وحاصلُ شجرةِ الرُّقُومِ: الأُمُّ والغَمُّ. وانتصابُ ﴿نُزْلًا﴾ على التَّمييزِ، ولك أن تجعله حالاً، كما تقول: أثمرت النخلة خيراً بلحاً أم رطباً؟ يعني:

قوله: (تَمَّتْ قِصَّةُ الْمُؤْمِنِ وَقَرِينِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى ذِكْرِ الرَّزْقِ الْمَعْلُومِ) هذا بيانٌ لِنَظْمِ الآيِ، وفيه أن قِصَّةَ الْمُؤْمِنِ ذُكِرَتْ مُسْتَطَرَدَّةً بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ الْمُتَّصِلِينَ مَعْنَى، وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ رِزْقَ أَهْلِ الْكِرَامَةِ، وَمِنْ كِرَامَتِهِمْ أَنَّهُمْ عَلَى سُرْرِ مُتْقَابِلِينَ، وَاتَّصَلَ بِهِ قَوْلُهُ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وَاسْتَوْفَى الْقِصَّةَ أَقْبَلَ إِلَى ذِكْرِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ وَتَهَكَّمَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نُزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الرَّقُومِ﴾.

قوله: (وَأَصْلُ النَّزْلِ: الْفَضْلُ وَالرَّيْعُ)، الْمَغْرِبُ: وَمِنْهُ قَوْلُهُ: الْعَسَلُ لَيْسَ مِنْ أَنْزَالِ الْأَرْضِ، أَي: مِنْ رَيْعِهَا وَمَا يَحْصُلُ مِنْهَا. وَعَنِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا يَجِبُ فِيهِ الْعُسْرُ^(١)، لِأَنَّهُ نُزْلٌ طَائِرٌ^(٢).

قوله: (أثمرت النخلة خيراً بلحاً أم رطباً؟) فَإِنْ قُلْتَ: الْمَثَلُ غَيْرُ مُطَابِقٍ لِلآيَةِ؛ لِأَنَّ السُّؤَالَ عَنْ حَالِ الثَّمَرَةِ لَا نَفْسَهَا، وَفِي الْآيَةِ السُّؤَالُ عَنِ الرَّزْقِ الْمَعْلُومِ وَعَنْ شَجَرَةِ الرَّقُومِ، قُلْتَ: لَيْسَ السُّؤَالُ عَنِ الرَّزْقِ وَالشَّجَرَةِ نَفْسِهَا بَلْ عَنْ حَالِهَا، أَلَا تَرَى كَيْفَ قَالَ: «فَأَيُّهَا خَيْرٌ فِي كَوْنِهِ نُزْلًا؟». نَعَمْ فِيهِ اخْتِلَافٌ مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْمَثَالَ فِيهِ سَوْأَلٌ عَنِ حَالَتِي شَيْءٍ وَاحِدٍ، وَالْآيَةُ هُنَا^(٣) سَوْأَلٌ عَنْ حَالَةٍ وَاحِدَةٍ لِشَيْئَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، وَهَذَا لَا يَضُرُّ فِي الْإِسْتِشْهَادِ.

(١) فِي (ف): «العسل»، وهو على الجاذبة في «المغرب». وانظر في مذهب الشافعي في المسألة «روضة الطالبين» (٢: ٢٣٢).

(٢) «المغرب في ترتيب المغرب» (٢: ٢٩٧).

(٣) فِي (ف) وَ(ط): «فيها».

أَنَّ الرِّزْقَ الْمَعْلُومَ نُزِّلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ، وَأَهْلَ النَّارِ نُزِّلَهُمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ، فَأَيُّهَا خَيْرٌ فِي كَوْنِهِ نُزْلًا؟ وَالنُّزْلُ: مَا يُقَامُ لِلنَّازِلِ بِالْمَكَانِ مِنَ الرِّزْقِ. وَمِنْهُ: أَنْزَلَ الْجُنْدَ؛ لِأَرْزَاقِهِمْ، كَمَا يُقَالُ لِمَا يُقَامُ لِسَاكِنِ الدَّارِ: السُّكْنُ.

وَمَعْنَى الْأَوَّلِ: أَنَّ لِلرِّزْقِ الْمَعْلُومِ نُزْلًا، وَلِشَجَرِ الزَّقُومِ نُزْلًا، فَأَيُّهَا خَيْرٌ نُزْلًا؟ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي شَجَرَةِ الزَّقُومِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا اخْتَارُوا مَا آدَى إِلَى الرِّزْقِ الْمَعْلُومِ، وَاخْتَارَ الْكَافِرُونَ مَا آدَى إِلَى شَجَرَةِ الزَّقُومِ؛ قِيلَ لَهُمْ ذَلِكَ تَوْبِيخًا عَلَى سُوءِ اخْتِيَارِهِمْ، ﴿فَتَنَّةٌ لِّلظَّالِمِينَ﴾: مَحَنَةٌ وَعَذَابٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ. أَوْ ابْتِلَاءٌ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا: كَيْفَ يَكُونُ فِي النَّارِ شَجَرَةٌ وَالنَّارُ تَحْرَقُ الشَّجَرَ؛ فَكُذِّبُوا. وَقُرئ: (نَابِتَةٌ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ)، قِيلَ: مِنْبَتُهَا فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ، وَأَغْصَانُهَا تَرْتَفِعُ إِلَى دَرَكَاتِهَا. وَالطَّلْعُ لِلنَّخْلَةِ، فَاسْتَعِيرَ لِمَا طَلَعَ مِنْ شَجَرَةِ الزَّقُومِ مِنْ حَمْلِهَا،

الجوهري: البَلْحُ: قَبْلَ البُسْرِ، وَالوَاحِدَةُ: بِلْحَةٍ، أَوَّلُ التَّمْرِ طَلَعُ ثُمَّ خَلَّالٌ ثُمَّ بَلَحَ ثُمَّ بُسْرٌ ثُمَّ رُطْبٌ ثُمَّ تَمْرٌ.

قَوْلُهُ: (وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا اخْتَارُوا) يَعْنِي: لَمَّا كَانَ مُؤَدَّى فِعْلِ الْكَافِرِينَ إِلَى شَجَرَةِ الزَّقُومِ كَمُؤَدَّى فِعْلِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الرِّزْقِ الْمَعْلُومِ؛ مُجَلَّ ذَاكَ عَلَى هَذَا حَمَلًا لِلنَّقِيضِ عَلَى النَّقِيضِ تَهْكِيمًا. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمَشَاكِلَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَسْلُوبِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَلْنَقُطُهُمْ آءَالَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ فَرَّقَ بَيْنَ الْمَعْنِيَيْنِ فِي الْإِعْتِبَارَيْنِ؟ فَإِنَّهُ جَعَلَ ﴿نُزْلًا﴾ تَمْيِيزًا فِي الْأَوَّلِ وَحَالًا فِي الثَّانِي. قُلْتُ: لِأَنَّهُ لَمَّا اسْتَعَارَ النُّزْلَ لِلْحَاصِلِ^(١) مِنَ الشَّيْءِ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ تَمْيِيزًا دُونَ الْحَالِ؛ لِأَنَّ حَاصِلَ الشَّيْءِ لَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ، وَمِنْ شَأْنِ^(٢) الْحَالِ صَدْقُهُ عَلَى ذِي الْحَالِ، وَيَجُوزُ أَنْ يُجْمَلَ فِي الثَّانِي عَلَى التَّمْيِيزِ أَيْضًا نَحْوَ قَوْلِهِ: اللَّهُ دَرَّةٌ فَارِسًا.

(١) فِي (ف): «لِلْحَلَلِ».

(٢) فِي (ف): «بَيَان».

إما استعارة لفظية، أو معنوية، وشُبه برؤوس الشياطين؛ دلالة على تناهيه في الكراهية

قوله: (إما استعارة لفظية أو معنوية) عن نور الدين الحكيم رحمه الله: اللفظية: نحو رأيت أسداً، وعنت لنا ظبية^(١). والمعنوية كقوله:

إذ أصبحت بيد الشمال زمامها^(٢)

فإنك في الأول تجعل الشيء وليس به، وفي الثاني تجعل الشيء للشيء وليس له. وأيضاً إذا رجعت في الأول إلى التشبيه الذي هو المقصود يأتيك عفواً، نحو: «رأيت رجلاً كالأسد»، وإن رمت في الثاني لم يواتك تلك المواتاة.

وقلت: يمكن أن يقال: أما اللفظية فهي أن الطلع موضوع لحمل الشجرة مع قيد أن تكون تلك الشجرة نخلة، فاستعمل هنا في غيرها، وهو كالمريسين فإنه موضوع لأنف بشرط أن يكون فيه رسن، فإذا استعمل في أنف إنسان كان مجازاً لفظياً ليس فيه مبالغة؛ لأنهما كالترادفين.

وأما المعنوية فهي أن تُشبه حمل تلك الشجرة بالطلع الحقيقي تشبيهاً بليغاً، ثم يُطلق على ذلك الحمل اسم الطلع، والقربنة الإضافة. ويُحتمل أن تكون حقيقية وأن تكون مكيئة مُستلزمة للتخييلية كقول القائل:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعُرِّي أفراس الصبا ورواحله^(٣)

وفي تسمية الأول بالاستعارة تسامح؛ لأنه من المجاز المرسل الخالي من الفائدة فسأه بها مبالغة أو تعظيماً.

قوله: (وشُبه برؤوس الشياطين) يعني: استعير لحمل شجرة الرقوم اسم الطلع، وشُبه برؤوس الشياطين، والتشبيه تخييلي؛ لأن المُشبه به لا حقيقة له في الخارج؛ لأن فبح

(١) في (ف): «لباطنيه».

(٢) هو جزء من بيت شعر للبيد، سبق تخريجه.

(٣) زهير بن أبي سلمى في «ديوانه» بشرح ثعلب ص ١٠١.

وَقُبِحَ الْمَنْظَرُ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ مَكْرُوهَ مُسْتَقْبَحٍ فِي طِبَاعِ النَّاسِ؛ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُ شَرٌّ مَحْضٌ لَا يَجْلِطُهُ خَيْرٌ، فَيَقُولُونَ فِي الْقَبِيحِ الصُّورَةِ: كَأَنَّهُ وَجْهُ شَيْطَانٍ، كَأَنَّهُ رَأْسُ شَيْطَانٍ، وَإِذَا صَوَّرَهُ الْمَصُورُونَ جَاؤُوا بِصُورَتِهِ عَلَى أَقْبَحِ مَا يُقَدَّرُ وَأَهْوَلِهِ؛ كَمَا أَنَّهُمْ اعْتَقَدُوا فِي الْمَلِكِ أَنَّهُ خَيْرٌ مَحْضٌ لَا شَرَّ فِيهِ، فَشَبَّهُوا بِهِ الصُّورَةَ الْحَسَنَةَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، وَهَذَا تَشْبِيهٌُ تَخْيِيلِيٌّ. وَقِيلَ: الشَّيْطَانُ حَيَّةٌ عَرَفَاءٌ لَهَا صُورَةٌ قَبِيحَةٌ الْمَنْظَرُ هَائِلَةٌ جَدًّا. وَقِيلَ: إِنَّ شَجْرًا يُقَالُ لَهُ الْأَسْتَنْ خَشِنًا مُتَنَتًا مَرًّا مُنْكَرَ الصُّورَةِ، يَسْمَى ثَمْرُهُ: رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ. وَمَا سَمَّتِ الْعَرَبُ هَذَا الثَّمَرَ

مَنْظَرِ الشَّيَاطِينِ مَرْكُوزٌ فِي الْحَبْلَةِ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ - كَمَا زَعَمَ - لَا يَرَى وَلَكِنَّهُ يُسْتَشْعَرُ أَنَّهُ أَقْبَحُ مَا يَكُونُ - لَوْ رَأَى الرَّائِي - فِي أَقْبَحِ صُورَةٍ، وَأَنْشَدَ الزَّجَّاجُ قَوْلَ امْرِئِ الْقَيْسِ:

أَيْقَتُلُنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْئُونَةٌ زُرْقٍ كَأَنْيَابِ أَعْوَالِ؟^(١)

وَلَمْ يَرَ الْعُورَ وَلَا أَنْيَابَهَا، وَلَكِنَّ التَّمثِيلَ بِهَا يُسْتَقْبَحُ أْبْلَغُ، فَبِإِبِ الْمَذْكَرِ يُمَثَّلُ بِالشَّيْطَانِ، وَفِي بَابِ الْمُؤَنَّثِ يُشَبَّهُ بِالْعُورِ فِيهَا يُسْتَقْبَحُ^(٢).

قَوْلُهُ: (وَقِيلَ: الشَّيْطَانُ حَيَّةٌ عَرَفَاءٌ) قَالَ مُحْيِي السُّنَّةِ: قِيلَ: أُرِيدَ بِالشَّيَاطِينِ الْحَيَّاتِ، وَالْعَرَبُ تَسْمِي الْحَيَّةَ الْقَبِيحَةَ الْمَنْظَرِ شَيْطَانًا^(٣)، فَعَلَى هَذَا لَا يَكُونُ التَّشْبِيهُ تَخْيِيلًا بَلْ تَحْقِيقًا.

الْعَرَفَاءُ: طَوِيلَةُ الْعُرْفِ. وَالْجَوْهَرِيُّ: الْعُرْفُ: عُرْفُ الْفَرَسِ، سُمِّيَتْ بِهِ لِكثْرَةِ شَعْرِهَا.

قَوْلُهُ: (يُقَالُ لَهُ الْأَسْتَنْ) قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: الْأَسْتَنْ: أَصُولُ الشَّجَرَةِ الْبَالِيَةِ، الْوَاحِدَةُ:

أَسْتَنَةٌ.

قَوْلُهُ: (وَمَا سَمَّتِ الْعَرَبُ هَذَا الثَّمَرَ) يَعْنِي: مَا سَمَّوْا ثَمْرَةَ الْأَسْتَنِ بِرُؤُوسِ الشَّيَاطِينِ إِلَّا لِلْقَصْدِ إِلَى أَحَدِ هَذَيْنِ التَّشْبِيهِينِ أَيِ: الصُّورِيِّ أَوْ الْمَعْنَوِيِّ عِنْدَ بَعْضِهِمْ، وَالظَّاهِرُ هُوَ

(١) «ديوان امرئ القيس» ص ٣٣.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٠٧).

(٣) «معالم التنزيل» (٧: ٤٢).

برؤوس الشياطين إلا قَصْداً إلى أحد التشبيهِين، ولكنه بعد التسمية بذلك رَجَعَ أصلاً ثالثاً يُشَبَّه به. ﴿مِنْهَا﴾: مِنَ الشَّجَرَةِ، أَي: مِنْ طَلْعِهَا ﴿فَمَا لَوْنَ﴾ بطوئهم؛ لِمَا يَغْلِبُهُمْ مِنَ الْجُوعِ الشَّدِيدِ، أَوْ: يُقَسِّرُونَ عَلَى أَكْلِهَا وَإِنْ كَرِهَوهَا؛ لِيَكُونَ بَاباً مِنَ الْعَذَابِ؛ فَإِذَا شَبِعُوا غَلَبَهُمُ الْعَطَشُ فَيُسْقَوْنَ شَرَاباً مِنْ عَسَاقٍ أَوْ صَدِيدِ، شَوْبُهُ أَي: مِزَاجُهُ، ﴿مِنْ حَمِيرٍ﴾ يَشْوِي وَجُوهَهُمْ وَيُقَطِّعُ أَمْعَاءَهُمْ، كَمَا قَالَ فِي صِفَةِ شَرَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٧]. وَقُرئ: (لَشُوبًا) بِالضَّمِّ، وَهُوَ اسْمٌ مَا يُشَابُ بِهِ، وَالْأَوَّلُ تَسْمِيَةٌ بِالْمُصْدَرِ. فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى حَرْفِ التَّرَاخِي فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشُوبًا﴾، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجَعَهُمْ﴾؟ قُلْتَ:

أَنَّهُمْ اعْتَقَدُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ قَبِيحَ الْمَنْظَرِ أَوْ أَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ حَيَّةٌ عَرَفَاءُ، ثُمَّ أُذْخِلَ هَذَا الثَّمَرُ لِكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ فِي جِنْسِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ وَصَارَ أَصْلاً ثَالِثاً مِثْلَهُمَا مُشَبَّهًا بِهِ، وَمِثْلُهُ قَوْلُ التَّنُوخِيِّ:

فَانْهَضَ بِنَارٍ إِلَى فَحْمٍ كَانَهُمَا فِي الْعَيْنِ ظُلْمٌ وَإِنصَافٌ قَدْ اتَّفَقَا^(١)

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا سَمِعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَعْتَ الْعَدْلِ بِالنُّورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] وَرَأَى النَّبِيُّ ﷺ وَصَفَ^(٢) الظُّلْمَ بِالظُّلُمَاتِ فِي قَوْلِهِ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»^(٣) خَيَّلَهَا شَيْئَيْنِ لَهَا إِنْارَةٌ وَإِظْلَامٌ وَجَعَلَهَا مُشَبَّهًا بِهَا.

قَوْلُهُ: (مِنْ عَسَاقٍ) الْعَسَاقُ: الْمُنْتِنُ الْبَارِدُ. وَالْعَسَاقُ - بِالْتَّخْفِيفِ -: لُغَةٌ^(٤).

قَوْلُهُ: (شَوْبُهُ أَي: مِزَاجُهُ) وَيُرْوَى: شُوبًا أَي: مِزَاجًا، وَ«شُوبًا» يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى مَشُوبٍ، وَأَنْ يَكُونَ مُصَدَّرًا عَلَى بَابِهِ، وَالشُّوبُ الْحَلَطُ، وَسُمِّيَ الْعَسَلُ شُوبًا؛ لِأَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ مِزَاجًا لِغَيْرِهِ مِنَ الْأَشْرِبَةِ.

(١) البيت لأبي القاسم التنوخي ذكره ابن حمدون في «التذكرة» (٥: ٤١٨).

(٢) من قوله: «وذلك أنه لما سمع» إلى هنا، سقط من (ح).

(٣) هو جزءٌ من حديث أخرجه البخاري (٢٤٤٧) ومسلم (٢٥٧٩) وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وفي الباب عن غير واحد من الصحابة.

(٤) وقد قرأ بها غير واحد من أئمة القراء. انظر: «التيسير» للداني ص ١٨٨.

في الأَوَّلِ وَجْهَانِ، أحدهما: أنهم يَمَلْؤُونَ البَطُونَ من شَجَرِ الزَّقُومِ، وهو حَارٌّ يَحْرِقُ بطونَهُمْ وَيُعْطِشُهُمْ، فلا يُسْقَوْنَ إِلَّا بعدَ مَلْيٍ؛ تعذيباً بذلك العطش، ثم يُسْقَوْنَ ما هو أحرُّ؛ وهو الشرابُ المُشوبُ بالحميم. والثاني: أنه ذَكَرَ الطعامَ بتلك الكراهة والبشاعة، ثم ذَكَرَ الشرابَ بها هو أكره وأبشع، فجاء بـ«ثُمَّ»؛ للدلالة على تراخي حالِ الشرابِ عن حالِ الطعام، ومُباينة صفته لصفته في الزيادة عليه. ومعنى الثاني: أنهم يُذْهَبُ بهم عن مقارَّهم وَمَنازِلهم في الجحيم، وهي الدَّرَكَات التي أُسْكِنوها، إلى شجرة الزَّقُومِ، فيأكلون إلى أن يتملؤوا، وَيُسْقَوْنَ بعد ذلك، ثم يَرِجَعُونَ إلى دَرَكَاتهم، ومعنى التراخي في ذلك بيِّن.

قوله: (في الأَوَّلِ وَجْهَانِ) والجوابُ الأَوَّلُ مبنيٌّ على أن «ثُمَّ» للتراخي في الزمان، والأسلوبُ مِنَ التَّرْقِي مِنَ الحَارِّ إلى الأحرِّ، والثاني على أن «ثُمَّ» للتراخي^(١) في الرتبة، والأسلوبُ مِنَ التَّكْمِيلِ، حيثُ كَمَلَ عذاب الأكل بالشرب. وأمَّا معنى الثاني - أي: السؤال الثاني الذي تقدَّم على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنْ مَرَّجَعَهُمْ﴾ - فظاهر.

وفي قوله: (ثُمَّ يَرِجَعُونَ إلى دَرَكَاتهم) إشعارٌ بترتيب أنيق، وذلك أن أهل النَّارِ أَوَّلُ ما يُقامُ لهم في النَّارِ مِنَ الرَّزْقِ شجرةُ الزَّقُومِ، ثُمَّ يُسْقَوْنَ شَوْبًا من حميم، ثُمَّ يستقرُّون بعد ذلك إلى دَرَكَاتهم، وعليه جرى العرف، وعلى هذا نُزِّلَ أهلُ الجنةِ: الرَّزْقُ المعلوم، وهو الفواكه وما يَأْكُلُونَهُ على سبيلِ التَّلَذُّذِ، ثُمَّ السَّقْيُ من كأسٍ معينٍ بيضاء لذةً للشاربين، ثُمَّ يَرِجَعُونَ إلى ما وراء ذلك ممَّا لا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ، قائلين: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ * لِيُثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿اللَّهُمَّ بِفَضْلِكَ اجْعَلْنَا مِنَ الْفَائِزِينَ بِهِ.

قال القاضي: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾ فيه دلالة على أن ما ذُكِرَ مِنَ النَّعِيمِ لأهل الجنةِ بمنزلة ما يُقامُ للنَّازِلِ، وهم وراء ذلك ما تَقَصَّرَ عنه الأفهام، وكذلك الزَّقُومُ لأهل النَّارِ مِنَ الأُمَّمِ^(٢).

(١) من قوله: «في الزمان والأسلوب» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) من قوله: «للتنازل، وهم وراء» إلى هنا سقط من (ح).

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ١١).

وُقِرَى: (ثُمَّ إِنَّ مُنْقَلَبَهُمْ)، (ثُمَّ إِنَّ مُصِيرَهُمْ)، (ثُمَّ إِنَّ مَنْقَذَهُمْ) إلى الجحيم؛ علل استحقاتهم للوقوع في تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء في الدين، واتباعهم إياهم على الضلال، وترك اتباع الدليل. والإهراع: الإسراع الشديد، كأنهم يُحْتَوُونَ حَتًّا. وقيل: إسراع فيه شبيهة بالرعدة.

[﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ *﴾ الْإِعْبَادَ لِلَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿٧١-٧٤﴾]

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾: قبل قومك قريش. ﴿مُنذِرِينَ﴾: أنبياء حذروهم العواقب. ﴿الْمُنذِرِينَ﴾: الذين أنذروا وحذروا، أي: أهلكوا جميعاً ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ﴾: الذين آمنوا منهم وأخلصوا الله دينهم، أو أخلصهم الله لدينه على القراءتين.

[﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا بَالِقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمْنَا عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿٧٥-٨٢﴾]

لَمَّا ذَكَرَ إِرْسَالَ الْمُنذِرِينَ فِي الْأُمَّمِ الْخَالِيَةِ وَسُوءَ عَاقِبَةِ الْمُنذِرِينَ، أَتَبَعَ ذَلِكَ ذِكْرَ نُوْحٍ وَدَعَاةِ إِيَّاهُ حِينَ أَيْسَرَ مِنْ قَوْمِهِ، وَاللَّامُ الدَّاخِلَةُ عَلَى «نِعْمَ» جَوَابٌ قَسَمَ مَحذُوفٌ، وَالْمَخْصُوصُ بِالْمَدْحِ مَحذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: فَوَاللَّهِ لَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ نَحْنُ. وَالْجَمْعُ دَلِيلُ الْعِظَمَةِ وَالْكَبْرِيَاءِ. وَالْمَعْنَى: إِنَّا أَجَبْنَاهُ أَحْسَنَ الْإِجَابَةِ، وَأَوْصَلَهَا إِلَى مُرَادِهِ وَبَغْيَتِهِ؛ مِنْ نُضْرَتِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ وَالْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ بِأَبْلَغِ مَا يَكُونُ. ﴿هُرًّا بَالِقِينَ﴾: هُمُ الَّذِينَ بَقُوا وَحَدَّهُمْ وَقَدْ فَنِيَ غَيْرُهُمْ، فَقَدْ رُوِيَ: أَنَّهُ مَاتَ كُلُّ مَنْ كَانَ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ غَيْرَ وَلَدِهِ. أَوْ: هُمُ الَّذِينَ بَقُوا مَتَنَاسِلِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قَالَ قَتَادَةُ: النَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوْحٍ.

قَوْلُهُ: (هُمُ الَّذِينَ بَقُوا وَحَدَّهُمْ) هَذَا الْإِخْتِصَاصُ يُعْطِيهِ ضَمِيرُ الْفَصْلِ.

وكان لنوح عليه السلام ثلاثة أولاد: سام، وحام، ويافث، فسأم أبو العرب، وفارس، والرُّوم، وحامُّ أبو السودان من المشرق إلى المغرب، ويافثُ أبو التُّرك ويأجوجَ ومأجوجَ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ من الأمم هذه الكلمة؛ وهي: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ﴾ يعني

قوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ من الأمم هذه الكلمة يريد أن «تَرَكَنا» واقعٌ على قوله: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ﴾ وهو مفعولٌ به. كأنه قيل: تَرَكَنا على نوح قولنا: سلامٌ على نوح^(١) في كلِّ أحدٍ من العالمين، كما يُقال: السَّلَامُ على زَيْدٍ في جميعِ الأَمَكِيَّةِ وفي جميعِ الأزْمِنَةِ، واللَّعْنَةُ على إبليس في المشرق والمغرب، فقوله: ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِالْجَارِ وَالْمَجْرُورِ.

قال صاحبُ «الكشف»: ﴿سَلَّمَ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَالْجَارُ بَعْدُهُ فِي مَوْضِعِ الْخَبَرِ، وَالْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ الْمَفْعُولِ لـ ﴿وَتَرَكْنَا﴾ وَلَوْ أَعْمَلَ «تَرَكَنا» فِيهِ لَقِيلَ: «سَلَامًا»، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ: وَتَرَكَنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ الثَّنَاءَ الْحَسَنَ، فَحُذِفَ مَفْعُولُ «تَرَكَنا»، ثُمَّ ابْتَدَأَ وَقَالَ: «سلام». وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ: وَتَرَكَنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ الثَّنَاءَ الْحَسَنَ^(٢) وَقُلْنَا: سلام^(٣).

وقال محيي السنَّة: «تَرَكَنا عليه»، أي: أَبَقِينَا لَهُ ثَنَاءً حَسَنًا وَذَكَرْنَا جَمِيلًا فَيَمُنْ بَعْدَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٤). وَقُلْتُ: هَذَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنْ يَكُونَ الْمَفْعُولُ ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، كَمَا قَالَ الرَّجَّاجُ^(٥) أَي: تَرَكَنا عَلَيْهِ الذِّكْرَ الْجَمِيلَ، وَذَلِكَ الذِّكْرُ قَوْلُهُ: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾^(٦) أَي: تَرَكَنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ أَنْ يُسَلَّمَ عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وثانيهما: الْمَفْعُولُ مَحذُوفٌ، وَهُوَ الثَّنَاءُ كَمَا سَبَقَ، فَعَلِيَ هَذَا: يَبْقَى «تَرَكَنا» مُطْلَقًا غَيْرَ

(١) قوله: «قولنا: سلامٌ على نوح» سقط من (ف) و(ط).

(٢) من قوله: «فحذف مفعول «تَرَكَنا» إلى هنا، سقط من (ح).

(٣) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ٢٥٥) بتحقيق د. عبد القادر السعدي، و(٢: ١١٢٩) بتحقيق

د. محمد الدالي.

(٤) «معالم التنزيل» (٧: ٤٤).

(٥) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٠٨).

(٦) من قوله: «من حيث المعنى كما» إلى هنا، سقط من (ح).

يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ تَسْلِيمًا، وَيَدْعُونَ لَهُ، وَهُوَ مِنَ الْكَلَامِ الْمَحْكِيِّ، كَقَوْلِكَ: قَرَأْتُ ﴿سُورَةَ﴾
أَنْزَلْنَاهَا ﴿[النور: ١].

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾؟ قلت: معناه: الدعاءُ بِثبوتِ هذه التَّحِيَّةِ
فيهم جميعاً، وأن لا يَخْلُو أَحَدٌ مِنْهُمْ مِنْهَا، كَأَنَّهُ قِيلَ: ثَبَّتَ اللهُ التَّسْلِيمَ عَلَى نُوحٍ وَأَدَامَةَ
فِي الْمَلَائِكَةِ وَالثَّقَلَيْنِ يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ عَنْ آخِرِهِمْ. عَلَّلَ مُجَازَاةَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامَ بِتَلْكَ
التَّكْرِمَةِ السَّنِيَّةِ مِنْ تَبْقِيَةِ ذِكْرِهِ، وَتَسْلِيمِ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ بِأَنَّهُ كَانَ مُحْسِنًا، ثُمَّ
عَلَّلَ كَوْنَهُ مُحْسِنًا بِأَنَّهُ كَانَ عَبْدًا مُؤْمِنًا، لِئُرِيكَ جَلَالَهَ مَحَلُّ الإِيْمَانِ، وَأَنَّهُ الْقُصَارَى مِنْ
صِفَاتِ الْمَدْحِ وَالتَّعْظِيمِ، وَيُرْغَبُكَ فِي تَحْصِيلِهِ وَالتَّزْيَادِ مِنْهُ.

﴿وَإِنَّ مِنْ شَيْعِنِهِ لَإِبْرَهِيمَ﴾ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا
تَعْبُدُونَ * أَيُّفَكَا إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[٨٣-٨٧]

مُقَيَّدَ، أَي: تَرَكْنَا عَلَى نُوحٍ فِي الْآخِرِينَ مِنَ الْأُمَّمِ ذِكْرًا جَمِيلًا، وَكَذَا وَكَذَا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَجْعَلْ لِي
لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وَيَكُونُ ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ دُعَاءً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى
كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَلَّمَ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩].

قَوْلُهُ: (فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾؟) جَاءَ فِي السُّؤَالِ بِالْفَاءِ، يَعْنِي: إِذَا كَانَ مَعْنَى
﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾: تَرَكْنَا فِي الْآخِرِينَ مِنَ الْأُمَّمِ أَنْ يُسَلِّمُوا عَلَيْهِ تَسْلِيمًا وَيَدْعُوا لَهُ، فَمَا
مَعْنَى ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ فَإِنَّهُ كَالْتَّكْرَارِ؟ وَأَجَابَ: إِنَّ فِي إِعَادَةِ ذِكْرِ الْعَالَمِينَ الشُّمُولَ وَالتَّشْغِيقَ؛
لِقَلَّ مَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مَنْ يَدْخُلُ فِي الْعَالَمِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالثَّقَلَيْنِ مِنْهُ، وَالحَاصِلُ أَنَّ ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾
كَالتَّسْمِيمِ لِلْمَعْنَى السَّابِقِ وَالمُبَالَغَةِ فِيهِ، وَلَوْ اكْتَفَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ لَقَصَرَ عَنْ
هَذَا الْمَعْنَى، فَرَجَعَ مَعْنَى ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ * سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿ إِلَى قَوْلِهِ: «ثَبَّتَ اللهُ
التَّسْلِيمَ عَلَى نُوحٍ وَأَدَامَةَ فِي الْمَلَائِكَةِ وَالثَّقَلَيْنِ يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ عَنْ آخِرِهِمْ».

قَوْلُهُ: (لِئُرِيكَ جَلَالَهَ مَحَلُّ الإِيْمَانِ) يَعْنِي: أَنَّ نُوحًا لَيْسَ مِمَّنْ لَا يُؤْمِنُ حَتَّى يُوصَفَ
بِالإِيْمَانِ تَمَيِّزًا، وَإِنَّمَا جِيءَ بِهِ لِلْمَدْحِ، يَعْنِي أَنَّ صِفَةَ الإِيْمَانِ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي تَصْلُحُ أَنْ
يُتَمَدَّحَ بِهَا النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ تَرْغِيبًا لِلْمُؤْمِنِ.

﴿مِنْ شَيْعِنِهِ﴾: مَن شايَعَه على أصول الدين وإن اختلفت شرائعها. أو: شايَعَه على التصلُّب في دين الله ومُصابرة المكذَّبين. ويجوزُ أن يكونَ بين شريعتيهما اتِّفاقٌ في أكثر الأشياء. وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: من أهلِ دينه وعلى سُنَّته، وما كان بين نوحٍ وإبراهيمَ إلا نبيَّان: هُودٌ وصالح، وكان بين نوحٍ وإبراهيمَ ألفان وستُّ مئة وأربعون سنة. فإن قلت: بِمَ تعلقَ الظَّرْفُ؟ قلت: بما في الشَّيعة من معنى المُشايعة، يعني: وإن مَن شايَعَه على دينه وتَقواه حين جاء رَبُّه بقلبِ سَلِيمٍ ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾، أو بمحذوف؛ وهو: اذْكُرْ، ﴿بِقَلْبِ سَلِيمٍ﴾ من جميع آفات القلوب.

وقيل: من الشُّرك، ولا معنى للتخصيص؛ لأنه مُطلق، فليس بعضُ الآفات أولى من بعضٍ فيتناولها كلها. فإن قلت: ما معنى المجيء بقلبه رَبُّه؟ قلت: معناه: أنه أخلصَ لله قلبه، وعُرفَ ذلك منه فَضْرَبَ المجيء مثلاً لذلك. ﴿أَيْفَكَا﴾ مفعولٌ له، تقديره:

قوله: (وكانَ بين نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السَّلامُ ألفانٍ وستُّ مئةٍ وأربعونَ سنةً)، وفي «جامع الأصول»^(١): أَلْفُ سَنَةٍ وَمِئَةٌ وَائْتِنَانِ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً.

قوله: (وهو: اذْكُرْ) أي: اذْكُرْ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ، أَي وَقْتُ مَجِيئِهِ^(٢) رَبُّهُ.

قوله: (ولا معنى للتخصيص)، أي: لا معنى لتخصيصِ قَوْلِهِ: ﴿سَلِيمٍ﴾ بشيءٍ من الآفات. قال صاحبُ «الفرائد»: لما كانَ المقامُ مقامَ المدحِ وجَبَ أن يكونَ سالماً عن كلِّ الآفات؛ لأنَّ السَّلامَ عنِ البعضِ يدخلُ فيه كلُّ القلوب؛ لأنَّهُ ما من قلبٍ إلا وهو سالِمٌ من البعضِ.

قوله: (فَضْرَبَ المجيء مثلاً لذلك)، أي: لِقَوْلِهِ: «مَنْ أَخْلَصَ اللهُ قَلْبَهُ». وفي «المطلع»: ومعنى محبة رَبِّه: أنه أخلصَ اللهُ قلبه وعُرفَ ذلك منه كما يُعرفُ الغائبُ وأحواله بِمَجِيئِهِ وحُضُورِهِ، فَضْرَبَ المجيء مثلاً لذلك. وقال الإمام: معناه أنه إذا أخلصَ اللهُ تعالى قلبه فكانه استحقَّ حضرةَ الله بذلك القلب. ورأيتُ في التَّوراة: أن الله تعالى قال لموسى: يا

(١) «جامع الأصول» (١٢: ١١٣).

(٢) في (ح): «مجيء».

أتريدون آلهة من دون الله إفاكاً؟ وإنما قدّم المفعول على الفعل للعناية، وقدّم المفعول له على المفعول به؛ لأنه كان الأهمّ عنده أن يُكافِحهم بأنهم على إفاك وباطل في شركهم. ويجوز أن يكون ﴿إِفَاكًا﴾ مفعولاً، يعني: أتريدون به إفاكاً؟ ثم فسّر الإفاك بقوله: ﴿إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ﴾ على أنها إفاك في أنفسها.

ويجوز أن يكون حالاً، بمعنى: أتريدون آلهة من دون الله إفاكين؟ ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ﴾ بمن هو الحقيق بالعبادة؛ لأنّ من كان ربّاً للعالمين استحقّ عليهم أن يعبدوه، حتى تركتم عبادته إلى عبادة الأصنام؟ والمعنى: أنه لا يُقدَّر في وهم ولا ظنّ ما يصدُّ عن عبادته. أو فما ظنكم به أي شيء هو من الأشياء، حتى جعلتم الأصنام له أنداداً؟ أو: فما ظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يُعاقِبكم وقد عبدتم غيره؟

موسى أحبّ إلهك بكلّ قلبك^(١). وقُلْتُ: يمكن أن يُقال: كان أصلُ الكلام^(٢) إذ أخلصّ لربه، فلما أريد مزيد التصوير وأن لا بدّ للإخلاص من السلوك وقطع العلائق والعروج من حضيض الأمارية إلى يفاع المطمئنية، قيل: ﴿جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: من آفاته، لكن في إسناد المجيء إليه شائبة بقاء الوجود، وفي وصفه بـ «السليم» نقاء القلب أيضاً.

وأما قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] ففيه إشارة إلى الجذبة الحَقَائِنِيَّة التي لا تُبقي من الوجود والصفات شيئاً، وإنما أثبت العبدية ليُمكن الإخبار عن ذلك المقام، ولو لا إزادة الإخبار لم يذكُر ذلك أيضاً، والله أعلم.

قوله: ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ﴾ بمن هو حقيق بالعبادة) إلى آخره، قال القاضي: معنى ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ﴾ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إنكار ما يوجب ظناً، فضلاً عن قطعه، فضلاً عن عبادته، أو يجوز الاشتراك به أو يقتضي الأمن من عقابه على طريقة الإلزام^(٣).

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣٤١).

(٢) قوله: «كان أصلُ الكلام» سقط من (ح).

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ١٣).

﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [٨٨ - ٩٠]

﴿فِي النُّجُومِ﴾: في عِلْمِ النجوم، أو: في كتابها، أو في أحكامها، وعن بعض الملوك: أنه سُئِلَ عن مُشْتَهَاهَا، فقال: حَبِيبٌ أَنْظَرُ إِلَيْهِ، وَمُحْتَاجٌ أَنْظَرُ لَهُ، وَكِتَابٌ أَنْظَرَ فِيهِ. كَانَ

وَقُلْتُ: الْإِنْكَارُ وَالتَّجْهِيلُ رَاجِعٌ إِلَى ظَنِّهِمْ بَرَبِّ الْعَالَمِينَ، إِمَّا بِاعْتِبَارِ الْوَصْفِ أَوْ الْحَقِيقَةِ، أَمَّا الْوَصْفُ فَعَلَى وَجْهَيْنِ:

أحدهما: معنى التَّربِيَةِ وَهُوَ تَبْلِيغُ الشَّيْءِ إِلَى كَمَالِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا؛ لِأَنَّ الْمُمْكِنَ كَمَا هُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَى الْمَحْدِثِ حَالَ حُدُوثِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَى الْمُبْقِي حَالَ بَقَائِهِ، وَهَذَا مَعْنَى الْإِنْعَامِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُشْكَرَ عَلَيْهِ مُسْبَدِيهِ^(١) وَلَا يُصَدَّدُ عَنْ عِبَادَةِ مَوْلَاهُ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ﴾ بِمَنْ هُوَ حَقِيقٌ بِالْعِبَادَةِ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ رَبًّا لِلْعَالَمِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ.

وثانيهما: معنى المَالِكِيَّةِ وَهُوَ مُسْتَلْزِمٌ لِمَعْنَى الْقَهْرِ وَالْقُدْرَةِ التَّامَّةِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ﴾ مَاذَا يَفْعَلُ بِكُمْ؟ وَكَيْفَ يُعَاقِبُكُمْ؟

وَأَمَّا الْحَقِيقَةُ فَهِيَ الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ﴾ أَيُّ شَيْءٍ هُوَ مِنَ الْأَشْيَاءِ؟ قَالَ فِي «الشُّعْرَاءِ» فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَارَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]: أَيُّ شَيْءٍ هُوَ عَلَى الْإِطْلَاقِ؟ تَفْتِيضًا عَنْ حَقِيقَتِهِ الْخَاصَّةِ مَا هِيَ^(٢)؟ أَيُّ: إِنَّمَا يَصْحُحُ جَعْلُ الْأَصْنَامِ نِدَاءً لَهُ إِذَا عُرِفَتِ الْمَاهِلَةُ، فَمَا لَمْ يَعْرِفُوا حَقِيقَتَهُ كَيْفَ يَجْعَلُونَ الْأَصْنَامَ نِدَاءً لَهُ؟

الرَّابِعُ: الْمَثَلُ أَعْمُ الْأَلْفَافِ الْمَوْضُوعَةِ لِلْمَشَابِهَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّدْيَ يُقَالُ لِمَا يُشَارِكُ فِي الْجَوْهَرِ فَقَطْ، وَالشُّبُهَةَ فِيهَا يُشَارِكُ فِي الْكَيْفِيَّةِ فَقَطْ، وَالْمُسَاوِيَّ فِيهَا يُشَارِكُ فِي الْكَمِّيَّةِ فَقَطْ، وَالشَّكْلَ فِيهَا يُشَارِكُ فِي الْقَدْرِ وَالْمَسَاحَةِ، وَالْمَثَلُ عَامٌّ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ^(٣).

قَوْلُهُ: (حَبِيبٌ أَنْظَرُ إِلَيْهِ، وَمُحْتَاجٌ أَنْظَرُ لَهُ، وَكِتَابٌ أَنْظَرُ فِيهِ) وَمِنْهُ قَوْلُ الْقَائِلِ: هَلْ مِنْ كِتَابٍ أَوْ أَخٍ أَوْ فَتَى أَنْظَرُ فِيهِ أَوْ لَهُ أَوْ إِلَيْهِ؟

(١) فِي (ط): «مبديه».

(٢) انظر: (١١: ٣٤٤).

(٣) «مفردات القرآن» ص ٧٥٩ بتصرف ملحوظ.

القومُ نَجَامِينَ، فأوهمهم أنه استدَلَّ بأمارَةٍ في عِلْمِ النجوم على أنه يَسْتَمُّ ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾: إني مُشَارِفٌ لِلسُّقْمِ؛ وهو الطَّاعون، وكان أغْلَبَ الأَسْقَامِ عليهم، وكانوا يَخَافون العَدُوَّ؛ لِيَتَفَرَّقُوا عَنْهُ، فَهَرَبُوا مِنْهُ إِلَى عِيْدِهِمْ وَتَرَكُوهُ فِي بَيْتِ الأَصْنَامِ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، فَفَعَلَ بِالأَصْنَامِ مَا فَعَلَ. فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ لَهُ أَنْ يَكْذِبَ؟ قُلْتَ: قَدْ جَوَّزَهُ بَعْضُ النَّاسِ فِي المَكِيدَةِ فِي الحَرْبِ وَالتَّقِيَّةِ، وَإِرْضَاءِ الزَّوْجِ، وَالصُّلْحِ بَيْنَ المِتَخَاصِمِينَ وَالمِتَهَاجِرِينَ. وَالصَّحِيحُ: أَنَّ الكَذِبَ حَرَامٌ إِلَّا إِذَا عَرَّضَ وَوَرَّى، وَالَّذِي قَالَه إِبْرَاهِيمُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ: مِعْرَاضٌ مِنَ الكَلَامِ، وَقَدْ نَوَى بِهِ أَنْ مَنْ فِي عُنُقِهِ المَوْتُ سَقِيمٌ، وَمِنْهُ المَثَلُ: كَفَى بِالسَّلَامَةِ دَاءً، وَقَوْلُ لَبِيدٍ:

فَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِدًا لِيُصَحِّحَنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءٌ

وَقَدْ مَاتَ رَجُلٌ فُجَاءَةً فَالتَفَّ عَلَيْهِ النَّاسُ، وَقَالُوا: مَاتَ وَهُوَ صَحِيحٌ، فَقَالَ

قَوْلُهُ: (لِيَتَفَرَّقُوا عَنْهُ) يَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

قَوْلُهُ: (مِعْرَاضٌ مِنَ الكَلَامِ) جَمْعُهُ: مَعَارِيضٌ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: إِنَّ فِي المَعَارِيضِ لَمَدْوَحَةً عَنِ الكَذِبِ^(١). وَمَرَّ فِي فَاتِحَةِ البَقَرَةِ كَلَامٌ مُشْبِعٌ فِيهِ.

قَوْلُهُ: (فَدَعَوْتُ) قَبْلَهُ:

كَانَسْتُ قَنَاتِي لَا تَلْسِينَ لَغَامِيزِ فَأَلَاتِنَا الإِصْبَاحُ وَالإِمْسَاءُ
فَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِدًا لِيُصَحِّحَنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءٌ^(٢)

القَنَاةُ: الرُّمْحُ، فَاسْتَعَارَ لِقَامِيَّتِهِ. وَالعَمَزُ: العَصْرُ بِاليَدِ. يَصِفُ قُوَّتَهُ فِي الشَّبَابِ وَضَعْفَهُ فِي الكِبَرِ. قِيلَ لِشَيْخٍ كَبِيرٍ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ قَالَ: فِي دَاءٍ يَتَمَنَّاهُ النَّاسُ.

(١) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «الأدب المفرد» ص ٢٩٧، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «المصنّف» (٥: ٢٨٢) وَالبَيْهَقِيُّ فِي «السنن الكبرى» (١٠: ٣٣٦) مَوْقُوفًا عَلَى عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) البَيْتَانُ لِعَمْرُو بْنِ قَمِيئَةَ فِي «ديوانه» ص ٣٩، وَعِزَاهُمَا إِلَيْهِ الحَصْرِيُّ فِي «زهر الآداب» (١: ٢٦٨) وَقِيلَ: هُمَا لِلنَّمْرِ بْنِ تَوَلَّبِ، انظُرْ: «عيون الأخبار» (٢: ٣٤٦) وَ«ربيع الأبرار» (٣: ١٥٩).

أعرابي: أصحیح من الموت في عنقه! وقيل: أراد: إني سقيم النفس؛ لكفرکم.

[﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمُ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا نَنْطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾]

[٩٣-٩١]

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمُ﴾: فذهب إليها في خفية، من رَوْغَةِ الثعلب، ﴿إِلَىٰ آلِهِمُ﴾: إلى أصنامهم التي هي في زعمهم آلهة، كقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِ ع﴾ [النحل: ٢٧]. ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا نَنْطِقُونَ﴾ استهزاء بها وبانحطاطها عن حال عبدتها، ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾: فأقبل عليهم مستخفياً، كأنه قال: فضربهم ﴿ضَرْبًا﴾؛ لأن «راغ عليهم» في معنى: ضربهم. أو: فراغ عليهم يضرهم ضرباً. أو: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا﴾ بمعنى ضارباً.

قوله: ﴿﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمُ﴾ فذهب إليها في خفية) يريد: ضَمَّنَ ﴿فَرَاغَ﴾ معنى «ذهب» وعُدِّي بـ«إلى»، كما أن ﴿﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ مُضَمَّنٌ لِلْإِقْبَالِ وَيُعَدَّى بـ«على»، ولذلك قال: فذهب إليها في خفية، «فأقبل عليهم مستخفياً» بعد استعارة الرَّوْغَانِ لِلْخُفْيَةِ.

قال في «الأساس»: ومن المجاز: فلان يروغ عن الحق، ولا يقال: راغ عن كذا إلا إذا كان عدوله عنه في خفية، وما زلت أراوغة على هذا الأمر فما راغ إليه أي: أداوره. وحقيقته: حملته على الرَّوْغَانِ، مأخوذ من رَوْغَانِ الثعلب، وأراغ العقاب الصيد؛ إذا ذهب الصيد؛ هكذا وهكذا.

قوله: (بمعنى ضارباً) فعلى هذا: ﴿ضَرْبًا﴾ حال، وعلى الأول: مفعولٌ مُطْلَقٌ، نحو «قعدت جلوساً»، وعلى الثاني: مصدرٌ مُؤَكَّدٌ وَالْعَامِلُ مُضَمَّرٌ. قال صاحب «الفرائد»: ينعُد أن يكون مفعولاً مُطْلَقاً؛ لأنَّ الإقبال على الشيء مستخفياً لا يدلُّ على الضرب.

وقلت: في جعل الإقبال عليهم نفس الضربِ مُبَالَغَةً، فهو مجازٌ من باب إطلاق السبب على المسبب؛ لأنَّ إقباله عليهم لم يكن إلا للضرب. ويجوز أن يكون من باب المجاز باعتبار ما يؤول إليه، أي: أقبل عليهم إقبالا مؤدياً إلى الضرب، كما قال في «هدى لتشقين» [البقرة: ٢] هدى للضالين الصائرين إلى التقوى، فالمعنى: فهال إلى الأصنام يضرها ضرباً؛ لأنَّ الإنحاء على الضرب بمعنى الضرب.

وُقِرَى: (صَفَقًا)، و(سَفَقًا)، وَمَعْنَاهُمَا: الضَّرْب. وَمَعْنَى ﴿صَرَبًا بِالْيَمِينِ﴾: ضَرْبًا شَدِيدًا قَوِيًّا؛ لِأَنَّ الِيمِينَ أَقْوَى الْجَارِحَتَيْنِ وَأَشَدَّهُمَا. وَقِيلَ: بِالْقُوَّةِ وَالْمِتَانَةِ، وَقِيلَ: بِسَبَبِ الْحَلْفِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَتَأَلَّهُ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

[﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ﴾ ٩٤]

﴿يَزْفُونَ﴾: يُسْرِعُونَ، مِنْ زَفِيفِ النَّعَامِ. وَ(يَزْفُونَ): مِنْ أَزَفَ، إِذَا دَخَلَ فِي الزَّفِيفِ.

قَوْلُهُ: (وُقِرَى: «صَفَقًا» و«سَفَقًا») قَالَ ابْنُ جِنِّي: قَرَأَ الْحَسَنُ: «سَفَقًا» بِالْيَمِينِ، وَ«صَفَقًا» أَيْضًا. وَقَالُوا: صَفَقْتُ الْبَابَ وَسَفَقْتُهُ، وَالصَّادُ أَعْلَى (١).

قَوْلُهُ: (وَقِيلَ: بِالْقُوَّةِ وَالْمِتَانَةِ)، فَعَلِيَ هَذَا: ﴿بِالْيَمِينِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿صَرَبًا﴾، وَعَلَى الْأَوَّلِ: مُتَعَلِّقٌ بِمَحذُوفٍ صِفَةٌ لـ ﴿صَرَبًا﴾.

قَوْلُهُ: (﴿يَزْفُونَ﴾ يُسْرِعُونَ)، حَمَزَةٌ: «يَزْفُونَ» بِضَمِّ الْيَاءِ، وَالْباقُونَ: بَفَتْحِهَا (٢)، مِنْ: أَزَفَ، أَي صَارَ إِلَى الزَّفِيفِ، وَمِثْلُهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

تَمَّسَى حُصَيْنٌ أَنْ يَسْوَدَ جِذَاعُهُ فَأَضْحَى حُصَيْنٌ قَدْ أَذِلَّ فَأَقْهَرَا (٣)

أَي: فَصَارَ إِلَى الْقَهْرِ.

قَالَ الزَّجَّاجُ: أَصْلُهُ الْفَتْحُ وَتَشْدِيدُ الْفَاءِ، مِنْ زَفِيفِ النَّعَامِ، وَهُوَ ابْتِدَاءُ عَدُوِّهِ وَآخِرُ مَشْيِهِ، وَبِالضَّمِّ وَالتَّشْدِيدِ: مَعْنَاهُ: يَصِيرُونَ إِلَى الزَّفِيفِ، وَ«يَزْفُونَ» بِالتَّخْفِيفِ: مِنْ: وَزَفَ يَزْفُ بِمَعْنَى: أَسْرَعَ، وَلَمْ يَعْرِفْهُ الْفَرَّاءُ وَالْكِسَائِيُّ (٤).

(١) «المحتسب» (٢: ٢٢١).

(٢) قَالَ أَبُو زُرْعَةَ: وَهُوَ الْاِخْتِيَارُ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: زَفَ يَزْفُ زَفِيًّا: إِذَا أَسْرَعَ. وَأَمَّا حَمَزَةٌ فَإِنَّهُ جَعَلَهُ لَغَتَيْنِ: (زَفَ وَأَزَفَ). انظر: «حجّة القراءات» ص ٦٠٩.

(٣) لِلْمُنْخَبَلِ السَّعْدِيِّ فِي هَجَاءِ الزَّبْرِاقَانَ بْنِ بَدْرٍ وَقَوْمِهِ الْمَعْرُوفِينَ بِالْجِلْدَاعِ. انظر: «لسان العرب» (قهر) و«تاج العروس» (جذع).

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٠٩) وَرَجَّحَ الْقِرَاءَةَ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَتَشْدِيدِ الْفَاءِ.

أو: مِنْ أَرْفَهُ؛ إِذَا حَمَلَهُ عَلَى الرَّفِيفِ، أَي: يُزِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وَ(يُزْفُونَ)، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، أَي: يُحْمَلُونَ عَلَى الرَّفِيفِ. وَ(يُزْفُونَ)، مِنْ وَزَفَ يَزِفُ؛ إِذَا أَسْرَعَ. وَ(يُزْفُونَ)، مِنْ زَفَاهُ؛ إِذَا حَدَاهُ، كَأَنَّ بَعْضَهُمْ يَزْفُو بَعْضًا لَتَسَارُعِهِمْ إِلَيْهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِ هَٰذَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُعَالَى لَهُ إِِبْرَاهِيمُ ﴿ [الأنبياء: ٥٩-٦٠] كَالْتِنَاقُضِ؛ حَيْثُ ذَكَرَ هَاهُنَا أَنَّهُمْ أَدْبَرُوا عَنْهُ خِيفَةَ الْعَدُوِّ، فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ يَكْسِرُهُمْ أَقْبَلُوا إِلَيْهِ مُتَبَادِرِينَ لِيَكْفُوهُ^(١) وَيُوقِعُوا بِهِ، وَذَكَرَ ثُمَّ أَنَّهُمْ سَأَلُوا عَنِ الْكَاسِرِ، حَتَّى قِيلَ لَهُمْ: سَمِعْنَا إِِبْرَاهِيمَ يَذُكُرُهُمْ، فَلَعَلَّهُ هُوَ الْكَاسِرُ؛ فَفِي أَحَدِهِمَا أَنَّهُمْ شَاهَدُوهُ يَكْسِرُهَا، وَفِي الْآخَرِ: أَنَّهُمْ اسْتَدَلُّوا بِذَمِّهِ عَلَى أَنَّهُ الْكَاسِرُ! قُلْتَ: فِيهِ وَجْهَانِ، أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ الَّذِينَ أَبْصَرُوهُ وَزَفُوا إِلَيْهِ نَفْرًا مِنْهُمْ دُونَ جُمْهُورِهِمْ وَكِبْرَائِهِمْ، فَلَمَّا رَجَعَ الْجُمْهُورُ وَالْعَلِيَّةُ مِنْ عِيْدِهِمْ إِلَى بَيْتِ الْأَصْنَامِ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ الَّذِي وَضَعُوهُ عِنْدَهَا لِتُبْرِكَ عَلَيْهِ وَرَأُوها مَكْسُورَةً اِسْمَاؤُهَا مِنْ ذَلِكَ، وَسَأَلُوا: مَنْ فَعَلَ هَذَا بِهَا؟ ثُمَّ لَمْ يَنْمَ عَلَيْهِ أَوْلَئِكَ النَّفْرُ نَمِيمَةً صَرِيحَةً، وَلَكِنْ عَلَى سَبِيلِ التَّوْرِيَةِ وَالتَّعْرِيفِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٠] لِبَعْضِ الصَّوَارِفِ.

وَقَالَ ابْنُ جِنِّي: وَهِيَ قِرَاءَةٌ عَبْدُ اللَّهِ^(٢)، وَذَهَبَ قَطْرُبٌ أَنَّهَا تَخْفِيفُ «يَزْفُونَ»، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] أَي: اقْرَرنَ^(٣).

قَوْلُهُ: (وَالْتَّعْرِيفُ بِقَوْلِهِمْ): ﴿سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٠] لِبَعْضِ الصَّوَارِفِ، خِلَاصَةُ الدَّفْعِ عَنِ التَّنَاقُضِ أَنْ قَوْلَهُ: ﴿سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ﴾^(٤) لَا يُنَاقِضُ قَوْلَهُ: ﴿فَأَقْبَلُوا

(١) فِي الْأَصْلِ: «لِيَكْفُوهُ» كَذَا أَثْبَتَهَا، وَعَلَّقَ فِي الْحَاشِيَةِ مَقَابِلَهَا: «كَذَا الظَّاهِرُ، وَيُمْكِنُ أَنْ تُقْرَأَ بِالْكَافِ».

(٢) يَعْنِي ابْنَ يَزِيدٍ كَمَا صَرَّحَ بِهِ ابْنُ جِنِّي.

(٣) «الْمَحْتَسِبُ» (٢: ٢٢١).

(٤) مِنْ قَوْلِهِ: «لِبَعْضِ الصَّوَارِفِ: خِلَاصَةُ» إِلَى هُنَا سَقَطَ مِنْ (ف).

والثاني: أن يكسرها ويذهب ولا يشعر بذلك أحد، ويكون إقبالهم إليه يزفون بعد رجوعهم من عيدهم وسؤالهم عن الكاسر، وقولهم: قالوا: فأتوا به على أعين الناس.

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [٩٥ - ٩٦]

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يعني خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام، كقوله: ﴿ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ ﴾ [الأنبياء: ٥٦] أي: فطر الأصنام. فإن قلت: كيف يكون الشيء الواحد مخلوقاً لله معمولاً لهم؛ حيث أوقع خلقه وعملهم

إليه يزفون، لأن هؤلاء الذين أبصروه وزفوا إليه سمعوه بعد مضي الجمهور إلى العيد يقول في نفسه: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧] فلما ذهبوا وشرع في الضرب باليمين أقبل إليه المتخلفون يزفون^(١) ليكفوه، فلما رجع الجمهور من عيدهم سألوه فلم يجز^(٢) هؤلاء أن يجيبوا بما سمعوا منه من القول فضلاً عن أن يظهر ما شاهدوا منه من الفعل؛ لئلا ينسبوا إلى التقصير ويؤنبوا بالعجز، بل عرضوا بقولهم: ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٠] لعل هذا هو المراد من قول المصنف: «والتعريض بقولهم لبعض الصوارف»، وفي قوله في سورة «الأنبياء»: «قَالَ ذَلِكَ الْقَوْل، أَي ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧] سراً من قومه. ورؤي: سمعته رجلاً واحداً منهم»، إياه^(٣) إلى هذا المعنى.

قوله: (كيف يكون الشيء الواحد) يعني: عطف ﴿ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ على مفعول «خلق» فيكون مخلوقاً لله، وأوقع ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾ على الضمير الراجع إلى «ما» فيكون معمولاً لهم، وهو المراد من قوله: «وقع خلقه وعملهم عليها» أي: على الشيء الواحد، وإنما آتته ليكون معبراً عن الأصنام بدليل قوله: «ما تعملونه من الأصنام».

(١) من قوله: «سمعوه بعد مضي» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) في (ط): «يجز».

(٣) قوله: «إياه»: متعلق بقوله: وفي قوله في سورة الأنبياء. وانظر كلام الزمخشري في «الكشاف» (١٠):

عليها جميعاً؟ قلت: هذا كما يقال: عمل التجارِ البابِ والكرسيِّ، وعمل الصانعِ السَّوَارِ والخلخال، والمرادُ عملُ أشكالِ هذه الأشياءِ وصُورها دونِ جواهرِها، والأصنامُ جواهرٌ وأشكال، فخالقُ جواهرِها الله، وعاملُ أشكالِها الذين يُشكّلونها بنَحْتهم وحذفهم بعضَ أجزائها، حتى يستوي التشكيلُ الذي يُريدونه. فإن قلت: فما أنكرت أن تكون «ما» مصدرية لا موصولة، ويكون المعنى: والله خلَقكم وعمَلكم، كما يقولُ المُجبرَةُ؟ قلت: أقربُ ما يبطلُ به هذا السؤالُ

قوله: (أقربُ ما يبطلُ به هذا السؤالُ) إلى آخره، وخُلاصةُ الجوابِ أن قوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ هُوَ عَيْنُ مَا يَنْجِتُونَ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ احتجاجٌ على ما أنكرَ عليهم بقوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ﴾، وَإِنَّمَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ احتجاجاً ومُطابِقاً للسؤالِ أَنْ يُقَالَ: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَنْجِتُونَ^(١).

قال مكِّي: قالتِ المُعتزلة: «ما» بمعنى «الذي» فرازا من أن يُقرُّوا بعمومِ الخلقِ لله تعالى، يريدون أنه خلقَ الأشياءَ التي نُحِتَتْ منها الأصنامُ وبقيتِ الأعمالُ والحركاتُ غيرَ داخلَةٍ في خلقِ الله، تعالى الله عن ذلك، بل كلُّ من خلقَ الله لا خالقَ إلا الله، وخلقَ الله لإبليس - الذي هُوَ الشَّرُّ كُلُّهُ - يدُلُّ على أنه تعالى خلقَ جميعَ الأشياءِ. وقال تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢]؛ أجمعَ القراءُ كُلُّهُم - حتى أهلُ الشذوذ - على إضافة «شَرِّ» إلى «ما»، وقد فارقَ عمرو بنُ عبَّيدٍ رئيسُ المُعتزلةَ وقرأ: «من شَرِّ ما خلقَ» بالتَّوْنين؛ لِيُثَبِّتَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ خَالِقِينَ يَخْلُقُونَ الشَّرَّ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الشَّرَّ وَأَمَرَنَا أَنْ نَتَّعِذَ مِنْهُ، فَإِذَا خَلَقَ الشَّرَّ وَهُوَ خَالِقُ الْخَيْرِ [بلا اختلاف]^(٢)، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ أَعْمَالَ الْعِبَادِ كُلِّهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ «ما» مصدرية، والمعنى: أَنَّهُ تَعَالَى عَمَّ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ بِأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لَهُ، أَي: اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَعَمَلَكُمْ^(٣).

(١) في (ح): «تعملون».

(٢) زيادة حسنة من «مشكل إعراب القرآن».

(٣) «مشكل إعراب القرآن» (٢: ٦١٦).

وقال القاضي: هذا أبلغ^(١)؛ لأنَّ فِعْلَهُمْ إذا كَانَ بِخَلْقِ اللَّهِ فِيهِمْ كَانَ مَفْعُولُهُمْ^(٢) الْمُتَوَقَّفُ عَلَى فِعْلِهِمْ أَوْلَى بِذَلِكَ، وبهذا المعنى تَمَسَّكَ أَصْحَابُنَا عَلَى خَلْقِ الْأَعْمَالِ، وَهَلُمَّ أَنْ يُرَجَّحُوهُ عَلَى الْأَوْلَيْنِ لِمَا فِيهِمَا مِنْ حَذْفٍ أَوْ مَجَازٍ^(٣).

وقلت: تمامُ تقريره هو: أنه قد تَقَرَّرَ عِنْدَ عِلْمَاءِ الْبَيَانِ أَنَّ الْكِنَايَةَ أَوْلَى مِنَ التَّصْرِيحِ، فَإِذَا نَفَى الْحُكْمَ الْعَامَّ لِيَتَنَفَّى الْخَاصُّ كَانَ أَقْوَى وَأَثْبَتَ لِلْحُجَّةِ، وَكَمْ قَدْ كَرَّرَ فِي كِتَابِهِ هَذَا الْمَعْنَى، وَمِنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨] إِذْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ لِكُفْرِهِمْ حَالٌ يَوْجَدُ عَلَيْهَا، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ لَا يَنْفَكُ مِنْ حَالٍ عِنْدَ وُجُودِهِ، فَكَانَ إِنْكَارًا لَوْجُودِهِ عَلَى الطَّرِيقِ الْبُرْهَانِيِّ.

وقال صاحبُ «الانتصاف»: يتعيَّنُ حَمَلُ «مَا» عَلَى الْمَصْدَرِيَّةِ؛ إِذْ لَمْ يَعْبُدُوا الْأَصْنَامَ مِنْ حَيْثُ هِيَ حِجَارَةٌ عَارِيَّةٌ عَنِ الصُّورَةِ، وَلَوْلَاهَا لَمَا خَصُّوا حَجْرًا دُونَ غَيْرِهِ، بَلْ عَبَدُوهَا بِاعْتِبَارِ أَشْكَالِهَا وَهِيَ أَثَرُ عَمَلِهِمْ، فَعَلَى الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا عَبَدُوا عَمَلَهُمْ، فَوَضَّحَتِ الْحُجَّةُ فِي أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ، فَكَيْفَ يَعْبُدُ مَخْلُوقًا مَخْلُوقًا^(٤)؟!؟

قوله^(٥): «هي موصولة والمراد عمل أشكالها» مخالفة للظاهر واحتياج إلى حذف مضاف، أي «وما تعملون شكلكه وصورته» وهو موضع لبس، وإذا جعل المعبود نفس الجوهر كيف يطابق توبيخهم ببيان أن المعبود من صنعة العابد وهم يوافقون أن جواهر الأصنام ليست من خلقهم؟ فيكون على هذا ما هو من عملهم ليس معبوداً، وما هو معبودٌ - وهو الجوهر - ليس عملاً لهم.

(١) قوله: «هذا أبلغ» ليس موجوداً في كلام القاضي البيضاوي.

(٢) كذا في النسخ الخطية، وفي «أنوار التنزيل»: معموههم.

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ١٤).

(٤) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ٥١).

(٥) أي: قول الزمخشري، والكلام ما زال لابن المنير في «الانتصاف»، وقد اختصر لفظ الزمخشري كما هو ظاهر. وكذا «قوله» الآتي في بداية الفقرة التالية، يُقال فيه ما قيل هنا.

بعد بطلانه بحُجج العقل والكتاب: أنَّ معنى الآية يأباه إباءً جلياً، وينبؤ عنه نبؤاً ظاهراً؛ وذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد احتجَّ عليهم بأنَّ العابدَ والمعبودَ جميعاً خلقَ الله، فكيف يعبدُ المخلوقَ المخلوقَ؟! على أنَّ العابدَ منهما هو الذي عمِلَ صورةَ المعبودِ وشكَّله، ولولاه لما قدرَ أن يصوِّرَ نفسه ويُسكِّلها، ولو قلت: والله خلَقكم وخلقَ عملكم؛ لم تكن محتجاً عليهم، ولا كان لكلامك طباق. وشيءٌ آخر؛ وهو أنَّ قوله: ﴿مَا تَعْمَلُونَ﴾ ترجمةٌ عن قوله: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾، و﴿مَا﴾ في ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ موصولةٌ لا مقالَ فيها، فلا يعدلُ بها عن أختها إلا متعسِّف متعصِّبٌ لذهبه، من غير نظيرٍ في علم البيان، ولا تبصِّر لنظم القرآن.

فإن قلت: أ جعلها موصولةً حتى لا يلزمني ما ألزمت، وأريد: وما تعملونه من أعمالكم.

قلت: بل الإلزامان في عنقك لا يفكُّها إلا الإذعانُ للحقِّ؛ وذلك أنك وإن جعلتها موصولة، فإنك في إرادتك بها العملَ غيرُ محتجِّ على المشركين،

قوله: «المطابقةُ تنفكُّ على رأي أهل السنَّة» لا يصح، فإننا نحملُ الأولى^(١) على المصدرِ وهم في الحقيقة عبِدوا نحتهم؛ لأنَّها قبلُ النَّحْتِ لم تُعبد، فالمطابقةُ والإلزامُ على هذا أبلغ، ولو كان كما قال لقامتِ الحجَّةُ لهم ولكافحوا وقالوا: ما خلَقَ اللهُ ما نعمل؛ لأننا عمِلنا الشَّكْلَ والصُّورة، والله الحجَّةُ البالغة^(٢).

قوله: (بل الإلزامان)، أي: بطلانُهُ بحُجج العقلِ ومطابقةِ المقام، في عنقِ المُجِرَّة^(٣).

(١) يعني «ما»، وعبارة ابن المُسيَّب في «الانتصاف»: «وأما قوله: إنَّ المطابقةَ تنفكُّ على تأويلِ أهل السنَّة بين ما ينحتون وما يعملون فغير صحيح، فإنَّ لنا أن نحملُ الأولى على أنها مصدرية» إلى آخر كلامه.

وهو تأويلُ الذيل، وإنَّما اضطرنَّا إلى إيرادِ بعضه لأن في نقلِ الإمام الطيبي شائبةً إخلالٍ بمقاصده.

(٢) انظر: «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ٥١-٥٢).

(٣) يعني أهل السنَّة القائلين بأن الله تعالى خالقُ الأشياءِ كلِّها.

كحالك وقد جعلتها مصدرية، وأيضاً فإنك قاطعٌ بذلك الوصلة بين ﴿مَاتَمَلُونَ﴾ و﴿مَاتَنَحْتُونَ﴾؛ حيث تُخالف بين المرادين بهما، فتريد بـ ﴿مَاتَنَحْتُونَ﴾: الأعيان التي هي الأصنام، وبـ ﴿وَمَاتَمَلُونَ﴾: المعاني التي هي الأعمال، وفي ذلك فكُ النظم وتبَيُّره؛ كما إذا جعلتها مصدرية.

[﴿قَالُوا أَنْبَأْ لَهُ، بَيْنَنَا فَالْقُوَّةُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ ٩٧ -

[٩٨]

الجحيم: النارُ الشديدةُ الوقود، وقيل: كلُّ نارٍ على نارٍ وجمْرٍ فوق جمْرٍ، فهي جحيم. والمعنى: أن الله تعالى غلبه عليهم في المقامين جميعاً، وأذلهم بين يديه: أرادوا

قوله: (كحالك وقد جعلتها مصدرية) يعني: حالكٌ في جعلها موصولةً على هذا التأويل، كحالكٌ في جعلها مصدريةً في أنك غيرٌ محتججٌ بالآية على المشركين؛ لأن المقصود نفس ما ينحتون لا العمل كما سبق، وأيضاً فإنك قاطعٌ بذلك الوصلة بين ما يعملون وما ينحتون، يعني: إذا جعلت «ما» موصولةً وحذفت الرجوع وأردت ما تعملونه من أعمالكم لم يتجاوب الرد والاحتجاج.

وقلت: هذا تطويل، إذ لا بد لصاحب المعاني أن يراعي الفرق بين العبارتين؛ بين أن يُقال: والله خلقكم وما تنحتون، كما يقتضيه الظاهر، وبين ما عليه التلاوة، ويلتزم الأبلغية في الثاني صوتاً لكلام الله تعالى من العبث، وليس ذلك إلا الكناية كما سبق، والله أعلم.

قوله: (الجحيم: النارُ الشديدة)، الراغب: الجحمة: شدة تأجج النار، ومنه الجحيم، وجحَم وجهه من شدة الغضب استعارةً من جحمة النار، وذلك من تَوَرَّانٍ حرارة القلب^(١).

قوله: (في المقامين جميعاً) المقام الأول: قوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنَحْتُونَ﴾ * والله خلقكم وما

(١) «مفردات القرآن» ص ١٨٧.

أَنْ يَغْلِبُوهُ بِالْحُجَّةِ فَلَقَنَهُ اللَّهُ وَأَهَمَّهُ مَا أَلْقَمَهُمْ بِهِ الْحَجَرَ، وَقَهَرَهُمْ، فَمَأَلُوا إِلَى الْمَكْرِ، فَأَبْطَلَ اللَّهُ مَكْرَهُمْ وَجَعَلَهُمُ الْأَذْلَى الْأَسْفَلِينَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ.

[﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ * رَبِّي هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾]

[٩٩-١٠١]

أَرَادَ بِذَهَابِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ: مُهَاجَرَتَهُ إِلَىٰ حَيْثُ أَمَرَهُ بِالْمُهَاجِرَةِ إِلَيْهِ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ؛ كَمَا قَالَ: ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، ﴿ سَيِّدِينَ ﴾: سَيَّرْتَنِي إِلَىٰ « مَا فِيهِ صِلَاحِي فِي دِينِي، وَيَعْصِمُنِي وَيُوقِنُنِي، كَمَا قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٢] كَأَنَّ اللَّهَ وَعَدَهُ وَقَالَ لَهُ: سَأَهْدِيكَ، فَأَجْرَىٰ كَلَامَهُ عَلَىٰ سَنَنِ مَوْعِدِ رَبِّهِ، أَوْ بِنَاءٍ عَلَىٰ عَادَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مَعَهُ فِي هِدَايَتِهِ وَإِرْشَادِهِ أَوْ أَظْهَرَ بِذَلِكَ تَوَكُّلَهُ وَتَفْوِيضَهُ أَمْرَهُ إِلَىٰ اللَّهِ.

وَلَوْ قَصِدَ الرَّجَاءَ وَالطَّمَعَ لِقَالَ، كَمَا قَالَ مُوسَىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ: ﴿ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [القصص: ٢٢].

تَعْمَلُونَ ﴿ وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: « فَلَقَنَهُ اللَّهُ وَأَهَمَّهُ مَا أَلْقَمَهُمُ الْحَجَرَ ^(١)»، وَالثَّانِي: ﴿ جَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ ﴾، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: « فَأَبْطَلَ اللَّهُ مَكْرَهُمْ » إِلَىٰ آخِرِهِ.

قَوْلُهُ: (وَلَوْ قَصِدَ الرَّجَاءَ وَالطَّمَعَ لِقَالَ... ﴿ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي ﴾) يُرِيدُ أَنَّهُ عَنِ السَّلَامِ قَطَعَ بِقَوْلِهِ: ﴿ سَيِّدِينَ ﴾ حَصُولَ الْهَدَايَةِ؛ لِأَنَّ سَيْنَ الْأَسْتِقْبَالِ لِلحُجْرَمِ بِوَقُوعِ الْفِعْلِ. قَالَ فِي « الْمُفْصَلِ »: « إِنَّ « سَيِّفَعَل » جَوَابُ « لَنْ يَفْعَلَ » ^(٢)، وَكَانَتْ عَادَةُ اللَّهِ مَعَهُ جَارِيَةً عَلَى الْقَطْعِ فِي الْإِرْشَادِ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١] أَوْ أَجْرَىٰ كَلَامَهُ عَلَى الْمُشَاكَلَةِ وَسَنَنِ مَوْعِدِ رَبِّهِ، أَوْ أَظْهَرَ بِذَلِكَ لِلْقَوْمِ وَمَنْ كَانَ قَاصِدَهُ وَيُرِيدُ كَيْدَهُ التَّجَلُّدَ، يَعْنِي أَنَّ حَالِي مَعَ رَبِّي بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ فَلَا أَبَالِي بِكَيْدِكُمْ، فَالْمَقَامُ يَا أَيُّ التَّجَرُّاءِ وَالطَّمَعِ.

(١) فِي (ح): أَلْقَمَهُمُ النَّارَ وَالْحَجَرَ.

(٢) « الْمُفْصَلُ فِي صِنْعَةِ الْإِعْرَابِ » ص ٤٣٥ نَقْلًا عَنِ الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ رَجَمَهُ اللَّهُ.

﴿ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾: هَبْ لِي بَعْضَ الصَّالِحِينَ، يَرِيدُ الْوَلَدَ؛ لِأَنَّ لَفْظَ الْهَبَةِ غَلَبَ فِي الْوَلَدِ وَإِنْ كَانَ قَدْ جَاءَ فِي الْأَخِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣] قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [الأنعام: ٨٤] ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال عليُّ بن أبي طالب لابن عباسٍ رضي الله عنهما حين هتأه بولده عليَّ أبي الأملاك: شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب. ولذلك وقعت التسمية بهبة الله، وبمؤهوب، ووهب، ومؤهب.

وقد انطوت البشارة على ثلاث: على أن الولد غلامٌ ذكر، وأنه يبلغ أوان الحلم، وأنه يكون حليماً، وأي حلم أعظم من حلمه حين عرّض عليه أبوه الذبح، فقال: ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الصفات: ١٠٢]، ثم استسلم لذلك؟! وقيل: ما نعت الله الأنبياء عليهم السلام، بأقل مما نعتهم بالحلم، وذلك لعزّة وجوده، ولقد نعت الله به إبراهيم في قوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤]، ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٥]؛ لأنّ الحادثة شهدت بحلمها.

قوله: (هتأه بولده عليُّ أبي الأملاك) يعني: أبي الخلفاء، وفي «جامع الأصول»: هو أبو عبد الله، ويُقال: أبو محمد عليُّ بن عبد الله بن العباسٍ رضي الله عنهم، أحد سادات بني هاشم، كان كثير العباداة، يُقال: إنّه ولد ليلة قتل عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه فسمي باسمه، ومات بالشام سنة ثمانٍ وعشرة ومئة، وقيل: سنة عشر ومئة^(١).

وفي قوله: «أبي الأملاك» تعريضٌ بهم^(٢) وأنهم لم يكونوا خلفاء.

(١) «جامع الأصول» (١٢: ٧١٣).

(٢) يعني خلفاء بني العباس، فإن الزمخشري كان يسيط لسانه فيهم، ويجهد في كل ما من شأنه أن يتل عروشهم ويوهن أمرهم على عادة المعتزلة في مناصبة الحكام العداء.

[﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَارِ آيَاتٍ أُذْهِبُكَ فَأَنْظِرُ مَاذَا تَرَىٰ﴾
قَالَ يَتَأْتِي أَفْعَلُ مَا تَوْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾]

فلما بلغ أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوادثه.

فإن قلت: ﴿مَعَهُ﴾ بِمِ يَتَعَلَّقُ؟ قلت: لا يخلو: إما أن يتعلَّقَ بـ ﴿بَلَغَ﴾، أو بـ ﴿السَّعَىٰ﴾، أو بمحذوف، فلا يصحُّ تعلُّقه بـ ﴿بَلَغَ﴾؛ لاقتضائه بلوغهما معاً حدَّ السعي، ولا بـ ﴿السَّعَىٰ﴾؛ لأنَّ صلة المصدر لا تتقدَّم عليه؛ فبقي أن يكون بياناً، كأنه

قوله: (أن يسعى مع أبيه في أشغاله) الرَّاغِبُ: السَّعَى: المشي السَّريع وهو دون العدو، وَيُسْتَعْمَلُ لِلجَدِّ فِي الأمرِ خيراً كَانَ أو شَرًّا، قَالَ تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩] وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ فِي الأفعالِ المحمودة كما قَالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى﴾ أي: أدرك ما سعى في طلبه^(١).

قوله: (لاقتضائه بلوغهما معاً حدَّ السَّعي) يُرِيدُ أَنْ لَفْظَةَ «مَعَ» تَقْتَضِي استحداثَ المُصاحِبَةِ، قَالَ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ [يوسف: ٣٦]: «مَعَ» يَدُلُّ عَلَى معنى الصُّحْبَةِ واستحداثها فيجب أن يكون دُخولُهما السَّجْنَ مُصاحِبِينَ^(٢) له؛ لأنَّ «معه» على هذا حالٍ من فاعِلٍ «بَلَغَ» فيكونُ قِيداً للبلوغ فيلزمُ منه ما ذَكَرَهُ من المحذور؛ لأنَّ معنى المعِيَّةِ المُصاحِبَةُ وهي مُفاعلة، وقد قِيدَ الفِعْلُ بِهَا فيجبُ الاشتراكُ فيه. إنَّ قَوْلَ بَلْقَيْسٍ: ﴿مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ - على ما ذَكَرَ - يَقْتَضِي استحداثَ إسلامِهما معاً، وليس كذلك؛ لأنَّا نقول: لا يَبْعُدُ ذَلِكَ، فَلَعَلَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وافَقَهَا أو لَقَّنَهَا، وإِنَّمَا المعنى على بلوغِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الحدَّ الَّذِي يَقْدَرُ فِيهِ عَلَى العَمَلِ فِي صُحْبَةِ أَبِيهِ إِبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

روى الواحديُّ عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي اللهُ عنه: لَمَّا شَبَّ حَتَّى بَلَغَ سَعِيَّهُ سَعَى إِبراهيمَ^(٣). والمعنى: بَلَغَ أَنْ يَتَصَرَّفَ مَعَهُ وَيُعِينَهُ، فَإِذَنْ لا بَدَّ مِنْ تَعَلُّقِهِ بِالسَّعَى، لا كما ظَنَّ أَنَّهُ يجوزُ أَنْ

(١) «مفردات القرآن» ص ٤١١.

(٢) من قوله: «قال في قوله تعالى» إلى هنا، سقط من (ح).

(٣) «التفسير الوسيط» للواحدي (٣: ٥٢٩).

لَمَّا قَالَ: فَلَمَّا بَلَغَ السَّعْيِ، أَي: الْحَدَّ الَّذِي يَقْدِرُ فِيهِ عَلَى السَّعْيِ، قِيلَ: مَعَ مَنْ؟ فَقَالَ: مَعَ أَبِيهِ. وَالْمَعْنَى فِي اخْتِصَاصِ الْأَبِ: أَنَّهُ أَرْفَقَ النَّاسَ بِهِ، وَأَعْطَفَهُمْ عَلَيْهِ، وَغَيْرُهُ رَبِّمَا عَنَّفَ بِهِ فِي الْإِسْتِسْعَاءِ، فَلَا يَحْتَمِلُهُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ تَسْتَحْكِمِ قُوَّتَهُ وَلَمْ يَصْلُبْ عُوْدَهُ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ ابْنُ ثَلَاثِ عَشْرَةَ سَنَةً. وَالْمُرَادُ: أَنَّهُ عَلَى غَضَاضَةِ سَنَةٍ وَتَقَلُّبِهِ فِي حَدِّ الطُّفُولَةِ، كَانَ فِيهِ مِنْ رِصَانَةِ الْحِلْمِ وَفُسْحَةِ الصَّدْرِ مَا جَسَّرَهُ عَلَى احْتِمَالِ تِلْكَ الْبَلِيَّةِ الْعَظِيمَةِ وَالْإِجَابَةِ

يَتَعَلَّقُ بِـ «بَلَغَ» وَحِينَ لَمْ يَجْزُ تَقْدِيمُهُ عَلَيْهِ وَجَبَ أَنْ يُقَدَّرَ مِثْلُهُ عَلَى شَرِيحَةِ التَّفْسِيرِ، كَمَا قَالَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠]: «فِيهِ» لَيْسَ مِنْ صِلَةِ «الزَّاهِدِينَ»^(١) لِأَنَّ الصَّلَةَ لَا تَتَقَدَّمُ عَلَى الْمَوْصُولِ، وَإِنَّمَا هُوَ بَيَانٌ، كَأَنَّهُ قِيلَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ زَهَدُوا؟ فَقِيلَ: زَهَدُوا فِيهِ. وَهَكَذَا التَّقْدِيرُ، لَمَّا قَالَ: «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيِ» أَي الْقُدْرَةَ عَلَى أَنْ يَسْعَى. فَقِيلَ: مَعَ^(٢) مَنْ يَسْعَى؟ فَقِيلَ: مَعَ أَبِيهِ.

وَالْفَائِدَةُ فِي التَّكْرِيرِ التَّأْكِيدُ كَمَا فِي تَرْكِيبِ الْإِضْمَارِ عَلَى شَرِيحَةِ التَّفْسِيرِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي اسْتِصْحَابِهِ إِيَّاهُ، كَأَنَّهُ بَلَغَ مَعَهُ وَاسْتَكْمَلَ فِي أَخْلَاقِهِ مِنْ بَدءِ^(٣) حَالِهِ، وَفِي تَخْصِيصِ ذِكْرِ الْأَبِ مَا ذَكَرَهُ، وَالْفَائِدَةُ فِي تَخْصِيصِ هَذَا الْحَدِّ مِنَ الْعُمُرِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهُ عَلَى غَضَاضَةِ سَنَةٍ^(٤) كَانَ فِيهِ مِنْ رِصَانَةِ الْحِلْمِ مَا جَسَّرَهُ عَلَى احْتِمَالِ تِلْكَ الْبَلِيَّةِ.

قَالَ صَاحِبُ «الْفَرَائِدِ»: أَيُّ افْتِقَارٍ إِلَى الْبَيَانِ وَإِلَى السُّؤَالِ؟ وَالْوَجْهُ أَنْ يُقَالَ: التَّقْدِيرُ فَلَمَّا بَلَغَ السَّعْيِ كَأَنَّ مَعَهُ^(٥)، فَيَكُونُ حَالًا مِنَ «السَّعْيِ» مُتَقَدِّمًا عَلَيْهِ.

وَقُلْتُ: الْمَعْنَى لَا يَسَاعِدُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا بَلَغَ سَعْيًا وَصَفَّهُ أَنَّهُ كَائِنٌ مَعَ أَبِيهِ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَلَغَ حَدًّا مِنَ الْعُمُرِ يَسْعَى مَعَ أَبِيهِ.

(١) قَوْلُهُ: «فِيهِ» لَيْسَ مِنْ صِلَةِ «الزَّاهِدِينَ» سَقَطَ مِنْ (ح).

(٢) سَقَطَ لَفْظُ: «مَعَ» مِنْ (ح).

(٣) فِي (ف): «مَزِيدٌ».

(٤) فِي (ط): «مِنْهُ».

(٥) فِي (ط): «مِنْهُ».

بذلك الجواب الحكيم: أتي في المنام فقيل له: اذبح ابنك، ورؤيا الأنبياء وحي كالوحي في اليقظة؛ فلماذا قال: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾، فذكر تأويل الرؤيا، كما يقول الممتحن وقد رأى أنه راكب في سفينة: رأيت في المنام أني ناج من هذه المحنة. وقيل: رأى ليلة التروية كأن قائلًا يقول له: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ بِذَبْحِ ابْنِكَ هَذَا، فلما أصبح رَوَا فِي ذَلِكَ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى الرَّوَّاحِ: أَمِنَ اللَّهُ هَذَا الْحُلْمُ أَمْ مِنَ الشَّيْطَانِ؟ فَمَنْ تَمَّ سُمِّيَ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ، فَلَمَّا أَمْسَى رَأَى مِثْلَ ذَلِكَ، فَعَرَفَ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، فَمَنْ تَمَّ سُمِّيَ يَوْمَ عَرَفَةَ، ثُمَّ رَأَى مِثْلَهُ فِي اللَّيْلَةِ الثَّلَاثَةِ، فَهَمَّ بِنَحْرِهِ؛ فَسُمِّيَ الْيَوْمَ بِيَوْمِ النَّحْرِ. وَقِيلَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ حِينَ بَشَّرْتَهُ بِغَلَامٍ حَلِيمٍ قَالَ: هُوَ إِذْنٌ ذَبِيحُ اللَّهِ. فَلَمَّا وُلِدَ وَبَلَغَ حَدَّ السَّعْيِ مَعَهُ قِيلَ لَهُ: أَوْفِ بِبَنَدْرِكَ.

﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ من الرأي على وجه المشاورة. وقرئ: (ماذا ترى)، أي: ماذا تبصر من رأيك وتبدييه، و(ماذا ترى) على البناء للمفعول، أي: ماذا تريك نفسك؟

قوله: (بذلك الجواب الحكيم) وذلك أنه فوّض الأمر إليه في استشارته بقوله: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾، وكان من الظاهر أن يجيب: أفعل أو لا تفعل، فأجاب بقوله: ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، أي ليس هذا من مقام المشاورة؛ لأن الواجب عليك إمضاء ما أمرت به وامتنال أمر ربك.

قوله: (وقيل: إن الملائكة حين بشرته عطف على قوله: «وقيل: رأى ليلة التروية»^(١)). فإن قيل: فعلى هذا لا يلزم أن يكون قد رأى شيئاً، فما يصنع بقوله: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ﴾؟ فيقال: يُمكنُ أَنَّهُ قَدْ رَأَى رُؤْيَا بَعْدَ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ، وَقِيلَ لَهُ فِيهَا: أَوْفِ بِبَنَدْرِكَ، تَأْكِيدًا لَوْفَاءِ النَّذْرِ.

قوله: («وماذا ترى» على البناء للمفعول) حمزة والكسائي: «ما ترى»؛ بضم التاء

(١) في (ف): «الرؤية»، وليلة التروية هي الليلة التي ينهضون بها إلى منى ليتزودوا بالماء، ثم يذهبون إلى عرفات. انظر: «الوسيط» للإمام الغزالي (٢: ٦٢٧).

من الرأي، ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: ما تُؤمَر به، فحُذِف الجارُّ كما حُذِف من قوله:

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَافْعَلْ مَا أَمِرْتُ بِهِ

أو: أَمُرُّكَ عَلَى إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى الْمَفْعُولِ، وَتَسْمِيَةِ الْمَأْمُورِ بِهِ أَمْرًا.

وَكَسَرَ الرَّاءَ كَسْرَةً خَالِصَةً، يَجْعَلَانِهِ فِعْلًا رُبَاعِيًّا، وَالْباقُونَ: بَفَتْحِهَا، يَجْعَلُونَهُ ثَلَاثِيًّا^(١). قَالَ صَاحِبُ «الْكَشْفِ»: فَمَنْ قَالَ: «مَاذَا تُرِي» فَالتَّقْدِيرُ: مَاذَا تُرِينِيهِ؟ إِذَا جَعَلْتَ «مَا» مُبْتَدَأً وَ«ذَا» بِمَعْنَى «الَّذِي» فَالْهَاءُ عَائِدَةٌ إِلَى «ذَا».

وَمَنْ جَعَلَ «مَا» وَ«ذَا» كَالشَّيْءِ الْوَاحِدِ كَانَ نَصَبًا مَفْعُولًا ثَانِيًا لـ «تُرِي» وَحَذَفَ الْمَفْعُولَ الْأَوَّلَ، أَي: أَيُّ شَيْءٍ تُرِينِيهِ؟ وَقَوْلُهُ: «تُرِي» مِنْ: أَرَى يُرِي، وَليستِ التَّعْدِيَةُ إِلَى ثَلَاثَةِ مَنْقُولًا مِنْ: رَأَى؛ إِذَا عَلِمَ^(٢)، لَكِنَّهُ مَنْقُولٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: فَلَانَ يَرَى رَأْيَ أَبِي حَنِيفَةَ.

وَهَذَا يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ، فَإِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ الْهَمْزَةُ تَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] أَي: بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ.

وَمَنْ قَالَ: ﴿مَاذَا تَرَى﴾ بَفَتْحِ التَّاءِ إِنْ جَعَلَ «مَا» وَ«ذَا» كَالشَّيْءِ الْوَاحِدِ كَانَ مَفْعُولَ ﴿تَرَى﴾، وَإِنْ جَعَلَ «مَا» مُبْتَدَأً وَ«ذَا» بِمَعْنَى «الَّذِي»، كَانَ التَّقْدِيرُ: مَاذَا تَرَاهُ^(٣)؟

وَقَالَ مَكِّي: لَا يَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ ﴿تَرَى﴾ مِنْ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ أَنْ يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ، وَليستِ فِي الْكَلَامِ غَيْرُ وَاحِدٍ وَهُوَ ﴿مَاذَا﴾ بِجَعْلِهَا اسْمًا وَاحِدًا، وَليستِ أَيْضًا مِنْ نَظَرِ الْعَيْنِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْهُ بِرُؤْيِيَةِ شَيْءٍ، إِنَّمَا أَمَرَهُ أَنْ يُدَبِّرَ رَأْيَهُ فِيمَا أَمَرَ بِهِ، وَلَا يَحْسُنُ عَمَلُ ﴿تَرَى﴾ فِي «ذَا»، وَهِيَ بِمَعْنَى «الَّذِي»، لِأَنَّ الصَّلَةَ لَا تَعْمَلُ فِي الْمَوْصُولِ^(٤).

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١٨٦.

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢٥٣-٢٥٤) بتحقيق د. عبد القادر السعدي، و(١١٢٧: ٢) بتحقيق

د. محمد الدالي.

(٣) في (ط): «عم».

(٤) انظر كلام مكِّي في «مشكل إعراب القرآن» (٦١٧: ٢) وبنحوه في «الكشف عن وجوه القراءات

السبع» (٢٢٥-٢٢٦).

وَقُرْئِ: (ما تُؤمَّر به). فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ شَاوَرَهُ فِي أَمْرِ هُوَ حَتْمٌ مِنَ اللَّهِ؟ قُلْتَ: لِمَ يَشَاوِرُهُ لِيَرْجِعَ إِلَى رَأْيِهِ وَمَشُورَتِهِ، وَلَكِنْ لِيَعْلَمَ مَا عِنْدَهُ فِيمَا نَزَلَ بِهِ مِنْ بَلَاءِ اللَّهِ، فَيُثَبِّتَ قَدَمَهُ وَيُصَبِّرَهُ إِنْ جَزَعَ، وَيَأْمَنَ عَلَيْهِ الزَّلْزَلُ إِنْ صَبَرَ وَسَلَّم، وَلِيُعْلِمَهُ حَتَّى يُرَاجِعَ نَفْسَهُ فَيُوطِنَهَا وَيَهْوَنَ عَلَيْهَا، وَيَلْقَى الْبَلَاءَ وَهُوَ كَالْمُسْتَأْنَسِ بِهِ، وَيَكْتَسِبَ الْمَثُوبَةَ بِالْانْقِيَادِ لِأَمْرِ اللَّهِ قَبْلَ نُزُولِهِ؛ وَلِأَنَّ الْمُغَافَصَةَ بِالذَّبْحِ مِمَّا يُسْتَسْمَحُ؛ وَلِيَكُونَ سُنَّةً فِي الْمُشَاوَرَةِ، فَقَدْ قِيلَ: لَوْ شَاوَرَ آدَمُ الْمَلَائِكَةَ فِي أَكْلِهِ مِنَ الشَّجَرَةِ لَمَا فَرَطَ مِنْ ذَلِكَ. فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ كَانَ ذَلِكَ بِالْمَنَامِ دُونَ الْيَقِظَةِ؟

قُلْتَ: كَمَا أُرِيَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَجُودَ آبُوئِهِ وَإِخْوَتِهِ لَهُ فِي الْمَنَامِ مِنْ غَيْرِ وَحْيٍ إِلَى أَبِيهِ، وَكَمَا وُعِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دُخُولَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي الْمَنَامِ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ مَنَامَاتِ الْأَنْبِيَاءِ؛ وَذَلِكَ لِتَقْوِيَةِ الدَّلَالَةِ عَلَى كَوْنِهِمْ صَادِقِينَ مُصَدِّقِينَ؛ لِأَنَّ الْحَالَ إِمَّا حَالٌ يَقِظَةٌ أَوْ حَالٌ مَنَامٌ، فَإِذَا تَظَاهَرَتِ الْحَالَتَانِ عَلَى الصِّدْقِ كَانَ ذَلِكَ أَقْوَى لِلدَّلَالَةِ مِنْ انْفِرَادِ أَحَدَاهُمَا.

[﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ وَتَدَبَّنَهُ أَنْ يَتَّابِرْهِمُ * قَدْ صَدَقْتَ الرَّيَّاءُ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَأُ الْمَيْنُ * وَفَدَيْنَهُ بِذَنبِ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٠٣-١١١]

يُقَالُ: سَلَّمَ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَأَسْلَمَ، وَاسْتَسَلَّمَ، بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَقَدْ قُرِئَ بِهِنَّ جَمِيعاً؛ إِذَا انْقَادَ لَهُ، وَخَضَعَ، وَأَصْلُهَا مِنْ قَوْلِكَ: سَلِمَ هَذَا لِفُلَانٍ؛ إِذَا خَلَصَ لَهُ. وَمَعْنَاهُ: سَلَّمَ

قَوْلُهُ: (الْمُغَافَصَةُ)، الْجَوْهَرِيُّ: غَافَضْتُ الرَّجُلَ؛ إِذَا أَخَذْتَهُ عَلَى غِرَّةٍ.

قَوْلُهُ: (لَوْ شَاوَرَ آدَمُ الْمَلَائِكَةَ) يَعْنِي أَنَّ الْمَلَائِكَةَ مَعَ أَنَّهُمْ طَعَنُوا فِيهِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿أَتَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] لَوْ اسْتَشِيرُوا لِنَصَحُوا أَوْ ظَهَّرَتْ لَهُ مِنْ كَلَامِهِمْ أَمَارَةً دَلَّتْ عَلَى التَّرْكِ.

مِنَ أَنْ يُنَازِعَ فِيهِ، وَقَوْلُهُمْ: سَلَّمْ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَأَسْلَمَ لَهُ: مَثَقُولَانِ مِنْهُ، وَحَقِيقَةٌ مَعْنَاهُمَا: أَخْلَصَ نَفْسَهُ لِلَّهِ وَجَعَلَهَا سَالِمَةً لَهُ خَالِصَةً، وَكَذَلِكَ مَعْنَى: اسْتَسَلَمَ: اسْتَخْلَصَ نَفْسَهُ لِلَّهِ. وَعَنْ قَتَادَةَ فِي ﴿أَسْلَمًا﴾: أَسْلَمَ هَذَا ابْنَهُ وَهَذَا نَفْسَهُ. ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ صَرَعَهُ عَلَى شِقِّهِ، فَوْقَ أَحَدِ جَنْبَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ، تَوَاضَعًا عَلَى مَبَاشَرَةِ الْأَمْرِ بِصَبْرٍ وَجَلَدٍ، لِيَرْضِيَ الرَّحْمَنَ وَيُجْزِي الشَّيْطَانَ. وَرُوي: أَنَّ ذَلِكَ الْمَكَانَ عِنْدَ الصَّخْرَةِ الَّتِي بِمِنَى، وَعَنْ الْحَسَنِ: فِي الْمَوْضِعِ الْمُشْرِفِ عَلَى مَسْجِدِ مِنَى. وَعَنْ الضَّحَّاكِ: فِي الْمَنْحَرِ الَّذِي يُنْحَرُ فِيهِ الْيَوْمَ. فَإِنْ قُلْتَ: أَيْنَ جَوَابُ ﴿لَمَّا﴾؟ قُلْتَ: هُوَ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمًا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ وَتَدْبِيرُهُ أَنْ يَتَّبِعَهُمُ * قَدْ صَدَقَتْ الرَّؤْيَا * كَمَا مَا كَانَ مِمَّا تَنْطِقُ بِهِ الْحَالُ وَلَا يُحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ: مِنْ اسْتَبْشَارِهِمَا، وَاعْتِبَاطِهِمَا، وَحَمْدِهِمَا لِلَّهِ، وَشُكْرِهِمَا عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمَا؛ مِنْ دَفْعِ الْبَلَاءِ الْعَظِيمِ بَعْدَ حُلُولِهِ، وَمَا اكْتَسَبَا فِي تَضَاعُيفِهِ بَتَوَطُّيْنِ الْأَنْفُسِ عَلَيْهِ مِنْ الثَّوَابِ وَالْأَعْوَاضِ وَرِضْوَانِ اللَّهِ الَّذِي لَيْسَ وَرَاءَهُ مَطْلُوبٌ.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لتحويل ما خولها من الفرج بعد الشدة، والظفر بالبغية بعد اليأس. ﴿أَبَلْتُمْ أَلْمِينُ﴾: الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم. أو: المحنة البيئة الصعوبة التي لا محنة أصعب منها. الذبح: اسم ما يُذبح. وعن ابن عباس، رضي الله عنهما: هو الكبش الذي قربه هايل فقبل منه، وكان يرعى في الجنة حتى فُدي به إسماعيل.

قوله: (بمنى)، «منى» يُصْرَفُ وَلَا يُصْرَفُ، مِنْ: مَنْي؛ إِذَا قَدَّرَ، فَسُمِّيَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ تَمَنَّى فِيهِ مَنَائِمَ الْأَضْحَايِ، أَي: تَقَدَّرَ فِيهِ، وَقِيلَ: تَمَنَّى فِيهِ دِمَاءَ الْهَدْيِ، أَي: تَرَأَى.

قوله: (من الثواب والأعواض) قد سبق أن الثواب عندهم هو الجزاء على أعمال الخير، والعوض هو البدل عن الفاتت، كالسلامة التي هي بدل الألم، والنعم التي هي في مقابلة البلايا والمحن والرزايا والفتن.

وعن الحسن: فُدي بوعُل أُهبط عليه من ثبير. وعن ابن عباس: لو تمّت تلك الذبيحة لكانت سنة، وذبح الناس أبناءهم. ﴿عَظِيمٌ﴾: ضخم الجثة سمين، وهي السنة في الأضاحي. وقوله عليه السلام: «استشرفوا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم». وقيل: لأنه وقع فداء عن ولد إبراهيم. ورُوي: أنه هرب من إبراهيم عليه السلام عند الجمرة، فرماه بسبع حصيات حتى أخذه، فبقيت سنة في الرمي.

ورُوي: أنه رمى الشيطان حين تعرّض له بالوسوسة عند ذبح ولده. ورُوي: أنه لما ذبحه قال جبريل: الله أكبر الله أكبر، فقال الذبيح: لا إله إلا الله والله أكبر، فقال إبراهيم: الله أكبر والله الحمد؛ فبقي سنة.

وحكي في قصة الذبيح: أنه حين أراد ذبحه وقال: يا بُني خذ الحبل والمذبة وانطلق بنا إلى الشعب نحتطب، فلما توسط شعب ثبير أخبره بما أمر. فقال له: اشدّد رباطي لا أضطرب، واكفّف عني ثيابك لا ينتضح عليها شيء من دمي فينقص أجري وتراه أمي فتحزن، واشحذ شفرتك وأسرع إمرارها على حلقي حتى تجيز علي؛ ليكون

قوله: (من ثبير)، النهاية: هو الجبل المعروف عند مكة^(١)، وهو أيضًا اسم ماء في ديار مزينة.

قوله: (استشرفوا ضحاياكم)، النهاية: وفي حديث الأضاحي: «أمرنا أن نستشرف العين والأذن»^(٢)، أي: نتأمل سلامتها من آفة تكون بهما. وقيل: هو من الشرفة وهي خيار المال، أي: أمرنا أن نتخير.

قوله (حتى تجيز علي)، الجوهرية: جُزْتُ الموضع أجوزُهُ جوازًا: سلكتُهُ، وأجزتُهُ: خَلَفْتُهُ وَقَطَعْتُهُ، وأجزتُهُ: أنفدته. وعن بعضهم: أجهزتُ على الجريح وأجزتُ: إذا أسرعت في قتله.

(١) في (ح): «عند أهل مكة».

(٢) هو جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٢٧٥) من حديث علي رضي الله عنه، وهو في «سنن أبي داود» (٢٨٠٤) و«سنن الترمذي» (١٤٩٨) و(١٥٠٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

أهون؛ فإنَّ الموتَ شديد، واقرأ على أمِّي سلامي، وإن رأيتَ أن تردَّ قميصي على أمي فافعل؛ فإنه عسى أن يكون أسهلَ لها، فقال إبراهيمُ عليه السلام: نِعَمَ العَوْنُ أنتَ يا بُنيَّ على أمرِ الله، ثم أقبل عليه يُقبِّلهُ وقد رَبَطه، وهما يَبْكِيان، ثم وَضَعَ السُّكَّيْنَ على حَلَقه، فلم يَعْمَل؛ لأنَّ الله صَرَبَ صَفِيحَةً مِن نُحاسٍ على حَلَقه، فقال له: كُتِّبني على وَجْهي فإنك إذا نظرتَ في وجهي رحمتني وأدرتكَ رِقَّةً تُحوِلُ بينك وبين أمرِ الله، ففعل، ثم وَضَعَ السُّكَّيْنَ على قَفاه، فانقلبَ السُّكَّيْن، ونُودي: يا إبراهيمُ قد صَدَقْتَ الرؤيا، فنظَرَ فإذا جبريلُ عليه السلام معه كَبَشُ أقرنُ أَمْلَح، فكَبَّرَ جبريلُ والكبش، وإبراهيمُ وابنه، وأتى المنحَرُ مِن مِنى فذَبَحَه. وقيل: لَمَّا وصل موضعُ السُّجودِ إلى الأرضِ جاءَ الفَرَجُ.

وقد استشهد أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية فيمن نَذَرَ ذَبِيح ولده: أنه يلزمه ذَبِيح شاة.

فإن قلت: مَنْ كان الذَّبِيحَ من ولَدِيهِ؟ قلت: قد اختلف فيه؛ فعن ابن عباسٍ وابنِ عمرَ ومحمدِ بنِ كعبِ القُرْظِيِّ وجماعةٍ من التابعين: أنه إسماعيل. والحجَّةُ فيه:

قوله: (أَمْلَح)، الجوهري: المُلْحَةُ من الألوان: بياضٌ يخالطُه سواد، يُقال: كبشٌ أَمْلَح. قوله: (وقد استشهد أبو حنيفة رضي الله عنه بهذه الآية فيمن نَذَرَ بِذَبِيح^(١) ولَدِهِ أَنَّهُ يَلْزَمُهُ ذَبِيحُ شاة)، قال صاحبُ «التَّقریب»: وفيه نَظَر؛ إذ ليس فيها ذِكْرُ النَّذْرِ ولا لزومُ الذَّبِيح، بل إنَّ الله تَفَضَّلَ بالفداءِ وأيضًا هو شرعٌ مَن قَبَلنا.

قوله: (مَنْ كانَ الذَّبِيحَ)، «كانَ» زائدة، أي مَن الذَّبِيح؟ ولو نُصِبَ وتكون «كانَ» ناقصةً جاز.

(١) كذا في الأصول الخطية، وكذا هو في نصِّ «الكشاف» من (ط)، لكن في الأصل الخطي من «الكشاف» وفي المطبوع: «ذبيح»، وهو الأحسن.

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ». وَقَالَ لَهُ أَعْرَابِيٌّ: يَا ابْنَ الذَّبِيحَيْنِ، فَتَبَسَّمْ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّ عَبْدَ الْمُطَلِّبِ لَمَّا حَفَرَ بئرَ زَمْزَمَ نَذَرَ لِلَّهِ: لئن سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهَا لِيَذْبَحَنَّ أَحَدًا وَلَدِهِ، فَخَرَجَ السَّهْمُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ، فَمَنَعَهُ أَحْوَالُهُ، وَقَالُوا لَهُ: افْدِ ابْنَكَ بِمِثَّةٍ مِنَ الْإِبِلِ، فَفَدَاهُ بِمِثَّةٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَالثَّانِي إِسْمَاعِيلُ». وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ قَالَ: كَانَ مَجْتَهِدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَقُولُ إِذَا دَعَا: اللَّهُمَّ إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْرَائِيلَ، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ، مَا لِمَجْتَهِدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا دَعَا قَالَ: اللَّهُمَّ إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْرَائِيلَ، وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ قَدْ أَسْمَعْتَنِي كَلَامَكَ وَاصْطَفَيْتَنِي بِرِسَالَتِكَ؟ قَالَ: يَا مُوسَى، لَمْ يُجَبِّنِي أَحَدٌ حَبَّ إِبْرَاهِيمَ قَطُّ، وَلَا خَيْرٌ بَيْنِي وَبَيْنَ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اخْتَارَنِي، وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَإِنَّهُ جَادَ بَدَمِ نَفْسِهِ، وَأَمَّا إِسْرَائِيلُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَبْأَسْ مِنْ

قَوْلُهُ: (فَقَالَ: إِنَّ عَبْدَ الْمُطَلِّبِ لَمَّا حَفَرَ بئرَ زَمْزَمَ نَذَرَ لِلَّهِ)، رَوَى ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي كِتَابِ «الْوَفَا» (١): أَنَّ عَبْدَ الْمُطَلِّبِ قَدْ رَأَى فِي الْمَنَامِ: اخْفَرُ زَمْزَمَ، وَنُعِتَ لَهُ مَوْضِعُهَا، فَقَامَ يَحْفَرُ وَلَيْسَ لَهُ وَلَدٌ يَوْمِئِذٍ إِلَّا الْحَارِثُ، فَنَازَعَتْهُ قُرَيْشٌ، فَنَذَرَ لئن وُلِدَ لَهُ عَشْرَةٌ نَفَرْتُمْ بَلَّغُوا أَنْ يَمْنَعُوهُ لِيَنْحَرَنَّ أَحَدَهُمْ لِلَّهِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ، فَلَمَّا تَمَّوا عَشْرَةً وَعَرَفَ أَنَّهُمْ سَيَمْنَعُونَهُ أَخْبَرَهُمْ بِنَذْرِهِ فَأَطَاعُوهُ، وَكَتَبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ اسْمَهُ فِي قِدْحٍ فَضَرِبَ فَخَرَجَ الْقِدْحُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ فَأَخَذَ الشَّفْرَةَ لِيَذْبَحَهُ، فَقَامَتْ قُرَيْشٌ مِنْ أُنْدِيَّتِهَا فَقَالُوا: لَا تَفْعَلْ حَتَّى نُعْذَرَ فِيهِ، فَاَنْطَلَقَ بِهِ إِلَى عَرَّافَةٍ، فَقَالَتْ لَهُ: كَمْ الدِّيَّةُ فِيكُمْ؟ قَالَ: عَشْرٌ مِنَ الْإِبِلِ. قَالَتْ: قَرَّبُوا صَاحِبِكُمْ وَقَرَّبُوا عَشْرًا مِنَ الْإِبِلِ ثُمَّ اضْرِبُوا عَلَيْهِ الْقِدَاحَ، فَإِنْ خَرَجَتْ عَلَى صَاحِبِكُمْ فَزِيدُوا مِنَ الْإِبِلِ حَتَّى يَرْضَى رَبُّكُمْ، فَإِذَا خَرَجَتْ عَلَى الْإِبِلِ فَقَدْ رَضِيَ، فَفَعَلُوا حَتَّى بَلَغَ الْإِبِلُ مِثَّةً، فَخَرَجَ الْقِدْحُ عَلَى الْإِبِلِ فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَلِّبِ: لَا وَاللَّهِ حَتَّى اضْرِبَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهَا مَرَّاتٍ، فَفَعَلَ فَخَرَجَ الْقِدْحُ عَلَى الْإِبِلِ، فَنُحِرَتْ ثُمَّ تُرِكَتْ لَا يُصَدُّ عَنْهَا إِنْسَانٌ وَلَا سَبْعٌ. وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ هِشَامٍ صَاحِبُ سِيَرِ النَّبِيِّ ﷺ أَسْطَ مِنْ ذَلِكَ.

(١) «الوفا بأحوال المصطفى» ص ٨١-٨٢.

رُوحِي فِي شِدَّةٍ نَزَلْتُ بِهِ قَطًّا. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أْتَمَّ قِصَّةَ الذَّبِيحِ قَالَ: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ بَيْتًا﴾ [الصافات: ١١٢].

وعن محمد بن كعب: أنه قال لعمر بن عبد العزيز: هو إسماعيل، فقال عمر: إن هذا شيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى يهودي قد أسلم فسأله، فقال: إن اليهود لتعلم أنه إسماعيل، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب. ويدل عليه: أَنَّ قُرْنِي الكَبْشِ كَانَا مُنَوِّطَيْنِ فِي الكَعْبَةِ فِي أَيَدِي بَنِي إِسْمَاعِيلَ إِلَى أَنْ احْتَرَقَ البَيْتُ.

وعن الأصمعي قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعي، أين عَزَبَ عَنْكَ عَقْلُكَ؟! ومتى كان إسحاق بمكة؟! وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، والمنحَرُ بمكة. ومما يدل عليه: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَهُ بِالصَّبْرِ دُونَ أَخِيهِ إِسْحَاقَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥]، وهو صبره على الذبيح، وَوَصَفَهُ بِصِدْقِ الوَعْدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]؛ لَأَنَّهُ وَعَدَ أَبَاهُ مِنْ نَفْسِهِ الصَّبْرَ عَلَى الذَّبِيحِ فَوْقَ بِهِ؛ وَلِأَنَّ اللَّهَ بَشَّرَهُ بِإِسْحَاقَ وَوَلَدَهُ يَعْقُوبَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، فلو كان الذبيحُ إسحاقَ لكان خُلُفًا لِلْمُوْعَدِ فِي يَعْقُوبَ. وعن علي بن أبي طالب وابن مسعود والعباس وعطاء وعكرمة وجماعة من التابعين: أنه إسحاق.

والْحُجَّةُ فِيهِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ هَاجَرَ إِلَى الشَّامِ بِأَنَّهُ اسْتَوْهَبَهُ وَلَدًا، ثُمَّ أَتَى ذَلِكَ الْبَشَارَةَ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ، ثُمَّ ذَكَرَ رُؤْيَاهُ بِذَبْحِ ذَلِكَ الْغُلَامِ الْمُبَشَّرَ بِهِ.

قَوْلُهُ: (وَالْحُجَّةُ فِيهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ هَاجَرَ إِلَى الشَّامِ بِأَنَّهُ اسْتَوْهَبَهُ وَلَدًا) إِلَى آخِرِهِ، قُلْتُ: هَذِهِ الْحُجَّةُ ضَعِيفَةٌ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا حَكَمَى عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وَعَقَبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ بِالْفَاءِ، وَكَذَلِكَ قِصَّةُ الرُّؤْيَا وَالذَّبْحِ، وَذَيْلُ الْقِصَّةِ بِقَوْلِهِ: ﴿سَلِّمْ عَلَيَّ إِزْهِيمَةَ﴾ كَذَلِكَ نَجَزَى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * كَمَا ذَيْلُ سَائِرِ الْقِصَصِ الْمَذْكُورَةِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ بِمِثْلِهِ،

ويدلُّ عليه كتابُ يعقوبَ إلى يوسف: من يعقوبَ إسرائيلِ اللهُ بنِ إسحاقَ ذبيحِ اللهُ بنِ إبراهيمَ خليلِ اللهُ.

فإن قلت: قد أُوحيَ إلى إبراهيمَ صلوات اللهُ عليه في المنامِ بأن يذبح ولده ولم يذبح، وقيل له: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾، وإنما كان يُصدِّقها لو صحَّ منه الذبح، ولم يصحَّ!

قلت: قد بَدَلُ وُسْعُهُ وَفَعَلَ ما يَفْعَلُ الذابِح: من بَطَّحَهُ على شِقِّهِ، وإمرارِ الشَّفْرَةِ على حَلْقِهِ، ولكنَّ اللهُ سبحانه جاءَ بها مَنَعَ الشَّفْرَةَ أن تَمْضِيَ فيه، وهذا لا يقدَحُ في فعلِ إبراهيمَ عليه السلام، ألا ترى أنه لا يسمَّى عاصياً ولا مُفَرِّطاً، بل يسمَّى مُطِيعاً ومجتهداً، كما لو مَضَتْ فيه الشَّفْرَةُ وَفَرَّتِ الأوداجُ وَأَنْهَرَتِ الدَّمُ، وليس هذا من وُرُودِ النسخِ على المأمورِ به قبلِ الفِعْلِ،

ابْتَدَأَ بحديثِ إسحاقَ وبشارتِهِ وما يتعلَّقُ به، وقال: ﴿وَبَشِّرْنَهُ بِنَبَأٍ مِنْ الصَّالِحِينَ * وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ والظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ البشارةَ غيرَ البشارةِ الأولى والمُبَشِّرُ به غيرُ الأوَّلِ، وسيجيءُ تقريرُهُ بعيداً هذا.

قوله: (وَفَرَّتِ الأوداجُ): الجوهري: فَرَيْتُ الشيءَ أَفْرِيهِ فَرِيّاً: قَطَعْتُهُ لإصلاحه. والوَدَجُ والوداج: عِرْقٌ في العنق^(١)، وهما وَدَجَان.

قوله: (وليس هذا من وُرُودِ النسخِ على المأمورِ به قبلِ الفِعْلِ) يعني: لَمَّا بَدَّلَ إبراهيمُ عليه السلامَ وُسْعَهُ وَفَعَلَ ما يَفْعَلُهُ الذابِحُ من بَطَّحِهِ على شِقِّهِ، وأمرَ الشَّفْرَةَ على حَلْقِهِ لم يكن هذا من وُرُودِ النسخِ قبلِ الفِعْلِ في شيءٍ كما يَسْبِقُ إلى بعضِ الأفهام^(٢). يعني: وُرُودُ النسخِ قبلِ الفِعْلِ جائزٌ، لكنَّ هَذِهِ الآيةُ ليست من المسألةِ في شيءٍ، يدلُّ عليه قوله في قصَّةِ البقرة: «يَجُوزُ النسخُ قبلِ الفِعْلِ، ولا يجوزُ قبلَ وقتِ الفِعْلِ»، يعني: أن إبراهيمَ عليه السلامَ

(١) في (ح) و(ف): «العنقود».

(٢) في (ط): «الأوهام».

أتى بالمأمور به لأنه باشر الفعل بقدر الإمكان وبذل الجهد ولم يكن منه تقصير، ولو لم يمنع مانع لتم الذبح المأمور به، ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا﴾.

وعن بعضهم: الذبح هو الاعتماد، وقد وجد ذلك، لكن الاندباخ لم يوجد، كما تقول: هَدَيْتُهُ فَلَمْ يَهْتَدِ، أو هَدَيْتُهُ فَاهْتَدَى، وَكَسَرْتُهُ فَانكَسَرَ، أو كَسَرْتُهُ فَلَمْ يَنْكَسِر. هذا على خلاف ما ذكره المصنف في ﴿هُدَى لِقَاتَيْنِ﴾ [البقرة: ٢].

قال الإمام: وليس كذلك؛ لأن معنى ﴿قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا﴾ أنه قد اعترف بكون الرؤيا واجب العمل، لا أنه أتى بكل ما رآه^(١) في المنام، ولو كانت المباشرة كافية في كل ما أمر به لما احتاج إلى الفداء، وحيث احتاج علمنا أنه لم يكن آتيا في المباشرة بكل ما أمر به^(٢)، هذا هو السؤال الذي أوردته المصنف، فإذا كان ما أتى به إبراهيم من البطح إلى آخره، وأجاب عنه بقوله: «قد علم بمنع الله أن حقيقة الذبح لم تحصل» يعني: نحن إن قلنا: إنه امتثل الأمر وخرج من عهدة المأمور به، لكن حقيقة لم تحصل فوهب الكبش ليقيم ذبحه مقام تلك الحقيقة. وفائدته إيجاد المأمور به بكل ما يدخل تحت الإمكان.

وقال ابن الحاجب: أما دفعهم أنه ذبح فكان يلتجئ عقيه، أو جعل عنقه صفيحة فلا يسمع ويكون نسحا قبل التمكن. يعني: هذا النقل مما ليس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ فلا يسمع، وإن سُمع يكون نسحا قبل التمكن من الفعل. قال الإمام: هذه مسألة شريفة من مسائل باب النسخ، واختلف الناس في أنه هل يجوز نسخ الحكم قبل حضور مدة الامتثال؟ قال أكثر أصحابنا: إنه يجوز.

وقالت المعتزلة وكثير من فقهاءنا والحنفية: إنه لا يجوز. وقالت المعتزلة: إنه تعالى لو أمر شخصا بإيقاع فعل معين في وقت معين دل على حُسن ذلك الفعل في ذلك الوقت، ثم إذا نهى عنه في ذلك الوقت دل على بُحجه، وهذا مبني على تحسين الفعل وتبحيحه بحسب

(١) في (ج): «أناه».

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣٤٨).

ولا قبل أو ان الفعل في شيء، كما يسبق إلى بعض الأوهام حتى يشتغل بالكلام فيه.

فإن قلت: الله تعالى هو المفتدى منه؛ لأنه الأمر بالذبح، فكيف يكون فادياً حتى

العقل وهو باطل، ولئن سلم فإن الفعل قد يكون حسناً باعتبارٍ وقيحاً باعتبار، فإن السيد إذا أمر عبده شيئاً في زمانٍ مخصوصٍ وبينها عينه فيه يكون غرضه من الأمر والنهي مجرد اختبار العبد في الانقياد والطاعة^(١).

وقال البرزدي: شرط النسخ التمكن من عقد القلب، فأما التمكن من الفعل فليس بشرط عندنا، وقالت المعتزلة: إنه شرط. وحاصل الأمر: أن حكم النسخ بيان المدّة لعمل القلب والبدن جميعاً، أو لعمل القلب بانفراده، وعمل القلب هو المحكم عندنا في هذا والآخر من الزوائد، لنا: أن النبي ﷺ أمر بخمسين صلاة^(٢) ثم نسخ ما زاد على الخمس وكان ذلك بعد العقد، ولأن النسخ صحيح إجماعاً بعد وجود جزء من الفعل أو مدّة تصلح للتمكن من جزء منه^(٣)، وإن كان ظاهر الأمر يُحتمل كله؛ لأن الأدنى يصلح مقصوداً بالابتلاء وكذلك عقد القلب على حسن المأمور به وعلى حقيقته^(٤).

قوله: (الله تعالى هو المفتدى منه)، الجوهري: افتدى منه بكذا أو فادى بكذا.

وقال المصنف في المقدمة^(٥): افتدى منه بكذا اشترى منه نفسه بشيء. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتُوهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٣٦].

وهو يزوي بفتح الدال وكسرها، وعلى الفتح ليس في «المفتدى» ضمير؛ لأنه مُسندٌ إلى الجار والمجرور، والضمير المجرور عائِدٌ إلى اللام، وعلى الكسر فيه ضميرٌ راجعٌ

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩) ومسلم (١٦٣) وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) من قوله: «أو مرة تصلح» إلى هنا سقط من (ط).

(٤) «كشف الأسرار شرح أصول البرزدي» لعلاء الدين البخاري (٣: ١٦٩).

(٥) يعني «مقدمة الأدب» للزنجشري.

قال: ﴿ وَفَدَيْتَهُ ﴾؟ قلت: الفادي هو إبراهيم عليه السلام، والله عزَّ وجلَّ وهبَ له الكبشَ ليفدي به، وإنما قال: ﴿ وَفَدَيْتَهُ ﴾ إسناداً للفداء إلى السبب الذي هو الممكن من الفداء بهيته. فإن قلت: فإذا كان ما أتى به إبراهيم من البطح وإمرار الشفرة في حكم الذبح، فما معنى الفداء، والفداء إنما هو التخليص من الذبح ببدل؟ قلت: قد علم بمنع الله أن حقيقة الذبح لم تحصل من فزِّي الأوداج وإنهار الدم، فوهب الله له الكبش ليقيم ذبحه مقام تلك الحقيقة؛ حتى لا تحصل تلك الحقيقة في نفس إسماعيل،

إلى الله تعالى، والمجورؤ إلى إبراهيم، وفيه تعسفٌ ونُبُو عن مظنة استعماله. ولتضمنه معنى التخليص علَّله بقوله: «لأنَّ الأمرُ بالذبح»، فعلى هذا: الضميرُ في قوله: «لِفَدَيْتِي بِهِ» راجعٌ إلى إبراهيم عليه السلام لا إلى الله تعالى كما سبق إلى بعض الأوهام.

وتلخيص السؤالِ أنَّه تعالى قال: ﴿ وَفَدَيْتَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ فيكون الفادي هو الله تعالى، وفي الحقيقة هو المُفْتَدَى منه، وإبراهيم هو الفادي، وأجاب بأنَّ الإسنادَ مجازيًّا؛ لأنَّه تعالى لَمَّا وَهَبَ لإبراهيم الكبشَ ليفدي به ابنه به فكأنَّه تعالى هو الفادي؛ إذ لو لا تمكُّنه من الفداء بهيته لما قدرَ إبراهيم أن يفدي به. ونحوه: «كسا الخليفة الكعبة»، وفائدته تعظيمُ الفداء، وكذلك وصفه بالعظيم والله أعلم.

قوله: (فإذا كان ما أتى به إبراهيم عليه السلام) تقريرُ السؤال: أنَّ الفداء إنما يكون إذا أُريدَ التخليص من الذبح، فإذا فعل ما في حكم الذبح^(١) اضطرارًا فما معنى الفداء؟ وأجاب: أنَّه وإن فعل ما في حكم الذبح لكنه ليس بذبح في الحقيقة، فكان الفداء جبرانًا لذلك النقصان وتحصيلًا لتلك الحقيقة بما أمكن، ثمَّ سأل: فأبي فائدة في تحصيل تلك الحقيقة^(٢) وقد استغني عنها بما وجد منه عليه السلام من البطح وإمرار الشفرة؟ وأجاب: أنَّ الفائدةَ بذلَّ المجهود في امتثال الأمر، وحصول الذبح بأي وجه كان فحين لم يحصل في إسماعيل ينبغي أن يحصل في بدله، والفاءان في أثناء السؤالين مترتبان على ما سبق عليهما.

(١) من قوله: «فإذا فعل ما في» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) من قوله: «وأجاب أنه وإن فعل» إلى هنا سقط من (ط).

ولكن في نفس الكبش بدلاً منه. فإن قلت: فأني فائدة في تحصيل تلك الحقيقة، وقد استغني عنها بقيام ما وجد من إبراهيم مقام الذبح من غير نقصان؟ قلت: الفائدة في ذلك: أن يوجد ما منع منه في بدله حتى يكمل منه الوفاء بالمنذور وإيجاد الأمور به من كل وجه. فإن قلت: لم قيل ها هنا ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وفي غيرها من القصص: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾ [الصافات: ٨٠]؟ قلت: قد سبقه في هذه القصة: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾، فكانها استخيف بطرحه اكتفاءً بذكره مرة عن ذكره ثانية.

[﴿وَبَشِّرْهُ بِاسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وَبَرْكَانَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٢-١١٣﴾]

﴿نَبِيًّا﴾ حال مقدرة، كقوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوهَا حَلِيدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. فإن قلت: فرق بين هذا وبين قوله: ﴿فَادْخُلُوهَا حَلِيدِينَ﴾؛ وذلك أن المدخول موجود مع وجود

قوله: (فكانها استخيف بطرحه اكتفاءً بذكره)، قال الراغب في «درة التنزيل»: إن قوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ لهما جعل أمانة لانتهاه كل قصة، وكانت قصة إبراهيم عليه السلام متضمنة ذكره وذكر ولديه الذبيح فقيل له بعدما تله للجبين: ﴿قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فجاء في هذا المكان وقد بقيت من القصة آيات فلما أتمها جاء بها جعل خاتمة لكل قصة من قصصهم ﴿وَبَشِّرْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فلم يذكر «إِنَّا» لسببين: أحدهما: تقدم ذكرها في هذه القصة، والآخر: أن يخالف بين منتهى هذه القصة لأنها من القصة الأولى التي ختمت بـ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وبين منتهى قصة ليس ما قبلها منها، فكان ﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾ ﴿لَمَّا ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مَرَّةً (١)﴾ اكتفى بها ولم يكن منقطعاً لها فخالفت ما تقدمها وما تأخر عنها لذلك (٢).

قوله: (فرق بين هذا وبين قوله)، مبتدأ وخبر، أي: فرق عظيم بين هذا وذلك؛ لأنه لما

(١) من قوله: «لأنها من القصة الأولى» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) «درة التنزيل» للخطيب الإسكافي (١: ١٠٩٤-١٠٩٥)، وقد سبق ذكر الاختلاف في نسبة هذا

الكتاب؛ للخطيب أو للراغب.

الدخول، والخلود غير موجودٍ معها، فقدّرت: مُقدِّرينَ الخلود، فكانَ مستقيماً، وليس كذلك المَبشِّر به؛ فإنه معدومٌ وقتَ وجودِ البشارة، وعدمُ المَبشِّر به أو جَبَّ عدمَ حاله لا محالة؛ لأنَّ الحالَ حِلْيَة، والحِلْيَة لا تقومُ إلا بالمَحَلِّ، وهذا المَبشِّر به الذي هو إسحاق حين وُجد لم تُوجدِ النبوءةُ أيضاً بوجوده، بل تراختَ عنه مدّةٌ متطاوِلة، فكيف تجعلُ ﴿نَبِيًّا﴾ حالاً مقدّرة، والحالُ صفةُ الفاعلِ أو المفعولِ عند وجودِ الفعلِ منه أو به؛ فالخلودُ وإن لم يكن صفتَهُم عند دخولِ الجنة، فتقديرُها صفتَهُم؛ لأنَّ المعنى: مُقدِّرينَ الخلود، وليس كذلك النبوءة؛ فإنه لا سبيلَ إلى أن تكونَ موجودةً أو مقدّرةً وقتَ وجودِ البشارة بإسحاق؛ لعدمِ إسحاق؟ قلت: هذا سؤالٌ دقيقٌ السَّلْكِ ضيقُ المسَلْكِ، والذي يحلُّ الإشكال: أنه لا بدَّ من تقديرِ مضافٍ محذوف؛ وذلك قولك:

قال: ﴿نَبِيًّا﴾ حالٌ مُقدّرةٌ كقولِهِ تعالى: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] قال: لا يُقاسُ هذا بذاك لافتراقِ بينهما وبُعْدِ أحدهما مِنَ الآخر.

قوله: (لا بدَّ من تقديرِ مضافٍ محذوف) أي: بَشْرانُهُ بوجودِ إسحاقِ نبياً بأن يوجدَ مُقدّرةً نبوءته.

هذا البحثُ موقوفٌ على مُقدّمةٍ وهي: أَنَّهُ تَقَرَّرَ عند أصحابِ المعاني أن لا بدَّ من تَقَرُّرِ الوصفِ والموصوفِ معاً عند إثباتِهِ له. قال صاحبُ «المفتاح»: إنَّ حقَّ كُلِّ ما يُقصدُ ثبوتهُ للغَيْرِ أن يكونَ في نَفْسِهِ ثابتاً وعندك، فما لا يكونُ ثابتاً كذلك أو مُتَحَقِّقاً يمتنعُ منك جَعْلُهُ وصفاً. وقال: إنَّ مُحَاوَلَةَ إثباتِ الثَّابِتِ في نَفْسِهِ لشيءٍ آخَرَ يستدعي ثبوتَ ذَلِكَ الشيءِ الآخِرِ في نَفْسِهِ لا محالة^(١).

وهو المرادُ من قولِ المُصنِّف، وعدمُ المَبشِّرِ به أو جَبَّ عدمَ حالِهِ لا محالة؛ لأنَّ الحالَ حِلْيَة، والحِلْيَة لا تقومُ إلا بالمَحَلِّ، ولهذا النُّكْتَة قالوا في قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [البقرة: ١٦٢] حالٌ مُقدّرة؛ لأنَّ الخلودَ لم يكن صفتَهُم عند دخولِ الجنة، وعلى هذا ذُو الحال - الذي هو

(١) «مفتاح العلوم» ص ١٨٨.

وَبَشَّرْنَاهُ بِوُجُودِ إِسْحَاقَ نَبِيًّا، أَي: بِأَنْ يَوْجَدَ مَقْدَرَةَ نُبُوَّتِهِ؛ فَالْعَامِلُ فِي الْحَالِ الْوُجُودُ لَا فِعْلَ الْبَشَارَةِ، وَبِذَلِكَ يَرْجَعُ، نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَدْخَلُوهَا خَلِيدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].
 ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: حَالٌ ثَانِيَةٌ، وَوُجُودُهَا عَلَى سَبِيلِ الشَّاءِ وَالتَّقْرِيطِ؛ لِأَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ لَا يَدَّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ.

وعن قتادة: بَشَّرَهُ اللهُ بِنُبُوَّةِ إِسْحَاقَ بَعْدَمَا امْتَحَنَهُ بِدَبْحِهِ، وَهَذَا جَوَابٌ مَن يَقُولُ:
 الَّذِيحُ إِسْحَاقَ لِصَاحِبِهِ عَن تَعَلُّقِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾

الموصوف في الحقيقة وهو إسحاق - لم يكن موجوداً عند البشارة، فلا بد من التأويل وتقدير الوجود.

قال القاضي: معنى قوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ مَقْضِيًّا نُبُوَّتُهُ مَقْدَرًا كَوْنُهُ، وَهَذَا الِاعْتِبَارُ وَقَعَا حَالَيْنِ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى وَجُودِ الْمُبَشَّرِ بِهِ وَقَتَ الْبَشَارَةِ، فَإِنَّ وَجُودَ ذِي الْحَالِ غَيْرُ شَرْطٍ بَلِ الشَّرْطُ مُقَارَنَةٌ تَعَلُّقِ الْفِعْلِ بِهِ لِإِعْتِبَارِ الْمَعْنِيِّ بِالْحَالِ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى تَقْدِيرِ مُضَافٍ يُجْعَلُ عَامِلًا فِيهَا مِثْلَ «وَبَشَّرْنَاهُ بِوُجُودِ إِسْحَاقَ» أَي: بِأَنْ يَوْجَدَ إِسْحَاقُ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَصِيرُ نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿فَأَدْخَلُوهَا خَلِيدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] فَإِنَّ الدَّخِيلِينَ مُقَدَّرُونَ خُلُودَهُمْ وَقَتَ الدَّخُولِ، وَإِسْحَاقُ لَمْ يَكُنْ مُقَدَّرًا نُبُوَّةَ نَفْسِهِ وَصَلَاحُهَا حَيْثَمَا تَوَجَّدَ^(١).

قوله: (الشَّاءِ وَالتَّقْرِيطِ)، الْجَوْهَرِيُّ: التَّقْرِيطُ: مَدْحُ الْإِنْسَانِ وَهُوَ حَيٌّ، وَالتَّأْيِينُ: مَدْحُهُ وَهُوَ مَيِّتٌ.

قوله: (وعن قتادة: بَشَّرَهُ اللهُ بِنُبُوَّةِ إِسْحَاقَ بَعْدَمَا امْتَحَنَهُ)، جَوَابٌ آخَرُ عَنِ السُّؤَالِ بِغَيْرِ التَّرَامِ الْفَرْقِ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا﴾ وَبَيْنَ ﴿فَأَدْخَلُوهَا خَلِيدِينَ﴾، لِأَنَّ الْبَشَارَةَ بِالنُّبُوَّةِ بَعْدَ الْوُجُودِ.

قوله: (لِصَاحِبِهِ عَن تَعَلُّقِهِ)، «اللام» و«عن» مُتَعَلِّقَانِ بِقَوْلِهِ: «جواب»، وَالصَّمِيرُ فِي

قالوا: ولا يجوز أن يبشّره الله بمولده ونبوته معاً؛ لأن الامتحان بذبحه لا يصحُّ

لصاحبه يرجع إلى «من يقول»، وفي «تعلقه» إلى «صاحبه»، وفي «بقوله» إلى «الله» تعالى.

وقوله: (قالوا: لا يجوز) جملة مستأنفة بيان لاحتجاج صاحبه القائل بأن الذبيح إسماعيل؛ المعنى: قول قتادة: وبشّره الله بنبوة إسحاق بعدما امتحنه بذبحه، جواب من يقول: إن الذبيح إسحاق لصاحبه، أي: لمن يقول بأنه إسماعيل عليهما السلام، ويتمسك بقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا﴾ لأن كونه نبياً ينافي الامتحان بذبحه.

وتقريره: أن ليست البشارة بوجوده بل بنبوته بعدما امتحنه بذبحه. قال الزجاج: من قال: إن الذبيح إسحاق قال: إن فيه بشارتين:

إحداهما: قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِعَلْمٍ حَلِيمٍ﴾، وثانيتها: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ حين استسلم للذبيح^(١).

وقال الإمام: ولا يجوز أن يكون المعنى: وبشّرناه بإسحاق حال كون إسحاق نبياً؛ لأن البشارة مُتَقَدِّمَةٌ على صيرورته نبياً، فوجب أن يكون المعنى: فبشّرناه بإسحاق حال ما قدرناه نبياً، وحال ما حكمنا عليه بكونه نبياً، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذ كانت هذه البشارة بوجود إسحاق حاصلة بعد قصة^(٢) الذبيح، فوجب أن يكون الذبيح غير إسحاق عليه السلام^(٣).

وقال صاحب «التقريب»: وفي قولهم: لا يصحُّ الامتحان بالذبيح مع علمه بأنه سيكون نبياً، نظر؛ لأن الحال المُقَدَّرَةَ على ما قرّر تقتضي أن يبشّر بوجوده مُقَدَّرًا نبوته، ولا يلزم من تقدير نبوته^(٤) العلم بتقديرها، اللهم إلا أن يبشّر هكذا وهو أنه يوجد مُقَدَّرًا نبوته.

وقلت: من قال: إنَّها مُقَدَّرَةٌ يذهب إلى أن هذا ابتداء بشاره بالوجود وبالنبوة معه، فهو

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣١١).

(٢) في (ط): «قضية».

(٣) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣٥١).

(٤) من قوله: «ولا يلزم من» إلى هنا، سقط من (ح).

مع علمه بأنه سيكون نبياً. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ وقرئ: (وبركنا) أي: أفضنا عليها بركات الدين والدنيا، كقوله: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِجَبْرِهِ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الآخِرَةِ لَمَنَّ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وقيل: باركنا على إبراهيم في أولاده، وعلى إسحاق بأن أخرجنا أنبياء بني إسرائيل من صلبه.

وقوله: ﴿وَوَظَلِّمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ نظيره: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيب لا يجري أمرهما على العرق والعنصر؛

كقولك: حطت الثوب قميصاً، فلا يخفى على أحد أنه عند هذه البشارة لم يكن نبياً، فالعلم بتقديرها ظاهر فلم يحتاج إلى التصريح، ولو بشره الله بنبوة إسحاق بعدما امتحنته بذبحه - كما قال قتادة - لكان الظاهر أن يقال: وبشرناه بنبوة إسحاق بل بنبوته؛ لما سبق ذكره وذكر البشارة به.

ومما يدل على استقلال القصة تذييل القصة السابقة بما ذُكرت به سائر القصص المذكورة من مثل قوله: ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ كذلك تجزي المحسنين * إنه من عبادة المؤمنين * فإذا صح ذلك فلا يجوز أن يؤمر بالذبح امتحاناً وهو عالم بأنه يصير نبياً؛ لأن الامتحان إنما يصح إذا أيقن الذابح أنه سيدبح ولا يتأخر أجله.

قوله: ﴿وَوَظَلِّمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ نظيره: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، يعني: نظيره في أن ذريته عليه السلام لا يجب أن يكونوا محسنين كلهم. قال الإمام: دخل تحت قوله: «محسن» الأنبياء والمؤمنون، وتحت قوله: «الظالم» الفاسق والكافر. وفيه تنبيه على أنه لا يلزم من كثرة فضائل الأب فضيلة الابن؛ لثلاث تصير هذه الشبهة سبباً لمفاخرة اليهود^(١). وقال التهامي:

لا تحسبن حسب الآباء مكرمة
حسب الرجال بحسنى لا بحسبهم
لمن يقصر عن غايات مجدهم
وطولهم في المعالي لا بطولهم^(٢)

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣٥١).

(٢) «ديوان التهامي» ص ١٩٣.

فقد يلدُّ البرُّ الفاجر، والفاجرُ البرّ. وهذا مما يهدمُ أمرَ الطباع والعناصر، وعلى أن الظلمَ في أعقابها لم يعدُّ عليهما بعيبٍ ولا نقيصة، وأن المرءَ إنما يُعابُ بسوءِ فعله ويُعاتبُ على ما اجترحت يده، لا على ما وُجد من أصله أو قرعِه.

[﴿ وَلَقَدْ مَنَّآ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكْفَأُوهُمْ الْفُلَيْنِ * وَأَيَّدْنَاهُمَا بِالْكِتَابِ الْمُسْتَقِيمِ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَبِ * سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١١٤-١٢٢]

﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ مِنَ الْغَرَقِ، أَوْ مِنْ سُلْطَانِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَعَشْمِهِمْ، ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ ﴾ الضميرُ لهما ولقوميهما في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا ﴾. ﴿ الْكِتَابِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ البليغُ في بيانه؛ وهو التوراة، كما قال: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال مَنْ جَوَّزَ أَنْ تَكُونَ التَّوْرَةُ عَرَبِيَّةً أَنْ تُشْتَقَّ مِنْ وَرِيِّ الزُّنْدِ «فَوَعَلَهُ» منه، على أن التاء مُبدَلة من واو.

قوله: (وقال مَنْ جَوَّزَ أَنْ تَكُونَ التَّوْرَةُ عَرَبِيَّةً) عن بعضهم: إن «قال» عطفٌ على «قال» في «كما قال»، و«أن» في «أَنْ تُشْتَقَّ» مصدرية، وهي مع «ما» في صلّتها بمعنى المفعول أي مشتقة، والتقدير: وكما قال مَنْ جَوَّزَ هذا: إن فيها معنى الإنارة والضوء مشتقٌّ من الوري.

فإن قلت: فما وجه التشبيه بالآيتين؟ وكيف استشهد بهما على الاشتقاق؟ قلت: وجه التشبيه إثباتُ المُبالغة في البيان، فكما أن استعمالَ سِينِ الطَّلَبِ فيما لا طَلَبَ لَهُ تدلُّ على المُبالغة كذلك استعارة النور - لما في الكتاب من البيانات الشافية الكافية - تدلُّ على المُبالغة، فإن قولك: «رأيتُ أسداً يرمي» أبلغُ من قولك: «رأيتُ شجاعاً يرمي».

وأما وجهُ الاشتقاق؛ فإن مراعاةَ تسمية الكتابِ بالتَّوراةِ إنما كانتْ لأنَّها اشتملتْ على

﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ.

[﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ أَلَا تَنْفُونَ * أُنذَعُونَ بَعْلًا وَتَذُرُونَ
أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ * اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ
اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ * وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَى آلِ يَاسِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *
إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٢٣-١٣٢]

قُرئ: ﴿إِلْيَاسَ﴾ بِكسْرِ الهمزة، و(الْيَاسَ) عَلَى لفظ الوصل. وقيل: هو إدريسُ

الدَّلَائِلِ الْبَاهِرَةِ وَالْبِرَاهِينِ السَّاطِعَةِ كَالنُّورِ فِي الظُّهُورِ، وَتَحْرِيرُهُ: أَنَّ الْكِتَابَ إِنَّمَا وُصِفَ
بِالْمُسْتَقِيمِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْكَشْفِ التَّامِّ، كَمَا سُمِّيَ بِالنُّورِ لِذَلِكَ، وَكَمَا قِيلَ: إِنَّ التَّوْرَةَ إِنَّمَا اشْتَقَّتْ
مِنَ الْوَرُزِيِّ لِمَا فِيهَا مِنَ الْبَيَانِ التَّامِّ.

قوله: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ) يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَشَفَ عَنْ هَذَا
الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الْفَاتِحَةِ وَأَوْضَحَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا
الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] حَيْثُ قَيَّدَهُ أَوَّلًا بِقَوْلِهِ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ لِيُخْرِجَ الْيَهُودَ، وَثَانِيًا
بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ لِيُخْرِجَ النَّصَارَى، فَيَخْتَصُّ بِالْمُسْلِمِينَ، فَيَكُونُ ذِكْرُهُ هَاهُنَا تَعْرِيفًا
بِالْيَهُودِ.

قوله: ﴿قُرئ:﴾ ﴿إِلْيَاسَ﴾ بِكسْرِ الهمزة، و«الْيَاسَ» عَلَى لَفْظِ الْوَصْلِ، بِالْوَصْلِ: ابْنُ
ذُكْوَانَ عَنْ ابْنِ عَامِرٍ، وَالْبَاقُونَ: بِكسْرِ الهمزة^(١).

قَالَ ابْنُ جَنِّي: قَرَأَ ابْنُ مِحْصِنٍ وَعِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ بِخِلَافٍ بِغَيْرِ هَمْزٍ، وَكَذَا «الْيَاسِينَ»
أَمَّا «الْيَاسَ» فَإِنَّ الْاسْمَ مِنْهُ «يَاسٌ»، ثُمَّ لَحِقَهُ لَامُ التَّعْرِيفِ، كَأَنَّهُ عَلَى إِرَادَةِ يَاءِ النَّسْبِ.

(١) لتمام الفائدة انظر: «حجة القراءات» ص ٦٠٩-٦١٠.

النبي. وقرأ ابن مسعود: (وإن إدريس)، في موضع ﴿إلياس﴾.

وقرئ: (إدراس)، وقيل: هو إلياس بن ياسين، من ولد هارون أخي موسى. ﴿أندعون بعلًا﴾: أتعدون بعلًا؛ وهو علم لصنم كان لهم كمناة وهبل. وقيل: كان من ذهب، وكان طوله عشرين ذراعاً، وله أربعة أوجه، فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربع مئة سادن، وجعلوهم أنبياءه، فكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة، والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس، وهم أهل بعلبك من بلاد الشام، وبه سميت مدينتهم بعلبك. وقيل: البعل: الرب؛ بلغة اليمن، يقال: من بعل هذه الدار؟ أي: من ربها؟ والمعنى: أتعدون بعض البعول وتتركون عبادة الله؟

و«إلياسين» على هذا كما حكى عنهم صاحب «الكتاب»: الأشعرون والنميرون، يريد: الأشعريين والنميريين، وعن قطرب: هؤلاء زيدون، منسوبون إلى «زيد» بغير ياء النسبة.

ويجوز أن يجعل كل واحد من أهل إلياس: ياسا، يقال: الياسين، كقوله:

قَدْنِي مِنْ نَصْرِ الْخُبَيْبِينَ قَدِي ^(١)

يريد: أبا حبيب وأصحابه، كأنه جعل كل واحد منهم خبيباً. ونحو منه قولهم: «شابت مفارقة» جعل كل جزء من مفارقة مفارقة ثم جمعه. ويشهد لوصول ألف «ياسين» قوله:

أُمَّهَتِي خِنْدَفُ وَالْيَاسُ أَبِي ^(٢)

واللأم بمنزلتها في «اليسع» زائدة؛ لأن الاسم علم، وليس بصفة ^(٣).

قوله: (فتنوا به) افتتن الرجل وفتن فهو مفتون؛ إذا أصابته فتنة فذهب ماله أو عقله.

(١) سبق تخريجه، وبيان معناه.

(٢) البيت لقصي بن كلاب، كما في «لسان العرب» (أمم).

(٣) «المحتسب» (٢: ٢٢٣-٢٢٤).

﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمْ﴾ قرئ: بالرفع على الابتداء، وبالنصب على البدل، وكان حمزة إذا وصل نصب، وإذا وقف رفع.

وقرئ: (على إلياسين) و(إدريسين)، و(إذراسين)، و(إذراسين)، على أنها لغات في «إلياس» و«إدريس». ولعل لزيادة الياء والنون في السريانية معنى. وقرئ: (على إلياسين) بالوصل، على أنه جمع يُراد به إلياس وقومه، كقولهم: الخبيثون والمهلبون. فإن قلت: فهلا حملت على هذا ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ على القطع وأخواته؟ قلت: لو كان جمعاً

قوله: (بالرفع على الابتداء) أي: «الله رَبُّكُمْ»، حفص وحمزة والكسائي: بالنصب، والباقون: بالرفع^(١).

قال الزجاج: النصب على صفة «أحسن الخالقين» والرفع على الابتداء والخبر^(٢). ولو قال على البدل في النصب كان أولى.

قوله: (وبالنصب على البدل) أي: قرئ بالثلاثة بالنصب بدلاً من ﴿أَحْسَنَ﴾.

قوله: (وإذراسين) قال ابن جني: قرأها ابن مسعود ويحيى وغيرهما، وجاء عنه «إدرسين» وكذا عن قتادة، وفي بعض القراءة «إدرسين» وأما «إذراسين» فيجب أن تكون من تغيير^(٣) العرب الكلم الأعجمي؛ لأنه ليس من لغتها، والقياس «إذرسين»^(٤).

قوله: (الخبيثون) قيل لعبد الله بن الزبير ومن كان على رأيه؛ لأن خبيثاً من أجبن أولاده، وأولياؤه يسمونه أبا بكر، قيل: في كونه مثل الخبيثين نظر؛ لأن المفرد «إلياس» لا «ياس»، كما أن مفرد الخبيثين: خبيث، وأجيب أن العرب إذا تكلمت بالعجمية قالت ما شاءت.

قوله: (فهلا حملت على هذا ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ على القطع) في السؤال شائبة إنكار، أي: بما

(١) انظر: «حجة القراءات» ص ٦١٠.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣١٢).

(٣) في «المحتسب»: تحريف.

(٤) «المحتسب» (٢: ٢٢٤-٢٢٥).

لَعُرِّفَ بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ. وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ: (على آلِ ياسين) فعلى أَنَّ ياسين اسمُ أبي إلياس، أُضِيفَ إِلَيْهِ الْآلُ.

حَمَلَتْ عَلَى «الياسين» بالوصلِ قِراءَةً مَنْ قَرَأَ ﴿إِلِ ياسين﴾ بِالْقَطْعِ وَإِخْوَانَهُ مِنْ «إِذْ رَسِينِ» و«إِذْ رَاسِينِ» و«إِذْ رَسِينِ» وقلت: إِنَّهَا جُمُوعٌ، بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ زِيَادَةَ الْيَاءِ وَالشُّوْنِ مَعْنَى فِي السَّرِيانِيَّةِ؟ وَأَجَابَ: لَوْ كَانَ جَمْعًا لَعُرِّفَ بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ كَمَا فِي الْخُبَيْبِيِّينَ وَالْمُهَلَّبِيِّينَ. وَكَمْ مَرَّةً عَنْ ابْنِ جَنِّي فِي «الْأَشْعَرُونَ» و«النَّمِيرُونَ». وَقَالَ الرَّجَّاجُ: مَنْ قَرَأَ بِالْوَصْلِ فَهُوَ جَمْعُ «الْيَاسِ» هُوَ وَأُمَّتُهُ الْمُؤْمِنُونَ، وَكَذَا يُجْمَعُ مَا يَنْسَبُ الشَّيْءُ إِلَيْهِ بِلَفْظِ الشَّيْءِ، نَحْوُ نَهْائِيَّةِ أَي بَنِي الْمُهَلَّبِ (١).

قَوْلُهُ: (وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ «على آلِ ياسين») نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ: «على آلِ ياسين» مُتَفَصِّلًا. مِثْلُ: آلِ مُحَمَّدٍ، وَالْباقُونَ: بِكَسْرِ الهمزةِ وَإِسْكَانِ اللَّامِ مُتَفَصِّلًا، وَفِي «المَطْلَعِ»: حُجَّةٌ مَنْ قَرَأَ مُتَفَصِّلًا أَنَّهَا فِي المَصْحَفِ مَفْصُولَةٌ.

قَالَ الفَرَّاءُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ: الوجةُ قِراءَةُ العامَّةِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ فِي شَيْءٍ مِنَ السُّورَةِ: سَلامٌ عَلَى آلِ فُلانٍ، إِنَّهَا جِيءَ بِالاسْمِ، كَذَلِكَ «إِلياسين»؛ لِأَنَّهُ بِمَعْنَى: إِلياسٍ أَوْ إِلياسُ وَأَتْباعُهُ (٢). وَقِيلَ: الوجةُ أَنَّ ياسينَ اسْمُ أَبِي إِلياسِ وَأُضِيفَ إِلَيْهِ الْأَوَّلُ.

وَقَالَ القَاضِي: وَقِيلَ: إِلياسِ أَبُو إِلياسِ، أَوْ مُحَمَّدٌ، أَوْ القُرْآنُ، أَوْ غَيْرُهُ مِنْ كُتُبِ اللهِ، وَالْكَلُّ لَا يُنَاسِبُ نَظْمَ سائِرِ القِصَصِ وَلَا قَوْلَهُ: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٣١-١٣٢] إِذِ الظَّاهِرُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي ﴿إِنَّهُ﴾ لِإِلياسِ (٣).

وَقُلْتُ: لَوْ حُمِلَ آلُ ياسينَ عَلَى نَفْسِ إِلياسِ - كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ آلَ مُوسَى وَآلَ هَارُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٨] وَيَرادُ مُوسَى وَهَارُونَ - لَمْ يَبْعُدْ ذَلِكَ.

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣١٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢: ٣٩١-٣٩٢) و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢: ١٧٣-١٧٤).

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ١٧).

[﴿ وَإِنَّ لَوْمَاتِ الْعَسَلِ * إِذْ جَعَلَتْهُ وَأَهْلَهُ أَجْمِينَ * إِلَّا عَجْرًا فِي الْغَابِغِينَ * ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ * وَإِنَّكَ لَمَكْرُومٌ عَلَيْهِمْ مُضْجِحِينَ * وَيَالَيْلُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ١٣٣-١٣٨]

﴿ مُضْجِحِينَ ﴾: داخلين في الصباح، يعني: تمرّون على منازلهم في متاجرِكم إلى الشام ليلاً ونهاراً، أفما فيكم عقولٌ تعتبرون بها؟!

[﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْقَمَمَةُ لِحُوتٍ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَبَدَّدَتْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَبْتَنَّا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ زَيْدُونَ * فَتَأَمَّنُوا فَتَعَنَّهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ ١٣٩-١٤٨]

قُرئ: (يونس) بضمّ النون وكسرها. وسمّي هَرَبُهُ من قومه بغيرِ إذْنِ رَبِّهِ إِبَاقًا على طريقةِ المجاز. والمُساهمة: المُقارعة. ويقال: استهمَ القوم؛ إذا اقترعوا. والمُدْحَض: المَغلُوبُ المُقروَع. وحقِيقته: المزلقُ عن مَقامِ الظَّفَرِ والغلبَةِ. رُوي: أنه حين رَكِبَ في السفينة وقفت، فقالوا: ها هنا عبدٌ أبقَ من سيِّده، وفيما يزعمُ البحَّارون أنَّ السفينة

قوله: (وَسُمِّيَ هَرَبُهُ من قومه بغيرِ إذْنِ رَبِّهِ إِبَاقًا على طريقةِ المجاز)، أي: الاستعارة تصويرًا لِقُبْحِهِ؛ لأنَّ «أَبَقَ» يُسْتَعْمَلُ في المملوكِ إذا هَرَبَ من سيِّده.

الجوهري: أبقَ العبدُ يَأْبُقُ إِبَاقًا، أي: هَرَبَ، ويجوزُ أن يكونَ على طريقةِ استعمالِ المرسنِ في أنفِ الإنسان.

قوله: (والمُساهمة: المُقارعة)، الرَّاغِبُ: السَّهْمُ ما يُرمى به وما يُضْرَبُ به من القَدْحِ، قالَ تعالى: ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ وبُرْدٌ مُسَّهَمٌ عليه صورةُ سهمٍ، وسَهْمٌ وَجْهُهُ تَغْيِيرٌ والسَّهَامُ داءٌ يَتَغَيَّرُ منه الوجهُ^(١).

قوله: (البحَّارون) هم الَّذِينَ يكونونَ أَكْثَرَ أَعْمَارِهِمْ في البَحْرِ لِلتَّجَارَةِ وَغَيْرِهَا^(٢).

(١) «مفردات القرآن» ص ٤٣١.

(٢) من قوله: «قوله: (والمُساهمة: المُقارعة) الرَّاغِبُ» إلى هنا، ساقط من (ط).

إذا كان فيها أبق لم تجر، فاقترعوا، فخرجت القرعة على يونس، فقال: أنا الأبق، وزج بنفسه في الماء، ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾: داخل في الملامة. يقال: رُبَّ لائم مُلِيم، أي: يلوم غيره وهو أحقُّ منه باللوم. وقرئ: (مَلِيم) بفتح الميم، من: لِيمَ فهو مَلِيم، كما جاء: مَشِيب في مَشُوب، مَبْنِيًّا على شِيب. ونحوه: مَدْعِي، بناءً على دُعِي. ﴿مِنَ الْمَسِيحِينَ﴾: من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح والتقديس. وقيل: هو قوله في بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقيل: من المصلين. وعن ابن عباس: كلُّ تسبيح في القرآن فهو صلاة. وعن قتادة: كان كثير الصلاة في الرخاء. قال: وكان يقال: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر، وإذا صرع وجد متكأ. وهذا ترغيب من الله عز وجل في إكثار المؤمن من ذكره بما هو أهله، وإقباله على عبادته، وجمع همم لتقيد نعمته بالشكر في وقت المهلة والفسحة؛ لينفعه ذلك عنده تعالى في المضايق والشدائد. ﴿لَبِثَ فِي بَطْنِهِ﴾ الظاهر: لبث فيه حياً إلى يوم البعث.

قوله: (وزج بنفسه)، الجوهرية: رَجَّه: دَفَعَهُ في وَهْدَةٍ.

قوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾: داخل في الملامة)، قَالَ الرَّجَّاجُ: يُقَالُ: قَدِ أَلَامَ الرَّجُلُ فَهُوَ مُلِيمٌ إِذَا أَتَى مَا يَجِبُ أَنْ يَلَامَ عَلَيْهِ، وَقَدْ لِيمَ فَهُوَ مُلِيمٌ إِذَا أَتَى بِلُومٍ وَلَا مَوْهَ عَلَيْهِ^(١). وَأَنْشَدَ غَيْرُهُ: إِنَّ نَفْسِي عَلَى هَوَاهَا أَلَامَتْ كُلُّ نَفْسٍ عَلَى هَوَاهَا مُلِيمَةٌ^(٢)

قوله: (وهذا ترغيب من الله في إكثار المؤمن)، التَّغْيِيبُ مُسْتَفَادٌ مِنَ الْوَصْفِ بِالتَّسْبِيحِ^(٣) دُونَ النَّبُوءَةِ وَالرِّسَالَةِ، وَالْإِكْثَارُ مِنْ جَعْلِهِ مِنْ زُمْرَتِهِمْ وَمِنْ جُمْلَةٍ مَنْ يُوَاطَبُ عَلَى التَّسْبِيحِ، نَحْوُ «فَلَانٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ» أَي: لَهُ مَسَاهِمَةٌ مَعَهُمْ فِي الْعِلْمِ، وَهَذَا الْوَصْفُ كَاللَّقَبِ الْمَشْهُورِ لَهُ وَلَا يَشْتَهَرُ بِهِ إِلَّا بِكَثْرَةِ الْمَارَسَةِ.

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣١٣).

(٢) لم أهتم إليه.

(٣) في (ح) و(ف): «بالتسبيح».

وعن قتادة: لَكَانَ بَطْنُ الْحَوْتِ لَهُ قَبْرًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَرُوي: أَنَّهُ حِينَ ابْتَلَعَهُ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى الْحَوْتِ: إِنِّي جَعَلْتُ بَطْنَكَ لَهُ سِجْنًا، وَلَمْ أَجْعَلْهُ لَكَ طَعَامًا.

وَاخْتَلَفَ فِي مِقْدَارِ لُبْنِهِ: فَعَنِ الْكَلْبِيِّ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا، وَعَنِ الضَّحَّاكِ: عَشْرُونَ، وَعَنِ عَطَاءٍ: سَبْعَةٌ، وَعَنِ بَعْضِهِمْ: ثَلَاثَةٌ، وَعَنِ الْحَسَنِ: لَمْ يَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا، ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْ بَطْنِهِ بَعِيدَ الْوَقْتِ الَّذِي التَّقِيمَ فِيهِ. وَرُوي: أَنَّ الْحَوْتَ سَارَ مَعَ السَّفِينَةِ رَافِعًا رَأْسَهُ يَتَنَفَّسُ فِيهِ يُونُسُ وَيَسْبُحُ، وَلَمْ يُفَارِقْهُمْ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْبَرِّ، فَلَفَظَهُ سَالِمًا لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهُ شَيْءٌ، فَاسْلَمُوا. وَرُوي: أَنَّ الْحَوْتَ قَذَفَهُ بِسَاحِلِ قَرْيَةٍ مِنَ الْمَوْصِلِ.

وَالْعَرَاءُ: الْمَكَانُ الْخَالِي لَا شَجَرَ فِيهِ وَلَا شَيْءَ يَغْطِيهِ. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ اعْتَلَّ مِمَّا حَلَّ بِهِ، وَرُوي: أَنَّهُ عَادَ بَدَنُهُ كَبِدِنِ الصَّبِيِّ حِينَ يُوَلَّدُ. وَالْيَقْطِينُ: كُلُّ مَا يَنْسُدُّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَلَا يَقُومُ عَلَى سَاقٍ، كَشَجَرِ الْبَطِّيخِ، وَالقَثَاءُ، وَالْحَنْظَلُ، وَهُوَ «يَفْعِيلُ» مِنْ قَطَنَ بِالْمَكَانِ؛ إِذَا قَامَ بِهِ. وَقِيلَ: هُوَ الدُّبَاءُ. وَفَائِدَةُ الدُّبَاءِ: أَنَّ الدُّبَانَ لَا تَجْمَعُ عِنْدَهُ. وَقِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّكَ لَتُحِبُّ الْقَرْعَ. قَالَ: «أَجَلٌ هِيَ شَجْرَةٌ أُخِي يُونُسُ».

قَوْلُهُ: (وَالْعَرَاءُ: الْمَكَانُ الْخَالِي) الْعَرَاءُ: يُمَدُّ وَيُقْصَرُ، فَاَلْمَقْصُورُ: النَّاحِيَةُ، وَالْمَمْدُودُ: الْمَكَانُ الْخَالِي. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَجْهُ الْأَرْضِ الْخَالِي. وَقِيلَ: هُوَ الدُّبَاءُ، لِأَنَّ الدُّبَاءَ إِذَا كَانَ هَمَزَةً مِنْ دَبَّاءٍ إِذَا هَدَأَ، يُقَالُ دَبَّاتُ بِالْمَكَانِ، كَمَا قِيلَ لَهُ: الْيَقْطِينُ مِنْ قَطَنَ، جَعَلَ أَنْسِدَاخَهُ قُطُونًا وَهُدُوءًا إِذَا كَانَ يَاءً مِنْ تَرْكِيبِ «دَبِي» وَهُوَ الْجَرَادُ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ كَالدُّبَاءِ مِنَ الدَّيِّبِ، جَعَلَ أَنْسَاطَهُ دَبِيًّا^(١).

قَوْلُهُ: (إِنَّكَ لَتُحِبُّ الْقَرْعَ)^(٢) رُوينا عَنِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «دَخَلْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى غُلَامٍ خِيَّاطٍ، فَقَدَّمَ إِلَيْهِ قَصْعَةً فِيهَا ثَرِيدٌ وَعَلَيْهِ دُبَاءٌ، قَالَ أَنَسُ: فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَّبِعُ

(١) مِنْ قَوْلِهِ: «قَوْلُهُ: (وَالْعَرَاءُ: الْمَكَانُ الْخَالِي) الْعَرَاءُ» إِلَى هُنَا، سَاقِطٌ مِنْ (ط).

(٢) فِي (ف): «لَتَحْتِ» بِالتَّاءِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ، وَهُوَ تَصْحِيفٌ.

وقيل: هي التين، وقيل: شجرة الموز، تغطى بورقها. واستظل بأغصانها، وأفطر على ثمارها. وقيل: كان يستظل بالشجرة، وكانت وعلة تختلف إليه، فيشرب من لبنها. وروي: أنه مرّ زمان على الشجرة فبيست، فبكى جزعاً، فأوحى إليه: بكيت على شجرة ولا تبكي على مئة ألف في يد الكافر! فإن قلت: ما معنى: ﴿أَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً﴾؟ قلت: أنبتناها فوقه مظلة له، كما يطبّب البيت على الإنسان. ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ﴾: المراد به ما سبق من إرساله إلى قومه، وهم أهل نينوى. وقيل: هو إرسال ثانٍ بعد ما جرى عليه إلى الأولين أو إلى غيرهم. وقيل: أسلموا فسألوه أن يرجع إليهم فأبى؛ لأن النبي إذا هاجر عن قومه لم يرجع إليهم مقيمياً فيهم، وقال لهم: إن الله باعث إليكم نبياً. ﴿أَوْزَيْدُونَ﴾ في مرأى الناظر؛ أي: إذا رآها الرائي قال: هي مئة

الدُّبَاء، قال أنس: فجعلت أتبعه وأصفه بين يديه، قال: وما زلت بعد أحبّ الدُّبَاء^(١).

وفي رواية الترمذي عن أنس: «أنه كان يأكل قرعاً وهو يقول: يا لك من شجرة! ما أحبك إلى حب رسول الله ﷺ إياك»^(٢).

قوله: (ما معنى: ﴿أَنْبَتْنَا عَلَيْهِ﴾؟) يعني: ﴿وَأَنْبَتْنَا﴾ تعدى بـ «على» فأجاب: أن ﴿عَلَيْهِ﴾ ليس بصلة بل هو حال، أي أنبتنا الشجرة مستعليّة عليه، نحوه: ﴿وَجَاءَ وَعَلَى قَمِيصِهِ، يَدْمِرُ﴾ [يوسف: ١٨].

قوله: (وقيل: هو إرسال ثانٍ) وعلى الأول: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ﴾ عطف على قوله: ﴿وَلِإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ على سبيل البيان؛ لأنه دلّ على ابتداء الحال وعلى انتهائها وعلى ما هو المقصود بالإرسال من الإيثار، واعترض ما بينها قصة من قصصه اعتناءً بشأنها لاحتوائها^(٣) على أمر عجيب، وكذلك يُقدّر: اذكر إذ أتى.

(١) أخرجه البخاري (٥٤٣٥) ومسلم (٢٠٤١).

(٢) أخرجه الترمذي (١٨٤٩) والطبراني في «مسند الشاميين» (٣: ١٣٩) وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وفي الباب عن حكيم بن جابر عن أبيه.

(٣) في (ف): «لأحوالها».

ألف أو أكثر؛ والعَرَضُ: الوصفُ بالكثرة. ﴿إِلَى حِينٍ﴾: إلى أجلٍ مسمى. وقرئ: (ويزيدون) بالواو، و(حتى حين).

قوله: «(وَيَزِيدُونَ» بالواو) قَالَ ابْنُ جَنِّي: هِيَ قِرَاءَةٌ جَعَفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَفِيهِ إِعْرَابٌ حَسَنٌ^(١)، وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ: «يَزِيدُونَ» خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْدُوفٌ، أَي: هُمْ يَزِيدُونَ، وَالْوَاوُ لِعَطْفِ الْجُمْلَةِ عَلَى الْجُمْلَةِ، كَقَوْلِكَ: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ مِثْلِ الْأَسَدِ وَهُوَ وَاللَّهُ أَشْجَعُ، وَلَقِيتُ رَجُلًا جَوَادًا وَهُوَ وَاللَّهُ فَوْقَ الْجَوَادِ. وَيَفْسُدُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ ﴿يَزِيدُونَ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿يَأْتِي﴾، لِأَنَّ «إِلَى» لَا تَعْمَلُ فِي «يَزِيدُونَ»، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَفَ ﴿يَزِيدُونَ﴾ عَلَى مَعْمُولِهِ.

فإن قلت: قد يجوزُ في العطفِ ما لا يجوزُ في المعطوفِ عليه، كَقَوْلِنَا: رُبُّ رَجُلٍ وَأَخِيهِ، وَرُبُّ شَاةٍ وَسَخْلَتَيْهَا، وَمَرَرْتُ بِرَجُلٍ صَالِحٍ أَبَوَاهُ لَا طَالِحَيْنِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، قُلْنَا: لَوْ قَدَّرْتَ الْمُتَجَوِّزَ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ لَا تَبْلُغُ مَا رُمْتَهُ مِنْ تَقْدِيرِ حَرْفِ الْجَزْمِ مُبَاشِرًا لِلْفِعْلِ، أَلَا تَرَكَ لَا تَجِيزُ مَرَرْتُ بِقَائِمٍ وَيَقْعُدُ، وَأَنْتَ تُرِيدُ بِقَاعِدِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَلْزَمُ فَسَادُ الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى حِينَئِذٍ: وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى جَمْعَيْنِ: مِثَّةُ أَلْفٍ وَالْآخَرُ زَائِدٌ، وَلَيْسَ الْعَرَضُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْعَرَضُ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى جَمْعٍ لَوْ: رَأَيْتُمُوهُمْ لَقَلْتُمْ أَنْتُمْ: هُوَ لَاءٌ مِثَّةُ أَلْفٍ وَهُمْ أَيْضًا يَزِيدُونَ، فَالْجَمْعُ إِذَنْ وَاحِدٌ لَا جَمْعَانِ، وَكَذَلِكَ قِرَاءَةُ الْعَامَّةِ^(٢): ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾^(٣) أَي: أَوْ هُمْ يَزِيدُونَ.

قَالَ الرَّجَّاحُ: رُوِيَ عَنِ الْفَرَّاءِ وَأَبِي عُبَيْدَةَ: مَعْنَى ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾: بَلْ يَزِيدُونَ. وَقَالَ غَيْرُهُمَا: أَوْ يَزِيدُونَ فِي تَقْدِيرِكُمْ أَنْتُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّائِي قَالَ: هُوَ لَاءٌ مِثَّةُ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. هَذَا هُوَ الْقَوْلُ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ الْوَاوُ، وَهُوَ بَعِيدٌ؛ لِأَنَّ الْوَاوُ مَعْنَاهَا الْاجْتِمَاعُ، وَلَيْسَ فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَحَدَ الشَّيْئَيْنِ قَبْلَ الْآخَرِ^(٤).

(١) زاد في «المحتسب»: «وصنعةٌ صالحة».

(٢) وفي «المحتسب»: «الجماعة».

(٣) «المحتسب» (٢: ٢٢٦-٢٢٧).

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣١٤) وعبارة الفراء في «معاني القرآن» (٢: ٣٩٣): «أو» ها هنا في معنى

«بل» كذلك في التفسير مع صحته في العربية.

[فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَا وَاللَّهُمَّ الْبَنَاتُ * وَلَهُمُ الْبَنَاتُ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ * فَاتُوا بِكُتُبِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٩-١٥٧﴾]

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ معطوفٌ على مثله في أوّلِ السورة، وإن تباعدت بينهما المسافة. أمر رسولهُ باستفتاء قريشٍ عن وجه إنكارِ البعثِ أولاً، ثم ساق الكلامَ موصولاً بعضُهُ ببعض، ثم أمرهُ باستفتائهم عن وجهِ القسمة الضّيزى التي قَسَمُوها؛ حيثُ

قوله: (أمر رسولهُ صلواتُ الله عليه باستفتاء قريشٍ عن وجه إنكارِ البعثِ، أولاً، ثم ساق الكلامَ موصولاً بعضُهُ ببعضٍ ثم أمرهُ^(١) باستفتائهم عن وجهِ القسمة^(٢))، يريدُ أنّه تعالى أمرَ حبيبه صلواتُ الله عليه أن يستفتي قريشاً في هذه السّورة الكريمة مرّتين، أو لهما: يستفتيهم في وجه إنكارهم البعثَ بقوله: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَن خَلَقْنَا ﴾ ثم ساق الكلامَ في بيان أمر الحشر والنّشر وما إليه مألّ الفريقين المصدّقين له والمكذّبين إياه، وأشبع الكلامَ فيه، ثم علّل أنّ إنكارهم ذلك ما نشأ إلا من التقليد بقوله: ﴿ إِنَّهُمْ الْفَوَاءُ أَبَاءُ هُرْصَالِينَ * فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ مَّهْرَعُونَ ﴾ ولا فائدة في الحرص على إيمانهم، مُسَلِّياً حبيبه صلواتُ الله عليه؛ لئلا تذهب نفسه عليهم حسرات، وقرّر ذلك بقوله: ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولِينَ ﴾ إذ دأب قومك معك كدأب سائر الأمم السالفة مع أنبيائهم، وبينَ وخامة عاقبة المكذّبين وحسن عواقب المرسلين ومصدقّيتهم مُفَضَّلاً، فبدأ من نوح عليه السلام إلى أن ختم بيونس عليه السلام. ثم شرّع في نوعٍ آخر من الاستفتاء وهو الكلامُ في الإلهيات، وختم السّورة بما يتصلُ بها.

فإن قلت: قد علّم وجه اتصال الاستفتاء الأوّل بفاحة السّورة وأنّه من جهة الخالقِيّة وأنّ مخلوقات السّابقة أشدّ خلقاً من خلق المنكرين للبعث، فما وجه اتصال هذا الاستفتاء بها؟

(١) في الأصول الخطية: «أمرهم»، وصوّبناه من «الكشاف».

(٢) في (ح): «الاسمية».

جَعَلُوا لِلَّهِ الْإِنَاثَ وَالْأُنثُسِهِم الذُّكُورَ فِي قَوْلِهِمْ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، مَعَ كَرَاهَتِهِم الشَّدِيدَةَ لَهُنَّ، وَوَادِهِم، وَاسْتِنكَافِهِمْ مِنْ ذِكْرِهِنَّ. وَلَقَدْ ارْتَكَبُوا فِي ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ مِنَ الْكُفْرِ؛ أَحَدُهَا: التَّجْسِيمُ؛ لِأَنَّ الْوَلَادَةَ مَخْتَصَّةٌ بِالْأَجْسَامِ. وَالثَّانِي: تَفْضِيلُ أَنْفُسِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ حِينَ جَعَلُوا أَوْضَعَ الْجِنْسَيْنِ لَهُ وَأَرْفَعَهَا لَهُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧]، ﴿أَوْ مَنْ يُنشِئُوا فِي الْإِخْلَاقِ وَهُوَ فِي الْإِحْصَاءِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨].

والثالث: أنهم استهانوا بأكرم خلق الله عليه وأقربهم إليه؛ حيث أتوهم، ولو قيل لأقلهم وأدناهم: فيك أنوثة، أو: شكلك شكل النساء؛ لليس لقائله جلد النمر، ولانقلبت حماليقهُ، وذلك في أهاجهم بين مكشوف، فكرر الله سبحانه الأنواع كلها في كتابه مرات، ودل على فظاعتها في آيات: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ * لَقَدْ جِئْتُمْ

قلت: من وجه كونه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما، وأنه منافع للمجانسة كما تقرر في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ [الأنعام: ١٠١].

قوله: «عن وجه القسمة الضيزى» وهي من ضاز حقه يضيضه ضيزًا، بحسه ونقصه. قوله تعالى: ﴿قِسْمَةٌ ضِيزِيَّةٌ﴾ [النجم: ٢٢] أي: جائرة، وهي فعل مثل طوبى وحبلى، وإنما كسروا الصاد لتسلم الياء؛ لأنه ليس في كلامهم فعل صفة، وإنما هو من بناء الأسماء كالشعري والدفل. وقال الفراء: بعض العرب تقول: ضازى بالهمز^(١). وحكى أبو حاتم عن أبي زيد أنه سمع بعض العرب يهمز الضيزى^(٢).

قوله: ﴿أَوْ مَنْ يُنشِئُوا فِي الْإِخْلَاقِ﴾ قال: أو يجعل للرحمن من الولد من هذه الصفة المذمومة صفتة وهو أنه يتزين في الزينة والنعمة؟ وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ومجاراته الرجال كان غير مبين لضعف عقول النساء ونقصانهم عن فطرة الرجال.

(١) «معاني القرآن» للفراء (٣: ٩٨) وزاد: ولم يقرأ بها أحد نعلمه.

(٢) من قوله: «قوله: (عن وجه القسمة الضيزى) وهي» إلى هنا، ساقط من (ط) و(ح).

شَيْئًا إِذَا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ ﴿ [مریم: ٨٨-٩٠]، ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، ﴿ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَفَنُكُونُ لَهُ وُلَدًا ﴾ [الأنعام: ١٠١]، ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهِ ﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٢]، ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُرْعًا ﴾ [الزخرف: ١٥]، ﴿ وَجَعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: ٥٧]، ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴾ [الطور: ٣٩]، ﴿ وَجَعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل: ٦٢]، ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ [الصافات: ١٥٣]، ﴿ أَمْ اتَّخَذَ مِنَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُم بِالْبَنِينَ ﴾ [الزخرف: ١٦]، ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا ﴾ [الزخرف: ١٩]، ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾: فإن قلت: لِمَ قال: ﴿ وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ فخصَّ عِلْمَ المشاهدة؟ قلت: ما هو إلا استهزاء بهم وتجهيل، وكذلك قوله: ﴿ أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ [الزخرف: ١٩]، ونحوه قوله: ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ [الكهف: ٥١]؛ وذلك أنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة، لم يعلموه بخَلْقِ الله عِلْمَهُ في قلوبهم، ولا بإخبارِ صادق، ولا بطريق استدلال ونظر.

ويجوز أن يكون المعنى: أنهم يقولون ذلك، كالقائل قولاً عن ثَلَجِ صدر وطُمَأْنِينَةِ نَفْسٍ؛ لإفراط جهلهم، كأنهم قد شاهدوا خَلْقَهُمْ. وقرئ: ﴿ وَلَدُ اللَّهِ ﴾ أي: الملائكة وَلَدُهُ. والوَلَدُ «فَعَلٌ» بمعنى مفعول، يقع على الواحد والجمع، والمذكَّر والمؤنث،

قوله: ﴿ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَمَا لَمْ يَعْلَمُوا ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْمَشَاهِدَةِ ﴾ يعني: نفى طريق المشاهدة بالاستهزاء بهم وتجهيلهم لِيَنْسَدَّ جَمِيعُ طُرُقِ الْعِلْمِ، كأنه قيل: ما حصل لكم الْعِلْمُ الضَّرُورِيُّ بهذا القول ولا أخبركم به صادق ولا طريق للاستدلال والنظر^(١) إليه، فبقي أنكم شهدتم ذلك، أخبروني به إن حصل ذلك.

قوله: ﴿ (عَنْ ثَلَجِ صَدْرٍ) أَي: عَنْ طُمَأْنِينَةِ الْإِسَاسِ. وَمِنَ الْمَجَازِ: ثَلَجُ فُؤَادِهِ، وَهُوَ مَثَلُوجُ الْفُؤَادِ. ﴾

(١) سقط لفظ: «والنظر» من (ح).

تقول: هذه وكدي، وهؤلاء وكدي. فإن قلت: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ﴾ بفتح الهمزة: استفهامٌ على طريق الإنكار والاستبعاد، فكيف صحَّت قراءة أبي جعفر بكسر الهمزة على الإثبات؟ قلت: جعله من كلام الكفرة بدلاً عن قولهم: ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾، وقد قرأ بها حمزة والأعمش. وهذه القراءة وإن كان هذا محمّلها فهي ضعيفة، والذي أضعفها: أنّ الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبيها؛ وذلك قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، فمن جعلها للإثبات، فقد أوقعها دخيلةً بين نسيئين.

قوله: (وقد قرأ بها حمزة والأعمش) أي: في الشاذّ.

قوله: (فمن جعلها للإثبات) ^(١) فقد ^(٢) أوقعها دخيلةً بين نسيئين) يعني: قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ كلامُ الله تعالى على سبيل الإنكار، فلو جعل ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ إخبارياً لكان من كلام الكفار فيختل النظم. وقلت: جعله إخبارياً لا يمنع من أن يكون من كلام الله على سبيل الإنكار ^(٣)، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥] بكسر الهمزة؟ وتفسيرُ الحسنِ أنّه قولُ الله يُكذِّبُهُمْ. وقد قال المصنّف ^(٤): قولُ الحسنِ إنّها يستقيمُ أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذي في معنى الإنكار، ووجهه أن يكون على نحو قوله:

أَفْرُحُ أَنْ أُزْرَأَ الْكِرَامِ ^(٥)

وَأَنشَدُوا الْعُمَرَ بْنَ أَبِي رَيْبَعَةَ:

ثُمَّ قَالُوا: تُحِبُّهَا؟ قُلْتُ: بَهْرًا! عَدَدَ الرَّمْلِ وَالْحَصَى وَالثَّرَابِ ^(٦)

أَيُّ أُحِبُّهَا؟ وَبَهْرًا، أَيُّ عَجَبًا.

(١) في (ح): «للأمهات».

(٢) قوله: «فمن جعلها للإثبات فقد» سقط من (ط).

(٣) من قوله: «فلو جعل ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ إلى هنا، سقط من (ح).

(٤) انظر: (١١: ١٧٤ - ١٧٥).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) «ديوان عمر بن أبي ربيعة» ص ٤٣١.

وَقُرِي: (تَدَّكَّرُونَ) مِنْ: ذَكَر. ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ﴾ أَي: حُجَّةٌ نَزَلَتْ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَخَبْرٌ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، ﴿فَأَتُوا بِكِنْيَتِكُمْ﴾ الَّذِي أُنزِلَ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوْا يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥]، وَهَذِهِ الْآيَاتُ صَادِرَةٌ عَنْ سَخَطٍ عَظِيمٍ، وَإِنْكَارٍ فَطِيعٍ، وَاسْتِبْعَادٍ لِأَقْوَابِهِمْ شَدِيدٍ، وَمَا الْأَسَالِيبُ الَّتِي وَرَدَتْ عَلَيْهَا إِلَّا نَاطِقَةٌ بِتَسْفِيهِهِ أَحْلَامِ قُرَيْشٍ، وَتَجْهِيلِ نَفْسِهَا، وَاسْتِرْكَائِكِ عَقُولِهَا، مَعَ اسْتِهْزَاءٍ وَتَهْكُمٍ وَتَعْجِيبٍ مِنْ أَنْ يُحْطِرَ مُحْطِرٌ مِثْلَ ذَلِكَ عَلَى بَالٍ وَيُحَدِّثُ بِهِ نَفْسًا؛ فَضْلًا أَنْ يَجْعَلَهُ مَعْتَقَدًا وَيَتَظَاهَرُ بِهِ مَذْهَبًا.

[﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾ وَقَدْ عَلِمَتِ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ١٥٨-١٦٠]

﴿وَجَعَلُوا﴾ بَيْنَ اللَّهِ ﴿وَبَيْنَ الْجَنَّةِ﴾ وَأَرَادَ الْمَلَائِكَةَ ﴿نَسَبًا﴾؛ وَهُوَ زَعْمُهُمْ أَنَّهُمْ بَنَاتُهُ، وَالْمَعْنَى: جَعَلُوا بِمَا قَالُوا نِسْبَةً بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُمْ، وَأَثْبَتُوا لَهُ بِذَلِكَ جَنَسِيَّةً جَامِعَةً لَهُ وَلِلْمَلَائِكَةِ. فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ سَمِيَ الْمَلَائِكَةَ جِنَّةً؟ قُلْتَ: قَالُوا: الْجِنْسُ وَاحِدٌ، وَلَكِنْ مَنْ حَبِثَ مِنَ الْجِنِّ وَمَرَدَ وَكَانَ شَرًّا كُلُّهُ فَهُوَ شَيْطَانٌ، وَمَنْ طَهَّرَ مِنْهُمْ وَنَسَكَ وَكَانَ خَيْرًا كُلُّهُ فَهُوَ مَلَكٌ؛ فَذَكَرَهُمْ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بِاسْمِ جِنْسِهِمْ، وَإِنَّمَا ذَكَرَهُمْ بِهَذَا الْاسْمِ؛ وَضَعًا مِنْهُمْ وَتَقْصِيرًا بِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا مُعْظَمِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَبْلُغُوا مَنْزِلَةَ الْمُنَاسِبَةِ

قَوْلُهُ: (وَقُرِي: «تَدَّكَّرُونَ»، مِنْ: ذَكَر) يَعْنِي: بِالتَّخْفِيفِ^(١)؛ حَفْصٌ وَحَمْزَةٌ وَالْكَسَائِيُّ.

قَوْلُهُ: (أَنْ يَبْلُغُوا مَنْزِلَةَ الْمُنَاسِبَةِ) يُنَازِعُ فِيهِ قَوْلُهُ: «وَضَعًا^(٢) وَتَقْصِيرًا»، وَقَوْلُهُ: «وَإِنْ كَانُوا مُعْظَمِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ» تَتِمُّمٌ لِلضِّيَانَةِ. اعْتَرَضَ بَيْنَ الْعَامِلِ وَالْمَعْمُولِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

(١) أَي: بِتَخْفِيفِ الدَّالِ. انظُر: «التيسير» للداني ص ١٠٨.

(٢) فِي (ح) وَ(ف): «وَضَعْفًا».

التي أضافوها إليهم. وفيه إشارة إلى أن من صفته الاجتنان والاستتار - وهو من صفات الأجرام - لا يصلح أن يُناسَبَ من لا يجوزُ عليه ذلك. ومثاله: أن تسوي بين الملك وبين بعض خواصه ومقرّبيه، فيقول لك: أتسوي بيني وبين عبدي؟! وإذا ذكره في غير هذا المقام وقرّره وكنّاه. والضميرُ في ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ للكفرة. والمعنى: أنهم يقولون ما يقولون في الملائكة، وقد عَلِمَ الملائكةُ أنهم في ذلك كاذبون مُفترّون، وأنهم مُحضرون النارَ معدّيون بها يقولون، والمرادُ المبالغةُ في التكذيب؛ حيث أُضيفَ إلى علم الذين ادّعوا لهم تلك النسبة.

وقيل: قالوا: إن الله صاهرَ الجنَّ فخرجتِ الملائكة. وقيل: قالوا: إن الله والشيطانَ أخوان. وعن الحسن: أشركوا الجنَّ في طاعة الله. ويجوزُ إذا فسّرَ الجنةَ بالشياطين: أن يكونَ الضميرُ في ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ لهم، والمعنى: أن الشياطينَ عالمون أن الله يُحضرُهم النارَ ويعذبُهم، ولو كانوا مناسبين له أو شركاء في وجوب الطاعة لَمَا عذبهم. ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ من المُحضَرين، معناه: ولكن المُخلصين ناجون.

قوله: (والمرادُ المبالغةُ في التّكذيب) يعني كذبهم الله بقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَبَاً﴾ حيث سَمَّاهُم بالجنة، ولَمَّا أريدَ التّسميمُ ومزيدُ المبالغةِ قيل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ حيث أوقعَ الجملةَ القسَميةَ حالاً وأعيدَ لفظُ ﴿الجنةُ﴾ للتوضيح والتّكذيبِ وجعلهم عالمين بأنَّ معظمهم مُعدّيون بتلك المقالة كما تقول: إنَّ الذي مدّخته وعظّمته هو الذي يعلمُ أنّك كاذبٌ وهو يسعى في نكالِكَ وحزبك.

قوله: (وقيل: قالوا إنَّ الله والشيطانَ أخوان) قال الإمام: روي أن قوماً من الرّنادقة يقولون: إن الله وإبليسَ أخوان، والله هو الأخ الكريم، وإبليس هو الأخ الشّريرُ الحسيس. وعندي أن هذا القول أقربُ وهو مذهبُ المجوسِ القائلينَ ببيزدانٍ وأهرمن^(١).

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣٦٠).

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾: اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه. ويجوز أن يقع الاستثناء من الواو في ﴿يَصِفُونَ﴾، أي: يصفه هؤلاء بذلك، ولكن المخلصين برآء من أن يصفوه به.

[﴿فَانْكُرُوا مَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتَ عَلَيْهِ بِفِتْنَيْنِ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾ ١٦١-١٦٣]

الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ لله عز وجل، ومعناه: فإنكم ومعبودكم ﴿مَا أَنْتَ﴾ وهم جميعاً ﴿بِفِتْنَيْنِ﴾ على الله إلا أصحاب النار الذين سبق في علمه أنهم بسوء أعمالهم يستوجبون أن يضلواها.

فإن قلت: كيف يفتنونهم على الله؟ قلت: يفسدوهم عليه بإغوائهم واستهوائهم، من قولك: فتن فلان على فلان امرأته، كما تقول: أفسدها عليه وخبيها عليه.

قوله: (ويجوز أن يقع الاستثناء من الواو في ﴿يَصِفُونَ﴾) فعلى هذا أيضاً منقطع، ولا يجوز أن يكون متصلاً؛ لأن المعنى ياباه. وقيل: يجوز أن يكون الاستثناء من «جعلوا» واختار الواحدي الأول^(١)، وهو إنما يُحْسَنُ كُلُّ الْحُسْنِ إِذَا فَسَّرَ الْجِنَّ بِالشَّيَاطِينِ لِيَرْجِعَ مَعْنَاهُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ اللَّعِينِ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣] أي: إنهم لمحضرون النار ومعدبون حيث أطاعونا في إغوائنا إياهم، لكن الذين أخلصوا لطاعة الله وطهروا قلوبهم من أرجاس الشرك وأنجاس الكفر والرذائل ما عمل فيهم كيدنا فلا يمحضرون، ويكون ذلك مدحاً للمخلصين وتعريضاً بالمشركين وإرغاماً لأنوفهم ومزيداً لغيظهم، أي إنهم بخلاف ما هم عليه من سفه الأحلام وجهل النفوس وركاكة العقول. والله أعلم.

قوله: (وخبيها عليه)، الجوهرية: الحب: الرجل الحداء الجريز. وقد خبب غلامي فلان أي: خدعه. وقيل: خبها؛ من الحب، وهو الطرار، وقيل: التخبيب، تعليم الحب وهو الدهاء، والدهاء العلم بالشر.

(١) «التفسير الوسيط» للواحدى (٣: ٥٣٤).

ويجوزُ أن يكون الواوُ في ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ بمعنى «مع»، مثلها في قولهم: كُلُّ رَجُلٍ وَصِيْعَتُهُ، فكما جاز السكوتُ على كُلِّ رَجُلٍ وَصِيْعَتُهُ، وإنَّ كُلَّ رَجُلٍ وَصِيْعَتُهُ؛ جاز أن يُسَكَّتَ على قوله: ﴿فَأَيُّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾؛ لأنَّ قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ سادَّ مَسَدَّ الخبر؛ لأنَّ معناه: فإنكم مع ما تعبدون. والمعنى: فإنكم مع آلهتكم، أي: فإنكم قرناؤهم وأصحابهم لا تَبْرَحُونَ تَعْبُدُونَهَا، ثم قال: ﴿مَا أَنْتَ عَلَيْهِ﴾، أي: على ما تعبدون ﴿يَفْتِنِينَ﴾ بباعين أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال، ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ﴾ ضالٌّ مثلكم.

أو يكونُ في أسلوبِ قوله:

فإنَّكَ والكِتَابَ إلى عليٍّ كدَابِغَةٍ وقد حَلِمَ الأديمُ

قوله: (بمعنى مع) قال أبو البقاء: المشهورُ أنَّ الواوُ^(١) في «وما تعبدون» للعطف، أي إنَّكُمْ وَمَعْبُودِكُمْ. وقيل: يَضْعَفُ أن يكونَ بمعنى «مع» إذ لا فِعْلَ هنا^(٢).

قوله: (أو يكونُ في أسلوبِ قوله: فإنَّكَ والكِتَابَ إلى عليٍّ) عطفٌ على قوله: (مثلها في قولهم) إلى آخره. أي تكونُ «الواو» بمعنى «مع»^(٣) ويكونُ الخبرُ «ما أنتم» كقولِ الشَّاعِرِ. قال الميداني: كدَابِغَةٍ وقد حَلِمَ الأديمُ:

يُضْرَبُ للأمرِ الَّذي قد انتهى فسادُهُ، وَذَلِكَ أنَّ الجِلْدَ إذا حَلِمَ فليس بعدهُ إصلاح. ويروى عن الوليدِ بنِ عُقْبَةَ أَنَّهُ كَتَبَ إلى مُعَاوِيَةَ البَيْتِ. وقال المفضَّل: إنَّ المثلَ لخالدِ بنِ مُعَاوِيَةَ أحدِ بني عبدِ شمسِ بنِ سَعْدٍ حيثُ قال:

قَدْ عَلِمْتُ أَحْسَابَنَا تَمِيمٌ فِي الحَرْبِ حينَ حَلِمَ الأديمُ^(٤)

(١) من بداية فقرة «قوله: ويجوز أن يقع الاستثناء» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ١٠٩٤).

(٣) من قوله: «إذ لا فعل هنا» إلى هنا، سقط من (ح).

(٤) «مجمع الأمثال» (٢: ١٥٠).

وقرأ الحسن: (صَالُ الْجَحِيمِ) بضم اللام، وفيه ثلاثة أوجه؛ أحدها: أن يكون جمعاً وسقوط واؤه لالتقاء الساكنين هي ولام التعريف. فإن قلت: كيف استقام الجمع مع قوله: ﴿مَنْ هُوَ؟﴾ قلت: ﴿مَنْ﴾ مؤخذ اللفظ مجموع المعنى، فحمل هو على لفظه، والصَّالُونَ على معناه، كما حمل في مواضع من التنزيل على لفظ «مَنْ» ومعناه

الجوهري: الحَلَمُ بالتحريك: أن يفسد الإهاب في العمل ويقع فيه دودٌ فينقب. تقول منه: حَلِمَ الأديم؛ بالكسر.

يقول: حالك مع كتابك إلى علي، يعني إصلاح شأنك معه بالكتابة إليه بعدما فسد ما بينكما كحال من ترك الأديم حتى فسد ثم أخذ في دباغتها لا يفيدُهُ شيءٌ ويَبْطُلُ سعيه، كذلك أنتم أيها الكفرة مع عبادكم قرناءكم لا يتسهل لكم أن تفتنوا الناس إلا من هو ضالٌ مثلكم.

وفي بعض النسخ: «ويكون في أسلوب قوله: وإنك والكتاب على علي» بالواو بدل «أو» في «الكشاف» و«ب» «على» بدل «إلى» في البيت، وكتب في الحاشية أن الواو في الآية وفي البيت عاطفة، والاستشهاد في «علي»، كأن هذا القائل أراد أن قوله: «بفاتنين» متضمن معنى: باعثن وحاملين فعدي ب «علي» كما عدي الكتاب ب «علي» لتضمنه معنى البعث، فلا يخفى على من له أدنى مسكة بعد هذا التقرير وظهور الأول.

قوله: (وقرأ الحسن: «صَالُ الْجَحِيمِ»^(١)) قال ابن جني: «صَالُ الْجَحِيمِ» كان شيخنا أبو علي يحملة على حذف ياء «صال» تخفيفاً، وتغرب اللام بالضم، كما حذف ياء البالة من قولهم: ما باليت به بالة، وهي البالية كالعافية والعاقبة. وذهب قطرب إلى أنه جمع «صال» أي: صالون، فحذف النون للإضافة وبقي الواو^(٢) فحذفت لالتقاء الساكنين، وحمل على معنى «مَنْ» لأنه جمع معنى، وهذا حسن. وقول أبي علي وجه مأخوذ به^(٣).

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ١٣٦).

(٢) في (ط): «الياء».

(٣) «المحتسب» (٢: ٢٢٨).

في آية واحدة. والثاني: أن يكون أصله: صائل على القلب، ثم يقال: صال في صائل، كقولهم: شاك في شائك. والثالث: أن يُحذف لام صالٍ تخفيفاً، ويُجرى الإعراب على عينه، كما حُذف من قولهم: ما باليتُ به بالةً، وأصلها باليةٌ من بالى، كعافيةٍ من عافى. ونظيره قراءةٌ من قرأ: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ﴾ [الرحمن: ٢٤] بإجراء الإعراب على العين.

﴿وَمَا مِثْلًا إِلَّا لَهُ، مَقَامٌ مَعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [١٦٤-١٦٦]
 ﴿وَمَا مِثْلًا﴾ أحدٌ ﴿إِلَّا لَهُ، مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، كقوله:

أنا ابنُ جَلا وطَلاعُ الشَّابِيا

قوله: (أن يكون أصله: صائل على القلب) يريد أن أصل «صال» «صائل» و«صائل» مقلوب «صالي» فصار صائلاً ثم حُذف الياء، كما أن «شاك» أصله «شائك» مقلوب «شاكى» على أنه أصل لا مقلوب، فإن صاحب «الصَّحاح» عدَّ شاكى السَّلاح في باب «شكا» ثم قال: وقال الأخفش: هو مقلوبُ شاك، فكأنه لا اتفاق على كون «شاك» مقلوباً، قال صاحب «التَّقریب»، وقال أبو البقاء: قرئ «صال» بضمِّ اللام في الشاذ، من «صالي» قُلبَ فصار «صائلاً» ثم حُذف الياء فبقي «صال»^(١). وذكر الجوهرى في باب «شوك»: شاك الرجل يشاك شوكاً، أي: ظهرت شوكته وشِدته، فهو شائك السَّلاح، وشاكى السَّلاح أيضاً مقلوبٌ منه.

قوله: (أنا ابنُ جلا وطَلاعُ الشَّابِيا)، تمامه:

متى أضع العِمامةَ تعرَّفوني^(٢)

(١) «البيان في إعراب القرآن» (٢: ١٠٩٥).

(٢) البيت لسُحيم بن وثيل الرياحي، وقد تمثل به الحجاج حين ذهب والياً على العراق. انظر: «جمهرة اللغة» لابن دريد (٢: ١٠٤٤).

بِكَفِّي كَانَ مِنْ أَرْمَى الْبَشْرَ

أي: أنا ابنُ رَجُلٍ جَلَا الأُمُورَ وَكَشَفَهَا، متى أضعُ العِمَامَةَ على رَأْسِي تَعْرِفُونِي أَنِّي مِنْ أَهْلِ العِمَامَةِ، والدَّلِيلُ على حَذْفِ الموصُوفِ مَنَعُ التَّنوينِ مِنَ الابنِ وامتِناعُ أَنْ يُضَافَ الابنُ إلى «جَلَا»؛ لأنَّهُ لَيْسَ بِاسْمِ أبِيهِ فيُضَافُ إليه، وإذا جَعَلْنَاهُ صِفَةً فلا بَدَأَ أَنْ يَكُونَ فِعْلاً، ولا يُضَافُ إلى الفِعْلِ إلا اسْمُ الزَّمانِ والمكانِ وَلَيْسَ الابنُ بواحدٍ مِنْها، فَبَيَّنْتَ أَنَّ المُضَافَ إليه مَحذُوفٌ وَهُوَ الموصُوفِ.

فإن قلت: فلعلَّ عَدَمَ دَخُولِ التَّنوينِ على «جَلَا» على مَذْهَبِ عيسى بنِ عُمَرَ، فَمَذْهَبُهُ أَنَّ الفِعْلَ إذا سُمِّيَ به كانَ كَوْنُهُ على صِيغَةِ الفِعْلِ سَبباً والعِلْمِيَّةُ سَبَبٌ آخَرَ فَيَمْتَنِعُ مِنَ الصَّرْفِ، وإن لم يَمْنَعِ صَرَفَ مِثْلِهِ الخَلِيلُ وَسَيُويهِ والجَمْهُورُ.

قلت: ذَلِكَ مَذْهَبٌ باطِلٌ بِدَلِيلِ ما نَقَلَهُ الثُّقاتُ مِنْ صَرَفِ «كَعَسَبَ»، وَهُوَ فِي الأَصْلِ فِعْلٌ، يُقالُ: كَعَسَبَ الرَّجُلُ إذا مَشى بِإِسْرَاعٍ مَعَ تَقارُبِ الخَطُوطِ. ولا تَنوينِ في «جَلَا» فِي البَيْتِ فيُحْمَلُ على أَنَّهُ فِعْلٌ ماضٍ وَقَعَ صِفَةً لِموصُوفٍ مَحذُوفٍ، وفيهِ تَأويلٌ آخَرَ، وَهُوَ أَنَّ «جَلَا» مِنْ بابِ حِكايةِ الجَمَلِ كَأَنَّ «جَلَا» فِيهِ ضَميرٌ فيُجِبُّ حِكايةَ كِما حَكَى «يَزِيدُ» فِي قَوْلِهِ:

نَبَّئْتُ أَحْوالِي بَنِي يَزِيدٍ

قال المِيداني: يُضَرَّبُ لِلْمَشْهُورِ المَتَعالِمِ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِ سُحَيْمِ بْنِ وَثِيلِ الرِّياحِيِّ (١)، تَقديرُهُ: أنا ابنُ الَّذِي يُقالُ لَهُ: جَلَا الأُمُورَ وَكَشَفَهَا.

قَوْلُهُ: (بِكَفِّي كَانَ مِنْ أَرْمَى الْبَشْرَ)، أَوَّلُهُ:

مَالِكَ عِنْدِي غَيْرُ سَهْمٍ وَحَجَرٍ وَغَيْرُ كَبْدَاءٍ شَدِيدَةِ الوَتْرِ

جَادَتْ بِكَفِّي (أَي بِكَفِّي شَخْصٍ) كَانَ مِنْ أَرْمَى الْبَشْرَ (٢).

(١) «مجمع الأمثال» (١: ٣١).

(٢) ذكره البغدادي في «خزانة الأدب» (٥: ٦٥) من غير عزو لأحد.

﴿مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾: مقامٌ في العبادة، والانتهاؤ إلى أمرِ الله مقصورٌ عليه لا يتجاوزه، كما رُوي: «فمنهم راعٍ لا يُقيم صلَّبه، وساجدٌ لا يرفع رأسه». ﴿لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾: نصفُ أقدامنا في الصلاة، أو أجنحتنا في الهواء، مُنتظرين ما نُؤمر. وقيل: نصفُ أجنحتنا حَوْلَ العرشِ داعين للمؤمنين. وقيل: إنَّ المسلمين إنَّما اصطَفُوا في الصلاة منذ نزلت هذه الآية. وليس يصطفُ أحدٌ من أهل الملل في صلاتهم غير المسلمين. ﴿الْمُسَيِّحُونَ﴾: المنزّهون، أو المصلِّون. والوجه: أن يكونَ هذا وما قبله من قوله:

الكِبْدَاء: القوسُ الذي يَمَلَأُ مِقْبَضَهَا الكَفَّ، والدليلُ على حذفِ الموصوفِ حذفُ النون.

قوله: (والوجهُ أن يكونَ هذا وما قبله) إلى آخره، عطفٌ على قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ اعتراضٌ بينَ الاستثناءِ وبينَ ما وَقَعَ منه من حيث المعنى، يعني: يُجْعَلُ من قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْإِنْتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ الْمُسَيِّحُونَ﴾ قصَّةٌ واحدة؛ ليكونَ مُفْرَعًا وإفْرَاعًا واحدًا، وتقريره: وَلَمَّا عَلِمَتِ الملائكةُ أَنَّ الكُفْرَةَ مُحْضَرُونَ وَمُعَذَّبُونَ تَبَرُّؤًا مِنْهُمْ وَنَزَّهُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِقَوْلِهِمْ: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: يصفه هؤلاء ولكن المخلصون بُرَاءٌ مِمَّا يصفونه به، ثُمَّ التَّفَتُّوا إِلَى الكُفْرَةِ وَجَاؤُوا بِالْفَاءِ الجَزَائِيَّةِ، أي إذا صَحَّ أَنَّكُمْ تَفْتَرُونَ - والله تعالى مُتَزَّهٌ عَمَّا تقولون - وَأَنَّ المَخْلِصِينَ من عبادِ الله بُرَاءٌ مِمَّا تصفونه، فاعلموا أَنَّكُمْ وَآلِهَتَكُمْ لا تقدرُونَ على أن تفتنوا على الله تعالى من عباده المخلصين الذين اصطَفاهم لنفسه، بل الذي تقدرُونَ أن تفتنوه مَنْ هُوَ مِثْلَكُمْ مِمَّنْ قَدَّرَ اللهُ أَنَّهُ من أصحابِ النَّارِ، وَلَمَّا فَرَّغُوا من الاحتجاجِ رجعوا إلى إظهارِ العبوديَّةِ والخضوعِ لربِّهم والاعتذارِ عَمَّا نُسِبَ إليهم بقوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ. مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ إلى آخره.

هذا تقريرٌ حسن، لكنَّ قوله: «مَنْ عَلِمَ اللهُ بِكُفْرِهِمْ أَنَّهُمْ من أهلِ النَّارِ لا لتقديره وإرادته» تعريجٌ من المحجَّة، وفَسَّرَ بِمَجْرَدِ الرَّأْيِ، حيثُ فَرَّقَ بَيْنَ عِلْمِ اللهُ وَتَقْدِيرِهِ وَإِرَادَتِهِ. قَالَ محيي السُّنَّةِ: إلا من قَدَّرَ اللهُ أَنَّهُ سيدخُلُ النَّارَ أَي: سَبَقَ لَهُ في عِلْمِ اللهُ الشَّقَاوَةُ^(١).

(١) «معالم التنزيل» (٧: ٦٣).

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الصفات: ١٥٩] من كلام الملائكة، حتى يتَّصَلَ بذِكْرِهِمْ في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ [الصفات: ١٥٨]، كأنه قيل: ولقد عَلِمَ الملائكةُ وشهدوا أن المشركين مُفْتَرُونَ عليهم في مُناسِبَةِ رَبِّ العِزَّةِ، وقالوا: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾، فنزَّهوه عن ذلك، واستثنوا عبادَ الله المُخْلِصِينَ، وبرَّؤوهم منه، وقالوا للكفرة: فإذا صحَّ ذلك فإنكم وأهتكم لا تقْدِرون أن تَقْتِنوا على الله أحداً من خَلْقِهِ وتُضِلُّوه، إلا مَنْ كان مِثْلَكُمْ مِمَّنْ عَلِمَ اللهُ - لكفرهم، لا لتقديره وإرادته، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً - أنهم من أهل النار، وكيف نكونُ مناسِبِينَ لربِّ العِزَّةِ ونَجْمَعُنَا وإيَّاه جنسِيَّةً واحدة؟ وما نحنُ إلا عبيدٌ أذلاءُ بين يديه، لكلِّ منا مقامٌ من الطاعة لا يستطيع أن يَزِلَّ عنه ظُفراً؛ خُشوعاً لعَظَمَتِهِ وتواضُعاً لجلاله، ونحنُ الصَّافُونَ أقدامنا لعبادته وأجنتنا، مُذْعِنِينَ خاضعين مسبِّحين ممجِّدين، وكما يجبُ على العبادِ لربِّهم. وقيل:

وقال الإمام: إلا مَنْ كَانَ كَذَلِكَ في حُكْمِ اللهِ وتقديره^(١). وذلك تصريحٌ بأنَّ المقتضي لوقوع هذه الحوادثِ حكمُ اللهِ، وكانَ عُمَرُ بن عبد العزيزِ يَحْتَجُّ بهذه الآيةِ في إثباتِ هذا المطلوب، أي: أنَّ حُكْمَ اللهِ بالسَّعادةِ والشَّقَاوَةِ هو الَّذِي يُؤَثِّرُ في حصولِهما. وقلت: ويساعدُ عليه النُّظْمُ الَّذِي لَخَّصَنَاهُ.

قوله: (أنهم من أهل النار) مُتَعَلِّقٌ بقوله: «عَلِمَ اللهُ»، أي: عَلِمَ اللهُ بسببِ كفرِهِمْ أنهم من أهلِ النَّارِ، وقوله: «ويَجْمَعُنَا وإيَّاه» داخلٌ في حَيِّزِ الإنكارِ، أي: كيف نَجْمَعُنَا واللهُ سُبْحانَهُ وتعالى جِنْسِيَّةً؟!

قوله: (أن يَزِلَّ عَنْهُ ظُفْرًا)، أي: مقدارَ ظُفْرٍ، كقوله:

وَقَدْ جَعَلْتَنِي مِنْ خُزَيْمَةَ أَضْبَعًا

قوله: (وكما يجبُ على العبادِ) تقديره: ونحنُ - كما ذَكَّرْنَا - خاضِعِينَ مُسَبِّحِينَ، وكما يجبُ على العبادِ لربِّهم من الطاعة.

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣٦١).

هو من قول رسول الله ﷺ، يعني: وما من المسلمين أحد إلا له مقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله، من قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. ثم ذكّر أعمالهم وأنهم هم الذين يصطفون في الصلاة يسبحون الله وينزهونه مما يُضيف إليه من لا يعرفه مما لا يجوزُ عليه.

﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوَآءَنَّا عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * فَكْفَرُوا بِهِ * فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [١٦٧-١٧٠]

هم مشركو قريش كانوا يقولون: ﴿لَوَآءَنَّا عِنْدَنَا ذِكْرًا﴾ أي: كتاباً ﴿مِنْ﴾ كُتِبَ ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل، لأخلصنا العبادة لله، ولما كذبنا كما كذبوا، ولا خالفنا كما خالفوا، فجاءهم الذكْر الذي هو سيّد الأذكار، والكتاب الذي هو مُعْجِزٌ من بين الكتب، فكفروا به، ونحوه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا تَفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢]، فسوف يعلمون مغبة تكذيبهم وما يحل بهم من الانتقام. و﴿إِنْ﴾ هي المخففة من الثقلية، واللام هي الفارقة؛ وفي ذلك أنهم كانوا يقولونه مؤكدين للقول جادّين فيه، فكم بين أول أمرهم وآخره!

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾

[١٧١-١٧٣]

قوله: (هو من قول رسول الله ﷺ) وعلى هذا يكون قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ اعتراضاً، وكلام الرسول ﷺ استطراداً؛ لأنه تعالى لما أمر رسوله ﷺ^(١) بالاستفتاء عن وجه تلك القسمة الضيضية التي قسموها بقوله: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ إِرْبَكِ الْأَنْبَاءِ وَلَهُمُ الْبُشُورُ﴾ وبالإنكار البليغ واستجهاال النفوس واستركاك العقول سخطاً عليهم وغضباً على تلك المقالة الشنيعة أتى بما دلّ على ضدّ ذلك من معنى الرضا عن المؤمنين لأجل أعمالهم الصالحة من الصلاة في الجماعات، وتسييح الله وتنزيهه عما أضاف إليه الكفرة.

(١) من قوله: «وعلى هذا يكون قوله» إلى هنا، سقط من (ح).

الكلمة: قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، وإنما سماها كلمة وهي كلمات عدّة؛ لأنها لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة. وقرئ: (كلماتنا).

والمراد الموعدُ بعلوِّهم على عدوِّهم في مقاومِ الحجاج وملاحم القتال في الدنيا، وعلوِّهم عليهم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢]، ولا يلزمُ انزمامهم في بعضِ المشاهد، وما جرى عليهم من القتل؛ فإن الغلبة كانت لهم ولمن بعدهم في العاقبة، وكفى بمشاهد رسولِ الله ﷺ والخلفاء الراشدين مثلاً يُجتذى عليها وعبراً يُعتبر بها.

وعن الحسنِ رحمه الله: ما غلبَ نبيٌّ في حربٍ ولا قُتل فيها. ولأن قاعدة أمرهم وأساسه والغالب منه: الظفرُ والنصرة وإن وقع في تضاعيف ذلك شوبٌ من الابتلاء والمحنة، والحكم للغالب.

وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: إن لم يُنصروا في الدنيا نُصروا في الآخرة. وفي قراءة ابنِ مسعود: (على عبادنا)، على تضمين ﴿سَبَقَتْ﴾ معنى حَقَّت.

قوله: (الكلمة: قوله ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا﴾)، الرَّاعِب: يُقالُ للعسكر: الجُنْدُ اعتبارًا بالغِلْظَةِ من العَجْدِ أي: الأرض الغليظة التي فيها حجارة، ثم يُقالُ لكُلِّ مُجْتَمَعٍ: جُنْدٌ، نحو «الأرواحُ جنودٌ مُجَنَّدَةٌ» والجمع: أجنادٌ وجُنود. قال اللهُ تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ [الأحزاب: ٩] (١).

قوله: (كانت في حكم كلمة مفردة) عن بعضهم: نظير «الكلمة»، «الثمرة» يُقال: باع فلانُ ثمرةً بُستانه، وإن كانت ثمرات، ويُقالُ للقرية: مدرة؛ لأنها لما اجتمعت وتضامت صارت في حكم شيء واحد.

[﴿فَنَوَّلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصَرْتُمْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ﴾ ١٧٤-١٧٥]

﴿فَنَوَّلَ عَنْهُمْ﴾: فأعرض عنهم وأغض على أذاهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾: إلى مدّة يسيرة؛ وهي مدّة الكفّ عن القتال.

وعن السُّدِّيِّ: إلى يومِ بَدْر. وقيل: الموت. وقيل: إلى يومِ القيامة.

﴿وَأَبْصَرْتُمْ﴾ وما يُقضى عليهم من الأَسْرِ والقتلِ والعذابِ في الآخرة، فسوف يُبصرونك، وما يُقضى لك من النُّصرة والتأييد والثوابِ في العاقبة. والمرادُ بالأمرِ بإبصارهم على الحالِ المُتظّرة الموعودة: الدلالةُ على أنها كائنة واقعة لا محالة، وأنّ كَيونَتها قريبةٌ كأنها قُدامَ ناظرِك. وفي ذلك تسليّةٌ له وتنفيسٌ عنه. وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ﴾ للوعيد كما سَلَف، لا للتبديد.

[﴿أَفِعْذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِبِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ * وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ *

وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ﴾ ١٧٦-١٧٩]

مُثَلِّ العذابِ النازلِ بهم بعد ما أنذروهم فأنكروهم بجيش أنذر بهجومه قومَه بعضُ نَصّاحهم فلم يَلتفتوا إلى إنذاره، ولا أخذوا أُهْبَتَهُم، ولا دَبَّرُوا أمرهم تدبيراً يُنجيهم، حتى أناخ بفنائهم بغتةً، فشنَّ عليهم الغارةَ وقَطَعَ دابرهم، وكانت عادةً

قوله: (الدلالةُ على أنّها كائنة) يعني: إنّها أمرُ الله نبيُّه صلواتُ الله وسلامه عليه بقوله:

﴿وَأَبْصَرْتُمْ﴾ والمُبْصَرُ مُتَظَرٌّ بَعْدَ، للدلالةِ على أنّ وَعَدَ الله الآتيَ بمنزلةِ الكائِنِ استحْضاراً لتلك الحالةِ الآتيةِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمَجْرُمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ [السجدة: ١٢].

قوله: ﴿فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ﴾ للوعيد كما سَلَف، يعني: قوله: ﴿وَأَبْصَرْتُمْ﴾ وما يُقضى

عليهم من الأَسْرِ إلى قوله: «وما يُقضى لك من النُّصرة والتأييد والثوابِ في العاقبة» لا للتبديد، كما تقول: سوف أنتقم منك، وأنت مُتَهَيِّئُ للانتقام.

قوله: (فشنَّ عليهم الغارة) شنَّ الماء على الشَّرَابِ: فرَقَهُ عليه، ومنه قيل: شنَّ عليهم

الغارةَ وأشنَّ، إذا فرَّقها عليهم من كُلِّ وجه.

مَغاوِيرِهِمْ أَنْ يُغَيِّرُوا صَبَاحًا، فَسُمِّيَتِ الْغَارَةُ «صَبَاحًا»، وَإِنْ وَقَعَتْ فِي آخِرِ. وَمَا فَصَّحَتْ هَذِهِ الْآيَةَ، وَلَا كَانَتْ لَهَا الرُّوعَةُ الَّتِي تُحْسُّ بِهَا وَيَرَوُّكَ تَوَارِدُهَا عَلَى نَفْسِكَ وَطَبْعِكَ، إِلَّا لِمَجِيئِهَا عَلَى طَرِيقَةِ التَّمثِيلِ. وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (فَبِئْسَ صَبَاحٌ). وَقُرِئَ: (نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ) عَلَى إِسْنَادِهِ إِلَى الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ، كَقَوْلِكَ: ذُهِبَ بَزِيدٍ، وَ(نَزَلَ) عَلَى: وَنَزَلَ الْعَذَابُ. وَالْمَعْنَى: فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ صَبَاحَهُمْ. وَاللَّامُ فِي «الْمُنذَرِينَ» مُبْهَمٌ فِي جِنْسٍ مَن أَنْذِرُوا؛ لِأَنَّ «سَاءً» وَ«بِئْسَ» يَقْتَضِيَانِ ذَلِكَ. وَقِيلَ: هُوَ نَزْوُلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ بِمَكَّةَ.

وعن أنس رضي الله عنه: لَمَّا أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْبَرَ وَكَانُوا خَارِجِينَ إِلَى مَزَارِعِهِمْ وَمَعَهُمُ الْمَسَاحِيُّ، قَالُوا: مُحَمَّدٌ وَالْحَمِيسُ، وَرَجَعُوا إِلَى حِصْنِهِمْ. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرَ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ». وَإِنَّمَا نُنِّي

قَوْلُهُ: (مَغاوِيرِهِمْ) جَمْعُ مَغْوَارٍ، وَهُوَ كَثِيرُ الْغَارَةِ. الْجَوْهَرِيُّ: رَجُلٌ مَغْوَارٌ وَمَغْوَارٌ، أَي: مُقَاتِلٌ، وَقَوْمٌ مَغاوِيرٌ، وَخَيْلٌ مُغِيرَةٌ.

قَوْلُهُ: (وَاللَّامُ فِي «الْمُنذَرِينَ» مُبْهَمٌ فِي جِنْسٍ مَن أَنْذِرُوا) وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِلْعَهْدِ؛ لِأَنَّ أَعْمَالَ الْمَذْحِ وَالذَّمِّ تَقْتَضِي الشُّبُوحَ لِلإِبْهَامِ وَالتَّفْصِيلِ. لَا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: بِئْسَ الرَّجُلُ هَذَا، وَنَعَمَ الرَّجُلُ هَذَا، إِذَا أَرَدْتَ رَجُلًا بَعِيْنَهُ.

قَوْلُهُ: (وَعَنْ أَنَسٍ: لَمَّا أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ)، الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ^(١) عَنْهُ مَعَ زِيَادَاتٍ، وَهَذِهِ الرَّوَايَةُ مُخْتَصَرٌ مِنْهُ.

النَّهْيَةُ: الْخَمِيسُ: الْجَيْشُ، سُمِّيَ بِهِ لِأَنَّهُ مَقْسُومٌ خَمْسَةَ أَقْسَامٍ: الْمَقْدَمَةُ، وَالسَّاقَةُ، وَالْمَيْمَنَةُ، وَالْمَيْسَرَةُ، وَالْقَلْبُ. وَقِيلَ: لِأَنَّهُ تُحْمَسُ فِيهِ الْغَنَائِمُ. وَ«مُحَمَّدٌ» خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ، أَي: هَذَا مُحَمَّدٌ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٣٣٦) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٦٣٨) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ (١٥٤١) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ ليكون تسليّة على تسليّة، وتأكيذاً لوقوع الميعاد إلى تأكيد. وفيه فائدة زائدة؛ وهي إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول، وأنه يُبصر وهم يُبصرون ما لا يُحيط به الذكّر من صنوف المسرّة وأنواع المساءة. وقيل: أريد بأحدهما عذاب الدنيا، وبالأخر عذاب الآخرة.

[﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٨٠-١٨٢)]

أضيف الربُّ إلى العزّة؛ لاختصاصه بها، كأنه قيل: ذو العزّة، كما تقول: صاحب صدق؛ لاختصاصه بالصدق. ويجوز أن يُراد أنه ما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو ربّها ومالكها، كقوله تعالى: ﴿وَتُعَزَّرُ مَنْ نَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله ونسبوا إليه مما هو مُنزّه عنه،

قوله: (وهي إطلاق الفعلين) وهما في قوله: ﴿وَأَنبَصِرُ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾، أي: انتظر حتى ترى ويرون.

قوله: (كما تقول: «صاحب صدق» لاختصاصه بالصدق) قال في قوله تعالى: ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الإنعام: ٩٣]: «أضاف العذاب إليه، كقوله: رجلٌ سوء، يريد العراقة في الهوان والتمكّن فيه»^(١)، وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، وهي مصدرٌ نحو، رجلٌ عدل، فإذا تجسّم من الصدق فلا يكون شيئاً غيره، فيلزم أن يكون مختصاً به، وإليه الإشارة بقوله: «لاختصاصه به»، ويجوز أن تكون الإضافة بمعنى اللام، كقوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿رَبِّ الْعَرْشِينَ﴾ [الزخرف: ٨٢] والتعريف في «العزّة» للجنس، فإذا كان مالك جنس العزّة هو الله فلا يكون أحدٌ مُعْتزّاً إلا به، وإليه الإشارة بقوله: «ما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا هو ربّها ومالكها».

(١) انظر: (٦: ١٦٧).

وما عاناه المرسلون من جهتهم، وما حُولوه في العاقبة من الثَّـبْرَةِ عَلَيْهِمْ؛ فَخَتَمَهَا بِجَوَامِعِ ذَلِكَ مِنْ تَنْزِيهِ ذَاتِهِ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، وَالتَّسْلِيمِ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عَلَى مَا قَبِضَ لَهُمْ مِنْ حُسْنِ الْعَوَاقِبِ، وَالْغَرَضُ تَعْلِيمُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ

قوله: (وما عاناه)، الجوهرية: المعاناة: المقاساة، يُقال: عاناهُ وَتَعْنَاهُ وَتَعْنَى.

قوله: (قَبِضَ لَهُمْ)، الجوهرية: قَبِضَ اللهُ فَلَانَا لِفُلَانٍ، أَي: جَاءَهُ بِهِ وَأَبَاحَهُ لَهُ.

قوله: (وَالْغَرَضُ تَعْلِيمُ الْمُؤْمِنِينَ) يريد أن هذه الآية لَمَّا كَانَتْ خَاتِمَةً لِمَا تَضَمَّنَتْهُ السُّورَةُ مِنْ تَخَالِطِ الْمُشْرِكِينَ وَتَكَادُيِهِمْ وَنَسْبَتِهِمْ إِلَى جَلَالِهِ الْأَقْدَسِ مَا لَا يَلِيقُ بِجَنَابِهِ، وَمِنْ فُرْطَاتِهِمْ مَعَ أَنْبِيَائِهِ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ وَتَجَرُّعِهِمُ الْغُصَصَ، وَمِنْ وَخَامَةِ حَالَةِ الْمَكْذِبِينَ وَحُسْنِ عَاقِبَةِ الْمُرْسَلِينَ، وَفَذَلِكَ لِذَلِكَ التَّفْصِيلِ كَانَتْ أَيْضًا تَعْلِيمًا لِلْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَخْلُو كُلُّ مَقَامٍ يَجْلِسُ فِيهِ الْإِنْسَانُ مِنْ فَلَتَاتٍ وَهَفَوَاتٍ وَمِنْ كَلِمَاتٍ فِيهَا رَضِيَ اللهُ وَسَخَطُهُ، فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ إِذَا قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ أَنْ يَتْلُوَ هَذِهِ الْآيَةَ لِتَكُونَ مُكْفَّرَةً لِتِلْكَ السَّقَطَاتِ وَمُحَمَّدَةً لِمَا وَفَّقَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَمَنْ تَمَّ قَالَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: «كَلِمَاتٌ لَا يَتَكَلَّمُ بِهِنَّ أَحَدٌ فِي مَجْلِسِهِ عِنْدَ قِيَامِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ إِلَّا كُفِّرَ بِهِنَّ عَنْهُ، وَلَا يَقُولُهُنَّ فِي مَجْلِسٍ خَيْرٍ مِنْ مَجْلِسِ ذِكْرِ إِلَّا حُتِمَ لَهُ بِهِنَّ عَلَيْهِ كَمَا يُحْتَمُّ بِخَاتَمٍ عَلَى الصَّحِيفَةِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ». أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ^(١) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو.

وَأَخْرَجَ النَّسَائِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِذَا جَلَسَ مَجْلِسًا أَوْ صَلَّى تَكَلَّمَ بِكَلِمَاتٍ، فَسَأَلْتُ عَائِشَةَ عَنِ الْكَلِمَاتِ، فَقَالَ: إِنْ تَكَلَّمْتَ بِخَيْرٍ كَانَ طَابَعًا عَلَيْهِنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ تَكَلَّمْتَ بِشَرٍّ كَانَتْ كَفَّارَةً لَهُ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»^(٢).

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٨٥٧) وَالتَّطَبَّرِيُّ فِي «الدَّعَاءِ» (١: ٥٣٦) وَصَحَّحَهُ ابْنُ جَبَانَ (٥٩٣) وَفِيهِ نَدْوَةٌ تَحْرِيجِيَّةٌ.

(٢) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ (١٣٤٤) وَهُوَ فِي «مُسْنَدِ أَحْمَدَ» (٢٤٤٨٦) وَفِيهِ تَمَامٌ تَحْرِيجِيَّةٌ.

يقولوا ذلك، ولا يُجْلُوا به، ولا يَغْفُلُوا عن مُضْمَنَاتِ كتابه الكريم، ومُودَعَاتِ قرآنه المجيد. وعن عليٍّ رضي الله عنه: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكْتَالَ بِالْمِكْيَالِ الْأَوْفَى مِنَ الْأَجْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلْيَكُنْ آخِرَ كَلَامِهِ إِذَا قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ إلى آخر السورة.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ ﴿وَالصَّفَّاتِ﴾ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بَعْدَ كُلِّ جِنِّيٍّ وَشَيْطَانٍ، وَتَبَاعَدَتْ عَنْهُ مَرْدَةُ الشَّيَاطِينِ، وَبَرِيءٌ مِنَ الشَّرْكِ، وَشَهِدَ لَهُ حَافِظَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ كَانَ مُؤْمِنًا بِالْمُرْسَلِينَ».

قوله: (ولا يغفلوا عن مُضْمَنَاتِ كتابه الكريم)، يعني: كما وَقَفْتُمْ على هذه الخاتمة وتضمُّنها لهذا المطلبِ الشَّرِيفِ كَذَلِكَ سَائِرُ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ مُودَعٌ تَحْتَ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهُ أَسْرَارٌ دَقِيقَةٌ وَإِشَارَاتٌ وَتَلْوِيحَاتٌ، فَلَا تَغْفُلُوا عَنْهَا. رَزَقْنَا اللَّهُ بِفَضْلِهِ الْعَمِيمِ التَّوْفِيقَ لِلْعَمَلِ بِهَا فِيهِ كَمَا يُرْضِيهِ، وَوَقَّفْنَا بِكَرَمِهِ الْجَسِيمِ لِلْإِطْلَاقِ عَلَى تِلْكَ الْأَسْرَارِ، إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ.

تَمَّتِ السُّورَةُ

حَامِدًا وَمُصَلِّيًا عَلَى رَسُولِهِ.

* * *

سورة ص

مكية، وهي ست وثمانون، وقيل: ثمان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿١﴾ - ٢]

(صَادٌ) على الوقف، وهي أكثرُ القراءة، وقرئ بالكسر والفتح؛ لالتقاء الساكنين، ويجوزُ أن يتنصبَ بحذفِ حرفِ القَسَمِ وإيصالِ فعله، كقولهم: اللّهُ لأفعلنَ، بالنصب، أو بإضمارِ حرفِ القَسَمِ، والفتح في موضعِ الجرِّ، كقولهم: اللّهُ لأفعلنَ،

سورة ص

مكية، وهي ست وثمانون آية، وقيل: ثمان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (وَقُرِئَ بِالْكَسْرِ وَالْفَتْحِ)، قَالَ الإمام: قرأ الحسن: بكسرِ الدالِ لالتقاءِ الساكنين، وعيسى بن عمر^(١): بنصبها وبحذفِ حرفِ القَسَمِ وإيصالِ فعله، كقولهم: «الله لأفعلن»، وأكثرُ القراء على الوقف^(٢)؛ لأنَّ الأسماء العارية عن العوامل تُذكرُ موقوفةً الأواخر^(٣).

قوله: (أو بإضمارِ حرفِ القَسَمِ)، عطفٌ على قوله: «بحذفِ حرفِ القَسَمِ»، والفرقُ

(١) في النسخة (ط): «عمرو»، وهو خطأ.

(٢) عبارة الفخر الرازي: «على الجزم».

(٣) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣٦٦).

بالجرِّ، وامتناعُ الصرفِ للتعريفِ والتأنيث؛ لأنها بمعنى السُّورة، وقد صرَّفَها مَنْ قرأ: (صاِد) بالجرِّ والتنوينِ على تأويلِ الكتابِ والتنزيلِ. وقيل فيمن كَسَرَ: هو مِنْ المُصَاداة؛ وهي المُعَارَضَةُ والمعادلة، ومنها: الصَّدى؛ وهو ما يُعَارِضُ الصوتَ في الأماكنِ الخالية من الأجسامِ الصُّلبة، ومعناه: عَارِضِ القرآنَ بِعَمَلِكَ فاعمَلْ بأوامره وأنته عن نواهيه. فإن قلت: قوله: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي

بَيْنَ الْحَذْفِ وَالْإِضْمَارِ: أَنَّ الْمَحذُوفَ مَتْرُوكٌ أَصْلًا فَلَا يَكُونُ فِيهَا يَقُومُ مَقَامُهُ أَثَرٌ مِنْهُ، وَالْمُضْمَرُ بِخِلَافِهِ. رُوي عن المُصَنِّفِ: «أَقْسَمْتُ» يَعْمَلُ في اسمِ «الله» بِوَاسِطَةِ الْبَاءِ إِذَا كَسَرْتَ، وَإِذَا فَتَحْتَ فَقَدْ حَذَفْتَ وَصَارَ «أَقْسَمْتُ» عَامِلًا في الاسمِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ.

فإن قلت: هذا يُخَالِفُ ما سَبَقَ في «البقرة» أَنَّ انْتِصَابَهَا بِفِعْلِ مُضْمَرٍ نَحْوُ: «اذكُر»، لِأَنَّهُ مُقَسَّمٌ بِهَا، وَانْتِصَبَ نَصَبَ قَوْلِهِمْ: «اللهُ أَفْعَلَنَّ» على حَذْفِ حَرْفِ الْجَرِّ، إِلَى آخِرِ السُّؤَالِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْمُصَنِّفَ قَفَا هَاهُنَا أَثَرَ الزَّجَاجِ، فَإِنَّهُ قَالَ: وَقِيلَ: إِنَّمَا قَسَمَ، و﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ عَطْفٌ عَلَيْهَا، الْمَعْنَى: أَقْسِمُ بِصَادِ الْقُرْآنِ^(١) ذِي الذِّكْرِ. تَمَّ كَلَامُهُ^(٢). وَلِأَنَّهُ لَمْ يَمْنَعِ الْجَوَازَ هُنَاكَ وَلَكِنْ ذَكَرَ مَا لَزِمَ مِنْهُ الْاسْتِكْرَاهَ، بَلْ ذَكَرَ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا أَيْضًا وَجْهٌ حَيْثُ قَالَ: وَالْأَوْجَهُ أَنْ يُقَالَ: ذَاكَ نَصَبٌ.

قوله: (وقيل فيمن كسر: هو من المُصَاداة)، قَالَ ابن جَنِّي: الْمَأْثُورُ عَنِ الْحَسَنِ: بِكَسْرِ الدَّالِ مِنَ الْمُصَادَاةِ، أَي: عَارِضِ عَمَلِكَ بِالْقُرْآنِ. قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: هُوَ فَاعِلٌ مِنَ الصَّدى، وَلَيْسَ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ جَعَلِ «الواو» بِمَعْنَى الْبَاءِ فِي غَيْرِ الْقَسَمِ^(٣).

وقال الزجَّاج: المعنى: صاِدِ القرآنَ بِعَمَلِكَ، مِنْ قَوْلِكَ: صَادِي يُصَادِي؛ إِذَا قَابَلَ وَعَادَلَ، يُقَالَ: صَادِيَّتُهُ؛ بِمَعْنَى: قَابَلْتُهُ^(٤).

(١) عبارة الزجَّاج: «وبالقرآن»، وهو الأشبه بالصواب.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣١٩).

(٣) «المحتسب» (٢: ٢٣٠).

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣١٩).

عَزَّةٌ وَشِقَاقٍ ﴿ كَلَامٌ ظَاهِرُهُ مُتَنَاوِرٌ غَيْرٌ مُنْتَظِمٌ، فَمَا وَجْهُ انْتِظَامِهِ؟ قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ؛ أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ قَدْ ذَكَرَ اسْمَ هَذَا الْحَرْفِ مِنْ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ عَلَى سَبِيلِ التَّحْدِي وَالتَّنْبِيهِ عَلَى الْإِعْجَازِ، كَمَا مَرَّ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ الْقَسَمَ مَحذُوفَ الْجَوَابِ؛ لِدَلَالَةِ التَّحْدِي عَلَيْهِ، كَأَنَّهُ قَالَ: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ إِنَّهُ لَكَلَامٌ مُعْجِزٌ. وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ ﴿صَّ﴾ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ، عَلَى أَنَّهَا اسْمٌ لِلسُّورَةِ، كَأَنَّهُ قَالَ: هَذِهِ صَادٌ، يَعْنِي: هَذِهِ السُّورَةُ الَّتِي أَعْجَزَتْ الْعَرَبَ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ، كَمَا تَقُولُ: هَذَا حَاتِمٌ وَاللَّهُ، تَرِيدُ: هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ بِالسَّخَاءِ وَاللَّهُ؛ وَكَذَلِكَ إِذَا أَقْسَمَ بِهَا كَأَنَّهُ قَالَ: أَقْسَمْتُ بِـ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ إِنَّهُ لِمُعْجِزٌ، ثُمَّ قَالَ: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عَزَّةٍ﴾ وَاسْتِكْبَارٍ عَنِ الْإِذْعَانِ لِذَلِكَ وَالْاعْتِرَافِ بِالْحَقِّ، وَ﴿شِقَاقٍ﴾ لَللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِذَا جَعَلْتَهَا مُقْسَمًا بِهَا

قَوْلُهُ: (ظَاهِرُهُ مُتَنَاوِرٌ غَيْرٌ مُنْتَظِمٌ)، يَعْنِي: لَمْ يَذْكُرِ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ وَلَمْ يُبَيِّنِ الْمَضْرَبَ عَنْهُ. وَفِي كَلَامِهِ سُوءٌ أَدَبٌ، وَلِذَلِكَ قَالَ الْإِمَامُ: وَفِيهِ إِشْكَالَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ هُنَا مُقْسَمًا بِهِ وَلَيْسَ لَهُ مُقْسَمٌ عَلَيْهِ، وَثَانِيهَا: ﴿بَلِ﴾ يَقْتَضِي رَفْعَ حُكْمٍ ثَبَتَ وَإِثْبَاتٌ مَا يُنَاقِضُهُ، فَأَيْنَ ذَلِكَ هُنَا (١)؟

قَوْلُهُ: (وَكَذَلِكَ إِذَا أَقْسَمَ بِهَا)، أَي: كَذَلِكَ يَكُونُ «صَادٌ» اسْمًا لِلسُّورَةِ. وَحَاصِلُ الْجَوَابِ: أَنَّ «صَادٌ» إِذَا كَانَ تَعْدَادًا لِلْحُرُوفِ: إِمَّا لِلإِيقَاطِ وَقَرَعِ الْعَصَا، أَوْ تَقْدِيمَةً لِلدَّلَائِلِ الْإِعْجَازِ كَانَ ﴿وَالْقُرْآنَ﴾ إِنْشَاءً قَسَمٍ وَالْجَوَابُ مَحذُوفٌ. وَإِذَا كَانَ اسْمًا لِلسُّورَةِ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ أَوْ مُقْسَمٌ بِهَا، وَ﴿بَلِ﴾ اسْمًا لِلْحُرُوفِ أَوْ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ، وَكَانَ ﴿وَالْقُرْآنَ﴾ اسْمًا لِلسُّورَةِ لِمَا يَلْزَمُ مِنْ جَعْلِهَا اسْمًا لِلسُّورَةِ وَجَعَلَ الْقُرْآنَ اسْمًا لَهَا عَطْفُ الشَّيْءِ عَلَى نَفْسِهِ فَنَدَبُ إِمَّا: إِلَى عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ أَوْ: إِلَى الْأَسْلُوبِ التَّجْرِيدِيِّ، وَالْوَاوُ مُتَعَيِّنَةٌ لِلْعَطْفِ؛ لِثَلَاثِ يَجْتَمِعُ قَسَمَانِ عَلَى مُقْسَمٍ بِهِ وَاحِدٍ كَمَا سَبَقَ.

قَوْلُهُ: (ثُمَّ قَالَ: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عَزَّةٍ﴾ وَاسْتِكْبَارٍ عَنِ الْإِذْعَانِ)، عَنْ بَعْضِهِمْ: هُوَ كَمَا يُقَالُ: فَلَانَ عَالِمٌ عَفِيفٌ جَوَادٌ، بَلِ قَوْمُهُ اسْتَحْفُوا بِهِ.

وعطفَت عليها ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾؛ جازَ لك أن تُريد بالقرآن التنزيلَ كُلَّهُ، وأن تُريد السورةَ بعينها، ومعناه: أُقسِم بالسورة الشريفة والقرآن ذي الذكر، كما تقول: مررتُ بالرجلِ الكريمِ وبالنَّسمةِ المباركة، ولا تُريد بالنَّسمةِ غيرَ الرجلِ. والذِّكْرُ: الشَّرْفُ والشُّهرة، من قولك: فلانٌ مذكورٌ، ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]؛ أو الذِّكْرُ والموعظةُ، أو ذِكرٌ ما يُحتاج إليه في الدِّين من الشرائع وغيرِها، كأقاصيصِ

الراغب: فائدة ﴿بَلِ﴾ هاهنا تصحيحُ ما قبله وإبطالُ ما بعده. فإنه دلَّ بقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أن القرآن مقررٌ للتذكيرِ وأن ليس امتناعُ الكفار^(١) من الإصغاءِ إليه أن ليس موضعاً للذكرِ بل لتعزُّزهم ومُشاققتهم^(٢).

قوله: (ولا تُريد بالنَّسمة غير الرجل)، فيكون من عطفِ الشيء على نفسه لكن هو من بابِ التجريد؛ جُرد من الرجلِ آخرٌ مثله متَّصفٌ بصفةِ البركة، وعطفه عليه كأنه غيره وهو هو، قال في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، أي: آتيناهما الفرقان وهو التوراةُ وآتيناه به ضياءً وذكرًا حيث أتى بالباءِ التجريدية في التفسير نحو: رأيتُ بك أسداً.

قوله: (أو ذِكرٌ ما يُحتاج إليه في الدين)، الراغب: الذِّكْرُ تارة يُقال ويُراد به: هيئةٌ للنفسِ بها يتمكَّن الإنسان أن يحفظَ ما يقنته من المعرفة وهو كالحفظِ إلا أن الحفظَ يُقالُ اعتباراً بإحرازه، والذِّكْرُ اعتباراً باستحضاره. وتارة يُقالُ لحضورِ الشيء: القلب أو القون. ولذلك قيل: الذِّكْرُ ذِكران: ذِكرٌ بالقلبِ وذِكرٌ باللسانِ، وكلُّ منهما ضَرْبان: ذِكرٌ عن نسيان. وذِكرٌ لا عن نسيان؛ بل عن إدامةِ الحفظِ، وكل قول يُقال له ذِكر. فمن الذِّكْرُ باللسانِ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقوله: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، وقوله: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا﴾ [الطلاق: ١٠-١١]، فقد قيل: الذِّكْرُ هاهنا وصفٌ للنبيِّ ﷺ كما أن «كلمة» وصفٌ لعيسى عليه السلام من حيثُ إنه ﷺ بُشِّر به في الكتبِ المُتقدمة فيكون قوله: «رسولاً» بدلاً منه.

(١) في النسخ الخطية: «القرآن»، وصوبناه من «مفردات القرآن».

(٢) «مفردات القرآن» ص ١٤٢.

الأنبياء والوعيد والوَعِيد. والتنكيرُ في ﴿عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾؛ للدلالة على شدتها وتفاقمها. وقرئ: (في غرة) أي: في غفلة عما يجب عليهم من النظر واتباع الحق.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلاَتَ حِينٍ مَنَاصٍ﴾ [٣]

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾: وعيدٌ لذوي العِزَّةِ والشِّقَاقِ، ﴿فَنَادَوا﴾: فدَعَوْا واستغاثُوا، وعن الحسن: (فنادوا بالتوبة). و«لاَت»: هي «لا» المشبَّهة بـ «ليس»، زيدت عليها تاءُ التأنيث كما زيدت على «رُبِّ»، و«ثمَّ» للتوكيد، وتغيَّرَ بذلك حُكْمُهَا؛ حيثُ لم تدخلْ إلا على الأحيان، ولم يبرزْ إلا أحدُ مُقتَضِيَّيْهَا: إما الاسمُ وإما الخبرُ، وامتنعَ بُرُوزُهَا

ومن الذكرِ عن النسيانِ: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ﴾ [الكهف: ٦٣]، ومن الذكرِ بالقلبِ واللسانِ معاً: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، و﴿وَأَذْكُرُواهُ كَمَا هَدَيْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]^(١).

قوله: (و«لاَت»: هي لا المُشَبَّهة بـ «ليس»)، قيل: مذهبُ البصريين أن «لاَت» بمعنى: «ليس» والكوفيِّين أنها لنفي الجنس، وهذا أولى لكثرتها في الإستعمال^(٢)، وبمعنى: «ليس» إنما يكونُ في الشعرِ، فوجبَ أن يكونَ يُحْمَلُ ما في القرآنِ على الشائعِ لا على القليلِ.

وحجَّةُ البصريين أن تاءَ التأنيثِ من خواصِّ الفعلِ فوجبَ أن تكونَ المُشَبَّهةُ بالفِعْلِ، وإلحاقُ التاءِ في التي لنفي الجنسِ بعيد.

قوله: (لم تدخلْ إلا على الأحيان)، قيل: إنما اختصَّت بها لما في دُخُولِهَا على غيرها من إلباسٍ؛ لأنَّ «لا» ليست لنفي الحالِ صريحاً فيختصُّ دُخُولُهَا على الأحيانِ، بخلافِ «ليس» لأنها أينما وقعتْ؛ وقعتْ لنفي الحالِ فلا يختصُّ بالأحيانِ.

قوله: (إلا أحدُ مُقتَضِيَّيْهَا: إما الاسمُ وإما الخبرُ)، على حسبِ اختلافِ القراءتينِ في ﴿حِينٍ﴾: النَّصْبُ والرَّفْعُ، فمن نصبَ فتقديره: «ولاَت الحينِ حينِ مَنَاصٍ»، ومن رفعَ فتقديره: «ولاَت حينِ مَنَاصٍ حاصلًا لهم».

(١) «مفردات القرآن» ص ٣٢٨.

(٢) انظر بسط هذه المسألة في «مغني اللبيب» ص ٣٣٤.

جميعاً، وهذا مذهب الخليل وسيبويه. وعند الأخفش: أنها «لا» النافية للجنس، زيدت عليها التاء، وخصت بنفي الأحيان. و﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ منصوبٌ بها، كأنك قلت: ولا حِينَ مَنَاصٍ لهم. وعنه: أن ما يَنْتَصِبُ بعده بفعلٍ مضمر، أي: ولا أرى حِينَ مَنَاصٍ ويرتفعُ بالابتداء، أي: ولا حِينَ مَنَاصٍ كائنٌ لهم، وعندهما أن النصبَ على: ولاتِ الحِينَ حِينَ مَنَاصٍ، أي: وليس الحِينَ حِينَ مَنَاصٍ؛ والرفعُ على: ولاتِ حِينَ مَنَاصٍ؛ حاصلًا لهم. وقرئ: (حِينَ مَنَاصٍ) بالكسر، ومثله قول أبي زبيد الطائي:

طَلَبُوا صُلْحَنَا وَلَا تَأْوَانٍ فَأَجَبْنَا أَنْ لَا تَحِينَ بَقَاءِ

فإن قلت: ما وجه الكسر في «أوان»؟ قلت: شُبِّهَ بـ «إذ» في قوله:

وَأَنْتَ إِذْ صَحِيحٌ

قوله: (وعندهما)، أي: عند الخليل وسيبويه. قال الزجاج: أما من نصب فعلى أنها عملت عمل «ليس». المعنى: وليس الوقت حين مناص. ومن رفع بها جعل ﴿حِينَ﴾ اسم «ليس» وأضمر الخبر، على معنى: ليس حينٌ منجى لنا، ومن خفض جعلها مبنية مكسورة لالتقاء الساكنين، والمعنى: ليس حينٌ مناصنا، فلما قال: «ولاتِ أوان» جعله على معنى: «ليس أواننا»، فلما حذف المضاف إليه بنى على الوقف ثم كسر لالتقاء الساكنين، والكسرُ شبيهٌ بالخطأ عند البصريين^(١).

قوله: (أن لات حِينَ بقاء) أي: «إبقاء»، وضع «البقاء» موضع «الإبقاء»، كالعطاء يوضع موضع الإعطاء.

قوله: (شُبِّهَ بـ «إذ» في قوله: وأنت إذ صحيح)، أوله في «المطلع»:

نَهَيْتُكَ عَنْ طِلَابِكَ أُمَّ عَمْرٍو
بعاقبة.....

قبله:

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٢٠).

في أنه زمانٌ قُطِعَ منه المُضَافُ إليه وَعُوِّضَ التَّنْوِينُ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ: وَلَاتٌ أَوْ أَوَانَ صَلُحَ. فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا تَقُولُ فِي ﴿حِينَ مَنَاصِرٍ﴾ وَالْمُضَافُ إِلَيْهِ قَائِمٌ؟ قُلْتَ: نُزِّلَ قَطْعُ الْمُضَافِ إِلَيْهِ مِنْ مَنَاصِرٍ - لِأَنَّ أَصْلَهُ: حِينَ مَنَاصِهِمْ - مِنْزَلَةً قَطَعَهُ مِنْ حِينَ؛ لِاتِّخَاذِ الْمُضَافِ وَالْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَجُعِلَ تَنْوِينُهُ عِوَضًا مِنَ الضَّمِيرِ الْمَحذُوفِ، ثُمَّ بُنِيَ الْحِينَ لِكَوْنِهِ مُضَافًا إِلَى غَيْرِ مُتَمَكِّنٍ. وَقُرئ: (وَلَاتٍ) بِكسر التاءِ على البناءِ، كَجَزِيرٍ. فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَوْقَفُ عَلَى «لَاتٍ»؟ قُلْتَ: يَوْقَفُ عَلَيْهَا بِالتَّاءِ، كَمَا تَقَفُ عَلَى الْفِعْلِ الَّذِي تَتَّصِلُ

جَمَالِكَ أَيُّهَا الْقَلْبُ الْجَرِيحُ سَتَلْقَى مَنْ تُحِبُّ فَتَسْتَرِيحُ^(١)

أَي: نَهَيْتُكَ عَنْ طِلَابِكَ إِيَّاهَا بِذِكْرِ سُوءِ عَاقِبَةِ الْهَوَى وَأَنْتَ إِذْ ذَاكَ، أَي: زَمَانَ النَّهْيِ، صَاحِبِ الْقَلْبِ فَلَمْ تَقْبَلْ نُصْحِي، وَلَمْ تَنْتَهَ بِنَهْيِي، فَلَا حِيلَةَ بَعْدَهُ، فَحَذَفَ ذَلِكَ وَوَضَعَ التَّنْوِينَ مَوْضِعَهُ، فَكَسَرَ الْمَفْتُوحَ تَشْبِيهًا بِ«إِذٍ»؛ لِأَنَّهُ زَمَانٌ مِثْلُهُ فَحَذَفَ مِنْهُ الْمُضَافَ إِلَيْهِ.

قَوْلُهُ: (لِكَوْنِهِ مُضَافًا إِلَى غَيْرِ مُتَمَكِّنٍ) قِيلَ: الضَّمِيرُ فِي «لِكَوْنِهِ» رَاجِعٌ إِلَى «الْمَنَاصِرِ»، لَا إِلَى ﴿حِينَ﴾ ضَرُورَةً كَوْنِ الْمَنَاصِرِ فِي «مَنَاصِهِمْ» مُضَافًا إِلَى الضَّمِيرِ وَهُوَ غَيْرُ مُتَمَكِّنٍ، وَلِئِنْ جُعِلَ الضَّمِيرُ لِلْحِينَ؛ لِأَنَّ قَطْعَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ كَقَطْعِ الْمُضَافِ، وَإِضَافَتُهُ إِلَى الْمَبْنِيِّ كإِضَافَتِهِ. قَالَ صَاحِبُ «التَّقْرِيبِ»: وَفِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ الإِضَافَةَ إِلَى الْمُضَمَّرِ لَا تُوجِبُ بِنَاءَهُ كَعُغْلَامِكَ، وَأَمَّا «إِذٍ» فَبِنَاؤُهُ لِإِضَافَتِهِ إِلَى الْجُمْلَةِ فَيُسْتَبْقَى بِنَاؤُهُ بَعْدَ حَذْفِهَا.

قَوْلُهُ^(٢): (كَجَزِيرٍ) مَعْنَاهُ: حَقًّا، كَذَا جَاءَتْ فِي كَلَامِهِمْ مَكْسُورًا^(٣).

قَوْلُهُ: (يَوْقَفُ عَلَيْهَا بِالتَّاءِ) قَالَ أَبُو عَلِيٍّ^(٤) فِي «الإِغْفَالِ»: يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَقْفُ بِالتَّاءِ؛ لِأَنَّهُ لَا خِلَافَ فِي أَنَّ الْوَقْفَ عَلَى الْفِعْلِ بِالتَّاءِ، وَالْحَرْفُ أَشْبَهُ بِالْفِعْلِ مِنْهُ بِالِاسْمِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْفِعْلَ كَانَ ثَانِيًا وَالِاسْمَ أَوَّلًا، فَالْحَرْفُ أَشْبَهُ مِنْهُ بِالْأَوَّلِ، وَأَيْضًا إِذَا كَانَتْ هَذِهِ

(١) سبق تخرجه.

(٢) هذه الفقرة تقدّمت في الأصول الخطية على التي قبلها، وأخرناها إلى هنا مراعاة لـ«الكشاف».

(٣) ولتمام الفائدة انظر: «مغني اللبيب» ص ١٦٢-١٦٣.

(٤) في النسخة (ط): «أبو البقاء»، وهو سهو.

به تاء التأنيث. وأما الكسائي فيقف عليها بالهاء، كما يقف على الأسماء المؤنثة. وأما قول أبي عبيد: إن التاء داخلة على حين: فلا وجه له. واستشهاده بأن التاء ملترزة به «حين» في الإمام: لا متشبث به، فكم وقعت في المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط. والمناص: المنجا والقوت، يقال: ناصه ينوصه؛ إذا فاته. واستناص: طلب المناص. قال حارثة بن بدر:

التاء في بعض اللغات تترك تاء في الأسماء كما حكاها سيبيوه عن أبي الخطاب وكما أنشد أبو الحسن:

بل جوز تيهاء كظهر الحجفت^(١)

فأن تترك في الحرف ولا تقلب أجدر^(٢).

قوله: (واستشهاده بأن التاء ملترزة به «حين» في الإمام^(٣): لا متشبث به)، وأنشد صاحب «المطلع»:

العاطفون تحين ما من عاطف والمطعمون تحين ما من مطعم^(٤)

قال المصنف: وإنما لم تُعَيَّرَ لأنه لو أُطْلِقَ لأدَّى إلى أمرٍ عظيم، فربما غيروا ما لا يجوز تغييره.

(١) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (١: ٢٣٥) ومطلع البيت من الرجز: دارًا لليلي بعد حول قد عفت

وقبله:

ما بال عين عن كراها قد جفت مسبكة تستن لما عرفت

ولتمام الفائدة انظر: «تاج العروس» (حجف).

(٢) «الإغفال» (٢: ٥٢٢).

(٣) يعني المصحف الإمام الذي جمع في عهد عثمان رضوان الله عليه.

(٤) البيت لأبي وجزة السعدي كما في «تاج العروس» (عطف).

عَمْرُ الْجِرَاءِ إِذَا قَصَرَتْ عِنَانَهُ يَبْدِي اسْتِنَاصَ وَرَامَ جَرِي الْمِسْحَلِ
 [وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكُفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ * أَجْعَلِ الْأَلْهَةَ إِلَهًا
 وَحِدًا إِنْ هَذَا لَنُفْيٌ مَجَابٌ ﴿٤-٥﴾]

﴿مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾: رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، ﴿وَقَالَ الْكُفِرُونَ﴾ ولم يقل: وقالوا؛ إظهاراً
 للغضبِ عليهم، ودلالةً على أن هذا القول لا يجسر عليه إلا الكافرون المتوغلون في
 الكفر، المنهمكون في الغي، الذين قال فيهم: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكُفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء:
 ١٥١]، وهل ترى كُفْرًا أعظمَ وجهلاً أبلغَ من أن يسمُوا مَنْ صدَّقَهُ اللهُ بوحيه كاذبًا،
 ويتعجبوا من التوحيد، وهو الحقُّ الذي لا يصحُّ غيره، ولا يتعجبوا من الشُّرك،
 وهو الباطل الذي لا وَجْهَ لَصِحَّتِهِ؟! رُوي: أَنَّ إِسْلَامَ عُمَرَ رضي اللهُ عنه فَرِحَ به
 المؤمنون فَرَحًا شديدًا، وشقَّ على قُرَيْشٍ، وبلغَ منهم، فاجتمعَ خمسةٌ وعشرون نَفْسًا
 من صناديدهم، ومَشَوْا إلى أَبِي طَالِبٍ، وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد عَلِمْتَ

قوله: (عَمْرُ الْجِرَاءِ) الْبَيْتُ (١)، أي: كثير المُجَاراة، واستناص: طَلَبَ النَّوَصَ، أي:
 الفَوْتَ، و«المِسْحَلُ» جِمَارُ الْوَحْشِ. يَصِفُ فَرَسًا. الرَّاغِبُ: نَاصَ إِلَى كَذَا: التَّجَأَ إِلَيْهِ، وَنَاصَ
 عَنْهُ: ارْتَدَّ، يَنْوُصُ نَوْصًا، وَالْمَنَاصُ: الْمَلْجَأُ (٢).

قوله: (ومشوا إلى أبي طالب)، الحديث من رواية الإمام أحمد بن حنبلٍ والترمذي عن
 ابن عباس، قال: مَرَضَ أَبُو طَالِبٍ، فَجَاءَتْ قُرَيْشٌ وَجَاءَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَ أَبِي طَالِبٍ مَجْلِسُ
 رَجُلٍ، فَقَامَ أَبُو جَهْلٍ كِي يَمْنَعُهُ مِنَ الْجُلُوسِ فِيهِ، قَالَ: وَشَكُوهُ إِلَى أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: يَا ابْنَ
 أَخِي مَا تُرِيدُ مِنْ قَوْمِكَ؟ قَالَ: «أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمُ الْعَجَمُ
 الْجِزْيَةَ» قَالَ: كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ؟ فَقَالَ: «يَا عَمَّ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فَقَالُوا: إلهًا وَاحِدًا (٣)؟ مَا
 سَمِعْنَا هَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ، فَنَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ (٤).

(١) ذكره في «اللسان» (نوص) وعزاه لحارثة بن بدر، يعني الغداني.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٨٢٩.

(٣) كذا في النسخ الخطية، والذي في «المسند»: «أجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟».

(٤) هو في «مسند الإمام أحمد» (٣٤١٩) وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٤: ٢٩٩) والنسائي =

ما فَعَلَ هَؤُلَاءِ السُّفَهَاءِ - يريدون: الذين دَخَلُوا في الإسلام - وجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ، وقال: يا ابن أخي، هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك، فقال رسول الله ﷺ: «ماذا يسألونني؟» قالوا: ارفضنا وارفض ذكراً آهتنا وندعك وإلهك، فقال عليه السلام: «أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتكم أمعطي أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم؟» فقالوا: نعم وعشراً، أي: تُعطيها وعشر كلمات معها، فقال: «قولوا: لا إله إلا الله»، فقاموا، وقالوا: ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾! أي: بليغ في العجب. وقرئ: (عُجَاب) بالتشديد، كقوله تعالى: ﴿مَكْرًا كِبَارًا﴾ [نوح: ٢٢] وهو أبلغ من المخفف، ونظيره: كريم وكُرام وكُرام. وقوله: ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ مثل قوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ [الزخرف: ١٩] في أن معنى الجعل التصيير في القول على سبيل الدعوى والزعم، كأنه قال: أجعل الجماعة واحداً في قوله؛ لأن ذلك في الفعل محال.

قوله: (أَجْعَلُ الجماعةَ واحداً في قوله)، أي: سَمَى الآلهةَ إلهًا واحداً، فالجعلُ بمعنى: التصيير في القول، وبمعنى: التسمية؛ لأن هذا المعنى في الفعل محال لا يقدر أحد أن يجعل الجماعة إنساناً واحداً. قال الإمام بعدما نقل كلام المصنف، أقول: إن منشأ التعجب من وجهين: أحدهما: أن القوم ما كانوا أصحاب نظرٍ واستدلال، بل كانت أوهامهم تابعة للمحسوسات، فلما وجدوا في الشاهد أن الفاعل الواحد لا يفي قدرته وعلمه بحفظ الخلائق، قاسوا الغائب على الشاهد، فكذلك المُجَسِّمَةُ فإتهم يقولون: لما كان كل موجود في الشاهد يجب أن يكون جسماً متحيزاً يجب في الغائب، وكذا قول المعتزلة فإتهم يقولون: إن الأمر الفلاني قبيحٌ منا فيجب أن يكون قبيحاً من الله تعالى.

والثاني. أن أسلافهم لكثرتهم وقوة عقولهم كانوا مطبقين في الشرك، توهموا أن كونهم

= في «السنن الكبرى» (١١٤٣٧) بإسناد فيه مقال لأجل حال عباد بن جعفر، لم يوثقه غير ابن حبان على عادته في التساهل في توثيق المجاهيل.

[﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصِيرُوا عَلَىٰ الْهَتَكِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي

الْمَلَةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَخْلِقُ ﴿٦-٧﴾]

﴿الْمَلَأُ﴾: أشرافُ قُرَيْشٍ، يريد: وانطلقوا عن مجلسِ أبي طالبٍ بعدما بكتهم رسولُ الله ﷺ بالجوابِ العتيدِ، قائلين بعضهم لبعض: ﴿آمَسُوا وَأَصِيرُوا﴾ فلا حيلةَ لكم في دفعِ أمرِ محمدٍ، ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الأمرُ ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي: يُريده الله تعالى ويحكم بإمضائه، وما أراد الله كونه فلا مردَّ له، ولا ينفعُ فيه إلا الصبر، أو: إنَّ هذا الأمرُ لشيءٌ من نوائِبِ الدهرِ يُراد بنا، فلا انفكاكَ لنا منه، أو إنَّ دينكم لشيءٍ يُراد، أي: يُطلبُ ليؤخذَ منكم وتُغلبوا عليه. و﴿أَنْ﴾ بمعنى أي؛ لأنَّ المنطلقين عن مجلسِ التناولِ لا بدَّ لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما جرى لهم، فكان انطلاقتهم مضمناً معنى

على هذه الحالِ مُحالٌ أن يكونوا مُبطلين ويكون الإنسان الواحدُ مُحققاً، فلعمري لو كان التقليدُ حقاً لكانت هذه الشبهة لازمة^(١).

قوله: (أو إنَّ دينكم لشيءٍ يُراد)، تبعه الإمامُ في الوجوه الثلاثة. فإن قيل: مُقتضى النظم أن يكون المشارُ إليه المشي والصبر على أهتيم، أي: هذا هو المطلوبُ الآن، ومن ثمَّ عقبوه بقوله: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمَلَةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَخْلِقُ﴾ إذ لو قيل: إنَّ هذا لشيءٌ يُريده الله تعالى ويحكمُ بإمضائه لم يستقيم ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَخْلِقُ﴾؟ أجيب: أنَّ هذا القولَ صدرَ عنهم من الحسد، كما نصَّ عليه المُصنِّف، ألا يرى كيف أردفوه بقوله: ﴿أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي: القرآن؛ لأنَّ القومَ مُعاندة.

قوله: (وتُغلبوا عليه)، الأساس: غلبته على الشيء: أخذته منه، وهو مغلوبٌ عليه. ويُقال: أَيْغَلِبُ أَحَدَكُمْ أَنْ يُصَاحِبَ النَّاسَ مَعْرُوفًا؟ أي: أَيْعَجِزُ؟

قوله: (لأنَّ المنطلقين عن مجلسِ التناولِ) يعني: الواجبُ أن يجعلَ ﴿أَنْ﴾ مُفسِّرة؛ لأنَّ ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ مُتضمنٌ لمعنى القولِ على العادة المألوفة، وإنا قلنا: المألوفة؛

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣٦٨).

القول. ويجوز أن يراد بالانطلاق: الاندفاع في القول، وأنهم قالوا: امشوا، أي: أكثروا واجتمعوا، من: مَشَتِ المرأة؛ إذا كَثُرَتْ ولادتها، ومنه: الماشية؛ للتفؤل، كما قيل لها: الفاشية، قال رسول الله ﷺ: «ضَمُّوا فَوَاشِيَكُمْ». ومعنى ﴿وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ ٱلْهَيْكَلِ﴾: واصبروا على عبادتها والتمسك بها؛ حتى لا تزالوا عنها. وقُرى: (وانطلق الملائم منهم امشوا) بغير ﴿أَن﴾ على إضمار القول. وعن ابن مسعود: (وانطلق الملائم منهم يمشون أن اصبروا). ﴿فِي الْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾: في مِلَّة عيسى التي هي آخر الملائم؛ لأن النصارى يدعونها وهم مثلثة غير موحدة. أو: في مِلَّة قريش التي أدركنا عليها آبائنا. أو: ما سمعنا بهذا كائناً في المِلَّة الآخرة، على أن يجعل ﴿فِي الْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ حالاً من ﴿هَذَا﴾، ولا يعلقه بـ ﴿مَا سَمِعْنَا﴾ كما في الوجهين. والمعنى: أنا لم نسمع من أهل الكتاب ولا من الكهان أنه يحدث في المِلَّة الآخرة توحيد الله. ما ﴿هَذَا إِلَّا أَخْلَاقٌ﴾ أي: افتعال وكذب.

ليعلم أن ليس المراد أن «انطلق» متضمن معنى القول، نحو «إني أحمد إليك فلاناً»، ولا يجوز أيضاً أن يقدر القول بأن يقال: ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ قائلين: أن امشوا؛ لأن ﴿أَن﴾ المُفسرة دافعة لذلك.

قال المُصنّف في قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ١١٧]: أما فعل القول فيحكي بعده الكلام من غير أن يوسط بينهما حرف التفسير، لا نقول: ما قلت لهم إلا أن اعبدوا الله، ولكن ما قلت لهم إلا اعبدوا الله^(١). وقلت: لأن المُفسرة تقتضي سبق المُبهم لتوضّحه وتبيّن أن المعنى به القول، والقول لا يفتقر إلى البيان.

قوله: (كما في الوجهين)، يعني: الظرف كان مُعلّقاً بقوله: ﴿سَمِعْنَا﴾ على أن يراد بالمِلَّة الآخرة مِلَّة عيسى، أو مِلَّة قريش على أن يراد بها المِلَّة المُتجددة، وهي: ما جاء بها رسول الله ﷺ، يكون حالاً من اسم الإشارة أي: ما سمعنا أن يتجدد مثل هذه في المِلَّة الآخرة؛ لأن الظرف حينئذٍ مُستقرّ وبيان لاسم الإشارة وعلى الأولين كان لغواً.

(١) انظر: (٥: ٥٤٣).

[﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوُّوا عَذَابٍ * أَمْرَعْنَاهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ * أَمْ لَهُمْ مُتَكِّمَاتٌ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ * جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ ٨-١١]

أنكروا أن يُختصَّ بالشرف من بين أشرفهم ورؤسائهم ويُنزَل عليه الكتاب من بينهم، كما قالوا: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وهذا الإنكارُ ترجمةٌ عما كانت تغلي به صدورهم من الحسدِ على ما أُوتِيَ من شرفِ النبوة من بينهم. ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ، يقولون في أنفسهم: إِمَّا وَإِمَّا. وقولهم: ﴿إِن هَذَا إِلَّا آخِثٌ لَقَوْلِكَ﴾ كَلَامٌ مَخَالِفٌ لَا عِتْقَادَهُمْ فِيهِ يَقُولُونَهُ عَلَى سَبِيلِ الْحَسَدِ. ﴿بَلْ لَمَّا يَدُوُّوا عَذَابٍ﴾ بَعْدُ، فَإِذَا ذَاقُوهُ زَالَ عَنْهُمْ مَا بِهِمْ مِنَ الشُّكِّ وَالْحَسَدِ حِينَئِذٍ، يَعْنِي: أَنَّهُمْ لَا

قوله: (فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد)، يريد أن الاضراب الثاني مُتَعَلِّقٌ بِالْكَلَامَيْنِ بِمَعْنَى: لَمَّا وَبَعَثَهُمْ أَوْ لَا عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الْحَسَدِ وَمَا تَغْلِي بِهِ صُدُورُهُمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اخْتَصَّ بِشَرَفِ النَّبَوَةِ مِنْ بَيْنِهِمْ، ثُمَّ عَلَى الشُّكِّ فِيهَا لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا يَحُومٌ حَوْلَهُ، جَاءَ تَبْوِيخٌ أَغْلَظَ مِنْهُمَا أَي: بَلْ لَمْ يَدُوُّوا عَذَابِي بَعْدُ، وَإِذَا ذَاقُوهُ زَالَ عَنْهُمْ مَا بِهِمْ مِنَ الْحَسَدِ وَالشُّكِّ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ مُتَّصِلٌ بِفَاتِحَةِ السُّورَةِ، أَي: بـ ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾؛ لِأَنَّهَا حَدِيثَانِ فِي الذِّكْرِ. وَمِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَيَجْمَعُونَ أَن جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ﴾ إِلَى هَهُنَا حَدِيثٌ فِي النَّبَوَةِ، فَيَكُونُ ﴿بَلْ﴾ إِضْرَابًا عَمَّا أُثْبِتَ فِي الْإِضْرَابِ السَّابِقِ كَأَنَّهُ لَمَّا قِيلَ: أَقْسَمْتُ بِـ ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾، أَنَّ صِدْقَهُ ظَاهِرٌ وَحَقِيقَتُهُ مَكْشُوفٌ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ﴾: فِي عِنَادٍ وَاسْتِكْبَارٍ عَنِ الْإِذْعَانِ لِذَلِكَ، وَفِي شِقَاقِ اللَّهِ وَلِرَسُولِهِ، ثُمَّ عَقَّبَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَجْمَعُونَ أَن جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ مُسْتَطْرِدًا، وَبَيْنَ تَعْجَبِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَجْعَلُ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ بِنَاءً عَلَى التَّقْلِيدِ، ثُمَّ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ بِنَاءً عَلَى الْحَسَدِ، فَهَمَّ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ مُتَرَدِّدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ فِي أَنَّ الْقُرْآنَ: إِمَّا حَقٌّ وَإِمَّا بَاطِلٌ كَمَا قَالَ: يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ: إِمَّا وَإِمَّا، فَحِينَ نَظَرُوا إِلَى نَظْمِهِ وَإِعْجَازِهِ قَالُوا: حَقٌّ، وَحِينَ نَظَرُوا إِلَى التَّقْلِيدِ إِلَى أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِهِ مِنْهُ قَالُوا: هُوَ بَاطِلٌ، فَأَضْرَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ إِثْبَاتِ الْعِزَّةِ وَالشِقَاقِ بِقَوْلِهِ:

يُصَدِّقُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُمَسِّهِمُ الْعَذَابُ مُضْطَرِّينَ إِلَىٰ تَصَدِيقِهِ. ﴿أَمْرَعَنْدُهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ يعني: ما هم بالكفي خزائن الرحمة حتى يُصيبوا بها مَنْ شَاؤُوا وَيَصْرِفُوهَا عَمَّنْ شَاؤُوا، وَيَتَخَيَّرُوا لِلنَّبْوَةِ بَعْضَ صِنَادِيدِهِمْ، وَيَتَرَفَّعُوا بِهَا عَنْ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَإِنَّمَا الَّذِي يَمْلِكُ الرَّحْمَةَ وَخَزَائِنَهَا الْعَزِيزُ الْقَاهِرُ عَلَىٰ خَلْقِهِ، الْوَهَّابُ الْكَثِيرُ الْمَوَاهِبِ الْمُصِيبُ

﴿بَلْ لَمْ يَشَأْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذِكْرِي﴾، وَحِينَ كَانَ بِنَاءَ الشُّكِّ عَلَىٰ شُبُهَةِ رَكِيكَةٍ وَمُقَدِّمَةِ وَاهِيَةٍ لَا تَقَاوِمُ ذَلِكَ الْيَقِينَ، أَضْرَبَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ لَمَّا يَدُفُّوا عَذَابًا﴾. ثُمَّ جِيءَ بِأَضْرَابٍ آخَرَ عَلَىٰ أُسْلُوبٍ غَيْرِ الْأَوَّلِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَمْرَعَنْدُهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: وَجْهُ اتِّصَالِ ﴿أَمْرَعَنْدُهُمْ﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿أَمْ نَزَّلْنَا عَلَيْهِ الْذِكْرَ﴾ هُوَ: أَتَمُّ لَمَّا حَسَدُوا النَّبِيَّ ﷺ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِ النُّبُوَّةِ أَعْلَمَ اللَّهُ تَعَالَىٰ أَنَّ الْمُلْكَ لَهُ، وَالرَّسَالَةَ إِلَيْهِ يَصْطَفِي مَنْ يَشَاءُ وَيُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ وَيُنزِلُ الرَّحْمَةَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ^(١).

وقلت: إلى معنى هذا الترقى يَنْظُرُ قَوْلُ مَنْ قَالَ:

أَلَا قُلْ لِمَنْ ظَلَّلَ لِي حَاسِدًا أَتَدْرِي عَلَىٰ مَنْ أَسَاءَتِ الْأَدَبُ؟
أَسَاءَتَ عَلَى اللَّهِ فِي حُكْمِهِ لِأَنَّكَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبَ^(٢)

قَوْلُهُ: (وَيَتَرَفَّعُوا بِهَا عَنْ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ)، الْجَوْهَرِيُّ: الرَّفْعُ: خِلَافُ الْوَضْعِ، رَفَعْتُهُ فَارْتَفَعَ، وَرُفِعَ رَفْعَةً، أَي: ارْتَفَعَ قَدْرُهُ.

قَوْلُهُ: (الْعَزِيزُ الْقَاهِرُ عَلَىٰ خَلْقِهِ)، الْمَتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ كَيْفَ يَشَاءُ، لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَمْنَعَهُ مِنْ ذَلِكَ يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ، وَلِذَلِكَ أُرْدِفَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَمْ لَكُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾. وَأَمَّا مَعْنَى الْمِبَالِغَةِ فِي ﴿الْوَهَّابِ﴾: فَرَاجَعُ إِلَىٰ خَطَرِ الْمَوْهَبَةِ وَعِظْمِهَا، وَهِيَ: النُّبُوَّةُ. هَذَا أَنْسَبُ مِمَّا قَالَ: ﴿الْوَهَّابِ﴾: الْكَثِيرُ الْمَوَاهِبِ إِلَىٰ آخِرِهِ. وَفِيهِ: أَنَّ النُّبُوَّةَ لَيْسَتْ بِمُكْتَسَبَةٍ، بَلْ هِيَ مَوْهَبَةٌ رَبَّانِيَّةٌ يَخْتَصُّ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَأَنَّ قَوْلَهُ: يَقْسِمُهَا عَلَىٰ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ وَعَدَالَتُهُ اعْتِرَافًا خَفِيًّا.

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٢٢).

(٢) «البيتان لمنصور الفقيه. انظر: «محاضرات الأدباء» (١: ٣١٣).

بها موافعها، الذي يقسمها على ما تقتضيه حكمته وعدله، كما قال: ﴿أَمْ يُقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا﴾ [الزخرف: ٣٢]، ثم رشح هذا المعنى فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حتى يتكلموا في الأمور الربانية والتدابير الإلهية التي يختص بها رب العزة والكبرياء؟! ثم تهكم بهم غاية التهكم فقال: فإن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف في قسمة الرحمة، وكانت عندهم الحكمة التي يميزون بها بين من هو حقيق بإتياء النبوة دون من لا تحق له ﴿فَلْيَرْتَفُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾: فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى العرش، حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله، وينزلوا الوحي إلى من يختارون ويستصوبون، ثم خسأهم خسأة عن ذلك بقوله: ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ يريد: ما هم إلا جند من الكفار

قوله: (ثم رشح)، أي: ربي، الجوهرى: فلان يرشح للوزارة، أي: يربي ويؤهل لها، ومنه الترشيح في الاستعارة. وخلاصته: أنه ترقى من الإضراب الأول وتمم ما أفاده من المبالغة، فإن قوله: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنٌ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ أفاد تقريراً بأن الله العزيز الوهاب وضع عندهم خزائنه وأمرهم أن يقسموها على من أرادوا، فإن قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَفُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ دل على: اتصافهم بصفة الربوبية واستقلالهم بالمالكية تهكماً، انظر إلى هذا التعليل في شأن الحاسد وحسده.

قوله: (فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى العرش حتى يستووا عليه)، الانتصاف: الاستواء المنسوب إلى الله ليس مما يتوصل إليه بالصعود في المعارج، فليس استواؤه استقراراً، بل لما خلق الله الخلق فعل فيه فعلاً سواه استواء، وعبرة الزمخشري هاهنا ليست بجيدة^(١).

وقلت: ما أحسن عبارته لو تأمل فيه!

قوله: (ما هم إلا جند من الكفار)، هذا يشعر بأن ﴿مَا﴾ مزيدة، والتذكير للتفخيم، وفيها معنى الاستعظام، لكن حاصل الكلام ودلالة المقام مؤذنان بالتحقير، وإليه الإشارة

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ٧٥).

المتحزبين على رُسل الله، مهزومٌ مكسور عمّا قريب، فلا تُبالِ بما يقولون، ولا تكثرث لِمَا به يَهْذون. و﴿مَا﴾ مَزِيدَةٌ، وفيها معنى الاستِعْظَامِ، كما في قولِ امرئِ القَيْسِ:

وَحَدِيثٌ مَا عَلَى قِصْرِهِ

إِلَّا أَنَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْهُرْءِ. و﴿هُنَالِكَ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى حَيْثُ وَضَعُوا فِيهِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْإِنْتِدَابِ لِمِثْلِ ذَلِكَ الْقَوْلِ الْعَظِيمِ، مِنْ قَوْلِهِمْ لِمَنْ يَنْتَدِبُ لِأَمْرِ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ: لَسْتَ هُنَالِكَ.

بقوله: «إِلَّا أَنَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْهُرْءِ» قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جُنْدٌ مُبْتَدَأٌ، وَ﴿مَا﴾ مَزِيدَةٌ، وَ﴿هُنَالِكَ﴾ نَعْتٌ، وَ﴿مَهْزُومٌ﴾ الْخَبْرُ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿هُنَالِكَ﴾ ظَرْفًا لـ﴿مَهْزُومٌ﴾، وَ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَعْتًا لـ﴿جُنْدٌ﴾ وَأَنْ يَتَعَلَّقَ بـ﴿مَهْزُومٌ﴾، وَأَنْ يَكُونَ نَعْتًا لـ﴿مَهْزُومٌ﴾^(١).

قَوْلُهُ: (وَحَدِيثٌ مَا عَلَى قِصْرِهِ)، أَي: حَدِيثٌ عَظِيمٌ عَلَى قِصْرِهِ، وَهُوَ مُسْتَشْهَدٌ لِإِسْتِعْظَامِ، وَفِي بَعْضِ الْحَوَاشِي عَنِ الْمُصَنِّفِ: أَوْلُهُ:

وَحَدِيثُ الرَّكْبِ^(٢) يَوْمَ هُنَا^(٣)

يُرِيدُ الْيَوْمَ الْأَوَّلَ. قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: يَوْمٌ مَعْرُوفٌ وَمَا حَسِبُوا، أَي: هُوَ لَنَا سَارٌّ^(٤) عَلَى قِصْرِهِ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَحَدِيثٌ، أَي: حَدِيثٌ يَعْمُنِي بِالْحُسْنِ، وَلَوْ حَذَفَ ﴿مَا﴾ اخْتَلَّ هَذَا الْمَعْنَى، وَالتَّنْكِيرُ وَإِنْ أَفَادَ تَعْظِيمًا لَكِنَّ الشِّيَاعَ الْمُسْتَفَادَ مِنْ ﴿مَا﴾ كَالنَّصِّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى. قَوْلُهُ: (مِنَ الْإِنْتِدَابِ)، الْأَسَاسُ: تَكَلَّمَ فَاَنْتَدَبَ لَهُ فَلَانَ؛ إِذَا عَارَضَهُ، وَنُدِبَ لِكَذَا، أَوْ إِلَى كَذَا، فَاَنْتَدَبَ لَهُ.

قَوْلُهُ: (لَسْتَ هُنَالِكَ)، أَي: لَيْسَ هَذَا مِمَّا يَلِيقُ بِأَمْثَالِكَ؛ لِأَنَّكَ أَحَطُّ مَنْزِلَةً مِنْ أَنْ

(١) «التيان في إعراب القرآن» (٢: ١٠٩٨).

(٢) في الأصول الخطية: «وحيث ركب»، ولا يستقيم.

(٣) لامرئ القيس في «ديوانه» ص ١٠١.

(٤) سقط لفظ «سار» من النسخة (ح).

تُبَايَسِرُهُ. وَمِنْهُ حَدِيثُ الشَّفَاعَةِ فِي الصَّحِيحِينَ وَقَوْلُ الْأَنْبِيَاءِ: «لَسْتُ هُنَاكُمْ»^(١) وَمِنْهُ حَدِيثُ النَّبِيِّ: «تَعَدَى طَوْرَهُ»، أَي: جَاوَزَ حَدَّهُ وَحَالَهُ الَّذِي يُخْصُهُ. ذَكَرَهُ صَاحِبُ «النَّهَائَةِ»، فَظَهَرَ أَنَّ «هُنَاكَ» هُنَا كِنَايَةٌ عَنِ تَحْقِيرِ شَأْنِهِمْ، وَهَذَا قَالَ: «هُنَاكَ» إِشَارَةً إِلَى حَيْثُ وَضَعُوا فِيهِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْإِنْتِدَابِ لِمِثْلِ ذَلِكَ الْقَوْلِ الْعَظِيمِ، يَعْنِي: «وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ» [الزخرف: ٣١]، وَالَّذِي يَسْتَدْعِي هَذَا التَّفْسِيرَ مُرَاعَاةُ النَّظْمِ^(٢)؛ لِأَنَّ قَوْلَهُمْ ذَلِكَ اقْتَضَى أَنْ يُقَالَ فِيهِمْ: «أَمْرُهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ» «أَمْرُهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» وَأَنْ يُرْفَعَ مِنْ قَدْرِهِمْ إِلَى أَوْجِ أَعْلَى عَالَمَيْنِ تَهَكُّمًا ثُمَّ يُحْطُّ إِلَى حَضِيضِ أَسْفَلِ السَّافِلِينَ اسْتِخْفَافًا، وَعَلَى الْأَوَّلِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْعَرْشِ حَتَّى يَسْتَوُوا عَلَيْهِ» وَإِلَى الثَّانِي بِقَوْلِهِ: «ثُمَّ خَسَأَهُمْ خَسَاءً»، أَي: رَجَرَهُمْ رَجَرَ الْكَلْبِ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: «هُنَاكَ» إِشَارَةٌ إِلَى حَيْثُ وَضَعُوا فِيهِ أَنْفُسَهُمْ «كَيْفَ يَلْتَمِمْ مَعَ قَوْلِهِ: «مَا هُمْ إِلَّا جُنْدٌ مِنَ الْكُفَّارِ الْمُتَجَرِّئِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ مَهْزُومٌ مَكْسُورٌ عَمَّا قَرِيبٍ»، وَكَانَ الْهَرَمُ وَالْكَسْرُ يَوْمَ بَدْرٍ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْمُسَارُ إِلَيْهِ يَوْمَ بَدْرٍ، عَلَى أَنَّ الْمُفْسِّرِينَ صَرَّحُوا بِهِ؟ قَالَ الْوَاحِدِيُّ: الْمُسَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ «هُنَاكَ»: يَوْمَ بَدْرٍ وَمَصَارِعُهُمْ^(٣). وَقَالَ الْإِمَامُ: قِيلَ: يَوْمَ بَدْرٍ، وَقِيلَ: يَوْمَ الْخَنْدَقِ. وَالْأَصُوبُ عِنْدِي: يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ؛ لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ انْتَهَرُوا فِي مَوْضِعٍ تَكَلَّمُوا فِيهِ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ^(٤).

قُلْتَ: إِلا لَيْتَامٌ عَلَى تَأْوِيلِهِ سَهْلٌ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: هُوَ لِإِلاءِ الْحَمَقَى الَّذِينَ وَضَعُوا أَنْفُسَهُمْ فِيهَا هُمْ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِهِ تَرَاهُمْ مَهْزُومِينَ مَكْسُورِينَ عَنِ الْقَرِيبِ، فَمِنْ أَيْنَ لَهُمُ التَّدَابِيرُ الْإِلَهِيَّةُ وَالتَّصَرُّفُ فِي الْأُمُورِ الرَّبَّانِيَّةِ؟! وَلَا تَكَثَّرَتْ بِقَوْلِهِمْ وَلَا تُبَالِ بِهِمْ، فَجَعَلَ الْإِنْتِدَابَ لِمِثْلِ ذَلِكَ الْقَوْلِ عِلَّةً لِلْهَزْمِ لَا يُنَافِي إِرَادَةَ الْهَزْمِ يَوْمَ بَدْرٍ مَثَلًا.

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦) ومسلم (١٩٣) وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) في النسخة (ط): «النظير».

(٣) «التفسير الوسيط» للواحد (٣: ٥٤١).

(٤) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣٧٠).

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَنَمُودٌ وَقَوْمٌ لُوطٌ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ
أُولَئِكَ الْأَحْرَابُ * إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ * وَمَا يَنْظُرُ هُنَّ إِلَّا صَيْحَةً
وَاحِدَةً مَّا لَهُمِنْ فَوْقَ﴾ [١٢-١٥]

﴿ذُو الْأَوْتَادِ﴾ أصله من ثبات البيت المُطَنَّب بأوتاده، قال:

وَالْبَيْتُ لَا يُبْتَنَى إِلَّا عَلَى عَمَدٍ وَلَا عِمَادٍ إِذَا لَمْ تُرْسَ أوتَادُ

فاستعير لثبات العزِّ والمُلك واستقامة الأمر، كما قال الأسود:

فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأوتَادِ

وقيل: كان يُشْبَحُ المُعَذَّبُ بين أربعِ سَوَارٍ: كُلُّ طَرْفٍ مِنْ أطرافه إلى ساريةٍ
مضروبٍ فيه وَتَدٌّ مِنْ حَدِيدٍ، ويتركه حتى يموت. وقيل: كان يمدُّه بين أربعةِ أوتادٍ
فِي الأَرْضِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْهِ العِقَارِبَ والحَيَّاتِ. وقيل: كانت له أوتادٌ وَجِبَالٌ يُلْعَبُ

قوله: (وَالْبَيْتُ لَا يُبْتَنَى)، الْبَيْتُ^(١)، «لم تُرْسَ»: لم تُثَبَّتْ، وَكُلُّ ثَابِتٍ فَهُوَ راس.

قوله: (فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأوتَادِ)، قَبْلَهُ:

تَرَكَوْا مَنَازِلَهُمْ وَأَلِ إِيَادِ؟	مَاذَا أَوْمَلُ بَعْدَ آلِ مُحَرَّقِ
فَكَأْتُهُمْ كَأَنوَا عَلَى مِيعَادِ	جَرَّتِ الرِّيحُ عَلَى مَقَرِّ دِيَارِهِمْ
فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأوتَادِ	وَلَقَدْ عَنَوَا فِيهَا بِأَنعَمِ عِيشَةٍ
يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بَلَى وَنَفَادِ ^(٢)	فَإِذَا النَّعِيمُ وَكُلُّ مَا يُلْهَى بِهِ

«عَنَوَا» أَي: أَقَامُوا.

قوله: (يُشْبَحُ المُعَذَّبُ)، الأَسَاسُ: شَبَحَ الإِهَابُ: مَدَّهُ بَيْنَ الْأوتَادِ، وَشَبَّحَهُ بَيْنَ العُقَابِينَ.

(١) للأنوف الأودي في «ديوانه» ص ١٠، ضمن كتاب «الطرائف الأدبية» صنعة اليميني الراجكوتي.

(٢) سبق تخريج الأبيات من شعر الأسود بن يعفر النهشلي.

بها بين يديه. ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾: قصد بهذه الإشارة الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجُند المهزوم منهم هُم هُم، وأنهم هُم الذين وُجدَ منهم التَّكْذِيب. ولقد ذَكَرَ تَكْذِيبَهُمْ أَوَّلًا فِي الْجُمْلَةِ الْخَبْرِيَّةِ عَلَى وَجْهِ الْإِبْهَامِ، ثُمَّ جَاءَ بِالْجُمْلَةِ الْإِسْتِثْنَائِيَّةِ فَأَوْضَحَهُ فِيهَا: بِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَحْزَابِ كَذَّبَ جَمِيعَ الرُّسُلِ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا كَذَّبُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ فَقَدْ كَذَّبُوا جَمِيعًا. وَفِي تَكْرِيرِ التَّكْذِيبِ، وَإِضَاحِهِ بَعْدَ إِبْهَامِهِ، وَالتَّنْوِيعِ فِي تَكْرِيرِهِ بِالْجُمْلَةِ الْخَبْرِيَّةِ أَوَّلًا وَبِالْإِسْتِثْنَائِيَّةِ ثَانِيًا، وَمَا فِي الْإِسْتِثْنَائِيَّةِ مِنَ الْوَضْعِ عَلَى وَجْهِ التَّوَكِيدِ وَالتَّخْصِيسِ: أَنْوَاعٌ مِنَ الْمَبَالِغَةِ الْمُسَجَّلَةِ عَلَيْهِمْ بِاسْتِحْقَاقٍ أَشَدَّ

قوله: (هُم هُم)، يعني: أن المُشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ السَّابِقُ وَهُوَ جِنْسُ الْأَحْزَابِ، يَدُلُّكَ عَلَيْهِ وَجْهُ:

أَحَدُهَا: قَوْلُهُ: «مِنَ الْكُفَّارِ الْمُتَحَرِّبِينَ عَلَى رُسُلِ اللَّهِ»، وَ«مِنَ» لِلتَّبْعِيضِ.

وَثَانِيهَا: قَوْلُهُ: «ثُمَّ جَاءَ بِالْجُمْلَةِ الْإِسْتِثْنَائِيَّةِ فَأَوْضَحَهُ بِهَا»، بِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَحْزَابِ كَذَّبَ جَمِيعَ الرُّسُلِ.

وَثَالِثُهَا: قَوْلُهُ: «وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِشَارَةٌ إِلَى جَمِيعِ الْأَحْزَابِ»، أَي: الْأَحْزَابِ الْمَذْكُورَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَوْمٌ نُوْحٌ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنٌ ذُرِّيَّاتُ الْأَوَّلَادِ * وَثَمُودٌ وَقَوْمٌ لُوطٌ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾. وَلِمَا أَنَّ أَسْمَاءَ الْإِشَارَةِ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ مَحْسُوسًا أَوْ فِي حُكْمِ الْمَحْسُوسِ، قَالَ: لَا سِتِحْضَارَهُمْ بِالذِّكْرِ أَوْ لِأَنَّهُمْ كَالْحُضُورِ عِنْدَ اللَّهِ.

قَالَ صَاحِبُ «الْإِنْتِصَافِ»: كَرَّرَ لَفْظَ الْأَحْزَابِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ؛ تَنْبِيْهُهَا عَلَى أَنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنْ وَاِدٍ وَاحِدٍ فِي التَّحَرُّبِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ^(١).

قَوْلُهُ: (فِي الْجُمْلَةِ الْخَبْرِيَّةِ)، وَهِيَ: ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ لَمْ يُرَدِّ بِهَا الْخَبْرِيَّةُ الَّتِي فِي مُقَابَلَةِ الطَّلِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْجُمْلَةَ الْإِسْتِثْنَائِيَّةَ أَيْضًا خَبْرِيَّةٌ، بَلْ يُرَادُ بِهَا مُطْلَقُ الْإِخْبَارِ عَنِ الْمَعْنَى الْوَاقِعِ، فَإِنَّهُ فِي مُقَابَلَةِ الْإِسْتِثْنَائِيَّةِ.

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ٧٦).

العقاب وأبلغه. ثم قال: ﴿فَحَقَّ عِقَابٍ﴾ أي: فوجبَ لذلك أن أعاقبهم حقَّ عقابهم. ﴿هَؤُلَاءِ﴾: أهل مكة، ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب؛ لاستحضارهم بالذكر، أو لأنهم كالحضور عند الله. والصَّيْحَةُ: النَّفْخَةُ، ﴿مَا لَهَا مِنْ فُوقٍ﴾ - وقُرئ بالضمِّ - ما لها من توقُّفٍ مقدَّارٍ فُوقٍ؛ وهو ما بين حَلْبَتِي الحالبِ ورضعتي الراضع. يعني: إذا جاء وقتها لم تستأخِرْ هذا القَدْرَ من الزمان، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً﴾ [النحل: ٦١]، وعن ابن عباس: ما لها من رُجوعٍ وتَرَدَادٍ، من:

قوله: (أي: فوجبَ لذلك أن أعاقبهم)، يُريدُ أن الفاء في قوله: ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٍ﴾ جزاءٌ شرطٌ محذوف، وتقديره: أن هؤلاء الجند المهزوم من أهل مكة هم من جملة الأحزاب، وحكمتهم حكمتهم في أنهم لما كذبوا الرُّسُلَ استوجبوا العقاب.

قوله: (لاستحضارهم بالذكر)، كما فعل الفرزدق في قوله:

أولئك أبائي فجنني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجمع^(١)

أحضرهم في مشاهدة جرير، ثم أشار إليهم كما يُشار إلى المحسوسين.

قوله: (وقرئ بالضمِّ)، حمزة والكسائي: «فُوقٍ» بضمِّ الفاء، والباقون: بفتحها^(٢). قال محيي السنة: فرَّق بعضهم بين الفتح والضمِّ، قال الفراء وأبو عبيدة: الفتح بمعنى الراحة والإفاقة، كالجواب من الإجابة، من إفاقة المريض. والضمُّ ما بين الحلبتين، وهو أن تُحلب النَّاقَةُ ثم تُترك ساعة حتى يجتمع اللَّبَنُ ثم تُحلب. وقيل أيضًا: هما مُستعاران من الرَّجُوع؛ لأن اللَّبَنَ يعودُ إلى الضَّرْعِ بين الحلبتين، وإفاقة المريض رُجُوعُهُ إلى الصَّحَّةِ، وعليه قول ابن عباس^(٣).

(١) سبق تخريجه.

(٢) وهي لغة جيدة عالية. أفاده الفراء في «معاني القرآن» (٢: ٤٠٠) ولتiam الفائدة انظر: «حجّة القراءات» ص ٦١٣.

(٣) «معالم التنزيل» (٧: ٧٤) ولتiam الفائدة انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢: ١٧٩).

أفاق المريض؛ إذا رجع إلى الصَّحَّة. وفَوَاقِ النَّاقَةِ: ساعة يَرِجُ الدَّرُّ إلى صَرْعِهَا، يريد: أنها نفخةٌ واحدةٌ فحسبُ لا تُثْنَى ولا تُرَدَّد.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا مَجَّلْنَا فِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [١٦]

الْقِطُّ: القِسْطُ مِنَ الشَّيْءِ؛ لَأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنْهُ، مِنْ قَطَعَهُ؛ إِذَا قَطَعَهُ. وَيُقَالُ لَصَحِيفَةِ الْجَائِزَةِ: قِطٌّ؛ لِأَنَّهَا قِطْعَةٌ مِنَ الْقِرْطَاسِ، وَقَدْ فُسِّرَ بِهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَجَّلْنَا فِطْنًا﴾ أَي: نَصَبْنَا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي وَعَدْتَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧]، وَقِيلَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ؛ فَقَالُوا عَلَى سَبِيلِ الْهَرَاءِ: عَجَّلْ لَنَا نَصِيبَنَا مِنْهَا. أَوْ: عَجَّلْ لَنَا صَحِيفَةَ أَعْمَالِنَا نَنْظُرَ فِيهَا.

﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ * إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَعَيْنَتْهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ [١٧-٢٠]

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَطَابَقَ قَوْلُهُ: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ حَتَّى عُطِفَ أَحَدُهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ؟ قُلْتُ: كَانَ قَالَ لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ، وَعَظَّمْ أَمْرَ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فِي أَعْيُنِهِمْ بِذِكْرِ قِصَّةِ دَاوُدَ؛ وَهُوَ أَنَّهُ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ أَوْلَاهُ مَا أَوْلَاهُ مِنَ النَّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ؛ لِكِرَامَتِهِ عَلَيْهِ وَزُلْفَتِهِ لَدَيْهِ، ثُمَّ زَلَّ زَلَّةً فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةَ وَوَبَّخَهُ عَلَيْهَا، عَلَى طَرِيقِ التَّمْثِيلِ وَالتَّعْرِيفِ، حَتَّى فَطِنَ لِمَا وَقَعَ فِيهِ، فَاسْتَغْفَرَ وَأَنَابَ، وَوُجِدَ مِنْهُ مَا يُحْكِي مِنْ بَكَائِهِ الدَّائِمِ وَغَمِّهِ الْوَاصِبِ، وَنَقَشَ جُنَايَتَهُ

قَوْلُهُ: (الْقِطُّ: الْقِسْطُ مِنَ الشَّيْءِ)، وَاشْتِقَاقُ الْقِطِّ مِنْ: قَطَطْتُ، أَي: قَطَعْتُ، وَكَذَلِكَ النَّصِيبُ إِنَّمَا هُوَ الْقِطْعَةُ مِنَ الشَّيْءِ، وَالْقِطْعُ وَالْقِطْعَةُ بِمَعْنَى: الْمَقْطُوعِ، غَيْرَ أَنَّ الْقِطْعَ غَلَبَ فِي اللَّيْلِ^(١).

(١) وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُهُ عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنْشِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [مزد: ٨١].

في بطن كفه حتى لا يزال مُجَدِّدًا لِلنَّدَمِ عليها، فما الظنُّ بكم مع كُفْرِكُمْ وَمَعَاصِيكُمْ؟
 أَوْ قَالَ لَهُ ﷺ: اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ، وَصُنْ نَفْسَكَ وَحَافِظْ عَلَيْهَا أَنْ تَزَلَّ فِيهَا كُفْلَتَ
 مِنْ مُصَابِرَتِهِمْ وَتَحْمُلْ أَذَاهُمْ، وَادْكُرْ أَخَاكَ دَاوُدَ وَكَرَامَتَهُ عَلَى اللَّهِ كَيْفَ زَلَّ تِلْكَ الزَّلَّةُ
 الْيَسِيرَةَ فَلَقِيَ مِنْ تَوْبِيخِ اللَّهِ وَتَظْلِيمِهِ وَنَسِيَتِهِ إِلَى الْبَغْيِ مَا لَقِيَ. ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾: ذَا الْقُوَّةِ فِي
 الدِّينِ الْمُضْطَلِّعَ بِمَشَاقِّهِ وَتَكَالُفِهِ؛ كَانَ عَلَى نَهْوِضِهِ بِأَعْبَاءِ النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ يَصُومُ يَوْمًا
 وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَهُوَ أَشَدُّ الصُّومِ، وَيَقُومُ نِصْفَ اللَّيْلِ. يُقَالُ: فَلَانٌ أَيَّدُ، وَذُو أَيِّدٍ، وَذُو
 آدٍ. وَإِبَادُ كُلِّ شَيْءٍ: مَا يَتَّقَوِي بِهِ. ﴿أَوَابٌ﴾: تَوَابٌ رَجَّاعٌ إِلَى مَرَضَاةِ اللَّهِ. فَإِنْ قُلْتَ: مَا
 دَلَّكَ عَلَى أَنَّ الْأَيْدِ الْقُوَّةُ فِي الدِّينِ؟ قُلْتُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ أَوَابٌ﴾؛ لِأَنَّهُ تَعْلِيلٌ لِذِي
 الْأَيْدِ، ﴿وَالْإِشْرَاقِ﴾: وَوَقْتِ الْإِشْرَاقِ؛ وَهُوَ حِينَ تَشْرُقُ الشَّمْسُ، أَي: تَضِيءُ وَيَصْنُفُو

قَوْلُهُ: (أَوْ قَالَ لَهُ^(١) ﷺ: ﴿اصْبِرْ﴾)^(٢)، جَوَابٌ آخَرَ، فَعَلِيَ الْأَوَّلَ «وَادْكُرْ» مَحْمُولٌ عَلَى
 الذِّكْرِ اللَّسَانِيِّ، وَعَلَى هَذَا عَلَى الْقَلْبِيِّ. الْجَوْهَرِيُّ: وَذَكَرْتُ الثَّمِيءَ بَعْدَ النَّسِيَانِ: ذَكَرْتُهُ
 بِلِسَانِي وَيَقْلِبِي.

قَوْلُهُ: (الْمُضْطَلِّعُ)، الْجَوْهَرِيُّ: فَلَانٌ مُضْطَلِّعٌ بِهَذَا الْأَمْرِ، أَي: قَوِي عَلَيْهِ، مُفْتَعِلٌ، مِنْ
 الضَّلَاعَةِ.

قَوْلُهُ: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ أَوَابٌ﴾؛ لِأَنَّهُ تَعْلِيلٌ لِذِي الْأَيْدِ)، لِأَنَّ ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ
 يَكُونَ فِي الْجِسْمِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]. وَأَنْ يَكُونَ فِي الدِّينِ، فَلَمَّا
 جِيءَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ أَوَابٌ﴾ أَعْلَمَ أَنَّ الْمُرَادَ: الْقُوَّةُ فِي الدِّينِ. قَالَ صَاحِبُ «التَّقْرِيْبِ»: وَفِيهِ
 نَظَرٌ؛ إِذِ الْأَوَابُ مُطْلَقٌ أَيْضًا كَالْأَيْدِ.

قُلْتُ: مُطْلَقٌ مِنْ حَيْثُ نَفْسُهُ، لَكِنْ مُقَيَّدٌ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِذَا
 وُصِفَ بِهِ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ رَجَّاعٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

(١) سقط لفظ: «له» من النسخة (ط).

(٢) سقط لفظ: «اصبر» من النسخة (ح).

شعاعها، وهو وقتُ الضُّحى، وأما شروقها فطلوعُها، يقال: شرقت الشمسُ، ولما تُشرق. وعن أمِّ هانئ: دَخَلَ علينا رسولُ الله ﷺ، فدعا بوضوء، فتوضأ ثم صلى صلاةَ الضُّحى، وقال: «يا أمِّ هانئ، هذه صلاةُ الإِشراق». وعن طاووس، عن ابنِ عباس قال: هل تَجِدُونَ ذِكْرَ صلاةِ الضُّحى في القرآن؟ قالوا: لا، فقراً: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾، وقال: كانت صلاةٌ يصلِّيها داودُ عليه السلام. وعنه: ما عَرِفْتُ صلاةَ الضُّحى إلا بهذه الآية. وعنه: لم يزل في نَفْسِي مِن صلاةِ الضُّحى شيءٌ حتى طلبتها فوجدتها في هذه الآية: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾. وكان لا يصلِّي صلاةَ الضُّحى، ثم صلّاها بعدُ. وعن كَعْب: أنه قال لابنِ عباس: إني لا أجدُ في كُتُبِ الله صلاةَ بعد طلوعِ الشمس، فقال: أنا أوجدُك ذلك في كتابِ الله تعالى. يعني هذه الآية. ويحتملُ أن يكونَ من: أشرقَ القومُ؛ إذا دخلوا في الشُّرُق - ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣]، وقولُ أهلِ الجاهليّة: أشرقَ ثبير -

قوله: (وعن أمِّ هانئ)، عن البخاري ومُسلم وغيرهما عن عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ أبي ليلي قال: ما حدَّثنا أحدٌ أنه رأى النبي ﷺ يُصَلِّي الضُّحى غير أمِّ هانئ، فإتتها قالت أن النبي ﷺ دخل بيتها يومَ فتحِ مَكَّة فاعْتَسَلَ وَصَلَّى ثمانِي رَكَعَاتٍ (١).

قوله: (ويحتملُ أن يكونَ من: أشرقَ القومُ؛ إذا دخلوا في الشُّرُق)، وهو الشَّمْس. الانتِصاف: ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ ظَرْفٌ بلا إشكال، فلو حُجِل «الإِشراق» على الدُّخُولِ في الشُّرُوقِ لكانَ مَصْدَرًا لا ظَرْفًا؛ لأنه فِعْلُ المَظْرُوفِ، وعلى الأوَّلِ وإن كانَ مَصْدَرًا إلا أنه ظَرْفٌ؛ لأنه فِعْلُ الشَّمْسِ، وهو يُسْتَعْمَلُ ظَرْفًا كالتُّلُوعِ والغُرُوبِ (٢).

قوله: (أشرقَ ثبير)، الجوهري: أشرقَ ثبير، كَمَا نُغَيِّزُ، أي: نُسْرِعُ للنَّحْرِ، وَثَبِيرٌ: جَبَلٌ بِمَكَّةَ، وقال: أغارَ؛ أي: شَدَّ العَدُوَّ وأسْرَع.

(١) أخرجه البخاري (١١٧٦) ومسلم (٣٣٦).

(٢) «الانتِصاف بحاشية الكشاف» (٤: ٧٨).

وَيُرَادَ وَقْتُ صَلَاةِ الْفَجْرِ؛ لِانْتِهَائِهِ بِالشُّرُوقِ. وَ﴿يُسَبِّحَنَّ﴾: فِي مَعْنَى مَسْبُوحَاتٍ عَلَى الْحَالِ. فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ يَسْبَحَنَّ وَمَسْبُوحَاتٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، وَمَا اخْتِيرَ ﴿يُسَبِّحَنَّ﴾ عَلَى مَسْبُوحَاتٍ إِلَّا لِذَلِكَ؛ وَهُوَ الدَّلَالَةُ عَلَى حُدُوثِ التَّسْبِيحِ مِنَ الْجِبَالِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ وَحَالًا بَعْدَ حَالٍ، وَكَأَنَّ السَّامِعَ مُحَاضِرٌ تِلْكَ الْحَالَ يَسْمَعُهَا تُسَبِّحُ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ الْأَعْمَى:

قَوْلُهُ: (لِانْتِهَائِهِ بِالشُّرُوقِ)، أَي: إِنَّمَا سُمِّيَ صَلَاةُ الْفَجْرِ بِاعْتِبَارِ مَا يُؤْوَلُ إِلَيْهِ. وَقَوْلُهُ: «وَيُرَادَ وَقْتُ صَلَاةِ الْفَجْرِ»، مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ: «إِذَا دَخَلُوا فِي الشَّرْقِ»، وَمَا بَيْنَهُمَا اعْتِرَاضٌ.

قَوْلُهُ: (وَهُوَ الدَّلَالَةُ عَلَى حُدُوثِ التَّسْبِيحِ مِنَ الْجِبَالِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ)، قَالَ صَاحِبُ «الانْتِصَافِ»: قَالَ سَحْنُونُ: إِذَا قَالَ: «أَنَا مُحْرِمٌ يَوْمَ كَذَا» بِصِيغَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ يَكُونُ مُحْرِمًا عِنْدَ وَجُودِ التَّعْلِيْقِ، وَلَا كَذَلِكَ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ، إِذَا قَالَ: «أَنَا أُحْرِمُ يَوْمَ كَذَا» لَا يَكُونُ مُحْرِمًا حَتَّى يُجَدِّدَ الْإِحْرَامَ. وَاخْتَلَفَ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْ أَصْحَابِنَا فِي مَعْنَى قَوْلِ سَحْنُونِ فِي اسْمِ الْفَاعِلِ: يَكُونُ مُحْرِمًا يَوْمَ يَفْعَلُ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: أَرَادَ الْقَوْلَ فَيُنْشِئُ إِحْرَامًا، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يَكُونُ مُحْرِمًا بِالتَّعْلِيْقِ الْأَوَّلِ. وَمَالِكٌ سَوَّى بَيْنَ اسْمِ الْفَاعِلِ وَالْفِعْلِ.

وَلَمَّا كَانَ حَشْرُ الطَّيْرِ دَفْعَةً وَاحِدَةً أَدَلَّ عَلَى الْقُدْرَةِ لَمْ يَكُنْ لَا سِتِعْمَالِ الْفِعْلِ وَجِهَ (١).

قَالَ صَاحِبُ «الْإِنْصَافِ»: تَأَمَّلْ مَا قَالَهُ صَاحِبُ الْإِنْصَافِ فَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا نَقْلُ فَرْعٍ عَلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ لَا يَمَسُّ بِالْآيَةِ، ثُمَّ اخْتَارَ أَنَّ مَذْهَبَ مَالِكٍ يُحَالِفُ مَا جَاءَ مِنْ بَدِيعِ الْآيَةِ، فَلَيْتَ شِعْرِي أَرَادَ الرَّدَّ عَلَى فَصَاحَةِ الْآيَةِ أَوْ رَدَّ عَلَى إِمَامِهِ الَّذِي يُقَلِّدُهُ فِيمَا يُفْتِي بِهِ؟!!

وَقُلْتُ - وَاللَّهِ أَعْلَمُ -: فَرْقٌ بَيْنَ مَسْأَلَةِ الْإِحْرَامِ وَبَيْنَ مَا فِي التَّنْزِيلِ؛ لِأَنَّ مَا فِي التَّنْزِيلِ مَعْدُودٌ عَنِ الظَّاهِرِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّا سَحَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ﴾. إِخْبَارٌ عَمَّا مَضَى، فَالْمُطَابِقُ مَسْبُوحَاتٌ (٢) وَ﴿مَحْشُورَةٌ﴾، وَهَذَا قَالَ: ﴿يُسَبِّحَنَّ﴾ فِي مَعْنَى: «مَسْبُوحَاتٍ» وَإِنَّمَا عَدَلَ فِي

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ٧٨-٧٩).

(٢) فِي النسخة (ط): «مستجاب»، وَهُوَ تَحْرِيفٌ.

إلى ضوء نارٍ في يفاع مُحَرَّقُ

الأول لحكاية الحال الماضية واستحضارٍ في نظر السامع فيشاهدُ حدوثَ التسييحِ مِنَ الجبالِ شيئاً بعدَ شيءٍ ويتعجبُ من تلكِ القدرةِ الربّانيةِ على ما سبقَ في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ مَحَابِبًا فَسُقْنَتُهُ إِلَى بَلَدٍ ﴾ [فاطر: ٩].

أتى بالمضارع بين الماضيين للاستحضارِ وللاستعجاب؛ إذ لو قيل: «فَأَنَارَتْ» و«مُسَبَّحَات» لم يكن من هذا المعنى في شيء. و﴿مَحْشُورَةٌ﴾ على ما هي عليه أدلُّ على القدرة، ولو عدلَّ إلى خلافِ المُقتضى لكانَ خلفاً وغيرَ سديد، وليت شعري من تكلمَ فيها لا ذُرْبَةَ لَهُ فِيهِ وَتَقَدَّمَ عَلَى التَّامُّلِ فَلَا يُتَأَمَّلُ كَلَامُهُ، وَظَهَرَ أَنَّ كَلَامَ إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ جَاءَ مُسْتَطَرِّدًا وَهُوَ أَجْدَرُّ بِالْقَبُولِ؛ لِأَنَّ الْعَامِّيَّ لَمْ يَقْصِدْ هَذَا الْمَعْنَى، وَرَمِيَهُ عَلَى عَمِيَاءٍ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -.

قوله: (إلى ضوء نارٍ في يفاع مُحَرَّقُ)، أوَّله:

لعمري لقد لاحت عُيونٌ كثيرة

وبعده:

تُشَبُّ لِمَقْرُورِينَ يَصْطَلِيَانِهَا وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمُحَلَّقُ
رَضِيعِي لِبَانِ نَدِيٍّ أُمَّ تَقَاسَمَا بِأَسْحَمِ دَاجٍ عَوْضٌ لَا تَنْفَرُقُ^(١)

اللَّبَانُ - بكَسْرِ اللَّامِ -: لَبَنُ الْمَرَاةِ خَاصَّةً. تَقَاسَمَا: تَحَالَفَا. بِأَسْحَمِ دَاجٍ: ظَرْفٌ، أَي: فِي لَيْلٍ دَاجٍ أَقْسَمَا أَنْ لَا يَتَفَرَّقَا. رَضِيعِي لِبَانٍ: حَالٌ، وَقِيلَ: خَبْرٌ ثَانٍ وَنُصِبَ عَلَى الْمَدْحِ، وَهَذَا أَوْجَهُ، وَ«عَوْضٌ» - بَسُكُونِ الْوَاوِ -: الْأَبَدُ، يُضَمُّ وَيُفْتَحُ بِغَيْرِ تَنْوِينٍ، وَهُوَ لِلْمُسْتَقْبَلِ مِنَ الزَّمَانِ، كَمَا أَنَّ «قَطُّ» لِلْمَاضِي؛ لِأَنَّكَ تَقُولُ: عَوْضٌ لَا أَفَارِقُكَ، وَلَا تَقُولُ: عَوْضٌ مَا فَارَقْتُكَ. الْيَفَاعُ: الْجَبَلُ الْمُرْتَفِعُ. مُحَرَّقُ، أَي: الْحَطَبُ؛ لِأَنَّ الْجَوَادَ مِنْهُمْ كَانَ يُوقَدُ النَّارَ عَلَى الْمَوْضِعِ الْمُرْتَفِعِ لِيَجْتَمِعَ إِلَيْهِ كُلُّ مَنْ رَأَاهَا مِنْ بَعِيدٍ.

(١) سبق تخريجه.

ولو قال: «مُحَرَّقَةٌ»: لم يكن شيئًا. وقوله: ﴿مَحْشُورَةٌ﴾ في مُقَابَلَةِ ﴿يُسَيِّخَنَّ﴾؛ إلا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئًا بعد شيء، جيء به اسمًا لا فعلًا؛ وذلك أنه لو قيل: وسَخَّرْنَا الطَّيْرَ يُحْشِرُنَ، على أن الحَشْرَ يوجد من حاشِرِها شيئًا بعد شيء والحاشِرُ هو الله عز وجل؛ لكان خَلْفًا، لأن حَشْرَها جملة واحدة أدل على القُدْرَةِ. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كان إذا سَبَّحَ جَاوَبَتْهُ الْجِبَالُ بِالتَّسْبِيحِ، واجتمعت إليه الطَّيْرُ فَسَبَّحَتْ، فذلك حَشْرُها. وقرئ: (والطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ) بِالرَّفْعِ. ﴿كُلُّ لَهْ وَأَوَّابٌ﴾: كلُّ واحدٍ من الجبال والطَّيْرِ لِأَجْلِ دَاوُدَ - أي: لِأَجْلِ تَسْبِيحِهِ - مُسَبِّحٌ؛ لأنها كانت تَسْبُحُ بِتَسْبِيحِهِ. ووضِعُ «الأَوَّابِ» موضِعَ المُسَبِّحِ: إمَّا لِأَنَّهَا كَانَتْ تَرْجِعُ التَّسْبِيحَ، وَالْمَرْجِعُ رَجَاعٌ؛ لِأَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى فِعْلِهِ رُجُوعًا بَعْدَ رَجُوعٍ؛ وَإِمَّا لِأَنَّ الأَوَّابَ - وَهُوَ التَّوَابُ الكَثِيرَ الرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ وَطَلِبَ مَرْضَاتِهِ - مِنْ

قوله: (ولو قال: «مُحَرَّقَةٌ» لم يكن شيئًا)، معناه: لم يكن^(١) عدولاً من الظاهر فلا يكون فيه لطف؛ لأن قوله: «لَقَدْ لَاحَتْ» يَقْتَضِي مُحَرَّقَةً، فَلَمْ يَفِدْ حَدُوثُ التَّحْرِيقِ وَالْإِيقَادِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ وَلَا اسْتِحْضَارَ تِلْكَ الْحَالَةِ فِي مُشَاهَدَةِ السَّمْعِ.

قوله: (خَلْفًا)، أي: مِنْ حَيْثُ اخْتِلَالَ حُسْنِ الْمَعْنَى، الْجَوْهَرِي: الْخَلْفُ: الرَّدِيُّ مِنْ الْقَوْلِ، يُقَالُ: سَكَتَ أَلْفًا وَنَطَقَ خَلْفًا، أَي: سَكَتَ عَنِ أَلْفِ كَلِمَةٍ ثُمَّ تَكَلَّمَ بِالْخَطَا.

قوله: (أدُل على القُدْرَةِ)، قال: كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَجْدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النَّازِعَاتُ: ١٣-١٤]، ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزَّمَرُ: ٦٨]، قِيَامٌ رَجُلٍ وَاحِدٍ.

قوله: (ووضِعُ «الأَوَّابِ» موضِعَ المُسَبِّحِ)، يَعْنِي: أَصْلُ الْكَلَامِ: كُلُّ مَنْ الْجِبَالِ وَالطَّيْرِ لِأَجْلِ تَسْبِيحِ دَاوُدَ مُسَبِّحٌ، فَقِيلَ: ﴿أَوَّابٌ﴾؛ لِأَنَّ كُلَّ مَرْجِعٍ لِلتَّسْبِيحِ رَاجِعٌ إِلَيْهِ^(٢)، كَمَا أَنَّ كُلَّ مُكذِّبٍ لِلْحَقِّ كاذِبٌ، وَإِنَّمَا عَدَلَ مِنْهُ إِلَى الأَوَّابِ لِتَكْنِيَةِ وَهِيَ: إمَّا أَنْ يَكُونَ كِنَايَةَ

(١) قوله: «لم يكن» سقط من النسخة (ح).

(٢) قوله: «إليه» سقط من النسخة (ح).

عادته أن يُكثِرَ ذِكْرَ الله وَيُدِيمَ تَسْبِيحَهُ وَتَقْدِيسَهُ. وقيل: الضميرُ لله، أي: كلُّ من داوَدَ والجبالِ والطيرِ لله أَوَّابٌ، أي: مسبِّحٌ مُرْجِعٌ للتسبيح. ﴿وَشَدَّدْنَا مُلْكَهُ﴾: قَوَيْنَاهُ، قال تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ [القصص: ٣٥]، وقُرئ: (شَدَّدْنَا) على المبالغة. قيل: كان يبيتُ حَوْلَ مِحْرَابِهِ أَرْبَعُونَ أَلْفَ مُسْتَلِمٍ يَحْرُسُونَهُ. وقيل: الذي شَدَّ اللهُ بِهِ مُلْكَهُ وَقَدَّفَ فِي قُلُوبِ قَوْمِهِ الْهَيْبَةَ: أَنَّ رَجُلًا أَدْعَى عِنْدَهُ عَلَى آخِرِ بَقْرَةٍ، وَعَجَزَ عَنِ إِقَامَةِ الْبَيْتَةِ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ فِي الْمَنَامِ: أَنْ أَقْتُلِ الْمَدْعَى عَلَيْهِ، فَقَالَ: هَذَا مَنَامٌ، فَأَعِيدَ الْوَحْيَ فِي الْيَقِظَةِ، فَأَعْلَمَ الرَّجُلُ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَأْخُذْنِي بِهَذَا الذَّنْبِ، وَلَكِنْ بَأَنِّي قَتَلْتُ أَبَا هَذَا غَيْلَةَ، فَقَتَلْتَهُ، فَقَالَ النَّاسُ: إِنَّ أذُنَبَ أَحَدٍ ذَنْبًا أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ؛ فَهَابُوهُ. ﴿الْحِكْمَةَ﴾: الزُّبُورَ وَعِلْمَ الشَّرَائِعِ. وقيل: كلُّ كَلَامٍ وَافِقٍ الْحَقِّ فَهُوَ

عَنِ التَّرْجِيحِ فِي التَّسْبِيحِ مِنَ «الْأَوَّابِ»: الرَّجُوعُ، أَوْ عَنِ كَثْرَةِ التَّسْبِيحِ؛ لِأَنَّ الْأَوَّابَ أَي: التَّوَّابَ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يُكثِرَ التَّسْبِيحَ، وَلَوْ تَرَكَ عَلَى ظَاهِرِهِ لَمْ يُعْلَمَ ذَلِكَ، وَلَوْ قِيلَ: كُلُّ لَهُ كَالْأَوَّابِ أَي: التَّوَّابِ عَلَى التَّشْبِيهِ لَمْ يُفْهَمَ مِنْهُ الْمَقْصُودُ صَرِيحًا.

قوله: (مُستَلِمٌ): أي: دَارِعٌ، و«اللَّامُ»: جَمْعُ «لَامَةٌ»، وَهِيَ: الدَّرْعُ، وَاسْتِئْلَامٌ: إِذَا لَبَسَ لَأَمَتَهُ.

قوله: (أَنَّ رَجُلًا أَدْعَى عِنْدَهُ)، خَبَرُ «الَّذِي شَدَّدَ اللهُ بِهِ مُلْكَهُ».

وقوله: «أَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ»، جَوَابٌ لِلشَّرْطِ، وَ«فَقَتَلَهُ» مِنْ تَبَتُّةِ الْجَوَابِ، وَالْفَاءُ فِي «فَهَابُوهُ» نَتِيجَةُ الْكَلَامِ، أَي: الَّذِي شَدَّدَ اللهُ بِهِ مُلْكَهُ وَقَدَّفَ فِي قُلُوبِ قَوْمِهِ الْهَيْبَةَ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ، فَلِذَلِكَ هَابُوهُ، وَإِلَيْهِ يَنْظُرُ قَوْلُ الْمُتَنَبِّي:

لَا يَسْلَمُ الشَّرْفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ^(١)

قوله: (غيلة)، الغيلة: الاسمُ من الاغتيال.

الجوهري: الغيلة هو: أن يخدعَ صَاحِبَهُ فَيَذْهَبَ بِهِ إِلَى مَوْضِعٍ، فَإِذَا صَارَ إِلَيْهِ قَتَلَهُ.

(١) «ديوان المتنبّي» بشرح الواحدي (١: ١٧٣).

حِكْمَةٌ. الْفَصْلُ: التَّمْيِيزُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ. وَقِيلَ لِلْكَلَامِ الْبَيِّنِ: فَضْلٌ، بِمَعْنَى الْمَفْصُولِ، كَضْرَبِ الْأَمِيرِ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: كَلَامٌ مُلْتَبَسٌ، وَفِي كَلَامِهِ لَبْسٌ. وَالْمُلْتَبَسُ: الْمُخْتَلِطُ، فَقِيلَ فِي تَقْيِيزِهِ: فَضْلٌ، أَي: مَفْصُولٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ، فَمَعْنَى فَضْلِ الْخِطَابِ: الْبَيِّنُ مِنَ الْكَلَامِ الْمُلَخَّصِ الَّذِي يَتَبَيَّنُهُ مَنْ يَخَاطَبُ بِهِ لَا يَلْتَبِسُ عَلَيْهِ. وَمِنْ فَضْلِ الْخِطَابِ وَمُلَخَّصِهِ: أَنْ لَا يُحْطَى صَاحِبُهُ مَطَانَّ الْفَصْلِ وَالْوَصْلِ، فَلَا يَقِفُ فِي كَلِمَةِ الشَّهَادَةِ عَلَى الْمَسْتَثْنَى مِنْهُ، وَلَا يَنْتَلُو قَوْلَهُ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ [الْمَاعُونُ: ٤] إِلَّا مَوْصُولًا بِهَا بَعْدَهُ، وَلَا ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ حَتَّى يَصِلَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَقْلُمُوا﴾ [الْبَقَرَةُ: ٢٣٢]، وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ مَطَانُّ الْعَطْفِ وَتَرْكِهِ، وَالْإِضْمَارُ وَالْإِظْهَارُ وَالْحَذْفُ وَالتَّكْرَارُ، وَإِنْ شَبَّتَ كَانَ الْفَصْلُ بِمَعْنَى الْفَاصِلِ، كَالصَّوْمِ وَالزَّوْرِ، وَأَرَدَتْ بِفَصْلِ الْخِطَابِ: الْفَاصِلِ مِنَ الْخِطَابِ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالْفَاسِدِ، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالصَّوَابِ وَالخَطَأِ، وَهُوَ كَلَامُهُ فِي الْقَضَايَا وَالْحُكُومَاتِ، وَتَدَابِيرِ الْمَلِكِ وَالْمَشُورَاتِ. وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هُوَ قَوْلُهُ: الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمَدْعَى وَالْيَمِينُ عَلَى الْمَدْعَى عَلَيْهِ، وَهُوَ مِنَ الْفَصْلِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: هُوَ قَوْلُهُ: «أَمَّا بَعْدُ»؛ لِأَنَّهُ يَفْتَتِحُ إِذَا تَكَلَّمَ فِي الْأَمْرِ الَّذِي لَهُ شَأْنٌ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتَحْمِيدِهِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْغَرَضِ الْمَسْئُوقِ إِلَيْهِ فَضَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذِكْرِ اللَّهِ بِقَوْلِهِ: «أَمَّا بَعْدُ». وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ الْخِطَابُ الْقَصْدُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ اخْتِصَارٌ مُجَلٌّ وَلَا إِشْبَاعٌ مُجَلٌّ، وَمِنْهُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: فَضْلٌ؛ لَا نَزْرٌ وَلَا هَذْرٌ.

قَوْلُهُ: (فِي صِفَةِ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: فَضْلٌ، لَا نَزْرٌ وَلَا هَذْرٌ)، وَرَوَيْنَا عَنْ التِّرْمِذِيِّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْرُدُ كَسْرِدِكُمْ هَذَا، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ فَصْلٍ يَحْفَظُهُ مَنْ جَلَسَ إِلَيْهِ»^(١). وَعَنْهَا: «كَانَ كَلَامُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَلَامَ فَصْلٍ، بَعِيهِ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ». أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ^(٢). الْحَدِيثَانِ يُؤَافِقَانِ التَّفْسِيرَ الْأَوَّلَ، وَقِيلَ: الْكَلَامُ الْبَيِّنُ فَضْلٌ.

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٦٣٩)، وَأَصْلُهُ فِي «الصَّحِيحِينَ»، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٥٦٨) وَمُسْلِمٌ (٢٤٩٣).

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٨٣٩) وَالنَّسَائِيُّ فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (١٠١٧٣).

[«وَهَلْ أَتَكَ نَبَأُ الْخَصَمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحَكُمَ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ»]

[٢٢-٢١]

كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته

وقال صاحبُ «النهاية»: في صفة كلامه صلوات الله عليه: «فصل؛ لا نزر ولا هذر»، أي: بين ظاهر، يفصل بين الحق والباطل.

وقال في حديث أم معبد: «لا نزر ولا هذر»^(١)، أي: لا قليل ولا كثير، وقد هذر يهذر هذراً - بالسكون - فهو هذر وهذار ومهذار، أي: كثير الكلام، والاسم: الهذر بالتحريك.

وقال الجوهرى: النزر: القليل التافه، وعطاء منزور، أي: قليل.

قوله: (يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته)، روى محيي السنة عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: كان ذنب داود أنه التمس من الرجل أن ينزل له عن امرأته. قال أهل التفسير: كان مباحاً، غير أن الله تعالى لم يرص له ذلك؛ لأنه كان رغبة في الدنيا وازدياداً للنساء، وقد أغناه الله تعالى بما أعطاه من غيرها^(٢).

وروى أيضاً حديث الطير الذهب عن السدي والكلبي ومقاتل والحسن، والله أعلم بحقيقة الحال، وما في «الكشاف» أولى بأن يقال. قال صاحب «المطلع» بعدما حكى القولين: والذي يؤيد هذا القول قوله تعالى: «وعزني في الخطاب» أي: غلبنى في مخاطبتنا إياها. وقال الإمام: قد دل أول الكلام وآخره على مدح داود عليه السلام، فلو دل وسطه على مقابحه ومعايبه لخرج عن النظام^(٣).

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٤٢٧٤) وأبو بكر الأجزري في «الشریعة» (٣: ١٤٩٦) من حديث هشام بن حبيب.

(٢) «معالم التنزيل» (٧: ٧٩).

(٣) «مفاتيح الغیب» (٢٦: ٣٧٩).

فِي تَزْوِجِهَا إِذَا أَعْجَبْتَهُ، وَكَانَتْ لَهُمْ عَادَةٌ فِي الْمُوَاسَاةِ بِذَلِكَ قَدْ عَتَادُواهَا، وَقَدْ رَوَيْنَا: أَنَّ الْأَنْصَارَ كَانُوا يُوَاثِنُونَ الْمُهَاجِرِينَ بِمِثْلِ ذَلِكَ، فَاتَّفَقَ أَنَّ عَيْنَ دَاوُدَ وَقَعَتْ عَلَى امْرَأَةٍ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: أُورِيَا، فَأَحْبَبَهَا، فَسَأَلَهُ النَّزْوَلَ لَهَا عَنْهَا، فَاسْتَحْيَا أَنْ يَرُدَّهَ، فَفَعَلَ، فَتَزَوَّجَهَا وَهِيَ أُمُّ سُلَيْمَانَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّكَ مَعَ عِظَمِ مَنْزِلَتِكَ وَارْتِفَاعِ مَرْتَبَتِكَ وَكِبَرِ شَأْنِكَ وَكَثْرَةِ نِسَائِكَ، لَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَسْأَلَ رَجُلًا لَيْسَ لَهُ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ النَّزْوَلَ، بَلْ كَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْكَ مِغَالَبَةَ هَوَاكَ وَقَهْرَ نَفْسِكَ وَالصَّبْرَ عَلَى مَا امْتَحَنَتْ بِهِ. وَقِيلَ: خَطَبَهَا أُورِيَا ثُمَّ خَطَبَهَا دَاوُدُ، فَأَثَرَهُ أَهْلُهَا، فَكَانَ ذَنْبُهُ أَنْ خَطَبَ عَلَى خُطْبَةِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ، مَعَ كَثْرَةِ نِسَائِهِ. وَأَمَّا مَا يُذَكَّرُ: أَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَمَنَّى مَنْزِلَةَ آبَائِهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنَّ آبَائِي قَدْ ذَهَبُوا بِالْخَيْرِ كُلِّهِ، فَأَوْحِيَ إِلَيْهِ: إِنَّهُمْ ابْتَلَوْا بَيْلَايَا فَصَبَرُوا عَلَيْهَا: قَدْ ابْتُلِيَ إِبْرَاهِيمُ بِنَمْرُودَ، وَذَبَّحَ وَلَدَهُ، وَإِسْحَاقُ بِذَبْحِهِ وَذَهَابِ بَصْرِهِ، وَيَعْقُوبُ بِالْحُزْنِ عَلَى يَوْسُفَ. فَسَأَلَ الْإِبْتِلَاءَ، فَأَوْحِيَ إِلَيْهِ: إِنَّكَ لَمُبْتَلَى فِي يَوْمِ كَذَا، فَاحْتَرِسْ. فَلَمَّا حَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ دَخَلَ مِحْرَابَهُ وَأَغْلَقَ بَابَهُ، وَجَعَلَ يَصَلِّي وَيَقْرَأُ الزُّبُورَ، فَجَاءَهُ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ حَمَامَةٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَمَدَّ يَدَهُ لِيَأْخُذَهَا لِابْنِ لَهُ صَغِيرٍ، فَطَارَتْ، فَامْتَدَّ إِلَيْهَا، فَطَارَتْ فَوْقَهُ فِي كَوَّةٍ، فَتَبِعَهَا، فَأَبْصَرَ امْرَأَةً جَمِيلَةً قَدْ نَقَضَتْ شَعْرَهَا فَغَطَّتْ بِدَنْتِهَا، وَهِيَ امْرَأَةُ أُورِيَا، وَهُوَ مِنْ غُرَاةِ الْبَلْقَاءِ، فَكَتَبَ إِلَى أَيُّوبَ بْنِ صُورِيَا،

قَوْلُهُ: (وَقَدْ رَوَيْنَا: أَنَّ الْأَنْصَارَ كَانُوا يُوَاثِنُونَ الْمُهَاجِرِينَ بِمِثْلِ ذَلِكَ)، رَوَيْنَا فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ ابْنِ عَوْفٍ قَالَ: «أَخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَقَالَ لِي سَعْدُ: إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَا لَا فَأَقَاسِمُكَ مَالِي شَطْرَيْنِ، وَلِي امْرَأَتَانِ فَاَنْظُرْ أَيَّتَهُمَا شِئْتَ حَتَّى أَنْزِلَ لَكَ عَنْهَا إِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا، فَقُلْتُ: لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ، ذُلُّونِي عَلَى السُّوقِ» الْحَدِيثُ (١).

قَوْلُهُ: (الْبَلْقَاءُ)، هُوَ مَوْضِعٌ، قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ: أَرْضُهَا بَلْدُ الزَّعْفَرَانِ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٧٨١) وَمُسْلِمٌ (١٤٢٧) بِلَفْظٍ مُخْتَلَفٍ.

وهو صاحبُ بَعَثِ البلقاء: أنِ ابْعَثُ أوريا وقَدَّمَهُ على التابوت، وكان من يتقدَّمُ على التابوت لا يَحِلُّ له أن يَرَجِعَ حتى يَفْتَحَ اللهُ على يَدَيْهِ أو يُسْتَشْهَدَ، فَفَتَحَ اللهُ على يَدَيْهِ وسَلِمَ، فأمرَ برَدِّه مرةً أُخرى، وثالثتهُ، حتى قُتِلَ، وأتاه خَبْرُ قَتْلِهِ فلم يَحْزَنُ كما كان يَحْزَنُ على الشُّهداء، وتزوَّجَ امرأته. فهذا ونحوه مما يَقْبَحُ أن يُحَدِّثَ به عن بعض المُتَسَمِّين بالصَّلاح من أفناء المُسلمين فَضْلاً عن بعضِ أعلامِ الأنبياء. وعن سَعِيدِ بنِ المسيَّب والحارثِ الأعور: أنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضي اللهُ عنه قال: مَنْ حَدَّثَكُمْ بحديثِ داودَ على ما يرويه القُصَّاص جلدتهُ مئةً وستينَ، وهو حدُّ الفِرْيَةِ على الأنبياء. وروى: أنه حَدَّثَ بذلك عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ وعنده رجلٌ من أهلِ الحقِّ، فكذَّبَ المحدثَ به، وقال: إنَّ كانت القِصَّة على ما في كتابِ اللهِ فما يَنْبَغِي أن يُلْتَمَسَ خِلافُها، وأعظَمُ بأن يقال غيرُ ذلك، وإن كانت على ما ذكرتَ وكفَّ اللهُ عنها سترًا على نبيِّه فما يَنْبَغِي إظهارُها عليه، فقال عمرُ: لَسَاعِي هذا الكلامَ أحبُّ إليَّ ممَّا طَلَعَتْ عليه الشمسُ. والذي يدُلُّ عليه المَثَلُ الذي صَرَبَهُ اللهُ لِقِصَّتِهِ عليه السلام ليسَ إلَّا طلبه إلى زوجِ المرأة أن ينزَلَ له عنها فَحَسْبُ. فإن قلتَ: لمْ جاءت على طريقةِ التمثيلِ والتعريضِ دونَ التصريحِ؟ قلتُ: لكونها أبْلَغُ في التوبيخِ، مِنْ قِبَلِ أن التأمُلَ إذا أذاه إلى الشُّعورِ بالمُعَرَّضِ به، كان أوقعَ في نفسه، وأشدَّ تمكُّناً مِنْ قَلْبِهِ، وأعظَمَ أثراً فيه، وأجلبَ لاحتِشامه

من أرض الشام^(١) قال: هي مدينةُ الكنعانيين، وكان اسمُ مَلِكِهِمْ: بالِق، فقلِبَ اسمه على بَلْدِهِ.

قوله: (وأجلبَ لاحتِشامه)، الجوهرِي: أبو زيد: حَشَمْتُ الرَّجُلَ وأحشمتُهُ بِمَعْنَى، وهو أن يجلسَ إليك فتؤذيه وتغضبُه. ابنُ الأعرابي: حَشَمْتُه: أحجَلْتُهُ. وأحشمتُهُ، أغضبْتُهُ. واحتشمتُهُ واحتشمتُ منه بِمَعْنَى.

(١) من قوله: «قال رحمه الله: سمعت» إلى هنا، سقط من (ف) و(ح).

وحَيَّائِهِ، وأدعى إلى التنبُّه على الخطأ فيه من أن يُبادِرَه به صَرِيحًا، مع مُراعاة حُسْنِ الأدبِ بِتَرْكِ المُجَاهِرَةِ. ألا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا في سياسة الولد إذا وُجِدَتْ منه هِنَةٌ مُنْكَرَةٌ أن يُعَرِّضَ له بإنكارها عليه ولا يُصْرِّحَ، وأن تُحْكِي له حِكَايَةً مُلَاحِظَةً لحاله إذا تَأَمَّلَهَا اسْتَسْمَعَ حَالُ صَاحِبِ الحِكَايَةِ فَاسْتَسْمَعَ حَالُ نَفْسِهِ، وذلك أَزْجُرُ له؛ لأنه يَنْصَبُ ذلك مِثَالًا لحاله ومِقياسًا لشأنه، فيتصوَّرُ قُبْحَ ما وُجِدَ منه بصورة مكشوفة، مع أنه أصونٌ لما بين الوالد والولد من حِجَابِ الحِشْمَةِ. فإن قلت: فلم كان ذلك على وجه التحاكم إليه؟ قلت: ليحكّمَ بها حكمَ به من قوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ [ص: ٢٤] حتى يكونَ مَحْجُوجًا بحُكْمِهِ ومُعْتَرِفًا على نَفْسِهِ بِظُلْمِهِ. ﴿وَهَلْ

قوله: (وأدعى إلى التنبُّه^(١) على الخطأ فيه من أن يُبادِرَه صَرِيحًا)، وقلت: وهو سَوْعٌ من بابِ الاستِدراجِ وإرخاءِ العنانِ. قال صاحبُ «الانتصاف»: نَبَّهَ الرَّخْمَشْرِيُّ على عَجِيءِ الإنكارِ على طريقِ التَّمثِيلِ، فإنَّ التَّعْرِيفَ دَاعٍ إلى التَّأَمُّلِ، وفيه أن اجْتِنَابَ المِجَاهِرَةِ بالإنكارِ أبقى للحِشْمَةَ^(٢).

قوله: (ليحكّمَ بها حكمَ به) إلى قوله: (حتى يكونَ مَحْجُوجًا بحُكْمِهِ)، الانتصاف: أي: جاء على وجهِ المُحاكَمَةِ ليحكّمَ بقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ فتقومُ عليه الحُجَّةُ. وقوله: ﴿أَجِيءُ﴾ فإنَّ الأُخُوَّةَ بِصَدَاقَةٍ أو دِينٍ أو شَرِكَةٍ تمنعُ الاعتداء^(٣).

وقوله: ﴿فِي الخُطَابِ﴾، أي: في المُخاطَبَةِ، أي: أتاني بما لا أقدرُ على رَدِّهِ من الجِدالِ، أو من الخِطْبَةِ، أي: خُطِبَ فأوثر عليّ، وهو مَصْدَرُ المُفَاعَلَةِ؛ لأنَّ الخِطْبَةَ صَدَرَتْ من كُلِّ واحدٍ منهما، ولم يكن في المثلِ المَضْرُوبِ خِطْبَةٌ من مالِكها إلا تقديراً، «أو» أما في قِصَّةِ داوودَ فهو مُمَكِّنٌ، وجوابُ الرَّخْمَشْرِيِّ الذي يأتي ليسَ بجَيِّدٍ على ما سَترَاهُ.

(١) في النسخة (ط): «الْيَبِّتَةُ»، وهو خطأ.

(٢) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ٨٥).

(٣) المصدر السابق (٤: ٨٨).

أَتَلَّكَ نَبْوًا الْخَصْمِ ﴿ ظاهره الاستفهام، ومعناه: الدلالة على أنه من الأنبياء العجيبة التي حَقَّهَا أَنْ تَشِيْعَ وَلَا تَحْفَى عَلَى أَحَدٍ، وَالتَّشْوِيقُ إِلَى اسْتِمَاعِهِ. وَالْخَصْمُ: الْخَصْمَاءُ، وَهُوَ يَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ؛ كَالضَّيْفِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٤]؛ لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ فِي أَصْلِهِ، تَقُولُ: خَصَمْتَهُ خَصْمًا، كَمَا تَقُولُ: ضَافَهُ ضَيْفًا. فَإِنْ قُلْتَ: هَذَا جَمْعٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿ خَصْمَانِ ﴾ تَنْبِيْهُ، فَكَيْفَ اسْتِقَامَ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: مَعْنَى ﴿ خَصْمَانِ ﴾: فَرِيقَانِ خَصْمَانِ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: (خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ)، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَذَا خَصْمَانِ أَخْتَصِمُوا فِي رِيْبِهِمْ ﴾ [الحج: ١٩]. فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا تَصْنَعُ يَقُولُهُ: ﴿ إِنَّ هَذَا آخِي ﴾ [ص: ٢٣]، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اثْنَيْنِ؟ قُلْتُ: هَذَا قَوْلُ الْبَعْضِ الْمِرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾. فَإِنْ قُلْتَ: فَقَدْ جَاءَ فِي الرَّوَايَةِ: أَنَّهُ بُعِثَ إِلَيْهِ مَلَكَانِ. قُلْتُ: مَعْنَاهُ: أَنَّ التَّحَاكُمَ كَانَ بَيْنَ مَلَكَيْنِ، وَلَا يَمْنَعُ ذَلِكَ أَنْ يَصْحَبَهُمَا آخَرُونَ. فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا كَانَ التَّحَاكُمُ بَيْنَ اثْنَيْنِ كَيْفَ سَمَّاهُمْ جَمِيعًا خَصْمًا فِي قَوْلِهِ: ﴿ نَبْوًا الْخَصْمِ ﴾ وَ﴿ خَصْمَانِ ﴾؟ قُلْتُ: لَمَّا كَانَ صَحْبُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَحَاكِمِينَ فِي صُورَةِ الْخَصْمِ صَحَّتِ التَّسْمِيَةُ بِهِ. فَإِنْ قُلْتَ: بِمِ انْتِصَبَ ﴿ إِذْ ﴾؟ قُلْتُ: لَا يَجْلُو: إِمَّا أَنْ يَنْتِصَبَ

قَوْلُهُ: (ظَاهِرُهُ اسْتِفْهَامٌ، وَمَعْنَاهُ: الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْعَجِيبَةِ)، وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ إِنْ كَانَتْ مَعْلُومَةً لِلسَّمَاعِ فَيَكُونُ فِي اسْتِفْهَامٍ بَعَثَ^(١) لَهُ وَتَحْرِيطُ عَلَى إِشَاعَتِهَا وَإِعْلَامِ النَّاسِ بِهَا، أَي: كَأَنَّكَ مَا عَلِمْتَهَا حَيْثُ تَخْفِيهَا وَلَا يُوَدِّي حَقَّهَا مِنَ الْإِدَاعَةِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَعْلُومَةً كَانَ تَأْنِيْبًا عَلَى التَّقَاعِدِ عَنِ اسْتِعْلَامِهَا وَتَشْوِيقًا إِلَى اسْتِمَاعِهَا.

قَوْلُهُ: (وَالْخَصْمُ: الْخَصْمَاءُ، وَهُوَ يَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ)، قَالَ الزَّجَّاجُ: الْخَصْمُ: مَصْدَرٌ، تَقُولُ: خَصَمْتَهُ أَخَصِمْتُهُ خَصْمًا، فَمَا كَانَ مِنَ الْمَصَادِرِ وَقَدْ وُصِفَتْ بِهِ الْأَسْمَاءُ: فَتَذَكِيرُهُ وَتَأْنِيْبُهُ وَتَوْحِيدُهُ وَجَمْعُهُ جَائِزٌ^(٢).

(١) فِي النسخِ الْخَطِيئَةِ: «بَعَثًا... وَتَحْرِيطًا» وَهُوَ خَطَأٌ، فَإِنْ حَقَّ الرَّفْعُ، اسْمٌ «كَانَ» مُؤَخَّرًا.

(٢) «مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابُهُ» (٤: ٣٢٥).

بـ ﴿أَتَاكَ﴾، أو بـ ﴿نَبُؤًا﴾، أو بمحذوف؛ فلا يسوغ انتصابه بـ ﴿أَتَاكَ﴾؛ لأن إتيان
النبأ رسول الله ﷺ لا يقع إلا في عهده لا في عهد داود، ولا بالنبأ؛ لأن النبأ الواقع في
عهد داود لا يصح إتيانه رسول الله ﷺ، وإن أردت بالنبأ القصة في نفسها؛ لم يكن
ناصبًا؛ فبقي أن يتصّب بمحذوف، وتقديره: وهل أتاك نبأ تحاكم الخصم. ويجوز أن
يتصّب بـ ﴿الْحَصْمِ﴾؛ لما فيه من معنى الفعل. وأما ﴿إِذْ﴾ الثانية فبدل من الأولى.
﴿سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾: تصعدوا سورته ونزلوا إليه. والسور: الحائط المرتفع، ونظيره في
الأبنية: تسنمه؛ إذا علا سنامه، وتذراه: علا ذروته. روي: أن الله تعالى بعث إليه ملكين
في صورة إنسانين، فطلبنا أن يدخلا عليه، فوجداه في يوم عبادته، فمنعهما الحرس،
فتسورا عليه المحراب، فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان ﴿فَفَزَعَ مِنْهُمُ﴾. قال ابن
عبّاس: إن داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء: يومًا للعبادة، ويومًا للقضاء،
ويومًا للاشتغال بخواص أموره، ويومًا يجمع بني إسرائيل فيعظهم ويبيكيهم؛ فجأوه
في غير يوم القضاء، ففزع منهم؛ ولأنهم نزلوا عليه من فوق، وفي يوم الاحتجاب،
والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه. ﴿حَصَمَانَ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي:
نحن خصمان. ﴿وَلَا تُنْطِطُ﴾: ولا تجر. وقُرى: (ولا تشطط)، أي: ولا تبعد عن الحق.

قوله: (ولا بالنبأ؛ لأن النبأ الواقع في عهد داود لا يصح إتيانه رسول الله ﷺ)، قال
القاضي: ويجوز أن يتعلق ﴿إِذْ﴾ بالنبأ، على أن المراد به: الواقع في عهد داود عليه السلام،
وأن إسناد «أتى» إليه على حذف مضاف، أي: أتى قصة نبأ الخصم، و﴿إِذْ﴾ الثانية: بدل
من الأولى أو: ظرف لـ ﴿سَوَّرُوا﴾^(١).

قوله: (وقُرى: «ولا تشطط»)، قال ابن جني: هي قراءة أبي رجاء وقتادة؛ بفتح التاء
وصمّ الطاء، يُقال: شطَّ يَشُطُّ ويَشُطُّ، إذا بعد، وأشطط: إذا أبعده، وعليه قراءة العامة: ﴿وَلَا
تُنْطِطُ﴾، أي: ولا تبعد، وهو من: الشطط: الجانب، ومعناه: أخذ جانبي الشيء وترك

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٢٧).

وَقُرئ: (ولا تُشَطِّطُ)، (ولا تُشَاطِطُ)، وكلُّها من معنى الشَطَطَ؛ وهو مُجاوِزَةٌ الحدِّ ونَخْطِي الحَقَّ. و﴿سَوَاءٌ الصَّرِيطُ﴾: وَسَطُهُ وَمَحَجَّتُهُ، ضربه مَثَلًا لِعَيْنِ الحَقِّ وَمَحْضِهِ.

[إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾]

﴿أَخِي﴾ بدلٌ من ﴿هَذَا﴾ أو خبرٌ له ﴿إِنَّ﴾. والمرادُ أَخُوهُ الدِّينِ، أو أَخُوهُ الصِّدَاقَةِ والألْفَةِ، أو أَخُوهُ الشُّرْكَةِ والخُلْطَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَثُرَ بَيْنُكَ مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾ [ص: ٢٤]، وكلُّ واحدةٍ من هذه الأخواتِ تُدلي بِحَقِّ مانِعٍ من الاعتداءِ والظُّلمِ. وَقُرئ: (تَسَعُّ وَتَسْعُونَ) بفتح التاء، و(نَجْمَةٌ) بكسرِ النونِ، وهذا من اختلافِ اللُّغاتِ، نحو: نَطَعٌ وَنَطَعٌ،

وسَطُهُ، كما قيل: تَجَاوَزَ، وهو مِنَ الجِيزَةِ، وهي جَانِبُ الوادي، وكما قيل: تَعَدَى، وهو مِنَ عُدْوَةِ الوادي، أي: جَانِبِهِ^(١). وأنشُدوا:

لَيْنٌ غَبَتَ عَن عَيْنِي وَشَطَّتْ بِكَ النَّوَى فَأَنْتَ الَّذِي فِي القَلْبِ حَطَّتْ رَوَاحِلُهُ^(٢)

قوله: (تُدلي بِحَقِّ مانِعٍ)، المُغْرِبُ: أدلَيْتُ الدَّلُو: أرسلتها في البئرِ، ومنه: أدلى بِالْحُجَّةِ، أحضَرها. وفلانٌ يُدلي إلى الميِّتِ بِذِكرِ، أي: يَتَّصِلُ.

قوله: (وَقُرئ: «تَسَعُّ وَتَسْعُونَ» بفتحِ التاء): قال ابنُ جَنِّي: قَرَأها الحَسَنُ، وَقَد كَثُرَ عنهُم مَجِيءُ البِعلِ والفِعلِ بِمعْنَى واحدٍ، نحو: الشُّكْرِ والشُّكْرِ، ولا يَبْعُدُ ذلك في التَّسَعِ لاسِيما وَقَد تَجَاوَزَ العِشْرَ. وَقَرَأ الحَسَنُ والأعْرَجُ: «نَجْمَةٌ» بِكسرِ النُّونِ^(٣).

(١) «المحتسب» (٢: ٢٣١).

(٢) لم أهد إلى قائله، وقد تأخر موقع هذا البيت في النسخة (ح). والذي أنشده ابنُ جَنِّي شاهدًا هو قولُ عنترة:

شَطَّتْ مزارَ العاشقين فأصبحت عيسراً عليَّ طلابك ابنةً مخرمٍ

والبيت من معلقته، انظر: «شرح الزوزني» ص ١٢٦.

(٣) «المحتسب» (٢: ٢٣١).

وَلَقُوَّةٌ وَلِقُوَّةٌ ﴿١﴾ أَكْفَلْنِيهَا ﴿٢﴾ مَلَكْنِيهَا. وحقيقته: اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي.
﴿وَعَزَّنِي﴾: وغلبني. يقال: عزه يعزّه. قال:

قَطَاةٌ عَزَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ تُجَادِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ

يريد: جاءني بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ما أردته به. وأراد بالخطاب: مخاطبة
المُحَاجِّ المُجَادِلِ. أو أراد: خطبتُ المرأةَ وخطبتها هو فخطبني خطاباً، أي: غالبني
في الخطبة فغلبني؛ حيث زوجه دوني. وقرئ: (وعازني) من المعازة؛ وهي المغالبة.
وقرأ أبو حيوة: (وعزني) بتخفيف الزاي؛ طلباً للخفة، وهو تخفيف غريب، وكأنه
قاسه على نحو: ظلت، ومست. فإن قلت: ما معنى ذكر النعاج؟ قلت: كان تحاكمهم
في نفسه تمثيلاً وكلامهم تمثيلاً؛ لأن التمثيل أبلغ في التوبيخ؛ لما ذكرنا، وللتنبية على

قوله: (ولقوة)، الجوهرية: اللقوة: داءٌ في الوجه. واللقوة: الناقة السريعة اللقاح.
واللقوة: العقاب. واللقوة - بالكسر -: مثله.

قوله: (قطاة عزها)، البيت. قبله:

كَأَنَّ الْقَلْبَ لَيْلَةً قَبْلَ يُغْدَى بِلَيْلِ الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ^(١)

قوله: («وعزني» بتخفيف الزاي)^(٢)، روى صاحب «الكشف»^(٣) عن عاصم وقال:
حملة الزاي على أنه مثل: رُبَّ ورُبِّ، وما أشبهه من تخفيف المضاعف^(٤).

قوله: (كان تحاكمهم في نفسه تمثيلاً وكلامهم تمثيلاً)، سُئِلَ: ما معنى ذكر النعاج؟ أي:
ما موقعه في التمثيل؟ أجاب: بأنه تتميمٌ لمعنى التمثيل؛ لأن تحاكمهم كان في نفسه تمثيلاً

(١) هو لمجنون ليل كما في «أمالي القالي» (١: ١٦١) وقال: والمجنون أحدُ المحسنين في هذا المعنى.

(٢) وعزاها ابنُ خالويه لأبي حيوة وطلحة. انظر: «مختصر شواذ القرآن» ص ١٣٠.

(٣) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ٢٦١) بتحقيق د. عبد القادر السعدي، و(٢: ١١٤٣) بتحقيق

د. محمد الدالي.

(٤) وهو حاصلُ عبارة ابن جني في تعليقه لهذا الحرف الغريب كما في «المحتسب» (٢: ٢٣٢).

أنه أمرٌ يُستحيا من كَشْفِهِ، فيُكنى عنه كما يُكنى عما يُستسَمَجُ الإفصاحُ به، وللسَّترِ على داودَ عليه السلام، والاحتفاظُ بِحُرْمَتِهِ. ووجهُ التمثيلِ فيه: أن مُثَلَّتْ قِصَّةُ أُورِيَا مع داودَ بِقِصَّةِ رَجُلٍ له نَعِجَةٌ واحدةٌ ولخَلِيطُهُ تسعٌ وتسعون، فأراد صاحِبُهُ تَمَمَةَ المِئَةِ فَطَمَعَ في نَعِجَةِ خَلِيطِهِ، وأرادَهُ على الخُرُوجِ من مَلِكِهَا إِلَيْهِ، وحاجَّهُ في ذلك حَاجَّةٌ حَرِيصٍ على بُلُوغِ مُرَادِهِ، والدليلُ عليه قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ﴾ [ص: ٢٤]، وإنما خَصَّ هذه القِصَّةَ؛ لِما فيها من الرَّمزِ إلى العَرَضِ بِذِكْرِ النَعِجَةِ. فإن قلت: إنما تستقيمُ طَريقَةُ التمثيلِ إذا فَسَّرَتِ الخُطابَ بِالجِدالِ، فإن فَسَّرْتَهُ بالمفاعلة من الخِطْبَةِ: لم تَسْتَقِم. قلتُ: الوجهُ مع هذا التفسيرِ أن أجعلَ النَعِجَةَ استعارَةً عن المرأة، كما استعاروا لها الشاةَ في نحوِ قوله:

أي: تعريضًا وتورية، وكلامهم أيضًا تعريضٌ وتورية، فجاء بقوله: ﴿نَعِجَةٌ﴾ تَمثِيلًا لتلك التورية؛ لأنَّ التَّعْرِيفَ أبلغُ في التَّوْبِيخِ، وإِنَّا قُلْنَا: إنَّ المُرادَ بِالتَّمثِيلِ التَّعْرِيفُ؛ لأنه فَسَّرَ التَّمثِيلَ بِهِ فيما سَبَقَ من قولِهِ: «لَمَ جَاءَتِ على طَريقِ التَّمثِيلِ والتَّعْرِيفِ دُونَ التَّصْرِيحِ»، فَعَطَفَ التَّعْرِيفَ عَلَيْهِ على سَبِيلِ البَيانِ، ولأنَّ المعنى عليه. وقولُهُ: «لما ذَكَرنا»، أي: في قولِهِ: «إِنَّ التَّامُّلَ إذا أَدَاهُ إلى الشُّعُورِ بالمُعَرَّضِ بِهِ كانَ أوقَعَ في نَفْسِهِ» إلى قولِهِ: «وَأدعى إلى التَّنْبِيهِ على الخَطَأِ فِيهِ». وقولُهُ: «وللتَّنْبِيهِ على أَنَّهُ أمرٌ يُسْتَحيا مِنْهُ» عَطَفَ على قولِهِ: «لأنَّ التَّمثِيلَ أبلغُ».

قولُهُ: (وأرادُهُ على الخُرُوجِ)، الأساس: أرادُهُ على الأمرِ، حمله عليه. والإضافةُ في «مَلِكِهَا»^(١) إلى المفعولِ.

قولُهُ: (والدليلُ عليه)، أي: على أن المُمَثَّلَ بِهِ قِصَّةُ رَجُلٍ لَهُ نَعِجَةٌ واحدةٌ، ولخَلِيطُهُ تسعٌ وتسعون التصريحُ بِذِكْرِ الخُلَطَاءِ في قولِهِ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ﴾؛ لأنَّ ظاهرَ قولِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً﴾^(٣) الآية، ليسَ فِيهِ معنى الخُلَطَةِ.

(١) في النسختين (ف) و(ح): «طَلِبِهَا»، وهو خطأ.

(٢) في النسخة (ط): «وتخليطه بالتاء»، وهو تصحيف.

(٣) من قولِهِ: «التصريحُ بِذِكْرِ الخُلَطَاءِ» إلى هنا، سقط من (ف) و(ح).

يَا شَاةَ مَا قَنَصِ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ
فَرَمَيْتُ غَفْلَةً عَيْنِهِ عَنْ شَاتِهِ

وشبَّهها بالنَّعْجَةِ مَنْ قَالَ:

قوله: (يَا شَاةَ مَا قَنَصِ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ)، أَخْرَجَهُ:

حَرُمْتَ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمِ

الشَّعْرُ لَعَنَتْرَةَ، قَالَ الزَّوْزَنِيُّ: «مَا» صِلَةٌ زَائِدَةٌ، وَالشَّاةُ كِنَايَةٌ عَنِ الْمَرْأَةِ، يَقُولُ: يَا هُوَ لَاءِ اشْهَدُوا شَاةَ قَنَصِ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ، فَتَعَجَّبُوا مِنْ حُسْنِهَا وَجَمَالِهَا فَإِنَّهَا قَدْ حَازَتْ أُمَّ الْجَمَالِ، وَالْمَعْنَى: هِيَ حَسَنَاءٌ جَمِيلَةٌ مُقْنَعَةٌ لِمَنْ كَلَفَ وَشَغِفَ بِحُبِّهَا، وَلَكِنَّهَا حَرُمْتَ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا حَلَّتْ^(١).

قَالَ الْأَنْبَارِيُّ: الْقَنَصُ: الصَّيْدُ. وَالشَّاةُ مَنْصُوبٌ عَلَى النَّدَاءِ، أَي: شَاةَ مَنْ اقْتَنَصَهَا فَقَدْ غَنِمَ، وَاللَّامُ صِلَةٌ «قَنَصِ»، لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ: لِمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهَا، وَحَرُمْتَ عَلَيَّ: لَمْ أَقْدِرْ؛ لِأَنَّهَا مِنْ قَوْمِ أَعْدَاءِ^(٢).

قوله: (فَرَمَيْتُ غَفْلَةً عَيْنِهِ عَنْ شَاتِهِ)، تَمَامُهُ لِلْأَعْمَى:

فَأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِهَا وَطِحَالَهَا^(٣)

أَي: فَصَدْتُ غَفْلَتُهُ عَنْ أَمْرَاتِهِ. طِحَالَهَا، أَي: أَصَبْتُ طِحَالَهَا، وَلَا يَجُوزُ خَفْضُهُ؛ لِأَنَّ الطِّحَالَ لَا حَبَّةَ لَهُ. وَالْبَيْتُ بِتَمَامِهِ أَنْشَدَهُ الزَّجَّاجُ^(٤).

(١) «شرح المعلقات السبع» للزوزني، ص ٢١٦.

(٢) «شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» لأبي بكر بن الأنباري، ص ٣٥٣-٣٥٤.

(٣) «ديوان الأعشى» ص ٧٧، من قصيدته الجيدة في مدح قيس بن معد يكرب، ومطلعها:

رَحَلْتُ سَمِيَّةَ غُدُوَّةِ أَجْمَالِهَا غَضِبِي عَلَيْكَ فَمَا تَقُولُ بَدَا لَهَا؟

(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٢٦).

كِنَعَاجِ الْمَلَا تَعَسَّفَنَ رَمَلًا

لولا أن ﴿الْخُلَطَاءَ﴾ ياأباه،

قوله: (كِنَعَاجِ الْمَلَا تَعَسَّفَنَ رَمَلًا)، أوْلُهُ:

قُلْتُ إِذْ أَقْبَلْتَ وَزَهْرٌ تَهَادَى

بعده:

قَدْ تَنْقَبْنَ بِالْحَرِيرِ وَأَبْدَيْ - مِنْ عُيُونَا حُورَ الْمَدَاعِجِ نُجَلًا^(١)

التَّهَادِي: أَنْ يَمْشِي بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهَا لَضَعْفِهِ. وَالْمَلَا: الصَّحْرَاءُ الْوَاسِعَةُ. أَي: هُوَلَاءِ النَّسْوَةِ يَمْشِينَ مَشْيَ نَعَاجِ الْوَحْشِ إِذَا وَقَعَتْ فِي الرَّمْلِ.

قوله: (لولا أن ﴿الْخُلَطَاءَ﴾ ياأباه)، يعني: إِنْ فُسِّرَ الْخِطَابُ بِالْمُفَاعَلَةِ مِنَ الْخِطْبَةِ، وَأُجْرِبَتِ النَّعَاجُ عَلَى حَقِيقَتِهَا لَمْ يَسْتَقِمْ؛ لِأَنَّ الْخِطْبَةَ إِنَّمَا تَكُونُ فِي التَّرْوِجِ وَالتَّرْوِجِ، فَهِيَ غَيْرُ مُنَاسِبَةٍ لِلنَّعْجَةِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَإِنْ جُمِلَتِ النَّعَاجُ عَلَى النَّسَاءِ اسْتِعَارَةً أَبَاهُ ذِكْرُ الْخُلَطَاءِ؛ لِأَنَّ الْخُلَطَاءَ غَيْرُ مُنَاسِبَةٍ فِي النَّسَاءِ الْحَلَالِ، فَالْوَجْهُ أَنْ يُقَطَعَ ذِكْرُ الْخُلَطَاءِ^(٢) عَنِ التَّمْثِيلِ؛ لِيَكُونَ تَمَثِيلًا آخَرَ مُسْتَقْلَلًا فَيَصِح.

وقلت: وكذا ياأباه إذا جعل التشبيه تمثيلاً، ويجرى الخطاب على مخاطبة المحاج المجدل وتترك النعاج على حقيقتها؛ لأن الوجه حينئذ أمر توهمي متترع من أمور جمّة، وقد لمحت الخلطة في الممثل به، ومن ثم قال الواحدي: ظنّ داود أنّها شريكان فلذلك قال: ﴿وَإِنَّ كَبِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾^(٣) [ص: ٢٤].

وإذا لمح في المشبه به يجب أن يلّمح في المشبه أيضاً. وقال صاحب «المفتاح»: والذي نحن بصدده من الوصف غير الحقيقي أحوج منظور فيه إلى التأمل الصادق من ذوي بصيرة

(١) البيتان لعمر بن أبي ربيعة في «ديوانه» ص ٤٩٨، وانظر: «الكامل» للمبرد (١: ٢٥٤).

(٢) من قوله: «لأن الخلطة غير مناسبة» إلى هنا، سقط من (ح).

(٣) «التفسير الوسيط» للواحدي (٣: ٥٤٧).

إِلَّا أَنْ يَضْرِبَ دَاوُدُ الْخُلَطَاءَ ابْتِدَاءً مَثَلًا لَهُمْ وَلَقَصَّتَهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَيْفَ صَحَّ مِنْهُمْ أَنْ يُخْرِجُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِيَا

نَاقِدَةٌ وَرُؤْيَا ثَابِتَةٌ لِالتَّبَاسُهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَاضِعِ بِالْعَقْلِيِّ الْحَقِيقِيِّ لِاسْمِهَا الْمَعَانِي الَّتِي يُنْتزَعُ مِنْهَا، فَرَبَّمَا انْتزَعَ مِنْ ثَلَاثَةِ فَأَوْرَثَ الْخَطَأَ لَوْجُوبِ انْتِزَاعِهِ مِنْ أَكْثَرِ^(١)، وَلَعَلَّ الظَّاهِرَ أَنْ يُجْعَلَ التَّشْبِيهُ مِنَ الْمُرَكَّبِ الْعَقْلِيِّ؛ لِأَنَّ الْوَجْهَ حَيْثُ هُوَ الزُّبْدَةُ وَالْخُلَاصَةُ مِنَ الْمَجْمُوعِ، وَهُوَ إِظْهَارُ الْبَغْيِ وَالظُّلْمِ وَتَقْبِيحُ أَمْرِ الْبَاغِي وَالظَّالِمِ، فَلَا يَدْخُلُ فِي الْمَعْنَى الْخَلْطُ، وَإِنْ شِئْتَ فَجَرِّبْ هَذَا مِنْ قَوْلِ الْمُصَنِّفِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْبِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، الْآيَةَ. فَإِنَّهُ حِينَ جَعَلَ الْوَجْهَ عَقْلِيًّا قَالَ: وَمَثَلُ نَفَقَةٍ هُوَ لَاءٍ فِي زَكَاتِهَا عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ جَنَّةٍ، وَحِينَ جَعَلَ الْوَجْهَ وَهْمِيًّا قَالَ: أَوْ مَثَلُ حَالِمٍ عِنْدَ اللَّهِ بِالْجَنَّةِ عَلَى الرَّبْوَةِ، وَنَفَقَتُهُمْ الْكَثِيرَةَ وَالْقَلِيلَةَ بِالْوَابِلِ وَالظَّلِّ، وَكَمَا أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَطْرَيْنِ يُضَاعِفُ أَكْلَ الْجَنَّةِ، فَكَذَلِكَ نَفَقَتُهُمْ كَثِيرَةٌ كَانَتْ أَوْ قَلِيلَةً بَعْدَ أَنْ يُطَلَّبَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ زَاكِيَةٌ عِنْدَ اللَّهِ زَائِدَةٌ فِي زُلْفَاهُمْ^(٢)، وَعَلَى هَذَا قَوْلُهُ بَعْدَ هَذَا: «وَقِيلَ: إِنَّ الْخَصْمَيْنِ كَانَا مِنَ الْإِنْسِ، وَكَانَتْ الْخُصُومَةُ عَلَى الْحَقِيقَةِ بَيْنَهُمَا، إِمَّا كَانَا خَلِيطَيْنِ فِي الْغَنَمِ، وَإِمَّا كَانَا أَحَدَهُمَا مُوسِرًا» إِلَى آخِرِهِ.

الانْتِصَافُ: إِذَا جُعِلَ تَمَثِيلًا كَانَ الَّذِي سَبَقَ إِلَى فَهْمِ دَاوُدَ مِنْهُ ظَاهِرُهُ فِي التَّعَاجُ وَالشَّاءِ، ثُمَّ انْتَقَلَ عَنْهُ إِلَى فَهْمِ تَمَثِيلِهِ بِحَالِهِ، وَعَلَى الْاسْتِعَارَةِ يَكُونُ قَدْ فَهِمَ التَّحَاكُمَ فِي النِّسَاءِ ثُمَّ اسْتَشْعَرَ أَنَّهُ الْمُرَادُ^(٣).

قَوْلُهُ: (إِلَّا أَنْ يَضْرِبَ دَاوُدُ الْخُلَطَاءَ ابْتِدَاءً مَثَلًا لَهُمْ)، يَعْنِي: يَصِحُّ جَعْلُهَا مُسْتَعَارًا إِذَا جُعِلَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ كَبِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾ [ص: ٢٤]، تَدْبِيرًا لِلْكَلَامِ عَلَى سَبِيلِ التَّمَثِيلِ، كَقَوْلِ الْخَطِيبَةِ^(٤):

(١) «مفتاح العلوم» ص ٣٤٩.

(٢) انظر: (٣: ٥٢٥).

(٣) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ٨٥).

(٤) كذا قال المصنف رحمه الله، وهو وهم، فإن البيت للناطقة الذبياني في «ديوانه» ص ٧٤.

لم يَتَلَبَّسُوا مِنْهُ بِقَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ وَلَا هُوَ مِنْ شَأْنِهِمْ؟ قلت: هو تصويرٌ للمسألة وفرض لها، فصوَّرها في أنفُسِهِمْ وكانوا في صُورَةِ الْأَنْسَاءِ، كما تقولُ في تصويرِ المسائل: زيدٌ له أربعونَ شاةً، وعمروٌ له أربعونَ، وأنتِ تشيرُ إليهما، فخلطتاها وحالَ عليها الحَوْلُ، كمَّ يَجِبُ فِيهَا؟ وما لزيدٍ وعمروٍ سَبَدٌ ولا لَبَدٌ. وتقولُ أيضًا في تصويرها: لي أربعونَ شاةً ولكَ أربعونَ فخلطتاها، وما لكما من الأربعينَ أربعةً ولا رُبْعُها. فإن قلت: ما وجهُ قِراءَةِ ابنِ مسعودٍ: (ولي نَعِجَةٌ أَنْثَى)؟ قلت: يقال: امرأةٌ أَنْثَى؛ لِلْحَسَنَاءِ الْجَمِيلَةِ. والمعنى: وصفها بالعِراقَةَ في لِينِ الْأُنْثَى وفُتُورِها، وذلك أَمْلَحُ لها وأزِيدُ في تَكْثُرِها وتثنيها، ألا ترى إلى وصفهم لها بِالْكَسُولِ وَالْمِكْسَالِ، وقولِهِ:

فَتَوَرُّ الْقِيَامِ قَطِيعُ الْكَلَامِ

وَلَسْتَ بِمُسْتَبِقٍ أَحَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعَبِ أَيِّ الرَّجَالِ الْمُهَذَّبِ؟

وإليه الإشارة بقوله: «قَصَدَ بِهِ الْمَوْعِظَةَ الْحَسَنَةَ وَالتَّرْغِيبَ فِي إِشَارِ عَادَةِ الْخُلْطَاءِ الصُّلْحَاءِ».

قوله: (وَأَنْتِ تُشِيرُ إِلَيْهِمَا)، أي: تقول: هذا، وتُشيرُ إلى زيدٍ وعمرو.

قوله: (وما لزيدٍ وعمرو سَبَدٌ ولا لَبَدٌ)، قال الجوهري: أي: لا قَلِيلٌ ولا كَثِيرٌ. عن الْأَصْمَعِيِّ: السَّبَدُ مِنَ الشَّعْرِ، وَاللَّبَدُ مِنَ الصُّوفِ. فالسَّبَدُ كِنَايَةٌ عَنِ الْمَعْرِزِ، وَاللَّبَدُ عَنِ الضَّانِ.

قوله: (بِالْكَسُولِ وَالْمِكْسَالِ)، الجوهري: الكَسَلُ، التَّثاقُلُ عَنِ الْأَمْرِ. وامرأةٌ مِكْسَالٌ: لا تَكَادُ تَبْرُحُ مَجْلِسِها، وهو مَدْحٌ لها، مثل: «نُؤُومُ الضَّحَى».

قوله: (فَتَوَرُّ الْقِيَامِ قَطِيعُ الْكَلَامِ)، تمامُهُ:

لُعُوبُ الْعِشَاءِ إِذَا لَمْ تَنَمَّ

بَعْدَهُ:

تَبَرُّؤُ النَّسَاءِ بِحُسْنِ الْحَدِيثِ وَدَلُّ رَخِيمٍ وَخُلِقَ عَمَمٌ (١)

(١) لم أمتد إلى قائل البيتين.

وقوله:

تَمَثِّي رُوَيْدًا تَكَادُ تَنْعَرِفُ

قَطِيعُ الْكَلَامِ: أَي: لِينُهُ وَضَعْفُهُ. تَبَزُّ؛ أَي: تَغْلِبُ وَتَسْبِقُ. وَالدَّلَالُ: الْعَنْجُ وَالشَّكْلُ. وَخُلِقَ عَمَمٌ؛ أَي: تَامٌ^(١).

قوله: (تَمَثِّي رُوَيْدًا تَكَادُ تَنْعَرِفُ)، أَوْلُهُ:

مَا أَنْسَ سَلَمَى عَدَاةً تَنْصَرِفُ

وَيُرَوَى^(٢): «تَنْعَرِفُ» بِالْغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ، الْغَرْفُ: غَرْفُكَ الْمَاءَ بِالْيَدِ، فَرَسٌ غَرَّافٌ: كَثِيرُ الْأَخْذِ بِقَوَائِمِهِ. وَصَفَهَا بِالْأَنَاةِ وَالتُّودَةِ وَأَنَّهَا تَكَادُ تَنْعَرِفُ مِنَ الْأَرْضِ بِوَطْئِهَا إِيَّاهَا، يُقَالُ: عَرَفْتُ السَّيِّءَ فَانْعَرَفَ - بِالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ - أَي: قَطَعْتُهُ فَانْقَطَعَ. قَالَ قَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ فِي مَعْنَاهُ:

تَنَامُ عَنْ كُبْرٍ شَأْنِهَا فِإِذَا قَامَتْ رُوَيْدًا تَكَادُ تَنْعَرِفُ^(٣)

قَالَ صَاحِبُ «الْإِتِّصَافِ»: قَوْلُهُ: «وَلَيْ نَجَّةٌ»، أَوْرَدَهُ لِتَقْلِيلِ مَا عِنْدَهُ وَحَقَارَتِهِ، فَكَيْفَ وَصَفَ مَا عِنْدَهُ بِالْحُسْنِ الَّذِي يُوجِبُ عُدْرَ خَصْمِهِ فِي طَلْبِهِ؟ وَلِذَلِكَ جَاءَتْ الْقِرَاءَةُ الْمَشْهُورَةُ بِحَذْفِ ذَلِكَ، أَي: «أَنْثَى»^(٤).

(١) من قوله: «قَطِيعُ الْكَلَامِ: أَي لِينُهُ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح).

(٢) أَي: فِي الْبَيْتِ وَفِي نَسْخِ «الْكَشَافِ» أَيْضًا، وَالنَّسْخَةُ الْمَعْتَمَدَةُ عِنْدَ الْمُؤَلِّفِ: بِالْعَيْنِ، وَفِي الْأَصْلِ الْخَطِي الَّذِي بَيْنَ أَيْدِينَا: بِالْغَيْنِ.

(٣) دِيوَانُ قَيْسِ بْنِ الْخَطِيمِ ص ١٠٦، لَكِنَّ الرِّوَايَةَ فِيهِ بِالْعَيْنِ الْمَعْجَمَةِ وَليست بِالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ وَهُوَ عَلَى الْجَادَةِ فِي «الْأَعْيَانِ» (٣: ٢٤)، وَفَسَّرَهُ الشَّارِحُ بِقَوْلِهِ: تَسْقُطُ. وَرَوَى: «تَكَادُ تَنْقُصُ» كَمَا فِي حَوَاشِي الدِّيْوَانِ، وَبَعْدَهُ:

حَوَرَاءُ جَيِّدَاءُ يُسْتَضَاءُ بِهَا كَأَنَّهَا خَسُوطٌ بَانَةٌ قَصِيفُ

قلت: الخوط: القضييب. والقصيف: الناعم الممتلي.

(٤) «الْإِتِّصَافُ بِحَاشِيَةِ الْكَشَافِ» (٤: ٨٥).

[﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْمِكَ إِلَيَّ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّتَابٍ ﴾ [٢٤-٢٥]

﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ جوابُ قَسَمٍ محذوف. وفي ذلك استنكارٌ لفعل خَلِيطه، وتهجينٌ لَطَمِعه. والسؤال: مصدرٌ مضاف إلى المفعول، كقوله تعالى: ﴿مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ [فصلت: ٤٩]، وقد ضُمِّن معنى الإضافة فَعُدِّي تَعْدِيَّتِهَا، كأنه قيل بإضافة ﴿نَعْمِكَ إِلَيَّ نِعَاجِهِ﴾ على وجه السؤال والطلب. فإن قلت: كيف سارع إلى تصديق أحدِ الخصمَيْنِ حتى ظَلَمَ الآخرَ قبل استماعِ كلامه؟ قلت: ما قال ذلك إلا بعد اعترافِ صاحبه، لكنه لم يُحَكِّ في القرآن؛ لأنه معلوم. ويُروى: أنه قال: أنا أريدُ أن آخذَها منه وأُكْمِلَ نِعَاجِي مئةً، فقال داوودُ: إن رُمْتَ ذلك ضربنا منك هذا وهذا، وأشار إلى طَرَفِ الأنفِ والجَبْهَةِ، فقال: يا داوودُ، أنت أحقُّ أن يُضْرَبَ منك هذا وهذا، وأنت فعلتَ كَيْتَ وكَيْت، ثم نظر داوودُ فلم يَرِ أَحَدًا، فَعَرَفَ ما وَقَعَ فِيهِ. والخُلَطَاءُ: الشُّرَكَاءُ الَّذِينَ خَلَطُوا أَمْوَالَهُمْ، الواحد: خَلِيطٌ، وهي الخُلُطَةُ، وقد غَلَبَتْ في الماشية؛ والشافعيُّ رحمه الله يَعْتَبِرُهَا، فإذا كان الرَّجُلَانِ خَلِيطَيْنِ فِي مَاشِيَةٍ بَيْنَهُمَا غَيْرَ مَقْسُومَةٍ، أو لِكُلِّ

وقلت: قد مرَّ^(١) أن مثل هذه الزيادة قرينة لبيان إرادة المقصود من اللفظ، فذكره هاهنا لمزيد تحقير ما عنده فيكون تَمِيمًا للمعنى الذي في جانبِ المُشَبَّهِ والمُبَالِغَةِ فِي الظُّلْمِ كما سَبَقَ، ويُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْمِكَ إِلَيَّ نِعَاجِهِ﴾ [ص: ٢٤]، حيث صرَّحَ بِذِكْرِ النَّعْجَةِ وَالنَّعَاجِ.

قوله: (على وجه السؤال والطلب)، أي: السؤال سؤالٌ مُطَالِبَةٌ ومُغَالِبَةٌ، لا سؤالٌ خُضُوعٌ وتَفَضُّلٌ؛ إذ لو كان كذا لم يَكُنْ مَعَارَظَةً.

(١) قوله: «قد مرَّ» سقط من النسخة (ط).

واحد منهما ماشية على حدة إلا أن مُراحهما ومسقاهما وموضع حلبهما والراعي والكلب واحد والفحولة مختلطة: فهما يُزكَّيان زكاة الواحد؛ فإن كان لهما أربعون شاة فعليهما شاة، وإن كانوا ثلاثة ولهم مئة وعشرون لكل واحد أربعون؛ فعليهم واحدة كما لو كانت لواحد. وعند أبي حنيفة: لا تُعتبر الخلطة، والخليط والمنفرد عنده واحد، ففي أربعين بين خليطين: لا شيء عنده، وفي مئة وعشرين بين ثلاثة: ثلاث شياه. فإن قلت: فهذه الخلطة ما تقول فيها؟ قلت: عليهما شاة واحدة، فيجب على ذي النعجة أداء جزء من مئة جزء من الشاة عند الشافعي رحمه الله، وعند أبي حنيفة لا شيء عليه. فإن قلت: ماذا أراد بذكر حال الخلطاء في ذلك المقام؟ قلت: قصد به الموعدة الحسنة والترغيب في إثارة عادة الخلطاء الصالحاء الذين حكم لهم بالقلّة، وأن يكره إليهم الظلم والاعتداء الذي عليه أكثرهم، مع التأسف على حالهم، وأن

قوله: (إلا أن مُراحهما)، المُغرب: أراح الإبل: ردها إلى المراح، وهو موضع إراحة الإبل والبقر والغنم، وفتح الميم خطأ^(١).

قوله: (ماذا أريد^(٢) بذكر حال الخلطاء)، أي: ما فائدة التذييل بقوله: ﴿وَإِنْ كَثُرَ مِنْ الْخُلَطَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾؟ فأجاب: أن فيها فوائد:

إحداها: أن يكون موعظة للسامع بأن يرغب في اختيار عادة الخلطاء الصالحاء لقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ كقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣].

وثانيها: أن يكون لطفًا للخلطاء المعتدين فينزعجوا عن الاعتداء.

وثالثها: أن يكون تسليّة للمظلوم.

قوله: (مع التأسف على حالهم)، أي: من شأن الخلطاء وعادتهم أن يعتدوا إلا من عصمه الله.

(١) «المغرب في ترتيب المعرب» (١: ٣٥٢).

(٢) كذا في الأصول الخطية، وكذا هو في نص «الكشاف» من (ط)، لكن في الأصل الخطي من «الكشاف» وفي المصنوع: «أراد».

يُسَلِّي المَظْلُومَ عَمَّا جَرَى عَلَيْهِ مِنْ خَلِيطِهِ، وَأَنَّ لَهُ فِي أَكْثَرِ الخُلَطَاءِ أُسُوءَةً. وَقُرَى: (لِيَبْغِي) بِفَتْحِ اليَاءِ عَلَى تَقْدِيرِ النُّونِ الخَفِيفَةِ، وَحَذْفِهَا، كَقَوْلِهِ:

أَضْرَبَ عَنكَ الِهُمُومَ طَارِقَهَا

وهو جوابُ قَسَمٍ مَحذُوفٍ؛ وَ: (لِيَبْغِ) بِحَذْفِ اليَاءِ، اِكْتِفَاءً مِنْهَا بِالكُسْرَةِ. وَ﴿مَّا﴾ فِي ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ لِلإِبْهَامِ. وَفِيهِ تَعَجُّبٌ مِنْ قَلَّتِهِمْ. وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَتَحَقَّقَ فَائِدَتَهَا وَمَوْقِعَهَا فَاطْرَحْهَا، مِنْ قَوْلِ امرئِ القَيْسِ:

وَحَدِيثٌ مَّا عَلَى قِصْرِهِ

وَانظُرْ هَلْ بَقِيَ لَهُ مَعْنَى قَطًّا. لَمَّا كَانَ الظَّنُّ الغَالِبُ يُدَانِي العِلْمَ، اسْتَعِيرَ لَهُ.

قَوْلُهُ: (أَضْرَبَ عَنكَ الِهُمُومَ طَارِقَهَا)، تَمَامُهُ:

ضَرَبَكَ بِالسَّيْفِ قَوْنَسَ الفَرَسِ^(١)

أَي: «أَضْرَبَ» فَحَذَفَتِ النُّونُ الخَفِيفَةَ، وَ«طَارِقَهَا»: بَدَلٌ مِنْ «الِهُمُومِ» بَدَلُ البَعْضِ، وَ«قَوْنَسَ» مَوْضِعُ نَاصِيَةِ الفَرَسِ، أَي: اِدْفَعْ طَوَارِقَ الِهُمُومِ عَنِ نَفْسِكَ عِنْدَ غَشْيَانِهَا، كَمَا يُضْرَبُ قَوْنَسُ الفَرَسِ عِنْدَ الإِقْبَالِ.

قَوْلُهُ: (لِلإِبْهَامِ)، قَالَ أَبُو البَقَاءِ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [ص: ٢٤]، اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الجِنْسِ، وَالمُسْتَثْنَى مِنْهُ بَعْضُهُمْ، وَ﴿مَّا﴾ زَائِدَةٌ، وَ﴿هُرٌّ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَ«قَلِيلٌ» خَبَرُهُ. وَقِيلَ: التَّقْدِيرُ وَهُمْ قَلِيلٌ مِنْهُمْ^(٢).

قَوْلُهُ: (اسْتَعِيرَ لَهُ)، أَي: اسْتَعِيرَ الظَّنُّ مَوْضِعَ العِلْمِ لِتِلْكَ العِلَاقَةِ، وَالإِسْتِعَارَةُ يُجَوِّزُ أَنْ تَكُونَ لَفْظِيَّةً وَمَعْنَوِيَّةً، وَإِنَّمَا كَانَ بِمَعْنَى العِلْمِ؛ لِإِيقَاعِهِ عَلَى «إِنَّمَا» المُشْتَمِلَةِ عَلَى مُضَاعَفَةِ التَّأْكِيدِ، وَتَعْقِيبِ ظَنِّهِ بَعْدَ ذَلِكَ بِالإِسْتِعْفَارِ مِنْ غَيْرِ مُهْلَةٍ، وَتَسْمِيَةِ الظَّنِّ لِسَبْقِهِ بِالأَمَارَاتِ

(١) ذَكَرَهُ الزَّبِيدِيُّ فِي «تَاجِ العُرُوسِ» (قَنْص) مِنْ غَيْرِ عَزْوٍ لِأَحَدٍ. وَقِيلَ: هُوَ لِطَرْفَةِ بَنِ العَبْدِ وَأَنْكَرَهُ أَبُو حَاتِمٍ وَابْنُ بَرِّي وَقَالَا: هُوَ مَصْنُوعٌ عَلَيْهِ. انظُرْ: «شَرْحُ شَوَاهِدِ الكَشَافِ» (٤: ٨٧).

(٢) «التَّبْيَانُ فِي إِعْرَابِ القُرْآنِ» (٢: ١٠٩٩).

ومعناه: وَعَلِمَ دَاوُدُ وَأَيُّقُن ﴿أَتَمَّا فَتَنَّا﴾: أَنَا ابْتَلَيْنَاهُ لَا مَحَالَةَ بِامْرَأَةِ أَوْرِيَا: هَلْ يَثْبُتُ أُمُّ يَزُلُّ؟ وَقُرِي: (فَتْنَاهُ) بِالْتَشْدِيدِ لِلْمُبَالَغَةِ، وَ: (أَفْتَنَاهُ)، مِنْ قَوْلِهِ:

لَئِنْ فَتَنْتَنِي هِيَ بِالْأَمْسِ أَفْتَنْتَ

و(فَتْنَاهُ) وَ(فَتْنَاهُ)، عَلَى أَنَّ الْأَلْفَ ضَمِيرُ الْمَلَكَيْنِ. وَعَبَّرَ بِالرَّاكِعِ عَنِ السَّاجِدِ؛

الظَّاهِرَةُ عَلَى وَقُوعِهِ فِي الْفِتْنَةِ مِنْ تَسْوِيرِ الْخُصَمَاءِ الْمِحْرَابَ وَفَزَعِهِ مِنْهُمْ ثُمَّ تَمَثِيلِهِمْ حَالَتَهُ بِحَالَةِ الْخُلَطَاءِ وَحُكْمِهِ عَلَى أَحَدِ الْخُصَمَاءِ بِالظُّلْمِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَوْلُهُ: (وَقُرِي: «فَتْنَاهُ» بِالْتَشْدِيدِ)، قَالَ ابْنُ جِنِّي: هِيَ قِرَاءَةُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَمَّا «فَتْنَاهُ» فَهِيَ قِرَاءَةُ قَتَادَةَ وَأَبِي عَمْرٍو فِي رِوَايَةِ عَبْدِ الْوَهَّابِ^(١)، وَعَنْ بَعْضِهِمْ^(٢) «فَتْنَاهُ» عَلَى وَزْنِ ضَرْبَاهُ وَ«فَتْنَاهُ» عَلَى وَزْنِ: فَرَقَاهُ. وَأَنْكَرَ الْأَصْمَعِيُّ أَفْتَنْتَ - بِالْأَلْفِ - يُقَالُ: فَتَنْتَهُ الْمَرْأَةُ وَأَفْتَنْتَ: إِذَا دَلَّهَتْهُ وَأَحَبَّهَا.

قَوْلُهُ: (لَئِنْ فَتَنْتَنِي هِيَ بِالْأَمْسِ أَفْتَنْتَ)، تَمَامُهُ:

سَعِيدًا فَأَمْسَى قَدْ قَلَى كُلَّ مُسْلِمٍ

بَعْدَهُ:

وَأَلْقَى مَصَابِيحَ الْقِرَاءَةِ وَاشْتَرَى وَصَالَ الْغَوَانِي بِالْكِتَابِ الْمُتَمَمِّ^(٣)

وَأَرَادَ بِهِ سَعِيدَ بَنِ جُبَيْرٍ: نَمَنِمَ الشَّيْءَ نَمْنَمَةً، أَي: رَقَّشَهُ وَزَخَرَفَهُ، وَثَوَّبُ مُنَمِّمٍ، أَي: مُؤَشِّئِي.

قَوْلُهُ: (وَعَبَّرَ بِالرَّاكِعِ عَنِ السَّاجِدِ)، أَي: كَتَبَ بِالرَّاكِعِ عَنِ السَّاجِدِ لِمَا بَيْنَ الرُّكُوعِ

(١) وَهُوَ عَبْدُ الْوَهَّابِ بَنُ عَطَاءِ بَنُ مُسْلِمِ الْخَفَّافِ الْعِجْلِيُّ (ت ٢٠٤هـ) ثَقَّةٌ مِنْ ثِقَاتِ الْقُرَّاءِ، وَهُوَ مِنَ الرَّوَاةِ عَنِ أَبِي عَمْرٍو بَنِ الْعَلَاءِ. لَهُ تَرْجُمَةٌ فِي «غَايَةِ النِّهَايَةِ» لِابْنِ الْجَزْرِيِّ (١: ٤٧٩).

(٢) «الْمَحْتَسِبُ» (٢: ٢٣٢).

(٣) الْبَيْتَانِ لِأَعْمَشَى هَمْدَانَ كَمَا فِي «شَرْحِ شَوَاهِدِ الْكِشَافِ» (٤: ٨٨).

لأنه يَنْحني ويخضع كالساجد، وبه استشهد أبو حنيفة وأصحابه في سجدة التلاوة، على أن الركوع يقوم مقام السجود. وعن الحسن: لأنه لا يكون ساجداً حتى يركع، ويجوز أن يكون قد استغفر الله لذنبه وحرّم بركتي الاستغفار والإنابة، فيكون المعنى: وخرّ للسجود راعياً، أي: مُصلياً؛ لأن الركوع يُجعل عبارة عن الصلاة. ﴿وَأَنَابَ﴾: وَرَجَعَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّوْبَةِ وَالتَّنَصُّلِ. وَرُوي: أَنَّهُ بَقِيَ سَاجِداً أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَّا لِصَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ أَوْ مَا لَا بَدَأَ مِنْهُ، وَلَا يَرِقًا دَمْعُهُ حَتَّى نَسَبَتِ الْعُشْبُ مِنْ دَمْعِهِ إِلَى رَأْسِهِ، وَلَمْ يَشْرَبْ مَاءً إِلَّا وَثَلَاثَةَ دَمْعٍ، وَجَهَدَ نَفْسَهُ رَاغِبًا إِلَى اللَّهِ

وَالسُّجُودِ مِنَ الْإِنْجَاءِ وَالخُضُوعِ، وَلَمَّا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُنَاسِبَةِ. اسْتَشْهَدَ أَبُو حَنِيفَةَ فِي سَجْدَةِ التَّلَاوَةِ عَلَى أَنَّ الرُّكُوعَ يَقُومُ مَقَامَ السُّجُودِ^(١)، قَالَ صَاحِبُ التَّقْرِيبِ: وَفِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّهُ بَعْدَ تَعْبِيرِهِ بِهِ عَنِ السَّاجِدِ لَا يَبْقَى اسْتِشْهَادُ، لَعَلَّهُ اسْتَشْهَدَ بِإِطْلَاقِ الْآيَةِ.

وقلت: لا إطلاق؛ لأن الركوع مُقَيَّدٌ بِالخُرُورِ الَّذِي هُوَ السُّقُوطُ، فَلَا يُحْمَلُ عَلَى مُجَرَّدِ الرُّكُوعِ. وَفِي «الرَّوْضَةِ»، قَالَ أَصْحَابُنَا: يُسْتَحَبُّ أَنْ يَسْجُدَ فِي ﴿صَّ﴾ خَارِجَ الصَّلَاةِ، وَلَوْ سَجَدَ فِي الصَّلَاةِ جَاهِلًا أَوْ نَاسِيًا لَمْ تَبْطُلْ صَلَاتُهُ، وَإِنْ كَانَ عَامِدًا بَطَلَتْ عَلَى الْأَصَحِّ^(٢).

قوله: (حرّم)، أي: دخل في التّحرّيم، يُقال: أحرّم بالصلاة وحرّم، ومنه: تكبيره التّحرّيم.

قوله: (والتّنصّل)، هو: الاعتذار والتبرؤ من الذنب، ويُروى: بالتّنقل، يُقال: انتقل من الشيء، انتقى منه.

قوله: (ولا يرقاً دمعُهُ)، أي: لا يسكن.

الجوهري: يُقال: رَقَا الدَّمْعُ يَرِقًا رَقًا وَرُقُوءًا؛ سَكَنَ، وَكَذَلِكَ الدَّمُّ.

(١) وعلله مُلا علي القاري من الحنفية بقوله: «لأن الركوع وُضِعَ للتواضع وهو المقصود من السجدة».

انتهى من «فتح باب العناية» (١: ٣٨٠).

(٢) «روضة الطالين» (١: ٣١٩).

تعالى في العفو عنه حتى كاد يهلك، واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له: إيشا على ملكه ودعا إلى نفسه، واجتمع إليه أهل الزبغ من بني إسرائيل، فلما عُفِرَ له حاربه فهزّمه. ورُوي: أنه نَقَشَ خطيئته في كفه؛ حتى لا ينساها. وقيل: إنَّ الخصمَيْنِ كانا من الإنس، وكانت الخصومة على الحقيقة بينهما: إما كانا خليطَيْنِ في الغنم، وإما كان أحدهما موسراً وله نسوان كثيرة من المهائر والسّراري، والثاني: مُعسراً ما له إلا امرأة واحدة، فاستنزله عنها، وإنما فزع لدخولها عليه في غير وقت الحكومة أن يكونا مغتالين، وما كان ذنبُ داودَ إلا أنه صدّق أحدهما على الآخر وظلّمه قبل مسألتِهِ.

[﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [٢٦]

﴿خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي: استخلفناك على الملك في الأرض، كمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض البلاد ويملكه عليها. ومنه قولهم: خلفاء الله في أرضه. و﴿جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ مَن كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْقَائِمِينَ بِالْحَقِّ. وفيه دليل على أنَّ حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير. ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾

قوله: (وما كان ذنبُ داودَ إلا أنه صدّق أحدهما على الآخر وظلّمه قبل مسألتِهِ)، الانتِصاف: قصَدَ الزُّخْرِيُّ فِي كَلَامِهِ كُلِّهِ: تَنْزِيَهُ دَاوُدَ عَن ذَنْبِ يَبِعْتُهُ عَلَيْهِ شَهْوَةَ النِّسَاءِ، فَاجْرَى هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى ظَاهِرِهَا، وَجَعَلَ الذَّنْبَ عَجَلَتَهُ فِي الْحُكْمِ؛ لِأَنَّ الْبَاعِثَ عَلَيْهَا التَّهَابَ الْعَضْبَ لِلْحَقِّ، وَهُوَ أَحْفَ مِنْ الْأَوَّلِ، وَيُوَيِّدُهُ وَصِيَّتُهُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦]، فَمَا جَرَتْ الْوَصِيَّةُ بِذَلِكَ إِلَّا وَالَّذِي صَدَرَ مِنْهُ مِنْ هَذَا النَّوعِ. وَالْمُخْتَارُ: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مُتْرَهُونَ عَنِ الصَّغَايِرِ، وَالتِّيَّاسُ الْمُخْلِصُ لِمِثْلِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ هُوَ الْحَقُّ الْأَبْلَجُ وَالسَّبِيلُ الْأَنْهَجُ^(١).

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ٨٩).

أي: بحُكْمِ الله تعالى؛ إذ كُنْتَ خَلِيفَتَهُ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾ هوى النفسِ في قضاك وغيره، مما تَتَصَرَّفُ فِيهِ مِنْ أَسْبَابِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا ﴿فِيضْلِكَ﴾ الهوى فيكون سَبَبًا لَضَلَالِكَ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: عن دلائله التي نَصَبَهَا فِي الْعُقُولِ، وعن شرائعه التي شَرَعَهَا وَأَوْحَى بِهَا. و﴿يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ متعلق بـ ﴿نَسُوا﴾، أي: بنسيانهم يومَ الحساب، أو بقوله: ﴿لَهُمْ﴾، أي: لهم عذابٌ يومَ القيامة بسببِ نسيانهم؛ وهو ضلالهم عن سبيل الله.

وعن بعضِ خلفاءِ بني مروان: أنه قال لعمر بن عبد العزيز، أو للزُّهري: هل سمعتَ ما بَلَّغْنَا؟ قال: وما هو؟ قال: بَلَّغْنَا أَنَّ الْخَلِيفَةَ لَا يَجْرِي عَلَيْهِ الْقَلَمُ وَلَا تُكْتَبُ عَلَيْهِ مَعْصِيَةٌ. فقال: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، الْخُلَفَاءُ أَفْضَلُ أَمْ الْأَنْبِيَاءُ؟ ثم تلا هذه الآية.

[﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾

[٢٧]

﴿بَطْلًا﴾: خَلَقًا بَاطِلًا، لَا لِفَرَضٍ صَحِيحٍ وَحِكْمَةٍ بِالْغَةِ. أو: مُبْطِلِينَ عَابَثِينَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]، وتقديره: ذوي باطل، أو عبثًا، فوضع باطلًا موضعَه،

قوله: (أي: بحُكْمِ الله إذ كُنْتَ خَلِيفَتَهُ)، يُرِيدُ: أَنَّ الْأَمْرَ بِالْحُكْمِ بِالْعَدْلِ بَعْدَ ذِكْرِ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ مُشْعِرٌ بِأَنَّ وَصْفَ الْخِلَافَةِ يَقْتَضِي الْحُكْمَ بِالْعَدْلِ، وَلِذَلِكَ رَتَّبَ الْحُكْمَ فِي التَّنْزِيلِ بِالْفَاءِ عَلَى جَعَلِهِ خَلِيفَةً.

قوله: (﴿فِيضْلِكَ﴾ الهوى)، عن بعضهم: ﴿فِيضْلِكَ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْجَوَابِ، وَقِيلَ: جَزُؤٌ عَطْفًا عَلَى النَّهْيِ، وَفَتَحَتِ اللَّامُ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنِينَ.

قوله: (خَلَقًا بَاطِلًا، لَا لِفَرَضٍ صَحِيحٍ)، قَالَ الْقَاضِي: أَي: خَلَقًا بَاطِلًا لَا حِكْمَةَ فِيهِ^(١).

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٢٨).

كما وضعوا ﴿هَيْتًا﴾ [النساء: ٤] موضع المصدر، وهو صفة، أي: ما خلقناها وما بينهما للعبث واللعب، ولكن للحق المبين؛ وهو أن خلقنا نفوسًا أو دعناها العقل والتمييز، ومنحناها التمكين، وأزحنا عيها ثم عرّضناها للمنافع العظيمة بالتكليف، وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أفعالهم. و﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى خلقها باطلاً. والظن: بمعنى المظنون، أي: خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا. فإن قلت: إذا كانوا مقرّين بأن الله خالق السماوات والأرض وما بينهما بدليل قوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] فبِمَ جُعِلُوا ظانّين أنه خلقها للعبث لا للحكمة؟ قلت: لما كان إنكارهم للبعث والحساب والثواب والعقاب، مؤدّيًا إلى أن خلقها عبثًا وباطل، جُعِلُوا كأنهم يظنون ذلك، ويقولونه؛ لأنّ الجزاء هو الذي سبقت إليه الحكمة في خلق العالم من رأسها، فمن جحدّه فقد جحد الحكمة

قوله: (كما وضعوا ﴿هَيْتًا﴾ موضع المصدر وهو: صفة) لقوله تعالى: ﴿فَكَلُوهُ هَيْتًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤]، وهما صفتان أقيمتا مقام المصدر.

قوله: (أن خلقنا نفوسًا)، إلى قوله: (ثم عرّضناها للمنافع العظيمة) إلى آخره. قال الإمام: الآية تدل على صحة القول بالحرّ والنّشر؛ لأنه تعالى خلق الخلق إمّا للإضرار، أو للانتفاع، أو لا لهذا ولا لهذا، والأول: لا يليق بالرحيم الكريم، والثالث أيضًا: باطل؛ للعبث، فلم يبق إلا الثاني، فالانتفاع إمّا دنيوي أو آخروي، والأول باطل، والدليل المشاهدة ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ولما بطل هذا ثبت القول بوجود حياة آخروية، فكل من أنكر الحرّ والنّشر كان شاكًا في حكم الله في خلق السماوات والأرض، وهو المراد من قوله: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، والدليل عليه قوله: ﴿أَمْ جَعَلَ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، فإنها كالتفصيل لذلك المُجمَل^(١)، وإلى هذا المعنى ينظر قول المصنّف: لأنّ الجزاء هو الذي سبقت إليه الحكمة في خلق العالم من رأسها، فمن جحدّه فقد جحد الحكمة من أصلها، إلى آخره.

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣٨٧).

من أصلها، ومن جحد الحكمة في خلق العالم فقد سفه الخالق، وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره، وكان إقراره بكونه خالقا كالا إقرار.

﴿ أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [٢٨]

﴿ آء ﴾ مُنْقَطِعَةٌ، ومعنى الاستفهام فيها الإنكار، والمراد: أنه لو بطل الجزاء - كما يقول الكافرون - لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد، وأتقى وفجر، ومن سوى بينهم كان سفيها ولم يكن حكيما.

﴿ كَتَبَ آتْرَآئُهُ إِلَيْكَ مَبْرُكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [٢٩]

وَقُرئ: (مباركا)، و(لِيَدَّبَّرُوا) على الأصل، و(لِيَتَذَكَّرُوا) على الخِطَاب. وتدبَّرُ الآيات: التفكَّر فيها، والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبَّر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة؛ لأنَّ من اقتنع بظاهر المتلَّو، لم يتخلَّ منه بكثير طائل، وكان مثله كمثل من له لفحة دُرور لا يختلبها، ومهرة نُثور لا يستولدها. وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيدٌ وصبيان لا علم لهم بتأويله: حَفَظُوا حُرُوفَهُ وَضَيَّعُوا حُدُودَهُ، حتى إنَّ أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا، وقد - والله - أسقطه كله؛ ما يرى للقرآن عليه أثرٌ في خلقٍ ولا عملٍ، والله ما هو بحفظ

قوله: (لَمْ يَخَلْ)، من: حلوته بكذا فحلي به، أي: أعطيته فتناول، ومنه «حلوان الكاهن» لعطائه^(١).

قوله: (لفحة دُرور)، الجوهرية: اللقوح واللقاح - بالكسر - الإبل بأعيانها، الواحدة: لقوح، وهي: الحلوب، والمهز: ولد الفرس، والأنثى: مهرة. والنثور: الكثيرة الولد.

(١) سقط لفظ «لعطائه» من النسخة (ط).

حُرُوفِهِ وَإِضَاعَةَ حُدُودِهِ، وَاللَّهُ مَا هُوَ لِإِءِ بِالْحِكْمَاءِ وَلَا الْوَزْعَةَ، لَا كَثَرَ اللَّهُ فِي النَّاسِ مِثْلَ هُوَ لِإِءِ. اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمَتَدَبِّرِينَ، وَأَعِدْنَا مِنَ الْقُرَّاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ.

[﴿ وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ * إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصَّفِيْنَتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ [٣٠-٣٣]

وَقُرئ: (نَعِمَ الْعَبْدُ) عَلَى الْأَصْلِ، وَالْمَخْصُوصُ بِالْمَدْحِ مَحْذُوفٌ. وَعَلَّلَ كَوْنَهُ مَدْوَحًا بِكَوْنِهِ أَوْابًا رَجَاعًا إِلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ، أَوْ مُسَبِّحًا مُؤَوِّبًا لِلتَّسْبِيحِ مُرْجَعًا لَهُ؛ لِأَنَّ كُلَّ

قَوْلُهُ: (وَالْوَزْعَةَ)، أَي: الْمَانِعِينَ عَنِ النَّوَاهِي. الْأَسَاسُ: أَوْزَعْتُهُ: مَانَعْتُهُ، وَالشَّيْبُ وَازِعٌ، وَلَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ وَزْعَةٍ؛ مِنْ كَفَفَةِ عَنِ الشَّرِّ وَالْبَغْيِ، وَوَزَعَتْ نَفْسُهُ عَنِ الْجَهْلِ وَالهُوَى. قَالَ:

إِذَا لَمْ أَرْعَ نَفْسِي مِنَ الْجَهْلِ وَالصُّبَا لِيَنْفَعَهَا عِلْمِي فَقَدْ ضَرَّهَا جَهْلِي^(١)

قَوْلُهُ: (مِنَ الْقُرَّاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ)، أَي: الَّذِينَ لَيْسُوا بِحِكْمَاءَ، أَي: فُقَهَاءَ، وَلَا يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ الشَّرِّ عَمَلًا بِالْقُرْآنِ.

رُويَ أَنَّ الْحَسَنَ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ابْنُ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، لَا حُرُوفَهُ فَحَسَبَ، وَلَكِنْ مَا تَعَلَّمَ آيَةً إِلَّا وَقَدْ عَرَفَ تَأْوِيلَهَا وَجَمِيعَ مَا فِيهَا مِنْ كُلِّ دَقِيقٍ وَجَلِيلٍ بِقَدْرِ وَسِعِهِ، فَهُوَ الْقُرَّاءُ الْحَقِيقِيُّ.

قَوْلُهُ: (أَوْابًا رَجَاعًا إِلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ)، هُوَ الْوَجْهُ الْأَوَّلُ، وَقَوْلُهُ: ﴿ أَوْ مُسَبِّحًا مُؤَوِّبًا لِلتَّسْبِيحِ ﴾، هُوَ الْوَجْهُ الثَّانِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ١٩].

قَالَ: وَضَعَ ﴿أَوَّابٌ﴾ مَوْضِعَ الْمُسَبِّحِ؛ لِأَنَّ الْأَوَّابَ - وَهُوَ: التَّوَابُ الْكَثِيرُ الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى - مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يُكثِرَ ذِكْرَ اللَّهِ وَيُدِيمَ تَسْبِيحَهُ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَالسَّابِقَةِ أَنْ

(١) لَمْ أَهْتَدِ إِلَيْهِ.

مُؤَوَّبِ أَوَابٍ. والصابن: الذي في قوله:

أَلْفَ الصُّفُونِ فَمَا يَزَالُ كَانَهُ
مَمَا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرًا

وقيل: الذي يقوم على طرف سُنْبُكَ يد أو رجل: هو الْمُتَخَيِّمُ، وأما الصابنُ فالذي يجمع بين يديه. وعن النبي ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقُومَ النَّاسُ لَهُ صُفُونًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»، أي: واقفين كما خدّم الجبابرة. فإن قلت: ما معنى وصفها بانصافون؟

﴿أَوَابٌ﴾ في تلك الآية لا يجوز أن يجري على ظاهره؛ لإسناده إلى غير العقلاء، فلا بد من التأويل، بخلافه هاهنا، فإن الوجه الأول جارٍ على حقيقته.

قوله: (ألف الصُّفُونِ)، البيت^(١). يُقال: ألف هذا الفرس القيام على ثلاث قوائم وسُنْبُكَ الرَّابِعَةِ. «كسيرا»: منصوب بـ«ما يزال»، وقيل: حال من الضمير في «مما يقوم»، أي: كأنه من جنس ما يقوم على ثلاث قوائم في حال كونه كسيرا القائمة الأخرى.

قوله: (هُوَ الْمُتَخَيِّمُ)، كأنه القائم على أربع قوائم سواء، روى صاحب «المغرب» عن ابن الأعرابي: أن الخيمة عند العرب لا تكون إلا من أربعة أعواد، ثم تُسَقَفُ^(٢). الأساس: ومن المجاز: خيمت البقر، أقامت في مواضعها لا تبرح، وتخيّمت الريح في الثوب. فقوله: «هُوَ الْمُتَخَيِّمُ» خبر «الذي يقوم»، وخبر «الصابن» المُتَقَدِّمُ في قوله: «وأما الصابن فالذي يجمع يديه».

الرَّازِبُ: الصَّفَنُ: الجمع بين الشَّيْبَيْنِ ضامًا بعضهما إلى بعض، يُقال: صَفَنَ الفرس قوائمه، قال تعالى: ﴿الصَّنْفِنْتُ أَلْيَادٌ﴾ [ص: ٣١] والصفن: الوعاء الذي يجمع الخصية والصفن: دلو مجموع بحلقة^(٣).

قوله: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقُومَ النَّاسُ لَهُ صُفُونًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)، «صُفُونًا» بالنون،

(١) ذكره في «اللسان» (صفن) من غير عزو لأحد، وعزاه في «شرح شواهد الكشاف» (٤: ٩١) لامرئ

القيس، وقيل للعجاج الراجز يصف فرسًا.

(٢) «المغرب في ترتيب المعرب» (١: ٢٧٨).

(٣) «مفردات القرآن» ص ٤٨٧.

قلتُ: الصّفون لا يكاد يكون في الهُجن، وإنما هو في العرَابِ الخُلص. وقيل: وَصَفَهَا
 بالصّفون والجودة؛ لِيَجْمَعَ لها بين الوصفين المحمودين: واقفةً وجارية، يعني: إذا
 وقفت كانت ساكنةً مطمئنةً في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعًا خفافًا في جزيها.
 ورؤي: أن سليمانَ عليه السلام عَزَا أهلَ دمشقَ ونصيبين، فأصاب ألفَ فرس. وقيل:
 ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العمالقة. وقيل: خرجت من البحر لها أجنحة، فقعد
 يومًا بعدما صلى الأولى على كرسيه واستعرضها، فلم تزل تُعرّض عليه حتى غربت
 الشمسُ وغفلَ عن العصر، أو عن وِردٍ من الذّكر كان له وقت العشي، وتبيّوه فلم
 يُعلموه، فاغتمَ لِمَا فاته، فاستردّها وعقرها مقرّبًا لله، وبقي مئة، فما في أيدي الناس من
 الجيادِ فمن نسلها. وقيل: لَمَّا عقرها أبدلَه الله خيرًا منها؛ وهي الرّيحُ تجري بأمره.
 فإن قلت: ما معنى: ﴿أَحَبُّتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾؟ قلتُ: ﴿أَحَبُّتُ﴾: مضمّن معنى

الحديث، من رواية أبي داودَ عن أبي مجلز، قال: خرَجَ مُعاويةُ على ابنِ عامرٍ وعلى ابنِ
 الزُّبير، فقام ابنُ عامرٍ وجلس ابنُ الزُّبير، فقال مُعاويةُ لابنِ عامرٍ: اجلس، فإني سمعتُ
 رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَمَثَلَ لَهُ الرَّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

وعند الترمذي، قال: خرَجَ مُعاويةُ فقام عبدُ الله بنُ الزُّبيرِ وابنُ صفوان حينَ رآوه،
 فقال: اجلسا، فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَمَثَلَ لَهُ الرَّجَالُ قِيَامًا
 فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٢).

قولُه: (في الهُجن)، الجوهرية: الهُجنةُ في النَّاسِ من قِبَلِ الأُمِّ، فإذا كان الأبُّ عتيقًا
 والأُمُّ ليست كذلك، كان الولدُ هجينًا.

قولُه: (والجودة)، في «المُطبع»: الجيادُ: جمعُ جواد، وهو: الشديِدُ الحُضِرِ مِنَ الخيلِ،
 ومصدرُه: الجُودة - بالضم - وفي العمل: الجُودة - بالفتح - ويُقال: جادَ الفرسُ يَجُودُ
 جُودة، وجادَ الرَّجُلُ جُودًا. والجُودة: مصدرُ الجيِّدِ من كُلِّ شيءٍ.

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٢٩) وانظر تمامَ تحريمه في «مسند أحمد» (١٦٨٣٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٧٥٥) وقال: هذا حديثٌ حسن.

فعل يتعدى بـ «عن»، كأنه قيل: أثبتُّ حُبَّ الخير عن ذِكرِ ربِّي. أو: جعلتُ حُبَّ الخير مُجزئاً أو مُغنياً عن ذِكرِ ربِّي. وذَكَرَ أبو الفتح الهمدانيُّ في كتاب «التبيان»: أن ﴿أَحَبَّيْتُ﴾ بمعنى: لَزِمْتُ، من قوله:

مِثْلَ بَعِيرِ السَّوِّءِ إِذْ أَحَبَّأ

قوله: (أثبتُّ)، أي: جعلته نائبا، قال الزَّجاج: معنى: ﴿أَحَبَّيْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ آثرتُ حُبَّ الْخَيْرِ على ذِكرِ الله عَزَّ وَجَلَّ^(١). الأساس: «استَحَبُّوا الكُفْرَ على الإيمان» آثروهُ عليه. وقال صاحبُ «الفرائد»: ذَهَبَ جماعةٌ مِنَ العُلَمَاءِ إلى أنْ ﴿أَحَبَّيْتُ﴾ بِمَعْنَى: «آثرتُ»، وأنْ ﴿عَن﴾ بِمَعْنَى: «عَلَى» وجعلوا ﴿أَحَبَّيْتُ﴾ بِمَعْنَى: «استَحَبَّيْتُ»، وقد جاءَ بِمَعْنَى الإيثارِ في قولهِ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٣]، أي: يُؤثِرُونَهَا؛ الإيثارُ من لوازمِ الإحبابِ فيجوزُ أنْ يُضْمَنَ الإحبابُ مَعْنَاهُ وَيُعَدَّى تَعْدِيَّتَهُ، وَلَكِنْ ﴿عَن﴾ بِمَعْنَى: «عَلَى» فِيهِ بُعْدٌ.

وقال أبو البقاء: ﴿حُبَّ الْخَيْرِ﴾ هو مَفْعُولٌ به ﴿أَحَبَّيْتُ﴾؛ لأنَّ مَصْدَرَ ﴿أَحَبَّيْتُ﴾ الإحباب، ويجوزُ أنْ يَكُونَ مَصْدَرًا مَحذُوفًا الزِّيَادَةَ^(٢). وقال صاحبُ «الفرائد»: التَّقْدِيرُ: أَحَبَّيْتُ الْخَيْرَ، أي: إِحْبَابًا، ثُمَّ أُضِيفَ إِلَى الْمَفْعُولِ.

قوله: (مِثْلَ بَعِيرِ السَّوِّءِ إِذْ أَحَبَّأ)، أوَّلُهُ:

تَبَّأ لَمَنْ بِالهُونِ قَدْ أَلْبَا

قَبْلَهُ:

كَيْفَ قَرَيْتَ شَيْخَكَ الْأَزْبَا لَسَمَا أَتَاكَ بَائِسًا قِرْسَبَا؟

«تَبَّأ» مِنَ التَّبَابِ، وَهُوَ الْهَلَاكُ، أَي: أَقَامَ وَلَزِمَ. «أَحَبَّأ»، مِنْ: أَحَبَّ الْبَعِيرُ؛ بِالْحَاءِ

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٣١).

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٠٠).

وليس بذلك. والخير: المال، كقوله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]. والمال: الخيل التي شغلته. أو: سمي الخيل خيراً لأنها نفس الخير؛ لتعلق الخير بها، قال رسول الله ﷺ: «الخيْلُ معقودٌ بنواصيها الخيرُ إلى يومِ القيامة»، وقال في زيد الخيل حينَ وفَدَّ عليه وأسلم: «ما وُصِفَ لي رجلٌ فرأيتُه

المُهَمَّلَة: إذا وُضِعَ رُكْبَتَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ بِحَيْثُ لَا يُرْفَعُ بِالضَّرْبِ، وَمِنْهُ اسْتِثْقَاقُ الْمُحَبَّةِ، قَوْلُهُ: «قِرَشْبًا»: أَي: يَا بَسًا فَحَلًا.

قَالَ صَاحِبُ «المَطْلَع»: أَحَبُّ، إِذَا لَزِمَ الْمَكَانَ، مَرْدُودٌ؛ لِأَنَّهَا لُغَةٌ غَرِيبَةٌ لَا تَلِيْقُ بِفَصَاحَةِ الْقُرْآنِ، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ إِخْلَاءِ الْكَلِمَةِ عَنِ الْفَائِدَةِ، أَي: عَنِ هَذَا الَّذِي عَنَاهُ الْمُصَنِّفُ بِقَوْلِهِ: «لَيْسَ بِذَلِكَ»، وَهَذَا لَمْ يَذْكُرْهُ فِي «الْأَسَاسِ» أَصْلًا، وَإِنْ ذَكَرَهُ الْجَوْهَرِيُّ فِي «الصَّحَاحِ» وَأَنْشَدَ الْمِصْرَاعَ، وَقَالَ: الْإِحْبَابُ، الْبُرُوكُ. أَبُو زَيْدٍ، يُقَالُ: بَعِيرٌ مُحِبٌّ، وَقَدْ أَحَبَّ إِحْبَابًا، وَهُوَ: أَنْ يُصِيبَهُ مَرَضٌ أَوْ كَسْرٌ فَلَا يَبْرُحُ مَكَانَهُ حَتَّى يَبْرَأَ أَوْ يَمُوتَ.

وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: أَحَبَّبْتُ بِمَعْنَى: جَلَسْتُ، مِنْ إِحْبَابِ الْبَعِيرِ، وَهُوَ بُرُوكُهُ، وَ﴿حُبُّ الْخَيْرِ﴾ [ص: ٣٢] مَفْعُولٌ لَهُ مُضَافٌ إِلَى الْمَفْعُولِ (١).

وَقَالَ صَاحِبُ «الْفَرَائِدِ»: لَا يَبْعُدُ أَنْ يُفَسَّرَ ﴿أَحَبَّبْتُ﴾ بِمَعْنَى: «لَزِمْتُ» لِاسْتِثْقَامِ الْإِحْبَابِ اللَّزُومِ؛ لِأَنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا لَزِمَهُ، وَقَالَ: وَ﴿ذَكَرَ رَبِّي﴾ عَلَى هَذَا نَصَبٌ عَلَى الْحَالِ، أَي: لَزِمْتُ الْأَرْضَ لِحُبِّ الْخَيْرِ مُعْرِضًا عَنِ ذِكْرِ رَبِّي.

قَوْلُهُ: (الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرِ)، الْحَدِيثُ مِنْ رِوَايَةِ مُسْلِمٍ عَنِ جَرِيرٍ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَلُوي نَاصِيَةَ فَرَسٍ بِأَصْبُعِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ الْأَجْرُ وَالْغَنِيمَةُ» (٢).

قَوْلُهُ: (وَقَالَ فِي زَيْدِ الْخَيْلِ حِينَ وَفَدَّ عَلَيْهِ)، رَوَى صَاحِبُ «الاسْتِيعَابِ»: هُوَ زَيْدُ بْنُ مُهَلِّهِلِ بْنِ زَيْدِ الطَّائِيِّ، قَدْ مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي وَفْدِ طَيْمِ سَنَةِ تِسْعٍ، سَمَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٠٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٧٢).

إِلَّا كَانَ دُونَ مَا بَلَغَنِي، إِلَّا زَيْدَ الْخَيْلِ» وَسَمَاهُ زَيْدَ الْخَيْرِ. وَسَأَلَ رَجُلٌ بِلَالًا رَضِيَ اللَّهُ

زَيْدَ الْخَيْرِ، وَقَالَ: «مَا وُصِفَ لِي أَحَدٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَرَأَيْتُهُ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا رَأَيْتُهُ دُونَ صِفَتِهِ، غَيْرِكَ». وَكَانَ شَاعِرًا مُحْسِنًا خَطِيبًا لِسِنًا شُجَاعًا كَرِيمًا^(١)، وَكَذَا فِي «جَامِعِ الْأُصُولِ»^(٢).

وَرَوَى الْأَنْبَارِيُّ فِي «النُّزْهَةِ»: أَنَّ الزَّمَخْشَرِيَّ لَمَّا قَدِمَ بَغْدَادَ لِلحَجِّ جَاءَهُ الشَّيْخُ الشَّرِيفُ ابْنُ الشَّجَرِيِّ مُهَنَّأً بِقُدُومِهِ، فَلَمَّا جَالَسَهُ أُنْسِدَهُ الشَّرِيفُ:

كَانَتْ مُسْأَلَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنِي عَنْ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ أَطِيبِ الْخَيْرِ
حَتَّى التَّقِينَا فَلَا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتَ أُذُنِي بِأَحْسَنَ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصْرِي

وقال:

وَأَسْتَكْبِرُ الْأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ فَلَمَّا التَّقِينَا صَغَرَ الْخَيْرَ الْخَيْرُ

وَلَمْ يَنْطِقِ الزَّمَخْشَرِيُّ، فَلَمَّا فَرَعَ الشَّرِيفُ قَالَ: إِنَّ زَيْدَ الْخَيْلِ دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَحِينَ بَصُرَ بِالنَّبِيِّ ﷺ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالشَّهَادَتَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا زَيْدَ الْخَيْلِ، كُلُّ رَجُلٍ وُصِفَ لِي وَجَدْتُهُ دُونَ الصِّفَةِ إِلَّا أَنْتَ، فَإِنَّكَ فَوْقَ مَا وُصِفْتَ لِي وَكَذَلِكَ أَنْتَ، وَدَعَا لَهُ وَأَنْتَى عَلَيْهِ»^(٣).

قَوْلُهُ: (وَسَمَاهُ زَيْدَ الْخَيْرِ)، وَضَعَ مَوْضِعَ «الْخَيْلِ»: «الْخَيْرِ»، فَحَصَلَ مِنْهُ مَا قَصَدَهُ وَكُلُّ فَضْلٍ؛ لِأَنَّهُ أَجْمَعُ مِنْهُ لِاسْتِيَالِهِ عَلَيْهِ وَعَلَى كُلِّ فَضِيلَةٍ، وَعَلَيْهِ جَوَابُ بِلَالٍ عَنْ قَوْلِ الرَّجُلِ: «أَرَدْتُ الْخَيْلَ، وَأَنَا أَرَدْتُ الْخَيْرَ» فَإِنَّ الرَّجُلَ سَأَلَ: مَنْ السَّابِقُ فِي الطَّرَادِ؟ أَجَابَ عَنْهُ بِالسَّابِقِ فِي الْخَيْرَاتِ تَمْلِيحًا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ» [فاطر: ٣٢]، وَتَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ السَّبِقَ الَّذِي يُعْتَنَى بِشَأْنِهِ وَيَنْبَغِي أَنْ يُسْأَلَ عَنْهُ هَذَا لَا ذَاكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَهْلِ قَلَّ مِنْ مَوَاقِيْتُ» [البقرة: ١٨٩].

(١) «الاستيعاب» (٢: ٥٥٩).

(٢) «جامع الأصول» (١٢: ٤١٠) وحديث تسميته يزيد الخير أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠: ٢٠٢) وأبو نُعَيْمٍ فِي «حَلِيَّةِ الْأَوْلِيَاءِ» (١: ٣٧٦).

(٣) «نزّهة الألباء» ص ٢٩١.

عنه عن قوم يَسْتَبِقُونَ: مَنْ السَّابِقُ؟ فقال: رسولُ الله ﷺ. فقال له الرَّجُلُ: أردتُ الخيلَ. فقال: وأنا أردتُ الخَيْرَ. والتواري بالحِجَابِ: مجازٌ في غُروبِ الشمسِ عن تواري المَلِكِ. أو المُحَبَّاةُ بِحِجَابِهَا. والذي دَلَّ على أَنَّ الضميرَ للشمسِ: مُرورُ ذِكْرِ العشيِّ، ولا بدَّ للمُضَمَّرِ مِنْ جَزِي ذِكْرٍ أو دليلٍ ذِكْرٍ. وقيل: الضميرُ للصَّافِنَاتِ، أي: حتى توارثَ بِحِجَابِ اللَّيْلِ، يعني الظلامَ. وَمِنْ بَدَعَ التَّفاسيرِ: أَنَّ الحِجَابَ جِبْلٌ دونَ قافِ بِمَسِيرَةِ سَنَةٍ تَغْرُبُ الشمسُ مِنْ ورائِهِ. ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾: فَجَعَلَ يَمَسَحُ مَسْحًا، أي: يَمَسَحُ بالسيفِ بِسُوقِهَا وَأَعْنَاقِهَا، يعني: يَقَطِّعُهَا. تقولُ: مَسَحَ عِلاوَتَهُ؛ إِذَا ضَرَبَ عُنُقَهُ، وَمَسَحَ المُسَفَّرُ الكِتَابَ؛ إِذَا قَطَعَ أَطْرَافَهُ بِسَيْفِهِ. وعن الحسنِ: كَسَفُ عَرَاقِيهَا وَضَرْبُ أَعْنَاقِهَا. أرادَ بالكسْفِ: القَطْعَ، ومنه: الكسْفُ في ألقابِ الرِّحافِ في العَرُوضِ. وَمَنْ قاله بالشيْنِ المُعْجَمَةِ: فمُصَحَّفٌ. وقيل:

قوله: (المُحَبَّاةُ بِحِجَابِهَا)، الأساس: خَبَاتُ الجارِيَةِ، وَجَارِيَةٌ مُحَبَّاةٌ، والنِّسَاءُ مُحَبَّاتٌ، وامرأةٌ مُحَبَّاةٌ تَحْنُسُ بَعْدَ الاطِّلاعِ.

قوله: (وقيل: الضميرُ للصَّافِنَاتِ)، قال الإمام: هذا أَوْلَى؛ لأنَّ بقاءَهُ عليه السَّلَامُ مُسْتَعْلًا بِالخَيْلِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ وَتَفُوتَ صَلَاتُهُ ذَنْبٌ عَظِيمٌ، فالواجِبُ عليه التَّضَرُّعُ بِالإِتِيهالِ لا التَّهَوُّرُ وَالتَّحْيِيرُ بقوله: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣]، وَإِذَا قُلْنَا: إِنَّ الضَّمِيرَ يَعودُ إِلى ﴿الضَّمِيرِ﴾ لا يَلزَمُ مِنْهُ فُوتُ الصَّلَاةِ، وَغايَتُهُ أَنَّ الأوْلَى اسْتِغْرَاقُ الأوقاتِ فِي ذِكْرِ اللهِ مِنَ الاسْتِغْمالِ بِأَمْرِ الدُّنْيَا، فَتَرَكَ الأوْلَى وَتَحَسَّرَ لذلِكَ، وَأَمَرَ بِالقَطْعِ على أَنَّ رُجوعَ الضَّمِيرِ حِينَئِذٍ إِلى المَذْكُورِ القَرِيبِ وَعلى الأوْلَى إِلى المُقَدَّرِ البَعِيدِ^(١).

قوله: (تقول: مَسَحَ عِلاوَتَهُ)، الجوهرِي: العِلاوَةُ رَأْسُ الإنسانِ ما دامَ فِي عُنُقِهِ، يُقالُ: ضَرَبَ عِلاوَتَهُ، أي: رَأْسَهُ.

قوله: (المُسَفَّرُ)، أي: المُجَلَّدُ وَالوَرِاقُ. الجَوهرِي: السَّفَرُ - بالكسْرِ -: الكِتَابُ، وَالجَمْعُ: الأَسْفارُ.

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣٩٠).

مَسَحَهَا بِيَدِهِ اسْتِحْسَانًا لَهَا وَإِعْجَابًا بِهَا. فَإِنْ قُلْتَ: بِمِ اتَّصَلَ قَوْلُهُ: ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ﴾؟ قُلْتَ: بِمَحْدُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: قَالَ: رُدُّوَهَا عَلَيَّ، فَأُضْمِرَ وَأُضْمِرَ مَا هُوَ جَوَابٌ لَهُ، كَأَنَّ قَائِلًا قَالَ: فَمَاذَا قَالَ سُلَيْمَانُ؟ لِأَنَّهُ مَوْضِعٌ مُقْتَضٍ لِلسُّؤَالِ اقْتِضَاءً ظَاهِرًا؛ وَهُوَ اسْتِغْثَالُ نَبِيِّ مِنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ بِأَمْرِ الدُّنْيَا، حَتَّى تَفُوتَهُ الصَّلَاةُ عَنْ وَقْتِهَا. وَقُرِئَ: (بِالسُّوُقِ) بِهَمْزِ الْوَاوِ لَضَمَّتْهَا، كَمَا فِي أَدُورٍ. وَنَظِيرُهُ: الْغُورُورُ، فِي مَصْدَرِ غَارَتِ الشَّمْسُ. وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ: (بِالسُّوُقِ) فَقَدْ جَعَلَ الضَّمَّةَ فِي السِّينِ كَأَنَّهَا فِي الْوَاوِ لِلتَّلَاصُقِ، كَمَا قِيلَ: مُؤَسَى. وَنَظِيرُ سَاقٍ وَسُوقٍ: أَسَدٌ وَأَسْدٌ. وَقُرِئَ: (بِالسَّاقِ) اكْتِفَاءً بِالْوَاحِدِ عَنِ الْجَمْعِ؛ لِأَنَّ الْإِلْبَاسَ.

[﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [٣٤]

قَوْلُهُ: (مَسَحَهَا بِيَدِهِ اسْتِحْسَانًا)، وَفِي «الْمَعَالِمِ»: هُوَ قَوْلٌ ضَعِيفٌ^(١). وَقَالَ الزَّجَّاجُ: مَسَحَ أَعْنَاقَهَا وَسُوقَهَا بِالْمَاءِ بِيَدِهِ، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ قَوْمٌ؛ لِأَنَّ قَتْلَهَا كَانَ عِنْدَهُمْ مُنْكَرًا، وَلَيْسَ مَا يُبِيحُهُ اللَّهُ تَعَالَى مُنْكَرًا^(٢).

قَوْلُهُ: (بِمَحْدُوفٍ تَقْدِيرُهُ «قَالَ»)، يَعْنِي: مُتَعَلِّقَهُ لَفْظَةُ «قَالَ»، وَهِيَ مَعَ الْمَقُولِ جَوَابٌ عَنِ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ؛ لِأَنَّ اسْتِغْثَالَ مِثْلِهِ مِنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ بِأَمْرِ الدُّنْيَا بَعِيدٌ، فَكَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قَالَ: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أَتَّجَهَ لِسَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: فَمَاذَا قَالَ سُلَيْمَانُ بَعْدَ هَذَا؟ فَأُجِيبَ: قَالَ ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ﴾ فَأُضْمِرَ الْقَوْلَ وَأُضْمِرَ سُؤَالَ السَّائِلِ. فَقَوْلُهُ: «وَأُضْمِرَ مَا هُوَ جَوَابٌ لَهُ»، مَعْنَاهُ: أُضْمِرَ فِي الْكَلَامِ مَا الْمَحْدُوفُ جَوَابٌ لَهُ.

قَوْلُهُ: (وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ: «بِالسُّوُقِ»)^(٣)، الْمُطَّلِعُ: وَقُرِئَ: «بِالسُّوُقِ» عَلَى «فُعُولٍ»، بِهَمْزِ الْوَاوِ وَبِضَمِّهَا، كَمَا فِي: «أُجُوه» فِي «وُجُوه»، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْرَأُ: «بِالسُّوُقِ» مَهْمُوزًا، كَمَا فِي: «مُؤَسَى» بِالْهَمْزِ.

(١) «معالم التنزيل» (٧: ٩٠).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٣١).

(٣) ولتمام الفائدة انظر: «حجة القراءات» ص ٥٣٠.

قيل: فُتِنَ سُلَيْمَانُ بعدما مَلَكَ عَشْرِينَ سَنَةً، وَمَلَكَ بَعْدَ الْفِتْنَةِ عَشْرِينَ سَنَةً. وَكَانَ مِنْ فِتْنَتِهِ: أَنَّهُ وُلِدَ لَهُ ابْنٌ، فَقَالَتِ الشَّيَاطِينُ: إِنْ عَاشَ لَمْ نَنْفَكْ مِنَ السُّخْرَةِ، فَسَيَلِينَا أَنْ نَقْتُلَهُ أَوْ نُخَبِّلَهُ، فَعَلِمَ ذَلِكَ، فَكَانَ يَغْدُوهُ فِي السَّحَابَةِ، فَمَا رَاعَهُ إِلَّا أَنْ أَلْقَى عَلَى كُرْسِيِّهِ مَيْتًا، فَتَنَّبَهُ عَلَى خَطِيئِهِ فِي أَنْ لَمْ يَتَوَكَّلْ فِيهِ عَلَى رَبِّهِ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَتَابَ إِلَيْهِ. وَرُوي عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «قَالَ سُلَيْمَانُ: لَا طُوفَنَ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّ وَاحِدَةٍ تَأْتِي بِفَارَسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَطَافَ عَلَيْهِنَّ، فَلَمْ يَحْمِلْ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ»، فَلِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾. وَهَذَا وَنَحْوُهُ مِمَّا لَا بَأْسَ بِهِ. وَأَمَّا مَا يُرَوَى مِنْ حَدِيثِ الْخَاتَمِ وَالشَّيْطَانِ وَعِبَادَةِ الْوَتَنِ فِي بَيْتِ سُلَيْمَانَ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصَحَّتِهِ؛ حَكَوْا: أَنَّ سُلَيْمَانَ بَلَغَهُ خَبْرُ صَيْدُونٍ، وَهِيَ مَدِينَةٌ فِي بَعْضِ الْجَزَائِرِ، وَأَنَّهَا مَلِكًا عَظِيمًا الشَّانِ لَا يُقْوَى عَلَيْهِ لِتَحَصُّنِهِ بِالْبَحْرِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ تَحْمِلُهُ الرِّيحُ، حَتَّى أَنَاخَ بِهَا بِجُنُودِهِ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، فَقَتَلَ مَلِكَهَا وَأَصَابَ بِنْتًا لَهُ اسْمُهَا جَرَادَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا، فَاصْطَفَاهَا لِنَفْسِهِ، وَأَسْلَمَتْ، وَأَحْبَبَهَا، وَكَانَتْ لَا يَرِقُّ دَمْعُهَا

قَوْلُهُ: (فَمَا رَاعَهُ)، أَي: مَا دَخَلَ فِي رُوعِهِ، أَي: قَلْبِهِ، أَي: مَا شَعَرَ بِهِ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدْسِ نَفَثَ فِي رُوعِي»^(١).

قَوْلُهُ: (قَالَ سُلَيْمَانُ: لَا طُوفَنَ اللَّيْلَةَ)، الْحَدِيثُ بِتَمَامِهِ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ^(٢).

قَوْلُهُ: (فَلَمْ يَحْمِلْ إِلَّا امْرَأَةً)، صَحَّ «يَحْمِلُ» بِالْيَاءِ التَّحْتَانِيَّةِ، أَي: فَلَمْ يَحْمِلْ شَيْءًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ﴾ [المتحنة: ١١].

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي «حَلِيَةِ الْأَوْلِيَاءِ» (١٠: ٢٦) وَالْقُضَاعِيُّ فِي «مُسْنَدِ الشَّهَابِ» (٢: ١٨٥) مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ. وَفِي الْبَابِ عَنْ حَذِيفَةَ عِنْدَ الْبَزَّارِ، ذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (٤: ١٢٣) وَقَالَ: رَوَاهُ الْبَزَّارُ وَفِيهِ قَدَامَةُ بِنْتُ زَائِدَةَ، وَلَمْ أَجِدْ مَنْ تَرَجَّمَهُ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثَقَاتٌ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٨١٩) وَمُسْلِمٌ (١٦٥٤) وَالنَّسَائِيُّ (٤٧٥٤).

حُزْنَا عَلَى أَبِيهَا، فَأَمَرَ الشَّيَاطِينَ فَمَثَلُوا لَهَا صُورَةَ أَبِيهَا، فَكَسَتْهَا مِثْلَ كِسْوَتِهِ، وَكَانَتْ تَغْدُو إِلَيْهَا وَتَرُوحُ مَعَ وَلَائِدِهَا يَسْجُدْنَ لَهُ كَعَادَتِهِنَّ فِي مُلْكِهِ، فَأَخْبَرَ أَصْفُ سُلَيْمَانَ بِذَلِكَ، فَكَسَرَ الصُّورَةَ وَعَاقَبَ الْمَرْأَةَ، ثُمَّ خَرَجَ وَحَدَّهُ إِلَى فَلَاحٍ وَفُرِشَ لَهُ الرَّمَادُ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ تَائِبًا إِلَى اللَّهِ مُتَضَرِّعًا، وَكَانَتْ لَهُ أُمٌّ وَلِدُ يُقَالُ لَهَا: أَمِينَةٌ، إِذَا دَخَلَ لِلطَّهَّارَةِ أَوْ لِصَابِيَةِ امْرَأَةٍ وَصَعَّ خَاتَمَهُ عِنْدَهَا، وَكَانَ مُلْكُهُ فِي خَاتَمِهِ، فَوَضَعَهُ عِنْدَهَا يَوْمًا، وَأَتَاهَا الشَّيْطَانُ صَاحِبُ الْبَحْرِ، وَهُوَ الَّذِي دَلَّ سُلَيْمَانَ عَلَى الْمَاسِ حِينَ أَمَرَ بِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَاسْمُهُ صَخْرٌ؛ عَلَى صُورَةِ سُلَيْمَانَ، فَقَالَ: يَا أَمِينَةُ خَاتَمِي! فَتَخْتَمُ بِهِ وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ سُلَيْمَانَ، وَعَكَفَتْ عَلَيْهِ الطَّيْرُ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ، وَغَيْرُ سُلَيْمَانَ عَنْ هَيْئَتِهِ، فَأَتَى أَمِينَةَ لَطْلُبَ الْخَاتَمِ، فَأَنْكَرَتْهُ وَطَرَدَتْهُ، فَعَرَفَ أَنَّ الْخَطِيئَةَ قَدْ أَدْرَكَتْهُ، فَكَانَ يَدُورُ عَلَى الْبُيُوتِ يَتَكَفَّفُ، فَإِذَا قَالَ: أَنَا سُلَيْمَانُ، حَثُّوا عَلَيْهِ التُّرَابَ وَسَبُّوهُ، ثُمَّ عَمِدَ إِلَى السَّمَائِينَ يَنْقُلُ لَهُمُ السَّمَكَ فَيُعْطُونَهُ كُلَّ يَوْمٍ سَمَكَيْنِ، فَمَكَثَ عَلَى ذَلِكَ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا عَدَدَ مَا عُبِدَ الْوَتْنُ فِي بَيْتِهِ، فَأَنْكَرَ أَصْفُ وَعِظَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ حُكْمَ الشَّيْطَانِ، وَسَأَلَ أَصْفُ نِسَاءَ سُلَيْمَانَ فَقُلْنَ: مَا يَدْعُ امْرَأَةً مَنَّا فِي دِمَاحِهَا، وَلَا يَغْتَسِلُ مِنْ جَنَابَةِهَا. وَقِيلَ: بَلْ نَفِذَ حُكْمَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِيهِنَّ. ثُمَّ طَارَ الشَّيْطَانُ وَقَدَّفَ الْخَاتَمَ فِي الْبَحْرِ، وَابْتَلَعَتْهُ سَمَكَةٌ، وَوَقَعَتِ السَّمَكَةُ فِي يَدِ سُلَيْمَانَ، فَبَقَّرَ بَطْنَهَا إِذَا هُوَ بِالْخَاتَمِ، فَتَخْتَمُ بِهِ وَوَقَعَ سَاجِدًا، وَرَجَعَ إِلَيْهِ مُلْكُهُ، وَجَابَ صَخْرَةً لَصَخْرٍ فَجَعَلَهُ فِيهَا، وَسَدَّ عَلَيْهِ بِأُخْرَى ثُمَّ أَوْثَقَهَا بِالْحَدِيدِ وَالرَّصَاصِ وَقَدَّفَهُ فِي الْبَحْرِ. وَقِيلَ: لَمَّا افْتَنَّ كَانَ يَسْقُطُ الْخَاتَمُ فِي يَدِهِ لَا يَتِمَّاسُكَ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ أَصْفُ: إِنَّكَ لَمَفْتُونٌ بِذَنْبِكَ وَالْخَاتَمُ لَا يَقْرُ فِي يَدِكَ، فَتُبَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَلَقَدْ أَبِي الْعُلَمَاءُ الْمُتَقِنُونَ قَبُولَهُ،

قوله: (وَكَانَ مُلْكُهُ فِي خَاتَمِهِ)، أي: مَا دَامَ الْخَاتَمُ فِي يَدِهِ كَانَ مَلِكًا مُطَاعًا.

قوله: (الْمَاسِ)، عن بعضهم: الْأَيْفُ وَاللَّامُ فِيهِ لِلتَّعْرِيفِ؛ مِنْ مَاسِ الْحَدِيدِ؛ الَّذِي يَقْطَعُ بِهِ وَيُثَقَّبُ الْحَدِيدُ بِهِ.

قوله: (وَلَقَدْ أَبِي الْعُلَمَاءُ الْمُتَقِنُونَ قَبُولَهُ)، أي: قَبُولَ مَا يَرَوِي، وَقَالُوا: هَذَا مِنْ أَبَاطِيلِ

اليهود، هكذا في «المطلع» أيضًا، وقال محيي السنة: هذه القصة عن آخرها ذكرها محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه^(١)، ولعمري إنها قريبة مما رويناها عن الأئمة البخاري ومسلم والترمذي، عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: «إن نوحًا البكالي يزعم أن موسى بني إسرائيل ليس هو صاحب الخضر، فقال: كذب عدو الله»^(٢) الحديث.

وروى محيي السنة: أن وزيره آصف أقام في ملكه يسير بسيرته أربعة عشر يومًا، وسليان هارب إلى ربه يستغفر لذنبه إلى أن رد الله ملكه، وقال: وهو الجسد الذي قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ [ص: ٣٤]، وروى أيضًا أن سليمان قال يومًا: «لأطوفنّ الليلة». وساق الحديث إلى قوله: «فما خرج منهنّ إلا شقّ مولود، فجاءت به القابلة فألقته على كرسيه فذلك قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾. ثم قال: وأشهر الأقاويل أن الجسد الذي ألقى على كرسيه هو الصخر الحنّبي^(٣).

قال الإمام: هذا باطلٌ من وجوه:

أحدها: أن الشيطان لو قدر أن يتشبه بصورة الأنبياء لزم عدم الوثوق بشيء من الشرائع.

وثانيها: أنه لو قدر أن يعامل النبي بهذه المعاملة فغيره أولى، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

وثالثها: كيف يليق بحكمة الله أن يسלט الشيطان على غشيان نساءه؟! العباد بالله هذه فريّة ليس فيها مريّة.

ورابعها: كيف يأذن نبي الله على عبادة الصنم؟

وخامسها: أن تفسير إلقاء الجسد على الكرسي بالولد لنفسه لمرض شديد ألقاه الله

(١) «معالم التنزيل» (٧: ٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٢) ومسلم (٢٣٨٠) والترمذي (٣١٤٩).

(٣) «معالم التنزيل» (٧: ٩١).

وقالوا: هذا من أباطيل اليهود، والشياطين لا يتمكّنون من مثل هذه الأفاعيل، وتسليطُ الله إياهم على عباده حتى يقَعُوا في تغيير الأحكام، وعلى نساء الأنبياء حتى يَفْجُرُوا بهن: قبيح، وأما اتخاذُ التماثيل: فيجوزُ أن تختلفَ فيه الشرائع، ألا ترى إلى قوله: ﴿مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ﴾ [سبا: ١٣]؟ وأما السجودُ للصورة: فلا يُظَنُّ بنبيِّ الله أن يأذنَ فيه، وإذا كان بغيرِ علمِهِ: فلا عليه. وقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ نابٍ عن إفادةٍ معنى إنابة الشيطان منابه نبؤًا ظاهرًا.

[﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ٣٥]

قَدِّم الاستغفارَ على استيهاب المُلْك؛ جزيًا على عادة الأنبياء والصالحين في تقديمهم أمرَ دينهم على أمور دُنْيَاهُمْ. ﴿لَا يَنْبَغِي﴾: لا يتسهَّل ولا يكون. ومعنى ﴿مِنْ بَعْدِي﴾: دُونِي. فإن قلت: أما يُشبهُ الحَسَدَ والحرصَ على الاستبدادِ بالنعمة أن يستعطيَ الله ما لا يُعطيه غيره؟ قلت: كان سُلَيْمَانُ عليه السلام ناشئًا في بيت المُلْك والنبوَّة ووارثًا لهما، فأراد أن يطلبَ من رَبِّهِ مُعْجَزَةً، فطلبَ على حَسَبِ إلفه مُلْكًا زائدًا على الممالك زيادةً خارقةً للعادة.....

عليه أو ابتلاءً بتسليطِ حَوَافٍ أو تَوَقُّعِ بلاء، فَصَارَ لذلك كالجَسَدِ الضَّعِيفِ المُلقَى على الكُرْسِيِّ أُولَى مِنْ تَفْسِيرِهِ بِتَسْلِيطِ عَفْرِيَّتِ مَارِدٍ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ فِي الضَّعِيفِ الرَّيْمِ: إِنَّهُ لَحَمٌّ عَلَى وَضْمٍ، وَجَسَدٌ بِلَا رُوحٍ^(١).

هذا هو المرادُ من قولِ المُصَنِّفِ: «وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا نابٍ عن إنابة الشيطان منابه نبؤًا ظاهرًا»، وفي الوجوه التي نُسِبَتْ إلى الإمامِ تَصَرُّفٌ واختصار، وأشبهُ الأقاويلِ في إلقاءِ الجَسَدِ، هو شقُّ الولد؛ لأنه مُؤَيَّدٌ بها رويناُه عن الأئمةِ المُتَقِينَ.

قوله: (فأرادَ أن يطلبَ من رَبِّهِ مُعْجَزَةً فَطَلَّبَ على حَسَبِ إلفه مُلْكًا زائدًا على الممالك زيادةً خارقةً للعادة)، قالوا: إنما طَلَّبَ المُلْكَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ المُعْجَزَاتِ؛ لِمَا أَنَّ الغالبَ

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣٩٣).

فِي زَمَنِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمُلْكُ، فَطَلَبَ مِثْلَ ذَلِكَ لِيَكُونَ حُجَّةً؛ لِأَنَّ مُعْجَزَةَ كُلِّ نَبِيٍّ كَانَتْ مِنْ جِنْسِ الْغَالِبِ فِي زَمَانِهِ، كَالسَّحْرِ فِي زَمَنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَتَحَدَّاهُمْ بِالْعَصَا وَالْيَدِ الْبَيْضَاءِ. وَالطَّبُّ فِي زَمَنِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَتَحَدَّاهُمْ بِإِبْرَاءِ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى. وَالْفَصَاحَةُ فِي زَمَنِ نَبِينَا صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَتَحَدَّاهُمْ بِاقْصَرِ سُورَةٍ مِنْ كَلَامِ ذِي الْعِزَّةِ وَالْكِبْرِيَاءِ. وَأَمَّا الزِّيَادَةُ الْخَارِقَةُ لِلْعَادَةِ مِنْ حَيْثُ تَسْخِيرُ مَا لَمْ يُسَخَّرْ لِلْإِنْسِ، فَقَدْ رَوَى مُحَمَّدِي السَّنَّةُ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ: كَانَ سُلَيْمَانُ مَلِكًا، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَبْنِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، تَسْخِيرَ الرِّيَّاحِ وَالطَّيْرِ وَالشَّيَاطِينِ، بِدَلِيلٍ مَا بَعْدَهُ^(١).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ عِفْرِيَّتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي، فَأَمَكَّنَنِي اللَّهُ مِنْهُ، فَأَخَذَتْهُ فَأَرَدَتْ أَنْ أُرِيطَهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْنِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] فَرَدَدْتَهُ خَاسِتًا^(٢).

وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ تَسْخِيرُ الْمُلُوكِ، فَهُوَ مَا ذَكَرَ الْفَقِيهُ أَبُو حَنِيفَةَ أَحْمَدُ بْنُ دَاوُدَ الدَّيْنَوْرِيُّ فِي «تَارِيخِهِ»^(٣): أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرِثَ مَلِكَ أَبِيهِ فِي عَصْرِ كَيْخَسْرُو بْنِ شَبَاوِشَ وَسَارَ مِنَ الشَّامِ إِلَى الْعِرَاقِ، فَبَلَغَ خَبْرُهُ كَيْخَسْرُو، فَهَرَبَ إِلَى خُرَاسَانَ، فَلَمْ يَلْبَثْ قَلِيلًا حَتَّى هَلَكَ، ثُمَّ سَارَ سُلَيْمَانُ إِلَى مَرُو، ثُمَّ إِلَى بِلَادِ التُّرْكِ فَوَعَلَ فِيهَا، وَجَارَ بِلَادَ الصِّينِ، ثُمَّ عَطَفَ إِلَى أَنْ وَافَى بِلَادَ الْفَرَسِ فَتَرَاهَا أَيَّامًا، ثُمَّ عَادَ إِلَى الشَّامِ فَوَافَى تَدْمَرَ وَكَانَتْ مَوْطِنَهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِبِنَاءِ الْمَقْدِسِ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهُ سَارَ إِلَى تِهَامَةَ ثُمَّ إِلَى صَنْعَاءَ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ، وَكَانَ مِنْ حَدِيثِهِ مَعَ صَاحِبَةِ صَنْعَاءَ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَغَزَا بِلَادَ الْمَغْرِبِ الْأَنْدَلُسِيَّ وَطَنْجَةَ وَإِفْرَنْجَةَ وَنَوَاحِيهَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ^(٤).

(١) «معالم التنزيل» (٧: ٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٢٣) ومسلم (٥٤١).

(٣) يعني كتابه «الأخبار الطوال».

(٤) «الأخبار الطوال» ص ٢١.

بالغة حد الإعجاز؛ ليكون ذلك دليلاً على ثبوته قاهرًا للمبعوث إليهم، وأن يكون معجزة حتى يحرق العادات، فذلك معنى قوله: ﴿لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾. وقيل: كان مُلْكًا عظيمًا، فخاف أن يُعطى مثله أحدٌ فلا يحافظ على حدود الله فيه، كما قالت الملائكة: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠]. وقيل: مُلْكًا لا أسلبه ولا يقومُ غيري فيه مقامي، كما سلبته مرةً وأقيم مقامي غيري. ويجوز أن يقال: عَلِمَ اللهُ فيما اختصه به من ذلك المُلك العظيم مصالح في الدين، وعلم أنه لا يضطلع بأعبائه غيره، وأوجب الحكمة استيهاه، فأمره أن يستوهبه إياه، فاستوهبه بأمر من الله على الصفة التي عَلِمَ اللهُ أنه لا يضبطه عليها إلا هو وحده دون سائر عبادِه. أو أراد أن يقول: مُلْكًا عظيمًا، فقال: ﴿لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾، ولم يقصد بذلك إلا عِظَمَ المُلك وسَعَتَه، كما تقول: لفلان ما ليس لأحد من الفضل والمال، وربما كان للناس أمثال ذلك، ولكنك تريد تعظيم ما عنده. وعن الحجاج: أنه قيل له: إنك حَسُودٌ، فقال: أَحَسَدُ مِنِّي مَنْ قَالَ: ﴿هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾. وهذا من جرأته على الله وشيئته، كما حكي عنه: طاعتنا أو جب من طاعة الله؛ لأنه شرط في طاعته فقال: ﴿فَأَنْفِقُوا لِلَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وأطلق طاعتنا فقال: ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

[﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُجَاءَ حَيْثُ أَسَابَ﴾ * وَالشَّيْطَانِ كُلِّ بَنَاءٍ وَعَوَاصِرٍ * وَءَاخِرِينَ

قوله: (وأطلق طاعتنا فقال: ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]) ورُوي عن المُصنِّف: نسي الحجاج شرطًا آخر، وهو أن الله تعالى قال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] فَشَرَطَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وهو لم يكن من المؤمنين، يُريدُ أن «من» في ﴿مِنْكُمْ﴾ للاتصال، كقوله: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»^(١). وقوله: ﴿فَإِنْ نَنْزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، كالطُوقِ فِي عُنُقِهِ؛ لَأنَّهُ قَيْدٌ لِلْمُطَلَّقِ، أَي: فَإِنْ اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَأُولُو الْأَمْرِ مِنْكُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ فَارْجِعُوا إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

(١) أخرجه مسلم (١٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مُفْرَيْنَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِن لَّهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّكَابٍ ﴿٤٠-٣٦﴾

قُرئ: ﴿الرَّيْحَ﴾، و(الرَّيَّاحَ)، ﴿مُخَاةً﴾: لَيْتَنَ طَيِّبَةً لَا تَزْعُزَعُ. وقيل: طَيِّعَةٌ لَهُ لَا تَمْتَنِعُ عَلَيْهِ، ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾: حَيْثُ قَصَدَ وَأَرَادَ. حَكَى الْأَصْمَعِيُّ عَنِ الْعَرَبِ: أَصَابَ الصَّوَابَ فَأَخْطَأَ الْجَوَابَ. وَعَنْ رُؤْيَةَ: أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ قَصَدَاهُ لِيَسْأَلَاهُ عَنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا فَقَالَ: أَيْنَ تَصِيْبَانِ؟ فَقَالَا: هَذِهِ طَلَبْتُنَا، وَرَجَعَا. وَيُقَالُ: أَصَابَ اللَّهُ بِكَ خَيْرًا. ﴿وَالشَّيْطَانِ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿الرَّيْحَ﴾، و﴿كُلُّ بِنَاءٍ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿وَالشَّيْطَانِ﴾، ﴿وَالْآخِرِينَ﴾: عَطْفٌ عَلَى ﴿كُلُّ﴾ دَاخِلٌ فِي حُكْمِ الْبَدَلِ، وَهُوَ بَدَلُ الْكُلِّ مِنَ الْكُلِّ: كَانُوا يَبْنُونَ لَهُ مَا شَاءَ مِنَ الْأَبْنِيَةِ، وَيَعُوصُونَ لَهُ فَيَسْتَخْرِجُونَ اللَّوْلُؤَ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اسْتَخْرَجَ الدَّرَّ مِنَ الْبَحْرِ، وَكَانَ يُقَرَّنُ مَرَدَّةَ الشَّيَاطِينِ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ فِي الْقِيُودِ وَالسَّلَاسِلِ لِلتَّادِيْبِ وَالْكَفِّ عَنِ الْفَسَادِ. وَعَنِ السُّدِّيِّ: كَانَ يَجْمَعُ أَيْدِيَهُمْ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ مُغْلَلِينَ فِي الْجَوَامِعِ. وَالصَّفْدُ الْقَيْدُ، وَسُمِّيَ بِهِ الْعَطَاءُ؛ لِأَنَّهُ ارْتِبَاطٌ لِلْمُنْعَمِ عَلَيْهِ، وَمِنْهُ قَوْلُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ بَرَكَ فَقَدْ أَسْرَكَ، وَمَنْ جَفَاكَ فَقَدْ أَطْلَقَكَ. وَقَوْلُ الْقَائِلِ: غَلَّ يَدًا مُطْلَقُهَا، وَأَرْقَى رَقَبَةً مُعْتَقُهَا. وَقَالَ حَبِيبٌ:

إِنَّ الْعَطَاءَ إِسَارٌ

قوله: (قُرئ: ﴿الرَّيْحَ﴾)، وهي: المشهورة، و«الرَّيَّاحُ»: شاذة.

قوله: (في الجوامع)، الجوهرية: الجامعة: العُل؛ لأنها تَجْمَعُ الْيَدَيْنِ إِلَى الْعُنُقِ.

قوله: (والصَّفْدُ: القيد، وسُمِّيَ بِهِ الْعَطَاءُ)، قَالَ الزَّجَّاجُ: الْأَصْفَادُ، هِيَ: السَّلَاسِلُ مِنَ الْحَدِيدِ، وَكُلُّ مَا شَدَدَتْ بِهِ شِدًّا وَثِيقًا بِالْحَدِيدِ وَغَيْرِهِ فَقَدْ صَفَّدَتْهُ، وَكُلُّ مَا أُعْطِيَتْهُ عَطَاءً جَزِيلًا فَقَدْ أَصْفَدَتْهُ، كَأَنَّكَ أُعْطِيَتْهُ مَا تَرْتَبِطُ بِهِ^(١).

قوله: (إِنَّ الْعَطَاءَ إِسَارٌ)، أَوَّلُهُ لِأَيِّ تَمَامِ حَبِيبِ بْنِ أَوْسٍ:

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٣٣).

وَتَبِعَهُ مَنْ قَالَ:

وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقِيدًا

وفرقوا بين الفعلين؛ فقالوا: صَفَدَهُ: قَيْدَهُ، وَأَصْفَدَهُ: أَعْطَاهُ، كَوَعَدَهُ وَأَوْعَدَهُ،
أي: ﴿هَذَا﴾ الذي أعطيناك من المُلْكِ والمال والبَسْطَةِ ﴿عَطَاؤُنَا﴾، ﴿بَغَيْرِ حِسَابٍ﴾،
يعني: جمًّا كثيرًا لا يكاد يُقَدَّرُ على حَسْبِهِ وَحَضْرِهِ، ﴿فَأَمْنُنْ﴾ من المَنَّةِ؛ وهي العَطَاءُ،

هَمِي مُعَلِّقَةٌ عَلَيْكَ رِقَابَهَا مَغْلُولَةٌ إِنَّ الْعَطَاءَ إِسَارُ^(١)

الإسار: القَيْدُ، وهو مَصْدَرٌ أَيْضًا، يُقَالُ: أَسْرْتُ الرَّجُلَ أَسْرًا وَإِسَارًا، والرِّوَايَةُ فِي
ديوانه: «إِنَّ الْوَفَاءَ إِسَارٌ» يَقُولُ: أَحْسَنْتَ إِلَيَّ فَصَيَّرَنِي إِحْسَانُكَ أَسِيرًا لَكَ. قَبْلَهُ:

أَيَامُنَا مَصْقُولَةٌ أَطْرَافُهَا بِكَ وَاللَّيَالِي كُلُّهَا أَسْحَارُ
وَمَوَدَّتِي لَكَ لَا تُعَارُ بَلَى إِذَا مَا كَانَ تَامورُ الْفُوَادِ يُعَارُ

التَّامور: القَلْبُ، يَقُولُ: لَا أُعِيرُ مَوَدَّتَكَ سِوَاكَ، كَمَا أَنِّي لَا أُعِيرُ قَلْبِي وَدَمِي.

قوله: (وَتَبِعَهُ)، أي: الْمُتَّبِعِي أَخَذَ مِنْ هَذَا قَوْلَهُ:

وَقَيَّدْتُ نَفْسِي فِي ذِرَاكَ مَحَبَّةً وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقِيدًا^(٢)

الذرى - بِالْفَتْحِ - كُلُّ مَا اسْتَتَرَتْ بِهِ، يُقَالُ: أَنَا فِي ظِلِّ فُلَانٍ وَفِي ذِرَاهِ، أَي: فِي كَنَفِهِ.

قوله: (﴿عَطَاؤُنَا﴾، ﴿بَغَيْرِ حِسَابٍ﴾)، قَدَّمَ ﴿بَغَيْرِ حِسَابٍ﴾ عَلَى ﴿فَأَمْنُنْ﴾ لِيُشِيرَ إِلَى أَنَّ
﴿بَغَيْرِ حِسَابٍ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿عَطَاؤُنَا﴾، وَالْفَاءُ فِي ﴿فَأَمْنُنْ﴾ لِلتَّفْصِيلِ أَوْ جِزَاءِ شَرْطٍ مَحْدُوفٍ،
و﴿أَوْ﴾ لِلإِبَاحَةِ وَالتَّخْيِيرِ، وَلِذَلِكَ قَالَ: «مَفَوْضًا إِلَيْكَ التَّصَرُّفُ فِيهِ». وَعَنْ بَعْضِهِمْ:
﴿بَغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حَالٌ مِنْ ﴿عَطَاؤُنَا﴾ أَي: هَذَا عَطَاؤُنَا وَإِسْعَا؛ لِأَنَّ الْحِسَابَ بِمَعْنَى:
الكَافِي.

(١) «ديوان أبي تمام» (١: ٤٥٥).

(٢) سبق تخريجه.

أي: فأعط منه ما شئت ﴿أَوْ أَمْسِكَ﴾ مفوضاً إليك التصرف فيه. وفي قراءة ابن مسعود: (هذا فامتنُ أو أمسكُ عطاؤنا بغير حساب)؛ أو: هذا التسخيرُ عطاؤنا، فامتنُ على مَنْ شئت من الشياطين بالإطلاق، وأمسكُ مَنْ شئت منهم في الوثاقِ بغير حساب، أي: لا حسابَ عليك في ذلك.

[﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * أَرْكَضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مَغْسَلُ بَارِدٍ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [٤١-٤٤]

﴿أَيُّوبَ﴾ عطفُ بيان، و﴿إِذْ﴾ بدلُ اشتغالٍ منه، ﴿أَنِّي مَسْنِي﴾: بأني مسني؛ حكايةً لكلامه الذي ناداه بسببه، ولو لم يحك لقال بأنه مسه؛ لأنه غائب. و﴿قُرئ﴾: ﴿بِنُصْبٍ﴾ بضمَّ النون وفتحها مع سكونِ الصاد، وفتحها، وضمَّها، فالنُّصْبُ والنَّصْبُ: كالرُّشْدِ والرَّشْدِ، والنَّصْبُ: على أصلِ المَصْدَرِ، والنُّصْبُ: تثقيلُ نُصْبٍ، والمعنى واحد؛ وهو التَّعَبُ والمشقَّة. والعذابُ: الألم، يريد مَرَضَهُ وما كان يُقاسي فيه من أنواعِ الوَصْبِ. وقيل: الضرُّ في البدن، والعذابُ في ذهابِ الأهلِ والمال. فإن قلت: لِمَ نَسَبَهُ إلى الشيطان، ولا يجوزُ أن يُسلِّطه الله على أنبيائه ليقضي من إيتاعهم وتعذيبهم وطَرَهُ، ولو قدَرَ على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه، وقد تكرر في القرآن

قوله: (أو هذا التسخيرُ عطاؤنا)، وعلى هذا ﴿بغير حساب﴾ حالٌ من الضمير في ﴿فامتنُ أو أمسك﴾ والمعنى: غير مُحاسِبٍ عليك، و﴿أَوْ﴾ للتَّنْوِيعِ، ومن ثم أتى بالواوِ بدله، ويجوزُ الإباحة.

قوله: (وقرئ): ﴿بِنُصْبٍ﴾ بضمَّ النون وفتحها، المشهورة: بضمَّ النون وسكونِ الصاد، والبواقي: شواذ^(١).

قوله: (وقد نكبه)، الجوهرية: النكبة: واحدة نكباتِ الدهر، تقول: أصابته نكبة،

(١) ولتتام الفائدة انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٢٠٧).

أَنَّهُ لَا سُلْطَانَ لَهُ إِلَّا الْوَسْوَسَةُ فَحَسَبُ؟ قُلْتُ: لَمَّا كَانَتْ وَسْوَسَتْهُ إِلَيْهِ وَطَاعَتْهُ لَهُ فِيهَا وَسْوَسَ سَبَبًا فِيهَا مَسَّهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ النَّصَبِ وَالْعَذَابِ؛ نَسَبَهُ إِلَيْهِ، وَقَدْ رَاعَى الْأَدَبَ فِي ذَلِكَ؛ حَيْثُ لَمْ يَنْسِبْهُ إِلَى اللَّهِ فِي دُعَائِهِ، مَعَ أَنَّهُ فَاعِلُهُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا هُوَ. وَقِيلَ: أَرَادَ مَا كَانَ يُوسُوسُ بِهِ إِلَيْهِ فِي مَرَضِهِ: مِنْ تَعْظِيمِ مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ، وَيُغْرِيهِ عَلَى الْكِرَاهَةِ وَالْجَزَعِ، فَالتَّجَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي أَنْ يَكْفِيَهُ ذَلِكَ بِكَشْفِ الْبَلَاءِ، أَوْ بِالتَّوْفِيقِ فِي دَفْعِهِ وَرَدِّهِ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ. وَرُوي: أَنَّهُ كَانَ يَعُودُهُ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَارْتَدَّ أَحَدُهُمْ، فَسَأَلَ عَنْهُ، فَقِيلَ: أَلْقَى إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَبْتَلِي الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ. وَذُكِرَ فِي سَبَبِ بَلَائِهِ: أَنَّ رَجُلًا اسْتَعَاثَهُ عَلَى ظَالِمٍ فَلَمْ يُغْنِهِ. وَقِيلَ: كَانَتْ مَوَاشِيَهُ فِي نَاحِيَةِ مَلِكٍ كَافِرٍ، فَدَاهَتْهُ وَلَمْ يَغْزِهِ. وَقِيلَ: أُعْجِبَ بِكَثْرَةِ مَالِهِ. ﴿أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ﴾: حِكَايَةُ مَا أُجِيبَ بِهِ أَيُّوبُ، أَيُّ: اضْرَبْ بِرَجْلِكَ الْأَرْضَ. وَعَنْ قَتَادَةَ: هِيَ أَرْضُ الْجَابِيَةِ، فَضْرَبَهَا، فَنبَعَتْ عَيْنٌ فَقِيلَ: ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أَيُّ: هَذَا مَاءٌ تَغْتَسِلُ بِهِ وَتَشْرَبُ مِنْهُ، فَيَبْرَأُ بِاطْنِكَ وَظَاهِرِكَ، وَتَنْقَلِبُ مَا بِكَ قَلْبَةً. وَقِيلَ: نَبَعَتْ لَهُ عَيْنَانِ، فَاغْتَسَلَ مِنْ إِحْدَاهُمَا وَشَرِبَ مِنَ الْأُخْرَى، فَذَهَبَ الدَّاءُ مِنْ ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ بِإِذْنِ اللَّهِ. وَقِيلَ: ضَرَبَ بِرِجْلِهِ الْيُمْنَى فَنبَعَتْ عَيْنٌ حَارَّةٌ فَاغْتَسَلَ مِنْهَا، ثُمَّ بِالْيُسْرَى فَنبَعَتْ بَارِدَةً فَشَرِبَ مِنْهَا. ﴿رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى﴾ مَفْعُولٌ لِهَمَا. وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْهَبَةَ كَانَتْ لِلرَّحْمَةِ لَهُ

وَنُكِبَ فُلَانٌ فَهُوَ مَنْكُوبٌ. وَالْجَابِيَةُ: مَدِينَةُ الشَّامِ، قِيلَ: فِيهَا جِبَابٌ كَثِيرَةٌ كَانَتْ فِي إِقْطَاعٍ إِلَى تَمَامِ.

قَوْلُهُ: (أَيُّ: هَذَا مَاءٌ تَغْتَسِلُ بِهِ)، الرَّاعِبُ: غَسَلْتُ الشَّيْءَ: أَسَلْتُ عَلَيْهِ الْمَاءَ فَأَزَلْتُ دَرَنَهُ، وَالغَسْلُ: الْأَسْمُ، وَالغِسْلُ: مَا يُغْسَلُ بِهِ، وَالْإِغْتِسَالُ: غَسَلْتُ الْبَدَنَ، وَالْمُغْتَسَلُ: مَوْضِعٌ يَغْتَسِلُ فِيهِ^(١).

قَوْلُهُ: (مَا بِكَ قَلْبَةً)، الْأَسَاسُ: قَلْبَةً: دَاءٌ يَتَقَلَّبُ مِنْهُ عَلَى فِرَاشِهِ.

(١) «مفردات القرآن» ص ٦٠٧.

ولتذكير أولي الأبواب؛ لأنهم إذا سمعوا بما أنعمنا به عليه لصبره، رغبهم في الصبر على البلاء وعاقبة الصابرين، وما يفعل الله بهم. ﴿ وَخَذَ ﴾ معطوفٌ على ﴿ أَرْكَضُ ﴾. والضَّغْتُ: الحُزْمَةُ الصَّغِيرَةُ من حَشِيشٍ أو رِيحَانٍ أو غير ذلك. وعن ابن عباس: قُبْضَةٌ من الشجر، كان حَلَفَ في مَرَضِهِ لِيَضْرِبَنَّ امرأته مئةً إذا برأ، فحلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها؛ لحسنِ خدمتها إياه ورضاه عنها، وهذه الرخصة باقية. وعن النبي ﷺ: أنه أُنِيَ بِمُخْدَجٍ، قَدْ خَبُثَ بِأَمَةٍ، فَقَالَ: «خذوا عنكألا فيه مئة شِمْرَاخٍ فاضربوه بها ضربة». ويجبُ أن يُصِيبَ المَضْرُوبَ كُلُّ واحدٍ من المئة، إمَّا أطرافُها قائمَةً، وإمَّا أعراضُها مبسوطةً مع وجودِ صورة الضرب. وكان السبُّ في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبةً في حاجة فحرج صدره. وقيل: باعت ذؤابتها برغيفين وكانتا متعلقَ أيوب إذا قام. وقيل: قال لها الشيطان: اسجُدي لي سجدةً فأردَّ عليكم مالكم وأولادكم، فهمت بذلك فأدركتها العصمة، فذكرت ذلك له، فحلف. وقيل: أوهمها الشيطان أن أيوب إذا شرب الخمر برأ، فعرضت له بذلك. وقيل: سألته أن يقرب للشيطان بعناق. ﴿ وَجَدْتَهُ صَابِرًا ﴾: علمناه صابراً. فإن قلت: كيف وجدته صابراً وقد شكأ إليه ما به واسترَّحه؟ قلت: الشكوى إلى الله عزَّ وعلا لا تُسمَّى جزعاً، ولقد قال يعقوبُ عليه السلام: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحُرْفِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦]، وكذلك شكوى العليل إلى الطبيب؛ وذلك أن أصبر الناس على البلاء لا يخلو من تمنِّي العافية

قوله: (بِمُخْدَجٍ)، أي: ضعيف ناقص البدن.

النهاية: الخداج، النقصان، يقال: خدجت الناقة: إذا ألقت ولدها قبل أوانه وإن كان تام الخلق. «العشكال»: العذق، وكلُّ عُصْنٍ من أغصانه شِمْرَاخٍ، وهو الذي عليه البُسر.

قوله: (ويجبُ أن يُصِيبَ) إلى آخره، وقيل: الصواب لا يجب، بل إن أصابه نُقِلَ الجَمِيعُ بأن يُنكَسَ عليه الشِمْرَاخُ^(١) كفى.

(١) من بداية هذه الفقرة إلى هنا سقط من (ح).

وطلبها، فإذا صحَّ أن يُسمَّى صابراً مع تمني العافية وطلب الشفاء، فليسمَّ صابراً مع اللجأ إلى الله تعالى، والدعاء بكشف ما به، ومع التعلُّج ومُشاورة الأطباء، على أنَّ أيوب عليه السلام كان يطلب الشفاء خيفةً على قومه من الفِتنة، حيث كان الشيطان يُوسوس إليهم كما كان يُوسوسُ إليه أنه لو كان نبياً لما ابتلي بمثل ما ابتلي به؛ وإرادة القوة على الطاعة، فقد بلغ أمره إلى أن لم يبقَ منه إلا القلبُ واللسان. ويروى: أنه قال في مُناجاته: إلهي قد علمت أنه لم يُخالف لساني قلبي، ولم يتبع قلبي بصري، ولم يُهَيِّنني ما ملكت يميني، ولم آكل إلا ومعني يتيم، ولم أبت شعبان ولا كاسياً ومعني جائعٌ أو عُريان؛ فكشَفَ اللهُ عنه.

[وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ﴿٤٥-٤٧﴾]

﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾: عطف بيان لـ ﴿عِبْدَنَا﴾، ومَن قرأ: ﴿عِبْدَنَا﴾ جعل ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ وحده عطف بيان له، ثم عطف ذرئته على ﴿عِبْدَنَا﴾؛ وهي: إسحاق ويعقوب، كقراءة ابن عباس: ﴿وَاللَّهُ آتَابُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. لما كانت أكثر الأعمال تُبأسرُ بالأيدي؛ غُلبت، فقليل في كلِّ عمل: هذا مما عملت أيديهم،

قولُه: (ولم يهَيِّنني)، من الهبة والروع وهو كناية عن التعظيم والإعجاب، قال الشاعر:

بدا فراغٌ فُوادي حُسنٌ منظرُه

قولُه: (ومَن قرأ: «عِبْدَنَا»)، وهو ابنٌ كثير^(١).

قولُه: ﴿جَعَلَ﴾ ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ وحده عطف بيان، قال مكي: فيكون إبراهيمُ داخلاً في العبودية والذِّكر، ﴿وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ داخِلانِ في الذِّكرِ لا غير، وهما داخِلانِ في العبودية بغير هذه الآية^(٢).

(١) انظر: «حجة القراءات» ص ٦١٣.

(٢) «مشكل إعراب القرآن» (٢: ٦٢٦).

وإن كان عملاً لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدي، أو كان العمَلُ جُذْمًا لا أيدي لهم، وعلى ذلك وَرَدَ قوله عَزَّ وِعَلَا: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ يريد: أولي الأعمال والفكر، كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة، ولا يجاهدون في الله، ولا يفكرون أفكار ذوي الديانات، ولا يستبصرون؛ في حكم الزمى الذين لا يقدرّون على أعمال جوارحهم، والمسئوب العقول الذين لا استبصار بهم. وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله، ولا من المستبصرين في دين الله، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكّنين منها. وقُرئ: (أولي الأيدي) على جمع الجمع. وفي قراءة ابن مسعود: (أولي الأيد) على طَرَحِ الياء والاكتفاء بالكسرة. وتفسيره بالأيد - من التأيد - فُلِقَ

قوله: (وتفسيره بالأيد - من التأيد - فُلِقَ)، يُريدُ قولَ الرَّجَاحِ: ومن قرأ: «أولي الأيد» بغير ياء، فمَعْنَاهُ: من التأيد والتَّوْبِيخِ على الشيء، وإِنَّمَا كَانَ فُلِقًا؛ لأنه لا يلائم الأبصار. قال: الأبصار: جَمْعُ البَصَرِ، وهي الجارحة، والمراد هاهنا البصيرة، فإذا لم يجعل ﴿الأيدي﴾ جمع اليد المراد بها العمل لم يتطابقا لفظًا ولا معنى، ولأن التأيد من أفعال الله تعالى وهو لفظه وتوفيقه^(١).

وقال ابن جني: وهي قراءة الحسن والثقفى والأعمش، ويحتمل أن يراد بها ﴿الأيدي﴾ على قراءة العامة، فحذف الياء تخفيفًا، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ [القمر: ٦]، فيراد القوة في إطاعة الله، والعمل بما يرضيه، لقراءته بالأبصار، أي: البصر بما يحظى عند الله، ف﴿الأيدي﴾ على هذا جمع اليد التي هي القوة، كقولك: له يد في الطاعة وقدم في المتابعة، فالمعنيان واحد، وهو: البصيرة والنهضة في طاعة الله تعالى. وقال الشَّاشُ:

إذا ما راية رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تلقاها عرابة باليمين

فلما جعلوا اليد عبارة عن القوة، أغرق فيه وجعل اليمين عبارة عنها؛ لأنها أقوى من الشمال، ويحتمل أن يراد بها النعمة والتأييد، هذا خلاصة كلام ابن جني^(٢).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٣٦).

(٢) «المحتسب» (٢: ٢٣٣).

غَيْرُ مَمَكَّنٍ ﴿أَخْلَصْتُمْ﴾: جَعَلْنَا هُمْ لَنَا خَالِصِينَ ﴿بِخَالِصَةٍ﴾: بِخَصْلَةٍ خَالِصَةٍ لَا شُؤْبَ فِيهَا، ثُمَّ فَسَّرَهَا بِـ ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ شَهَادَةَ لَذِكْرَى الدَّارِ بِالْخُلُوصِ وَالصَّفَاءِ وَانْتِفَاءِ الْكُدُورَةِ عَنْهَا. وَقُرِئَ عَلَى الْإِضَافَةِ. وَالْمَعْنَى: بِمَا خَلَصَ مِنْ ذِكْرَى الدَّارِ،

قَوْلُهُ: ثُمَّ فَسَّرَهَا ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: ٤٦]، أَوْ شَهَادَةَ لَذِكْرَى الدَّارِ بِالْخُلُوصِ وَالصَّفَاءِ، هَذَا كَقَوْلِهِ فِي إِدْبَالِ ﴿الْمَصْرَطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الفاتحة: ٦]، بِقَوْلِهِ: ﴿مَصْرَطِ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، الْإِشْعَارُ بِأَنَّ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ بَيَانُهُ وَتَفْسِيرُهُ صِرَاطُ الْمُسْلِمِينَ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ شَهَادَةً لَصِرَاطِ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِسْتِقَامَةِ عَلَى أْبْلَغِ وَجْهِهِ وَآكِدِهِ، إِلَى آخِرِهِ.

وَقَالَ الرَّجَّاحُ وَأَبُو الْبَقَاءِ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ بَدَلًا مِنْ «خَالِصَةٍ»^(١).

وَقَالَ الْقَاضِي: الْمَعْنَى أَنَّ مَطْمَحَ نَظَرِهِمْ فِيهَا يَأْتُونَ وَيَذَرُونَ جِوَارِ اللَّهِ وَالْقَوْرُ بِلِقَائِهِ، وَذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ، وَإِطْلَاقُ الدَّارِ لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّهَا الدَّارُ الْحَقِيقِيَّةُ، وَالدُّنْيَا مَعْبَرٌ. وَأَضَافَ نَافِعٌ «خَالِصَةً» إِلَى ﴿ذِكْرَى﴾ لِلْبَيَانِ^(٢).

وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: وَالْإِضَافَةُ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الشَّيْءِ إِلَى مَا يُبَيِّنُهُ لِأَنَّ الْخَالِصَةَ^(٣) قَدْ تَكُونُ ذِكْرَى وَغَيْرَ ذِكْرَى، وَالْخَالِصَةُ مُصَدَّرٌ مُضَافٌ إِلَى الْمَفْعُولِ؛ أَي: بِإِخْلَاصِهِمْ ذِكْرَى الدَّارِ، وَقِيلَ: بِمَعْنَى خُلُوصِ، فَالْإِضَافَةُ إِلَى الْفَاعِلِ، أَي بِأَنَّ خَلَصْتَ هُمْ ذِكْرَى الدَّارِ^(٤).

وَعَنْ بَعْضِهِمْ: «خَالِصَةً» اسْمُ فَاعِلٍ، تَقْدِيرُهُ: بِخَالِصِ ذِكْرَى الدَّارِ، أَي: خَالِصٌ أَنْ يُشَابَ بغيره، وَقُرِئَ بِتَنْوِينِ «خَالِصَةً»، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿ذِكْرَى﴾ فِي مَوْضِعِ نَصْبِ مَفْعُولِ «خَالِصَةً»، أَوْ عَلَى إِضْهَارِ: أَعْنِي، وَأَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ رَفْعِ فَاعِلِ «خَالِصَةً»، أَوْ عَلَى تَقْدِيرِ: فِي ﴿ذِكْرَى﴾. وَالْمُصَنَّفُ اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ مُضَافًا إِلَى الْمَفْعُولِ لَهُ، لِقَوْلِهِ: «إِنَّهُمْ لَا يَشُوبُونَ ذِكْرَى الدَّارِ بِهِمْ آخَرَ».

(١) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٦٦) و«التيبان في إعراب القرآن» (٢: ١١٠٢).

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٣١)، ولتتام الفائدة انظر: «حجّة القراءات» ص ٦١٣.

(٣) قوله: «لأن الخالصة» سقط من النسخة (ط).

(٤) «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ١١٠٢).

على أنهم لا يُشوبون ذكري الدار بهم آخر، إنما همهم ذكري الدار لا غير. ومعنى ﴿ذَكَرَى الدَّارِ﴾: ذكراهم الآخرة دائبا، ونسيانهم إليها ذكر الدنيا. أو: تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها، وتزهدهم في الدنيا، كما هو شأن الأنبياء وديدهم. وقيل: ﴿ذَكَرَى الدَّارِ﴾: الثناء الجميل في الدنيا ولسان الصدق الذي ليس لغيرهم. فإن قلت: ما معنى ﴿أَخْلَصْتَهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾؟ قلت: معناه: أخلصناهم بسبب هذه الخصلة، وبأنهم من أهلها. أو: أخلصناهم بتوفيقهم لها، واللفظ بهم في اختيارها. وتعضد الأول قراءة من قرأ: (بخالصتهم). ﴿المُصْطَفَيْنَ﴾: المختارين من بين أبناء جنسهم.

قوله: (ونسيانهم إليها)، صَمَّنَ النِّسيانَ معنى: الصَّم، يعني: معنى ﴿بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ﴾ ذكراهم الآخرة مُنْصِئًا إليها نسيان ذكر الدنيا، أي: هم مُستَغْرِقُونَ في ذِكْرِ الآخِرَةِ مُشْتَغِلُونَ بها عن ذِكْرِ الدُّنْيَا.

قوله: (وقيل: ﴿ذَكَرَى الدَّارِ﴾ الثناء الجميل في الدنيا)، قال أبو البقاء: إضافة «الذكري» إلى «الدار» في المعنى ظرف، أي: ذكركم في الدار الدنيا، وهو: إِمَّا مَفْعُولٌ بِهِ عَلَى السَّعَةِ نحو: «يا سارق الليلة»، أو على حذف حرف الجر نحو: «ذهبت الشام»^(١).

وقال الجوهري: الذكْرُ والذِّكْرَى نقيض النسيان، وذكرت الشيء بعد النسيان وذكرتُه بلساني وبقلبي، والذكر: الصيْتُ والثناء.

فقولُ المُصنِّف: «ومعنى: ﴿ذَكَرَى الدَّارِ﴾ ذكراهم الآخرة دائبا» مبني على أن الذكري نقيض النسيان، لقوله: «ونسيانهم إليها ذكري الدنيا». وقوله: «أو تذكيرهم الآخرة» على أنها من الذكر اللساني، لقوله: (٢) «هو شأن الأنبياء وديدهم». وقوله: «الثناء الجميل في الدنيا» على أن «الذكري»: الصيْتُ والثناء.

قوله: (وتعضد الأول)، أي: على أن تكون التاء للسببية، والمعنى: أنهم من أهلها، أي: هذه الخصلة هم وحقهم، وتضاف إليهم كما أضيفت في هذه القراءة لا أن تكون

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٠٣).

(٢) من قوله: «ونسيانهم إليها ذكري الدنيا» إلى هنا، سقط من (ح).

و﴿الْأَخْيَارِ﴾ جمع خَيْرٍ، أو: خَيْرٌ عَلَى التَّخْفِيفِ؛ كَالْأَمْوَاتِ فِي جَمْعِ مَيْتٍ أَوْ مَيْتٍ.

[﴿وَأَذْكُرُ اسْمَعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ ٤٨]

﴿وَالْيَسَعَ﴾ كَأَنَّ حَرْفَ التَّعْرِيفِ دَخَلَ عَلَى يَسَعَ. وَقُرِيَ: (وَالْيَسَعَ)، كَأَنَّ حَرْفَ التَّعْرِيفِ دَخَلَ عَلَى لَيْسَعَ، فَيَعْلَمُ مِنَ اللَّسَعِ. وَالتَّنْوِينُ فِي ﴿وَكُلٌّ﴾ عِيَاضٌ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، مَعْنَاهُ: وَكُلُّهُمْ مِنَ الْأَخْيَارِ.

[﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَنَابٍ * جَنَّتٍ عَدْنٍ مُمْنَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ * مُتَّكِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَتِهِمْ كَثِيرًا وَشَرَابٍ * وَعِنْدَهُمْ قَصْرَاتُ الْطَّرِيفِ أَرْبَابٌ﴾ ٤٩ - ٥٢]

﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ أَي: هَذَا نَوْعٌ مِنَ الذِّكْرِ؛ وَهُوَ الْقُرْآنُ. لَمَّا أَجْرَى ذِكْرَ الْأَنْبِيَاءِ وَأُمَّتِهِ، وَهُوَ بَابٌ مِنَ أَبْوَابِ التَّنَزِيلِ، وَنَوْعٌ مِنَ أَنْوَاعِهِ، وَأَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ عَلَى عَقِبِهِ بَابًا آخَرَ؛ وَهُوَ

بِتَوْفِيقِهِمْ، أَي: أَخْلَصْنَاهُمْ بِتَوْفِيقِنَا إِيَّاهُمْ لَهَا، وَيَعْضُدُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ الثَّانِي قَوْلُهُ: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ لَمَّا وَصَفُوا بِأَتَمِّهِمْ أَوْلُو الْأَعْمَالِ وَالْفِكْرِ، عَلَّلَ بِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ تَوْفِيقِ اللَّهِ وَتَسْديدِهِ، وَلَوْ قِيلَ: إِيَّتُمْ أَوْلُو الْأَعْمَالِ وَالْفِكْرِ وَأَصْحَابُ الْبَصَائِرِ وَالنَّظَرِ؛ لَأَنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ لَنَا بِسَبَبِ هَذَا الذِّكْرِ وَالْفِكْرِ، لَمْ يَحْسُنْ ذَلِكَ الْحُسْنَ.

قَوْلُهُ: (وَقُرِيَ: «وَالْيَسَعَ»)، قَرَأَهَا حَمْزَةٌ وَالْكَسَائِيُّ^(١)، وَدُخُولُ حَرْفِ التَّعْرِيفِ عَلَيْهِ نَحْوُ قَوْلِهِمْ:

رَأَيْتُ الْوَلِيدَ بْنَ الْيَزِيدِ^(٢)

فِي «الْمَوْضِحِ».

(١) انظر: «حجة القراءات» ص ٢٥٩.

(٢) جزء من بيت شعر للبيد، وهو بتمامه:

رَأَيْتُ الْوَلِيدَ بْنَ الْيَزِيدِ مُبَارَكًا شَدِيدًا بِأَعْبَاءِ الْخِلَافَةِ كَاهِلُهُ

وَيُرَى: «ووجدنا الوليد...»، كما في «لسان العرب» (وسع).

ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَأَهْلِهَا؛ قَالَ: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ كَمَا يَقُولُ الْجَا حِظُّ فِي كِتَابِهِ: فَهَذَا بَابٌ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي بَابِ آخَرَ، وَيَقُولُ الْكَاتِبُ إِذَا فَرَّغَ مِنْ فَصْلٍ مِنْ كِتَابِهِ وَأَرَادَ الشَّرُوعَ فِي آخَرَ: هَذَا وَقَدْ كَانَ كَيْتَ وَكَيْتَ؛ وَالِدَلِيلُ عَلَيْهِ: أَنَّهُ لَمَّا أَتَمَّ ذِكْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَرَادَ أَنْ يُعَقِّبَهُ بِذِكْرِ أَهْلِ النَّارِ؛ قَالَ: ﴿هَذَا وَإِلَى اللَّطِيفِينَ﴾ [ص: ٥٥]. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: هَذَا شَرَفٌ وَذِكْرٌ جَمِيلٌ يُذَكِّرُونَ بِهِ أَبَدًا. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّضَى مِنَ الْأَنْبِيَاءِ. ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ﴾ مَعْرِفَةٌ لِقَوْلِهِ: ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ لِمَرْيَمَ: [٦١]، وَانْتِصَابُهَا عَلَى أَنَّهَا عَطْفٌ بَيَانٌ لـ ﴿لِحَسَنٍ مَّثَابٍ﴾. وَ﴿مُفْتَحَةٌ﴾ حَالٌ، وَالْعَامِلُ فِيهَا مَا فِي ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ. وَفِي ﴿مُفْتَحَةٌ﴾ ضَمِيرُ «الْجَنَّاتِ»، وَ﴿الْأَبْوَابُ﴾ بَدَلٌ مِنَ الضَّمِيرِ، تَقْدِيرُهُ: مُفْتَحَةٌ هِيَ الْأَبْوَابُ، كَقَوْلِهِمْ:

قَوْلُهُ: (وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: هَذَا شَرَفٌ)، ﴿هَذَا﴾ مُبْتَدَأٌ وَ﴿ذِكْرٌ﴾ خَبَرٌ، فَالْمُنَاسِبُ أَنَّ الذِّكْرَ إِذَا أُرِيدَ بِهِ الْقُرْآنُ يَكُونُ بِمَعْنَى التَّذْكِيرِ وَالشَّرْفِ، وَإِذَا أُرِيدَ بِهِ ذِكْرٌ مِّنْ مَّضَى مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يَكُونُ بِمَعْنَى الذِّكْرِ الْمُتَعَارَفِ عَلَى مَا مَضَى فِي قَوْلِهِ: ﴿ذَكَرَى الدَّارِ﴾.

قَوْلُهُ: (لِقَوْلِهِ: ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾)، يَعْنِي: أَنَّ «عَدْنَا» عَلَّمٌ، بِدَلِيلِ وَصْفِهِ بِالْمَوْصُوفِ.

قَوْلُهُ: (وَفِي ﴿مُفْتَحَةٌ﴾ ضَمِيرُ «الْجَنَّاتِ»، وَ﴿الْأَبْوَابُ﴾ بَدَلٌ مِنَ الضَّمِيرِ)، قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: أَمَّا ارْتِفَاعُ ﴿الْأَبْوَابُ﴾ فَفِيهِ ثَلَاثَةٌ أَوْجُهُ: أَحَدُهَا: هُوَ فَاعِلٌ ﴿مُفْتَحَةٌ﴾، وَالْعَائِدُ مَحْذُوفٌ، أَي: مُفْتَحَةٌ هُمُ الْأَبْوَابُ مِنْهَا. وَالثَّانِي: هِيَ بَدَلٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿مُفْتَحَةٌ﴾، وَهُوَ ضَمِيرُ «الْجَنَّاتِ» وَ﴿الْأَبْوَابُ﴾ غَيْرُ أَجْنَبِيٍّ مِنْهَا؛ لِأَنَّهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَقَدْ يُقَالُ: «فَتِيحَتِ الْجَنَّةُ» يُرَادُ أَبْوَابُهَا ﴿وَفُتِيحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النَّبَأُ: ١٩]، قِيلَ: إِنَّ مِنْ شَرَطِ إِعْمَالِ الصِّفَةِ أَنْ يَكُونَ فِي السَّبَبِ دُونَ الْأَجْنَبِيِّ. وَالثَّلَاثُ: كَالأَوَّلِ إِلَّا أَنَّ الأَلِفَ وَاللَّامَ بَدَلٌ مِنَ الهَاءِ الْعَائِدَةِ، وَفِيهِ بَعْدُ، وَهُوَ قَوْلُ الْكُوفِيِّينَ (١).

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٠٣).

ضَرَبَ زَيْدُ الْيَدِ وَالرَّجْلِ، وهو من بَدَلِ الاشتِمَالِ. وقُرئ: (جَنَاتُ عَدْنٍ مَفْتَحَةٌ)

وقال الرَّجَّاجُ: ﴿مُفْتَحَةٌ لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ مِنْهَا، أَجْوَدُ مِنْ أَنْ تَجْعَلَ الْأَيْفَ وَاللَّامَ بَدَلًا مِنْ الضَّمِيرِ لِأَنَّ مَعْنَى اللَّامِ لَيْسَ مِنَ الضَّمِيرِ فِي شَيْءٍ، وَلِأَنَّ الْحَرْفَ لَا يُبَدِّلُ مِنَ الْأِسْمِ^(١).

وقال أبو علي في «الإغفال»: لا يَحُلُو الْأَيْفُ وَاللَّامُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِلتَّعْرِيفِ أَوْ بَدَلًا مِنْ الضَّمِيرِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: حَسَنُ الْوَجْهِ، فَلَوْ كَانَ الثَّانِي لَوْجِبَ أَنْ يَكُونَ فِي ﴿مُفْتَحَةٌ﴾ ضَمِيرٌ ﴿جَنَّتِ﴾ كَمَا فِي قَوْلِنَا: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ حَسَنِ الْوَجْهِ، ضَمِيرُ الرَّجُلِ، بِدَلِيلِ قَوْلِنَا: مَرَرْتُ بِأَمْرَأَةٍ حَسَنَةِ الْوَجْهِ، وَلَوْ كَانَ فِي ﴿مُفْتَحَةٌ﴾ ضَمِيرٌ «الْجَنَاتِ» لَوْجِبَ أَنْ تَنْتَصِبَ ﴿الْأَبْوَابُ﴾، كَقَوْلِهِمْ: الشَّعْرَى رِقَابًا وَالْعَقُورُ كَلْبًا، وَلَا يَرْتَفِعُ؛ لِامْتِنَاعِ ارْتِفَاعِ فَاعِلَيْنِ بِفِعْلِ وَاحِدٍ عَلَى وَجْهِ الْإِشْتِرَاكِ، فَمَا لَمْ يَنْتَصِبْ دَلٌّ عَلَى خُلُوعِ الضَّمِيرِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِثْلُ «حَسَنُ الْوَجْهِ»، فَلَا تَكُونُ اللَّامُ إِلَّا لِلتَّعْرِيفِ فَيَحْتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَى ضَمِيرٍ يَرْجِعُ إِلَى الْمَوْصُوفِ لِنَحْوِ «مِنْهَا» وَ﴿فِيهَا﴾، هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُرَدَّ قَوْلُهُمْ، لَا كَمَا قَالَ الرَّجَّاجُ: إِنَّ مَعْنَى اللَّامِ لَيْسَ مِنَ الضَّمِيرِ فِي شَيْءٍ، فَإِنَّهُ يَنْبَغِي فِي مَعْنَاهُ، كَمَا فِي «حَسَنُ الْوَجْهِ» لِقَوْلِهِمْ: الْحَسَنُ الْوَجْهِ، وَالْحَسَنُ وَجْهَهُ، فَأَدْخَلُوا اللَّامَ فِي الْمَعْنِيِّينَ كَمَا أَدْخَلُوا فِيهِ الضَّمِيرَ، أَلَا تَرَاهُمْ: إِنَّ التَّنْوِينَ بَدَلٌ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ وَيَقُولُونَ: الضَّارِبُ زَيْدٌ. وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ أَيْضًا: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿الْأَبْوَابُ﴾ بَدَلًا مِنَ الضَّمِيرِ الَّذِي فِي ﴿مُفْتَحَةٌ﴾، كَقَوْلِكَ: جَاءَنِي الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ؛ لِأَنَّ الْأَبْوَابَ مِنَ الْجَنَّةِ^(٢)؟

قوله: (ضَرَبَ زَيْدُ الْيَدِ وَالرَّجْلِ)، رُوِيَ عَنِ الْمُصَنِّفِ أَنَّهُ قَالَ: الْجَارُ مَعَ الْمَجْرُورِ فِي حُكْمِ الظَّرْفِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: جَنَاتُ عَدْنٍ اسْتَقَرَّتْ لِلْمُتَّقِينَ حَالَ كَوْنِهَا مُفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابِ، ﴿الْأَبْوَابُ﴾: بَدَلُ الْإِشْتِمَالِ، وَالْيَدُ وَالرَّجْلُ: بَدَلُ الْبَعْضِ مِنَ الْكُلِّ، فَإِنَّمَا يَسْتَشْهَدُ بِهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ ضَمِيرٌ رَاجِعٌ إِلَى زَيْدٍ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ فِي ﴿الْأَبْوَابُ﴾ ضَمِيرٌ رَاجِعٌ إِلَى «الْجَنَاتِ»، قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: مَنْ قَدَّرَ: «مُفْتَحَةٌ أَبْوَابُهَا»، إِنْ أَرَادَ إِفْهَامَهَا الْمَعْنَى فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ شَيْءٍ لِيَرْجِعَ إِلَى الْمَوْصُوفِ فَيَسْتَقِيمَ، وَإِنْ أَرَادَ أَنَّ الْأَيْفَ وَاللَّامَ فِي ﴿الْأَبْوَابُ﴾ بَدَلٌ مِنَ الضَّمِيرِ؛ فَغَيْرُ مُسْتَقِيمٍ.

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٣٧).

(٢) «الإغفال» (٢: ٥٢٤).

بالرفع، على أن (جنات عدن) مُبتدأ، و(مفتحة) خبره، أو كلاهما خبرٌ مبتدأ محذوف، أي: هو جنات عدن هي مفتحة لهم. كأن اللدات سُمين أتراباً؛ لأن التراب مسهنٌ في وقت واحد، وإنما جعلن على سنٍّ واحدة؛ لأن التجاب بين الأقران أثبت. وقيل: هن أترابٌ لأزواجهن، أسنانهن كأسنانهم.

[﴿ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ * إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿ ٥٣-٥٤ ﴾]

قري: ﴿تُوْعَدُونَ﴾ بالتاء والياء ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾: لأجل يوم الحساب، كما تقول: هذا ما تدخرونه ليوم الحساب، أي: ليوم تجزي كل نفس ما عملت.

[﴿ هَذَا وَإِلَى الظَّالِمِينَ لَشَرٌّ مَثَابٍ ﴾ * جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسِفُهَا فَهِيَ كَالْحِجَابِ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ

وقال ابن الحاجب: في ﴿مُفْتَحَةٌ﴾ ضمير «الجنات»، و﴿الْأَبْوَابُ﴾ بدلٌ من الضمير؛ بدل الاشتمال كما تقول: فتحت الجنة أبوابها، والأبواب منها فحذف الضمير للعلم به، كما تقول: ضرب زيد الرأس والظهر^(١).

وقال أبو البقاء: ﴿مُتَكَبِّينَ﴾ حالٌ من المجرور في ﴿لَهُمْ﴾، والعاقل ﴿مُفْتَحَةٌ﴾، ويجوز أن يكون حالاً من «المتقين»، لأنه قد أخبر عنهم قبل الحال، وقيل: هو حالٌ من الضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ وقد تقدم على العاقل^(٢).

قوله: (كَانَ اللَّدَاتِ سُمِينَ أتراباً)، الجوهرى: لِدَةُ الرَّجُلِ: تِرْبُهُ، والهَاءُ عَوْضٌ مِنَ الْوَاوِ الذَّاهِبَةِ مِنْ أَوَّلِهِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْوِلَادَةِ، وَهُمَا لِدَانٍ وَالْجَمْعُ: لِدَاتٌ وَلِدُونٌ، وَقَوْلُهُمْ: هَذِهِ، أَي: لِدَتُهَا. وَهِنَّ أتراب.

قوله: ﴿قُرَى﴾: ﴿تُوْعَدُونَ﴾ بالتاء والياء، بالياء التثنية: ابن كثير وأبو عمرو، والباقون: بالتاء^(٣).

(١) «أمالي ابن الحاجب» (١: ٢٢٢).

(٢) «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ١١٠٣).

(٣) ولتتام الفائدة انظر: «حجة القراءات» ص ٦١٤.

وَعَسَاقٌ * وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَنْزُجٌ * هَذَا قَوْجٌ مُقْنَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِلَيْهِمْ صَلَاةُ النَّارِ *
قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَسَّ الْفَرَارُ * قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدُّهُ عَذَابًا
ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿ ٥٥ - ٦١ ﴾

﴿ هَذَا ﴾ أي: الأمر هذا، أو: هذا كما ذكر. ﴿ فَيَسَّ الْمَهَادُ ﴾، كقوله: ﴿ لَهْمَ مِنْ
جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف: ٤١] شُبِّهَ مَا تَحْتَهُمْ مِنَ النَّارِ بِالْمِهَادِ الَّذِي
يَفْتَرِشُهُ النَّائِمُ، أي: هذا حميمٌ فليذوقوه. أو: العذابُ هذا فليذوقوه، ثم ابتدأ فقال:

قوله: ﴿ هَذَا ﴾، أي: الأمرُ هذا، أو: هذا كما ذُكِرَ، أي: ﴿ هَذَا ﴾ إِمَّا خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ
مَحْدُوفٌ، أو مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ مَحْدُوفٌ، وَالْأَوَّلُ مِنْ فَصْلِ الْخِطَابِ دُونَ الثَّانِي، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿ جَهَنَّمَ ﴾ بَدَلٌ مِنْ «شَرٍّ»، وَ﴿ يَصَلُّونَهَا ﴾ حَالٌ، وَالْعَامِلُ فِيهِ الِاسْتِقْرَارُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾
وقيل: التَّقْدِيرُ: يَصَلُّونَهَا جَهَنَّمَ، فَحَذَفَ الْفِعْلُ ^(١) لِلدَّلَالَةِ مَا بَعْدَهُ عَلَيْهِ.

قوله: (أي: هذا حميمٌ فليذوقوه)، ذَكَرَ فِيهِ ثَلَاثَةٌ أَوْجُهُ: أَحَدُهَا: ﴿ هَذَا ﴾ مُبْتَدَأٌ مَحْدُوفٌ
الْخَبَرُ، أو خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْدُوفٌ، أو مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ مُضْمَرٍ عَلَى شَرْيْطَةِ التَّفْسِيرِ. قَالَ مَكِّي:
قِيلَ: ﴿ فَيَذُوقُوهُ ﴾ خَبَرٌ ﴿ هَذَا ﴾ وَدَخَلَتِ الْفَاءُ لِلتَّنْبِيهِ الَّذِي فِي ﴿ هَذَا ﴾، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ
﴿ هَذَا ﴾ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ بِ«يَذُوقُوا» وَالْفَاءُ زَائِدَةٌ، كَقَوْلِكَ: هَذَا زَيْدٌ فَاضْرِبْهُ، وَلَوْلَا الْفَاءُ
لَكَانَ الْاِخْتِيَارُ النَّصْبُ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ فَهُوَ بِالْفِعْلِ أَوْلَى ^(٢).

وَقَالَ صَاحِبُ «الْكَشَفِ»: جَوَزَ أَبُو عَلِيٍّ أَنْ يَكُونَ ﴿ هَذَا ﴾ مُبْتَدَأً، وَالْخَبَرُ ﴿ حَمِيمٌ
وَعَسَاقٌ ﴾ صِفَةٌ لـ ﴿ حَمِيمٌ ﴾ وَلَيْسَ بِنَوْعٍ آخَرَ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿ فَيَذُوقُوهُ ﴾ عِنْدَهُ اعْتِرَاضًا، كَمَا
تَقُولُ: زَيْدٌ - فَافْهَم - رَجُلٌ صَالِحٌ ^(٣).

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: هُوَ مِثْلُ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

(١) سقط لفظ «الفعل» من (ط).

(٢) «مشكل إعراب القرآن» (٢: ٦٢٧).

(٣) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ٢٦٦)، بتحقيق د. عبد القادر السعدي، و(٢: ١١٥١-١١٥٢)

بتحقيق د. محمد الدالي.

هو ﴿حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ﴾. أو: هذا فليذوقوه، بمنزلة ﴿وَلِيَّتِي فَأَرْهَبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠] أي: ليدوقوا هذا فليذوقوه. والغساق: بالتخفيف والتشديد: ما يغسق من صديد أهل النار، يقال: غسقت العين؛ إذا سال دمعها. وقيل: الحميم يُحرق بحرّه، والغساق يُحرق ببرده.

وقيل: لو قطرت قطرة في المشرق لنتت أهل المغرب، ولو قطرت منه قطرة في المغرب لنتت أهل المشرق. وعن الحسن رضي الله عنه: الغساق: عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى، إن الناس أخفوا الله طاعة فأخفى لهم ثوابا في قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وأخفوا معصية فأخفى لهم عقوبة. (وأخر): ومدوقات أخر من شكل هذا المدوق من مثله في الشدة والفظاعة. ﴿أَزْوَاجٌ﴾:

خولان فانكح فتاتهم^(١)

حمله سيبويه على أن «خولان» جملة^(٢)، وكأنه قال: هؤلاء خولان، فالمعنى على هذا: أئبه - أو أشير - إلى الذي توعده من قبل وعرفوه حق معرفته ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾.

قوله: (والغساق: بالتخفيف والتشديد)، بالتشديد: حفص وحمة والكيسائي^(٣).

الراغب: الغساق: ما يقطر من جلود أهل النار^(٤).

قوله: («وأخر»: ومدوقات أخر)، قال مكّي: و﴿من شكله﴾ صفة ل﴿أخر﴾ و﴿أزواج﴾ الخبر، والهاء في ﴿شكله﴾ يعود على المعنى، أي: وأخر من شكله ما ذكرنا^(٥)،

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «الكتاب» لسيبويه (١: ١٣٩، ١٤٣).

(٣) وهو ما يسيل من جلود أهل النار. وحنة من قرأ بالتخفيف أنه اسم موضوع على هذا الوزن مثل: عذاب ونكال. وفي التفسير أنه الشديد البرد. انتهى من «حنة القراءات» ص ٦١٥.

(٤) «مفردات القرآن» ص ٦٠٦.

(٥) «مشكل إعراب القرآن» (٢: ٦٢٨).

أجناس. وقرئ: ﴿وَأَخْرَ﴾: أي: وعذابٌ آخِر، أو: مَذُوقٌ آخِر. و﴿أَزْوَاجٌ﴾: صفة لـ ﴿وَأَخْرَ﴾؛ لأنه يجوز أن يكون ضُروبًا، أو صفةً للثلاثة، وهي: حَمِيم، وغساق، وآخِر. ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ وقرئ: (من شِكْله) بالكسر، وهي لغةٌ، وأما الغنْجُ فبالكسر لا غير. ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْنَحِمٌ مَعَكُمْ﴾: هذا جمعٌ كثيفٌ قد اقتحمَ معكم النارَ، أي: دخل النارَ في صُحبتكم وقرانكم. والاقْتِحَامُ: رُكُوبُ الشِدَّةِ والدخولُ فيها. والقُحْمَةُ: الشِدَّةُ. وهذه حكايةٌ كلام الطاغين بعضهم مع بعض، أي: يقولون هذا. والمراد بالفَوْج: أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة، فيقتحمون معهم العذاب ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾: دعاءٌ منهم على أتباعهم. تقولُ لمن تدعو له: مَرْحَبًا، أي: أتيت رُحْبًا من البلاد لا ضيقًا، أو: رَحِبْتُ بلادك رُحْبًا، ثم تُدخِلُ عليه «لا» في دُعاء السوء. و﴿بِهِمْ﴾ بيانٌ للمدعو عليهم، ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ تعليلٌ لاستيجابهم الدعاء عليهم، ونحوه قوله تعالى: ﴿كَلِمًا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَّا أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٢٣٨]. وقيل: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْنَحِمٌ مَعَكُمْ﴾: كلامُ الخَزَنَةِ لرؤساء الكفِّرة في أتباعهم، و﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ كلامُ الرؤساء. وقيل: هذا كله كلامُ الخَزَنَةِ. ﴿قَالُوا﴾ أي: الأتباع: ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ يُريدون الدعاء الذي دعوتم به علينا أنتم أحقُّ به، وعللوا ذلك بقولهم:

وقيل: يُعوذُ على الحَمِيم، ويجوزُ أن يكونَ الخبرُ محذوفًا، أي: وهُم آخِر، ومِنْ شَكْلِهِ ﴿وَأَزْوَاجٌ﴾ صِفَتَانِ، ومن قرأ: ﴿أَخْرَ﴾ بالتَّوْحِيدِ رَفَعَهُ بِالْإِبْتِدَاءِ أَيْضًا، و﴿أَزْوَاجٌ﴾ مُبْتَدَأٌ ثَانِ، و﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ خبرُ الأزواج، والجُمْلَةُ خبرُ «أَخْرَ». ويجوزُ أن يكونَ «أَخْرَ» مَعطُوفًا على ﴿حَمِيمٌ﴾، و﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ نَعْتٌ لَهُ، و﴿أَزْوَاجٌ﴾ يَرْتَفِعُ بِالْجَارِ، وَلَا يَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ ﴿أَزْوَاجٌ﴾ خَبْرًا عن «أَخْرَ»؛ لأنَّ الجَمْعَ لَا يَكُونُ خَبْرًا عن الواحد.

قوله: (وأما الغنْجُ فبالكسر لا غير)، يعني: «الشَّكْل» بالفتح، والكسر: المِثْل، وأما الذي بمعنى الغنْج فبالكسر لا غير. الجَوْهَرِي: الشَّكْل؛ بالفتح: المِثْل، وبالكسر: الدَّلُّ، يُقال: امرأةٌ ذاتُ شِكلٍ.

قوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾، ﴿مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ دُعاءٌ مِنْهُمْ. وقال أبو البقاء: ﴿لَا مَرْحَبًا﴾

﴿أَنْتَرَقَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾، والضمير للعذاب أو لصليهم. فإن قلت: ما معنى تقديمهم العذاب لهم؟ قلت: المقدم هو عمل السوء، قال الله تعالى: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ ﴿[الأنفال: ٥٠-٥١]، ولكن الرؤساء لما كانوا السبب فيه بإغوائهم، وكان العذاب جزاءهم عليه؛ قيل: ﴿أَنْتَرَقَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾، فجعل الرؤساء هم المقدمين، وجعل الجزاء هو المقدم، فجمع بين مجازين؛ لأن العاملين هم المقدمون في الحقيقة لا رؤسائهم، والعمل هو المقدم لا جزاؤه. فإن قلت: فالذي جعل قوله: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ من كلام الخزنة ما يصنع بقوله: ﴿بَلْ أَنْتَرَقَدَّمْتُمْ لَنَا﴾

يجوز أن يكون مستأنفاً وأن يكون حالاً، أي: هذا فوج مقولاً له: ﴿لَا مَرْحَبًا﴾، و﴿مَرْحَبًا﴾ منصوب على المصدر، أو على المفعول، أي: لا تسمعون مرحباً. وقوله تعالى: ﴿مَعَكُمْ﴾ يجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿مُقْتَدِحِينَ﴾ أو من ﴿فَوْجٍ﴾؛ لأنه قد وصف، ولا يجوز أن يكون ظرفاً لفساد المعنى، ولا يجوز أن يكون نعتاً ثانياً^(١).

قوله: (فجمع^(٢) بين مجازين)، المجاز الأول في الإسناد: (هم)؛ لأن المقدمين هم الأتباع، فجعل الرؤساء هم المقدمين، ولما كانوا السبب في الإغراء أسند الفعل إليهم. والثاني: العمل هو المقدم، فجعل المقدم الجزاء، وهو من إطلاق اسم المسبب على السبب.

قوله: (فالذي جعل قوله: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ من كلام الخزنة ما يصنع بقوله: ﴿بَلْ أَنْتَرَقَدَّمْتُمْ لَنَا مَرْحَبًا يَكُرُّ﴾؟) يعني: قد سبق أن الرؤساء إذا قالوا لأجل الأتباع: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ دعاء عليهم، صح أن يجيبهم الأتباع بقوله: ﴿بَلْ أَنْتَرَقَدَّمْتُمْ لَنَا مَرْحَبًا يَكُرُّ﴾ وإذا كان ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾^(٣) كلاماً للخزنة فكيف يكون هذا جواباً لهم؟ وأجاب: أن الأتباع إذا سمعوا من الخزنة هذا الدعاء أقبلوا على رؤسائهم قائلين: يا رؤساء السوء أنتم أحق به منا لإغوائكم إيانا.

(١) «البيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٠٥).

(٢) في النسخة (ط): «فجمعوا».

(٣) من قوله: «دعاء عليهم، صح» إلى هنا، سقط من (ح).

والمخاطبون - أعني رؤساءهم - لم يتكلموا بما يكون هذا جواباً لهم؟ قلت: كأنه قيل: هذا الذي دعا به علينا الخزنة أنتم يا رؤساء أحقُّ به منا؛ لإغوائكم إيانا وتسيبكم فيما نحن فيه من العذاب، وهذا صحيح كما لو زين قومٌ لقوم بعض المساوي فارتكبوه، فقيل للمزتين: أخزى الله هؤلاء ما أسوأ فعلهم! فقال المزين لهم للمزتين: بل أنتم أولى بالخزي منا؛ فلو لا أنتم لم نرتكب ذلك. ﴿قَالُوا﴾ هم الأتباع أيضاً: ﴿فَرَدَّهُ عِدَابًا ضَعْفًا﴾ أي: مضاعفاً، ومعناه: ذا ضعف، ونحوه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضَعْفًا﴾ [الأعراف: ٣٨]، وهو أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين، كقوله عز وجل: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضَعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [الأحزاب: ٦٨]، وجاء في التفسير: ﴿عَذَابًا ضَعْفًا﴾ [ص: ٦١]: حياتٍ وأفاعي.

قوله: (فَقِيلَ لِلْمُزْتَيْنِ)، يُروى بكسر الياءِ وَفَتْحِهَا، فَتَقْدِيرُ الْفَتْحِ: الْمُزَيْنُ هُمُ، أَي: الَّذِينَ زَيْنَ الْفِعْلَ هُمُ، وَ«هُمْ» صَلْتُهُ بِنَزْعِ الْخَافِضِ^(١)، وَهَذَا أَوْفَقٌ لِلْمُسْتَشْهَدِ لَهُ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ قِيلَ فِي حَقِّهِمْ: ﴿لَا مَرْجَأَ لَهُمْ﴾ وَهُمْ الْآتِبَاعُ كَالْمُزَيْنِينَ، أَي: الْمُزَيْنِ هُمُ، وَهُمْ الَّذِينَ قَالُوا لِلرُّؤَسَاءِ: ﴿لَا مَرْجَأَ لَكُمْ﴾، وَالْمَتَّبِعُونَ كَالْمُزَيْنِينَ؛ بِالْكَسْرِ.

قوله: ﴿قَالُوا﴾ هُمُ الْآتِبَاعُ أَيضًا، أَي: الْقَائِلُونَ لِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ هُمُ الْآتِبَاعُ أَيضًا. قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: ﴿مَنْ قَدَّمَ﴾ هِيَ بِمَعْنَى: «الَّذِي»، وَ﴿فَرَدَّهُ﴾ الْخَبْرُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿مَنْ﴾ نَصْبًا، أَي: فَرَدَّ مَنْ قَدَّمَ^(٢).

وقلت: فعلى هذا يكون منصوباً على شريطة التفسير، والأتباع لما كافحوا الرؤساء بقولهم: ﴿أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ وَصَلُّوا بِهِ مُتَضَرِّعِينَ: رَبَّنَا فَرَدَّ مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا، ثُمَّ عَطَفُوا عَلَيْهِ ﴿فَرَدَّهُ﴾، أَي: زِيَادَةً غَبَّ زِيَادَةً مِنْ غَيْرِ انْقِطَاعِ.

قوله: (كقوله: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضَعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [الأحزاب: ٦٨])، يعني: وصف العذاب بالضعف في الآيتين على معنى: مضاعفاً، وذا ضعف، وفي الآية الثالثة بين ضعفين

(١) سقط من لفظ «الخافض» من النسخة (ح).

(٢) «التيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٠٦).

بقوله: ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالضَّعْفِ: أَنْ يُزَادَ عَلَى عَذَابِهِ مِثْلُهُ؛ لِأَنَّ الْقِصَّةَ وَاحِدَةً، وَأَنَّهُ مِنْ كَلَامِ الْأَتْبَاعِ لِلرُّؤَسَاءِ. وَقِيلَ: بَلِ الصَّوَابُ أَنْ تَقُولَ: إِذَا زِيدَ عَلَيْهِ ضِعْفُهُ يَصِيرُ أضعافًا لَا ضِعْفِيَّةً، فَإِنَّ ضِعْفَ الشَّيْءِ مِثْلَاهُ، وَضِعْفِيَّةٌ ثَلَاثَةٌ أَمْثَالِهِ، وَهُوَ الْمُوَافِقُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ وَإِذَا زَادَ عَلَى عَذَابِهِمْ ضِعْفًا فَيَكُونُ قَدِّ أَتَاهُمْ ضِعْفَيْنِ فَتَطَابَقَ قَوْلُهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ عَذَابِكِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [الأحزاب: ٦٨]، وَنَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى التَّوْفِيقِ لِاسْتِخْرَاجِ الْمَعَانِي الدَّقِيقِ.

وَقُلْتُ: نَظِيرُ هَذَا الْبَحْثِ ذَكَرَهُ صَاحِبُ «الْمُغْرِبِ»، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ وَلَا بَأْسَ أَنْ نُعِيدَهُ هَاهُنَا، قَالَ: رَوَى أَبُو عَمْرٍو عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُضْعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] قَالَ: مَعْنَاهُ: جَعَلَ الْوَاحِدَ ثَلَاثَةً أَيْ: تُعَذَّبُ ثَلَاثًا أَعْدِبَةً. وَأَنْكَرَهُ الْأَزْهَرِيُّ وَقَالَ: هَذَا هُوَ الَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ النَّاسُ فِي كَلَامِهِمْ وَمُتَعَارَفِهِمْ، وَإِنَّمَا الَّذِي قَالَ الْحَدَّاقُ: إِنَّهَا تُعَذَّبُ مِثْلِي عَذَابٍ غَيْرِهَا؛ لِأَنَّ الضَّعْفَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْمِثْلُ إِلَى مَا زَادَ، وَلَيْسَتْ تِلْكَ الزِّيَادَةُ بِمَقْصُورَةٍ عَلَى مِثْلَيْنِ فَيَكُونُ مَا قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ صَوَابًا، وَهَذَا عُلِمَ أَنَّ مَا قَالَهُ الْفَقِهَاءُ غَيْرُ مَرَضِي، أَلَا تَرَى كَيْفَ صَرَّحَ بِقَوْلِهِ يَزِيدُ عَلَى عَذَابِهِ مِثْلُهُ فَيَصِيرُ ضِعْفَيْنِ، أَيْ: مِثْلَيْنِ^(١)؟

الرَّاعِبُ: الضَّعْفُ: مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمُتَضَايِفَةِ كَالنِّصْفِ وَالزَّوْجِ، وَهُوَ تَرْكُوبُ زَوْجَيْنِ^(٢) مُتَسَاوَيْنِ، وَيَخْتَصُّ بِالْعَدَدِ، فَإِذَا قِيلَ: أضعفْتُ الشَّيْءَ وَضعفْتُهُ وضاعفتُهُ: ضَمَمْتُ إِلَيْهِ مِثْلَهُ فَصَاعِدًا. وَالضَّعْفُ: مَصْدَرٌ، وَالضَّعْفُ: اسْمٌ، كَالْمِثْنَى وَالشَّيْءِ، فَضعفْتُ المِثْنَى هُوَ الَّذِي يُشْبِهُهُ، وَمَتَى أُضِيفَ إِلَى عَدَدٍ اقْتَضَى ذَلِكَ الْعَدَدَ وَمِثْلُهُ نَحْوُ أَنْ يُقَالَ: ضعفْتُ العَشْرَةَ فَذَلِكَ عِشْرُونَ بِلَا خِلَافٍ، وَإِذَا قِيلَ: أعطيه ضعفي واحد، فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي الْوَاحِدَ وَمِثْلِيهِ وَذَلِكَ ثَلَاثَةٌ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ الْوَاحِدُ وَاللَّذَانِ يُزَاوِجَانِهِ، هَذَا إِذَا كَانَ الضَّعْفُ مُضَافًا، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مُضَافًا فَقُلْتُ: الضَّعْفَيْنِ، قِيلَ: ذَلِكَ يَجْرِي مِثْلِي وَجْرِي فِي أَنْ كَلَّا مِنْهُمَا يُزَاوِجُ الْآخَرَ

(١) «المغرب في ترتيب المعرب» (٢: ١٠).

(٢) كذا في النسخ الخطية. وفي «مفردات القرآن»: قدْرَيْنِ.

[﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رَجَالًا كَمَا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ * أَخَذَتْهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ رَأَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصُرُ﴾ ٦٢-٦٣]

﴿وَقَالُوا﴾ الضمير للطاغين، ﴿رَجَالًا﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه لهم، ﴿مِنَ الْأَشْرَارِ﴾: من الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى؛ ولأنهم كانوا على خلاف دينهم، فكانوا عندهم أشرازا. ﴿أَخَذَتْهُمْ سِحْرِيًّا﴾ قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة لـ ﴿رَجَالًا﴾ مثل قوله: ﴿كَمَا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾؛ وبهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسخار منهم. وقوله: ﴿أَمْ رَأَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصُرُ﴾ له وجهان من الاتصال؛ أحدهما: أن يتصل بقوله: ﴿مَا لَنَا﴾ أي: ما لنا لا نراهم في النار؟ كأنهم ليسوا فيها، بل أزاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم فيها؟ فسَمُوا أمرهم

فيقتضي ذلك اثنين لأن كلاً منهما^(١) يضاعف الآخر فلا يخرجان عن الاثنين، بخلاف إذا أضيف الضعفان إلى واحد فيثقلها، نحو: ضعفي الواحد^(٢).

قوله: (لا يؤبه لهم)، أي: لا يبالى بهم. الأساس: لا يؤبه به، وما أهت له.

قوله: (﴿أَخَذَتْهُمْ سِحْرِيًّا﴾ قرئ بلفظ الإخبار)، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿مِنَ الْأَشْرَارِ * أَخَذَتْهُمْ﴾ بوصل الألف، وإذا ابتدؤوا كسروها. والباقون: بقطعها في الحالين مستفهمين^(٣).

قوله: (وتأنيب لها)، الجوهري: أتبه تأنيباً، عنقه ولامه. وقال: التأنيب، التوبيخ، حقيقته أنه مأخوذ من الإناب وهو: المسك، فكانه بالتوبيخ يزيد عنه الطيب والإناب، فإنه يقدح فيه ويعد عليه العيوب والجنايات.

قوله: (فسَمُوا أمرهم) أي: فسَم الطاغون أمر الرجال بين أن يكونوا من أهل الجنة

(١) من قوله: «يزاوج الآخر فيقضي» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) «مفردات القرآن» ص ٥٠٨.

(٣) انظر: «حجّة القراءات» ص ٦١٦.

بَيْنَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَبَيْنَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، إِلَّا أَنَّهُ خَفِيَ عَلَيْهِمْ مَكَائِهِمْ. وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنْ يَتَّصَلَ بِـ ﴿أَتَّخَذْنَهُمْ سِخْرِيًّا﴾، وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ ﴿أَمْ﴾ مَتَّصِلَةً عَلَى مَعْنَى: أَيُّ الْفَعْلَيْنِ فَعَلْنَا بِهِمْ: الِاسْتِسْخَارَ مِنْهُمْ، أَمْ اِزْدِرَاءَهُمْ وَتَحْقِيرَهُمْ، وَأَنَّ أَبْصَارَنَا كَانَتْ تَعْلُو عَنْهُمْ وَتَقْتَحِمُهُمْ؟ عَلَى مَعْنَى إِنْكَارِ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ. وَعَنِ الْحَسَنِ: كُلُّ ذَلِكَ قَدْ فَعَلُوا: اتَّخَذُوهُمْ سِخْرِيًّا، فَرَاغَتْ عَنْهُمْ أَبْصَارُهُمْ مُحَقَّرَةً لَهُمْ. وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ مُنْقَطِعَةً بَعْدَ مُضِيِّ ﴿أَتَّخَذْنَهُمْ سِخْرِيًّا﴾ عَلَى الْخَبَرِ أَوْ الِاسْتِفْهَامِ،

وَبَيْنَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَعَلَى هَذَا: الْمُنَاسِبُ أَنْ يَكُونَ ﴿أَتَّخَذْنَهُمْ سِخْرِيًّا﴾ إِخْبَارًا صِفَةً لـ ﴿رِجَالًا﴾.

قَوْلُهُ: (تَعْلُو عَنْهُمْ)، أَيُّ: تُحَقِّرُهُمْ. الْأَسَاسُ: أَعْلُ عَنِّي: تَنَحَّ عَنِّي، وَعَالٍ عَنِ الْوِسَادَةِ وَعَالٌ عَنْهَا، قَالَ:

فِيَا حُبَّ لَيْلِي أَعْلُ عَنِّي قَتَلْتَنِي وَأَعْقَبَ بِنَاسٍ صَحِيحٍ مَكَانِيَا^(١)

قَوْلُهُ: (عَلَى الْخَبَرِ أَوْ الِاسْتِفْهَامِ)، التَّعْرِيفُ فِي «الْخَبَرِ» لِلْعَهْدِ، وَ«الِاسْتِفْهَامِ» لِلْعَهْدِ وَالْمَعْنَى قَوْلُهُ: ﴿أَتَّخَذْنَهُمْ سِخْرِيًّا﴾، قُرِئَ بِلَفْظِ الْإِخْبَارِ، إِلَى قَوْلِهِ: «وَبِهِمْزَةَ الِاسْتِفْهَامِ»^(٢)، أَمَّا الْمَعْنَى عَلَى الْخَبَرِ فَإِنَّهُمْ أَخْبَرُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَسُوءِ صَنِيعِهِمْ بِالْمُسْلِمِينَ مِنَ الِاسْتِهْزَاءِ وَالسَّخْرِيَّةِ عَلَى سَبِيلِ النَّدَمِ وَالتَّحَسُّرِ، ثُمَّ أَضْرَبُوا عَنِ الْإِخْبَارِ بِالْأَخْذِ فِي الْإِنْكَارِ وَتَأْنِيْبِ أَنْفُسِهِمْ، يَعْنِي: لَمْ يَكُنْ مَوْضِعَ الْإِخْبَارِ؛ بَلْ هُوَ مَوْضِعُ الْإِنْكَارِ، أَزَاغَتْ أَبْصَارُنَا وَكَلَّتْ أَفْهَامُنَا حَيْثُ اِزْدَرَيْنَا بِهِمْ وَاسْتِسْخَرْنَا مِنْهُمْ؟ فَهِيَ كَقَوْلِكَ: إِنَّمَا لِابِلُ أَمْ شَاءَ، وَأَمَّا عَلَى الِاسْتِفْهَامِ: فَإِنَّهُمْ أَنْكَرُوا أَوَّلًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ الِاسْتِسْخَارَ مِنْهُمْ ثُمَّ أَضْرَبُوا عَنْهُ وَأَنْكَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَبْلَغَ مِنْ ذَلِكَ، أَيُّ: دَعَّ ذَلِكَ، أَزَاغَتْ أَبْصَارُنَا وَكَلَّتْ أَفْهَامُنَا حَيْثُ خَفِيَ عَنَّا مَكَائِهِمْ وَأَنْتُمْ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ وَنَحْنُ عَلَى الْبَاطِلِ وَمَا تَبِعْنَاهُمْ؟ فَهِيَ كَقَوْلِكَ: أَرَيْدُ عِنْدَكَ؟ أَمْ عِنْدَكَ عَمَرُو؟ فَالْمِثَالَانِ فِي الْكِتَابِ نَشْرُ لِقَوْلِهِ: «عَلَى الْخَبَرِ أَوْ الِاسْتِفْهَامِ»^(٣).

(١) لم أهدد إليه.

(٢) من قوله: «التعريف في الخبر» للعهد» إلى هنا، سقط من (ح).

(٣) انظر: «حجة القراءات» ص ٤٩١.

كقولك: إنها لإيبل أم شاء؟ و: أزيد عندك أم عندك عمرو؟ ولك أن تقدّر همزة الاستفهام محذوفة فيمن قرأ بغير همزته؛ لأن ﴿أم﴾ تدلُّ عليها، فلا تفرّق القراءتان: إثبات همزة الاستفهام وحذفها. وقيل: الضمير في ﴿وقالوا﴾ لصناديد قريش كأي جهل والوليد وأصراهما، والرجال: عمارٌ وصهيبٌ وبلالٌ وأشباههم. وقرئ: ﴿سخرتاً﴾ بالضم والكسر.

[﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ٦٤]

﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي: الذي حكينا عنهم ﴿لحَقٌّ﴾ لا بدّ أن يتكلّموا به، ثم بيّن ما هو فقال: هو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾. وقرئ بالنصب على أنه صفة لـ ﴿ذَلِكَ﴾؛ لأنّ أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس. فإن قلت: لِمَ سُمِّي ذلك تخاصماً؟ قلت: شبه

قوله: (وقيل: الضمير في ﴿وقالوا﴾ لصناديد قريش)، عطف على قوله: «﴿وقالوا﴾ الضمير للطاغين»، فعلى هذا يلزم الإضمار قبل الذكر وحذف (١) النظم، ولا يجوز أن يختصّ قوله: ﴿لِلطَّغِينِ﴾ بصناديد قريش؛ لأنه في مقابل قوله: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَنَاقِبٍ﴾ وهو عام. قوله: (وقرئ: ﴿سخرتاً﴾ بالضم والكسر)، بالضم: نافعٌ وحمزة والكسائي، والباقون: بالكسر (٢).

قوله: (لأنّ أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس)، هذا مناقض لقوله في «المفصل»: اسم الإشارة لا يوصف إلا بها فيه الألف واللام.

قال صاحب «التقريب»: ﴿تَخَاصُمُ﴾ بدّل من ﴿ذَلِكَ﴾، لا صفة لاسم الإشارة؛ إنّما يوصف بها فيه الألف واللام. وقال ابن الحاجب: إنّما التزم وصف باب ﴿هَذَا﴾ بذي اللام للإبهام، يعني: أنّ المبهّم يدلُّ على الحضور والتعيين، ولم يدلُّ على حقيقة الذات التي أُشيرَ به إليها، فلا بدّ أن يُذكر بعده ما يدلُّ على حقيقة الذات، ولا طريق له إلا وصفه به،

(١) وهو قطعه، وفي (ط): «وحزم»، وهو صحيح متجه كذلك.

(٢) انظر: «التيسير» للداني ص ١٦٠.

تقاؤلهم وما يجري بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين من نحو ذلك؛ ولأن قول الرؤساء: ﴿لَا مَرْجَأَ بِهِمْ﴾، وقول أتباعهم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَأَ بِكُمْ﴾، من باب الخصومة، فسُمي التقاؤل كله تخصصًا؛ لأجل اشتماله على ذلك.

فوصفه بما يدل على خصوصية الذات، قبل وصفه بما يدل على معنى الذات، هو القياس، والأسماء الدالة على حقيقة الذات هي أسماء الأجناس لا العلم ونحوه، وتعريفها باعتبار معناها في نفسها إنما هو باللام^(١). قال بعض المغاربة: وذلك أن اللام معرفة لحقيقة الذات بخلاف الإضافة، فإن تأثيرها في اختصاص حقيقة الذات بالمُضاف إليه وذلك بعد تعرف حقيقة الذات.

وقلت: هاهنا شيء آخر، وهو الفصل بين اسم الإشارة وصفته بالخبر، وهو غير جائز. وقال صاحب «المقتبس»: ومن المسائل في هذا النحو لا يجوز أن تقول: مررت بهذا يوم الجمعة الرجل، ويجوز: مررت بزيد يوم الجمعة العاقل، والفرق: أن اتصال الصفة بالمُبهم أشد من اتصالها بسائر الموصوفات؛ لأن اسم الإشارة واسم الجنس كالشيء الواحد من جهة أن المقصود بهما جميعًا ما يقصد من الأسماء، ومنه امتنع: مررت بهذين العاقل والطويل، وجاز: مررت بالزيدين العاقل والطويل؛ لأن صفة غير اسم المُبهم ليست في الامتزاج كالمُبهم، قالوا: ولذلك لم يجز أيضًا نحو قولك: مررت بهذا ذي المال؛ لأن ذلك يؤدّي إلى جعل ثلاثة أشياء شيئًا واحدًا، وإنه مرفوض. ومما مثلوا أيضًا لا تقول: لقيت هذا والخطوب كثيرة الرجل، وقريب من الفصل الأول في شرح الركني.

قوله: (ولأن قول الرؤساء: ﴿لَا مَرْجَأَ بِهِمْ﴾ وقول أتباعهم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَأَ بِكُمْ﴾ من باب الخصومة)، الانتصاف: هذا يوافق التخصص؛ لأن الخصومة من الجهتين، بخلاف لمن قال: إن الكلام الأول من كلام خزنة جهنم، والثاني من كلام الأتباع؛ لأن الخصومة حينئذ من أحد الفريقين^(٢). والجواب ما سيجيء في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْيُنِ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

(١) «الإيضاح في شرح المفصل» (١: ٤٢٢ - ٤٢٣) بتحقيق د. إبراهيم محمد عبد الله، ط دمشق.

(٢) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٠٣).

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿ ٦٥-٦٦ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لمُشركي مكة: ما ﴿ أَنَا ﴾ إلا رسول ﴿ مُنذِرٌ ﴾: أنذركم عذاب الله للمشركين، وأقول لكم: إنَّ دينَ الحق توحيدُ الله، وأن يُعتقد أن لا إله إلا الله ﴿ الْوَاحِدُ ﴾ بلا نِدْ ولا شريك ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ لكلِّ شيء، وأنَّ المُلْك والرُّبُوبِيَّة له في العالم كُله، وهو ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يُغلب إذا عاقبَ العُصاة، وهو مع ذلك ﴿ الْغَفُورُ ﴾ لذُنُوب مَنِ

تولَّه: ﴿ قُلْ ﴾ يا مُحَمَّد لمُشركي مَكَّة: ما ﴿ أَنَا ﴾ إلا رَسولٌ ﴿ مُنذِرٌ ﴾، يعنى: هذه الآية مُتعلِّقة بأولِ السُّورة، فإنَّه تعالى لما أقسمَ بقوله: ص، إنَّ القرآنَ حقٌّ، وإنَّ مُحَمَّدًا صلواتُ الله عليه لصادقٍ، ثُمَّ أنكَرَ على مُشركي مَكَّة عِزَّتَهُم وشِقَاقَهُم وقَوْلَهُم: ﴿ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص: ٤]، وتَعَجَّبَهُم مِن كَوْنِهِ مُنذِرًا وأنَّ الإلهَ واحدًا، وَعَدَّ قَبائحَهُم وعِنادَهُم وحَسَدَهُم، ثُمَّ استَهزَأَ بِهِم بقوله: ﴿ فَلْيَرْثِقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ ثُمَّ حَسَّاهُمْ وَأَتَمَّهُم جُنْدًا ما هُنالك مَهزُومٌ مِن جِنسِ الأحزابِ الخالية الذين كَذَّبُوا رُسُلَهُم فأهلَكَهُمُ اللهُ، وفَصَّلَ ذِكرَ الأنبياءِ مُسَلِّيًا لِحَبِيبِهِ صلواتُ اللهُ عليه ومُستصيرًا له، كُلُّ ذلك تمهيدًا للامرِّ بالإندارِ والبشارةِ والدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ وعبادةِ اللهُ وتوطئةَ له، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ﴾ ويَدُلُّ عليه قولُه: ﴿ قُلْ هُوَ نَبِيُّ عَظِيمٌ ﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿ وإِنَّا قَرَنَ مَعَ «المُنذِرِ» الرِّسولُ في الوَجْهِ الأوَّلِ ذِوَنِ الثَّانِي؛ لأنَّ المُنذِرَ إِذْ بِنِياةٍ عَن كَوْنِهِ رَسولًا، فلا يَكُونُ رَسولًا إِلا أن يَكُونُ مُنذِرًا ومُبَشِّرًا، ولِهذا عَطَفَ قولُه: ﴿ وأقولُ لكم: إنَّ دينَ الحقِّ توحيدُ اللهُ ﴾ على «أنذركم»، وفَسَّرَهُ بقوله: ﴿ وأنَّ يَعتقدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ ﴾ إلى قولِه: ﴿ وهو مع ذلك العَفَّارُ لذُنُوبِ مَنِ التَّجَأَ إِلَيْهِ ﴾، وعلى الوَجْهِ الثَّانِي: «المُنذِرِ» مُجَرِّى على حَقِيقَتِهِ. وقولُه: ﴿ ما أَعَلَّمُ ﴾ إشارةً إلى إطلاقِ لَفظِ ﴿ مُنذِرٌ ﴾ وإِهْمامِهِ لتَضخيمِ أمرٍ ما يُنذِرُ به، وقولُه: ﴿ أنا أنذِرُ عُقُوبَةَ مَنِ هذه صِفتُهُ ﴾ عَطَفَ تَفْسيرِيَّ وتَقْيِيدَ للمُطلقِ، والحاصِلُ أنَّ قولَه: ﴿ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللهُ ﴾ في التَّنزيلِ على الوَجْهِينِ عَطَفٌ على مُضَمَّرٍ يُقَدَّرُ بِحَسَبِ تَفْسيرِ قولِه: ﴿ مُنذِرٌ ﴾ وَيَنْصُرُ الوَجْهَ الأوَّلَ قولُه: ﴿ قُلْ هُوَ نَبِيُّ عَظِيمٌ ﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿ وإليه الإِشارةُ بقوله: ﴿ مِن كَوْنِي رَسولًا مُنذِرًا وأنَّ اللهُ واحدٌ ﴾.

التجأ إليه. أو: قل لهم: ما أنا إلا منذرٌ لكم ما أعلمُ، وأنا أنذركم عقوبةً من هذه صفتُهُ، فإن مثله حَقِيقٌ بأن يُخافَ عقابه، كما هو حَقِيقٌ بأن يُرجى ثوابه.

[﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ *﴾
يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٦٧-٧٠﴾]

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي: هذا الذي أنبأكم به - من كوني رسولاً مُنذِراً، وأن الله واحدٌ لا شريك له - نبأٌ عظيم لا يُعرض عن مثله إلا غافلٌ شديدُ العفلة. ثم احتجَّ لصحة نبوته بأن ما يُنبئ به عن الملائكة الأعلَى واختصاصهم أمرٌ ما كان له به من عِلْمٍ قط، ثم عِلْمَهُ ولم يسلك الطريق الذي يسلكه الناس في عِلْمٍ ما لم يعلموا، وهو الأخذ من أهل العلم وقراءة الكتب، فعلم أن ذلك لم يحصل إلا بالوحي من الله. ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾ أي: لأنها أنا نذيرٌ. ومعناه: ما يوحى إلي إلا للإنذار، فحذف

قوله: (أي: لأنها أنا نذير)، هذا إذا قرئ: ﴿أَنَّمَا﴾ بالفتح، وهي المشهورة^(١)، وهو يَحْتَمِلُ وجهين: أحدهما: أن يكون على نزع الخافض وإفضاء الفعل، والقائم مقام الفاعل في: ﴿يُوحَى﴾ الظرف، والمعنى: ما يوحى من أمرٍ من الأمور إلا لأنذِرَ وأبلغ ولا أفرط في ذلك. وثانيهما: أن يكون ﴿أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾ هو القائم مقام الفاعل و﴿إِلَى﴾ ظرفٌ، والوحي على هذا بمعنى: الأمر، ولهذا قال: «ما أمرٌ إلا بهذا الأمر»، فقوله: «وحدّه وليس إلي غير ذلك» معنى: ﴿أَنَّمَا﴾؛ لأن في الكلام حصرين كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُمُ كُؤُودٌ وَوَاحِدٌ﴾ [فصلت: ٦].

فإن قلت: فما هذا الحصر؟ كأنه صلواتُ الله عليه لم يوح إليه إلا باختصاص النذارة أو لم يؤمر إلا باختصاص الإنذار^(٢)، كما قال: «وليس إلي غير ذلك»؟ قلت: المُخاطَبُونَ مشرِّكون، وكان الذي يُنكَرُونَ عليه صلواتُ الله عليه الإنذارُ والدعوةُ إلى التوحيد، كما مضى من مُفتتح السورة إلى أن بلغ إلى قوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ فما أوتِر اختصاص

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٢٢٧).

(٢) قوله: «إلا باختصاص الإنذار» سقط من النسخة (ح).

اللامُ وانتصبَ بإفشاء الفعلِ إليه، ويجوزُ أن يرتفعَ على معنى: ما يوحى إليّ إلا هذا، وهو أن أُنذِرَ وأبْلَغَ ولا أُفْرَطَ في ذلك، أي: ما أومرُ إلا بهذا الأمرِ وحدَه، وليس إليّ غيرُ ذلك. وقرئ: (إنما) بالكسرِ على الحكاية، أي: إلا هذا القولُ؛ وهو أن أقولَ لكم: إنما أنا نذيرٌ مُبين، ولا أدعي شيئاً آخرَ. وقيل: النبأُ العظيم: قصصُ آدمَ عليه السلام والإنباءُ به من غيرِ سَماعٍ من أحد. وعن ابنِ عباس: القرآنُ. وعن الحسن: يومُ القيامة. فإن قلت: بِمَ يتعلّقُ ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾؟ قلت: بمحذوف؛ لأنَّ المعنى: ما كان لي من عِلْمٍ بكلامِ الملائِ الأعلَى وقتِ اختصامِهِم. و﴿إِذْ قَالَ﴾ بدَلٌ من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾. فإن قلت: ما المرادُ بالملائِ الأعلَى؟ قلت: أصحابُ القِصَّة: الملائِكَةُ وآدمُ وإبليسُ؛ لأنهم كانوا في السماء، وكان التقاؤُ بينهم. فإن قلت: ما كان التقاؤُ بينهم، إنما كانَ بين الله تعالى وبينهم؛ لأنَّ الله سبحانه هو الذي قالَ لهم وقالوا له، فأنتَ بينَ أمرين:

الإندارِ إلا لاختصاصِ مِنَ المُنذَرينَ وبذا أمرُهُم، وكان الواجبُ قَلعَ الشُّركِ وإزالةَ ما يَبغِي إزالته، فإذا أُزِيلَ ذلكَ وبدَلُ بالإيمانِ والأعمالِ الصَّالِحَةِ جازَ أن يُسْرُوا، كما قالَ تعالى: ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مَن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢]، كأنه قالَ صلواتُ الله عليه: ما يوحى الآنَ في شأنِكُم إلا لأن أُنذِرَكُم.

قوله: (فأنتَ بينَ أمرين)، أي: أمرين مُتتبعين؛ لأنك إذا قُلت: الملائِ الأعلَى: الملائِكَةُ، والخُصومةُ: هي المُقاولةُ التي جرتَ بينهم وبينَ الله في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، إلى آخره، يَدُلُّ عليه قوله هاهنا: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ فلا يصحُّ معنى ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، لأن الاختصامَ ليسَ بينَ الملائِكَةِ، بل بينهم وبينَ الله تعالى، وإن جعلتَ ﴿اللهُ﴾ من قبيلِ الملائِ الأعلَى على التَّغليبِ فقد أبعَدتَ المرْمى.

وأجابَ بما يلزمُ إسنادَ ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ أن يكونَ حَقِيقَةً ومجازًا معًا، وهو ضَعيفٌ كما عُلِمَ، والأولى أن لا يُجَعَلَ ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ﴾ بدَلًا من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، بل يكونُ منصوبًا

بإضمار «اذكر» ويُفسَّرُ الْمُخَاصِمَةَ بما روينا عن الإمام أحمد بن حنبلٍ والترمذي عن معاذ ابن جبل، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني قُمتُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْتُ وَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي فَتَعَسْتُ فِي صَلَاتِي حَتَّى اسْتَقَلْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَبِّي، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي، قَالَهَا ثَلَاثًا، قَالَ: فَرَأَيْتَهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيْي حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيْي، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: فِي الْكُفَّارَاتِ، قَالَ: مَا هُنَّ؟ قُلْتُ: مَشْيُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَالْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ حِينَ الْمَكْرُوهَاتِ، قَالَ: ثُمَّ فِيمَ؟ قُلْتُ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَلِينُ الْكَلَامِ، وَالصَّلَاةُ وَالنَّاسُ نِيَامٌ. قَالَ: سَلْ، قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ، وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّهَا حَقٌّ، فَادْرُسُوهَا ثُمَّ تَعَلَّمُوهَا»^(١). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَسَأَلْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ عَنِ هَذَا الْحَدِيثِ، فَقَالَ: هَذَا صَحِيحٌ.

وبه فسَّرَ مُحِبِّي السُّنَّةِ الْآيَةَ^(٢) وَصَاحِبُ «المطلع» أَيْضًا.

وَقَالَ التُّورِيشْتِيُّ: وَمَعْنَى اخْتِصَامِ الْمَلَائِكَةِ: تَفَاوُضُهُمْ فِي فَضْلِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْجِنْسَيْنِ، أَعْنِي الدَّرَجَاتِ وَالْكَفَّارَاتِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ: اغْتِبَاطُ الْمَلَائِكَةِ بَنِي آدَمَ بِهَذِهِ الْفَضَائِلِ لِاخْتِصَامِهِمْ بِهَا وَتَقَاوُلُهُمْ فِي فَضْلِ الْبَشَرِ، وَالسَّبَبُ الْمَوْجِبُ لِدَلِّكَ مَعَ تَهَاؤُنِهِمْ فِي الشَّهَوَاتِ، ثُمَّ قَالَ: وَالِاخْتِصَامُ الَّذِي فِي الْآيَةِ وَالَّذِي فِي الْحَدِيثِ يُحْتَمَلُ أَنَّهُمَا فِي قَضِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ كُلَّ وَاحِدٍ فِي قَضِيَّةٍ، أَمَّا الْأَوَّلُ فَقَدْ ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٢٢١٠٩) وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٢٣٥)، وَلِلْحَافِظِ ابْنِ رَجَبٍ الْحَنْبَلِيِّ جُزْءٌ

كَبِيرٌ فِي شَرْحِهِ وَاسْتِنْبَاطِ مَعَانِيهِ.

(٢) انظُرْ: «مَعَالِمُ التَّنْزِيلِ» (٧: ١٠١).

المُفَسِّرِينَ والمُحَدِّثِينَ، وَقَدْ ذَكَرُوا الْحَدِيثَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَمْ يُبَيِّنُوا وَجْهَ التَّنَاسُبِ، وَهُوَ يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ، وَهُوَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمَّا اسْتَقَرُّوا الْأَوْضَاعَ الْبَشَرِيَّةَ فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى وَجْهِ الْحِكْمَةِ فِي تَكْرِيمِ آدَمَ بِسُجُودِهِمْ، نَبَأَهُمُ اللَّهُ عَمَّا أُيِّدُوا بِهِ مِنَ الدَّرَجَاتِ وَالْكَفَّارَاتِ، ثُمَّ قَالَ: وَالْأَظْهَرُ أَنَّ نَقُولَ: إِنَّ الْاِخْتِصَاصَ فِي الْآيَةِ غَيْرٌ مَا فِي الْحَدِيثِ، وَذَلِكَ أَنَّ مَا فِي الْآيَةِ هُوَ تَقَاوُلُ الْمَلَائِكَةِ فِي أَمْرِ السُّجُودِ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ بِأَنْ يَحْتَجَّ عَلَى مُنْكَرِي نُبُوَّتِهِ بِمَا أَوْحَى إِلَيْهِ مِنْ قِصَّةِ الْمَلَائِكَةِ وَآدَمَ؛ لِيَكُونَ دَلِيلًا عَلَى نُبُوَّتِهِ، أَمَّا الْحَدِيثُ فَإِنَّهُ إِخْبَارٌ عَمَّا كُوشِفَ بِهِ ^(١) فِي الْمَنَامِ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى التَّغَايُرِ أَنَّ فِي الْآيَةِ نَفْيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ الْعِلْمَ بِاِخْتِصَامِ الْمَلَائِكَةِ، وَفِي الْحَدِيثِ لَمْ يَنْفِ هُوَ عَنِ نَفْسِهِ عِلْمَ الْاِخْتِصَامِ، وَإِنَّمَا نَفَى عَنْهُ عِلْمَ مَا كَانَ الْمَلَائِكَةُ يُخْتَصِمُونَ فِيهِ، وَمِمَّا يَدُلُّ ^(٢) عَلَيْهِ أَيْضًا كَشْفُ الْآيَةِ عَنِ اِخْتِصَامِ قَدْ مَضَى، وَإِخْبَارُ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ اِخْتِصَامِ لَمْ يَمُضْ، إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ تَنْبِيْهَا عَلَى أَنَّ حَالَ اِخْتِصَامِ بَاقِيهِ. وَأَيْضًا إِنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةً، وَالْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرُّؤْيَا أَرِيهَا صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ.

أَمَّا الْجَوَابُ عَنْ قَوْلِهِ: «إِنَّ تَقَاوُلَ الْمَلَائِكَةِ فِي أَمْرِ السُّجُودِ»، وَقَوْلِهِ: «وَأَمَّا الْحَدِيثُ فَإِنَّهُ إِخْبَارٌ عَمَّا كُوشِفَ بِهَا فِي الْمَنَامِ»، فَإِنَّ هَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴿ بَدَلٌ مِنْ ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ وَقَدْ بَيَّنَّا ضَعْفَهُ، عَلَى أَنَّ الْبَدَلَ فِيهِ مَا يُنَافِي الْخُصُومَةَ وَهُوَ الْفَاءُ فِي ﴿ فَسَجَدَ ﴾ فَإِنَّهَا فَصِيحَةٌ، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَسَوَّاهُ اللَّهُ وَنَفَخَ فِيهِ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ، فَأَذْنَتْ بِسُرْعَةٍ الْإِمْتِثَالِ وَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا وَجَدَ لَمْ يَتَوَقَّفَ سُجُودَهُمْ عَنِ الْوُجُودِ مَدْحًا هُمْ عَلَيْهِ بِالْإِذْعَانِ لِأَمْرِ اللَّهِ، فَلَوْ تَوَهَّمُ التَّوَقُّفُ كَانَ دَمًا هُمْ، كَمَا دَمَ إِبْلِيسَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ فَضَلًّا عَنِ الْمُقَاوَلَةِ فِي الْمَأْمُورِ بِهِ، وَأَيْضًا لَوْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿إِذْ قَالَ ﴿ بَدَلًا مِنْ ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ لَكَانَ الظَّاهِرُ أَنَّ يُقَالُ: إِذْ قَالَ رَبِّي لِلْمَلَائِكَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾، وَلَيْسَ الْمَقَامُ مِمَّا يَقْتَضِي الْاِلْتِفَاتَ.

وَعَنْ قَوْلِهِ: «إِنَّ النَّفْيَ فِي الْآيَةِ غَيْرُ النَّفْيِ فِي الْحَدِيثِ؛ لِأَنَّ نَفْيَ الْاِخْتِصَامِ غَيْرٌ، وَنَفْيَ مَا

(١) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ: «بِهَا».

(٢) مِنْ قَوْلِهِ: «عَلَى التَّغَايُرِ أَنَّ فِي الْآيَةِ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح).

إِمَّا أَنْ تَقُولَ: الْمَلَأُ الْأَعْلَى هَوْلًا، وَكَانَ التَّقَاوُلُ بَيْنَهُمْ، فَلَمْ يَكُنِ التَّقَاوُلُ بَيْنَهُمْ؛ وَإِمَّا أَنْ تَقُولَ: التَّقَاوُلُ كَانَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُمْ؛ فَقَدْ جَعَلْتَهُ مِنَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى. قُلْتُ: كَانَتْ مَقَاوِلُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِوَسْطَةِ مَلَكٍ، وَكَانَ الْمَقَاوِلُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الْمَلَكُ الْمُتَوَسِّطُ، فَصَحَّ أَنْ التَّقَاوُلُ كَانَ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ وَأَدَمَ وَإِبْلِيسَ، وَهَمَّ الْمَلَأُ الْأَعْلَى. وَالْمَرَادُ بِالِاخْتِصَامِ: التَّقَاوُلُ، عَلَى مَا سَبَقَ.

فِيهِ الْإِخْتِصَامُ غَيْرٌ، فَإِنَّ غَايَتَهُ أَنْ مَا فِي الْآيَةِ مُبْهَمٌ وَمَا فِي الْحَدِيثِ مُؤَقَّتٌ، فَيَكُونُ الْحَدِيثُ مُفَسَّرًا لِلآيَةِ، عَلَى أَنْ لَا بُدَّ مِنَ التَّفْسِيرِ، وَلِذَلِكَ جَعَلَ الْمُصَنِّفُ ﴿إِذْ قَالَ﴾ بَدَلًا مِنْهُ.

وَعَنْ قَوْلِهِ: «كَشَفُ الْآيَةِ عَنْ إِخْتِصَامٍ قَدْ مَضَى، وَالْخَبِيرُ عَنْ إِخْتِصَامٍ لَمْ يَمْضَ»، فَإِنَّ ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ فِي الْآيَةِ وَارِدٌ عَلَى حِكَايَةِ الْحَالِ الْمَاضِيَةِ، فَيَدُلُّ عَلَى اسْتِمْرَارِ الْخُصُومَةِ وَاسْتِحْضَارِهَا فِي مُشَاهَدَةِ السَّامِعِ فِيمَا مَضَى وَقْتًا فَوْقَتًا، وَفِيمَا سَيَجِيءُ حَالًا فَحَالًا.

وَعَنْ قَوْلِهِ: «السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، وَالْحَدِيثُ مَدَنِيٌّ»، فَإِنَّ هَذَا النَّقْلَ مَوْقُوفٌ عَلَى بَيَانِ الرُّوَايَةِ وَصِحَّتِهَا عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَبَهُهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي مَكَّةَ عَلَى إِخْتِصَامِ الْمَلَائِكَةِ وَاعْتِبَاطِهِمْ لِبَنِي آدَمَ وَمَا فِيهِمْ مِنَ الْفَضَائِلِ مُجْمَلًا، ثُمَّ نَبَهُهُ ثَانِيًا فِي الْمَدِينَةِ مُفَضَّلًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ.

وَأَمَّا بَيَانُ النَّظْمِ فَإِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ نَبِيَّهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِأَنْ يَقُولَ: ﴿هُوَ نَبْوٌ عَظِيمٌ﴾ أَي: هَذَا الَّذِي أَنْبَأْتَكُمْ بِهِ مِنْ كَوْنِي رَسُولًا مُنذِرًا وَأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ وَقَهَّارٌ وَمَالِكٌ لِلْعَالَمِينَ وَعَزِيزٌ غَفَّارٌ، وَأَدْمَجَ فِيهِ مَعْنَى الْعِبَادَةِ، وَأَنَّهُ تَعَالَى مَا خَلَقَ الْخَلْقَ إِلَّا لِيُعْبَدَ وَيُعْرَفَ، وَأَرَادَ أَنْ يُعْظَمَ ذَلِكَ أَمْرَ نَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِأَنْ يُعْظَمَهُ ثَانِيًا وَيَقُولَ: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّيْلِ الْأَعْلَى﴾ أَي: بِفَضْلِ هَذَا وَإِخْتِصَامِهِ بِبَنِي آدَمَ وَإِخْتِصَامِ الْمَلَائِكَةِ فِيهِ وَاعْتِبَاطِهِمْ لِلْبَشَرِ، وَمَا أُمِرُوا بِالسُّجُودِ لِآدَمَ إِلَّا لِتِلْكَ الْكَرَامَاتِ وَالْفَضَائِلِ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمَنِي بِالْوَحْيِ وَأَمَرَنِي بِالدَّعْوَةِ فِيهِ وَالْإِنذَارِ لِمَنْ امْتَنَعَ مِنْهُ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ مُسْتَطْرِدًا لِحَدِيثِ الْخُصُومَةِ فِي فَضَائِلِ الْبَشَرِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّكْرِمَةِ لِآدَمَ مِنْ كَوْنِهِ مَسْجُودًا لِلْمَلَائِكَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰئِكَةِ اِنِّيْ خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِيْنٍ * فاِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُّوْحِيْ فَقَعُوْا لَهٗ سٰجِدِيْنَ * فَسَجَدَ الْمَلٰئِكَةُ كُلُّهُمْ اٰجْمَعُوْنَ * اِلَّا اِبْلِيْسَ اَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ﴾]

[٧١-٧٤]

فإن قلت: كيف صحَّ أن يقول لهم: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا﴾ وما عَرَفُوا ما البَشَرُ ولا عَهَدُوا به قَبْلُ؟ قلتُ: وجهه: أن يكونَ قد قال لهم: إِنِّي خَالِقُ خَلْقًا مِنْ صِفَتِهِ كَيْتَ وَكَيْت، ولكنه حينَ حَكَاهِ اقْتَصَرَ على الاسمِ. ﴿فاِذَا سَوَّيْتُهُ﴾: فاِذَا اْتَمَمْتُ خَلْقَهُ وَعَدَلْتُهُ، ﴿وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُّوْحِي﴾: وَأَحْيَيْتُهُ وَجَعَلْتُهُ حَسَّاسًا مَّتَنَفِّسًا ﴿فَقَعُوْا﴾: فَخَرُّوا. «كُلُّ»: لِلإِحاطَةِ. و﴿اٰجْمَعُوْنَ﴾: لِلإِجْتِمَاعِ، فَأَفَادَا مَعًا أَنَّهُمْ سَجَدُوا عَنْ آخِرِهِمْ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ مَلَكٌ إِلاَّ سَجَدَ، وَأَنَّهُمْ سَجَدُوا جَمِيْعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ غَيْرِ مُتَفَرِّقِيْنَ فِي أَوْقَاتٍ. فَإِنْ قُلْتُ: كَيْفَ سَاعَ السُّجُوْدُ لِغَيْرِ اللهِ؟ قُلْتُ: الَّذِي لَا يَسُوْغُ هُوَ السُّجُوْدُ لِغَيْرِ اللهِ

قوله: (فأفادا معًا أنهم سجدوا عن آخرهم... وأتهم سجدوا جميعًا في وقت واحد)، قال صاحبُ «الفرائد»: يُشْكِلُ ما ذَكَرَ بِقَوْلِهِ حِكَايَةَ عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿لَأَعْرِيْبَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ﴾ [ص: ٨٢]، وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ الْحَوَاشِي عَنْ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَاهِرِ: أَنَّ زَعَمَ مَنْ زَعَمَ أَنَّ ﴿أَجْمَعِيْنَ﴾ لِلإِجْتِمَاعِ خَطَأٌ؛ لِأَنَّهُ صَحَّ أَنْ يُقَالَ: نَاطَرْتُ عُلَمَاءَ الشَّرْقِ أَجْمَعِيْنَ، وَلَمْ تَكُنِ الْمُنَاطَرَةُ بِالإِجْتِمَاعِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِذَا كَانَ ﴿أَجْمَعُوْنَ﴾ بِدُونِ الْكُلِّ أَفَادَ التَّأَكُّدَ الْمُجَرَّدَ، وَهُوَ أَنْ لَا يَخْرُجَ أَحَدٌ مِنَ الْفِعْلِ، فَلَمْ يَكُنِ الإِجْتِمَاعُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، بَلِ الإِجْتِمَاعُ فِي الْفِعْلِ، وَإِذَا كَانَ مَعَ الْكُلِّ، فَالْكُلُّ لِلإِحاطَةِ، وَالْأَجْمَعُونَ لِلإِجْتِمَاعِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ. وَبَيَّأَنُ: أَنَّ اللَّامَ فِي الْمَلَايِكَةِ لِلإِسْتِغْرَاقِ دَخَلَتْ عَلَى صِيغَةِ الْجَمْعِ فَتَمَيِّدُ الشُّمُولِ، ثُمَّ أَكَّدَ بِقَوْلِهِ: ﴿كُلُّهُمْ﴾ لِدَفْعِ تَوَهُّمِ غَيْرِ الشُّمُولِ وَالإِحاطَةِ، فَأَرَدَفَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ فائِدَةٍ زَائِدَةٍ، وَحَاصِلُهُ أَنَّ سَبِيْلَ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ سَبِيْلُ الْمُظْهَرِ إِذَا وُضِعَ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ، لِأَسِيْمَا دَلَالَةِ الْفَاءِ الْفَصِيحَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَجَدَ الْمَلٰئِكَةُ﴾ عَلَى مَا سَبَقَ، عَلَى أَنَّ مُطْلَقَ الْأَمْرِ فِي هَذَا الْمَقَامِ لَا يُفِيدُ إِلاَّ الْفُورَ.

على وجه العبادة، فأما على وجه التكرمة والتبجيل فلا يأباه العقل، إلا أن يعرف الله فيه مفسدة فينهى عنه. فإن قلت: كيف استثنى إبليس من الملائكة وهو من الجن؟ قلت: قد أمر بالسجود معهم فغلبوا عليه في قوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾، ثم استثنى كما يستثنى الواحد منهم استثناءً متصلًا. ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أريد: وجود كفره ذلك الوقت وإن لم يكن قبله كافرًا؛ لأن «كان» مُطلقٌ في جنس الأوقات الماضية، فهو صالحٌ لا يها شئت. ويجوز أن يراد: وكان من الكافرين في الأزمنة الماضية في علم الله.

[﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٥-٧٦﴾]

فإن قلت: ما وجه قوله: ﴿خَلَقْتُ بِإَيْدِي﴾؟ قلت: قد سبق لنا أن ذا اليدين يُباشر أكثر أعماله بيديه، فغلب العمل باليدين على سائر الأعمال التي تُباشر بغيرهما، حتى

قوله: (لأن «كان» مُطلقٌ في جنس الأوقات الماضية)، روى الزجاج عن أبي العباس^(١) أن «كان» لِقَوْتِهِ على معنى المضيّ عبارة عن كُلِّ فعلٍ ماضٍ، ثم قال الزجاج: إن «كان» هو على باب سائر الأفعال؛ إلا أن فيه إخبارًا عن الحال فيما مضى، إذا قلت: كان زيد عالمًا، فقد أنبأت أن حاله فيما مضى من الدهر هذا، وإذا قلت: سيكون عالمًا، فقد أنبأت أن حاله سيقع فيما يستقبل، فهما عبارتان عن الأفعال والأحوال^(٢).

قوله: (فغلب العمل باليدين على سائر الأعمال)، الراغب: لما كانت اليدُ العاملةُ يَحْتَصُّ بها الإنسان - وهي أعظمُ جارحةٍ - نفعًا، بل عامَّةُ المنافع راجعةٌ إليها حتى لو توهمناها مُرتفعةً ارتفع بها الصناعاتُ التي بها قوامُ العالم كالبِنَاءِ والحَوَكِ والصَّوْعِ والكِتَابَةِ، صارت مُستعارةً في القوى جميعها والمنافع كُلِّها، حتى قيل: فلان يدُ فلان، إذا قواه. وقيل

(١) يعني المبرد كما صرح به الزجاج.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٣: ٤٢-٤٣).

قِيلَ فِي عَمَلِ الْقَلْبِ: هُوَ مِمَّا عَمَلَتْ يَدَاكَ، وَحَتَّى قِيلَ لِمَنْ لَا يَدَيْ لَهُ: «يَدَاكَ أَوْكُنَّا وَفُوكَ نَفَّخَ»، وَحَتَّى لَمْ يَبْقَ فَرْقٌ بَيْنَ قَوْلِكَ: هَذَا مِمَّا عَمَلْتَهُ، وَهَذَا مِمَّا عَمَلْتَهُ يَدَاكَ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّا عَمَلْتَ آيَاتِنَا﴾ [يس: ٧١] و: ﴿لَمَّا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾. فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾؟

لِلنُّعْمَةِ: يَدٌ؛ لَمَّا صَارَتْ مُعِينَةً لِلْمُعْطَى إِعَانَةً يَدِهِ، وَحَتَّى صَارَتْ مُسْتَعَارَةً فِي اللَّهِ تَعَالَى (١).
قَوْلُهُ: (يَدَاكَ أَوْكُنَّا وَفُوكَ نَفَّخَ)، قَالَ الْمِيدَانِيُّ: قَالَ الْمُفَضَّلُ: أَصْلُهُ أَنَّ رَجُلًا كَانَ فِي جَزِيرَةٍ مِنْ جَزَائِرِ الْبَحْرِ فَأَرَادَ أَنْ يَعْبرَ عَلَى زِقِّ قَدْ نَفَّخَ فِيهِ، فَلَمْ يُحْسِنِ إِحْكَامَهُ، حَتَّى إِذَا تَوَسَّطَ الْبَحْرَ خَرَجَتْ مِنْهُ الرِّيحُ فَغَرِقَ، فَلَمَّا غَشِيَهُ الْمَوْتُ اسْتَعَاثَ بِرَجُلٍ، فَقَالَ لَهُ: يَدَاكَ أَوْكُنَّا. يُضْرَبُ لِمَنْ يَجْنِي عَلَى نَفْسِهِ الْحَيْنَ (٢).

وَقَالَ الْمُصَنِّفُ فِي «الْمُسْتَقْصَى»: أَصْلُهُ أَنَّ شَابًا انْتَهَى إِلَى جَوَارٍ يَسْتَقِينُ بِالْقَرَبِ، فَكَانَ يُبْلَاغُهُنَّ وَيَنْفُخُ فِي بَعْضِ الْقَرَبِ ثُمَّ يُوكِيهِ، فَفَتَلَهُ بَعْضُ إِخْوَانِهِنَّ غَيْرَةَ، فَأَخْبَرَ أَخَ الْمَقْتُولِ بِمُلَاعَبَتِهِنَّ، فَقَالَ ذَلِكَ، فَضْرَبَ لِلجَانِي عَلَى نَفْسِهِ (٣).

قَوْلُهُ: (فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾، الْفَاءُ لِلتَّسْبِيبِ، يَعْنِي إِذَا كَانَ مَعْنَى: ﴿خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾ الْعَمَلُ وَكَوْنُهُ مَخْلُوقًا لِلَّهِ، فَمَا وَجْهُ اخْتِصَاصِهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ؟ وَخُلَاصَةُ الْجَوَابِ: أَنَّ ذَلِكَ الْأَمْرَ كَانَ ابْتِلَاءً مَحْضًا لِلْمَلَائِكَةِ وَإِبْلِيسَ فِي أَتَمِّ هَلْ يُؤْتِرُونَ النَّصَّ عَلَى الْقِيَّاسِ أَوْ يُرْجَحُونَ الْقِيَّاسَ؟ بِدَلِيلِ التَّمْثِيلِ بِالْوَزِيرِ وَالْمَلِكِ، فَالْمَلَائِكَةُ مَعَ جَلَالَتِهِمْ أَتَرُوا النَّصَّ فَامْتَلُوا لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَظِيمًا لَهُ وَإِجْلَالًا لِخِطَابِهِ، وَإِبْلِيسُ مَعَ ضَعْفِهِ أَتَرَ الْقِيَّاسَ، حَيْثُ قَالَ: ﴿خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقَنَّهُ مِنْ طِينٍ﴾ فَقِيلَ لَهُ عَلَى سَبِيلِ الْقَوْلِ بِالْمُوجِبِ: هَبْ أَنَّهُ كَانَ مَخْلُوقًا مِنْ تُرَابٍ فَهَلَّا نَظَرْتَ إِلَى أَمْرِي فَسَجَدْتَ وَلَمْ تَنْظُرْ إِلَى تِلْكَ الْعِلَّةِ فَلَمْ تَمْتَنِعْ؟ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «لِمَ تَرَكْتَهُ مَعَ وُجُودِ هَذِهِ الْعِلَّةِ»، فَقَوْلُهُ: «مِنَ السُّجُودِ» بَيَانُ «مَا

(١) «تفسير الراغب الأصفهاني» (١: ٢٤٠).

(٢) «مجمع الأمثال» (٢: ٤١٤).

(٣) «المستقصى في أمثال العرب» (٢: ٤١٠).

تَرَكَتَهُ»، يعني: ذَكَرَ لِإِبْلِيسَ السُّجُودَ مَعَ تِلْكَ الْعِلَّةِ وَوَبَّخَهُ عَلَيْهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ هذا تطويلٌ وإخفاءٌ للشمس بالطَّيْنِ لِحُبِّ المَذْهَبِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى عَلَّلَ إِنْكَارَهُ عَلَيْهِ بَعْدَ السُّجُودِ بِهَذِهِ الْعِلَّةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى تَكْرِمَةِ الْمَسْجُودِ لَهُ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ ثمَّ يُرَادُ اللَّعِينِ ذَلِكَ الْقِيَاسَ الْفَاسِدَ حَيْثُ قَالَ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ فكَيفَ يَجْعَلُ قَوْلَهُ: ﴿خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ مُتَضَمِّنًا لِهَذَا، وَقَدْ جُعِلَ جَوَابًا لِلْإِنْكَارِ؟

قال صاحبُ «الانتصاف»: أَطَالَ الزَّخَشَرِيُّ فَأَرَا مِنْ مُعْتَقِدِينَ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْيَدَيْنِ مِنَ صِفَاتِ الذَّاتِ أَثْبَتَهَا السَّمْعُ، هَذَا مَذْهَبُ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ (١) وَالْقَاضِي (٢)، وَأَبْطَلَا حَمَلَ الْيَدَيْنِ عَلَى الْقُدْرَةِ، بِأَنَّ الْيَدَيْنِ ثَنِيَّةٌ، وَقُدْرَةُ اللَّهِ وَاحِدَةٌ، وَأَبْطَلَا الْحَمَلَ عَلَى النِّعْمَةِ، فَإِنَّ نِعَمَ اللَّهِ لَا تُحْصَى. وَأَمَّا غَيْرُهُمَا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ كإِمَامِ الْحَرَمَيْنِ وَغَيْرِهِ فَاخْتَارَ الْحَمَلَ عَلَى النِّعْمَةِ وَالْقُدْرَةِ، أَجَابَ عَمَّا ذَكَرَاهُ بِنِعْمَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَبِهَذَا يَتَحَقَّقُ فَضْلُهُ عَلَى إِبْلِيسَ إِذْ لَمْ يُخْلَقْ لِنِعْمَةِ الْآخِرَةِ، وَقَدْ يُرَادُ بِالثَّنِيَّةِ التَّعْظِيمُ.

والمُعْتَقَدُ الثَّانِي: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَفْضَلُ مِنَ الْمَلِكِ، وَالزَّخَشَرِيُّ شَدِيدُ التَّعْصِبِ فِيهِ، فَلَا جَرَمَ مِثْلَ قِصَّةِ آدَمَ فِي انْحِطَاطِ رُتْبَتِهِ بِبَعْضِ سُقَاطِ الْحَشَمِ مِثَالًا لِآدَمَ الَّذِي هُوَ عُضْرُ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَقَامَ لِإِبْلِيسَ عُذْرَهُ وَصَحَّحَ اعْتِقَادَهُ فِي أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ آدَمَ، وَإِنَّمَا غَلَطَهُ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ نَفْسَهُ أَسْوَأَ الْمَلَائِكَةِ مَعَ عِلْجِهِمْ بِأَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَاقِطُ الْمَنْزِلَةِ، وَالْمُرَادُ ضِدًّا مَا ذَكَرَهُ الزَّخَشَرِيُّ وَهُوَ: تَعْظِيمُ مَعْصِيَةِ إِبْلِيسَ إِذْ لَمْ يُعْظَمَ مَنْ كَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَخَلَقَهُ بِيَدَيْهِ؛ وَذَلِكَ تَعْظِيمٌ لَا تَحْقِيرَ، وَفِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ يَقُولُونَ: «أَنْتَ آدَمُ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدَيْهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ» (٣) وَذَلِكَ كُلُّهُ تَعْظِيمُ آدَمَ وَخِصَائِصُهُ (٤)، وَقُلْتُ: كَذَلِكَ فِي مُحَاجَّةِ مُوسَى وَآدَمَ (٥).

(١) يعني الإمام أبا الحسن الأشعري.

(٢) يعني القاضي الباقلاني، لسان الأشاعرة في زمانه.

(٣) وهو ثابت في «الصحیح» أخرجه البخاري (٤٤٧٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٠٦).

(٥) أخرجه البخاري (٣٤٠٩) ومسلم (٢٦٥٢) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قلت: الوجه الذي استنكر له إبليس السجود لآدم، واستنكف منه: أنه سجد لمخلوق، فذهَبَ بنفسه، وتكبر أن يكون سُجُودُهُ لغير الخالق، وانضمَّ إلى ذلك أن آدم مخلوق من طين، وهو مخلوق من نار، ورأى للنار فضلًا على الطين؛ فاستعظم أن يسجد لمخلوق مع فضله عليه في المنصب، وزلَّ عنه أن الله سبحانه حين أمر به أعزَّ عباده عليه وأقربهم منه زُلْفَى، وهم الملائكة، وهم أحقُّ بأن يذهبوا بأنفسهم عن التواضع للبشر الضئيل، ويستنكفوا من السجود له من غيرهم، ثم لم يفعلوا وتبعوا أمر الله وجعلوه قدام أعينهم، ولم يلتفتوا إلى التفاوت بين الساجد والمسجود له؛ تعظيماً لأمر ربهم وإجلالاً لخطابه - كان هو مع انحطاطه عن مراتبهم حري بأن يقتدي بهم ويقتفي أثرهم، ويعلم أنهم في السجود لمن هو دُونهم بأمر الله، أو غلَّ في عبادته منهم في السجود له؛ لما فيه من طرَحِ الكبرياء وخفض الجناح، فقيل له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾، أي: ما منعك من السجود لشيء هو كما تقول مخلوق خلقته بيدي - لا شك في كونه مخلوقاً - امتثالاً لأمرى وإعظاماً لخطابي كما فعلت الملائكة؟ فذكر له ما تركه من السجود مع ذكر العلة التي تشبَّت بها في تركه، وقيل له: لم تركته مع وجود هذه العلة، وقد أمرك الله به؟ يعني: كان عليك أن تعتبر أمر الله ولا تعتبر هذه العلة، ومثاله: أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم، فيمتنع اعتباراً لسقوطه، فيقول له: ما منعك أن تتواضع لمن لا يخفى علي سقوطه؟ يريد: هلا اعتبرت أمرى وخطابي وتركت اعتبار سقوطه! وفيه: أني خلقته بيدي، فأنا أعلم بحاله، ومع ذلك أمرت الملائكة بأن يسجدوا له لداعي حكمة دعاني إليه: من إنعام عليه بالكرمة السنية، وابتلاء للملائكة، فمن أنت حتى يصر فك عن السجود له ما لم يصر فني عن الأمر بالسجود له؟! وقيل: معنى ﴿لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾: لما خلقت بغير واسطة. وقرئ: (بيدي)، كما قرئ: ﴿بِمَصْرِحِكَ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، و: (بيدي) على التوحيد. ﴿مِنَ الْعَالِينَ﴾: ممن علوت وفقت،

قوله: ﴿مَنْ عَلَوْتَ وَفَقْتَ﴾، «مَنْ» في «مَنْ عَلَوْتَ» موصولة، وصلته «عَلَوْتَ»، فسر

فأجاب بأنه من العالين حيث قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾. وقيل: استكبرت الآن، أم لم تنزل منذ كنت من المُستكبرين؟ ومعنى الهمزة: التقريب. وقرئ: (استكبرت) بحذف حرف الاستفهام؛ لأنَّ ﴿أَمْ﴾ تدلُّ عليه. أو بمعنى الإخبار. هذا على سبيل الأولى، أي: لو كان مخلوقاً من نارٍ لما سجدتُ له؛ لأنه مخلوقٌ مثلي، فكيف أسجدُ لمن هو دُوني؛ لأنه من طين، والنار تغلبُ الطينَ وتأكله، وقد جرتِ الجملةُ الثانية من الأولى - وهي: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ - مجرى المعطوفِ عطفَ البيان من المعطوفِ عليه في البيان والإيضاح.

[﴿قَالَ فَأَخْرَجَ مِنْهَا فَايَاتِكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٧٧-٧٨)

﴿مِنْهَا﴾: من الجنة. وقيل: من السماوات. وقيل: من الخلقة التي أنت فيها؛ لأنه كان يفتخرُ بخلقته، فغيرَ الله خلقتَه فاسودَّ بعدما كان أبيض، وقبِحَ بعدما كان حسناً، وأظلمَ بعدما كان نورانياً. والرَّجِيمُ: المرجوم، ومعناه: المطرود، كما قيل له: المدحور

وقل: أنا سمَّنتي أُمِّي حيدرة، وفي استشهاده سيويهِ: أنتَ تفعل. لِتَجِدَ صِحَّةَ التَّرْكِيبِ مَعَ فُقْدَانِ الذُّوقِ عِنْدَ الْحَذْفِ^(١).

قوله: (هذا على سبيل الأولى)، ﴿هَذَا﴾ إشارةٌ إلى قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ في قوله: «فأجاب بأنه من العالين»، حيث قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، يعني: هذا المذكورُ أولى من الجوابِ المُطابق وهو قوله: ﴿مِنَ الْعَالِينَ﴾؛ لأنه جوابٌ مع العلة، ولهذا قال: لو كان مخلوقاً من نارٍ سجدتُ له؛ لأنه مخلوقٌ مثلي، فكيف أسجدُ لمن هو دُوني؟ ولو أجابَ على مُقتضى الظاهرِ وقال: أنا من العالين، لم يُفد هذه الفائدة، ويُقرَّب أن يُسمَى جوابٌ إبليس من الأسلوبِ الأحمق، ولهذا عقبه بقوله: ﴿فَأَخْرَجَ مِنْهَا فَايَاتِكَ رَجِيمٌ﴾.

قوله: (وأظلمَ بعدما كان نورانياً)، قال: هذا يدلُّ على أنه لم يكن كافراً حينَ كان من الملائكة، ولأنَّ الله سبحانه وتعالى لم يحك عنه إلا الاستكبارَ بأنه لم يسجد، وهذا دليلٌ على أنه صارَ كافراً حينَ لم يسجد.

(١) أخرجه مسلم (١٨٠٧) من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

والملعون؛ لأنَّ مَنْ طُرِدَ رُمِي بالحجارة على أثره. والرَّجْم: الرَّمْيُ بالحجارة. أو لأنَّ الشياطينَ يُرْجَمون بالشَّهَب. فإن قلت: قوله: ﴿لَعَنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ كأنَّ لعنةَ إبليس غايتها يومُ الدِّينِ ثم تنقطع؟ قلت: كيف تنقطع وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَذِنَ مَوْلَانَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]. ولكنَّ المعنى: أنَّ عليه اللعنةُ في الدنيا، فإذا كان يومُ الدِّينِ اقترنَ له باللعنةِ ما ينسى عنده اللعنةُ، فكأنها انقطعت.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ

الْمَعْلُومِ ﴿٧٩-٨١﴾

قوله: (اقترنَ له باللعنةِ ما ينسى عنده اللعنةُ)، يُريد: أنَّ اللعنةَ في الدنيا هي الطردُ والبُعد، فهي مُطلقةٌ مِنَ العذاب، فينتهي هذا المُطلقُ ذلك اليومُ ثم يصيرُ المُطلقُ مُقيِّداً بالعذاب، ونحوه حديثُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها: «إذا حاضتِ حُرْمُ الحجران»^(١)، ومعناها: أنَّ حُرْمَةَ الدُّبُرِ قَبْلَ الحِيضِ مُنفردة، وإذا حاضتِ انضمتِ إلى حُرْمَةِ الدُّبُرِ حُرْمَةُ القُبُلِ وانقطعَ انفرادُ حُرْمَةِ الدُّبُرِ.

قالَ صاحبُ «الفرائد»: سألتني بعضُ الأكابرِ عن هذا فقُلت: اللعنة: التَّبعيدُ عن رَحْمَةِ اللهِ تعالى، وتبعيدُ إبليسَ في كُلِّ زمانٍ إلى يومِ القيامةِ؛ لأنَّ تبعيدَهُ بقدرِ إغوائِهِ عبادَ اللهِ وذلك إلى يومِ القيامةِ؛ لأنه إذا جاءَ يومُ القيامةِ لم يكنَ له إغواءٌ قَبْضُهُ مِنَ رَحْمَةِ اللهِ في التزايُدِ إلى يومِ القيامةِ، فقبِلُوا هذا الجوابَ واستحسنوه.

وقُلت: هاهنا ثلاثُ عباراتٍ: ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الصفات: ٢٠]، وهو: يومُ الجزاءِ، و﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧]، وهو يومُ الحشرِ، و﴿يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [ص: ٨١]، وهو الوقتُ الذي فيه النَّفْخَةُ الأولى، ولا ارتيابُ أنَّ إغواءَهُ إِنَّمَا يَنْتَهِي إلى آخرِ أيامِ التَّكْلِيفِ وهو الوقتُ المَعْلُومُ، ولهذا لما طَلَبَ الإغواءَ إلى يومِ البعثِ أُجيبَ إلى يومِ الوقتِ المَعْلُومِ، واختصاصُ يومِ الدِّينِ؛ لأجلِ أنَّ الجزاءَ والعذابَ إِنَّمَا يُبتدأُ مِنْهُ، فَصَحَّ قولُ المُصنِّفِ.

(١) لم أهد إليه.

فإن قلت: ما الوقت المعلوم الذي أُضيف إليه اليوم؟ قلت: الوقت الذي تَقَعُ فيه النفخة الأولى. ويومُه: اليوم الذي وقَّتْ النفخةُ جزءً من أجزائه. ومعنى ﴿الْمَعْلُومِ﴾: أنه معلومٌ عند الله مُعَيَّن، لا يَسْتَقْدِمُ ولا يَسْتَأْخِرُ.

[﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ﴾ ٨٢-٨٣]

﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾: إقسامٌ بعِزَّةِ الله تعالى؛ وهي سُلْطَانُهُ وَقَهْرُهُ.

[﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٨٤-٨٥]

قُرئ: (فالْحَقُّ والْحَقَّ) منصوبيَّين؛ على أن الأول مُقْسَمٌ به، كـ«الله» في:

إِنَّ عَلَيْكَ اللَّهُ أَنْ تُبَايَعَا

وجوابه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾، ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾: اعتراضٌ بين المُقْسَمِ به والمُقْسَمِ عليه، ومعناه: ولا أقولُ إلا الحق. والمراد بالحق: إمَّا اسمه عزَّ وعلا الذي في قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]، أو: الحقُّ الذي هو نقيضُ الباطل؛ عظَّمه الله بإقسامه

قوله: (قُرئ: «فالْحَقَّ»)، كَلُّهُمْ إِلَّا حَمْرَةً وَعَاصِمًا^(١).

قوله: (إِنَّ عَلَيْكَ اللَّهُ أَنْ تُبَايَعَا)، تَمَامُهُ فِي «المطلع» مِنْ بَيْتِ الكِتَابِ:

تُؤَخِّدُ كَرَهَا أَوْ تُرَدُّ طَائِعًا^(٢)

كَانَ شَخْصٌ أُخِذَ قَهْرًا بَأَنْ يُبَايِعَ وَالْيَا، وَقِيلَ: إِنَّ عَلَيْكَ أَنْ تُبَايِعَ، أَي: الْوَاجِبُ أَوْ الْقَسَمُ عَلَيْكَ وَحَقُّ اللَّهِ أَنْ تُبَايِعَ فَلَنَّا أُخِذَتْ كَرَهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ، ثُمَّ بَعْدَ الْمُبَايَعَةِ تُرَدُّ طَوْعًا، وَ«تُؤَخِّدُ» بَدَلٌ مِنْ «تُبَايِعُ»، أَي: بَدَلُ الْفِعْلِ مِنْ الْفِعْلِ كَبَدَلِ الْاسْمِ مِنَ الْاسْمِ.

(١) انظر: «التيسير» للداني ص ١٨٨.

(٢) ذكره سيبويه في «الكتاب» (١: ١٥٦)، وهو من الشواهد الخمسين التي لم يُعرف قائلها.

به؛ ومرفوعَيْنِ على أَنَّ الأوَّلَ مبتدأٌ محذوفٌ الخبر، كقوله: ﴿لَمَمَرَكْ﴾ [الحجر: ٧٢]،
أي: فالحقُّ قَسَمِي لِأَمْلَانٍ، والحقُّ أقول، أي: أقولُه، كقوله:

كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعْ

وَجَرورَيْنِ: على أَنَّ الأوَّلَ مُقَسَّمٌ به قد أُضْمِرَ حرفٌ قَسَمِه، كقولك: الله لأفعلنَّ،
و«الحقُّ» أقول، أي: ولا أقولُ إِلَّا «الحقُّ» على حكاية لفظِ المُقَسَّمِ به، ومعناه: التوكيدُ
والتشديد. وهذا الوجهُ جائزٌ في المنصوبِ والمرفوعِ أيضًا، وهو وجهٌ دقيقٌ حَسَنٌ.

قوله: (كقوله: كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعْ)، يعني: أَنَّ الضَّمِيرَ المنصوبَ محذوفٌ للتخفيفِ،
تقديرُه: لم أصنعه. أوَّلُهُ لأبي النجم:

قَد أَصْبَحْتَ أُمَّ الخِيَارِ تَدْعِي عَلِيَّ ذَنْبًا كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعْ

«كُلُّهُ» لم يَنْصِبْهُ؛ ولأنَّهُ لو نَصَبَهُ لكانَ ذلك إقرارًا مِنْهُ بأنَّهُ قد صَنَعَ بَعْضَهُ، ورفَعَهُ
ليُؤدِّنَ بأنَّهُ لم يَصْنَعْ مِنْهُ شَيْئًا قَطًّا، ففِي أَحَدِهِمَا: سَلَبُ العُمومِ، وفي الآخرِ: عُمومُ
السَّلَبِ.

قوله: (وهو وجهٌ حَسَنٌ دَقِيقٌ^(١))، أي: جَعَلَ الثاني حِكايةً عَنِ الأوَّلِ ومُعَرَّبًا بِإِعرابِهِ،
فَتَقوُلُ على المَجْرورِ: فالله لِأَمْلَانٍ جَهَنَّمَ. والحقُّ أَنَّ هذا القَسَمَ حَقٌّ، وعلى المنصوبِ:
فالله لِأَمْلَانٍ، والحقُّ أَنَّ هذا القَوْلَ حَقٌّ، وعلى المرفوعِ: فالحقُّ قَسَمِي لِأَمْلَانٍ.

﴿وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾، أي: هو سُنَّتِي وعادتي، فعلى هذا لا يَكُونُ اعتراضًا بل يَكُونُ لمَجَرَّدِ
التَّوكِيدِ كالتَّكْريرِ.

فإن قلت: فسَّرَ على تَقديرِ النَّصْبِ مَعنى قولِه: «الحقُّ أَقُولُ» على الحَصْرِ بقولِه: «ولا
أقولُ إِلَّا الحقَّ» وهو جائزٌ؛ لأنَّهُ مَفْعُولٌ قُدِّمَ على عامِلِهِ؟ وما وجهُهُ على الجَرِّ؟

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «دقيق حسن»، والأمر فيه سهل.

وقرئ: برفع الأول وجره مع نصب الثاني، وتخريجه على ما ذكرنا.

﴿مِنْكَ﴾: من جنسك؛ وهم الشياطين، ﴿وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ من ذرية آدم. فإن قلت: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد لماذا؟ قلت: لا يخلو أن يؤكد به الضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾، أو الكاف في ﴿مِنْكَ﴾ مع (من تبعك). ومعناه: لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين، لا أترك منهم أحداً. أو: لأملأها من الشياطين ومن تبعهم من جميع الناس، لا تفاوت في ذلك بين ناسٍ وناسٍ بعد وجود الأتباع منهم من أولاد الأنبياء وغيرهم.

[﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ * إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَنَعْلَمَنَّ بَنَاهُ بَعْدَ

حِينَ ﴿٨٦-٨٨﴾]

﴿عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ الضمير للقرآن، أو للوحي، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾: من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله، وما عرفتموني قط متصنعاً ولا مدعياً ما ليس

قلت: إنه على القسم، والقسم في المعنى يفيد معنى الحصر والجزم في القول.

قوله: (وتخريجه على ما ذكرنا)، فرفع الأول للابتداء، وجره للقسم، ونصب الثاني على أنه مفعول مقدم، والجمله معترضة.

قوله: (ومعناه: لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين)، هذا على أن يكون ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيداً للكاف مع ﴿مَنْ تَبِعَكَ﴾ [الحجر: ٤٢]، فيرجع معنى التأكيد إلى التابع والمتبوع معاً، ولذلك قال: «لا أترك منهم أحداً»، وقوله: «أو لأملأها من الشياطين ومن يتبعهم من جميع الناس»، وعلى هذا يرجع معنى التأكيد إلى التابعين دون المتبوعين، ولذلك قال: «من جميع الناس، لا تفاوت في ذلك بين ناسٍ وناسٍ»؛ وإنما ترك تأكيد الشياطين لما أن حال التابعين إذا بلغ إلى أن اتصل إلى أولاد الإنسان، فما بال المتبوعين؟

قوله: (وما عرفتموني قط متصنعاً)، يعني: أن قوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ ليس

عندي، حتى أتت حل النبوة وأتقوّل القرآن، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ من الله ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾: للثقلين أَوْحِي إِلَيَّ فَأَنَا أُبَلِّغُهُ. وعن رسول الله ﷺ: «لِلْمَتَكَلِّفِ ثَلَاثُ عِلَامَاتٍ: يُنَازِعُ مَنْ فَوْقَهُ، وَيَتَعَاطَى مَا لَا يَنَالُ، وَيَقُولُ مَا لَا يَعْلَمُ». ﴿وَلَعَلَّكُمْ نَبَأُهُ﴾ أي: ما يَأْتِيكُمْ عند الموت، أو يومَ القيامة، أو عندَ ظُهورِ الإسلامِ وفُشُوهُ، من صحّةِ خَبَرِهِ، وأنه الحقُّ والصدق. وفيه تهديدٌ.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿ص﴾ كَانَ لَهُ بوزنِ كُلِّ جَبَلٍ سَخَّرَهُ اللهُ لِدَاوُدَ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَعَصَمَهُ أَنْ يُصْرَرَ عَلَى ذَنْبٍ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ».

بإعلام لهم، بل يستشهدهم ويُذكّرهم علمهم^(١) فيه بأنه كما رأوه وعلموه ليس بمتكلف فيه.

تَمَّتِ السُّورَةُ

حَامِدًا اللهُ وَمُصَلِّيًا عَلَى رَسُولِ اللهِ

* * *

(١) في النسخة (ط): «علمهم».

سورة الزُّمَر

مَكِّيَّة، إِلا قَوْلُهُ: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ اسْرَفُوا﴾ الآية

وتسمَّى سورة الغُرْفِ

وهي خمسٌ وسبعون آية، وقيل: ثنتان وسبعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَأَعْبَدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ * لَوَأْتَاكَ اللَّهُ أَنْ تَنْخُذَ وَلَدًا لاَ صَاطِفِي مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١ - ٤﴾]

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ قُرئ: بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ مَبْتَدَأٌ أَخْبَرَ عَنْهُ بِالظَّرْفِ، أَوْ خَبْرٌ مَبْتَدَأٌ

سورة الزُّمَر

مَكِّيَّةٌ إِلا قَوْلُهُ: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية

وهي خمسٌ وسبعون، وقيل: ثنتان وسبعون آية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَوْلُهُ: (قُرئَ بِالرَّفْعِ)، وَهِيَ الْمَشْهُورَةُ^(٢).

(١) فِي (ط): «مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ آيَةً»، وَهُوَ مُوَافِقٌ لَعَدَدِ الْمَكِّيِّينَ وَالْمَدِينِيِّينَ وَالْبَصْرِيِّينَ، أَمَّا عِنْدَ

الشَّامِيِّينَ فَهِيَ ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ آيَةً، وَعِنْدَ الْكُوفِيِّينَ خَمْسٌ وَسَبْعُونَ آيَةً.

(٢) وَلِتَّامِ الْفَائِدَةِ انظُرْ: «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» (١٥: ٢٣٢).

محدوف، والجارُّ صلةُ التنزيل، كما تقول: نزل من عند الله، أو غيرُ صلة، كقولك: هذا الكتابُ من فلانٍ إلى فلان، وهو على هذا خبرٌ بعد خبرٍ؛ أو خبرٌ مبتدأٌ محذوف، تقديره: هذا تنزيلُ الكتاب، هذا من الله، أو حالٌ من التنزيل عمل فيها معنى الإشارة؛ وبالنصبِ على إضمارِ فعلٍ، نحو: اقرأ، والزَمْ. فإن قلت: ما المرادُ بالكتاب؟ قلت: الظاهرُ على الوجهِ الأول: أنه القرآن، وعلى الثاني: أنه السُّورة. ﴿مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾: مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ مِنَ الشُّرْكِ وَالرِّيَاءِ بِالتَّوْحِيدِ وَتَصْفِيَةِ السَّرِّ. وَقُرئ: (الدِّينُ) بِالرَّفْعِ.

قوله: (أو حالٌ من التنزيلِ عملٌ فيها معنى الإشارة)، هذا مما منعه بعضهم واختاره الرَّجَاجُ^(١)، وقد استقصينا القولُ فيه في فاتحةِ «البقرة».

قوله: (الظاهرُ على الوجهِ الأولِ أنه القرآن)، والوجهُ الأولُ: هو أن يكون ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ مُبتدأً أُخبرَ عنه بالظرف؛ لأنَّ المعنى: تَنْزِيلُ الْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ. والوجهُ الثاني: أن يكون خبرٌ مُبتدأً محذوف، أي: هذه السُّورة قولٌ^(٢) من عند الله أو هذا تنزيلُ السُّورة كائناً من عند الله، يدلُّ عليه ما جاء في فواتحِ السُّورِ التي حُلِّيت بأسماءِ الإشارةِ نحو ﴿ذَلِكَ أَنْكَبْتُ﴾ [البقرة: ٢] ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ فإنَّ الكتابَ مفسَّرٌ فيها باسمِ السُّورةِ غالباً، كما استقرَّأنا من كلامه، وأما القراءةُ بالنَّصبِ على تقديرِ «الزَمْ» أو «اقرأ» فالظاهرُ أنه القرآن^(٣).

قوله: (من الشُّركِ والرِّياءِ)، لفٌّ لقوله: «بِالتَّوْحِيدِ وَتَصْفِيَةِ السَّرِّ»، وفي «المطلع»: قصدُ العبدِ بعملِهِ ونَيْتِهِ رضا الله لا يشوبه بشيءٍ من عرضِ الدُّنيا.

الرَّاغِبُ: الخَالِصُ كَالصَّافِي؛ إِلَّا أَنْ الْخَالِصَ هُوَ مَا زَالَ عَنْهُ شَوْبُهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ فِيهِ، يُقَالُ: خَلَّصْتُهُ فَخَلَّصَ، وَلِذَلِكَ قَالَ الشَّاعِرُ:

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٤٣).

(٢) في (ف): «نزل».

(٣) وهو حاصلُ عبارةِ الفراءِ في «معاني القرآن» (٢: ٤١٤) حيث قال: ولو نَصَّبْتَهُ وَأَنْتَ تَأْمُرُ بِاتِّبَاعِهِ وَلِزُومِهِ كَانَ صَوَابًا كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿كُنْتُ لِلَّهِ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٢٤] أي: الزموا كتاب الله.

وَحَقٌّ مِّن رَّفَعَهُ أَنْ يَقْرَأَ (مُخْلِصًا) بفتح اللام، كقوله تعالى: ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾

خِلَاصَ الْحَمْرِ مِنْ نَسِجِ الْفِدَامِ^(١)

والفدَامُ: ما يُوضَعُ فِي فَمِ الْإِبْرِيْقِ لِيَصْفَى بِهِ مَا فِيهِ. وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩] وإِخْلَاصُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ قَدْ تَبَرَّؤُوا بِمَا يَدَّعِيهِ الْيَهُودُ مِنَ التَّشْبِيهِ، وَالنَّصَارَى مِنَ التَّثْلِيثِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]^(٢) وَحَقِيقَةُ الْإِخْلَاصِ: التَّعَرِّيُّ عَنِ كُلِّ مَا دُونَ اللهِ، وَقَالَ الشَّيْخُ الْعَارِفُ الْأَنْصَارِيُّ^(٣): الْإِخْلَاصُ إِخْرَاجُ رُؤْيَا الْعَمَلِ مِنَ الْعَمَلِ، وَالْخِلَاصُ مِنَ طَلَبِ الْعِوَضِ عَلَى الْعَمَلِ، وَالنُّزُولُ عَنِ الرِّضَا بِالْعَمَلِ^(٤).

قَوْلُهُ: (وَحَقٌّ مِّن رَّفَعَهُ أَنْ يَقْرَأَ «مُخْلِصًا» بفتح اللام)، إِلَى آخِرِهِ، مَعْرِفَةٌ هَذَا الْكَلَامِ مَوْقُوفَةٌ عَلَى مَعْرِفَةِ كَلَامِ الزَّجَّاجِ؛ لِأَنَّهُ بَنَاهُ عَلَيْهِ، قَالَ الزَّجَّاجُ: قَوْلُهُ ﴿فَاعْبُدِ اللهُ مُخْلِصًا لَهُ الَّذِينَ﴾ مَنْصُوبٌ بِوَقُوعِ الْفِعْلِ عَلَيْهِ، وَ﴿مُخْلِصًا﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ، أَي: فاعْبُدِ اللهُ مُوَحَّدًا لَهُ لَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا. وَزَعَمَ بَعْضُ النَّحْوِيِّينَ أَنَّهُ يَجُوزُ «مُخْلِصًا لَهُ الَّذِينَ» بَرَفْعِ ﴿الَّذِينَ﴾؛ عَلَى أَنَّ قَوْلَكَ «مُخْلِصًا» تَمَامُ الْكَلَامِ، وَيَكُونُ ﴿لَهُ الَّذِينَ﴾ مُبْتَدَأً وَخَبْرًا، وَهَذَا لَا يَجُوزُ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُ لَمْ يَقْرَأْ بِهِ، وَالْآخَرُ أَنَّهُ يَفْسِدُهُ ﴿أَلَا لِلَّهِ الَّذِينَ الْخَالِصُ﴾، فَيَصِيرُ ﴿لَهُ الَّذِينَ﴾ مُكْرَّرًا فِي الْكَلَامِ لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ^(٥).

وهو المراد من قول المصنّف: «رجع الكلام إلى قولك: لله الدين، ألا لله الدين الخالص»، ولهذا الإشكال قال: «وَحَقٌّ مِّن رَّفَعَهُ أَنْ يَقْرَأَ «مُخْلِصًا» بفتح اللام»، فيكون حالًا من «الله» تعالى لا من «العابد»، فيتصل قوله: ﴿لَهُ الَّذِينَ﴾ بالحال اتصال قوله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ قال: عربيًّا^(٦) حال موطئة كقولك: جاءني زيد رجلًا صالحًا، فيقع الاستئناف في موقعه، أي:

(١) هو للمتنبي في «ديوانه» بشرح العكبري (٤: ١٤٨).

(٢) «مفردات القرآن وإعرابه» ص ٢٩٢.

(٣) يقصد الإمام أبا إسحاق الهروي صاحب «منازل السائرين».

(٤) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (٢: ٩٣).

(٥) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٤٣).

(٦) قوله: «قال: عربيًّا» سقط من (ح).

[النساء: ١٤٦] حتى يُطابق قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾، والخَالِصُ والمُخْلِصُ واحد، إِلَّا أَنْ يَصِفَ الدِّينَ بِصِفَةٍ صَاحِبِهِ عَلَى الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ، كَقَوْلِهِمْ: شِعْرٌ شَاعِرٍ، وَأَمَّا مَنْ جَعَلَ ﴿مُخْلِصًا﴾ حَالًا مِنَ الْعَابِدِ، وَ﴿لَهُ الدِّينُ﴾ مَبْتَدَأً وَخَبْرًا، فَقَدْ جَاءَ بِإِعْرَابِ رَجَعَ بِهِ الْكَلَامُ إِلَى قَوْلِكَ: اللَّهُ الدِّينُ ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾. ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أَي: هُوَ الَّذِي وَجِبَ اخْتِصَاصُهُ بِأَنْ يُخْلِصَ لَهُ الطَّاعَةَ مِنْ كُلِّ شَائِبَةٍ كَدَّرَ؛ لِأَضْلَاعِهِ عَلَى

عند قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ مَنْ رَفَعَ «الدِّينُ» وَ﴿مُخْلِصًا﴾ بِانْكَسَرِ: «الدِّينُ» فَاعِلٌ ﴿مُخْلِصًا﴾ عَلَى الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ، أَي: فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا دِينَكَ اللَّهُ، وَأَصْنَعُهُ: مُخْلِصًا الدِّينَ لِلَّهِ؛ بِالنَّصْبِ، فَيَتَّصِلُ بِهِ وَيَقَعُ الْإِسْتِثْنَاءُ فِي مَوْجِعِهِ، وَقَوْلُهُ: «إِلَّا أَنْ يَصِفَ الدِّينَ بِصِفَةٍ صَاحِبِهِ» مُسْتَثْنَى مِنْ قَوْلِهِ: «وَحَقٌّ مَنْ رَفَعَهُ أَنْ يقرأ مُخْلِصًا بِفَتْحِ اللَّامِ».

قال صاحبُ «التَّقْرِيبِ» فِي قَوْلِهِ: «رَجَعَ الْكَلَامُ إِلَى قَوْلِكَ: اللَّهُ الدِّينُ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ» نَظْرًا، لِأَنَّ تَغَايِرَ دَلَالَتِي الْجُمْلَتَيْنِ عَلَى الْإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ ظَاهِرٌ، وَهُوَ تَوْكِيدٌ. وَقُلْتُ: بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ بَوْنٌ؛ وَغَايَةُ مَعْنَى الْجُمْلَةِ الْأُولَى بِسَبَبِ تَقْدِيمِ الْخَبْرِ تَأْكِيدَ الْإِخْتِصَاصِ؛ لِأَنَّ اللَّامَ أَيْضًا لِلْإِخْتِصَاصِ، وَأَمَّا الْجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ مَنْقُطَةٌ عَنْهَا؛ لِتَصَدُّرِهَا بِكَلِمَةِ التَّنْبِيهِ، قَالَ: ﴿أَلَا﴾ مَرْكَبٌ مِنْ هَمْزَةِ الْاسْتِفْهَامِ وَحَرْفِ النَّفْيِ لِإِعْطَاءِ مَعْنَى التَّنْبِيهِ عَلَى تَحَقُّقِ مَا بَعْدَهَا، وَالْاسْتِفْهَامُ إِذَا دَخَلَ عَلَى النَّفْيِ أَفَادَ تَحْقِيقًا، وَمَوْجِعُ الْجُمْلَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَوْجِعُ التَّذْيِيلِ لِلْكَلامِ السَّابِقِ، وَحَسَنُهُ أَنْ يَكُونَ مُؤَكِّدًا لِمُضْمُونِ جُمْلَةِ قَوْلِهِ: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ لِاتِّفَاقِهَا وَتَطَابُقِهَا، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «الخَالِصُ وَالْمُخْلِصُ»، أَي: بِفَتْحِ اللَّامِ «وَاحِدٌ» لِأَنَّ الدِّينَ إِذَا كَانَ مُخْلِصًا كَانَ خَالِصًا، وَلَوْ جَعِلَ تَذْيِيلًا لِقَوْلِهِ: لَهُ الدِّينُ وَحْدَهُ، جَاءَ الْكَلَامُ مَبْتُورًا وَنَبَأُ الطَّبَعِ السَّلِيمِ، فَإِنْ مَعْنَى ﴿لِلَّهِ الدِّينُ﴾ أَنَّ الدِّينَ مَخْتَصٌّ بِهِ لَا بغيرِهِ، وَهُوَ مَعْنَى ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ﴾ فَيَبْقَى وَصْفُ الدِّينِ بِالْخَالِصِ خَارِجًا وَتَطْوِيلًا، وَمِنْ ثَمَّ أَحَالُهُ إِلَى الدَّوْقِ فِي قَوْلِهِ: «رَجَعَ بِهِ الْكَلَامُ إِلَى قَوْلِكَ: اللَّهُ الدِّينُ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ».

قَوْلُهُ: (أَي: هُوَ الَّذِي وَجِبَ اخْتِصَاصُهُ)، تَفْسِيرٌ لِلتَّذْيِيلِ، قَالَ الْقَاضِي: أَلَا هُوَ الَّذِي

الغيوب والأسرار؛ ولأنه الحقيق بذلك؛ لخصوص نعمته عن استجرار المنفعة بها. وعن قتادة: ﴿الَّذِينَ أَخْلَصُوا﴾: شهادة أن لا إله إلا الله. وعن الحسن: الإسلام. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾: يَحْتَمِلُ الْمُتَّخِذِينَ؛ وهم الكفرة، والمُتَّخِذِينَ؛ وهم الملائكة وعيسى واللات والعزى. عن ابن عباس رضي الله عنهما. فالضمير في ﴿اتَّخَذُوا﴾ على الأول: راجع إلى ﴿وَالَّذِينَ﴾، وعلى الثاني: إلى المشركين، ولم يجر ذكرهم؛ لكونه مفهوماً، والراجع إلى ﴿وَالَّذِينَ﴾ محذوف، والمعنى: والذين اتخذهم المشركون أولياء، ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ في موضع الرفع على الابتداء. فإن قلت: فالخبر ما هو؟ قلت: هو على الأول: إِمَّا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، أو ما أضمر من القول قبل قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾. وعلى الثاني: ﴿إِنَّ

وَجِبَ اخْتِصَاصُهُ^(١) بأن يخلص له العبادة والطاعة، فإنه المنفردُ بصفات الإلهية والإطلاع على الأسرار والضمائر^(٢).

وقلت: في إبراز اسم الجامع شأن عظيم وخطب جليل في هذا الباب، والمصنف خصه بحسب اقتضاء المقام، وهو إيجاب اختصاصه بأن تخلص له العبادة بأمرين مناسبين: أحدهما: أنه مطلع على الغيوب والأسرار، فيطلع على سر من أخلص ومن رآه. وثانيهما: أنه منعم على الإطلاق لا يستجر بما أنعم به نفعاً، فلا ينبغي أن يشوب عبادته بها يكدُّه، ولما أمر عبادة المخلصين بما أمر عبه على سبيل الاستطراد، وذكر من يكدُّ العبادة بالشرك ويتعلل بقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾.

قوله: (وعلى الثاني: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾)، فإن قلت: لم خص الثاني بوجه واحد؟ قلت: المعنى على الأول - أي: على تقدير المتخذين؛ بكسر الخاء - الكفرة الذين اتخذوا من دون الله أولياء ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أو يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ﴾، وعلى الثاني - أي: على تقدير فتح الخاء - الذين اتخذهم المشركون أولياء ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، ولا يصح: يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ﴾.

(١) من قوله: «تفسير للتذليل، قال القاضي» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٣٦).

اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴿١﴾. فإن قلت: فإذا كان ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ الخبر، فما موضع القول المضمّر؟ قلت: يجوز أن يكون في موضع الحال، أي: قائلين ذلك. ويجوز أن يكون بدلاً من الصلّة، فلا يكون له محلّ، كما أنّ المبدل منه كذلك. وقرأ ابن مسعود بإظهار القول: (قالوا ما نعبدهم)، وفي قراءة أبي: (ما نعبدكم إلا لتقرّبونا) على الخطاب، حكاية لما خاطبوا به آهنتهم. وقرئ: (نُعْبُدْهُمْ) بضمّ النون إتباعاً للعين كما تُتبعها الهمزة في الأمر والتثنية في ﴿وَعَذَابٌ * أَرْكَضُ﴾ [ص: ٤١-٤٢]، والضمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لهم ولأوليائهم. والمعنى: أنّ الله يحكم بينهم بأنه يدخل الملائكة وعيسى الجنة، ويدخلهم النار مع الحجارة التي نحتوها وعبدوها من دون الله يُعذبهم بها؛ حيث يجعلهم وإياها حصب جهنم. واختلافهم: أنّ الذين يعبدون موحدون وهم مشركون، وأولئك يعادونهم ويلعنونهم، وهم يرجون شفاعتهم وتقريبهم إلى الله زلفى. وقيل: كان المسلمون إذا قالوا لهم: من خلق السماوات والأرض، أقرّوا وقالوا: الله، فإذا قالوا لهم: فما لكم تعبدون الأصنام؟ قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾؛ فالضمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عائد إليهم وإلى المسلمين. والمعنى: أنّ الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين. والمراد بمنع الهداية: منع اللطف تسجيلاً عليهم بأن لا لطف لهم، وأنهم في علم الله من الهالكين.

قوله: (ويجوز أن يكون بدلاً من الصلّة)، والتقدير: والكفرة الذين يقولون: لا نعبد الأصنام إلا ليقربونا، إنّ الله يحكم بينهم.

قوله: (وقيل: كان المسلمون)، عطف على قوله: «الضمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لهم ولأوليائهم»، وعلى هذا: الضمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لهم وللمسلمين، كما صرح بذلك.

قوله: (والمراد بمنع الهداية منع اللطف)، الانتصاف: يجب حمل الآية على ظاهرها وأنّ الله خالق الإيمان والضلّال؛ لقوله: ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (١). وقلت: قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِيبٌ كَفَّارٌ﴾ الظاهر أنه اعتراض للتأكيد ودفع ذلك التأويل.

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١١١).

وَقُرِي: (كذَّاب)، و(كذُّوب)، وكذَّبهم: قوَّلم في بعض مَن اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أولياءَ: بناتُ اللَّهِ؛ ولذلك عَقَبَهُ مُحْتَجًّا عَلَيْهِم بِقَوْلِهِ: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: لو أَرَادَ اتَّخَاذَ الْوَلَدِ لَامْتَنَعَ ولم يَصَحَّ؛ لكونه مُحَالًا، ولم يَتَأْتِ إِلَّا أَن يَصْطَفِيَ مِن خَلْقِهِ بَعْضَهُ وَيَخْتَصِّمَهُمْ وَيَقْرِبَهُمْ، كما يَخْتَصُّ الرَّجُلُ وَلَدَهُ وَيَقْرِبُهُ، وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ بِالْمَلَائِكَةِ، فَافْتَنَّتُمْ بِهِ وَغَرَّكُمْ اخْتِصَاصُهُ إِيَّاهُمْ، فزَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ

قَوْلُهُ: (وكذَّبهم: قوَّلم في بعض مَن^(١) اتَّخَذُوا)، يعني: وَضَعَ ﴿مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾ مَوْضِعَ ضَمِيرِ الْمُتَّخِذِينَ - بِكسْرِ الْخَاءِ - وَالْمُتَّخِذُ - بِالْفَتْحِ - بَعْضُ مَا اتَّخَذُوهُ، وَهُوَ الْمَلَائِكَةُ وَالْمَسِيحُ وَاللَّاتُ وَالْعَزَى، كما سبق.

قَوْلُهُ: (فافتننتم به)، افْتَنَّ الرَّجُلُ وَفُتِنَ فَهُوَ مُفْتُونٌ: إِذَا أَصَابَهُ فِتْنَةٌ فَذَهَبَ مَالُهُ وَعَقْلُهُ. وَتَقْرِيرُ الْمَسْأَلَةِ عَلَى مَا قَالَ صَاحِبُ «التقريب»: لو أَرَادَ اتَّخَاذَ الْوَلَدِ لَمْ يَصَحَّ إِلَّا أَن يَصْطَفِيَ بَعْضَ خَلْقِهِ، وَقَدْ اصْطَفَى الْمَلَائِكَةَ وَشَرَّفَهُمْ، فَغَرَّكُمْ اخْتِصَاصُهُ فزَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ أَوْلَادُهُ بَلْ بَنَاتُهُ فَكُنْتُمْ كَذَّابِينَ. وَفِي تَحْقِيقِ مَعْنَى التَّلَازِمِ وَنَفْيِ اللَّازِمِ أَوْ إِثْبَاتِ^(٢) الْمَلْزُومِ عَلَى مَا قَرَّرَ نَظْرًا، فَالْأُولَى مَا قِيلَ: لو أَرَادَ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا كَمَا زَعَمْتُمْ لِاخْتَارَ الْأَفْضَلَ لَا الْأَنْقَصَ وَهِنَّ الْإِنَاثُ.

وَقُلْتُ: مرادُ المصنِّفِ: أَنَّ مُؤَدَى ﴿لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُؤَدَى قَوْلِنَا: لَامْتَنَعَ، وَلَمْ يَصَحَّ، إِلَى آخِرِهِ. وَالْإِسْتِثْنَاءُ فِي قَوْلِهِ: «وَلَمْ يَتَأْتِ إِلَّا أَن يَصْطَفِيَ» عَلَى أَسْلُوبِ قَوْلِ لَيْبِدِ^(٣):

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سِوْفَهُمْ بَيْنَ فُلُولٍ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَابِ

أَرَادَ: لَيْسَ فِيهِمْ عَيْبٌ الْبَتَّةَ، فَوْضَعَ «غَيْرَ أَنَّ سِوْفَهُمْ بَيْنَ فُلُولٍ» مَوْضِعَهُ، أَي: لو كَانَ هَذَا عَيْبًا فِيهِمْ مَوْصُوفُونَ بِهِ، فإِذْنٌ لَا عَيْبَ فِيهِمْ، وَكَذَلِكَ الْمَعْنَى: لو أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا

(١) كَذَا فِي الْأَصُولِ وَفِي نَصِّ «الْكَشَافِ» مِنْ (ط)، لَكِنْ فِي الْأَصْلِ الْخَطِّي مِنْهُ وَالْمَطْبُوعُ: «مَنْ».

(٢) فِي (ط): «لِثَبَاتِ»، وَفِي (ح): «إِسْقَاطِ».

(٣) كَذَا قَالَ الْمَصْنُفُ، وَهُوَ وَهْمٌ سَبَقَهُ إِلَى خَاطِرِهِ، وَالْبَيْتُ قَدْ سَبَقَ تَحْرِيمُهُ مِنْ شِعْرِ النَّابِغَةِ الذَّبْيَانِي.

أولاده، جهلاً منكم به وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام والأعراض، كأنه قال: لو أراد اتّخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما يشاء من خلقه؛ وهم الملائكة، إلا أنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتّخاذهم أولاداً، ثمّ تماديتم في جهلكم وسفاهكم فجعلتموهم بنات، فكنتنم كذابين كفّارين مُتبالِغين في الافتراء على الله وملائكته، غالين في الكفر، ثم قال: ﴿سُبْحٰنَهُ﴾ فنزه ذاته عن أن يكون له أحد ما نسبوا إليه

لاصطفى من خلقه بعضه ويختصهم ويقربهم كما يختص الرجل ولده ويقربه، وقد فعل ذلك بالملائكة، ولا خفاء أنّ هذا الاصطفاء ليس من اتّخاذ الولد في شيء، فإذا محال أن يتخذ ولداً. تلخيصه: أنه لو أراد أن يتخذ ولداً لكان الطريق إلى ذلك ما يمتنع أن يكون طريقاً وهو اصطفاء الملائكة، وإليه أشار بقوله: «لو أراد اتّخاذ الولد لم يزد على ما فعل»، ونظيره من حيث المبالغة قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ قال: أريد أن يُقال: لا يذوقون فيها الموت البتّة، فوضع قوله: ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦] موضع ذلك؛ لأنّ الموتة الماضية محالٌ ذوقها في المستقبل. وقال الإمام: المعنى لو أراد الله أن يتخذ ولداً لما رضي إلا بالأكمل وهو الابن، فكيف نسبتم إليه البنت؟ كقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَكَ رِيشُكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتَابًا﴾ [الإسراء: ٤٠] تمّ كلامه (١).

فإن قيل: الكلام غير وارد في اتّخاذ الإناث حتّى يردّ إلى الذكور، بل في نفي الولد مطلقاً. قلت: إذن لا ينبغي أن يكون المفروض في قوله: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ الملائكة، بل غيرهم بمن هو أعلى مرتبة منهم وأقرب نسبة إلى الله وإلى الألوهية؛ ليصحّ الترقّي من اتّخاذ الملائكة والمسيح ولداً إليهم، ولهذا جاء بالتنزيه والتوحيد الصّرف، وتمم المعنى بوصف القهارية وكمله بدليلي الآفاق والأنفس، يعني: قوله: ﴿خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾. وقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ الآية. ثمّ بين غناه عن الخلق بقوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّيْ عَنكُمُ﴾.

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٤٢٢).

مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْأَوْلِيَاءِ. وَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِإِيْنَابِهِ؛ وَهُوَ أَنَّهُ وَاحِدٌ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَاحِبَةٌ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ لَهُ صَاحِبَةٌ لَكَانَتْ مِنْ جِنْسِهِ، وَلَا جِنْسَ لَهُ؛ وَإِذَا لَمْ يَتَأْتَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَاحِبَةٌ؛ لَمْ يَتَأْتَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ [الأنعام: ١٠١]. وَقَهَّارٌ: غَلَّابٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَمِنَ الْأَشْيَاءِ أَهْلُهُمْ، فَهُوَ يَغْلِبُهُمْ، فَكَيْفَ يَكُونُونَ لَهُ أَوْلِيَاءَ وَشُرَكَاءَ؟

[﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكُوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ ٥]

ثُمَّ دَلَّ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَتَكْوِيرِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَلُوتِينَ عَلَى الْآخَرِ، وَتَسْخِيرِ النَّيِّرِينَ، وَجَزْيِهَا لِأَجَلٍ مُّسَمًّى، وَبَثِّ النَّاسِ عَلَى كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَخَلْقِ الْأَنْعَامِ، عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ لَا يُشَارِكُ، قَهَّارٌ لَا يُغَالَبُ. وَالتَّكْوِيرُ: اللَّفُّ وَاللِّيُّ، يُقَالُ: كَارَ الْعِمَامَةَ عَلَى رَأْسِهِ، وَكَوَّرَهَا. وَفِيهِ أَوْجُهُ؛ مِنْهَا: أَنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةٌ يَذْهَبُ هَذَا وَيَعْشَى مَكَانَهُ هَذَا، وَإِذَا غَشِيَ مَكَانَهُ فَكَأَنَّمَا أَلْبَسَهُ وَلَفَّ عَلَيْهِ كَمَا يُلْفُ اللَّبَاسُ عَلَى اللَّابِسِ، وَمِنْهُ قَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ فِي وَصْفِ السَّرَابِ:

تَلْوِي الثَّنَايَا بِأَحْقِيهَا حَوَاشِيَهُ
لِيَّ الْمَلَاءِ بِأَبْوَابِ التَّفَارِيحِ

قَوْلُهُ: (تَلْوِي الثَّنَايَا بِأَحْقِيهَا)، الْبَيْتُ (١). الثَّنِيَّةُ: الْعَقْبَةُ، وَالثَّنَايَا: جَمْعٌ، وَالْحَقْوُ: الْخِصْرُ مَشْدُ الْإِزَارِ. حَوَاشِيَهُ: جَوَانِبُ السَّرَابِ، وَالْمَلَاءُ جَمْعُ مُلَاءَةٍ، وَهِيَ: الْجِلْبَابُ، وَالتَّفْرَاجُ - بِالْجِيمِ - الْبَابُ الصَّغِيرُ، وَجَمْعُهُ التَّفَارِيحُ. يَقُولُ: تَلْوِي الْهَضَابِ بِأَوْسَاطِهَا حَوَاشِي السَّرَابِ مِثْلُ لِيِّ الْمِرْطِ بِأَبْوَابِ الدَّارِ، وَلَيْثُهَا بِالذَّارِ هُوَ أَنْ لَا يَطْرُدُ اطْرَادًا.

وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْآيَةَ تَحْتَمِلُ ثَلَاثَةَ أَوْجُهٍ مِنَ التَّشْبِيهِ:

أَحَدُهَا: أَنْ يَكُونَ مِنْ تَشْبِيهِ الْمَحْسُوسِ بِالْمَحْسُوسِ، وَالْوَجْهُ أُمُورٌ، وَلَكِنْ فِي حُكْمِ وَاحِدٍ وَهُوَ تَشْبِيهُ الْهَيْئَةِ الْحَاصِلَةِ مِنْ اخْتِلَاطِ اللَّيْلِ بِالنَّهَارِ عِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ وَظُهُورِ

ومنها: أن كل واحد منها يُغيب الآخر إذا طرأ عليه، فُشِبَّه في تَغْيِيبِهِ إِيَّاهُ بِشَيْءٍ ظاهر لُفَّ عليه ما غَيَّبَهُ عن مَطَامِحِ الأبصار. ومنها: أن هذا يَكُرُّ على هذا كُرُوراً متتابعاً، فُشِبَّه ذلك بتتابع أكوارِ العِمَامَةِ بعضها على أثرِ بعض. ﴿الْأَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالبُ القادرُ على عقابِ المُصْرِّين ﴿الْعَفَّارُ﴾ لذُنُوبِ التَّائِبِينَ،

الخطيئين، في قوله: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦] بالهيئةِ الحاصلةِ من لفِّ اللباسِ على اللباسِ بحيثُ لا يَطْرُدُ اللباسُ في التَّسْتُرِ كما يرى من لِيِّ الهضباتِ حواشي السَّرَابِ، وليَّ الملاءِ بأبوابِ التَّفَارِيجِ في بيتِ ذي الرُّمَّةِ.

وثانيها: تشبيهه محسوسٍ بمحسوسٍ والوجهُ واحدٌ حقيقة. شَبَّهَ غَشِيَانِ كُلِّ واحدٍ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ الْآخَرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقوله: ﴿وَأَيَّاهُ لَّهُمْ لَيْلٌ نَسَلَخَ مِنْهُ﴾ [يس: ٣٧] بشيءٍ ظاهرٍ لُفَّ ما غَيَّبَهُ عن مَطَامِحِ الأبصار.

وثالثها: يحتملُ أن يكونَ تمثيلاً بأن يُشِبَّه حالةُ كُرُورِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَجَمْعِيَّ أَحَدِهِمَا فِي أَثَرِ بعضٍ وما يتَّصَلُ بها مِنَ المنافعِ كقولهِ: ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] بحالةِ تتابعِ أكوارِ العِمَامَةِ بعضها عقيبَ بعضٍ وما يتَّصَلُ بها مِنَ الحُسْنِ، فإنَّها كالتَّيْجَانِ للعربِ وما يحصلُ مِنَ التَّغْيِيرِ وَتَبْدِيلِ الأحوالِ، كما قال الحماسي:

أَسَابَ الصَّغِيرِ وَأَفْنَى الكَبِيرِ سَرَ كُرِّ الغَدَاةِ وَمَرُّ العَشِيِّ^(١)

فإن قُلْتَ: هل يعدُّ ما في الآيةِ تشبيهاً كما صرَّحَ به المصنَّفُ؟ قلتُ: لا، بل استِعارة^(٢)، فإنَّ قَوْلَهُ: ﴿يُكْوَرُ﴾ إمَّا مُستعارٌ لِلاختِلاطِ على الأولِ، وإمَّا للغشيانِ في الثاني، وإمَّا للتتابعِ في الثالثِ، والمستعارُ له غيرُ مذکور، وذِكْرُهُ التَّشْبِيهِ توطئةٌ وبيانٌ لطريقِ الاستِعارة؛ لأنَّ الاستِعارةَ متفرِّعةٌ على التَّشْبِيهِ.

قَوْلُهُ: ﴿الْعَفَّارُ﴾ لذُنُوبِ التَّائِبِينَ، الانتِصافُ: ولِمَنْ شاءَ مِنَ المُصْرِّينَ دُونَ الشَّرْكِ على ما سبق^(٣).

(١) سبق تخريجه.

(٢) من قوله: «كُرِّ الغدَاةِ وَمَرُّ العَشِيِّ» إلى هنا، سقط من (ح).

(٣) «الانتِصافُ بحاشيةِ الكشاف» (٤: ١١٣).

أو: الغالبُ الذي يقدر على أن يعاجلهم بالعقوبة وهو يحلم عنهم ويؤخرهم إلى أجلٍ مسمًى، فسمي الحلم عنهم مغفرةً.

[﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً ۖ أَزْوَاجًا يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۗ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنَ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾]

فإن قلت: ما وجهُ قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وما يُعطيه من معنى التراخي؟ قلتُ: هما آيتان من جملة الآيات التي عددها دالًّا على وحدانيته وقدرته: تشعيبُ هذا الخلقِ الفاتت للحضر من نفسِ آدم، وخلقُ حواء من قُصيراه؛ إلا أن إحداها جعلها اللهُ عادةً مستمرةً، والأخرى لم يُجر بها العادة، ولم تُخلق أنثى غير حواء من قُصيرى رجل، فكانت أدخل في كونها آيةً، وأجلب لعجب السامع، فعطفها بـ ﴿ثُمَّ﴾ على الآية الأولى؛ للدلالة على مُباينتها لها فضلًا ومزيةً، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى

قوله: (أو الغالبُ الذي يقدر أن يعاجلهم)، إلى قوله: (فسمي الحلم عنهم مغفرةً)، وقلتُ: هذا أوفق لتأليفِ النظم؛ لأنَّ قوله: ﴿الَّذِينَ الْخَالِصُ﴾ مقابلٌ لقوله: ﴿الْأَهْوَى الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ لأنه تعالى ذكر أولاً ما يدلُّ على الدِّين من ذكرِ الكتاب، وأنه منزلٌ من لدن عزيز حكيم، وأنه إنما نزل مُلتبسًا بالحق ليرتب عليه العبادة والإخلاص وكان قوله: ﴿الَّذِينَ الْخَالِصُ﴾ تذييلًا له، وذكر بعده ما يدلُّ على عظم شأن ما نسبوا إليه من الشُّرك والأولاد وما دلَّ على تنزيهه عن ذلك، وأنه منفردٌ بالإلهية فهأ خالقٌ للأشياء كلها، ثم ذيله بقوله: ﴿الْأَهْوَى الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ توكيدًا لتفطيع معنى ما نسبوا إليه، فلا بدَّ من تفسيره بما قال: «الغالبُ الذي يقدر أن يعاجلهم وهو يحلم عنهم».

قوله: (وخلقُ حواء)، عطفٌ على «تشعيب»، وهما بدلانٍ من قوله: «آيتان»، و«هما» ضميرٌ مبهمٌ مفسَّرٌ بـ «آيتان».

قوله: (قُصيراه)، وهو الضلعُ الأسفل، وهو أقصرُ الضلوع.

زيادة كونها آية، فهو من التراخي في الحال والمنزلة، لا من التراخي في الوجود. وقيل: ﴿ثُمَّ﴾ متعلق بمعنى ﴿وَجِدَ﴾، كأنه قيل: خلقكم من نفسٍ وحدث، ثم شفعها الله بزواج. وقيل: أخرج ذرية آدم من ظهره كالذرّ، ثم خلق بعد ذلك حواء. ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾: وقضى لكم وقسم؛ لأنّ قضاياه وقسمه موصوفةٌ بالنزول من السماء، حيث كتّب في اللوح كلّ كائن يكون. وقيل: لا تعيش الأنعام إلا بالنبات، والنبات لا يقوم إلا بالماء، وقد أنزل الماء، فكانه أنزلها. وقيل: خلقها في الجنة، ثم أنزلها. ﴿ثُمَّ نَبَّأَهُمْ بِزُجُجِهِمْ﴾: ذكر وأثنى من الإبل والبقر والضأن والمعز. والزوج: اسمٌ لواحدٍ معه آخر، فإذا انفرد فهو فرد ووثر، قال الله تعالى: ﴿جَعَلْنَا مِنَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [القيامة: ٣٩]. ﴿خَلَقْنَا مِنْ بَعْدِ خَلْقِكُمْ﴾: حيواناً سوياً، من بعد عظام مكسوة لحماً، من بعد عظام عارية، من بعد مضع، من بعد علق، من بعد نطف. والظلمات الثلاث: البطن والرحم والمشيمة. وقيل: الصلب والرحم والبطن. ﴿ذَلِكَ كُمْ﴾ الذي هذه أفعاله هو ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ

قوله: (فهو من التراخي في الحال والمنزلة، لا من التراخي في الوجود)، قال صاحب «الفرائد»: أي مانع يمنع من أن يكون التراخي في الوجود، لعل خلق حواء من آدم بعد مدة.

قلت: المانع جعل قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ معطوفاً على قوله: ﴿خَلَقْنَا مِنْ نَفْسٍ وَجِدَ﴾ عطفت الجملة على الجملة، ولا شك أنّ تشعيب الخلق الفاتت للحصر من آدم لم يكن مقدماً على خلق حواء من ضلع آدم، ولهذا لما أراد ذلك المعنى عدل من الظاهر وأوله على وجهين: أحدهما: قال: «وقيل: ﴿ثُمَّ﴾ متعلق بمعنى ﴿وَجِدَ﴾»، أي: أنها صفة لـ ﴿نَفْسٍ﴾ معطوفة على ﴿وَجِدَ﴾ على تأويل «وحدث»، إذ لو قيل: «وحدث» بدلها لصحّ على منوال «فأصدق وأكن»، وثانيهما: وقيل: أخرج ذرية آدم من ظهره كالذرّ ثم خلق بعدها حواء، فالمراد من قوله: ﴿خَلَقْنَا مِنْ نَفْسٍ﴾ أخرج الذرية من ظهره، فيكون من عطفت الجملة على الجملة على هذا التأويل، و﴿ثُمَّ﴾ على حقيقتها، ولا يخفى على ذي ذرية بالأساليب أنّ التأويل الأول أولى وأبعد من التّعسف.

إِلَّا هُوَ فَأَن تَصْرَفُونَ ﴿ فَكَيْفَ يُعَدِّلُ بَكُمِ عَن عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِهِ؟

[﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿ ۷﴾

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾: عن إيمانكم، وإنكم المحتاجون إليه؛ لاستمراركم بالكفر واستنفاعكم بالإيمان، ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ رحمة لهم؛ لأنه يُوقِعُهُمْ فِي الْهَلَكَةِ. ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يَرْضُ الشُّكْرَ لَكُمْ؛ لأنه سببُ فوزكم وفلاحكم؛ فإذا ما كرهَ كُفْرَكُمْ وَلَا رَضِيَ شُكْرَكُمْ إِلَّا لَكُمْ وَلِصَلَاحِكُمْ، لَا لِأَنَّ مَنفَعَةً تَرْجِعُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ الْغَنِيُّ الَّذِي لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْحَاجَةُ. وَلَقَدْ تَمَحَّلَ بَعْضُ الْغَوَاةِ لِيُثَبِّتَ اللَّهُ تَعَالَى مَا نَفَاهُ عَن ذَاتِهِ مِنَ الرِّضَا لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، فَقَالَ:

قوله: (ولا رضي شُكْرَكُمْ إِلَّا لَكُمْ وَلِصَلَاحِكُمْ، لَا لِأَنَّ مَنفَعَةً تَرْجِعُ إِلَيْهِ)، هذا من التراكيب التي منعها صاحبُ «المفتاح»، قال: لا يجوزُ ما جاءَ إلا زِيدًا لا عَمْرُوًّا^(١)، وقد أجبنا عنه مرارًا.

قوله: (ولقد تمحلَّ بعضُ الغوَاةِ لِيُثَبِّتَ اللَّهُ تَعَالَى مَا نَفَاهُ عَن ذَاتِهِ مِنَ الرِّضَا لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ)، قال الإمامُ: احتجَّ الجبائيُّ بهذه الآية من وجهين: أحدهما أن المَجْبِرَةَ يَقُولُونَ: اللَّهُ تَعَالَى خَلَقَ كُفْرَ الْعِبَادِ، وَإِنَّهُ مِن جِهَةٍ أَنَّهُ مِن خَلْقِهِ حَقٌّ وَصَوَابٌ. فَقَالَ: لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَكَانَ قَدْ رَضِيَ الْكُفْرَ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي خَلَقَهُ، وَذَلِكَ ضِدُّ الْآيَةِ. وَالثَّانِي: لَوْ كَانَ الْكُفْرُ بِقَضَاءِ اللَّهِ لَوْجِبَ عَلَيْنَا أَنْ نَرْضَى بِهِ؛ لِأَنَّ الرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَاجِبٌ، وَالرِّضَا بِالْكَفْرِ كُفْرٌ. وَأَجَابَ الْأَصْحَابُ مِن وَجْهِ:

أحدها: أَنَّ عَادَةَ اللَّهِ جَارِيَةٌ بِتَخْصِيصِ لَفْظِ الْعِبَادِ بِالْمُؤْمِنِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ

(١) «مفتاح العلوم» ص ٢٩٣.

الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴿ [الفرقان: ٦٣] وقال: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] وقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] (١).

قلت: ويؤيده ما روى محيي السنّة عن ابن عباس والسُدّي: لا يرضى لعباده المؤمنين الكُفر، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ فيكون عامًا في اللفظ خاصًا في المعنى (٢).

وثانيها: أنّ الكُفر بإرادة الله لا برضاه؛ لأنّ الرضا من الله عبارة عن المدح عليه والثناء بفعله.

وثالثها: أنّ الرضا عبارة عن ترك اللوم والاعتراض لا عن الإرادة. قال ابن ذرّيد:

رَضِيْتُ قَسْرًا وَعَلَى الْقَسْرِ رِضًا مَن كَانَ ذَا سُخْطٍ عَلَى صَرَفِ الْقَضَا (٣)

وأقول - وبالله التوفيق -: اعلم أنّ قوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾ متصل بقوله: ﴿وَالَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَزْوَاجًا﴾ وهم قومٌ مخصوصون، قال الواحدي: إن تكفروا يا أهل مكة (٤)، وقد تقرّر أنّ قوله: ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ مقابل لقوله: ﴿أَلَيْسَ الَّذِينَ خَالَصُوا﴾ وهو متضمنٌ لتهديد عظيم، والمشارٌ إليه بقوله: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ جميع ما سبق من إجراء الأوصاف على من وصفوه بما لا ينبغي ونسبوه إلى ما هو منزه عنه من اتخاذ الأولياء والأولاد، يدل عليه قوله: ﴿أَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنَّ تُصْرَفُونَ﴾، فيكون قوله: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ جملةً مستطردة كاللتميم للشرط الأول، تعريضًا بهم وبكفرهم، وهو مع الشرط كالمقابل للشرط الثاني. المعنى: أنّهم ليسوا من جملة عباده المرتضين بل هم من الذين سخط الله عليهم، فوزانه وزان قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيْرٌ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، أي:

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٣٨٧).

(٢) «معالم التنزيل» (٧: ١٠٩).

(٣) انظر: «مقصود ابن دريد» بشرح الخطيب التبريزي ص ١٩.

(٤) «التفسير الوسيط» للواحدي (٣: ٥٧٢).

غِنِيَّ عَنْكُمْ وَعَنْ شُكْرِكُمْ، حَمِيدٌ وَمَسْتُوجِبٌ لِلْحَمْدِ لِكَثْرَةِ نِعَمِهِ، فَإِنْ لَمْ تَحْمَدُوهُ أَنْتُمْ يَحْمَدُهُ غَيْرِكُمْ مَمَّنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩] فَإِنَّ الْمُرَادَ بِ﴿قَوْمًا﴾: الْأَنْبِيَاءُ وَالصَّحَابَةُ. وَكَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْفَهُونَ﴾ [فصلت: ٣٨] كَأَنَّهُ قِيلَ: وَإِنْ تَكْفَرُوا فَإِنِّي غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَعَنْ شُكْرِكُمْ؛ لِأَنَّ لِي عِبَادًا مُكْرَمِينَ^(١) مَا أَرْضَى أَنْ يَنْزَلَ الْكُفْرُ بِسَاحَتِهِمْ وَيَجَلَّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ، يَشْكُرُونَ نِعْمَتِي وَلَا يَكْفُرُونَهَا، وَمَعَ ذَلِكَ إِنْ تَشْكُرُوا وَتَرْجِعُوا عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ أَرْضُ الشُّكْرِ لَكُمْ وَأَدْخِلَكُمْ فِي رُومَةٍ الْمُرْتَضِينَ مِنْ عِبَادِي، فَإِنِّي غَفُورٌ شَكُورٌ. وَسَتَقِفُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي سُورَةِ «الشُّورَى» عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ عَلَى كَلَامٍ فِي تَخْصِصِ لَفْظِ عِبَادِهِ بِالْمُصْطَفَيْنِ.

انظر أيها المتأمل الناقد البصير بين التأويلين، واعجب بحصى عقول أهل السنة والجماعة، واقطع بأنهم هم المحدثون الملهمون، ومن مشكاة النبوة مقتبسون، وعلى آثار السلف الصالح مقتفون، ولا مثاهم هداة، وإلى دين الله دعاة، أيقال: غواة، اللهم غفرا.

وقال صاحب «الانتصاف»: إن المصير على قلبه رين، وفي ميزان نظره عين، ولا يخفى أن وجود المشروط قبل الشرط متمتع عقلاً ونقلاً، فإرادة الله الشكر مقدمة لوجوده منهم، فكيف يسوغ حمل الرضا على الإرادة وقد جعل في الآية شرطاً وجزاء، وجعل وقوع الشكر شرطاً والرضا جزاء؟ فيلزم تقدم الشكر على الإرادة. والزمخشري أحد من يقول: إذا كان الجزاء ماضياً محضاً لزمته الفاء، نحو: إن تكريمي فقد أكرمتك قبل، وقد عريت الآية عن الحرف المذكور على أنه لا بد من تأويل يصحح الشرطية، فإذا بطل حمل الرضا على الإرادة، وجب حملها على المجازاة على الشكر بالكرامة، أي: وإن تشكروا يُجزئكم عليه الجزاء المرضي عنه، والمجازاة مُستقبلة بالنسبة إلى الشكر، ومثله: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي: لا يُجَازِي عليه جزاء الراضي للمرضي عليه، بل جزاء المغضوب عليه^(٢).

(١) في (ف) و(ح): «مكرمون»، بالرفع، والصواب ما أثبتناه، اسم «إن» مؤخر.

(٢) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١١٥).

هذا مِنَ الْعَامِّ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ الْخَاصُّ، وما أراد إلا عبادة الذين عناهم في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]، يريد: المعصومين، كقوله تعالى: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، تعالى الله عما يقول الظالمون. وقرئ: ﴿بِرِضَتِهِ﴾ بضم الهاء بوصلٍ وبغير وصل، وبسكونها.

قوله: (هذا مِنَ الْعَامِّ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ الْخَاصُّ)، الرَّاعِبُ: العبدُ على ضربين: عبدٌ للإيجادِ والتَّسخيرِ، وذلك يُطلقُ على كلِّ أحد، وإياه عنى بقوله: ﴿إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]. وعبدٌ على طريقِ التَّخصيصِ، وذلك قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] فعلى هذا يصحُّ إن قال: فلانٌ ليس عبداً لله، وإنه عبدُ الهوى وعبدُ الشهوة، ومنه الحديث: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَتَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، وَتَعَسَّ عَبْدُ الْحَمِيصَةِ»^(١). وقال: تخصِّصُ إضافةِ العبدِ إلى الله في كثيرٍ من المواضع تبييناً على مدحِهِ في كونه مُطيعاً له مُنصرفاً عن أمرِهِ، وأنه غير مُعرجٍ على غيره، ثمَّ أضافهُ بنونِ الملوكةِ مُبالغةً في الاختصاصِ، وكلُّ إضافةٍ إلى الله تعالى بهذا الوجهِ فللمبالغةِ^(٢).

قوله: (وَقُرِئَ ﴿بِرِضَتِهِ لَكُمْ﴾^(٣) بضمِّ الهاءِ بوصلٍ)^(٤)، قال القاضي: قرأه ابنُ كثيرٍ ونافعٌ في رواية، وأبو عمرو والكسائيُّ بإشباعِ ضمةِ الهاءِ، وعن أبي عمرو ويعقوبَ إسكانها وهو لغةٌ فيها^(٥). وقال الواحديُّ: منهم من أشبعَ الهاءَ حتَّى ألحقَ بها واواً؛ لأنَّ ما قبلها مُتحرِّكةٌ فصارَ بمنزلةِ ضربهُ وله^(٦)، ومنهم من حرَّكَ الهاءَ ولم يُلحِقْ بالواو؛ لأنَّ أصله:

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٧).

(٢) «مفردات القرآن»، ص ٥٤٢.

(٣) كذا في الأصول الخطية، وكذا هو في نصِّ «الكشاف» من (ط)، لكن لفظة «لكم» لم ترد في الأصل الخطي من «الكشاف» ولا في المطبوع.

(٤) ولتمام الفائدة انظر: «حجّة القراءات» ص ١٦٦.

(٥) «أنوار التنزيل» (٥: ٣٧).

(٦) لم أجده في مَظنَّته من «التفسير الوسيط» للواحدي (٣: ٥٧٢).

[﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًّا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾]

[٨]

﴿خَوَّلَهُ﴾: أعطاه. قال أبو النجم:

أَعْطَى فَلَمْ يَبْخُلْ وَلَمْ يُبَخَّلِ كَوْمَ الذَّرَى مِنْ خَوْلِ الْمُخَوَّلِ

وفي حقيقته وجهان؛ أحدهما: جعله خائل مال، من قولهم: هو خائل مال، وخال

يرضاه، والألف المحذوفة للجزم ليس يلزم حذفها فكانت كالباقية ومع بقاء الألف لا يجوز إثبات الواو.

قوله: (أعطى فلم يبخل)، البيت^(١). قبله في «المطلع»:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَهَّابِ الْمُجَزِلِ

ناقة كوما: عظيمة السنم. والمخوَّل: هو الله، يقال: خوَّلَهُ اللهُ الشيءَ، أي: ملكه إياه. وقوله: «ولم يبخل» تأكيد، يقال: أبخلته، إذا وجدته بخيلاً، وبخلته، نسبه إلى البخل، و«من خوَّل» أي: من مال، وقيل: ما أعطى الله الإنسان من العبيد والنعم.

قوله: (خائل) قال الجوهري: قد خلت المال أخوه، إذا أحسنت القيام عليه. يقال: هو خال مال وخائل وخولي مال، أي: حسن القيام عليه. والتخوَّل: التعهد. وفي الحديث: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ مَخَافَةَ السَّامَةِ».

النهاية: قال أبو عمرو: الصَّوَابُ أَنَّهُ كَانَ يَتَخَوَّلُنَا بِالْحَالِ، أي: يطلب الحال التي ينشطون فيها للموعظة فيعطيه فيها ولا يكثر عليهم فيملأوا. وقال في «الفائق»: ورؤي «يتخوئهم»، أي: يتعهدهم. وقيل: يتخوَّلهم، أي: يتأمل حالاتهم التي ينشطون فيها للموعظة.

(١) سبق تحريجه.

مالٍ: إذا كان متعهداً له حسن القيام به، ومنه ما روي عن رسول الله ﷺ: أنه كان يتخوّل أصحابه بالموعظة. والثاني: جعله يحول من حال يحول؛ إذا اختال وافتخر، وفي معناه قول العرب:

إِنَّ الْغَنِيَّ طَوِيلُ الذَّلِيلِ مَيَّاسٌ

﴿مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ﴾ أي: نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه. وقيل: نسي ربّه الذي كان يتضرّع إليه ويبتهل إليه، و﴿مَا﴾ بمعنى «من»، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذِّكْرَ وَالْأُنثَى﴾ [الليل: ٣]. وقرئ: ﴿لَيُضِلَّ﴾ بفتح الياء وضمّها، بمعنى: أن نتيجة جعله لله

روينا عن البخاريّ ومسلمٍ والترمذيّ، عن عبد الله «كان رسول الله ﷺ يتخوّلنا بالموعظة مخافة السامة علينا»^(١)، في اختلاف، ولم يختلفوا في أنه «يتخوّلنا»، بالخاء المعجمة. قوله: (مَيَّاسٌ)، الجوهريّ: الميس: التبخّر. وقد ماس يمس ميساً وميساناً فهو مَيَّاسٌ وتميس مثله.

قوله: (و﴿مَا﴾ بمعنى «من» كقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ الذِّكْرَ وَالْأُنثَى﴾ [الليل: ٣])، وعن بعضهم: في هذا الوجه تكلف؛ لأنه لا يقال: دعا إليه بمعنى دعاه، كذلك «مَا» بمعنى «من» لا حاجة إليه.

قلت: لا يقول هذا من ذاق حُسن موقع «مَا» في موقع «مَنْ» لإرادة الوصفية باقتضاء المقام، ولطف محلّ تضمين ﴿دَعَا﴾ معنى «تضرّع وابتهل»، كأنه نسي الكاشف لضرّ المضطرين، والسَّميع لدعاء المضطهدين، والعليم بأحوال الملثومين، الذي كان يتضرّع إليه هذا الفخور المختال، ويبتهل إليه هذا المتكبر الميَّاس، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذِّكْرَ وَالْأُنثَى﴾ [الليل: ٣] أي: القادر العظيم القدرة الذي قدر على خلق الذكر والأنثى.

قوله: (وَقُرِّي: ﴿لَيُضِلَّ﴾) ابن كثير وأبو عمرو: بفتح الياء، والباقون: بضمّها^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٦٨) ومسلم (٢٨٢١) والترمذي (٢٨٥٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) انظر: «حجة القراءات»، ص ٦١٩.

أنداداً ضلاله عن سبيل الله، أو إضلاله. والتَّيْبِجَةُ قد تكونُ غَرَضاً في الفعل، وقد تكون غير غرض. وقوله: ﴿تَمَنَّعَ بِكُفْرِكَ﴾ من باب الخِذْلَانِ والتَّخْلِيَةِ، كأنه قيل له: إذ قد أُبَيِّنْتَ قَبُولَ ما أَمَرْتَ به من الإيمان والطاعة، فمن حَقَّقَ أن لا تؤمَّرَ به بعد ذلك، وتؤمَّرَ بِتَرْكِهِ؛ مبالغةً في خذلانه وتخلُّيته وشأنه؛ لأنه لا مبالغة في الخِذْلَانِ أَشَدُّ مِنْ أن يُبَيِّنْتَ على عكس ما أمر به، ونظيره في المعنى قوله: ﴿مَتَّعَ قَلِيلًا ثُمَّ ما وَوَدَّعَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ [آل عمران: ١٩٧].

[﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَاتَاءَ الْبَيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ٩]

قُرئ: (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ) بالتخفيفِ على إدخال همزة الاستفهام على «مَنْ»، وبالتشديدِ على إدخالِ «أَمْ» عليه. و«مَنْ» مبتدأ خبره محذوف، تقديره: أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ كغيره، وإنما حُذِفَ؛ لدلالة الكلام عليه؛ وهو جَرِيٌّ ذِكْرِ الكافر قَبْلَهُ، وقوله بعده:

قوله: (والتَّيْبِجَةُ قد تكونُ غَرَضاً في الفعلِ وقد تكونُ غير غرض)، أي: اللَّامُ في ﴿يُضِلُّ﴾ كَاللَّامِ في قوله ﴿فَأَلْفَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

قوله: (قُرئ: «أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ» بالتخفيف)، نافعٌ وحزة^(١)، والباقون: بالتشديد.

قوله: (و«مَنْ» مبتدأ خبره محذوف، تقديره: أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ كغيره)، هذا على التَّقْدِيرِينِ، أمَّا على التَّخْفِيفِ فيقال: أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ كغيره، وعلى التَّشْدِيدِ «أَمْ» مُنْقَطِعَةٌ، والتَّقْدِيرِ: بل أم مَنْ هُوَ قَانِتٌ كغيره، فعلى التَّقْدِيرِينِ لا بَدَّ مِنَ الخَبَرِ، وهذا مأخوذٌ مِنْ قولِ الزَّجَّاجِ: أم مَنْ هُوَ قَانِتٌ كهذا الذي ذكرناه مِمَّنْ جَعَلَ لَهُ نِدًّا. وقيل: أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ كغيره، أي: أَمَّنْ هُوَ مُطِيعٌ كَمَنْ هُوَ عَاصٍ^(٢).

(١) والمعنى على النداء، فيكون معناه: «يا مَنْ هُوَ قَانِتٌ»، والعربُ تنادي بالألفِ كما تنادي بالياء. انظر:

«حجّة القراءات» ص ٦٢٠-٦٢١.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٤٧).

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وقيل: معناه: أَمَّنْ هو قانتٌ أفضلُ أمْ مَنْ هو كافر؟ و: أهذا أفضلُ أمْ مَنْ هو قانتٌ؟ على الاستفهامِ المتصل. والقانتُ: القائمُ بما يجبُ عليه مِنَ الطاعة، ومنه قوله عليه السلام: «أفضلُ الصلاةِ طُولُ القنوتِ»؛ وهو

وقلتُ: مرادُ الزَّجَاجِ بالعاصي هو الذي ذكره قَبْلُ في تقديرِ المتصلة: مَنْ جعلَ له نِدَاءً، وفيه إشارةٌ إلى أَنَّ المَضْرَبَ عنه بـ«بل» الكلامُ المذكورُ فيه ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّلَّذِيضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وهو الآيةُ السَّابِقَةُ، أي: دع ذَلِكَ الذَّمَّ وَسَلِّمْهُمْ: أَمَّنْ هو مطيعٌ كَمَنْ هو عاصٍ؟ وهو مِنْ بابِ إِرْخَاءِ العِنَانِ.

قوله: (وقيل: معناه: أَمَّنْ هو قانتٌ)، هذا على أن تكونَ الهمزةُ و«أم» مُعَادِلَتَيْنِ، ولا بدُّ مِنْ تقديرِ إحدى المُعَادِلَتَيْنِ، فعلى التَّخْفِيفِ الاستفهامُ مذكورٌ فيقَدَّرُ «أم» المُعَادِلَةُ، وإليه الإشارةُ بقوله: «أَمَّنْ هو قانتٌ أفضلُ أمَّنْ هو كافر؟»، وعلى التَّشْدِيدِ «أم» مذكورةٌ فيقَدَّرُ. ونظيره، أي: نظيرُ قوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾^(١) فتقدَّرُ الهمزةُ، وإليه الإشارةُ بقوله: «أهذا أفضلُ أمْ من هو قانتٌ؟». هذا مأخوذٌ مِنْ قولِ أبي عليٍّ^(٢): ومن قرأ «أَمَّنْ» فَإِنَّ الجُمْلَةَ التي عَادَلْتَهَا «أم» قد حذفت، المعنى: الجاحِدُ الكافرُ برَّبِّهِ خيرٌ أَمَّنْ هو قانتٌ؟ و«مَنْ» موصولة، ودلَّ على الجُمْلَةِ المحذوفةِ المُعَادِلَةُ لـ«أم» ما جاء بعده مِنْ قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنَّ التَّسْوِيَةَ لا تكونُ إلا بينَ اثْنَيْنِ، ومثْلُ هذا الحذفِ قوله تعالى: ﴿مَالِكٌ لَا أَرَى الْهَدَىٰ هَدًى أَمْ كَانَتْ مِنْ أَفْكَائِيتٍ﴾ [النمل: ٢٠] فجمع بين قولِ أبي عليٍّ والزَّجَاجِ.

قوله: (أفضلُ الصَّلَاةِ طُولُ القنوتِ)، الحديثُ مِنْ رِوَايَةِ مُسْلِمٍ عن جابرٍ: «أفضلُ الصَّلَاةِ طُولُ القنوتِ»^(٣). ومن رِوَايَةِ الترمذِيِّ عنه أيضًا: «قيل: يا رسولَ الله أَيُّ الصَّلَاةِ أفضلُ؟ فقال: طُولُ القنوتِ»^(٤).

(١) من قوله: «فيقَدَّرُ. ونظيره، أي: نظيرُ قوله» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) يعني الفارسي. وانظر كلامه في «الحجَّة للقراء السبعة» (٣: ٣٣٩).

(٣) أخرجه مسلم (٧٥٦).

(٤) أخرجه الترمذِي (٣٨٧) وابن ماجه (١٤٢١) وغيرهما، وانظر تمام تحريجه في «مسند أحمد» (١٣٤٦٨).

القيام فيها، ومنه: القنوت في الوتر؛ لأنه دعاء المصلي قائماً. ﴿سَاجِدًا﴾: حال. وقرئ: (ساجدٌ وقائمٌ) على أنه خبرٌ بعد خبر، والواو للجمع بين الصفتين. وقرئ: (ويحذرُ عذابَ الآخرة). وأراد بـ ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾: العاملين من علماء الديانة، كأنه جعل من لا يعمل غير عالم. وفيه ازدراءٌ عظيم بالذين يقتنون العلوم، ثم لا يقتنون، ويفتنون فيها، ثم يُفتنون بالدنيا، فهم عند الله جهلة؛ حيث جعل القانتين هم العلماء، ويجوز أن يرد على سبيل التشبيه، أي: كما لا يستوي العالمون والجاهلون، كذلك لا يستوي القانتون والعاصون. وقيل: نزلت في عمار بن ياسر وأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي.

النهاية: القنوت يرد لمعانٍ متعددة كالطاعة والخشوع والصلاة والدعاء والعبادة والقيام والسكوت، فيصرف في كل واحد من هذه المعاني إلى ما يجتمعه لفظ الحديث الوارد فيه.

قوله: (وأراد بـ ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾: العاملين)، متصل بقوله: «وقيل: معناه آمن هو قانتٌ»، أي: قال القائل: معناه كذا، وأراد بالذين يعلمون العاملين، فيكون ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ وصفًا للمظهر موضع الضمير للإشعار بالعلية، ويفهم منه أن غير العالمين الجاهلون، وإليه أو ما بقوله: «فهم عند الله جهلة»، حيث جعل القانتين هم العلماء، كأنه قيل: آمن هو قانتٌ أفضل آمن هو غير قانت؟ وهل يستويان، أي: بينهما بون بعيد، فالجمله الثانية بيان للفرق، ولهذا قال: «فيه ازدراءٌ عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يقتنون»، وأما قوله: «ويجوز أن يرد على سبيل التشبيه» فهو عطف على قوله: «وأراد بالذين يعلمون: العاملين»، أي: دل على المحذوف جري ذكر الكافر قبله وجري قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾: بعده، وأراد بالذين يعلمون العاملين^(١)؛ لأنه كالتقدير لقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ آنَاءَ آيَلٍ﴾ لأن العالم الحقيقي هو العامل. ويجوز أن يرد على سبيل التشبيه فيكون القانت غيرًا والعالم غيرًا.

(١) من قوله: «أي: دل على المحذوف» إلى هنا سقط من (ح).

وعن الحسن: أنه سُئِلَ عن رَجُلٍ يَتِمَادِي فِي الْمَعَاصِي وَيَرْجُو، فقال: هذا تَمَنُّ، وإِنَّمَا الرَّجَاءُ قَوْلُهُ، فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ. وَقُرِئَ: (إِنَّمَا يَذَكَّرُ) بِالْإِدْغَامِ.

[﴿ قُلْ يَعْبادُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾] [١٠]

﴿ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ﴾ متعلق بـ ﴿ أَحْسَنُوا ﴾ لا بـ ﴿ حَسَنَةٌ ﴾، معناه: الذين أحسنوا في هذه الدنيا فلهم حَسَنَةٌ في الآخرة؛ وهي دخول الجنة، أي: حَسَنَةٌ غَيْرُ مُكْتَنَهَةٍ بِالْوَصْفِ. وقد عَلَّقَهُ السُّدِّيُّ بـ ﴿ حَسَنَةٌ ﴾، ففسَّرَ الحَسَنَةَ بِالصَّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ. فَإِن قَلْتُ: إِذَا عَلَّقَ الظَّرْفُ بـ ﴿ أَحْسَنُوا ﴾ فَأَعْرَابُهُ ظَاهِرٌ، فَمَا مَعْنَى تَعْلِيْقِهِ بـ ﴿ حَسَنَةٌ ﴾، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَقَعَ صِفَةٌ لَهَا؛ لِتَقْدِيمِهِ؟ قَلْتُ: هُوَ صِفَةٌ لَهَا إِذَا تَأَخَّرَ، فَإِذَا تَقَدَّمَ كَانَ بَيَانًا لِمَكَانِهَا، فَلَمْ يُجَلِّ التَّقَدُّمَ بِالتَّعْلُقِ، وَإِن لَمْ يَكُنِ التَّعْلُقُ وَصْفًا.

قوله: (وعن الحسن: أنه سُئِلَ عن رَجُلٍ يَتِمَادِي فِي الْمَعَاصِي وَيَرْجُو، فقال: هذا تَمَنُّ، وإِنَّمَا الرَّجَاءُ هَذِهِ ^(١) الْآيَةَ)، ﴿ أَمَنْ هُوَ قَنِيتُ ﴾ الْآيَةَ. الْإِنْتِصَافُ: كَلَامُ الْحَسَنِ صَحِيحٌ أَرَادَ بِهِ الرَّمْحَ شَرِيًّا بِاطِّلًا، فَمَرَادُ الْحَسَنِ أَنْ حَقَّ الْمُصْرَّ أَنْ يَغْلِبَ خَوْفُهُ رَجَاءَهُ، وَلَمْ يُرِدْ إِقْنَاطَهُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَيَظْهَرُ مِنْ حَالِ الرَّمْحِ شَرِيٍّ وَاعْتِقَادِهِ أَنَّ هَذَا الْعَاصِي لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَلَا وَجَةَ لِرَجَائِهِ، فَأُورِدَ قَوْلَ الْحَسَنِ رَمَزًا لِهَذِهِ الْعَقِيدَةِ، فَلَا يَنْفَعُ الْقَائِنُ قُنُوتَهُ إِذَا أودى بِهِ قُنُوطُهُ، يَرِيدُ: ﴿ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْكُفْرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧] ^(٢).

قوله: (فلم يُجَلِّ التَّقَدُّمَ بِالتَّعْلُقِ)، يَعْنِي: ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَالخَبَرُ ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ﴾ متعلق بـ ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ وَلَوْ كَانَ مُتَأَخِّرًا عَنْهَا لَكَانَ وَصْفًا، وَحِينَ تَقَدَّمَ كَانَ بَيَانًا لِمَكَانِهَا؛ لِأَنَّ التَّقَدُّمَ لَمْ يُجَلِّ بِالتَّعْلُقِ، كَمَا أَنَّ الْجُمْلَةَ إِذَا كَانَتْ صِفَةً لِنَكْرَةٍ - وَهِيَ إِمَّا فَاعِلٌ أَوْ مَفْعُولٌ - فَإِذَا تَقَدَّمتْ صَارَتْ حَالًا، وَهَذِهِ وَإِن لَمْ تَكُنْ وَصْفًا لِتَقْدِيمِهَا، وَلَا حَالًا

(١) كذا في الأصول الخطية، وفيه اختلاف عما في «الكشاف»، ولعله من باب الاختصار.

(٢) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١١٧).

ومعنى «أرض الله واسعة»: أن لا عذر للمفترطين في الإحسان البتة؛ حتى إن اعتلوا

لفقدان العامل، لم يُحَلَّ التَّكْدُّمُ بتعلُّقها بالحسنة فيكون بياناً لمكانها أي: مكان الحسنة على نحو ﴿وَكَاثِرًا فِيهِ مِنَ الزَّهْدِيَّتِ﴾ [يوسف: ٢٠] كَأَنَّ قَائِلًا لَهَا سَمِعَ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ سأل: أين هي؟ قيل: في هذه الدنيا.

قوله: (ومعنى «أرض الله واسعة»)، المبتدأ، والخبر: «أن لا عذر»، و«حتى» غاية «أن لا عذر»، وهي التي تدخل على الجملة، والجملة هي الشرطية، أعني: «إن اعتلوا» مع جزائه، وهو «قيل لهم: فإن أرض الله واسعة» إلى آخره.

فإن قلت: من أين أفاد ﴿أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾ هذه المعاني المتكاثرة؟ قلت: من حيث اتصّاله بالكلام السابق، وذلك أن جملة قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ مع ما اتّصل به من قوله: ﴿أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ لتعليل الأمر بالتقوى، إننا قيّد الفعل بالظرف وهو ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ للإشعار بأن الدنيا مكان الإحسان ومزرعة لحرب الآخرة، فأريد تميم ذلك المعنى فقيل: ﴿أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾ لئلا يعتذر العامل لتفريطه في الأعمال بالإعتلال بالأوطان، وأنه لم يكن متمكناً من التوفّر على الإحسان في أرضه كأنه قيل لهم: اتقوا ربكم فيما تأتون به وتذرون، وتيقنوا بحصول أمرين: جزاء الإحسان وفسحة المكان فتهاجروا وتحولوا إن لم تتمكنوا من التقوى في أرضكم، ثم أئجه لهم أن يسألوا ويقولوا: فماذا يكون بعد تلك الحسنة لنا من الأجر حينئذ؟ فأجيبوا ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقِينَ أَجْرُهُمْ بِقَدْرِ حِسَابٍ﴾ يعني: أن الله تعالى وفي أجر من سبق عليكم من الأنبياء والصالحين بصيرهم على مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم، فلکم الأجر وتوفيته إذا اقتضيت أثرهم واقتديت بهم، هذا التأويل إنما يحسن إذا علّق الظرف بـ ﴿أَحْسَنُوا﴾ لا بـ ﴿حَسَنَةً﴾ ومن ثم كان الوجه الثاني مرجوحاً لا لما قاله مكّي^(١)، والأول أحسن؛ لأن الدنيا ليست بدار جزاء^(٢)؛ لأن المعنى حينئذ: لهم في هذه الدنيا الصّحة والعافية، وفي الآخرة يوفون أجورهم كاملة. وعلى الأول المعنى: أن لهم وراء دخول الجنة ما لا عين رأت

(١) انظر: «مشكل إعراب القرآن» (٢: ٦٣١).

(٢) من قوله: «مرجوحاً لا لما قاله» إلى هنا، سقط من (ح).

بأوطانهم وبلادهم، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفّر على الإحسان، وصَرَفَ إِلَهُمْ إِلَيْهِ قِيلَ لَهُمْ: فَإِنَّ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ وَبِلَادَهُ كَثِيرَةٌ، فَلَا تَجْتَمِعُوا مَعَ الْعَجْزِ، وَتَحَوَّلُوا إِلَى بِلَادٍ أُخْرَى، وَاقْتَدُوا بِالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي مُهَاجَرَتِهِمْ إِلَى غَيْرِ بِلَادِهِمْ؛ لِيَزِدَا دُورَ إِحْسَانِنَا إِلَى إِحْسَانِهِمْ وَطَاعَةٍ إِلَى طَاعَتِهِمْ. وقيل: هو للذين كانوا في بلدٍ المشركين فأَمَرُوا بِالمُهَاجِرَةِ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. وقيل: هي أَرْضُ الْجَنَّةِ. و﴿الصَّانِرُونَ﴾: الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى مُفَارَقَةِ أوطَانِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ، وَعَلَى غَيْرِهَا؛ مِنْ تَجَرُّعِ الْعُصَصِ، وَاحْتِمَالِ الْبَلَايَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَازْدِيَادِ الْخَيْرِ. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: لَا يُحَاسِبُونَ عَلَيْهِ. وقيل: بِغَيْرِ مِكْيَالٍ وَغَيْرِ مِيزَانٍ يُعْرَفُ لَهُمْ غَرْفًا، وَهُوَ تَمَثُّلٌ لِلتَّكْثِيرِ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَا يَهْتَدِي إِلَيْهِ حِسَابُ الْحُسَابِ وَلَا يُعْرَفُ. وَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «يَنْصَبُ اللَّهُ الْمَوَازِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُؤْتِي بِأَهْلِ الصَّلَاةِ فَيُوقِفُونَ أَجْوَرَهُمْ بِالْمَوَازِينِ،

وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، فَوْضِعَ ﴿الصَّانِرُونَ﴾ مَوْضِعَ الصَّمِيرِ لِلْغَلْبَةِ، وَهَاهُنَا أَيْضًا نُكْتَةٌ سَرِيَّةٌ وَهِيَ أَنَّ اسْمَ الْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ كَمَا هُوَ فِي قَوْلِهِ:

هَذَا أَبُو الصَّقَرِ فَرَدَا فِي مَحَاسِنِهِ (١)

لَا كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ الدَّارَ الدُّنْيَا نَعْمَ الدَّارُ إِنْ جُعِلَتْ مَكَانًا لِلْعَمَلِ وَحَرْنًا لِلْآخِرَةِ.

قَوْلُهُ: (لَا يَهْتَدِي إِلَيْهِ حِسَابُ الْحُسَابِ)، مِثَالُ لِقَوْلِهِ: «لَا يُحَاسِبُونَ عَلَيْهِ»، أَيْ: لَا حِسَابَ وَلَا اهْتِدَاءَ إِلَيْهِ. وَقَوْلُهُ: «وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ: يَنْصَبُ اللَّهُ الْمَوَازِينَ» الْحَدِيثُ (٢): مِثَالُ لِقَوْلِهِ: «بِغَيْرِ مِكْيَالٍ وَغَيْرِ مِيزَانٍ»، فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ أَوْلَى: «يُعْرَفُ لَهُمْ غَرْفًا» جَاءَ بِقَوْلِهِ: «وَيَنْصَبُ عَلَيْهِمُ الْأَجْرَ صَبًّا»، فَتَطَابَقَا. وَحَاصِلُ مَعْنَى الْآيَةِ: مَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ إِلَّا بِغَيْرِ حِسَابٍ؛ لِأَنَّ الْحَصْرَ فِي ﴿لَمَّا﴾ هُوَ فِي الْقَيْدِ الْآخِرِ؛ لِأَنَّهُ فَرَعَ ﴿مَا﴾ وَ﴿إِلَّا﴾ وَفِيهِ مَعْنِيَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ

(١) سبق تخريجه.

(٢) ذكره الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣: ٢٠٠) وعزاه لنظيراني في «معجمه» بلفظ:

«يَنْصَبُونَ لِلْحِسَابِ»، وَهُوَ اهْتِدَائِي فِي ثَلَاثَةِ مَعَاجِمِ نَظِيرَانِي.

ويؤتى بأهل الصدقة فيؤفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الحج فيؤفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان، ويصب عليهم الأجر صباءً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَوِّى الضَّيُّرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل.

[قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي * فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنْ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١-١٥﴾]

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ﴾ بإخلاص الدين ﴿وَأُمِرْتُ﴾ بذلك ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: مُقَدَّمَهُمْ وسابِقَهُمْ في الدنيا والآخرة، ولعني: أَنْ الإِخْلَاصَ له السُّبْقَةَ في الدين، فَمَنْ أَخْلَصَ كَانَ سَابِقًا. فَإِنْ قَلَّتْ: كَيْفَ عَطِفَ ﴿أُمِرْتُ﴾ على ﴿أُمِرْتُ﴾ وهما واحد؟ قلت: ليسا بواحد؛ لاختلاف جهتيهما؛ وذلك أَنَّ الأَمْرَ بالإِخْلَاصِ وتكليفه شيء، والأَمْرَ به لِجُرْحِزِّ القَائِمِ به قَصَبِ السَّبْقِ في الدين شيء، وإذا اختلف

حُكْمُ الغَيْرِ بِخِلافِهِ، وعليه ظاهر الحديث الذي أورده. المعنى: من جمع بين الصبر والصلاة والصدقة والحج لا يكون أجره كأجر من أفرد تلك الطاعات؛ لأن ذلك الصبر لا يعتد به إذا أتى به مفردًا. والثاني: أن لا يكون أجر صبر هؤلاء كأجر صلاتهم وصدقتهم وحجهم، فالمراد بأجرهم على الأول ما ينسب إليهم، وعلى الثاني أجر صبرهم، ودلالة الآية على معنى الحديث من حيث تخصيص وصف الصابرين وترتب الثواب عليه نحو: «في سائمة الغنم زكاة»^(١) ودلائلها على المعنى الثاني من أداة الحصر، والله أعلم.

قوله: (وذلك أن الأمر بالإخلاص وتكليفه شيء)، يعني: إذا كرر المعنى ليناظ به معنى زائد كان المجموع غير المفرد، فالتقدير: أُمِرْتُ بإِخْلَاصِ الدِّينِ وَأُمِرْتُ بِذَلِكَ؛ لِأَنْ أَكُونَ

(١) سبق تخريجه.

وَجْهًا شَيْئًا وَصِفَتَاهُ تَنَزَّلَ بِذَلِكَ مَنْزِلَةً شَيْئَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ اللَّامَ مَزِيدَةً مِثْلَهَا فِي: أَرَدْتُ لِأَنَّ أَفْعَلَ، وَلَا تُرَادُ إِلَّا مَعَ «أَنَّ» خَاصَّةً دُونَ الْاسْمِ الصَّرِيحِ، كَأَنَّهَا زِيدَتْ عَوَضًا مِنْ تَرْكِ الْأَصْلِ إِلَى مَا يَقُومُ مَقَامَهُ، كَمَا عَوَّضَ السَّيْنُ فِي «أَسْطَاعَ» عَوَضًا مِنْ تَرْكِ الْأَصْلِ الَّذِي هُوَ «أَطْوَعَ»، وَالِدَلِيلُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ: مَجِيئُهُ بِغَيْرِ لَامٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤]. ﴿أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَلَهُ﴾ [الأنعام: ١٤].

مِنَ السَّابِقِينَ. وَفَائِدَتُهُ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ السَّبْقَ الْمُعْتَبَرَ لَيْسَ بِتَقَدُّمِ الزَّمَانِ بَلْ بِالتَّقَدُّمِ بِالْقَدَمِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠-١١] قَالَ الْقَاضِي: وَالْعَطْفُ لِمُغَايِرَةِ الثَّانِي الْأَوَّلَ بِتَقْيِيدِهِ بِالْعِلَّةِ وَالْإِشْعَارِ بِأَنَّ الْعِبَادَةَ الْمُقَرَّبُونَ بِالْإِخْلَاصِ وَإِنْ اقْتَضَتْ لِذَاتِهَا أَنْ تُؤَمَّرَ بِهَا فَهِيَ أَيْضًا تَقْتَضِيهِ لِمَا يَلْزَمُ مِنَ السَّبْقَةِ فِي الدِّينِ^(١). وَقَوْلُهُ: «وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ اللَّامَ مَزِيدَةً» عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «وَأَمَرْتُ بِذَلِكَ لِأَجْلِ أَنْ أَكُونَ»، يَعْنِي: أَنَّ اللَّامَ إِذَا مَاتَ لِلتَّعْلِيلِ أَوْ مَزِيدَةً، وَكَانَ يَلْزَمُ عَلَى الْأَوَّلِ تَقْدِيرُ الْمَأْمُورِ بِهِ الْمُسْتَلْزَمَ لِلتَّكْرِيرِ، وَأَنْ يُقَالَ: وَأَمَرْتُ بِذَلِكَ، فَسَأَلَ عَنْهُ وَأَجَابَ، ثُمَّ شَرَعَ فِي بَيَانِ أَنَّ اللَّامَ مَزِيدَةٌ؛ لِأَنَّ «أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ» هُوَ الْمَأْمُورُ بِهِ، وَاسْتَشْهَدَ بِأَمْثَالِهِ مِنْ قَوْلِهِ: «أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» وَغَيْرِهِ.

قَوْلُهُ: (مِنْ تَرْكِ الْأَصْلِ الَّذِي هُوَ أَطْوَعَ)، إِلَى «أَطَاعَ»، رُوِيَ عَنِ الْمُصَنِّفِ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ «أَطَاعَ» أَضْلَعُ «أَطْوَعَ»، فَحِينَ غَيَّرُوا الْأَصْلَ عَوَّضُوا مِنْ تَغْيِيرِهِ زِيَادَةَ السَّيْنِ، وَنَحْوَهُ زِيَادَةُ الْهَاءِ فِي «أَهْرَاقَ» وَأَصْلُهُ «أَرَاقَ». وَقِيلَ: الْأَصْلُ فِي الْآيَةِ أَنْ يَكُونَ الْمَفْعُولُ بِهِ اسْمًا صَرِيحًا، فَإِذَا أُمِيَ بَدَلُهُ أَنْ مَعَ الْفِعْلِ فَقَدْ عَدَلَ عَنِ الْأَصْلِ إِلَى غَيْرِهِ.

قَالَ صَاحِبُ «الْإِنْصَافِ»: قَوْلُهُ: إِنَّهَا لَا تَرَادُ إِلَّا مَعَ «أَنَّ»، لَيْسَ بِصَحِيحٍ، فَمِنْ مَسَائِلِهَا: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ يُجِبِينَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، ﴿وَأَمَرْتُ لِأَسْلِمَ﴾، فَلَوْ اقْتَصَرَ عَلَى أَنَّهَا لَا تَرَادُ مَعَ الْاسْمِ الصَّرِيحِ لَكَانَ أَصَحَّ.

وفي معناه أوجه: أن أكون أول من أسلم في زماني ومن قومي؛ لأنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها. وأن أكون أول الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاماً، وأن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره؛ لأكون مقتدى بي في قولي وفعلي جميعاً، ولا تكون صفتي صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون، وأن أفعل ما أستحق به الأوليّة من أعمال السابقين؛ دلالة على السبب بالمسبب، يعني: أن الله

قوله: (وفي معناه أوجه)، أي: في معنى الأوليّة وجوه أربعة، ومدار الوجوه على وجهين: أحدهما: السبب بحسب الزمان. وثانيهما: بحسب المعنى.

والوجه الأول على وجوه:

أحدها: أن يراد بالأوليّة أول المخالفين لغير دين الإسلام الدافعين لما يصاد الإيذان، قال تعالى: ﴿فَقَبِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفُلْ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٨٤] فإن دفع نقيض الشيء إثبات له، كقول المنافقين: ﴿إِنَّمَا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤] وهو من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْمَهُ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

وثانيها: أن يراد بالأوليّة أول الموافقين والمدعويين إلى الإسلام، وإليه الإشارة بقوله: «أول الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاماً»، والداعي إلى الشيء ينبغي أن يكون متحلياً به.

وثالثها: أن يراد بالسبب السابق بحسب الدعوة، فإن الأفضل أن من يدعو الغير إلى خلق كريم أن يدعو نفسه إليه أولاً، ويتخلق به حتى يؤثر في الغير سنة الأنبياء والصالحين لا الملوك والمتجبرين، والفرق بين هذا الوجه والوجه السابق أن الأول مطلق وهذا مقيد.

الانتيصاف: هذا الوجه أحسن الوجوه. والوجه الثاني: أن يراد بالسبب السابق بالقدم والأعمال الصالحة، وهو المراد من قوله: «وأن أفعل ما أستحق به الأوليّة» كقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ﴾ [الواقعة: ١٠-١١]، وهذا الوجه أوفق للتأليف على ما سبق^(١). فقوله: «إسلاماً» الظاهر أنه تمييز وبيان لما أهتم في الأوليّة.

قوله: (دلالة على السبب بالمسبب)، يعني: أطلق التقدّم في الإسلام وأراد الأعمال

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١١٨).

أمرني أن أخلص له الدين من الشرك والرياء وكل شوب، بدليل العقل والوحي، فإن عصيت ربي بمخالفة الدليلين، استوجب عذابه، فلا أعصيه ولا أتابع أمركم، وذلك حين دعوه إلى دين آبائه. فإن قلت: ما معنى التكرير في قوله: ﴿قُلْ إِيَّيْ أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ وقوله: ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ قلت: ليس بتكرير؛ لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بإحداث العبادة والإخلاص. والثاني: إخبار بأنه يختص الله وحده دون غيره بعبادته لمخلصاً له دينه؛ ولدلالته على ذلك قدم المعبود على فعل العبادة وأخره في الأول، فالكلام أولاً واقع في الفعل نفسه، وإيجاده، وثانياً فيمن يفعل الفعل لأجله؛ ولذلك رتب عليه قوله: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾، والمراد بهذا

الصالح؛ لأن الأعمال سبب في السبق، على أن من لم يأت من المؤمنين بالأعمال حاصل في منزلة بين المنزلتين عندهم، وعند المحذرين والسلف الصالح هو من إطلاق الكل على البعض؛ لأن الأعمال ركن من ركني الإسلام.

قوله: (فإن عصيت ربي بمخالفة الدليلين)، هذا بيان اتصال هذه الآية بما سبق، يعني: ما ذكرت من الأمر بالإخلاص في الدين والتبري من الشرك والرياء هو ما عرفته بالدليلين، أي: العقل والوحي.

قوله: (ليس بتكرير)، وتلخيص الجواب: أن الأول: إخبار عن كونه كان مأموراً بإيجاد الإخلاص. والثاني: إخبار عن أنه امثل لذلك الأمر وأوجد المأمور به، ولذلك قدم المفعول على الفعل، وقد تقرر عند أصحاب المعاني أنهم إذا قدموا على الفعل معمولة أذنوا بتقرير الفعل والترديد في المعمول، كأنهم قالوا له: اعبد ما نعبد لنعبد ما تعبد، كما قال في ﴿الْكَافِرُونَ﴾ يا محمد هلّم فاتبع ديننا وتتبع دينك، تعبد إلهنا سنةً ونعبد إلهك سنة، فأجاب هاهنا بما أجاب هناك بقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ﴾، ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ﴾، فهو بين القصر الإفرادي، وبهذا سقط قول ابن الحاجب والتمسك بمثل ﴿بَلِ اللَّهُ أَعْبَدُ﴾ ضعيف؛ لأنه جاء ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ﴾ و﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾.

الأمر الوارد على وجه التخيير: المبالغة في الخذلان والتخلية، على ما حَقَّقْتُ فيه القولَ مرَّتين. ﴿قُلْ إِنَّ الْكَامِلِينَ فِي الْخُسْرَانِ الْجَامِعِينَ لَوْجُوهُهُ وَأَسْبَابُهُ: هُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾؛ لوقوعها في هَلَكَةٍ لا هَلَكَةَ بعدها، ﴿وَ خَسِرُوا أَهْلِيهِمْ﴾؛ لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خَسِرُوا هَمَّ كما خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذَهَبُوا عَنْهُمْ ذَهَاباً لا رجوعَ بعده إليهم. وقيل: وخَسِرُوا هَمَّ؛ لأنهم لم يَدْخُلُوا مَدْخَلَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَهُمْ أَهْلٌ فِي الْجَنَّةِ، يعني: وخَسِرُوا أَهْلِيهِمْ الَّذِينَ كَانُوا يَكُونُونَ لَهُمْ لَوْ آمَنُوا، ولقد وَصَفَ خُسْرَانَهُمْ بِغَايَةِ الْفِظَاعَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾؛ حيثُ اسْتَأْنَفَ الْجُمْلَةَ وَصَدَّرَهَا بِحَرْفِ التَّنْبِيهِ، وَوَسَّطَ الْفَصْلَ بَيْنَ الْمَبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ، وَعَرَّفَ الْخُسْرَانَ، وَنَعَّته بِالْمُبِينِ.

﴿لَهُمْ مِنْ قُوَّتِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحَنُّنِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبُدُونَ﴾

[١٦]

قوله: (على ما حَقَّقْتُ فيه القولَ مرَّتين)، أحدهما: في هذه السُّورَةِ في قوله: ﴿قُلْ تَمَنَّعَ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً﴾، وثانيهما في قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْكَامِلِينَ فِي الْخُسْرَانِ﴾، هذا من إفادة تعريف الجنس، نحو ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ٢]، وحاتم الجواد. وقوله: «الجامعين لوجوهه» بيان له. قال في قوله: هو الرَّجُلُ، أي: الكَامِلُ فِي الرَّجُولِيَّةِ الْجَامِعُ لما يكون في الرَّجَالِ مِنْ مَرَضِيَّاتِ الْخِصَالِ، يعني: إنَّهَا يَطْلُقُ اسْمُ الْجِنْسِ عَلَى فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِ إِذَا اجْتَمَعَ فِيهِ الْخِصَائِلُ الْمَعْتَبَرَةُ فِي ذَلِكَ، فَكَانَتْ لِدَلَالَةِ الْجِنْسِ كُلِّهِ. وقوله: «هُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا» إشارة إلى ما يُعْطِيهِ التَّرْكِيبُ مِنْ مَعْنَى الْإِخْتِصَاصِ، وَفِي إِعَادَةِ ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ فِي الْخَبَرِ بَعْدَ ذِكْرِ ﴿الْخَسِيرِينَ﴾ مَبَالِغَةٌ أُخْرَى.

قوله: (وقيل: وخَسِرُوا هَمَّ؛ لأنهم لم يَدْخُلُوا مَدْخَلَ الْمُؤْمِنِينَ)، وعلى هذا المراد بالأهل: ما يُعَدُّ الْأَهْلَ فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْخَوَرِ وَالْغُلْبَانِ وَغَيْرِهِمَا، وَفِيهِ تَتِمُّمٌ، كَأَنَّهُ قِيلَ: خَسِرُوا رَأْسَ الْمَالِ وَالرُّبْحَ. وقوله: ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ تذييل، ولهذا قال: «ولقد وصف خسرانهم بغاية الفظاعة».

﴿وَمِن تَحْتِهِمْ﴾ أطباقٌ مِنَ النَّارِ هِيَ ﴿ظُلُلٌ﴾ لآخرين، ﴿ذَلِكَ﴾ العذابُ هو الذي يتوعدُّ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ؛ ويخوفهم؛ ليجتنبوا ما يُوقِعهم فيه. ﴿يَعْبَادِ فَاتَّقُون﴾ ولا تتعرضوا لِمَا يُوجِبُ سَخَطِي، وهذه عظةٌ من الله تعالى ونصيحةٌ بالغة. وقرئ: (يا عبادي).

[﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾
[١٧ - ١٨]

﴿الطَّاغُوتَ﴾: فَعَلَوْتَ؛ مِنَ الطُّغْيَانِ، كَالْمَلَكُوتِ وَالرَّحْمَتِ، إِلاَّ أَنَّ فِيهَا قَلْبًا بِتَقْدِيمِ اللامِ عَلَى الْعَيْنِ، أُطْلِقَتْ عَلَى الشَّيْطَانِ أَوْ الشَّيَاطِينِ؛ لِكُونِهَا مَصْدَرًا وَفِيهَا مُبَالَغَاتٌ؛ وَهِيَ التَّسْمِيَةُ بِالمصدرِ، كَأَنَّ عَيْنَ الشَّيْطَانِ طُّغْيَانٌ، وَأَنَّ البِنَاءَ بِنَاءً مُبَالَغَةً؛ فَإِنَّ الرَّحْمَتَ: الرَّحْمَةُ الواسِعَةُ، وَالْمَلَكُوتُ: المُلْكُ المُبْسُوطُ؛ وَالقَلْبُ وَهُوَ لِلإختصاصِ؛ إِذْ لا تُطَلَّقُ

قوله: (هي ﴿ظُلُلٌ﴾ لآخرين)، يريد أن ظللاً إنما يكون من فوق، فلما حُصِّت بقوله: ﴿مِن تَحْتِهِمْ ظُلُلٌ﴾ نَبَّهَ عَلَى الإدماجِ. وَأَنَّ طَبَقَةَ هؤُلاءِ المُشْرِكِينَ ظِلَّةٌ لآخرينَ وَهُمُ المَنَافِقُونَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] و﴿مِن تَحْتِهِمْ﴾ إِمَّا عَطْفَ جُمْلَةٍ عَلَى ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ و﴿ظُلُلٌ﴾ عَلَى ﴿ظُلُلٌ﴾ أَوْ يُقَدَّرُ ﴿لَهُمْ﴾ فَيَكُونُ عَطْفَ جُمْلَةٍ عَلَى جُمْلَةٍ؛ لِأَنَّ ﴿لَهُمْ﴾ خَبْرٌ و﴿ظُلُلٌ﴾ مُبْتَدَأٌ و﴿مِن النَّارِ﴾ صِفَةٌ و﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ ﴿ظُلُلٌ﴾ أَوْ مُتَعَلِّقًا بِالخبرِ ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ ظُلُلٌ كائِنَتْ مِنْ فَوْقِهِمْ.

قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ العذابُ هو الذي يتوعدُّ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ؛، هذا تصحيحٌ لمعنى ﴿يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ وَأَنَّهُ خَبْرٌ لذلِكَ، والمشارُ إليه ما سبق.

قوله: (والقلب)، أي: ومن المبالغاتِ القلب، وحُكْمُهُ حُكْمُ أسْمَاءِ الأجناسِ إِذَا غَلَبَ عَلَى إِحْدَى مُسْمِيَاتِهَا بِأَنَّ مُجْمَعٌ مَعَ الألفِ وَاللَّامِ عَلَمًا لَهُ، فَإِنَّ المَصْدَرَ كَمَا قَالَ «فَعَلَوْتَ» مِنْ «الطُّغْيَانِ» يُطَلَّقُ عَلَى مَنْ طَغَى وَتَجَاوَزَ فِيهِ الحَدَّ، ثُمَّ قُلِبَ وَغُلِبَ عَلَى الشَّيْطَانِ، وَإِلَيْهِ

على غير الشيطان، والمراد بها هنا الجمع. وقرئ: (الطواغيت). ﴿أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾: بدل من ﴿الطَّغُوتَ﴾ بدل الاستهال. ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾: هي البشارة بالشواب، كقوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]، الله عز وجل يُبَشِّرُهُمْ بذلك في وحيه على ألسنة رُسله، وتتلقاهم الملائكة عند حضور الموت مُبَشِّرِينَ، وحين يُحْشَرُونَ، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ تُشْرِكُمْ يَوْمَ جَنَّتٍ﴾ [الحديد: ١٢]. وأراد بعباده ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾: الذين اجتنَبوا وأنابوا لا غيرهم، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة، فوضع الظاهر موضع الضمير، وأراد أن يكونوا نُقَادًا في الدين يُمَيِّزُونَ بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل، فإذا اعترضهم أمران واجبٌ وندب:

الإشارة بقوله: «وهو للاختصاص».

قوله: (وقرئ: «الطواغيت»)، قال ابن جني: قرأها الحسن: ﴿الطَّغُوتَ﴾ مقلوب، ووزنه «فَلْعُوت» من: طغيت، وقالوا أيضًا: طغوت. وقولهم: «طغيان» دليل على أن اللام ياء فاصلة، إذن «طغيت» مصدر كالرغبوت والرهبوت، ثم قدم اللام على العين فصارت «طغوت» ثم قلبت الياء لتحركها وانفتاح ما قبلها الفاء فصارت «طغوت»، وكان القياس إذا كُسر أن يُقال: «طياغيت» إلا أنه قيل: «طواغيت» على لغة من قال: «طغوت»^(١).

قوله: (وأراد بعباده ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾: الذين اجتنَبوا لا غيرهم)^(٢)، يعني: لا يجوز أن يراد غيرهم؛ لأنَّ قوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ﴾ مترتب على جملة قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا﴾ إلى قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ على معنى إذا كان لهم البشري فبشِّرهم، فأقيم المظهر موضع المضمير من غير لفظه السابق لتكرير استحقاق البشارة، أحدهما: الترتيب، والآخر: تخصيص الذكر، ولو ترك إقامة المظهر موضع المضمير وقيل: ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ لم يُنبه على كونهم نُقَادًا مُمَيِّزِينَ مع الاجتناب والإنابة.

(١) «المحتسب» (٢: ٢٣٦).

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفيه اختلاف عما في «الكشاف»، ولعله من باب الاختصار.

اختاروا الواجب، وكذلك المباح والندب، حُرَّاصاً على ما هو أقرب عند الله وأكثر ثواباً، ويدخل تحته المذاهب واختياراً أثبتتها على السبك، وأقواها عند السبر، وأبينها دليلاً أو أمانة، وأن لا تكون في مذهبك كما قال القائل:

ولا تكن مثلَ غيرِ قيدٍ فانقادا

يريد المقلد. وقيل: يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن. وقيل: يستمعون أو أمر الله فيتبعون أحسنها، نحو القصاص والعفو، والانتصار والإغضاء، والإبداء والإخفاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿وَأِنْ تَحْفَوْهَا وَتَوَثَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. وعن ابن عباس: هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساو، فيحدث بأحسن ما سمع ويكف عما سواه. ومن الوقفة من يقف على: (فبشر عبادي)، وابتدى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ﴾، ويرفعه على الابتداء، وخبره ﴿أُولَئِكَ﴾.

قوله: (ولا تكن مثل غير قيد فانقادا)، أوله:

شمّر وكن في أمور الدين مجتهداً

أي: لا تكن في مذهبك مقلداً واختر أقوى المذاهب. الانتصاف: ملا كتابه من الاعتزال، وهو يظن أنه قد أجاد فلا مطمع في رجوعه عن تقليده ونسأل الله العصمة^(١).

قوله: (ومن الوقفة من يقف)، وفي «التيسير»: قرأ أبو شعيب: «فبشر عبادي الذين» بياء مفتوحة في الوصل، ساكنة في الوقف. وقال أبو حمدون وغيره عن البيهقي: مفتوحة في الوصل، محذوفة في الوقف. وهو عند قياس قول أبي عمرو، وفي اتباع المرسوم عند الوقف. والباقون يحذفونها في الحالين^(٢). وفي «المُرشد»: إن جعلت ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ صفة لـ ﴿عِبَادِي﴾ لم تفصل بينها ووقفت على قوله: ﴿أَحْسَنَهُ﴾ ثم تبتدىء ﴿أُولَئِكَ﴾ مُبتدأً،

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٢١).

(٢) «التيسير في القراءات السبع»، ص ٦٧.

[﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ ١٩]

أصل الكلام: أمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه، جملة شرطية دخل عليها همزة الإنكار، والفاء فاء الجزاء، ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب، تقديره: أنت مالك أمرهم، فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه؟ والهمزة الثانية هي الأولى، كررت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد، ووضع ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ موضع الضمير، فالآية - على هذا - جملة واحدة. ووجه آخر؛ وهو أن تكون الآية جملتين: أفمن حق عليه العذاب فأنت تخلّصه؟ أفأنت تُنقِذُ مَنْ النَّارِ؟ وإنما جاز حذف: فأنت تخلّصه؛ لأن ﴿أَفَأَنْتَ تُنقِذُ﴾ يدلُّ عليه. نُزِّلَ استحقاقهم العذاب - وهم في الدنيا - منزلة دخولهم النار، حتى نُزِّلَ اجتهادُ رسولِ الله ﷺ وكُذِّبَ نفسه في دعائهم إلى الإيمان منزلة إنقاذهم من النار. وقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُنقِذُ﴾

وخبره: ﴿الَّذِينَ هَدَيْتَهُمُ اللَّهُ﴾. وإن جعلته مُبتدأً كان الوقفُ على ﴿عِبَادِ﴾ تاماً، وتبدئ ﴿الَّذِينَ﴾ على أنه مُبتدأ، وخبره: ﴿الَّذِينَ هَدَيْتَهُمُ اللَّهُ﴾، وعلى الوجهين: الوقفُ عند ﴿هَدَيْتَهُمُ اللَّهُ﴾ جائز. وقلت: مَنْ وقفَ على ﴿عِبَادِي﴾ جعلَ موقعَ السؤالِ عنده، فيكونُ الاستِثْناءُ بإعادةِ صفةٍ من استؤنفت عنه الحديث، وقد مضى الفرقُ في أولِ البقرة.

قوله: (والهمزة الثانية هي الأولى، كررت للتوكيد^(١))، قال الزّجاج: ﴿أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ فيه معنى الجزاء، والهمزة في ﴿أَفَأَنْتَ﴾ جاءت مؤكدةً مُعادةً لما طال الكلام؛ لأنه لا يصلح أن تأتي همزة الاستيفام في الاسم والأخرى في الخبر، والمعنى: أفمن حق عليه العذاب أفأنت تُنقِذُهُ؟^(٢)

قوله: (نُزِّلَ استحقاقهم العذاب وهم في الدنيا منزلة دخولهم النار، حتى نُزِّلَ اجتهادُ رسولِ الله ﷺ... في دعائهم إلى الإيمان منزلة إنقاذهم من النار)، تلخيصه: أن أصل الكلام:

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «لتوكيد معنى الإنكار»، وكأنه لما حذف ما أضيف إليه عوّض عنه بـ«أل».

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٤٩).

يُفِيدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى الْإِنْقَاذِ مِنَ النَّارِ وَحْدَهُ، لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ غَيْرُهُ، فَكَمَا لَا تَقْدِرُ أَنْتَ أَنْ تُنْقِذَ الدَّاحِلَ فِي النَّارِ مِنَ النَّارِ، لَا تَقْدِرُ أَنْ تُخَلِّصَهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ اسْتِحْقَاقِ الْعَذَابِ بِتَحْصِيلِ الْإِيمَانِ فِيهِ.

[لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَعُوا رَبَّهُمْ لَمَّا عُرِفُوا مِنْ فَوْقِهَا عُرِفُوا مَبِينَةً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ اللَّهُ الْأَمْعَادَ ﴿٢٠﴾]

﴿عُرِفُوا مِنْ فَوْقِهَا عُرِفُوا﴾: عَلَايُ بِعُضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ. فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿مَبِينَةً﴾؟ قُلْتُ: مَعْنَاهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَنَّهَا بُيِّنَتْ بِنَاءَ الْمَنَازِلِ الَّتِي عَلَى الْأَرْضِ وَسُوِّيَتْ تَسْوِيَّتِهَا. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ كَمَا تَجْرِي تَحْتَ الْمَنَازِلِ، مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ بَيْنَ الْعُلُوِّ وَالسُّفْلِ. ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَمَّا عُرِفُوا﴾ فِي مَعْنَى: وَعَدَّ اللَّهُ ذَلِكَ.

[﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا

أَفَأَنْتَ تَهْدِي مَنْ هُوَ مُنْغَمِسٌ فِي الضَّلَالِ؟ فَوَضَعَ النَّارَ مَوْضِعَ الضَّلَالِ وَضَعًا لِلْمُسَبَّبِ مَوْضِعَ السَّبَبِ لِقُوَّةِ أَمْرِهِ، ثُمَّ عَقَّبَ الْمَجَازَ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿تُنْقِذُ﴾ بَدَلُ ﴿تَهْدِي﴾ كَمَا يُعَقَّبُ الْإِسْتِعَارَةُ بِالْتَرْتِيبِ؛ لِأَنَّ الْإِنْقَاذَ أَنْسَبُ لِمَنْ هُوَ فِي النَّارِ مِنَ الْهُدَايَةِ، وَذَلِكَ لِشِدَّةِ حِرْصِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَالْمُبَالِغَةِ فِي اجْتِهَادِهِ.

قَوْلُهُ: (يُفِيدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى الْإِنْقَاذِ)، إِلَى آخِرِهِ. أَرَادَ أَنْ تَقْدِيمَ الْفَاعِلِ الْمَعْنَوِيِّ عَلَى الْفِعْلِ وَإِبْلَاءَهُ هَمْزَةَ الْإِنْكَارِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ فِي الْفَاعِلِ لَا فِي الْفِعْلِ، أَي: لَسْتَ أَنْتَ الْفَاعِلُ لِهَذَا الْفِعْلِ بَلْ فَاعِلُهُ غَيْرُكَ وَهُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ.

قَوْلُهُ: (مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿مَبِينَةً﴾؟)، يَعْنِي: وَصَفَ الْغُرْفَ بِالْمَبِينَةِ، وَالْمُتَعَارَفُ أَنَّهَا مِنْ أَوْصَافِ التَّحْتَانِيَّةِ لَا الْعَلَالِي، وَخُلَاصَةُ الْجَوَابِ: أَنَّ غُرْفَ الْجَنَّةِ عَلَى خِلَافِ مَا فِي الدُّنْيَا، فَيَكُونُ بِنَاؤُهَا بِنَاءَ الْمَنَازِلِ الَّتِي عَلَى الْأَرْضِ وَسُوِّيَتْ بِتَسْوِيَّتِهَا، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كَمَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِ الْمَنَازِلِ.

مُخْلِفًا أَلْوَنُهُ، ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْمًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرِي لِأَوَّلِي
الْأَلْتَبِ ﴿٢١﴾

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: هو المطر. وقيل: كلُّ ماءٍ في الأرض فهو من السماء يَنْزِلُ منها إلى الصَّخْرَةِ، ثم يَقْسِمُهُ اللهُ، ﴿فَسَلَكَهُ﴾: فَادْخَلَهُ وَنَظَّمَهُ ﴿يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾: عُيُونًا وَمَسَالِكَ وَمَجَارِي كَالْعُرُوقِ فِي الْأَجْسَادِ، ﴿مُخْلِفًا أَلْوَنُهُ﴾: هَيْئَاتِهِ؛ مِنْ حُضْرَةٍ وَحُمْرَةٍ وَصُفْرَةٍ وَبِيَاضٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، أَوْ أَصْنَافُهُ؛ مِنْ بُرٍّ وَشَعِيرٍ وَسَمْسَمٍ وَغَيْرِهَا. ﴿يَهِيْجُ﴾: يَتَمُّ جَفَافُهُ، عَنِ الْأَصْمَعِيِّ؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَمَّ جَفَافُهُ حَانَ لَهُ أَنْ يَثُورَ عَنْ مَنَابِتِهِ وَيَذْهَبَ، ﴿حُطْمًا﴾: فُتَاتًا وَدَرِينًا. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرِي﴾: لِتَذْكِيرٍ وَتَنْبِيْهِهَا عَلَى أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ صَانِعٍ حَكِيمٍ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ عَنِ تَقْدِيرٍ وَتَدْبِيرٍ، لَا عَنِ تَعْطِيلٍ وَإِهْمَالٍ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَثَلًا لِلدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿وَأَصْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٥]. وَقُرِئَ: (مُصْفَرًّا).

قوله: (إلى الصَّخْرَةِ)، وهي التي في بيت المقدس.

قوله: (عُيُونًا وَمَسَالِكَ)، نُصِبَ عَلَى التَّفْسِيرِ لِقَوْلِهِ: ﴿يَنْبِيعَ﴾، قَالَ الْقَاضِي: أَي: عُيُونًا وَمَجَارِي كَامِنَةً فِيهَا، أَوْ قَنَوَاتٍ نَابِعَاتٍ فِيهَا؛ إِذِ الْيَنْبُوعُ جَاءَ لِلْمَنْبِعِ وَاللِنَابِعِ فَنَصَبَهَا عَلَى الْمَصْدَرِ أَوْ عَلَى الْحَالِ^(١).

المُغْرِبُ: نَبْعَ الْمَاءِ يَنْبُعُ، خَرَجَ مِنَ الْأَرْضِ بُوعًا وَنَبَعًا وَنَبَعَانًا^(٢).

قوله: (أَوْ أَصْنَافُهُ مِنْ بُرٍّ)، عَطَفَ عَلَى «هَيْئَاتِهِ». الْجَوْهَرِيُّ: اللَّوْنُ هَيْئَتُهُ كَالسَّوَادِ وَالْحُمْرَةِ، وَاللَّوْنُ: النَّوْعُ.

قوله: (فُتَاتًا وَدَرِينًا)، الْجَوْهَرِيُّ: الدَّرِينُ حُطَامٌ الْمَرعى إِذَا قَدَّمَ، وَهُوَ مَا بَلِيَ مِنَ الْحَشِيشِ، وَقَلَّمَا تَنْتَفِعُ بِهِ الْإِبِلُ.

قوله: (وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَثَلًا لِلدُّنْيَا)، عَطَفَ عَلَى قَوْلِهِ: «هُوَ الْمَطْرُ»، أَي: الْآيَةُ إِمَّا وَارِدَةٌ

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٠).

(٢) «المغرب في ترتيب المعرب» (٢: ٢٨٤).

[﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٗٓ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ٢٢]

﴿أَفَمَنْ﴾ عَرَفَ اللهُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ اللَّطْفِ فَلَطَّفَ بِهِ حَتَّى انشَرَخَ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ وَرَغِبَ فِيهِ وَقَبِلَهُ كَمَنْ لَا لُطْفَ لَهُ فَهُوَ حَرَجُ الصَّدْرِ قَاسِيِ الْقَلْبِ، وَنُورُ اللهِ: هُوَ لُطْفُهُ. وَقَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ آيَةَ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ انشَرَخَ الصَّدْرُ؟ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ النُّورُ الْقَلْبَ انشَرَخَ وَانفَسَحَ»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا عَلَامَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنِ دَارِ الْعُرُورِ، وَالتَّأَهُبُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِ الْمَوْتِ»، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ﴾ [الزمر: ٩] فِي حَذْفِ الْخَبَرِ. ﴿مِن ذِكْرِ اللَّهِ﴾: مِنْ أَجْلِ ذِكْرِهِ، أَي: إِذَا ذُكِرَ اللهُ عِنْدَهُمْ أَوْ آيَاتُهُ اشْمَازُوا وَازدادت قُلُوبُهُمْ قَسَاوَةً،

على ظاهرها حائثة على التفكر والتذكر في آيات الله الباهرة، أو المراد بها: التمثيل باعثة على التذكير والإيقاظ، زاجرة عن الركون إلى اللذات العاجلة. مُنْبَهَةٌ أَنَّهَا فِي وَشِكِ الزَّوَالِ وَسُرْعَةِ الْإِنْفِصَالِ، يَدُلُّ عَلَى الثَّانِي سِوَابِقِهَا وَلَوْاحِقُهَا، فَإِنَّهَا مَسْبُوقَةٌ لِلتَّذْكَيرِ وَالْوَعْظِ لَا سِيَّامًا قَوْلُهُ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أَي: لِمَنْ لَا يَلِينُ قَلْبُهُ لِمَوَاعِظِ اللهِ وَزِوَاجِرِهِ، وَلِذَلِكَ اسْتَشْهَدَ بِقَوْلِهِ: «الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالتَّجَافِي عَنِ دَارِ الْعُرُورِ، وَالتَّأَهُبُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِ الْمَوْتِ»^(١).

الرَّجَاجِ: هُ: (هُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ﴾ فِي حَذْفِ الْخَبَرِ)، أَي: فِي أَحَدِ وَجْهَيْهِ، قَالَ فَلَمْ يَهْتَدِ لِقَسْوِيذِهِ الْفَاءُ لِلْمُجَازَاةِ، الْمَعْنَى: أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ فَاهْتَدَى كَمَنْ طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ^(٢). تَه؟ لَأَنَّ فِي الْكَلَامِ دَلِيلًا عَلَى هَذَا الْمُقَدَّرِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم

(١) أخرجه ابن أبي شيبة و

«الأسماء والصفات» (١: ٧٦) «المصنف» (٧: ٧٦) وسعيد بن منصور في «السنن» (٥: ٨٦) والبيهقي في

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٤٠٠) من حديث عبد الله بن المستورد.

كقوله: ﴿فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]. وقرأ: (عن ذِكْرِ اللَّهِ). فإن قلت: ما الفرق بين «مَنْ» و«عَنْ» في هذا؟ قلت: إذا قلت: قسا قلبه مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، فالمعنى ما ذكرت؛ من أن القسوة من أجل الذِّكْر وبسببه، وإذا قلت: عن ذِكْرِ اللَّهِ، فالمعنى: غلظَ عن قَبُولِ الذِّكْرِ وجفا عنه. ونظيره: سَقَاهُ مِنَ الْعَيْمَةِ، أي: من أجلِ عَطَشِهِ، وَسَقَاهُ عَنِ الْعَيْمَةِ: إذا أَرَوَاهُ حَتَّى أَبْعَدَهُ عَنِ الْعَطَشِ.

[اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقَلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾]

عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن أصحاب رسول الله ﷺ ملؤا ملة، فقالوا له: حدثنا؛ فنزلت. وإيقاع اسم «الله» مبتدأ، وبناء ﴿نَزَلَ﴾ عليه: فيه تفخيم لأحسن الحديث، ورفع منه، واستشهاد على حسنه، وتأكيذا لاستيناده إلى الله، وأنه من عنده، وأن مثله لا يجوز أن يصدر إلا عنه، وتنبيه على أنه وحي معجز مبين لسائر الأحاديث. و﴿كِتَابًا﴾ بدل من ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾، ويحتمل أن يكون حالا منه. ﴿مُتَشَبِهًا﴾: مُطْلَقٌ فِي مُشَابَهَةِ بَعْضِهِ بَعْضًا، فَكَانَ مُتَنَاوِلًا لِتَشَابُهِ مَعَانِيهِ فِي الصِّحَّةِ وَالْإِحْكَامِ،

قوله: (ملؤا ملة)، الجوهرية: ملئت الشيء بالكسر أملة، وملئت منه أيضا، مللا وملئة وملالة؛ إذا سئمته.

قوله: (وإيقاع اسم الله «الله» مبتدأ)، يعني: التركيب من باب تقوي الحكم، لكن في تخصيص اسم الله الجامع بالذكر وإيقاع الفعل على أحسن الحديث وإبدال ﴿كِتَابًا﴾ عنه ووصفه بـ ﴿مُتَشَبِهًا﴾ الإشعار بترتب الحكم على الوصف والدلالة على الاختصاص، وأن مثل هذا الكلام في حسن نظمه وغرابته وكونه جامعاً للمعارف الحقة وحائزاً لمحاسن الأخلاق ومكارم الشيم لا ينبغي أن يصدر إلا عمن استجمع فيه الأسماء الحسنى والصفات العليا، وفي قوله: «وأن مثله» إشارة إلى الكناية التي ذكرناها؛ لأنَّها على منوالٍ مثلك يوجد.

والبناء على الحق والصدق، ومنفعة الخلق، وتناسب الفاظه وتناصفيها في التخير والإصابة، وتجاوب نظمته وتأليفه في الإعجاز والتبكيك، ويجوز أن يكون ﴿مَثَانِي﴾ بياناً لكونه مُشابهاً؛ لأن القصص المكررة لا تكون إلا مُتشابهة. والمثاني: جمع مُثْنَى بمعنى: مُرَدَّد ومُكْرَر، لما نُثِّي من قَصَصِهِ وَأَنْبَاءِهِ، وَأَحْكَامِهِ، وَأَوَامِرِهِ، وَنَوَاهِيهِ، وَوَعْدِهِ، وَوَعِيدِهِ، وَمَوَاعِظِهِ. وقيل: لأنه يُثْنَى في التلاوة، فلا يُمَلَّ كما جاء في وصفه: لَا يَتَفَهُ وَلَا يَتَشَانُ وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ. ويجوز أن يكون جمع مُثْنَى مَفْعَل، مِنَ التَّشْبِيهِ

قوله: (وتناصفيها في التخير والإصابة)، الجوهري: أنصف، أي: عدل، يُقال: أنصفه من نفسه، وانتصفت أنا منه، وتناصفوا، أي: أنصف بعضهم بعضاً من نفسه، ومنه قول الشاعر:

إِنِّي غَرَضْتُ إِلَى تَنَاصُفٍ وَجْهَهَا غَرَضَ الْمَجِبُّ إِلَى الْحَبِيبِ الْغَائِبِ^(١)

يعني: اشتقت إلى استواء المحاسن، كأن بعض أعضاء الوجه أنصف بعضاً في أخذ القسط من الجمال.

قوله: (ويجوز أن يكون ﴿مَثَانِي﴾ بياناً)، عطف على قوله: «مُطلق في مُشابهة بعضه بعضاً»، أي يُقَيَّدُ ﴿مُتَشَبِّهًا﴾ تارة بـ ﴿مَثَانِي﴾، ويُطلق أخرى ليبقى على إطلاقه دالاً على ما هو شائع في جنسه، ومن ثمَّ قَدَّرَ ما قَدَّرَ.

قوله: (لا يتفه ولا يتشان)، النهاية: في حديث ابن مسعود يصف القرآن: «لا يتفه ولا يتشان». هو من الشيء التافه الحقيق، يُقال: تَفَهُ يَتَفَهُ فَهُوَ تَافِهٌ، وَلَا يَتَشَانُ، أَي: لَا يَخْلُقُ عَن كَثْرَةِ الرَّدِّ، مَاخُوذٌ مِنَ الشَّنِّ وَهُوَ السَّقَاءُ الْخَلْقُ.

قال في «الفائق»: أي: القرآن حُلُو طَيِّبٌ لَا تَذْهَبُ طَلَاوُئُهُ وَلَا يَبْلَى رَوْنَقُهُ وَطَرَاوُئُهُ بِتَرْدِيدِ الْقِرَاءَةِ كَالشَّعْرِ وَغَيْرِهِ^(٢). وَتَفَهُ، أَي: مِنْ: تَفَهُ الطَّعَامُ؛ إِذَا سَنَخَ، أَوْ مِنْ: تَفَهُ الثَّوْبِ؛

(١) ذكره في «اللسان» (غرض)، وعزاه لابن هزيمة.

(٢) «الفائق في غريب الحديث» (١: ١٥٢).

بمعنى التكرير والإعادة، كما كان قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوَّعْنَا أَصْوَارَهُمْ لِيَتَذَكَّرُوا﴾ [الملك: ٣] بمعنى: كَرَّةً بعد كَرَّةٍ، وكذلك: لَبِيكُ وَسَعْدَيْكُ، وَحَنَائِكُ. فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ وَصَفَ الْوَاحِدُ بِالْجَمْعِ؟ قُلْتَ: إِنَّمَا صَحَّ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْكِتَابَ جُمْلَةٌ ذَاتُ تَفَاصِيلٍ، وَتَفَاصِيلُ الشَّيْءِ هِيَ جُمْلَتُهُ لَا غَيْرُ، أَلَا تَرَكَ تَقُولُ: الْقُرْآنُ أَسْبَاعٌ وَأَخْمَاسٌ، وَسُورٌ وَأَيَاتٌ، وَكَذَلِكَ تَقُولُ: أَقَاصِيصٌ وَأَحْكَامٌ وَمَوَاعِظٌ مَكْرَرَاتٌ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُكَ: الْإِنْسَانُ عِظَامٌ وَعُرُوقٌ وَأَعْصَابٌ؟ إِلَّا أَنَّكَ تَرَكَتَ الْمَوْصُوفَ إِلَى الصِّفَةِ؛ وَأَصْلُهُ: كِتَابًا مَتَشَابِهًا فُصُولًا مَثَانِي. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَقَوْلِكَ: بُرْمَةٌ أَعْشَارٌ، وَثُوبٌ أَخْلَاقٌ. وَيَجُوزُ أَنْ لَا يَكُونَ ﴿مَثَانِي﴾

إِذَا بَلِي، «وَلَا يَتَشَانُ» تَأْكِيدٌ لَهُ، أَوْ مِنْ: تَفَهُ الشَّيْءُ؛ إِذَا قَلَّ وَحَقُرَ، أَي: هُوَ مُعْظَمٌ فِي الْقُلُوبِ أَوَّلًا، وَقِيلَ: مَعْنَى «التَّشَانُ»: الْإِمْتِزَاجُ بِالْبَاطِلِ مِنَ الشَّنَانَةِ وَهِيَ: اللَّبْنُ الْمَذِيقُ^(١).

وَقُلْتُ: رَوَيْنَا عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ» قُلْتُ: فَمَا الْمَخْرُجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبْرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ الْحَبْلُ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ الَّذِي لَا تَرِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلُقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهُ الْجِنَّ حَتَّى قَالُوا: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرَّشْدِ فَأَمَّنَّا بِهِ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَالدَّارِمِيُّ^(٢).

قَوْلُهُ: (بُرْمَةٌ أَعْشَارٌ)، الْجَوْهَرِيُّ: الْبُرْمَةُ: الْقَدْرُ. وَبُرْمَةٌ أَعْشَارٌ: إِذَا انْكَسَرَتْ قِطْعًا. وَقُلْتُ: أَعْشَارٌ: جَاءَ عَلَى بِنَاءِ الْجَمْعِ، كَمَا قَالُوا: رُمِحَ أَقْصَادٌ، وَثُوبٌ أَخْلَاقٌ، إِذَا كَانَتْ الْخُلُوقَةُ فِيهِ كُلِّهَا، كَمَا قَالُوا: أَرْضٌ سَبَاسِبٌ، وَبُرْمَةٌ أَعْشَارٌ. وَعَنْ بَعْضِهِمْ: وَهِيَ الَّتِي تَسْعُ

(١) يعني المذوق، وهو المخلوط بالماء.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٠٦) والدارمي (٣٣٧٤) والبزار (٨٣٦) وغيرهم، وفي إسناده الحارث الأعور

ضعيف الحديث.

صِفَةً، وَيَكُونُ مُنْتَصِباً عَلَى التَّمْيِيزِ مِنْ ﴿مُتَشَابِهًا﴾، كَمَا تَقُولُ: رَأَيْتُ رَجُلًا حَسَنًا سَمَائِلَ، وَالْمَعْنَى: مُتَشَابِهَةٌ مَثَانِيهِ. فَإِنْ قُلْتَ: مَا فَائِدَةُ التَّنْيِيزِ وَالتَّكْرِيرِ؟ قُلْتُ: النَّفْسُ أَنْفَرُ شَيْءٍ عَنِ حَدِيثِ الْوَعْظِ وَالنَّصِيحَةِ، فَمَا لَمْ يُكْرَرْ عَلَيْهَا عَوْدًا عَنْ بَدْءٍ، لَمْ يَرَسَخْ فِيهَا وَلَمْ يَعْمَلْ عَمَلَهُ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ عَادَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُكْرَرْ عَلَيْهِمْ مَا كَانَ يَعْظُّ بِهِ وَيَنْصَحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَسَبْعًا؛ لِيَرَكُرَّ فِي قُلُوبِهِمْ وَيَغْرَسَهُ فِي صُدُورِهِمْ. اقشعَرَّ الجِلْدُ: إِذَا تَقَبَّضَ تَقَبُّضًا شَدِيدًا، وَتَرْكِيْبُهُ مِنْ حُرُوفِ الْقَشْعِ، وَهُوَ الْأَدِيمُ الْيَابِسُ، مَضْمُومًا إِلَيْهَا حَرْفٌ رَابِعٌ وَهُوَ الرَّاءُ؛ لِيَكُونَ رُبَاعِيًّا وَدَالًّا عَلَى مَعْنَى زَائِدٍ. يَقَالُ: اقشعَرَّ جِلْدُهُ مِنَ الْخَوْفِ، وَقَفَّ شَعْرُهُ،

فِيهَا أَعْشَارَ الْجُزُورِ وَهِيَ أَنْصَابُهَا جَمْعُ عَشْرٍ، وَالْأَقْصَادُ: جَمْعُ قَصْدٍ، وَهُوَ مَا يُكْسَرُ بِهِ الرَّمْحُ.

أَخْلَقَ الثَّوْبُ: إِذَا بَلِيَ، يَتَعَدَّى وَلَا يَتَعَدَّى.

قَوْلُهُ: (حَسَنًا سَمَائِلَ)، أَي: سَمَائِلُهُ، وَ«سَمَائِلٌ» نُصِبَ عَلَى التَّمْيِيزِ.

قَوْلُهُ: (عَوْدًا عَنْ بَدْءٍ)، هُوَ حَالٌ مِنَ الَّذِي أُقِيمَ مَقَامَ الْفَاعِلِ فِي «يُكْرَّرُهُ»، وَنَحْوُهُ: رَجَعَ عَوْدُهُ عَلَى بَدْءٍ، أَي: رَاجَعَ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي جَاءَ مِنْهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا مُطْلَقًا، نَحْوَ قَعَدْتُ جُلُوسًا.

قَوْلُهُ: (وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ عَادَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُكْرَّرَ عَلَيْهِمْ)، رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْرَّرُ الْكَلِمَةَ ثَلَاثًا لَتَعْقَلَ عَنْهُ»^(١).

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ رَجُلٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا حَدَّثَ حَدِيثًا أَعَادَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ^(٢).

قَوْلُهُ: (وَتَرْكِيْبُهُ مِنْ حُرُوفِ الْقَشْعِ)، إِلَى قَوْلِهِ: (وَقَفَّ شَعْرُهُ)، عَنْ بَعْضِهِمْ: هَذَا بَيَانُ الْحِكْمَةِ لِفِعْلِ الْوَاضِعِ، لَا أَنَّهُ اسْتِثْقَاقٌ، كَمَا فِي «اقْمَطَرٌ» فَإِنَّ «الْقِمَطَ» هُوَ الْأَصْلُ، ثُمَّ

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٦٤٠) وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٣٦٥٣) عَنْ رَجُلٍ خَدَمَ النَّبِيَّ ﷺ.

وهو مثلٌ في شِدَّةِ الخوفِ، فيجوزُ أن يريدَ به اللهُ سبحانه التمثيلَ؛ تصويراً لإفراطِ خشيتهم، وأن يريدَ التحقيقَ، والمعنى: أنهم إذا سمِعُوا بالقرآنِ وآياتِ وَعِيدِهِ: أصابَتْهم خَشْيَةٌ تقشعُرُ منها جُلُودُهُمْ، ثم إذا ذَكَرُوا اللهَ وَرَحْمَتَهُ وَجُودَهُ بِالْمَغْفِرَةِ: لانت جُلُودُهُمْ وقلوبُهُمْ، وزالَ عنها ما كانَ بها مِنَ الخَشْيَةِ والقُسْعِرِيرةِ. فإن قلتَ: ما وجهُ تَعْدِيَةِ «لَانَ» بـ «إِلَى»؟ قلتُ: ضَمَّنَ معنى فِعْلٍ متعَدِّ بـ «إِلَى»، كأنه قيلَ: سَكَنْتَ، أو: اطمأنتَ إلى ذِكْرِ اللهِ لِيَنَّةٍ غيرِ متقبَّضَةٍ، راجيةً غيرِ خاشيةٍ. فإن قلتَ: لم اقتصرَ على ذِكْرِ اللهِ من غيرِ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ؟ قلتُ: لأنَّ أصلَ أمرِهِ الرَّحْمَةُ والرأفةُ، وَرَحْمَتُهُ هي سابقَةٌ غَضَبِهِ، فَلأصالةِ رَحْمَتِهِ إذا ذُكِرَ لم يَحْطُرْ بالبالِ قَبْلَ كُلِّ شيءٍ من صفاته إِلا كونه رَوْوفاً رَحِيماً. فإن قلتَ: لم ذُكِرَتِ الجُلُودُ وحدها أولاً، ثم قُرِنَتْ بها القلوبُ ثانياً؟ قلتُ: إذا ذُكِرَتِ الخَشْيَةُ التي محلُّها القلوبُ، فقد ذُكِرَتِ القلوبُ،

زيدت فيها الرَاء، فيكونُ رُبَاعِيًّا دالًّا على معنى زائد، ونظيره قولُ النَّحْوِيِّينَ: إِنَّ الضَّادَ اسْمٌ لِلحَرْفِ الأوَّلِ مِنْ: ضَرْبٍ.

قوله: (وهو مثلٌ في شِدَّةِ الخوفِ)، أي: استعملَ القُسْعِرِيرةَ في تَغْيِيرِ مِحْصُلٍ في جِلْدِ الإنسانِ عندَ الوجَلِ، فينتصبُ شعْرُهُ، وكثُرَ فيه حتَّى صارَ مثلاً لمُجَرِّدِ شِدَّةِ الخوفِ.

قوله: (لِمَ اقتصرَ على ذِكْرِ اللهِ من غيرِ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ)، يعني: ذَكَرْتَ أَنَّ المعنى أَنَّهُمْ إذا سمِعُوا بالقرآنِ وآياتِ وَعِيدِهِ أصابَتْهم خَشْيَةٌ، ثُمَّ إذا ذَكَرُوا رَحْمَتَهُ لانت جُلُودُهُمْ، فَلِمَ حُدِفَتِ الرَّحْمَةُ وليسَ في الكلامِ ما يدلُّ على المحذوفِ؟ وأيضاً فَلِمَ اقتصرَ على المُضَافِ إليه؟ وَخُلَاصَةُ الجوابِ: أَنَّ اسْمَ اللهِ وَإِنْ كانَ جامعاً لسائرِ الأسماءِ الحُسنى، وتَقْيِيدُهُ بشيءٍ من تلكِ الأسماءِ إِنَّمَا يُعْلَمُ بحسبِ القرائنِ، لكن عندَ فُقدانِ القريئةِ يُغْلَبُ جانبُ الرَّحْمَةِ على الغضبِ؛ لأنَّ رَحْمَتَهُ سبقتَ غضبه، وإليه الإشارةُ بقوله: «فَلأصالةِ رَحْمَتِهِ إذا ذُكِرَ لم يَحْطُرْ بالبالِ إِلا كونه رَوْوفاً رَحِيماً».

قوله: (إذا ذُكِرَتِ الخَشْيَةُ التي محلُّها القلوبُ فقد ذُكِرَتِ القلوبُ)، يعني: إن لم تُذَكَرِ «الْقُلُوبُ» في الأوَّلِ صريحاً فقد ذُكِرَتِ «الخَشْيَةُ» التي من عوارِضِها، فكأنها قد ذُكِرَتِ،

وتحريراً المعنى: أنتم إذا فوجئوا بالقرآن وما فيه من القوارع والزواجر مجملًا تقشعروا جلودهم وتخشى قلوبهم، فإذا ورد عليهم من ذكر اسم الذات وازد رحمانياً استبدلوا بالخشية رجاء، وبالقشعيرة ليناً، فلما جعل اقشعراز الجلود أصلاً في الاعتبار أولاً أتبع بذكر ما يناسب الإقشعراز من اللين ثانياً تغليياً، وإلا كان مناسب الخشية الرجاء كما صرح به، وروى في تفسير قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢] عن أم الدرداء: «الوجل في القلب كاحتراق السعفة أما تجده له قشعيرة»، يعني: فرعت لذكره استعظاماً له وتهيباً من جلاله وعزة سلطانه وبطشه بالعصاة وعقابه، وهذا الذكر خلاف الذكر في قوله: ﴿ثُمَّ تَلِينَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لأن ذلك ذكر رحمته ورأفته وثوابه.

وروى الإمام عن لسان أهل العرفان: العارفون السائرُونَ في بيداء جلال الله إن نظروا إلى عالم الجلال طاشوا، وإن لاح لهم أثر من عالم الجمال عاشوا^(١).

وقلت - والله أعلم -: إن الله تعالى لَمَّا وصف القرآن المجيد وبالغ في مدحه حتى بلغ غايته من الكمال على ما سبق في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ وأراد أن يبين كيفية هدايته للخلق، فإن جُلَّ الغرض من الكتب السماوية الهداية، قال: ﴿مَتَّانِي نَفْسِعُرْمَنُهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، يعني: من أراد الله أن يهديه به أوقع في قلبه الخشية، كقوله: ﴿هُدًى يَتَّبِعِينَ﴾ [البقرة: ٢] ثم يتأثر منه ظاهره بأن يأخذه في بدء الحال قشعيرة في الجلد لضعف الحال أو قوة سطوة الوارد، فإذا أدمن سماعه وألف أنواره تلين جلوده فيتأثر منه القلب فيطمئن إليه فتقلب النفس الأتارة مطمئنة، ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، فكما يتأثر الظاهر من القلب في بدء الحال ينعكس في ثاني الحال، ويتأثر القلب من الظاهر، ولذلك جعل اقشعراز الجلد تابعاً لخشية الله أولاً، ولين القلب تابعاً للين الجلد ثانياً، فيستمد الظاهر من الباطن أنواره، والباطن من الظاهر آثاره، فلا يزالان يتناوبان حتى يصعد السالك بذلك إلى مدارج القدس ومعارج الكمال، فيتوطن في مخدع

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٤٤٦).

فكانه قيل: تقشعرو جلودهم من آيات الوعيد، وتحشى قلوبهم في أول وهلة، فإذا ذكروا الله ومبني أمره على الرأفة والرحمة؛ استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم، وبالقشعريرة لينا في جلودهم: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الكتاب، وهو ﴿هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ﴾: يوفق به ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: عباده المتقين، حتى يخشوا تلك الخشية ويرجوا ذلك الرجاء، كما قال: ﴿هُدَى النَّصِيحِينَ﴾ [البقرة: ٢]. ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾: ومن يخذله من الفساق والفسجرة ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، أو ذلك الكائن من الخشية والرجاء هدى الله، أي: أثر هدايته؛ وهو لطفه، فسماه هدى لأنه حاصل بالهدى، ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ بهذا الأثر ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده، يعني: من صحب أولئك ورآهم خاشعين راجين، وكان ذلك مرغبا لهم في الاقتداء بسيرتهم وسلوك طريقتهم. ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾: ومن لم يؤثر فيه أطفاه لقسوة قلبه وإصراره على فجوره ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾: من مؤثر فيه بشيء قط.

[﴿أَفَمَنْ يَنْتَقِي بَوَجهِهِ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاِنَّهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * فَاذَاقَهُمُ اللَّهُ الْغَزَى فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ٢٤-٢٦]

يقال: اتقاه بدرقته: استقبله بها فوقى بها نفسه إياه، واتقاه بيده. وتقديره:

القرب ثم يفيض نوره المستفيض على الغير، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ﴾ مَنْ يَشَاءُ، وكشف عن القناع حيث أشار من صحب أولئك ورآهم خاشعين راجين، فكان ذلك مرغبا لهم في الاقتداء بسيرتهم وسلوك طريقتهم، رزقنا الله الاقتداء بهم بفضله وجوده.

قوله: (أو ذلك الكائن من الخشية والرجاء)، عطف على قوله: «ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى الْكِتَابِ»، وعلى الأول: المراد بذكر الله القرآن نفسه، قد أقيم مقام المضمير من غير لفظه السابق؛ تعظيما للحال وتحقيقا لما قال.

قوله: (بدرقته)، أي: بترسه، يقال: اتقى زيدا بدرقته، أي: استقبل زيدا بدرقته فوقى

﴿ أَفَعَنَ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ كمن أمن العذاب، فحُذِفَ كما حُذِفَ في نظائره و﴿ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾: شدته. ومعناه: أن الإنسان إذا لقي مخوفاً من المخاوف استقبله بيده، وطلب أن يقي بها وجهه؛ لأنه أعز أعضاء عليه، والذي يلقي في النار يلقي مغلولاً يده إلى عنقه؛ فلا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه الذي كان يتقي المخاوف بغيره؛ وقاية له ومُحَامَاةً عليه. وقيل: المراد بالوجه الجملة. وقيل: نزلت في أبي جهل. وقال لهم خزنة النار: ﴿ ذُوقُوا ﴾ وبأل ﴿ مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾. ﴿ مَنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾: من الجهة التي لا يحتسبون، ولا يحطرون بها لهم أن الشر يأتيهم منها، بينما هم آمنون رافهون إذ فوجئوا من مأمئهم. والخزني: الذلل والصغار، كالمسخ والحسف والقتل والجلاء، وما أشبه ذلك من نكال الله.

[﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ * قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ٢٧-٢٨]

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ حال مؤكدة، كقولك: جاءني زيدٌ رجلاً صالحاً وإنساناً عاقلاً،

بدرقته نفسه زيداً. الأساس: هذا وِقَاءٌ وِقَايَةٌ لَهُ لِمَا يُوقَى بِهِ الشَّيْءُ. ووقاه الله كُلَّ سُوءٍ وَمِنَ السُّوءِ وِقَايَةٌ. فعلى هذا: اتقاه بدرقته؛ استقبله بدرقته فوقى بها نفسه إياه، أي: منه.

قوله: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ حال مؤكدة، قال الزجاج: ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ منصوبٌ على الحال، أي: ضربنا للناس في هذا القرآن في حالِ عَرَبِيَّتِهِ وبيانه، وذكر ﴿ قُرْءَانًا ﴾ توكيداً، كما تقول: جاءني زيدٌ رجلاً صالحاً، فتذكر رجلاً توكيداً^(١). وقال صاحب «الفرائد»: يُمكنُ أن يُقال: ﴿ قُرْءَانًا ﴾ حالٌ، و﴿ عَرَبِيًّا ﴾ صفة؛ لأنَّ القرآن مصدرٌ، فيمكنُ أن يقع حالاً، أي: مقروءاً عربياً. وقال أبو البقاء: ﴿ قُرْءَانًا ﴾ هو حالٌ من «القرآن» موطنه، والحال في المعنى قوله: ﴿ عَرَبِيًّا ﴾. وقيل: انتصب بـ ﴿ يَتَذَكَّرُونَ ﴾^(٢).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٥٢).

(٢) «التيان في إعراب القرآن» (٢: ١١١١).

ويجوز أن ينتصب على المدح، ﴿غَيْرَ ذِي عَوْجٍ﴾: مُسْتَقِيمًا بَرِيئًا مِنَ التَّنَاقُضِ وَالِاخْتِلَافِ.
فإن قلت: فهلا قيل: مستقيماً، أو غير مُعَوَّجٍ؟ قلت: فيه فائدتان؛ إحداهما: نفى
أن يكون فيه عَوْجٌ قَطُّ، كما قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]. والثانية: أن لفظ
العَوْجِ مَخْتَصٌّ بِالْمَعَانِي دُونَ الْأَعْيَانِ. وقيل: المرادُ بالعوج: الشكُّ واللُّبْسُ. وأنشد:

قوله: (نفى أن يكون فيه عَوْجٌ قَطُّ)، وذلك من طريق الكناية، فإنه إذا لم يكن صاحب
عوج، فإن لا يكون مُعَوَّجًا فبالطريق الأولى، كقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]، أي:
عَوْجًا وما يُقال له عِوَجٌ.

قوله: (والثانية: أن لفظ «العَوْجِ» مَخْتَصٌّ بِالْمَعَانِي دُونَ الْأَعْيَانِ)، معناه: أن المطلوب
أن يُقال: إن معانيه صحيحةٌ مُسْتَقِيمَةٌ لا ترى فيها اختلافاً، كما قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ
لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] فلو قيل: غير مُعَوَّجٍ، لفهم أن ألفاظه مُسْتَقِيمَةٌ
وكان تكريراً؛ لأن قوله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ دل على ذلك، أو لأن العَوْجِ إذا اسْتَعْمِلَ فِي
الْأَعْيَانِ دَلَّ عَلَى بُلُوغِهِ فِي الْإِسْتِقَامَةِ إِلَى حَدٍّ لَا يُدْرِكُ الْعَقْلُ فِيهِ خِلَافًا كَمَا ذَكَرَهُ فِي «طه»^(١).

قوله: (والثاني: أن لفظ العَوْجِ مَخْتَصٌّ بِالْمَعَانِي دُونَ الْأَعْيَانِ)، قال الرَّجَاجُ: العَوْجُ
-بَكْسِرِ الْعَيْنِ- فِيمَا لَا يُرَى لَهُ شَخْصٌ، وما كان شخصاً قُلْتُ فِيهِ: عَوْجٌ -بِالْفَتْحِ-، تقول: في
دينه عَوْجٌ، وفي العصا عَوْجٌ، فإذن لا بُدَّ مِنْ «ذِي»، أي: غير ذي معاني مائلٍ عن الاستقامة^(٢).

الانتِصَافُ: تَقَدَّمَ لَهُ فِي «طه» الِاعْتِدَارُ عَنِ اسْتِعْمَالِ الْعَوْجِ الْمَكْسُورَةِ فِي الْأَشْخَاصِ فِي
قَوْلِهِ: ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ بِأَنَّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تَسْتَوِي فِي الْعَادَةِ لَا تَخْلُو عَنِ عَوْجٍ، وَإِنْ دَقَّ عَنِ الْبَصْرِ
يَنْفَرِدُ بِإِدْرَاكِ الْعَقْلِ، وَيَبَيِّنُ أَنَّ الْأَرْضَ بَلَّغَتْ مِنَ الْإِسْتِوَاءِ إِلَى الْحَدِّ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي لَا يُدْرِكُ
الْعَقْلُ فِيهِ خِلَافًا، فَعَبَّرَ عَنْهُ بِالْمَكْسُورِ الْعَيْنِ؛ لِكَوْنِهِ مُشَبَّهًا بِالْمَعَانِي، وَحَاصِلُهُ يَجُوزُ غَيْرَ ذِي
عَوْجٍ، وَالْمُرَادُ: الْفَاطَةُ الْقُرْآنَ.

(١) انظر: (١٠: ٢٤٤).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٣: ٢٦٧).

وقد أتاك يقينٌ غيرُ ذي عِوَجٍ مِنَ الإلهِ وَقَوْلٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ

[﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾]

اضرب لقومك مثلاً، وقُلْ لهم: ما تقولون في رجل من المماليك قد اشتراك فيه شركاء بينهم اختلافٌ وتنازعٌ، كلُّ واحدٍ منهم يدَّعي أنه عبده، فهم يتجادبون ويتعاورونه في مهينٍ شتى

قوله: (واضرب لقومك مثلاً وقُلْ لهم ما تقولون)، إنَّما دعاهُ إلى جعلِ الإخباري، أي: قوله: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا﴾ طلبياً، وأتى بواو العطفِ ليتَّصلَ بما جاء في هذه السُّورةِ الكريمةِ مِنَ الأَمْرِ كقوله: ﴿قُلْ﴾ أو دعاهُ قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ فإنَّه سُؤالٌ تقريرٍ وتبكييتٍ للمُشْرِكِينَ، فلا بُدَّ مِنَ السَّائِلِ، والسَّائِلُ رَسُولُ اللهِ ﷺ. وقوله: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا﴾ ماضٍ، فيجِبُ التَّأْوِيلَ وأن يُقالَ: واضرب لقومك مثلاً وقُلْ لهم كذا، ثُمَّ سل: هل يستويان مثلاً؟ أي: قُلْ هُـم: ما تقولون في هذا التَّمثِيلِ؟ ثُمَّ بعدَ الفراغِ سلهم: هل يستويان مثلاً؟ ثُمَّ إذا أَلزمتَهُمُ الحُجَّةَ قُلْ: الحمدُ لله شُكْرًا على ما أولاك مِنَ النُّصرةِ وقهرِ الأعداءِ بالْحُججِ السَّاطِعَةِ.

قال صاحبُ «الكشف»: ﴿رَجُلًا﴾ بدلٌ مِنْ قوله: ﴿مَثَلًا﴾، و﴿شُرَكَاءُ﴾ ترتفعُ بالظَّرْفِ (١).

قوله: (ويتعاورونه)، أي: يتداولونه. الجوهرى: يُقال: هم يتعاورون العواري بينهم. وقد قيل: مُستعارٌ بمعنى: مُتعاورٌ، أي: مُتداول.

قوله: (في مهينٍ شتى)، الجوهرى: المَهْنَةُ - بالفتح -: الخِدْمَةُ. وحكى أبو زيد والكسائى: المَهْنَةُ؛ بالكسْرِ، وأنكره الأصمعي. والمَاهِنُ: الخادِم.

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١١٦٣) بتحقيق د. محمد الدالي، أو (٢: ٢٧٢) بتحقيق د. عبدالقادر

وَمَشَادِهِ، وَإِذَا عَنَّتْ لَهُ حَاجَةٌ تَدَافَعُوهُ، فَهُوَ مَتَحَيِّرٌ فِي أَمْرِهِ سَادِرٌ قَدْ تَشَعَّبَتِ الْهَمُومُ قَلْبَهُ وَتَوَزَّعَتْ أَفْكَارُهُ، لَا يَدْرِي أَيُّهُمْ يُرْضِي بِخِدْمَتِهِ، وَعَلَى أَيِّهِمْ يَعْتَمِدُ فِي حَاجَاتِهِ؛ وَفِي آخِرِ قَدِ سَلِمَ لِمَالِكٍ وَاحِدٌ وَخَلَصَ لَهُ، فَهُوَ مُعْتَبِقٌ لِمَا لَزَمَهُ مِنْ خِدْمَتِهِ، مُعْتَمِدٌ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُ، فَهَمُّهُ وَاحِدٌ وَقَلْبُهُ مُجْتَمِعٌ، أَيُّ هَذَيْنِ الْعَبْدَيْنِ أَحْسَنُ حَالًا وَأَجْمَلُ شَأْنًا؟ وَالْمَرَادُ: تَمْثِيلُ حَالٍ مَنْ يُثْبِتُ آلِهَةَ شَيْءٍ، وَمَا يَلْزِمُهُ عَلَى قَضِيَّةٍ مَذْهَبِهِ مِنْ أَنْ يَدَّعِيَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عُبُودِيَّتَهُ، وَيَتَشَاكُسُوا فِي ذَلِكَ وَيَتَغَالَبُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَعَلَّآ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وَيَبْقَى هُوَ مَتَحَيِّرًا ضَائِعًا لَا يَدْرِي أَيُّهُمْ يَعْْبُدُ، وَعَلَى رُبُوبِيَّةِ أَيِّهِمْ يَعْتَمِدُ، وَمَنْ يَطْلُبُ رِزْقَهُ، وَمَنْ يَلْتَمِسُ رِفْقَهُ، فَهَمُّهُ شِعَاعٌ، وَقَلْبُهُ أَوْزَاعٌ؛ وَحَالٍ مَنْ لَمْ يُثْبِتْ إِلَّا إِلَهًا وَاحِدًا، فَهُوَ قَائِمٌ بِهَا كَلْفَهُ، عَارِفٌ بِهَا أَرْضَاهُ وَمَا أَسْخَطَهُ، مُتَّفَضِّلٌ عَلَيْهِ فِي عَاجِلِهِ، مُؤَمِّلٌ لِلثَّوَابِ فِي آجِلِهِ. وَ﴿فِيهِ﴾ صِلَةٌ ﴿شُرَكَاءُ﴾، كَمَا تَقُولُ: اشْتَرَكُوا فِيهِ.

قوله: (ومشاده)، الأساس: وهو مشدوه؛ مشغولٌ مدهوش، وهو في مشاده: في مشاغل.

قوله: (سادر)، الجوهرية: السادر: المتحير.

قوله: (فهمة شعاع)، الجوهرية: رأي شعاع، متفرق. ونفس شعاع، تفرقت هممها.

قوله: (وقلبه أوزاع)، الأساس: وزع المال والخراج توزيعًا: قسمه، وبها أوزاع من الناس: ضروبٌ متفرقة. تقول: ذهبت نفسه شعاعاً ولحمه أوزاعاً. أوزاع: جمع صورة لا واحد له.

قوله: (و﴿فيه﴾ صلة ﴿شركاء﴾)، هذا يدلُّ على أن الظرف مع اعتياده يجوز أن يكون غير عاملٍ فيما بعده بل مُتعلقًا به، ويجوز أن يكون خبراً له، كما ذهب إليه صاحب «المفتاح» في قوله:

كأنه علمٌ في رأسه نار^(١)

(١) سبق تخريجه.

والتشاكس والتشاكسُ: الاختلافُ، تقول: تشاكستُ أحواله، وتشاخستُ أسنانه. (سالمًا لرجلٍ) خالصًا له. وقرئ: ﴿سَلَمًا﴾ بفتح الفاء والعين، وفتح الفاء وكسرهما مع سكون العين، وهي مصادِرُ «سَلِمَ»، والمعنى: ذا سلامة لرجلٍ، أي: ذا إخْلوص له من الشُّركة، من قولهم: سَلِمْتُ له الضَّيعة. وقرئ بالرفع على الابتداء، أي: وهناك رَجُلٌ سالمٌ لرجلٍ، وإنما جعله رجلاً، ليكون أفطنٌ لما شقِيَ به أو سَعِد، فإنَّ المرأةَ والصبيَّ قد يَغفلان عن ذلك. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾: هل يَسْتويان صفة؟ على التمييز، والمعنى: هل يَسْتوي صِفَتاهما وحالهما، وإنما اقتَصِر في التمييز على الواحد لبيان الجنس. وقرئ: (مَثَلَيْنِ)، كقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ مع قوله: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فاطر: ٤٤]، ويجوزُ فيمن قرأ: (مَثَلَيْنِ) أن يكون الضَّميرُ في ﴿يَسْتَوِيَانِ﴾ للمثليين؛

قوله: (وتشاخست أسنانه)، الأساس: تشاخس فوه، إذا اختلفت أسنانه. شاخس الحمار، إذا فتح فاهُ رافعاً رأسه بعد شَمِّ الرّوثة.

قوله: (وقرئ: ﴿سَلَمًا﴾)، بفتح السين، قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «سالمًا» بالفتح بعد السين وكسر اللّام، والباقون: بفتح اللّام من غير ألف^(١).

قوله: (وإنما جعله رجلاً)، في «المطلع»: إنّها خصّ المالك بالرجل دون الصبي والمرأة؛ ليكون أفطن بحال العبد من الدّعة والكّد، والمرأة والصبي قد يغفلان عن ذلك.

قوله: (كقوله: ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا﴾)، عن بعضهم: كونه نظيراً له في أن التمييز ليس بمفرد مع أنه سبق تمييز بمفرد.

وقلت: شبه القراءتين - أعني: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ و﴿يَسْتَوِيَانِ مَثَلَيْنِ﴾ بالآية لمجيء المثاليين فيها، أي: وقرئ: «مَثَلَيْنِ» مع قراءة ﴿مَثَلًا﴾ كقوله: ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ [التوبة: ٦٩] مع قوله: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فاطر: ٤٤] لكن الآية في «البراءة»: ﴿أَشَدَّ مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ٦٩] بالخطاب، نعم جاء ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ بدون ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾.

(١) انظر: «حجّة القراءات»، ص ٦٢١.

لأنَّ التقدير: مَثَلُ رَجُلٍ وَمَثَلُ رَجُلٍ. والمعنى: هل يستويان فيما يرجع إلى الوصفية، كما تقول: كفى بهما رجلين. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الواحد الذي لا شريك له دون كل معبودٍ سواه، أي: يجب أن يكون الحمد متوجّهاً إليه وحده والعبادة، فقد ثبت أنه لا إله إلا هو. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركون به غيره.

[﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُّمُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ ٣٠-٣٢]

كانوا يتربصون برسول الله ﷺ موته، فأخبر أن الموت يعمهم، فلا معنى للتربص، وشأية الباقي بالفاني. وعن قتادة: نعى إلى نبيه نفسه، ونعى إليكم أنفسكم. وقرئ:

قوله: (لأنَّ التقدير: مَثَلُ رَجُلٍ وَمَثَلُ رَجُلٍ)، يعني: أجمل ثم فصل، نحو: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قال: أبدل ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من أو ﴿وَأَسْرُوا﴾ إشعاراً بأنهم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسروا به.

قوله: (فيما يرجع إلى الوصفية)، إشارة إلى أن ﴿مَثَلًا﴾ في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ بمعنى: صفة، مُستعارٌ لها، وهو تمييزٌ كما سبق. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ صفةٌ على التمييز.

قوله: (كما تقول: كفى بهما رجلين)، أي: فيما يرجع إلى الرجولية، إذا اعتبرت رجلين رجلين. الجوهرية: هذا رجلٌ كافيك من رجلٍ، وهما رجلان كافيك من رجلين.

قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الواحد] الذي لا شريك له دون [كل] معبودٍ سواه، وصف الله بنفي الشريك ليؤذن بأن الاسم الجامع في مقام ضرب المثل لنفي الأضداد والأنداد مُتَجَلِّ بِصِفَةِ الْوَحْدَانِيَّةِ وَالْفَرْدَانِيَّةِ، و«دون» متعلقٌ بِالظَّرْفِ الْمُسْتَقِلِّ وَهُوَ ﴿لِلَّهِ﴾، يدلُّ عليه قوله: «أي: يجب أن يكون الحمد لله متوجّهاً إليه وحده» والاختصاصُ مُستفادٌ مِنَ اللَّامِ. ترتب الحمد على ضرب المثل ولزوم التوحيد منه، ومن ثم أتى بالفاء في قوله: «فقد ثبت أنه لا إله إلا هو»، أي: من ضرب المثل.

(ماتت)، و(ماتتون)، والفرق بين المَيِّتِ والماتت: أن المَيِّتَ صفةٌ لازمة كالسيدِّ، وأمَّا الماتت، فصفةٌ حادثة، تقول: زيدٌ ماتتُ غداً، كما تقول: سائدتُ غداً، أي: سيموتُ وسيُسود. وإذا قلت: زيدٌ ميِّتٌ، فكما تقول: حيٌّ في نقيضه، فيما يرجعُ إلى اللزوم والثبوت. والمعنى في قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ إنك وإياهم وإن كنتم أحياءً، فأنتم في عداد الموتى؛ لأن ما هو كائنٌ فكأن قد كان. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾: ثم إنك وإياهم، فغلب ضميرُ المخاطبِ على ضميرِ الغيبِ، ﴿تَخَصِّصُوتُ﴾ فتحتج أنت عليهم بأنك بلغتُ فكذبوا، فاجتهدت في الدعوة فلجأوا في العناد، ويعتذرون بما لا طائل تحتَه، يقول الأتباع: ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُرَّاهَنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وتقولُ السادات: أغوتنا الشياطينُ وأباؤنا الأقدمون؛ وقد حمل على اختصاص الجميع، وأن الكفار يُخاصم بعضهم بعضاً، حتى يُقال لهم: ﴿لَا تَخَصِّصُوا لَدَيْ﴾ [ق: ٢٨]؛ والمؤمنون الكافرين يَبْكُتُونَهُمْ بِالْحَجَجِ، وأهل القبلة يكونُ بينهم الخصام. قال عبدُالله بن عمر: لقد عشنا برهةً من دهرنا ونحن

قوله: (وَأَمَّا الْمَاتِتُ فَصِفَةٌ حَادِثَةٌ)، الانتصاف: فاستعمالُ ﴿مَيِّتٌ﴾ مجاز؛ إذ الخطابُ مع الأحياء، و«ماتت» حقيقة؛ إذ لا يُعطى اسمُ الفاعلِ حالَ الخطابِ خلافَ معناه^(١).

الإنصاف: هذا وهم؛ لأن «الماتت» أيضاً مجاز، فإن اسمَ الفاعلِ حقيقةٌ عند بقاء ما اشتقَّ منه اسمُ الفاعلِ، والمختارُ أن استعماله فيما مضى مجاز، وأمَّا استعماله في المستقبلِ عند الأصوليين فمجازٌ بلا خلاف.

وقلت: لا بُدَّ من الفرقِ بين ﴿عَلِمَ﴾ و﴿يَعْلَمُ﴾ قال صاحبُ «المفتاح»: وليتعيَّن - أي: المُسند - كونهُ اسماً كنعو: زيدٌ عالمٌ، فيستفادُ الثبوتُ صريحاً، فأصلُ الاسمِ صفةٌ وغيرُ صفةٍ للدلالةِ على الثبوتِ، نعم دلالةُ الصفةِ المُشبهةِ عليه أظهرُ والزم^(٢).

قوله: (وَالْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ)، و«المؤمنون» عطفٌ على محلِّ «أن» واسمها. روى هذا

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٢٧).

(٢) «مفتاح العلوم»، ص ٢٠٧.

نرى أن هذه الآية أنزلت فينا وفي أهل الكتاب، قلنا: كيف نختصم ونبينا واحداً وديننا واحد وكتابنا واحد؟ حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعرفت أنها أنزلت فينا. وقال أبو سعيد الخدري: كنا نقول: ربنا واحد ونبينا واحد وديننا واحد، فما هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا: نعم هو هذا. وعن إبراهيم النخعي: قالت الصحابة: ما خصومتنا ونحن إخوان؟ فلما قتل عثمان رضي الله عنه، قالوا: هذه خصومتنا. وعن أبي العالية: نزلت في أهل القبلة. والوجه الذي يدل عليه كلام الله هو ما قدمنا أولاً، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر: ٣٣]؟

الوجه محيي السنة عن ابن عباس قال: ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُّمُونَ﴾ يعني: المحق والمبطل والظالم والمظلوم^(١).

قوله: (والوجه الذي يدل عليه كلام الله ما قدمنا)، وهو قوله: «ثُمَّ إِنَّكَ وَإِيَّاهُمْ تَخْتَصِمُونَ فَتَحْتَجُّ أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّكَ بَلَّغْتَ فَكذَّبُوا»، أي: يدل عليه الكلام السابق واللاحق، أمّا السابق فهو الاحتجاج من لدن مُفْتَتِحِ السُّورَةِ إِلَى انْتِهَاءِ ضَرْبِ الْمَثَلِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا خْتَمَ الْحُجَجَ بِضَرْبِ الْمَثَلِ وَتَوْهِينِ أَمْرِ شُرَكَائِهِمْ وَتَسْفِيهِ رَأْيِهِمْ، وَأَمَرَ حَبِيبَهُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ بِأَنْ يَذْكُرَ رَبَّهُ بِالْمَحَامِدِ وَالْفَضَائِلِ وَيَشْكُرَهُ عَلَى إِثْبَاتِ الْفِرْدَانِيَّةِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ، وَأَضْرَبَ عَنِ ذَلِكَ كُلِّهِ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تَسْجِيلاً عَلَيْهِمَ بِالْجَهْلِ الْمَفْرِطِ، وَأَنَّهمْ مِمَّنْ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى هَذِهِ الْبَيِّنَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْحُجَجِ الْمُنْتَظَّاهِرَةِ النَّجْمَةِ لِحَبِيبِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ حِرْصِهِ عَلَى إِيْمَانِ الْقَوْمِ وَتِهَالِكِهِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْأَلَ: فإلى ماذا يرجع حالي وحالهم؟ فأجيب بقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ تأيساً لهم وإقناتاً كلياً من إيمانهم، يعني: لم يبق إلا الموت والإختصاص عند مالك يوم الدين. قال:

إلى دَيَّانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمِضِي وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ

(١) «معالم التنزيل» (٧: ١١٨).

وما هو إلا بيانٌ وتفسيرٌ للذين تكون بينهم الخصومة. ﴿كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ﴾: افترى عليه بإضافة الولد والشريك إليه، ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾: بالأمر الذي هو الصِّدْقُ بعينه، وهو ما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾: فاجأه بالتكذيب كما سمع به من غير وقفة لإعمال رويّة أو اهتمام بتمييز بين حقّ وباطل، كما يفعل أهل النصفه فيما يسمعون. ﴿مَثْوَىٰ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: لهؤلاء الذين كذبوا على الله وكذبوا بالصدق، واللام في ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ إشارة إليهم.

[﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٣٥-٣٣]

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ هو رسولُ الله ﷺ: جاء بالحقّ وآمن به، وأراد به إياه ومن تبعه، كما أراد بموسى إياه وقومه في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ

وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنَّكَ مَبْتُ وَإِنَّهُمْ مَبْتُونَ﴾ و﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصَّمُونَ﴾ فتحتج عليهم أنت بأنك بلغت فكذبوا، واجتهدت في الدعوة فلمجوا في العناد، وأما اللاحق فقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾، وإليه الإشارة بقوله: «وما هو إلا بيانٌ وتفسيرٌ للذين تكون بينهم الخصومة»، وقوله بعده: ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ بالذي جاء به مُحَمَّدٌ صلواتُ الله عليه» فاجأه بالتكذيب، والذي جاء بالصدق: هو رسولُ الله ﷺ، وصدق به.

قوله: (وأراد به إياه ومن تبعه)، يعني: جيء بقوله: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ على الأفراد ثم حُمل عليه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، وحكم بقوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾، ولا بُد من التأويلِ وأن يُقال بأن الرُّسُولَ ﷺ إمامٌ أمّته وقُدوتهم، وأن مجيئه بالصدق وتصديقه كمجيئهم به وتصديقهم، كما يُقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٨٧] أي: موسى وقومه، بدليل قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

يَهْتَدُونَ ﴿المؤمنون: ٤٩﴾، فلذلك قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، إلا أن هذا في الصفة وذلك في الاسم. ويجوز أن يريد: والفوج أو الفريق الذي جاء بالصدق وصدق به، وهم الرسول الذي جاءنا بالصدق، وصحابته الذين صدقوا به. وفي قراءة ابن مسعود: (وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ)، وقرئ: (وَصَدَّقَ بِهِ) بالتخفيف، أي: صَدَّقَ

قوله: (أَنَّ هَذَا فِي الصِّفَةِ وَذَلِكَ فِي الْإِسْمِ)، لَأَنَّ هُنَاكَ ذَكَرَ الْإِسْمَ وَهُوَ مُوسَى، وَهَاهُنَا ذَكَرَ الصِّفَةَ وَهِيَ: الْمَجِيءُ بِالصِّدْقِ. وَقَالَ مُحِبِّي السُّنَّةِ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ يعني: النَّبِيُّ ﷺ جَاءَ بِإِلَهٍ إِلَّا إِلَهَ اللَّهِ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾: الرَّسُولُ أَيْضًا بَلَّغَهُ إِلَى الْخَلْقِ (١).

قوله: (وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ: الْفَوْجَ (٢) أَوْ الْفَرِيقَ)، رَوَى مُحِبِّي السُّنَّةِ هَذَا الْوَجْهَ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ قَتَادَةَ (٣)، قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: الَّذِي هُنَا فِي «الْبَقْرَةَ» مُفْرَدٌ فِي اللَّفْظِ، وَالْمَعْنَى عَلَى الْجَمْعِ، وَفِيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: هُوَ جِنْسٌ مِثْلُ ﴿مَنْ﴾. وَالثَّانِي: أُرِيدَ ﴿الَّذِينَ﴾ فَحُذِفَ النُّونَ لِطَوْلِ الْكَلَامِ بِالصَّلَةِ (٤).

وقال الرَّجَّاحُ: وَ﴿الَّذِينَ﴾ وَ﴿الَّذِي﴾ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ مَوْقِفٍ، وَالَّذِي هَاهُنَا لِلْجِنْسِ الْمَعْنِيِّ وَالْقَبِيلِ الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ (٥). وَقُلْتُ: يَعْنِي الْفَرِيقَ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ مَجِيءُ الصِّدْقِ مِنْ بَعْضٍ وَالتَّصْدِيقُ مِنْ بَعْضٍ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: «وَهُمُ الرَّسُولُ» إِلَى آخِرِهِ.

قوله: (وَقُرِئَ: «وَصَدَّقَ بِهِ» بِالتَّخْفِيفِ)، قَالَ ابْنُ جَنِّي: وَهِيَ قِرَاءَةُ أَبِي صَالِحٍ وَعِكْرِمَةَ بْنِ سُلَيْمَانَ، وَفِيهِ ضَرْبٌ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ كَقَوْلِكَ: الَّذِي يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَتَّبِعُ سَبِيلَ الْخَيْرِ فِيهِ مُثَابٌّ عِنْدَ اللَّهِ، فَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ أَي: اسْتَحَقَّ اسْمَ الصِّدْقِ بِمَجِيئِهِ (٦).

(١) «معالم التنزيل» (٧: ١٢٠).

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «والفوج» بالواو.

(٣) «معالم التنزيل» (٧: ١٢٠).

(٤) «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ١١١١).

(٥) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٥٤).

(٦) «المحتسب» (٢: ٢٣٧).

به النَّاسَ ولم يَكْذِبْهُمْ بِهِ، يعني: أذاه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف. وقيل: صار صادقاً به، أي: بسببه؛ لأنَّ القرآنَ مُعْجِزَةٌ، والمعجزةُ تصديقٌ من الحكيم الذي لا يفعلُ القبيحَ لمن يُجْرِيها على يده، ولا يجوزُ أن يُصدَّقَ إلاَّ الصادق، فيصيرُ لذلك صادقاً بالمعجزة. وقرئ: (وَصَدَّقَ بِهِ). فإن قلت: ما معنى إضافة الأَسْوَأِ والأَحْسَنِ إلى الذي عملوا، وما معنى التفضيلِ فيهما؟ قلتُ: أمَّا الإضافةُ فما هي من إضافةِ أفعالٍ إلى الجملة التي يُفَضَّلُ عليها، ولكن من إضافةِ الشيء إلى ما هو بعضُه من غير تفضيل، كقولك: الأشجُّ أعدلُ بني مروانَ.

الرَّاغِب: يُسْتَعْمَلُ الصَّدْقُ فِي فِعْلِ الْجَوَارِحِ، نَحْوَ صَدَقَ فِي الْقِتَالِ، إِذَا وَفَّى حَقَّهُ وَفَعَلَ مَا يَجِبُ. وَكَذَبَ فِي الْقِتَالِ، إِذَا كَفَّ وَجِبْنَ. وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ أي: حَقَّقَ ما أوردَهُ قولاً بما تحرَّاهُ فِعْلاً^(١).

قوله: (فِيصِيرُ لذلك صادقاً بالمعجزة)، إشارة إلى توجيه قول من قال: إن معنى ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ صار صادقاً به. أي قوله: ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ كناية عن كونه صلوات الله عليه صار صادقاً بسبب القرآن، وذلك أنه صلوات الله عليه جاء بالصدق الذي هو القرآن، وسُمِّيَ بالصدقِ مُبالغةً، كما أشار إليه بقوله: ﴿بِالصِّدْقِ﴾ بالأمر الذي هو الصدق بعينه، أي: جاء بالقرآن الذي هو محض الصدق، والحال أنه هو السبب في صيرورته صادقاً؛ لأنه مُعْجِزَةٌ، والمعجزةُ تصديقٌ من الله الذي لا يُصدَّقُ إلاَّ الصادق.

قوله: (الأشجُّ أعدلُ بني مروان)، روي أن عمر بن عبد العزيز سُمِّيَ بالأشجِّ، بشجَّةٍ أصابت رأسه. وروى الشيخ إسماعيل صاحبُ «سير السلف»: أن عمر بن عبد العزيز كان ربعة، رقيق الوجه، نحيف الجسم، بجبهته أثر نفخة الدابة^(٢). وروى الشيخ أبو نعيم في «حلية الأولياء» عن نافع، قال: كُنْتُ أَسْمَعُ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ: لَيْتَ شِعْرِي مَنْ هَذَا الَّذِي مِنْ وَلَدِ عُمَرَ فِي وَجْهِهِ عِلْمَةٌ يَمَلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا^(٣).

(١) «مفردات القرآن» ص ٤٧٩.

(٢) «سير السلف الصالحين» للإمام الهروي، ص ٨٤٦.

(٣) «حلية الأولياء» (٥: ٢٥٤).

وأما التفضيلُ فايدانٌ

وقال صاحبُ «الجامع»: هو عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مِرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ الْأُمَوِيِّ الْقُرَشِيِّ، أُمُّهُ بِنْتُ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَكَانَ عَلَى صِنْفَةٍ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالزُّهْدِ وَالتَّقَى وَالْعِفَّةِ وَحُسْنِ السَّيْرِ، لَا سِيَّمَا أَيَّامَ وَلايَتِهِ، وَمَنَاقِبُهُ كَثِيرَةٌ ظَاهِرَةٌ^(١).

قوله: (وأما التَّفْضِيلُ فايدانُ)، إلى آخِرِهِ. تلخيصُهُ: أن إيرادَ صِنْفَةِ التَّفْضِيلِ هَاهُنَا لِإِرَادَةِ الْمُبَالَغَةِ، ذَكَرَ فِي «الْمَفْصَلِ»: «أَفْعَلٌ» يُضَافُ إِلَى نَحْوِ مَا يُضَافُ إِلَيْهِ، أَي: وَلَهُ مَعْنَيَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يُرَادَ أَنَّهُ زَائِدٌ عَلَى الْمُضَافِ إِلَيْهِمْ فِي الْخِصْلَةِ الَّتِي هُوَ وَهُمْ فِيهَا شُرَكَاءُ. وَالثَّانِي: أَنْ يُؤْخَذَ مُطْلَقًا لَهُ الزِّيَادَةُ فِيهَا إِطْلَاقًا، ثُمَّ يُضَافُ لَا لِلتَّفْضِيلِ عَلَى الْمُضَافِ إِلَيْهِمْ، لَكِنْ لِمُجَرِّدِ التَّخْصِيسِ، كَمَا لَا يُضَافُ مَا لَا تَفْضِيلَ فِيهِ، وَذَلِكَ قَوْلُكَ: النَّاقِصُ وَالْأَشْجُّ أَعْدَلَا بَنِي مِرْوَانَ، كَأَنَّكَ قُلْتَ: عَادِلَا بَنِي مِرْوَانَ.

قوله^(٢): «أَنْ يُؤْخَذَ مُطْلَقًا لَهُ الزِّيَادَةُ فِيهَا إِطْلَاقًا»، يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ، أَحَدُهُمَا - وَهُوَ الظَّاهِرُ -: أَنَّ «أَفْعَلٌ» قُطِعَ عَنْ مُتَعَلِّقِهِ قَصْدًا إِلَى نَفْسِ الزِّيَادَةِ إِيحَاءًا لِلْمُبَالَغَةِ، نَحْو: فَلَانَ يُعْطِي وَيَمْنَعُ، أَي: يُوجَدُ حَقِيقَتُهَا، وَإِفَادَتُهُ الْمُبَالَغَةُ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْمَوْصُوفَ تَفَرَّدَ بِهَذَا الْوَصْفِ وَانْتَهَى أَمْرُهُ فِيهِ إِلَى أَنْ لَا يُتَصَوَّرَ لَهُ مَنْ يُشَارِكُهُ فِيهِ. وَقَالَ الْمَالِكِيُّ: وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ الْعَارِي الَّذِي لَيْسَ لَهُ ﴿مِنْ﴾ مُجَرَّدًا عَنِ التَّفْضِيلِ مُؤَوَّلًا بِاسْمِ الْفَاعِلِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَتَقَرُّ يَكْفُو إِذْ أَنْشَأَ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [النجم: ٣٢] وَمُؤَوَّلًا بِصِنْفَةِ الْمُسَبَّهِةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] فَ«أَعْلَمُ» هَاهُنَا بِمَعْنَى: ﴿عَلِيمٌ﴾ إِذْ لَا مُشَارِكَةَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي عِلْمِهِ بِذَلِكَ، وَ«أَهْوَبُ» بِمَعْنَى: ﴿هَيِّنٌ﴾ إِذْ لَا تَفَاوُتَ فِي نَسَبِ الْمَقْدُورَاتِ إِلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى.

وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّنْفَرِيِّ:

وَإِنْ مَدَّتِ الْأَيْدِي إِلَى الزَّادِ لَمْ أَكُنْ بِأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجْشَعُ الْقَوْمِ أَعْجَلُ^(٣)

(١) «جامع الأصول» (١٢: ٧١٨).

(٢) أي: فيما ذكره في «المفصل»، ونقله المؤلف، لا ما في «الكشاف» كما قد يُتوهم.

(٣) للشنفرى في «ديوانه»، ص ٢، وانظر: «تاج العروس» (جشع).

أراد: لم أكن عَجَلًا، ولم يُرد: أكثرهم عجلة؛ لأنَّ قصدَ ذلك يستلزمُ ثبوتَ العجلة غير الفائِقة، وليسَ غرضُهُ إلا التَّمَدُّحُ بنفي العجلةِ قليلها وكثيرها. الجشعُ: أشدُّ الحرصِ.
وقال أبو الطَّيِّبِ:

وما أنا إلا عَاشِقُ كُلِّ عَاشِقٍ أَعَقُّ خَلِيلِيهِ الصَّفِيَّينِ لَأَيْمُهُ^(١)

قال الواحِدِيُّ: ومعنى «الأعقُّ» هاهنا: العاق، كما قال حسانُ بنُ قُرط:

خَالِي بَنُو أَنَسٍ وَخَالَ سَرَاتِهِمْ أَوْسٌ فَأَيُّهُمَا أَدَقُّ وَالْأُمُّ؟

أي: فأَيُّهما الدَّقِيقُ واللَّيِّيمُ، وليس يُريدُ أن الدَّقَّةَ واللُّؤمَ اشتملا عليهما معاً ثمَّ زادَ أحدهُما على صاحِبِهِ.

وقد يُطلقُ هذا اللَّفْظُ وليس يُرادُ به الاشتِراكُ كقولهِ تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] ولا خَيْرَ في مُسْتَقَرٍّ أهلِ النَّارِ ولا حُسْنَ، كذلك جازَ أن تقولَ: «أعقُّ خَلِيلِيهِ» وإن لم يكنِ للمُمسِكِ عن اللُّؤمِ صِفَةُ عُقُوقِ.

وقُلتُ: وعلى هذا يُنزَلُ قولُ المُصنِّفِ في هذه الآية: «إِنَّ السَّيِّئَ يَفْرُطُ مِنْهُمْ مِنَ الصَّغَائِرِ وَالزَّلَّاتِ الْمُكْفِرَةِ هُوَ عِنْدَهُمُ الْأَسْوَأُ»، يعني: أَنَّهُمْ يَعُدُّونَ صَغَائِرَهُمْ كَبَائِرَ؛ لِرِفْعَةِ مَنْزِلَتِهِمْ وَعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِمْ، كما جاء: حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقْرَبِينَ^(٢). وكذلك حَسَنَاتُهُمُ الْأَدْنَى عِنْدَ اللَّهِ كَالْحَسَنَاتِ الْفُضْلَى. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَمَعَلَ صَالِحًا تُوذَى بِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١]. نحوهُ في إرادةِ المُبالِغَةِ مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعُ بِالْأُتَى هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤] في أَحَدٍ وَجْهِيهِ. قال: كان القياسُ على هذا أن يُقالَ: ادفعِ بِالْأُتَى هِيَ حَسَنَةٌ، لكن وضعَ التي هي أَحْسَنُ مَوْضِعَ الحَسَنَةِ؛ لِيَكُونَ أَبْلَغَ في الدَّفْعِ بِالْحَسَنَةِ.

(١) انظر: «ديوان المتنبي» بشرح الواحدي (١: ١٨٨).

(٢) هو من كلام أبي سعيد الخزاز. انظر: «المقاصد الحسنة»، ص ٣٠٥.

والاحتمال الثاني: أن يُراد بالزيادة الزيادة على الغير لكن على العموم، وامتناع أن يقصره السامع على ما ذكر معه دون غيره. وجاء في بعض الحواشي: إن قوله: «الأشج أعدل بني مروان» ليس المراد منه التفضيل؛ لأن الرواية كلهم جوراً، لكن المراد: تعريف أنه من بني مروان، كأنه قال: أشج أعدل الناس، وهذا الأعدل من بني مروان، لعل هذا القائل أخذه من شارح «اللباب»، فإذا قلت: زيد أحسن قريش، فمعناه: زيد أحسن الناس مطلقاً، وهو من جملة قريش، هذا إن أريد به أن مال ذلك المعنى راجع إلى هذا فهو صحيح، وإن أريد أن المتعلق منوي؛ فإن قوله: «يؤخذ مطلقاً» وتوكيده بقوله: «إطلاقاً» لا يساعده؛ لأن المنوي كالملفوظ، ولا قوله: كأنك قلت: عادلاً بني مروان؛ لأن «أعدلاً» إذا أريد به «عادلاً» كان بالنسبة إلى بني مروان مجازاً، وهو حينئذ حقيقة في إيراده الغير، فتجتمع الحقيقة والمجاز على لفظ واحد في حالة واحدة، وأيضاً يلزم أن تكون الإضافة محضة وغير محضة، فثبت أن الاحتمال الأول أولى.

ثم الأنسب أن يكون هذا التأويل مبنياً على الوجه الأول، هو أن يُراد بقوله: «الذي جاء بالصدق وصدق به رسول الله ﷺ أصالة، والمخلصون من الصحابة تبعاً» لأنه إذا لم يقل: إن المراد بقوله: ﴿وَجَزَيْتُمُ اجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الحسن الذي يعملونه هو عند الله الأحسن، يلزم أن تكون صغاراً حسنتهم غير مجزي بها، وكذلك الصغار من الذنوب تكون غير مكفرة، ويمكن أن ينبي على الوجه الثاني، وهو أن يُراد: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ وحده، ويصدق به صحابته كلهم، وتجري الإضافة على ظاهرها، ويكون قوله: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ إلى آخره، تعليلاً لقوله: ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ أي: أصحاب النبي ﷺ صدقوا به وآمنوا بها جاء من الحق به؛ ليكفر الله عنهم، وكان جُلهم مصروفاً في تكفير ذنوبهم العظام في الجاهلية من عبادة الأوثان وقتل النفس التي حرم الله ونهب مال الغير وفي أن يشكر لهم مكارم أفعالهم من صلة الرّحيم وقري الضيفان وإغاثة الملهوف وكسب المعدوم، وقد ذكر في سورة إبراهيم عليه السلام عند قوله تعالى: ﴿إِنِّي اللَّهُ شَكَتُ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠]

بأنَّ السَّيِّئَ الَّذِي يَفْرُطُ مِنْهُمْ مِنَ الصَّغَائِرِ وَالزَّلَّاتِ الْمَكْفُورَةِ، هُوَ عِنْدَهُمُ الْأَسْوَأُ؛ لَا اسْتِعْظَامَ لَهُمُ الْمَعْصِيَةَ، وَالْحَسَنَ الَّذِي يَعْلَمُونَهُ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَحْسَنُ؛ لِحُسْنِ إِخْلَاصِهِمْ فِيهِ؛ فَلِذَلِكَ ذَكَرَ سَيِّئَهُمْ بِالْأَسْوَأِ وَحَسَنَهُمْ بِالْأَحْسَنِ. وَقُرَى: (أَسْوَاءَ الَّذِي عَمِلُوا) جَمْعُ سُوءٍ.

[﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ وَالْحَائِطِ وَمِنْ دُونِهِمْ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلٌ﴾]

عن الأصم: أن ﴿من﴾ للتبعض، والمعنى إذا ثبتتم بغفر لكم الذنوب التي هي الكبائر، وأمَّا الصغائر فلا كلام في غفرانها^(١).

وعن المصنّف: أن أهل مكة قالوا: يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله يغفر له، فكيف ولم يُهاجر وعبدنا الأوثان؟ فنزلت: ﴿يَعْبَادِ الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، وقصة وحشي تذكر بعد هذا، ولعل افتقار ما في الآية إلى البيان ليس كافتقار المثال إليه؛ لأن قوله: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ مُنَادٍ بِأَنَّهُمْ مَا يَفْتَقِرُ إِلَى التَّكْفِيرِ لَا سَيِّئًا وَقَدْ أُرِدَفَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَسْوَأًا﴾، فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ عَمِلُوا﴾ إِلَّا مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ.

وإلى معنى الآية يُنْظَرُ مَا رَوَيْنَاهُ عَنِ النَّسَائِيِّ عَنِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَسْلَمَ الْعَبْدُ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ حَسَنَةً كَانَتْ يَزِلُّهَا، وَحُجِّتَ عَنْهُ كُلُّ سَيِّئَةٍ كَانَتْ أَرْزَلَهَا، وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ الْقِصَاصُ كُلُّ حَسَنَةٍ بَعَثَ أَمثالها إِلَى سَبْعِينَ ضِعْفًا، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهَا»^(٢).

النهاية: أَرْزَلَهَا: أَي: قَدَّمَهَا وَأَسْلَفَهَا، وَالْأَصْلُ فِيهِ: الْقُرْبُ وَالتَّقَدُّمُ، وَسَيَجِيءُ فِي سُورَةِ «حَمِ السَّجْدَةِ» فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٧] مَا يَشُدُّ بَعْضُ هَذَا التَّقْرِيبِ.

(١) انظر: «الكشاف» (٨: ٥٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤١) والنسائي (٨: ١٠٥).

لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٦-٣٧﴾

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ أَدْخِلْتَ هَمْزَةَ الْإِنكَارِ عَلَى كَلِمَةِ النَّفْيِ، فَأُفِيدَ مَعْنَى إِثْبَاتِ الْكِفَايَةِ وَتَقْرِيرِهَا. قُرئ: ﴿بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾؛ وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَ(بِكَافٍ عَبْدَهُ)؛ وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ؛ وَذَلِكَ: أَنَّ قُرَيْشًا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّا نَخَافُ أَنْ تُحْبَلَكَ أَهْلُنَا، وَإِنَّا نَخْشَى عَلَيْكَ مَعْرَتَهَا لَعَيْنِكَ يَا هَا.

وَيُرْوَى: أَنَّهُ بَعَثَ خَالِدًا إِلَى الْعُزَّى لِيَكْسِرَهَا، فَقَالَ لَهُ سَادِمُهَا: أُحَذِّرُكَهَا يَا خَالِدَ، إِنَّ لَهَا شِدَّةً لَا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ، فَعَمَدَ خَالِدٌ إِلَيْهَا فَهَشَمَ أَنْفَهَا. فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ بِنَبِيِّهِ أَنْ يَعِصِمَهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَيُدْفَعُ عَنْهُ كُلَّ بَلَاءٍ فِي مَوَاطِنِ الْخَوْفِ؟ وَفِي هَذَا تَهَكُّمٌ بِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ خَوْفُوهُ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى نَفْعٍ وَلَا ضَرَرٍ. أَوْ: أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ أَنْبِيََاءَهُ وَلَقَدْ قَالَتْ أُمَّهُمُ نَحْوَ ذَلِكَ، فَكَفَاهُمْ اللَّهُ؛ وَذَلِكَ قَوْلُ قَوْمِ هُودَ: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَبْنَاكَ بَعْضَ الْهَتْنَا يَسُوءُ﴾ [هود: ٥٤]. وَيَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ: الْعَبْدَ وَالْعِبَادَةَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، لِأَنَّهُ كَافِيهِمْ فِي الشَّدَائِدِ وَكَافِلٌ مَصَالِحِهِمْ. وَقُرئ: (بِكَافِي عَبْدَهُ) عَلَى الْإِضَافَةِ، وَ(يُكَافِي عَبْدَهُ)، وَ(يُكَافِي): يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ مَهْمُوزٍ مُفَاعَلَةٌ مِنَ الْكِفَايَةِ، كَقَوْلِكَ: يُجَازِي فِي يُجَازِي، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ كَفَى؛ لِبِنَائِهِ عَلَى لَفْظِ الْمُبَالَغَةِ وَالْمُبَارَاةِ؛ وَأَنْ يَكُونَ مَهْمُوزًا، مِنْ الْمُكَافَاةِ؛ وَهِيَ الْمَجَازَاةُ؛ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ [الزمر: ٣٥]. ﴿يَا الَّذِينَ

قَوْلِهِ: ﴿بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾، قَرَأَ حَمْزَةً وَالْكَسَاثِي: «عِبَادَهُ»، وَالْبَاقُونَ: ﴿عَبْدَهُ﴾^(١).

قَوْلِهِ: (مِنَ الْمُكَافَاةِ)، وَهِيَ الْمَجَازَاةُ، لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾، يَعْنِي: لِمَا قَالَ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، قَرَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ أَي: أَلَيْسَ مِنْ صِفَةِ الْكَرِيمِ الْقَادِرِ الْعَادِلِ أَنْ يُجْزِيَ عَبْدَهُ بِمَا عَمِلُوا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] لَكِنْ لَا يَلْتَمِسُ قَوْلُهُ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ بِمَا قَبْلَهُ وَبِمَا بَعْدَهُ إِلَّا إِذَا حُمِلَ عَلَى الْكِفَايَةِ، فَيَتَّصِلُ بِقَوْلِهِ: ﴿صَرَبَ اللَّهُ

(١) انظر: «حجة القراءات» ص ٦٢٢، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٢٥٧).

مِن دُونِهِ ﴿ أَرَادَ: الْأَوْثَانَ الَّتِي اتَّخَذُوهَا آلِهَةً مِنْ دُونِهِ. ﴿بِعَزِيزٍ﴾ بِغَالِبٍ مَنِيْعٍ ﴿ذِي أَنْفِقَامٍ﴾ يَنْتَقِمُ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَفِيهِ وَعِيدٌ لِقُرَيْشٍ، وَوَعْدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ يَنْتَقِمُ لَهُمْ مِنْهُمْ، وَيَنْصُرُهُمْ عَلَيْهِمْ.

[﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِي قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [٣٨]

قُرئ: (كاشفاتُ ضرِّه) و(ممسكاتُ رحمته) بالتنوين على الأصل، وبالإضافة؛ للتخفيف. فإن قلت: لِمَ فَرَضَ الْمَسْأَلَةَ فِي نَفْسِهِ دُونَهُمْ؟ قلتُ: لأنهم خَوْفُوهُ مَعْرَةً

مَثَلًا لِرَجُلٍ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴿ الْآيَةُ. لِأَنَّهُ لَمَّا أذِنَ بِتَوْهِينِ أَمْرِ الْأَصْنَامِ وَتَسْفِيهِ رَأْيِهِمِ وَالتَّسْجِيلِ عَلَى جَهْلِهِمْ شَجَعَتْ رُسُولَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَمْرَهُ أَنْ لَا يَكْتَرِثَ بِهِمْ وَبِأَصْنَامِهِمْ، فَكَأَنَّهُمْ لَمَّا عَجَزُوا عَنِ الْجَوَابِ وَظَهَرَ تَبَكُّيْتُهُمْ خَوْفُوهُ بِمَعْبُودِهِمْ.

وَمَا أَحْسَنَ هَذَا النِّظْمَ، وَمَا أَلْطَفَ مَوْقِعَ مَعْنَى الْكِفَايَةِ، وَتَخْصِيصَ لَفْظِ «الْعَبْدِ»، وَوَصَفَ الْأَصْنَامَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ، وَمَا أَدَقَّ هَذَا التَّعْرِيفُ بِحَالِ عَبْدٍ يُثْبِتُ مَعْبُودَاتِ شَتَّى، وَيَدَّعِي كُلَّ وَاحِدٍ عُبُودِيَّتَهُ، وَيَبْقَى هُوَ مُتَّحِرًا ضَائِعًا، وَحَالِ عَبْدٍ لَمْ يُثْبِتْ إِلَّا مَعْبُودًا وَاحِدًا، فَهُوَ قَائِمٌ بِهَا كَلْفَهُ، عَارِفٌ بِهَا بِرِضَاهِ.

وَيَتَّصِلُ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾، كَمَا سَيَجِيءُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قَوْلُهُ: (قُرئ: «كاشفاتُ ضرِّه» و«ممسكاتُ رحمته») أَبُو عَمْرٍو: بِالتَّنْوِينِ وَفَتْحِ الرَّاءِ وَالتَّاءِ، وَالباقون: بِالإِضَافَةِ^(١).

قَوْلُهُ: (لَمْ فَرَضَ الْمَسْأَلَةَ فِي نَفْسِهِ دُونَهُمْ) أَي: لِمَ قَالَ: ﴿ أَرَادَنِي ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: أَرَادَكُمْ، أَوْ

(١) انظر: «حجّة القراءات»، ص ٦٢٣، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٢٥٧).

الأوثان وتخيلها، فأمر بأن يقرّرهم أولاً بأن خالق العالم هو الله وحده، ثم يقول لهم بعد التقرير: فإن أرادني خالق العالم الذي أقررتم به بضراً من مرض أو فقر أو غير ذلك من النوازل، أو برحمة من صحّة أو غنى أو نحوهما، هل هؤلاء اللاتي خوّفتموني إياهنّ كاشفاتٌ عني ضرّه أو مُسكاتٌ رحمته، حتى إذا ألقمهم الحجرَ وقطعهم حتى لا يُحيروا بنتِ شفةٍ قال: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ كافيًا لمعرة أوثانكم ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، وفيه تهكم. ويروى: أن النبي ﷺ سأهم فسكتوا، فنزل ﴿قُلْ حَسْبِيَ﴾

إن أردنا الله بضراً، أو إن أردنا الله برحمته، والحال أن الكلام بعد تقرير أن خالق العالم الله؟ وأجاب: أن التقرير لم يكن إلا لأمرٍ نفسه؛ لأنهم خوّفوه معرة الأوثان، بدليل قوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ فأوجب ذلك أن تقدّم لهم مسألة التقرير، ثم يبنّي عليها الجواب ليكون للحدّجة والزّم لها.

قوله: (لا يحيروا بنت شفة)، الجوهري: المُحَاوَرَةُ: المُجَاوَرَةُ والتجاوب، ويُقال: كَلَّمْتُهُ فَمَا أَحَارَ إِلَيَّ جَوَابًا، وما كَلَّمْتُهُ بِنْتِ شَفَةِ أَي: بكلمة.

قوله: (وفيه تهكم)، لأنه لا معرة للأوثان، فكيف يقول: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ كافيًا لمعرة أوثانكم، ثم يُردّفه بقوله: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

قوله: (ويروى: أن النبي ﷺ سأهم فسكتوا)، يجوز أن يكون بيانًا لِمَا سبق، وأن يكون وجهًا آخر. وعلى الثاني: «قُلْ» مُسْتَقِيلٌ، والمعنى عام، وليس فيه تهكم، وهو أنبل وأفحم؛ لأنه صلوات الله عليه لِمَا بكتهم أولاً بقوله: ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، بدليل قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، وألقمهم الحجرَ ثانيًا بقوله: ﴿هَلْ هُنَّ كَشِفَتْ ضُرُوءَ﴾ ﴿هَلْ هُنَّ مُتْسِكَنَاتُ رَحْمَتِي﴾، ولم يُحيروا بنتِ شفة، أي: لأنهم عند أنفسهم إذا كان حَزَبُهُمْ أمرٌ دَعَا اللهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ دون أصنامهم، كما قال صاحبُ «المفتاح»^(١): كانت حالهم المُسْتَمِرَّةُ أن يكونوا عن دعوتهم صامتين ابتداءً بقوله: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، أي: إذا كان لا خالق للعالم إلا الله، ولا ضارًّا ولا نافعًا إلا هو، قُلْ: هو حَسْبِي وعليه توكل.

(١) «مفتاح العلوم»، ص ٢٧٢.

اللَّهُ. فَإِنْ قُلْتَ: لَمْ قِيلَ: ﴿كَشِفْنَا﴾، و﴿مُمْسِكْتُمْ﴾، عَلَى التَّأْنِيثِ بَعْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾؟ قُلْتُ: أَتَنْهَنَّ وَكُنَّ إِنَاثًا وَهَنَّ اللَّاتُ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ [النجم: ١٩-٢١]؛ لِيُضْعِفَهَا وَيُعْجِزَهَا زِيَادَةَ تَضْعِيفِ وَتَعْجِيزِ عَمَّا طَالَ بِهِمْ بِهِ مِنْ كَشْفِ الضَّرِّ وَإِمْسَاكِ الرَّحْمَةِ؛ لِأَنَّ الْأُنثَى مِنَ بَابِ اللَّيْنِ وَالرَّخَاوَةِ، كَمَا أَنَّ الذَّكْرَةَ مِنَ بَابِ الشَّدَّةِ وَالصَّلَابَةِ، كَأَنَّهُ قَالَ: الْإِنَاثُ اللَّاتِي هُنَّ اللَّاتُ وَالْعُزَّى وَمَنَاةٌ أَضْعَفُ مِمَّا تَدْعُونَ لَهُنَّ وَأَعْجِز. وَفِيهِ تَهَكُّمٌ أَيْضًا.

[﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ * مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [٣٩-٤٠]

﴿عَلَىٰ مَكَانِكُمْ﴾: عَلَىٰ حَالِكُمْ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا وَجِهَتِكُمْ مِنَ الْعِدَاوَةِ الَّتِي تَمَكَّنْتُمْ مِنْهَا. وَالْمَكَانَةُ بِمَعْنَى الْمَكَانِ، فَاسْتُعِيرْتُ عَنِ الْعَيْنِ لِلْمَعْنَى كَمَا يُسْتَعَارُ هُنَا، وَ«حَيْثُ» لِلزَّمَانِ، وَهِيَ لِلْمَكَانِ. فَإِنْ قُلْتَ: حَقُّ الْكَلَامِ: فَإِنِّي عَامِلٌ عَلَىٰ مَكَانِي، فَلَمْ حَذَفْ؟ قُلْتُ: لِلإختصارِ، وَلِمَا فِيهِ مِنْ زِيَادَةِ الْوَعِيدِ، وَالإبْدَانِ بِأَنَّ حَالَهُ لَا تَقْفُ، وَتَزْدَادُ كُلَّ يَوْمٍ قُوَّةً وَشِدَّةً؛ لِأَنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ وَمُعِينُهُ وَمُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ،

قَوْلُهُ: (فَاسْتُعِيرْتُ عَنِ الْعَيْنِ لِلْمَعْنَى) ضَمَّنَ «اسْتَعَارَ» مَعْنَى «نَقَلَ»، وَعُدِّي بِ«عَنِ»، أَي: الْمَكَانَةُ تُسْتَعْمَلُ حَقِيقَةً فِيمَا يُدْرِكُ بِالْعَيْنِ، فَنَقَلَ عَنْهُ إِلَى الْمَعْنَى، وَهُوَ الْحَالَةُ وَالْجِهَةُ، كَمَا تُسْتَعَارُ لَفِظَةُ «هَنَا» وَ«حَيْثُ»، وَهِيَ لِلزَّمَانِ وَالْمَكَانِ.

قَوْلُهُ: (لِلإختصارِ وَلِمَا فِيهِ مِنْ زِيَادَةِ الْوَعِيدِ)، يَعْنِي: أَضْمِرَ مُتَعَلِّقٌ ﴿عَمِلْتُ﴾، وَجُعِلَ مُطْلَقًا لِثَلَاثِ يَكُونُ عَلَى وِزَانِ عَمَلِهِمْ وَتَعَلَّقَهُ بِالْمَكَانَةِ؛ لِأَنَّ حَالَتَهُ وَجِهَتَهُ لَا تَقْفُ عَلَى أَمْرٍ يَتِمَكَّنُ الْوَاصِفُ مِنْ وَصْفِهِ، بَلْ إِنَّهَا لَا تَزَالُ فِي التَّرْقِي سَاعَةً فَسَاعَةً إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ فِي الْقُوَّةِ إِلَى أَقْصَى غَايَاتِ الْكَمَالِ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَلَوْ ذَكَرَ لِإقتصرَ عَلَى الْمَذْكُورِ، وَأَنْ يُقَالَ: إِنِّي عَامِلٌ عَلَى مَكَانِي؛ أَي: حَالَتِي الَّتِي أَنَا عَلَيْهَا.

الأتري إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ * من يأتيه ﴿كيف توعدهم بكونه منصوراً عليهم عالياً عليهم في الدنيا والآخرة؛ لأنهم إذا أتاهم الخزي والعذاب فذاك عزه وغلبته، من حيث إن الغلبة تتم له بعز عزيز من أوليائه، وبذل دليل من أعدائه. ﴿يُخْزِيهِ﴾ مثل ﴿مُقِيمٍ﴾ في وقوعه صفة للعذاب، أي: عذابٌ يُخْزِي له، وهو يومٌ بدرٍ، وعذابٌ دائم وهو عذاب النار. وقرئ: (مَكَانَاتِكُمْ).

[إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾]

﴿لِلنَّاسِ﴾: لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه؛ ليُسْرُوا ويُنذَرُوا؛ فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية. ولا حاجة إلى ذلك فأنا الغني، فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه، ومن اختار الضلالة فقد ضرها. وما وُكِّلَ عليهم لتُجْرِبَهُمْ على الهدى، فإن التكليف مبني على الاختيار دون الإيجاب.

[﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي

قوله: (الأتري إلى قوله ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾)، أي: الدليل على أن في ترك ذكر مكاتي زيادة في الوعيد والإنذار، وأن حاله لم تزل في التزايد إلى الأبد ترتب قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ * من يأتيه عذابٌ يُخْزِيهِ وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ بالفاعلية، وكان من حق الظاهر: فسوف تعلمون مكاتي وأني غالبٌ عليكم في الدنيا والآخرة، فوضع موضع «عذاب الدنيا» قوله: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، و«عذاب الآخرة» قوله: ﴿وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، وإنما سُمِّيَ نكالمهم في الدنيا والعقبى بالعز والغلبة في قوله: «فذلك عزه وغلبته»؛ لأن الغلبة والعز قسمان: نصر الأولياء، وذل الأعداء. وهذه الغلبة والعز من القسم الأخير.

قوله: (مَكَانَاتِكُمْ)، أبو بكر عن عاصم (١).

(١) انظر: «حجة القراءات»، ص ٢٧٢، و«الجامع لأحكام القرآن» (٧: ٨٩).

قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

﴿الْأَنْفُسَ﴾: الْجَمَلُ كما هي. وَتَوَفِّيَهَا: إِمَاتُهَا؛ وهو أَنْ تُسَلَّبَ ما هي به حَيَّةٌ
حَسَّاسَةٌ دَرَاكَةٌ مِنْ صِحَّةِ أَجْزَائِهَا وَسَلَامَتِهَا؛ لِأَنَّهَا عِنْدَ سَلْبِ الصِّحَّةِ كَأَنَّ ذَاتَهَا قَدْ
سُلِبَتْ:

قوله: ﴿الْأَنْفُسَ﴾: الْجَمَلُ كما هي، وعن بعض العَدَلِيَّةِ: أَرَادَ بِالْجَمَلِ الْأَزْوَاجَ
وَالْأَبْدَانَ جَمِيعًا، فَيَكُونُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ الْبِنْيَةُ الْمَخْصُوصَةُ شَرْطًا لِلْحَيَاةِ، خِلَافًا لِلْأَشْعَرِيَّةِ.
قوله: (لِأَنَّهَا عِنْدَ سَلْبِ الصِّحَّةِ كَأَنَّ ذَاتَهَا قَدْ سُلِبَتْ)، تَعْلِيلٌ لِمَحْذُوفٍ عَلَى طَرِيقَةِ
الْجَوَابِ عَنْ سُؤَالٍ مُّقَدَّرٍ، يَعْنِي: إِذَا كَانَتِ الْإِمَاتَةُ عِبَارَةً عَنْ سَلْبِ مَا بِهِ النَّفْسُ دَرَاكَةً، لَا
سَلْبِ ذَاتِ النَّفْسِ، فَكَيْفَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تَوَفَّى الْأَنْفُسَ﴾؟ وَالنَّفْسُ كَمَا تَقَرَّرَ: الْجَمَلُ كَمَا
هِيَ.

وأجاب: أَنَّ النَّفْسَ عِنْدَ سَلْبِ الصِّحَّةِ كَأَنَّ ذَاتَهَا قَدْ سُلِبَتْ مُبَالَغَةً.

واعلم أَنَّهُ فَسَّرَ التَّوْفِيَّ بِوَجْهَيْنِ:

أحدهما: أَنَّهُ فِي مَعْنَى الْإِمَاتَةِ، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾
[البقرة: ٢٣٤] عَلَى بِنَاءِ اسْمِ الْمَفْعُولِ، فَالْأَنْفُسُ حِينَئِذٍ بِمَعْنَى: الْأَزْوَاجِ وَالْأَبْدَانِ جَمِيعًا، فَلِهَذَا
قَالَ: الْأَنْفُسُ الْجَمَلُ كَمَا هِيَ، وَالتَّوْفِيُّ لِسَمَّا كَانَ بِمَعْنَى سَلْبِ الصِّحَّةِ لَا النَّفْسِ، مُجْمَلٌ عَلَى
الْمَجَازِ، كَمَا قَرَّرَهُ.

وثانيهما: أَنَّ يَكُونُ التَّوْفِيَّ بِمَعْنَى الْإِسْتِيفَاءِ وَالْقَبْضِ، كَقِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ: «الَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ»^(١)
عَلَى بِنَاءِ اسْمِ الْفَاعِلِ، وَالْأَنْفُسُ حِينَئِذٍ: إِمَا مَا بِهِ التَّمْيِيزُ، وَإِمَا نَفْسَ الْحَيَاةِ، فَيَصِحُّ حَمْلُهُ عَلَى
حَقِيقَتِهِ؛ لِأَنَّهُ سَلْبُ مَا بِهِ النَّفْسُ دَرَاكَةٌ، لَكِنْ يَلْزَمُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ أَنَّ تَكُونَ نَفْسُ الْحَيَاةِ
مُتَّصِفًا بِالْمَوْتِ، لَا الْجَمْلَةُ الْحَسَّاسَةُ، وَيَكُونُ مَا بِهِ التَّمْيِيزُ مُتَّصِفًا بِالْمَوْتِ وَالنَّوْمِ. فَردَّ هَذَا

(١) انظر: «المحتسب» لابن جني (١: ١٢٥).

الوجه بقوله: «والصحيح ما ذكرت لك أولاً»، أي: المرادُ بالـنفس الجملة، وبالتوفي سلب ما هي به حية حساسة ذرّاقة.

وقلت: الوجهُ الأوّل من باب الجمع والتفريق، جمع النفسين الميتة والنائمة في حكم التوفي أولاً، ثم فرّق بين جهتي التوفي، فحكم على النفس الميتة بالإمساك، وعلى النائمة بالإرسال والتقدير. ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ﴾ النفس التي تقبض والنفس التي لم تقبض، فيمسك الأولى ويرسل الأخرى. وويؤيده قول صاحب «الكشف»: التقدير: ويتوفى التي لم تمت، فاستغنى عن ذكر «يتوفى» ثانياً؛ لجره أولاً^(١).

وتحريره: الله يُميت الشخص بأن يسلب منه ما به تصح حياته ويُنيم الآخر نومةً تُشبه الموت في عدم التصرف والتميز، ثم لا يرُدُّ الحياة إلى النفس التي أماتها موتة حقيقية، ويرُدُّ التميز إلى التي أماتها موتة مجازية إلى أجلٍ مُسمى.

فإن قلت: يلزم على ما ذكرت أن يكون التوفي مُستعملاً في مفهومَي حقيقته ومجازه.

قلت: يجعل مجازاً عن قطع تعلق النفس عن البدن مُطلقاً.

قال الإمام: النفس الإنسانية: عبارة عن جوهرٍ مُشرقٍ نورانيٍّ إذا تعلق بالبدن حصل ضوءه في جميع الأعضاء، وهي الحياة، ثم إنه في وقت النوم ينقطع تعلقه عن ظاهر البدن دون باطنه، وفي وقت الموت ينقطع التعلق عن ظاهره وباطنه. فالموت والنوم من جنس واحد بهذا الاعتبار، لكن الموت انقطاع تام كامل، والنوم انقطاع ناقص، فظهر أن القادر الحكيم دبّر تعلق النفس بالبدن على ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه دبّر أمرها بحيث يقع ضوء الروح على جميع أجزاء البدن ظاهرة وباطنة، وذلك هو اليقظة.

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١١٦٤)، بتحقيق د. محمد الدالي، و(٢: ٢٧٣) بتحقيق د. عبدالقادر

وثانيها: بحيث يُقَطَّعُ الضوءُ عن الظاهرِ والباطنِ، وهو الموت.

وثالثها: بحيث يُقَطَّعُ عن الظاهرِ دونَ الباطنِ، وهو النوم.

فثبتَ أن الموتَ والنومَ يشتركانِ في كونِ كُلِّ واحدٍ منهما توفِّي الأَفسس، ويمتازُ أحدهما بخواصِّ مُعَيَّنَةٍ، ومثلُ هذا التدبيرِ العجيبِ لا يُمكنُ صُدورُه إلا عن القادرِ العليمِ الحكيمِ، **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** (١).

وفي ألفاظِ النبويِّ ما روينا في «صحيح البخاري» (٢) عن أبي قتادةَ قال: سِرنا مع النبي ﷺ فقال بعضُ القوم: لو عَرَسَتْ بنا يا رسولَ الله، قال: «أخافُ أن تناموا عن الصلاة»، قال بلال: أنا أوقظُكم، فاضطَجَعوا، فغلبتَ عينا بلالِ فنام، فاستيقظَ النبي ﷺ وقد طلعَ حاجِبُ الشمسِ، فقال: «يا بلال، أينَ ما قلتَ؟» قال: ما أُقيتَ عليَّ نومةٌ مثلُها قط. قال: «إن اللهَ قبضَ أرواحكم حينَ شاء، ورَدَّها عليكم حينَ شاء» الحديث.

وروى البخاريُّ ومسلمٌ وأبو داودَ والترمذيُّ (٣) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في دعاءِ النوم: «باسمِكَ ربي وضعتُ جَنبي وبِكَ أرفَعُه، إن أمسكتَ نفسي فارحَها، وإن أرسلتَها فاحفظْها، بها تحفظُ به عبادك الصالحين».

وروي عن لقمانَ أنه قال لابنه: «يا بُني، كما أنك تنامُ ثم تَسْتيقظ، كذلك تموتُ ثم تحيا». قاسَ الموتَ بالنومِ فكانا موتَين.

الراغب: توفية الشيء: بذله وافيًا، واستيفاءؤه: تناوله وافيًا. قال عزَّ وجلَّ: **﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾** [آل عمران: ٢٥]، قد عبَّرَ عن الموتِ والنومِ بالتوفي، قال اللهُ تعالى: **﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾**، وقوله تعالى: **﴿يَلْعَبِسِيْ اِيَّيْ مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ اِلَيْيْ﴾** [آل عمران: ٥٥] فقد قيل: توفي رفعةً واختصاص، لا توفي موت.

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٦: ٤٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٢٠) ومسلم (٢٧١٤) وأبو داود (٥٠٥٠) والترمذي (٣٤٠١).

﴿وَأَلَّتْ لَمَرَّمَتْ فِي مَنَامِهَا﴾ يريد: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، أي: يتوفىها حين تنام، تشبيهاً للنائمين بالموتى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦] حيث لا يميزون ولا يتصرفون، كما أن الموتى كذلك، ﴿فَيَمْسِكُ﴾ الأنفس ﴿الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ الحقيقي، أي: لا يردُّها في وقتها حيَّة، ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ﴾ النائمة ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: إلى وقت ضربه لموتها. وقيل: ﴿يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ﴾ يستوفيها ويقبضها، وهي الأنفس التي تكون معها الحياة والحركة، ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، وهي أنفس التمييز. قالوا: فالتى تتوفى في النوم هي نفس التمييز لا نفس الحياة؛ لأنَّ نفس الحياة إذا زالت زال معها النَّفس، والنائم يتنفس. ورووا عن ابن عباس رضي الله عنه: في ابن آدم نفس وروح بينهما شعاع الشمس، فالنفس التي بها العقل والتمييز، والروح التي بها النفس والتحرك، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه. والصحيح ما ذكرت أولاً؛ لأنَّ الله عزَّ وعلا علَّق التوفيَّ والموتَ والمنام جميعاً بالأنفس، وما عنوا بنفس الحياة والحركة ونفس العقل والتمييز غير متصِفٍ بالموت والنوم، وإنما الجملة هي التي تموت وهي التي تنام. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾: إنَّ في توفى الأنفس مائةً وثمانئة، وإمساكها وإرسالها إلى أجل ﴿لَا يَسْتِ﴾ على قدرة الله وعلمه، ﴿لِقَوْمٍ﴾ يُجِيلون فيه أفكارهم ويعتبرون. وقرئ: ﴿قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ﴾ على البناء للمفعول.

والوافي: الذي بلغ التمام، يُقال: درهمٌ وافٍ، وكيلٌ وافٍ. ووفى بعهده وأوفى: إذا تَمَّ العهد^(١).

قوله: (أي: لا يردُّها في وقتها حيَّة)، «حية»: حالٌ من «ها» «يردُّها»، و«في وقتها» أي: وقت إمامتها وأجلها.

قوله: (وقرئ: «قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ» على البناء للمفعول)، وهي قراءة حمزة والكسائي.

(١) «المفردات في غريب القرآن»، ص ٨٧٨.

[﴿ أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾
﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [٤٣-٤٤]

﴿ أَمْ أَخَذُوا ﴾: بل اتَّخَذُوا قريش، والهمزة للإنكار ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾: من دون إذنه ﴿ شُفَعَاءَ ﴾ حين قالوا: ﴿ هَتُؤَلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]، ولا يشفعُ عنده أحدٌ إلا بإذنه. ألا ترى إلى قوله: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ﴾؟ أي: هو مالِكُهَا، فلا يستطيعُ أحدٌ شفاعَةً إلا بشرطَيْن: أن يكونَ المشفوعُ له مُرْتَضًى، وأن يكونَ الشفيعُ مأذوناً له. وهاهنا الشرطانِ مفقودانِ جميعاً. ﴿ أُولَئِكَ كَانُوا ﴾ معناه: أيشفعون ولو كانوا ﴿ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي: ولو كانوا على هذه الصفة لا يملكون شيئاً قط، حتى يملكوا الشفاعَةَ ولا عقْلَ لهم. ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقريرٌ لقوله: ﴿ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ﴾؛ لأنه إذا كانَ له الملكُ كُلُّهُ، والشفاعةُ من الملك؛ كان مالِكاً لها. فإن قلت: بِمَ يَتَّصِلُ قَوْلُهُ: ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾؟ قلت: بما يليه، معناه: ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ اليوم ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة، فلا يكونُ الملكُ في ذلك اليومِ إلا له، فله مُلْكُ الدنيا والآخرة.

[﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [٤٥]

والباقون: على البناءِ للفاعل (١).

قوله: (أن يكونَ المشفوعُ له مُرْتَضًى، وأن يكونَ الشفيعُ مأذوناً له)، لكن الذي هو مشروطٌ في الآية شيان: الملكُ المُطْلَقُ والعقل، والشرطانِ مفقودان، أي: الأصنامُ لا يملكون شيئاً، ولا لهم مرتبةُ العقلاء، يدلُّ عليه قوله: ﴿ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾، ولذلك أتبعه بها اشتمل على الاسم الجامع والملك على الإطلاقِ دُنْيَا وَآخِرَى من غيرِ مُنَازَعِ فيه حيثُ قال: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الآية.

(١) انظر: «حجة القراءات»، ص ٦٢٤، و«الجامع لأحكام القرآن»، (١٥: ٢٦٣).

مدارُ المعنى على قوله: ﴿وَحَدَهُ﴾، أي: إذا أُفردَ اللهُ بالذكر ولم يُذكر معه آلهتهم أسماءوا، أي: نَفَرُوا وانقَبَضُوا، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾؛ وهم آلهتهم ذُكِرَ اللهُ معهم أو لم يُذكروا: استَبَشَرُوا؛ لافتتَانِهِم بها ونِسْيَانِهِم حَقَّ اللهُ إلى هَوَاهِم فيها. وقيل: إذا قيل: لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له: نَفَرُوا؛ لأنَّ فيه نَفْيًا لآلهتهم. وقيل: أراد استبشارهم بما سبقَ إليه لسانُ رسولِ اللهِ ﷺ من ذِكْرِ آلهتهم حين قرأ (والنجم) عند

قوله: (مدارُ المعنى على قوله: ﴿وَحَدَهُ﴾)، عن بعضهم: من قال: المرادُ بقوله: ﴿وَحَدَهُ﴾ الثناء على الله تعالى، ويصيرُ بمنزلةِ قوله: اللهُ تعالى، أو سبحانه، أو شبه ذلك، فقد أخطأ.

قلت: يُريد: أن لفظه ﴿وَحَدَهُ﴾ في كلام المصنّف ليست بمُعترضة، كما يقع في سائر المواضع، مثل: سبحانه وتعالى، بل المعنى: أن مدارَ معنى هذه الآية وما سبقَ له الكلام معنى ﴿وَحَدَهُ﴾، إذ لو قيل: وإذا ذُكِرَ اللهُ أسماءتُ قلوبُ الذين لا يؤمنون، لكانَ عن المعنى بمعزلٍ؛ لأنهم ما كانوا يشمئزون إذا شُفِعَ ذِكْرُ اللهِ بذكر آلهتهم، وإذا ذُكِرَت آلهتهم وحدها كانوا يستبشرون، وإنما كانَ اشمئزأهم من ذِكْرِ اللهِ وحده، ونَبَّه اللهُ سبحانه وتعالى بوضع قوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ موضع الضمير على أنهم إنما اشمأزوا؛ لأنهم رَكَنُوا إلى اللذاتِ العاجلة، وانغمسوا في الشهواتِ النفسانية، فإذا سَمِعُوا بأن لا إله إلا هو وحده، واستلزمَ ذلك العبادةَ والتجافيَ عن دارِ الغرورِ والإنابةَ إلى دارِ الخلود، ظهرت آثارُ الكآبة على وجوههم، وانقبضت قلوبهم، وضاعت صدورهم، وإذا ذُكِرَت الأصنام مالت قلوبهم إلى اللذاتِ العاجلة، واستبشروا وفرحوا.

قوله: (بما سبقَ إليه لسانُ رسولِ اللهِ ﷺ)، يعني: قرأ سورة «النجم»، وألقى الشيطانُ في أمْنِيَّتِهِ: «تلكَ الغرائقُ العلى، وإن شفاعتَهُنَّ تُرتجى»، ففرَحَ به الكفار^(١).

وقلت: قد أبطلَ هذا القولُ الإمام^(٢)، واستقصينا القولَ في إبطاله في «الأنبياء».

(١) أخرجه البزار (٥٠٩٦) والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٤٥٠) عن ابن عباس.

(٢) «مفاتيح الغيب» (٧: ١١٠).

باب الكعبة، فسجدوا معه لفرحهم، ولقد تقابل الاستبشار والاشمزاز؛ إذ كل واحد منهما غاية في بابه؛ لأن الاستبشار: أن يمتلئ قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرته وجهه ويتهلل. والاشمزاز: أن يمتلئ غمًا وغيظًا حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه. فإن قلت: ما العامل في ﴿وَإِذَا ذُكِّرَ﴾؟ قلت: العامل في «إذا» المفاجأة، تقديره: وقت ذكر الذين من دونه، فاجأوا وقت الاستبشار.

[قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾]

بعل رسول الله ﷺ بهم، وبشدة شكيمتهم في الكفر والعناد، فقيل له: ادع الله بأسمائه العظمى، وقل: أنت وحدك تقدر على الحكم بيني وبينهم، ولا حيلة لغيرك فيهم. وفيه وصف لحالهم، وإعذار لرسول الله ﷺ، وتسلية له، ووعيد لهم.

قوله: (العامل في «إذا» المفاجأة)، أي: العامل في «إذا ذُكِّرَ» هو العامل في «إذا» المفاجأة، وهو «فاجؤوا»، الأول ظرف، والثاني مفعول به، أي: فاجؤوا في وقت الذكر وقت الاستبشار، ومنه الحديث: «بيننا نحن عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل»^(١)، أي: فاجأنا في زمان جلوسنا عند رسول الله ﷺ وقت طلوع الرجل.

قوله: (بعل)، الأساس: بعل بالأمر: إذا عي به.

قوله: (وفيه وصف لحالهم) إلى آخره، يعني: سيق الكلام في الأمر بالدعاء في الأسماء الحسنى، والأمر بالتفويض في الحكم بينهم إلى الله تعالى، وأدمج فيه معان أربعة:

أحدها: قوله: ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ﴾ دل على الاختصاص؛ لأنه من قبيل: أنت عرفت، وأفاد أنه تعالى هو وحده يحكم بينهم، فدل ذلك على شدة شكيمتهم في الكفر والعناد، وهو كناية. وثانيها: اعتذار لرسول الله ﷺ؛ لأن هذا القول إنما يصدر عن من بذل وسعه فيها وجب

(١) أخرجه مسلم (٨) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وعن الربيع بن خثيم، وكان قليل الكلام: أنه أخبر بقتل الحسين رضي الله عنه، وسخط على قاتله، وقالوا: الآن يتكلم، فما زاد على أن قال: آه أو قد فعلوا؟! وقرأ هذه الآية. وروي: أنه قال على أثره: قُتل من كان ﷺ يجلسه في حجره ويضع فاه على فيه.

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ، لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ * وَبَدَأَهُمْ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿ ٤٧-٤٨ ﴾

﴿ وَبَدَأَهُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ وعيدٌ لهم لا كُنه لفظاعته وشدته، وهو نظير قوله في الوعد:

عليه، أي: أبلغت وأديت ما عليك، بقي الآن على من هو أحكم الحاكمين هو وحده يحكم بينهم.

وثالثها: تسلية له صلوات الله عليه؛ لأنه كان حريصًا على إيمان القوم، ﴿ لعلك باخع نفسك على آثارهم ﴾ [الكهف: ٦]، وهذه الآية كالمُتَارَكَةِ والمُؤَادَعَةِ واليأس من إيمانهم، واليأس إحدى الراحتين.

ورابعها: وعيدٌ لهم، ولا وعيد بعده، فقوله: ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ دَلٌّ على القدرة التامة، وقوله: ﴿ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ على العلم الشامل، وأنه عالم بما ظهر منهم وما بطن، فيجازيهم عليها، وقوله: ﴿ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ ﴾ على القضاء الحق والحكم العدل، والله أعلم.

قوله: (كما قال: ﴿ وَحَرِّزُوا سِنِّيَّ سِنِّيَّ مِثْلَهَا ﴾)، لم يُرَدُّ أنه مثله في المشاكلة، بل أنه مثله في إطلاق السبب على المسبب.

قوله: (وعن الربيع بن خثيم)، وفي «سير السلف»^(١): هو: الربيع بن خثيم الكوفي، وهو من العباد السبعة، مات سنة ثلاث وستين.

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ ﴾ [السجدة: ١٧]، والمعنى: وظَهَرَ لَهُمْ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ مَا لَمْ يَكُنْ قَطُّ فِي حِسَابِهِمْ وَلَمْ يُحَدِّثُوا بِهِ نَفْسَهُمْ. وقيل: عَمِلُوا أَعْمَالًا حَسِبُوهَا حَسَنَاتٍ، فَإِذَا هِيَ سَيِّئَاتٌ. وعن سفيان الثوري: أَنَّهُ قَرَأَهَا، فَقَالَ: وَيْلٌ لِأَهْلِ الرِّيَاءِ، وَيْلٌ لِأَهْلِ الرِّيَاءِ! وَجَزَعُ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ عِنْدَ مَوْتِهِ، فَقِيلَ لَهُ، فَقَالَ: أَخْشَى آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَتَلَاهَا؛ فَأَنَا أَخْشَى أَنْ يَبْدُو لِي مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ أَحْتَسِبْهُ. ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا﴾ أَي: سَيِّئَاتٍ أَعْمَلَهُمُ الَّتِي كَسَبُوهَا. أَوْ سَيِّئَاتٍ كَسَبَهُمْ، حِينَ تُعْرَضُ صَحَائِفُهُمْ، وَكَانَتْ خَافِيَةً عَلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَخْصَنَهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]. وَأَرَادَ بِالسَيِّئَاتِ: أَنْوَاعَ الْعَذَابِ الَّتِي يُجَاوِزُونَ بِهَا عَلَى مَا كَسَبُوا، فَسَاهَا سَيِّئَاتٍ، كَمَا قَالَ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾: وَنَزَلَ بِهِمْ وَأَحَاطَ جَزَاءُ هُرْتُهُمْ.

[فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّتًّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾]

التَّخْوِيلُ: مَخْتَصُّ بِالْتَفْضِيلِ. يُقَالُ: خَوَّلَنِي؛ إِذَا أَعْطَاكَ عَلَى غَيْرِ جَزَاءٍ. ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ أَي: عَلَى عِلْمٍ مِنِّي أَنِّي سَأَعْطَاهُ؛ لِإِمَّا فِيَّ مِنْ فَضْلٍ وَاسْتِحْقَاقٍ. أَوْ: عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ بِي وَبِاسْتِحْقَاقِي. أَوْ: عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ الْكُتُوبِ، كَمَا قَالَ قَارُونَ: ﴿عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]. فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ ذُكِرَ الضَّمِيرُ فِي ﴿أُوتِيتُهُ﴾؟ وَهُوَ لِلنِّعْمَةِ؟ قُلْتَ: ذَهَابًا بِهِ إِلَى الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿نِعْمَةً مِّتًّا﴾ شَيْئًا مِنَ النِّعْمَةِ وَقِسْمًا مِنْهَا. وَيَحْتَمِلُ أَنْ

قَوْلُهُ: (أَي: عَلَى عِلْمٍ مِنِّي أَنِّي سَأَعْطَاهُ)، هُوَ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ الْمَرْفُوعِ، وَهَذَا مَا أَبْرَرَ الضَّمِيرَ الْمَنْصُوبَ. الْإِنْتِصَافُ^(١): وَلِذَلِكَ تَقُولُ الْقَدْرِيَّةُ: إِنَّ الْإِثَابَةَ عَلَى اللَّهِ وَاجِبَةٌ، يُؤْتَاهَا عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ بِاسْتِحْقَاقِهِ، وَإِنَّمَا سَلِمَ مِنْهَا أَهْلُ السُّنَّةِ الَّذِينَ جَعَلُوا الثَّوَابَ فَضْلًا لَا اسْتِحْقَاقًا.

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٣٣).

تكون «ما» في ﴿إِنَّمَا﴾ موصولة لا كإفّة؛ فيرجع إليها الضمير، على معنى: إن الذي أوتيته على علم. ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ إنكارٌ لقوله، كأنه قال: ما حولناك مِنَ النُّعْمَةِ لِمَا تقول، بل هي فتنة، أي: ابتلاءٌ وامتحان لك، أتشكر أم تكفر. فإن قلت: كيف ذكّر الضمير ثم أنثه؟ قلتُ: حملاً على المعنى أولاً، وعلى اللفظٍ آخرًا؛ ولأنَّ الخَبَرَ لِمَا كان مؤنثًا - أعني: ﴿فِتْنَةٌ﴾ - ساعًا تأنثُ المبتدأ لأجله؛ لأنه في معناه، كقولهم: ما جاءت حاجتُك. وقرئ: (بل هو فتنة) على وَفَق ﴿إِنَّمَا أوتيتُهُ﴾. فإن قلت: ما السببُ في عطفِ هذه الآية بالفاءِ وعطفِ مثلها في أوّلِ السُّورةِ بالواو؟ قلتُ: السببُ في ذلك: أن هذه وقعت مسببةً عن قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ﴾ [الزمر: ٤٥] على معنى: أنهم يشمئزون عن ذكرِ الله ويستبشرون بذكرِ الآلهة، فإذا مسَّ أحدهم ضرٌّ دعا من اشْمَأَزَّ مِنْ ذِكْرِهِ، دونَ من استبشَرَ بذكره، وما بينهما من الآيِ اعتراض. فإن قلت: حقُّ الاعتراضِ أن يؤكّد المُعْتَرَضَ بينه وبينه.

قوله: (ولأنَّ الخَبَرَ لِمَا كان مؤنثًا - أعني: ﴿فِتْنَةٌ﴾ - ساعًا تأنثُ المبتدأ)، هذا الوجه أولى من الأول؛ لأنَّ ابنَ جني^(١) ذكرَ أنه إذا حُوِّمَ على المعنى أولاً لا يحسنُ بعده الحملُ على اللفظِ في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مِمَّا رِيَّبُونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وتبعه المُصنِّف.

قوله: (ما جاءت)، عن بعضهم: «جاء» بمعنى: كان هاهنا، أي: أيُّ شيءٍ كانت حاجتُك؟ ومنه ما روي: سَبَقَ رسولُ اللهِ ﷺ بين الخليل، فجاء قريشُ له سابقًا^(٢). أي: كان قريشُ له سابقًا.

قوله: (أنَّ يُؤكِّدُ المُعْتَرَضَ بينه وبينه)، قيل: الضميرانِ راجعانِ إلى ما يرجعُ إليه الضميرُ في قوله: «وما بينهما من الآيِ»، أي: الاعتراضُ يُؤكِّدُ معنى ما يلحقُه وما يسبقُه،

(١) «المحتسب» (١: ١٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٠) ومسلم (١٨٧٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

ونحوه قولك: قعدتُ بينك وبين زيد، والبيّنُ واحدٌ بالنسبةِ إليك، والنسبةُ إليها مُتَعَدِّرٌ، وعن بعضهم: التقدير: بينه؛ أي: بينَ السَّبَبِ، وهو قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ﴾، وبينه؛ أي: بينَ المُسَبَّبِ، وهو قوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ﴾، وقوله: «بينه» مُتَعَلِّقٌ بقوله: «اعتراض» فالهاءُ في بينه وبينه راجعٌ إلى السَّبَبِ والمُسَبَّبِ.

وقلت: أما تلخيصُ التَّسْبِيبِ، وكانهم لشدّةِ عِنَادِهِمْ وإبائِهِمْ عن الحقِّ المَحْضِ جَعَلُوا اشْمِئزَّازَهُمْ عن ذِكْرِ اللَّهِ وحده واستبشَّارَهُمْ بِذِكْرِ الْغَيْرِ غَرَضًا في أن إذا مَسَّهُمْ ضُرٌّ دَعَوْا اللَّهَ دونَ الْغَيْرِ، على مِثْوَالِ ﴿فَاللَّفِطَّةُ مَا لَمْ يَرْعَوْكَ لِيَكُونَ لَهُمُ عَدُوًّا﴾ [القصص: ٨]، فحكى اللهُ تعالى عنهم ذلك إنكارًا وتعجيبًا. ثم أمرَ حبيبه صلواتُ اللهُ عليه بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أن يُسْتَعِ عَلَيْهِمْ ذلك على سبيلِ التَضَرُّعِ، ويُظَهِّرَ بأنه لا يُجدي فيهم إنذاره واجتهاده، ويقول: لا يحكم بيني وبين هؤلاء الذين يجترئون عليك هذه الجرأة إلا أنت، وجعلَ هذا الدُّعَاءَ مُعْتَرِضًا بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ؛ اهتِامًا به وتوكيدًا للوعيد، ثم إن جُعِلَ ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عامًا كانتِ الآيةُ اعْتِرَاضًا بعدَ اعْتِرَاضٍ، وإذا جُعِلَ من إقامةِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ إشعارًا بِالْعِلِّيَّةِ كَانَ اسْتِطْرَاقًا بعدَ اعْتِرَاضٍ.

وأما تلخيصُ العطفِ فإنه تعالى أخبرَ عن وَعِيدِهِ لِلْمُشْرِكِينَ، وأنه غنيٌّ عنهم بسببِ كُفْرَانِهِمْ، ثم أخبرَ عن حَالِ مُطَلِّقِ الْإِنْسَانِ، وأن جِبِلَّتَهُ على أنه إذا مَسَّهُ الضُّرُّ رَجَعَ إلى اللَّهِ، وإذا مَسَّهُ الْخَيْرُ أَظْهَرَ الْبَطْرَ وَالْأُسْرَ، وعطفه عليه لجامعِ الْكُفْرَانِ وَقِلَّةِ الثَّبَاتِ. وإليه الإشارةُ بقوله: «وما هي إلا جملةٌ ناسبت جملةً قبلها فَعَطَفْتَ عليها»، ويجوزُ أن تكونَ الواوُ اسْتِثْنَائِيَّةً، والجملةُ تذييليةً، ونخصيصةً ذِكْرَ الْإِنْسَانِ فِي الْآيَةِ الْآخِرَةِ من إقامةِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ للتلويحِ إلى قوله تعالى: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْثَرُ﴾ [عبس: ١٧]. ما أَلْطَفَ هذا التقريرِ، ولهذا قالَ تعريضًا بنفسه: «وهذه الأسرارُ والنكتُ لا يُبرِّزُها إلا عِلْمُ النظمِ - أي: العالمُ بالنظم - وإلا بقيت مُحْتَجِبَةً في أكمالِها»، لله دَرَهُ.

قالَ صاحبُ «الانصافِ»: هذا كلامٌ فافهمه فإنه عزيز، وقيل: يُمكنُ أن يُقالَ: المعنى المفهومُ من المجموعِ، وهما الدُّعَاءُ عِنْدَ الضُّرِّ، وتركُ الدُّعَاءِ عِنْدَ تَحْوِيلِ النعمةِ، هو المُسَبَّبِ،

قلت: ما في الاعتراض من دعاء رسول الله ﷺ ربِّه بأمرٍ منه وقوله: أنتَ تحكُم بينهم، ثم ما عقبه من الوعيد العظيم: تأكيدٌ لإنكارِ اشمئزازهم واستبشارهم ورجوعهم إلى الله في الشدائدِ دونَ أهتيمهم، كأنه قيل: قل: يا ربَّ لا يحكُم بيني وبين هؤلاء الذين يجترئون عليك مثل هذه الجراءة، ويرتكبون مثل هذا المنكرِ إلا أنت. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الزمر: ٤٧] مُتناوِلٌ لهم ولكلِّ ظالمٍ إن جعل مُطلقاً، أو إياهم خاصّةً إن عنيتهم به، كأنه قيل: ولو أنّ هؤلاء الظالمين ما في الأرضِ جميعاً ومثله معه لافتدوا به حين أحكُم عليهم بسوءِ العذاب. وهذه الأسرارُ والنكتُ لا يُبرزها إلا علمُ النظم، والابقيتُ مُحْتَجِبةً في أكمامها. وأمّا الآيةُ الأولى فلم تقع مُسبِّبة، وما هي إلا جملةٌ ناسبتُ جملةً قبلها فعطفُ عليها بالواو، كقولك: قام زيدٌ وقعد عمرٌو. فإن قلت: من أيِّ وجهٍ وقعت مُسبِّبة، والاشمئزازُ عن ذِكْرِ الله ليس بمقتضىٍ لالتجاءهم إليه، بل هو مُقتضىٌ لصدوفهم عنه؟ قلتُ: في هذا التسبيحِ لطفٌ، وبيانهُ: أن تقولَ: زيدٌ مؤمنٌ بالله، فإذا مسَّه ضرُّ التجأ إليه، فهذا تسبيحٌ ظاهرٌ لا لبسَ فيه، ثم تقولَ: زيدٌ كافرٌ بالله، فإذا مسَّه ضرُّ التجأ إليه، فتجيءُ بالفاءِ مجيئك به ثمةً، كأنَّ الكافرَ حين التجأ إلى الله التجاءً المؤمنِ إليه، مقيمٌ كُفْرَه مقامَ الإيِّمانِ، ومُجرِّيه مجراه في جعله سبباً في الالتجاء، فأنت تحكي ما عكس فيه الكافر. ألا ترى أنك تقصِّدُ بهذا الكلامِ الإنكارَ والتعجيبَ من فعله؟

فكان اشمئزاه عن ذِكْرِ الله وحده واستبشاره عند ذِكْرِ الذين من دونه سببٌ أن لا يذكره إلا عند الاضطرار، ويتركه عند النعمة^(١).

وقلت: يُؤيِّدُ هذا التأويلَ إقامةُ المظهرِ موضعِ المضمَرِ في ﴿قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، أي: المُستغَلونَ بِلذاتِ الدنيا وشهواتها.

قوله: (لصدوفهم)، أي: إعراضهم.

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٣٤).

﴿قَدْ قَالَمَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَتُولَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠-٥٢﴾

الضمير في ﴿قَالَمَا﴾ راجع إلى قوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ، عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الفصص: ٧٨]، [الزمر: ٤٩]؛ لأنها كلمة أو جملة من القول. وقرئ: (قد قاله) على معنى القول والكلام، وذلك. و﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: هم قارون وقومه، حيث قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ، عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [الفصص: ٧٨]، وقومه راضون بها، فكانهم قالوها. ويجوز أن يكون في الأمم الخالية آخرون قائلون مثلها، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا ويجمعون منه. ﴿مِنْ هَتُولَاءِ﴾: من مشركي قومك ﴿سَيُصِيبُهُمْ﴾ مثل ما أصاب أولئك، فقتل صناديدهم بيد، وحبس عنهم الرزق، ففحطوا سبع سنين، ثم بسط لهم فمطروا سبع سنين، فقيل لهم: ﴿أَوْلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أنه لا قابض ولا باسط إلا الله عز وجل؟

﴿قُلْ يَتَعَبَّدُونَ الَّذِينَ أَنْسَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٥٣]

﴿أَنْسَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾: جنوا عليها بالإسراف في المعاصي والغلو فيها ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾

قوله: (على معنى القول والكلام، وذلك)، هذه ألفاظٌ تُستعمل في تأويل المؤنث الراجع إليه ضمير المذكر، قال ابن جنِّي^(١) في قول الشاعر:

مثل الفراخ نفت حواصله

أي: حواصل ذلك أو حواصل ما ذكرنا^(٢).

(١) «المحتسب» (٢: ١٥٣).

(٢) هذه الفقرة سقطت من (ط).

قُرئ: بفتح النون وكسرها وضمها. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ يعني بشرط التوبة، وقد تكرر ذِكْرُ هذا الشرط في القرآن، فكان ذِكْرُه فيما ذُكر فيه ذِكْرًا له فيما لم يُذكر فيه؛ لأنَّ القرآن في حُكْمِ كلامٍ واحد، ولا يجوزُ فيه التناقض. وفي قراءة ابن عباس

قوله: (لأنَّ القرآنَ في حُكْمِ كلامٍ واحد، ولا يجوزُ فيه التناقض)، يعني: يُحمَلُ هذا المُطلَقُ على ذلك المُقيَّد ليتفقا. قال صاحبُ «الفرائد»: ما ذُكِرَ من التناقض غيرُ لازم؛ لأنَّ من ذُكِرِ المغفرةُ بعدَ التوبة لا يلزمُ عدمُ حصولِ المغفرةِ بدونها، وما ذُكِرَ من الدلالة على أنها شرطٌ فيها لازمٌ لا يحصلُ بدونه ممنوع؛ لأنَّ غايةَ ما يُفهمُ من قوله: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ وجوبُ الإنابة، وقوله: «وإنما ذُكِرَ الإنابةُ على أثرِ المغفرة»؛ لأنَّ الآخرَ يُشعرُ بأنَّ ذُكْرَ الشيء بعدَ الشيء يُوجبُ توقُّفَ الأولِ على الثاني، وهو ظاهرُ البطلان.

وقلت: مرادُ المُصنِّفِ من قوله: «قد تكررَ ذُكْرُ هذا الشرطِ في القرآن»: أنه كُلُّ موضعِ ذُكْرٍ فيه نحوُ قوله: ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ﴾ قيَّده بقوله: ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾، وهو قيدٌ للتوبة، يدلُّ عليه استشهادهُ بقراءة ابن عباس: «يغفرُ الذنوبَ جميعًا لمن يشاء»، ومن ذلك في «آل عمران» قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] تفسيرٌ بيِّنٌ لـ «من يشاء»، وأنهم المتوبُ عليهم أو الظالمون، وقوله في النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] قال: كأنه قيل: «إنَّ الله لا يغفرُ لمن يشاء الشرك، ويغفرُ لمن يشاء ما دونَ الشرك»، على أنَّ المرادَ بالأول: مَنْ لم يتب، وبالثاني: مَنْ تاب، ونحوهما. وقد بيَّنا وجهَ ضَعْفِ كُلِّ ما ذكر.

وأما الذي يقولُ هاهنا في قوله: «وإنما ذُكِرَ الإنابةُ على أثرِ المغفرةِ للدلالة على أنه شرطٌ فيها»، فإنه حزمٌ للنظم المُعجز؛ لأنه تعالى لَمَّا وَبَّخَ المُشركينَ وأطنَبَ الكلامَ فيه وأرعدَ وأبرقَ، عقبه بخطابِ العامِّ بقوله: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ استعطافًا وترغيبًا غبَّ ترهيب، والمرادُ بالإسراف: جميعُ ما ينطوي تحتَ هذا الاسمِ من التفریطِ الصادرِ من الكافرينَ والمؤمنينَ، والمقصودُ الأولي: الكافرون وما كانوا عليه من أمورِ الجاهلية.

يؤيِّدهُ قوله: «وقيل: قالَ أهلُ مكَّة» إلى آخره، وكانَ قوله: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا﴾ عطفًا على قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾، واعتراضٌ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ

وابن مسعود: (يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء)، والمراد بمن يشاء: مَنْ تاب؛ لأنّ مشيئة الله تابعة لحكمته وعدله، لا لملكه وجبروته. وقيل: في قراءة النبي ﷺ وفاطمة رضي الله عنها: (يغفر الذنوب جميعاً ولا يُبالي)،

عليه قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ على سبيل العموم للتعليل اهتماماً واعتناءً بشأن الترغيب إلى الإنابة، وإخلاص العمل لله تعالى.

ونظير موقِع هذا الاعتراض قوله: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وسبق تقريره ومناسبته للآية.

قال القاضي: تقييد ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ بالتوبة خلاف الظاهر، ويدل على إطلاقه فيما عدا الشرك: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، والتعليل بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ على المبالغة وإفادة الحصر، والوعد بالرحمة بعد المغفرة، وتقديم ما يستدعي عموم المغفرة بها في (عبادي) من الدلالة على الذلّة والاختصاص المقتضيين للترحم، وتخصيص ضرر الإسراف بأنفسهم، والنهي عن القنوط عن الرحمة مطلقاً فضلاً عن المغفرة وإطلاقها، وتعليله بـ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، ووضع اسم «الله» موضع الضمير لدلالته على أنه المستغني والمنعم على الإطلاق، والتأكيد بـ «الجميع». وما روي من أسباب النزول لا ينفي عمومها، وكذا قوله: ﴿وَأَنْبِيَا﴾ فإنها لا تدل على حصول المغفرة لكل أحد بالتوبة^(١).

قوله: (يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي)، جاء في «مسند الإمام أحمد بن حنبل» و«سنن الترمذي»^(٢) عن أساء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَعْبَادِ الَّذِينَ آتَرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولا يبالي.

وقلت: معناه: لا يبالي بما تقول المعتزلة: إن التوبة شرط، لأنه تحجر للواسع، وإن مشيئة الله تابعة لحكمته وعدله، لا لملكه وجبروته، لأن عدم المبالاة من الجبروت.

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٥٦٩) والترمذي (٣٢٣٧).

ونظيرُ نفي المبالاة نفي الخوف في قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥]. وقيل: قال أهل مكة: يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له، فكيف ولم يهاجر وقد عبدنا الأوثان وقتلنا النفس التي حرم الله؟! فنزلت. ورؤي: أنه أسلم عيَّاش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونقرَّ معها، ثم فتنوا وعذبوا، فافتنوا، فكنا نقول: لا يقبل الله لهم صرِّفاً ولا عدلاً أبداً؛ فنزلت، فكتب بها عمر رضي الله عنه إليهم، فأسلموا وهاجروا. وقيل: نزلت في وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه. وعن رسول الله ﷺ: «ما أحبُّ أنِّي الدنيا وما فيها بهذه الآية»، فقال رجل: يا رسول الله،

قوله: (ونظيرُ نفي المبالاة) عن بعضهم: الظاهر أن نظيرَ نفي مقول «قيل»، والواو فيه حكاية ما في لفظ القائلين، مثل قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ [الشمس: ٢٠]، والواو فيه.

قوله: (وقيل: نزلت في وحشي قاتل حمزة)^(١)، روى محيي السنة^(٢) عن ابن عباس: «بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي يدعوه إلى الإسلام، فأرسل إليه: كيف تدعوني إلى دينك، وأنت تزعم أنه من قتل أو أشرك أو زنى يلقى أثاماً يُصاعف له العذاب، وأنا قد فعلت ذلك كله؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، فقال وحشي: أراني بعد في شبهة، فلا أدري يغفر لي أم لا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِي﴾ الآية. فقال وحشي: نعم، هذا، فجاء وأسلم، فقال المسلمون: هذا له خاصة أم للمسلمين عامة؟ فقال: بل للمسلمين عامة».

قوله: (ما أحبُّ أنِّي الدنيا وما فيها بهذه الآية) الحديث، مثله رواه الإمام أحمد بن حنبل^(٣) عن ثوبان رضي الله عنه، والباء في «بهذه» بدليّة، والواو في «ومن أشرك» عاطفة، والمعطوف عليه: ما دلَّ عليه كلام الرسول المعني: «ما أحبُّ أن أملك الدنيا وما فيها بدلَّ

(١) انظر: «جامع البيان» (٢٠: ٢٢٥).

(٢) «معالم التنزيل» (٧: ١٢٥).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٣٦٢) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩: ٣٣٩) والطبراني في «المعجم الأوسط»

(١٧٤) (١٨٩) والرويان في «المسند» (١: ٤٢٣).

وَمَنْ أَشْرَكَ؟ فَسَكَتَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا وَمَنْ أَشْرَكَ» ثلاثَ مرّات.

[﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ * وَأَنِيبُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَأً أَيَّتِي فَكَّذَّبَتْ بِهَا وَأَسْتَكْبَرَتْ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ٥٤-٥٩]

﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾: وتوبوا إليه ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾: وأخلصوا له العمل، وإنما ذَكَرَ الإِنَابَةَ عَلَىٰ أَثَرِ الْمَغْفِرَةِ؛ لِثَلَا يَطْمَعُ طَامِعٌ فِي حُصُولِهَا بِغَيْرِ تَوْبَةٍ، وَلِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهَا

هذه الآية؛ لَأَنَّهُ تَعَالَىٰ مَنْ عَلَىٰ مَنْ أَسْرَفَ مِنْ عِبَادِهِ، وَوَعَدَهُمْ أَنَّهُ يَغْفِرُ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ جَمِيعًا، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَمَنْ أَشْرَكَ، وَهُوَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَرْفُوعًا، أَي: وَمَنْ أَشْرَكَ أَيضًا مَوْعُودٌ وَمُنْهَىٰ، أَوْ مَنْصُوبًا، أَي: أَوْعَدَ اللَّهُ عِبَادَهُ وَأَوْعَدَ مَنْ أَشْرَكَ، أَوْ مَجْرُورًا، أَي: إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ ذُنُوبَ مَنْ آمَنَ مِنْ عِبَادِهِ وَحَدَهُ، أَوْ ذُنُوبَ مَنْ آمَنَ وَمَنْ أَشْرَكَ. وَهَذِهِ الْوَجُوهُ تَتَرْتَّبُ أَيضًا عَلَىٰ قَوْلِهِ: «أَلَا وَمَنْ أَشْرَكَ».

ولعلَّ الصحابيَّ لَمَّا نَظَرَ إِلَىٰ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿يَتَّبِعَادِي﴾، وَأَنَّ لَهُ مَزِيدَ اخْتِصَاصٍ بِالْمُؤْمِنِينَ خَصَّ الْغُفْرَانَ بِهِمْ، وَلَمَّا تَفَكَّرَ فِي عَمُومِ قَوْلِهِ: ﴿الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ عَنْهُ فَتَرَدَّدَ فَسَأَلَ، وَلِذَلِكَ تَوَقَّفَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ حَتَّىٰ أَوْحِيَ إِلَيْهِ أَوْ اجْتَهَدَ.

قَوْلُهُ: (وَإِنَّمَا ذَكَرَ الإِنَابَةَ عَلَىٰ أَثَرِ الْمَغْفِرَةِ)، الرَّاغِبُ: التَّوْبَةُ: الرَّجُوعُ لِلشَّيْءِ بَعْدَ أُخْرَى قَالَ: نَابٌ تَوْبًا وَتَوْبَةٌ، وَسُمِّيَ النَّحْلُ تَوْبًا لِرَجُوعِهَا إِلَىٰ مَحَلِّهَا، وَنَابَتُهُ نَائِبَةٌ، أَي: حَادِثَةٌ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَتَوَّبَ دَائِبًا. وَالِإِنَابَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى: الرَّجُوعُ إِلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا﴾، وَفُلَانٌ يَتَنَابُ فُلَانًا، أَي: يَقْصِدُهُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى^(١).

شرط فيها لازم لا تحصل بدونه. ﴿وَأَسْمِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ مثل قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨]. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: يفجؤكم وأنتم غافلون، كأنكم لا تحشون شيئاً لقرطِ غفلتكم وسهوكم، ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾: كراهة أن تقول. فإن قلت: لِمَ نُكِّرْتُ؟ قلت: لأن المراد بها بعض الأنفس، وهي نفس الكافر. ويجوز أن يراد: نفس متميزة من الأنفس: إما بلجاج في الكفر شديد، أو بعذابٍ عظيم. ويجوز أن يراد التكثير، كما قال الأعشى:

وَرُبَّ بَقِيعٍ لَوْ هَتَفْتُ بِجَوِّهِ
أَتَانِي كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مُغْضَبًا

قوله: (ويجوز أن يراد التكثير)، ذكر في تنكير ﴿نَفْسٌ﴾ وجوها:

أحدها: قوله: «بعض الأنفس»، أي: بعض من الجنس، ونوع منه، وهو نفس الكافر، بدليل قوله: ﴿لَوْ أَنَّكَ اللَّهُ هَدَيْتَنِي لَكُنْتُ﴾، لأن هذا لا تقوله نفس المؤمن.

وثانيها: أن يكون التنكير للأفراد شخصاً، وهو الكافر الذي علم منه اللجاج في الكفر في الدنيا، أو الكافر الذي شوهد تعذيبه في الآخرة.

وثالثها: أن يكون التنكير للتكثير، لكن على الاستعارة، لأن وضع التنكير ليس للتكثير حقيقة، مثله «كريم» في قوله: «رب بقيع البيت»، يريد: إكثار من يجيب إلى نضرته؛ لأنه في مقام مدح نفسه وكثرة ناصريه، لا أن كريماً واحداً أجابه، وكذا «رب» في قوله: «رُبَّ بَلَدٍ قَطَعْتَ، وَرُبَّ بَطْلٍ قَارَعْتَ» يصف نفسه بأنه جواب للفيافي، ودأبه وعادته مقارعة الأبطال، كقوله:

قَدْ أَتْرَكَ الْقِرْنَ مُضْفَرًا أَنَامِلَهُ

فعل هذا المراد بالنفس: جميع الأنفس المؤمنة والكافرة، ولفظ «أو» في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُ﴾ لتنويع النفس القائلة، لا لتنويع القول.

وأما نظيره التنكير في ﴿نَفْسٌ﴾ بـ«رُبَّ» فلأنها موضوعان للتقليل، وقد استعملوا في التكثير مجازاً.

قوله: (ورُبَّ بَقِيعٍ) البيت، قبله:

وهو يريد: أفواجاً من الكرام يَنْصرونه، لا كريماً واحداً. ونظيره: رَبِّ بَلَدٍ
قَطَعْتُ، وَرَبِّ بَطَلٍ قَارَعْتُ،

وقد أختلس الطعنة

ولا يُقصدُ إلا التكثر. وقرئ: ﴿بِحَسْرَتِي﴾ على الأصل، و(يا حسرتاي) على

دعا قومه حولي فجاؤوا لنصره وناذيتُ قوماً بالمسناة غيباً

المسناة: العرم، والبقيع: موقعٌ فيه أرومُ الشجر من ضروبِ شتى، ومنه سُمِّيَ بقيعُ
الغرقَد، وهو مقبرةُ المدينة، والغرقَد: شجرٌ كريم، أي: كرامٌ كثيرون، والتنكيرُ ينفُصُّ
الرأس، أي: يُحرِّكُه غضباً، يشكو من قومه ويُلْهِهِمْ حينَ قعدوا عن نصره.

قوله: (وقد أختلس الطعنة)، تمامه:

لا تدمي لها نضلي

والبيتُ لامرئٍ القيس بن عابس، قال المرزوقي: أما في قوله: «بضربة لم تكن مني
مخالسة» فهو على خلاف قول الآخر: «وقد أختلس الضربة لا تدمي لها نضلي»، لأنه قصدَ
الشاعرُ هنا إلى أنه تناوَلَ من خَصْمِهِ ما تناوَلَ من تثبيتِ وقوةِ قلب، لا كما يفعلُه الجبان، ثم
ذكرَ تمكُّنه من خَصْمِهِ على شِدَّةِ احتِرازِ منه حتى تناول ما تناوَلَه خلْساً، وقد وُصِفَ الشجاعُ
بالمُخالِسِ والخلِيسِ، ومن مدحَ خصمه ثم ذكرَ غلبته عليه، كان أبلغَ في الافتخارِ به.

قوله: (وقرئ: ﴿بِحَسْرَتِي﴾^(١) على الأصل)، وهي المشهورة، قال ابنُ جني^(٢): قرأ أبو
جعفر: «يا حسرتاي» وفيها إشكال؛ لأنَّ الألفَ فيه بدلٌ من ياء «يا حسرتي» هرباً من ثقلِ
الياءِ إلى خِفَّةِ الألفِ، نحو: يا غلامي، وكان ينبغي أن لا يُؤتى بياءِ المُتكلِّمِ بعدَ الألفِ؛ لئلا
يجتمعَ العَوْضُ والمُعَوِّضُ منه، ومثله: ما أنشدَه أبو زيد:

إني إذا ما حَدَثَ أَلْمَا دَعَوْتُ يَا اللَّهُمَّ يَا اللَّهُمَّ

فجمعَ بينَ «يا» النداءِ والميمِ، وإنما الميمُ عَوْضٌ من «يا» النداءِ، ويُمكنُ أن يُقالَ: إنَّ

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٢٧١).

(٢) «المحتسب» (٢: ٢٣٧).

الجمع بين العَوْضِ والمُعَوِّضِ منه. والجَنْبُ: الجانب، يقال: أنا في جَنْبِ فلان وجَانِبِهِ وناحِيَتِهِ، و: فلانٌ لِيَنْ الجَنْبِ والجانب، ثم قالوا: فَرَطَ في جَنْبِهِ وفي جَانِبِهِ، يريدون: في حَقِّهِ. قال سابقُ البَرَبْرِيُّ:

أَمَا تَتَّقِينَ اللَّهَ فِي جَنْبِ وَاِمِقِ لَهُ كَيْدٌ حَرَى عَلَيْكَ تَقَطُّعُ؟

وهذا من باب الكِنْيَةِ؛ لأنك إذا أثبتَّ الأمرَ في مكانِ الرَّجُلِ وحاوِيَه، فقد أثبتَّه فيه، ألا ترى إلى قوله:

المُفَرِّطُ لَمَّا شَاهَدَ نَتِيجَةَ كِمَالِ تَفْرِيطِهِ فِيهَا يُنْجِيهِ مِنْ ذَلِكَ الْهَوْلِ، وَنَهَايَةَ خَيْبَتِهِ مِنَ الْفَوْزِ وَالْفَلَاحِ، تَصَجَّرَ وَتَفَجَّعَ وَمَدَّ صَوْتَهُ، كَمَا يَفْعَلُ الْمَلْهُوفُ، فَنَزَلَ الْأَلْفَ مَنْزِلَةَ نَفْسِ الْكَلِمَةِ، وَالْحَقُّ الْيَأَى الْمُعَوِّضَ بِهِ، أَوْ أَنَّهُ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ ذَهَلْ فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ. نَحْوُهُ ذَكَرَ الْمُصَنِّفُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَاذَا أُجِئْتُمْ قَالُوا لَا أَعْلَمْنَا﴾.

قوله: (أنا في جَنْبِ فلانٍ وجَانِبِهِ وناحِيَتِهِ)، الراغب: أصلُ «الجانب»: الجارحة، ثم يُسْتَعَارُ لِلنَّاحِيَةِ الَّتِي تَلِيهَا، كَعَادَتِهِمْ فِي اسْتِعَارَةِ سَائِرِ الْجَوَارِحِ لِذَلِكَ، نَحْوُ: الْيَمِينِ وَالشِّمَالِ. قال الشاعر:

مِنْ عَنِ يَمِينِي مَرَّةً وَأَمَامِي

وقيل: جنب الحائض وجانبه، ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ [النساء: ٣٦]، أي: القريب، وقوله تعالى: ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أي: أمره الذي حُدِّدَ لَنَا، وَوُئِيَ مِنَ الْجَنْبِ الْفِعْلُ، نَحْوُ: جَنْبَتُهُ وَأَجْنَبْتُهُ وَاجْتَنَبْتُهُ، وَمِنْهُ: ﴿وَالْجَارِ الْجَنْبِ﴾ [النساء: ٣٦] ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، وَجَنْبُ فُلَانٍ خَيْرًا وَجَنْبُ شَرًّا، وَإِذَا أُطْلِقَ فَقِيلَ: جَنْبُ فُلَانٍ، فَمَعْنَاهُ: أَبْعَدَ عَنِ الْخَيْرِ، وَذَلِكَ يُقَالُ فِي الدُّعَاءِ وَفِي الْخَيْرِ، وَسُمِّيَتِ الْجَنْبَةُ بِذَلِكَ، لِكُونِهَا سَبَبًا لِتَجَنُّبِ الصَّلَاةِ فِي حُكْمِ الشَّرْعِ، وَالْجَنْبُوبُ: يَصْحُحُ أَنْ يُعْتَبَرَ فِيهَا مَعْنَى الْمَجِيءِ مِنْ جَنْبِ الْكَعْبَةِ، وَيُعْتَبَرُ مَعْنَى الذَّهَابِ عَنْهُ؛ لِأَنَّ الْمَعْنِيَيْنِ مَوْجُودَانِ^(١).

قوله: (لأنك إذا أثبتَّ الأمرَ في مكانِ الرَّجُلِ [وَحَاوِيَه]، فقد أثبتَّه فيه)، على الطريق

(١) «المفردات في غريب القرآن»، ص ٢٠٥.

إِنَّ السَّاحَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّدَى فِي قُبَّةِ ضُرَيْبَتِ عَلِيِّ بْنِ الْحَشْرَجِ؟

ومنه قولُ الناس: لمكانك فعلتُ كذا، يريدون: لأجلِك، وفي الحديث: «مِنْ الشَّرِكِ الْخَفِيِّ أَنْ يُصَلِّيَ الرَّجُلُ لِمَكَانِ الرَّجُلِ»، وكذلك: فعلتُ هذا مِنْ جِهَتِكَ. فمن حيثُ لم يَبْقَ فرقٌ فيما يرجعُ إلى أداءِ الغرضِ بين ذِكْرِ المكانِ وتَرْكِه، قيل: ﴿فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾، على معنى: فرطتُ في ذاتِ الله. فإن قلتَ: فمرجعُ كلامك إلى أَنَّ ذِكْرَ الجَنبِ كَلَامٌ ذِكْرٍ سِوَى مَا يُعْطَى مِنْ حُسْنِ الكِنَايَةِ وَبِلاغَتِهَا، فكأنه قيل: فرطتُ في الله؛ فما معنى فرطتُ في الله؟ قلتُ: لا بدَّ من تقديرِ مضافٍ محذوفٍ، سواءً ذُكِرَ الجَنبُ أو لم يُذكَر. والمعنى: فرطتُ في طاعةِ الله وعبادةِ الله، وما أشبهَ ذلك. وفي حرفِ عبدِ الله وحفصة: (في ذِكْرِ اللهِ). و«ما» في ﴿مَا فَرَطْتُ﴾ مَصْدَرِيَّةٌ مِثْلُهَا فِي ﴿بِعَمَارِ حَبَّتِ﴾ [التوبة: ٢٥]. ﴿وَإِنْ كُنْتُ لِمَنْ السَّخِرِينَ﴾ قال قتادة: لم يَكْفِهِ أَنْ ضَيَّعَ طَاعَةَ اللهِ حَتَّى سَخِرَ مِنْ أَهْلِهَا. ومحلُّ ﴿وَإِنْ كُنْتُ﴾ على النصبِ على الحال، كأنه قال: فرطتُ وأنا ساخرٌ، أي: فرطتُ في حالِ سُخْرِيَّتِي. ورُوي: أنه كان في بني إسرائيلَ عالمٌ تَرَكَ عِلْمَهُ وَفَسَقَ، وَأَتَاهُ إبليسُ، وقال له: تمتعُ من الدنيا ثم تُب، فأطاعه، وكان له مالٌ فأنفقه في الفُجور، فأتاه ملكُ الموتِ في اللدِّ ما كان، فقال: يا حَسْرَتاهِ على ما فرطتُ في جَنبِ اللهِ، ذَهَبَ عُمري في طاعةِ الشيطانِ، وأسخطتُ ربِّي. فندمَ حين لم ينفعه الندمُ، فأَنزَلَ اللهُ حَبْرَهُ في القرآن. ﴿لَوْ أَنَّكَ اللهُ هَدَيْتَنِي﴾ لا يَخْلُو: إمَّا أَنْ يُرِيدَ الهِدايَةَ بِالْإِجَاءِ أو بِالِإِطَافِ أو بِالوَحْيِ: فالإِجَاءُ خَارِجٌ عَنِ الحِكْمَةِ، ولم يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الإِطَافِ

البرهاني، كما أنَّ زياداً الأعجمَ جعلَ السَّاحَةَ والمُرُوءَةَ والنَّدَى المُعْرَفَةَ بتعريفِ الجنسِ في مكانِ ابنِ الحَشْرَجِ، أي: في قُبَّةِ مَضْرُوبَةٍ عَلَيْهِ في قولهِ:

إِنَّ السَّاحَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّدَى فِي قُبَّةِ ضُرَيْبَتِ عَلِيِّ بْنِ الْحَشْرَجِ

فأفاد اختصاصها به بأبلغ وجه، يعني: إذا رُمَتْها لم تجد حصّةً منها خارجةً عن هذا المكان. وعن بعضهم: إنها سُمِّيَ الشاعرُ بالأعجمَ للثغة؛ كان يُبدلُ السَّيْنَ شَيْئاً، والطاءُ تاءً.

فِيُلَطَّفَ بِهِ، وَأَمَّا الْوَحْيُ فَقَدْ كَانَ، وَلَكِنَّهُ أَعْرَضَ وَلَمْ يَتَّبِعْهُ حَتَّى يَهْتَدِيَ، وَإِنَّمَا يَقُولُ هَذَا تَحْيِيرًا فِي أَمْرِهِ وَتَعْلَامًا بِهَا لَا يُجِدِي عَلَيْهِ، كَمَا حُكِيَ عَنْهُمْ التَّعَلُّلُ بِإِغْوَاءِ الرُّسَاءِ وَالشَّيَاطِينِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَنَحْوُهُ ﴿لَوْ هَدَيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَكُمُ﴾ [إبراهيم: ٢١]، وَقَوْلُهُ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَآئِنِّي﴾ رَدٌّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ، مَعْنَاهُ: بَلَىٰ قَدْ هُدَيْتَ بِالْوَحْيِ فَكَذَّبْتَ بِهِ وَاسْتَكْبَرْتَ عَنْ قَبُولِهِ، وَآتَرْتَ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَالضَّلَالََةَ عَلَى الْهُدَى. وَقُرئ بِكسْر التَّاءِ عَلَى مَخَاطَبَةِ النَّفْسِ. فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قُرِنَ الْجَوَابُ بِهَا هُوَ جَوَابٌ لَهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَوْ أَنبَأَ اللَّهُ هَدَيْنِي﴾ وَلَمْ يُفْصَلْ بَيْنَهَا بِآيَةٍ؟ قُلْتُ: لِأَنَّهُ لَا يَخْلُو: إِمَّا أَنْ يُقَدَّمَ عَلَى أُخْرَى الْقُرَائِنِ.....

قَوْلُهُ: (لأنه لا يخلو إما أن يُقَدَّمَ عَلَى إِحْدَى الْقُرَائِنِ)، وَفِي أَكْثَرِ النُّسخِ (١): «أُخْرَى الْقُرَائِنِ»، وَهِيَ أُبَيْنُ وَأَكْشَفُ، وَمَعْنَى «إِحْدَى» وَإِنْ كَانَتْ عَامَّةً إِلَّا أَنَّهُ يُرِيدُ بِهَا غَيْرَ الْأُولَى؛ لِأَنَّ الْجَوَابَ لَا يَتَقَدَّمُ. قَالَ صَاحِبُ «التَّقْرِيبِ»: إِنَّمَا لَمْ يَقْرَنَ «بَلَىٰ» بِهَا هُوَ جَوَابٌ لَهُ، وَهُوَ: ﴿أَنبَأَ اللَّهُ هَدَيْنِي﴾، لِأَنَّهُ لَوْ أُخِّرَ ﴿لَوْ أَنبَأَ اللَّهُ هَدَيْنِي﴾ انْتَقَضَ التَّرْتِيبُ بَيْنَ التَّحَسُّرِ، ثُمَّ التَّعَلُّلِ، ثُمَّ تَمَنَّى الرَّجْعَةَ، وَلَوْ وَسَطَ «بَلَىٰ» لِيَقْتَرِنَا تَبَرُّ النِّظْمِ بِالْفُضْلِ بَيْنَ الْقُرَائِنِ.

وَقَالَ الْقَاضِي: فَصَلَ الْجَوَابَ عَنِ السُّؤَالِ، لِأَنَّ تَقْدِيمَهُ يُفَرِّقُ الْقُرَائِنِ، وَتَأْخِيرُ الْمُرُودِ يُخِلُّ بِالنِّظْمِ الْمُطَابِقِ لِلْوُجُودِ؛ لِأَنَّهُ يَتَحَسَّرُ بِالتَّفْرِيطِ، ثُمَّ يُعَلِّلُ بِفَقْدِ الْهُدَايَةِ، ثُمَّ يَتَمَنَّى الرَّجْعَةَ، وَهُوَ لَا يَمْنَعُ تَأْثِيرَ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي فِعْلِ الْعَبْدِ، وَلَا مَا فِيهِ مِنْ إِسْنَادِ الْفِعْلِ إِلَيْهِ (٢).

وَقُلْتُ: مُرَادُ الْمُصَنِّفِ أَنَّهُ لَمْ يَقْرَنَ قَوْلُهُ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَآئِنِّي﴾ مَعَ قَوْلِهِ: ﴿لَوْ أَنبَأَ اللَّهُ هَدَيْنِي﴾ وَهُوَ جَوَابُهُ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قُرِنَ بِهِ لَا يَخْلُو: إِمَّا أَنْ يُقَدَّمَ الْجَوَابُ عَلَى أُخْرَى الْقُرَائِنِ الثَّلَاثِ، يَعْنِي: قَوْلُهُ: ﴿أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾، لِأَنَّ أُولَى الْقُرَائِنِ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِنَحْسَرَتِي﴾، وَثَانِيَتُهَا: ﴿أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنبَأَ اللَّهُ هَدَيْنِي﴾، وَآخِرُهَا: ﴿أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾، وَإِنَّمَا كَانَتْ قُرَائِنٌ؛ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهَا مُصَدَّرَةٌ بِالْقَوْلِ، وَمُرْتَبَةٌ عَلَى تَرْتِيبٍ أُنِيقَ، أَوْ

(١) وكذا في الأصل الخطي الذي بين أيدينا من «الكشاف».

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٧).

تُوخَّرَ الوسطى، أي: قوله: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾، عن الأخرى، وهي: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾، فلا يحسن الأول؛ لِمَا يُلْزَمُ منه الافتراقُ بينَ الأقوالِ الثلاثةِ المُنتظمة، واختلاطُ كلامِ الغيرِ بها، ولا الثاني وإن انتظمتِ الأقوال، واتصلَ الجوابُ بالسؤال؛ لِمَا يُلْزَمُ منه تفكيكُ الترتيبِ من حيثِ المعنى، وهو أولى بالمُراعاةِ من اللفظ؛ لأنَّ التحسُّرَ مُقدِّمٌ على التعلُّلِ، وهو على التمني؛ لأنَّ النفسَ عندَ رؤيةِ أهوالِ القيامةِ ترى الناسَ مجزيينَ بأعمالهم تَتَحَسَّرُ على تفوتها عليها، ثم قد يتعلَّلُ بأن لم يكنِ التقصيرُ مني، فلو هداني اللهُ لكنتُ من المُتقين، فإذا تفكَّرَ وَعَلِمَ أن التقصيرَ كانَ منه يَتَمَنَّى الرجوعَ لتلافي ما فَوَّته ﴿وَلَا تَحِينَ مَنَاصِرٍ﴾، فلو قَدَّمَ شيءٌ من ذلك لا ينقضُ اللتنام.

وقلت - والله أعلم -: قد مرَّ أن الخطابَ بقوله: ﴿يَعِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ عامٌّ شاملٌ للمُسرِّفينَ كُلِّهم، وأنَّ المقصودَ الأوليَّ منهم المُشركون، وكذلك قوله: ﴿وَأَسْلِمُوا﴾ هو المطلوبُ الأوليُّ، وأنَّ التنكيرَ في ﴿نَفْسٍ﴾ يجوزُ أن يكونَ للتكثيرِ، فكأنه قيل: قل: يا عبادي الذين فرطت منهم سقطاتٌ لا تقنطوا من رحمتي، وأنبيوا وأسلموا، وأتبعوا ما أنزلت إليكم، أي: أجمعوا كُلُّكم على الرجوعِ إلى الله بالتوبة، وأحدثوا الإسلام، وافرئوا بها الأعمالَ الصالحةَ من قبل أن يفجأكم ما يفوتُ عليكم، ففتترقُ كُلُّ نفسٍ بما يلزمها من طائرها في عُقْبِها، فتقولُ النفسُ المُفْرطة: يا حسرتي على ما فرطتُ في طاعةِ الله، وقصرتُ عن مُتابعةِ ما أنزلَ اللهُ تعالى، والحالُ أني سَخِرْتُ. وتقولُ النفسُ الكافرةُ المُكذِّبة: لو أن اللهُ هداني، أي: دعاني إلى الإسلام، لكنتُ من الذين اجتنبوا عن الشرك، وتقولُ النفسُ الأبيئةُ المُعْرِضة: لو أن لي كَرَّةً فأكونَ من الذين أحسنوا في الرجوعِ إلى الله والإنابة، فيقالُ لكلُّ واحدٍ منهما: أيُّها المُكذِّبة، بلى قد جاءتكِ آياتي فكذبتِ بها، أي: دعوناكِ إلى الإسلام، فاستكبرتِ واستمررتِ على كُفْرِكَ، حيثُ كنتِ من زُمرَةِ الكاملينَ في الكفر. ولهذا ذَكَرَ الضميرَ في: ﴿جَاءَ تَكَ﴾، ولم يُؤنثها باعتبارِ النفسِ، فظهرَ أن «أو» العاطفةَ لتنويحِ الأُنفسِ، أو بمعنى «بل».

أنشدَ الجوهري:

بَدَتْ مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِي رَوْثِقِ الضُّحَى وَصَوْرَتُهَا أَوْ أَنْتَ فِي الْعَيْنِ أَمْلَحُ

والكلام مُرْتَبِطٌ بقوله: ﴿يَعْبَادِي﴾، وهذا كُله عند إنزالِ البأس، وحين لم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا، لقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ﴾ الآية، وأما يوم القيامة يوم تَبَيُّضُ وجوهٍ وتَسْوُدُ وجوه، فترى من بين الأنفس الذين كذبوا على الله الكاملين في الكفر وجوههم مُسَوِّدَةٌ، وإنما خصَّها بالذكر لما سبق أن الكلام واردٌ فيه، فينطبق على هذا قوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، وقوله من قبل: ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾، ثم يُنَجِّي اللهُ الذين اتقوا من الشرك بفلاحهم من الإيمان، وبالتصديق في العاقبة على حَسَبِ مراتبهم وأعمالهم بفضله وكرمه من تسويد الوجوه ومن الثوي في جهنم؛ لأنهم ما كذبوا بآيات الله وما استكبروا وما كانوا من زُمرة الكافرين.

وظهر أيضًا بهذا النظم السري أن قوله: «لا يبعد عنهم قومٌ يُسْفِهونه بفعل القبائح، وتجوز أن يخلق خلقًا لا لغرض، ويُؤلِّم لا لغرض، ويظلمونه بتكليف ما لا يُطاق، ويُجسِّمونه بكونه مرثيًا معانيًا» إلى آخره، بعيدٌ عن المرام، وينبؤ عنه المقام.

وقال صاحب «الانتصاف»^(١): الزمخشريُّ عدا طوره، فنقيم عليه حد الرد، أما نسبة أهل السنة إلى أنهم ينسبون القبائح إلى الله تعالى، فلم ينسبوا إليه قبيحًا، فإن التصرفات في الملك لا توصف بالقبح. وأما المعتزلة فيقولون: ليس خالق كل شيء، ويكذبون؛ لأن الأفعال شيء، لقوله بعيد هذا: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ويقولون: الله يخلق لا لغرض، لأنه الفعَّال لما يشاء، وعندهم أنه تعالى ليس فعَّالًا لما يشاء، لأن الفعل إما مُنطَوِّع على مصلحة فيجب عليه فعله، أو مفسدة فيجب عليه تركه، فأين أثر المشيئة له؟!

وأما اعتقاد تكليف ما لا يُطاق تظليماً؛ فباطل؛ لأنه من لازم خلق الله، ولازم الحق حق، وإنما الظلم التصرف في ملك الغير بغير إذنه.

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٣٨).

الثلاثِ فيفَرِّقَ بينهمَ، وأما أن تُؤخَّرَ القرينةُ الوسطى، فلم يَحْسِنِ الأوَّلُ؛ لِما فيه من تَبْتِيرِ النِّظْمِ بِالْجَمْعِ بَيْنَ الْقَرَائِنِ. وأما الثاني: فليما فيه من نَقْضِ الترتيب؛ وهو التَحَسُّرُ على التفریطِ في الطاعة، ثم التعلُّلُ بِفَقْدِ الهداية، ثم تَمْنِي الرَّجعة، فكان الصوابُ ما جاءَ عليه؛ وهو أنه حكى أقوالَ النَّفسِ على ترتيبها ونَظْمِها، ثم أجابَ مِن بينها عَمَّا اقتضى الجوابَ. فإن قلت: كيف صحَّ أن تَقَعَ ﴿بَلَى﴾ جواباً لِغَيْرِ منفي؟ قلتُ: ﴿لَوْ أَنِ اللَّهُ هَدَانِي﴾ فيه معنى: ما هُديت.

[﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [٦٠]

﴿كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ وَصَفوه بها لا يجوزُ عليه تعالى، وهو مُتعالٍ عنه، فأضافوا إليه الولدَ والشريك، وقالوا: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا﴾ [يونس: ١٨]، وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقالوا: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]، ولا يبعدُ عنهم قومٌ يسفِّهونه بفعل القبائح، وتجوزُ أن يخلَقَ خَلْقاً لا لِعَرَضٍ، ويؤلِّمَ لا لِعَوَضٍ،

وقوله: «ويجوزون الأليم لا لعوض»؛ فما يقولُ في إيلام البهائم والأطفال، وليس بسببِ سابق، ولا في البهائم لثوابِ لاحق.

وأما الرؤية التي دلَّ عليها قوله ﷺ الصادق المصدوق: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته»^(١)؛ فنصُّ لا يقبلُ التأويل بالتهاويل، والتستُّرُ بالبلْكَفة سترٌ لا تسترٌ، وليس كالتَهْتِكُ بالباطل الذي اعتمَدَه، وتعريضُه بأنهم أثبتوا قدماً لكونهم أثبتوا لله صفات الكمال، كلا والله ما جعلَ له أنداداً إلا القَدَرِيَّةُ الذين جعلوا نفوسهم يخلقون ما يريدون على خلافِ مُرادِ ربِّهم، حتى شاءَ اللهُ ما لم يكن، وكان ما لم يشأ، فَمَنْ أثبت من صفاتِ الله ما شهد به كتابُه وسُنَّةُ رسوله، فلا طعنَ عليه، ولو كرهَ المُبْطِلون. وأما إثباتُ القَدَمِ واليَدِ والجنبِ ففريفة، ولم يَقُلْ بهذا أحدٌ من أهل السُنَّةِ، وإنما أثبتت

(١) أخرجه البخاري (٥٥٤) ومسلم (٦٣٣) عن جرير بن عبد الله.

وَيُظَلِّمُونَهُ بِتَكْلِيفٍ مَا لَا يَطَاقُ، وَيُجَسِّمُونَهُ بِكَوْنِهِ مَرْتَبًا مُعَايِنًا مُدْرَكًا بِالْحَاسَّةِ، وَيُثَبِّتُونَ لَهُ يَدًا وَقَدَمًا وَجَنْبًا مُتَسَتِّرِينَ بِالْبَلْكَفَةِ، وَيَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا بِإِثْبَاتِهِمْ مَعَهُ قُدَمَاءً. ﴿وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَةٌ﴾: جملة في موضع الحال إن كان ﴿تَرَى﴾ من رُؤْيَةِ الْبَصْرِ، ومفعول ثانٍ إن كان من رُؤْيَةِ الْقَلْبِ.

[﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٦١]

قُرئ: (يُنَجِّي) و﴿وَيُنَجِّي﴾، ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾: بفلاحهم، يقال: فازَ بكذا؛ إذا أفلَحَ به وظَفَرَ بِمُرادِهِ منه. وتفسيرُ المفازة: قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، كأنه قيل: ما مفازتهم؟ فقيل: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾، أي: يُنجيهم بنفي السوء والحزن عنهم. أو: بسبب منجاتهم، من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾

القاضي^(١) صفاتٍ سَمْعِيَّةٍ وردت في القرآن، ولم يتجاوزوا في إثباتها على ما وردت به السُّنَّةُ، وغيره حمل اليد على النعمة والقدرة، والوجه على الذات، فلا وَجْهَ لِإِسَاءَةِ أَدَبِهِ.

قوله: (و﴿وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَةٌ﴾ جملة في موضع الحال)، قال صاحب «الكشف»: واستغنى عن الواو لمكان الضمير^(٢). وقال الزجاج^(٣): يجوز ﴿وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَةٌ﴾ على البَدَلِ من ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا﴾، أي: ترى وجوه الذين كذبوا على الله مُسْوَدَةٌ.

قوله: (أو بسبب منجاتهم)، عطف على قوله: «بفلاحهم». الأساس: نَجَوْتُ مِنْهُ نَجَاةً، وَنَجَانِي اللَّهُ، وَأَنْجَانِي، وَهُوَ مَنْجَاةٌ مِنَ السَّيْلِ. قال الباهلي:

فهل تاوي إلى المنجاة أني أخافُ عليك مُعتلجَ السَّيْلِ

(١) يعني أبا بكر الباقلاني، والكلام لابن المنير، وقد صرح بأنه القاضي أبو بكر، فاخصره المؤلف، وقد يُتوهم أنه القاضي البيضاوي كما هو منهج المؤلف في إطلاقه، لكنَّ محلَّ ذلك فيما كان من كلام المؤلف لا من نقله عن غيره، فتنبه.

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١١٦٥)، بتحقيق د. محمد الدالي، و(٢: ٢٧٤) بتحقيق

د. عبد القادر السعدي.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٦٠).

أَلْعَذَابِ ﴿ [آل عمران: ١٨٨] أي: بِمَنْجَاةٍ مِنْهُ؛ لِأَنَّ النِّجَاةَ مِنْ أَعْظَمِ الْفَلَاحِ، وَسَبَبُ مَنْجَاتِهِمُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ؛ وَهَذَا فَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْمَفَاذَةَ بِالْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ. وَيَجُوزُ: بِسَبَبِ فَلَاحِهِمْ؛ لِأَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ سَبَبُ الْفَلَاحِ؛ وَهُوَ دُخُولُ الْجَنَّةِ. وَيَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِي نَفْسِهِ مَفَاذَةً؛ لِأَنَّهُ سَبَبُهَا. وَقُرئ: (بِمَفَاذَاتِهِمْ) عَلَى أَنَّ لِكُلِّ

وَاعْلَمَ أَنَّ «مَفَاذَتِهِمْ» قَدْ فَسَّرَ أَوْلَا بِفَلَاحِهِمْ حَقِيقَةً، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «يُقَالُ: فَازَ بِكَذَا؛ إِذَا ظَفَرَ بِمُرَادِهِ». وَقَالَ فِي «الْأَسَاسِ»: طَوْبَى لِمَنْ فَازَ بِالثَّوَابِ، وَفَازَ مِنَ الْعِقَابِ، أَي: ظَفَرَ وَنَجَا. وَثَانِيًا: بِالنِّجَاةِ مَجَازًا، وَلِذَلِكَ عَلَّلَهُ بِقَوْلِهِ: «لِأَنَّ النِّجَاةَ مِنْ أَعْظَمِ الْفَلَاحِ»، وَقَالَ فِي «الْأَسَاسِ»: وَمِنَ الْمَجَازِ: الْمَفَاذَةُ، سُمِّيَتْ بِاسْمِ النِّجَاةِ عَلَى سَبِيلِ التَّفَاوُلِ، وَفَوَّرَ الْمُسَافِرُ: رَكَبَ الْمَفَاذَةَ وَمَضَى فِيهَا. وَلَسَّامَ يَسْتَبَّ بِمَعْنَى السَّبَبِ بِهَذَا التَّفْسِيرِ قَالَ: «وَسَبَبُ مَنْجَاتِهِمْ الْعَمَلُ الصَّالِحُ»، وَرَجَعَ الْمَعْنَى إِلَى قَوْلِهِ: «يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِسَبَبِ مَنْجَاتِهِمْ»، الْمُسَبَّبُ عَنِ الْعَمَلِ، فَهُوَ مَجَازٌ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ. وَثَالِثًا: بِالْفَلَاحِ الْمُفَسَّرِ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ الْمُسَبَّبِ عَنِ الْعَمَلِ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْوَجْهِ السَّابِقِ، فَالْفَلَاحُ عَلَى الْأَوَّلِ هُوَ النِّجَاةُ مِنَ الْعَذَابِ، وَعَلَى هَذَا: الظَّفَرُ بِالْمُرَادِ. وَرَابِعًا: بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، لَكِنْ فِي الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى؛ لِأَنَّ الْفَوْرَ وَالْفَلَاحَ مُتْرَادِفَانِ.

وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ «مَفَاذَتِهِمْ» عَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي كِنَايَةٌ تَلْوِيحِيَّةٌ؛ لِأَنَّ «الْمَفَاذَةَ» الَّتِي هِيَ الْفَلَاحُ دَلَّتْ عَلَى النِّجَاةِ، وَالنِّجَاةُ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَعَلَى الثَّالِثِ: كِنَايَةٌ رَمَزِيَّةٌ؛ لِأَنَّهُ اسْتَدَلَّ بِفَلَاحِهِمْ الْمُفَسَّرِ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ عَلَى وَجُودِ الْعَمَلِ، وَعَلَى الرَّابِعِ: مَجَازٌ مُرْسَلٌ مِنْ إِطْلَاقِ الْمُسَبَّبِ عَلَى السَّبَبِ.

وَقِيلَ: قَوْلُهُ: (وَيَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى) إِلَى آخِرِهِ، تَأَكِيدُ لِإِرَادَةِ الْعَمَلِ بِالْمَفَاذَةِ، لِأَنَّهَا سَبَبُهَا، وَلَيْسَ بِشَيْءٍ.

قَوْلُهُ: (وَقُرئ: «بِمَفَاذَاتِهِمْ»)، أَبُو بَكْرٍ وَحَمْزَةٌ، وَبِالْبَاقُونَ: ﴿بِمَفَاذَاتِهِمْ﴾^(١) بِغَيْرِ أَلْفٍ. قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: الْإِفْرَادُ لِلْمَصْدَرِ وَالْجَمْعُ؛ لِأَنَّ الْمَصَادِرَ قَدْ تَجَمُّعَتْ إِذَا اخْتَلَفَتْ أَجْنَاسُهَا.

(١) انظر: «حجة القراءات»، ص ٦٢٤ و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٢٧٤).

مَتَّقٍ مَفَازَةً. فَإِنْ قُلْتَ: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾ ما محلُّه من الإعراب على التفسيرين؟ قلتُ: أمّا على التفسير الأول: فلا محلَّ له؛ لأنه كلامٌ مُستأنف. وأمّا على الثاني: فمحلُّه النصبُ على الحال.

[﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٢-٦٣﴾]

قولُه: (على التفسيرين)، أحدهما: أن تكون الباءُ في ﴿بِمَقَارِئِهِمْ﴾ حالاً أو صلة؛ نحو: كتبتُ بالقلم، والمرادُ بالمفازة: الفلاحُ والفوزُ بالمطلوب وإدراكُ السعادة الأزلية. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] إشارةٌ إلى هذا المعنى.

نقل الواحدي عن المُبرِّد أنه قال: المفازة: مفعلةٌ من الفوز، وهو السعادة، وإن جُمِعَ فحَسَنَ، كقولك: السعادةُ والسعادات. والمعنى: يُنجيهمُ اللهُ بفوزهم - أي: بنجاتهم - من النار، وفوزهم بالجنة^(١). تمَّ كلامه.

ولمّا كان اهتمامُ شأنِ المُتقين حينئذٍ التفادي عما لحقَ المُكذِّبين على الله من سوادِ الوجوه والثويِّ في جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أوقع قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بياناً له، فظهرَ أن المُتقين هم المُصدِّقون الذين تَوَاضَعُوا وَأَخْبَتُوا لِلَّهِ، والمرادُ بـ«السُّوء»: سوادُ الوجوه، وبـ«الْحَزَنُ»: الثواءُ في جهنم.

والثاني: أن يُراد بـ«المفازة»: العملُ على الوجوه المذكورة، والباءُ: للتسبُّب، و﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾ حال، والمعنى: ويُنجي اللهُ الذين اتقوا بسبب أعمالهم غيرِ مُلتبسِينَ بالسُّوءِ والحزن، فقوله: «لا محلَّ له؛ لأنه كلامٌ مُستأنف» إشارةٌ إلى قوله: «كأنه قيل: وما مفازتهم؟ فقيل: لا يمسُّهم السُّوء».

(١) «تفسير الوسيط» (٣: ٥٩٠).

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو مالك أمرها وحافظها، وهو من باب الكناية؛ لأنَّ حافظَ الخزان ومديرَ أمرها هو الذي يملك مقاليدها، ومنه قولهم: فلان ألقبت إليه مقاليد الملك؛ وهي المفاتيح، ولا واحد لها من لفظها، وقيل: مقليد، ويقال: إقليد، و: أقاليد، والكلمة أصلها فارسية. فإن قلت: ما للكتاب العربي المبين وللفارسية؟ قلت: التعريب أحالها عريية، كما أخرج الاستعمال المهمل من كونه مهملاً. فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾؟ قلت: بقوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [الزمر: ٦١]، أي ينجي الله المتقين بمفازتهم، والذين كفروا هم الخاسرون. واعترض بينهما بأنه خالق الأشياء كلها، وهو مهيمنٌ عليها فلا يخفى عليه شيءٌ من أعمال المكلفين فيها وما يستحقون عليها من الجزاء، وقد جعل متصلاً بما يليه على أن كل شيء في السماوات والأرض فالله خالقه وقاتح بابه.

قوله: (أي: هو مالك أمرها وحافظها)، قال القاضي: أي: لا يتمكن من التصرف فيها غيره، وهو كناية عن قدرته وحفظه لها، وفيها مزيد دلالة على الاختصاص؛ لأن الخزان لا يدخلها ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتيحها^(١). وفي قوله: «مزيد دلالة على الاختصاص» إشارة إلى أن التقديم للاختصاص أيضاً.

قوله: (بقوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ﴾)، أي: قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ متصلاً بقوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ على سبيل التقابل لتضاد بين مفردات الجملتين من حيث المعنى.

قال القاضي: وتغير النظم للإشعار بأن العمدة في فلاح المؤمنين فضل الله، وفي هلاك الكافرين بأن خسروا أنفسهم، والتصريح بالوعد والتعريض بالوعد قضية الكرم^(٢).

قوله: (وقد جعل متصلاً بما يليه)، عطف على قوله: «فقوله»، أي: اتصل بقوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ﴾، وقد جعل متصلاً بقوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٧).

(٢) المصدر السابق (٥: ٤٨).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَجَحَدُوا أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ .
 وقيل: سأل عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رسولَ الله ﷺ عن تفسيرِ قوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ﴾، فقال: «يا عثمان، ما سألتني عنها أحدٌ قبلك، تفسيرُها: لا إله إلا الله،
 والله أكبر، وسبحانَ اللهِ وبحمده، وأستغفرُ الله، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله، هو
 الأوَّلُ والآخِرُ والظاهرُ والباطن، بيده الخيرُ يُحيي ويُميتُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ»،
 وتأويلُه على هذا: أن لله هذه الكلمات يُوحِّدُ بها ويمجِّدُ، وهي مفاتيحُ خيرِ السماواتِ
 والأرضِ، مَنْ تكلمَ بها من المتقين أصابَه، والذين كفروا بآياتِ الله وكلماتِ توحيدِه
 وتمجيدِه، أولئك هم الخاسرون.

[﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ٦٤]

﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ منصوب بـ ﴿أَعْبُدُ﴾ . و﴿تَأْمُرُونِي﴾ اعتراض . ومعناه: أغيرَ الله
 أعبدُ بأمركم؟ وذلك حين قال له المشركون: استلمِ بعضَ آلهتنا ونؤمنُ بِالْهَلِكِ . أو
 يُنصَبُ بما يدلُّ عليه جملةُ قوله: ﴿تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ﴾؛ لأنه في معنى: تُعبدونني وتقولون

وقلت: هذا الثاني أوفقُ لتأليفِ النظم؛ لأنَّ قوله: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ من جنسِ قوله تعالى فيما سبق: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ
 اللَّهَ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، وفاصلة تلك: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾،
 ليكونَ كالتخلُّصِ إلى قوله: ﴿قُلْ يَتَعْبَادُونَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾، كما أنَّ فاصلةَ هذا: ﴿وَالَّذِينَ
 كَفَرُوا يَحْيَاتُ اللَّهُ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ كالتخلُّصِ إلى ما بُدئَ به السُّورة، وشحنت
 منه؛ من حديثِ الأمرِ بالعبادة بالإخلاصِ ونفيِ الشرك، وهو قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي
 أَعْبُدُ﴾ .

وأما معنى الاعتراض فإنَّ قوله: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيه معنى إثباتِ القُدرةِ والعلم، وهما المُصحَّحانِ للبعثِ والحشر،
 وعند ذلك يُوفى جزاءُ المُحْسِنِ والمُسيءِ؛ فهو لذلك مُؤكِّدٌ لمعنى الكلامِ السابقِ واللاحقِ .
 قوله: (لأنه في معنى: تُعبدونني)، أي: الجملتان في تأويل: «تعبدونني»، بمعنى: تقولون

لي: اعبُدْ، والأصلُ: تأمروني أن أعبُدَ، فحُذِفَ «أن» ورُفِعَ الفعلُ، كما في قوله:

أَلَا أَيُّهَا الزَّاجِرِيُّ أَحْضُرُ الْوَعَى

ألا تراك تقولُ: أغيرُ اللهَ تقولون لي: اعبُدْ، و: أغيرَ اللهَ تقولون لي: أعبُدُ؟
فكذلك: أغيرُ اللهَ تأمروني أن أعبُدْ، و: أغيرَ اللهَ تأمروني أن أعبُدَ، والدليلُ على

لي: اعبُدْ؛ ليرجع المعنى إلى قولك: أغيرَ اللهَ تقولون لي: اعبُدْ؛ على الإضمارِ على شريطة التفسير، أغيرَ اللهَ تقولون لي: اعبُدْ؛ بلا ضميرٍ على التقديم، وأصله: أفتقولون: اعبُدْ غيرَ الله. يجوزُ أن يُقال: أغيرَ اللهَ تأمروني أن أعبُدْ، وأغيرَ اللهَ تأمروني أن أعبُدَ. ففيه التفادي عما حَظَرَه أبو البقاء، بأنه يُفْضَى إلى تقديم الصلَّةِ على الموصولِ، أو يلزُمُ حذفُ الموصولِ وبقاءُ صلَّتهِ.

وحاصلُ الوجهين: أن «غيرَ الله» منصوبٌ بـ ﴿أَعْبُدْ﴾، ويحجرُه ظاهرُ ﴿تَأْمُرُونِي﴾
لِإِذَا يَسْتَدْعِي تَقْدِيرِ: «أن»، فيلزمُ المحذُورُ السابق، فيُجْعَلُ ﴿تَأْمُرُونِي﴾: إما اعتراضاً؛ لثَلَا
تُقَدَّرَ «أن»، أو أن تُجْعَلَ الجملةُ بمعنى: تقولون لي: اعبُدْ؛ لِيَتَنَصَّبَ بـ ﴿أَعْبُدْ﴾ هَاهُنَا، لِأَنَّ
الْقَوْلَ لَا يَسْتَدْعِي «أن»، كما يَسْتَدْعِي الأَمْرَ. أما قَوْلُهُ: «ألا تراك تقول» إلى آخره؛ فتعليلُ
لتصحيحِ ﴿تَأْمُرُونِي أَعْبُدْ﴾ بقوله: تقولون لي: اعبُدْ.

وقال أبو البقاء: ويجوزُ أن يكونَ منصوباً بـ ﴿تَأْمُرُونِي﴾، و﴿أَعْبُدْ﴾ بدلاً منه، والتقديرُ:
قل: أفتأمرُوني بعبادةِ غيرِ الله، وهو بَدَلُ الاشتِمالِ، ومن باب: أمرتُكَ الخَيْرُ^(١). ورواه صاحبُ
«الكشف» عن أبي عليٍّ، وقال: هو الصوابُ، وليس «غيره» الخبرُ، وقيل: إن «غير» منصوبٌ
يفعل محذوفٌ، أي: فتُلزِمُوني غيرَ الله، وفسره ما بعده^(٢).

قوله: (والأصل: تأمروني أن أعبُدَ)، قال أبو البقاء: وقد ضَعَفَ هذا الوجهُ حيثُ
كَانَ التَّقْدِيرُ: أن أعبُدَ، فعندَ ذلك يُفْضَى إلى تقديم الصلَّةِ على الموصولِ. وليس بشيء؛ لأنَّ

(١) «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ١١١٣).

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١١٦٧) بتحقيق د. محمد الدالي و(٢: ٢٧٤-٢٧٥) بتحقيق د. عبد

صَحَّةُ هَذَا الْوَجْهِ: قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ (أَعْبَدَ) بِالنَّصْبِ.

وَقُرئ: (تَأْمُرُونَنِي) عَلَى الْأَصْلِ؛ وَ﴿تَأْمُرُونَنِي﴾، عَلَى إِدْغَامِ النَّونِ أَوْ حَذْفِهَا.

[﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ

الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [٦٥-٦٦]

«أَنْ» لَيْسَتْ فِي اللَّفْظِ، وَلَا تُفَيِّ عَمَلُهَا، فَلَوْ قَدَّرْنَا بَقَاءَ حُكْمِهَا؛ لِأَفْضَى إِلَى حَذْفِ الْمَوْصُولِ وَبَقَاءِ صِلَتِهِ؛ وَذَلِكَ لَا يَجُوزُ إِلَّا فِي ضَرُورَةِ الشَّعْرِ^(١).

وَرَوَى صَاحِبُ «الْكَشْفِ»^(٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ: «أَنْ» هَاهُنَا لَمَّا حُذِفَتْ بَطَلَ حُكْمُهَا، وَلَوْ كَانَ حُكْمُ «أَنْ» بَاقِيًا لَوَجَبَ نَصْبُ «أَعْبَدَ»، وَلَمْ يَقْرَأْ بِهِ أَحَدٌ^(٣).

قَوْلُهُ: (وَقُرئ: «تَأْمُرُونَنِي» عَلَى الْأَصْلِ)، ابْنُ عَامِرٍ وَنَافِعُ: بِنُونٍ وَاحِدَةٍ مُخَفَّفَةٍ، وَبِالْبَاقُونَ: بِوَاحِدَةٍ مُشَدَّدَةٍ^(٤). قَالَ صَاحِبُ «الْكَشْفِ»: مَنْ قَرَأَ بِالتَّخْفِيفِ حَذَفَ إِحْدَى النُّونَيْنِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَمِمَّنْ تُنْشِرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَتُحْجَجُونَ فِي اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٨٠]، وَقَوْلِ عَمْرٍو:

يَسُوءُ الْفَالِيَاتِ إِذَا فَلَّنِي

أَي: فَلَّنِي. وَأَنْكَرَ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ بَعْضُهُمْ، وَمَنْ أَنْكَرَ مِثْلَ هَذَا حَرَّمَ عَلَيْهِ الشَّرْعُ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَالنَّظَرُ فِي كَلَامِ الْأُمَّةِ، وَشَهِدَ بِيْلَادِيهِ^(٥).

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١١٣).

(٢) من قوله: «عن أبي علي وقال: هو الصواب» إلى هنا، سقط من (ط).

(٣) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١١٦٦)، بتحقيق د. محمد الدالي، و(٢: ٢٧٤-٢٧٥) بتحقيق د. عبد القادر السعدي.

(٤) انظر: «حجة القراءات» ص ٦٢٥، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٢٧٦).

(٥) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١١٦٨)، بتحقيق د. محمد الدالي و(٢: ٢٧٥) بتحقيق د. عبد القادر السعدي.

قُرئ: ﴿لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾، و﴿لِيُحْبِطَنَّ﴾ على البناء للمفعول، و﴿لِيُحْبِطَنَّ﴾ بالنون والياء، أي: لِيُحْبِطَنَّ اللهُ، أو الشَّرْكُ. فَإِنْ قُلْتَ: الموحى إليهم جماعة، فكيف قال: ﴿لَيْنَ أَشْرَكَتَ﴾ على التوحيد؟ قلتُ: معناه: أُوْحِيَ إِلَيْكَ: لئنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ، وإلى الذين مِنْ قَبْلِكَ مثله، أو: أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ: لئنْ أَشْرَكَتَ، كما تقول: كَسَانَا حُلَّةً، أي: كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا. فَإِنْ قُلْتَ: ما الفرقُ بين اللامَيْنِ؟ قلتُ: الأولى مُوطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ المَحذُوفِ، والثانية: لَامُ الجَوَابِ، وهذا الجواب سَادٌّ مَسَدُّ الجَوَابَيْنِ، أعني: جَوَابِي الْقَسَمِ والشَّرْطِ. فَإِنْ قُلْتَ: كيف صَحَّ هذا الكلامُ مع عِلْمِ اللهُ أَنَّ رُسُلَهُ لَا يُشْرِكُونَ وَلَا تَحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ؟ قلتُ: هو على سبيلِ الفرض، والمُحَالَاتُ يَصْحَحُ فَرْضُهَا لِأَغْرَاضٍ، فكيف بها ليس بِمُحَالٍ؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]؟ يَعْنِي على سبيلِ الإلْجَاءِ، وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِامْتِنَاعِ الدَّاعِي إِلَيْهِ وَوَجُودِ الصَّارِفِ عَنْهُ. فَإِنْ قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾؟ قلتُ: يَحْتَمَلُ: وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ بِسَبَبِ حُبُوطِ الْعَمَلِ. وَيَحْتَمَلُ:

قوله: (قُرئ: ﴿لِيَحْبِطَنَّ﴾)، بفتح الياء والباء: المشهورة، والباقي: شواذ.

قوله: (هو على سبيلِ الفَرْضِ)، والمرادُ به: تَهْيِيجُ الرُّسُلِ وإِقْنَاطُ الكَفَرَةِ، وإِطْلَاقُ الإِحْبَاطِ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ خِصَائِصِهِمْ؛ لِأَنَّ شِرْكَهَمْ أَقْبَحُ، أَوْ يَكُونَ عَلَى التَّقْيِيدِ بِالموتِ، كما صَرَّحَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ، فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وَعَطْفُ: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ مِنْ عَطْفِ المُسَبَّبِ عَلَى السَّبَبِ.

قوله: (ولن يكون ذلك)، أي: مشيئة الإيِّانِ على القَسْرِ والإلْجَاءِ، لِامْتِنَاعِ الدَّاعِي إِلَى القَسْرِ والإلْجَاءِ؛ لِأَنَّ بِنَاءَ التَّكْلِيفِ عَلَى الإِخْتِيَارِ وَوَجُودِ الصَّارِفِ، وَهُوَ الحِكْمَةُ، لِأَنَّ المَشِيئَةَ عَنْدَهُ تَابِعَةٌ لِلحِكْمَةِ؛ لِأَنَّ الحَكِيمَ لَا يَقْسِرُ عَلَى الكَفْرِ، ثُمَّ يُعَذِّبُ عَلَيْهِ.

قوله: (ما معنى قوله: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾؟)، أي: لِمَ أَطْلَقَهُ؟ وَلِذَلِكَ قِيدَ فِي الجَوَابِ تَارَةً بِقَوْلِهِ: ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بِسَبَبِ حُبُوطِ الْعَمَلِ، فَعَطْفُ ﴿وَلَتَكُونَنَّ﴾ عَلَى

ولتكوننَّ في الآخرة من جُملة الخاسرين الذين خَسروا أَنفُسَهُمْ إن مَتَّ على الرِّدَّةِ.
ويجوزُ أن يكونَ غضبُ الله على الرسولِ أشدَّ، فلا يُمهله بعد الرِّدَّةِ: ألا ترى إني قوِّنه:
﴿ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ [الإسراء: ٧٥]؟ ﴿ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ ﴾:
ردُّ لما أمروه به مِن استلامِ بعضِ آهتِهِمْ، كأنه قال: لا تعبدُ ما أمركَ بعبادته، بل إن
كنتَ عاقلاً فاعبدِ الله، فحذِفَ الشَّرْطُ وجُعِلَ تقديمُ المفعولِ عَوْضاً منه. ﴿ وَكُنْ مِنَ

﴿ لِيَحْطَرَ ﴾ من باب عَطْفِ المُسَبَّبِ على السَّبَبِ، كقوله تعالى: ﴿ وَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ
عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [النمل: ١٥]، على رأي صاحب «المفتاح»^(١)، وأخرى بقوله: ﴿ فِي
الْآخِرَةِ ﴾ من جُملة الخاسرين الذين خَسروا أَنفُسَهُمْ. وقوله: «ويجوزُ أن يكونَ غَضَبُ الله
على الرسولِ أشدَّ»، فعلى هذا يُتْرَكُ على إطلاقه مُبالغةً، أي: لِيَحْطَرَ عَمَلُكَ وَلِيَتَهَرَّكَ بِلا
مُهْلَةٍ.

قوله: (بل إن كنتَ عاقلاً فاعبدِ الله)، هذا مذهبُ الرَّجَاحِ^(٢). قال مكي^(٣): نصب
«الله» بـ«اعبد»، وقال الفراءُ والكسائيُّ: هو نصبٌ بإضمارِ فعلٍ، تقديرُه: بل اعبدِ الله فاعبدِ،
والفاءُ للمجازاةِ عندَ أبي إسحاقٍ، وزائدةٌ عندَ الأخفشِ.

الانتصاف^(٤): مُقتضى كلامِ سيبويه: أن الأصل: تنبَّه فاعبدِ الله، فحذَفوا الفِعْلَ الأوَّلَ
اختِصارًا، واستنكروا الابتداءَ بـ«الفاء»، ومن شأنها التوسُّطُ، فقَدِّموا المفعولَ، وصارتِ
«الفاءُ» مُتوسِّطَةً لفظًا، ودالَّةً على المحذوفِ، وانضافَ إليها فائدةُ الحصرِ؛ لإشعارِ التقدُّمِ
بالاختصاصِ.

فإن قلت: هَبْ أَنْ الْفَاءَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ ﴾ دَلَّتْ عَلَى إِضْمَارِ الشَّرْطِ، فَمَا الدَّالُّ
عَلَى تَخْصِيصِ «إِنْ كُنْتَ عَاقِلًا» عَلَى رَأْيِ الْمُصَنِّفِ، أَوْ «تَنَبَّه» كَمَا فَهَمَّ صَاحِبُ «الانتصافِ»
مِن كَلَامِ سَيْبَوِيهِ؟

(١) «مفتاح العلوم»، ص ٢٧٨.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٦١).

(٣) «مشكل إعراب القرآن» (٢: ٦٣٣).

(٤) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٤٢).

الشَّاكِرِينَ ﴿ على ما أنعم به عليك من أن جعلك سيِّد ولد آدم. وجوز الفراءُ نَصْبَهُ بِفِعْلِ مُضْمَرٍ هَذَا مَعْطُوفٍ عَلَيْهِ، تَقْدِيرُهُ: بِلِ اللَّهِ أَعْبُدْ فَاعْبُدْ.

[﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۗ سُبْحٰنَهُ ۖ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [٦٧]

لَمَّا كَانَ الْعَظِيمُ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِذَا عَرَفَهُ الْإِنْسَانُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ وَقَدَّرَهُ فِي نَفْسِهِ حَقَّ تَقْدِيرِهِ؛ عَظَّمَهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ قِيلَ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ ﴾. وَقُرِئَ بِالتَّشْدِيدِ عَلَى

قِلْت: ذَلَّ عَلَيْهِ ﴿ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ بِأَعْبَادِ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾، أَي: السُّفَهَاءُ الْخِفَافُ الْأَحْلَامُ، كَأَنَّهُ تَعَالَى حِينَ سَمِعَ أَنَّ رَهْطًا مِنْ قُرَيْشٍ قَالُوا عَلَى نَحْوِ مَا وَرَدَ فِي سُورَةِ الْكَافِرُونَ^(١): يَا مُحَمَّدُ، تَعْبُدُ آلِهَتَنَا سَنَةً، وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً. أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرَدَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿ قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ بِأَعْبَادِ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾، وَحِينَ سَمِعَهُمْ أَيْضًا يَقُولُونَ: اسْتَلِمَ بَعْضُ آلِهَتِنَا، كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ الْمُصَنِّفُ هُنَا، رَدَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ ﴾، يَعْنِي: لَمَّا سَفَهَتْهُمْ فِي ذَلِكَ الرَّدِّ خَصَّ رَبَّكَ بِالْعِبَادَةِ إِنْ كُنْتَ عَاقِلًا، وَاشْكُرْهُ حَيْثُ لَمْ يَجْعَلْكَ مِنْ جِنْسِ مَا هُوَ أَضَلُّ مِنَ الْأَنْعَامِ، وَجَعَلَكَ مِنَ أَفْضَلِ الْخَلْقِ وَأَشْرَفِهِمْ، بَلِ رَفَعَ مَنْزِلَتَكَ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَكَ سَيِّدَ وَوَلَدِ آدَمَ. فَافْهَمْ هَذِهِ الرُّمُوزَ وَالتَّلْوِيحَاتِ، وَتَرَحَّمْ عَلَى الْمُصَنِّفِ فِي إِبْرَازِهِ لِتِلْكَ الْمَحَاسِنِ.

قَوْلُهُ: (وَجَوْزَ الْفَرَاءِ)^(٢) نَصْبَهُ بِفِعْلِ مُضْمَرٍ، وَالتَّقْدِيرُ^(٣): بِلِ اللَّهِ أَعْبُدْ فَاعْبُدْ، قَالَ صَاحِبُ «التَّقْرِيبِ»: غَرَضُهُ أَنْ لَا يَتَقَدَّمَ عَلَى الْفَاءِ مَا فِي حَيْزِهِ.

قَوْلُهُ: (عَظَّمَهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ)، جَوَابُ «إِذَا»، وَقَوْلُهُ: «قِيلَ»: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ جَوَابُ «لَمَّا»، يَعْنِي: لَمَّا تُعْرِفَ وَاشْتَهَرَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ الْعَظِيمَ إِذَا عُرِفَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ عَظُمَ حَقَّ تَعْظِيمِهِ، وَلَمَّا لَمْ يُوجَدْ ذَلِكَ فِي حَقِّ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ ذِي الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْجَلَالِ

(١) انظر: «جامع البيان» (٢٤: ٧٠٣).

(٢) «معاني القرآن» (٢: ٤٢٤).

(٣) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «تقديره».

معنى: وما عَظَمُوهُ كُنْهَ تَعْظِيمِهِ ثُمَّ نَبَّهَهُمْ عَلَى عَظَمَتِهِ وَجَلَالَةِ شَأْنِهِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّخْيِيلِ،
فَقَالَ: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾،

والجبروت، قيل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. والأسلوبُ من باب الكناية؛ لأنَّ تَعْظِيمَكَ
الشيءَ واحْتِرَامَكَ إِيَّاهُ وَقِيَامَكَ بِوَجْهِهِ مُسْتَلْزِمٌ لِتَقْدِيرِكَ إِيَّاهُ فِي نَفْسِكَ حَقَّ تَقْدِيرِهِ، وَهُوَ
مُسْتَلْزِمٌ لِأَنَّ تَكُونَ قَدْ عَرَفْتَهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، فَذِكْرُ اللَّازِمِ الْوَسْطِ، وَأُرِيدُ الْمَلْزُومَ، كَمَا يُقَالُ:
فُلَانٌ نَحَارٌ؛ أَي: مِضْيَافٌ، بَدَلَ مَهْزُولِ الْفَصِيلِ، ظَاهِرُ كَلَامِ الْمُصَنِّفِ عَلَى أَنَّهُ مِنْ إِطْلَاقِ
السَّبَبِ الْمُرَكَّبِ عَلَى الْمُسَبَّبِ، وَأَنَّ قَوْلَهُ: «وَقَدَّرَهُ حَقَّ تَقْدِيرِهِ» عَطْفٌ تَفْسِيرِيٌّ.

قَوْلُهُ: (عَلَى طَرِيقَةِ التَّخْيِيلِ)، وَعَنْ بَعْضِهِمْ: التَّخْيِيلُ: تَصْوِيرٌ حَقِيقَةُ الشَّيْءِ، وَالتَّمْثِيلُ:
تَشْبِيهُ قِصَّةٍ بِقِصَّةٍ، وَالِاسْتِعَارَةُ: تَشْبِيهُ مُفْرَدٍ بِمُفْرَدٍ أَوْ مُرَكَّبٍ بِمُرَكَّبٍ، وَفِيهِ بَحْثٌ.
وَقَالَ الْقَاضِي: فِي الْآيَةِ تَنْبِيهُ عَلَى عَظَمَتِهِ، وَدَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ تَخْرِيْبَ الْعَالَمِ أَهْوَنُ شَيْءٍ عَلَيْهِ
عَلَى طَرِيقَةِ التَّمْثِيلِ وَالتَّخْيِيلِ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارِ الْقَبْضَةِ وَالْيَمِينِ حَقِيقَةً وَلَا جِازًا، كَقَوْلِهِمْ:
شَابَتْ لَمَّةُ اللَّيْلِ^(١).

الانتصاف: لفظ «التخييل» عبارة موهمة^(٢).

وَقَلْتُ: الْمُرَادُ بِ«التَّخْيِيلِ»: التَّصْوِيرُ؛ بِأَنَّ تَخْيِيلَ عِنْدَ ذِكْرِكَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ فِي ذِهْنِكَ مَعْنَى
عَظَمَةِ اللَّهِ، لِيَمْتَلِكِيَ قَلْبُكَ رُغْبًا وَمَهَابَةً، وَيَحْصَلَ لَكَ مِنْ ذَلِكَ رَوْعَةٌ وَهَزَّةٌ لَمْ تَحْصَلْ مِنْ مُجَرَّدِ
قَوْلِكَ: عَظَمَةُ اللَّهِ، كَمَا إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَقُولَ بَدَلَ «فُلَانٌ جَوَادٌ»: «فُلَانٌ كَثِيرُ الرَّمَادِ»، فَأَنْتَ عِنْدَ
ذِكْرِكَ «كَثِيرُ الرَّمَادِ» مُتَّصِرٌ كَثْرَةَ إِحْرَاقِ الْحَطْبِ، ثُمَّ كَثْرَةَ الطَّبْخِ، ثُمَّ كَثْرَةَ تَرُدُّ الضِّيْفَانِ،
فَتَجِدُ مِنَ الرَّوْعَةِ مَا لَا تَجِدُهُ إِذَا قُلْتَ: فُلَانٌ جَوَادٌ، وَالْأَسْلُوبُ مِنَ الْكِنَايَةِ الْإِبْهَامِيَّةِ، نَحْوُهُ
قَوْلُ الْبُحْثَرِيِّ:

أَوْ مَا رَأَيْتَ الْمَجْدَ أَلْقَى رَحْلَهُ فِي آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوَّلِ؟

وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِمَامَ أَوْرَدَ فِي هَذَا الْمَقَامِ إِشْكَالًا فِي سُورَةِ «طه»، وَأَجَبْنَا عَنْهُ.

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٨).

(٢) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٤٢).

والغَرَضُ من هذا الكلام - إذا أخذته كما هو بجُمْلته ومجموعه - تصويرُ عظمته والتوقيف على كُنْهِ جَلالهِ لا غير، من غير ذهابٍ بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز، وكذلك حُكْم ما يُروى: أَنَّ جبريلَ جاءَ إلى رسولِ الله ﷺ، فقال: يا أبا القاسم، إِنَّ اللهَ يُمسكُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ على أصْبَعٍ، والأَرْضِينَ على أصْبَعٍ، والجبالَ على أصْبَعٍ، والشجرَ على أصْبَعٍ، والثرى على أصْبَعٍ، وسائرَ الخلقِ على أصْبَعٍ، ثم يَهْرُجُنَّ فيقول: أَنَا الْمَلِكُ. فَضَحِكَ رسولُ الله ﷺ تعجباً مما قال، ثم قرأ تصديقاً له: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية، وإنما ضحك أفصحُ العَرَبِ وتعجب؛ لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماءُ البيان من غير تصورِ إمساكٍ ولا أصْبَعٍ ولا هزٍّ ولا شيءٍ من ذلك، ولكنَّ فَهْمَهُ وَقَعَ أوَّلَ شيءٍ وآخره على الزُّبْدَةِ والخُلَاصَةِ التي هي الدلالةُ على القُدرةِ الباهرة، وَأَنَّ الأفعالَ العِظامَ التي تتحيرُ فيها الأفهامُ والأذهانُ ولا يكتنهُها

قولُهُ: (تصويرُ عظمته)، خبرُ «الغرض»، و«إذا» مُتعلِّقٌ بـ«الغرض».

قولُهُ: (ما يُروى: أَنَّ جبريلَ عليه السلامُ جاءه^(١))، وعن بعضهم: ما ثبت عن رسولِ الله ﷺ بهذا اللفظ، وإنما صحَّ: «جاءَ حَبْرٌ» و«جاءَ يهوديٌّ»، و«جاءَ رجلٌ من أهلِ الكتاب».

وقلت: الحديثُ بتمامهِ رواه البخاريُّ ومُسلمٌ والترمذيُّ^(٢) عن ابنِ مسعود، مع تغييرِ يسير، وفيه: «جاءَ حَبْرٌ إلى رسولِ الله ﷺ».

قولُهُ: (وَأَنَّ الأفعالَ العِظامَ)، عطفٌ تفسيريٌّ على «القُدرة»، و«هيئَةَ» خبرٌ «إِنَّ»، و«لا يوصلُ السامعُ» صِفةٌ «هواناً»، و«حتى أن يَعْلَمُوا» غايةُ عنايتهم بالمبحث، أي: ما اعتنوا بالمبحثِ حتى يَعْلَمُوا.

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «جاء إلى رسول الله ﷺ»، ولعله من باب الاختصار.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١١) ومسلم (٢٧٨٦) والترمذي (٣٢٣٨).

ولفظ أيضاً حبر ويهودي ورجل من أهل الكتاب أخرجه أيضاً البخاري (٧٤١٤، ٧٤١٥) ومسلم

(٢٧٨٦).

الأوهام هيئة عليه هواناً لا يُوصِل السامع إلى الوقوف عليه إلا إجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخيل، ولا ترى باباً في علم البيان أدق ولا اللفظ من هذا الباب، ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المُشْتَبَهات من كلام الله في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء، فإن أكثره وعليته تخيلات قد زلت فيها الأقدام قديماً، وما أتى الزالون إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقيب، حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علماً لو قدروه حق قدره لما خفي عليهم أن العلوم كلها مُفْتَرَةٌ إليه وعيال عليه؛ إذ لا يحلُّ عُقْدَها الموربة، ولا يفك قيودها المُكْرَبَة إلا هو، وكم آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول قد ضيمَ وسيمَ الخسف بالتأويلات الغثّة، والوجوه الرثة؛ لأنّ من تأوّل ليس من هذا العلم في غير ولا نفي، ولا يعرف قبلاً منه من دبير. والمراد بالأرض: الأَرْضُونَ السَّبْع،

قوله: (لا يحلُّ عُقْدَها الموربة)، الأساس: تَارَبَتِ العُقْدَة: تَوَثَّقَتْ، وَأَرَبَتْها: وثقتها، ومن المجاز: تَارَبَ علينا فلان: تَعَسَّر. وعقدٌ مُكْرَبٌ ومكروب: مُوثق، وكَرَبَه الأمر: غمّه وأخذ بنفسه.

الجوهري: الكَرْب: الحبل الذي يُسَدُّ في وسطِ العراقي، ثم يُثني، ثم يُثَلَّث، ليكون هو الذي يلي الماء، فلا يَعْفَنُ الحبلُ الكبير، تقولُ منه: أكربتُ الدلوّ فهي مُكْرَبَة.

قوله: (وسيم الخسف)، الأساس: سامه خسفاً؛ أي: أولاه ذلاً وهواناً ورضاً بالخسف، ويات على الخسف: على الجوع، وشربوا على الخسف.

قوله: (في غير ولا نفي)، المثل: «لا في العير ولا في النفي»، يُريدون بـ«العير»: عير أبي سفيان، وبـ«النفي»: الذين نَفَرُوا إلى قتالهِ ﷺ، فكلُّ من تخلفَ عنهما قالوا فيه ذلك. يُضْرَبُ لمن لا يصلحُ لمهمة. وسبق في «الأنفال» بيأنهُ مُستوفى.

قوله: (ولا يعرف قبلاً من دبير)، قال الميّداني: القبيل: ما أقبل به من الفتل على الصدر، والدبير: ما أدبر عنه. الجوهري: القبيل: ما أقبلت به المرأة من غزلها حين تفتله. وقال الأصمعي: هو مأخوذ من الشاة المُقَابِلَة والمُدَابِرَة؛ فالمُقَابِلَة: التي شقَّ أذنها [إلى] قدام،

يشهد لذلك شاهدان: قوله: ﴿جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿وَالسَّمَوَاتِ﴾؛ ولأنَّ الموضوع موضع تفخيم وتعظيم، فهو مقتضٍ للمبالغة، ومع القصدِ إلى الجمع وتأكيدِه بالجمع أتبع «الجميع» مؤكدة قبل مجيء الخبر؛ ليُعلم أول الأمر أنَّ الخبرَ الذي يردُّ لا

والمدابرة: هي التي سُقَّتْ أذُنُهَا إلى خلف. وقال في «الأساس»: ومن المجاز: ما يَعْرِفُ قَبِيلًا من دَير. وأصلُه في الحبل إذا مَسَحَ اليمينَ على اليسارِ عَلَوًا فهو قَبِيل، وإذا مَسَحَهَا عَلَيْهَا سُفْلًا فهو دَير^(١).

قوله: (يَشْهَدُ لِذَلِكَ ﴿جَمِيعًا﴾^(٢))، وقوله: ﴿وَالسَّمَوَاتِ﴾، يعني: دَلَّ عَطْفُ ﴿وَالسَّمَوَاتِ﴾ على سبيل التقابل - وهي: جمعُ مُحَلَّى باللام الاستغراقي، وأنها سَبَع - على أنَّ المراد بـ «الأرض»: الأرضون السَّبَع.

قال القاضي: «السموات» معطوفةٌ على «الأرض» منطويةٌ في حُكْمِهَا^(٣).

قوله: (ولأنَّ الموضوعَ موضعُ تفخيم وتعظيم)، وذلك أنهم نَسَبُوا إليه ما لا يليقُ بجلالِهِ وما هو مُنَزَّهٌ عنه، ولذلك أتبعه بقوله: ﴿سُبْحٰنَهُ وَنَعٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قال القفال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ﴾ كقولِ القائل: ما قَدَرْتَنِي حَقَّ قَدْرِي وأنا الذي فعلتُ كذا وكذا، أي: لَمَّا عَرَفْتَ أَنَّ حَالِي وَصِفَتِي هذا الذي ذَكَرْتَ، فوجبَ أن لا تحطَّ عن قَدْرِي ومَنْزِلَتِي. ونظيره قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، فالمعنى: ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، إِذْ رَعَمُوا أَنَّ لَهُ شُرَكَاءَ، وأنه لا يَقْدِرُ على إحياءِ الموتى، مع أنَّ جميعَ الأرضينَ والسماواتِ كُلَّهَا تحتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ.

قوله: (أتبع «الجميع» مؤكدة)، أي: من حيث المعنى، وكان من حَقِّه أن يُجاءَ به بعدَ مُضِيِّ

(١) «جمع الأمثال» (٢: ٢٦٩).

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفيه اختصار للفظ «الكشاف».

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٨).

يَقْعُ عن أرضٍ واحدة، ولكن عن الأراضي كلهنَّ. والقبضة: السمرّة من القَبْض، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦]، والقَبْضَةُ بالضمّ: المقدارُ المقبوض بالكفّ، ويقال أيضاً: أعطني قَبْضَةً من كذا؛ تريدُ معنى القَبْضَةِ تسميةً بالمصدر، كما روي: أنه نهي عن خَطْفَةِ السَّبْع. وكِلا المعنيتين مُحْتَمَل. والمعنى: والأرضون جميعاً

الخبر؛ لأنه مَعْمُولُهُ، فَقَدَّمَ لهذا الاهتمام. قال أبو البقاء^(١): «الأرض» مُبْتَدَأٌ، و﴿قَبَضْتُهُ﴾ الخبر، ﴿جَمِيعاً﴾ حالٌ من «الأرض»، أي: إذا كانت مُجْتَمِعَةً قَبْضَتُهُ، أي: مقبوضة، فالعاملُ في «إذا» المَصْدَرُ، لأنه بمعنى المفعول. وقال أبو علي: التقدير: ذات قَبْضَتِهِ. ورُدَّ عليه بأنَّ المُضَافَ إليه لا يَعْمَلُ فيها قبله. وأجيب أنه الآن غيرُ مُضَافٍ إليه؛ لأن بعدَ حذفِ المُضَافِ لا يبقى حُكْمُهُ.

وقال صاحبُ «الكشف»: قَدَّرَ أبو علي في «الحجّة»: والأرض ذات قَبْضَتِهِ، والمُضَافُ إليه لا يَعْمَلُ فيها قبلَ المُضَافِ، وعلى ما في «الحليّات» يتأتى إعمالُ ﴿قَبَضْتُهُ﴾ في «إذا»، لأنه بمعنى المفعول^(٢).

وقال أبو البقاء: ويُقرأ «قَبْضَتَهُ» بالنصب؛ على معنى: في قَبْضَتِهِ، وهو ضعيف؛ لأنَّ هذا الظرفَ محدود، فهو كقولك: زيدٌ في الدار^(٣).

ولهذا جاء المُصنِّفُ بالعُذْرِ في قوله: «جَعَلَهَا ظَرْفًا مُشْبِهًا لِلْمَوْقِفِ بِالْمُبْهَمِ».

قوله: (أنه نهي عن خَطْفَةِ السَّبْع)، النهاية: «أنه نهي عن المُجْتَمِعَةِ والخطفة»، يُريد: ما اختطفَ الذئبُ من أعضاء الشاة، وهي حية؛ لأن ما أُبينَ من حيٍّ فهو ميتٌ، والخطفة: المرة الواحدة، فسُمِّيَ بها العَضْوُ المُخْتَطَفُ.

(١) «التيان في إعراب القرآن» (٢: ١١١٣).

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١١٧٠)، بتحقيق د. محمد الدالي و(٢: ٢٧٦) بتحقيق د. عبد القادر

السعدي.

(٣) «التيان في إعراب القرآن» (٢: ١١١٤).

قَبْضَتُهُ، أي: ذوات قبضته يَقْبِضُهُنَّ قبضةً واحدة، يعني: أن الأَرْضِينَ مع عِظْمَهُنَّ وبَسَطْتَهُنَّ لا يَبْلُغْنَ إِلَّا قَبْضَةً واحدة من قَبْضَاتِهِ، كأنه يَقْبِضُهَا قبضةً بكفٍّ واحدة، كما تقول: الْجَزُورُ أَكَلَةُ لِقْمَانٍ، والقَلَّةُ جَرَعْتُهُ، أي: ذاتُ أَكَلْتِهِ وذاتُ جَرَعْتِهِ؛ تريد: أنهما لا تَفِيانِ إِلَّا بِأَكَلَةِ فِدَّةٍ مِنْ أَكَلَاتِهِ، وَجَرَعَةٍ فَرْدَةٍ مِنْ جَرَعَاتِهِ. وإذا أُريدَ معنى القَبْضَةِ فظاهر؛ لأنَّ المعنى: أن الأَرْضِينَ بِجُمْلَتِهَا مقدارُ ما يقبضه بكفٍّ واحدة. فإن قلت: ما وجهُ قراءةِ مَنْ قرأ: (قَبْضَتَهُ) بالنصب؟ قلت: جَعَلَهَا ظرفاً مَشَبَّهاً للمؤقت بالمُبهم. ﴿مَطْوِيَّتًا﴾ من الطَيِّ الذي هو ضدُّ النَّشْرِ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وعادةُ طَاوِي السَّجَلِ أن يطويه بيمينه. وقيل: ﴿قَبْضَتُهُ﴾: مُلْكُهُ بلا مُدافع ولا مُنازع، و﴿بِيَمِينِهِ﴾: بِقُدْرَتِهِ. وقيل: ﴿مَطْوِيَّتًا بِيَمِينِهِ﴾: مَفْنِيَّاتٌ بَقَسَمِهِ؛ لأنه أَقْسَمَ أن يُفْنِيَهَا، ومن اشتمَّ رائحةً من عِلْمِنَا هذا فليَعْرِضْ عليه هذا التَّأْوِيلُ لِيَتَلَهَّى بالتعجُّبِ منه ومن قائله، ثم يبكي حَمِيَّةً لكلامِ الله المُعْجِزِ بَفَصَاحَتِهِ، وما مُنِي به مِنْ أمثاله؛ وَأَثَقُلُ منه على الرُّوحِ، وأصدعُ للكَبِدِ تدوينُ العلماءِ قولَه، واستحسانُهم له، وحكايتُه على فُرُوعِ المنايرِ، واستجلابُ الاهتزازِ به من السامعين. وقرئ: (مطوياتٍ) على نظمِ السماواتِ في حُكْمِ الأرضِ،

قوله: (الجزورُ أكلةُ لقمان)، وهو لقمانُ بنُ عاد، وكان أكولاً، وأفرطوا في الإفراطِ في أكله، حتى رَووا أنه كان يَتَغَدَّى بجزورٍ وَيَتَعَشَّى بجزورٍ وَيَتَعَلَّلُ بفضيل، فأفضى إلى امرأته فلم يَصِلْ إليها، فقال: كيف أصلُ إليك وبينك جزوران، وكان شجاعاً.

قوله: (وقيل: ﴿قَبْضَتُهُ﴾: مُلْكُهُ) إلى آخره، شروعٌ فيما قيل في تفسير الآية، وقوله: (ومن اشتمَّ رائحةً من عِلْمِنَا) تحكُّمٌ في الفرقِ بين التفسيرين؛ تفسيره وتفسيرهم.

قوله: (على نظمِ السماواتِ في حُكْمِ الأرضِ)، يعني: كما أن الأرضَ أخبرَ عنها بِقَبْضَتِهِ، فدخلت تحت القَبْضَةِ، أخبرَ عن السماواتِ بيمينه، فَدَخَلَ تحتَ اليمينِ، وكما أن ﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ مُقَدَّمٌ، كذا ﴿مَطْوِيَّتًا﴾، وافتراقُ هذه القِراءةِ من الأولى افتراقٌ قوْنك: الكتابُ مَطْوِيٌّ بيمينه، وبيمينه مَطْوِيًّا، والأولى أولى؛ لِمَا يَتَصَوَّرُ منه السامعُ ضِيَّ النَّشْرِ

ودخولها تحت القبضة، ونصب (مطويات) على الحال. ﴿سُبْحٰنَهُۥ وَتَعَالٰى﴾: ما أبعد من هذه قدرته وعظمته، وما أعلاه عما يُضاف إليه من الشركاء.

[﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرٰى فَاِذَا هُمْ بِيَوْمٍ يُنظَرُونَ﴾ [٦٨]

فإن قلت: ﴿أُخْرٰى﴾ ما محلها من الإعراب؟ قلت: يَحتَمِلُ الرِّفْعَ والنَّصْبَ: أما الرِّفْعُ فعلى قوله: ﴿فَاِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٣]، وأما النَّصْبُ فعلى قراءة مَنْ قرأ: ﴿نَفْخَةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٣]، والمعنى: ونُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً، ثم نُفِخَ فِيهِ أُخْرٰى. وإنما حُذِفَ لِدَلَالَةِ ﴿أُخْرٰى﴾ عَلَيْهَا، ولكونها معلومة بِذِكْرِهَا فِي غير مكان. وقرئ: (قياماً ينظرون): يُقَلِّبُونَ أَبْصَارَهُمْ فِي الْجِهَاتِ نَظَرَ الْمَبْهُوتِ إِذَا فَجَأَهُ خَطْبٌ. وقيل: يَنْظُرُونَ مَاذَا يُفْعَلُ بِهِمْ. ويجوزُ أَنْ يَكُونَ الْقِيَامُ بِمَعْنَى الْوَقُوفِ وَالْجُمُودِ فِي مَكَانٍ لِتَحْيِيرِهِمْ.

في مُشَاهَدَتِهِ، وَمِنْ ثَمَّ جَاءَ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتٰبِ﴾ [الانباء: ١٠٤]، وأما حُكْمُ الْأَرْضِ بِالنَّصْبِ أَنَسَبَ، فَاخْتَلَفَ لِذَلِكَ التَّرْكِيبُ؛ وَلِأَنَّ تَقْدِيمَ الْحَالِ عَلَى الْعَامِلِ الْمَعْنَوِيِّ ضَعِيفٌ.

قال ابنُ الحَاجِبِ: وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي مِثْلِ: «زَيْدٌ كَاتِبًا فِي الدَّارِ»، فَجَوَّزَهُ بَعْضُهُمْ؛ لِأَنَّ التَّقْدِيرَ: اسْتَقَرَّ أَوْ مُسْتَقَرٌّ، وَبَعْضُهُمْ يَجْعَلُونَ الْمُقَدَّرَ نَسِيًّا نَسِيًّا، وَالظَّرْفَ هُوَ الْعَامِلُ فِي الْمَعْنَى، وَهَذَا أَرْجَحُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ مِثْلُهُ فِي فَصِيحِ الْكَلَامِ؛ وَلِأَنَّهُ فِي حُكْمِ الْعَدَمِ، وَصَارَتِ الْعَامِلَةُ مَعَ النَّائِبِ عَنْهُ.

قوله: (فعلى قوله: ﴿فَاِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً﴾) يعني: جَاءَ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ كَذَا، فَيُحْمَلُ هَذَا عَلَيْهِ. وَقَالَ الْقَاضِي: دَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُخْرٰى﴾ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ نَفْخَةً وَاحِدَةً^(١).

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٩).

[﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتْ بِالْيَدِينِ وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوَقَّيْتُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ ٦٩ -

[٧٠

قد استعارَ اللهُ عزَّ وجلَّ النورَ للحقِّ والقرآنِ والبرهانِ

قوله: (قد استعارَ اللهُ النورَ للحقِّ والقرآنِ والبرهانِ)، يعني: لا يُحْمَلُ «النورُ» الذي في الآية على حقيقته للصارف، وقد وردَ في التنزيلِ بمعنى الحقِّ والقرآنِ والبرهانِ على المجازِ من ذلك، فعلى هذا: قوله تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ مُستعارٌ لقولنا: وتَرَيَنَّتِ أَرْضَ الْقِيَامَةِ بِمَا يُقَامُ فِيهَا مِنَ الْحَقِّ وَبَسْطِ الْعَدْلِ مِنَ الْقِسْطِ فِي الْحِسَابِ. ويُنادي على أنه مُستعارٌ الإضافتان؛ أي: إضافةُ «النورِ» إلى «الرَّبِّ»، وإضافةُ «الرَّبِّ» إلى «الأرضِ». عن بعضهم: دَلَّ على أنه مُستعارٌ إضافةُ «النورِ» إلى «الرَّبِّ»؛ لأنَّ اللهَ هو الحقُّ العَدْلُ، فَنَاسَبَ أَنْ يُرَادَ بِهِ «النورُ»: الْحَقِيَّةُ وَالْعَدَالَةُ، فَالْحَقُّ وَالْعَدْلُ صِفَةُ اللهِ وَمَا أُضِيفَ إِلَيْهِ الْمُرَادُ بِهِ الْمَصْدَرُ لَا الْوَصْفُ؛ لِتَغَايِرِهَا.

وقلت: شبهَ إقامةَ اللهُ الحقَّ والعَدْلَ في أَرْضِ الْقِيَامَةِ لِلِاسْتِنْفَاعِ بِهِمَا، وَتَرْيِينِهِمَا بِهِمَا، بِإِشْرَاقِ النَّيِّرَيْنِ وَجْهَ الْأَرْضِ، وَتَبْيِينِ مَا فِيهَا، ثُمَّ حُذِفَ الْمُشَبَّهُ، وَأَقِيمَ الْمُشَبَّهَ بِهِ مَقَامَهُ، وَجُعِلَتِ الْقَرِينَةُ الْإِضَافَتَيْنِ، وَفِي الْمُمَثَّلِ بِهِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ: وَجُودُ النَّيِّرَيْنِ، وَإِشْرَاقُهُمَا الْأَرْضَ، وَإِبَانَةُ الْأَشْيَاءِ بِنُورِهِمَا؛ فَفِي الْمُشَبَّهِ تَحْقِيقُ وَجُودِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَبَسْطُهُمَا فِي أَرْضِ الْقِيَامَةِ، وَإِقَامَتُهُمَا بِحَسَبِ اقْتِضَاءِ صَالِحِ الْأَعْمَالِ وَسَيِّئِهَا، لَا عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ كُلُّ وَاحِدٍ مُشَبَّهٌ وَمُشَبَّهٌ بِهِ، بَلْ عَلَى جَعْلِ الْوَجْهِ مُنْتَزِعًا مِنَ الْمَجْمُوعِ، إِذَا عَلَى التَّوَهُّمِ؛ لِيَكُونَ تَمَثُّلِيَّةً، أَوْ عَلَى التَّحْقِيقِ وَالزُّبْدَةِ؛ لِتَكُونَ عَقْلِيَّةً.

إذن قوله أوَّلاً: «استعارَ اللهُ النورَ للحقِّ والقرآنِ والبرهانِ في مواضعٍ» تصحيحُ هذه الاستِعارةِ بِحَسَبِ الْعُرْفِ التَّنْزِيلِيِّ. وَثَانِيًا: «وينادي عليه بأنه مُستعارٌ» بإقامةِ الصارفِ الموجبِ للتأويلِ، وَثَالِثًا: «وإضافةُ اسمِهِ إلى الأرضِ» بتخصيصِ المُستعارِ لَهُ وَأَنَّهُ الْعَدْلُ لَكِنْ بِطَرِيقِ اللَّزُومِ، وَكَأَنَّ الرَّبِّيَّةَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَلْزُومٌ الْعَدْلِ. وَرَابِعًا: «نَمَّ مَا عَطِفَ عَلَى إِشْرَاقِ الْأَرْضِ»

بأنَّ النَّظْمَ أَيضًا يَقْتَضِي ذَلِكَ التَّخْصِيصَ. وَخَامِسًا: «تَرَى النَّاسَ يَقُولُونَ لِلْمَلِكِ الْعَادِلِ» بِتَصْحِيحِهَا بِحَسَبِ الْعُرْفِ الْعَامِ. وَسَادِسًا: «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» بِإِنْشَائِهَا بِحَسَبِ اسْتِعْمَالِ الضَّدِّ فِي الْأَلْفَاظِ النَّبَوِيَّةِ. وَسَابِعًا: «وَكَمَا فَتَحَ الْآيَةَ بِإثْبَاتِ الْعَدْلِ خْتَمَهَا بِنَفْيِ الظُّلْمِ»، بِأَنْ مُرَاعَاةَ رَدِّ الْعَجْزِ عَلَى الصَّدْرِ عَلَى طَرِيقَةِ الطَّرْدِ وَالْعَكْسِ دَاعِيَةً إِلَى تَفْسِيرِ النُّورِ بِالْعَدْلِ.

كَأَنَّهُ قَصَدَ بِذَلِكَ كُلَّهُ مُخَالَفَةَ أَقْوَالِ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ وَتَرْجِيحَ أَحَدِ الْأَقْوَالِ فِيهَا، فَوَجِبَ لِذَلِكَ أَنْ يُورِدَهَا فِي الذِّكْرِ، ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ التَّرْجِيحِ نَظْرًا إِنْصَافًا.

قَالَ الْوَاحِدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ فِي الْقِيَامَةِ نُورًا يُلْبَسُهُ وَجْهَ الْأَرْضِ فَتُشْرِقُ الْأَرْضُ بِهِ مِنْ غَيْرِ شَمْسٍ وَلَا قَمَرٍ. هَذَا أَحَدُ قَوْلِي الرَّجَّاحِ. وَقَالَ مُحِبِّي السُّنَّةِ: أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ خَالِقِهَا، وَذَلِكَ حِينَ يَتَجَلَّى الرَّبُّ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ خَلْقِهِ فَمَا يُضَارُونَ فِي نُورِهِ كَمَا لَا تُضَارُونَ فِي الشَّمْسِ فِي الْيَوْمِ الصَّحْوِ. وَهَذَا قَوْلٌ آخَرُ لِلرَّجَّاحِ. وَقَالَ الْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ: بَعْدَ رَبِّهَا، وَأَرَادَ بِالْأَرْضِ: عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ. وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْمُخْتَارُ عِنْدَ الْمُصَنِّفِ، وَتَبِعَهُ الْقَاضِي (١).

وَقَالَ السَّجَّاءُ وَنَدِي: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ عَدْلِهِ الصَّافِي عَنِ مِلْكَةِ الْغَيْرِ. وَاخْتَارَ الْإِمَامُ قَوْلَ الْوَاحِدِيِّ وَقَالَ: الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَحْصُلُ هُنَاكَ نُورٌ مُضَافٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ النُّورُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ يَكْفِي فِي صِدْقِ الْإِضَافَةِ أَدْنَى سَبَبٍ، فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ النُّورُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ شَرَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ كَبَيْتِ اللَّهِ وَنَاقَةِ اللَّهِ، هَذَا أَقْوَى مِنْ حَمْلِهِ عَلَى الْعَدْلِ؛ لِأَنَّا لَا نَفْتَقِرُ إِلَى تَرْكِ الْحَقِيقَةِ وَالذَّهَابِ إِلَى الْمَجَازِ (٢).

وَقُلْتُ: الْقَوْلُ مَا اخْتَارَ مُحِبِّي السُّنَّةِ. وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ مُسْلِمٌ بِنُ الْحَجَّاجِ فِي «صَحِيحِهِ» عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: هَلْ تُضَارُونَ فِي

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٧٨).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٤٧٧).

رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهْرِ لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: «فَهَلْ تَضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمْرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: (١): فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُضَارُونَ فِي رَبِّكُمْ كَمَا لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، فَيَلْقَى الْعَبْدُ رَبَّهُ فَيَقُولُ - أَيُّ لَهْ -: أَلَمْ أُكْرِمَكَ وَأَسْوَدَكَ وَأَزَوَّجَكَ؟» (٢) الْحَدِيثُ، قَالَ الرَّجَاجُ: رُويَ «لَا تُضَارُونَ» بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ، وَلَا «تُضَامُونَ» بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ، وَمَعْنَى «لَا تُضَارُونَ» لَا يُضَارُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، أَيُّ: لَا يُجَالِفُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِي ذَلِكَ، يُقَالُ: ضَارَرْتُ الرَّجُلَ أَضَارًا مُضَارَّةً وَضَرَارًا، إِذَا خَالَفَهُ.

وَمَعْنَى «لَا تُضَامُونَ»: لَا يُضَمُّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَيَقُولُ وَاحِدٌ لِلْآخِرِ: أَرْنِيهِ. كَمَا يَفْعَلُونَ عِنْدَ النَّظَرِ إِلَى الْهِلَالِ (٣). وَمَا اخْتَارَ مُحْيِي السُّنَّةِ مَا اخْتَارَهُ إِلَّا لِهَذَا النَّصِّ الصَّرِيحِ، وَمَا تَعَسَّفَ الْمُصَنِّفُ تِلْكَ التَّعَسُّفَاتِ إِلَّا فِرَارًا مِنْهُ، وَقَدْ جَاءَ وَصْفُ الْبَارِي بِالنُّورِ، وَمِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى النُّورُ، رَوَيْنَا عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَمُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ عَنِ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ؟» (٤). وَزَادَ أَحْمَدُ: «نُورَانِيَّ أَرَاهُ». عَلَى طَرِيقِ الْإِيجَابِ (٥). وَقَالَ حُجَّةُ الْإِسْلَامِ فِي «مَشْكَاتِ الْأَنْوَارِ» بِأَنَّ النُّورَ الْحَقُّ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ قَالَ: بَلْ أَقُولُ وَلَا أَبَالِي: إِنَّ اسْمَ النُّورِ عَلَى غَيْرِ النُّورِ الْأَوَّلِ مَجَازٌ مُحَضَّرٌ (٦).

(١) مِنْ قَوْلِهِ: «فَهَلْ تَضَارُونَ فِي رُؤْيَةٍ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ف) وَ(ح).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٩٦٨).

(٣) «مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابِهِ» (٤: ٣٦٣).

(٤) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٢١٣٩٢) وَمُسْلِمٌ (١٧٨) وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٢٨٢).

(٥) قَدْ حَرَّرَ الْقَاضِي عِيَاضُ هَذَا الْمَوْطِنَ فِي «إِكْمَالِ الْمُعْلِمِ» (١: ٥٣٣) بِقَوْلِهِ: «هَذِهِ الرِّوَايَةُ لَمْ تَقَعْ إِلَيْنَا، وَلَا رَأَيْتُهَا فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَصُولِ، إِلَّا مَا حَكَاهُ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ - يَعْنِي الْمَازَرِيَّ - وَمِنْ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ تَكُونَ ذَاتُ اللَّهِ نُورًا، إِذِ النُّورُ مِنْ جَلَمَةِ الْأَجْسَامِ، وَاللَّهُ يَتَعَالَى عَنِ الْإِتِّصَافِ بِذَلِكَ. هَذَا مَذْهَبُ جَمِيعِ أُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ خِلَافًا لِبَعْضِ الْمَجَسِّمَةِ: هِشَامِ الْجَوْلَقِيِّ وَلَكَّمْتَهُ مِمَّنْ قَالَ: نُورٌ لَا كَالْأَنْوَارِ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]. وَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ مِنْ تَسْمِيَتِهِ بِالنُّورِ فَمَعْنَاهُ: ذُو نُورِهِمَا وَرَبُّهُ وَخَالِقُهُ. وَقِيلَ: مَنْوَرٌ قُلُوبَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

(٦) «مَشْكَاتُ الْأَنْوَارِ» لِلْإِمَامِ الْغَزَالِيِّ، ص ٥٤.

هذا، وإن من مذهب السلف الصالح أن يجري الكلام فيه وفي أمثاله على ظاهره بعد أن تُقرَّ أن هذا النور ليس من نوع هذه الكيفية الفائضة على الأجسام، ونحيلُ كُنْه معرفته إلى قُصورِ أفهام البشر. ووجدتُ في تضاعيفِ كلام الإمام ما معناه: أن طريقَ المُحقِّقين من المؤحِّدين القولُ بأننا نعلمُ أنه ليس مُرادُ الله في أمثالِ هذه الصفاتِ هذه المُشاهدات، وأمَّا تعيينُ المُرادِ فهو مفوضٌ إلى الله تعالى، وأمَّا قولُ محيي السنَّة: ذلك حينَ يتجلَّى اللهُ الرَّبُّ لفصلِ القضاءِ بين خلقه^(١)، فهو الذي يقتضيه المقامُ من التأويلِ وعليه التعويلُ؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تجلِّيِ الذاتِ بصفاتِ الجلالِ والعظمة؛ لما يُلوحُ من صفحاتِ معنى الآيةِ تباشيرُ معنى قوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] ولمجيءِ الأفعالِ المُتناسِقةِ على البناءِ للمفعولِ على نحوِ قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ [هود: ٤٤] الآية.

قال المُصنِّف: ومجيءُ أخباره على الفعلِ المبنيِّ للمفعولِ للدلالةِ على الجلالِ والكبرياءِ، وأنَّ تلكَ الأمورِ العظامَ لا تكونُ إلا بفعلِ قادرٍ قاهرٍ، وأنَّ فاعلها واحدٌ لا يُشاركُ في أفعالها، ولا يذهبُ الوهمُ إلى أنَّ غيرهَ الفاعلِ^(٢). بل الكلامُ من مبدئه واردةً على سننِ أحوالِ الملوكِ ومُرورِ عادتِهِمْ، فإنَّ الملكَ العظيمَ إذا ضربَ سُرَادِقَ جلالِهِ وعظمتِهِ ليومٍ يُشهدُ لقضاءِ شؤونِ العاقبةِ يأمرُ بإحضارِ خواصِّ حضرتهِ وأساطينِ مملكتهِ، ثمَّ يبرزُ من الحُجُبِ بحيثُ يُشاهدُهُ الظالمُ والمظلومُ، ويتصدَّى لفصلِ القضاءِ بنفسه، والحاكِمُ العادلُ إذا جلسَ للقضاءِ في مسندِهِ يضعُ بينَ يديه فُرْقانَ حُكْمِ اللهِ ويأمرُ بإحضارِ العُدولِ وإقامةِ الشُّهودِ، ولا مانعَ من إجراءِ هذه الألفاظِ على هذه المعاني، على أنَّ كُنْه معرفتهِ موكَّولٌ إلى عِلْمِ اللهِ.

وفي جعلِ النورِ مجازًا عن العدلِ تحجيراً للواسعِ، وتقصيراً للكلامِ الجامعِ، على أنَّ العدلَ من لوازمِ هذا البيانِ. وأمَّا قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ فهو مُتَّصِلٌ بقوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ وتذييلٌ لمعناه، والله يقولُ الحقَّ وهو يهدي السَّبيلَ.

وكانَ الوالدُ المغفورُ له - تغمَّدهُ اللهُ بَعْفَرانِهِ - كثيرًا ما يجري على لسانِهِ أنَّ جماعةً من

(١) من قوله: «مفوضٌ إلى الله تعالى» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) انظر: (٨: ٨٨).

في مواضع من التنزيل، وهذا من ذلك. والمعنى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ﴾ بما يُقيمه فيها من الحق والعدل، وَيَبْسُطُهُ مِنَ الْقِسْطِ فِي الْحِسَابِ وَوَزَنَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، وَيُنَادِي عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مُسْتَعَارٌ إِضَافَتُهُ إِلَى اسْمِهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ الْعَدْلُ. وإضافة اسمِهِ إِلَى الْأَرْضِ؛ لِأَنَّهُ يَزِينُهَا؛ حَيْثُ يَنْشُرُ فِيهَا عَدْلَهُ، وَيَنْصُبُ فِيهَا مَوَازِينَ قِسْطِهِ، وَيَحْكُمُ بِالْحَقِّ بَيْنَ أَهْلِهَا، وَلَا تَرَى أَزِينَ لِلْبِقَاعِ مِنَ الْعَدْلِ، وَلَا أَعْمَرَ لَهَا مِنْهُ. وفي هذه الإضافة أَنَّ رَبَّهَا وَخَالِقَهَا هُوَ الَّذِي يَعْدِلُ فِيهَا، وَإِنَّمَا يَجُورُ فِيهَا غَيْرُ رَبِّهَا، ثُمَّ مَا عَظَفَ عَلَى إِشْرَاقِ الْأَرْضِ مِنْ وَضْعِ الْكِتَابِ وَالْمَجِيءِ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالْقَضَاءِ بِالْحَقِّ، وَهُوَ النُّورُ الْمَذْكُورُ. وَتَرَى النَّاسَ يَقُولُونَ لِلْمَلِكِ الْعَادِلِ: أَشْرَقَتِ الْآفَاقُ بِعَدْلِكَ، وَأَضَاءَتِ الدُّنْيَا بِقِسْطِكَ، كَمَا يَقُولُونَ: أَظْلَمَتِ الْبِلَادُ بِجَوْرِ فُلَانٍ. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وَكَمَا فَتَحَ الْآيَةَ بِإِثْبَاتِ الْعَدْلِ، خَتَمَهَا بِنَفْيِ الظُّلْمِ. وَقُرِئَ: (وَأَشْرَقَتِ) عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، مِنْ شَرِقَتْ بِالضَّوءِ تَشْرَقُ: إِذَا امْتَلَأَتْ بِهِ وَاعْتَصَمَتْ. وَأَشْرَقَهَا اللَّهُ، كَمَا تَقُولُ: مَلَأَ الْأَرْضَ عَدْلًا وَطَبَّقَهَا عَدْلًا. وَ﴿الْكِتَابُ﴾: صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ، وَلَكِنَّهُ

فُضِّلَ الشَّرْقُ كَانُوا يَتَحَسَّرُونَ عَلَى الظُّفْرِ بِالتَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ الْمَوْسُومِ بِ«مَفَاتِيحِ الْغَيْبِ»؛ لِيَقْفُوا عَلَى تَفْسِيرِ تَحْقِيقِ هَذِهِ الْآيَةِ فِيهَا، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْإِفْضَالِ.

وَأَنْشَدَ صَاحِبُ «الْمَطْلَعِ» لِعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ يَمْدَحُ النَّبِيَّ ﷺ:

وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقْتَ الْـ أَرْضَ وَضَاءَتِ بِنُورِكَ الْأَفُقُ
فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضَّيَاءِ فِي النَّـ نُورِ وَسُبُلِ الرَّشَادِ نَخْتَرُقُ^(١)

قَوْلُهُ: (الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، الْحَدِيثَ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنِ ابْنِ عَمَرَ^(٢).

قَوْلُهُ: (وَاعْتَصَمَتْ)، الْجَوْهَرِيُّ: الْمَنْزِلُ غَاصٌّ بِالْقَوْمِ، أَي: مُتَمَلِّئٌ بِهِمْ.

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٧) ومسلم (٢٥٧٩) والترمذي (٢٠٣٠).

اكتُفِيَ بِاسْمِ الْجِنْسِ. وَقِيلَ: اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ. ﴿وَالشَّهَدَاءُ﴾: الَّذِينَ يَشْهَدُونَ لِلْأُمَّمِ وَعَلَيْهِمْ مِنَ الْحَفَظَةِ وَالْأَخْيَارِ. وَقِيلَ: الْمُسْتَشْهَدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

[﴿وَسَبَقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمْرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾] [٧٢-٧١]

الزُّمَرُ: الْأَفْوَاجُ الْمْتَفَرِّقَةُ بَعْضُهَا فِي أَثَرِ بَعْضٍ، وَقَدْ تَزَمَّرُوا، قَالَ:

حَتَّىٰ أَحْزَأَلْتُ زُمْرًا بَعْدَ زُمْرٍ

وقيل في زُمَرِ الَّذِينَ اتَّقَوْا: هِيَ الطَّبَقَاتُ الْمَخْتَلِفَةُ: الشُّهَدَاءُ، وَالزَّهَادُ، وَالْعُلَمَاءُ، وَالقُرَّاءُ، وَغَيْرِهِمْ. وَقُرئ: (نُذِرُ مِنْكُمْ). فَإِنْ قُلْتُ: لِمَ أُضِيفَ إِلَيْهِمِ الْيَوْمُ؟ قُلْتُ:

قَوْلُهُ: (حَتَّىٰ أَحْزَأَلْتُ زُمْرًا بَعْدَ زُمْرٍ)^(١)، قِيلَ أَوْلُهُ:

إِنَّ الْعُقَاةَ بِالسُّيُوبِ^(٢) قَدْ غُمِرَ

الْأَسَاسُ: أَحْزَأَلَ السَّرَابُ بِالظَّنِّ: زَهَاها. وَأَحْزَأَلَتِ الْإِبِلُ فِي السَّيْرِ: ارْتَفَعَتْ. وَأَنْشَدَ الْمِصْرَاعَ.

الرَّاعِبُ: الزُّمْرَةُ: الْجَمَاعَةُ الْقَلِيلَةُ، وَمِنْهُ قِيلَ: شَاءَ زُمْرَةً، قَلِيلَةَ الشَّعْرِ. وَرَجُلٌ زُمْرٌ، قَلِيلُ الْمُرُوءَةِ، وَمِنْهُ اسْتَقَّ الزُّمْرُ وَالزَّمَارَةُ كِنَايَةً عَنِ الْفَاجِرَةِ^(٣).

(١) ذَكَرَهُ الزَّخَشَرِيُّ فِي «أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ» (حَزَل).

(٢) فِي النُّسخِ الْخَطِيئَةِ: «بِالسُّيُوفِ» بِالْفَاءِ. وَالصُّوَابُ بِالْبَاءِ، وَهُوَ عَلَى الْجَادَةِ فِي «شَرْحِ شَوَاهِدِ الْكُشَافِ»

(٤: ١٤٦) وَعِبَارَتُهُ نَمَّةٌ: وَ«السُّيُوبُ» فِي الْأَصْلِ: السُّيُوفُ، اسْتَعِيرَتْ لِلْعَطَايَا الْكَثِيرَةِ عَلَى طَرِيقِ

التَّصْرِيحِيَّةِ.

(٣) «مَفْرَدَاتُ الْقُرْآنِ»، ص ٣٨٣.

أرادوا لقاءً وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة. وقد جاء استعمال اليوم والأيام مُستفيضاً في أوقات الشدة.

﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ اتُّونَا وتَلُّونَا عَلَيْنَا، وَلَكِنْ وَجِبَتْ عَلَيْنَا كَلِمَةُ اللَّهِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨]؛ لِسُوءِ أَعْمَالِنَا، كَمَا قَالُوا: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، فَذَكَرُوا عَمَلَهُمُ الْمَوْجِبَ لِكَلِمَةِ الْعَذَابِ؛ وَهُوَ الْكُفْرُ وَالضَّلَالُ وَاللَّامُ فِي ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ لِلْجِنْسِ؛ لِأَنَّ ﴿مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فَاعِلٌ «بئس»، وَ«بئس» فَاعِلُهَا: اسْمٌ مَعْرَفٌ بِلَامِ الْجِنْسِ، أَوْ مُضَافٌ إِلَى مِثْلِهِ، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ مَحذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: فَبئسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ جَهَنَّمُ.

[﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَقَّ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ. وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ نَبْوًا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ ٧٣-

[٧٤]

﴿حَقَّ﴾ هِيَ الَّتِي تُحْكِي بَعْدَهَا الْجُمْلُ، وَالْجُمْلَةُ الْمَحْكِيَّةُ بَعْدَهَا هِيَ الشَّرْطِيَّةُ،

قَوْلُهُ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ لِسُوءِ أَعْمَالِنَا إِلَى قَوْلِهِ: (فَذَكَرُوا عَمَلَهُمُ الْمَوْجِبَ لِكَلِمَةِ الْعَذَابِ) هَذَا مُوَافِقٌ لِمَذْهِبِهِ، قَالَ الْقَاضِي: كَلِمَةُ الْعَذَابِ هُوَ الْحُكْمُ عَلَيْهِمُ بِالسَّقَاوَةِ وَأَتُّمُّ مِنَ أَهْلِ النَّارِ، وَوُضِعَ الظَّاهِرُ فِيهِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى اخْتِصَاصِ ذَلِكَ بِالْكَافِرِ. وَقِيلَ: كَلِمَةُ الْعَذَابِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. قَالَ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَبئسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾: «اللَّامُ فِي ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ لِلْجِنْسِ»، وَلَا يُنَافِي إِشْعَارُهُ بِأَنَّ مَثْوَاهُمْ فِي النَّارِ لِتَكْبُرِهِمْ عَنِ الْحَقِّ أَنْ يَكُونَ دُخُولُهُمْ فِيهَا لِأَجْلِ أَنَّ كَلِمَةَ الْعَذَابِ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَكْبُرَهُمْ وَسَائِرَ مَقَابِحِهِمْ مُسَبِّبَةٌ عَنِ كَلِمَةِ الْعَذَابِ^(١).

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٤٩).

إِلَّا أَنْ جَزَاءَهَا مَحذُوفٌ، وَإِنَّمَا حُذِفَ؛ لِأَنَّهُ فِي صِفَةِ ثَوَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ فَدَلَّ بِحَذْفِهِ عَلَى أَنَّهُ شَيْءٌ لَا يُحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ، وَحَقُّ مَوْقِعِهِ مَا بَعْدَ ﴿خَالِدِينَ﴾. وَقِيلَ: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ وَهَا﴾ جَاؤُوهَا (وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُهَا)، أَي: مَعَ فَتْحِ أَبْوَابِهَا. وَقِيلَ: أَبْوَابُ جَهَنَّمَ لَا تُفْتَحُ إِلَّا عِنْدَ دُخُولِ أَهْلِهَا فِيهَا، وَأَمَّا أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَمُتَقَدِّمٌ فَتُحْمَا، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ مَفْتُوحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ [ص: ٥٠]؛ فَلِذَلِكَ جِيءَ بِالْوَاوِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَقَدْ فَتِّحَتْ أَبْوَابُهَا. فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ عَبَّرَ عَنِ الذَّهَابِ بِالْفَرِيقَيْنِ جَمِيعاً بِلَفْظِ السَّوْقِ؟

قَوْلُهُ: (وَحَقُّ مَوْقِعِهِ)، أَي: الْجَزَاءُ الْمُقَدَّرُ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿خَالِدِينَ﴾. وَعَنْ بَعْضِهِمْ: أَي: فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ كَمَا كَانَ وَوَقَعُوا فِيهَا وَقَعُوا. وَقَوْلُهُ: كَانَ مَا كَانَ وَوَقَعُوا فِيهَا وَقَعُوا؛ جَزَاءٌ ﴿إِذَا جَاءَ وَهَا﴾، قَالَ الرَّجَّاجُ: اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي جَوَابِ «إِذَا» قِيلَ: الْوَاوُ مُسْقَطَةٌ، أَي: حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فَتُحْتِ أَبْوَابُهَا. وَسَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ يَزِيدَ - يَعْنِي الْمُبَرِّدَ - يَذْكُرُ أَنَّ الْجَوَابَ مَحذُوفٌ، التَّقْدِيرُ: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ وَهَا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ سَعِدُوا، أَي: حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَقَعَ مَجْمَعُهُمْ مَعَ فَتْحِ أَبْوَابِهَا حَتَّى يَجْتَمِعَ الْمَجْمَعُ مَعَ الْفَتْحِ فِي حَالٍ وَاحِدَةٍ.

قَالَ الرَّجَّاجُ: وَالَّذِي عِنْدِي: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ وَهَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿خَالِدِينَ﴾ دَخَلُوهَا^(١). وَقَوْلُ الْمُبَرِّدِ مُوَافِقٌ لِلْقَوْلِ الْأَوَّلِ لِلْمُصَنِّفِ.

قَوْلُهُ: (أَبْوَابُ جَهَنَّمَ لَا تُفْتَحُ إِلَّا عِنْدَ دُخُولِ أَهْلِهَا فِيهَا، وَأَمَّا أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَمُتَقَدِّمٌ فَتُحْمَا)، قَالَ الرَّاعِبُ: إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَّا كَانَتْ أَشَدَّ الْمَحَابِسِ، وَمِنْ عَادَةِ النَّاسِ إِذَا شَدَّ دُؤَا أَمْرَهَا أَلَا يَفْتَحُوهَا أَبْوَابُهَا إِلَّا لِدَاخِلِ أَوْ خَارِجِ، وَلَمَّا كَانَتْ جَهَنَّمَ أَهْوَاهَا أَمْرًا وَأَبْلَغَهَا عِقَابًا أُخْبِرَ عَنْهَا بِهَا سُوءِهَا مِنْ أَحْوَالِ الْحُبُوسِ، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَلِأَنَّ مَنْ فِيهَا يَتَشَوَّقُونَ لِلِقَاءِ أَهْلِهَا، وَمِنْ رَسْمِ الْمَنَازِلِ إِذْ بُشِّرَ مَنْ فِيهَا بِأَيَابِ أَرْبَابِهَا إِلَيْهَا أَنْ تَفْتَحَ أَبْوَابُهَا اسْتِيشَارًا لَهُمْ وَتَطَّلَعًا إِلَيْهِمْ، وَيَكُونُ ذَلِكَ قَبْلَ مَجْمَعِهِمْ، فَأُخْبِرَ عَنِ ذَلِكَ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ، فَيَكُونُ حَذْفُ الْجَزَاءِ وَإِدْخَالُ الْوَاوِ عَلَى الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ لِذَلِكَ فَاعْرِفْهُ.

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٣: ٣٦٤).

قلت: المراد بسوق أهل النار: طردهم إليها بالهوان والعنف، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل. والمراد بسوق أهل الجنة: سوق مراكبهم؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين، وحثها إسرعاً بهم إلى دار الكرامة والرضوان،

قوله: (المراد بسوق أهل النار: طردهم إليها بالهوان... ويسوق أهل الجنة: سوق مراكبهم)، روينا عن البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى ثَلَاثِ طَرِيقٍ: رَاغِبِينَ، رَاهِبِينَ^(١)، وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةَ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشْرَةَ عَلَى بَعِيرٍ، وَتَحْشَرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارَ، تَقِيلُ حَيْثُ قَالُوا، وَتَبِيْتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا»، الحديث^(٢).

وعن الترمذي، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جدّه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ رِجَالًا وَرُكْبَانًا وَتُجْرُونَ عَلَى وُجُوهِكُمْ»^(٣).

وعن الترمذي، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ^(٤): صِنْفًا مُشَاةً، وَصِنْفًا رُكْبَانًا، وَصِنْفًا عَلَى وُجُوهِهِمْ»^(٥).

قال القاضي: المشاة المؤمنون الذين خلطوا صالح^(٦) أعمالهم بسيئها ويكفون مترددين بين الخوف والرجاء، يرجون رحمة الله لإيمانهم، ويخافون عذابه بسوء أعمالهم، فلعلهم أصحاب اليمين. والصنف الركبان هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات واجتنبوا عن السيئات، يسرعون إلى ما أعد لهم في الجنان إسرع الركبان، ولعلهم السابقون؛ لقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١] واثنان على بعير، وثلاثة على بعير،

(١) في النسخ الخطية: «وراهبين»، وصوبناه من مصادر التخريج.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٢٢) ومسلم (٢٨٦١).

(٣) أخرجه الترمذي (٣١٤٣) وقال: هذا حديث حسن.

(٤) من قوله: «وعن الترمذي، عن أبي هريرة» إلى هنا، سقط من (ح).

(٥) أخرجه الترمذي (٣١٤٢) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٢٣٦) وقال الترمذي: هذا حديث

حسن.

(٦) سقط لفظ «صالح» من (ط).

كما يُفَعَّلُ بِمَنْ يُشَرَّفُ وَيُكْرَمُ مِنَ الْوَافِدِينَ عَلَى بَعْضِ الْمُلُوكِ، فَشَتَانٌ مَا بَيْنَ السَّوْقَيْنِ.
 ﴿طَبَّنَتْ﴾ مِنْ دَنْسِ الْمَعَاصِي، وَطَهَّرْتُمْ مِنْ خُبْثِ الْخَطَايَا ﴿فَادْخُلُوهَا﴾ جُعِلَ دُخُولُ
 الْجَنَّةِ مُسَبِّبًا عَنِ الطَّيِّبِ وَالطَّهَارَةِ،

تفصيلٌ لمراتبهم ومنازلهم في السَّبَقِ وَعُلُوِّ الدَّرَجَةِ، أَوْ عَلَى سَبِيلِ التَّمثِيلِ؛ لِأَنَّ تَفَاوُثَهُمْ فِي
 الْمَرَائِبِ بِحَسَبِ تَفَاوُثِ نُفُوسِهِمْ وَاخْتِلَافِ أَقْدَامِهِمْ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ^(١).

قوله: ﴿جُعِلَ دُخُولُ الْجَنَّةِ مُسَبِّبًا عَنِ الطَّيِّبِ وَالطَّهَارَةِ﴾، يعني: رَبَّتْ الْأَمْرَ بِالذُّخُولِ
 بِالْفَاءِ عَلَى ﴿طَبَّنَتْ﴾. قَالَ الْإِمَامُ: قَالَتِ الْمُعْتَرِلَةُ: هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَحَدًا لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا إِذَا
 كَانَ طَاهِرًا عَنِ كُلِّ الْمَعَاصِي. وَإِلَى هَذَا أَشَارَ الْمُصَنِّفُ بِقَوْلِهِ: «فَمَا أَبْعَدَ أَحْوَالَنَا مِنْ تِلْكَ
 الْمُنَاسِبَةِ» إِلَى قَوْلِهِ: «إِلَّا أَنْ يَهَبَ لَنَا الْوَهَّابُ الْكَرِيمُ تَوْبَةً نَصُوحًا» تَعْرِيفًا^(٢).

وَقُلْتُ: وَيَحْصُلُ ذَلِكَ أَيْضًا بِأَنْ يُبَدِّلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ فَيَدْخُلُونَ طَاهِرِينَ طَيِّبِينَ
 بِفَضْلِ اللَّهِ، عَلَى أَنَّ أَحَدًا لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا بِفَضْلِهِ.

روينا عن البُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَجَابِرٍ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَارِبُوا
 وَسَدُّوْا وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَا يَنْجُو أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ
 يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ»^(٣). وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى لِأَبِي هُرَيْرَةَ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ
 الْجَنَّةَ»^(٤). وَبِالْشَّفَاعَةِ أَيْضًا، وَالْأَحَادِيثُ فِيهَا بَلَّغَتْ التَّوَاتُرَ، وَبَعْدَ التَّعْذِيبِ أَيْضًا
 عَلَى مَا رَوَيْنَا عَنْ مُسْلِمٍ، عَنْ جَابِرٍ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ: «أَنَّ قَوْمًا يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ بَعْدَ أَنْ
 يَكُونُوا فِيهَا فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ عِيدَانُ السَّمَايِمِ، قَالَ: فَيَدْخُلُونَ نَهْرًا مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ فَيَغْتَسِلُونَ
 فِيهِ فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ الْقِرَاطِيسُ»^(٥). يُؤَيِّدُهُ مَا رَوَاهُ الْوَاحِدِيُّ عَنْ قَتَادَةَ: إِثْمَمَ طَيِّبُوا قَبْلَ

(١) لم أجده في «أنوار التنزيل»، فلعلّه في شرح القاضي على «مصابيح السنة».

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٤٨٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) وهي ثابتة في «صحيح البخاري» (٥٦٧٣).

(٥) أخرجه مسلم (١٩١).

دُخُولِ الْجَنَّةِ بِالْمَغْفِرَةِ وَاقْتَصَّ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، فَلَمَّا هَدُّبُوا وَطَيَّبُوا قَالَ لَهُمُ الْخَزَنَةُ: ﴿طَبِّئْتُمْ فَأَدْخُلُوهَا﴾^(١).

اعلم أن خاصية التركيب ومقتضى التأليف لا يساعده تفسير المصنف «السوق»^(٢) بقوله: «والمراد بسوق أهل الجنة: سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين»، ولا تأويله ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ بقوله: «وقيل: في زمر الذين اتقوا؛ هي الطبقات المختلفة: الشهداء والزهاد والعلماء والقراء»؛ لأن الآيات من باب الجمع مع التقسيم، فإن قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ جمع الأنفس كلها في حكم توفى أجور الأعمال صالحها وسيئها. وقوله: ﴿وَسَيِّقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقوله: ﴿وَسَيِّقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ إلى آخر الآيات تقسيم لذلك الجمع وتفصيل لذلك المجمع، وقد أثر فيها الذين كفروا والذين اتقوا على الكافرين والمتقين ليدل على العموم قال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمَسَّكُمْ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣]. وتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [هود: ١١٣] أي: الذين وجد منهم الظلم، ولم يقل: إلى الظالمين. وأوقع ﴿زمرًا﴾ في الموضوعين حالًا من ضمير الفريقين؛ ليدل على أنهم على طرائق شتى أفواجًا متفرقة على تفاوت منازلهم ومراتبهم، كما ورد في حديث أبي هريرة: «صنفًا مشاة، وصنفًا ركبانا، وصنفًا على وجوههم، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير»^(٣)، وحققه القاضي، وقول كل من المفضلين بالآخر فوجب أن يُفسر ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ بما يكون مُقابلاً لقوله: «الَّذِينَ كَفَرُوا وكذبوا بآيات الله ورسله واليوم الآخر وغلبت عليهم شقوتهم وحقَّت عليهم كلمة العذاب»، بأن يُقال: وسَيِّقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا الشُّرَكَ وَأَمَنُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا، فِرْقَةً طَيِّبِينَ، وَفِرْقَةً طَابُوا بِالشَّفَاعَةِ، وَفِرْقَةً هَدُّبُوا بِالِاِقْتِصَاصِ، وَأُخْرَى نَجَوْا بِالْمَغْفِرَةِ وَأَدْرَكَتْهُمْ كَلِمَةُ رَبِّهِمُ الْحُسْنَى، كما قال: ﴿وَيَسْجَى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَارِبَتِهِمْ﴾ كما حقَّت كلمة العذاب على أولئك الأشقياء.

(١) «التفسير الوسيط» للواحدى (٣: ٥٩٥).

(٢) سقط لفظ «السوق» من (ط).

(٣) سبق تخريجه.

فما هي إلا دارُ الطيبين ومثوى الطاهرين؛ لأنها دارٌ طَهَّرها اللهُ من كلِّ دَنَسٍ، وطَيَّبها من كلِّ قَدَرٍ، فلا يَدْخُلها إلا مُناسِبٌ لها موصوفٌ بِصِفَتِها، فما أبعَدَ أحوالنا من تلك المناسبة! وما أضعفَ سَعِينا في اكتسابِ تلك الصِّفة! إلا أن يَهَبَ لنا الوهابُ الكريم توبةً نَصُوحاً، تَقِي أنفُسنا من دَرَنِ الذُّنُوبِ، وتُطِيط وَضَرَ هذه القُلُوبِ. ﴿خَلْدِينَ﴾: مقَدِّرِين الخُلُودِ. ﴿الْأَرْضَ﴾: عبارةٌ عن المكانِ الذي أقاموا فيه واتَّخَذوه مَقَرّاً ومُتَبَوِّاً وقد وَرِثوها، أي: مُلِّكوها وجُعِلوا مُلوَكها، وأُطْلِقَ تصرُّفُهم فيها كما يَشَاوِرُونَ، تشبُّهاً بحالِ الوارثِ وتصرُّفِهِ فيها يَرِثُهُ واتَّساعِهِ فيه، وذهابِهِ في إنفاقِهِ طُولاً وَعَرَضاً. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿حَيْثُ نَشَاءُ﴾؟ وهل يَتَبَوِّأ أحدهم مكانَ غيره؟ قلت: يكونُ لكلِّ واحدٍ منهم جَنَّةٌ لا تُوصَفُ سَعَةً وزيادةً على الحاجة، فيتَبَوِّأ مِنْ جَنَّتِهِ حيثُ يشاءُ،

وأما اختيارُ لفظِ «السُّوقِ» وبناءُ الفِعْلِ للمفعولِ فَلِلدَّلالةِ على عِظَمَةِ الكِبَرِياءِ والجلالِ، ولِتوافقِ ما خُتِمَ بِهِ الكلامُ بِها بِدَيْءِ به، ألا ترى كيفَ قيلَ: ﴿وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءَ﴾؟ فكما أن ذلكَ المَجِيءَ لا يَدُلُّ على فضلِهِم وكرامَتِهِم بل على الكِبَرِياءِ والجلالِ، كذلكَ هذا السُّوقِ. وأيضاً: لا يَلِيقُ بهذا المَقامِ أن يُقالَ: وحَثَّها إِسْرَاعاً بِهَمِّ إلى دارِ الكِرامَةِ كما يفْعَلُ بمن يُشَرِّفُ ويُكَرِّمُ مِنَ الوافِدِينَ على بَعْضِ المُلوِكِ؛ لأنَّهُ صُدُورٌ مِنْ جِنايِ مَلِكِ المُلوِكِ بَعْدَ قِضاءِ الحَقِّ وتَوْفِي الأَجُورِ، ويمكِنُ أن يُجْرَى على المُشاكَلَةِ، فإنَّهُ لَمَّا نَسَبَ السُّوقَ إلى الكُفَّارِ وانضَمَّ مَعَهُ مَقامِ الجَبْرُوتِ والكِبَرِياءِ، قيلَ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وفي عَكْسِهِ قُوبِلَ في الكَهْفِ: ﴿وَسَاءَتْ مَرْتَفَقاً﴾ [الكَهْفِ: ٢٩] بقولِهِ: ﴿وَحَسُنَتْ مَرْتَفَقاً﴾ [الكَهْفِ: ٣١]. قالَ: ﴿وَسَاءَتْ مَرْتَفَقاً﴾ مُنْكَأً، مِنَ المِرْفَقِ، وهذا المُشاكَلَةُ قولُهُ: ﴿وَحَسُنَتْ مَرْتَفَقاً﴾^(١).

قوله: (وضر هذه القلوب)، الجوهرية: الوضر: الدرر والدسم.

قوله: (يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة)، ينصره ما روينا عن الإمام أحمد بن حنبلٍ والتِّرْمِذِيِّ، عن ابنِ عُمَرَ، أن رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلًا لِمَنْ يَنْظُرُ إلى جِنايِهِ وَأَزْواجِهِ وَنَعِيمِهِ وَخَدَمِهِ وَسُرْرِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ،

ولا يحتاج إلى جنة غيره.

[﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٧٥]

﴿حَافِينَ﴾: مُحَدِّقِينَ مِنْ حَوْلِهِ ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: يَقُولُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، مُتَلَذِّدِينَ لَا مُتَعَبِّدِينَ. فَإِنْ قُلْتَ: الْإِمَامُ يَرْجِعُ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿بَيْنَهُمْ﴾؟ قُلْتَ: يَجُوزُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْعِبَادِ كُلِّهِمْ، وَأَنَّ إِدْخَالَ بَعْضِهِمِ النَّارَ وَبَعْضِهِمِ الْجَنَّةَ لَا يَكُونُ إِلَّا قِضَاءً بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَأَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ، عَلَى أَنَّ ثَوَابَهُمْ - وَإِنْ كَانُوا مَعْصُومِينَ جَمِيعاً - لَا يَكُونُ عَلَى سَنَنِ وَاحِدٍ، وَلَكِنْ يُفَاضَلُ بَيْنَ مَرَاتِبِهِمْ عَلَى حَسَبِ تَفَاضُلِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ، فَهُوَ الْقِضَاءُ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ. فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مَنْ الْقَائِلُ ذَلِكَ؟ قُلْتَ: الْمَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ، إِمَّا جَمِيعُ الْعِبَادِ، وَإِمَّا الْمَلَائِكَةُ، كَأَنَّهُ قِيلَ:

وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ غُدْوَةً وَعَشِيَّةً، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿[القيامة: ٢٢، ٢٣]﴾^(١).

قَوْلُهُ: ﴿حَافِينَ﴾: مُحَدِّقِينَ، قَالَ مَكِّي: هُوَ نَصَبٌ عَلَى الْحَالِ؛ لِأَنَّ «تَرَى» رُؤْيَةٌ الْعَيْنِ، وَوَاحِدُهُ: حَافٍ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: لَا وَاحِدَ لَهُ^(٢).

قَوْلُهُ: ﴿لَا مُتَعَبِّدِينَ﴾، يُقَالُ: تَعَبَّدَ اللَّهُ: أَي: عَبَدَهُ. وَتَعَبَّدَهُ اللَّهُ أَي: اسْتَعْبَدَهُ. وَفُلَانٌ يَتَعَبَّدُ، كَمَا تَقُولُ: يَتَزَهَّدُ. الْأَسَاسُ: فُلَانٌ قَدْ اسْتَعْبَدَهُ الطَّمَعُ، وَتَعَبَّدَنِي فُلَانٌ وَاعْتَبَدَنِي، صَبَّرَنِي كَالْعَبِيدِ لَهُ.

قَوْلُهُ: ﴿الْمَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ إِمَّا جَمِيعُ الْعِبَادِ أَوْ^(٣) الْمَلَائِكَةُ﴾، وَعَلَى الْأَوَّلِ: تَكْرِيرُ الْحَمْدِ لِإِنَاطَةِ مَعْنَى زَائِدٍ بِهِ؛ لِأَنَّ الْأَوَّلَ: لِلتَّفْضِيلَةِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ بِحَسَبِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالسُّخْطِ

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٥٣١٧) وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٥٥٣).

(٢) «مَشْكَلُ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ» (٢: ٦٤٢).

(٣) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ، وَفِي «الْكَشَافِ»: «وَأِمَّا».

وقضى بينهم بالحق، وقالوا: الحمد لله على قضائه بيننا بالحق، وإنزال كل منّا منزلته التي هي حقه.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورة الزُّمَرِ لم يقطع الله رجاءه يوم القيامة، وأعطاه الله ثواب الخائفين الذين خافوا». وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزُّمَر.

والرّضوان، والثاني: للتفرقة بينهما بحسب الأبدان: فريق في الجنة وفريق في السّعر، فتكون الآية كالتميم بالنسبة إلى الأولى في إتمام القضاء، وعلى الثاني كالتكميل؛ لأن ذلك القضاء في حق بني آدم، وهذا في حق الملائكة، ويُؤيد التّأويل الثاني: تكرير التّحميد في الآيتين.

فإن قلت: إنّما يستقيم هذا في حق المؤمنين الذين قضِيَ لهم بالجنة، وأمّا الكافرون الذين قضِيَ لهم بالنار فكيف يحمّدون عليه؟ قلت: بحمل الجميع على المجاز، بأن يُراد بالعباد المؤمنين، أو أن يُقصد بالحمد المدح على قضائه بالحقّ والقسط، كما يرى الظالم المُنصف إذا استوفى الحاكم العادل منه حقّ جنايته، فإنه قد يأخذ في مدحه، وإليه الإشارة بقوله: «وإنزال كل منّا منزلته التي هي حقه».

قوله: (وعن عائشة رضي الله عنها)، الحديث من رواية الترمذي عنها: «أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتّى يقرأ الزُّمَرِ وبني إسرائيل»^(١).

تَمَّتِ السُّورَةُ

حامداً لله تعالى ومُصلياً على رسولِ الله ﷺ

* * *

سورة المؤمن

مكيّة. قال الحسن: إلا قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛
لأنّ الصلوات نزلت بالمدينة، وقد قيل في الحواميم كلّها:
إنها مكيات، عن ابن عباس وابن الحنفية
وهي خمسٌ وثمانون آيةً، وقيل: ثنتان وثمانون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿حَمَّ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ
الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ ١-٣]

سورة المؤمن

مكيّة، وهي خمسٌ وثمانون آيةً،

وقيل: ثنتان وثمانون آيةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ربما يوجد في بعض النسخ هذه الزيادة، وهي أن «سورة المؤمن مكيّة، قال الحسن: إلا
قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [غافر: ٥٥]؛ لأنّ الصلاة نزلت بالمدينة. وقد قيل في الحواميم
كلّها: إنها مكيات عن ابن عباس وابن الحنفية»، وكأنّ الرواية غير صحيحة؛ لأنّ الصلاة
إنما فرضت بمكة بلا خلاف سنة إحدى عشرة من النبوة، وأما حديث المعراج والإسراء من
المسجد الحرام من الحجر، وإيجاب فرض الصلاة خمسين كلّ يوم، والترجيح فيها إلى أن بلغ

قُرئَ بِإِمَالَةِ أَلْفٍ (حَا) وَتَفْخِيمِهَا، وَبِتَسْكِينِ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا. وَوَجْهُ الْفَتْحِ: التَّحْرِيكُ لِلتَّلْقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، وَإِثَارِ أَخْفِ الحَرَكَاتِ، نَحْوَ أُيْنَ وَكَيْفٍ، أَوْ: النَّصْبُ بِإِضْمَارِ «أَقْرَأُ»، وَمَنْعُ الصَّرْفِ لِلتَّأْنِيثِ وَالتَّعْرِيفِ، أَوْ لِلتَّعْرِيفِ، وَأَنَّهَا عَلَى زَنْةٍ أَعْجَمِيٍّ نَحْوَ قَابِيلَ وَهَابِيلَ. التَّوْبُ وَالنُّوْبُ وَالْأَوْبُ أَخَوَاتٌ فِي مَعْنَى الرَّجُوعِ. وَالطَّوْلُ: الْفَضْلُ وَالزِّيَادَةُ، يُقَالُ: لِفُلَانٍ عَلَى فُلَانٍ طَوْلٌ،

خمس صلوات فقد رواه الأئمة مثل البخاري ومسلم والترمذي والنسائي^(١)، وروي عن ابن مسعود: الحواميم ديباج القرآن^(٢). وقال أيضاً: إذا وقعت في آل حم - أي: الحواميم - كأتي وقعت في روضات دِمثات، أي: لِيُنَاتِ التُّرْبُ^(٣).

قوله: (بِإِمَالَةِ أَلْفٍ «حَا» وَتَفْخِيمِهَا)، ابن كثير وقالون وحفص وهشام بفتح الحاء في جميع الحواميم، وورث وأبو عمرو وبين وبين، والباقون بالإمالة وبِتَسْكِينِ الْمِيمِ السَّبْعَةَ^(٤)، قال الزجاج: فأما الميم فساكنة في قراءة القراء كلهم إلا عيسى بن عمر فإنه فتحها، وهو على وجهين: أحدهما أن يجعل اسماً للسورة، وعدم صرفها؛ لأنها على لفظ الأسماء الأعجمية، نحو هابيل وقابيل، والمعنى على «أثَلْ حَمَّ يَا هَذَا» والأجود أن يكون الفتح للتقاء الساكنين، حيث جعله اسماً للسورة حكاية عن حروف الهجاء^(٥).

قوله: (أَوْ النَّصْبُ)، عطف على قوله: «وَوَجْهُ الْفَتْحِ» أي: قُرئَ «حَم» بفتحها أو نصبها. وجهُ الفتح: التحريك للتقاء الساكنين، ووجهُ النَّصْبِ بِإِضْمَارِ «أَقْرَأُ» ثُمَّ حَذْفِ الْمُضَافِ وَأَقِيمَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ مُقَامَهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يُعْطَفَ عَلَى التَّحْرِيكِ، وَفِيهِ حَزَاةٌ.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩) ومسلم (١٦٢) والترمذي (٢١٣) والنسائي (٣٠٩) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦: ١٥٣) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤: ١٠٠) والحاكم في «المستدرک» (٢: ٤٧٤).

(٣) انظر: مصادر التخریح في الحاشية السابقة.

(٤) ولتأمل الفائدة انظر: «حجة القراءات» ص ٥٩٥.

(٥) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٦٥).

والإفضال، يقال: طَالَ عليه وتطَوَّل؛ إذا تَفَضَّل. فإن قلت: كيف اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتكبيراً، والموصوفُ معرفةٌ يقتضي أن يكون مثله معارف؟ قلت: أما ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ فمَعْرِفَتَان؛ لأنه لم يُرَدَّ بهما حَدُوثُ الفَعْلَيْنِ، وأنه يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَقْبَلُ التَّوْبَ الآنَ أو غَدًا حتى يكونا في تَقْدِيرِ الانْفِصَالِ، فيكونَ إِضَافَتُهُمَا غَيْرَ حَقِيقِيَّةٍ؛ وإنما أُريدَ ثَبُوتُ ذلك ودَوَامُهُ، فكانَ حُكْمُهُمَا حُكْمَ إلهِ الخَلْقِ وَرَبِّ العَرْشِ. وأما ﴿شَدِيدِ العِقَابِ﴾ فأمْرُهُ مُشْكَلٌ؛ لأنه في تَقْدِيرِ: شَدِيدِ عِقَابِهِ، لا يَنفُكُ

قوله: (والإفضال)، وهو عطفٌ على «الفضل».

الراغب: الطُّوْلُ من الأَسْمَاءِ المُتَضَافَةِ، يُقال: طَوِيلٌ وطَوَالٌ كَعَرِيضٍ وَعُرَاضٍ، والجمع: طِوَالٌ. وقيل: طِيَالٌ، وتطاول: أَظْهَرَ الطُّوْلَ أو الطَّوْلَ، قال تعالى: ﴿فَنَطَّأَوْا عَلَيْهِمُ الْمُعْرَمُ﴾ [القصص: ٤٥] والطُّوْلُ حُصِّنَ بِهِ الْفِضْلُ وَالْمَنْ، قال تعالى: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾^(١).

قوله: (فأمْرُهُ مُشْكَلٌ)، قال ابنُ الحَاجِبِ في «الأَمالي»: لأنَّ إِضَافَتَهُ غَيْرَ مُحْضَةٍ على كُلِّ حالٍ؛ لأنه صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ فلا يُفَرِّقُ بَيْنَ ماضِيهِ وَغَيْرِهِ، بخلافِ اسمِ الفاعِلِ^(٢). وقال أيضًا: في هذه الصفات إشكالٌ آخَرٌ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ فإنه معرفةٌ فلا يحسنُ أن يكونَ صِفَةً لِقَوْلِهِ^(٣): ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ لأنَّكَ فَصَلْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ بِالْبَدَلِ، ولا يحسنُ أن يكونَ صِفَةً لِلْبَدَلِ؛ لأنه نَكْرَةٌ و﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ معرفةٌ، فالأولى أن يُقال: هُوَ بَدَلٌ ثَانٍ مِنَ الْبَدَلِ الأوَّلِ، فكانَهُ قال: من الله العزيزِ العليمِ، من الله غَافِرِ الذَّنْبِ، من الله ذِي الطَّوْلِ^(٤).

وقال أبو البقاء: يجوزُ أن يكونَ ﴿شَدِيدِ﴾ بمعنى «مُشَدَّدِ»، كما جاء «أذِين» بمعنى «مُؤَدِّنِ»، فتكونُ الإِضَافَةُ مُحْضَةً^(٥).

(١) «مفردات القرآن» ص ٥٣٣.

(٢) «أمالي ابن الحاجب» (١: ١٥١-١٥٢).

(٣) في «الأمالي»: «لقولك».

(٤) «أمالي ابن الحاجب» (١: ١٥٢).

(٥) فيتعرّف، فيكون وصفاً أيضاً. انظر: «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١١٥).

من هذا التقدير، وقد جعله الزجاج بدلاً، وفي كونه بدلاً وحده بين الصفات نبوءاً ظاهراً، والوجه: أن يقال: لما صُوِّدَ بين هؤلاء المعارف هذه النكرة الواحدة، فقد آذنت بأنَّ كلَّها أبدالٌ غيرُ أوصاف، ومثال ذلك: قصيدة جاءت تفاعيلها كلها على «مُسْتَفْعِلُنْ»، فهي محكومٌ عليها بأنها من بَحْرِ الرَّجَزِ، فَإِنْ وَقَعَ فِيهَا جُزْءٌ وَاحِدٌ عَلَى «مُتَفَاعِلُنْ» كانت من الكامل. ولقائل أن يقول: هي صفاتٌ، وإنما حُذِفَ الْأَلِفُ وَاللَّامُ مِنْ «شَدِيدِ الْعِقَابِ»؛ ليزواج ما قَبْلَهُ وما بعده لفظاً، فقد غَيَّرُوا كَثِيرًا مِنْ كَلَامِهِمْ

وقال صاحب «الفرائد»: يمكن أن يُقال: لِمَا كَانَ الْقَابِلُ بِالنَّظَرِ إِلَى أَنَّهُ شَيْءٌ لَهُ الْقَبُولُ، لَا بِالنَّظَرِ إِلَى أَنَّهُ عَامِلٌ، صَلَحَ أَنْ يَكُونَ صِفَةً لَهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى التَّوْبَةِ، وَكَانَ مَعْرِفَةً فَصَلَحَ (١) أَنْ يَكُونَ «الشَّدِيدُ» مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ شَيْءٌ لَهُ الشَّدَّةُ لَا بِالنَّظَرِ إِلَى أَنَّهُ عَامِلٌ صِفَةً لَهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى التَّوْبَةِ، وَكَانَ «العِقَابُ» مَعْرِفَةً، فَعَلِيَ هَذَا يَكُونُ «شَدِيدُ الْعِقَابِ» مَعْرِفَةً كَمَا أَنَّهُمَا مَعْرِفَتَانِ، فَلْيَتَأَمَّلْ.

وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُ الْإِمَامِ: لَا نِزَاعَ فِي أَنَّ «غَافِرَ الذَّنْبِ وَقَابِلَ التَّوْبِ» [غافر: ٣] صِفَتَانِ، وَمُصَحَّحُهَا كَوْنُهُمَا مُفِيدَيْنِ مَعْنَى الدَّوَامِ وَالِاسْتِمْرَارِ، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: «شَدِيدِ الْعِقَابِ» (٢) لِأَنَّ صِفَاتِ اللَّهِ مُنْزَهَةٌ عَنِ الْحُدُوثِ وَالتَّجَدُّدِ، فَكَوْنُهُ شَدِيدَ الْعِقَابِ مَعْنَاهُ كَوْنُهُ بِحَيْثُ يَشُدُّ عِقَابُهُ، وَهَذَا الْمَعْنَى حَاصِلٌ أَبَدًا وَغَيْرُ مَوْصُوفٍ بِأَنَّهُ حَاصِلٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ (٣).

وَقُلْتُ: نَحْوٌ مِنْ هَذَا مَرَّ فِي «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» [الفاتحة: ٤] وَقَوْلُهُ: «وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا» [الأنعام: ٩٦].

قَوْلُهُ: (نُبُوٌّ ظَاهِرٌ)، عَنْ بَعْضِهِمْ: تَوْسِيطُ الْبَدَلِ بَيْنَ الصِّفَاتِ جَائِزٌ فِي النَّحْوِ، لَكِنَّهُ قَبِيحٌ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْبَيَانِ؛ لِأَنَّ الصِّفَاتِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مَقْصُودٌ، وَالْبَدَلُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَقْصُودٍ، فَيَلْزَمُ التَّنَاقُضُ.

(١) فِي النِّسْخَةِ (ط): «يَصْلَحُ».

(٢) مِنْ قَوْلِهِ: «التَّوْبَةُ وَكَانَ الْعِقَابُ» مَعْرِفَةً إِلَى هُنَا سَقَطَ مِنْ (ط).

(٣) «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ» (٢٧: ٤٨٤).

عن قَوَائِنِهِ لِأَجْلِ الْإِزْدِوَاجِ، حَتَّى قَالُوا: مَا يَعْرِفُ سُحَادِيهِ مِنْ عُنَادِيهِ، فَتَنُوا مَا هُوَ وَتَرَّ لِأَجْلِ مَا هُوَ شَفَعٌ؛ عَلَى أَنَّ الْحَلِيلَ قَالَ - فِي قَوْلِهِمْ: مَا يَحْسِنُ بِالرَّجُلِ مِثْلَكَ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ، وَمَا يَحْسِنُ بِالرَّجُلِ خَيْرٌ مِنْكَ أَنْ يَفْعَلَ -: إِنَّهُ عَلَى نِيَّةِ الْأَلْفِ وَاللَّامِ كَمَا كَانَ «الْجَمَاءُ الْغَفِيرَ» عَلَى نِيَّةِ طَرْحِ الْأَلْفِ وَاللَّامِ، وَمَا سَهَّلَ ذَلِكَ الْأَمْنُ مِنَ اللَّبْسِ وَجِهَالَةِ الْمُصَوِّفِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَقَالَ: قَدْ تَعَمَّدَ تَنْكِيرُهُ وَإِبْهَامُهُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى فَرْطِ الشَّدَّةِ، وَعَلَى مَا لَا شَيْءَ أَهْمَى مِنْهُ وَأَمْرٌ لَزِيَادَةِ الْإِنْدَارِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَقَالَ: هَذِهِ التُّكْنَةُ هِيَ الدَّاعِيَةُ

قوله: (مَا يَعْرِفُ سُحَادِيهِ مِنْ عُنَادِيهِ)، مَا وَجَدْتُ فِي الْأَصُولِ لَهُ وَجْهًا سِوَى فِي الْحَاشِيَةِ، السُّحَادِلِ: الذَّكْرُ. وَالْعُنَادِلَانِ: الْحُصَيْتَانِ. وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ مَذْكُورٌ فِي كِتَابِ «الشَّامِلِ فِي اللَّغَةِ»^(١).

قوله: (بِالرَّجُلِ خَيْرٌ مِنْكَ... عَلَى نِيَّةِ الْأَلْفِ وَاللَّامِ)؛ لِأَنَّهُ صِفَةٌ لِلْمَعْرِفَةِ، يَعْنِي: إِنْ مُنِعَ لَفْظُهُ مِنْ إِدْخَالِ الْأَلْفِ وَاللَّامِ فَهُوَ مَتْنَوِيٌّ؛ لِأَنَّ «أَفْعَلَ مِنْ كَذَا» مَعْهُودٌ بَيْنَ الْمُتَكَلِّمِ وَالْمُخَاطَبِ، وَلِذَلِكَ جَازَ أَنْ يُدْخَلَ ضَمِيرُ الْفَصْلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُبْتَدَأِ.

قوله: (الْجَمَاءُ الْغَفِيرِ)، عَنْ بَعْضِهِمْ: إِنَّمَا نَصَبَ «الْجَمَاءُ الْغَفِيرَ» عَلَى الْحِكَايَةِ، كَمَا يُقَالُ: جَاءَ الْقَوْمَ الْجَمَاءُ الْغَفِيرِ، أَي: جَمًّا غَفِيرًا. وَقَالَ الْمِيدَانِيُّ: قَالَ سَيَّبَوَيْهِ: هُوَ اسْمٌ جُعِلَ مُصَدَّرًا فَانْتَصَبَ كَانْتِصَابِ قَوْلِهِ:

فَأَرْسَلَهَا الْعِرَاكَ وَلَمْ يَذْهَبْهَا^(٢)

قوله: (قَدْ تَعَمَّدَ تَنْكِيرُهُ وَإِبْهَامُهُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى فَرْطِ الشَّدَّةِ)، كَأَنَّهُ قِيلَ: مِنْ اللَّهِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ وَلَا شَيْءَ أَذْنَى مِنْ عِقَابِهِ، وَنَظِيرُهُ^(٣) قَوْلُهُ: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقِي عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾

(١) وَذَكَرَهُ الْفَيْرُوزِآبَادِيُّ فِي «الْقَامُوسِ الْمَحِيطِ» «السُّحَادِلِ» كَعَلَابُطٍ بِضَمِّ أَوَّلِهِ. وَلِتَهَامِ الْفَائِدَةِ انظُر: «تَاجِ الْعُرُوسِ» «عَنْدَلٌ».

(٢) «مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ» (٢: ٢٧١) وَالشُّطْرُ الْمَذْكُورُ سَبَقَ تَحْرِيجُهُ مِنْ شَعْرِ لَبِيدِ بْنِ رَبِيعَةَ، وَانظُرْ كَلَامَ سَيَّبَوَيْهِ فِي «الْكِتَابِ» (١: ٣٧٢).

(٣) سَقَطَ لَفْظُ: «نَظِيرُهُ» مِنَ النُّسْخَةِ (ف).

إلى اختيار البدل على الوصف إذا سُلِّكَتْ طريقة الإبدال. فإن قلت: ما بأل الواو في قوله: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾؟ قلت: فيها نُكْتَةٌ جَلِيلَةٌ؛ وهي إفادة الجمع للمُذنبِ التائب بين رحمتين: بين أن يَقْبَلَ توبته فيَكْتَبَهَا له طاعة من الطاعات، وأن يجعلها محمَّاة

[القمر: ٥٥] أي: عند مليك لا يوصفُ مُلكه، ومُقْتَدِرٍ لا يُكْتَنُّه اقتداره، ولكن لَمَّا كانتِ السورة متضمنةً للإنذارِ البليغِ والدعوة إلى الإنابة والتوبة استدعى ذلك لبراعة الاستهلال أن يُسَلِّكَ بالأوصافِ كلها طريقة الإبدالِ المستلزمة لتكرير العوامل؛ ليكون أنبل وأفخم.

قوله: (وهي إفادة الجمع للمُذنبِ التائبِ بين رحمتين)، قال القاضي: ويجوز أن يُستدلَّ بالواو على تغاير الوصفين؛ إذ ربما يُتَوَهَّمُ الاتحادُ وتغايرُ موقعِ الفعلين؛ لأنَّ العَفْرَ هو السِّرُّ فيكونُ الذنبُ باقياً، وهو لَمَنْ لم يُتَّب، فإنَّ التائبِ من الذنبِ كَمَنْ لا ذنبَ له، و«التَّوْبُ» مصدرٌ كالتَّوْبَةِ، وقيل: جَمَعُهَا^(١).

وقلت: كأنه أراد بقوله: «تَغَايُرُ مَوْعِ الْعَمَلَيْنِ» ردَّ قولِ المصنِّفِ، يعني: إنما جيءَ بالواو ليُقَرَّقَ بين الوصفين ويُؤدَّن بتغايرِ موقعِ السِّرِّ والقبول، فيكونُ العُفْرانُ بالنسبة إلى مَنْ لم يُتَّب، والقبولُ بالنسبة إلى مَنْ تاب.

روى السُّلَمِيُّ عن سَهْلٍ^(٢) رحمهما الله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ أي: سَاتِرِهِ على مَنْ يشاء، ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ أي: مَنْ تابَ إليه وأخْلَصَ العملَ^(٣)، وعليه النظم؛ لأنَّ تأخيرَ القبولِ عن العُفْرانِ - على أنَّ رُتْبَتَهُ التَّقْدِيمُ بحسبِ الموجودِ في شخصٍ واحدٍ - دلٌّ على نفيِ تَوْهَمِ الجمعِ فيه.

الراغب: العَفْرُ: إلباسُ الشيءِ ما^(٤) يصونه عن الدَّنَسِ، ومنه قيل: اغْفِرْ ثوبَكَ في الوعاء، واضْبِغْ ثوبَكَ، فإنه اغْفِرْ للوسخِ، والعُفْرانِ والمغفرة من الله تعالى: هو أن يصونَ

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٥١).

(٢) يعني ابن عبد الله التستري، سبقت ترجمته.

(٣) «حقائق التفسير» (٢: ٢٠٦).

(٤) في النسخ الخطية «تأ» وصوبناه من «مفردات القرآن».

للدُّنُوبِ، كَأَنْ لَمْ يَذْنِبْ، كَأَنَّهُ قَالَ: جَامِعِ الْمَغْفِرَةَ وَالْقَبُولَ. وَرُوي: أَنَّ عَمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ افْتَقَدَ رَجُلًا ذَا بَأْسٍ شَدِيدٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، فَقِيلَ لَهُ: تَتَابَعِ فِي هَذَا الشَّرَابِ، فَقَالَ عَمَرٌ لِكَاتِبِهِ: اكْتُبْ: مِنْ عُمَرَ إِلَى فُلَانٍ: سَلَامٌ عَلَيْكَ، وَأَنَا أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * حَمَّ *﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾. وَخَتَمَ الْكِتَابَ، وَقَالَ لِرَسُولِهِ: لَا تَدْفَعُهُ إِلَيْهِ حَتَّى تَجِدَهُ صَاحِبِيًّا. ثُمَّ أَمَرَ مَنْ عِنْدَهُ بِالذُّعَاءِ لَهُ بِالتَّوْبَةِ. فَلَمَّا آتَتْهُ الصَّحِيفَةُ جَعَلَ يَقْرُؤُهَا وَيَقُولُ: قَدْ وَعَدَنِي اللهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي، وَحَذَرَنِي عِقَابَهُ! فَلَمْ يَبْرَحْ يُرَدِّدُهَا حَتَّى بَكَى، ثُمَّ نَزَعَ فَأَحْسَنَ النُّزُوعَ وَحَسَّنَتْ تَوْبَتَهُ، فَلَمَّا بَلَغَ عَمَرُ أَمْرَهُ قَالَ: هَكَذَا فَاصْنَعُوا، إِذَا رَأَيْتُمْ أَحَاكِمَ قَدْ زَلَّ فَسَدَّدُوهُ وَوَقَّفُوهُ، وَادْعُوا لَهُ اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ، وَلَا تَكُونُوا أَعْوَانًا لِلشَّيَاطِينِ عَلَيْهِ.

العبد من أن يمسه العذاب. والاستغفار طلب ذلك بالمقال والفعال. وقوله: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] لم يؤمروا بأن يسألوه ذلك باللسان دون الفعل، فقد قيل: الاستغفار باللسان دون الفعل فعل الكاذبين^(٢).

قوله: (تتابع^(٣) في هذا الشراب)، الأساس: فلان يتتابع في الأمور: يرمي بنفسه فيها من غير تثبیت. وتتابع الناس في الشر: تهافتوا.
قوله: (فسدّدوه ووقفوه^(٤))، قيل: وقفه على الترتيب: أطلععه عليه. ويروى: «وقفوه» عن بعضهم؛ أي: ادعوا الله له بالسداد والتوفيق.

(١) في الأصل: «وإليه»، والصواب حذف الواو.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٦٠٩.

(٣) قوله: «تتابع» بآباء قبل العين وليس بالباء. ومن أبلغ استعمال له ما ذكره الجاحظ في «البيان والتبيين» (٢: ١٢٥) من كلام أبي حمزة الشاري من فرسان الخوارج وبلغائهم، حين وقف خطيبًا في أهل مكة في موسم الحج. وهي خطبة باذخة شريفة المحل على ما فيها من ضلالات الخوارج.

(٤) في النسخة (ف): «فسدّد وعدّد ووقفوه» وهو مما لا معنى له. وحديث عمر المذكور أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤: ٩٧).

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرَكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ﴾ [٤]

سَجَّلَ عَلَى الْمُجَادِلِينَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِالْكَفْرِ - والمراد: الجِدَالُ بِالْبَاطِلِ - مِنَ الطَّعْنِ فِيهَا، وَالْقَصْدُ إِلَى إِذْحَاقِ الْحَقِّ وَإِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ [غافر: ٥]، أَمَا الْجِدَالُ فِيهَا لِإِيضَاحِ مُلْتَبِسِهَا، وَحَلِّ مُشْكِلِهَا، وَمُقَادِحَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي اسْتِنْبَاطِ مَعَانِيهَا، وَرَدِّ أَهْلِ الزَّيْغِ بِهَا وَعَنْهَا، فَأَعْظَمُ جِهَادٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّ جِدَالَ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ» وَإِيرَادُهُ مُنْكَرًا، وَأَنْ لَمْ يُقَلَّ: إِنَّ الْجِدَالَ، تَمَيِّزٌ مِنْهُ بَيْنَ جِدَالٍ وَجِدَالٍ. فَإِنْ قُلْتَ: مَنْ أَيْنَ تَسَبَّبَ لِقَوْلِهِ: ﴿ فَلَا يَغْرُرَكَ ﴾

قَوْلُهُ: (إِنَّ جِدَالَ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ)، هَذَا الْحَدِيثُ مَذْكُورٌ فِي «شَرْحِ السُّنَّةِ»، أَوَّلُهُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَلَا تُمَارَاوُ فِي الْقُرْآنِ، فَإِنَّ مَرَاءَ فِيهِ كُفْرٌ»^(١). رَوَاهُ أَبُو جُهَيْمٍ، وَفِيهِ أَيْضًا: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمَرَاءُ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ»^(٢).

قَوْلُهُ: (وَإِيرَادُهُ مُنْكَرًا، وَأَنْ لَمْ يُقَلَّ: إِنَّ الْجِدَالَ تَمَيِّزٌ بَيْنَ جِدَالٍ وَجِدَالٍ)، قَالَ الْإِمَامُ: اسْتِعْمَالُ الْجِدَالِ - أَي: تَعَدِّيهِ - بـ «فِي» مُشْعِرٌ بِالْجِدَالِ الْبَاطِلِ، وَاسْتِعْمَالُهُ بـ «عَنْ» مُشْعِرٌ بِالْجِدَالِ لِأَجْلِ تَقْرِيرِهِ وَالذَّبِّ عَنْهُ، فَإِنَّ الْجِدَالَ نَوْعَانِ: حَقٌّ وَبَاطِلٌ، أَمَا الْحَقُّ فَهُوَ حَرْفَةُ الْأَنْبِيَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَادَلْتَهُمْ بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿ قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا ﴾ [هود: ٣٢]. وَالْجِدَالُ فِي آيَاتِ اللَّهِ هُوَ أَنْ يَقُولَ مَرَّةً: إِنَّهُ سِحْرٌ، وَمَرَّةً: إِنَّهُ شَعْرٌ، وَمَرَّةً: إِنَّهُ أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ^(٣).

(١) «شرح السنة» (٤: ٥٠٦) وهو في «مسند الإمام أحمد» (١٧٥٤٢) وأخرجه الطبري في «التفسير» (١: ١٩) وأبو عبيد في «فضائل القرآن» ص ٣٣٧، وصحح إسناده ابن كثير في «فضائل القرآن» ص ١٩، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧: ١٥١) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٢) وأخرجه أبو داود (٤٦٠٣) وانظر تمام تحريمه في «صحيح ابن حبان» (١٤٦٤) و«مسند الإمام أحمد» (٩٤٧٩).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٤٨٥).

ما قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا مَشْهُودًا عَلَيْهِمْ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ بِالْكَفْرِ، وَالْكَافِرُ

الراغب: الجدال: المفاوضة على سبيلِ المنازعةِ والمغالبة، وأصله من: جَدَلْتُ الحَبْلَ: أَحْكَمْتُ فْتَلَهُ. وَجَدَلْتُ البِنَاءَ: أَحْكَمْتُهُ^(١).

قوله: (من حيث إنهم [لَمَّا] كانوا مشهودًا عليهم من قبل الله بالكفر)، أي: مسجلًا عليهم بالكفر^(٢) في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأداةِ الحصر، يعني: لَمَّا بَالِغٌ فِي الحُكْمِ بِالْكَفْرِ عَلَيْهِمْ صَارَ سَبَبًا لِأَن يُقَالَ: ﴿فَلَا يَغْرُوكَ﴾؛ لِأَنَّ الكَافِرَ شَقِيٌّ مُطْلَقًا مُنْغَمَسٌ فِي لَذَاتِ هَذَا العَاجِلِ غَافِلٌ عَنِ الآجِلِ، وَعَاقِبَتُهُ الدَّمَارُ، وَالعَاقِلُ^(٣) لَا يَنْظُرُ إِلَى ظَاهِرِ الحَالِ وَالتَّمَتُّعِ بِزَهْرَةِ الحَيَاةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فَالفَاءُ جَوَابٌ شَرْطٍ مَحذُوفٌ، وَإِلَيْهِ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «لَمَّا كَانُوا مَشْهُودًا عَلَيْهِمْ بِالْكَفْرِ»، وَالكَافِرُ لَا أَحَدٌ أَشَقَى مِنْهُ، وَجَبَّ عَلَى مَنْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ أَن لَا تَرْجَحَ أَحْوَاهُمْ فِي عَيْنِهِ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ كالتذليلِ عَلَى سَبِيلِ التَّمثِيلِ لِحَمَلَةِ أَحْوَالِ المُجَادِلِينَ الكَافِرِينَ.

وقلت: الظاهر أن اتصال ﴿فَلَا يَغْرُوكَ﴾ بما قبله من حيث الإنظار والإمهال للتمتع باللذات العاجلة للاستدراج، وإلا كان حقهم أن يُصَبَّ عليهم العذابُ صَبًّا بِسَبَبِ عِنَادِهِمْ وَجِدَاهُمْ البَاطِلِ لِيُذْخِرُوا بِهِ الحَقَّ، أَي: لَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ الظَّاهِرَةِ إِلاَّ المَعَانِدُ المُكَابِرُ^(٤)، ﴿فَلَا يَغْرُوكَ تَقْلُبُهُمْ فِي آلِيكَ﴾ وَتَمَتُّعُهُمْ أَيَّامًا قَلِيلًا، فَإِنَّا نَأْخُذُهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، أَلَا تَرَى إِلَى سَوْءِ عَاقِبَةِ أَوْلَئِكَ المُكذِّبَةِ المُجَادِلَةَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ وَالأَحْزَابِ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَأمْهَلْتُهُمْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ؟ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ، وَأَمَّا اتِّصَالُ ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ بِالكَلَامِ السَّابِقِ، فَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا قَالَ: ﴿حَمَّ * تَنْزِيلَ الْكِتَابِ﴾ وَفَحَمَّ السُّورَةَ أَوْ الكِتَابَ بِكَوْنِهِ تَنْزِيلًا مِنَ الإِلَهِ المَعْبُودِ المَوْصُوفِ

(١) «مفردات القرآن» ص ١٨٩.

(٢) قوله: «أي: مسجلًا عليهم بالكفر» سقط من (ف).

(٣) في النسخة (ف): «والغافل»، بالغيين والفاء، وهو تصحيف.

(٤) في النسختين (ج) و(ف): «الكفر»، وما أثبتناه هو الأشبه بالصواب.

لا أَحَدَ أَشْقَى مِنْهُ عِنْدَ اللَّهِ؛ وَجَبَ عَلَى مَنْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ أَنْ لَا تَرْجَعَ أَحْوَالُهُمْ فِي عَيْنِهِ. وَلَا يَغُرَّهُ إِقْبَالُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَتَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ بِالتَّجَارَاتِ النَّافِقَةِ وَالْمَكَاسِبِ الْمُرِيحَةِ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ كَذَلِكَ يَتَقَلَّبُونَ فِي بِلَادِ الشَّامِ وَالْيَمَنِ، وَلَهُمُ الْأَمْوَالُ يَتَّجِرُونَ فِيهَا وَيَتَرَبَّحُونَ، فَإِنَّ مَصِيرَ ذَلِكَ وَعَاقِبَتَهُ إِلَى الزَّوَالِ، وَوَرَاءَهُ شِقَاوَةُ الْأَبَدِ. ثُمَّ ضَرَبَ لِتَكْذِيبِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ لِلرُّسُلِ وَجِدَاهِمُ بِالْبَاطِلِ وَمَا آذَخَرَهُمْ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ مَثَلًا: مَا كَانَ مِنْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمَمِ، وَمَا أَخَذَهُمْ بِهِ مِنْ عِقَابِهِ، وَأَحَلَّهُ بِسَاحَتِهِمْ مِنْ انتِقَامِهِ. وَقُرَى: (لَا يَغُرُّكَ).

[﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْخِلْهُمْ فِي الْهَلَاكِ وَاللُّغَابِ فَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا لِيَجْزِيَهُمُ الْعَذَابَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لِحُجَّتٍ إِنْ كَانُوا هَادِينَ﴾ ٥]

﴿وَالْأَحْزَابُ﴾ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا عَلَى الرُّسُلِ وَنَاصَبُوهُمْ؛ وَهُمْ: عَادٌ وَثَمُودٌ وَفِرْعَوْنُ وَغَيْرُهُمْ، ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي هِيَ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابِ

بِصِفَاتِ الْعِلْمِ الْكَلْبِيِّ^(١) وَالْعِزِّ الْغَالِبِ، الْجَامِعِ بَيْنَ غَفْرَانِ الذَّنْبِ وَقَبُولِ التَّوْبَةِ، الْمُتَفَرِّدِ بِالْعِقَابِ الَّذِي لَا يُكْتَنَتُهُ كُنْهَهُ، وَبِالْإِفْضَالِ الَّذِي لَا يَقَادَرُ قَدْرُهُ قَالَ: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِنَا اللَّهُ﴾ أَي: مَا يُجَادِلُ فِي مِثْلِ هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَى الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ إِبَانَةً وَإِعْجَازًا الْمُنَزَّلِ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ الْمَوْصُوفِ بِنَعْوَتِ الْكِمَالِ إِلَّا أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ الْكُفْرَةِ الْمَغْرُورِينَ، فَلَا يَغُرُّنَّ مِثْلَكَ فِي مَنْصِبِ الرِّسَالَةِ تَقَلُّبُ أَوْلِيكَ الْأَنْعَامِ الْمَنْغَمِسِينَ فِي هَذَا الْحُطَامِ. فَقَوْلُهُ: ﴿مَا يَنْتَ اللَّهُ﴾ مُظَهَّرٌ أَقِيمٌ مَقَامَ الْمُضْمَرِ لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّفْخِيمِ.

قَوْلُهُ: (مَا كَانَ مِنْ نَحْوِ ذَلِكَ)، قِيلَ: هُوَ مَفْعُولٌ ثَانٍ لـ «ضَرِبَ»، وَقِيلَ: بَدَلٌ مِنْ «مَثَلًا»، وَالْأَحْسَنُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا أَوَّلًا؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: ضَرِبَ مَا وَجَدَ مِنْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمَّةِ. «وَأَحَلَّهُ بِسَاحَتِهِمْ^(٢)» عَطَفَ عَلَى «أَخَذَهُمْ» وَالضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى «مَا»، وَ«مِنْ انتِقَامِهِ» بَيِّنَةٌ

(١) فِي النِّسْخَةِ (ط): «الْكَامِلِ».

(٢) سَقَطَ لَفْظُ «بِسَاحَتِهِمْ» مِنْ (ف) وَ(ح).

﴿بِرَسُولِهِمْ﴾، وقرئ: (برسولها)، ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾: ليتمكنوا منه، ومن الإيقاع به وإصابته بما أرادوا من تعذيب أو قتل. ويقال للأسير: أخيد. ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ يعني أنهم قصدوا أخذه. فجعلتُ جزاءهم على إرادة أخذه أن أخذتهم، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فإنكم تمرون على بلادهم ومساكنهم فتعاينون أثر ذلك. وهذا تقريرٌ فيه معنى التعجيب.

[﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ٦٦]

﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ في محلِّ الرفع بدلٌ من ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، أي: مثل ذلك الوجوبِ وَجَبَ على الكفرة كوثم من أصحاب النار. ومعناه: كما وَجَبَ إهلاكهم

قوله: ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾: ليتمكنوا منه، يريدُ أن قوله: ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ كناية عن القتلِ والتعذيب؛ لأنهم ما اهتموا بالأخذِ المتعارف، قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧] ولاقتضاء مقام التَّسْلِي. وقوله: «ليتمكنوا منه» بيانٌ لاستلزام الأخذِ القتلِ^(١).

قوله: (فجعلتُ جزاءهم على إرادة أخذه)، «على» صلةٌ «جزائهم»، أي: جازيتهم على إرادة أخذهم الرسول.

فإن قلت: الظاهرُ أن قوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ جزاءٌ لتكذيبهم واهتمامهم بأخذِ الرسولِ والجدالِ بالباطل، لا سيما وأصلُ الكلامِ في الجدالِ لقوله تعالى: ﴿مَا يَجْدِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، فكيف جعله جزاءً لقوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾؟

قلت: السؤالُ ظاهر، والجوابُ مُشْكِل، ويمكنُ أن يُقال: إن تكذيبهم وجداهم كان للחסد، وأن مثل ذلك الرسولِ لا ينبغي أن يكونَ موطأً العقب، فلن يتخلصوا منه إلا بالقتل، فجعل ذلك أخذًا^(٢) في الاعتبارِ تغليبا أو مُشاكلة، وإنما اعتبر هذا لا ما سبق له الكلامُ من المجادلةِ الباطلةِ مزيدًا للتَّسْلِي.

(١) سقط لفظ «القتل» من النسخة (ط).

(٢) في النسخة (ط): «أصلاً».

في الدنيا بالعذاب المستأصل، كذلك وَجَبَ إهلاكُهم بعذاب النارِ في الآخرة؛ أو في محلِّ النصب بحذف لامِ التعليل وإيصالِ الفعل. و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: قُرَيْشٌ، ومعناه: كما وَجَبَ إهلاكُ أولئك الأممِ، كذلك وَجَبَ إهلاكُ هؤلاء؛ لأنَّ علةَ واحدةٍ تجمَعُهم أنهم من أصحاب النار.

قوله: (أو في محلِّ النصب)، عطفٌ على قوله: «في محلِّ الرفع»، وعلى الأول: المرادُ الأممُ المذكورةُ في قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يدلُّ عليه قوله: «كما وَجَبَ إهلاكُهم في الدنيا إلى آخره»، والتشبيهُ واقعٌ في حالتهم، والوجهُ الجامعُ للطرفين إيجابُ العذاب، يعني: كما وَجَبَ عليهم عذابُ الاستئصالِ في الدنيا؛ لأجل الكفرِ، كذلك وَجَبَ عليهم عذابُ النارِ في الآخرة؛ لأجل قولنا: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. وعلى الثاني: التشبيهُ واقعٌ بين حالتي أولئك الكفرةِ وهؤلاءِ الحاضرين، والوجهُ الجامعُ قوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

فإن قلتَ: ما وجهُ اختصاصِ كلِّ من الوجهين بما خصَّه؟

قلت: على الأول: الذين كفروا مُظهِرٌ وَضِعَ موضعَ المضمَرِ للعليةِ فلم يحتجَ إلى تعليلٍ آخر، فأبدلَ ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ تقريرًا وتوكيدًا. وعلى الثاني: ليسَ بذلك، فاستدعى أن يكونَ تعليلًا على وجهٍ يُبَيِّنُ وجهَ تشبيهِ هؤلاءِ بأولئك، ويحتملُ أن يكونَ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عامًا مُتَنَاوِلًا للمذكورين وغيرهم، و«أنهم» تعليلٌ أو بدل، فيدخلُ في العمومِ المذكورينَ دخولًا أوليًا، فعلى الأول: «أنهم» بدلٌ لا غير، وعلى الثاني: تعليل. وعلى الثالث: يحتملها. والنظْمُ أوفقُ للثاني لقوله: «ثم ضرب لتكذيبهم مثلاً ما كان من نحو ذلك من الأمم».

ولما فرغَ من ضربِ المثلِ وإدخالِ المجادلينَ في آياتِ الله المعرضينَ عن الإنابةِ إلى غافرِ الذنبِ وقابلِ التَّوْبِ في زمرةِ الذينَ ظهرتْ عليهم آثاُرٌ وصفِ شديدِ العقابِ تذييلًا^(١)، وأرادَ أن يشرعَ في ذِكْرِ مَحَالِّفِهِمْ من المؤمنينَ المخبتينَ المنيبينَ إلى قابلِ التَّوْبِ ذي الطَّوْلِ، أَجَلَ قَدْرَهُمْ وعَظَمَ شأنهم، فاستأنفَ بِذِكْرِ الكُروبيِّينَ المقرَّبينَ عنده، وجعلَ التخلُّصَ

(١) سقط لفظ «تذييلًا» من النسخة (ط).

وَقُرئ: (كلمات).

[﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ٧-٩]

رُوي: أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورؤوسهم قد حُرقت العرش، وهم خُشوع لا يرفعون طرفهم. وعن النبي ﷺ: «لا تتفكروا في عِظَمِ رَبِّكُمْ، ولكن تفكروا فيما خلق الله من الملائكة، فإنَّ خلقاً من الملائكة يُقال له: إسرافيلُ زاويةٌ من زوايا العرشِ على كاهله، وقَدَمَاهُ في الأرضِ السفلى، وقد مَرَّقَ رأسُه من سبعِ سماوات، وإنه لَيَبْضَأُ.....»

والرابطة بينهم وبينهم الإيمان، فأدخلهم في زمرة من هذا الوصف، كما أدخل أولئك في زمرة الأمم السالفة لجامع الكفر، وذكر ثناءهم لهم واستغفارهم إياهم، وصرح بذكر ما به امتازوا من الفرقة السابقة بقولهم: ﴿الَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾.

قوله: (وَقُرئ «كلمات»)، نافع وابن عامر: على الجمع، والباقون: بالتوحيد^(١).

قوله: (وقد مرق رأسه)، أي: جاوزَ وخرقَ وتعدي. الأساس: مرق السهمُ مُروقا، ومن المجاز: مرق من الدين مُروقا.

قوله: (ليتضاءل)، النهاية: يتضاءل: يتصاغرُ تواضعا له. وتضاءل الشيء: إذا انقبض وانضمَّ بعضه إلى بعض.

(١) وحجتهم أنها تجمع سائر الكلمات وتقع مفردة على الكثرة، فإذا كان كذلك استغني بها عن الجمع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] فأفرد الصوت مع الإضافة إلى الكثرة فكذلك الكلمة. انتهى بتصرف من «حجة القراءات» ص ٦٢٧.

من عَظْمَةِ اللَّهِ حتى يصير كأنه الوَصْعُ». وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ جَمِيعَ الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَغْدُوا وَيَرَوْحُوا بِالسَّلَامِ عَلَى حَمَلَةِ الْعَرْشِ تَفْضِيلًا لَهُمْ عَلَى سَائِرِ الْمَلَائِكَةِ». وقيل: خَلَقَ اللَّهُ الْعَرْشَ مِنْ جَوْهَرَةِ خَضِرَاءَ، وَبَيْنَ الْقَائِمَتَيْنِ مِنْ قَوَائِمِهِ خَفَقَانُ الطَّيْرِ الْمُسْرِعِ ثَمَانِينَ أَلْفَ عَامٍ. وقيل: حَوْلَ الْعَرْشِ سَبْعُونَ أَلْفَ صَفٍّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، يَطُوفُونَ بِهِ مَهْلِكِينَ مُكَبَّرِينَ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ سَبْعُونَ أَلْفَ صَفٍّ قِيَامًا، قَدْ وَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ عَلَى عَوَاتِقِهِمْ رَافِعِينَ أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ مِثَّةُ أَلْفِ صَفٍّ قَدْ وَضَعُوا الْأَيْمَانَ عَلَى الشَّائِلِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يُسَبِّحُ بِهَا لَا يُسَبِّحُ بِهِ الْآخَرُ. وقرأ ابن عَبَّاسٍ: (الْعَرْشُ) بِضَمِّ الْعَيْنِ. فَإِنْ قُلْتَ: مَا فَائِدَةُ قَوْلِهِ: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وَلَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ أَنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِهِ مُؤْمِنُونَ؟ قُلْتُ: فَائِدَتُهُ إِظْهَارُ شَرَفِ الْإِيمَانِ وَفَضْلِهِ، وَالتَّرغِيبُ فِيهِ كَمَا وَصَفَ الْأَنْبِيَاءُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ بِالصَّلَاحِ لَذَلِكَ، وَكَمَا عَقَّبَ أَعْمَالَ الْخَيْرِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَدَكَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البلد: ١٧]، فَأَبَانَ بِذَلِكَ فَضْلَ الْإِيمَانِ. وَفَائِدَةُ أُخْرَى؛ وَهِيَ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ لَوْ كَانَ كَمَا تَقُولُ الْمُجَسِّمَةُ، لَكَانَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ مُشَاهِدِينَ مُعَايِنِينَ، وَلَمَّا وَصَفُوا بِالْإِيمَانِ؛ لِأَنَّهُ إِنْهَا يُوصَفُ بِالْإِيمَانِ الْغَائِبِ، فَلَمَّا وَصَفُوا بِهِ عَلَى سَبِيلِ

قَوْلُهُ: (الْوَصْعُ)، يُرْوَى بِفَتْحِ الصَّادِ الْمَهْمَلَةِ وَسُكُونِهَا، طَائِرٌ أَصْغَرُ مِنَ الْعَصْفُورِ، وَالْجَمْعُ: وَضْعَانُ.

قَوْلُهُ: (لَوْ كَانَ كَمَا تَقُولُ الْمُجَسِّمَةُ، لَكَانَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ مُعَايِنِينَ) (١) مُشَاهِدِينَ (٢) وَلَمَّا وَصَفُوا بِالْإِيمَانِ)، قَالَ الْإِمَامُ: إِنَّهُمْ مُدَحُّوهُ بِوَصْفِ الْإِيمَانِ، وَالْإِقْرَارُ بِوُجُودِ شَيْءٍ مُعَيَّنٍ لَا يَوْجِبُ الْمَدْحَ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْإِقْرَارَ بِوُجُودِ الشَّمْسِ بِكُونِهَا مُضِيئَةً لَا يَوْجِبُ الْمَدْحَ؟ وَرَحِمَ اللَّهُ صَاحِبَ «الْكَشَافِ»، فَلَوْ لَمْ يَحْصُلْ فِي كِتَابِهِ إِلَّا هَذِهِ النُّكْتَةُ لَكَفَاهُ شَرْفًا وَفَخْرًا (٣).

(١) فِي النِّسْخَةِ (ف): مُعَايِنِينَ.

(٢) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ، وَفِي «الْكَشَافِ»: «مُشَاهِدِينَ مُعَايِنِينَ».

(٣) «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ» (٢٧: ٤٨٨).

الثناء عليهم، عُلِمَ أَنَّ إِيَابَهُمْ وَإِيَابَانَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَكُلٌّ مِّنْ غَابٍ عَنِ ذَلِكَ الْمَقَامِ سَوَاءً فِي أَنْ إِيَابَانَ الْجَمِيعِ بِطَرِيقِ النَّظْرِ وَالِاسْتِدْلَالَ لَا غَيْرَ، وَأَنَّهُ لَا طَرِيقَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ إِلَّا هَذَا، وَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنِ صِفَاتِ الْأَجْرَامِ. وَقَدْ رُوِيَ التَّنَاسُبُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَيُؤْمِنُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي مِثْلِ حَالِهِمْ وَصِفَتِهِمْ. وَفِيهِ تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الْإِيَابَانَ فِي الْإِيَابَانِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَدْعَى شَيْءٍ إِلَى النَّصِيحَةِ، وَأَبْعَثَهُ عَلَى إِحْضَارِ الشَّفَقَةِ وَإِنْ تَفَاوَتِ الْأَجْنَاسُ وَتَبَاعَدَتِ الْأَمَاكِنُ. فَإِنَّهُ لَا تَجَانُسَ بَيْنَ مَلَكٍ وَإِنْسَانٍ، وَلَا بَيْنَ سَمَآوِيٍّ وَأَرْضِيٍّ قَطُّ، ثُمَّ لَمَّا جَاءَ جَامِعُ الْإِيَابَانِ جَاءَ مَعَهُ التَّجَانُسُ الْكَلْبِيُّ وَالتَّنَاسُبُ الْحَقِيقِيُّ، حَتَّى اسْتَغْفَرَ مَنْ حَوْلَ الْعَرْشِ لِمَنْ فَوْقَ الْأَرْضِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]. أَي: يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا﴾، وَهَذَا الْمُضْمَرُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَيَانًا لـ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ مَرْفُوعَ الْمَحَلِّ مِثْلَهُ،

وقال صاحب «التقريب»: وفي لزوم المشاهدة من الحمل واختصاص الإيَابَانَ بِالْغَيْبِ وَلِزُومِ اسْتِوَاءِ الْإِيَابَانِينَ مِنْ كُلِّ وَجْهِ نَظَرٍ.

الانتصاف: استدلاله على أنهم لا يشاهدون؛ بقوله: «يؤمنون»؛ لا يصح؛ لأنَّ الإِيَابَانَ هُوَ التَّصْدِيقُ، وَلَا يُشْتَرَطُ فِيهِ غَيْبَةُ الْمُصَدَّقِ بِهِ بِدَلِيلِ الْإِيَابَانَ بِالْآيَاتِ الْمُشَاهِدَةِ مِنْ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ وَقَلْبِ الْعَصَا^(١).

الإنصاف: الإِيَابَانَ بِالْآيَاتِ الْمُشَاهِدَةِ لَيْسَ إِيَابَانًا بِوُجُودِهَا بَلْ إِيَابَانًا بِأَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى صَدَقِ النَّبِيِّ الْمُتَّحَدِّي بِهَا.

الانتصاف: غَرَضُ الزَّحْخَشِيِّ مِنْ هَذَا التَّقْرِيرِ وَقَصْدُهُ نَفْيُ صِحَّةِ الرَّؤْيَةِ، وَقَوْلُهُ: «لَوْ كَانَتِ الرَّؤْيَةُ صَحِيحَةً لَرَأَتْهُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ»، لَا يَلْزَمُ؛ فَإِنَّ الرَّؤْيَةَ عِبَارَةٌ عَنِ إِدْرَاكِ الْخَلْقِ بِخَلْقِهِ اللَّهُ، وَيَجُوزُ أَنْ لَا يَخْلُقَ لَهُمْ هَذِهِ الرَّؤْيَةَ أَوْ لَا يَرْفَعُ الْمَانِعَ وَالْحِجَابَ^(٢).

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٥٢).

(٢) المصدر السابق (٤: ١٥٢).

وأن يكون حالاً. فإن قلت: تعالى الله عن المكان، فكيف صحَّ أن يقال: وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ؟ قلت: الرَّحْمَةُ وَالْعِلْمُ هُمَا اللَّذَانِ وَسِعَا كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَعْنَى، وَالْأَصْلُ: وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَتُكَ وَعِلْمُكَ، وَلَكِنْ أُزِيلَ الْكَلَامُ عَنْ أَصْلِهِ بِأَنْ أُسْنَدَ الْفِعْلُ إِلَى صَاحِبِ الرَّحْمَةِ وَالْعِلْمِ، وَأُخْرِجَا مَنْصُوبَيْنِ عَلَى التَّمْيِيزِ لِلْإِغْرَاقِ فِي وَصْفِهِ بِالرَّحْمَةِ وَالْعِلْمِ، كَأَنَّ ذَاتَهُ رَحْمَةٌ وَعِلْمٌ وَإِسْعَانِ كُلِّ شَيْءٍ.....

قوله: (كأنَّ ذَاتَهُ رَحْمَةٌ وَعِلْمٌ وَإِسْعَانِ كُلِّ شَيْءٍ)، أَصْلُهُ نَحْوُ قَوْلِ صَاحِبِ «الْمِفْتَاحِ» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ سَكَبًا﴾ [مريم: ٤]: إِسْنَادُ الْإِشْتِعَالِ إِلَى الرَّأْسِ (١). وَعَلَيْهِ مَا رَوَيْنَا عَنْ مُسْلِمٍ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِثَّةَ رَحْمَةٍ، كُلُّ رَحْمَةٍ طَبَاقٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجَعَلَ مِنْهَا فِي الْأَرْضِ رَحْمَةً فِيهَا تَعَطَّفُ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا، وَالْوَحْشُ وَالطَّيْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ» (٢). وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى يُنْظَرُ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ «الشُّورَى»: ﴿وَالْمَلَكِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشُّورَى: ٥] فَإِنَّ الْإِسْتِغْفَارَ فِيهَا مَحْمُولٌ عَلَى عَمُومِ الْمَجَازِ، وَهُوَ طَلَبُ مُطْلَقِ الْغَفْرَانِ، فَيُرَادُ بِالِاسْتِغْفَارِ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً: غَفْرَانُ الذَّنُوبِ وَإِزَالَةُ الْعِقَابِ فِي الْآخِرَةِ وَإِيصَالُ الثَّوَابِ، كَمَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ ثم قال: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾، وَفِي حَقِّ الْكَافِرِينَ: تَرْكُ مُعَاجَلَةِ الْعِقَابِ فِي الدُّنْيَا بِشَوْمِ كُفْرِهِمْ، كَمَا ذَكَرَ فِي «الْفِرْقَانِ» فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الْفِرْقَانِ: ٦]. وَفِي حَقِّهَا جَمِيعًا بِإِدْرَارِ الرِّزْقِ وَالِارْتِفَاقِ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْمَنَافِعِ الْجَمَّةِ، وَبِالترحمِ فِيهَا بَيْنَهُمْ.

وبعضه تذييل تلك الآية بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشُّورَى: ٥] حَيْثُ صَدَّرَهُ بِكَلِمَةِ التَّنْبِيهِ الْمُؤَذِّنَةِ بِالتَّحْقِيقِ، وَأَرَدَفَهَا بِـ«إِنَّ» الْمُؤَكِّدَةَ، وَأَتَى بِالاسْمِ الْجَامِعِ، وَوَسَّطَ ضَمِيرَ الْفَصْلِ بَيْنَ الْمَعْرِفَتَيْنِ، فَإِذْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ «الْمُؤْمِنِ» مَخْتَصَّةٌ بِمَنْ وُجِدَ مِنْهُمْ الْإِيمَانُ بِدَلِيلِ الْعُدُولِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الَّذِينَ آمَنُوا، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ

(١) من قوله: «أصله نحو قول» إلى هنا سقط من (ط). وانظر: «مفتاح العلوم» ص ٢٨٦.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٣).

فإن قلت: قد ذُكِرَ الرَّحْمَةُ وَالْعِلْمُ.....

كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةٌ وَعِلْمٌ ﴿١﴾ فكالْمَقْدَمَةِ لِلِاسْتِغْفَارِ وَالْوَسِيلَةِ إِلَى طَلْبِ الْحَاجَةِ، فَيَجِبُ أَنْ يَقْصِدَ الْعَمُومَ فِيهَا؛ لِيَكُونَ أَنْجَحَ إِلَى الْمَطْلُوبِ، يَعْنِي شَأْنَكَ هَذَا فَافْعَلْ بِهِؤَلَاءِ خَاصَّةً فِي الْآخِرَةِ مَا هُمْ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ حَيْثُذ، فإِذْنِ الْفَاءِ فِي ﴿فَاعْفِرْ﴾ مَرْتَبَةٌ لِلدَّعَاءِ عَلَى الْوَصْفَيْنِ.

فإن قلت: جعل الرحمة علة للمغفرة ظاهرة، فما بال العلم؟ قلت: معناه: حَقَّقْنَا أَنَّ رَحْمَتَكَ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا، وَعَرَفْنَا أَنَّ عِلْمَكَ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ فَانْجِحْ مَقْصِدَهُمْ مَا عِلِمُوا وَمَا لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّكَ أَعْلَمُ بِأَحْوَالِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ، وَعَلَيْهِ قَوْلُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨-٣٩]، فإنه عليه السلام جعل العلم وحده وسيلة إلى الطلب.

قال المصنّف في «تفسيره»: إِنَّكَ أَعْلَمُ بِأَحْوَالِنَا وَمَا يَصْلِحُنَا وَيُفْسِدُنَا، وَأَنْتَ أَرْحَمُ بِنَا مِنَّا، وَأَنْصَحُ لَنَا مِنَّا بِأَنْفُسِنَا. تَمَّ كَلَامُهُ (١).

وهاهنا نُكْتَةٌ فِي نِهَايَةِ مِنَ اللَّطْفِ وَلَا بَدَّ مِنْ إِظْهَارِهَا، وَهِيَ أَنَّ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِسَعَةِ الْعِلْمِ وَاسْتَلْزَمَ ذَلِكَ سَعَةَ الرَّحْمَةِ وَاسْتَغْرَقَ فِي بَحَارِ رَحْمَتِهِ وَرَأَى أَنَّ رَحْمَتَهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، طَمِعَ فِي غُفْرَانِ وَالِدِيهِ وَقَالَ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١] فَأَدْخَلَ الْكَافِرَ فِي الرَّحْمَةِ وَالْغُفْرَانِ تَنَاسِيًا عَنْ جَوَازِ ذَلِكَ، فَضَلًّا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ. ذَكَرَ الْمَصْنُفُ نَحْوَ هَذَا فِي سُورَةِ «التَّوْبَةِ» (٢) عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] وَمَا نَحْنُ بِصَدْدِهِ أَوْلَى وَأَحْرَى بِالرَّجَاءِ، وَكَيْفَ لَا وَقَدْ نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذِكْرِ الرَّحْمَةِ وَالْعِلْمِ، وَقَدَّمَ الرَّحْمَةَ، وَأَغْرَقَ فِي وَصْفِ ذَاتِهِ تَعَالَى بِهَا كَمَا مَرَّ.

قوله: (قد ذُكِرَ الرَّحْمَةُ وَالْعِلْمُ)، خِلاصَةُ السُّؤَالِ: أَنَّ الْفَاءَ فِي «فَاعْفِرْ» مَّا يُعْقَبُ بِالتَّفْصِيلِ

(١) انظر: (٨: ٦١٩).

(٢) انظر: (٧: ٣١٤).

المفصل، والمفصل مشتمل على شيئين، وليس في التفصيل إلا شيء واحد. وأجاب أن العلم مندرج في قوله: ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ ومراد فيه؛ إذ ليس المراد أنهم يستغفرون لمن آمن مطلقاً كما يقتضيه مطلق قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: الذين وجد منهم الإيمان، بل لمن آمن وعلم منه التوبة عن المعاصي والكفر جميعاً، كما هو قضية مذهبه، يؤيد هذا التأويل قوله في سورة «الشورى»: ألا ترى إلى قوله في سورة «المؤمن»: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، وحكايته عنهم: ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ كيف وصفوا المستغفر لهم بما يستوجب^(١) الاستغفار؟ فما تركوا للذين آمنوا من المصدقين طمعاً في استغفارهم، فكيف بالكفرة؟

وقوله هاهنا: «ويستغفرون لمن في مثل حالهم وصفتهم»، أي: في الطهارة عن أرجاس الشرك وأوضار الذنوب، والعاصي غير التائب ليس بطاهر^(٢).

وقال صاحب «الانتصاف»: أخطأ الزمخشري في هذا المقام من وجوه: مراعاة المصلحة، واعتقاد امتناع عُقران الكبائر بلا توبة، واعتقاد وجوب التوبة على الله، ووجد الشفاعة، وأقبح ما فيه المراد بالاستغفار زيادة الكرامة، مع أن صريح المسؤول إنما هو المغفرة، ووقاية عذاب الجحيم^(٣).

فأقول: إذا جعل العلم قيدا للمذكور ولا يجعل مستقلاً في الدلالة كما مر فلا طائل إذن تحت وصفه بتلك السعة والمبالغة فيها، ولا فائدة في ذكر الرحمة والإغراق فيها، وأن المغفور له إذا كان في مثل الملائكة من الطهارة فأبي حاجة إلى الاستغفار؟ فضلاً عن تلك المبالغات، هذا تحجّر للواسع. كما روينا عن البخاري وأبي داود والترمذي والنسائي، عن أبي هريرة قال: قام رسول الله ﷺ في الصلاة وقمنا معه، فقال أعرابي: اللهم ارحمني

(١) في النسخة (ح): «يوجب».

(٢) في النسخ الخطية: «بظاهر» بالطاء المعجمة، ولعل ما أثبتناه هو الأشبه بالصواب.

(٣) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٥٣).

ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا. فلما سلم رسول الله ﷺ قال: «لقد تحجرت واسعاً^(١)»، يريد: رحمة الله.

تَحَجَّرَتْ واسعاً، أي: ضَيِّقَتْ، من قولهم: حجَّر فلان إذا اتَّخَذَ لَهُ على الأرضِ حجارةً محدقةً بها.

أما قوله: «أَنَّ السَّيِّئَاتِ هِيَ الصَّغَائِرُ أَوْ الْكَبَائِرُ الْمُتَوَبُّ عَنْهَا، وَالْوَقَايَةُ مِنْهَا: التَّكْفِيرُ»، فقد أَجَابَ عَنْهُ الإمام: لا يجوزُ ذلك؛ لأنَّ إسقاطَ عقوبةِ الكبيرةِ بعدَ التَّوْبَةِ عندكم واجبٌ، وما كَانَ فَعَلُهُ واجباً كَانَ طَلَبُهُ بالدعاءِ عيباً قبيحاً عندكم، وكذا إسقاطُ عقوبةِ الصغيرةِ واجبٌ، فلا يحسنُ طَلَبُهُ بالدعاءِ، ولا يجوزُ أن يكونَ ذلكَ لطلبِ زيادةِ منفعةٍ على الثوابِ؛ لأنَّ ذلكَ لا يسمَّى مغفرةً^(٢). انتهى.

فحينئذٍ يجبُ القولُ بأنَّ المرادَ بالتَّوْبَةِ التَّوْبَةُ عن الشُّرْكِ، كما قال الواحدي: ﴿فَأَغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ من الشُّرْكِ ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي: دينك الإسلام^(٣).

فإن قلت: لو لم يكن التَّوْبَةُ من المعاصي مراداً لكانَ يكفي أن يقولوا: فاغفرِ للذين آمنوا ليطابقَ السابق؟

قلتُ - والله أعلم - هو قريبٌ من وضعِ المظهرِ موضعَ المضمَرِ من غيرِ اللفظِ السابقِ، وبيانهُ أنَّ قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ الآية، جاءَ مفصلاً عن قوله: ﴿وَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: الذين وُجِدَ منهم الإيِّمانُ، بياناً لكيفيةِ استغفارهم، كأنه قيل: كيف يستغفرون للذين وُجِدَ منهم الإيِّمانُ؟ وما تلكَ الكلماتُ؟ فقيل: يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾، فالآيةُ بيانٌ لكيفيةِ الاستغفارِ لحالِ المُسْتَغْفَرِ لهم، ووضفهمُ المُمَيِّزُ يُعَرَّفُ بالذوقِ.

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٠) وأبو داود (٨٨٢) والترمذي (١٤٧)، والنسائي (١١٤٠).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٤٨٩).

(٣) «التفسير الوسيط» للواحدي (٥: ٤).

فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَا بَعْدَ الْفَاءِ مُشْتَمِلًا عَلَى حَدِيثِهَا جَمِيعًا، وَمَا ذُكِرَ إِلَّا الْغُفْرَانَ وَحْدَهُ!
قُلْتُ: مَعْنَاهُ: فَاعْفُرْ لِلَّذِينَ عَلِمْتَ مِنْهُمْ التَّوْبَةَ وَاتَّبَاعَ سَبِيلِكَ. وَسَبِيلُ اللَّهِ: سَبِيلُ الْحَقِّ
الَّتِي نَهَجَهَا لِعِبَادِهِ وَدَعَا إِلَيْهَا. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَي: الْمَلِكُ الَّذِي لَا
يُغْلَبُ، وَأَنْتَ مَعَ مُلْكِكَ وَعِزَّتِكَ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا إِلَّا بِدَاعِي الْحِكْمَةِ، وَمَوْجِبُ حِكْمَتِكَ

وَأَمَّا فَائِدَةُ الْعُدُولِ عَنِ الْمُضْمَرِ وَأَنْ لَمْ يَقُلْ: فَاعْفُرْ لَهُمْ، بَلْ قِيلَ: ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا
سَبِيلَكَ﴾^(١) فَهِيَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ كَمَا عَلَّلُوا الْغُفْرَانَ فِي حَقِّ مُفِيضِ الْخَيْرَاتِ بِالْعِلْمِ الشَّامِلِ
وَالرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ، عَلَّلُوا قَابِلَ الْفِيضِ أَيْضًا بِالتَّوْبَةِ عَنِ الشَّرْكِ وَاتَّبَاعِ سَبِيلِ الْإِسْلَامِ.

رَوَيْنَا عَنِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: «كُنْتُ رِذْفَ النَّبِيِّ ﷺ
عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ: عُقَيْرٌ، فَقَالَ: يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ
عَلَى اللَّهِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يَشْرِكُوا بِهِ
شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ
النَّاسَ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرُهُمْ فَيَتَكَلَّبُوا»^(٢).

وَفِي رِوَايَةِ أَنَسٍ: أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ. قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أَخْبِرُ بِهَا^(٣) النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟
قَالَ: إِذَا يَتَكَلَّبُوا. فَأَخْبِرْ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ»^(٤).

فَإِنْ قُلْتُ: هَذِهِ التَّوْبَةُ إِنَّهَا تَصَحُّحٌ فِي حَقِّ مَنْ سَبَقَ شِرْكُهُ عَلَى إِسْلَامِهِ، وَمَنْ وُلِدَ مُسْلِمًا
وَدَامَ عَلَيْهِ كَيْفَ يَدْخُلُ فِيهِ؟ قُلْتُ: الْآيَةُ نَازِلَةٌ فِي زَمَنِ الصَّحَابَةِ، وَجُلُّهُمْ انْتَقَلُوا مِنَ الشَّرْكِ
إِلَى الْإِسْلَامِ. وَلَوْ قِيلَ: اغْفِرْ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ لَخَرَجُوا. فَغُلِبَ^(٥) الصَّحَابَةُ عَلَى سَنَنِ جَمِيعِ
الْأَحْكَامِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) مِنْ قَوْلِهِ: «فَالْآيَةُ بَيَانٌ لِكَيْفِيَّةِ» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٨٥٦) وَمُسْلِمٌ (٣٠) وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٦٤٣).

(٣) فِي النُّسْخَةِ (ح): «بِهِ».

(٤) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٢٨)، وَزَادَ تَأْتِيًا. يَعْنِي: أَخْبِرْ بِهَا مُعَاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَوْفًا مِنْ إِثْمِ الْكِتَابَانِ.

(٥) فِي النُّسْخَةِ (ف): «فَقُلْتُ»، وَهُوَ تَحْرِيفٌ.

أَنْ تَقِيَّ بَوْعَدِكَ. ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: العقوبات. أو: جزاء السيئات، فحذف المضاف على أن السيئات هي الصغائر أو الكبائر المتوَّبة عنها. والوقاية منها: التكفير، أو قبول التوبة. فإن قلت: ما الفائدة في استغفارهم لهم وهم تائبون صالحون موعودون المغفرة، والله لا يُخلفُ الميعاد؟ قلت: هذا بمنزلة الشفاعة، وفائدته: زيادة الكرامة والثواب. وقرئ: (جنَّة عدن)، و: (صلح) بضم اللام، والفتح أفصح، يقال: صلح فهو صالح، وصلح فهو صليح؛ و: (ذُرِّيَّتِهِمْ).

[﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ * قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنَاكَ آتَيْنَا وَأَحْيَيْتَنَا آتَيْنَا فَأَعْرَفْنَا بِدُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ * ١٠-١٢]

أي: يُنادون يوم القيامة، فيقال لهم: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، والتقدير: لَمَقْتُ اللَّهِ أَنْفُسَكُمْ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ، فاستغني بذكرها مرة. و﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ منصوبٌ بالمَقَّتِ الأول. والمعنى: أنه يقال لهم يوم القيامة: كأنَّ الله يَمَقُّ أَنْفُسَكُمْ الأمانة بالسوء والكفر، حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان، فتأبون قبوله وتختارون عليه

قوله: ﴿وَإِذْ تُدْعَوْنَ﴾ منصوبٌ بالمَقَّتِ الأول، قال أبو البقاء ومكي وصاحب «الكشف»: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾ لا يعمل في ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾؛ لأنَّ المصدر إذا أُخبر عنه لم يجوز أن يُعلَّقَ به شيء يكون في صلته؛ لأنَّ الإخبار عنه يُؤدِّنُ بتامه، وما يتعلَّقُ به يُؤدِّنُ بنقصانه^(١).

وقال ابن الحاجب في «الأمالى»: والمعنى إذا انتصب ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ بالمَقَّتِ الأول: لَمَقْتُ اللَّهِ إياكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ في الآخرة،

(١) انظر: «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١١٦) و«مشكل إعراب القرآن» (٢: ٦٣٤)، و«كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١١٧٤)، بحقيق د. محمد الدالي، و(٢: ٢٧٨) بحقيق د. عبد القادر السعدي.

الْكُفْرَ أَشَدَّ مِمَّا تَمَقُّتُونَهُنَّ الْيَوْمَ وَأَنْتُمْ فِي النَّارِ إِذْ أَوْقَعْنَاكُمْ فِيهَا بِاتِّبَاعِكُمْ هَوَاهُنَّ. وَعَنْ الْحَسَنِ: لَمَّا رَأَوْا أَعْمَاهُمْ الْخَبِيثَةَ مَقْتُوا أَنْفُسَهُمْ، فَنُودُوا: ﴿لَمَقْتُ اللَّهُ﴾. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: لَمَقْتُ اللَّهُ إِيَّاكُمْ الْآنَ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْمَعُنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]. وَ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾: تَعْلِيلٌ. وَالْمَقْتُ: أَشَدُّ الْبُغْضِ، فَوُضِعَ فِي مَوْضِعِ الْإِنْكَارِ وَأَشَدَّهُ. ﴿أَنْتَيْنِ﴾: إِمَاتَيْنِ وَإِحْيَاءَتَيْنِ. أَوْ:

وَلَيْسَ فِيهِ مِنَ الْإِعْتِرَاضِ ^(١) سِوَى الْفَرْقِ بَيْنَ الْمَصْدَرِ وَمَعْمُولِهِ بِالْأَجْنَبِيِّ، وَهُوَ «أَكْبَرُ» الَّذِي هُوَ الْخَبْرُ، وَهُوَ جَائِزٌ؛ لِأَنَّ الظَّرُوفَ يَتَّسَعُ فِيهَا ^(٢).

قَوْلُهُ: ﴿وَ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ تَعْلِيلٌ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ تَعْلِيلًا لِأَنَّ ظَرْفًا فِي هَذَا الْوَجْهِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَمَقُّتُوا أَنْفُسَهُمْ حِينَ دُعُوا إِلَى الْإِيمَانِ، وَإِنَّمَا مَقَّتُوهَا فِي النَّارِ، وَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ، قَالَهُ أَبُو الْبَقَاءِ وَصَاحِبُ «الْكَشْفِ»، وَقَالَا: إِذَا بَطَلَ هَذَا الْوَجْهَانِ عَلِمْتَ أَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِمُضْمَرٍ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿لَمَقْتُ اللَّهُ﴾ أَي: مَقَّتَكُمْ اللَّهُ حِينَ دُعِيتُمْ إِلَى الْإِيمَانِ فَكَفَرْتُمْ ^(٣).

وَقُلْتُ: وَلَا ارْتِيَابَ فِي تَعْسُفِهِ، وَالْأَحْسَنُ مَا قَدَّرَهُ مَكِّيٌّ، حَيْثُ قَالَ: وَالْعَامِلُ فِيهِ «اذْكُرُوا» أَي: اذْكُرُوا إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ^(٤)، وَنَحْوُهُ: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ [القلم: ٤٢-٤٣]. قَالَ الْمَصْنُفُ: (وَهُوَ تَحْسِيرٌ لَهُمْ وَتَنْذِيرٌ عَلَى مَا فَرَّطُوا فِيهِ حِينَ دُعُوا إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُوا الْأَصْلَابِ مُحْكَنُونَ مَزَاحِ الْإِعْلَالِ) ^(٥).

(١) زيادة من «أمالي ابن الحاجب».

(٢) «أمالي ابن الحاجب» (١: ١٤١).

(٣) انظر: «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ١١١٦)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢: ٦٣٤)، و«كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١١٧٤)، بتحقيق د. محمد الدالي، و(٢: ٢٧٩) بتحقيق د. عبد القادر السعدي.

(٤) «مشكل إعراب القرآن» (٢: ٦٣٤).

(٥) انظر: «الكشاف» (١٥: ٦٠٠).

موتَتَيْنِ وَحَيَاتَيْنِ. وَأَرَادَ بِالْإِمَاتَيْنِ: خَلَقَهُمْ أَمْوَاتًا أَوْلاً، وَإِمَاتَتَهُمْ عِنْدَ انْقِضَاءِ أَجَالِهِمْ، وَبِالْإِحْيَاءَتَيْنِ: الْإِحْيَاءَةَ الْأُولَى، وَإِحْيَاءَةَ الْبَعْثِ. وَنَاهِيكَ تَفْسِيرًا لِلذَّكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]،

قَوْلُهُ: (وَنَاهِيكَ تَفْسِيرًا لِلذَّكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: ٢٨] الْآيَةَ)، قَالَ الْإِمَامُ: اِحْتِجَّ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي إِثْبَاتِ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ أَثْبَتُوا لِأَنْفُسِهِمْ مَوْتَتَيْنِ: مَوْتَةً فِي الدُّنْيَا، وَلَا بَدَّ مِنْ إِثْبَاتِ حَيَاةٍ فِي الْقَبْرِ لِتَحْصُلِ الْمَوْتَتَانِ، ثُمَّ قَالَ: وَالسُّوَالُ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَقَدْ حَصَلَتِ الْحَيَاةُ ثَلَاثَ مَرَاتٍ^(١)، وَهَذَا الَّذِي عَنَاهُ الْمُصَنِّفُ بِقَوْلِهِ: «لِزِمَهُ ثَلَاثُ إِحْيَاءَاتٍ» وَزَيَّفَهُ بِلِتَهَكُّمِ بَقَوْلِهِ: «إِلَّا أَنْ يَتِمَّحَّلَ فَيَجْعَلُ إِحْدَى الْحَيَاتَيْنِ غَيْرَ مُعْتَدًّا بِهَا»، قَالَ الْإِمَامُ: أَهْمَلُوا ذِكْرَ الْحَيَاةِ فِي الْقَبْرِ؛ لِقَلَّةِ وَجُودِهَا وَقَصْرِ مَدَّتِهَا^(٢). ثُمَّ قَالَ الْمُصَنِّفُ: «أَوْ يَزْعَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحْيِيهِمْ فِي الْقُبُورِ» إِلَى آخِرِهِ. يَعْنِي: لَا عَذَرَ لَهُمْ فِي الدَّفْعِ عَنِ إِثْبَاتِ ثَلَاثِ إِحْيَاءَاتٍ إِلَّا أَنْ يَزْعَمُوا هَذَا، وَهُوَ بَاطِلٌ بِالِاتِّفَاقِ، فَالاسْتِثْنَاءُ فِي قَوْلِهِ: «إِلَّا أَنْ يَتِمَّحَّلَ» نَحْوَ الْاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِ الْأَعْمَشِيِّ^(٣):

وَقَفْتُ فِيهَا أَصِيلًا لَا أَسْأَلُهَا أَعَيْتَ جَوَابًا وَمَا بِالرَّبِّيعِ مِنْ أَحَدٍ

إِلَّا أَوَارِيَّ^(٤)

أَي: إِنْ كَانَ الْأَرِيُّ يُعَدُّ أَحَدًا فَلَا أَحَدًا فِيهِ إِلَّا إِيَّاهُ، أَي لَيْسَ لَهُمْ جَوَابُ الْبَتَّةِ. وَفِي قَوْلِهِ: «خِلَافَ مَا فِي الْقُرْآنِ» مَعْنَى النِّفْيِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُرَعَّرَ نُورُهُ﴾ [التوبة: ٣٢]، أَي: لَيْسَ كَمَا قَالَ إِلَّا أَنْ يَتِمَّحَّلَ.

وَقُلْتُ: لَهُمْ أَنْ يُجِيبُوا: إِنَّمَا يَلْزِمُنَا ثَلَاثُ إِحْيَاءَاتٍ فِي الْآيَةِ إِذَا مُهَلَّتِ الْإِمَاتَةُ الْأُولَى عَلَى الْمَجَازِ، وَأَمَّا إِذَا أُجْرِيَتْ عَلَى الْحَقِيقَةِ عَلَى مَا اقْتَضَاهُ الْمَقَامُ فَلَا؛ لِأَنَّ مَرَادَ الْكُفَّارِ مِنْ

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٤٩٤).

(٢) المصدر السابق (٢٧: ٤٩٤).

(٣) كذا قال الإمام الطيبي رحمه الله، وهو سهو منه، والبيت للناطقة الديقاني، سبق تحريجه.

(٤) وهي محابس الخيل ومرابطها، واحداها: أريي.

هذا القول اعترافهم بما كانوا ينكروته في الدنيا ويكذبون الأنبياء حين كانوا يدعونهم إلى الإيمان بالله وحده واليوم الآخر، لأن قولهم هذا كالجواب عن النداء في قوله: ﴿لَمَقْتُ اللَّهَ أَكْبَرَ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ كأنهم أجابوا أن الأنبياء دعونا إلى الإيمان بالله واليوم الآخر^(١)، وكنا نعتقد ما تعتقده الدهرية أن لا حياة بعد الممات، فلم نلتفت إلى دعوتهم ودُمننا على ما كنا عليه من الكفر والمعاصي، فالآن نترف بالموتيتين والحياتين لِمَا قاسينا من شدائدهما وأهوالهما، ولهذا الفائدة استعقب قوله: ﴿أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ قوله: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ كما في قوله: ﴿فَتَوْبُوا إِلَيَّ يَا بَارِيكُمْ فَأَقُولُوا أَنْفُسُكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] فيكون الذنب تكذيب البعث. نظيره قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْفِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ سَمَاءٍ﴾ [الملك: ٨-٩] إلى قوله: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الملك: ١١]. قَالَ المصنّف: «بذنبهم: بكفرهم في تكذيبهم الرُّسُل»^(٢).

قال صاحبُ «الفرائد»: يمكنُ أن يُقال: لا يلزمُ ثلاثُ إحياءات؛ لأنَّ مرادهم من قولهم: ﴿أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ أَنَا الْآنَ تَقِينَا أَنَّكَ أَحْيَيْتَنَا بَعْدَ الْإِمَاتَةِ فاعترفنا. فَقَوْلُهُمْ: ﴿أَمَتْنَا﴾ إِلَى الْآخِرِ سَبَبٌ لاعترافهم؛ فلذلك جاؤوا بالفاء، وذلك أنهم كانوا مُنكرين للبعث، وبسبب ذلك كانوا كثيري الذنوب، فاعترفوا بما علموا أن الله تعالى كما كان قادراً على الإنشاء كان قادراً على الإعادة، وهذا موافقٌ لقول المصنّف في بيان وجه التسبب في ﴿فَاعْتَرَفْنَا﴾ أنهم أنكروا البعث، فلما تكرّر عليهم الإماتة والإحياء علموا قدرته على الإعادة، فاعترفوا بذنوبهم التي اترفوها بسبب إنكار البعث. هكذا لخصه صاحبُ «التقريب».

فظهر من هذا البيان: أن مقام هذه الآية غير مقام قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَمُوتًا فَاخْتَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فإن هذه لبيان الإقرار والاعتراف منهم في الآخرة بما أنكروه في

(١) من قوله: «لأن قولهم هذا كالجواب» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) انظر: «الكشاف» (١٥: ٥٤٧).

وكذا عن ابن عباس رضي الله عنهما. فإن قلت: كيف صحَّ أن يُسمَى خلقهم أمواتاً إماتة؟ قلت: كما صحَّ أن تقول: سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل، وقولك للحقار: ضيق فم الركيّة وسع أسفلها، وليس ثمّ نقل من كبر إلى صغر، ولا من صغر إلى كبر، ولا من ضيق إلى سعة، ولا من سعة إلى ضيق، وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات، والسبب في صحته: أن الصغر والكبر جائزان معاً على المصنوع الواحد، من غير ترجح لأحدهما، وكذلك الضيق والسعة. فإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكّن منهما على السواء، فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر، فجعل صرّفه عنه كنقله منه، ومن جعل الإماتتين التي بعد حياة الدنيا والتي بعد حياة القبر: كزّمه ثلاث إحياءات، وهو خلاف ما في القرآن، إلا أن يتمحلّ فيجعل إحداها غير معتدّ بها، أو يزعم أن الله يُحييهم في القبور، وتستمّر بهم تلك الحياة فلا يموتون بعدها، ويعدّهم في المستنئين من الصّعقة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧].

فإن قلت: كيف تسبّب هذا لقوله: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾؟ قلت: قد أنكروا البعث فكفروا، وتبع ذلك من الذنوب ما لا يحصى؛ لأنّ من لم يخش العاقبة تحرق في المعاصي، فلما رأوا الإماتة والإحياء قد تكرّرا عليهم، علموا بأن الله قادر على إعادة قدرته على الإنشاء، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم.

﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ أي: إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ قط، أم اليأس واقع دون ذلك، فلا خروج ولا سبيل إليه؟ وهذا كلام من غلب عليه اليأس

الدنيا، وتلك لبيان الامتنان الذي يستدعي شكر المنعم، أو لبيان الدلائل لتضريحهم عن الكفر كما صرّحه المصنّف، ولا يلزم أيضاً على هذا ما أورده في السؤال: «كيف صحَّ أن يُسمَى خلقهم أمواتاً إماتة؟» فيحتاج إلى ذلك الجواب المتعسف.

قوله: (أي: إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ قط، أم اليأس واقع؟). الانتصاف: وعلى هذا بنى من قال:

والقنوط، وإنما يقولون ذلك تعللاً وتخيُّراً؛ ولهذا جاء الجوابُ على حسب ذلك، وهو قوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: ذلكم الذي أنتم فيه، وأن لا سبيلَ لكم إلى خروج قطُّ بسببِ كُفركم بتوحيد الله وإيمانكم بالإشراك به ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ حيثُ حَكَمَ عليكم بالعذاب السَّرمَد. وقوله: ﴿أَلَعَلِّيَ الْكَبِيرِ﴾ دلالةٌ على الكبرياءِ والعظْمَة، وعلى أن عقاب مثله لا يكون إلا كذلك، وهو الذي يُطابقُ كبريائه ويُناسبُ جبروته. وقيل: كأنَّ الحُروريةَ أخذوا قولهم: لا حُكْمَ إلا لله، من هذا.

هل إلى نَجْدٍ وصولٌ أو على الحَيْفِ نُزولٌ؟

أي: إنَّ هذا الأمرَ غلبَ فيه اليأسُ على الطَّمعِ (١).

الإنصاف: ليس المثالُ مُطابقاً لِمَا في الآية؛ لأنَّ «خروج» و«سبيل» نكرتان، أي: ليسَ طريقٌ من الطُّرُقِ إلى نوعٍ من الخروج، وفي الشُّعر: «الحَيْفُ» و«نَجْدٌ» مَعْرِفَتان، لكن حصلَ اليأسُ من أحدِ الأمرين.

وقلت: يكفي في التشبيه أن يُقابَلَ: «وصول» و«نُزول» وهما نكرتان بقوله: «سبيل» في إرادة الإبهام والشيوع، وأما اليأسُ فحاصلٌ من المفهوم بحسبِ المقام، على أن الآيةَ حَلَّتْ مما يدلُّ على أحدِ الأمرين، نعم الآيةُ أبلغُ؛ لأنَّ الشُّيوعَ فيها في «خروج» و«سبيل» معاً. وله أن يقول: إنَّ الشاعرَ لم يَرُدْ بـ «نَجْدٍ» و«الحَيْفِ» الموضوعين بعينهما، بل إنه قصدَ به اليأسَ من حصولِ الوصولِ إلى المحبوبِ في أيِّ مكانٍ كان، دَلَّ عليه ذكرُ المكانين، كما دَلَّ ذكرُ الزمانين على عمومِ الأزمنة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

قوله: (على حسبِ ذلك)، أي: ذلك الكلام الذي صدرَ عن اليأسِ والقنوط.

قوله: (ذلكم الذي أنتم فيه، وأن لا سبيلَ لكم إلى خروج)، جعلَ المشار إليه ما دَلَّ عليه قوله: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ مع ما يتصلُ به من كلامه السابق، وهو قوله: ﴿لَمَقَّتْ اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾.

قوله: (كأنَّ الحُروريةَ أخذوا قولهم: لا حُكْمَ إلا لله من هذا)، الجوهرية: حرورا: اسْمُ

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٥٥).

قرية، يُمدّ ويُقصر، نُسبت إليها الحرورية من الخوارج، وكان أول مجتمعتهم وتحكيمهم فيها. وعن بعضهم: ومعنى تحكيمهم قولهم: لا حُكْمَ إلا الله، وكان القياس حراورايوي، لكنه استطيل فحُذِفَ الزوائد، كما تقول براكي في النسبة إلى براكا.

وقال الفقيه أحمد بن داود الدّينوري في «تاريخه»^(١): لما بايع الخوارج رئيسهم عبد الله ابن وهب الرّاسبيّ قامَ فيهم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله، ثم قال: أما بعد، فإن الله أخذَ عهدنا وموائقنا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالحق والجهاد في سبيله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [ص: ٢٦]، وقال الله عزَّ وجل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، وأشهدُ على أهلِ دعوتنا من أهلِ ديننا أن قد اتبعوا الهوى ونبذوا حُكْمَ الكتاب، وجاروا في الحُكْم، وإنَّ جهادهم لحقّ^(٢). يعني: علياً ومعاوية رضي الله عنهما.

وكتبَ في جوابِ كتابِ إلى عليّ رضي الله عنه: أما بعد، إنك لم تغضب لربك، ولكن غضبتَ لنفسك، فإنك كفرتَ فيما كانَ من تحكيمك الحكيمين - يعني: أبا موسى الأشعريّ وعمرو بن العاص -، وشهدتَ على نفسك أنك كفرتَ فيه، فإن استأنفتَ التوبة رجعتنا إليك، وإن تكن الأخرى فإننا نأبذك على سواء، وإن الله لا يهدي كيد الخائنين. فقالتهم عليّ رضي الله عنه^(٣).

ولعلّ تمسكهم بالآية من حيث إنه تعالى أثبت الحُكْمَ لله ووصف نفسه بالعليّ الكبير، فأذن بأن الوصفين علّتان لذلك الإثبات، وعليّ رضي الله عنه لِمَا رضيَ بحُكْمِ الحكيمين خالفَ النصّ، وليس كذلك؛ لأنه ليس في عبارة النصّ، ولا إشارته دلالة على ذلك؛ لأنّ

(١) يعني «الأخبار الطوال»، وهو مطبوع متداول نافع.

(٢) «الأخبار الطوال» ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٣) المصدر السابق ص ٢٠٦.

[هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ * فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ * يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٣ - ١٦﴾]

﴿يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوها. والرزق: المطر؛ لأنه سببه. ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾: وما يتعظ وما يعتبر بآيات الله إلا من يتوب من الشرك ويرجع إلى الله، فإن المعاند لا سبيل إلى تذكره وتعاضله. ثم قال للمُنيبين: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ أي: اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك، وإن غاظ

قوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما دلّ عليه قوله ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ من اليأس التام والإقنات الكلي والحكم بالخلود في النار، وقوله: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ تعليل لذلك الحكم، وقوله: ﴿فَالْحُكْمَ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ إشارة إلى قطع ذلك الحكم وبت القضاء، أي: لا سبيل إلى الخروج؛ لأنكم آثرتُم الشرك على التوحيد، والله تعالى حكيم في الأزل أنه لا يغفر لمن يُشرك به شيئاً، فلا راداً لحُكمه ولا دافع لقضائه؛ لعلو شأنه وعظمة كبريائه. هذا تأويل ظاهر مكشوف، وينصره ما ذكره الواحدي: فالْحُكْمُ لله، أي: أنه حكم بعذاب من أشرك به ولا يُردُّ حكمه^(١)، والعليُّ الكبير الذي لا أعلى منه ولا أكبر. وفيه أن قول المصنّف: «على أن عذاب مثله لا يكون إلا كذلك»، غير مطابق.

قوله: (ثم قال للمُنيبين: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ أي: اعبدوه)^(٢)، بيان لربط الفاء بما قبلها، يعني: ختم الآيات البيّنات، والبيانات الشافية الكافية من مُفْتَحِ السورة إلى هنا بقوله: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ تعريضا بمن تمرّد وعصى، وأشرك بالله وعتا، ثم قال للمُنيبين: وإذا كان كذلك فأنتم منيبون ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، فقوله: ﴿وَيُنَزِّلْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ عطف على قوله: ﴿يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾، والآيات ما سبق، وذلك أنه تعالى لما حكي

(١) «التفسير الوسيط» للواحدي (٤: ٦).

(٢) قوله: «أي: اعبدوه»: سقط من النسخة (ط).

ذلك أعداءكم ممن ليس على دينكم. ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ﴾ ثلاثة أخبار لقوله: ﴿هُوَ﴾ مترتبة على قوله: ﴿الَّذِي يُرِيكُمْ﴾، أو أخبار مبتدأ محذوف،

أحوال المشركين في هذه السورة، وأراد أن يشرع في أحوال المُخْلِصِينَ المُنِيِّينَ على قضية التَّضَادِّ كما^(١) قال: «وإن غاظ ذلك أعداءكم»، جُعِلَ قوله: ﴿فَلِخُصْمِكُمْ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ وما يتصل به تخلصاً إلى ذكْرِهِمْ، يعني: هو الذي يُرِيكُمْ آياته جميعاً من الآفاق والأَنْفُسِ ويُفْصِلُهَا، ويُدْبِرُ أمورَ معاشكم بإنزال الرزق من السماء، ولمعادكم بالدعوة إلى الدين الخالص؛ لأنه رفيع الدرجات، ولأنه ذو العرش، ولأنه يلقي الوحي الذي هو الحياة الأبدية، وهو الأمر بالخير والدعوة إلى الدين الخالص.

ويدل على المناسبة بين هذه الصفات وتلك الصفات اختلافها تعريفاً وتنكيراً، أما ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ فهو مثل قوله: ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يحتمل التعريف والتنكير، وأما فائدة التنكير فالدلالة على التجديد والإيدان باستمرار صعود الملائكة وقتاً بعد وقت، وإليه الإشارة بقوله: (وهي مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش) وأما التعريف فيه، فقد قال الواحدي: الرفيع بمعنى الرافع^(٢).

وأما قوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ ففي إفادته استمرار الوحي من لَدُنْ آدم إلى انتهاء زمن سيدنا رسول الله ﷺ، ثم اتصاله إلى قيام يوم التَّوَادُّ بِإِقَامَةِ مَنْ يَقُومُ بالدعوة - على ما روى أبو داود عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مِنْ يَجِدُ لَهَا دِينَهَا»^(٣) - ظاهرٌ مكشوف، ومعنى التجديد إحياء ما اندرس من العلم بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما، وهو مناسب لقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ يريد الوحي الذي هو أمرٌ بالخير وبعثٌ إليه.

(١) في النسخة (ح): «كأنه».

(٢) «التفسير الوسيط» للواحدى (٧: ٤).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٩١) والحاكم في «المستدرک» (٨٥٩٢) والطبراني في «المعجم الأوسط»

وهي مختلفةٌ تعريفاً وتنكيراً. وقُرئ: (رفيع الدرجات) بالنصبِ على المدح، و﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾، كقوله: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ٣]؛ وهي مصاعد الملائكةِ إلى أنْ تَبْلُغَ العرشَ، وهي دليلٌ على عِزَّتِهِ وَمَلَكُوتِهِ. وعن ابنِ جُبَيْرٍ: سماءٌ فوقَ سماءٍ، والعرشُ فوقهنَّ. ويجوزُ أنْ يكونَ عبارةً عن رفعةِ شأنِهِ وعلوِّ سُلْطَانِهِ، كما أنَّ ذَا العرشِ عبارةٌ عن مُلكِهِ. وقيل: هي دَرَجَاتُ ثَوَابِهِ التي يُنْزِلُهَا أوليَاءَهُ في الجَنَّةِ. ﴿الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ الذي هو سببُ الحَيَاةِ مِنْ أَمْرِهِ، يريدُ: الوحيَ الذي هو أَمْرٌ بِالْخَيْرِ وَبَعَثَ عَلَيْهِ،

قوله: (كما أنَّ ذَا العرشِ عبارة)، يعني: أنَّ «ذَا العرشِ» هنا مثلُ قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]؛ كناية عن المُلْكِ مِنْ غَيْرِ إِرَادَةِ الحَقِيقَةِ.

قالَ المصنِّفُ فيه: يُقالُ: استوى فلانٌ على العرشِ، يريدونَ مَلَكًا، وإن لم يَقْعُدْ على السِّريرِ البتَّةِ^(١)، كذلك «رفيعُ الدرجاتِ» كنايةٌ عن رفعةِ شأنِهِ وعلوِّ سُلْطَانِهِ مِنْ غَيْرِ إِرَادَةِ الدَّرَجَاتِ الحَقِيقَةِ، وعلى الوجهِ الأولِ أيضًا كناية، لكن مع إِرَادَةِ الحَقِيقَةِ؛ لقوله: «وهي مصاعدُ الملائكةِ إلى أنْ تَبْلُغَ العرشَ» وهو دليلٌ على عِزَّتِهِ وَمَلَكُوتِهِ، وهو أنسبُ لقوله: ﴿يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ والمرادُ الوحي؛ ليكونَ على وِزَانِ قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ * يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا﴾ [النحل: ١-٢].

وأما قولٌ من قال: هي درجاتُ ثوابِهِ التي يُنْزِلُهَا أوليَاءَهُ في الجنةِ، فمُنَاسِبٌ لقوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فتكونُ قَربَنَةً دَالَّةً على أنَّ الدَّرَجَاتِ مستعارةٌ لمراتبِ الثوابِ استعارةً محسوسٍ لمعقولٍ.

الأساس: ومن المجاز: لفلانٍ درجةٌ رفيعة.

قوله: (﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾... يريدُ الوحي)، يعني: المرادُ بالأمرِ هاهنا: الوحي، وصحَّ ذلك؛ لأنَّ الوحيَ أمرٌ بِالْخَيْرِ، وإنما ذهبَ إليه؛ لأنَّ ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ بيانٌ لـ «الرُّوحِ» فلذلك استُعيرَ للوحي الرُّوح، وقد حَقَّقْنَا وجهَ الاستعارةِ في مُفْتَسِّحِ سورةِ «النحل»، ف ﴿مِنْ﴾ على هذا

(١) انظر: (١٠: ١٢٨).

فاستعار له الرُّوح، كما قال: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيَسًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. ﴿لِيُنذِرَ﴾ الله، أو المُلقي عليه؛ وهو الرسول، أو الرُّوح. وقرئ: (لِنُنذِرَ) أي: لِنُنذِرَ الرُّوح؛ لأنها تَوَثَّتْ، أو على خطابِ الرسول. وقرئ: (لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ) على البناء للمفعول. و﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾: يومَ القيامة؛ لأن الخلائقَ تَلْتَقِي فِيهِ. وقيل: يَلْتَقِي فِيهِ أَهْلُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ. وقيل: المعبودُ والعابد. ﴿يَوْمَ هُمْ بَدْرُؤُونَ﴾: ظاهرون لا يسترهم شيءٌ

بيانية، والذي يُفهم من ظاهرِ كلامِ الواحدي: ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ من قضائه أو بأمره أنها ابتدائية؛ أي: من جهته وبأمره^(١).

قال أبو البقاء: «مِنْ» يجوزُ أن يكونَ حالاً من ﴿الرُّوحِ﴾، وأن يكونَ متعلِّقاً بـ ﴿يُلْقِي﴾^(٢). وقال القاضي: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ نَشَأَ مِنْ عِبَادِهِ﴾ خبرٌ رابع، تمهيدٌ للنبوة بعد تقرير التوحيد، وفيه دليلٌ على أن النبوة من عطاءِ الله يختارُ لها من يشاء من عباده^(٣).

قوله: ﴿لِيُنذِرَ﴾ الله أو المُلقي عليه... أو الرُّوح، فالإسنادُ إلى الرسولِ حقيقي، وإلى الله نحو: كسا الخليفةَ الكعبة؛ لاحتمالِ الحقيقةِ والمجاز. وإلى الرُّوحِ نحو: أنبتَ الربيعُ البقلَ، في أنه لا يحتملُ إلا المجاز. والوجهُ الثاني أقربُ من جهةِ اللفظِ والمعنى؛ لقربِ المرجعِ إليه وقوةِ الإسناد.

قوله: (وقيل: المعبودُ والعابد)، هذا أولى الوجوه؛ لأن هذا المُطلقَ محمولٌ على ما وردَ في كثيرٍ من المواضع، نحو: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ١١٠] ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [يونس: ٧]، ولإبدالِ قوله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَدْرُؤُونَ﴾ من ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾، وبيانِ ﴿هُم بَدْرُؤُونَ﴾ بقوله: ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾.

قال مكِّي: ﴿هُم بَدْرُؤُونَ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ في موضعِ خفضٍ بإضافةِ ﴿يَوْمَ﴾ إليها، وظروفٌ

(١) «التفسير الوسيط» للواحدي (٤: ٧).

(٢) «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ١١١٧).

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ٥٣).

من جَبَلٍ أو أَكْمَةٍ أو بِنَاءٍ؛ لَأَنَّ الْأَرْضَ بَارِزَةٌ قَاعٌ صَفْصَفٌ، ولا عليهم ثيابٌ، إنما هم عُرَاءٌ مكشوفون، كما جاء في الحديث: «يُحْشِرُونَ عُرَاءَ حُفَاةٍ غُرْلًا». ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: من أعمالهم وأحوالهم. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: لا يَخْفَى عليه منهم شيء. فإن قلت: قوله: ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ بيانٌ وتقريرٌ لبروزهم، والله تعالى لا يَخْفَى عليه منهم شيء بَرَزُوا أو لم يَبْرُزُوا، فما معناه؟ قلت: معناه: أنهم كانوا يَتَوَهَّمُونَ في الدنيا إذا اسْتَرَوْا بِالْحَيِطَانِ والحُجُبِ أَنَّ اللَّهَ لا يَرَاهُمْ وَيَخْفَى عليه أعمالهم، فهم اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حالٍ لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه. قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢٢]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٨]؛ وذلك لعلمهم أَنَّ النَّاسَ يُبْصِرُونَهم، وظنهم أَنَّ اللَّهَ لا يُبْصِرُهُم،

الزمان إذا كانت بمعنى «إذ» أُضِيفَتْ إلى الجُمْلِ؛ الفِعْلِيُّ والاسْمِيُّ^(١)، وإن كانت بمعنى «إذا» لم تُضَفْ إلا إلى الفعل، فإذا وقع بعدها اسمٌ مرفوعٌ أَضْمِرَ فِعْلٌ يَرْتَفِعُ به؛ لأنَّ «إذا» حينئذٍ بمعنى الشرط، وهي لا تستقبل في اللفظ وفي المعنى، وليست «إذ» كذلك؛ لأنه لا معنى للشرط فيها؛ لأنَّ «إذ» لما مضى، والشرط لا يكون لما مضى، فافهم ذلك^(٢).

قوله: (كما جاء في الحديث)، والحديث من رواية البخاري ومسلم والترمذي عن ابن عباس، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنكم ملاقوا الله حُفَاةً عُرَاءَ غُرْلًا»^(٣). في «الجامع»: العُرْلُ: القُلْفَةُ التي تُقَطَّعُ من جِلْدِ الدَّكْرِ^(٤).

(١) كذا في النسخ الخطية، والذي في «مشكل إعراب القرآن»: «أضيفت إلى الجُمْلِ إلى الفعل والفاعل، وإلى الابتداء والخبر».

(٢) «مشكل إعراب القرآن» (٢: ٦٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٢٤) ومسلم (٢٨٦٠) والترمذي (٢٤٢٣).

(٤) «جامع الأصول» (١٠: ٤٢٤).

وهو معنى قوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾: حكاية لما يُسأل عنه في ذلك اليوم ولما يُجابُ به. ومعناه: أنه يُنادي منادٍ فيقول: لمن الملكُ اليوم؟ فيُجيبه أهلُ المحشر: لله الواحدِ القَهَّار. وقيل: يجمع الله الخلائقَ يومَ القيامةِ في صعيدٍ واحدٍ بأرضٍ بيضاءَ كأنها سبيكةُ فضةٍ لم يُعص الله فيها قط، فأول ما يتكلم به أن ينادي مُنادٍ: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ * الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ ﴿، الآية فهذا يقتضي أن يكونَ المنادي هو المُجيب.

قوله: (وهو معنى قوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨])، يعني: معنى قوله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾، ومعنى ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ واحد؛ لأنهم إذا برزوا لله الواحدِ القَهَّارِ في ذلك اليوم لا يخفى على الله منهم شيء في زعمهم، كما قال: «فهم اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه».

قوله: (بأرضٍ بيضاءَ كأنها سبيكةُ فضةٍ)، الحديث من رواية البخاري ومسلم عن سهل بن سعد، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بِيضَاءَ عَفْرَاءٍ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ لَيْسَ فِيهَا عِلْمٌ لِأَحَدٍ»^(١).

قوله: (فهذا يقتضي أن يكونَ المنادي هو المُجيب)، يعني: دلَّ الاستئنافُ من قوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ على التعليل، فيجبُ أن يكونَ السائلُ والمُجيبُ هو الله عزَّ وجل، فإنه لما سأل: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ وأجاب هو بنفسه: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، وكانَ المقامُ موقعَ السؤالِ وطلبِ التعليل، فأوقع ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى﴾ جوابًا عنه، يعني: إنما اختصَّ الملكُ به؛ لأنه وحده يقدرُ على مجازاة كلِّ نفسٍ ما كسبت، وله العدلُ التامُّ فلا يظلمُ أحدًا، وله التصرفُ التامُّ فلا يشغله شأنٌ عن شأن، فيُسرِّعُ الحساب. ولو أوقع: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ جوابًا عن أهلِ المحشر، لم يحسن هذا الاستئناف.

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢١) ومسلم (٢٧٩٠).

﴿أَيُّومٌ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمِ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [١٧]

لَمَّا قَرَّرَ أَنَّ الْمَلَكَ اللَّهُ وَحْدَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَدَّدَ نَتَائِجَ ذَلِكَ؛ وَهِيَ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ تُجْزَى مَا كَسَبَتْ، وَأَنَّ الظُّلْمَ مَأْمُونٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ، وَأَنَّ الْحِسَابَ لَا يُبْطِئُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَشْغَلُهُ حِسَابٌ عَنْ حِسَابٍ، فَيُحَاسِبُ الْخَلْقَ كُلَّهُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِذَا أَخَذَ فِي حِسَابِهِمْ لَمْ يَقُلْ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَّا فِيهَا، وَلَا أَهْلُ النَّارِ إِلَّا فِيهَا.

قَالَ صَاحِبُ الْكَوَاشِي: بَعْدَ فَنَاءِ الْخَلْقِ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَمِنَ الْمَلَائِكَةِ الْيَوْمَ﴾ فَلَمْ يُجَبَّ، فَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ الْوَجْدُ الْقَهَّارِ﴾ وَالْوَقْفُ عَلَى «الْيَوْمِ» كَافٍ، وَعَلَى «الْقَهَّارِ» تَامٌ، «الْيَوْمِ» الثَّانِي: مَعْمُولٌ «تُجْزَى». وَكَذَا عَنْ أَبِي الْبَقَاءِ (١).

قَوْلُهُ: (لَمْ يَقُلْ) مِنَ الْقِيلُولَةِ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] وَقَدْ فَسَّرَ هُنَاكَ الْمَقِيلُ بِالْمَكَانِ الَّذِي يَأْوُونَ إِلَيْهِ لِلْأَسْتِرَاحِ (٢).

وَرَوَيْنَا فِي «شَرْحِ السَّنَةِ»: «لَا يَتَنَصَّفُ النَّهَارُ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ حَتَّى يَقِيلَ هُوَ لَاءٌ وَهُوَ لَاءٌ» (٣). وَرَوَى الْوَاحِدِيُّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ: «لَا يَتَنَصَّفُ النَّهَارُ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَقِيلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ» (٤). وَفِيهِ: أَنَّ حُكْمَ الْكُلِّ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ كَذَلِكَ، لَكِنْ لَيْسَ فِيهِ بَقَاءُ ذَلِكَ الْحُكْمِ، فَكَيْفَ وَقَدْ ثَبَتَ بِالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الْبَالِغَةِ مَبْلَغَ التَّوَاتُرِ خُرُوجِ الْعَصَاةِ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنَ النَّارِ، إِمَّا بِمَخْضِ الْغُفْرَانِ أَوْ بِشَفَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ مِنْهَا مَا رَوَيْنَا عَنْ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ قَوْمٌ كَأَنَّهُمُ الثَّعَالِي» (٥).

الثَّعَالِي: صَعَارُ الْقَتَاءِ.

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١١٧).

(٢) انظر: (١١: ٢١٥).

(٣) «شرح السنة» (١٥: ٢٠١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) «التفسير الوسيط» للواحدى (٣: ٣٣٨).

(٥) أخرجه البخاري (٦٥٥٨) ومسلم (١٩١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

[﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [١٨]

الآزفة: القيامة، سُميت بذلك لأزوفها، أي: لقربها. ويجوز أن يريد بـ ﴿يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾: وقت الحطة الآزفة؛ وهي مشارفتهم دخول النار، فعند ذلك ترتفع قلوبهم عن مَقَارِهَا فتَلصقُ بحناجرهم، فلا هي تخرجُ فيموتوا، ولا ترجعُ إلى مواضعها فيتنفسوا ويترَوِّحوا، ولكنها مُعترضةٌ كالشجاء، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الملك: ٢٧]. فإن قلت: ﴿ كَظِيمِينَ ﴾ بها انتصب؟ قلت: هو حال عن أصحاب القلوب على المعنى؛ لأنَّ المعنى: إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها. ويجوز أن يكون حالاً عن القلوب، وأنَّ القلوبَ كاظمةٌ على غمٍّ وكرَبٍ فيها مع بلوغها الحناجرَ، وإنما جُمِعَ الكاظم جمع السَّلامة؛ لأنه وصَفَهَا بِالكَظْمِ الذي هو من أفعالِ العقلاء، كما قال تعالى: ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف: ٤]، وقال: ﴿ فَظَلَلْتُ

قوله: (مُعترضة كالشجاء)، الجوهري: أشجأه يُشجيه إشجاءً: إذا أعصه. يُقال: شَجِيَ - بالكسْرِ - يَشجِي شَجِي.

قوله: (كما قال): ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الملك: ٢٧]، مثال لقوله: (وهي مشارفتهم دخول النار)، فعند ذلك ترتفع قلوبهم عن مَقَارِهَا.

قوله: (وأنَّ القلوبَ كاظمةٌ على غمٍّ وكرَبٍ)، أي: تبقى القلوبُ كالساكِتِ المُمتلئِ قلبه غمًّا وغيظًا. قال صاحبُ «الكشف»: نسبةُ الكَظْمِ إلى القلبِ كنسبةِ الكتابةِ^(١) إلى اليد. وقال: معنى «كاظمين» متوقِّفينَ عن كلِّ شيءٍ إلا عما دُفِعَتْ إليه من فِكْرِها فيه، كذلك قوله: ﴿ وَالْكَظِيمِينَ الْأَعْيَضُ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] المتوقِّفينَ عما يدعو إليه الغضب^(٢).

(١) سقط لفظُ «الكتابة» من النسخة (ح).

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١١٧٥ - ١١٧٦)، بتحقيق د. محمد الدالي، و(٢: ٢٨٠) بتحقيق

د. عبد القادر السعدي.

أَعَنَّتْهُمْ لَهَا خَلُوعِينَ ﴿ [الشعراء: ٤]، وَيَعْضُدُهُ قِرَاءَةً مِّنْ قُرْآنٍ: (كاظمون)، ويجوز أن يكون حالاً عن قوله: ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ ﴾، أي: وأنذرهم مقدّرين أو مُشارِفين الكَظْمَ، كقوله: ﴿ فَأَذْخُلُوهَا خَلْدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]. الحميم: المُجِبُّ المُشْفِقُ. والمُطَاع: مجازٌ في المشفّع؛ لأنَّ حقيقة الطاعة نحو حقيقة الأمر في أنها لا تكون إلا لمن فَوْقَكَ. فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاع ﴾؟ قلت: يحتمل أن يتناول النفي الشفاعة والطاعة معاً، وأن يتناول الطاعة دون الشفاعة، كما تقول: ما عندي كتابٌ يُباع، فهو مُحتمَلٌ نفي البيع وحده، وأنَّ عندك كتاباً إلا أنك لا تبيعه؛ ونفيها جميعاً، وأن لا كتابَ عندك ولا كونه مبيعاً. ونحوه:

ولا ترى الضبَّ بها ينجحُ

يريد: نفي الضبِّ وانجحاره. فإن قلت: فعل أي الاحتمالين يجب حملُه؟ قلت: على نفي الأمرين جميعاً،

قوله: (ويعضدُهُ قِرَاءَةً مِّنْ قُرْآنٍ «كاظمون»^(١))، لأنَّ «كاظمون» على هذا محمولٌ على «القلوب» خبرٌ لها، و﴿لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ ظرفٌ «كاظمون» قُدِّمَ عليه، أو هو خبرٌ بعد خبر. وعلى التقدير الأول وهو قوله: «إذ قلوبهم لدى حناجرهم» كان ﴿كَظْمِينَ﴾ حالاً من الضمير المجرور في الخبر، ولا يجوز إجراء «كاظمون» عليه حالاً، ولا على المبتدأ خبراً؛ إلا على التأويل. وقدَّرَ صاحبُ الكواشي: «هم كاظمون» فعل هذا يقوى إرادة أصحابِ القلوب.

قوله: (وأنَّ عندك كتاباً إلا أنك لا تبيعه)، عطفٌ تفسيريٌّ على قوله: «نفي البيع وحده»، وكذا قوله: «وأن لا كتابَ عندك ولا كونه مبيعاً» تفسيرٌ لقوله: «ونفيها جميعاً».

(١) ومن جَوِّزَ القراءة به: الكساتي والفراء. قال الفراء في «معاني القرآن» (٦: ٣): ولو كانت «كاظمون» مرفوعةً على قولك: إذ القلوب لدى الحناجر إذ هم كاظمون، أو على الاستئناف؛ كان صواباً. انتهى. ولتمام الفائدة انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣٠٢).

مِنْ قَبْلِ أَنْ الشُّفَعَاءَ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا يُحِبُّونَ وَلَا يَرْضَوْنَ إِلَّا مَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَضِيَهُ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، فَلَا يُحِبُّونَهُمْ، وَإِذَا لَمْ يُحِبُّوهُمْ لَمْ يَنْصُرُوهُمْ وَلَمْ يَشْفَعُوا لَهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، وَقَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]؛ وَلِأَنَّ الشُّفَاعَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي زِيَادَةِ التَّفَضُّلِ، وَأَهْلُ التَّفَضُّلِ وَزِيَادَتِهِ إِنَّمَا هُمْ أَهْلُ الثَّوَابِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٤]، وَعَنْ الْحَسَنِ: وَاللَّهُ مَا يَكُونُ لَهُمْ شَفِيعُ الْبَتَّةِ. فَإِنْ قُلْتُ: الْعَرَضُ حَاصِلٌ بِذِكْرِ الشَّفِيعِ وَنَفِيهِ، فَمَا الْفَائِدَةُ فِي ذِكْرِ هَذِهِ الصِّفَةِ وَنَفِيهَا؟ قُلْتُ: فِي ذِكْرِهَا فَائِدَةٌ جَلِيلَةٌ؛ وَهِيَ أَنَّهَا ضُمَّتْ إِلَيْهِ؛ لِيُقَامَ انْتِفَاءُ الْمَوْصُوفِ مَقَامَ الشَّاهِدِ عَلَى انْتِفَاءِ الصِّفَةِ؛ لِأَنَّ الصِّفَةَ لَا تَتَأْتِي بِدُونِ مَوْصُوفِهَا، فَيَكُونُ ذَلِكَ إِزَالَةً لِتَوْهُمِ وَجُودِ

قَوْلُهُ: (مِنْ قَبْلِ أَنْ الشُّفَعَاءَ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ)، يَعْنِي: الْوَاجِبُ أَنْ يَنْفِي الشَّافِعَ وَالطَّاعَةَ، لِأَنَّ هُنَاكَ شَافِعًا غَيْرَ مُطَاعٍ؛ إِذْ لَيْسَ لِلظَّالِمِينَ شَافِعُ الْبَتَّةِ؛ لِأَنَّ الشُّفَعَاءَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، وَالْأَوْلِيَاءُ لَا يَشْفَعُونَ لِلظَّالِمِينَ، وَالتَّعْرِيفُ فِي «الظَّالِمِينَ» عِنْدَهُ لِلجِنْسِ، وَعِنْدَنَا لِلْعَهْدِ؛ لِأَنَّ «الظَّالِمِينَ» مِنْ وَضْعِ الْمُظْهَرِّ مَوْضِعِ الْمُضْمَرِّ وَالْمَرَادُ بِهِمُ «الْمُنْذَرِينَ» فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَقَةِ﴾.

قَوْلُهُ: (لِيُقَامَ^(١) انْتِفَاءُ الْمَوْصُوفِ فِي^(٢) مَقَامِ الشَّاهِدِ عَلَى انْتِفَاءِ الصِّفَةِ)؛ لِأَنَّ الصِّفَةَ لَا تَتَأْتِي بِدُونِ مَوْصُوفِهَا قَالَ صَاحِبُ «التَّقْرِيبِ»: وَإِنَّمَا لَمْ يَتَّقِصِرْ عَلَى نَفِي الشَّفِيعِ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ نَفْيَ كَوْنِهِ مُشْفَعًا، لَا نَفْيَ ذَاتِ الشَّفِيعِ، وَإِنْ كَانَ الثَّانِي دَلِيلًا عَلَى الْأَوَّلِ وَمُسْتَلزِمًا لَهُ، فَأَرَادَ ذِكْرَ الْمَقْصُودِ مَعَ الْاسْتِشْهَادِ عَلَيْهِ، كَقَوْلِ مَنْ عَوْتَبَ عَلَى الْقَعُودِ عَنِ الْغَزْوِ: مَا لِي فَرَسٌ أَرْكَبُهُ. أَيْ: لَا يُمْكِنُنِي الرُّكُوبُ لِعَدَمِ الْفَرَسِ، فَكَذَا لَا يُمْكِنُ التَّشْفِيعُ لِعَدَمِ الشَّفِيعِ، فَذَكَرُ الْمَقْصُودَ وَالِدَلِيلَ عَلَيْهِ - وَهُوَ التَّقْرِيرُ - أَظْهَرَ مِمَّا فِي الْأَصْلِ.

وَقَالَ وَالِدُهُ صَاحِبُ «التَّهْذِيبِ»: حَاصِلُ كَلَامِ الرَّحْمَشَرِيِّ أَنَّهُ اسْتَدَلَّ بِعَدَمِ الْمَوْصُوفِ

(١) فِي النِّسْخَةِ (ح): «انْتِقَامًا»، وَهُوَ خَطَأٌ.

(٢) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةَ، وَكَذَا هُوَ فِي نَصِّ «الْكَشَافِ» مِنْ (ط)، لَكِنْ لَفْظَةً «فِي» لَيْسَتْ فِي الْأَصْلِ الْخَطِيئَةَ مِنْ «الْكَشَافِ» وَلَا فِي الْمَطْبُوعِ.

الموصوف، بيأته: أنك إذا عوتبت على القعود عن الغزو فقلت: مالي فرس أركبه، ولا معي سلاح أحارب به، فقد جعلت عدم الفرس وفقد السلاح علة مانعة من الركوب

على عدم الصفة؛ لأن وجود الصفة بلا موصوف محال. وقوله: «فيكون ذلك إزالة لتوهم وجود الموصوف»، كأنه استدلال بعدم الصفة على عدم الموصوف، وهو يناقض ذلك التقرير.

وقلت: مقصود المصنف من قوله: «في ذكرها فائدة جلية» أن مجيء الصفة ونفيها ليس إلا للمبالغة في نفي الموصوف، فمعنى قوله تعالى: «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ» في هذا المقام: كيف يتأتى الشفيع ولا شفيع؟ كمعنى قول القائل لمن يُعابته على القعود عن الغزو: مالي فرس أركبه. أي: كيف يتأتى مني الركوب ولا فرس لي؟ فكان ذكر الركوب والاستدلال على عدم تأتیه بعدم الفرس دليلاً على أن انتفاء الفرس أمر لا نزاع فيه، وأن المخاطب لا يناقشه فيه، وكذلك ذكر الشفيع والاستدلال على عدم تأتیه بعدم الشفيع دليل على فقدان الشفيع، أمر محقق مشهور لا نزاع فيه، وإليه الإشارة بقوله: «الأمر المعروف غير المنكر الذي لا ينبغي أن يتوهم خلافه»، والأسلوب من باب نفي الشيء بنفي لازمه، فجيء بالصفة ليجعل نفي الموصوف دليلاً على انتفائها، فيلزم منه نفي توهم الموصوف، يعني: بلغ الموصوف في الانتفاء مبلغاً متناهيًا حتى صار دليلاً على انتفاء الصفة؛ لما يلزم من انتفاء الموصوف انتفاء الصفة؛ لأن الصفة لا تتأتى بدون موصوفها، فيكون المجموع دليلاً على المطلوب وهو انتفاء الموصوف بالكلية. وقد استقصينا في البقرة عند قوله تعالى: «لَا يَسْتَأْذِنُ النَّاسُ إِلَّا حَقًّا» [البقرة: ٢٧٣] القول فيه.

قال صاحب «الانتصاف»: نفي المجموع يصح بنفي جزئه وبنفي كُله، فإن كان المراد نفي الأمرين فذكر الصفة كالعلة لنفي الذات، أي لا طاعة فلا شفاعة، أو لا ذات فلا صفة، فيكون النفي مرتين من وجهين مختلفين، فظهر أن الفاء في «فيكون ذلك» نتيجة من قوله: «ليقام انتفاء الموصوف»، لا من قوله: «لأن الصفة لا تتأتى»، فلا يلزم التناقض كما ظن^(١).

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٥٨).

والمُحَارَبَةِ، كأنك تقول: كيف يتأتى مني الركوبُ والمحاربة ولا فَرَسَ لي ولا سِلَاحَ معي؟! فكذلك قوله: ﴿وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾ معناه: كيف يتأتى الشفيعُ ولا شفيع؟ فكان ذِكْرُ الشفيع والاستشهاد على عدم تأتیه بعدم الشفيع وَضَعًا لانتفاء الشفيع موضع الأمرِ المعروف غير المنكر الذي لا ينبغي أن يتوهم خلافه.

[يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾]

الخائنة: صِفَةُ لِلنَّظَرَةِ، أو مصدرٌ بمعنى الخيانة، كالعافية بمعنى المُعَاوَاةِ، والمراد: استراقُ النَّظَرِ إلى ما لا يَحِلُّ، كما يفعلُ أهلُ الرَّيْبِ، ولا يحسن أن يُرادَ الخائنةُ من الأعين؛ لأنَّ قوله: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ لا يُسَاعِدُ عليه. فإن قلت: بِمِ اتَّصَلَ قوله: ﴿يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ﴾؟ قلتُ: هو خبرٌ من أخبارِ ﴿هُوَ﴾ في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ﴾، مثلُ ﴿يُلْقَى الرُّوحُ﴾، ولكنَّ ﴿يُلْقَى الرُّوحُ﴾ قد عللَ بقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾، ثم

قوله: (الأمر المعروف)، أي: المشهور الثابت القائم، فكأنه قد عَلِمَ من غير شُبْهَةٍ أن لا شفيع، فيُستَدَلُّ به على عدم الشفيع.

قوله: (لأنَّ قوله: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ لا يُسَاعِدُ عليه)، لأنَّ مراعاةَ النسبةِ بينَ القريبتين في فصيح الكلام واجب، فإذا لا يجوزُ أن يكونَ «الخائنة» صفةً للعَيْنِ، أي: العين الخائنة، ثم أُضيفَ الصفةُ إلى موصوفِها؛ لأنَّ قوله: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ لا يُناسِبُه؛ لأنه نسبُ الإخفاءِ إلى الصُّدُورِ فأوجبَ ذلك أن ينسبَ الخائنةُ إلى الأعينِ. ويُقال: يعلمُ نظرةَ الأعينِ ويعلمُ ما تُخْفِي الصُّدُورِ. وفيه بحث؛ لأنَّ المقصودَ من الإسنادِ المُبَالِغَةِ، وأنَّ الله تعالى يعلمُ استراقَ العينِ لا العينَ الخائنة، سواءً ضمَّ إليه قريبتها أو لم يضمَّ.

وقال القاضي: النظرةُ الخائنةُ النظرةُ الثانيةُ إلى غير المُحَرَّمِ واستراقُ النَّظَرِ إليه، أو خيانةُ الأعينِ^(١). والجملةُ خبرٌ خامسٌ للدلالةِ على أنه ما من خفيٍّ إلا وهو متعلقٌ للعلمِ والجزاء. قوله: (هو خبرٌ من أخبارِ ﴿هُوَ﴾)، أي: لفظة ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾، يعني: ﴿يَعْلَمُ﴾ خبرٌ لـ ﴿هُوَ﴾، مثلُ ﴿يُلْقَى﴾.

استطرد ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله: ﴿وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾؛ فبعد ذلك عن أخواته.

قوله: (فبعد ذلك عن أخواته)، فإن قلت: فهلاً لم يُقدّم على ﴿يَلْقَى الرُّوحَ﴾ أو على إخوانه؛ لثلاً يحصل هذا البعد؟ قلت: لا يخلو إما أن يُؤتى به قبل قوله: ﴿الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أو بعده، ولا يجوز الأول؛ لأن هذا مُتَضَمِّنٌ للتهديد كما قال: «والمراد استراق النظر إلى ما لا يحل».

وقال الواحدي: يعلمُ مُسَارِقَةَ النَّظَرِ إلى ما لا يحل، وما تُسِرُّ القلوبُ في السرِّ من المعصية^(١)، ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ فيجزى بالحسنة والسيئة، وذلك واردٌ في الامتتان على ما يوجبُ الشُّكْرَ من نعمة الحياتين، وقد سبق اتصاله بها قبله.

ولا الثاني^(٢)؛ لأنه إما أن يُقدّم على «رفيع الدرجات» أو يُؤخر عنه.

ولا يجوز الأول؛ لأنَّ ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ﴾ في الوجه المختارٍ مُفسَّرٌ بمصاعِدِ الملائكة ومهابطها للسَّفارة بين المرسل والمرسل إليه، وهو كالمُقدِّمة لقوله: ﴿يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، وورودهما عقيب ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ للإيدان بأن الماء كما هو حياة الأرض الميِّتة، كذلك الوحيُّ حياة للقلوب^(٣) الميِّتة.

ولا الثاني؛ لأنه إذا لم يجز ذلك فبالطريق الأولى هذا؛ لثلاً يتخلل بين المُقدِّمة ولاحقتها أجنبي، وإنما عقبَ به قوله: ﴿يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ وما يتصلُ به من الاستطرادِ لمناسبة بينهما لفظاً ومعنى، كما قال: هو مثلُ ﴿يَلْقَى الرُّوحَ﴾، أما اللفظُ فكلاهما مضارعان، وأما المعنى فلدلالة كلِّ منهما على الوعيد والتهديد، أما العلمُ فكما سبق، وأما الوحيُّ فلتصريحِ تعليقه بقوله: ﴿لِنُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ إلى آخره.

فإن قلت: لم لا تجعل العلمَ علةً لنفي شفاعَةِ الشفيع، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي

(١) «الوسيط في التفسير» للواحدي (٤: ٨).

(٢) مُتَعَلِّقٌ بقوله: «ولا يجوز الأول».

(٣) سقط لفظ «للقلوب» من النسخة (ح).

[﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ

الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾]

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ يعني: والذي هذه صفاته وأحواله لا يقضي إلا بالحق والعدل؛ لاستغناؤه عن الظلم، وأهتكم لا يقضون بشيء. وهذا تهكم بهم؛ لأن ما لا يُوصف بالقدرة لا يقال فيه: يقضي، أو: لا يقضي. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تقرير لقوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، ووعد لهم بأنه يسمع ما

يَشْفَعُ عِنْدَهُ، إِلَّا بِإِذْنِهِ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴿[البقرة: ٢٥٥]، فكأنه قيل: ما للظالمين من شفيع؛ لما يعلم الله منهم الخيانة سرا وعلانية ظاهرا وباطنا، فتخلص من تلك الورطة؟ قلت: إذا جعل من الأخبار المستقلة بالدلالة لإثبات وصف العلم ويتصل به حديث العدل والقضاء الحق، ويكون تخلصا إلى ذم أهتهم، ولا يفوت تعليل نفي الشفاعة أيضا على سبيل الإدماج لاقرانه به، كان أحسن من تعليقه بنفي الشفاعة وحده. لله در المصنف ولطيف اعتباراته ودقيق إشاراته، ورحم الله من كان سببا لمتار هذه النكات.

قوله: (والذي هذه صفاته وأحواله لا يقضي إلا بالحق)، يعني: عومل بالاسم الجامع مُعاملة اسم الإشارة، مثل «أولئك» و«ذلك» إذا وقع بعده حُكم؛ ليؤذن بأن ما بعده جدير بما قبله لإجراء تلك الصفات عليه، وإنما عدل من اسم الإشارة إلى اسم الذات؛ ليكون أجمع وأفخم.

قوله: (وهذا تهكم بهم)، فإن قلت: لم لم يجعله من المشاكلة؟ قلت: جعله استعارة تهكمية أبلغ، والاختيار أولى، والمقام له ادعى، وهو تحقير شأن أهتهم وتسفيه رأيهم.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تقرير لقوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾، أي: يعلم خائنة الأعين؛ لأنه بصير لا يحجبه شيء من المبصرات التي تخفى على كل ذي بصر، ويعلم ما تخفي الصدور من الهواجس التي ربما تخفى على صاحبها؛ لأنه سمع حقيقي، وإنما فصل هذه الفقرة بهذه الفاصلة يكون ظاهرا في التعريض بما يدعون من دون الله، وأنها لا تقدر على القضاء؛ لأنها لا تسمع ولا تبصر.

يقولون ويُبصر ما يعملون، وأنه يُعاقِبهم عليه، وتعرِيضُ بها يدْعون من دُون الله، وأنها لا تَسْمَعُ ولا تُبصر. وقرئ: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء والتاء.

[﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدٌ الْعِقَابِ﴾ ٢١-٢٢]

﴿هُمَّ﴾ في ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ فصل. فإن قلت: من حقّ الفصل أن لا يقع إلا بين معرفتين، فما باله واقعا بين معرفة وغير معرفة؛ وهو ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾؟ قلت: قد ضارِع المعرفة في أنه لا يدخله الألف واللام؛ فأجري مجراه. وقرئ: (منكم) وهي في

وفيه إشارة إلى أن الحاكم والقاضي ينبغي ألا يكون فاقد السمع والبصر، فيكون قوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ إلى آخره مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ الْمُقَرَّرِ وَالْمُقَرَّرِ.

قوله: (وَقُرِئَ ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء والتاء)، الفوقانية: نافع وابن ذكوان، والباقون: بالياء^(١). قوله: (قد ضارِع المعرفة في أنه لا يدخله الألف واللام)، قال ابن الحاجب: ولا يجوز أن تقول: زيدٌ هو غلامٌ رجل، وإن كان مُتَمَتِّعًا دُخُولُ حرفِ التعريفِ عليه؛ لأنَّ هذا مخصوصٌ بـ «أفعلٌ من كذا»، والفرق بينهما أن «أفعلٌ من كذا» يُشْبِهُ المعرفةَ شَبْهًا قَوِيًّا من حيثُ المعنى، حتى إن معنى قولك: أفضلٌ من كذا، الأفضل باعتبارِ فضليةٍ معهودة، ولذلك قامَ مقامه، وليسَ غلامٌ رجلٌ كذلك، فإنه إنما امتنع دخولُ حرفِ التعريفِ عليه من جهة أن الإضافة قد تكونُ للتعريف، واللامُ للتعريف، فكَرِهَ الجمعُ بينهما، بخلافِ «أفضلٌ منك».

قوله: (وَقُرِئَ: «منكم»)، ابن عامر^(٢).

(١) ولتتام الفائدة انظر: «حجّة القراءات» ص ٦٢٨.

(٢) انظر: «حجّة القراءات» ص ٦٢٩.

مصاحف أهل الشام. ﴿وَأَنَارًا﴾: يريدُ حُصُونَهُمْ وَقُصُورَهُمْ وَعُدَدَهُمْ، وما يُوصَفُ بالشدَّةِ من آثارهم. أو أراد: وأكثر آثارًا، كقوله:

مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحًا

[﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمْعَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٢٣ - ٢٥﴾]

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾: وحُجَّةٌ ظاهرة؛ وهي المُعْجَزَات، فقالوا: هو ساحرٌ كذاب، فَسَمَّوْا السُّلْطَانَ المَبِينِ سِحْرًا وَكَذْبًا، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾: بالنبوة. فإن قلت: أما

قوله: (وما يوصفُ بالشدَّةِ من آثارهم)، الراغب: أثر الشيء: حصولُ ما يدلُّ على وجوده. يُقال: أثر وإثر، والجمع: الآثار. ويُقالُ للطريقِ المُسْتَدَلُّ به على تَقَدُّمِ أشخاص: آثار. وأثرُ العِلْمِ: رَوَيْتُهُ، أثرُهُ أثرًا وأثارةً وأثرة. وأصلُهُ: تَبَعْتُ أثرَهُ، قال تعالى: ﴿أَوْ أَتَمَّرُوا مِنَ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤]، وقُرئ: «أثرة»، وهو ما يُروى ويُكْتَبُ فيبقى له أثر. والمآثر: ما يُروى من مكارِمِ الإنسان. ويُستعارُ الأثرُ للفضل، والإيثارُ للتفضُّل، ومنهُ قولهم: آثرته، وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [الحشر: ٩] والاستئثار: التفرُّد بالشيء من دون غيره. وفي الحديث: «ستكونُ بعدي أثره»^(١) أي: يَسْتَأْتِرُ بعضكم على بعض^(٢).

قوله: (أو أراد: وأكثر آثارًا)، فعلى الأولِ ﴿وَأَنَارًا﴾ عطفٌ على ﴿قُوَّةً﴾، فتختصُّ الآثارُ بما فيه قُوَّةٌ وشدَّةٌ، وعلى الثاني عطفٌ على ﴿أَشَدَّ﴾ على تقدير أكثر مُطلقًا، سواء كانت الآثارُ قُوَّةً أو لا^(٣).

(١) هو جزءٌ من حديثٍ أخرجه البخاري (٣٦٠٣) ومسلم (١٨٤٣) وغيرهما من حديثِ ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٦٢.

(٣) من قوله: «قوله: (أو أراد وأكثر آثارًا)» إلى هنا، سقط من (ف) و(ح).

كان قتل الأبناء واستحياء النساء من قبل خيفة أن يولد المولود الذي أُنذرتُه الكهنة بظهوره وزوال ملكه على يده؟ قلت: قد كان ذلك القتل حينئذٍ، وهذا قتل آخر. وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿قَالُوا أَقْتُلُوا﴾: أعيدوا عليهم القتل كالذي كان أولاً. يريد: أن هذا قتل غير القتل الأول. ﴿فِي ضَلَالٍ﴾: في ضياع وذهاب، باطلاً لم يُجِد عليهم، يعني: أنهم باشروا قتلهم أولاً فما أغنى عنهم، ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه، فما يُعني عنهم هذا القتل الثاني، وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان، فلما بعث موسى وأحس بأنه قد وقع أعاده عليهم غيظاً وحنقاً، وظناً منه أنه يصدُّهم بذلك عن مظاهره موسى، وما علم أن كيدَه ضائع في الكرتين جميعاً.

[﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ٢٦]

﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ كانوا إذا هم بقتله كفوه بقولهم: ليس بالذي تخافه،.....

قوله: (عَيْظًا وَحَنَقًا وَظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ يُصُدُّهُمْ بِذَلِكَ عَنْ مَظَاهِرَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ)^(١)، وقال في موضع آخر: «إلباساً عليهم وتعمية وأن ذلك المولود مُنتظرٌ بعد، وليس موسى بذلك»، وينصره قوله: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾، وقوله: (كان هذا تمويهاً على قومه وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونه)، وقال في «الأعراف» - في قوله: ﴿سَنَقِيلُ آثَانَهم وَسَنَتَحِيءُ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]-: «سنعيد عليهم ما كنا نحنهم به من قتل^(٢) الأبناء؛ ليعلموا أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة وأنهم مقهورون تحت أيدينا، ولئلا يتوهم العامة أنه هو المولود الذي تحدث المنجمون والكهنة بزوال ملكنا على يده»^(٣).

(١) قوله: «أنه يصدُّهم» إلى هنا، سقط من (ط).

(٢) في النسخة (ف): «قبل».

(٣) انظر: (٦: ٥٢٠).

وهو أَقْلٌ مِنْ ذَلِكَ وَأَضْعَفُ، وما هو إِلَّا بَعْضُ السَّحْرَةِ، ومثله لَا يُقَاوِمُ إِلَّا سَاحِرًا مِثْلَهُ، ويقولون: إِذَا قَتَلْتَهُ أَدْخَلْتَ الشُّبْهَةَ عَلَى النَّاسِ، واعتقدوا أنك قد عجزت عن مُعَارَضَتِهِ بِالْحُجَّةِ. والظاهر أَنَّ فرعونَ - لعنه الله - كان قد استيقنَ أَنَّهُ نبيٌّ، وأنَّ ما جاء به آياتٌ وما هو بسحر، ولكنَّ الرَّجُلَ كان فيه حِبٌّ وَجَرَبَةٌ، وكان قَتْلًا سَفَاكًا لِلدَّمَاءِ فِي أَهْوَنِ شَيْءٍ، فكيف لَا يَقْتُلُ مَنْ أَحْسَسَ مِنْهُ أَنَّهُ هو الذي يُثَلُّ عَرْشَهُ وَيَهْدِمُ مُلْكَهُ؟! ولكنه كانَ يَخَافُ إِنَّ هَمَّ بِقَتْلِهِ أَنْ يُعَاجَلَ بِالهِلاكِ، وقولُه: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ شاهدٌ صدقٍ على فِرطِ خَوْفِهِ مِنْهُ وَمِنْ دَعْوَتِهِ رَبَّهُ، وكان قولُه: ﴿ذُرْوَيْيَ أَقْتُلْ مُوسَى﴾

[قولُه: (وهو أَقْلٌ مِنْ ذَلِكَ وَأَضْعَفُ، وما هو إِلَّا بَعْضُ السَّحْرَةِ)، الانتصاف: هو مثلُ قولِه: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤] يوهَمُ قَلَّةَ الاحتفالِ بِهِمْ، وأنَّ قتالهم إِنما هو لِأَجْلِ أَنَّهُمْ لَنَا غَائِظُونَ، ومن عاداتنا الحذرُ على دولتنا بِحُسْنِ الحَفِظِ وَحِمايَةِ حوزَةِ المملِكةِ. ولقد كذَّبَ وكانَ فَوادُهُ تَمَلُّوءًا رُعبًا^(١).

قولُه: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ شاهدٌ صدقٍ، يعني صَدَرَ مِنْهُ هَذَا الكَلامُ على سَبِيلِ الإيْمانِ والتورية، والتورية - كما عَلِمْتَ - هُوَ أَنْ يُطْلَقَ لَفْظٌ لَهُ مَعْنِيانِ: قَرِيبٌ وَبَعِيدٌ^(٢)، فإِرادَةُ البَعِيدِ مِنْهُمَا، وَاللَّعِينُ أَوْ هَمَّ قَوْمُهُ المَعْنَى القَرِيبَ وَهُوَ التَّهَكُّمُ، وَفي ضَمِيرِهِ البَعِيدُ، أَظْهَرَ أَنَّ لَيْسَ لَهُ رَبٌّ وَالَّذِي يَدْعُوهُ لَيْسَ رَبُّهُ، أَي: لَا يُجِدي دُعَاؤُهُ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ يَدْعُو ما لَا حَقِيقَةَ لَهُ. وَهُوَ كما تَقُولُ لِمَنْ ظَفَرْتَ بِهِ وَليْسَ لَهُ ناصِرٌ: أَنَا أَنْتَقِمُ مِنْكَ فَادْعُ ناصِرَكَ؛ تَهَكُّمًا بِهِ. وَإِذا ما في ضَمِيرِهِ أَنَّهُ إِنْ هَمَّ بِقَتْلِهِ أَنْ يُعَاجَلَ بِالهِلاكِ، لِأَنَّهُ كانَ قدِ اسْتَيْقَنَ أَنَّهُ نبيٌّ وَنَبَأَ ما جاء بِهِ آياتٍ، ﴿وَمَحَمَّدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. قال مُحْيِي السُّنَّةِ أَي: وَلْيَدْعُ مُوسَى رَبَّهُ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ أَرْسَلَهُ إِلَيْنَا فَيَمْنَعُهُ مِنْنا^(٣). وَفي «اللُّبابِ»: أَي: لِيَدْعُ رَبَّهُ فَإِنَّهُ لَا يُجِيبُ، وَلَيْسَتْ عِنَ رَبِّهِ فَإِنَّهُ لَا يُعَانِ. وَقيل: لِيَدْعُ رَبَّهُ فَإِنَّهُ لَا يُجِيبُ مِنْ دُعَاؤِهِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ يَدْعُو ما لَا حَقِيقَةَ لَهُ.

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٦١). وسقط ما بين المعكوفين من النسخة (ط).

(٢) قولُه: «قريب وبعيد»: سقط من النسخة (ط).

(٣) «معالم التنزيل» (٧: ١٤٥).

تَمَوِيهَا عَلَى قَوْمِهِ، وَإِيهَامًا أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَكْفُونَهُ، وَمَا كَانَ يَكْفِيهِ إِلَّا مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ هَوْلِ الْفَرْعِ. ﴿أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾: أَنْ يَغْيِرَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَهُ وَيَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿وَيَذَرِكْ وَمَا إِلَهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]. وَالْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ: التَّفَانُّ وَالْتِهَارُجُ الَّذِي يَذْهَبُ مَعَهُ الْأَمْنُ وَتَتَعَطَّلُ الْمَزَارِعُ وَالْمَكَايِسُ وَالْمَعَايِشُ، وَيَهْلِكُ النَّاسُ قَتْلًا وَضَيَاعًا، كَأَنَّهُ قَالَ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُفْسِدَ عَلَيْكُمْ دِينَكُمْ بِدَعْوَتِكُمْ إِلَى دِينِهِ، أَوْ يُفْسِدَ عَلَيْكُمْ دُنْيَاكُمْ بِمَا يَظْهَرُ مِنَ الْفِتَنِ بِسَبَبِهِ. وَفِي مَصَاحِفِ أَهْلِ الْحِجَازِ: (وَأَنْ يُظْهَرَ) بِالْوَاوِ، وَمَعْنَاهُ: إِنِّي أَخَافُ فِسَادَ دِينِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ مَعًا.

وَقُرِّي: ﴿يُظْهَرَ﴾ مِنْ: أَظْهَرَ. وَ﴿الْفَسَادُ﴾ مَنْصُوبٌ، أَي: يُظْهَرُ مُوسَى الْفَسَادَ. وَقُرِّي: (يُظْهَرُ) بِتَشْدِيدِ الظَّاءِ وَالْهَاءِ، مِنْ تَظَهَّرَ، بِمَعْنَى تَظَاهَرَ، أَي: تَتَابَعَ وَتَعَاوَنَ.

قَوْلُهُ: (وَكَانُوا يَعْبُدُونَهُ وَيَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ)، قَالَ الْمَصْنُفُ: كَانَ فِرْعَوْنُ يَقُولُ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] فَكَيْفَ عَبْدَ الصَّنَمِ؟ وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَيَذَرِكْ وَمَا إِلَهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] فَاجَابَ بِأَنَّهُ أَمَرَ بِنَحْتِ الْأَصْنَامِ وَبِأَنْ تُجْعَلَ شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَهُ، كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ: ﴿شَفَعْتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فَأَضَافُوا الْأَلْهَةَ إِلَيْهِ بِهَذَا الْمَعْنَى (١).

قَوْلُهُ: (وَضَيَاعًا)، الْجَوْهَرِيُّ: ضَاعَ الشَّيْءُ يَضِيعُ ضَيْعَةً وَضَيَاعًا - بِالْفَتْحِ - أَي: هَلَكَ.

قَوْلُهُ: (وَفِي مَصَاحِفِ أَهْلِ الْحِجَازِ: «وَأَنْ يُظْهَرَ» بِالْوَاوِ)، قَالَ صَاحِبُ «التَّيْسِيرِ»: وَقُرِّأَ بِهَا عَاصِمٌ وَحَمْزَةٌ وَالْكَسَائِيُّ (٢). وَقَالَ الزَّجَّاجُ: وَفِي مُصْحَفِ أَهْلِ الْعِرَاقِ: «أَوْ أَنْ» عَلَى مَعْنَى: إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبْطَلَ دِينَكُمْ الْبَتَّةَ، وَإِنْ لَمْ يُبْطَلْهُ أَوْقَعَ فِيهِ الْفَسَادَ. وَعَلَى الْوَاوِ (٣): أَخَافُ إِبْطَالَ دِينِكُمْ وَالْفَسَادَ مَعَهُ (٤).

قَوْلُهُ: (وَقُرِّي: ﴿يُظْهَرَ﴾)، نَافِعٌ وَأَبُو عَمْرٍو وَحَفْصٌ، وَالباقونَ: بِفَتْحِ الْبَاءِ وَالْهَاءِ.

(١) «الكشاف» (٦: ٥٢٠).

(٢) «التيسير في القراءات السبع» ص ١٩١.

(٣) من قوله: «أخاف أن يبطل» إلى هنا، سقط من (ح).

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٧١).

[﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ٢٧]

لَمَّا سَمِعَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا أَجْرَاهُ فَرَعُونَ مِنْ حَدِيثِ قَتْلِهِ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنِّي عُذْتُ﴾ بِاللَّهِ الَّذِي هُوَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ فِيهِ بَعَثُ لَهُمْ عَلَى أَنْ يَقْتَدُوا بِهِ، فَيَعُودُوا بِاللَّهِ عِيَادَةً، وَيَعْتَصِمُوا بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ اعْتِصَامَهُ، وَقَالَ: ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾؛ لِتَشْمَلِ اسْتِعَاذَتُهُ فَرَعُونَ وَغَيْرَهُ مِنَ الْجَبَابِرَةِ؛ وَلِيَكُونَ عَلَى طَرِيقَةِ التَّعْرِيفِ؛ فَيَكُونَ أَبْلَغَ. وَأَرَادَ بِالتَّكَبُّرِ: الِاسْتِكْبَارَ عَنِ الإِذْعَانِ لِلْحَقِّ، وَهُوَ أَقْبَحُ اسْتِكْبَارٍ وَأَدْلُهُ عَلَى ذَنَاءَةِ صَاحِبِهِ وَمَهَانَةِ نَفْسِهِ، وَعَلَى فَرْطِ ظُلْمِهِ وَعَسْفِهِ، وَقَالَ: ﴿لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾؛ لِأَنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَ فِي الرَّجُلِ التَّجَبُّرُ وَالتَّكْذِيبُ بِالْجِزَاءِ وَقَلَّةُ المَبَالَاةِ بِالعَاقِبَةِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ أَسْبَابَ القَسْوَةِ وَالجُرْأَةِ عَلَى اللَّهِ وَعِبَادِهِ، وَلَمْ يَتْرِكْ عَظِيمَةً إِلاَّ ارْتَكَبَهَا. وَعُذْتُ وَلُذْتُ أَخَوَانِ. وَقُرَى: (عُتُّ) بِالإِدْغَامِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ فِيهِ بَعَثُ لَهُمْ عَلَى أَنْ يَقْتَدُوا بِهِ، يَرِيدُ أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا سَمِعَ قَوْلَهُمْ: ﴿أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ شَجَعَ قَوْمَهُ وَقَالَ: تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ عِيَادَةً وَاعْتَصِمُوا بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، كَمَا تَعَوَّذْتُ وَاعْتَصَمْتُ؛ لِيُخَلِّصَكُم مِّنْ شَرِّ هَذَا المُتَكَبِّرِ الَّذِي لَا عَقْلَ لَهُ لِيَرْدَعَهُ، وَلَا دِينَ لِيَزْجِرَهُ. وَدَلَّ عَلَى هَذَا كَلْمُهُ عَطْفُ ﴿وَرَبِّكُمْ﴾.

قَوْلُهُ: (وَلِيَكُونَ عَلَى طَرِيقَةِ التَّعْرِيفِ)، عَطْفٌ عَلَى «لِيَشْمَلَ»، كَرَّرَ اللَّامَ عَلَى «رَبِّي» لِلِاسْتِقْلَالِ. يَعْنِي: فِي التَّعْمِيمِ فَائِدَتَانِ: إِحْدَاهُمَا: دُخُولُ الغَيْرِ فِي المُسْتَعَاذِ مِنْهُ. وَثَانِيَتُهُمَا: تَرْكُ المُوَاجَهَةِ بِقَوْلِهِ: أَنْتَ مُتَكَبِّرٌ مُّكَذِّبٌ مَعَ إِرَادَةِ ذَلِكَ بِأَبْلَغِ وَجْهِ.

قَوْلُهُ: (لِأَنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَ فِي الرَّجُلِ التَّجَبُّرُ وَالتَّكْذِيبُ)، إِلَى قَوْلِهِ: (اسْتَكْمَلَ أَسْبَابَ القَسْوَةِ)، وَفِي الخَاتِمَةِ^(١): الظُّلْمُ مِنَ طَبَعِ النَفْسِ، وَإِنَّمَا يُصَدِّقُهَا عَنْ ذَلِكَ أَحَدُ عِلَّتَيْنِ: إِمَّا عَنَّةٌ دِينِيَّةٌ كَخَوْفِ مَعَادٍ، أَوْ عِلَّةٌ سِيَاسِيَّةٌ كَخَوْفِ السَّيْفِ. قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ:

(١) كَذَا فِي النسخِ الخَطِيَّةِ، وَلَمْ أَهْتِدِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ. نَعَمْ هُنَاكَ رِسَالَةٌ لِلْحَاثِمِيِّ يَتَحَدَّثُ فِيهَا عَنِ اسْتِعْمَالِ «نَسْبِي» مِنْ كَلَامِ الفَلَّاسِفَةِ، فَلَعَلَّ المَقْصُودَ هُوَ هَذِهِ الرِّسَالَةُ.

[وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾]

﴿رَجُلٌ مُؤْمِنٌ﴾ وقرئ: (رَجُلٌ) بسكون الجيم، كما يقال: عَضُدٌ، في عَضُدٍ، وكان قبطياً ابن عم لفرعون، آمن بموسى سرّاً. وقيل: كان إسرائيلياً. و﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ صفة لـ ﴿رَجُلٌ﴾، أو صلة لـ ﴿يَكْتُمُ﴾، أي: يكتُمُ إيمانه من آل فرعون، واسمُه سِمْعَانُ أو حَبِيبٌ، وقيل: خَزْبِيلُ أو حَزْبِيلُ، والظاهرُ أنه كان من آل فرعون؛ فإن المؤمنين من بني إسرائيل لم يَقْلُوا ولم يَعِزُوا، والدليل عليه قول فرعون: ﴿أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ [غافر: ٢٥]. وقول المؤمن: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٩]. دليل ظاهر على أنه يتنصّح لقومه. ﴿أَنْ يَقُولَ﴾: لأن يقول، وهذا إنكارٌ منه عظيم

والظلم من شيم النفوس وإن تجد ذاعفة فلعللة لا يظلم^(١)

قوله: (و﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ صفة لـ ﴿رَجُلٌ﴾ أو صلة لـ ﴿يَكْتُمُ﴾^(٢))، لأن الرجل إذا كان قبطياً كان ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾ صفة لـ ﴿رَجُلٌ﴾، وإذا كان إسرائيلياً كان صلة لـ ﴿يَكْتُمُ﴾. وعلى هذا الوقف على قوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ﴾ له وجه، ثم يبتدأ ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾. والظاهر الأول؛ لأن تقديم الصلة على الفعل لا معنى له في هذا المقام، ولأنه موجب للإلباس. وعليه قوله: «والظاهر أنه كان من آل فرعون»، لأن تخصيص الفردية وكتمان الإيذان لا يحسن إذا قيل: إن الرجل كان إسرائيلياً؛ لأن بني إسرائيل كانوا كثيرين وأنهم لم يكتموا إيمانهم عن آل فرعون، يدلُّ عليه قول اللعين: ﴿أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾؛ لأن التصريح بنفوس «آمنوا» دليل على أنه كان عارفاً بإيمان قوم موسى، فكيف يُحْمَلُ الكاتِمُ على رجلٍ من بني إسرائيل؟

قوله: (دليل ظاهر على أنه يتنصّح لقومه)، حيث قال: ﴿يَنْصُرُنَا﴾ و﴿جَاءَنَا﴾:

(١) سبق تخرجه.

(٢) قوله: «أو صلة لـ ﴿يَكْتُمُ﴾» سقط من (ح).

وتبكيّت شديد، كأنه قال: أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرّمة، وما لكم علة قطّ في ارتكابها إلا كلمة الحقّ التي نطق بها؛ وهي قوله: ﴿رَبِّ أَللَّهُ﴾ مع أنه لم يُحصِر لتصحیح قوله بيّنة واحدة، ولكن بيّنات عدّة من عند من نسب إليه الربوبية، وهو ربكم لا ربه وحده؟! وهو استدراج لهم إلى الاعتراف به، وليلين بذلك جماهم ويكسر من سورتهم. ولك أن تقدّر مضافاً محذوفاً، أي: وقت أن

لأنه دلّ على أنه منهم في القرابة، وأنه يُعلّمهم بأن الذي ينصحهم به هو مما هم لهم منه.

قوله: (وهو ربكم لا ربه وحده، وهو استدراج لهم)، اعلم أنه قد أشار في كلامه إلى ثلاث عبارات كلّها دالة على الاختصاص بمعونة التركيب والمقام الاستدراجي:

أحدها: قوله: «ما لكم علة قطّ في ارتكابها إلا كلمة الحق»، وذلك من قوله: ﴿أَفَقُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ حيث نكّر الرجل وأوقع قوله: ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ علة للقتل على سبيل التوبيخ، كأنه لم يُعلم من موسى عليه السلام إلا أنه رجل ما، ولم يُسمع منه قول إلا ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾، وهو عندهم أظهر من الشمس، وأقواله لا تُحصى، نحوه قوله تعالى: ﴿هَلْ نَدْكُرْ عَلَى رَجُلٍ يَبْتَئِتُكُمْ إِذَا مَرَّ قَتَرَكُمْ كُلِّ مَمَرٍ قُلْ إِنَّمَا لَفِي خَلْقِي جَدِيدٌ﴾ [سبا: ٧] قال: «فنكروه لهم، وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما يدّل على مجهول في أمر مجهول».

وثانيها: قوله: «لم يُحصِر لتصحیح قوله بيّنة واحدة، ولكن بيّنات عدّة»، وهو من جمع البيّنات، وتحليتها باللام.

وثالثها: قوله: «وهو ربكم لا ربه وحده»، وهو من تخصيص ذكر الرب وإضافته إليهم، أي: الذي يدعو إليه موسى هذا المعلوم المتميّز الذي لو قيل لكلّ مُميّز عاقل: مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ ليقولن: الله. كما قال في «الشعراء» بعدما سأل اللعين: ﴿وَمَرْبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿ [الشعراء: ٢٣-٢٤].

وإليه الإشارة بقوله: «من عند من نسب إليه الربوبية»، ولهذا لما قال اللعين: ﴿وَيَسِّرْ رِبِّهُ﴾، أجاب عليه السلام بقوله: ﴿إِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾.

قوله: (ولك أن تقدّر مضافاً محذوفاً)، عطف على قوله: «لأن يقول، وهذا إنكار منه»

تقول. والمعنى: أتقتلونه ساعة سمعتم منه هذا القول من غير روية ولا فكر في أمره؟! وقوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يريد: بالبيّنات العظيمة التي عهدتموها وشهدتموها، ثم أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم، فقال: لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقاً، ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ أي: يعودُ عليه كذبه ولا يتخطاه ضرره، ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضٌ﴾ ما يعدكم إن تعرّضتم له. فإن قلت: لم قال: ﴿بَعْضٌ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ وهو نبيّ صادق، لا بدّ لما يعدّهم أن يصيبهم كلّ لا بعضه؟ قلت: لأنه احتاج في مقابلة خصوم موسى ومناكره إلى أن يلاوِصهم ويذاريمهم، ويسلّك معهم طريق الإنصاف في القول، ويأتيهم من جهة المناصحة، فجاء بما علّم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه، فقال: ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضٌ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾. وهو كلامُ المُنصِفِ في مقالهِ غير المُشتطِّ فيه؛ ليسمّعوا منه ولا يردّوا عليه، وذلك أنه حين قرّضه صادقاً فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعدّ، ولكنه أردفه ﴿يُصِيبْكُمْ بَعْضٌ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾؛ ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام، فإريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيًا، فضلًا أن يتعصّب له، أو يرمي بالحصى من ورائه،

إلى قوله: «ما لكم علّة قطّ في ارتكابها إلا كلمة الحق»، أي: قوله: ﴿أَنْ يَقُولَ﴾ إما توبيخ على جعل قول الحقّ علّة القتل، وهو موجب للتسليم والتقليد بإضمار اللام، أو إنكار على عدم التفكير، على «أن» مصدرية والوقت مُقدّر.

قوله: (أن يلاوِصهم)، الجوهري: فلان يلاوِصُ الشجر، أي: ينظر كيف يأتيها ليقلعها. وعن بعضهم: يُقال: لا وِصَ القرن^(١)، إذا نظر من أيّ وجه يضره.

قوله: (غير المُشتطّ فيه)، اشتطّ في كذا: جازف فيه. والمُشتطّ: هو الغالي.

قوله: (أو يرمي بالحصى من ورائه)، قيل: هو كناية عن الذبّ عنه، أي: فضلًا عن أن يذبّ عن موسى. والوراءُ بمعنى قُدّام.

(١) وفي النسخة (ط): «القرآن»، وهو خطأ.

وتقديم الكاذب على الصادق أيضًا من هذا القبيل، وكذلك قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾. فإن قلت: فعن أبي عبيدة: أنه فسّر البعض بالكل، وأنشد بيت
ليبيد:

تَرَكَ أُمْكِنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضَها أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضُ النُّفُوسِ حِمَامُها

قوله: (وتقديم الكاذب على الصادق أيضًا من هذا القبيل)، الانتصاف: نظيره: ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ فُذًّا مِنْ قَبْلِ فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦] قَدَّمَ مَا تُصَدِّقُ بِهِ الْمَرْأَةَ؛ لدفع التهمة وإبعاد الظن، ولم يضره تأخر المقصد لهذه الفائدة، وقريب منه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ﴾ [يوسف: ٧٦] (١).

قوله: (تَرَكَ أُمْكِنَةَ)، البيت (٢)، أي: أترك أُمْكِنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضَها إِلَى أَنْ يَرْتَبِطَ الْحِمَامُ بَعْضُ النُّفُوسِ، أي: كلها، وهو يوم القيامة، وهذا خطأ؛ لأنه أراد ببعض النفوس نفسه، أي: إلى أن يموت مَنْ هو مشهورٌ معروفٌ ولا يخفى على كلِّ أحد. وعليه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقال الزَّجَّاج: قوله: ﴿بَعْضُ الَّذِي يَعِدُّكُمْ﴾ من لطيف المسائل؛ لأن النبي عليه السلام إذا أوعَدَ وَعَدًا وَقَعَ بِأَسْرِهِ لَا بَعْضُهُ، وَحَقُّ اللَّفْظِ: «كُلُّ الَّذِي يَعِدُّكُمْ»، لكنَّ هَذَا مِنْ بَابِ النَّظَرِ يَذْهَبُ فِيهِ الْمُنَاطِرُ إِلَى الْإِزَامِ الْحُجَّةِ بِأَيْسَرِ مَا فِي الْأَمْرِ، وَلَيْسَ فِيهِ نَفْيٌ إِصَابَةَ الْكَلِّ. ومثله قول الشاعر:

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلُّ

إنما ذكر البعض؛ ليوجب له الكل، لا أن البعض هو الكل، ولكنَّ القائل إذا قال: أَقَلُّ مَا يَكُونُ لِلْمُتَأَنِّي إِدْرَاكُ بَعْضِ الْحَاجَةِ، وَأَقَلُّ مَا يَكُونُ لِلْمُسْتَعْجِلِ الزَّلُّ، فَقَدْ بَانَ فَضْلُ الْمُتَأَنِّي عَلَى الْمُسْتَعْجِلِ بِمَا لَا يَقْدِرُ الْخِصْمُ أَنْ يَدْفَعَهُ (٣). وذكر الزَّجَّاج في «آلِ عَمْرَانَ»: وَأَنْشَدَ أَبُو عَبِيدَةَ بَيْتًا غَلَطَ فِي مَعْنَاهُ، يَعْنِي هَذَا الْبَيْتَ، وَقَالَ: الْمَعْنَى: أَوْ يَعْتَلِقُ كُلُّ النُّفُوسِ حِمَامُها.

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٦٢).

(٢) سبق تخريجُه.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٧٢).

وإنها المعنى: أو تَعْتَلِقُ نفسي جمامها. وفي كلامِ الناس: بعضُ يَعْرِفُكَ، أي: أنا أَعْرِفُكَ^(١).
وقال ابن الأنباري في «التزهُة»: هو أبو عبيدة مَعْمَرُ بن المُنْتَنِي التَّيْمِي. وقال الجاحظ:
لم يكن في الأرضِ خارجيًّا ولا إجماعيًّا عَلِمَ بجميع العلوم من أبي عبيدة. وقال أبو العباس
المُبَرِّد: كان أبو عبيدة عالمًا بالشعرِ والغريبِ والأخبارِ والنَّسبِ، وصنَّفَ كتابًا في القرآنِ
وسمَّاهُ «المجاز»^(٢).

وفي حاشية «الكشاف»: قال أبو عثمان المازني للمُبَرِّد: سمعتُ أبا عبيدة يقول: ما
أَكْذَبَ النَّحْوِيِّينَ على العَرَبِ حيثُ يزعمون أنَّ الألفَ في «العَلْقَى» للتأنيث، وسمِعناهم
يقولون: علقاة للواحد. فقال له المُبَرِّد: هَلَّا فَاوَلْتَهُ؟ قال: كان أجفَى من أن يفقه ما أقولُ له.
والجوابُ عن قولِ أبي عبيدة: أن مَنْ جعلَ الألفَ للتأنيث لم يُقَلِّ في الواحد: علقاة،
ومَنْ نَوَّنَ جعلَ الألفَ للإلحاقِ وصحَّ له أن يقول: علقاة^(٣). روى الجوهري عن سيبويه:
عَلْقَى: نَبْتُ، تكونُ واحدةً وجمعًا، وألفُهُ للتأنيثِ فلا يُنَوَّن. قال العجاج يصفُ ثورًا:

فَحَطَّ فِي عَلْقَى فِي مُكُورٍ

«فَحَطَّ»: بالفاء^(٤) والحاءِ المهملة. «المُكُور»: ضربٌ من الشَّجَرِ، بضمِّ الميمِ والكافِ،

والواحد: مَكْر. ويروى:

اسْتَنَّ فِي عَلْقَى فِي مُكُورٍ

استَنَّ الفَرَسُ وغيرُه، أي: قَمَصَ، وهي أن يرفعَ يديه ويدفعهما معًا ويعجنَ برجليه.

وفي «التقريب»: قال أبو عبيدة للمازني: ما رأيتُ ككذبِ النَّحْوِيِّينَ، يقولون: تاء
التأنيثِ لا تدخلُ على ألفه، وسمعتُ رُوْبَةَ يقول: واحد عَلْقَى: علقاة. فقيل للمازني: فم

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (١: ٤١٥).

(٢) «نزّهة الألباء في طبقات الأدباء» ص ٨٥.

(٣) من قوله: «ومن نون» إلى هنا، سقط من (ح).

(٤) في النسخ الخطية: «بالألف»، ولعل الصواب ما هو مثبت.

قلت: إن صحّت الروايةُ عنه، فقد حَقَّ فيه قولُ المازنيّ في مسألة العَلَقَى: كان أجفَى من أن يفقه ما أقول له، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ ﴿يَحْتَمِلُ أَنَّهُ إِنْ كَانَ مُسْرِفًا كَذَابًا خَذَلَهُ اللَّهُ وَأَهْلَكَهُ وَلَمْ يَسْتَقِمْ لَهُ أَمْرٌ، فَيَتَخَلَّصُونَ مِنْهُ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ مُسْرِفًا كَذَابًا لَمَا هَدَاهُ اللَّهُ لِلنَّبْوَةِ، وَلَمَّا عَضَّدَهُ بِالْبَيِّنَاتِ. وَقِيلَ: مَا تَوَلَّى أَبُو بَكْرٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ: طَافَ ﷺ بِالْبَيْتِ، فَلَقُّوه حِينَ فَرَّغَ، فَأَخَذُوا بِمَجَامِعِ رِدَائِهِ، فَقَالُوا لَهُ: أَنْتَ الَّذِي تَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا؟ فَقَالَ: «أَنَا ذَاكَ»، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قُلْتُ لِأَبِي عبيدة؟ فقال: ذاك - أي: التاء - إنما تدخلُ على لُغَةٍ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ أَلْفَهَا لِلْإِحَاقِ لَا لِلتَّانِيثِ.

قوله: ﴿يَحْتَمِلُ أَنَّهُ إِنْ كَانَ مُسْرِفًا﴾، إلى آخره، يريدُ أن قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ الآية، تعليلٌ للشَّطِينِ وارِدٌ على ذلك النمطِ ذا وجهين، أي: إِنْ يَكُ كاذِبًا فعليه كذبُه، أي: وبِأَلْ كذبِه وضررُه؛ لأنَّ الله لا يهدي ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ (٥). ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ إِنْ تَعَرَّضْتُمْ لَهُ؛ لأنَّ الله هِدَاةٌ لِلْحَقِّ، وَلَوْ كَانَ مُسْرِفًا كَذَابًا لَمَا هَدَاهُ اللَّهُ لِلنَّبْوَةِ وَلَمَّا عَضَّدَهُ بِالْبَيِّنَاتِ.

قوله: (ما تولى أبو بكرٍ رضي الله عنه)، عن الإمام أحمد بن حنبل، عن عروة بن الزبير: «قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ»، وعن البخاري: «سَأَلْتُ عُمَرَ: أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ مَا صَنَعَ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصَلِّيُ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ؛ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ (٦) بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ لَعَنَهُ اللَّهُ، فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَفَّ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ، فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ، وَدَفَعَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾» (٧).

(٥) من قوله: «وبال كذبه» إلى هنا، سقط من (ح).

(٦) في النسخ الخطية: «عروة»، والجادة ما أثبتناه، وهو على الصواب في مصادر التخریج.

(٧) أخرجه البخاري (٣٦٧٨) ومسلم (٢٣٨٩) وغيرهما.

فالتزمه من ورائه، وقال: ﴿أَنْفَتُلُونِ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؟! رافعاً صوته بذلك، وعينه تَسْفَحَانِ، حتى أرسلوه. وعن جعفر الصادق: أن مؤمن آلِ فرعون قال ذلك سرّاً، وأبو بكرٍ قاله ظاهراً.

[﴿يَقَوْمِ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ٢٩]

﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾: في أرضٍ مِضْرَ عَالِينَ فيها على بني إسرائيل، يعني: أن لكم ملك مصر، وقد علوتم الناس، وقهرتموهم، فلا تُفْسِدُوا أمركم على أنفسكم، ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه، فإنه لا قِبَلَ لكم به إن جاءكم، ولا يمنعكم منه أحدٌ. وقال: ﴿يَنْصُرُنَا﴾ و: ﴿جَاءَنَا﴾؛ لأنه منهم في القرابة؛ وليعلمهم بأن الذي ينصحهم به هو مُسَاهِمٌ لهم فيه. ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ أي: ما أُشِيرُ عليكم برأيٍ إلا بما أرى من قتلته، يعني: لا أستصوبُ إلا قتلته، وهذا الذي تقولونه غيرُ صواب، ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ﴾ بهذا الرأيِ ﴿إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ يريد: سبيلَ الصَّوَابِ والصَّلاحِ. أو ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصَّوَابِ، ولا أدخِرُ منه شيئاً، ولا أُسرُّ عنكم خلافَ ما أظهرُ يعني: أن لسانه وقلبه مُتَوَاطِئَانِ على ما يقول، وقد كَذَبَ؛ فقد كان مُسْتَشْعِرًا للخوف الشديد من جهة موسى، ولكنه كان يتجلَّد، ولولا استشعاره لم يستشر أحدًا ولم يقف الأمر على الإشارة.

قوله: (فإنه لا قِبَلَ لكم به)، الراغب: قِبَلَ فلان: أي عند فلان. قال تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قِبَلَهُ﴾^(١) [الحاقة: ٩]، وُستَعَارُ للقُوَّة والقُدرة على المُقابلة، أي: المُجَاذاة، فيقال: لا قِبَلَ لي بكذا، أي: لا يُمكنني أن أُقَابِلَهُ^(٢).

(١) هذا على قراءة مَنْ كَسَرَ القَافَ وفتحَ الباءَ، وهي قراءة أبي عمرو بن العلاء والكسائي ويعقوب. انظر:

«تحاف فضلاء البشر» ص ٤٢٢، و«حجة القراءات» ص ٧١٨.

(٢) «مفردات القرآن» ص (٦٥٤).

وَقُرَى: (الرَّشَادُ)؛ فَعَالٍ مِنْ: رَشِدَ؛ بالكسر، كَعَلَامٍ، أو مِنْ: رَشَدَ بِالْفَتْحِ كَعَبَادٍ، وقيل: هو من أَرَشَدَ كَجَبَّارٍ من أَجْبَرَ. وليس بذلك؛ لأنَّ فَعَالًا من أَفْعَلَ لم يَجِئْ إِلَّا فِي عِدَّةِ أَحْرَفٍ، نحو: دَرَّالٍ وَسَارٍ وَقَصَّارٍ وَجَبَّارٍ، ولا يَصِحُّ الْقِيَاسُ عَلَى الْقَلِيلِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نِسْبَةً إِلَى الرَّشْدِ، كَعَوَّاجٍ وَبِتَاتٍ، غيرَ مَنْظُورٍ فِيهِ إِلَى فِعْلِ.

قوله: (وَقُرَى «الرَّشَادُ»)، قال ابن جني: قرأه مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ عَلَى الْمَنْبَرِ، وَهُوَ إِمَامٌ مِنْ: رَشِدَ يَرَشُدُ، كَعَلَامٍ؛ مِنْ: عَلِمَ يَعْلَمُ، أو مِنْ: رَشَدَ يَرُشِدُ، كَعَبَادٍ؛ مِنْ: عَبَدَ يَعْبُدُ. ولا يَحْمَلُ عَلَى: أَرَشَدَ يَرُشِدُ؛ لِأَنَّ فَعَالًا لم يَأْتِ مِنْ أَفْعَلَ إِلَّا [فِي أَحْرَفٍ] (١) مَحْفُوظَةً، نَحْوُ: أَجْبَرَ فَهَوَ جَبَّارٌ، وَأَسَارَ فَهَوَ سَارٌ، وَأَقْصَرَ فَهَوَ قَصَّارٌ، وَأَدْرَكَ فَهَوَ دَرَّالٌ، عَلَى أَنَّهُمْ قَالُوا: جَبَّرَهُ عَلَى الْأَمْرِ، وَقَصَّرَ عَنِ الْأَمْرِ. وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ جَبَّارٌ وَقَصَّارٌ مِنْ فَعَلَ، فَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْتَقَدَ فِي سَارٍ وَدَرَّالٍ عَلَى أَنَّهَا خَرَجَا بِحَرْفِ الزِّيَادَةِ فَصَارَا إِلَى سَارٍ وَدَرَّالٍ تَقْدِيرًا، وَإِنْ لم يَخْرُجَا إِلَى اللَّفْظِ اسْتِعْمَالًا، كَمَا قَالُوا: أَبْقَلَ الْمَكَانَ فَهَوَ بَاقِلٌ، وَأُورَسَ الرُّمْتُ فَهَوَ وارس، وَقَالُوا: أَلْقَحَتِ الرِّيحُ السَّحَابَ وَهِيَ لَاقِحٌ. وَهَذَا عَلَى حَذْفِ هَمْزَةِ «أَفْعَلَ»، وَإِنَّمَا قِيَاسُهُ «مُلْقِحٌ»، فَعَلَى هَذَا خَرَجَ الرَّشَادُ، أَي: رَشَدَ بِمَعْنَى: أَرَشَدَ، تَقْدِيرًا لِاسْتِعْمَالِهَا (٢).

فإن قيل: فإنَّ المعنى إنما هو على أَرَشَدَ، فكيف أَجَزْتُ أَنْ يَكُونَ مجيئه من: رَشَدَ أو رَشَدَ، فِي مَعْنَى: أَرَشَدَ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ لَفْظِ: أَرَشَدَ؟

قيل: المعنى راجعٌ إِلَى أَنَّهُ مُرَشِدٌ؛ لِأَنَّهُ إِذَا رَشَدَ أَرَشَدَ؛ لِأَنَّ الْإِرْشَادَ مِنْ: الرُّشْدِ فَهُوَ مِنْ بَابِ الْاِكْتِفَاءِ بِذِكْرِ السَّبَبِ عَنِ الْمُسَبَّبِ، وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، أَنَّهَا مِنْ لَقَحَتْ هِيَ، وَإِذَا لَقَحَتْ أَلْقَحَتْ غَيْرَهَا (٣).

قوله: (كَعَوَّاجٍ وَبِتَاتٍ)، أَي: يَبِيعُ الْعَاجَ وَيَبِيعُ الْبَتَّ (٤) وَهُوَ الطَّيْلَسَانُ مِنْ خَزُّ أَوْ صَوْفٍ.

(١) قوله: «في أحرف» زيادة من «المحتسب» يقتضيهما السياق.

(٢) «المحتسب» (٢: ٢٤١-٢٤٢).

(٣) المصدر السابق (٢: ٢٤١-٢٤٢).

(٤) والنسبة إليه: البتّي، ومن المشهورين بها: عثمانُ البتّي من فقهاء أهل البصرة، ذكره السمعاني في

«الأنساب» (١: ٢٨١-٢٨٢).

[﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَنْقُورِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ ﴾ ٣٠ - ٣١]

﴿ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾: مثل أيامهم؛ لأنه لما أضافه إلى الأحزاب وفسرهم بقوم نوح وعادٍ وثمود، ولم يلبس أن كل حزبٍ منهم كان له يومٌ دمار؛ اقتصر على الواحد من الجمع؛ لأن المضاف إليه أغنى عن ذلك، كقوله:

كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعْفُوا

وقال الزجاج: مثل يوم حزبٍ حزب. ودأب هؤلاء: دؤوبهم في عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصي، وكون ذلك دائماً داتماً منهم لا يفترون عنه. ولا بد من حذف مضاف، يريد: مثل جزاء دأبهم. فإن قلت: بم انتصب ﴿ مِثْلَ ﴾ الثاني؟ قلت: بأنه عطف بيان لـ ﴿ مِثْلَ ﴾ الأول؛ لأن آخر ما تناولته الإضافة «قوم نوح»، ولو

قوله: (لأنه أضافه إلى الأحزاب)، يعني: لا بُد من تقدير جمع اليوم؛ لأن الأحزاب لم يهلكوا مرة واحدة في يوم واحد، وإنما هلك كل حزب في يوم مختص به، لكن لما جاء بالتفصيل بعد الأفراد - وهو قوم نوح وعادٍ وثمود - قيل: ﴿ يَوْمِ ﴾ لأنه لم يلبس.

قوله: (يوم حزبٍ حزب)، عن بعضهم: أفرد الحزب كما جمع اليوم في الأول، كما هو عادته من رد الأول إلى الثاني، أو العكس.

قوله: (وكون ذلك دائماً داتماً)، عطف تفسيري على قوله: «دؤوبهم»، و«ذلك» إشارة إلى الكفر والتكذيب وسائر المعاصي.

قوله: (ولا بد من حذف مضاف) لأن ﴿ مِثْلَ ﴾ الثاني عطف بيان للمثل الأول، وقد ذكر فيه اليوم وهو دال على الهلاك لجزء أعمالهم، وإليه أشار بقوله: «إن كل حزبٍ منهم كان له يومٌ دمار».

قوله: (لأن آخر ما تناولته الإضافة قوم نوح)، أضاف ﴿ مِثْلَ ﴾ إلى ﴿ دَابِ ﴾ ثم إلى ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ وهو آخر ما تناولته الإضافة.

قلت: أهلك الله الأحزاب: قوم نوح وعاد وثمود؛ لم يكن إلا عطف بيان لإضافة قوم إلى أعلام، فسرى ذلك الحكم إلى أول ما تناولته الإضافة. ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ يعني: أن تدميرهم كان عدلاً وقسطاً؛ لأنهم استوجبوه بأعمالهم، وهو أبلغ من قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]؛ حيث جعل المنفي إرادة الظلم؛ لأن من كان عن إرادة الظلم بعيداً، كان عن الظلم أبعد؛ وحيث نكّر الظلم، كأنه نفى أن يريد ظلماً ما لعباده. ويجوز أن يكون معناه كمنى قوله: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] أي: لا يريد لهم أن يظلموا؛ يعني: أنه دمّرهم؛ لأنهم كانوا ظالمين.

قوله: (نكّر الظلم، كأنه نفى أن يكون^(١) ظلماً ما)، وليس التنكير في «ظلام» مثله؛ لأن «ظلاماً» بناء مُبالغة، والتنكير يتبعه في التفضيم والتكثير.

قوله: (كمنى قوله: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧])، ومعناه على ما قال: لا يرضى لعباده الكفر رحمة لهم؛ لأنه يوقعهم في الهلكة^(٢)، وفيه: أنهم بأنفسهم يكفرون ويوقعونها في الهلكة، وكذلك قوله: «وما الله يريد ظلماً للعباد» معناه: لا يريد لهم أن يظلموا فيوقعوا أنفسهم بسببه في الدمار، ولكنهم هم الذين ظلموا فتعرضوا للدمار فلذلك دمّرناهم، وإليه الإشارة بقوله: «يعني: أنه دمّرهم لأنهم كانوا ظالمين»، والمعنى على الأول: جازيناهم بالهلاك فعدلنا فيهم. وعلى الثاني: أهلكناهم؛ لأنهم كانوا ظالمين.

الانتصاف: هذا من الطراز الأول، وقد سبق من إبطاله ما يُعني عن إعادته^(٣).

وقلت: إن مؤمن آل فرعون لما نصح القوم بقوله: ﴿انْقَتُلُونِ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وأثبت أنه نبي صادق ثابتة نبوته، واجب اتباعه، وما قصر في النصح وإرشاد طريق الإيمان إلى أن انتهى إلى قوله: ﴿فَمَنْ يَصُرْثًا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾، وما زاد اللعين على ما بدأ أولاً: ﴿مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ أي: ما أشير عليكم إلا بما أرى من

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «يريد».

(٢) انظر ما تقدم ص ٣٤٤.

(٣) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٦٥).

[﴿وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ * يَوْمَ تُولُون مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ
وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَآلَهُ مِنْ هَادٍ﴾ غافر: ٣٢-٣٣]

(التنادي) ما حكى الله في سورة الأعراف من قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ويجوز أن يكون تصايحهم بالويل والثبور. وقرئ بالتشديد، وهو أن يندب بعضهم من بعض؛ كقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤]. وعن الضحَّاك: إذا سمعوا زفير النار ندوا هربًا، فلا يأتون قطرة من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صُفوفًا، فيبئناهم يموج بعضهم في بعض، إذ سمعوا مُناديًا: أقبلوا إلى الحساب. ﴿تُولُون مُدْبِرِينَ﴾ عن قتادة: مُنصرِّفين عن موقف الحساب إلى النار. وعن مجاهد: فارِّين عن النار غير مُعجزين.

القتل، فحينئذ أيسر المؤمن واستشعر الخوف وأيقن أن حجة الله لزمتهم، قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾، لأنه تعالى بعث إليهم الرُّسُلَ مصحوبًا بالبينات كرسولكم فلم يؤمنوا، فدمرهم الله، ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾.

وينصُرُه ما ذكره محيي السنة: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ أي: لا يُهلكهم قبل اتخاذ الحجة عليهم^(١). يعني: عبَّر عن سنة الله الجارية - وهي إرادة بعثة الرُّسُلِ إلى الأمم حتى إن أهلكتهم لا يقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩] فنحن مظلومون - بقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ أي: الله لا يريد الإهلاك قبل اتخاذ الحجة، وقد بعث إليهم واليكم الحجة.

وظهر أن قول المصنّف: «لا يريد لهم أن يظلموا» مما ينبو عنه المقام، وقضية مذهبه جره إليه.

قوله: (وقرئ بالتشديد)، قال ابن جني: وهي قراءة ابن عباس والضحَّاك والكلبي، وهو «تفاعل» مصدر «تناد القوم»، أي: تفرقوا، من قولهم: ندد يندد، كنفَّر ينفِّر، وتنادوا كتنافروا. والتناد كالتنافر، وأصله: التنادد، فأدغم^(٢).

(١) «معالم التنزيل» (٧: ١٤٧).

(٢) «المحاسب» (٢: ٢٤٣).

[وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن نَّبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٤-٣٥﴾]

هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام. وقيل: هو يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب. أقام فيهم نبياً عشرين سنة. وقيل: إن فرعون موسى هو فرعون يوسف، عُمر إلى زمنه. وقيل: هو فرعون آخر. وبخهم بأن يوسف أتاكم بالمعجزات فشككتم فيها، ولم تزالوا شاكين كافرين، ﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ ﴿قُبِضَ﴾ ﴿قُلْتُمْ لَن نَّبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ ﴿حَكَمًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ مِنْ غَيْرِ بُرْهَانٍ، وَتَقْدِيمَةَ عَزْمٍ مِنْكُمْ عَلَىٰ تَكْذِيبِ الرَّسْلِ، فَإِذَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ جَحَدْتُمْ وَكَذَّبْتُمْ بِنَاءً عَلَىٰ حُكْمِكُمُ الْبَاطِلِ الَّذِي أَسَّسْتُمُوهُ، وَلَيْسَ قَوْلُهُمْ: ﴿لَن نَّبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ بِتَصْدِيقٍ لِرِسَالَةِ يَوْسُفَ، وَكَيْفَ وَقَدْ شَكُّوا فِيهَا وَكَفَرُوا بِهَا! وَإِنَّمَا هُوَ تَكْذِيبٌ لِرِسَالَةِ مَنْ بَعْدَهُ مَضْمُومٌ إِلَىٰ تَكْذِيبِ رِسَالَتِهِ. وَقُرَى: (أَلَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ) عَلَىٰ إِدْخَالِ هَمْزَةِ الْاسْتِفْهَامِ عَلَىٰ حَرْفِ النَّفْيِ، كَأَنَّ بَعْضَهُمْ يُقَرِّرُ بَعْضًا بِنَفْيِ الْبَعْثِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ﴾ أَي: مِثْلَ هَذَا الْخِذْلَانِ الْمُمِيبِ يَخْذِلُ اللَّهُ كُلَّ مُسْرِفٍ فِي عِضْيَانِهِ مُرْتَابٍ فِي دِينِهِ، ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ بِدَلٍّ مِنْ ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾. فَإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ جَازَ إِبْدَالُهُ مِنْهُ وَهُوَ جَمْعٌ وَذَلِكَ مُوَحَّدٌ؟ قُلْتُمْ:

قوله: (وتقدمة عزم)، عطف على قوله: «حكما»، ومفعول له أو مفعول مطلق.

قوله: (وإنما هو تكذيب)، يعني: قولهم: ﴿لَن نَّبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤] ليس فيه أنهم أثبتوا رسالة يوسف، بل فيه أنهم شكوا فيه وضجوا منه، حتى إذا هلك قالوا: خلصنا من هذا المدعي الزاعم أنه رسول ولن يجيء بعده مثله.

قوله: (كأن بعضهم يُقرِّرُ بعضًا)، يعني: دخلت همزة التقرير على حرف النفي للدلالة أن كل واحد من المكذبين كان يُقرِّرُ صاحبه بنفي البعث.

لأنه لا يريد مُسْرِفًا واحدًا، فكأنه قال: كلُّ مُسْرِفٍ. فإن قلت: فما فاعلُ ﴿كَبُرَ﴾؟ قلت: ضميرُ ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾. فإن قلت: أما قلت: هو جمع؛ ولهذا أبدلت منه ﴿الَّذِينَ يُجَدِّدُونَ﴾؟ قلت: بلى هو جمع في المعنى، وأما اللفظ فمُوَحَّدٌ، فحمل البدل على معناه، والضميرُ الراجع إليه على لفظه، وليس يبذع أن يُحْمَلَ على اللفظ تارةً وعلى المعنى أخرى، وله نظائرٌ، ويجوزُ أن يُرْفَعَ ﴿الَّذِينَ يُجَدِّدُونَ﴾ على الابتداء، ولا بدَّ في هذا الوجه من حذفِ مضافٍ يرجع إليه الضميرُ في ﴿كَبُرَ﴾، تقديره: جدالُ الذين يُجَادِلُونَ كَبُرَ مَقْتًا، ويحتملُ أن يكونَ ﴿الَّذِينَ يُجَدِّدُونَ﴾ مبتدأً، و﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنَّهُمْ﴾ خبرًا، وفاعلُ ﴿كَبُرَ﴾ قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كَبُرَ مَقْتًا مثل ذلك

قوله: (وليس يبذع أن يُحْمَلَ على اللفظ تارةً وعلى المعنى أخرى)، الانتصاف: فيها ذكرُهُ عَوْدُ إِلَى مَعَامِلَةِ اللَّفْظِ مِنْ بَعْدِ مُعَامِلَةِ مَعْنَاهُ وَأَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ يَجْتَنِبُونَهُ، وَالْأُولَى أَلَا يُعْتَمَدَ فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ، وَالصَّوَابُ أَنَّ فَاعِلَ ﴿كَبُرَ﴾ ضَمِيرُ مَصْدَرِ ﴿يُجَدِّدُونَ﴾، أَي: كَبُرَ جَدَالُهُمْ مَقْتًا، أَوْ يُجْعَلُ ﴿الَّذِينَ﴾ مَبْتَدَأً بِتَقْدِيرِ حَذْفِ الْمَضَافِ، أَي: جَدَالُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ، وَالضَّمِيرُ فِي «كَبُرَ» يَعُودُ إِلَى الْجَدَالِ الْمَحْذُوفِ، وَالْجُمْلَةُ مَبْتَدَأٌ وَخَبْرٌ. وَمِثْلُهُ فِي حَذْفِ الْمَضَافِ وَعَوْدِ الضَّمِيرِ إِلَيْهِ: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْكُرَاعِيِّ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩] فِي أَحَدِ تَأْوِيلَيْهِ، وَهُوَ: أَجْعَلْتُمْ أَهْلَ سِقَايَةِ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ (١). وَمِثْلُهُ كَثِيرٌ. وَفِيهِ مَا يُوجِبُ السَّلَامَةَ عَمَّا ذَكَرَهُ، فَالْأُولَى الْعُدُولُ عَنْهُ (٢).

وقلت: ولعل في قوله: «وليس يبذع أن يُحْمَلَ» إشارة إلى هذا المعنى.

قوله: (وفاعلُ ﴿كَبُرَ﴾ قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾)، قيل: فعلی هذا قد تقدّم التمييز على الفاعل، ومثله جائز. قال المَرزوقِي في قوله:

أرى كلَّ أرضٍ دَمَّتْهَا وَإِنْ مَضَتْ
لَهَا حَبِجٌّ يَزِدَادُ طَيِّبًا تُرَابُهَا

(١) من قوله: «أحد تأويليه» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٦٦).

الجدال، و﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ كلامٌ مستأنفٌ، ومن قال: كَبُرَ مَقْتًا عند الله جدالهم، فقد حَذَفَ الفاعلَ، والفاعلُ لا يصحُّ حذفُه. وفي ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ ضربٌ من التعجب والاستعظام لجدالهم، والشهادة على خروجه من حدِّ أشكاله من الكبائر. وقرئ: (سُلطان) بضم اللام. وقرئ: (قلب) بالتنوين. ووُصِفَ القلبُ بالتكبر والتجبر، لأنه مركزُهما ومَتَبِعُهما، كما تقول: رأيت العين، وسمعت الأذن، ونحوه قوله عز وجل: ﴿فَأَنذَرْتُهُمْ قَلْبُهُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وإن كان الأثم هو الجملة. ويجوز أن

إنه يجوزُ تقديمُ التمييزِ على الفاعلِ، وليس في جوازه خلاف^(١).

قوله: (فقد حذفَ الفاعلَ، والفاعلُ لا يصحُّ حذفُه)، قيل: فيه نظر. قال أبو البقاء: يجوزُ أن يكونَ الخبرُ ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾، أي: كَبُرَ قولهم مَقْتًا^(٢).

وقلت: وإذا جازَ في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ [القيامة: ٢٦] ذلك، وقد قال: الضميرُ في ﴿بَلَغَتِ﴾ للنفس، وإن لم يجر لها ذكر؛ لأنَّ الكلامَ الذي وقعت فيه يدُلُّ عليها^(٣). وتقولُ العرب: أُرْسَلت، أي: السَّماء، يريدون: جاء المَطَرُ، فلأنَّ يجوزَ هذا للدلالة ﴿الَّذِينَ يَجِدُونَ﴾ على جدالهم أخرى. وقوله: «كلامٌ مُستأنفٌ» كأنه لما قيل: ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ مثالُ جدالِ الذين يُجادلون^(٤) في آياتِ الله، قيل: فما يفعلُ الله بهم إذن؟ قيل: يطبَعُ الله على قلوبهم، فوضع ﴿كَلَّ قَلْبٌ مُتَكَبِّرٌ﴾ موضعَ الضميرِ إشعارًا بأنَّ المُجادلَ في آياتِ الله بغيرِ علمٍ مُتَكَبِّرٌ جبار.

قوله: (وقرئ: «قلب»)، بالتنوين: أبو عمرو وابن ذكوان، والباقون: بغيرِ تنوين^(٥).

قوله: (ونحوه قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُهُمْ قَلْبُهُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٣])، أي: كما أسندَ الإثمَ إلى

(١) «شرح الحامسة» للمرزوقي (١: ٩٣٠).

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١١٩).

(٣) انظر: (١٦: ١٧٣).

(٤) من قوله: «على جدالهم أخرى» إلى هنا، سقط من (ح).

(٥) ولتنام الفائدة انظر: «حجة القراءات» ص ٦٣٠، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣١٤).

يكونَ على حذفِ المُضَافِ، أي: على كلِّ ذي قلبٍ متكبِّرٍ، تَجْعَلِ الصِّفَةَ لِصَاحِبِ القلبِ.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَيْنَ لِي صَرْمًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زُينَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ [٣٦ - ٣٧]

قيل: الصَّرْحُ: البناءُ الظاهر الذي لا يخفى على الناظرِ وإنْ بَعُدَ، اشتقوه من صَرَحَ الشيءُ؛ إذا ظَهَرَ، وأسبابُ السَّمَاوَاتِ: طُرُقُهَا وأبوابُها وما يُوَدِّي إليها، وكلُّ ما أَدَاكَ إلى شيءٍ فهو سببٌ إليه، كالرِّشَاءِ ونحوه. فإن قلت: ما فائدةُ هذا التكريرِ؟ ولو قيل: لعلِّي أبلغُ أسبابَ السَّمَاوَاتِ! قلتُ: إذا أُبهِمَ الشيءُ ثم أُوضِحَ كان تَفْخِيمًا لَشَأْنِهِ، فلمَّا أراد تَفْخِيمَ ما أمَّلَ بُلُوغَهُ من أسبابِ السَّمَاوَاتِ أُبهِمَهَا ثم أوضَحَهَا؛ ولأنه لما كان بُلُوغُهَا أمرًا عَجِيبًا أرادَ أن يُورِدَهُ على نَفْسٍ مُتَشَوِّفَةٍ إليه؛ لِيُعْطِيَهُ السَّامِعُ حَقَّهُ من التَعْجُبِ، فأبهِمَهُ لِيَشَوِّفَ إليه نَفْسَ هَامَانٍ، ثم أوضَحَهُ. وقُرئ: ﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾ بالنصبِ على جوابِ التَّرَجُّيِّ، تشبيهاً للتَّرَجُّيِّ بالتَّمَنِّيِّ. ومثل ذلك التزيينِ وذلك الصِّدِّ

القلبِ وهو للجملَةِ من الرُّوحِ والبَدَنِ والقلبِ للتأكيدِ، كذلك التكبُّرُ مُسْتَدًّا إلى القلبِ، وهو للجملَةِ؛ لأنَّ القلبَ رِئِيسُ الأَعْضَاءِ، وكتمانُ الشَّهادَةِ ومنشأُ الكِبَرِ منه.

قوله: (على نفسٍ مُتَشَوِّفَةٍ)، يُروى بالفاءِ والقافِ. عن بعضهم: شافَ الشيءُ: صَقَلَهُ. ويُقال: شُفَّتُ الشيءُ: جَلَوْتُهُ. التَّشَوُّفُ: التَّطَلُّعُ. وَتَشَوَّفَتِ المِراةُ: تَزَيَّنَتْ.

أَطَّلَعَ إِلَيْهِ، أي: صَعِدَ. وَطَلَعَ الجبلُ كَذَلِكَ.

قوله: ﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾ بالنصبِ، حفص، والباقون: برفعها^(١).

قوله: (تشبيهاً للتَّرَجُّيِّ بالتَّمَنِّيِّ)، لأنَّ التَّرَجُّيِّ: طلبُ ما يُتَوَقَّعُ حصولُهُ، والتَّمَنِّيِّ:

(١) نسقًا على قوله ﴿ أَبْلُغُ ﴾ فالمعنى: «لعلِّي أبلغُ ولعلِّي أطلُعُ» انتهى من «حجّة القراءات» ص ٦٣١.

﴿زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾، والمزَيْن: إِمَّا الشَّيْطَانُ بوسوسته، كقوله: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل: ٣٤]، أو الله تعالى على وجه التسيب؛ لأنه مَكَّن الشَّيْطَانَ وَأَمَهَلَهُ، ومثله: ﴿زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤٤]. وقرئ: (وَزَيْنَ) له (سُوءَ عَمَلِهِ) على البناء للفاعل، والفعل لله عزَّ وجلَّ، دَلَّ عليه قوله: ﴿إِنِّي إِلَهُ مُوسَى﴾؛ و(صَدَّ) بفتح الصاد، وضمَّها، وكسرهما، على نقل حركة العَيْنِ إِلَى الفاء، كما قيل: قيل. والتَّبَابُ: الحُسْرَانُ وَالهِلَاكُ. وَصَدَّ: مصدرٌ معطوف على ﴿سُوءَ عَمَلِهِ﴾، وَصُدُّوا هُوَ وَقَوْمُهُ.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَنْقُورِ أَتَيْعُونَ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَنْقُورِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ [٣٨ - ٣٩]

قال: ﴿أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فأجمل لهم، ثم فسّر فافتتح بدم الدنيا وتصغير شأنها؛ لأنَّ الإخْلَادَ إِلَيْهَا هُوَ أَصْلُ الشَّرِّ كُلِّهِ، وَمِنْهُ يَتَشَعَّبُ جَمِيعُ مَا يُؤَدِّي إِلَى

طلب ما لا يمكنُ حصوله، نحو: لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ. قال الرَّجَّاجُ: المعنى: لعلِّي أبلغ الذي يُؤَدِّيَنِي إِلَى إِلَهٍ مُوسَى، وَإِنَّمَا قُلْتُ هَذَا عَلَى دَعْوَى مُوسَى، لَا أَنِّي عَلَى يَقِينٍ مِنْ ذَلِكَ^(١).

قوله: (على نقل حركة العَيْنِ إِلَى الفاء)، أي: أصله: صُدِّدَ؛ مجهولاً، نقل كسرة الدَّالِ إِلَى الصَّادِ، وَصَدَّ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَازِمًا أَوْ مُتَعَدِّيًا. وَالْفِعْلُ لِفِرْعَوْنَ، أي: صَدَّ النَّاسَ عَنِ الْإِيْمَانِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْفَاعِلُ اللهُ تَعَالَى، أي: صَدَّهُ اللهُ عَنِ إِبْطَالِ أَمْرِ مُوسَى، وَقِيلَ: عَنِ نَبَأِ الصَّرْحِ.

قوله: (والتَّبَابُ: الحُسْرَانُ وَالهِلَاكُ)، الرَاغِبُ: التَّبُّ وَالتَّبَابُ: الاستمرار في الحُسْرَانِ. يُقَالُ: تَبَّ لَهُ وَتَبَّ لَهُ وَتَبَّتَهُ، إِذَا قُلْتَ لَهُ ذَلِكَ، وَلِتَضْمُنَ الاستمرار قيل: اسْتَبَّ لِفُلَانٍ كَذَا، أَي: اسْتَمَرَ. وَ﴿كَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] أَي: اسْتَمَرَّتْ فِي الحُسْرَانِ^(٢).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٧٥).

(٢) «مفردات القرآن» ص ١٦٢.

سخطِ الله ويجلبُ الشقاوةَ في العاقبة، وثنى بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها، وأنها هي الوطنُ والمستقرُّ، وذكر الأعمالَ سيئها وحسنها وعاقبة كلِّ منها؛ ليثبتَ عما يُتلف، ويُسخطَ لما يُزلف، ثم وازنَ بين الدعوتين: دعوته إلى دين الله الذي ثمرته النجاة، ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار، وحذر، وأنذر، واجتهد في ذلك واحتشد، لا جرمَ أن الله استثناه من آل فرعون، وجعله حُجَّةً عليهم وعبرة للمعتبرين، وهو قوله: ﴿ فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَمَكُرُوا وَحَاقَ بِتَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥]. وفي هذا أيضًا دليلٌ بيِّن على أن الرجلَ كان من آل فرعون.....

قوله: (أن الله استثناه من آل فرعون)، أي: اختاره منهم وجعله داعيًا إلى الله ونجاةً مما حلَّ بهم من سوء العذاب، وذلك قوله: ﴿ فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَمَكُرُوا ﴾

المغرب: يُقال: ثنى العود، إذا حناه وعطفه؛ لأنه ضمُّ أحد طرفيه إلى الآخر، ثم قيل: ثناه عن وجهه، إذا كفه وصرفه؛ لأنه مُسبَّب عنه. ومنه: استثنيت الشيء، زويته لنفسي. والاسم: الثنيا بوزن الدنيا، ومنه الحديث: «مَنْ اسْتَثْنَى فَلَهُ ثُنْيَاهُ»^(١)، أي: ما استثناه. والاستثناء في الاصطلاح: إخراج الشيء عما دخل فيه غيره؛ لأنَّ فيه كفاً ورداً عن الدخول، والاستثناء في اليمين أن يقول الحالف: إن شاء الله؛ لأنَّ فيه ردًّا ما قاله بمشيئة الله تعالى^(٢).

قوله: (في هذا أيضًا دليلٌ بيِّن على أن الرجلَ كان من آل فرعون)، إشارة إلى ما سبق له في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ وهو قوله: «وقول المؤمن: ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ دليلٌ ظاهرٌ على أنه يتنصَّح قومه»، يعني: كما كان في تلك الآية دلالةً ظاهرةً على أن المؤمن من آل فرعون، كذلك في هذه الآية؛ لإضافة القوم إلى نفسه مرتين. وقوله: «أتبعوني» ولم يقل: أتبعوا موسى، وسلوك طريقة الإجمال والتفصيل، والمبالغة في التحذير والإنذار؛ لأنَّ مثل هذه النصيحة وإحاضها قلما يصدُر من الأجانب، كما

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو في «السنن الكبرى» للنسائي

(٤٧٥١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) «المغرب في ترتيب المغرب» (١: ١٢٤).

وَالرَّشَادُ: نَقِيضُ الْغَيِّ. وَفِيهِ تَعْرِيفٌ شَبِيهُ بِالتَّصْرِيحِ أَنَّ مَا عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ هُوَ سَبِيلُ الْغَيِّ.

[مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾]

﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾؛ لأنَّ الزيادة على مقدار جزاء السيئة قبيحة؛ لأنها ظلم، وأما الزيادة على مقدار جزاء الحسنة فحسنة؛ لأنها فضل. فُرى: ﴿يَدْخُلُونَ﴾، و﴿يَدْخُلُونَ﴾. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ واقع في مُقَابِلَةِ ﴿الْأَمْثَلَهَا﴾، يعني: أنَّ جزاء السيئة لها حسابٌ وتقدير؛ لئلا يزيد على الاستحقاق، فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير

قال: «وإنهم قَوْمُهُ وَعَشِيرَتُهُ، وَنَصِيحَتُهُمْ عَلَيْهِ وَاجِبَةٌ، وَسُرُورُهُمْ سُرُورُهُ، وَعَمُّهُمْ غَمُّهُ»، ثم إدخال الفاء الفصيحة بعد الفراغ من النصيحة تميم للمقصود، يعني: لما فرغ من النصيحة قصدوا إهلاكه ومكروا وهُمُوا بتعذيبه، فوفاؤه الله مما هُمُّوا به، ورجع كيدهم إلى نُحُورِهِمْ.

قوله: (وَالرَّشَادُ: نَقِيضُ الْغَيِّ)، الراغب: الرَّشْدُ وَالرَّشْدُ: خِلَافُ الْغَيِّ، يُسْتَعْمَلُ اسْتِعْمَالِ الْهُدَايَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الرَّشْدُ - بِالْفَتْحِ - أَحْصَ؛ فَإِنَّ الرَّشْدَ - بِالضَّمِّ - يُقَالُ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَبِالْفَتْحِ فِي الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ، وَالرَّاشِدُ وَالرَّشِيدُ يُقَالُ فِيهِمَا^(١).

قوله: ﴿يَدْخُلُونَ﴾ و﴿يَدْخُلُونَ﴾، ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر: «يَدْخُلُونَ»؛ بضمَّ الياء وفتح الحاء، والباقون: بفتح الياء وضمَّ الحاء^(٢).

قوله: (فَأَمَّا جِزَاءُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فَبِغَيْرِ تَقْدِيرٍ)، قال القاضي: وَلَعَلَّ تَقْسِيمَ الْعَمَالِ وَجَعَلَ الْجِزَاءَ اسْمِيَّةً مُصَدَّرَةً بِاسْمِ الْإِشَارَةِ، وَتَفْضِيلَ الثَّوَابِ لِتَغْلِيْبِ الرَّحْمَةِ، وَجَعَلَ الْعَمَلِ عُمْدَةً وَالْإِيْمَانَ حَالًا؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ شَرْطٌ فِي اعْتِبَارِ الْعَمَلِ، وَأَنَّ ثَوَابَهُ أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ^(٣).

(١) «مفردات القرآن» ص ٣٥٤.

(٢) لتمام الفائدة انظر: «حجّة القراءات» ص ٦٣٢، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣١٧).

(٣) «أنوار التنزيل» (٥٨: ٥).

وحساب، بل ما شئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة.

﴿وَيَقَوْمٌ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقْرِ﴾ [٤١-٤٢]

فإن قلت: لم كرر نداء قومه؟ ولم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني؟ قلت: أما تكرير النداء: ففيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ عن سنة الغفلة. وفيه: أنهم قومه وعشيرته، وهم فيما يُوبقهم، وهو يعلم وجه خلاصهم، ونصيحتهم عليه واجبة، فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم، ويستدعي بذلك أن لا يتهموه، فإن سرورهم سروره، وغمهم غمه؛ وينزلوا على تنصيحه لهم، كما كرر إبراهيم - صلى الله عليه - في نصيحة أبيه: ﴿يَتَأْتِي﴾ [مريم: ٤٢-٤٥]. وأما المجيء بالواو العاطفة: فلأن الثاني داخل على كلام هو بيان للمُجمل وتفسير له، فأعطى الداخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو، وأما الثالث: فداخل على كلام ليس بتلك المثابة. يقال: دعاه إلى كذا ودعاه له، كما

قوله: (وهم فيما يُوبقهم)، أي: فيما يهلك أنفسهم، «هم» مبتدأ، و«فيما يُوبقهم» خبر.

قوله: (وأما الثالث فداخل على كلام ليس بتلك المثابة)، يعني: قوله: ﴿وَيَقَوْمٌ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ﴾ ليس من جنس الكلام المُفسر، وهو ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فجيء بالعاطف ليكون عطفًا على قوله: ﴿يَقَوْمٌ أَتَّبِعُونَ﴾، أتاها بنوعين من الكلام:

أحدهما: في الترغيب عن الدنيا وتصغير شأنها، والتحريض على الاطلاع على حقيقة الآخرة وتعظيم شأنها، وعلى ما يُقربهم إليها من الأعمال الصالحة، وما يُبعدهم عنها من الأعمال السيئة.

وثانيهما: في بيان مجادلة جرت بينهم وبينه، وأنه مُحقق وأنهم مُبطلون، وختمها بما يُنبئ عن المُناركة بالكُلِّيَّة، وتُحقِّق اعتزاله عنهم وتدميرهم، وهو قوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾. وقال القاضي: كرر نداءهم إيقاظًا لهم عن سنة الغفلة، واهتمامًا بالنادي له، ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به نُصَحَه،

تقول: هداه إلى الطريق وهداه له. ﴿بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: برُبوبِيَّتِهِ، والمرادُ بنفي العِلْمِ: نفي المعلوم، كأنه قال: وأشركَ به ما ليس بالله، وما ليس بالله كيف يصحُّ أن يُعلمَ إلهًا؟

[﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ * فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٣-٤٤﴾]

﴿لَا جَرَمَ﴾ سياقه على مذهب البصريين: أن يُجعل ﴿لَا﴾ ردًّا لما دعاه إليه قومه،

وعطف ﴿مَا لِي أَدْعُوكُمْ﴾ على النداء الثاني الداخل على ما هو بيان لما قبله لا على الأول، فإن ما بعده أيضًا تفسير لما أُجملَ فيه تصريحًا وتعريضًا^(١).

وقلت: يأبى أن يكون الثاني داخلًا في البيان لما فيه من الغلظة والوعيد إلى حلول الدمار وتصريح المُناركة، وقد مرَّ غيرَ مرة أنَّ دأب الأنبياء والداعين إلى الله سلوكُ طريق الملائمة، وسبيل إرخاء العنان في الدعوة، ثم إذا أيقنوا أنَّ ذلك النوع لا يجدي فيهم أتوا بالتوبيخ والتغليظ، ثم بعده بما يؤذُن بالمُناركة والإفراط، وبتحقُّق الفصل بالهلاك والدمار. كذلك سلك هاهنا، ولهذا قال: «وأما الثالثُ فداخلٌ على كلامٍ ليس بتلك المثابة»، وبيِّنًا مغزاه.

قوله: (والمراد بنفي العلم نفي المعلوم)، أي: هو من باب نفي الشيء بنفي لازمه على سبيل الكناية. وعن بعضهم: نفي العلم عن الخاص - بناءً على الدليل الواضح الشامل للكُلِّ - يكون نفيًا للعلم عن الكلِّ.

قوله: (أن يجعل ﴿لَا﴾ ردًّا لما دعاه إليه قومه)، قال الزَّجاج في سورة «هود»: قال المُفسِّرون: المعنى: حقًّا إنهم في الآخرة هم الأَخسرون^(٢). ورَعَمَ سَيِّوِيَهُ أَنْ «جَرَمَ» بمعنى «حقٌّ»، قال الشَّاعر:

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٥٨).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٣: ٤٥٠).

﴿جَرَمَ﴾: فعل بمعنى حَقَّ، و«أَنَّ» مع ما في حَيْزِهِ فاعله، أي: حَقَّ ووجب بطلانُ دعوته. أو بمعنى: كَسَب، من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢] أي: كَسَبَ ذلك الدعاءُ إليه بطلانَ دعوته، على معنى: أنه ما حصل من ذلك إلا ظهورُ بطلانِ دعوته. ويجوزُ أن يقال: إنَّ «لا جَرَمَ» نظيرُ «لا بَدَّ»، فَعَلَّ من الجَرَمِ؛ وهو القَطْع، كما أنَّ بَدًّا فعلٌ من التَّبْيِيدِ؛ وهو التفريق،

ولقد طَعَنْتُ أبا عُبَيْدَةَ طَعْنَةً جَرَمْتُ فَرَارَةَ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا^(١)

أي: حَقَّتْ فَرَارَةُ بالغضب. ومعنى «لا» نفيٌّ لما ظَنُّوا أنه يَنْفَعُهُمْ، كأنَّ المعنى: لا يَنْفَعُهُمْ ذلك، جَرَمَ في الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ، أي: كَتَبَ ذلكَ الفِعْلُ لَهُمُ الخُسْرَانَ. وعن بعضهم: «لا» هاهنا كـ «لا»؛ في «لا أَقْسِمُ» في أنه رَدُّ للكلامِ سابق^(٢).

قوله: (و«أَنَّ» مع ما في حَيْزِهِ فاعله)، أي: «ما» في «أَنَّمَا» بمعنى: الذي، أي: حَقَّ وثبتَ أَنَّ الذي تدعونني إليه ليس له دعوة، ولما كانَ معنى قوله: ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ قريبًا من معنى: بَطَلَّ دَعْوَتُهُ، رجع تلخيصُ المعنى إلى أنه حَقَّ وثبتَ بطلانُ دعوته؛ لما سيجيءُ بَعِيدَ هذا أن معناه: إنَّ ما تدعونني إليه ليس له دعوةٌ إلى نفسه قط، إلى قوله: «ولو كانَ حيوانًا ناطقًا لَضَجَّ من دُعَائِكُمْ».

قوله: (أي: كَسَبَ ذلكَ الدُّعَاءُ إليه بطلانَ دعوته)، «ذلكَ الدعاءُ»: فاعل «كَسَبَ»، وهو معنى قوله: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ وقوله: «بطلانَ دعوته» معنى قوله: ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ في الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ، والضميرُ راجع إلى المَدْعُوِّ الذي في قوله: ﴿لَا كُفْرًا بِاللَّهِ وَأَشْرَكَ بِهِ﴾.

قوله: (نظيرُ «لا بَدَّ»)، فعلى هذا ﴿جَرَمَ﴾ اسم «لا»^(٣)، و﴿جَرَمَ﴾ مرفوعُ المحلِّ مبتدأ، والخبر ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾.

(١) «كتاب سيبويه» (٣: ١٣٨). ووقع فيه: «أبا عُبَيْدَةَ» وهو الصواب، يعني: أبا عُبَيْدَةَ حِصْنِ بن حذيفة ابن بدر الفَرَارِيِّ.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٣: ٤٥٠).

(٣) في الأصول الخطبية: «فلا»، وصَوَّبناه بحسبِ السياق.

فكما أن معنى: لا بُدَّ أنك تفعل كذا، بمعنى: لا بُعد لك من فعله، فكذلك ﴿لَا جَرَمَ أَنْ لَمْ أَتَارَ﴾ [النحل: ٦٢]، أي: لا قَطَعَ لذلك، بمعنى: أنهم أبداً يَسْتَحَقُّون النارَ لا انقطاعاً لاستحقاقهم، ولا قَطَعَ لِبُطْلان دعوة الأصنام، أي: لا تزال باطلة لا يَنْقَطِعُ ذلك فَيَنْقَلِبُ حقاً. وروى عن العَرَب: لا جُرْمَ أنه يَفْعَل، بضم الجيم وسكون الراء، بزنة «بُدَّ»، وفَعَلَ وفَعَلَ أخوان، كَرُشِدٍ وَرَشَدٍ، وَعُدْمٍ وَعَدَمٍ. ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ معناه: أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة إلى نفسه قط، أي: من حقِّ المعبود بالحق أن يدعو إلى طاعته، ثم يدعو العباد إليها إظهاراً لدعوة ربهم، وما تدعون إليه وإلى عبادته لا يدعو هو إلى ذلك ولا يدعي الربوبية، ولو كان حيواناً ناطقاً لَضَجَّ من دُعائكم. وقوله: ﴿فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ﴾ يعني: أنه في الدنيا جمادٍ لا يستطيع شيئاً من دُعائ غيره، وفي الآخرة: إذا أنشأه الله حيواناً، تبرأ من الدُّعَاةِ إليه ومن عِبَدَتِهِ. وقيل: معناه: ليس له استجابة دعوة تنفع في الدنيا ولا في الآخرة. أو: دعوة مستجابة. جعلت الدعوة التي لا استجابة لها ولا منفعة كلاً دعوة. أو سُمِّيت الاستجابة باسم الدعوة، كما سُمِّيَ الفَعْلُ المُجَازِي عليه باسم الجزاء في قولهم: كما تدين تُدان. قال الله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]. ﴿الْمُتَسْرِفِينَ﴾ عن قتادة: المشركين. وعن مجاهد:

قوله: (ثم يدعو العباد إليها)، يعني: دلَّ التنكير في ﴿دَعْوَةٌ﴾، وهي نكرة في سياق النفي، على نفي الدعوة عن الأصنام بالكلية، وذلك أن من حقِّ المعبود بالحق أن يدعو العباد المُكْرَمِينَ مثل الملائكة والرُّسُلِ والعلماء الوَرَاثِ إلى طاعته، ثم أولئك العبادُ يدعون غيرهم إلى عبادته إظهاراً لدعوة ربهم، وليس كذلك الأصنام.

قوله: (سُمِّيت الاستجابة باسم الدعوة)، يعني: أنه من بابِ المُشَاكَلَةِ، وأصله: إنَّ الذي تدعونني ليس له استجابة، أي: لا يجيب دعوتي، كما في قولك: كما تدين تُدان، أي: كما تُجَازِي تُجَازَى، وأصله: كما تفعل تُجَازَى، لكن قيل: كما تُجَازَى؛ لَوْقُوعِهِ فِي صُحْبَةِ «تُجَازَى» الثاني.

السفّاكين للدماءِ بغيرِ حلِّها. وقيل: الذين غلبَ شرُّهم خيرَهم هم المُسرِفون. وقرئ:
(فستذكرون) أي: فسيذكر بعضكم بعضاً. ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾؛ لأنهم توعدوه.

[﴿فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾

[٤٥ - ٤٦]

﴿فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾: شدائد مكرهم وما همُّوا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم. وقيل: نجا مع موسى، ﴿وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ما همُّوا به من تعذيب المسلمين، ورجع عليهم كيدهم. ﴿النَّارُ﴾ بدلٌ من ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾، أو خبرٌ مبتدئٌ محذوف، كأنَّ قائلًا قال: ما سوءُ العذاب؟ فقيل: هو النار؛ أو مبتدأٌ خبره ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾. وفي هذا الوجه تعظيمٌ للنار وتحويلٌ من عذابها. وعرضُهم عليها: إحراقهم بها. يقال: عرض الإمام الأسارى على السيف؛ إذا قتلهم به وقرئ: (النار)

قوله: (السفّاكين للدماءِ بغيرِ حلِّها) يريدُ أنه عودٌ إلى بدء، افتتح بقوله: ﴿أَنفَتُلُونُ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ جوابًا عن قول اللعين: ﴿ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ فاختتم به تعريضًا.

قوله: (وفي هذا الوجه تعظيمٌ للنار)، قال صاحبُ «التقريب»: من حيث الاستئناف. وقلت: الاستئناف غير مختصٍّ به؛ لأنَّ السابق أيضًا واردٌ عليه، بل التعظيمُ من أنَّ التركيب حينئذٍ من باب تقوي الحكم وجعل «النار» مبتدأً مُعْتَمِدًا عليه، وبناء «يُعْرَضُونَ» عليها، فالجوابُ عن السؤالِ المُقَدَّرِ جُمْلَةُ الكلامِ إلى آخر الآية. قيل: سوءُ العذابِ النارُ المحكومُ عليها بكَيْتٍ وكَيْتٍ.

قوله: (وعرضُهم عليها إحراقهم بها)، ونحوه: عرضتُ الناقةَ على الحوض، وقولُ أبي العلاء:

إذا اشتاقتِ الحَيْلُ المناهِلُ أعرَضتُ
عن الماءِ فاشتاقتُ إليه المناهِلُ^(١)

(١) لم أهدت إليه فيها بين يدي من مصادر التخريج.

بالنصب، وهي تعضد الوجه الأخير، وتقديره: يُدخِلون النارَ يُعرضون عليها، ويجوزُ أن يَنْتَصِبَ على الاختصاص. ﴿عُدُّوْا وَعَشِيَّاتٍ﴾ في هَذَيْنِ الوَقْتَيْنِ يُعَذَّبُونَ بالنار، وفيما بين ذلك اللهُ أعلمُ بحالهم، فإمَّا أن يُعَذَّبُوا بجنسٍ آخَرَ من العذاب، أو يُفَسَّسَ عنهم. ويجوزُ أن يكونَ ﴿عُدُّوْا وَعَشِيَّاتٍ﴾ عبارةً عن الدوام، هذا ما دامت الدنيا، فإذا قامتِ الساعةُ قيل لهم: (ادخلوا) يا ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ﴾ عذابِ جهنم. وقُرئ: ﴿أَدْخِلُوا ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: يقال لِحَزَنَةِ جهنم: أدخلوهم. فإن قلت: قوله: ﴿وَحَاقَ بِقَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ معناه: أنه رَجَعَ عليهم ما هُمُوا به من المَكْرِ بالمسلمين، كقول العَرَبِ: مَنْ حَفَرَ لِأَخِيهِ جُبًّا، وَقَعَ فِيهِ مُنْكَبًا، فَإِذَا فُتِرَ ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ بنارِ جهنم؛ لم يكن مَكْرُهُم راجعًا عليهم؛ لأنهم لا يُعَذَّبُونَ بجهنم؟ قلت: يجوزُ أن يَهَمَّ الإنسانُ بأن يُغْرَقَ قَوْمًا فَيُحَرِّقَ بالنار، وَيُسَمَّى ذلكَ حَيْقًا؛ لأنه هَمٌّ بِسُوءٍ فَأَصَابَهُ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ السُّوءِ. ولا يُشْتَرَطُ في الحَيْقِ أن يكونَ الحَاقِقُ ذلكَ السُّوءَ بَعِيْنَهُ، ويجوزُ أن يَهَمَّ فِرْعَوْنُ لَمَّا سَمِعَ إِنْذَارَ الْمُسْلِمِينَ بالنار، وَقَوْلَ الْمُؤْمِنِ: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣]

قوله: (وهي تعضد الوجه الأخير)، أي: جَعَلَ «النار» مفعولًا دَلَّ على اتصال ﴿النَّارِ﴾ بـ﴿يُعْرَضُونَ﴾، فينبغي في ذلكَ الوجهِ أيضًا أن يُجَعَلَ خبرًا لها لِتَتَّصِلَ بها، لا استثنافًا كما يقتضيه الوجهانِ السابقان.

قوله: (هذا ما دامت الدنيا، فإذا قامتِ الساعةُ قيل لهم: ادخلوا)، اقتضى هذا التقديرُ الواوُ العاطفةُ في قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾، ووجهُ اتصالِهِ بالكلامِ السابق، وإنما أتى في التفسيرِ بالفاء؛ لِيُؤَدَّ بِاتِّصَالِ الْعَذَابِينَ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ.

قوله: (وقرئ: ﴿أَدْخِلُوا﴾)، ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ: «الساعةُ ادخلوا» بوضِلِ الألفِ وضمَّ الحاء، وبيدثنونها بالضمِّ. والباقون: بقطعِها في الحالينِ وكسرِ الحاء^(١).

(١) انظر: «حجة القراءات» ص ٦٣٣، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣٢٠).

يفعل نحو ما فعل نمرود ويعذبهم بالنار، فحاق به مثل ما أضمره وهم يفعله. ويُستدل بهذه الآية على إثبات عذاب القبر.

[﴿ وَإِذْ يَتَحَاجِرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴾ [٤٧]

واذكروا وقت يتحاجرون. ﴿تَبَعًا﴾: تُبَاعًا، كخادم في جمع خادم. أو: ذوي تبع، أي: أتباع، أو وصفًا بالمصدر.

[﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ [٤٨]

وُقرئ: (كُلًّا) على التأكيد لاسم «إن»، وهو معرفة، والتنوين عَوْضٌ من المضاف إليه، يريد:

قوله: (يفعل) عطفٌ على «أن يهّم»، أي: يجوز أن يهّم فرعون حينما سمع، فيكون سببًا لأن يقتدي بنمرود ويعذبهم بالنار.

قوله: (ويُستدل بهذه الآية على إثبات عذاب القبر)، قال الإمام: احتج أصحابنا بها على إثبات عذاب القبر، قالوا: الآية تقتضي عرض النار عليهم غدواً وعشيًا، وليس المراد يوم القيامة لقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وإذا ثبت في حقهم ثبت في غيرهم^(١).

وبعضه ما روي عن البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، عن ابن عمر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ»^(٢).

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٥٢١).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٩) ومسلم (٢٨٦٦) والترمذي (١٠٧٢) والنسائي (٢٠٧١).

إِنَّا كُنَّا - أَوْ: كُنَّا - فِيهَا. فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ (كُلًّا) حَالًا قَدْ عَمِلَ فِيهَا ﴿فِيهَا﴾؟ قُلْتَ: لَا؛ لِأَنَّ الظَّرْفَ لَا يَعْمَلُ فِي الْحَالِ مُتَقَدِّمَةً كَمَا يَعْمَلُ فِي الظَّرْفِ مُتَقَدِّمًا، تَقُولُ: كُلُّ يَوْمٍ لَكَ ثَوْبٌ، وَلَا تَقُولُ: قَائِمًا فِي الدَّارِ زَيْدٌ. ﴿قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾: قَضَى بَيْنَهُمْ وَفَصَّلَ بَأَنَّ أَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ.

[﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ * قَالُوا أَوْلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَاذْعَبُوا وَمَا دُعَاؤُا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ٤٩-٥٠]

﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾: لِلْقَوَامِ بِتَعْذِيبِ أَهْلِهَا. فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِهَا! قُلْتَ: لِأَنَّ فِي ذِكْرِ جَهَنَّمَ تَهْوِيلًا وَتَفْظِيْعًا، وَيَحْتَمَلُ أَنَّ جَهَنَّمَ هِيَ أَعْدُ النَّارِ

قَوْلُهُ: (إِنَّا كُنَّا - أَوْ: كُنَّا - فِيهَا)، وَالرَّفْعُ أبلغ؛ لِأَنَّ «كُنَّا» مُبْتَدَأٌ وَ«فِيهَا» الْخَبَرُ، وَالجُمْلَةُ خَبَرٌ «إِنَّ»، فَيَكُونُ «كُلٌّ» مَقْصُودًا بِالذِّكْرِ بِخِلَافِ النَّصْبِ؛ لِأَنَّهُ فَضْلَةٌ فِي الْكَلَامِ. قَالَ ابْنُ جَنِّيٍّ: زَيْدٌ ضَرَبْتُهُ، أَقْوَى مِنْ قَوْلِنَا: زَيْدًا ضَرَبْتَ؛ لِأَنَّ «زَيْدًا» فِي الْأَوَّلِ رَبُّ الْجُمْلَةِ، وَفِي الثَّانِي فَضْلَةٌ.

قَوْلُهُ: (لَا؛ لِأَنَّ الظَّرْفَ لَا يَعْمَلُ فِي الْحَالِ مُتَقَدِّمَةً كَمَا يَعْمَلُ فِي الظَّرْفِ مُتَقَدِّمًا)، قَالَ صَاحِبُ «الْبَتْرِيْبِ»: وَفِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَ فِي «الْوَاقِعَةِ» بِخِلَافِهِ، قَالَ: ﴿مُتَّكِنِينَ﴾ حَالٍ مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿عَلَى﴾ وَهُوَ الْعَامِلُ فِيهَا، أَي: اسْتَقَرُّوا عَلَيْهَا مُتَّكِنِينَ. وَقُلْتَ: لَيْسَ بِخِلَافِ مَا ذَكَرَ فِي «الْوَاقِعَةِ» لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿مُتَّكِنِينَ﴾ حَالٍ مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿عَلَى﴾ أَي: فِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ [الطُّور: ٢٠] لَا فِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَيْهَا﴾، وَذَلِكَ أَنَّ ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ إِمَّا خَبَرٌ لِّ «ثَلَّةٍ»، وَالْعَامِلُ الْاسْتِقْرَارُ، أَوْ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الْوَاقِعَةُ: ١٣] إِذَا جَعَلَ «ثَلَّةً» خَبَرَ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، فَالْمَعْنَى: هُمْ مُسْتَقَرُّونَ عَلَى سُرُرٍ مُتَّكِنِينَ، ﴿عَلَيْهَا﴾ صِلَةٌ ﴿مُتَّكِنِينَ﴾.

قَوْلُهُ: (لِأَنَّ فِي ذِكْرِ جَهَنَّمَ تَهْوِيلًا وَتَفْظِيْعًا)، الْإِنْتِصَافُ: هَذَا الْوَجْهُ أَظْهَرَ مِنَ الثَّانِي،

(١) مِنْ قَوْلِهِ: «وَهُوَ الْعَامِلُ فِيهَا» إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح).

قَعْرًا، من قولهم: بئُرَ جِهَنَّمُ: بَعِيدَةُ الْقَعْرِ، وقولهم في النَّابِغَةِ: جِهَنَّمٌ، تسميةٌ بها؛ لزعيمهم أنه يُلقِي الشُّعْرَ على لسانِ الْمُتَسَبِّبِ إليه، فهو بعيدُ العُورِ في عِلْمِهِ بالشُّعْرِ، كما قال أبو نُؤَاسٍ في خَلْفِ الأَحْمَرِ:

قَلِيدٌ مِنَ الْعِيَالِيمِ الْخُسْفِ

والتفخيمُ فيه من وضع الظاهرِ موضعَ المُضْمَرِ. والثاني أَنَّ جِهَنَّمَ أَفْطَعُ مِنَ النَّارِ، إِذِ النَّارُ مُطْلَقَةٌ، وَجِهَنَّمَ أَفْطَعُهَا^(١).

قوله: (في النَّابِغَةِ) بِالنُّونِ وَالغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ، وَيُرْوَى: «في النَّابِغَةِ»، بِالتَّاءِ وَالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ^(٢). عن بعضهم: النَّابِغَةُ: الَّذِي يَكُونُ مَعَ الْجِنِّيِّ وَهُوَ الَّذِي يُلقِي عَلَى الْكَهَنَةِ وَالشُّعْرَاءِ أَشْيَاءَ عَلَى زَعْمِهِمْ، وَرَبِمَا يَجْعَلُونَهُ غَوْلًا وَجِنِّيَّةً أَيْضًا.

قوله: (أَنَّهُ يُلقِي الشُّعْرَ عَلَى لِسَانِ الْمُتَسَبِّبِ إِلَيْهِ)، قِيلَ: يُرْوَى: «يُلْقَى» بِفَتْحِ اللَّامِ وَتَشْدِيدِ الْقَافِ، كَأَنَّهُ اقْتَبَسَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى أَلْفَرَاءَاتٍ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] و«على لسان» مُتَعَلِّقٌ بِمَحذُوفٍ، أَي: جَارِيًا عَلَى لِسَانِ الْمُتَسَبِّبِ إِلَيْهِ، وَالْمُرَادُ بِالْمُتَسَبِّبِ إِلَيْهِ الْعَالِمُ بِهِ عِلْمًا كَامِلًا بَحِيثٌ إِذَا ذُكِرَ إِنَّمَا ذُكِرَ بِطَرِيقِ النِّسْبَةِ إِلَيْهِ لِشُهْرَتِهِ بِحَدَاقَتِهِ، كَمَا يُقَالُ لِلْفَائِظِ فِي النَّحْوِ: النَّحْوِيُّ. وَإِذَا رُوِيَ بِسُكُونِ اللَّامِ وَكَسْرِ الْقَافِ الْخَفِيفَةِ، فَ«على» مُتَعَلِّقٌ بِهِ، و«الْمُتَسَبِّبُ إِلَيْهِ» النَّابِغَةُ، يَعْنِي: إِذَا قَالَ شِعْرًا أَلْقَاهُ عَلَى لِسَانِهِ، فَإِنَّهُ يُلقِيهِ عَلَى لِسَانِ مَنْ يُنْسَبُ إِلَيْهِ الشُّعْرُ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْمُتَسَبِّبِ إِلَيْهِ الْجِنِّيِّ، أَي: أَنَّهُ يُلقِي الشُّعْرَ عَلَى النَّاسِ كَأَنَّمَا عَلَى لِسَانِ الْجِنِّيِّ الَّذِي انْتَسَبَ إِلَيْهِ كَمَا يُلقِي الْجِنُّ عَلَى الْكَهَنَةِ وَالشُّعْرَاءِ أَشْيَاءَ.

قوله: (قَلِيدٌ مِنَ الْعِيَالِيمِ الْخُسْفِ)، أَوَّلُهُ:

أُودَى جَمِيعُ الْعِلْمِ مُذْ أُودَى خَلْفَ مَنْ لَا يُعَدُّ الْعِلْمُ إِلَّا مَا عَرَفَ
رَوَايَةٌ لَا يَجْتَنِي مِنَ الصُّحُفِ

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٧١).

(٢) وكذا وقع في الأصل الخطي المعتمد عندنا من «الكشاف»، لكن أثبتنا ما في المطبوع؛ لأن الطيبي قدّمه.

وفيهما أعتى الكفار وأطغاهم، فلعلّ الملائكة الموكِّلين بعذاب أولئك أجوب دعوة؛ لزيادة قُرْبهم من الله؛ فلهذا تعمَّدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم. ﴿أَوْلَم تَكُنْ تَأْتِيكُمْ﴾ إلزامٌ للحجة وتوبيخ، وأنهم خَلَفُوا وراءهم أوقات الدعاء والتضرُّع، وعطلوا الأسباب التي يستجيب الله لها الدعوات، ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ أنتم، فإننا لا نجترئ على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين: كَوْنُ المشفوع له غيرَ ظالم، والإذن في الشفاعة مع مُراعاة وقتها، وذلك قَبْلَ الحُكْمِ الفاصِلِ بين الفريقين، وليس قولهم:

الْقَلِيدَم: صَحَّ بفتح القاف والذال؛ البحرُ الكثيرُ الماء. والعَيْلَم: الرِّكِيَّةُ الكثيرةُ الماء. والْحَسْف: البئرُ التي تُحْفَرُ في حجارةٍ فلا ينقطعُ ماؤها، والجمع: حَسَف. راوية: كثيرُ الرواية. قَوْلُهُ: لا يَجْتَنِي العِلْمُ من الصُّحْف، بل هو محفوظٌ في صدره.

خَلَفَ هذا قيل: هو خَلَفُ بن أحمد بن الأحمر، وهو الذي قيل فيه:

خَلَفُ بنُ أَحْمَرَ الأَخْلَافِ أَرَبِيٌّ بِسُؤْدُدِهِ عَلَى الأَسْلَافِ

قَوْلُهُ: (أَجُوبُ دَعْوَةٍ)، أي: أشدُّ إجابةً من جهة الدعوة، أي: دعاؤُهُم أقربُ إلى الإجابة.

قَوْلُهُ: (كَوْنُ المشفوعِ لَهُ غيرَ ظالم، والإذنُ في الشفاعةِ مع مُراعاةِ وقتها)، قُلْتُ: الشرطُ الأوَّلُ مدفوعٌ بما رَوينا عن جابرٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «شفاعتي لأهلِ الكبائرِ من أمتي». أخرجه الترمذيُّ وأبو داود^(١). وفي أخرى للترمذيِّ قال جابر: «مَنْ لم يكن من أهلِ الكبائرِ فما لَهُ وللشفاعة»^(٢).

والقيدُ في الشرطِ الثاني مردودٌ بقوله صلواتُ الله عليه: «ثم تحلُّ الشفاعة، ويشفعون حتى يخرج من النار مَنْ قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزنُ شعيرة». أخرجه

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٣٦) وابن حبان (٦٤٦٧) عن جابر. وأخرجه الترمذي (٢٤٣٥) وأبو داود (٤٧٣٩)، وأحمد (١٣٢٢٢) وابن حبان (٦٤٦٨) من حديث أنس.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٣٦) والحاكم في «المستدرک» (٢٣٢) والأجري في «الشریعة» (٣: ١٢١٣).

﴿فَادْعُوا﴾ لرجاء المنفعة، ولكن للدلالة على الحثية، وإن المَلَكَ المقرَّب إذا لم يُسْمَع دُعَاؤُهُ، كيف يُسْمَع دُعَاءُ الكَافِر!

[﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥١ - ٥٢﴾]

﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، يعني: أنه يُغْلِبُهُم في الدارين جميعاً بالحجة والظفر على مخالفهم، وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحيان امتحاناً من الله، فالعاقبة لهم، ويُتَبَّحُ اللهُ مَنْ يَفْتَضُّ مِنْ أَعْدَائِهِمْ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ. والأشهاد: جمعُ شَاهِدٍ، كصَاحِبٍ وَأَصْحَابٍ، يريدُ: الحَفَظَةَ مِنَ المَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، ﴿لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. واليومُ الثاني بَدَلٌ مِنَ الْأَوَّلِ، يَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ يَعْتَذِرُونَ بِمَعْذَرَةٍ وَلَكِنَّهَا لَا تَنْفَعُ؛ لِأَنَّهَا بَاطِلَةٌ، وَأَنَّهُمْ لَوْ جَاءُوا بِمَعْذَرَةٍ لَمْ تَكُنْ مَقْبُولَةً؛

مسلمٌ عن أبي الزبير^(١). ولذلك قال الإمام: تقول الملائكة للكفار: لا يُشْفَعُ إلا بشرطين: كون المشفوع له مؤمناً. والثاني: حصول الإذن في الشفاعة^(٢).

وينصر هذا التأويل قوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وقوله: ﴿وَمَا دَعْتُوا الْكُفْرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، ووضع الظاهر موضع المضمَر للإشعارِ بِالْعِلِّيَّةِ وَأَنَّ الْمَانِعَ هُوَ صِفَةُ الْكُفْرِ.

قوله: (ويُتَبَّحُ اللهُ)، الجوهرية: تَاحَ لَهُ الشَّيْءُ وَأُتَبَّحَ لَهُ الشَّيْءُ: قُدِّرَ لَهُ.

قوله: (يَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ يَعْتَذِرُونَ بِمَعْذَرَةٍ وَلَكِنَّهَا لَا تَنْفَعُ؛ لِأَنَّهَا بَاطِلَةٌ، وَأَنَّهُمْ لَوْ جَاءُوا بِمَعْذَرَةٍ لَمْ تَكُنْ مَقْبُولَةً)، الانتصاف: هما الاحتمالان في قوله: ﴿وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾، لكن هاهنا يصيرُ المعنى عكس الآخرِ على تقدير: ألا يكون لهم عُذْرٌ يَنْفِي صِفَةَ الْمَعْذَرَةِ وَهِيَ

(١) أخرجه مسلم (١٩١).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٥٢٣).

لقوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦]. ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾: البُعْدُ من رحمة الله، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي: سُوءُ دَارِ الآخِرَةِ؛ وهو عذابها. وُقِرَى: ﴿يَقُومُ﴾ و﴿لَا يَنْفَعُ﴾ بالتاء والياء.

المنفعة، أي: إذا لم تحصل ثمرةُ المعذرةِ فكيف يقع ما لا ثمرةَ فيه؟ وفي تلك الآية جعل نفي الموصوفِ تبعاً لنفي الصفة، فهاهنا الأولى بالنفي الصفة، وفي هناك الأولى بالنفي الذات^(١).

وقلت: الكلامُ يفتقرُ إلى فضلٍ بسيط، وهو أن ما في تلك الآية وأمثالها من باب نفي الشيء بنفي لازمه، يعني: لما أريد نفي الشفيع مثلاً شفع بالشفيع، فجعل انتفاء الشفيع دليلاً على انتفاء الشفيع بالطريق النهائي. وتلخيصه: أنه إذا لم يحصل الشفيع فكيف يحصل الشفيع^(٢) وهاهنا بالعكس؛ لأن الأصل ليس لهم معذرة نافعة، فعدّل إلى «لا ينفع الظالمين معذرتهم» للمبالغة، وجعل انتفاء النفع دليلاً على انتفاء العذر، وعليه كلام صاحب «الانتصاف»: وإذا لم يحصل ثمرة العذر فكيف يقع ما لا ثمرة له؟ فحيث يتنفي النفع بالطريق المذكور؛ لأن الصفة لا تتأتى بدون موصوفها؛ ألا ترى إلى المصنف كيف قال في تلك الآية: ضُمَّتِ الصفةُ إلى الموصوف؛ ليقام انتفاء الموصوف في مقامه الشاهد على انتفاء الصفة؛ لأن الصفة لا تتأتى بدون موصوفها، فيكون ذلك إزالةً لتوهم وجود الموصوف.

قوله: (لقوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦])، قال: ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ عطف على ﴿وَلَا يُؤْذَنُ﴾ مُنْحَرِطٌ في سلك النفي، والمعنى: ولا يكون لهم إذن واعتذار مُتَعَقِبٌ له، وقد روعي في الآيتين المناسبة بين الفقرتين. ولما قال هناك: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَسِيرٍ﴾ شَفَعَهُ بنفي الشفيع والشفيع، ولما أوقع الكلام هاهنا على نفي المنفعة قرنه بإثبات المضرة، حيث قال: ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

قوله: (وقرى: ﴿يَقُومُ﴾ و﴿لَا يَنْفَعُ﴾ بالتاء والياء)، الكوفيون ونافع: بالياء التحتانية، والباقون: بالتاء^(٣).

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٧٢).

(٢) من قوله: «فجعل انتفاء الشفيع» إلى هنا سقط من (ف) و(ح).

(٣) انظر: «حجة القراءات» ص ٦٣٤، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣٢٣).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ * هُدًى وَذِكْرَىٰ
لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٣-٥٤﴾﴾

يُرِيدُ بِالْهُدَى: جَمِيعَ مَا آتَاهُ فِي بَابِ الدِّينِ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ وَالتَّوْرَةِ وَالشَّرَائِعِ.
﴿وَأَوْرَثْنَا﴾: وَتَرَكْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِهِ ﴿الْكِتَابَ﴾ أَي: التَّوْرَةَ

قَوْلُهُ: (وَتَرَكْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِهِ الْكِتَابَ)، يَعْنِي: اسْتُعِيرَ ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ لَدُنَّا تَرَكْنَا.
النَّهْيَةَ: فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى «الْوَارِثِ»، وَهُوَ الَّذِي يَرِثُ الْخَلَائِقَ وَيَقْبِي بَعْدَ فَنَائِهِمْ، وَمِنْهُ:
«اللَّهُمَّ مَتَّعْنِي بِبَصْرِي وَاجْعَلْهَا الْوَارِثَ مِنِّي»^(١)، أَي: أَبْقِهَا صَاحِبِينَ سَلِيمِينَ
إِلَى أَنْ أَمُوتَ. وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مِيرَاثَ الْأَنْبِيَاءِ لَيْسَ إِلَّا الْعِلْمَ وَالْكِتَابَ الْهَادِيَ النَّاطِقَ
بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةَ، أَلَا تَرَى كَيْفَ أُطْلِقَ الْهُدَى فِي قَوْلِهِ: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى» لِيَكُونَ
شَائِعًا فِي جَمِيعِ جَنَسِهِ، فَيَتَنَاوَلُ جَمِيعَ مَا آتَاهُ اللَّهُ فِي بَابِ الدِّينِ، ثُمَّ جَعَلَ نَصِيبَ أُمَّتِهِ الْكِتَابَ
وَحَدَّهُ؟ وَكَيْفَ أَوْمَأَ إِلَيْهِ سَيِّدُنَا صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا
سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا رِضًا لَطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ
الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحَيَاتَانِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ
عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرِثَةَ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ
الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَلَكِنْ وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ». أَخْرَجَهُ
أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، عَنْ قَيْسِ بْنِ كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ^(٢).

قَالَ صَاحِبُ «الْجَامِعِ»: مَعْنَى وَضَعِ أَجْنَحَةَ الْمَلَائِكَةِ التَّوَاضُّعُ وَالْخُشُوعُ تَعْظِيمًا لِلطَّالِبِ
وَتَوْقِيرًا لِلْعِلْمِ^(٣)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤].

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ الْكَفُّ عَنِ الطَّيْرَانِ، أَي: لَا يَزُولُ عِنْدَهُ، كَقَوْلِهِ ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللَّهَ
عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ»^(٤).

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٦٠٤) وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (١٩١٨) وَالبخاري في «الأدب المفرد» (١):
(٢٢٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٣٦٤١) وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٦٨٢) وَغَيْرُهُمَا. وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ (٨٨) وَفِيهِ تَمَامُ تَخْرِيجِهِ.

(٣) «جَامِعُ الْأَصُولِ» (٤: ٨).

(٤) هُوَ جُزْءٌ مِنْ حَدِيثِ طَوِيلٍ أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٧٤٢٧) وَمُسْلِمٌ (٢٦٩٩) وَأَبُو دَاوُدَ =

﴿ هُدًى وَذِكْرَى ﴾: إرشادًا وتذكرةً، وانتصابتها على المفعول له، أو على الحال. وأولوا الألباب: المؤمنون به العاملون بها فيه.

[﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ ٥٥]

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ يعني أن نصره الرُّسل في ضَمَانِ الله، وضمان الله لا يُخْلَفُ، واستشهد بموسى وما آتاه من أسباب الهدى والنصرة على فرعون وجنوده، وإبقاء آثار هُدهاه في بني إسرائيل، والله ناصرُك كما نصرهم، ومُظهِرُك على الدِّينِ كلِّه، ومُبَلِّغُ مُلْكِ أُمَّتِكَ مشارق الأرض ومغاربها، فاصبرْ على ما يُجْرِعُك قومك من الغُصَصِ، فإنَّ العاقبةَ لك وما سبق به وَعْدِي من نُصْرَتِكَ وإِعْلَاءِ كَلِمَتِكَ حَقًّا، وأقْبِلْ على التقوى، واستدراكِ الفَرَطَاتِ بالاستغفار، ودُمِّ على عبادة ربِّك والثناءِ

قوله: (وَمُبَلِّغُ مُلْكِ أُمَّتِكَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا)، إشارة إلى ما روينا عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ رَوَى لِي الْأَرْضَ، فَأَرَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا رَوَى لِي مِنْهَا». أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي^(١)، وأخرجه الإمام أحمدُ ابنُ حنبلٍ عن شدَّادِ بنِ أوس^(٢).

وقلت: هذا الذي ذكره وإن كان غرضًا يُصارُ إليه، لكنَّ النَّظْمَ يقتضي أبلغَ من ذلك، وهو أن يُقال: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ [غافر: ٥٥]، يعني: أنه ينصرك على أعدائك كما نصر موسى على أعدائه، ويظهرُك على الدِّينِ كلِّه، ويورثُ هذا الكتابَ الكريمَ الذين اصطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا لِيُعْتَصِمُوا بِهِ، فيكونُ لهم هُدًى ينالون به رِضَا اللَّهِ وَرُزْقَاهُ فِي الْعُمْبَى وَذِكْرًا أَي: شرفًا وغربًا، كما قال: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، فيمليكون به مشارق الأرض ومغاربها.

= (١٤٥٥) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) وأبو داود (٤٢٥٢) والترمذي (٢١٧٦).

(٢) «مسند أحمد» (١٧١١٥).

عليه ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾. وقيل: هما صلاتا العَصْرِ والفَجْرِ.

[﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَا هُمْ بِيَلْبِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ٥٦]

﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾: إلا تكبرٌ وتعظمٌ؛ وهو إرادة التقدُّم والرياسة، وأن لا يكون أحدٌ فوقهم؛ ولذلك عادوك ودفَعُوا آيَاتِكَ خِيفَةً أَنْ تَتَقَدَّمَهُمْ وَيَكُونُوا تَحْتَ يَدِكَ وَأَمْرِكَ وَتَهْيِكَ؛ لأنَّ النبوةَ تحتها كلُّ مُلْكٍ ورياسة؛ أو إرادة أن تكون لهم النبوة دونك حَسَدًا وَبَغْيًا، ويدلُّ عليه قوله: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]؛ أو إرادة دفع الآيات بالجدال. ﴿مَا هُمْ بِيَلْبِغِيهِ﴾ أي: ببالغي مَوْجِبِ الكِبْرِ ومُقْتَضِيهِ؛ وهو متعلِّق إرادتهم من الرئاسة أو النبوة أو دفع الآيات. وقيل: المُجَادِلُونَ: هم اليهود، وكانوا يقولون: يخرجُ صاحبنا المسيحُ بن داودَ - يريدون الدَّجَالَ - وَيَبْلُغُ سُلْطَانَهُ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ، وَتَسِيرُ مَعَهُ الْأَنْهَارُ، وَهُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، فَيَرْجِعُ إِلَيْنَا الْمُلْكُ، فَسَمَى اللَّهُ تَمَنِّيَهُمْ ذَلِكَ كِبْرًا، وَنَفَى أَنْ يَبْلُغُوا مُتَمَنَّاهُمْ. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فالتجئُ إليه مِنْ كَيْدِ مَنْ يَحْسُدُكَ وَيَبْغِي عَلَيْكَ ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما تقولُ ويقولون، ﴿الْبَصِيرُ﴾ بما تَعْمَلُ وَيَعْمَلُونَ، فَهُوَ نَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ وَعَاصِمُكَ مِنْ شَرِّهِمْ.

قوله: (ويدلُّ عليه ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾)، [الأحقاف: ١١] أي: يدلُّ على أن المراد من الكِبْرِ إرادة أن تكون لهم النبوة، وأنَّ المُجَادِلِينَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ الَّذِينَ جَادَلُوا فِي أَمْرِ النَّبُوَّةِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْتَصَّ بِكَ دُونَهُمْ، وَأَنَّ تِلْكَ الْمُجَادَلَةَ لَمْ تَكُنْ إِلَّا مِنَ الْكِبْرِ وَالْحَسَدِ.

قوله: (ويدلُّ عليه قوله: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا﴾)، لأنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْمُجَادَلَةِ لَا تَصْدُرُ إِلَّا مِنَ الْحَاسِدِ وَالْبَاغِي؛ لأنَّ اللَّهَ يَخْتَصُّ بِنُبُوَّتِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَلَيْسَ تَنَاوُلُهَا وَالِاخْتِصَاصُ بِهَا مِنَ الْمَسَابِقَةِ، وَمَا نَشَأَ ذَلِكَ الْحَسَدُ إِلَّا مِنَ الْكِبْرِ.

قوله: (وهو متعلِّق إرادتهم من الرئاسة أو من النبوة أو دفع الآيات)، نُشِرَ لِلْوَجْهِ الثَّلَاثَةِ.

[لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾]

فإن قلت: كيف اتصل قوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بها قبله؟ قلت: إن مجادلتهم في آيات الله كانت مُشتملة على إنكار البعث، وهو أصل المجادلة ومدارها، فحُجُّوا بخلق السموات والأرض؛ لأنهم كانوا مُقرِّين بأن الله خالقها، وبأنها خلق عظيم لا يُقَادَرُ قدره، وخلق الناس بالقياس إليه شيءٌ قليل مهين، فمن قَدَرَ على خلقها - مع عَظَمِها - كان على خلق الإنسان - مع مهانتها - أقدر، وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لغلبة الغفلة عليهم وأتباعهم أهواءهم.

قوله: (إنَّ مجادلتهم في آيات الله كانت مُشتملة على إنكار البعث)، هذا مناسبٌ للوجه الثالث من تفسير الكبر، وهو قوله: «أو إرادة دفع الآيات بالجدال». المعنى: إن الذين يجادلون في الآيات الدالة على إثبات الحشر والنشر والبعث لم تكن تلك المُجادلة منهم من حُجَّة وبرهان، لكن بما في قلوبهم من الكبر واستبعاد قدرة الله، فقل لهم: مَنْ قَدَرَ على خلق السموات والأرض مع عظمتها كان على خلق أمثالكم في المهانة أقدر، وهو كقولهم تكبراً وعناداً واستكباراً: ﴿مَنْ يُنْحِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيْدٌ﴾ [يس: ٧٨] وقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا﴾ [يس: ٧٩] إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدْرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١] أي: مثلهم في الصغر والقماءة بالإضافة إلى السموات والأرض، وينصُرُ هذا التأويل قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون ما في البعث من الحكمة؛ لأنه لا بد من جزاء المحسن والمسيء، ولا يتم ذلك إلا بمجيء الساعة ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمَةٌ لَّآرِثَةٌ فِيهَا﴾.

وقال القاضي: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: لا ينظرون ولا يتأملون لفرط غفلتهم وأتباعهم أهواءهم، وما يستوي العاقل والمتبصر، وينبغي أن يكون لهم حالٌ يظهر فيها التفاوت، وهي فيما بعد البعث^(١).

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٦١).

[﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسَوِّءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ٥٨]

ضُرِبَ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرَ مَثَلًا لِلْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ. وَقُرئ: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، وَالتَّاءُ أَعْمٌ.

[﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَنبِيَةٌ لَّأَرِيبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٥٩]

﴿لَّأَرِيبَ فِيهَا﴾: لَا بُدَّ مِنْ جَيِّئِهَا وَلَا مَحَالَةٍ، وَلَيْسَ بِمُرْتَابٍ فِيهَا؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ

قَوْلِهِ: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، عَاصِمٌ وَحَمْزَةٌ وَالكَسَائِي: بِالتَّاءِ الْفَوْقَانِيَّةِ، وَالباقونَ: بِالْيَاءِ^(١).

قَوْلِهِ: (وَالتَّاءُ أَعْمٌ)، قَالَ صَاحِبُ «التَّقْرِيبِ»: إِنَّمَا كَانَ أْتَمَّ لِتَغْلِيْبِ الْخَطَابِ عَلَى الْغَيْبَةِ. وَقَالَ الْقَاضِي: لِذَلَالَةِ التَّاءِ عَلَى تَغْلِيْبِ الْمُخَاطَبِ أَوْ الِاتِّفَاتِ أَوْ أَمْرِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْمُخَاطَبَةِ^(٢).

قُلْتُ: التَّغْلِيْبُ وَإِنْ كَانَ أَعْمٌ؛ لِأَنَّهُ أَشْمَلٌ فِي التَّنَاوُلِ، وَلَكِنْ غَيْرُ مَنَاسِبٍ لِّلْمَقَامِ، وَأَمَّا الِاتِّفَاتُ فَإِنَّهُ أْتَمُّ فَائِدَةٌ وَهُوَ أَنَسَبُ لِّلْمَقَامِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ مُتَّصِلَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿لَخُلُقِ السَّمْعَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خُلُقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَهُوَ كَلَامٌ مَعَ الْمُجَادِلِينَ، كَمَا قَالَ: فَحُجُّوا بِخُلُقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَالعُدُولُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخَطَابِ فِي مَقَامِ التَّوْبِيخِ يَدُلُّ عَلَى الْعُنْفِ الشَّدِيدِ وَالِإِنْكَارِ الْبَلِيغِ.

وَقَالَ الْقَاضِي: وَزِيَادَةُ «لَا» فِي ﴿الْمُسَوِّءُ﴾ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ نَفْيَ مُسَاوَاتِهِ لِلْمُحْسِنِ فِيهَا لَهُ مِنَ الْفَضْلِ وَالكِرَامَةِ^(٣).

قَوْلُهُ: (وَلَيْسَ بِمُرْتَابٍ فِيهَا)، عَطْفٌ تَفْسِيرِيٌّ عَلَى قَوْلِهِ: «لَا بُدَّ مِنْ جَيِّئِهَا»^(٤) وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ يَرْتَابَ فِيهَا الْمُرْتَابُ، وَإِنْ إِرْتَابٌ فِيهَا الْمُبْطَلُونَ فَلَيْسَ مِنْ رَوِيَّةٍ وَتَفَكُّرٍ.

(١) انظر: «حجة القراءات» ص ٦٣٤، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣٢٥).

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٦١).

(٣) المصدر السابق (٥: ٦١).

(٤) من قوله: «عطف تفسيري» إلى هنا، سقط من (ح).

جزاء. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: لا يُصدِّقون بها.

[﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي

سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ٦٠]

﴿ادْعُونِي﴾: اعبُدوني، والدعاءُ بمعنى العبادة كثيرٌ في القرآن، وبدلٌ عليه قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾. والاستجابةُ: الإجابة، وفي تفسيرٍ مُجاهد: اعبُدوني أئبيكم. وعن الحسنِ وقد سُئل عنها: اعملوا وأبشروا، فإنه حقٌّ على الله أن يستجيبَ للذين آمنوا وعمالوا الصالحات ويزيدهم من فضله. وعن الثوري: أنه قيل له: ادعُ الله، فقال: إن تركَ الذُّنوب هو الدعاء. وفي الحديث: «إذا شغَلَ عبدي طاعتي

قوله: (فإنه حقٌّ على الله أن يستجيبَ للذين آمنوا)، عن الإمام مالك، عن نافع: أنه سمعَ ابنَ عمرٍ يدعو على الصِّفا يقول: «اللهم إنك قلت: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وإنك لا تُخلفُ الميعاد، فإني أسألك كما هديتني للإسلام أن لا تنزعهُ مِنِّي حتى تتوفَّاني وأنا مسلم»^(١).

قوله: (إن تركَ الذنوبِ هو الدعاء)، يعني: أن المذنبَ مُتجرئٌ على الله مستكبرٌ عن عبادتِهِ لا يعرفُ جلالَهُ وعظمتَهُ، والمُجتنبُ عن الذنبِ مطيعٌ لربِّهِ خاضعٌ مُستكينٌ مُستحيٍ لجلاله. وعن رسولِ الله ﷺ: «الاستحياءُ من الله أن تحفظَ الرأسَ وما وعى، والبطنَ وما حوى، وتذكرَ الموتَ والبلى، مَنْ أرادَ الآخرةَ تركَ زينةَ الدنيا»^(٢). فإذاً قوله: «إن تركَ الذنوبِ هو الدعاء» من الجوامع.

قوله: (إذا شغَلَ عبدي طاعتي)، الحديثُ من رواية أبي سعيدٍ عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «يقولُ الربُّ تباركُ وتعالى: مَنْ شغَلَهُ القرآنُ عن ذكرِي ومسالتي أعطيتُهُ أفضلَ ما أعطي السائلين». أخرجهُ الترمذيُّ والدارميُّ^(٣).

(١) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (١: ٣٧٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٥٨) عن ابن مسعود.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٩٢٦) والدارمي (٣٣٩٩)، وقال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ غريب.

عن الدعاء، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين». وروى النعمان بن بشير، عن رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة» وقرأ هذه الآية. ويجوز أن يريد الدعاء والاستجابة على ظاهرهما، ويريد بـ ﴿عِبَادَتِي﴾: دعائي؛ لأن الدعاء باب من العبادة، ومن أفضل أبوابها، يُصدِّقه قول ابن عباس: أفضل العبادة الدعاء. وعن كعب: أعطى الله هذه الأمة ثلاث خلال لم يُعْطهنَّ إلا نبيًّا مُرسَلًا: كان يقول لكل نبي: أنت شاهدي على خَلْقِي، وقال لهذه الأمة: ﴿لِيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ وكان يقول: ما عليك من حرج، وقال لنا: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]،

قوله: (وروى النعمان بن بشير)، الحديث أخرجه الترمذي وأبو داود وابن ماجه عنه^(١).

قوله: (ويجوز أن يريد الدعاء)، فيكون قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ تعليلاً للأمر بالدعاء لمعنى ﴿أَدْعُوهُ اسْتَجِبْ لَكَ﴾ لأن من لا يدعو فهو مُستكبر، فأنا أُعذِّبه، فوضع موضع الدعاء العبادة ليؤذن بأن الدعاء مُخ العبادة، عن الترمذي عن رسول الله ﷺ: «الدعاء مُخ العبادة»^(٢). وأوقع الصلوة ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ليشعر بأن الدعاء هو الخضوع للباري، وفيه إظهار الافتقار والاستكانة. روي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»^(٣)، وعن عبدالله بن مسعود قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يسأل»^(٤).

وهذه الآية معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ لجامع وجود المجادلة في الآيات، وإما بحسب ترك الدعاء والعبادة، وما بينهما استطراداً لحديث المجادلة في البعث.

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٦٩) وأبو داود (١٤٧٩) وغيرهما، وصححه ابن حبان (٨٩٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٧١) والطبراني في «الدعاء» (١: ٢٤) وفي «المعجم الأوسط» (٣١٩٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٧٣) وأحمد في «المسند» (٩٧٠١) والبخاري في «الأدب المفرد» (١: ٢٢٩).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٥٧١) والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥١٦٩) و«المعجم الكبير» (١٠: ١٠١).

والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢: ٣٧٣) كلهم عن ابن مسعود، وليس عن أبي هريرة.

وكان يقول: ادعني أستجب لك، وقال لنا: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. وعن ابن عباس: وحثوني أغفر لكم. وهذا تفسير للدعاء بالعبادة، ثم للعبادة بالتوحيد. ﴿داخِرِينَ﴾: صاغرين.

[﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ٦١]

﴿مُبْصِرًا﴾ من الإسناد المجازي؛ لأنَّ الإبصارَ في الحقيقة لأهل النهار. فإن قلت: لِمَ قُرِنَ اللَّيْلُ بِالْمَفْعُولِ لَهُ، وَالنَّهَارُ بِالْحَالِ؟ وهَلَّا كَانَا حَالَيْنِ أَوْ مَفْعُولًا لَهَا فِيرَاعَى حَقُّ الْمَقَابِلَةِ! قلتُ: هما مُتْقَابِلَانِ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُؤَدِّي مُؤَدَى الْآخَرِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قِيلَ: لِتُبْصِرُوا فِيهِ: فَاتَتْ الْفَصَاحَةُ الَّتِي فِي الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ،

قوله: (وعن ابن عباس)، عطف على قوله: ﴿ادْعُونِي﴾: اعبدوني، يعني: معنى ﴿ادْعُونِي﴾: وحثوني. ومعنى ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾: أغفر لكم. فدلَّ ﴿ادْعُونِي﴾ على: اعبدوني، ودلَّ «اعبدوني»^(١) على: وحثوني، فهو كناية تلوينية لوجود لوازم ليتصل إلى المقصود، هذا معنى قوله: «وهذا تفسير للدعاء بالعبادة ثم للعبادة بالتوحيد»، وينصُّه قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ﴾ الآيات.

قوله: (فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي)، وذلك أن الملبس إذا وُصفَ بصفة الملبس به كان ذلك إيذاناً بكمال ذلك الوصف في الأصل، وأنه سرى منه إليه لكثرة صدوره منه، فإذا قيل: «نهاره صائم» بدل «هو في النهار صائم» أفاد أنه بلغ فيه إلى أن اتصف نهاره بصفته. وكذلك المراد في الآية المبالغة في وصف تهيؤ أسباب المعاش وسهولة تأتيها؛ لأنَّ زمان التّعيش هو النهار لنورانيته واستزادة قوة البصر فيه، فجعل كأنه هو المبصر، ولو قيل: «لتبصروا» لم يعلم ذلك.

(١) قوله: «ودلَّ (اعبدوني)» سقط من (ط).

ولو قيل: ساكنًا - والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة، ألا ترى إلى قولهم:

قوله: (ولو قيل: ساكنًا... لم يتميم الحقيقة من المجاز)، وذلك أن «ساكنًا» يجوز حملُه على الحقيقة كما قال، ويجوز حملُه على المجاز. ولو قيل: «ساكنًا» لبقِيَ اللَّفْظُ دائِرًا بينَ المعنيتين أحدهما المقصود - وهو إرادة المجاز - إذ المراد أن يكونَ الناسُ في الليلِ ساكنين، والآخر غير مقصود - وهو إرادة الحقيقة - فوجبَ التصريحُ بقوله: «لتسكنوا» لئلا يلتبسَ الغرض.

قال صاحب «الفرائد»: قوله: ﴿أَيْلٌ﴾ يجوزُ أن يوصفَ على الحقيقة بالسكون منظورٌ فيه؛ لأنَّ إضافةَ السكونِ إلى الليلِ باعتبارِ أنه لا ريحَ فيه، فالسكونُ للريحِ في الحقيقة لا لليلِ، ولا يلزمُ من قولهم: «لَيْلٌ ساكِنةٌ» أن يكونَ السكونُ لِلَّيْلِ حقيقةً، فليُتأمل.

والجواب: أن من المجاز ما يسبقُ منه إلى الفهم بحسبِ كثرة الاستعمالِ معنى المنقول إليه لا المنقول منه، فإذا قلت: «جعلَ الليلُ ساكنًا» لم يتبادرُ منه سكونُ الرِّيحِ، بل يفهمُ منه هدوؤه، وعلى تقديرِ جوازِ المجاز لا يتمُّ المقصود؛ لأنَّ القصدَ أن يتنقلَ الإسنادُ من الإنسانِ إليه، كما في ﴿وَأَلْتَهَكَارُ مُبْصِرًا﴾ لا من الرِّيحِ.

هذا وإنَّ كلامَ المصنّف مدخولٌ فيه من جهةٍ أخرى؛ لأنه كان ينبغي له أن يبيّنَ فائدةَ الاختلاف، لأنه لو قيل: «ساكنًا» لم تتبيّنَ الحقيقة من المجاز، على أنه لو أُريدَ بـ «ساكنًا» الإسنادُ المجازي لم يلتبسَ لقرينةِ التقابلِ، وهو كثيرًا يسلكُ هذا المسلك، والفائدةُ فيه أنَّ الكلامَ واردٌ على الامتنان، والامتنانُ بجعلِ النهارِ مُبْصِرًا أدخلُ من جعلِ اللَّيْلِ لتسكنوا؛ لأنَّ رغبةَ الناسِ في ابتغاءِ الفضلِ والتهيؤِ للمعاشِ في النهارِ أكثرُ من النومِ في اللَّيْلِ، فعُدلَ في إحدى القرينتين من الظاهر، وقال: ﴿مُبْصِرًا﴾ بدَلُ «لتبصروا فيه» للمبالغة، وتركَ الأخرى على الظاهرِ لهذهِ الدقِيقَةِ، ومن ثمَّ جاءَ في موضعٍ آخر: ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلٌ لِّإِسَاءِ* وَجَعَلْنَا أَلْتَهَكَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١٠-١١]، والشُّبُهَاتُ: الموت. رُوِيَ عن أبي الهيثم^(١) أنه قال: المناسبُ أن ينسبَ السكونَ إلى اللَّيْلِ؛ لأنَّ الحركةَ إما حركةَ طَبْعٍ أو اختيار، وحركةُ الطَّبْعِ من الحرارة، وحركةُ الاختيارِ من الخطراتِ المُتتابعَةِ بسببِ الحواسِ، فخلقَ اللَّيْلُ باردًا مُظْلِمًا.

(١) لم يتبين لي من هو.

ليل ساج، وساكن لا ریح فيه - لم يتميَّز الحقيقة من المجاز. فإن قلت: فهلا قيل: لمفضل، أو: لمفضل! قلت: لأن الغرض تنكير الفضل، وأن يجعل فضلاً لا يوازيه فضل، وذلك إنما يستوي بالإضافة. فإن قلت: فلو قيل: ولكن أكثرهم، فلا يتكرر ذكر الناس؟ قلت: في هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم، وأنهم هم الذين يكفرون

وقال القاضي: ﴿جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لَتَسْكُنُوا فِيهَا﴾ أي: لتستريحوا فيه بأن خلقه بارداً مظلماً^(١)؛ ليؤدِّي إلى ضعف الحركات وهُدوء الحواس^(٢).

قوله: (وذلك إنما يستوي بالإضافة)، أي: إذا جعل «فضل» مضافاً إليه يرجع معنى التنكير إليه، أي: فضل، ولو قيل: مُتَفَضَّل لم يكن هذا المعنى.

قوله: (في هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم)، قال صاحب «الفرائد»: وُضِعَ الظاهر موضع المضمير؛ للإيدان بأنهم لا يشكرون لكونهم ناساً؛ لأن الشرَّ معجون في طينه الناس، وهو الغالب عليهم. قال الراغب في «غرة التنزيل»: فإن قيل: لم اختلفوا وأخرو هذه الآي، أعني ﴿لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بعده: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَّارِيْبٍ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وبعده: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَّارِيْبٍ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ثم بعده: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾؟ الجواب: إن من أقرَّ بخلق السماوات والأرض ثم أنكر الإعادة، فالمناسب أن يُنبه على ذلك بأن يُقال له: إنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الْأَكْبَرِ فَهوَ أَقْدَرُ عَلَى الْأَصْغَرِ، فلذلك اختصَّ بنفي العلم؛ لأنَّ العلم هو المحتاج إليه والمبعوث عليه، وإنَّ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ فَهوَ مُحْتَاجٌ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ بِأَنَّ الْقَادِرَ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ، وأما قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ فمعناه: ومن كان الله عليه فضل فهو محتاج إلى أن يؤدِّي حقه بالشكر وبما يستدعيها له ويربطها لديه^(٣).

(١) من قوله: «وقال القاضي» إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٦٢).

(٣) «درة التنزيل وغرة التأويل» للخطيب الإسكافي (١: ١١٣٢) وقد اختلف في نسبة هذا الكتاب على

غير واحد من الأقوال، وتقدم بيان ذلك.

فَضَّلَ اللهُ وَلَا يَشْكُرُونَهُ، كقولهِ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَفُورٌ﴾ [الزخرف: ١٥]، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَطَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ * كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَّيَّنَتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٦٢-٦٣﴾

﴿ذَلِكُمْ﴾ المعلوم المتميز بالأفعال الخاصة التي لا يُشاركه فيها أحدٌ هو ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخباراً مترادفة، أي: هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والرَّبوبية، وخلق كل شيء، وإنشائه، لا يمتنع عليه شيء؛ والوحدانية: لا ثاني له ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾: فكيف ومن أي وجه يُصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان. ثم ذَكَرَ أَنَّ كُلَّ مَنْ جَحَدَ بآياتِ اللهِ، ولم يتأملها، ولم يكن فيه همّة طلب الحق وخشية العاقبة: أُنْفِكَ كما أُنْفِكُوا. وقُرئ: (خالق كل شيء) نصباً على الاختصاص، و﴿تُؤْفَكُونَ﴾ بالتاء والياء.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ * هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ - [٦٥]

هذه أيضًا دلالة أخرى على تميزه بأفعالٍ خاصة؛ وهي أنه جعل الأرض مستقرًا

قوله: (أُنْفِكَ كما أُنْفِكُوا)، قال محيي السنة: كما أُنْفِكْتُمْ عن الحق مع قيام الدليل، ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَّيَّنَتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾^(١).

قوله: (هذه أيضًا دلالة أخرى على تميزه بأفعالٍ خاصة)، يريد أن قوله تعالى: ﴿اللَّهُ

(١) «معالم التنزيل» (٧: ١٥٧).

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أي: قُبَّةً، ومنه: أبنيةُ العرب؛ لمضاربهـم؛ لأنَّ السَّماءَ في منظرِ العَيْنِ كقُبَّةِ مَضْرُوبَةٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. ﴿فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ وقرئ بكسر الصاد، والمعنى واحد. قيل: لم يخلق حيواناً أحسنَ صورةً من الإنسان. وقيل: لم يخلقهم منكوسين كالبهائم، كقوله: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. ﴿فَكَادُغُوهُ﴾: فاعبدوه

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لَتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ إِلَى آخِرِهِ قَدْ بُنِيَ فِيهِ الْخَبْرُ وَهُوَ الْمَوْصُولَةُ الْمُشْتَمَلَةُ عَلَى صَلَاتٍ هِيَ أَعْمَالٌ يَخْتَصُّ بِهَا الْبَارِي عَلَى الْأَسْمِ الْجَامِعِ لِيَتِمَّ بِهَا عَنِ الْغَيْرِ، كَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَكْرَارًا﴾، وَكَمَا أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أَمَى لِشِيرِ بِهِ إِلَى أَنَّ الْمَوْصُوفَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ مُسْتَحَقٌّ لِأَنْ يَكُونَ رَبًّا خَالِقًا لِإِلَهِ إِلَّا هُوَ، كَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وَإِنْ جِيءَ بِالضَّمِيرِ بِذَلِكَ اسْمِ الْإِشَارَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ﴾ فَإِنَّ الْمَبْتَدَأَ وَإِنْ بُنِيَ عَلَى الْمَوْصُولَةِ الْمُشْتَمَلَةِ عَلَى الصَّلَاتِ الْمُخْتَلَفَةِ، لَكِنَّ اسْتِغْلَالَهُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى التَّمْيِيزِ لَيْسَ كَاسْتِغْلَالِهَا؛ لِأَنَّهُ مِنْ تَتَمَّةِ قَوْلِهِ: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾، وَلِذَلِكَ اكْتَفِيَ بِالضَّمِيرِ دُونَ الْأَسْمِ الْجَامِعِ، وَلَمْ يُؤْتِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ أَوْ بِمَا يَقُومُ مَقَامَهُ مِنَ الضَّمِيرِ لِانْبِنَاءِ التَّوْحِيدِ عَلَيْهِ، لَكِنْ فِيهِ اعْتِنَاءٌ بِدَلِيلِ الْأَنْفُسِ لِذِكْرِهِ أَوْلاً بِجَمَلٍ ثُمَّ مُفَضَّلاً ثَانِياً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَوْلُهُ: ﴿بِنَاءً﴾ أي: قُبَّةً، عَنْ بَعْضِهِمْ: وَمِنْهُ يُقَالُ لِلنَّطْعِ: الْبِنَاءُ وَالْمَبْنَأُ؛ لِأَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ مِنْهُ أبنية. وَفِي الْحَدِيثِ: «طَرِحَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِنَاءً فِي يَوْمِ مَطِيرٍ»^(١)، أَي: نَطَعَ.

قَوْلُهُ: ﴿لَمْ يَخْلُقْ حَيَوَانًا أَحْسَنَ صُورَةً مِنَ الْإِنْسَانِ﴾، قَالَ الْقَاضِي: أَحْسَنَ صُورَكُمْ بِأَنَّ خَلْقَكُمْ مُنْتَصِبَ الْقَامَةِ، بِأَدَى الْبَشَرَةِ، مُتَنَاسِبَ الْأَعْضَاءِ وَالتَّخْطِيطَاتِ، مُنْتَهِيًا لِمُرَاوَلَةِ الصَّنَائِعِ وَاكْتِسَابِ الْكِمَالَاتِ^(٢).

قَوْلُهُ: ﴿فَكَادُغُوهُ﴾: فاعبدوه، وَإِنَّمَا فَسَّرَ الدِّعَاءَ بِالْعِبَادَةِ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ يَتَرْتَّبُ عَلَى

(١) لم أهد إليه.

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٦٢).

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ أي: الطاعة من الشرك والرياء، قائلين: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وعن ابن عباس رضي الله عنه: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَلْيَقُلْ عَلَى أَثَرِهَا: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

[﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٦٦]

فإن قلت: أما نهي رسول الله ﷺ عن عبادة الأوثان بأدلة العقل حتى جاءته البيّنات من ربه؟ قلت: بلى، ولكنّ البيّنات لما كانت مقويّة لأدلة العقل ومؤكدّة لها

الأوصاف السابقة، وهي تقتضي غاية الخضوع والتذلل وليست إلا العبادة، وعدل منها إلى الدعاء؛ لأنها محض الافتقار وفيها نهاية الانكسار، ولما كان المطلوب غاية الخضوع والإخلاص جيء بمفعول ﴿مُخْلِصِينَ﴾، وقدم الصلّة على المفعول به؛ ليؤذن بأن الإخلاص في العبادة مطلوب لذاته. والإخلاص في الإخلاص هو أن يخلص الإخلاص؛ لتكون له الطاعة لا لشيء آخر.

قوله: (من قال: لا إله إلا الله، فليقل في أثرها: الحمد لله)، وذلك أن قوله: ﴿فَاذْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ أمر بالإخلاص عُقِبَ بالتحميد ورُتّبَ على التهليل، يعني: إذا تكلمت بكلمة التوحيد فاعمل بالإخلاص، فإنه من مقتضاه، ثم احمد الله على التوفيق، كما قال: «قل آمن الله ثم استقم»^(١).

قوله: (بلى، ولكنّ البيّنات لما كانت مقويّة) إلى آخره، الانتصاف: معرفة الله ووجدانيته معلومتان بالعقل، وقد ترد الأدلة العقلية في مضمون السمعية، أما وجوب عبادة الله وتحريم عبادة الأصنام فحكم شرعي، فقوله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ﴾ أي: حرّم عليّ، وهذا إنما يتحقق بعد البعثة خلافاً للمعتزلة في الإيجاب قبل الشرع للتّحسين والتّقييح. ثم قوله: «إنها تقوي أدلة

(١) هو جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٤١٠) وابن ماجه (٣٩٧٢) من حديث سفيان بن عيينه.

وصححه ابن حبان (٥٦٩٨) وفيه تمام تخريجه.

وَمُضْمَنَةً ذَكَرَهَا - نحو قوله تعالى: ﴿تَعْبُدُونَ مَا تَشْحَتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٥-٩٦] وأشباه ذلك من التنبية على أدلة العقل - كَانَ ذِكْرُ الْبَيِّنَاتِ ذِكْرًا لِأَدْلَةِ الْعَقْلِ وَالسَّمْعِ جَمِيعًا، وإنما ذكر ما يَدُلُّ على الأمرين جميعًا؛ لَأَنَّ ذِكْرَ تَنَاصُرِ الْأَدْلَةِ، أدلة العقل وأدلة السمع أقوى في إبطال مذهبهم، وإن كانت أدلة العقل وحدها كافية.

[هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ نَسْرًا لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَبُوءُ مِنْ قَبْلِ وَلِنَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾]

﴿لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ متعلق بفعل محذوف تقديره: ثم يُبقيكم لتبلغوا. وكذلك ﴿لِتَكُونُوا﴾. وأما ﴿وَلِنَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى﴾ معناه: ويفعل ذلك لتبلغوا أجلاً مُسَمًّى، وهو وقت الموت. وقيل: يوم القيامة.

العقل «باطل؛ لأن القطعي لا يقبل القوة»^(١).

وقلت - والله أعلم -: إن مغزى الكلام على التعريض وإرخاء العنان وجريان البيان على الإلف والاستمرار على المألوف، يعني: قضية التقليد تُوجب ما أنتم عليه، ولكنني خصصتُ بأميرِ دونكم فتأملوا فيه واستعملوا عقولكم فيه، وأنتم مراجيحُ العقول، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٣-٤٤] ولما كَانَ المقصودُ قَطْعَ المألوفِ كَانَ الجوابُ العتيد: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ يَتَابِرْهِمُ﴾ [مريم: ٤٦].

قوله: (وهو وقت الموت، وقيل: يوم القيامة)، هذا هو الوجه؛ لأن الخلق ما خلقوا إلا ليعبدوا ثم يبلغوا موقف الجزاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [يونس: ٤] الآية.

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٧٧).

وَقُرَى: (شَيْوُخًا) بكسر الشين، و(شَيْخًا) على التوحيد، كقوله: ﴿طِفْلًا﴾ [الحج: ٥]، والمعنى: كل واحد منكم. واقتصر على الواحد؛ لأن الغرض بيان الجنس. ﴿مِنْ قَبْلِ﴾: من قبل الشيخوخة، أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج بسقطًا، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في ذلك من العبر والحجج.

[﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ٦٨]

﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا﴾ يكوُّنه من غير كلفة ولا مُعانة. جعل هذا نتيجة من قدرته على الإحياء والإماتة، وسائر ما ذكر من أفعاله الدالة على أن مقدورًا لا يمتنع عليه، كأنه قال: فلذلك من الاقتدار إذا قضى أمرًا كان أهون شيء وأسرعه.

قوله: (وَقُرَى «شَيْوُخًا»)، ابن كثير وابن ذكوان وأبو بكر وحمزة والكسائي^(١).

قوله: (فلذلك من الاقتدار إذا قضى أمرًا كان أهون شيء وأسرعه)، والمعنى: اعلموا وتنبهوا على أن من كان قادرًا على تلك المقدورات العظيمة كما شاء كيف شاء ومتى شاء بلا مانع ولا مدافع، كان أمره إذا قضى أمر الإعادة وجد كأهون شيء وأسرعه، وإنما قيدها بذكر الإعادة؛ لأن جميع ما ذكر من الآيات وارد عقب قوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّنٌ لَّارْتَبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وقد عطف على هذا المجموع مجموع قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ على طريق الحصول والوجود، وتفويض الترتيب بينها إلى الذهن، يعني: لما اقتضت الحكمة إيجاد الخلق للعبادة ثم ترتب الجزاء عليها وذلك عند قيام الساعة، فلا بد من حصولها، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يستكبرون عن العبادة ويُنكرون الإعادة، «أفلا يتفكرون» في تلك الدلائل الدالة على كمال القدرة ونفاذ الإرادة؛ ليعلموا أن من كان قادرًا على ذلك كان أمر الإعادة أهون شيء وأسرعه عليه، والله أعلم.

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣٣٠).

﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ يَبْخَدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾ * الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ
وَيِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ
* فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ * ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ آيَاتِنَا مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ
قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ * ذَلِكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَيِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ * ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
فَإِنَّكُمْ مُنَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [٦٩ - ٧٦]

﴿بِالْكِتَابِ﴾: بالقرآن ﴿وَيِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ من الكتب. فإن قلت: وهل قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴿إِلَّا مَثَلُ قَوْلِكَ: سَوْفَ أَصُومُ أَمْس؟ قلتُ: المعنى على «إذا»، إِلَّا أَنَّ الْأُمُورَ الْمُسْتَقْبَلَةَ لَمَّا كَانَتْ فِي إِخْبَارِ اللَّهِ تَعَالَى مُتَيَقَّنَةً مَقْطُوعًا بِهَا: عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظِ مَا كَانَ وَوُجِدَ، وَالْمَعْنَى عَلَى الْإِسْتِقْبَالِ.

قال القاضي: فإذا أراد شيئاً كان، فلا يحتاج في تكوينه إلى عُدَّةٍ وتَجَشُّمٍ كَلْفَةٍ مِنْ حَيْثُ
إِنَّهُ تَعَالَى يَقْتَضِي قُدْرَةَ ذَاتِيَّةٍ غَيْرِ مُتَوَقِّفَةٍ عَلَى الْعُدَدِ وَالْمَوَادِّ^(١).

وقلت: في هذا التنبيه تفرُّعٌ عظيمٌ للمُجَادِلِينَ فِي الْآيَاتِ الشَّاهِدَةِ عَلَى إِبْطَالِ الْبَعْثِ
وَاسْتِبْعَادِهِمْ الْإِعَادَةَ، وَلِذَلِكَ جَعَلَ هَذِهِ النَّتِيجَةَ تَخْلُصًا وَكُرًّا إِلَى إِعَادَةِ ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ
يَبْخَدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ عَلَى سَبِيلِ التَّعَجُّبِ وَالتَّعْجِيبِ، وَسَجَّلَ عَلَى جِهَاتِهِمْ وَصَرَّفَهُمْ عَنْ
الطَّرِيقِ الْحَقِّ مَعَ قِيَامِ تِلْكَ الْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ وَالْبَرَاهِينِ السَّاطِعَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾، كَمَا
قَالَ فِي تِلْكَ الْآيَةِ: ﴿ أَنَّى يُؤَفَّكُونَ ﴾ [المنافقون: ٤].

قوله: (والمعنى على «إذا»)، ويروى على «إذ»، أي: فسوف يعلمون حين الأغلال
في أعناقهم. قال أبو البقاء: «إذ» ظرفُ زمانٍ ماضٍ، والمراد بها الاستقبالُ هاهنا؛ لقوله:
﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٦٣).

(٢) «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ١١٢٢).

وعن ابن عباس: (والسلاسل يَسْحَبُونَ) بالنصبِ وفتح الياء، على عطفِ الجملة الفعلية على الاسمية. وعنه: (والسلاسلِ يُسْحَبُونَ) بجرّ «السلاسل»، ووجهه: أنه لو قيل: إذ أعناقهم في الأغلال، مكانَ قوله: ﴿إِذِ الْأَعْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾؛ لكانَ صحيحًا

قوله: (وعن ابن عباس: «والسلاسلِ يَسْحَبُونَ»؛ بالنَّصْبِ)^(١)، قال ابن جني: وقرأها ابن مسعود، والتقدير: إذ الأغلالُ في أعناقهم وَيَسْحَبُونَ السلاسلِ، بفتح الياء واللام بعطفِ الجملةِ الفعلية على الاسمية، ونحوه قولُ الشاعر:

أقيسَ بنَ مسعودِ بنِ قيسِ بنِ خالدٍ أموفٍ بأذراعِ ابنِ طيبةٍ أم تَدَمَّ

أي: أنتَ موفٍ بها أم تَدَمَّ؟ فقابلَ بالمتبدأ الخبرَ الذي من الفعلِ والمفعول الجاري مجرى الفاعل، على أن ﴿إِذِ الْأَعْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ يشبهُ في اللَّفْظِ الجملةَ الفعليةَ لتقدُّمِ الظرفِ على المتبدأ كتقدُّمِ الفعلِ على الفاعلِ مع قوَّةِ شِبْهِ الظرفِ بالفعل، على أن أبا الحسن^(٢) يرفعُ «زَيْدًا» - من قولك: في الدارِ زيدٌ - بالظرف، كما يرفعُهُ بالفعل. ومن غريبِ شِبْهِ الظرفِ بالفعلِ أنهم لم يُجيزوا في قولهم: «فيك يَرِغِب»، أن يكون «فيك» مرفوعًا بالابتداء، وفي «يرِغِب» ضمير، كقولك: زيد يضرب، لأن الفعل لا يرفعُ بالابتداء، فكذلك الظرف، ومن ذلك أيضًا قوله:

زَمَانَ عَلَيَّ غُرَابٌ غُدَافٌ فطيرُهُ السَّيْبُ عَنِّي فطَارَا

فَعَطَفَ الفعلَ على الظرف، وفي الأمثلةِ كثرة. تَمَّ كلامُ ابنِ جني^(٣).

قوله: (بجرّ «السلاسل»)، قال مكِّي: هذا على العطفِ على الأعناقِ غَلَطٌ؛ لأنه يُصَيِّرُ الأعناقَ في السلاسلِ، ولا معنى للغلُّ في السلسلة^(٤)، ومن ثمَّ قال المصنِّف: «ووجهه أنه لو قيل «إلى آخره»، تصحيحًا له.

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣٣٢).

(٢) يعني الأخفش الأوسط، سعيد بن مسعدة.

(٣) «المحتسب» (٢: ٢٤٤).

(٤) «مشكل إعراب القرآن» (٢: ٦٣٨).

مُسْتَقِيمًا، فَلَمَّا كَانَتْ عَابَرَتَيْنِ مُعْتَقِبَتَيْنِ: حُمل قوله: (وَالسَّلَاسِلِ) على العبارة الأخرى، ونظيره:

مَشَائِمٌ لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً وَلَا نَاعِبٍ

كانه قيل: بمُصلحين. وقرئ: (بالسلاسلِ يُسحبون). ﴿فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾: من سَجَرَ التنور؛ إذا مَلَأَهُ بالوقود. ومنه: السَّجِير، كأنه سُجِرَ بالحُبِّ، أي: مُلئ. ومعناه: أنهم في النارِ فهي مُحِيطَةٌ بهم، وهم مَسْجُورون بالنار مملوؤةٌ بها أجوافهم، ومنه قوله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ﴾ * أَلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿ [المزلة: ٦-٧]. اللهم اجزنا من نارك، فَإِنَّا عَائِدُونَ بجوارك. ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾: غابوا عن عُيوننا، فلا نراهم ولا ننتفعُ بهم. فَإِن قَلتْ: أَمَا ذَكَرْتِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الانباء: ٩٨]: أنهم مَقْرُونون بأهتهم، فكيف يكونون معهم وقد ضلُّوا عنهم؟ قَلتْ: يَجُوزُ أَنْ يَضِلُّوا عَنْهُمْ إِذَا وُيُخَوِّا وَقِيلَ لَهُمْ: أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يُغِيثُكُمْ وَيَشْفَعُوا لَكُمْ؟ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَهُمْ فِي سَائِرِ الْأَوْقَاتِ، وَأَنْ يَكُونُوا مَعَهُمْ فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِهِمْ؛ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمَّا لَمْ يَنْفَعُوهُمْ فَكَانَهُمْ ضَالُّونَ عَنْهُمْ. ﴿بَلْ

قَوْلُهُ: (وَمِنْهُ السَّجِير)، كَأَنَّهُ سَجَرَ بِالْحُبِّ، الْجَوْهَرِيُّ: سَجِيرُ الرَّجُلِ: خَلِيلُهُ وَصَفِيُّهُ، وَالْجَمْعُ: السُّجَرَاءُ.

قَوْلُهُ: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾: غَابُوا عَنْ عِيُونِنَا، الْجَوْهَرِيُّ: ضَلَّتْ الدَّارَ وَالْمَسْجِدَ، إِذَا لَمْ تَعْرِفْ مَوْضِعَهَا، وَكَذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ مُقِيمٍ لَا يُهْتَدَى لَهُ. وَفِي الْحَدِيثِ: «لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ»^(١)، يَرِيدُ: أَضِلُّ عَنْهُ، أَي: أَخْفَى عَلَيْهِ، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَيُّهَا ضَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] أَي: خَفَيْنَا.

قَوْلُهُ: (مِثْلَ ضَلَالِ أَهْتِهِمْ عَنْهُمْ يُضِلُّهُمْ عَنْ أَهْتِهِمْ)، هَذَا إِنَّمَا يَسْتَقِيمُ إِذَا فَسَّرَ ﴿ضَلُّوا

(١) هو جزءٌ من حديثٍ أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٠٠٤٤) والطبراني في «المعجم الكبير» (١٩): (٤٢٣) من حديثٍ بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه.

لَوْ تَكُنْ نَدَعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴿١﴾ أَي: تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا، وَمَا كُنَّا نَعْبُدُ بِعِبَادَتِهِمْ شَيْئًا، كَمَا تَقُولُ: حَسِبْتُ أَنَّ فُلَانًا شَيْءٌ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ بِشَيْءٍ؛ إِذَا خَبَرْتَهُ فَلَمْ تَرَ عِنْدَهُ خَيْرًا. ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ مِثْلُ ضَلَالِ آلِهِمْ عَنْهُمْ يُضِلُّهُمْ عَنْ آلِهِمْ، حَتَّى لَوْ طَلَبُوا الْإِلَهَةَ أَوْ طَلَبْتَهُمُ الْإِلَهَةَ لَمْ يَتَصَادَفُوا، ﴿ذَلِكَ﴾ الْإِضْلَالُ بِسَبَبِ مَا كَانَ لَكُمْ مِنَ الْفَرَحِ وَالْمَرَحِ ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وَهُوَ الشَّرْكُ وَعِبَادَةُ الْأَوْثَانِ، ﴿أَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ السَّبْعَةَ الْمَقْسُومَةَ لَكُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]، ﴿خَالِدِينَ﴾: مُقَدَّرِينَ الْخُلُودَ ﴿فَيَسَّسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عَنِ الْحَقِّ الْمُسْتَخْفِينَ بِهِ مَثْوَاكُمْ، أَوْ جَهَنَّمَ. فَإِنْ قُلْتَ: أَلَيْسَ قِيَاسُ النَّظْمِ أَنْ يُقَالَ: فَبَشَّسَ مَدْخَلُ

عَنَّا ﴿غَابُوا عَنَّا، لَا عَلَى أَنْ يَكُونُوا مَعَهُمْ فِي سَائِرِ الْأَوْقَاتِ؛ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمَّا لَمْ يَنْفَعُوهُمْ فَكَانَهُمْ ضَلُّوا عَلَى طَرِيقِ الْمَشَاكِلَةِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «حَتَّى لَوْ طَلَبُوا الْإِلَهَةَ أَوْ طَلَبْتَهُمُ الْإِلَهَةَ لَمْ يَتَصَادَفُوا»، وَإِنَّمَا رَكِبَ هَذَا الْمُتَعَسِّفُ؛ لِأَنَّ إِسْنَادَ الْإِضْلَالِ إِلَى اللَّهِ غَيْرُ جَائِزٍ عِنْدَهُ؛ وَإِلَّا فَاَلْمَعْنَى عَلَى التَّذْيِيلِ.

وَقَالَ مُجِيبِي السُّئَالِ: كَمَا أَضَلَّ هَؤُلَاءِ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (١). وَالْقَاضِي: مِثْلُ هَذَا الْإِضْلَالِ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ حَتَّى لَا يَهْتَدُوا إِلَى شَيْءٍ يَنْفَعُهُمْ فِي الْآخِرَةِ (٢). وَذَهَبَ هَذَا عَنْ صَاحِبِ «التَّقْرِيبِ» حَتَّى تَبَعَ الْمُصَنِّفُ فِيهِ.

قَوْلُهُ: (مَثْوَاكُمْ أَوْ جَهَنَّمَ)، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمَخْصُوصَ بِالذَّمِّ هَذَا أَوْ ذَاكَ؛ لِأَنَّ ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ إِذَا كَانَ مِنْ وَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمِرِ لِلْعَلِيَّةِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿أَدْخَلُوا﴾، كَانَ التَّقْدِيرُ: فَبَشَّسَ الْمَثْوَى مَثْوَاكُمْ، وَإِذَا كَانَ عَامًّا لِيَدْخُلُوا فِيهِ دَخُولًا أَوَّلِيًّا كَانَ التَّقْدِيرُ: فَبَشَّسَ الْمَثْوَى جَهَنَّمَ.

قَوْلُهُ: (أَلَيْسَ قِيَاسُ النَّظْمِ أَنْ يُقَالَ: فَبَشَّسَ مَدْخَلُ)، حِينَ صَدَّرَ الْكَلَامَ بِلَفْظِ ﴿أَدْخَلُوا﴾ نَاسَبَ أَنْ يُجَاءَ فِي الْعَجْزِ بِ«مَدْخَلُ» لِيَتَجَاوَبَا؟ وَأَجَابَ: إِنَّمَا لَمْ يُنَاسِبْهُ إِذْ اكْتَفَى بِقَوْلِهِ:

(١) «معالم التنزيل» (٧: ١٥٩).

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٦٣).

المتكبرين، كما تقول: رُزِيتَ اللهُ فَنِعَمَ المَزارِ، وَصَلُّ في المَسجِدِ الحِرامِ فَنِعَمَ المَصلِي؟ قلتُ: الدخولُ الموقَّتُ بالخلودِ في معنى الثواء.

﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمًا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِينَ نَعَدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّيْتِكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [٧٧]

﴿فَكَيْمًا تُرِيدُكَ﴾ أصله: فإن تُرِكَ، و«ما» مزيدة لتأكيد معنى الشرط؛ ولذلك ألحقت النون بالفعل، ألا تراك لا تقول: إن تُكْرِمَنِي أُكْرِمُكَ، ولكن: إِمَّا تُكْرِمَنِي أُكْرِمُكَ. فإن قلت: لا يخلو: إِمَّا أَنْ تَعْطِفَ ﴿أَوْ نَتَوَقَّيْتِكَ﴾ على ﴿تُرِيدُكَ﴾ وتُشْرِكُهُمَا في جِزَاءٍ واحدٍ؛ وهو قوله: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فقولك: فإِمَّا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِينَ نَعَدُهُمْ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ: غيرُ صحيح، وإن جَعَلْتَ ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ مختصًّا بالمعطوف الذي هو ﴿نَتَوَقَّيْتِكَ﴾، بقي المعطوف عليه بغير جِزَاءٍ. قلتُ: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿نَتَوَقَّيْتِكَ﴾، وجزاءُ ﴿تُرِيدُكَ﴾ محذوف،

﴿أَدْخُلُوا﴾ ولم يُقَيَّدَ بالخلود، ولَمَّا قَيَّدَ بِهِ كَانَ مَعْنَاهُ مَعَ التَّقْيِيدِ مَعْنَى ﴿مَثْوَى﴾ فَصَحَّ التَّجَاوُبُ.

قوله: (و«ما» مزيدة لتأكيد معنى الشرط، ولذلك ألحقت النون)، الانتصاف: أي: المصحح لدخول نون التوكيد دخول «ما» على الشرط، ولولاه لم يجز؛ لأنَّ النون المؤكدة مخصوصة بغير الواجب، والشرط من قسم الواجب؛ إلا أنه إذا أُكِّدَ قَوِيًّا بها، فسأغ دخول النون.

قوله: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ ﴿نَتَوَقَّيْتِكَ﴾، وجزاءُ ﴿تُرِيدُكَ﴾ محذوف، الانتصاف: أما حذفُ الأولِ دونَ الثاني؛ لأنَّ الأولَ إذا وَقَعَ فَهُوَ غَايَةُ الأَمَلِ في إنكائهم، وإن لم يَقَعْ دَفَعُ الثاني وهو الذي يحتاجُ إليه في التَّسْلِيَةِ^(١).

وقال القاضي: ويجوز أن يكونَ ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ جوابًا لهما، بمعنى: إن نَعَدَّيْهِمْ في حياتِكَ أو لم نَعَدَّيْهِمْ فَإِنَّا نَعَدَّيْهِمْ في الآخرةِ أشدَّ العذابِ، ويدلُّ على شدَّتهِ الاقتصارُ بِذِكْرِ

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٧٩).

الرجوع في هذا المَعْرُض^(١).

وقلت: تفسيرُ المصنّف آذَنَ بأنَّ العذابَ الواقعَ في الدنيا مُهْتَمٌّ بِشأنِهِ معقودٌ بِهِ الهَمَّةُ؛ لأنَّ المعنى: فذاك مُنَاكَ ومطلوبك، وأما الأخرى فلا بُدَّ من كينونته.

وتفسيرُ القاضي دَلَّ على أنَّ الاهتمامَ ببيانِ الأخرى والديوي إنَّ وَقَعَ أو لم يَقَعْ سواء، والمصنّف فسّر ما في «الرَّعْد»^(٢) بما يُوافقُ تفسيرَ القاضي، حيثُ قال: ﴿وَأَمَّا نُزِيَّتَكَ﴾ وكيفما دارتِ الحالُ أَرَيْنَاكَ مَصَارِعَهُمْ وما أوعَدناهم من إنزالِ العذابِ عليهم، أو تَوْفِينَاكَ قَبْلَ ذلكَ فما يجبُ عليكِ إلا تَبْلِيغُ الرِّسَالَةِ فحسبُ وعلينا لا عليكِ حسابُهُمْ وجزاؤُهُمْ، حيثُ جَعَلَ «أَرَيْنَاكَ» و«تَوْفِينَاكَ» بيانًا لأحوالِ الدائرة، وأوقعَ قَوْلُهُ: «فما يجبُ عليكِ إلا تَبْلِيغُ الرِّسَالَةِ فحسبُ» المُعَبَّرُ عن قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَأَنبَأْنَا عَلَيْكَ الْبَلْعُ﴾ [الرعد: ٤٠] جزءًا للشرط.

فإنَّ قُلْتَ: ما الفرقُ؟ قلت: بينَ المقامينِ بؤنَّ بعيد؛ لأنَّ الجزءَ في «الرَّعْد» مختصٌّ بالنَّبِيِّ ﷺ ودالٌّ على الرَّدْعِ عن تَوْفَعِ الحِسابِ والعقابِ، وأنَّ عليه تَبْلِيغُ الرِّسَالَةِ فحسبُ، والجزءُ هاهنا مختصٌّ بالكفار، ولذلك ما جَوَّزَ أن يكونَ جوابًا لقوله: ﴿نُزِيَّتَكَ﴾ ولا لَهُ ولقوله: ﴿تَوْفِينَاكَ﴾ معًا؛ لأنَّ هذا المقامَ مقامُ التَّسْلِيَةِ والتَّصْبِيرِ على أذى القومِ، والتَّشْفِيِ عنهم مطلوب، ولا سيما قد فازوا بمباغيهِمْ يومَ بدر، وقضيةُ النَّظْمِ يُسَاعِدُ هذا التقرير، وذلكَ أنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ مُتَّصِلٌ بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تهديدٌ ووعيدٌ لهم على مُجَادَلَتِهِمْ وتكذيبِهِمْ، و﴿إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ ظرفٌ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أي: لِمَ تَتَعَجَّبُ من حالِ هؤلاءِ المُعاندينِ ومُجَادَلَتِهِمْ وكفرِهِمْ مع ما يُفَعَّلُ بِهِم من النَّكَالِ إليه؟ فسوفَ يَعْلَمُونَ هُمُ سوءَ عاقبةِ

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٦٤).

(٢) انظر: (٨: ٥٣٤).

تقديره: فإما نُرِيَنَّكَ بعضَ الذي نَعُدُّهم من العذاب؛ وهو القتل [و الأسر] يومَ بَدْر، فذاك، أو أن نتوفيتك قبل يوم بَدْر فإلينا يُرجعون يوم القيامة فننتقم منهم أشدَّ الانتقام، ونحوه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿ [الزخرف: ٤١-٤٢].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [٧٨]

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ قيل: بعث الله ثمانية آلاف نبي: أربعة آلاف من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من سائر الناس. وعن علي رضي الله عنه: أن الله بعث نبيًا أسود، فهو ممن لم يقصص عليه. وهذا في اقتراحهم الآيات على رسول الله ﷺ عنادًا، يعني: إنا قد أرسلنا كثيرًا من الرسل وما كان لواحد منهم أن يأتي بآية إلا بإذن الله،

عنادهم وكفرهم إذ الأغلال في أعناقهم^(١)، فاصبر على أذاهم، فإن الله وعد المؤمنين أن يشفي صدورهم بالانتقام منهم في الدنيا، فإما نُرِيَنَّكَ بعضَ ذلك فذاك مُنَاك، أو نتوفيتك فإلينا يرجعون، فيصلون إلى ما أوعدناهم وأعدنا لهم من الخزي والنكال وجرّ السلاسل والأغلال والسحب إلى جهنم والسَّجْرِ في النار، فبئس المآل.

قوله: قيل (بعث الله ثمانية آلاف نبي)، والصحيح ما روينا عن الإمام أحمد بن حنبل، عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، كم وفي عدة الأنبياء؟ قال: «مئة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلَاثُ مِئَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ، جَمًّا غَفِيرًا»^(٢).

(١) من قوله: «ظرف ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أي إلى هنا، سقط من (ح).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢١٥٤٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢١٧: ٨)، وصححه ابن

حبان (٣٦١)، وفيه تمام تخريجه.

فَمَنْ لِي بِأَنْ آتَىٰ بِآيَةٍ مَّا تَقْتَرِحُونَهُ إِلَّا إِنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَيَأْذَنُ فِي الْإِتْيَانِ بِهَا. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وعيدٌ وردُّ عَقِيبِ اقْتِرَاحِ الْآيَاتِ. وأمرُ اللَّهِ: الْقِيَامَةُ. ﴿الْمَبْطُلُونَ﴾: هم الْمُعَانِدُونَ الَّذِينَ اقْتَرَحُوا الْآيَاتِ، وَقَدْ أَتَتْهُمُ الْآيَاتُ فَأَنْكَرُوهَا وَسَمَّوْهَا سِحْرًا.

[﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ [٧٩-٨١]

الأنعام: الإبل خاصة. فإن قلت: لم قال: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾،

قوله: (فَمَنْ لِي بِأَنْ آتَىٰ بِآيَةٍ)، أي: فَمَنْ يَضْمَنُ لِي الْخِلَاصَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِأَنْ آتَىٰ بِآيَةٍ مُقْتَرَحَةٍ؟

قوله: (لَمْ قَالَ: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾)، وجه السؤال: أنه تعالى ذَكَرَ أُمُورًا وَلَمْ يَجْعَلْهَا عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، إِمَّا بِأَنْ تُسَلَّبَ لَأَمْ الْغَرَضِ مِنْهَا جَمِيعًا، وَإِمَّا أَنْ تُدْخَلَ فِيهَا جَمِيعًا، وَخِلَاصَةُ الْجَوَابِ: أَنَّ الْغَالِبَ فِي الْأَكْلِ وَسَائِرِ الْمَنَافِعِ اسْتِيفَاءُ مَجْرَدِ الشَّهْوَةِ، وَلَا يُنَاطُ بِهِ أَمْرٌ دِينِيٌّ إِلَّا فِي النَّدْرَةِ، فَالِنَّاسُ وَبِالْبَهَائِمِ فِيهَا سَوَاءٌ، وَأَنَّ الْغَالِبَ فِي الرُّكُوبِ وَبَلُوغِ الْحَاجَةِ عَلَيْهَا قِضَاءُ حَقِّ الْعِبَادَةِ، فَلَا يَكُونُ الْإِهْتِمَامُ فِيهَا سِوَاءَ فَرَقٍ بِاللَّامِ. وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْحَيْثَلُ وَالْإِغَالُ وَالْحَمِيرُ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةٌ﴾ [النحل: ٨].

قال صاحبُ «الفرائد»: كَيْفَ يَكُونُ الْأَكْلُ وَإِصَابَةُ الْمَنَافِعِ بَدُونِ تَعَلُّقِ إِرَادَتِهِ؟ هَذَا خَارِجٌ عَنِ حُدِّ الْإِسْتِقَامَةِ، وَالْوَجْهُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّمَا قَالَ: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كَاللَّبَنِ وَالْوَبِيرِ، وَلَمْ يَقُلْ: لِتَأْكُلُوا مِنْهَا وَلِتَصِلُوا إِلَى الْمَنَافِعِ؛ لِأَنَّهُمْ فِي الْحَالِ آكِلُونَ وَأَخِذُونَ الْمَنَافِعِ، وَأَمَّا الرُّكُوبُ وَبَلُوغُ الْحَاجَةِ فَأَمْرَانِ مُنْتَظَرَانِ، فَجِيءَ بِهَا بِدَلٍّ عَلَى الْإِسْتِقْبَالِ.

وقال صاحبُ «الانتصاف»: بَنَى الرَّغْبَةَ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ رَاجِعٌ إِلَى الْإِرَادَةِ، وَالْحَقُّ أَنَّهُ لَرَبَطَ بَيْنَ الْأَمْرِ وَالْإِرَادَةِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمُهْمَّ فِي الْأَنْعَامِ الرُّكُوبُ وَبَلُوغُ الْحَوَائِجِ فِي السَّفَرِ

والتَّغْلَةُ فُقِّرْنَا بِاللَّامِ، وَأَمَّا الْأَكْلُ وَبَقِيَّةُ الْمَنَافِعِ كَالْأَصَوَافِ وَالْأَلْبَانِ فِيهَا تَابِعَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الرُّكُوبِ وَالْحَمْلِ، فَلِذَلِكَ جُرِّدَتْ عَنِ اللَّامِ^(١).

وقال القاضي: وتغيَّرَ النَّظْمُ فِي الْأَكْلِ؛ لِأَنَّهُ فِي حَيِّزِ الضَّرُورَةِ^(٢). وَقَالَ صَاحِبُ «التَّقْرِيبِ»: فِيمَا ذَكَرَ الْمُصَنَّفُ نَظْرًا؛ إِذْ قَدْ يَكُونُ الْأَوْلَانِ لِمُبَاحِ وَالْبَاقِيَانِ لِأَمْرِ دِينِي.

وقلت: نظيرُ الآيةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي «النَّحْلِ»: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حَيْثُ تَرْيَحُونَ وَحَيْثُ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْحَيْثَلُ وَالْإِبْغَالُ وَالْحَمِيرَ لِيَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥-٨]، قَالَ الْمُصَنَّفُ هُنَاكَ: إِنَّمَا قَدِمَ الظَّرْفُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ لِأَنَّ الْأَكْلَ مِنْهَا هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي يَعْتَمِدُهُ النَّاسُ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ فِي ﴿لِيَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾؛ لِأَنَّ الرُّكُوبَ فِعْلُ الْمُخَاطَبِينَ، وَأَمَّا الزِينَةُ فِعْلُ الزَّائِنِ. انْتَهَى كَلَامُهُ^(٣).

وَلَا ارْتِيَابَ أَنَّ أَصْلَ الْكَلَامِ هَاهُنَا: جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِيَرْكَبُوهَا مِنْهَا وَتَأْكُلُوا مِنْهَا وَتَتَنَفَّعُوا بِأَصَوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَالْبَانِهَا وَنَسْلِهَا. وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ مِنَ الْجَوَامِعِ احْتِمَلِ مَا قَالَ الْمُصَنَّفُ. وَفِي بَلُوغِ الْحَاجَةِ: الْهَجْرَةُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ لِإِقَامَةِ دِينٍ أَوْ طَلَبِ عِلْمٍ، وَمَا ذَكَرَهُ مُحَمَّدِي السُّنَنِ وَرَوَاهُ الْوَاحِدِيُّ عَنِ مُجَاهِدٍ وَمُقَاتِلٍ: تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَاتِكُمْ فِي الْبِلَادِ^(٤). وَمَا يُعْطِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حَيْثُ تَرْيَحُونَ وَحَيْثُ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦] مِنْ مَعْنَى التَّجَمُّلِ، قَالَ فِي تَفْسِيرِهِ: مَنْ اللَّهُ بِالتَّجَمُّلِ بِهَا مِنْ أَغْرَاضِ أَصْحَابِ الْمَوَاشِيِّ بَلْ هُوَ مِنْ مَعَاطِمِهَا، إِلَى قَوْلِهِ: وَيَسْلُبُهُمُ الْجَاهُ وَالْحُرْمَةُ عِنْدَ النَّاسِ.

وَأَمَّا مَعْنَى التَّكْرِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ عَلَى رَأْيِ مُجَاهِدٍ: فَلِإِنَّا طَبَعْنَا

معنيين:

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٨١).

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٦٤).

(٣) انظر: (٩: ٨٦).

(٤) «معالم التنزيل» (٧: ١٦٠)، و«الوسيط» للواحد (٤: ٢٢).

﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا﴾، ولم يقل: لتأكلوا منها، ولتصلوا إلى منافع؟ أو هلا قال: منها تركبون، ومنها تأكلون وتبلغون عليها حاجة في صدوركم! قلت: في الركوب الركوب في الحج والغزو، وفي بلوغ الحاجة الهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو طلب علم، وهذه أغراض دينية إما واجبة أو مندوب إليها مما يتعلق به إرادة الحكيم. وأما الأكل وإصابة المنافع فمن جنس المباح الذي لا يتعلق به إرادته، ومعنى قوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى

أحدهما: تشبيه الجمال بالسفن، قال في سورة «المؤمنين»: وَقَرَّهَا بِالْفُلْكِ الَّتِي هِيَ السَّفَائِنُ؛ لأنها سفائن البر^(١).

وثانيهما: إدخال منة أخرى في هذه المنن على سبيل الاستطراد، وإنما حُوِّلَ بين العبارات للفتن واختلاف أغراض الناس، فإنَّ الناس في الحضر لا يهتمون بشأن الركوب اهتمامهم في السفر، فأجرى الركوب على الظاهر، وغير في قوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢] وإنما غير النظم في الأكل؛ لأنه في حيز الضرورة - كما قال القاضي^(٢) - أو لرعاية الفواصل وهو الوجه؛ إذ لو جيء على ظاهره لاختلت، وكذلك جرى في الفاصلة الآتية.

وأما قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ فكان تابع للأكل، فأجرى مجراه، كما قال صاحب «الانتصاف»^(٣)، ولما اشتمل ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ على تلك الفوائد المتكاثرة جعله مستقلاً في الغرض بإعادة اللام ونكر الحاجة وقَرَّنها بقوله: ﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾، تأكيداً كما في قوله تعالى: ﴿الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وقوله: ﴿فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦] وفي تخصيصه الأنعام هاهنا بالإبل وتفسيره قوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥] في «النحل» بأن تقديم الظرف للاختصاص، وأن الأكل منها هو الأصل إلى آخره، وليس له العذر إلا مراعاة الفواصل. والله أعلم بمراوده من كلامه.

(١) انظر: (١٠: ٥٦٩).

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٦٤).

(٣) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٨١).

أَفَلَا تَكْفُرُونَ ﴿٤٠﴾: وعلى الأنعام وحدها لا تُحمَلون، ولكن عليها وعلى الفلك في البرِّ والبحر. فإن قلت: هلا قيل: وفي الفلك، كما قال: ﴿قُلْنَا أَجْمَلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحَيْنِ أَتَيْنِ﴾؟ [هود: ٤٠]! قلت: معنى الإيعاء ومعنى الاستعلاء كلاهما مُستقيم؛ لأنَّ الفلكِ وعاءٌ لمن يكون فيها حَمولَةً له يَسْتَعْلِيها، فلَمَّا صَحَّ المَعْنِيَانِ صَحَّتِ العِبَارَتَانِ. وأيضاً فليُطابَق قولُه: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ ويزاوِجُه. ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ﴾ جاءت على اللُغَةِ المُسْتَفِيضَةِ، وقولُك: فَأَيَّةَ آيَاتِ اللَّهِ: قليل؛ لأنَّ التفرقة بين المذكَرِ والمؤنثِ في الأسماء غير الصِّفَات، نحو «حمارٍ» و«حمارة»: غريبٌ، وهي في «أي» أغربٌ؛ لإبهامه.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [٨٢-٨٣]

﴿وَأَثَارًا﴾: قُصُورَهُمْ وَمَصَانِعَهُمْ. وقيل: مَشِيهِمْ بِأَرْجُلِهِمْ لِعِظَمِ أَجْرَامِهِمْ. ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ «ما» نافية أو مُضْمَنَةٌ معنى الاستفهام، ومحلُّها النَّصْبُ، والثانية: موصولة، أو مُصَدَّرِيَّة، ومحلُّها الرَّفْعُ، يعني: أيَّ شيءٍ أَغْنَى عَنْهُمْ مَكْسُوبُهُمْ، أو كَسْبُهُمْ. ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ فيه وجوهٌ؛ منها: أنه أراد العِلْمَ الوارد على طريق التَهَكُّمِ في قولُه: ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦]، وَعِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ: أنهم كانوا يقولون: لا تُبْعَثُ ولا نُعَذَّبُ، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠]، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾

قوله: (لأنَّ التفرقة بين المذكَرِ والمؤنثِ في الأسماء غير الصِّفَاتِ نحو «حمارٍ» و«حمارة» غريبٌ)، ليس بمُطلق، بل إذا لم يَرِدِ التَّمْيِيزُ بأمرٍ خارجيٍّ لثلاثِ مُخَالَفِ قولُه: ﴿قَالَتْ نَمَلَةٌ﴾ [النمل: ١٨]، واستشهادُ أبي حنيفةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في أنها أنثى بدليل ﴿قَالَتْ﴾ ولهذا قال: «وهي في «أي» أغربٌ لأنَّ التَّمْيِيزَ فيها غير مطلوبٍ أصلاً». يُؤَيِّدُهُ قَوْلُ صاحبِ «التقريب»: وفي «أي» أغربٌ لِمَطْلُوبِيَّةِ الإبهامِ فيه ومُنَافَاةِ التَّمْيِيزِ.

وَلَيْنَ رُودَتْ إِلَى رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿ [الكهف: ٣٦]، وكانوا يفرحون بذلك، ويدفعون به البيِّنَاتِ وَعِلْمَ الْأَنْبِيَاءِ، كما قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلُّ حَرْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]. ومنها: أن يريدَ عِلْمَ الْفَلَّاسِفَةِ وَالذَّهْرِيِّينَ مِنْ بَنِي يُونَانَ، وكانوا إِذَا سَمِعُوا بِوَحْيِ اللَّهِ دَفَعُوهُ، وَصَغَّرُوا عِلْمَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى عِلْمِهِمْ. وَعَنْ سُقْرَاطَ: أَنَّهُ سَمِعَ بِمُوسَى صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَقِيلَ لَهُ: لَوْ هَاجَرْتَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: نَحْنُ قَوْمٌ مُهْتَدِبُونَ، فَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى مَنْ يَهْدِينَا. وَمِنْهَا: أَنْ يَوْضَعُ قَوْلُهُ: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ - وَلَا عِلْمَ عِنْدَهُمُ الْبَتَّةَ - مَوْضِعَ قَوْلِهِ: لَمْ يَفْرَحُوا بِمَا جَاءَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ، مِبَالِغَةً فِي نَفْيِ فَرِحِهِمْ بِالْوَحْيِ الْمَوْجِبِ لِأَقْصَى الْفَرَحِ وَالْمَسْرَّةِ، مَعَ تَهَكُّمِ بَفَرْطِ جَهْلِهِمْ وَخُلُوقِهِمْ مِنَ الْعِلْمِ. وَمِنْهَا: أَنْ يُرَادَ: فَرِحُوا بِمَا عِنْدَ الرَّسْلِ مِنَ الْعِلْمِ فَرِحَ ضَحْكُ مَنْهُ وَاسْتَهْزَاءُ بِهِ، كَأَنَّهُ قَالَ: اسْتَهْزَؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَبِمَا جَاؤُوا بِهِ مِنْ عِلْمِ الْوَحْيِ فَرِحِينَ مَرِحِينَ. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ﴾. وَمِنْهَا: أَنْ يُجْعَلَ الْفَرِحُ لِلرَّسْلِ، وَمَعْنَاهُ:

قوله: (يُونَانُ)، فِي نُسْخَةٍ صَحِيحَةٍ: صَحَّ بِفَتْحِ الْيَاءِ.

قوله: (أَنْ يَوْضَعُ قَوْلُهُ: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾)، يَعْنِي: حَقُّ الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ: فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ لَمْ يَفْرَحُوا بِهَا لِجَهْلِهِمْ، فَوُضِعَ مَوْضِعُهُ ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ تَعْرِيفًا، كَمَا تَقُولُ لِمَنْ لَا يَدْرِي وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ لَا يَدْرِي: قَدْ جَاءَكَ فَلَانُ الْعَلَامَةِ، فَرِحْتَ بِمَا عِنْدَكَ مِنَ الْعِلْمِ، أَي: لَمْ تَنْتَهِزْ تِلْكَ الْفُرْصَةَ وَاغْتَرَزْتَ بِجَهْلِكَ الْمُرَكَّبِ.

قوله: (ويدلُّ عليه قوله: ﴿وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ﴾)، أَي: يَدُلُّ عَلَى أَنْ ﴿فَرِحُوا﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ مُضَمَّنٌ مَعْنَى الْاسْتَهْزَاءِ عَلَى سَبِيلِ الْكِنَايَةِ؛ لِاقْتِضَاءِ الْمَقَامِ، وَأَنَّ الْمَعْنَى: اسْتَهْزَؤُوا بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُلُ مِنَ الْوَحْيِ فَرِحِينَ، مِنْ رَدِّ الْعَجْزِ عَلَى الصَّدْرِ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ اسْتَهْزَؤُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ، فَوُضِعَ ﴿فَرِحُوا﴾ مَوْضِعَ «اسْتَهْزَؤُوا» كِنَايَةً؛ لِأَنَّ الْمُسْتَهْزِئَ فَرِحَ مَرِحًا، وَدَلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ﴾.

أَنَّ الرِّسْلَ لَمَّا رَأَوْا جَهْلَهُمُ الْمُتَمَادِي، وَاسْتَهْزَأَهُم بِالْحَقِّ، وَعَلِمُوا سُوءَ عَاقِبَتِهِمْ، وَمَ يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ عَلَى جَهْلِهِمْ وَاسْتَهْزَائِهِمْ؛ فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا مِنَ الْعِلْمِ، وَشَكَرُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، وَحَاقَّ بِالْكَافِرِينَ جَزَاءُ جَهْلِهِمْ وَاسْتَهْزَائِهِمْ. وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِمَا فَرِحُوا بِهِ مِنَ الْعِلْمِ: عِلْمُهُمْ بِأُمُورِ الدُّنْيَا وَمَعْرِفَتُهُمْ بِتَدْبِيرِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، ﴿ذٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠]، فَلَمَّا جَاءَهُمُ الرَّسْلُ بِعُلُومِ الدِّيَانَاتِ، وَهِيَ أَعْدَى شَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِمْ؛ لَبَغَتْهَا عَلَى رَفْضِ الدُّنْيَا وَالظَّلْفِ عَنِ الْمَلَادِّ وَالشَّهَوَاتِ؛ لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهَا، وَصَغَّرُوهَا، وَاسْتَهْزَؤُوا بِهَا، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ لَا عِلْمَ أَنْفَعُ وَأَجْلَبُ لِلْفَوَائِدِ مِنْ عِلْمِهِمْ؛ فَفَرِحُوا بِهِ.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمَّا يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَنَّتْ اللَّهُ أَلْتِي قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ﴾
[٨٤-٨٥]

البأسُ: شِدَّةُ الْعَذَابِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ [الأعراف: ١٦٥]. فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ﴾ وَبَيْنَهُ لَوْ قِيلَ: فَلَمْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ مِنْ «كَانَ» فِي نَحْوِ قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥]، وَالْمَعْنَى:

قَوْلُهُ: (وَالظَّلْفُ عَنِ الْمَلَادِّ)، الْجَوْهَرِيُّ: ظَلَفَ نَفْسَهُ عَنِ الشَّيْءِ يَظْلِفُهَا، أَي: مَنَعَهَا مِنْ أَنْ تَفْعَلَهُ أَوْ تَأْتِيَهُ.

قَوْلُهُ: (هُوَ مِنْ «كَانَ» فِي نَحْوِ قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥])، الْإِنْتِصَافُ: فَائِدَةُ دُخُولِ «كَانَ» الْمُبَالَغَةَ فِي نَفْيِ الْفِعْلِ الدَّاخِلَةِ هِيَ عَلَيْهِ بِتَعْدِيدِ جِهَةِ نَفْيِهِ عُمُومًا بِاعْتِبَارِ الْكَوْنِ، وَخُصُوصًا بِاعْتِبَارِ النَّفْعِ مَثَلًا، فَهُوَ نَفْيٌ مَرَّتَيْنِ (١).

وَقُلْتُ: تَفْسِيرُهُ لَا يَصِحُّ وَلَا يَسْتَقِيمُ، وَارِدٌ مِنْ جِهَةِ تَسْلِيْطِ النَّفْيِ عَلَى الْكَوْنِ الْمُتَضَمِّنِ

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٨٣).

فلم يصحَّ ولم يستقيم أن ينفعهم إيمانهم. فإن قلت: كيف ترادفت هذه الفاءات؟ قلت: أما قوله: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾: فهو نتيجة قوله: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾، وأما قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ تَهُم رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾: فجار مجرى البيان والتفسير لقوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾، كقولك: رزق زيد المال فمَنَعَ المعروف فلم يُحسِن إلى الفقراء. وقوله: ﴿لَمَّا رَأَوْا﴾

للفعل المنفي، كأنه قيل: هذا الفعل من الشؤون التي عدّمها راجح على الوجود، وإنها من قبيل المحال.

قوله: (أما قوله: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ فهو نتيجة قوله: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾، لكن على القلب، يعني: اجتمعوا وتحشدوا مع قوّة أجسادهم وحصلوا ما زاد في قوتهم من المال والمنال وما يلجؤون إليه من الحصون والمصانع لتغنيهم إذا حزبهم أمر الإغناء التام، فانقلب التدبير عليهم وما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، وما أحسن ما قال:

باتوا على قُللِ الأَجْبَالِ تَحْرُسُهُمْ	غلبُ الرِّجَالِ فَلَمْ تَنْفَعُهُمُ الْقُللُ
واستنزّلوا مِن أَعَالِي عَن مَعَالِيهِمْ	فَأَسْكِنُوا حُفْرًا يَا بَنِي مَا نَزَلُوا
ناداهم صَارِخٌ مِّن بَعْدِ مَا دُفِنُوا:	أَيْنَ الأَسِرَّةُ وَالتَّيْجَانُ وَالحُللُ؟
أين الوجوه التي كانت مُنعمّة	مِن دُونِهَا تُضْرَبُ الأَسْتارُ وَالكِللُ؟
فأفصحَ القَبْرُ عَنْهُمْ حينَ ساءَ لَهُم	تلك الوجوه عليها الدُّودُ يَقْتَتِلُ
قد طالَ ما أَكَلُوا يَوْمًا وما شَرِبُوا	فأصَبَحُوا بَعْدَ ذاكَ الأَكْلِ قد أَكَلُوا

قوله: (فجار مجرى التفسير والبيان^(١)) لقوله: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾، نحوه قوله تعالى: ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] إذ لا بدّ لنفي الاغناء من سبق معالجة منهم وتصور دفعهم من يئزّ عنهم بمكسوبيهم، يعني: جمعوا وفعلوا كيئت وكيئت، فلما جاءتهم الرُّسلُ بعلوم الديانات لبغيتهم على رفض ما جمعوا، والظلف عن ملاذ الدنيا والشهوات لم يلتفتوا إليها وصغروها واعتقدوا أنه لا علم أنفع للفوائد من عليهم، وما قصرُوا في الدَّفْعِ،

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «البيان والتفسير»، والأمر فيه سهل.

بَأْسَنَا ﴿ تَابِعْ لِقَوْلِهِ: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ تَهُمَّ ﴾، كَأَنَّهُ قَالَ: فَكَفَرُوا، فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسْنَا آمَنُوا،
 وَكَذَلِكَ: ﴿ فَالْتَرِيكَ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ ﴾ تَابِعْ لِإِيْمَانِهِمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسَّ اللّهِ. ﴿ سُنَّتَ اللّهِ ﴾
 بِمَنْزِلَةٍ ﴿ وَعَدَّ اللّهُ ﴾ [النساء: ١٢٢] وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْمَصَادِرِ الْمُؤَكَّدَةِ. ﴿ هُنَالِكَ ﴾ مَكَانٌ
 مُّسْتَعَارٌ لِلزَّمَانِ، أَي: وَخَسِرُوا وَقَتَ رُؤْيَةِ البَأْسِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ
 الْمُبْطِلُونَ ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ ﴾ أَي: وَخَسِرُوا وَقَتَ مَجِيءِ
 أَمْرِ اللّهِ، أَوْ: وَقَتَ الْقَضَاءِ بِالْحَقِّ.

عن رسولِ الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورةَ المؤمنِ لم يَبْقَ رُوحُ نبيٍّ ولا صديقٍ ولا شهيدٍ
 ولا مؤمنٍ إلّا صَلَّى عليه واستغفَرَ له».

فانقَلَبَ الأمرُ عليهم وحقَّ بهم ما كانوا به يَسْتَهْزِئُونَ، أَي: يَسْتَخِفُّونَ، وَلَا يَبْعُدُ أَنْ تُسَمَّى
 مِثْلُ هَذِهِ الْفَاءِ فاءَ تَفْسِيرِيَّةٍ.

قَوْلُهُ: (كَأَنَّهُ قَالَ: فَكَفَرُوا فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسْنَا آمَنُوا)، فَالْتَقْدِيرُ: فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
 فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ فَكَفَرُوا، أَي: اسْتَهْزَؤُوا وَصَغَّرُوا شَأْنَهَا، وَحَقَّ بِهِمْ جَزَاءُ
 اسْتَهْزَائِهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسْنَا، أَي: جَزَاءَ اسْتَهْزَائِهِمْ، آمَنُوا.

تَمَّتِ السُّورَةُ

بِحَمْدِ اللّهِ وَعَوْنِهِ وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ.

* * *

سورة السَّجْدَةِ

مكية، وهي أربع وخمسون، وقيل: ثلاث وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿حَمَّ﴾ * تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كَتَبْتُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤-١﴾]

إن جعلت ﴿حَمَّ﴾ اسماً للسورة كانت في موضع المبتدأ، و﴿تَنْزِيلٌ﴾ خبره. وإن جعلتها تعديداً للحروف كان ﴿تَنْزِيلٌ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف، و﴿كَتَبْتُ﴾ بدلٌ من ﴿تَنْزِيلٌ﴾، أو خبرٌ بعدَ خبر، أو خبرٌ مبتدأ محذوف. وجوز الزجاج أن يكون ﴿تَنْزِيلٌ﴾ مبتدأ، و﴿كَتَبْتُ﴾ خبره. ووجهه: أن تنزيلاًً تخصص بالصفة؛ فسأغ وقوعه مبتدأ. ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾: مُبَيَّنَّتْ وَجُعِلَتْ تَفَاصِيلُ فِي مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ من: أحكام، وأمثال، ومواعظ، ووعد، ووعد، وغير ذلك، وقرئ: (فُصِّلَتْ) أي: فَرَّقَتْ

سورة السَّجْدَةِ (١)

مكية، وهي أربع وخمسون آية، وقيل: ثلاث وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (وَقُرِئَ «فُصِّلَتْ») قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: كُلُّهُمْ بِضَمِّ الْفَاءِ وَكَسْرِ الصَّادِ وَالتَّشْدِيدِ (٢).

(١) وهي سورة فُصِّلَتْ.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣٣٧).

بين الحقِّ والباطل . أو فَصَّلَ بعضها من بعض باختلافِ معانيها، من قولك: فَصَّلَ من البلد، ﴿قُرْءَانَا عَرَبِيًّا﴾ نصبٌ على الاختصاصِ والمدح، أي: أريدَ بهذا الكتابِ المُفَصَّلَ

وعن بعضهم: لم يُنقل في «المنتقى» و«الموضح» بالتخفيف. وقلت: ولا في «المحتسب».

قوله: (أو فَصَّلَ بعضها من بعض) أي تباعدَ، عطفٌ على «فُرِّقَتْ» يدلُّ عليه قوله: فَصَّلَ من البلد. ومعنى هذه القراءة على هذا التقدير يرجعُ إلى المشهورة فَصَّلَتْ مُيِّرَتْ وَجُعِلَتْ تفاصيل، لكنَّ الأوَّلَ يحتاجُ إلى سبقِ مجملٍ وتقدُّمِ مبهمٍ مختلطٍ بحقِّ وباطلٍ.

قال القاضي: ولعلَّ افتتاحَ هذه السُّور السَّبع بـ﴿حَرَ﴾ وتسميتها به؛ لكونها مُصَدَّرَةٌ ببيانِ مُشاكلِهِ في النَّظْمِ والمعنى. وإضافةُ التَّنْزِيلِ إلى الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ للدَّلالَةِ على أنه مناطُ المصالحِ الدِّينِيَّةِ والدُّنْيَاوِيَّةِ^(١).

وقلت: ولذلك اشتركت في أن اقترنَ كلُّ منهما بذكرِ الكتابِ وجعلَ ﴿قُرْءَانَا عَرَبِيًّا﴾ نصباً على الاختصاصِ والمدحِ أو حالاً، وعلَّلَ بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمون ما نزلَ عليهم من الآياتِ المُفَصَّلَةِ المُبَيِّنَةِ لا يلتبسُ عليهم شيءٌ منه.

قال أبو البقاء: ﴿كِتَابٌ﴾ أي هو كتاب، ويجوزُ أن يكونَ مرفوعاً بـ﴿تَنْزِيلٌ﴾ أي: نزلَ كتاباً، ﴿قُرْءَانَا﴾ حالٌ مُوطَّئَةٌ من ﴿ءَايَاتِهِ﴾ ويجوزُ أن يكونَ حالاً من ﴿كِتَابٌ﴾ لأنه قد وصِفَ^(٢).

قوله: (فَصَّلَ من البلد) رُوِيَ عنِ المُصَنِّفِ أنه قال: أصلُه: فَصَّلَ نَفْسَهُ، فَطَرَحَتِ العَرَبُ نَفْسَهُ وَتَنَاسَتُهُ، كقولهم: نَزَعَ عن الأمرِ نَزوعاً، وأصلُه: نَزَعَ نَفْسَهُ. ولهذا قال أبو نُؤاس:

وَإِذَا نَزَعْتَ عَنِ العِوَايَةِ فليُكِنُ اللهُ ذاكَ النَّزْعُ لاللنَّاسِ

لايحاً الأصلَ المتروك^(٣).

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٦٦).

(٢) «التيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٢٣).

(٣) انظر: (٣: ٤٦٥).

قرآناً من صِفَتِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ. وقيل: هو نصبٌ على الحال، أي: فُصِّلَتْ آيَاتُهُ فِي حَالِ كونه قرآناً عربياً. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لقوم عَرَب يَعْلَمُونَ مَا نَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآيَاتِ الْمَفْصَلَةِ الْمَبِينَةِ بِلِسَانِهِمُ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ، لَا يَلْتَبِسُ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْهُ. فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ يَتَعَلَّقُ قَوْلُهُ: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؟ قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِ﴿تَنْزِيلٍ﴾ أَوْ بِ﴿فُصِّلَتْ﴾، أَيْ: تَنْزِيلٌ مِنَ اللَّهِ لِأَجْلِهِمْ، أَوْ: فُصِّلَتْ آيَاتُهُ لَهُمْ، وَالْأَجُودُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً مِثْلَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ، أَيْ: قرآناً عربياً كائناً لقوم عَرَب؛ لِثَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الصَّلَاتِ وَالصِّفَاتِ. وَقُرِئَ: (بشيراً ونذيراً) صفةٌ للكتاب، أو خبر مبتدأ محذوف. ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾: لَا يَقْبَلُونَ وَلَا يُطِيعُونَ، مِنْ قَوْلِكَ: تَشَفَّعْتُ إِلَى فُلَانٍ فَلَمْ يَسْمَعْ قَوْلِي، وَلَقَدْ سَمِعَهُ وَلَكِنَّهُ لَمَّا لَمْ يَقْبَلْهُ وَلَمْ يَعْمَلْ بِمُقْتَضَاهُ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهُ.

[﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا إِنَّا عَامِلُونَ﴾ ٥]

والأكِنَّةُ: جمعُ كِنَانٍ؛ وهو الغِطاء. الوَقْرُ، بالفتح: الثَّقُلُ. وقُرِئَ بالكسر. وهذه

قوله: (لثَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الصَّلَاتِ وَالصِّفَاتِ) يعني: إِنْ عُلِّقَ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ بِ﴿تَنْزِيلٍ﴾ تَقَعُ التَّفَرُّقَةُ بَيْنَ الْمَفْعُولِ لَهُ وَبَيْنَ مُتَعَلِّقِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿كَتَبْتُ فُصِّلْتُ آيَاتَهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وَبَيْنَ الصِّفَاتِ أَيْضًا؛ لِأَنَّ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ صِفَةٌ ﴿قُرْآنًا﴾. وَإِنْ عُلِّقَ بِ﴿فُصِّلْتُ﴾ فَالتَّفَرُّقَةُ بَيْنَ الصِّفَاتِ - وَهِيَ ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وَ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ - حَاصِلَةٌ، وَإِنَّمَا جَمَعَ الصَّلَاتِ وَهِيَ وَاحِدَةٌ لِتَوَافُقِ قَرِيْنَتَيْهَا نَحْو: إِنِّي لَأَتِيهِ بِالغَدَايَا وَالْعَشَايَا. وَعَنْ بَعْضِهِمْ: إِنَّمَا جَمَعَهَا وَهِيَ وَاحِدَةٌ وَهِيَ اللَّامُ لِتَعَدُّدِ مَا اتَّصَلَ بِهَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿تَنْزِيلٍ﴾ وَ﴿فُصِّلْتُ﴾ وَأَرَادَ بِالصَّلَاتِ الْعِلَاقَاتِ بِالْمَعَانِي.

قوله: (وقرئ: «بشيراً ونذيراً»^(١))، قَالَ الْقَاضِي: قِرَاءَةٌ نَافِعٌ^(٢).

قوله: (والوقر، بالفتح: الثقل)، الرَّاغِبُ: الْوَقْرُ بِالْفَتْحِ الثَّقُلُ فِي الْأُذُنِ، يُقَالُ: وَقَرْتَ

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣٣٨).

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٦٦). ونسبتها إلى نافع وهم، وإنما قرأها زيد بن علي كما في «البحر المحيط» لأبي حنبل.

تمثيلات لنبؤ قلوبهم عن تقبل الحق واعتقاده، كأنها في غلفٍ وأغطية تمنع من نفوذه فيها، كقوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨]؛ ومعَّ أسماهم له كأنَّ بها صمماً عنه، ولتباعِد المذهبتين والدينين كأنَّ بينهم وما هم عليه وبين رسول الله وما هو عليه حجاباً ساتراً وحاجزاً منيعاً من جبلٍ أو نحوه، فلا تلاقي ولا ترائي. ﴿فَاعْمَلْ﴾ على دينك ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ على ديننا، أو: فاعمل في إبطال أمرنا، إننا عاملون في إبطال أمرك. وقرئ: ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾. فإن قلت: هل لزيادة ﴿من﴾ في قوله: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فائدة؟ قلت: نعم؛ لأنه لو قيل: وبيننا وبينك حجابٌ: لكان المعنى: أن حجاباً حاصل وسط الجهتين، وأما بزيادة ﴿وَمِنْ﴾ فالمعنى: أن الحجاب ابتدأ منا وابتدأ منك،

أذنه تُقرُّ وتُوقر، والوِقر بالكسر- الحِمل للحِمار والبغل. وقد أقرته، ونخلة مُوقرٌ وموقرة، والوقار السكون. وفلانٌ ذو قرّة^(١).

قوله: (ومعَّ أسماهم) عطفٌ على قوله: «نبؤ قلوبهم» وأما قوله: «حاجزاً منيعاً من جبلٍ أو نحوه، فلا تلاقي ولا ترائي» فللدلالة التَّنكير في «حجاب»، ونحوه قول الشاعر:

لُه حاجبٌ في كُلِّ أمرٍ يشينه

وزيادة من قوله^(٢): «كأنَّ بينهم وما هم عليه» قيل: الوجه أن يجعل الواو بمعنى «مع» لئلا يلزم العطف على المضمَر المجرور من غير إعادة الجار، ويُحمل الواو «في» وبين رسول الله وما هو عليه على «مع» أيضاً وإن كان العطف صحيحاً؛ لئلا يُفرق الحكم بين القريبتين، ويجوز العكس لتوافق قوله هل لزيادة «من» فائدة؟ ليست هذه الزيادة مثل قولك: ما جاءني من أحد؛ لأنها في الإثبات، بل المراد أن المعنى كان يحصل بدونها كما قدره. قوله: (أنَّ الحجاب ابتدأ منا وابتدأ منك)، الانتصاف^(٣): مقتضى كلامه أن يكون

(١) «مفردات القرآن» ص ٨٨٠.

(٢) لفظة «قوله» سقطت من (ح) و(ف).

(٣) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٨٥).

«من» مقدّرة على «بين» الثانية؛ لأنه جعلها مُقَيّدةً للابتداء، فكانه قيل: ومن بيننا ومن بينك حجاب، وهو غَلَطٌ، فإن لا يَصِحُّ معها إعادةُ عامل؛ لأنه يجعل «بين» داخلةً على المفرد، ومن شأنها الدخول على مُتَعَدِّدٍ، وقد زَادَ على هذا بأن جعل الأولى الحجاب من جهتهم، والثانية من جهته، وليس كذلك، والأولى هي الثانيةُ بعينها وهي عبارة عن الجهة المتوسطة بين المضافين، وتكرارها إنّا كان لأن المعطوف عليه مُضمَّرٌ مخفوضٌ يوجبُ تكرارَ خافضه، ولا تفاوتَ بين قولك: حُلْتُ بينَ زَيْدٍ وَعَمْرٍو، وحُلْتُ بينَ زَيْدٍ وَبَيْنَ عَمْرٍو. وأمّا ذِكْرُها مع الظاهرِ فجائِزٌ ومع المضمّرِ واجبٌ، فالصحيحُ أنها هاهنا مثل ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ [يس: ٩] للإشعارِ بأنَّ الجهةَ المتوسطةَ بين النبي ﷺ وبينهم مبدأ الحجاب، ووجودُ «من» قريبٌ من عَدَمِها لقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا﴾ [الإسراء: ٤٥] بغيرِ «من».

وفي هذه الآية مبالغاتٌ بثلاثة حُجُب: أحدها: الحجابُ الخارجُ، ثم حجابُ الصّمَمِ، ثم حجابُ أكنةِ القلوب، نعوذُ بالله من ذلك.

وقلت: حاصلُ المعنى أن «بين» تقتضي مُتَعَدِّدًا، وليس بين النبي ﷺ وبينهم حجابٌ واحد، وهو مُتَعَدِّدٌ معنى ولم يفتقر إلى تقديرِ حجابٍ آخر، ثم زَيْفَ قوله: «فالمسافةُ المتوسطةُ لجهتنا وجهتك مُستوعبة» وهو عمله لقولهم بعد ذلك: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ مُرتبًا بالفاء، أي: اعمل أنت فيما يتعلّق بك وبجهتك من إثباتِ نبوتك بأيّ طريق كان، ومن الدّعوة إلى التّوحيدِ والمنع من تقليدِ الآباءِ وغير ذلك على قدرِ جهديك وطاقتك، ونعمل نحنُ بقدرِ وسعنا فيما يتعلّق بنا وبجهتنا من الدّفْعِ لرسالتك والثباتِ على الشّركِ وتقليدِ الآباءِ، فظهرَ أنّ «بين» هاهنا مُعَبَّرٌ عن المسافةِ والجهةِ بواسطةِ «من» الابتدائيةِ، والبيانُ المذكورُ في الكتابِ لازمُ المعنى، وسنبيّنُ إن شاء الله أن مغزى قولهم هو أنك تزعمُ أنّ لك دليلًا على إثباتِ نبوتك بإقامةِ المعجزة، ونحن ندّعي أنّ لنا دليلًا على نفيها عنك؛ لأنك بَشَرٌ، وأنّي يَقَعُ الاتّفاقُ بيننا وبينك؟ وإن شئتُ فدُقْ هذا مع قولِ الشّاعرِ:

فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها. فإن قلت: هلاً قيل: على قلوبنا أكنة، كما قيل: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾؛ ليكون الكلام على نمط واحد!

رَاحَتْ مُسَرَّقَةٌ وَرُحْتُ مُعْرَبًا وَأَتَى التَّقَاءَ مُسَرِّقٌ وَمُعْرَبٌ؟^(١)

ومن حُرِّمَ مُرَاعَاةَ حُسْنِ النُّظْمِ خَبَطَ خَبَطَ عَشْوَاءَ، وجعل في كلام الملك العلام فضلات. وقد استحسَنَ الإمامُ كَلامَ المُصَنِّفِ كُلِّ الاستحسان^(٢). وقال صاحب «التقريب»: وفي تقريره نظر؛ لأنَّ البينَ إذا فُسرَ بالوَسَطِ و«من» للابتداء فيكونُ الابتداءُ من الوسط لا من الطرف، فلا يُلزَمُ استيعابُ الوسط، ولعلَّه لم يُرَدِّ بالوسطِ حاقَّ الوسط بل المسافة المتوسطة بينهما، فصَحَّ ما ذكره. تمَّ كلامه.

قوله: (هلاً قيل: على قلوبنا أكنة) يعني أنَّ المطابَقةَ بينَ القرائنِ فليَمَ قَدَمَ الجارِّ في الثانيةِ وأخره في الأولى؟ وأجاب: أنَّ المطابَقةَ حاصلَةٌ من حيث المعنى؛ لأنَّ المظروفَ كما هو مُستقرٌّ في الظرف، الظرفُ أيضاً مُشتمِلٌ عليه، فإذن معنى قوله: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْنَتِهِ﴾ [فصلت: ٥] وقوله: «على قلوبنا أكنة» واحد، فجاء التَّطابق.

قال صاحب «الفرائد»: الفرقُ بينَ الصورتينِ بينَ؛ لأنَّ الأولى تفيدهُ استيعابُ الأكنةِ القلوب؛ لأنَّ الأكنةَ لا بدَّ من تجاوزِ أطرافها على المظروفِ فكأثمهم قالوا: الأكنةُ محتويةٌ على القلوبِ ساترةٌ من جميعِ جوانبها. ولا كذلك الثاني؛ لأنَّ الأكنةَ حينئذٍ ساترةٌ سطحها فلا يُلزَمُ من هذه الاحتواءِ من كُلِّ جانب.

وقلت: إنما يتفاوتُ هذا بتفاوتِ الظرف، فإنَّ الظرفَ إذا كانَ كِنًا لا بدَّ من سترِ المظروفِ من كُلِّ جانبٍ على أن «على» أبلغُ لمعنى الاستعلاءِ ومغلوبيَّةِ المظروفِ والإيدانِ بأن ليسَ للوصولِ إليه سبيل، على أنَّ للقولِ فيه مجالاً، وهو أنه لو قيل: «على قلوبنا أكنة» كما في تلك الآية: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ لم يحصلِ التَّطابقُ في معنى الاستقراءِ وجُعِلَ أحدهما ظرفاً والآخرُ مظروفاً. ولو قيل: «على آذاننا وقْرٌ» لم يكن بتلك المبالغة؛ لأنَّ المرادُ

(١) سبق تخريجه.

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٥٤١).

قلت: هو على نَمَطٍ واحد؛ لأنه لا فَرْقَ في المعنى بين قولك: قلوبنا في أكنة، و: على قلوبنا أكنة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الكهف: ٥٧]، ولو قيل: إِنَّا جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ فِي أَكِنَّةٍ: لم يَخْتَلِفِ المعنى، وترى المطابع منهم لا يُراعون الطَّباقَ والملاحظة إلا في المعاني.

[﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُمُ اللَّهُ وَجِدْ فَاسْتَقِيمُوا إِلَىٰ اللَّهِ وَاسْتَغْفِرُوا ۗ وَاللَّهُ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ٦-٧]

فإن قلت: من أين كان قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ﴾ جواباً لقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾؟ قلت: من حيث إنه قال لهم: إني لست بملك، وإنما أنا بشرٌ مثلكم،

أن الأصمخَةَ قد سُدَّتْ فلا يدخلُ فيها الهواءُ فضلاً عن الكلام. وأمّا معنى «على» في تلك الآية فلا إرادة معنى الاستعلاء والقهر من الله تعالى، والله أعلم.

قوله: (تسرى المطابع)، الأساس: وهو مطبوعٌ على الكرم، وقد طُبِعَ على الأخلاق المحمودة، وهذا كلامٌ عليه طابعُ الفصاحة، وعن بعضهم: المطابع، جمع مطبوع، وهو الذي طُبِعَ على العريّة. وقيل: هو الذي طُبِعَ على الكيوسة.

قوله: (من حيث إنه قال لهم: إني لست بملك، وإنما أنا بشرٌ مثلكم)، قال صاحب «الفرائد»: لم لزم أن يكون هذا جواباً لقولهم؟ إذ قولهم لا يقتضي أن يكون له جواب، وإنما يُشعرُ هذا بأن قيل له ﷺ: لا تركهم بما ذكروا إننا لا نسمع ما تذكر، ومرادهم ممّا قالوا أن تركهم وما يدينون وما يفعلون، سلّمنا أنه جواب، لكن المراد منه: إني بشرٌ فلا أقدرُ أن أخرج قلوبكم من الأكنة وأرفع الحجاب من البين، والوقر من الآذان، ولكن أوحى إليّ وأمرت بتبليغ ﴿أَنَّمَا إِلَهُمُ اللَّهُ وَجِدْ﴾ هذا ينظرُ إلى قول الإمام كأنه قال: إني لا أقدرُ أن أحلكم على الإيمان جبراً وقهراً، فإني بشرٌ مثلكم ولا امتيازَ بيني وبينكم^(١) إلا أني مخبرٌ

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٥٤١).

أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيَّ، فَإِنِّي أَبْلُغُ هَذَا الْوَحْيَ إِلَيْكُمْ، إِنَّ شَرَفَكُمْ اللَّهُ بِالتَّوْفِيقِ قَبْلَتْموه، وَإِنَّ خَذَلَكُمْ بِالْحِرْمَانِ رَدَدْتُمُوهُ، وَذَلِكَ لَا يَتَعَلَّقُ بِنُبُوتِي وَرِسَالَتِي.

وَفَسَّرَ صَاحِبُ «الانْتِصَافِ» كَلَامَ الْمُصَنِّفِ بِأَنَّ قَالَ: إِنَّمَا كَانَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ جَوَابًا لِمَا سَبَقَ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا أَبَوْا الْقَبُولَ مِنْهُ كُلُّ الْإِبَاءِ قَالَ: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لَا قُدْرَةَ لِي عَلَى إِظْهَارِ الْمُعْجِزَاتِ، بَلْ تَخْتَصُّ الْقُدْرَةَ عَلَيْهَا بِاللَّهِ تَعَالَى تَصْدِيقًا لِي، ثُمَّ عَقَّبَهُ بِمَا يُتِمُّ الْمَقْصُودَ وَهُوَ التَّوْحِيدَ، وَأَدْرَجَ تَحْتَ الْاسْتِقَامَةِ جَمِيعَ تَفَاصِيلِ الشَّرْعِ، وَتَمَحَّهً بِإِنذَارِهِمْ عَلَى تَرْكِ الْقَبُولِ بِالْوَيْلِ^(١). وَقَدَّرَ بَعْضُهُمْ كَأَنَّهُمْ قَالُوا: لَا نُصْغِي إِلَى قَوْلِكَ وَلَا نَرْعُوِي إِلَيْهِ، فَقَالَ ﷺ: «إِذَا صَحَّتْ نُبُوتِي وَجَبَ عَلَيْكُمْ الْارْعَاءُ وَالْإِصْغَاءُ إِلَى قَوْلِي».

وَقُلْتُ: كَيْفَمَا كَانَ فَالْجَوَابُ مِنَ الْأَسْلُوبِ الْحَكِيمِ، وَالْمُطَابَقَةُ بَيْنَ الْجَوَابِ وَالسُّؤَالِ إِنَّمَا تَظْهَرُ إِذَا نُظِرَ إِلَى الْجَانِبَيْنِ وَالْمَعْنَى وَالتَّرْكِيبِ وَمَا يَقْتَضِيهِ مِنَ الْمَعْنَى بِحَسَبِ الْمَقَامِ فَنَقُولُ: لَفْظَةُ «إِنَّمَا» مِنْ أَدْوَاتِ الْحَصْرِ، وَمَعْنَى التَّرْكِيبِ هَا هُنَا مَا أَنَا إِلَّا بَشَرٌ مَوْحَى لَهُ، وَإِنَّمَا يَسْتَقِيمُ هَذَا إِذَا قِيلَ لَهُ: أَنْتَ فِيمَا تَدَّعِيهِ مِنَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ كَمُدَّعِي مَا يَوْجِبُ الْخُرُوجَ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ وَالدُّخُولَ فِي الْمَلَكِيَّةِ؛ لِأَنَّ الرِّسَالَةَ مُنَافِيَةٌ لِلْبَشَرِيَّةِ، وَإِنَّمَا مِنْ مَنَاصِبِ الْمَلَائِكَةِ، وَكُتِبَ اللَّهُ مَمْلُوءٌ مِنْ هَذَا الرَّدِّ، وَهَذَا الْمَعْنَى إِنَّمَا يُعْطِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِمْ: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاَعْمَلْ إِنَّنَا﴾، عَلَى إِرَادَةِ إِنَّكَ فِيمَا تَدَّعِيهِ مِنَ الرِّسَالَةِ وَإِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ، وَنَحْنُ فِيمَا نَعْتَقِدُ مِنْ أَنَّ الْبَشَرِيَّةَ مُنَافِيَةٌ لِلرِّسَالَةِ فِي حَاجِزٍ مَنِيْعٍ وَحِجَابٍ سَاتِرٍ كَمَا مَرَّ.

وَتَمَامُ التَّقْرِيرِ أَنَّهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ حِينَ تَحَدَّاهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿حَدَّ * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كَتَبْنَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ كَأَنَّهُ قَالَ: إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، وَمُعْجِزَتِي هَذَا الْكِتَابُ الْفَارَقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالصَّادِقِ، وَإِنَّهُ نَازِلٌ بِلِسَانِكُمْ وَأَنْتُمْ رُعَمَاةُ الْحَوَارِ وَأَرْبَابُ الْبَيَانِ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ كَذَلِكَ لَمَّا عَجَزْتُمْ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، وَهُوَ الْمَرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: يَعْلَمُونَ مَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآيَاتِ الْمَفْصَلَةِ الْمُنْبِئَةِ بِلِسَانِهِمِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ، وَعِنْدَ ذَلِكَ أَعْرَضُوا وَعَانَدُوا

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٨٦).

وقد أوحى إليّ دونكم فصحت بالوحي إليّ وأنا بشرٌ نبوتي، وإذا صحت نبوتي وجب عليكم أتباعي، وفيما يوحى إليّ: أن إلهكم إله واحد ﴿فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾: فاستووا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادَة غيرَ ذاهبينَ يميناً ولا شمالاً، ولا ملتفتين إلى ما يسؤل لكم

وردوا الشبهة الركيكة معارضين، وإلى الإعراض الإشارة بقوله: ﴿فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهَمُّهُمُ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ٤]، وإلى الاعتراض لَمَحْ بقوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكْثَرَةٍ﴾ الآية، فكأنهم قالوا: سلمنا دعواك، لكن عندنا ما يُنافيه وهو أن الرسالة مُنحصرة في الملائكة، وما أنت إلا بشرٌ مثلنا، وما أنزل الرحمن من شيء، وليس عندك ما تدفع به هذا الدليل وإن اجتهدت كلَّ الاجتهاد.

هذا معنى قوله: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾ على أحد وجهيه، وهو: فاعمل في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك. فأجابهم بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ على سبيل القول بالموجب، يعني لا شك أني بشرٌ ولست بملك، وذلك كيف يقدح في دعواي؟ لأن الرسالة إنما تثبت بالدعوى وتصديقها بالمعجزة، وقد حصل ذلك، وهو دليل قاطع، ولا أترك القاطع وأشتغل بجواب شبهتكم إلا هذا القدر؛ لأن الذي علي الآن الدعوة إلى التوحيد وبيان سبيل الرشد والأمر بالتوبة مما سبق لكم من الشرك، والتحريض على مكارم الأخلاق من أداء الزكاة والإيمان بالآخرة إلى غير ذلك، هكذا ينبغي أن يُفسر تأويل المصنّف، وهو أقرب الأقوال السابقة؛ لأن مقتضى «إنما» وموجب ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾ لا يساعد عليه تأويلهم.

فإن قيل: هذا التأويل مبني على معنى ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾ في إبطال الأمر، فما معنى الآية على الوجه الآخر، وهو «إننا عاملون على ديننا؟ قلت: تأويله ما رواه الواحدي عن مقاتل: أن أبا جهل رَفَعُ توبه بينه وبين النبي ﷺ فقال: يا مُحَمَّد، أنت من ذلك الجانب ونحن من هذا الجانب، فاعمل أنت على دينك ومذهبك إننا عاملون على ديننا ومذهبنا^(١)، قال الله: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: كواحد منكم ولولا الوحي ما دعوتكم. والنظم مع الأول، والله أعلم.

(١) تفسير «الوسيط» للواحدى (٤: ٢٤).

الشیطان من اتَّخَذَ الْأَوْلِيَاءَ وَالشُّفَعَاءَ، وَتُوبُوا إِلَيْهِ مِمَّا سَبَقَ لَكُمْ مِنَ الشَّرِكِ ﴿وَأَسْتَغْفِرُوهُ﴾. وقرئ: (قال إنما أنا بشر). فإن قلت: لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مفروراً بالكفر بالآخرة؟ قلت: لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه، فإذا بدَّله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوح طويته، ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَكَرِهَاتٍ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥]؟ أي: يُبْتِنُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيَدُلُّونَ عَلَى ثَبَاتِهَا بِإِنْفَاقِ الْأَمْوَالِ، وَمَا تُحْدِعُ الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ إِلَّا بِالْمُظَنَّةِ مِنَ الدُّنْيَا فَفَرَّتْ عَصِيَّتُهُمْ، وَلَئِنْ شَكِمْتُهُمْ، وَأَهْلُ الرِّدَّةِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا تَظَاهَرُوا إِلَّا بِمَنْعِ الزَّكَاةِ، فَضُصِّبَتْ لَهُمْ

قوله: (وما تُحْدِعُ الْمُؤَلَّفَةَ إِلَّا بِالْمُظَنَّةِ مِنَ الدُّنْيَا)، الانتصاف: كلامُ الرَّحْمَنِيِّ حَسَنٌ بَعْدَ تَبْدِيلِ «خُدْعِ الْمُؤَلَّفَةِ» فَالتَّأْلِيفُ عَلَى الْإِيمَانِ لَيْسَ خُدَاعًا، إِنَّمَا التَّأْلِيفُ مُلَاطَفَةٌ لَا خُدَيْعَةٌ (١). وقلت: ما أحسن موقع الخداع وقرائه مع مظنة من الدنيا، ثم أردفه بقوله: «ففرَّتْ عَصِيَّتُهُمْ وَلَئِنْ شَكِمْتُهُمْ». روي عن البخاري ومسلم والترمذي، عن أنس: «أصاب رسول الله ﷺ يوم حنين غنائم، فقسم في المهاجرين والطلقاء ولم يُعْطِ الْأَنْصَارَ شَيْئًا، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: إِذَا كَانَتِ الشُّدَّةُ فَنَحْنُ نُدْعَى وَتُعْطَى الْغَنَائِمُ غَيْرَنَا، فَبَلَّغَهُ ذَلِكَ فَجَمَعَهُمْ فِي قَبَّةٍ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، مَا حَدِيثٌ بَلَّغَنِي عَنْكُمْ؟ فَسَكَتُوا، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَمَا تَرَضُّونَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا وَتَذْهَبُونَ بِمُحَمَّدٍ تَحُوزُونَهُ فِي بَيْوتِكُمْ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ رَضِينَا. فَقَالَ: «لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَأَخَذْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ» (٢).

وفي رواية: قال أنس: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ قَرِيشًا حَدِيثٌ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ، وَإِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أُجْبِرَهُمْ وَأَتَأَلَّفَهُمْ، أَمَا تَرَضُّونَ» (٣). الحديث.

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٣٣)، ومسلم (١٠٥٩)، والترمذي (٣٩٠١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٣٤)، ومسلم (١٠٥٩)، والترمذي (٣٩٠١).

الحرب، وجُوهِدوا. وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة، وتخويف شديد من منعها؛ حيث جعل المنع من أوصاف المشركين، وقُرِن بالكفر بالآخرة. وقيل: كانت قُرَيْش يُطعمون الحاج، ويحرمون من آمن منهم برسول الله ﷺ. وقيل: لا يفعلون ما يكونون به أزكيا؛ وهو الإيثار.

روينا في «صحيح البخاري»، عن عمرو بن ثعلب قال: «أعطى رسول الله ﷺ قوماً ومنع آخرين، فكأنهم عتبوا عليه، فقال: إني أعطي قوماً أخاف ظلعهم وجزعهم، وأكل قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى»^(١). ظلعهم، أي: ميلهم عن الحق وضعف إيمانهم، وأصله داءٌ في قوائم الدابة تغمز^(٢) منها.

قوله: (بلمظة) الجوهري: لمظ يلمظ بالضم لمظاً، إذا تتبعت بلسانه بقيّة طعامه، أو أخرج لسانه فمسح به شفّيته.

قوله: (لا يفعلون ما يكونون به أزكيا)، الرّاعب: أصل الزكاة: النّمؤ الحاصل من بركة الله، ويُعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية، وبزكاة النفس وطهارتها بصير الإنسان بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والثوبة، وهو أن يتحرى الإنسان ما فيه تطهيره^(٣).

وقلت: في هذا المقام هو الإيثار كما قال المصنّف. روى محيي السنّة عن ابن عباس: يعني الذين يقولون: لا إله إلا الله، وهي زكاة الأنفس. المعنى: لا يطهّرون أنفسهم من الشرك. وقال مجاهد: لا يزكّون أعمالهم^(٤). وقلت: المعنى على هذا فاستقيموا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة له، وتوبوا إليه ممّا سبق لكم من الشرك وويل لكم إن لم تفعلوا ذلك كلّهُ، فوضّع موضعه مع إيتاء الزكاة؛ ليؤدّن بأن الاستقامة على التوحيد وإخلاص العمل لله

(١) أخرجه البخاري (٣١٤٥).

(٢) يعني: تعرج عرجاً خفيفاً.

(٣) «مفردات القرآن»: ٣٨٠.

(٤) «معالم التنزيل» (٧: ١٦٤).

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [٨]

الممنون: المقطوع. وقيل: لا يُمنُّ عليهم؛ لأنه إنما يُمنُّ التفضل، فأما الأجرُ فحقُّ أداؤه. وقيل: نزلت في المرضى والزمنى والهزْمى: إذا عجزوا عن الطاعة كُتِبَ لهم الأجر كأصحِّ ما كانوا يعملون.

﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ۞ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۚ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِّن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِبِينَ ۚ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۚ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَنَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْصِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [٩-١٢]

﴿أَيْنَكُمْ﴾ بهمزتين، الثانية بينَ بينَ، و(أئنكم) بألفٍ بينَ همزتين. ﴿ذَلِكَ﴾ الذي قَدَّرَ على خَلْقِ الأرضِ في مُدَّةِ يومينِ هو ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

والتبرُّي عن الشُّركِ هو تزكية النَّفسِ، وهو أوفقُ لتأليفِ النَّظمِ، وما دَهَبَ إليه خبرُ الأُمَّةِ إلا مراعاة النَّظمِ، ثمَّ جيءَ بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية، مُستطرداً تعريضاً بالمشركين وأنَّ نصيبَهُم مقطوع، حيثُ لم يركبوا أنفسهم كما زكَّوا، ويدلُّ على أنه مُستطردٌ قوله: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾.

قوله: (كأصحِّ ما كانوا يعملون)، قيل: كما عملوا في حال كونهم أصحَّ الأصحاء.

قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ الذي قَدَّرَ على خَلْقِ الأرضِ في مُدَّةِ يومينِ هو ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (إشارةٌ إلى اتِّصالِ قوله: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) بما قبله بتوسطِ اسم الإشارة، وأنَّ المذكورَ قبله مُستحقٌّ لأن يُقالَ له ربُّ العالمين؛ لأجل ما اتَّصفَ بالقدرةِ التَّامةِ الكاملةِ وهو خَلَقَ الأرضِ في يومينِ، أمَّا بيانُ كيفيةِ اتِّصالِ اللَّفْظِ فإنَّ صاحبَ «الكشف» قال: ظاهرُ الآيةِ مُشكِلٌ؛

(١) قوله «رب العالمين» لم يرد في النسخة (ط).

لأنَّ قَوْلَهُ: «وَجَعَلَ عَطْفٌ عَلَى «خَلَقَ» وَدَاخِلٌ فِي حَيْزِ صِلَةِ «الَّذِي» وَقَدْ فَصَلَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لَهُمْ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وَإِنْ قُلْتُ: هُوَ فِي الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي «خَلَقَ» أَيْ قُلْ أَنْتُمْ لِتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ مَجْعُولًا لَهُ أَنْدَادًا، فَهُوَ وَجْهٌ؛ لِأَنَّهُ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ الَّذِي فِي «خَلَقَ» لَا مِنْ نَفْسِ الْمَوْصُولِ^(١).

وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: «وَجَعَلَ فِيهَا» مُسْتَأْنَفٌ غَيْرُ مَعْطُوفٍ عَلَى «خَلَقَ» لِمَا يَلِزِمُ الْفَصْلَ، وَليْسَ مِنَ الصَّلَةِ فِي شَيْءٍ^(٢).

وَقُلْتُ: الْكَلَامُ مُفْرَعٌ فِي قَالِبِ مُحْكَمٍ رَصِينٍ لَا يَجُوزُ التَّفْكِيكُ لَا بِالْحَالِ وَلَا بِالِاسْتِنْفِافِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَجَعَلَ عَطْفٌ عَلَى «خَلَقَ»، وَكَذَلِكَ ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ عَطْفٌ عَلَى «تَكْفُرُونَ» وَكَأَنَّ أَسْلَ الْكَلَامِ: أَنْتُمْ لِتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَّ مِنْ فَوْقِهَا، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً﴾ لِأَنَّهُ فَذَلِكَ لِمُدَّةِ خَلْقِ اللَّهِ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا، كَمَا قَالَ الْمُصَنِّفُ، وَفِيهِ تَصْرِيحٌ بِأَنَّ «جَعَلَ» مَعْطُوفٌ عَلَى «خَلَقَ»، ثُمَّ لِيُزِيدَ الْإِنْكَارَ جِيءَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لَهُمْ أَنْدَادًا﴾ الْآيَةِ، عَطْفًا عَلَى سَبِيلِ الْبَيَانِ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لِتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لَهُمْ أَنْدَادًا﴾ أَيْبُنُ مِنْ «تَكْفُرُونَ» وَ«رَبُّ الْعَالَمِينَ» أَجْمَعُ مِنَ «الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ» وَمَنْ ثُمَّ قَالَ الْمُصَنِّفُ: «ذَلِكَ الَّذِي قَدَّرَ عَلَى خَلْقِ الْأَرْضِ فِي مُدَّةِ يَوْمَيْنِ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ» نَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَتَنَّا فِيهِ كَثِيرًا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفِّرُوا بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧] ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ عَطْفٌ عَلَى «سَبِيلِ اللَّهِ».

قَالَ الْمُصَنِّفُ: «فَإِنْ قُلْتُ: كَيْفَ سَاعَ الْعَطْفُ قَبْلَ الْفَرَاغِ مِنَ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ؟ قُلْتُ: إِنَّهَا سَاعٌ لِأَنَّ «وَكُفِّرُوا بِهِ» فِي مَعْنَى الصَّدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْحَادِثُهَا جَوَزَ ذَلِكَ، كَأَنَّهُ قِيلَ: صَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، كَذَلِكَ هَاهُنَا التَّقْدِيرُ: أَنْتُمْ لِتَجْعَلُونَ أَنْدَادًا لِمَنْ خَلَقَ

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١١٨٣)، بتحقيق د. محمد الدالي، و(٢: ٢٨٤) بتحقيق د. عبد القادر السعدي.

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٢٣).

﴿رَوَّسِي﴾: جباًلاً ثوابت. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿مِن فَوْقَهَا﴾؟ وهلاً اقتصَرَ على قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَّسِي﴾، كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَّسِي شَلِيحَتِي﴾ [المرسلات: ٢٧]، ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَّسِي﴾ [الأنبياء: ٣١]، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَّسِي﴾ [النمل: ٦١]! قلت: لو كانت تحتها كالأساطين لها تستقرُّ عليها، أو مَرَكوزةٌ فيها كالمسامير لمنعت من الميدان، وإنما اختارَ إرساءها فوق الأرض؛ لتكونَ المنافعُ في الجبال مُعْرَضَةً لطالبيها، حاضرةً

الأرضِ في يَوْمَيْنِ وَجَعَلَ فِيهَا كَذَا وَكَذَا؟(١).

وقال الرَّاعِبُ: لا بدَّ من أحدِ أمرين، إمَّا أن ينوي بقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَّسِي﴾ التَّقْدِيمَ حتَّى يعطفَ على ﴿خَلَقَ﴾، وينوي بقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا﴾ التَّأخِيرَ، وهذا ممَّا يجوزُ في ضروراتِ الشَّعر، وإمَّا أن يُعطفَ على فعلٍ مثل ما وقعَ في الصَّلَةِ بدلالةِ الأوَّلِ عليه، فيُضْمِرُ «خَلَقَ الْأَرْضَ» ثُمَّ يعطفُ عليه ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَّسِي﴾ كأنه قيل: أنتم لتكفُرونَ بالذي خَلَقَ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَّسِي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعةِ أَيَّامٍ؟ فيُضْمَرُ اليومانِ اللَّذَانِ يقتضيهما خَلَقَ الْأَرْضِ إِلَى اليَوْمَيْنِ اللَّذَيْنِ هما لخلقِ ما فيها، والوجهُ ما قرَّناه.

قوله: (ما معنى قوله: ﴿مِن فَوْقَهَا﴾؟)، أي ما فائدة الزيادة في هذه الآية؛ لأن تلك الآيات التي وردت بدون هذه الزيادة مُعْطِيَةٌ معنى الفوقية من غير ذكره؟ وأجاب: فائدتها التنبيه على الحكمة التي اقتضت جعلها كذلك؛ لأنها لو كانت تحتها كالأساطين جعلت للأرض الاستقرار على الأساطين، لكن فإن منافع الجبال كما لو كانت الجبال مَرَكوزةً فيها، حاصِلُهُ أن القصدَ من خَلَقِ الْجِبَالِ المنعُ من ميدان الأرض كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَّسِي أَنْ نَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] وكان ذلك إمَّا بجعلها كالأساطين أو بجعلها مَرَكوزةً فيها أو بجعلها رواسي شامحات، فاخترت الثالث لإفادة المنافع المذكورة مع حصول ما قُصِدَ منها.

قوله: (الميدان)، الجوهري: ما الذي يُميدُ ميِّداً: تحرك.

قوله: (مُعْرَضَةٌ) هو من قولهم: أعرض لك الخير، إذا أمكنك. يقال: أعرض لك

لْمُحْصَلِيِّهَا، وَلِيُبَيِّنَ أَنَّ الْأَرْضَ وَالْجِبَالَ أُنْقَالُ عَلَى أَثْقَالٍ، كُلُّهَا مُفْتَقِرَةٌ إِلَى مُمَسِّكِ لَا بُدَّ لَهَا مِنْهُ، وَهُوَ مُمَسِّكُهَا عَزٌّ وَعِلَا بِقُدْرَتِهِ. ﴿وَبَرَكَ فِيهَا﴾: وَأَكْثَرَ خَيْرِهَا وَأَنْتَاهَا، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾: أَرْزَاقَ أَهْلِهَا وَمَعَايِشَهُمْ وَمَا يُصَلِّحُهُمْ. وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (وَقَسَمَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا)، (فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءٍ) فَذَلِكَ لِمُدَّةِ خَلْقِ الْأَرْضِ وَمَا فِيهَا، كَأَنَّهُ قَالَ: كُلُّ ذَلِكَ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ مُسْتَوِيَةٍ بِلَا زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ. قِيلَ: خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمٍ الْوَاحِدِ وَيَوْمَ الْاِثْنَيْنِ، وَمَا فِيهَا يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ وَيَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ. وَقَالَ الرَّجَّاجُ: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾:

الظُّبِّي، إِذَا أَمَكَّنَكَ مِنْ عَرَضِهِ، إِذَا وَلَّاكَ عَرَضَهُ. وَأَعْرَضْتُ الشَّيْءَ فَأَعْرَضْتُ، أَي: أَبْرَزْتُهُ فَبَرَزَ.

قَوْلُهُ: (وَلِيُبَيِّنَ أَنَّ الْأَرْضَ)، بَيَانُهُ مَا قَالَ الْإِمَامُ: أَنَّهُ تَعَالَى لَوْ جَعَلَهَا^(١) عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الصُّورَةِ لِأَفْهَمَ أَنَّ تِلْكَ الْأَسَاطِينَ التَّحْتَانِيَّةَ هِيَ الَّتِي أَمَسَّكَتْ هَذِهِ الْأَرْضَ عَنِ النُّزُولِ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ هَذِهِ الْجِبَالَ الثَّقَالَ فَوْقَ الْأَرْضِ لِيَرَى الْإِنْسَانُ أَنَّ الْأَرْضَ وَالْجِبَالَ أُنْقَالُ عَلَى أَثْقَالٍ وَكُلُّهَا مُفْتَقِرَةٌ إِلَى حَافِظٍ وَمُمَسِّكٍ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

قَوْلُهُ: (فَذَلِكَ) الْفَذْلُكَ فِي الْحِسَابِ: هِيَ أَنْ تَذْكُرَ أَوْ لَا أَشْيَاءَ مُفْصَلًا، ثُمَّ تَجْمَعُ تِلْكَ التَّفَاصِيلَ، وَتَكْتُبَ فِي مَعْرِضِ الْحِسَابِ: فَذَلِكَ كَذَا وَكَذَا.

قَوْلُهُ: (قِيلَ: خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمٍ الْوَاحِدِ وَيَوْمَ الْاِثْنَيْنِ) رَوَيْنَا عَنْ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ: خَلَقَ اللَّهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْاِحْدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النَّوْرَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ»^(٢).

قَوْلُهُ: (وَقَالَ الرَّجَّاجُ) وَكَلَامُهُ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا

(١) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ: «جَعَلَ»، وَالْمَثْبُوتُ مِنْ «مِفْتَاحِ الْغَيْبِ» (٢٧: ٥٤٤).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٧٨٩).

في تَمَّةِ أربعةِ أيام. يريدُ بالتَمَّةِ اليَوْمَيْنِ. وُقِرَى: ﴿سَوَاءٌ﴾ بالحَرَكَاتِ الثلاث؛ الجُرُّ على الوَصْفِ، والنَّصْبُ على: استوتُ سواءً، أي: استواءً؛ والرفعُ على: هي سواءٌ. فإن قلت: بِمَ تعلقَ قولُه: ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾؟ قلتُ: بمحذوف، كأنه قيل: هذا الحَضْرُ لأجلِ مَنْ سأل: في كم خُلِقَتِ الأرضُ وما فيها؟ أو بِ﴿وَقَدَّرَ﴾: أي: قَدَّرَ فيها الأَقْوَاتِ لأجلِ الطَّالِبِينَ لها المُحْتَاجِينَ إليها من المُقْتَاتِينَ. وهذا الوجهُ الأخيرُ لا يَسْتَقِيمُ إلا على

فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ، أي: في تَمَّةِ أربعةِ أيام^(١)، ﴿سَوَاءٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ مُعَلَّقٌ بقولِه: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ لكلِّ مُحتَاجٍ إلى القوتِ. وإنَّما قيل: ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ لأنَّ كُلَّما يَطْلُبُ القوتَ ويسألُه، ويجوزُ أن يكونَ المعنى لِمَنْ سأل: في كم خُلِقَتِ السَّمَاوَاتُ والأَرْضُونَ؟ فقيل: خُلِقَتِ وما فيها في أربعةِ أَيَّامٍ سواءً جواباً لِمَنْ سأل.

وقال الإمام: نحوه قول القائل: سرتُ من البَصْرَةِ إلى بغدادَ في عَشْرَةِ أَيَّامٍ، وسرتُ إلى الكوفةِ في خمسةِ عَشَرَ يوماً، معناه أنَّ المسافَتَيْنِ خمسةُ عَشَرَ. ويُقال: أُعْطِيَتْكَ الفَا في شَهْرٍ وألوفاً في شهرين، فيدخلُ الألفُ في الألوفِ، والشَّهْرُ في الشَّهْرَيْنِ^(٢).

قولُه: (وُقِرَى) ﴿سَوَاءٌ﴾ بالحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ^(٣). قال محمى السُّنَّةِ: أبو جعفر: بالرَّفْعِ على الابتداء، ويعقوب: بالجُرِّ على نعتِ ﴿أَرْبَعَةَ﴾، والباقون: بالنَّصْبِ على المصدر، أي: استوتُ سواءً واستواءً^(٤).

قولُه: (وهذا الوجهُ الأخيرُ لا يستقيم)، الانتصاف: وجهُ امتناعِه على الأولِ أن قولَه: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ فذلِكَ ومن شأنها الوقوعُ في طَرَفِ الكلامِ، فلو جعلَ ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ مُتَعَلِّقاً بـ﴿قَدَّرَ﴾ على تأويلِ حَذْفِ التَّمَّةِ تعلقَ الظَّرْفِ بالمظروفِ ولا يتمُّ الكلام. وقال: وتفسيرُ الزَّجَّاجِ أرجح؛ إذ هو مشتَمَلٌ على ذِكْرِ مُدَّةِ خَلْقِ الأَقْوَاتِ بالتَّأْوِيلِ العَرِيبِ الذي قَدَّرَه،

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٨١).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٥٤٥).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣٤٣).

(٤) «معالم التنزيل» (٧: ١٦٥).

تفسير الزجاج. فإن قلت: هلا قيل: في يومين! وأي فائدة في هذه الفذلكة؟ قلت: إذا قال: في أربعة أيام، وقد ذكر أن الأرض خلقت في يومين؛ علم أن ما فيها خلق في يومين، فبقيت المخايرة بين أن يقول: في يومين، وأن يقول: في أربعة أيام سواء. فكانت في أربعة أيام سواء فائدة ليست في يومين؛ وهي الدلالة على أنها كانت أياماً كاملة بغير زيادة ولا نقصان. ولو قال: في يومين، وقد يطلق اليومان على أكثرهما:

وَمُضَمَّنٌ مَا يَقُومُ مَقَامَ الْفَذْلِكَةِ؛ إِذْ قَدْ ذُكِرَ جُمْلَةُ الْعَدَدِ الَّذِي هُوَ ظَرْفٌ لِحَلْقِهَا وَخَلِقَ أَقْوَاتَهَا. وَعَلَى اخْتِيَارِ الزَّمْحَشَرِيِّ تَكُونُ الْفَذْلِكَةُ مَذْكُورَةً مِنْ غَيْرِ تَقَدُّمِ تَصْرِيحٍ بِجُمْلَةِ تَفَاصِيلِهَا، فَهِيَ يَذْكُرُ سَوَى يَوْمَيْنِ، وَالْفَذْلِكَةُ يَتَقَدَّمُ فِيهَا النَّصُّ عَلَى جَمِيعِ أَعْدَادِهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦] (١).

وقلت: أي حاجة إلى النص وقد دل التنصيص في قوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ على أن التقدير: وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في يومين آخرين. ثم يقال: كل ذلك في أربعة أيام؟ على أن في تفسير الزجاج الاختلاف الذي بين الإمامين. قال الشافعي: المتعقب للجمل يعود إليها جميعاً، وأبو حنيفة خص بالأخيرة، ولنا الأصل اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في المتعلقات.

قوله: (وقد يطلق اليومان على أكثرهما)، قال صاحب «الفرائد»: لا شك أنه صح أن يقال: فعلته في يومين، وكان الفعل في أقل منهما. ويصح أن يقال: فعلته في يومين، وكان الفعل في أكثر منهما. فإذا عرفت هذا تقول: يمكن أن يكون خلق الأرض في أقل من يومين، وجعل رواسي من فوقها، وتقدير الأقوات وغيرها في يومين وبقية اليومين المذكورين، وكان خلق الأرض وجعل رواسي فيها وغيره في أربعة أيام من غير زيادة ونقصان، فعلى هذا لم يجز إلا أن يقال: في أربعة أيام.

(١) «الاتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٨٨).

وقيل: قوله: «قد يُطلقُ اليومانِ على أكثرهما» غيرُ مُختصِّ بل على أقلِّ منهما أيضاً، وقد يُرادُ باليومينِ يومٌ ونصفٌ مثلاً، فإنَّ بعضَ الشَّيءِ قد يُسمَّى باسمِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧] والمرادُ سؤالُ وذو القعدةِ وتسعٌ من ذي الحجةِ ولبلةُ النحر، وفيه بحث؛ لأنَّ أبا عليٍّ قال في «الحجَّة»: «سمَّى الشهرينِ وبعضَ الثالثِ أشهراً؛ لأنَّ الاثنينِ قد يوقَعُ عليه لفظُ الجمعِ، كما في قوله:

ظَهَرَاهُمَا مِثْلَ ظُهُورِ التَّرْسَيْنِ

فعلى هذا لا يجوزُ أن يوقَعُ على الاثنينِ وبعضِ الثالثِ «قروء» في قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، لأنَّ هذا محصورٌ بالعددِ فلا يكونُ اثنانِ وبعضُ الثالثِ ثلاثة^(١)، وهذا يدفعُ قولَ المُصنِّفِ: «وقد يُطلقُ اليومانِ على أكثرهما».

وقلت: لا يدفعُ؛ لأنَّ إطلاقَ الجمعِ على الاثنينِ وعلى أكثرَ منه بطريقِ الاشتراكِ واختلافِ اللَّغَتَيْنِ سائغٌ وإطلاقُ العددِ المخصوصِ على أكثرَ منه وأقلِّ بطريقِ التَّغْلِيْبِ والمجازِ شائعٌ، ومن ثمَّ قالَ في قوله تعالى: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ وقد فسَّرَ بأنَّه تعالى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ فِي يَوْمَيْنِ وَفَرَّغَ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَخَلَقَ فِيهَا آدَمَ، فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ أَنَّهُ لَوْ قِيلَ: «فِي يَوْمَيْنِ» فِي مَوْضِعِ «أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءً» لَمْ يُعْلَمِ أَنَّهَا يَوْمَانِ كَامِلَانِ أَمْ نَاقِصَانِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَخْلُقِ السَّمَاوَاتِ فِي يَوْمَيْنِ كَامِلَيْنِ عَلَى هَذَا؛ لِأَنَّهُ خَلَقَ آدَمَ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ بَاقِيِ الْيَوْمِ، وَكَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَيْنَاهُ عَنْ مُسْلِمٍ.

فإن قلت: ما الدَّاعي إلى صرفِ الآيةِ عن حقيقتها، وأنه تعالى خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَخَلَقَ مَا فِيهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ؟ قلت: لزومٌ ما قاله الإمام^(٢) أنَّ قوله: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إِذَا جُمِعَ مَعَ الْعَدَدِ يَصِيرُ ثَمَانِيَةً، وَقَدْ ذَكَرَ فِي سَائِرِ الْآيَاتِ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ.

(١) انظر: «الحجَّة للقرآء السبعة» للفارسي (٢: ٢٨٠).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٥٤٥).

لكان يجوز أن يريد باليومين الأولين والآخرين أكثرهما. ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾: من قولك: استوى إلى مكان كذا؛ إذا توجه إليه توجهاً لا يلوي على شيء، وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج، ونحوه قولهم: استقام إليه وامتد إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَوِيْمُوا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٦]، والمعنى: ثُمَّ دَعَاهُ دَاعِي الْحِكْمَةِ إِلَى خَلْقِ السَّمَاءِ بَعْدَ خَلْقِ الْأَرْضِ وَمَا فِيهَا مِنْ غَيْرِ صَارِفٍ يَصْرِفُهُ عَنْ ذَلِكَ. قيل: كان عرشه قبل

قوله: (وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج)، الرّاضب: المساواة: المعادلة المعتمدة بالذرع والوزن والكيل، وقد يعتبر بالكيفية، ونحو: هذا السواد مساوٍ لذلك السواد، وإن كان تحقيقه راجعاً إلى اعتبار مكانه دون ذاته، واستوى على الوجهين؛ بمعنى: تساوى، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِيَنَّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]، وبمعنى اعتدال الشيء في ذاته، نحو قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَوَىٰ عَلَى سُوْقِهِ﴾ [الفتح: ٢٩] واستوى أمر فلان، ومتى عُدِّي بـ«على» فبمعنى الاستيلاء كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وقيل: معناه: استوى له ما في السماوات وما في الأرض، أي استقام الكل على مراده بتسويته تعالى إياه، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٩] وإذا عُدِّي بـ«إلى» فبمعنى الانتهاء إليه، إمّا بالذات أو بالتدبر، وعلى الثاني قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ والمساواة مُتَعَارَفَةٌ فِي الْمُثْمِنَاتِ، يُقَالُ: هَذَا الثَّوْبُ يَسَاوِي كَذَا. وَأَصْلُهُ مَنْ سَاوَاهُ فِي الْقَدْرِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿حَقًّا إِذَا سَأَوْتَنِي بَيْنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الكهف: ٩٦]^(١).

قوله: (ثُمَّ دَعَاهُ دَاعِي الْحِكْمَةِ إِلَى خَلْقِ السَّمَاءِ بَعْدَ خَلْقِ الْأَرْضِ وَمَا فِيهَا) سوء أدب، ومعناه مُشْكِلٌ مع قوله بعد هذا: «خلق جِزْمَ الْأَرْضِ أَوْ لَا غَيْرَ مَدْحُورَةٌ ثُمَّ دَحَاهَا بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ» وقوله في «البقرة»^(٢): «جِزْمُ الْأَرْضِ تَقَدَّمَ خَلْقُهُ السَّمَاءِ، وَأَمَّا دَخُورُهَا فَمُتَأَخَّرٌ»، وبيانه ما ذَكَرَ الْإِمَامُ أَنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى بَيِّنٌ أَنَّهُ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ جَعَلَ فِيهَا رِوَايَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامَهَا، وَهَذِهِ الْأَحْوَالُ

(١) «مفردات القرآن» ص ٤٣٩.

(٢) انظر: (٢: ٤٢٢).

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى الْمَاءِ، فَأَخْرَجَ مِنَ الْمَاءِ دُخَانًا، فارتفعَ فوقَ الماءِ وَعَلَا عليه، فأبَسَ الماءَ، فجَعَلَهُ أرضاً واحِدةً، ثم فَتَقَّهَا فجَعَلَهَا أَرْضِينَ، ثم خَلَقَ السَّمَاءَ مِنَ الدُّخَانِ المرتفع. ومعنى أمرِ السَّمَاءِ والأرضِ بالإتيانِ وامتثالهما: أنه أرادَ تَكْوِينَهُمَا فَلَمْ يَمْتَنِعَا عليه،

لا يستقيمُ دُخولُها في الوجودِ إلا بعدَ الدَّخْوِ، وأيضاً إِنَّهُ لا نزاعَ أن قولَهُ تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ كناية عن إيجادِ السَّمَاءِ والأرضِ، فلو تقدَّم إيجادُ السَّمَاءِ على إيجادِ الأرضِ لكانَ قولُهُ: ﴿آتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ يقتضي إيجادَ الوجودِ^(١).

ونقل الواحديُّ في «البيسط» عن مُقاتلٍ أنه قال: خَلَقَ السَّمَاءَ قيل: قبلَ الأرضِ، وتأويلُ الآية: ثُمَّ استوى إلى السَّمَاءِ وهي دُخَانٌ قبلَ أن يخلَقَ الأرضِ، على الإضمارِ، ثُمَّ قال: والمُختارُ عندي أن يُقالَ: خَلَقَ السَّمَاءَ مُقَدَّمٌ على خَلْقِ الأرضِ، والخلقُ هاهنا ليسَ عبارةً عن التَّكْوِينِ والإيجادِ بل عن التَّقْدِيرِ كما في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] لئلا يَلزَمَ أنه تعالى قالَ لِلشَّيْءِ الَّذِي وُجِدَ: كُنْ، والتَّقْدِيرُ في حقِّ الله سبحانه وتعالى حُكْمُهُ بأنه سيوجدُ ويُقضى بذلك، وعليه معنى الآية.

وقال القاضي: والظاهرُ أن «ثُمَّ» لتفاوتِ ما بينَ الخَلْقَيْنِ لا للتَّراخي في المَدَّة؛ لقولِهِ: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] مُقَدَّمٌ على خَلْقِ الجبالِ من فوقها^(٢).

وقال صاحبُ «الكشف»: قال قوم: إنَّ «ثُمَّ» لترتيبِ الخيرِ على الخيرِ، أخبرَ أولاً بخلقِ الأرضِ ثُمَّ أخبرَ بخلقِ السَّمَاءِ، وقد تقدَّم مثلُ هذه الآية، أيَّ جَمَّة^(٣).

قولُهُ: (وامتثالهما: أنه أرادَ تَكْوِينَهُمَا فَلَمْ يَمْتَنِعَا عليه) قال القاضي: معنى ﴿آتِيَا﴾ اثتبا

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٥٤٧).

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٦٧).

(٣) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١١٨٦) بتحقيق د. محمد الدالي، و(٢: ٢٨٦) بتحقيق د. عبد القادر

لِمَا خَلَقْتُ فِيكُمَا مِنَ التَّأثيرِ وَالتَّأثيرِ وَإِبْرَازِ مَا أودَعْتُ فِيكُمَا مِنَ الأَوْضَاعِ المِخْتَلِفَةِ وَالكَائِنَاتِ المِتنَوِّعَةِ، أَوْ اثْتِيا فِي المِوجودِ، عَلى أَنَّ الحَلْقَ السَّابِقَ بِمَعْنى التَّقْدِيرِ أَوْ التَّرْتِيبِ فِي المِرتبَةِ، أَوْ للإِخْبَارِ، وَمَعْنى ﴿طَوَّعًا أَوْ كَرْهًا﴾ إِظْهَارُ كِمَالِ قُدْرَتِهِ وَوِجُوبِ وَقُوعِ مِرادِهِ، لا إِثْبَاتِ الطَّوَّعِ وَالكِرهِ لهُمَا. وَمَعْنى ﴿أَينِيا طَاطِيعِينَ﴾ الأَظْهَرُ أَنَّهُ تَصوِيرُ تَاطِيرِ قُدْرَتِهِ فِيهِمَا، وَتَاطِيرُهَا بِالأَذَاتِ عِنها، وَتَمثِيلُها بِأَمْرِ المَطَاعِ الطَّاطِيعِ، كَقولِهِ: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] (١).

وَقُلْتُ: يَرِدُ عَلى تَأوِيلِ الإِمامِ إِشْكالانِ: أَحَدُهُما: تَرْتَّبُ الفِاءِ فِي قولِهِ: ﴿فَقَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فَإِنَّهُ يَوجِبُ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ما خَلَقَ الأَرْضَ وَما فِيها فِي أربَعَةِ أَيامٍ اسْتَوَى إِلى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ فَقَضاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ تَكْمِلَةً لِلعَدَدِ المَذكُورِ فِي قولِهِ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيامٍ﴾ [السجدة: ٤]. وَثانِيها: تَأوِيلُهُ «خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ» بِـ «قَدَّرَ» لا يُساعِدُ عَلِيهِ عَطفُ «وَجَعَلَ فِيها» «وَقَدَّرَ فِيها» لِأَنَّ كُلاًّ مِنَ ذَلِكَ فِعْلٌ خَاصٌ.

وَالظَّاهِرُ - وَالعِلمُ عِنْدَ اللَّهِ -: أَنَّ «ثُمَّ» لِلتَّراخِي فِي المِرتبَةِ، كِما سَبَقَ فِي «البقرة» (٢) عَن المِصْنَفِ فِي قولِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] تَرقِياً (٣) مِنَ الأَدنى إِلى الأَعلى؛ لِأَنَّ الكِلامَ مَعَ المِعادِينِ المُتَمَرِّدينِ، كِما تَرقَى الخَليلُ عَلِيهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ فِي الأَخِذِ مِنَ الكِواكِبِ إِلى القَمَرِ ثُمَّ إِلى الشَّمسِ، وَخَتَمَ الكِلامَ بِقولِهِ: ﴿يَنْقُورِ إِني بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨] أَلَا تَرى إِلى أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا خَتَمَ الكِلامَ قالَ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَبِغَةً مِثْلَ صَبِغَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾ وَالمَعْنى: إِنَّكُم لَتَكفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ وَفَعَلَ كِذا وَكَذا، وَأَعظَمُ مِنَ ذَلِكَ أَنَّهُ اسْتَوَى - أَي: قَصَدَ إِلى خَلْقِ السَّماءِ - وَهِيَ شَيءٌ حَقيرٌ ظُلْماني كالأَدْحانِ - ﴿فَقَالَ لَها وَاللَّأرضِ أَقْبِيا طَوَّعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَينِيا طَاطِيعِينَ﴾ فَقَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ، وَكانَ الأَصْلُ: فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ فِي يَوْمَيْنِ، وَخَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمينِ، وَجَعَلَ فِيها رِوايِي وَقَدَّرَ فِيها أَقواتِها الأَيَةَ ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾ فَقَدَّمَ وَأَخَّرَ

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٦٨).

(٢) انظر: (٣: ٤٢٢).

(٣) وفي النسخة (ف): «ترتياً».

ووجدنا كما أرادهما، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا وُردَ عليه فعل الأمر المطاع، وهو من المجاز الذي يُسمّى التمثيل. ويجوز أن يكون تخيلاً، ويبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلّم السماء والأرض، وقال لهما: اتيا شتما ذلك أو أبيتهما، فقلنا: آتينا على الطوع لا على الكره. والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير، من غير أن يُحقّق شيء من الخطاب والجواب. ونحوه قول القائل: قال الجدار للوتد: لم تشقني؟ قال الود: اسأل من يدقني فلم يتركني، ورائي الحجر الذي ورائي. فإن قلت: لم ذكر

لذلك النكتة، ثم قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي: فإن أعرضتم بعدما تُتلى عليكم هذه الحجج على الوحدانية والقدرة التامة فكنتم محجوجين، فترتب العذاب عليكم كما فعل بأشياءكم من قبل، وفيه التفات. وهذا التأويل موافق لهما نقل الواحدي عن مقاتل، ولما قال القاضي^(١)، أو الترتيب في المرتبة أو الإخبار، والله أعلم.

قوله: (ويجوز أن يكون تخيلاً) يعني إثبات المقابلة مع السماء والأرض يمكن أن يكون من الاستعارة التمثيلية كما سبق، ويجوز أن يكون من الاستعارة التخيلية بعد أن تكون الاستعارة في ذاتها مكنية كما تقول: نطق الحال، بدّل «دلت» فتجعل الحال كالإنسان الذي يتكلّم في الدلالة والبرهان، ثم تتخيّل له النطق الذي هو من لازم المشبه به ويُنسب إليه. وأمّا بيان الاستعارة التمثيلية فهو أنه لما شبه فيه حالة السماء والأرض والمقابلة بينهما وبين فاطرهما في إرادة تكوينهما أو إيجادهما بحالة أمير ذي جبروت له نفاذ في سلطانه وإطاعة من تحت ملكه من غير ريب. والأوجه أن يراد بقوله: «تخيلاً» تصويراً لقدرة وعظمة سلطانه، وأن القصد في التركيب إلى أخذ الزبدة والخلاصة من المجموع على سبيل الكناية الإيائية من غير نظر إلى مفرداته كما سبق في قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] ويعضده قوله: من غير أن يُحقّق شيء من الخطاب والجواب.

قوله: (فلم يتركني، ورائي) الواو في «ورائي» الأول بمعنى «مع»، «ورائي» الأول:

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٦٨).

الأرض مع السماء وانتظمهما في الأمر بالإتيان، والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين؟ قلت: قد خلق جِزْم الأرض أولاً غيرَ مدحوّة، ثم دحاها بعد خلق السماء، كما قال: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠]، فالمعنى: اثتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف، اثتي يا أرض مدحوّة قراراً ومهاداً لأهلك، واثتي يا سماء مقببة سقفاً لهم. ومعنى الإتيان: الحصول والوقوع، كما تقول: أتى عمله مرضياً، وجاء مقبولاً. ويجوز أن يكون المعنى: لتأت كل واحدة منكما صاحبتهما الإتيان الذي أريده وتقتضيه الحكمة والتدبير؛ من كون الأرض قراراً للسماء، وكون السماء سقفاً للأرض. وتَنْصُرُهُ قراءةٌ من قرأ: (آتيا)، و(آتينا) من المواتاة؛ وهي المُوَافَقَةُ، أي: لتؤات كل واحدة أختها وتوافقها. قالتا: وافقنا وساعدنا. ويحتمل: وافقنا أمرى ومشيئتي ولا تمتنعنا. فإن قلت: ما معنى ﴿طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾؟ قلت: هو مثل للزوم تأثير قدرته فيها، وأن امتناعهما من تأثير قدرته مُحال، كما يقول الجبار لمن تحت يده:

بمعنى النَّظَرِ والرَّأْيِ، والواو في «ورائي» الثاني عاطفة، و«ورائي» بمعنى خلفي.

قوله: (ويجوز أن يكون المعنى) عطف على قوله: اثتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف وعليه كلام القاضي: اثتيا لهما خلقت فيكما من التأثير والتأثر^(١).

قوله: (قراءة من قرأ «آتيا» و«آتينا» من المواتاة)^(٢) قال ابن جني: قرأ ابن عباس وسعيد ابن جبير ومجاهد: «آتينا طائعين» بالمد من «فأعلنا» نحو سارعنا وسابقنا، ولا يكون أفعلنا؛ لأن ذلك متعدي إلى مفعولين، و«فأعلنا» متعدي إلى واحد، وحذف الواحد أسهل، ولما في «سارعنا» من معنى «أسرعنا»^(٣).

قوله: (من المواتاة؛ وهي الموافقة)، الجوهري: يُقال: آتيت على ذلك الأمر مواتاة؛ إذا وافقته وطأوعته.

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٦٨).

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣٤٤).

(٣) «المحتسب» (٢: ٢٤٥).

لَتَفَعَلَنَّ هَذَا شَيْئًا أَوْ أُبَيَّتْ، وَلَتَفَعَلَنَّهُ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا. وانتصاها على الحال، بمعنى: طائعتين أو مكرهتين. فإن قلت: هلا قيل: طائعتين، على اللفظ! أو: طائعات على المعنى. لأنها سماوات وأرضون! قلت: لما جعلن مخاطبات ومجيبات، ووُصِفْنَ بالطَّوع والكره؛ قيل: طائعتين، في موضع: طائعات، نحو قوله: ﴿سَجِدْكَ﴾ [يوسف: ٤]. ﴿فَقَضَّاهُنَّ﴾: يجوز أن يرجع الضمير فيه إلى السماء على المعنى، كما قال: ﴿طَائِعِينَ﴾، ونحوه: ﴿أَعْبَادًا تَحْلِي خَاوِيَةً﴾ [الحاقة: ٧]، ويجوز أن يكون ضميراً مُبْهَمًا مفسراً بـ ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾، والفرق بين النَّصِّين: أن أحدهما على الحال، والثاني على التمييز. قيل: خلق الله السماوات وما فيها في يومين، في يوم الخميس والجمعة، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة، فخلق آدم، وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة. وفي هذا دليل على ما ذكرت، من أنه لو قال: في يومين في موضع (أربعة أيام سواء)؛ لم يعلم أنها يومان كاملان أو ناقصان. فإن قلت: فلو قيل: خلق الأرض في يومين كاملين وقدّر فيها أوقاتها في يومين كاملين! أو قيل بعد ذكر اليومين: تلك أربعة سواء! قلت: الذي أوردته سبحانه أخضر وأفصح وأحسن، طابقاً لما عليه التنزيل من مفاصات القرائح ومصاك الركب؛ لتمييز الفاضل من الناقص، والمتقدم من الناقص، وترتفع الدرجات، ويتضاعف الثواب. ﴿أَمْرَهَا﴾: ما أمر به فيها ودبره من خلق الملائكة والنبيرات وغير ذلك. أو شأنها وما يصلحها. ﴿وَحَفِظْنَا﴾: وحفظناها

قوله: (والفرق بين النصين)، أي في قوله: «سبع سماوات» وذلك أن الضمير في «فقضاهن» إذا رجع إلى السماء على المعنى^(١) كائنة سبع سماوات أو متعدّدة سبع سماوات، وإذا كان الضمير مُبْهَمًا كان «سبع سماوات» نصباً على التمييز والتفسير، نحو: رَبُّهُ رَجُلًا.

قوله: (من مفاصات القرائح)، مفاصات: جمع العوص على غير قياس، أو جمع المغاص من المصدر الميمي لاختلاف أنواعه، وكذا المصاك جمع مصك.

قوله: (أو شأنها) عطف على قوله: «ما أمر به» والأمر على الأول: مصدر؛ بمعنى

(١) قوله: «إذا رجع إلى السماء على المعنى» سقط من (ح).

حِفْظًا، يعني: من المُسْتَرْقَةِ بِالثَّوَابِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا لَهُ عَلَى الْمَعْنَى، كَأَنَّهُ قَالَ:
وَحَلَقْنَا الْمَصَابِيحَ زِينَةً وَحِفْظًا.

[﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَوْغَةً مِثْلَ صَنِيعَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَهُمُ الرَّسُولُ مِنْ بَنِي
أَيْدِيهِمْ وَمِنَ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
كَافِرُونَ ﴾ ١٣-١٤]

واحد الأوامر. وقوله: «مِنَ خَلْقِ الْمَلَائِكَةِ» بيان، أي: قيل فيها للملائكة والنيرات: «كُنْ»،
وفي «شرح التاويلات»: أي: أمر أهل كل سماء أمرها وامتحنهم بمحنه. وعلى الثاني: اسم
بمعنى واحد الأمور.

قوله: (حِفْظًا) يعني: من المُسْتَرْقَةِ بِالثَّوَابِ، وعن بعضهم: ومن الزوال؛ ليكون
الإطلاق مُفِيداً فَائِدَةً جَدِيدَةً سِوَى مَا فَهِمَ مِنَ الْمُفِيدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾
[الصفات: ٧].

قوله: (كَأَنَّهُ قَالَ: وَحَلَقْنَا الْمَصَابِيحَ زِينَةً وَحِفْظًا)، هذا على أن يكون من عطف المفرد
على المفرد. وقوله: «وَحِفْظًا هَا حِفْظًا» على أن يكون من عطف الجملة على الجملة، وهذا
أحسن وأغرب وأوكد وللإيجازات التنزيلية أنسب وللفايدة أملاً بكونه أن التقدير: وَزَيْنَا
السَّاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ زِينَةً وَحِفْظًا هَا، فدلّ بالفعل في الأول على إضمار فعل في الثاني
مُنَاسِبٍ لِلْمَصْدَرِ الْمَذْكُورِ، وَدَلَّ بِالْمَصْدَرِ فِي الثَّانِي عَلَى إِضْمَارِ مَصْدَرٍ مُنَاسِبٍ لِلْفِعْلِ الْمَذْكُورِ،
مِثْلُهُ قَوْلُ الْقَائِلِ:

يَرْمُونَ بِالْحِطْبِ الطَّوَالِ وَتَارَةً وَحَيَّ الْمَلَا حِطِّ حَيْفَةَ الرُّقْبَاءِ^(١)

أي: يرمون رَمِيًا، وَيُوحُونَ وَحِيًّا. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَصْلُهَا نَائِبٌ وَقَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾
[إبراهيم: ٢٤]، أي: أَصْلُهَا ثَابِتٌ فِي الْأَرْضِ^(٢)، وَقَرَعُهَا مُتَصَاعِدٌ فِي السَّمَاءِ.

(١) سبق تخريجه.

(٢) قوله: ﴿وَقَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: أصلها ثابت في الأرض سقط من (ط).

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ بعد ما تَتَلَّوْا عليهم من هذه الحُجُجِ على وحدانيته وقدرته، فحذَّرهم أن تصيبهم صاعقة، أي: عذابٌ شديدٌ الوقع كأنه صاعقة. وقُرى: (صَعْقَةٌ مثل صَعْقَةٍ عادٍ وثمود)؛ وهي المرَّةُ من الصَّعَقِ أو الصَّعَقِ. يقال: صَعَقْتُهُ الصاعقةُ صَعَقًا فَصَعَقَ صَعَقًا، وهو من باب: فَعَلْتُهُ ففَعِلَ.

﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: أتوهم من كلِّ جانب، واجتهدوا بهم وأعملوا فيهم كلَّ حيلة، فلم يروا منهم إلا العتوَّ والإعراض، كما حكى الله عن الشيطان: ﴿لَا تَتَّبِعُهُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧]، يعني: لا تاتينهم من كلِّ جهة، ولأعملنَّ فيهم كلَّ حيلة، وتقول: استدرتُ بفلانٍ من كلِّ جانب، فلم يكن لي فيه حيلة. وعن الحسن: أنذروهم من وقائعِ الله فيمن قبلهم من الأمم وعذابِ الآخرة؛ لأنهم إذا حذروهم ذلك فقد جاؤوهم بالوعظِ من جهةِ الزَّمنِ الماضي وما جرى فيه على الكفار، ومن جهةِ المستقبل وما سيجري عليهم. وقيل: معناه: إذا جاءتهم الرسلُ من قبلهم ومن بعدهم.

فإن قلت: الرسلُ الذين من قبلهم ومن بعدهم كيف يوصفون بأنهم جاؤوهم؟ وكيف يُخاطبونهم بقولهم: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾؟ قلت: قد جاءهم هودٌ وصالحٌ داعيين إلى الإيمان بهما وبجميعِ الرسلِ ممن جاء من بين أيديهم - أي: من قبلهم - وممن يجيء من خلفهم - أي: من بعدهم - فكان الرُّسلُ جميعاً قد جاؤوهم. وقولهم: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾: خطابٌ منهم لهودٍ وصالحٍ ولسائرِ الأنبياء الذين دَعَوْا إلى الإيمان بهم. «أن» في ﴿الَّا تَعْبُدُوا﴾ بمعنى «أي»، أو مخففةٌ من الثقيلة، أصله: بأنه لا تَعْبُدُوا، أي: بأنَّ الشَّأنَ والحديث قولنا لكم: لا تَعْبُدُوا، ومفعولٌ ﴿شَاءَ﴾ محذوفٌ،

قوله: (كأنه صاعقة) قال: الصَّاعِقَةُ: قَصْفَةٌ رَعِدٍ يَنْقُضُ معها شِقَّةً من نار.

قوله: (صَعَقْتُهُ) أي: أهلكته، (فَصَعَقَ صَعَقًا)، أي: مات، إمَّا بِشِدَّةِ الصَّرْبِ أو بالإحراق.

أي: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾ إرسال الرُّسُل ﴿لَأَنْزَلْنَا مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ معناه: فإذا أنتم بشرٌ ولستم بملائكة؛ فإننا لا نؤمنُ بكم وبما جئتم به. وقولهم: ﴿أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ ليس بإقرارٍ بالإرسال، وإنما هو على كلامِ الرسل، وفيه تهكُّمٌ، كما قال فرعونُ: ﴿إِن رَّسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمُ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]. رُوي: أَنَّ أبا جَهْلٍ قال في مَلَأٍ من قُرَيْشٍ: قد التبسَ علينا أمرُ مُحَمَّدٍ، فلو التمسْتُم لنا رجلاً عالمياً بالشعر والكهانة والسَّحَرِ فكَلَّمْتُم ثم أتانا ببيانٍ عن أمرِهِ، فقال عُبَيْةُ بنُ رَبِيعَةَ: والله لقد سمعتُ الشُّعَرَ والكهانة والسَّحَرَ، وعلمتُ من ذلك علماً، وما يخفى عليَّ. فأتاه، فقال: أنت يا مُحَمَّدُ خيرٌ أم هاشمٌ؟ أنت خيرٌ أم عبدُ المطلب؟ أنت خيرٌ أم عبدُ الله؟ فيمَ تشتمُّ أمتنا وتضلُّلنا؟! فإن كنت تريد الرياسة: عقَدنا لك اللِّواءَ فكنتَ رئيسنا، وإن تكُ بك الباءُ: زوَّجناك عشرَ نسوةٍ تختارُ من أيِّ بنات قُرَيْشٍ شئت، وإن كان بك المالُ: جمعنا لك ما تستغني به. ورسولُ الله ﷺ ساكت، فلما فرغ قال: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حَمْدٌ﴾» إلى قوله: ﴿مِثْلَ صَبِغَةِ عَادٍ وَثُمُودٍ﴾ [فصلت: ١-١٣]، فأمسك عتبةً على فيه وناشده بالرحم، فرجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قُرَيْشٍ، فلما احتبس عنهم قالوا: ما ترى عتبةً إلا قد صبَّأ، فانطلقوا إليه، وقالوا: يا عتبة، ما حبَّسك عنا إلا أنك قد صبَّأت. فغضب، وأقسم لا

قولُه: (عَقَدْنَا لَكَ اللَّوَاءَ)، النِّهَايَةُ: وفي حديثِ عُمَرَ: «هَلَكَ أَهْلُ الْعَقْدِ»^(١)، يعني: أصحابُ الولاياتِ على الأمصار، هوَ من عَقَدِ الْأَلْوِيَةِ لِلْأَمْراءِ.

قولُه: (الْبَاءُ)، الْبَاءَةُ فِيهَا ثَلَاثُ لُغَاتٍ: الْبَاءُ، وَالْبَاءُ؛ بِالْهَاءِ عِرَاقِيٌّ وَهُوَ أَرْدَنُهَا، وَالْبَاءَةُ. وفي الحديثِ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ خَافَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَعَلِيهِ بِالصُّومِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ»^(٢).

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٨٦٠٤) عن قيس بن عباد، والنسائي (٨٠٨)، والبيهقي في «شعب

الإيمان» (٩: ٤٧٤) عن أبي بن كعب.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠). عن ابن مسعود.

يَكَلِّمُ مُحَمَّدًا أَبْدًا، ثم قال: والله لقد كَلَّمْتُهُ فَأَجَابَنِي بِشَيْءٍ، واللَّهُ ما هو بِشِعْرٍ ولا كِهَانَةٍ ولا سِحْرٍ، ولَمَّا بَلَغَ صَاعِقَةً عَادٍ وَثَمُودَ أَمَسَكْتُ بِفِيهِ، وناشدته بالرَّحْمِ أَنْ يَكْفُفَ، وقد علمتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا إِذَا قَالَ شَيْئًا لَمْ يَكْذِبْ، فَخِفْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ الْعَذَابُ.

[﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِّبَهُمْ عَذَابَ الْغَزِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَخْرَى وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

[١٦-١٥]

﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تعظّموا فيها على أهلها بما لا يستحقّون به التعظيم؛ وهو القوّة وعظمُ الإجمام. أو: استعلوا في الأرضِ واستولوا على أهلها بغيرِ استحقاقٍ للولاية. ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾: كانوا ذَوِي أجسامٍ طِوالٍ وخلقٍ عظيمٍ، وبلغَ من قوتهم أَنَّ الرَّجُلَ كان يَنْزِعُ الصخرةَ من الجبلِ فيقتلعُها بيده. فإن قلت: القوّة هي الشدّة والصلابة في البنية، وهي نقيضُ الضعف، وأما القُدرةُ فما لأجله يصحُّ الفعلُ من الفاعلِ،

قوله: (وَأَمَّا الْقُدْرَةُ فَمَا لِأَجْلِهَا يَصِحُّ الْفِعْلُ مِنَ الْفَاعِلِ)، الانتصاف: فسّر الرَّزَّخَشَرِيُّ القُدرةَ بخلافِ ما قاله الْمُتَكَلِّمُونَ، ثُمَّ عادَ إلى تفسيريها بالقُدرة، وجعلَ الفرقَ بينهما أَنَّ قُدرةَ الله لذاته، وقُدرةَ المخلوقِ بقُدرة، فهو كما قال: زيدٌ أفضلُ من عمرو، بمعنى سلبِ القُدرة عن زيدٍ الأفضل، والحقُّ أَنَّ قُدرةَ العبدِ مُقارِنَةٌ لِفِعْله، لا قبله ولا بعده، غيرُ مُؤثِّرةٍ في إيجاده، وقُدرةَ الله - جلت قُدرة - مُؤثِّرةٌ في جميعِ المقدوراتِ أزلاً وأبداً عامّةً التعلُّقِ (١).

قال الإمام في «شرح أسماء الله الحسنى»: اتَّفَقَ الخائضونَ في تفسيرِ أسمائِهِ الحسنى على أَنَّ القُوَّةَ ها هنا عبارة عن كمالِ القُدرة، وعندِي أَنَّ كمالَ حالِ الشَّيْءِ في أَنْ يُؤثِّرَ يُسَمَّى قُوَّةً، وكمالَ حالِ الشَّيْءِ الأَقبَلُ الأَكْثَرُ من الغيرِ يُسَمَّى أيضاً قُوَّةً، فإنَّ حَمَلْنَا القُوَّةَ في حَقِّ الله تعالى

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٩٣).

من تميّز بذاتٍ أو بصحةٍ بنية، وهي نقيضة العجز، والله سبحانه لا يُوصَف بالقوّة إلا على معنى القدرة، فكيف صحَّ قوله: ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، وإنما يصحُّ إذا أُريد بالقوّة في الموضعين شيء واحد؟ قلتُ: القدرة في الإنسان هي صحّة البنية والاعتدال والقوّة والشدة والصلابة في البنية، وحقيقتها: زيادة القدرة، فكما صحَّ أن يقال: اللهُ أَقْدَرُ منهم، جاز أن يقال: أقوى منهم، على معنى: أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرون عليه بازدياد قدرهم. ﴿يَجْحَدُونَ﴾: كانوا يعرفون أنها حق، ولكنهم جحدوها كما يجحد المودع الوديعه، وهو معطوف على ﴿فَأَسْتَكْبِرُوا﴾، أي: كانوا كفّرة فسقة. الصرصر: العاصفة التي تُصرصر، أي: تُصوت في هبوبها. وقيل: الباردة التي تحرق بشدة بردها، تكرير لبناء الصرصر؛ وهو البرد الذي يصرصر؛ أي: يجمع ويقبض. ﴿مِحْسَاتٍ﴾ قرئ بكسر الحاء وسكونها. ونحس نحساً: نقيض سعد سعداً، وهو نحس. وأمانحس: على كونه كاملاً في التأثير في قوته هو كونه ثابتاً وحقاً لذاته؛ لأن كل ما كان بالذات لا يقبل الأثر.

قوله: (من تميّز بذاتٍ)، عن بعضهم: أي: تخصّص بذات الله، و«من» بيان «ما».

قوله: (جحدوها كما يجحد المودع الوديعه)، الرّاضب: الجحود: نفي ما في القلب ثباته، وإثبات ما في القلب نفيه. يقال: جحد جحوداً وجحداً، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] وتجحد تخصّص يفعل ذلك، يقال: رجل جحد شحيح، قليل الخير يظهر الفقر. وأرض جحد، قليل النبت^(١).

قوله: (أي: كانوا كفّرة فسقة)، والظاهر: كانوا فسقة كفّرة؛ لأن قوله: ﴿وَكَاثُوا بِتَابِتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ دل على كفرهم، وقوله: ﴿فَأَسْتَكْبِرُوا فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْحَقَّ﴾ دل على فسقهم؛ لأن الاستكبار طلب العلو وهو موجب فساد الأرض، قال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] فيكون ترقياً من الأدنى إلى الأعلى.

قوله: (﴿مِحْسَاتٍ﴾ قرئ بكسر الحاء): الكوفيون وابن عامر، والباقون: بسكونها^(٢).

(١) «مفردات القرآن» ص ١٨٧.

(٢) انظر: «حجة القراءات» ص ٦٣٥ و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣٤٨).

فإمّا مخفّفٌ نحس، أو صِفَةٌ على فَعَلٍ، كالضَّخْمِ وشبّهه، أو وَصَفٌ بمَصْدَرٍ. وقرئ: (لِتُذِيقَهُمْ) على أنّ الإِذَاقَةَ للرَّيحِ، أو لِلأَيَّامِ النَّحْسَاتِ. وأضافَ العذابَ إلى الخِزْيِ - وهو الذُّلُّ والاستِكانة - على أنه وَصَفٌ للعذابِ، كأنه قال: عذابٌ خِزْيٌ، كما تقول: فعلٌ السَّوءِ، تريدُ: الفِعلَ السيِّئَ، والدليلُ عليه قوله: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى﴾، وهو من الإِسْنَادِ المَجَازِيِّ، ووصفُ العذابِ بالخِزْيِ أبلغُ مِنْ وَصْفِهِمْ بِهِ، ألا تَرى إلى البُؤْسِ بين قولَيْكَ: هو شاعرٌ، و: له شِعْرٌ شاعرٌ.

[﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةٌ أَلْعَابِ الْهُونِ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وَبَجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٧-١٨﴾]

وقرئ: ﴿ثَمُودُ﴾ بالرفع والنصب منوناً وغير منون، والرفع أفصح؛ لوقوعه بعد حرفِ الابتداء.....

قوله: (عذابٌ خِزْيٌ) الأصل: خِزْيٌ، أُعِلَّ إِعْلَالٌ «قاصٍ»، أي: عذابٌ ذليلٌ؛ لأنَّ الخِزْيَ هو الذُّلُّ والاستِكانة، وإِنَّمَا المَعَذَّبُ ذليلٌ مُهان، فهو على الإِسْنَادِ المَجَازِيِّ. الجَوْهَرِيُّ: خِزْيٌ بالكسرِ يَخْزِي خِزْيًا: ذَلٌّ وهان. قال ابن السُّكَيْتِ: وقعَ في بليَّةٍ وأخزاهُ اللهُ^(١)، والدليلُ على أنه من إِضَافَةِ الموصوفِ إلى الصِّفَةِ، قوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى﴾ وَوصفُ العذابِ بالخِزْيِ أبلغُ من وَصْفِ الكفَّارِ بِهِ؛ لِمَا يَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّهُ بَلَغَتْ ذِلَّتُهُمْ إلى أن سَرَتْ إلى ما يُبْلِسُهُمْ من العذابِ نحو قولِكَ: شِعْرٌ شاعرٌ، أي: بَلَغَ الرَّجُلُ في الشَّاعِرِيَّةِ إلى أن شِعْرَهُ أيضاً شاعرٌ. قال المُتَنَبِّيُّ:

وما أنا وحدي قُلْتُ ذا الشُّعْرَ كُلَّهُ ولكنَّ شِعْرِي فيكَ من نَفْسِهِ شِعْرٌ

قوله: (قُرئ) ﴿ثَمُودُ﴾ بالرفع والنصب، الرَّفْعُ: هو المشهور، والنَّصْبُ: شاذٌ^(٢).

(١) «إصلاح المنطق» ص ٢٦٣.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣٤٩) و(٧: ٢٣٨).

وَقُرئَ بِضَمِّ النَّاءِ. ﴿فَهَدَيْتَهُمْ﴾: فَدَلَلْنَاهُمْ عَلَى طَرِيقِي الضَّلَالَةِ وَالرُّشْدِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهَدَيْتُهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]. ﴿فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾: فَاخْتَارُوا الدُّخُولَ فِي الضَّلَالَةِ عَلَى الدُّخُولِ فِي الرُّشْدِ. فَإِنْ قُلْتَ: أَلَيْسَ مَعْنَى هَدَيْتُهُ: حَصَلْتُ فِيهِ الْهُدَى؟ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُكَ: هَدَيْتُهُ فَاهْتَدَى، بِمَعْنَى: تَحْصِيلِ الْبَغْيَةِ وَحُصُولِهَا، كَمَا تَقُولُ: رَدَعْتُهُ فَارْتَدَعَ، فَكَيْفَ سَاعَ اسْتِعْمَالُهُ فِي الدَّلَالَةِ الْمَجْرَدَةِ؟ قُلْتَ: لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ مَكْنَهُمْ، وَأَزَاحَ عِلَلَهُمْ، وَلَمْ يُبَقِ لَهُمْ عُدْرًا وَلَا عِلَّةً، فَكَأَنَّهُ حَصَلَ الْبَغْيَةُ فِيهِمْ بِتَحْصِيلِ مَا يُوجِبُهَا وَيَقْتَضِيهَا. ﴿صَاعِقَةُ الْعَذَابِ﴾: دَاهِيَةُ الْعَذَابِ، وَقَارِعَةُ الْعَذَابِ. وَالهُونُ: الْهَوَانُ، وَصَفَ بِهِ الْعَذَابَ مَبَالِغَةً، أَوْ أَبَدَلَهُ مِنْهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْقُرْآنِ حُجَّةٌ عَلَى الْقَدْرِيَّةِ - الَّذِينَ هُمْ مَجُوسٌ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِشَهَادَةِ نَبِيِّهَا ﷺ، وَكَفَى بِهِ شَاهِدًا - إِلَّا هَذِهِ لَكَفَى بِهَا حُجَّةٌ.

قَوْلُهُ: (وَقُرئَ بِضَمِّ النَّاءِ) وَعَنْ بَعْضِهِمْ: التَّمْدُ، قَلَّةُ الْمَاءِ، يُقَالُ: رَكِيَّةٌ تَمُودٌ، قَلِيلَةُ الْمَاءِ. وَالتَّمُودُ جَمْعُ تَمِدٍّ، فَكَأَنَّهُمْ سُمُّوا بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَلِيلِي الْمَاءِ.

قَوْلُهُ: (وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْقُرْآنِ حُجَّةٌ عَلَى الْقَدْرِيَّةِ - الَّذِينَ هُمْ مَجُوسٌ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِشَهَادَةِ نَبِيِّهَا صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَكَفَى بِهِ شَاهِدًا - إِلَّا هَذِهِ؛ لَكَفَى بِهَا حُجَّةٌ) أَنْطَقَهُ اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ.

نَبَّهَ أَهْلَ السُّنَّةِ عَلَى الْأَدِلَّةِ الَّتِي تَلْزِمُهُمْ وَالْحُجَّةَ الَّتِي تَبْهَرُهُمْ، وَهَاهُنَا أَبْحَاثٌ لَا بَدَّ مِنْهَا، وَهِيَ أَنَّ الْقَدْرَ مَا هُوَ لُغَةٌ وَعُرْفًا؟ ثُمَّ بَعْدَ تَحْقِيقِهِ مَنْ أَوْلَى بِهِذِهِ التَّسْمِيَةِ؟ ثُمَّ مَا وَجْهُ مُنَاسَبَةِ الْقَدْرِيِّ بِالْمَجُوسِ؟ ثُمَّ تَلْفِيْقُ الْآيَةِ بَعْدَ تَحْقِيقِ مَعْنَاهَا.

فَنَقُولُ - وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ -: أَمَّا تَحْقِيقُ الْقَدْرِ لُغَةً فَقَدْ ذَكَرَ فِي «الْأَسَاسِ»: هُوَ قَادِرٌ مُقْتَدِرٌ وَقُدْرَةٌ وَمَقْدِرَةٌ، وَأَقْدَرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَادَرْتُهُ، قَاوَيْتُهُ. وَالْأُمُورُ تَجْرِي بِقَدْرِ اللَّهِ وَمَقْدَارِهِ وَتَقْدِيرِهِ وَأَقْدَارِهِ وَمَقَادِيرِهِ.

الْجَوْهَرِيُّ: الْقَدْرُ مَا يُقَدِّرُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْقَضَاءِ. وَقَالَ أَبُو سَلِيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ (١): مَعْنَى

(١) «معالم السنن» (٣: ١٥٨).

الْقَدْرِ والقضاء الإخبار عن تقدّم علم الله بما يكون من أفعال العباد وأكسابهم وصدورها عن تقدير منه وخلق له خيرها وشرّها. والقدر اسم لما صدر مُقدّراً عن فعل القادر، كاهدم والقبض اسم لما صدر عن فعل الهادم والقباض. يُقال: قَدَرْتُ الشَّيْءَ بالتَّخْفِيفِ والتَّثْقِيلِ. وأما النَّقْلُ فقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩] وسيجيءُ تقريره.

وروينا عن الترمذي وأبي داود: قال عبد الرحمن بن سليم: قَدِمْتُ مَكَّةَ فَلَقِيْتُ عَطَاءَ بْنَ رَبَاحٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، إِنَّ بِالْبَصْرَةِ قَوْمًا يَقُولُونَ: لَا قَدَرَ. قَالَ: يَا بَنِيَّ، أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَاقْرَأْ «الزُّخْرُفَ» فَقَرَأْتُ: ﴿حَمِّمٌ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف: ١-٢] إلى قوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤] قال: أتدري ما الكتاب؟ فقلت: لا. قال: فَإِنَّهُ كِتَابٌ كَتَبَهُ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فِيهِ أَنْ فِرْعَوْنَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَفِيهِ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] (١).

وعن البخاري ومسلم، عن عُمَرَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»، الحديثُ المُسْتَفِيضُ (٢). وعن مسلم ومالك وأحمد بن حنبلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدْرِ حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ» (٣).

والأحاديثُ المرويةُ في القدرِ لا تُحصى كثرةً، فثبتَ بها أوردناه أن اسم القدر يُطلق على ما يُقدِّره اللهُ من الخير والشر، وبناء النسبة منه قَدَرِي، وهو يحتمل في نفسه أن يكون صفةً مدح وصفةً ذم، ويحتمل أن يُطلق على مَنْ يقول: إِنَّ الْمَقْدُورَاتِ كُلَّهَا بِخَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَلَى مَنْ يُثَبِّتُ لِلغَيْرِ قُدْرَةً مُسْتَقِلَّةً، رَجَّحْنَا الثَّانِي لِكُونِهَا صِفَةً ذَمًّا، وَأَنَّ الْقَوْلَ بِإِثْبَاتِ الْقُدْرَةِ لِلغَيْرِ عَلَى خِلَافِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَوْلِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، فَثَبَّتَ أَنَّ هَذَا الْوَصْفَ بِالْمُعْتَزِلَةِ أَوْلَى.

(١) أخرجه الترمذي (٢١٥٥)، ولم أجده في سنن أبي داود.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (١٠)، عن أبي هريرة، وأخرجه مسلم (٨) عن عمر.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٥٥)، ومالك في «الموطأ» (٢: ٨٩٩)، وأحمد (٥٨٩٣) عن ابن عمر.

وروينا عن أبي داود عن حُدَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ، وَمَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا قَدْرَ، مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ فَلَا تَشْهَدُوا جَنَازَتَهُ، وَمَنْ مَرَضَ مِنْهُمْ فَلَا تَعُودُوهُ، وَهُمْ شَيْعُ الدَّجَالِ»^(١). وَعَنْهُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ»^(٢). الْحَدِيثُ.

وَأَمَّا وَجْهُ الْمَشَابَهَةِ فَإِنَّ الْقَدَرِيَّةَ يُثْبِتُونَ قَادِرًا مُسْتَقِلًّا غَيْرَ اللَّهِ، كَمَا أَنَّ الْمَجُوسَ يُثْبِتُونَ قَادِرِينَ فَاعِلِينَ: فَاعِلٌ خَيْرٌ مَحْضٍ وَفَاعِلٌ شَرٌّ مَحْضٌ، وَيُسَمَّوْنَ الْأَوَّلَ بِيَزْدَانَ وَالثَّانِيَّ بِأَهْرَمَانَ. وَأَمَّا تَفْسِيرُ الْهَدَايَةِ بِالذَّلَالَةِ الْمَوْصِلَةَ إِلَى الْبُغْيَةِ حَقِيقَةً، وَبِمُجَرَّدِ الذَّلَالَةِ مَجَازًا عَنْ إِزَاحَةِ الْعِلَّةِ وَتَمَكِينِهِمْ عَلَى الْإِيْمَانِ، فَقَوْلٌ مُجَرَّدٌ عَنْ تَقْلِيدِ الْمَذْهَبِ وَقَدْ اسْتَقْصَيْنَا الْقَوْلَ فِيهَا فِي «الْبَقْرَةَ».

قَالَ صَاحِبُ «الْإِنْتِصَافِ»: الْهَدَى مِنْ اللَّهِ خَلَقَ الْهَدَى فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْإِضْلَالُ خَلَقَ الْإِضْلَالَ فِي قُلُوبِ الْكَافِرِينَ، وَقَدْ اسْتَعْمَلَا مَجَازًا فِي غَيْرِ ذَلِكَ، فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمَرَادُ الْبَيَانَ، وَقَدْ اتَّفَقَ الْفَرِيقَانِ عَلَى أَنَّ الْهَدَى هَاهُنَا مَجَازٌ غَيْرَ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ يَحْمِلُونَهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَاضِعِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَالْمُعْتَرِئَةَ يَجْعَلُونَهُ مَجَازًا فِي جَمِيعِ مَوَارِدِهِ، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ؟ وَأَيُّ دَلِيلٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِأَهْلِ الْبِدْعَةِ^(٣)؟

قَالَ الْإِمَامُ: قَالَتِ الْمُعْتَرِئَةُ: الْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى يَنْصِبُ الدَّلَائِلَ وَيَزِيحُ الْأَعْذَارَ وَالْعِلَلَ؛ إِلَّا أَنَّ الْإِيْمَانَ يَحْصُلُ مِنَ الْعَبْدِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ﴾ يَدُلُّ عَلَى نَصْبِ الْأَدَلَّةِ وَإِزَاحَةِ الْعِلَّةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَسْتَحْبِبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهَدَى﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ آتَوْا بِذَلِكَ الْعَمَى^(٤).

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩٢)، والبخاري (٢٩٣٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٩١)، والحاكم في «المستدرک» (٢٨٦)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٤٩٤).

(٣) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٩٤).

(٤) «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٥٥٤).

والجواب من وجهين: أحدهما: أنه صَدَرَ عنهم ذَلِكَ العمى؛ لأنهم استحَبوا تحصيلَهُ فليَمَّ وَقَعَ في قلوبهم هذه المحبَّة دونَ محبَّةِ ضِدِّهِ؟ فإن حصلَ لا لِمُرَجِّحٍ فهو باطل، وإن كان من العَبْدِ عَادَ الطَّلَبُ، وإن كانَ من الله فهو المطلوب. وثانيهما: أنه تعالى قال: ﴿فَأَسْتَحَبُّوا أَعْمَى عَلَى الْهَدَى﴾، ومن المعلوم أن أحداً لا يُحِبُّ العمى والجهل؛ لكونه عمى وجهلاً، بل ما لم يُطَلِّقَ فيها كونها بصيرةً وعلماً لا يُرَغَّبُ فيه، فإقدامُهُ على اختيارِ ذَلِكَ الجهلِ لا بدَّ أن يكونَ مسبوqاً بجهلٍ آخَرَ لا عن اختيارٍ منه.

ثم قال الإمام: شرَّعَ صاحبُ «الكشاف» هاهنا في سفاهة عظيمة والأولى ألا يُلتَفَتَ إليه؛ لأنه وإن كان سعى سعيًا حسنًا فيما يتعلَّقُ بالألفاظ؛ إلا أنه كان بعيداً من هذه المعاني^(١).

وقلت: هذا يُشعرُ بأنَّ الإمامَ أقرَّ أن ظاهرَ الألفاظِ التنزيلية مع المصنَّف، لكنَّ دلائلَ العقلِ لا تساعدُ عليه، وليس كذلك؛ لأنَّ الألفاظَ أيضاً تنبو عن تفسيره، وبيانه: أنا نوافقه أن الهدى هاهنا مُستعملٌ في مجرَّدِ الدلالةِ إمَّا مجازاً على ما قال أو حقيقةً إذا قلنا بالاشتراك، لكنَّ الخلافَ في آيةِ البيانِ والدلالة، أو لإزاحةِ العلةِ والتَّمكينِ على الهدى بمثابة تحصيل البُغْيَةِ فيهم بتحصيلِ ما يوجبُها فليُنظَرِ إلى مقتضى المقامِ ليظهرَ الحق، فإنه كثيراً ما يَصْرَفُ اللَّفْظُ المستقيم من جهةِ النَّحوِ واللُّغَةِ عن موضِعِهِ للتَّناسُبِ المعنويِّ كما فعلَ في قوله: ﴿فَأَمَّا نُمُودٌ فَأَهْلِكُوكُمْ بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوكُمْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة آية: ٥-٦] قال: «قيل: الطَّاغِيَةُ مُصَدَّرٌ كالعافية، أي: بطغيانهم، وليسَ بذلك؛ لعدمِ الطَّباقِ بينها وبين قوله: ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾»، وفسرها بالواقعةِ المُجاوِزةِ للحدِّ في الشدَّةِ لتوافقِ قوله: بالعافية.

وفي هذا المقامِ أغمَضَ عن ذَلِكَ عَصِيَّتَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ قوله: ﴿وَأَمَّا نُمُودٌ فَهَدَيْتَهُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ﴾ وهما تفصيلٌ لِمَا أُجْمِلُ، ونَشْرُ لِمَا لُفَّ في قوله: ﴿أَنْذَرْتَهُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَنُمُودَ * إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَبَيْنَ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُسَكَّنًا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ ألا ترى كيف جمعتها وعمَّ في قوله:

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ * حَقٌّ إِذَا مَا جَاءَ وَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ * وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [١٩-٢١]

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾؟ قال: يحشر الله عزَّ وجلَّ أعداء الله الكفار من الأولين والآخرين، فإنَّ قوله: «فَهَدَيْنَاهُمْ» في مُقَابِلِ ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ ﴾ وأنَّ قوله: ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ في مُقَابِلِ ﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ الآية، وكذا في قوله: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ فصيحةٌ تُفْصِحُ عن محذوف، أي فهَدَيْنَاهُمْ فاستكبروا، بدلالة قرينتها، فظهر أنَّ المراد من قوله: «فَهَدَيْنَاهُمْ» دَلَلْنَاهُمْ إلى الإيِّان وَبَيَّنَّا لَهُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ، يعني: أرسلنا إليهم صالحاً يدعوهم إلى التَّوْحِيدِ والعبادة فاستحبُّوا العمى على الهدى فأحبُّوا التَّقْلِيدَ والإقامة على ما كانوا عليه من الكُفْرِ والضَّلالة. ويؤيِّدُ هذا التفسير إجماعُ المُفسِّرين قاطبة.

قال محيي السنَّة: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ دَعَوْنَاهُمْ. قال مجاهدٌ وقال ابنُ عَبَّاسٍ: بَيَّنَّا لَهُمْ سَبِيلَ الْهُدَى. وقيل: دَلَلْنَاهُمْ على الخير والشرِّ، كقوله: ﴿ هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ [الإنسان: ٣] ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ فاختاروا الكُفْرَ على الإيِّان^(١).

وروى الزَّجَّاجُ عن قتادة: بَيَّنَّا لَهُمْ طَرِيقَ الْهُدَى وطريقَ الضَّلالة^(٢). وروى الواحِدِيُّ عن الفراء: دَلَلْنَاهُمْ مَذْهَبَ الْخَيْرِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ فاختاروا الكُفْرَ على الإيِّان، وعليه أوَّلُ كلامه^(٣). وهذا القَدْرُ لا يمنعُ من تقديرِ الله فيهم الكُفْرَ؛ لأنَّ القولَ بالكسْبِ حق، وإذا وافقَ أقوالُ المُفسِّرينَ ذَلِكَ النِّظْمُ السَّرِّيُّ كَيْفَ يُتَوَهَّمُ أَنَّ الألفاظَ تساعِدُ قوله، والحمدُ لله على ذَلِكَ.

(١) «معالم التنزيل» (٧: ١٦٩).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٨٣).

(٣) «تفسير الوسيط» (٤: ٢٩).

قُرئ: ﴿يُحْشَرُ﴾ على البناء للمفعول، و(نَحْشُرُ) بالنون وضَمَّ الشين وكسرها، و: (يَحْشُرُ): على البناء للفاعل، أي: يَحْشُرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿أَعْدَاءُ اللهِ﴾: الكفار من الأولين والآخرين. ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي: يُجْبَسُ أَوْلَهُمْ على آخرهم، أي: يُسْتَوْقَفُ سِوَابِقِهِمْ حتى تَلْحَقَ بِهِمْ تَوَالِيهِمْ، وهي عبارة عن كثرة أهل النار نسأل الله أن يُجِيرَنَا مِنْهَا بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ. فَإِنْ قُلْتَ: ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿حَقَّ إِذَا مَا جَاءَهَا﴾ ما هي؟ قلت: مَزِيدَةٌ لِلتَّكْيِيدِ، ومعنى التأكيد فيها: أَنَّ وَقْتَ مَجِيئِهِمُ النَّارَ لَا مَحَالَةَ أَنْ يَكُونَ وَقْتُ الشَّهَادَةِ عَلَيْهِمْ، وَلَا وَجْهَ لِأَنْ يَخْلَوْا مِنْهَا. ومثله قوله: ﴿أَنْفَعُ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنُكُمْ بِهِ﴾ [يونس: ٥١] أي: لَا بَدَّ لَوْ قَتِ وَقُوعِهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ وَقْتُ إِيْمَانِهِمْ بِهِ. شهادة الجلودِ بِالْمُلَامَسَةِ الْحَرَامِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ نَمَا يُفْضِي إِلَيْهَا مِنَ الْمَحْرَمَاتِ. فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَعْضَاؤُهُمْ وَكَيْفَ تَنْطَلِقُ؟ قلت: اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُنْطِقُهَا كَمَا أَنْطَقَ الشَّجَرَةَ بِأَنْ يَخْلُقَ فِيهَا كَلَامًا. وقيل: المرادُ

قوله: (قُرئ) ﴿يُحْشَرُ﴾ على البناء للمفعول) نافع: «ويوم نحشر» بالنون مفتوحة وضَمَّ الشين، و«أعداء الله» بالنصب. والباقون: بالياء مضمومة وفتح الشين، «أعداء الله» بالرفع^(١).

قوله: (وهي عبارة عن كثرة أهل النار)، أي: كناية. قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَحْشَرٌ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧] أي: يُجْبَسُ أَوْلَهُمْ على آخِرِهِمْ حتى يَلْحَقَهُمُ التَّوَالِي فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد، وَذَلِكَ الكثرة العظيمة. قَالَ صَاحِبُ «الكَشْفِ»: عَامِلُ الظَّرْفِ - يعني «يَوْم» - مَا دَلَّ عَلَيْهِ ﴿يُوزَعُونَ﴾^(٢).

قوله: (الله تعالى يُنْطِقُهَا كَمَا أَنْطَقَ الشَّجَرَةَ بِأَنْ يَخْلُقَ فِيهَا كَلَامًا)، قَالَ الإِمَامُ: فعلى هذا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ التَّكَلُّمُ هُوَ اللهُ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي فَعَلَ الْكَلَامَ لَا مَا كَانَ مَوْصُوفًا بِهِ كَمَا قُلْتُمْ فِي الشَّجَرَةِ، كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى مُتَكَلِّمٌ هُنَاكَ لَا الشَّجَرَةَ، كَذَلِكَ هَاهُنَا الشَّاهِدُ هُوَ اللهُ تَعَالَى

(١) انظر: «حجة القراءات» ص ٦٣٥، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣٥٠).

(٢) «كشف المشكلات» (٢: ١١٨٧) بتحقيق د. محمد الدالي، و(٢: ٢٨٦) بتحقيق د. عبد القادر

بالجلود: الجوارح. وقيل: هي كناية عن الفروج. أراد بـ ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾: كل شيء من الحيوان، كما أراد به في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] كل شيء من المَقْدُورات، والمعنى: أن نُظَفْنَا ليس بعجبٍ من قُدرة اللّهِ الذي قَدَرَ على إنطاقِ كلِّ حيوان، وعلى خَلْقِكُمْ وإنشائِكُمْ أوَّلَ مرَّةٍ، وعلى إعادَتِكُمْ ورَجْعِكُمْ إلى جِزائِهِ. وإنما قالوا لهم: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾؛ لما تعاضَمَهم مِنْ شهادتها وكَبُرَ عليهم من الإفْضاحِ على أَلْسِنَةِ جِوارِحِهِم.

[﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ٢٢-٢٣]

والمعنى: أنكم كنتم تَسْتَرُونَ بِالْحَيْطَانِ وَالْحُجُبِ عِنْدَ ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ، وَمَا كَانَ اسْتِتَارِكُمْ ذَلِكَ خِيفَةً أَنْ تَشْهَدَ عَلَيْكُمْ جِوَارِحُكُمْ؛ لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غَيْرَ عَالِمِينَ بِالْأَعْضَاءِ، وَظَاهِرُ الْقُرْآنِ بِخِلَافِهِ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا لَهَا: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

وَأَمَّا عَلَى مَذْهَبِنَا فَسَهْلٌ؛ لِأَنَّ الْبَيِّنَةَ لَيْسَتْ شَرْطًا لِلْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، فَاللَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ الْعَقْلِ وَالْقُدْرَةِ وَالنُّطْقِ كُلِّ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ^(١).

قوله: (مَا كَانَ اسْتِتَارِكُمْ ذَلِكَ خِيفَةً أَنْ تَشْهَدَ عَلَيْكُمْ) جَعَلَ «أَنْ تَشْهَدَ» مَفْعُولًا لَهُ بِإِضْمَارِ الْمُضَافِ؛ لِأَنَّ «يَسْتَرُ» لَا يَتَعَدَى بِنَفْسِهِ فَلَا يَكُونُ مَفْعُولًا بِهِ. وَقَالَ صَاحِبُ «الْكَشْفِ»: التَّقْدِيرُ مِنْ أَنْ يَشْهَدَ، فَحَذَفَ^(٢)، ثُمَّ كَلَامُهُ الْمُسْتَدْرَكُ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ﴾ هَذَا الْمَفْعُولُ لَهُ، وَهَذَا قَالَ: «وَلَكِنْ كُنْتُمْ إِنَّمَا اسْتَرْتُمْ لظَنِّكُمْ»، الْمَعْنَى: لَمْ يَكُنْ اسْتِتَارِكُمْ لِحُوفِ الْحِسَابِ فِي

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٥٥٦).

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١١٨٧) بتحقيق د. محمد الدالي، و(٢: ٢٨٦) بتحقيق د. عبد القادر

بشهادتها عليكم، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلاً، ولكنكم إنما استترتم لظنكم ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا﴾ كنتم ﴿تَعْمَلُونَ﴾؛ وهو الحقيقتان من أعمالكم، وذلك الظنُّ هو الذي أهلككم. وفي هذا تنبيهٌ على أنَّ من حقِّ المؤمن أن لا يذهب عنه ولا يزُلَّ عن ذهنه أنَّ عليه من الله عيناً كالثَّمة ورقبياً مُهيمناً، حتى يكون في أوقاتِ خلواته من ربه أهيبٌ وأحسن احتشاماً وأوفر تحفظاً وتصوناً منه مع الملائكة، ولا يتبسَّط في

يوم التناد؛ لأنكم قومٌ دُهرية، ولكنَّ الخوفَ لأهلِ الفضيحةِ في الدنيا من أبناء جنسكم؛ فاستترتم منهم لا من العالمِ بالسرِّ والحقيقتان؛ لأنكم كنتم تعتقدون اعتقادَ الفلاسفة - خذلمهم الله - أنَّ الله غيرُ عالمٍ بما تفعلون في الحُجُبِ من ارتكابِ الفواحش.

قوله: (وذلك الظنُّ هو الذي أهلككم) إنما أدخل ضميرَ الفعل ليؤدِّن أنَّ الكلامَ فيه تخصيص، وذلك من تعريفِ الظنِّ الموصوفِ بالموصلة، وإيقاعه خبراً لاسمِ الإشارةِ الدالِّ على ما بعده. جديرٌ من قبله لأجلِ اتصافه بذلك الظنِّ الفاسدِ ثم تكريرِ الظنِّ؛ لأنَّ الأصل: ذلكم أرداكم، وعلى هذا أيضاً إذا جعل ﴿ظَنُّكُمْ﴾ بدلاً من «ذلكم»، لأنه حينئذٍ توضيحٌ للواضح؛ وتوكيدٌ للنسبةِ مزيداً للتقدير، وجعلَ المشارَ إليه كالمُشخِّصِ المعينِ الذي لا نزاعَ فيه كما سبق في الفاتحة، «ذلكم» مبتدأ، و﴿ظَنُّكُمْ﴾ الخبر، و﴿الَّذِي﴾ نعتٌ للخبرِ أو خبرٌ بعدَ خبر، و﴿أَزْدَنْكُمْ﴾ خبرٌ آخر، ويجوزُ أن يكونَ الجميعُ صفةً أو بدلاً، و﴿أَزْدَنْكُمْ﴾ الخبر، ويجوزُ أن يكونَ ﴿أَزْدَنْكُمْ﴾ حالاً.

قال صاحبُ «الكشف»: تقديرُه: ذلكم ظنُّكم مُردِّياً إياكم^(١).

قوله: (أَنَّ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ عَيْنًا كَالثَّمَّةِ وَرَقِيبًا مُهَيْمِنًا)، فيه تجريد.

قوله: (مِنْ رَبِّهِ أَهْيَبٌ)، «مِنْ رَبِّهِ» متعلِّقٌ بـ«أهيب»، يقال: هاب منه. وقوله: «احتشاماً» يُقدَّرُ له مثلُ ذلك، أي؛ احتشاماً من ربه؛ لأنَّ المصدرَ لا يتقدَّمُ معمولُه، ولا معمولُ التمييزِ يتقدَّمُ على عاملِ التمييز، وكذا لا يتقدَّمُ معمولٌ تنازَعَ فيه العاملانِ على

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١١٨٧) بتحقيق د. محمد الدالي، و(٢: ٢٨٧) بتحقيق د. عبد القادر

سَرَّهُ مُرَاقِبَةً مِنَ التَّشْبِيهِ بِهَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ. وَقُرئ: (ولكن زعمتم). ﴿وَذَلِكُمْ﴾: رفعٌ بالابتداء، و﴿ظَنُّكُمْ﴾ و﴿أَزْدَنْكُمْ﴾: خبران، ويجوزُ أن يكون ﴿ظَنُّكُمْ﴾ بدلاً من ﴿وَذَلِكُمْ﴾، و﴿أَزْدَنْكُمْ﴾ الخبر.

[﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ * وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِيرِينَ ﴾ [٢٤-٢٥]

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا﴾ لم يَنْفَعَهُم الصبر، ولم يَنْفَكُوا به من النَّوَاءِ في النار، ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾: وإن يَسْأَلُوا العُتْبَى - وهي الرجوعُ لهم إلى ما يُجْبُونَ جَزَعاً مما هم فيه -

العاملين، ولكن قوله: «منه» مما تنازع فيه أسماءُ التفضيل، وضميره يعود إلى المؤمن. وقوله: «مع الملائ» مقابل لقوله: «في أوقاتِ خَلَوَاتِهِ» فهو مثل قولك: زيدٌ قائمٌ أحسنُ منه قاعداً في تفضيل إحدى حالتي الشيء على الأخرى، تلخيصه يكون في الخلوّة أحسن احتشاماً من ربه من نفسه مع الملائ.

قوله: (وإن يسألوا العُتْبَى، وهي الرجوعُ إلى ما يجبون)، الجوهري: أعتبني فلان، إذا عاد إلى مسرتي راجعاً عن الإساءة، والاسمُ منه: العُتْبَى. واستعتب، طلب أن يعتب، يقال: استعتبتُه فأعتبني، أي؛ استرضيته فأرضاني.

الراغب: العتبُ كلُّ مكانٍ نابٍ بنازله، ومنه قيل للمرقاة ولأسكفة البابِ عتْبَةٌ. واستعير العتبُ والمعتبةُ لغلظةِ يدها الإنسان في نفسه على غيره، وأصله من العتبِ وبحسبه قيل: خَشِنْتُ بصدري فلانٍ ووجدتُ في صدره غِلْظَةً، وقولهم: عتبتُ فلاناً، أي: أبرزتُ له الغِلْظَةَ التي وجدتُ له في الصدر، وأعتبتُ فلاناً: حملته على العتب، ويقال: أعتبته: أزلتُ عتبه. والاستعتابُ: أن يذكر عتبه ليعتب، يقال: استعتبتُ فلاناً. ويقال: لك العتبي، وهو إزالةُ ما لأجله يعتب، وبينهم أعتوبة، أي: ما يتعاتبون به^(١).

(١) «المفردات في غريب القرآن» ص ٥٤٤.

لم يُعْتَبُوا: لم يُعْطُوا العُتْبَى، ولم يُجَابُوا إليها، ونحوه قوله عزَّ وعلَا: ﴿أَجْرِنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]. وقرئ: وإن يُسْتَعْتَبُوا ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أي: إن سئلو أن يُرْضُوا ربَّهم فما هم فاعِلُونَ، أي: لا سبيلَ لهم إلى ذلك. ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾: وقدَّرنا لهم، يَعْنِي مُشْرِكِي مَكَّة. يقال: هَذَا ثَوْبَانِ قَيْضَانِ: إذا كانا متكافئَيْن. والمُقَايِضَةُ: المُعَاوِضَةُ. ﴿قُرْآنًا﴾: أُخْدَانًا مِنَ الشَّيَاطِينِ، جَمْعُ قَرِينٍ، كقوله: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]. فإن قلت: كيف جاز أن يُقَيِّضَ لهم القرآن من الشياطين وهو ينهاهم عن أتباع خُطواتهم؟ قلت: معناه: أنه خَدَّهْمَ وَمَنَعَهُم التوفيقَ لِتصميمهم على الكُفْرِ، فلم يبقَ لهم قُرْآنٌ سوى الشياطين.

قوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ وقدَّرنا لهم) رُوِيَ عن المصنف: ومنه: قَيَّضَ البِيضَةَ: قَشَّرَهَا؛ لأنه لباسُها، واللباسُ بقدرِ اللباس، قال معاوية رضي الله عنه: ولو أن يزيدَ قياضَ غوطةِ دمشقَ رجالاً ما رضيت.

الراغب: في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ [الزخرف: ٣٦]، أي: تُنْحَ لِيَسْتَوِي عَلَيْهِ استيلاء القِيضِ على البِيضِ^(١).

قوله: (المقايضة: المعاوضة)، الجوهري: قايضتُ الرجلَ مقايضةً، أي: عاوضته بمتاع؛ وهما قِيضَانِ، كما تقول: بيعان.

قوله: (كيف جاز أن يُقَيِّضَ لهم القرآن من الشياطين وهو ينهاهم عن أتباع خُطواتهم؟)، الانتصاف: الآية على ظاهرها، فالله تعالى ينهى عما يريد وقوعه، وبذلك صرحت هذه الآية، فتقول لمن يخرجها عن موضعها: ولو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها صلوات الله عليه سوى هذه الآية لكفى بها، فهذا موضع هذه المقالة التي أنطقه الله بها^(٢).

(١) «المفردات في غريب القرآن» ص ٦٨٧.

(٢) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٤: ١٩٦).

والدليل عليه: ﴿وَمَنْ يَعِشْ﴾ ﴿نَقِيضٌ﴾. ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: ما تقدم من أعمالهم وما هم عازمون عليها. أو ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا وأتباع الشهوات، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: من أمر العاقبة، وأن لا بعث ولا حساب. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يعني: كلمة العذاب، ﴿فِي أَمْرٍ﴾: في جملة أمم. ومثل «في» هذه ما في قوله:

إِنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ (١) مَا فُوكَأَفِي آخِرِينَ قَدْ أَفَكُوا

يريد: فأنت في جملة آخرين، وأنت في عداد آخرين، لست في ذلك بأوحد. فإن قلت: ﴿فِي أَمْرٍ﴾ ما محله؟ قلت: محله النصب على الحال من الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: حق عليهم القول كائنين في جملة أمم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾: تعليل لاستحقاقهم العذاب. والضمير لهم وللأمم.

[﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ * فَلْيُذِقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ * ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ أَلَّاهُمُ النَّارُ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ٢٦-٢٨]

قوله: ﴿(وَمَنْ يَعِشْ﴾ ﴿نَقِيضٌ﴾)، أي: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، فأوقع ﴿نَقِيضٌ﴾ - وهو فعل الله - جزاء للشرط ومسبباً عن فعل العبد خلقاً، وعند أهل السنة: من فعله كسباً.

وقلت: ويؤيد قول صاحب «الانتصاف» قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ﴾ أي: حق عليهم قولنا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

قوله: (مأفوكاً)، أي: مصروفاً، والإفك: الصرف، وأفكته: صرفته بالكذب والباطل، والأفك: الذي يصد الناس عن الحق بالكذب.

(١) في الأصل الخطي كتب فوقها: «المروءة»، كأنها رواية أخرى.

قُرئ: ﴿وَاللَّغَوَاتِ﴾ بفتح الغين وضمها. ويقال: لَغِيَ يَلْغَى، وَلَغَا يَلْغُو، وَاللَّغَوَاتُ: الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته. قال:

مِنَ اللَّغَا وَرَقَّتِ التَّكْلُمُ

والمعنى: لا تسمعوا له إذا قُرئ، وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات

قوله: (قُرئ: ﴿وَاللَّغَوَاتِ﴾ بفتح الغين وضمها)^(١) الفتح مشهورة، والضم شاذ، قال صاحب «المطلع»: هي قراءة عيسى بن عمر، وهو على الفتح من حد: صَنَعَ، وعلى الضم من حد: دخل، قاله الأخفش، وفي «ديوان الأدب» من حد علم يقال: لغا يلعو لغواً ولغى يلقى، أو لغى يلقى لغى.

قوله: (من اللغا ورفقت التكلم) أوله:

وَرُبَّ أَسْرَى بِالْحَجِيجِ الْكُظْمِ

وفي الشرح:

أَسْتَغْفِرُ الرَّحْمَنَ ذَا التَّعْظَمِ

قوله: (بالخرافات)، النهاية: خرافة، اسم رجل من عذرة استهوته الجن، وكان يحدث بما رأى فكذبوه وقالوا: حديث خرافة، وأجروه على كل ما كذبوه من الأحاديث، وعلى كل ما يُسْتَمْلَحُ وَيُتَعَجَّبُ منه، وفي الحديث: «أنه قال خرافة حق»^(٢).

الجوهري: الرأء فيه مخففة ولا يدخله الألف؛ لأنه معرفة؛ إلا أن يريد به الخرافات الموضوعية من حديث الليل. روي عن المصنف أنه قال: المسموع من العرب الخرافات بالتشديد.

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣٥٦).

(٢) ذكره السخاوي في «المقاصد الحسنة» دون بيان إسناده. لكن في «المعجم الأوسط» للطبراني (٦٦٨) عن عائشة: «إن أصدق الحديث حديث خرافة»، قال في «مجمع الزوائد» (٤: ٣١٥): في إسناده علي بن أبي سارة وهو ضعيف. وأخرجه أبو يعلى (٤٢٤٢)، وأحمد (٢٥٢٤٤).

والهذيان والرمل وما أشبه ذلك؛ حتى تُخلطوا على القارئ وتُشوشوا عليه وتُغلبوه على قراءته. كانت قُرَيْشٌ تُوصِّي بذلك بعضهم بعضاً. ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يجوزُ أن يريدَ بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: هؤلاء اللّٰغِينِ والّٰمِرِينِ لهم باللغوِ خاصّة، وأن يذكر الذين كفروا عامّة؛ لِيَنْطَوُّوا تحتِ ذِكْرِهِمْ. وقد ذكّرنا إضافة ﴿أَسْوَأَ﴾

قوله: (والرمل)، الأساس: من المجازِ كلامٌ مُرْمَلٌ، أي مُزَيَّفٌ، وعن بعضهم: الرملُ الرجزُ يقالُ أراجيزُ العرب؛ وهو ما يقوله الصبيانُ من العربِ وما يقوله المقاتلةُ في الحربِ فيما بينهم.

الجوهري: الرَّمَلُ جنس من العروض.

قوله: (ويجوزُ^(١)) أن يريدَ بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يُروى بالواوِ وبغير الواوِ، ويُروى وأن يُذكَرَ الذين كفروا، ولكن ذكرُ الأولِ أصحُّ دراية؛ لأنَّ التقديرَ يجوزُ أن يريدَ بالذين كفروا هؤلاء اللّٰغِينِ وَضَعًا لِلْمُظَهَّرِ موضعِ المضمَرِ، ويجوزُ أن يُذكَرَ الذين كفروا عامّة، فيدخل فيه هؤلاء اللّٰغِينِ^(٢) دخولاً أولياً.

قوله: (وقد ذكرنا إضافة ﴿أَسْوَأَ﴾) أي: في سورة «الزمر» عند قوله تعالى: ﴿لِيُكْفَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الزمر: ٣٥] وذكرَ فيه أن إضافة «أَسْوَأَ» ليس من إضافة أفعلٍ إلى ما أُضِيفَ إليه لقصدِ الزيادةِ عليه، ولكن من إضافة الشيءِ إلى ما هو بعضُه من غير تفضيلٍ، كقولك: الأشجُّ أعدلُ بني مروان. لأنَّ التقديرَ: ليجزيهم أسوأَ جزاءِ الذي كانوا يعملون، وهذا غيرُ مستقيمٍ على التفضيلِ؛ لأنَّ الكفرةَ مجزيونَ بالعذابِ الشديدِ، وليس المرادُ أن بالعذابِ سوءاً وأَسْوَأَ، وأنهم مجزيونَ بالأسوأِ دونَ السوءِ، ويمكنُ أن تجرِيَ الإضافةُ على ظاهرِها، ويكونُ عطفُ قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي﴾ الآية على قوله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾ الآية، على نحوِ عطفِ «جبريل» على «ملائكته»، كأنه قيل: فلنُذِيقَنَّ أولئك اللّٰغِينِ بما فعلوا من الشركِ والإفسادِ والعصيانِ عذاباً شديداً، وخصوصاً لنَجْزِيَنَّهُمْ أسوأَ

(١) كذا في الأصول الخطية، والواو ليست في «الكشاف»، وسيتكلم فيه المؤلف رحمه الله.

(٢) كذا في الأصول الخطية، والصواب: «اللاغون».

جزاء أعمالهم من الاستهزاء بآيات الله وتحقير القرآن المجيد، وقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوَافِيهِ﴾.

والنظم يساعد هذا التأويل؛ لأنه لما رتب ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾ على ما سبق وعطف عليه ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ بعد إثبات الكفر لهم والاستخفاف بكتاب الله المجيد علل استحقاق العذاب الشديد بوضع ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ موضع الضمير تقريراً، وعلل استحقاق الأسوأ بوضع ﴿أَعْدَاءَ اللَّهِ﴾ موضع ﴿هم﴾ تلويحاً، وأشير إلى الأسوأ - وهو قريب - باسم الإشارة الدال على البعد؛ ليؤذن بالفرق بين الجزاءين والبون بين الكفرتين ثم بين بأن هذا الجزاء الخاص موجه ذلك الاستخفاف تصريحاً بأن ختم الكلام بقوله: ﴿جَزَاءُ مَا كَانُوا يَأْتِينَا بِمَجْدُونٍ﴾ وأعاد بذكر الجزاء، ووضع الآيات موضع القرآن، وأوثر صيغة التعظيم تربية لتلك الفوائد وترشيحاً لها، وعبر عن اللغو بالجمود رداً للعجز على الصدر كما قال المصنف: «أي: جزاء بما كانوا يلغون فيها» فذكر الجمود الذي هو سبب اللغو، وهذا نوع من أنواع رد العجز على الصدر؛ لما بين قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوَافِيهِ﴾ الآية، وبين قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَأْتِينَا بِمَجْدُونٍ﴾ من التوافق المعنوي؛ لأن من يستهزئ بالقرآن لا بد أن يكون جاحداً له، فظهر أن الإضافة في الآية مما قصد بها الزيادة على ما أضيف إليه، ولما لحق المصنف هذا الأسوأ بذلك، نحن نلحق ذلك بهذا النثر بعضد هذا التقرير.

وفي هذه الاعتبارات تعريف بـمن لا يكون عند كلام الله المجيد خاضعاً خاشعاً متفكراً متدبراً، وتهديداً ووعيداً شديداً لمن يصدر عنه عند سماعه ما يشوش على القارئ ويخلط عليه القراءة، وإرعاد وإبراق لمن يدرك منه قلة مبالاة به؛ فضلاً عما ينبذه وراء ظهره؛ واشتغل بما ينافيه من العلوم المذمومة، فانظر إلى عظمة القرآن المجيد، وتأمل في هذا التعليل والتشديد، واشهد لمن عظمه وأجل قدره وألقى إليه السمع وهو شهيد بنور العظيم والدرجات المقيم، رزقنا الله وإياكم معاشر الإخوان توفير كلام الله وتوقير حرمته. واستنباط دقيق معانيه، وتحقيق مبانيه، ووقفنا بفضلِه وجوده للعمل بما فيه، إنه خير مأمور ونعم مسؤول.

بما أغنى عن إعادته. وعن ابن عباس: ﴿عَدَا أَبَاشِدًا﴾: يوم بدر. و﴿أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الآخرة، ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الأسوأ، ويجب أن يكون التقدير: أسوأ جزاء الذي كانوا يعملون؛ حتى تستقيم هذه الإشارة. و﴿النَّارُ﴾: عطف بيان للجزاء، أو خبرٌ مبتدأٌ محذوف. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿هَلُمُّ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾؟ قلت: معناه: أن النار في نفسها دارُ الخلد، كقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، والمعنى: أن رسولَ الله ﷺ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، وتقول: لك في هذه الدارِ دارُ السرور، وأنت تعني الدارَ بعينها. ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْحَدُونَ﴾ أي: جزاءً بما كانوا يلغون فيها، فذكرَ الجحودَ الذي سبب اللغو.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا نَحْتًا وَقَدَامًا يَكُونَانِ مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [٢٩]

﴿الَّذِينَ ضَلَّانَا﴾ أي: الشيطانين اللذين أضلانا ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾؛ لأن الشيطان على ضربين: جنِّي وإنسي، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال: ﴿الَّذِي يُوسِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٥-٦]. وقيل: هما إبليس وقابيل؛ لأنها سنا الكفر والقتل بغير حق. وقرئ: ﴿أَرْنَا﴾ بسكونِ الراء؛ لثقل الكسرة، كما قالوا في فخذ: فخذ.

قوله: ﴿أَنَّ النَّارَ فِي نَفْسِهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ قال ابنُ جنِّي^(١): ﴿هَلُمُّ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ وهي بنفسها دارُ الخلد، فكأنه جرَّد من الدارِ داراً، وعليه قولُ الأخطل:

بنزوة لَصَّ بعدما مرَّ مُضْعَبٌ بأشعثَ لا يفلَى ولا هو يقمَلُ

ومضعبٌ بنفسه هو الأشعث، كأنه استخلص منه أشعث.

قوله: ﴿وَقُرِّئَ «أَرْنَا»﴾ بسكونِ الراء) ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ وأبو شعيب، وقرأ أبو عمرو عن اليزيدي: باختلاسٍ كسرتها، والباقون: بإشباعها.

(١) «المحتسب» (٢: ٣٨).

(٢) انظر: «حجة القراءات» ٦٣٦، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣٥٧).

وقيل: معناه: أعطينا اللذين أضلانا. وحكوا عن الخليل: إنك إذا قلت: أرني ثوبك بالكسر، فالمعنى: بصريه، وإذا قلته بالسكون؛ فهو استيعطاء، معناه: أعطني ثوبك. ونظيره: اشتهاؤ الإيتاء في معنى الإعطاء. وأصله: الإحضار.

[إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَّلْنَا مِن عَفْوٍ رَحِيمٍ ﴿٣٠-٣٢﴾]

﴿ثُمَّ﴾ لتراخي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة وفضلها عليه؛ لأن الاستقامة لها الشأن كله، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]، والمعنى: ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته. وعن أبي بكر

قوله: (اشتهاؤ الإيتاء في معنى الإعطاء، وأصله: الإحضار)، الجوهرى: آتاه إيتاء، أي؛ أعطاه، وآتاه أيضاً، أي؛ أتى به، ومنه قوله تعالى: ﴿ءَايِنَا عَدَاءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢] أي؛ اتنا به.

قوله: (ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته) يعني لم يرد بالقول مجرد النطق فحسب؛ بل هو وما يستتبعه، وذلك أن هذا القول ادعاء من القائل بأنه رضي بالله رباً، والرضا بذلك إقرار بأن المعبود الخالق المنعم على الإطلاق مالكه ومدبر أمره، وذلك يوجب القيام بمقتضياته من الشكر باللسان وتحقيق مراضيه بالقلب والجوارح، وعلى هذا النهج ورد عن عبد الله بن مغلغل قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أحبك. قال: انظر ما تقول. فقال: والله إني لأحبك، ثلاث مرات، قال: إن كنت صادقاً فأعد للفقير تجفافاً، الفقير أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه». أخرجه الترمذي^(١)، وأنشد في معناه:

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٥٠)، والرويانى في «المسند» (٢: ٨٨)، والبيهقى في «شعب الإبراهيم» (٣: ٦٢).

الصديق رضي الله عنه: استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً. وعنه: أنه تلاها، ثم قال: ما تقولون فيها؟ قالوا: لم يُذنبوا. قال: حملتم الأمر على أشدّه. قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وعن عمر رضي الله عنه: استقاموا على الطريقة، لم يروغوا روغان الثعالب. وعن عثمان رضي الله عنه: أخلصوا العمل. وعن علي رضي الله عنه: أدوا الفرائض. وقال سفيان بن عبد الله الثقفي: قلت: يا رسول الله،

تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن طلب الحسنة لم يغلّه المهتر^(١)

النهاية: التجفاف شيءٌ من سلاح يُترك على الفرس يقيه الردى، وقد يلبسه الإنسان، ولما كان هذا الكلام من الجوامع، وسأل الصحابيُّ عن أمرٍ يعتصمُ به، أجابه صلواتُ الله عليه بقوله: «قل ربي الله ثم استقم»^(٢).

قوله: (قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان) هو من قوله صلوات الله عليه حين قرأ ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ قال: «قد قال الناس، ثم كفر أكثرهم، فمن مات عليها فهو ممن استقام»، أخرجه الترمذي عن أنس^(٣).

قوله: (لم يروغوا روغان الثعالب)، ويروى «الثعلب»، الأثرُ المذكورُ في «شرح السنة»^(٤)، النهاية: روغانُ الثعلبِ مثلُ لمن لا يثبتُ على حال، وفي حديث قيس: «خرجتُ أريغُ بعيراً شرد مني»^(٥)، أي؛ أطلبُه بكلِّ طريق.

(١) لأبي فراس الحمداني من قصيدته الشهيرة:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبرُ
أما للهوى نبهي عليك ولا أمر

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤١٠) وابن ماجه (٣٩٧٢) والدارمي (٢٧٥٣) وأحمد (١٥٤١٨) وابن حبان (٥٦٩٨) عن سفيان بن عبد الله.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٥٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٠٦)، والبيزار (٦٨٨٥)، وأبو يعلى (٣٤٩٥).

(٤) «شرح السنة» (١: ٣١)، وأخرجه ابن المبارك في «الزهد والرقائق» (١: ١١٠) عن عمر بن الخطاب.

(٥) لم أجده.

أخبرني بأمرٍ أعتصمُ به، قال: «قل: رَبِّي اللهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ»، قال: فقلت: ما أخوفُ ما تخافُ عليّ؟ فأخذَ رسولُ الله ﷺ بلسانِ نفسه فقال: «هذا». ﴿تَنْزِيلٌ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ عند الموتِ بالبُشرى. وقيل: البُشرى في ثلاثةِ مواطنَ: عند الموتِ، وفي القبرِ، وإذا قاموا من قبورهم. ﴿أَلَا تَخَافُوا﴾ «أَنْ» بمعنى «أَيُّ»، أو مخففةٌ من الثقيلة، وأصله: بآئه لا تخافوا، والهاءُ ضميرُ الشَّان. وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: (لا تخافوا)، أي: يقولون: لا تخافوا. والخوف: غمٌّ يلحق لتوقعِ المكروه، والحزن: غمٌّ يلحق لوقوعه من فواتِ نافعٍ أو حصولِ ضارٍّ. والمعنى: أن الله كتبَ لكم الأمنَ من كلِّ غمٍّ، فلن تَذوقوه أبداً. وقيل: لا تخافوا ما تقدّمون عليه، ولا تحزنوا على ما خلفتم. كما أن الشياطينَ قرناء العُصاة وإخوانهم، فكذلك الملائكةُ أولياءُ المتقين وأحبّاءهم في الدارين. ﴿تَدْعُونَ﴾: تتمنون. والنزُل: رزقُ النزِيل؛ وهو الضيف، وانتصابه على الحال.

قوله: (أخبرني بأمرٍ أعتصمُ به) الحديث، أخرجه أحمدُ بنُ حنبلٍ والترمذيُّ وابنُ ماجه والدارمي^(١).

قوله: (وانتصابه على الحال) قال صاحب «الكشف»: إن جعلتَ «نُزُلًا» جمع نازل، كشارفٍ وشُرُفٍ، وصابِرٍ وصَبْرٍ، كان حالاً من الكاف والميم، أي لكم فيها نازلين، ويكون قوله: ﴿مَنْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ في موضعِ نصبٍ صفةً «لنُزُلًا» أي نازلين من أمرِ غفورٍ رحيم، قال أبو علي: ولا يكون من غفورٍ رحيم متعلقاً بـ ﴿تَدْعُونَ﴾، لأنَّ الحالَ التي هي من المجرورِ قد فصلَ بينهما، ولكن إن جعلتَ ﴿نُزُلًا﴾ حالاً من الضميرِ المرفوعِ في ﴿تَدْعُونَ﴾ على تقدير: تدعون أنتم نزلاً، جاز أن يتعلق ﴿مَنْ﴾ بـ ﴿تَدْعُونَ﴾ لأنَّ الحالَ والظرفَ جميعاً في الصلّة، وهذا يدلُّ على أنَّ الحالَ مما في الصلّة ليس كالحالِ عن الموصول؛ لأنَّ الحالَ عن الموصولِ يؤدّنُ بتامه فيصيرُ فاصلاً بين الموصولِ وما بعدَ الحالِ من الصلّة، ويجوزُ أن يكونَ

(١) أخرجه أحمد (١٥٤١٨)، والترمذي (٢٤١٠)، وابن ماجه (٣٩٧٢)، والدارمي (٢٧٥٣)، وابن حبان (٥٦٩٨) عن سفيان بن عبد الله.

[﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [٣٣]

﴿مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ عن ابن عباس: هو رسول الله ﷺ، دعا إلى الإسلام ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فيما بينه وبين ربه، وجعل الإسلام نحلة له. وعنه: إنهم أصحاب رسول الله ﷺ. وعن عائشة رضي الله عنها: ما كنا نشك أن هذه الآية نزلت في المؤذنين. وهي عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث: أن يكون موحداً معتقداً لدين الإسلام، عاملاً بالخير، داعياً إليه؛ وما هم إلا طبقة العالمين العاملين من أهل العدل والتوحيد، الدعاة إلى دين الله. وقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ليس الغرض أنه تكلم بهذا الكلام، ولكن جعل دين الإسلام مذهبه ومعتقده، كما تقول:

﴿نُزُلًا﴾ حالاً من الموصول، أي لكم الذي تدعونه معداً. ولا يكون جمع «نازل» بل هو من النزل الذي يجعل للضيفان، وهذا إنما يكون على قول من رفع بالظرف كقولهم: في الدار زيد قائماً، وأما من رفع بالابتداء فلا يكون حالاً من «ما» ولكن من الضمير في الظرف، أو من الضمير المنصوب المحذوف، أي ما تدعونه نزلاً^(١).

قوله: (نحلة) أي؛ ملة ومذهباً له. الجوهري: فلان يتحل مذهب كذا وقبيلة كذا؛ إذا انتسب إليه.

قوله: (ليس الغرض أنه تكلم بهذا الكلام، ولكن جعل دين الإسلام مذهبه ومعتقده)، نحوه قال في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، قال: ومعنى «قال له أسلم» قال: أخطر ببالي النظر في الدلائل المؤدية إلى المعرفة والإسلام «فقال أسلمت»، أي: فنظر وعرف.

قال الإمام: إن السعادة لها مرتبتان: التام، وفوق التام، أما التام فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة ما لأجلها يصير كاملاً في ذاته، فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١١٩٠) بتحقيق د. محمد الدالي، و(٢: ٢٨٧) بتحقيق د. عبد القادر

هذا قول أبي حنيفة، تريد مذهبه.

أَسْتَقْتُمُوا ﴿ إشارة إلى هذه المرتبة، فإذا فرغ من هذه الدرجة اشتغل بتكميل الناقصين، وهو فوق التام، فقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ إشارة إلى هذه المرتبة، واعلم أن من آتاه الله عز وجل قريحة وقادة ونصاباً وافية من العلوم الإلهية الكثيفة عرف أن لا ترتيب أحسن وأكمل من ترتيب آي القرآن^(١).

وقلت: فعلى هذا ينبغي أن يكون قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ جامعاً للمعاني السابقة، ولا يكون محصوراً في القول المجرد لمجيئه على طريقة التذليل، وعلى أسلوب قولك: زيد من العلماء، أي: له مساهمة معهم في هذا الوصف، والعلم له كاللقب المشهور، فكانه قال: إنني لمن الذين لهم القدح المعلى في التسليم والتفويض.

الراغب: الإسلام في الشريعة ضربان: أحدهما: دون الإيمان، وإياه عنى بقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]؛ والثاني: فوق الإيمان، وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاداً بالقلب ووفاءً بالفعل واستسلاماً في جميع ما قضى وقدر، كما ذكر عن إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]^(٢).

قوله: (هذا قول أبي حنيفة) يريد: مذهبه. النهاية: منه الحديث: «لما أراد أن يعتكف ورأى الأخبية في المسجد فقال: البرّ تقولون بهن؟»^(٣)، أي: أتظنون وتروون أنهن أردن البر؟

ومنه: «سبحان الذي تعطف بالعز وقال به»^(٤)، أي: أحبه واختصه لنفسه، كما يقال: فلان يقول بفلان، أي: بمحبته واختصاصه، وقيل: معناه: حكم به، فإن القول يستعمل في معنى الحكم. وقال الأزهرى: معناه: غلب به، وأصله من قبل الملك؛ لأنه ينفذ قوله.

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٥٦٢).

(٢) «المفردات في غريب القرآن» ص ٤٢٣.

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٣٣)، ومسلم (١١٧٢) عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه الطبراني في «الدعاء» (١: ١٦٥)، والمروزي في «مختصر قيام الليل» ص ٣٣٧ عن ابن عباس.

[﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ٣٤-٣٥]

يعني: أن الحسنه والسيئه متفاويتان في أنفسهما، فخذ الحسنه التي هي أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان فادفع بها السيئه التي ترد عليك من بعض أعدائك. ومثال ذلك: رجل أساء إليك إساءة، فالحسنة: أن تغفوَ عنه، والتي هي أحسن: أن تحسِنَ إليه مكان إساءته إليك، مثل أن يذمك فتمدحَه، ويقتلَ ولدك فتقتديَ ولده من يدِ عدوّه، فإنك إذا فعلت ذلك انقلبَ عدوك المشاقِّ مثل الوليِّ الحميمِ مُصافاةً لك. ثم قال: وما يلقي هذه الخليقة أو السجّية - التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان - إلا أهل الصبر، وإلا رجلٌ خيرٌ وفق لحظٍّ عظيم من الخير. فإن قلت: فهلا قيل: فادفع بالتي هي أحسن؟ قلت: هو على تقديرٍ قائلٍ قال: فكيف أصنع؟ فقيل: ادفع بالتي

قوله: (عدوك المشاقِّ)، أي: المخالف الذي أخذ في شقِّ وأنت في شقِّ. الجوهرية: المشاقَّة والشقاق؛ الخلاف والعداوة.

قوله: (فهلا قيل: فادفع بالتي هي أحسن؟) السؤال واردٌ على تفسيره السابق، وقوله: «إذا اعترضتك حسنتان فادفع بها السيئه التي ترد عليك من بعض أعدائك» يعني: حين أعلمناك بتفاوت الحسنتين إذا وردت عليك سيئه من بعض أعدائك فادفعها بإحدى الحسنتين، وهي التي أحسن، لأنك من أولي العزم وصاحب الخلق العظيم، فالفاء لازمة الترتيب، فلم تركها؟ وأجاب بأن الترتيب موكولٌ إلى الذهن الذي هو أقوى الدليلين، وترك الوصل إلى الفصل للاستئناف، وتقدير سؤال السائل، ف﴿ أَحْسَنُ ﴾ على هذا على حقيقته، وقوله: «وقيل: «لا» مزيدة» عطفٌ على قوله: «إنَّ الحسنه والسيئه متفاويتان في أنفسهما»، والمعنى: أن بين الحسنه والسيئه بونا بعيداً، ولا يكن اختيارك إلا الحسنه، فعدل إلى الأحسن للمبالغة؛ لأنه على الوجه الأول وقعت الموازنة بين الحسنتين وبين السيئتين. وفي الثاني بين الحسنه والسيئه.

فإن قلت: قد علم بما تقرَّر الموازنة بين الحسنتين، فما معنى الموازنة بين السيئتين؟ قلت:

هي أحسنُ. وقيل: ﴿وَلَا﴾ مزيدة، والمعنى: ولا تستوي الحسنه والسيئة. فإن قلت: فكان القياس على هذا التفسير أن يُقال: ادفع بالتي هي حسنة! قلت: أجل، ولكن وُضع «التي هي أحسنُ» موضع الحسنه؛ ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة؛ لأنَّ مَنْ دَفَعَ بِالْحُسْنَى هَانَ عَلَيْهِ الدَّفْعُ بما هو دُونُهَا. وعن ابنِ عَبَّاسٍ: ﴿يَا لَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: الصَّبْرُ عند الغَضَبِ، والحِلْمُ عند الجَهْلِ، والعَفْوُ عند الإِسَاءَةِ. وفُسرَ الحَطُّ بالثَوَابِ. وعن الحسن: واللَّهِ مَا عَظَّمَ حَظُّ دُونَ الْجَنَّةِ. وقيل: نزلت في أبي سُفيانَ بنِ حَرْبٍ، وكان عدوًّا مؤذياً لرسولِ اللَّهِ ﷺ، فصار وليًّا مُصافياً.

[﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ٣٦]

النزغ والنسغ بمعنى، وهو شبه النخس. والشيطان ينزغ الإنسان كأنه ينخسه بيغته على ما لا ينبغي. وجعل النزغ نازغاً، كما قيل: جدَّ جدُّه. أو أريد: وإما ينزغَنَّكَ نازغٌ؛ وصفاً للشيطان بالمصدر. أو لتسويله. والمعنى: وإن صرَّفَكَ الشَّيْطَانُ عَمَّا وُصِّيتَ بِهِ مِنَ الدَّفْعِ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من شرِّه، وامضِ على شأنك ولا تُطعُه.

إنَّ المَسِيءَ إِذَا أَسَاءَ إِلَيْكَ فَإِنَّكَ إِذَا جَازَيْتَهُ بِمِثْلِ تِلْكَ السَّيِّئَةِ فَحَسْبُكَ سَيِّئَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكَ؛ لِمَا كَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَعْفُوَ عَنْهُ؛ بَلْ تَحْسُنُ إِلَيْهِ، لَكِنْ لَا تَسْتَوِي سَيِّئَتِكَ وَسَيِّئَتِهِ. وَسَيَجِيءُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ «الشورى» الكَلَامُ فِيهِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَحَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

قوله: (أو أريد: وإما ينزغَنَّكَ نازغٌ) وعلى هذا «من» بيانية، جرد من الشيطان؛ إما شيطاناً آخرٌ وسُمِّيَ نازغاً، أو جرد منه وصفه الذي هو تسويله وجعل نازغاً، فهو هو أيضاً، وعلى الأول كانت ابتدائية، المعنى: إما ينزغَنَّكَ مِنْ جِهَةِ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِالفعلِ إِلَى فَعْلِهِ مجازاً.

قوله: (وامضِ على شأنك) أي خلصت من نزغاته. الأساس: مضى على أمره، تمَّ عليه. ومضى السيفُ في الضربة. ومضى في حاجته.

[﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ
وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ * فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ
عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿ ٣٧ - ٣٨ ﴾]

الضميرُ في ﴿ خَلَقَهُنَّ ﴾ لليل والنهار والشمس والقمر؛ لأنَّ حُكْمَ جماعةٍ ما لا يعقل حكمُ الأنثى، أو الإناث. يقال: الأفلامُ بَرَيْتُها وَبَرَيْتُهنَّ، أو لما قال: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ كُنَّ في معنى الآيات، فقيل: ﴿ خَلَقَهُنَّ ﴾. فإن قلت: أين موضعُ السجدة؟ قلت: عند الشافعي رحمه الله: ﴿ تَعْبُدُونَ ﴾، وهي روايةٌ مسرُوق عن عبد الله؛ لِذِكْرِ لفظِ السجدة قَبْلَها. وعند أبي حنيفة رحمه الله: ﴿ سَمِعُونَ ﴾؛ لأنها تمامُ المعنى،

قوله: (أو لما قال: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ كُنَّ في معنى الآيات) ويُروى: في معنى الآيات، وهو الأصح، فقيل: ﴿ خَلَقَهُنَّ ﴾ جوابٌ عما قيل، لا يصحُّ أن يعودَ إلى الشمس والقمر والليل والنهار؛ لأنَّ المذكور والمؤنث إذا اجتمعا كانت الغلبةُ للتذكير دون التأنيث. وأجاب المصنّفُ بأنها في معنى الآيات، قال الزجاج: قد قيل: الليل والنهار والقمر، وهي مذكرة، وقد قال: «خَلَقَهُنَّ» والهَاءُ والنونُ تدلُّ على التأنيث، وفي الجوابِ وجهان: أحدهما: أن ضميرَ ما لا يعقلُ على لفظِ المؤنث، تقول: هذه لناشِقٌ فِسْقُها، وإن شئتَ «فسقهن». وثانيهما: أن يرجعَ إلى معنى الآيات؛ لأنه تعالى ومن آياته هذه الأشياء، فاسجدوا لله الذي خلقهن^(١).

قوله: (عند الشافعي رضي الله عنه: ﴿ تَعْبُدُونَ ﴾) أي؛ الشافعي يسجدُ عند ﴿ تَعْبُدُونَ ﴾، وأبو حنيفة عند ﴿ سَمِعُونَ ﴾. وقلت: الأصحُّ الثاني. قال صاحبُ «الروضة»: الأصحُّ أنه عقيب ﴿ سَمِعُونَ ﴾، والثاني عقيب ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾^(٢).

قوله: (لأنها تمام المعنى) ويمكن أن يقال: تمام المعنى عند قوله: ﴿ وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي

(١) «معاني القرآن وإعراجه» (٤: ٣٨٧).

(٢) «روضة الطالبين» (١: ٣١٩).

وهي عن ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب. لعل ناساً منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصائبين في عبادتهم الكواكب، ويَزْعُمون أنهم يقصدون بالسُّجود لهما السجود لله، فنهوا عن هذه الواسطة، وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله خالصاً، إن كانوا إياه يعبدون وكانوا موحدين غير مشركين، ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا﴾ ولم يمثّلوا ما أمروا به وأبوا إلا الواسطة فدعهم وشأنهم، فإن الله عز سلطانه لا يعدم عبداً أو ساجداً بالإخلاص، وله العباد المقربون الذين ينزهونه بالليل والنهار عن الأنداد. وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ عبارة عن الزلّقى والمكانة والكرامة. وقرئ: (لا يسأمون) بكسر الياء.

[﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُتِحَى الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٣٩]

الخشوع: التذلل والتقاصر، فاستعير لخال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها، كما وصفها بالهمود في قوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ [الحج: ٥]؛ وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والرؤوب؛ وهو الانتفاخ: إذا أخصبت وتزخرفت بالنبات كأنها بمنزلة المختال

خَلَقَهُنَّ ﴿لأنه حكم قد عقب الوصف المناسب، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ تميم للمعنى وتقريع للغافلين، وقوله: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا﴾ تميم غب تميم، وتسليّة للرسول ﷺ، ومن ثم قال: فدعهم وشأنهم، لكنه متضمن للذم على ترك السجود، فإن قوله: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا﴾ وُضِعَ موضع: فإن لم يسجدوا، إقامة للسبب موضع السبب للعلية، وأنت قد عرفت أن شرعية إيجاب السجدة إما للأمر بها، أو المدح لمن أتى بها، أو الذم لمن تركها، وكان الظاهر إيجاب سجدتين؛ فجعل الثاني كالتوكيد للأول، فشرع سجدة واحدة.

وعن بعضهم: إنما كانت السجدة عند ﴿لَا يَسْتَمُونَ﴾ لأنه أقرب إلى الاحتياط، فإنها إن كانت عند الآية الأولى جاز تأخيرها، وإن كانت عند الثانية لم يجوز تعجيلها.

في زَيْه، وهي قبل ذلك كالذليل الكاسيف البال في الأطمار الرثة. وقرئ (وربأت) أي: ارتفعت؛ لأنَّ النبت إذا همَّ أن يظهر ارتفعت له الأرض.

[إِنَّ الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آؤْمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾]

يقال: ألحد الحافر ولحد؛ إذا مال عن الاستقامة، فحفر في شق، فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة. وقرئ: ﴿يَلْحَدُونَ﴾ و﴿يَلْحَدُونَ﴾ على اللغتين. وقوله: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ وعيد لهم على التحريف.

قوله: (الكاسيف البال)، الجوهري: رجل كاسف البال، سيئ الحال. والطمر، الثوب السلق، والجمع: الأطمار. يريد أن الكلام فيه استعارة تمثيلية، شبه حال جدوية الأرض وإعدام الخير فيها؛ ثم إحياء الله بالماء النازل من السماء، وانقلابها من الجدوية إلى الخصب، وإنبات كل زوج بهيج بعد القخل، بحال شخص كئيب كاسف البال رث الهيئة لا يؤبه له، ثم إذا أصابه شيء من متاع الدنيا وزينتها؛ تكلف بأنواع الزين والزخارف، فيختال في مشيه زهواً، فيهتر بالأعطاف خيلاء وكبراً، ثم بولغ في التشبيه فحذف المشبه واستعمل الخشوع. والاهتزاز دلالة على مكانه.

قوله: (وقرئ «وربأت») قال الزجاج: ويقرأ «ربأت» بالهمز، فمعنى: ربت: عظمت. وربأت: ارتفعت^(١). قال ابن جنى: قرأ أبو جعفر «وربأت»، ومعناها راجعة إلى معنى قراءة الجماعة، وذلك أن الأرض إذا ربت ارتفعت، ومنه الربيثة، وهي الطليعة؛ لشخصه على الموضع المرتفع^(٢).

قوله: (وقرئ: ﴿يَلْحَدُونَ﴾ و﴿يَلْحَدُونَ﴾^(٣)) الثانية: حمزة، والباقون: الأولى.

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٨٨).

(٢) «المحتسب» (٢: ٢٤٧).

(٣) انظر: «حجة القراءات» ص ٦٣٦.

[﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتَبُ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ٤١-٤٢]

فإن قلت: بِمِ اتَّصَلَ قَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ ﴾؟ قلتُ: هو بدلٌ من قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾. والذِّكْرُ: القرآن؛ لأنهم لكُفِرَهم به طَعَنُوا فيه وحرَّفوا تأويله، ﴿ وَإِنَّهُ لَكِنْتَبُ عَزِيزٌ ﴾ أي: منيعٌ محمِّيٌ بحماية الله ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾، مثلُ، كأنَّ الباطلَ لا يتطرَّقُ إليه ولا يجِدُ إليه سبيلاً من جهةٍ من الجهات

قوله: (هو بدلٌ من قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾) وفي هذا الإبدالُ الإشعارُ بتغليظِ مَنْ تَأَوَّلَ القرآنَ بالرأيِ الباطلِ والهوى الزائغ، وتعظيمِ لشأنِ القرآنِ المجيد، ونعْيِ على المتفاعدِين عنه، وتسليَةِ لرسولِ الله ﷺ عن مطاعِنِ القومِ فيه، وذلك أنه تعالى لما افتتح السورةَ بذكرِ القرآنِ المجيد، وأنه آيةٌ عظيمةٌ قاهرة، وعقَّبَه بها بيَّنَ عجزَهم عن المعارضةِ بتلك الشبهةِ الركيكة، وهي أنَّ الرسالةَ منحصرةٌ على الملائكةِ لا تتعدى إلى البشر، وذكر طعنَهم فيه وقولهم: ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ودبَّلَ المعنى بوجودِ من الاستطراداتِ المناسبة، أتى بنوعٍ آخرٍ من مطاعنِهم، وهو الإلحادُ فيه تقريراً للعجزِ والانخدال، وبيانا لتبكييتهم عن الحجَّةِ القاهرة، وما يدلُّ على أنَّ الإبدالَ للتعظيمِ وضعَ قوله: ﴿ بِالذِّكْرِ ﴾ موضعَ ﴿ فِي آيَاتِنَا ﴾ وَضَعَا لِلْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمَضْمَرِ مِنْ غَيْرِ لَفْظِهِ السَّابِقِ، وجعله علةً لابتناءِ أوصافِ الكمالِ عليه ﴿ وَإِنَّهُ لَكِنْتَبُ عَزِيزٌ ﴾ إلى آخره.

قوله: (كَانَ الْبَاطِلُ لَا يَطْرُقُ إِلَيْهِ) بيانٌ للمثل، يعني: قوله: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ استعارةٌ تمثيلية، والوجهُ منتزَعٌ مِنْ عِدَّةِ أُمُور، وهي مسبوقةٌ بالتشبيه، ومن ثمَّ أتى في البيانِ بأداتِهِ، شبهَ الكتابَ وعدمَ تطرُقِ الباطلِ إليه بوجوهٍ من الوجوهِ بمن هو محمِّيٌ بحمايةٍ غالبٍ قاهرٍ يمنعُ جازَه من إحاطةِ العدوِّ به مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، ثم أخرجَه مَخْرَجَ الاستعارة، بأن تركَ المشبَهَ إلى ذكرِ المشبِهِ به قائلاً: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ فقوله: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ ﴾ صفةٌ أخرى لـ«كتاب»، وقوله: ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ تعليلٌ لاتصافِ الكتابِ بالوصفين، فكونُهُ حكيماً موجبٌ؛ لأنَّ يكونَ مُنْزَلُهُ محكماً متقناً رصيناً يُغْلَبُ ولا يُغْلَبُ؛ فيكونُ عزيزاً، وكونُهُ حميداً يستدعي أن يكونَ كلامُهُ حقاً

حتى يَصِلَ إليه ويتعلَّقَ به. فإن قلت: أما طَعَنَ فيه الطاعِنون، وتأوَّلَه المُبطلون؟ قلت: ولكنَّ اللهَ قد تقدَّم في حمايته عن تعلُّقِ الباطلِ به بأن قيَّضَ قوماً عارضوهم بإبطالِ تأويلهم وإفسادِ أقاويلهم، فلم يُخلُّوا طعنَ طاعنٍ إلَّا تمحوقاً، ولا قولَ مُبطلٍ إلَّا مُضمجلاً. ونحوه قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

لا باطلاً عبثاً، يهدي الناسَ إلى النعمةِ العظمى، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥].
فليشكُرْ لذلك قائله وليحمدِ المتكلمَ به.

ثم إنَّ المشركين حين لم يعرفوا هذه النعمةَ، وراموا نسبةَ الباطلِ إليه، وطلبوا توهينَ أحكامه، كما نَبَّه عليه قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ الآية سَلَّى حبيبه أولاً بقوله: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ وثانياً بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْتَلَفَ فِيهِ﴾.

قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] أي: بحُرَّاسِ التنزيلِ وسُوَّاسِ التأويلِ، ذبوا عن حريمِ القرآنِ، ودفعوا عن مطاعنِ الخصومِ، هكذا يجبُ أن يُقدَّرَ ليصحَّ استشهادُه بالآية لقوله: «ولكنَّ اللهَ قد تقدَّم في حمايته عن تعلُّقِ الباطلِ به، بأن قيَّضَ قوماً» «الأساس»: «ولفلانٍ قدَّم في هذا الأمر: سابقةً وتقدم، وله قدَّمُ صدق، ضَمَّنَ «تقدَّم» معنى «تكفَّل» أي: تكفَّل في حمايته سابقاً بأن أتاحَ وقدَّر علماء ذابِينَ عن حريمه.

وقلت: يجوزُ خلافه؛ لأنه تعالى أنزلَ التوراةَ واستحفظها الأَحبارَ والربانيين كما قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤] فغيَّروا وحرفوا، وتكفَّلَ عزَّ وجلَّ هو بنفسه حفظَ القرآنَ ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ حيثُ قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ القرآنَ ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فأكدَ الجملةَ أنواعاً من التأكيد؛ لئلا يُظنَّ الخلافَ.

قال الإمام: إنَّ اللهَ حفظه بأن جعله معجزاً مبيناً لكلامِ البشرِ، يعجزُ الخلقُ عن الزيادةِ والنقصانِ فيه؛ لأنهم لو راموا ذلك لتغيَّرَ نظْمُه؛ وظهر للخلقِ أنه من كلامِ البشرِ وليس

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾

[٤٣]

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ ﴾ أي: ما يقول لك كُفَّارُ قَوْمِكَ إِلَّا مِثْلَ مَا قَالَ لِلرُّسُلِ كُفَّارُ قَوْمِهِمْ من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزلة. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ ورحمة لأنبيائه، ﴿وَذُو عِقَابٍ﴾ لأعدائهم. ويجوز أن يكون: ما يقول لك الله إِلَّا مِثْلَ مَا قَالَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ، والمَقُولُ: هو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾، فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته، والعَرَضُ: تخويف العصاة.

[﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۗ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۗ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ وَعَلَيْهِمْ عَمَىٰ طَبَعٌ ۗ أُولَٰئِكَ يُتَادَّوْنُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۗ﴾ ٤٤]

كانوا لتعنتهم يقولون: هلاً نزل القرآن بلغة العجم! فقيل: لو كان كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض والتعنت، وقالوا: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۗ﴾ أي: بينت ولخصت بلسان نفقهه ﴿أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ الهمزة همزة الإنكار، يعني: لأنكروا وقالوا: أقرآن أعجمي ورسول عربي؟! أو: ومرسل إليه عربي؟! وقرئ: (أعجمي). والأعجمي:

من كلام خالقي القوى والقدر^(١)، ولقائل أن يقول: ﴿إنا لحافظون﴾ مطلق يحمل على إنا لحافظون ألفاظه من التغيير والتبديل، وحافظون معانيه من تأويل المبطلين، بأن يقبض قوماً يعارضونهم، فاستشهد به للمعنى الثاني.

قوله: (وقرئ «أعجمي»^(٢)) قرأ هشام: «أعجمي» بهمزة واحدة من غير مد على الخبر، والباقون: على الاستفهام.

(١) «مفاتيح الغيب» (١٩: ١٢٣).

(٢) انظر: «حجة القراءات» ص ٦٣٧، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣٦٨).

الذي لا يُفصح ولا يُفهم كلامه من أيّ جنسٍ كان، والعَجَمِيّ: منسوبٌ إلى أُمَّة العَجَم. وفي قراءة الحسن: (أعجمي) بغيرِ همزة الاستفهام، على الإخبار بأنّ القرآنَ أعجميٌّ، والمرسلُ أو المرسلُ إليه عربيٌّ. والمعنى: أن آياتِ اللّهِ على أيّ طريقةٍ جاءتهم وَجَدُوا فيها مُتَعَتِّتًا؛ لأنّ القومَ غيرُ طالِبينَ للحقِّ، وإنّما يَتَّبِعون أهواءَهُم. ويجوزُ في قراءة الحسن: هَلَّا فَضَّلْتَ آيَاتَهُ تَفْصِيلاً، فَجُعِلَ بَعْضُهَا بَيَانًا لِلعَجَمِ، وَبَعْضُهَا بَيَانًا لِلعَرَبِ. فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يُرَادَ بِالعَرَبِيِّ المُرْسَلُ إِلَيْهِمْ وَهَمَّ أُمَّةُ العَرَبِ؟ قُلْتُ: هُوَ عَلَى مَا يَجِبُ أَنْ يَقَعَ فِي إِنْكَارِ المُنْكَرِ لَوْ رَأَى كِتَابًا أَعْجَمِيًّا كُتِبَ إِلَى قَوْمٍ مِنَ العَرَبِ يَقُولُ: أَكْتُابٌ عَجَمِيٌّ وَمَكْتُوبٌ إِلَيْهِ عَرَبِيٌّ؟! وَذَلِكَ لِأَنَّ مَبْنَى الإِنْكَارِ عَلَى تَنَافُرِ حَالَتِي الكِتَابِ وَالمَكْتُوبِ إِلَيْهِ، لَا عَلَى أَنَّ المَكْتُوبَ إِلَيْهِ وَاحِدٌ أَوْ جَمَاعَةٌ، فَوَجَبَ

قوله: (على الإخبار بأنّ القرآنَ أعجمي، والمرسلُ أو المرسلُ إليه عربي) فعلى هذا الإِنْكَارُ نَاشِئٌ مِنْ كَلِمَةِ التَّحْضِيضِ، أَي: هَلَّا فَضَّلْتَ آيَاتَهُ، ثُمَّ بَيَّنَّ عَدَمَ التَّفْصِيلِ وَالبَيَانِ عَلَى سَبِيلِ الإِخْبَارِ بِأَنَّ القُرْآنَ أَعْجَمِيٌّ وَالمُرْسَلُ عَرَبِيٌّ وَالأُمَّةُ المُرْسَلُ إِلَيْهِمْ عَرَبِيَّةٌ، وَأَنَّهَا وَكَدَّتْ مَعْنَى التَّمْنِي، أَي: لَيْتَهَا فَضَّلْتُ تَفْصِيلاً بِأَنْ يَكُونَ بَعْضُهَا أَعْجَمِيًّا وَبَعْضُهَا عَرَبِيًّا؛ لِيَعْلَمَ كُلُّ أَنَاسٍ مَشْرَبِهِمُ الَّذِي يَشْرَبُونَ، وَإِلَيْهِ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «هَلَّا فَضَّلْتَ آيَاتَهُ»، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَجْرَى عَلَى ظَاهِرِهِ.

قوله: (على أيّ طريقةٍ جاءتهم وجدوا فيها مُتَعَتِّتًا)، أَي: مَكَانًا لِلتَّمَنُّتِ، وَيُرْوَى: «مُتَعَتِّتًا» بِاسْمِ الفَاعِلِ، فَيَكُونُ تَجْرِيدًا، أَي وَجَدُوا فِيهَا مِنْ أَنفُسِهِمْ مُتَعَتِّتًا، الجَوْهَرِيُّ: جَاءَنِي فَلَانٌ مُتَعَتِّتًا، إِذَا جَاءَ يَطْلُبُ زَلَّتْكَ.

قوله: (كيف يصحُّ أن يراد بالعربيّ المرسلُ إليهم وهم أمة العرب؟) أَي: إِطْلَاقُ العَرَبِيِّ عَلَى الجَمَاعَةِ غَيْرِ مُطَابِقٍ، وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ: «عَرَبِيَّةٌ» نَظْرًا إِلَى الأُمَّةِ، أَوْ «عَرَبِيُونَ» نَظْرًا إِلَى المَعْنَى؟ وَأَجَابَ: إِنَّ القَصْدَ فِي الكَلَامِ إِنْكَارُ تَنَافُرِ حَالَتِي الكِتَابِ وَالمَكْتُوبِ إِلَيْهِ، لَا المَطَابَقَةَ بَيْنَ اللفظِ وَالمَعْنَى، كَمَا فِي مَسْأَلَةِ المَرَأَةِ القَصِيرَةِ، فَإِنَّ المُنْكَرَ الجَمْعُ بَيْنَ هَذَيْنِ المَعْنِيَيْنِ، وَلَا مَدْخَلَ لِخُصُوصِيَةِ اللّابِسِ وَالمَلْبَسِ.

أَنْ يُجَرِّدَ لِمَا سَبَقَ لَهُ مِنَ الْغَرَضِ، وَلَا يُوصَلَ بِهِ مَا يُحَيِّلُ غَرَضاً آخراً، أَلَا تَرَكَ تَقُولُ
 وَقَدْ رَأَيْتَ لِيَبَاساً طَوِيلاً عَلَى امْرَأَةٍ قَصِيرَةٍ: اللَّبَاسُ طَوِيلٌ وَاللَّبَاسُ قَصِيرٌ! وَلَوْ قُلْتَ:
 وَاللَّبَاسَةُ قَصِيرَةٌ؛ جِئْتَ بِهَا هُوَ لَكِنَّةٌ وَفُضُولٌ قَوْلٌ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ لَمْ يَقَعْ فِي ذِكُورَةِ اللَّبَاسِ
 وَأُنُوثَتِهِ، إِنَّمَا وَقَعَ فِي غَرَضِ وَرَاءَهُمَا. ﴿هُوَ﴾ أَي: الْقُرْآنُ ﴿هُدًى وَشِفَاءً﴾: إِرْشَادٌ
 إِلَى الْحَقِّ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ مِنَ الظَّنِّ وَالشَّكِّ. فَإِنْ قُلْتَ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ﴾ مُنْقَطِعٌ عَنِ ذِكْرِ الْقُرْآنِ، فَمَا وَجْهُ اتِّصَالِهِ بِهِ؟ قُلْتُ: لَا يَخْلُو: إِمَّا أَنْ
 يَكُونَ ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فِي مَوْضِعِ الْجَرِّ.....

قوله: (لا يخلو: إما أن يكون ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في موضع الجر) قال ابن الحاجب
 في «الأمالي»: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مَخْفُوضٌ عَطْفَ عَلَى ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ و﴿وَقُرْ﴾
 مَرْفُوعٌ عَطْفَ عَلَى ﴿هُدًى﴾ و﴿فِي آذَانِهِمْ﴾ بَيَانٌ لِمَحَلِّ الْوَقْرِ لَا خَبْرٌ، وَلِلْمَبْتَدَأِ الَّذِي
 هُوَ الْوَقْرُ؛ لِأَنَّ ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ﴾ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
 هُدًى وَشِفَاءً﴾ فَلَا بَدَأَ أَنْ يَكُونَ مُوَافِقاً لَهُ فِي الْإِعْرَابِ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْطُوفُ عَلَى
 ﴿لِلَّذِينَ﴾ مَخْفُوضاً، وَالْمَعْطُوفُ عَلَى ﴿هُدًى﴾ مَرْفُوعاً بِالْإِبْتِدَاءِ، وَلَا يَسْتَقِيمُ أَنْ يَقَالَ:
 أَجْعَلْ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ، جُمْلَةٌ فِي مَوْضِعِ رَفْعِ مَعْطُوفَةٍ عَلَى ﴿هُدًى﴾؛ لِأَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى أَنْ
 يَكُونَ الْمَبْتَدَأُ جُمْلَةً، وَيَلْزَمُ مِنْ هَذَا التَّقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ عَطْفاً عَلَى عَامِلِينَ، كَقَوْلِهِ: فِي الدَّارِ زَيْدٌ
 وَالْحِجْرَةُ عَمْرُو، وَمَا كُلُّ سُودَاءِ تَمْرَةٍ وَلَا بَيْضَاءِ شَحْمَةٍ. وَمِثْلُ هَذَا مِنَ الْعَطْفِ عَلَى عَامِلِينَ
 جَائِزٌ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ الْمَتَأَخِّرِينَ.

ويجوز أن يكون ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ، تقديره: والذين لا يؤمنون هو في
 آذانهم وقُر، على أن يكون المبتدأ الثاني محذوفاً، وخبره ﴿وَقُرْ﴾ و﴿فِي آذَانِهِمْ﴾ بَيَانٌ لِمَحَلِّ
 الْوَقْرِ، وَلَا يَكُونُ الْوَقْرُ «وَفِي آذَانِهِمْ» مَبْتَدَأً وَخَبِراً، وَلَا يُقَدَّرُ هُوَ؛ إِذَا لَا عَائِدَ فِي الْجُمْلَةِ عَلَى
 الْمَبْتَدَأِ، فَلَا يَكُونُ مَا يَرْبِطُ الْجُمْلَةَ الثَّانِيَةَ بِالْأُولَى؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى﴾
 إِخْبَارٌ عَنِ الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ هُدًى وَشِفَاءً، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الثَّانِيَةِ ذِكْرُ الْقُرْآنِ كَانَتْ أَجْنَبِيَّةً.

ويجوز أن يكون ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ، خبره ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ﴾ مِنْ غَيْرِ
 تَقْدِيرٍ هُوَ، وَالرَّابِطُ مَحْذُوفٌ «بِهِ» هَذَا قَرِيبٌ مِنَ الْوَجْهِ الثَّلَاثِ فِي «الْكَشَافِ».

وقال أيضاً: ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَى﴾ مرتبطاً بقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ والتقدير: هو للذين آمنوا هدى وهو على الذين لا يؤمنون عمى. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ جملة معترضة على الدعاء.

وقلت: هذا وإن جاز من جهة الإعراب، لكن من جهة المعاني مردود؛ لفك النظم، وأولى الوجوه ما يصح منه عطفُ قوله: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَى﴾ على قوله: ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ ليكون على وزانِ قوله: ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَى﴾ لأن الطريق الواضح والمنهج المستقيم إنما يعمى على من لا بصر له ولا بصيرة، وهذا لا يحسن إلا على الوجه الثاني في «الكشاف»، وعليه يلتزم الكلام؛ لأن قوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى﴾ الآية، جوابٌ عن قوله: ﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُمْ أَلْيَسَ اللَّهُ أَزْكُرَ﴾ على الأسلوب الحكيم، والمعنى ما قال: إن آياتِ الله على أي طريقة جاءتهم وجدوا فيها مُتَعَتِّتًا؛ لأن القوم غيرُ طالبين للحق، فيكون ذكرُ المؤمنين مستطرداً لبيان أن الكتاب في نفسه سببٌ لإزالة الشك والرَّيبِ لوضوح آياته وسطوع براهينه، وإنما نشأ الرَّيبُ منكم لتعتكُم، وأنكم من أهل الختم والطبع، ولكونه مستطرداً أخرج التركيب مخرجاً أفاد التعريض، بأن قدّم الخبر على المبتدأ ليفيد التخصيص، وبنى الجملة على الضمير المرفوع لإفادة تقوي الحكم برتبة لفائدة التعريض، أي: هو للطالبيين للحق خاصة هدى وشفاء لما في صدورهم من مرض الشك والرَّيب، وللذين لا يؤمنون ضلالٌ ومرضٌ على مرض، ﴿فَرَأَوْهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] ثم ابتداء ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ لأن الضلالة ومرض الشك والصمم عن الحق والعمى عن الآيات إذا اجتمع في شخص، فداعيتهم إلى الهدى كأنه يناديتهم من مكان بعيد، كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَعْضٌ عَنْكُمْ عَمَى فَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] أي: مثل داعي الذين كفروا، هذا هو التحقيق، ومن ثم قال: «وإن كان الأخصس تخيره»، أي: هذا الوجه ضعيف؛ لأن الدليل على ضعفه والمقام ينبو عنه، وقد منعه سبويه، والمختار قوله، فإن القول ما قالت حذام.

معطوفاً على قوله: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ على معنى قولك: هو للذين آمنوا هدىً وشفاءً. وهو للذين لا يؤمنون في آذانهم وقر؛ إلا أن فيه عطفًا على عاملين، وإن كان الأخصر يُجيزه؛ وإما أن يكون مرفوعاً على تقدير: والذين لا يؤمنون هو في آذانهم وقر، على حذف المبتدأ، أو: في آذانهم منه وقر. وقرئ: (وهو عليهم عم)، و(عمي)، كقوله تعالى: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ [هود: ٢٨]. ﴿يُنَادُونَكَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني: أنهم لا يقبلونه ولا يُرْعُونَهُ أَسْمَاعَهُمْ، فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ مَثَلُ مَنْ يُصَيِّحُ بِهِ مِنْ مَسَافَةٍ شَاطِئَةٍ لَا يُسْمَعُ مِنْ مِثْلِهَا الصَّوْتُ فَلَا يُسْمَعُ النَّدَاءُ.

[﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ ٤٥]

﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ فقال بعضهم: هو حق، وقال بعضهم: هو باطل. والكلمة السابقة: هي العدة بالقيامة، وأن الخصومات تُفصل في ذلك اليوم، ولولا ذلك لَفُضِيَ

قوله: (وقرئ «وهو عليهم عم» و«عمي»)^(١)، قال الزجاج^(٢): «يقرأ: «وهو عليهم عم» بكسر الميم، ويجوز «وهو عليهم عمي» بإثبات الياء وفتحها، ولا يجوز إسكان الياء وترك التنوين.

قوله: (لا يُرْعُونَهُ أَسْمَاعَهُمْ)، الجوهري: أرعيتُه سمعي، أي أصغيتُ إليه. ومنه قوله تعالى: ﴿رَاعِنَا﴾ [البقرة: ١٠٤].

قوله: (شاطئة) شطت الدار شطوطاً، قال:

لئن غبتَ، عن عيني وشطت بك النوى فانت الذي في القلب حطت رواجله

قوله: (والكلمة السابقة: هي العدة بالقيامة، وأن الخصومات تُفصل في ذلك اليوم) إشارة إلى أن هذا القول وارِدٌ على سبيل التخلُّص إلى ذكر القيامة، وهو قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣٦٩).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٩٠).

بينهم في الدنيا، قال الله تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦]، ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل: ٦١].

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [٤٦]

﴿وَلِنَفْسِهِ﴾: فَنَفْسَهُ نَفَعَ، ﴿فَعَلَيْهَا﴾: فَنَفْسَهُ ضَرَّ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ﴾ فَيُعَذِّبُ

غَيْرَ الْمُسِيءِ.

﴿إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ تَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا لِوَالِدَيْهَا وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آتِنَا سُورَكُم مَّا شِئْنَا أَدْنَاكَ مَا مَتَّانَا مِنْ شَهِيدٍ * وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوْا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾ [٤٧ - ٤٨]

﴿إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: إذا سئل عنها قيل: الله يعلم. أو: لا يعلمها إلا الله.

وَقُرِي: ﴿مِنْ تَمَرَاتٍ﴾، «من أكمامهن»، والكِمِّمُ، بكسر الكاف: وعاء الثمرة،

عِلْمُ السَّاعَةِ ﴿والتسليَةُ للرسول ﷺ من اختلاف قومه في القرآن وطعن الطاعنين المتعتنين فيه، ولذلك أتى بذكر موسى عليه السلام واختلاف قومه في كتابه.

قوله: (أي إذا سئل عنها قيل: الله يعلم، أو لا يعلمها إلا الله) يريد أن التقديم في قوله:

﴿إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ يجوز أن يكون إشارة إلى جواب منكر يزعم أن علم الساعة غير مختص بالله، فيجاء بالحصر، أي لا يعلمها إلا الله، وأن يكون جواباً عن متردد يتردد في ذلك ويشك فيه، فيزال شكُّه بقوله: الله يعلم؛ لإفادته تقوي الحكم المستلزم للتخصيص باختصاص ذكر الاسم الجامع، وأنه تعالى يعلمه حقاً البتة، فلا يعلم غيره.

قوله: (وَقُرِي: ﴿مِنْ تَمَرَاتٍ﴾) (١) نافع وابن عامر وحفص: بالجمع، والباقون: على

التوحيد.

(١) انظر: «حجة القراءات» ص ٦٣٧، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣٧١).

كجُفِّ الطَّلعة، أي: وما يحدثُ شيءٌ من خروجِ ثمرةٍ ولا حملٍ حاملٍ ولا وَضْعٍ واضعٍ إلا وهو عالمٌ به. يَعْلَمُ عَدَدَ أَيامِ الحَمْلِ وساعاتِهِ وأحوالِهِ: من الخِداجِ والتَّامِ،

قوله: (كجُفِّ الطَّلعة)؛ أي: وعأؤها. النهاية: في حديثِ سِخْرِ النبي ﷺ «أنه جُعِلَ في جُفِّ طلعة»^(١)، الجُفِّ: وعاءُ الطلع، وهو الغشاء الذي يكونُ فوقه.

قوله: (أي: وما يحدثُ شيءٌ من خروجِ ثمرةٍ ولا تحمِلِ حاملٍ) جعل «ما» - في «ما يخرج» - نافية، و«من» بيانية، والمبين مضمراً، ثم أخذ القَدْرَ المشتركَ بين الأفعالِ الثلاثة - أعني: «تخرج» و«تحمل» و«تضع» وجعله أصلاً في الاعتبار - وعَبَّرَ عنه بـ«يحدثُ شيءٌ»، ثم عمدَ إلى مصادرِ الأفعالِ وجعلها تفصيلاً لذلك المُجْمَلِ وعطفَ بعضها على بعضٍ ليتسبب له الاستثناءُ بقوله: «إلا بعلمه» عن المذكوراتِ كُلِّها، فلا يختصُّ بواحدٍ لاستقامة المعنى، كما جاء في «الأصول»: الاستثناءُ المعقَّبُ للجُمْلِ يعود إليها؛ لأنَّ الأصلَ اشتراكُ المعطوفِ والمعطوفِ عليه في التعلقاتِ كالحالِ والشرطِ وغيرهما، إلا إذا منع منه مانع، والطريقُ الذي سلكه ضابطٌ حسنٌ في الباب.

قال أبو البقاء: «وما تحمِلُ» «ما» نافية؛ لأنه عطف عليها «ولا تضع» ثم نقضَ النفيَ بـ«إلا» ولو كانت بمعنى «الذي» معطوفةً على الساعةِ لم يستقم ذلك، وأما قوله: «وما تخرجُ من ثمرة» فيجوزُ أن يكونَ بمعنى «الذي» والأقوى أن تكونَ نافية^(٢).

وقال القاضي: «ما» في «ما تخرج» نافية، و«من» الأولى مزيدة، ويُحتملُ أن تكونَ موصولةً معطوفةً على «الساعة» و«من» مبينة، بخلافِ قوله: «وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ» لمكانِ ﴿بِعِلْمِهِ﴾ و﴿بِعِلْمِهِ﴾ حال، أي مقرونًا بعلمه واقعاً حسبَ تعلقه^(٣).

قوله: (من الخِداجِ) خدجت الناقةُ تخدجُ خداجاً فهي خادجٌ والولدُ خديج، إذا ألقته قبلَ تمامِ الأيامِ وإن كان تامَّ الخلقِ.

(١) أخرجه البخاري (٥٧٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١١٢٨).

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ٧٤).

والذُكُورَةُ وَالْأُنثَى، وَالْحُسْنَ وَالْقُبْحَ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِي﴾ أَضَافَهُمْ إِلَيْهِ تَعَالَى عَلَى رَعْمِهِمْ، وَبَيَّأَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِي﴾ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ، وَفِيهِ تَهَكُّمٌ وَتَقْرِيعٌ. ﴿ءَأَذَّنَاكَ﴾: أَعْلَمْنَاكَ ﴿مَا مَنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أَي: مَا مَنَّا أَحَدٌ الْيَوْمَ وَقَدْ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا يَشْهَدُ بِأَنَّهُمْ شُرَكَاءُكَ، أَي: مَا مَنَّا إِلَّا مَنْ هُوَ مَوْحَدٌ لَكَ. أَوْ: مَا مَنَّا مِنْ أَحَدٍ يُشَاهِدُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ ضَلُّوا عَنْهُمْ، وَضَلَّتْ عَنْهُمْ آهْتُهُمْ، لَا يُبْصِرُونَهَا فِي سَاعَةِ التَّوْبِيخِ. وَقِيلَ: هُوَ كَلَامُ الشُّرَكَاءِ، أَي: مَا مَنَّا مِنْ شَهِيدٍ يَشْهَدُ بِمَا أَضَافُوا إِلَيْنَا مِنَ الشَّرْكَةِ. وَمَعْنَى ضَلَّاهُمْ عَنْهُمْ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ: أَنَّهُمْ لَا يَنْفَعُونَهُمْ، فَكَأَنَّهُمْ ضَلُّوا عَنْهُمْ. ﴿وَطَنُّوا﴾: وَأَيَقَنُوا. وَالْمَحِيصُ: الْمَهْرَبُ. فَإِنْ قُلْتَ: ﴿ءَأَذَّنَاكَ﴾ إِخْبَارٌ بِإِيذَانٍ كَانَ مِنْهُمْ، فَإِذْ قَدْ آذَنُوا فَلِمَ سُئِلُوا؟ قُلْتَ: يَجُوزُ أَنْ يُعَادَ عَلَيْهِمْ: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِي﴾؟ إِعَادَةٌ لِلتَّوْبِيخِ، وَإِعَادَتُهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى سَبِيلِ الْحِكَايَةِ دَلِيلٌ عَلَى إِعَادَةِ الْمُحْكِيِّ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَنْكَ عَلِمْتَ مِنْ قُلُوبِنَا وَعَقَائِدِنَا الْآنَ أَنَّا لَا نَشْهَدُ تِلْكَ الشَّهَادَةَ

قَوْلِهِ: (وَمَعْنَى ضَلَّاهُمْ [عَنْهُمْ] عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ) يَعْنِي: إِذَا كَانَ قَوْلُهُ: ﴿ءَأَذَّنَاكَ مَا مَنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ مِنْ كَلَامِ الْعَبْدِ، يَكُونُ مَعْنَى ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ غَابَ، وَإِذَا كَانَ مِنْ كَلَامِ الشَّرْكَاءِ يَكُونُ الْمَعْنَى: إِنَّ الشَّرْكَاءَ حِينَئِذٍ لَا يَنْفَعُونَ الْعَبْدَةَ، وَالشَّافِعُ الَّذِي لَمْ تَنْفَعْ شَفَاعَتُهُ كَالْمَعْدُومِ فَضَلَّاهُمْ بِمَعْنَى عَدَمِ نَفْعِهِمْ، لَا بِمَعْنَى غَيْبَتِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ الْمَجْبُوبُونَ وَالْمَسْئُولُ عَنْهُمْ الْعَبْدَةُ، وَالْجُمْلَةُ عَلَى الْوَجْهَيْنِ حَالٌ، وَ«قَدْ» مَعَهُ مَقْدَرَةٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَطْفًا عَلَى ﴿قَالُوا﴾.

قَوْلِهِ: ﴿ءَأَذَّنَاكَ﴾ إِخْبَارٌ بِإِيذَانٍ كَانَ مِنْهُمْ) يَعْنِي: هَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ سَأَلَ عَنْهُمْ بِمَثَلِ هَذَا السُّؤَالِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَأَنَّهُمْ أَجَابُوهُ بِمَثَلِ هَذَا الْجَوَابِ ثُمَّ أَعَادَهُ، فَمَا فَائِدَةُ الْإِعَادَةِ؟ وَأَجَابَ بِوَجْهِهِ: أَحَدُهَا أَنَّهُ مِنْ عَادَةِ الْمَوْبُخِ أَنْ يَعِيدَ كَلِمَةَ التَّوْبِيخِ تَشْدِيدًا عَلَى الْجَانِيِ وَتَقْبِيحًا لِحَايَتِهِ، وَثَانِيهَا: أَنَّ قَوْلَهُمْ لَيْسَ أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنْهُمْ الْإِيذَانُ بِمَثَلِهِ، لَكِنْ هُوَ إِيْذَانٌ بِلِسَانِ الْحَالِ مِنْ مُضَمَّرَاتِ الْبَالِ، وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ تَوَطُّعٌ لِلْإِخْبَارِ وَتَمْهِيدٌ لِقَوْلِهِ: ﴿مَا مَنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾، كَقَوْلِ الْقَائِلِ: أَعْلِمِ الْمَلِكُ، ثُمَّ قَوْلِهِ: إِنَّهُ قَدْ كَانَ مِنَ الْأَمْرِ كَيْتٌ وَكَيْتٌ.

الباطلة؛ لأنه إذا عَلِمَهُ من نُفُوسِهِمْ فكأنهم أَعْلَمُوهُ. ويجوزُ أن يكونَ إنشاءً للإيذان، ولا يكونَ إخباراً بإيذانٍ قد كان، كما تقول: أَعْلِمِ الْمَلِكُ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْأَمْرِ كَيْتَ وَكَيْتَ.

[﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاؤِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَتُوسُّ قَنُوطٌ﴾ * وَكَيْنَ أَدَقَّتْهُ رَحْمَةٌ مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ فَلْيُنَبِّئِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ٤٩ -

[٥٠]

﴿مِنْ دُعَاؤِ الْخَيْرِ﴾: من طَلَبِ السَّعَةِ فِي الْمَالِ وَالنَّعْمَةِ. وقرأ ابنُ مسعود: (من دعاء بالخير). ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: الضَّيْقَةُ وَالْفَقْرُ ﴿فَيَتُوسُّ قَنُوطٌ﴾ ﴿بُولِغَ فِيهِ مِنْ طَرِيقَيْنِ: مِنْ طَرِيقِ بِنَاءِ «فَعُولٍ»، وَمِنْ طَرِيقِ التَّكْرِيرِ. وَالقَنُوطُ: أَنْ يَظْهَرَ عَلَيْهِ أَثَرُ الْيَأْسِ فَيَتَضَاعَلُ وَيَنْكَسِرُ، أَيْ: يَقْطَعُ الرَّجَاءَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَوْحِهِ، وَهَذِهِ صِفَةُ الْكَافِرِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]. وَإِذَا فَارَجْنَا عَنْهُ بِصِحَّةٍ بَعْدَ مَرَضٍ، أَوْ سَعَةٍ بَعْدَ ضَيْقٍ قَالَ: ﴿هَذَا لِي﴾ أَيْ: هَذَا حَقٌّ وَصَلَّ إِلَيَّ؛ لِأَنِّي اسْتَوْجَبْتُهُ بِهَا عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ وَفَضْلٍ وَأَعْمَالٍ بَرٍّ. أَوْ: هَذَا لِي لَا يَزُولُ عَنِّي، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَ تَهُمُ الْحُسْنَىٰ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيِقِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]، يَرِيدُ: وَمَا أَظُنُّهَا تَكُونُ، فَإِنْ كَانَتْ عَلَى طَرِيقِ التَّوَهُّمِ ﴿إِنَّ لِي﴾ عِنْدَ اللَّهِ الْحَالَةَ الْحُسْنَىٰ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالنَّعْمَةِ، قَائِسًا أَمْرَ الْآخِرَةِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا. وَعَنْ بَعْضِهِمْ: لِلْكَافِرِ أُمْنِيَّتَانِ: يَقُولُ فِي الدُّنْيَا: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ﴾، وَيَقُولُ فِي الْآخِرَةِ: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤]. وَقِيلَ:

قوله: (بُولِغَ فِيهِ مِنْ طَرِيقَيْنِ: مِنْ طَرِيقِ بِنَاءِ «فَعُولٍ»، وَمِنْ طَرِيقِ التَّكْرِيرِ) قَالَ الْإِمَامُ: الْيَأْسُ مِنْ صِفَةِ الْقَلْبِ، وَالقَنُوطُ إِظْهَارُ آثَارِهِ فِي الْأَحْوَالِ الظَّاهِرَةِ^(١).

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٥٧٢).

نزلت في الوليد بن المغيرة. فلنُخبرتهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب، ولنُبصِّرهم عكس ما اعتقدوا فيها أنهم يستوجبون عليها كرامةً وقربة عند الله، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبْآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]؛ وذلك أنهم كانوا يُنفقون أموالهم رثاء الناس وطلباً للافتخار والاستكبار لا غير، وكانوا يحسبون أن ما هم عليه سببُ الغنى والصحة، وأنهم محقوقون بذلك.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ. وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾

[٥١]

هذا أيضاً ضربٌ آخرٌ من طغيان الإنسان إذا أصابه الله بنعمة أبطرته النعمة، وكأنه لم يلق بؤساً قط فنيى المنعم وأعرض عن شكره، ﴿وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أي: ذهب بنفسه وتكبر وتعظم. وإن مسه الضرُّ والفقر: أقبل على دوام الدعاء، وأخذ في

قوله: (نزلت في الوليد بن المغيرة) فهو بمعنى قوله: ﴿أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّلَوْلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] عن الحسن: نزلت في الوليد بن المغيرة، وقال المصنف^(١): والمشهور أنها في العاصم بن وائل^(٢)؛ وقصته مع حجاب مذكورة في سورة «مريم».

قوله: (وأنهم محقوقون) حقُّ هذا الأمر، وهو محقوق به، أي: تيقن بخلاقته، من الخلق، يعني أنهم أحقاء بذلك.

قوله: (هذا أيضاً ضربٌ آخرٌ من طغيان الإنسان)، والضرِبُ الأولُ بيانٌ لشدة حرصه، وأنه إن أُعطِيَ لم يشبع، وإن مُنِع لم يقنع. والثاني لبيان طيشه؛ فلا يثبت على السراء، بل طار من منزلته وتكبر وطغى، ولا يصبر على الضراء، بل خضع واستكان وذل.

(١) انظر: (١٠: ٩٥).

(٢) الآية نزلت في العاصم بن وائل، أخرجه البخاري (٢٠٩١)، ومسلم (٢٧٩٥) عن حباب بن الأرت.

الابتهاال والتضرُّع. وقد استُعير العَرَضُ لكثرة الدُّعاء ودوامه وهو من صِفَةِ الأَجْرَامِ،
ويُستعارُ له الطويلُ - أيضاً - كما استُعير الغِلْظُ لشِدَّةِ العذاب. وقُرئ: (ونأى بجانبه)
بإمالة الألفِ وكسرِ النون للإِتباع؛ و(ناء) على القَلْب، كما قالوا: راء، في: رأى. فإن
قلت: حَقَّق لي معنى قوله: ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾. قلتُ: فيه وجهان: أن يُوضَعَ «جانبُه»
موضعَ نفسه كما ذَكَرْنَا في قوله تعالى: ﴿عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]: أن
مكان الشيءِ وِجْهَتَهُ ينزل منزلةَ الشيءِ نفسه، ومنه قوله:

.....وَنَفَيْتُ عَنْهُ مَقَامَ الذُّئْبِ.....

يريد: ونفيتُ عنه الذئبَ. ومنه: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ومنه قولُ
الكُتَّابِ: حَضَرَةُ فلانٍ ومَجْلِسُهُ، وكتبْتُ إلى جِهَتِهِ، وإلى جانبِهِ العزيزِ، يُريدون نَفْسَهُ
وذاتَهُ، فكأنه قال: ونأى بنفسه، كقولهم في المتكبرِ: ذَهَبَ بنفسِهِ، وذَهَبَتْ به الخِيَلَاءُ
كَلَّ مَذْهَبٌ، وعَصَفَتْ به الخِيَلَاءُ؛ وأن يُرادَ بجانبِهِ: عِطْفُهُ،

قوله: (وقرئ «ونأى بجانبه») ابنُ ذكوان: «ونأى بجانبه» جعلَ الهمزةَ بعدَ الألفِ،
والباقون: بفتحِها، وورسٌ على أصلِهِ^(١).

قوله: (ونفيتُ عنه مقامَ الذئبِ) قبله:

عليه الطيرُ كالورقِ اللجينِ	وماءٌ قد وردت لوصولِ أروى
مقامَ الذئبِ كالرجلِ اللعينِ	ذَعَرْتُ بِهِ القَطَا ونفيتُ عنه

واللَّجِين: ما سقطَ مِنَ الورقِ عند الخَبْطِ، وذَعَرْتُ: أي أفرَعْتُه، والضميرُ في «به»
يعودُ إلى الماءِ، خصَّ الذئبَ والقَطَا؛ لأنَّ القَطَا أهدى الطيرِ، والذئبُ أهدى السَّبَاعِ، وهما
السابقانِ إلى الماءِ، والرجلُ اللعينِ؛ شيءٌ منتصبٌ وسطَ الزرعِ يُسْتَطَرَّدُ به الوحوشُ.

يقول: رُبَّ ماءٍ قد وردتُهُ لأجلِ أن أرى عليه محبوبتي، جاءت إليه لغسلِ رأسِها
ورَحُضِ ثيابِها، وصفةُ الماءِ ذلك.

(١) انظر: «حجة القراءات» ص ٦٣٨، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥: ٣٧٣).

ويكون عبارة عن الانحراف والازورار؛ كما قالوا: ثنى عطفه، و: تولى برُّكته.

[﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ ٥٢]

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾: أخبروني ﴿إِنْ كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني: أن ما أنتم عليه من إنكار القرآن وتكذيبه ليس بأمرٍ صادرٍ عن حُجَّةٍ قاطعةٍ حصلتُم منها على

قوله: (ويكون عبارة عن الانحراف) هذا هو الجواب الثاني عن السؤال، وكلا الجوابين لا يتجاوزان عن الكناية، لكنَّ الأول من باب التعريض بالتعظيم، فإنهم يعبرون عن المجلس والمقام والمكان عن ذات من يقصدون تعظيمه، ويحتشمون عن التصريح بالاسم، قال زهير:

فعرّض إذا ما جئت بالبان والحمى وإياك أن تنسى فتذكر زينبا
سيكفيك من ذلك المسمى إشارة فدعهُ مصوناً بالجلال محجبا

وهاهنا واردٌ على التهكم. والثاني من باب الرمز، كما عبّروا عن عدم الالتفات بالتولي والنبد وراء الظهور، ومرجعهُ أيضاً إلى التكبر والحطياء؛ لأنَّ المتكبر لا يخلو من تلك الحركات.

قوله: (يعني: أن ما أنتم عليه من إنكار القرآن) إلى آخره، في كلامه قيودٌ مستفادةٌ من التركيب التنزيلي، فإنَّ قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ واردٌ على العرض والتقدير، ويوجب أن يكون مسبوقاً بمقدماتٍ تنتهي إليه، وهو أن يقال: إن ما أنتم عليه من إنكار القرآن ليس بصادِرٍ عن حجةٍ قاطعةٍ عندكم، وإنما هو أمرٌ محتمل؛ لأنكم ما اتبعتم الدليل، فيجوز أن يكون من عند الله وألا يكون من عنده، والعاقِل إذا تورط في مثل هذه الورطة يتوقف حتى يحصل على اليقين؛ ثم يشرع في قطع الحكم، فأنتم قطعتم في التكذيب والإنكار قبل الفحص والنظر، أخبروني إن كان صادقاً ومن عند الله؛ فمن أضلُّ منكم؟ وقوله: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ﴾ واردٌ على العموم وعدم التصريح والمكافحة، وهو يقتضي أن يقال: ولعله حقٌّ فأهلكتم أنفسكم، ومن أظلم منكم؟ فوضع موضع الضمير ﴿مِمَّنْ هُوَ

اليقين وثَلَج الصدور، وإنما هو قَبْلَ النظر وأتباع الدليل أمرٌ مُحْتَمِلٌ، يجوزُ أن يكونَ من عندِ الله وأن لا يكونَ من عنده، وأنتم لمَ تَنْظُرُوا ولم تَفَحِّصُوا، فما أنكرتُم أن يكونَ حقاً وقد كَفَرْتُم به! فأخبروني من أضلُّ منكم وأنتم أبعَدتُم الشُّوطَ في مُشاقَّته ومُنَاصبته، ولعلَّه حقٌّ فأهلكتُم أنفسكم؟! وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾ موضوعٌ موضع: منكم، بياناً لحالهم وصِفَتِهِمْ.

[﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيضَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ءَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ ٥٣ - ٥٤]

﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني ما يَسِّرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لرسول الله ﷺ وللخُلَفَاءِ مِنْ بَعْدِهِ وَنُصَّارِ دِينِهِ فِي آفَاقِ الدُّنْيَا وَبِلَادِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ عُمُومًا وَفِي بَاحَةِ الْعَرَبِ خُصُوصًا - من: الْفَتْوحِ الَّتِي لَمْ يَتَسَيَّرْ أَمثالُهَا لِأَحَدٍ مِنْ خُلَفَاءِ الْأَرْضِ قَبْلَهُمْ،

فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴿ وهو معنى قوله: ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ لما فيه معنى البعد البعيد، والكلام واردٌ على إرخاء العنان والكلام المنصّف.

قوله: (أبعَدتُم الشُّوطَ)، الجوهري: عدا شوطاً، أي: طلقاً الأساس: فلان شوطه شوطٌ باطل.

قوله: (في مُشاقَّته) أي: بِالْعَتَمِ فِي مَخَاصِمَتِهِ، قال: المشاققة؛ مشتقة من الشق؛ لأن كلاً من المتعادين في شقٍّ خلافٍ صاحبه.

قوله: (وفي باحة العرب)، الأساس: نشأ فلانٌ في ساحتك وباحتك وهي العرصة، هذا تفسير لقوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وهذا أيضاً واردٌ على خلافٍ مقتضى الظاهر، على عكس ما سبق أنفاً في قوله: ﴿وَنَشَأَ بَجَانِهِ﴾ أي: بنفسه، وقول الشاعر: «مقام الذئب» جعلت أنفسهم بإدخال «في» كالعرصة والمكان المفتوح، إعلماً بأن تلك الفتوح أثرت في أنفسهم أثراً بليغاً كأنها هي مكائنها.

ومن الإظهار على الجبارة والأكاسرة، وتغليب قليلهم على كثيرهم، وتسليط ضعافهم على أقويائهم، وإجرائه على أيديهم أموراً خارجة من المعهود خارقة للعادات، ونشر دعوة الإسلام في أقطار المعمورة، وبسط دولته في أقاصيها، والاستقراء يطلعك في التواريخ والكتب المدونة في مشاهد أهله وأيامهم على عجائب لا ترى وقعة من وقائعهم إلا علماً من أعلام الله وآية من آياته، يقوى معها اليقين، ويزداد بها الإيثار، ويتبين أن دين الإسلام هو دين الحق الذي لا يجيدُ عنه إلا مكابرة حسه، مغالطة نفسه، وما الثبات والاستقامة إلا صفة الحق والصدق، كما أن الاضطراب والتزلزل صفة الفرية والزور؛ وأن للباطل ريحاً تخفق ثم تسكن، ودولة تظهر ثم تضحل. ﴿بَرَبِّكَ﴾ في موضع الرفع على أنه فاعل كفى. و﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بَدَلٌ منه، تقديره: أو لم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد؟

قوله: (تقديره: أو لم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد؟) إلى آخره، فإن قلت: من أين دل هذا اللفظ الموجز على هذه المعاني المبسطة؟ قلت: من مقتضى المقام والعدول من الظاهر، فإن أصل المعنى سريهم هذه الآيات إظهاراً للحق، وكفى دليلاً على ذلك، والواو في ﴿أَوْلَمْ يَكْفِ﴾ للحال، وإنما أدخل همزة التقرير على الجملة الحالية لمزيد تقرير حصول الموعود، وأن هذه الآيات كافية في المطلوب لا مزيد عليها، ووضع المظهر وقوله: ﴿بَرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ موضع ضمير الآيات في قولنا: وكفى بها دليلاً؛ للإشعار بالعلية، وأن هذه الآيات إنما صلحت للدليل على حقيقة المطلوب؛ لأن منشئها من هو على كل شيء مهيمن مطلع، وإليه الإشارة بقوله: «فَيَتَّبِعُونَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّكَ الْغَيْبِ» وأبدل ﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ من ﴿بَرَبِّكَ﴾ بيانا وتفسيرا وإيدانا بأن هذا الوصف مُتَعَيَّنٌ له وشاهد بأن الرب هو الذي يكون على كل شيء شهيدا، وإليه الإشارة بقوله: «مَطْلَعٌ مَهِيْمُنٌ يَسْتَوِي عِنْدَهُ غَيْبُهُ وَشَهَادَتُهُ»، وأما اختصاص الضمير في أنه الحق بالقرآن، فمن حيث المقام؛ لما سبق أن هذه السورة الكريمة نازلة في بيان عظمة القرآن المجيد والرد على منكره ومعانديه، فكل ما جعل ذكره مشروعا لمعنى أتى بما يناسبه من المعاني، فكان قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ﴾ كلاماً على سبيل إرخاء العنان كالحاتمة

هذه المعاني، فجيء بقوله: ﴿سَتْرِيهَمْ أَيْتِنَا فِي الْأَفَاقِ﴾ الآية مسلياً لحبيبه صلوات الله عليه، ووعداً لإظهار كلمته وقهر أعدائه، وسلك فيه مسلك الدليل والبرهان؛ ليظهر للموافق والمخالف حقيقته، وإليه الإشارة بقوله: «ولو لم يكن كذلك لما قوي هذه القوة ولما نُصِرَ حاملوه هذه النصرة»، وأدمج في الكلام معنى الإخبار بالغيب بذكر ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وإليه الإشارة بقوله: «يستوي عنده غيبه وشهادته»؛ ليكون كالشاهد على أنها بنفسها آية مستقلة من حيث إنها مخبرة عن الغيب.

روى الواحدي^(١) عن الزجاج^(٢) أنه قال: ومعنى الكفاية هاهنا أن الله تعالى قد بين لهم ما فيه كفاية من الدلالة.

فإن قلت: هل لقول عطاء على ما رواه محيي السنة^(٣) ﴿سَتْرِيهَمْ أَيْتِنَا فِي الْأَفَاقِ﴾ يعني أقطار السماوات والأرض؛ من الشمس والقمر والنجوم والأشجار والأنهار ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من لطيف الصنعة وبديع الحكمة ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ وجه مناسبة بالنظم؟

قلت: أجل، ونعمت المناسبة والعلم عند الله، وذلك أنه تعالى لما أمر حبيبه صلوات الله عليه بمشاركة القوم في قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾ دخل في خلكه اليأس من إيمان القوم، وذهبت نفسه عليهم حسرات، فأعلمه الله تعالى بقوله: ﴿سَتْرِيهَمْ أَيْتِنَا﴾ أنه ما عليك إلا البلاغ ومنا الهداية، فأنت قد أديت ما عليك من البلاغ وليس الهداية، ونحن سنهدي منهم من نريد هدايته بأن نفتح قلوباً غلغلاً وأذاناً صماً وعميوناً عمياً، فيرون آياتنا في الآفاق وفي الأنفس، ثم قرر ذلك بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ إنجازاً للموعود، مسلياً له صلوات الله عليه مما اعتراه من اليأس، كان هذا الوجه أحسن، وفي معنى الخاتمة أدخل، وللتناول أعم وأسهل.

(١) تفسير «الوسيط» (٤: ٤١).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٩٢).

(٣) «معالم التنزيل» (٧: ١٧٩).

ومعناه: أن هذا الموعود من إظهار آياتِ اللَّهِ في الآفاق وفي أنفسهم سيرُّونه ويشاهدونه، فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيلُ عالم الغيب الذي هو ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، أي: مُطَّلَعٌ مُهَيِّمٌ يَسْتَوِي عنده غَيْبُهُ وشهادته، فيكفيهم ذلك دليلاً على أنه حقٌّ، وأنه من عنده، ولو لم يكن كذلك لما قَوِيَ هذه القوَّة، ولما نُصر حامِلوه هذه النُّصرة. وقرئ: (في مُرْتَبَةٍ) بالضم؛ وهي الشكُّ. ﴿مُحِيطٌ﴾: عالمٌ بِجَمَلِ الأشياءِ وتفاصيلها وظواهرها وبواطنها، ولا تخفى عليه خافيةٌ منهم، وهو مُجَازِيهم على كُفْرهم ومُرْتَبَتهم في لقاء ربِّهم.

عن رسولِ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قرأ سورةَ السَّجدة أعطاهُ اللهُ بكلِّ حرفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ».

والقول الذي اختاره المصنفُ رواه محيي السنة^(١) عن مجاهدٍ والحسنِ والسُّدِّيِّ.

قال الإمام^(٢): فإن قيل: هذا الوجهُ ضعيفٌ؛ لأنَّ سِينَ الاستقبالِ يدلُّ على أنه تعالى ما أطلعهم على تلك الآيات، وسيطلعهم عليها، وليس كذلك. قلنا: إنَّ القومَ وإن كانوا قد رَأَوْا هذه الأشياءَ؛ إلا أنَّ العجائبَ التي أودعها فيها مما لا نهايةَ لها، فهو تعالى يطلعهم عليها زماناً قريباً حالاً فحالاً، فإنَّ كلَّ أحدٍ يشاهدُ بينةً إلا الإنسانَ؛ إلا أنَّ العجائبَ التي أودعها اللهُ تعالى في تركيبها لا تحصى وأكثرُ الناسِ غافلون عنها، فمَنْ حمل على التفكيرِ فيها بالقوارعِ التنزيليةِ والتنبيهاتِ الإلهيةِ، كلما ازدادَ تفكراً ازدادَ وقوفاً، فصَحَّ معنى الاستقبالِ والله أعلم.

تمت السورة

حامداً ومصلياً على رسولِ الله

* * *

(١) «معالم التنزيل» (٧: ١٧٩).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٥٧٤).

فهرس زُمر الآيات المُفسّرة

الصفحة	الآيات
	سورة يس
١١-٥	[٧-١]
١٥-١١	[٩-٨]
١٦-١٥	[١١-١٠]
١٩-١٧	[١٢]
٢٢-١٩	[١٥-١٣]
٢٢	[١٧-١٦]
٢٥-٢٢	[١٩-١٨]
٣٠-٢٥	[٢٥-٢٠]
٣٢-٣٠	[٢٧-٢٦]
٣٥-٣٢	[٢٩-٢٨]
٣٨-٣٥	[٣٠]
٤٠-٣٨	[٣٢-٣١]

الصفحة	الآيات
٤٥-٤٠	[٣٦-٣٣]
٤٦-٤٥	[٣٧]
٥٩-٤٧	[٤٠-٣٨]
٦١-٥٩	[٤٤-٤١]
٦٢-٦١	[٤٦-٤٥]
٦٣-٦٢	[٤٧]
٦٥-٦٤	[٥٠-٤٨]
٦٧-٦٥	[٥٢-٥١]
٧٤-٦٨	[٥٨-٥٣]
٧٥-٧٤	[٥٩]
٧٧-٧٥	[٦١-٦٠]
٧٨-٧٧	[٦٤-٦٢]
٧٩-٧٨	[٦٥]
٨١-٧٩	[٦٧-٦٦]
٨٣-٨٢	[٦٨]
٩٠-٨٣	[٧٠-٦٩]
٩٢-٩٠	[٧٣-٧١]

الصفحة	الآيات
٩٥-٩٢	[٧٦-٧٤]
١٠٩-٩٥	[٨٣-٧٧]
سورة «والصفات»	
١١٧-١١٠	[٥-١]
١٢٠-١١٧	[٧-٦]
١٢٤-١٢٠	[١٠-٨]
١٢٩-١٢٥	[١١]
١٣٣-١٢٩	[١٤-١٢]
١٣٥-١٣٣	[١٩-١٥]
١٣٥	[٢١-٢٠]
١٣٦-١٣٥	[٢٦-٢٢]
١٤٠-١٣٦	[٣٥-٢٧]
١٤١-١٤٠	[٣٩-٣٦]
١٤٧-١٤١	[٤٩-٤٠]
١٥٢-١٤٧	[٥٧-٥٠]
١٥٣-١٥٢	[٥٩-٥٨]
١٥٣	[٦١-٦٠]
١٦٠-١٥٤	[٧٠-٦٢]
١٦٠	[٧٤-٧١]

الصفحة	الآيات
١٦٢-١٦٠	[٨٢-٧٥]
١٦٤-١٦٢	[٨٧-٨٣]
١٦٧-١٦٥	[٩٠-٨٨]
١٦٨-١٦٧	[٩٣-٩١]
١٧٠-١٦٨	[٩٤]
١٧٤-١٧٠	[٩٦-٩٥]
١٧٥-١٧٤	[٩٨-٩٧]
١٧٦-١٧٥	[١٠١-٩٩]
١٨١-١٧٧	[١٠٢]
١٩١-١٨١	[١١١-١٠٣]
١٩٦-١٩١	[١١٣-١١٢]
١٩٧-١٩٦	[١٢٢-١١٤]
٢٠٠-١٩٧	[١٣٢-١٢٣]
٢٠١	[١٣٨-١٣٣]
٢٠٥-٢٠١	[١٤٨-١٣٩]
٢١٠-٢٠٦	[١٥٧-١٤٩]
٢١٢-٢١٠	[١٦٠-١٥٨]
٢١٥-٢١٢	[١٦٣-١٦١]
٢١٩-٢١٥	[١٦٦-١٦٤]

الصفحة	الآيات
٢١٩	[١٦٧-١٧٠]
٢٢٠-٢١٩	[١٧١-١٧٣]
٢٢١	[١٧٤-١٧٥]
٢٢٣-٢٢١	[١٧٦-١٧٩]
٢٢٥-٢٢٣	[١٨٠-١٨٢]

سورة ص

٢٣٠-٢٢٦	[١-٢]
٢٣٤-٢٣٠	[٣]
٢٣٥-٢٣٤	[٤-٥]
٢٣٧-٢٣٦	[٦-٧]
٢٤٢-٢٣٨	[٨-١١]
٢٤٦-٢٤٣	[١٢-١٥]
٢٤٦	[١٦]
٢٥٤-٢٤٦	[١٧-٢٠]
٢٦٠-٢٥٤	[٢١-٢٢]
٢٦٧-٢٦٠	[٢٣]
٢٧٣-٢٦٨	[٢٤-٢٥]
٢٧٤-٢٧٣	[٢٦]
٢٧٦-٢٧٤	[٢٧]

الصفحة	الآيات
٢٧٦	[٢٨]
٢٧٧-٢٧٦	[٢٩]
٢٨٤-٢٧٧	[٣٣-٣٠]
٢٨٨-٢٨٤	[٣٤]
٢٩٠-٢٨٨	[٣٥]
٢٩٣-٢٩٠	[٤٠-٣٦]
٢٩٦-٢٩٣	[٤٤-٤١]
٣٠٠-٢٩٦	[٤٧-٤٣]
٣٠٠	[٤٨]
٣٠٣-٣٠٠	[٥٢-٤٩]
٣٠٣	[٥٤-٥٣]
٣٠٩-٣٠٣	[٥٥-٦١]
٣١٢-٣١٠	[٦٢-٦٣]
٣١٣-٣١٢	[٦٤]
٣١٥-٣١٤	[٦٥-٦٦]
٣١٩-٣١٥	[٦٧-٧٠]
٣٢١-٣٢٠	[٧١-٧٤]
٣٢٦-٣٢١	[٧٥-٧٦]
٣٢٧-٣٢٦	[٧٧-٧٨]

الصفحة	الآيات
٣٢٨-٣٢٧	[٧٩-٨١]
٣٢٨	[٨٢-٨٣]
٣٣٠-٣٢٨	[٨٤-٨٥]
٣٣١-٣٣٠	[٨٦-٨٨]
سورة الزمر	
٣٤٠-٣٣٢	[١-٤]
٣٤٢-٣٤٠	[٥]
٣٤٤-٣٤٢	[٦]
٣٤٧-٣٤٤	[٧]
٣٥٠-٣٤٨	[٨]
٣٥٣-٣٥٠	[٩]
٣٥٦-٣٥٣	[١٠]
٣٦٠-٣٥٦	[١١-١٥]
٣٦١-٣٦٠	[١٦]
٣٦٣-٣٦١	[١٧-١٨]
٣٦٥-٣٦٤	[١٩]
٣٦٥	[٢٠]
٣٦٧-٣٦٥	[٢١]
٣٦٨-٣٦٧	[٢٢]

الصفحة	الآيات
٣٧٤-٣٦٨	[٢٣]
٣٧٥-٣٧٤	[٢٦-٢٤]
٣٧٧-٣٧٥	[٢٨-٢٧]
٣٨٠-٣٧٧	[٢٩]
٣٨٣-٣٨٠	[٣٢-٣٠]
٣٨٩-٣٨٣	[٣٥-٣٣]
٣٩١-٣٨٩	[٣٧-٣٦]
٣٩٣-٣٩١	[٣٨]
٣٩٤-٣٩٣	[٤٠-٣٩]
٣٩٤	[٤١]
٣٩٨-٣٩٥	[٤٢]
٣٩٩	[٤٤-٤٣]
٤٠١-٣٩٩	[٤٥]
٤٠٢-٤٠١	[٤٦]
٤٠٣-٤٠٢	[٤٨-٤٧]
٤٠٦-٤٠٣	[٤٩]
٤١١-٤٠٧	[٥٢-٥٠]
٤١٩-٤١١	[٥٥-٥٤]
٤٢٠-٤١٩	[٦٠]

الصفحة	الآيات
٤٢٢-٤٢٠	[٦١]
٤٢٤-٤٢٢	[٦٣-٦٢]
٤٢٦-٤٢٤	[٦٤]
٤٢٩-٤٢٦ ٤٢٥-٤٢٣	[٦٦-٦٥]
٤٣٦-٤٢٩	[٦٧]
٤٣٦	[٦٨]
٤٤٢-٤٣٧	[٧٠-٦٩]
٤٤٣-٤٤٢	[٧٢-٧١]
٤٤٩-٤٤٣	[٧٤-٧٣]
٤٥٠-٤٤٩	[٧٥]

سورة المؤمن (خافر)

٤٥٧-٤٥١	[٣-١]
٤٦٠-٤٥٨	[٤]
٤٦١-٤٦٠	[٥]
٤٦٢-٤٦١	[٦]
٤٧١-٤٦٣	[٩-٧]
٤٧٧-٤٧١	[١٢-١٠]
٤٨٣-٤٧٨	[١٦-١٣]
٤٨٤	[١٧]

الصفحة	الآيات
٤٨٩-٤٨٥	[١٨]
٤٩٠-٤٨٩	[١٩]
٤٩٢-٤٩١	[٢٠]
٤٩٣-٤٩٢	[٢٢-٢١]
٣٩٤-٤٩٣	[٢٥-٢٣]
٤٩٦-٤٩٤	[٢٦]
٤٩٧	[٢٧]
٥٠٤-٤٩٨	[٢٨]
٥٠٥-٥٠٤	[٢٩]
٥٠٨-٥٠٦	[٣١-٣٠]
٥٠٨	[٣٣-٣٢]
٥١٢-٥٠٩	[٣٥-٣٤]
٥١٣-٥١٢	[٣٧-٣٦]
٥١٥-٥١٣	[٣٩-٣٨]
٥١٦-٥١٥	[٤٠]
٥١٧-٥١٦	[٤٢-٤١]
٥٢٠-٥١٧	[٤٤-٤٣]
٥٢٢-٥٢٠	[٤٦-٤٥]
٥٢٢	[٤٧]

الصفحة	الآيات
٥٢٣-٥٢٢	[٤٨]
٥٢٦-٥٢٣	[٥٠-٤٩]
٥٢٧-٥٢٦	[٥٢-٥١]
٥٢٩-٥٢٨	[٥٤-٥٣]
٥٣٠-٥٢٩	[٥٥]
٥٣٠	[٥٦]
٥٣١	[٥٧]
٥٣٢	[٥٨]
٥٣٣-٥٣٢	[٥٩]
٥٣٥-٥٣٣	[٦٠]
٥٣٨-٥٣٥	[٦١]
٥٣٨	[٦٣-٦٢]
٥٤٠-٥٣٨	[٦٥-٦٤]
٥٤١-٥٤٠	[٦٦]
٥٤٢-٥٤١	[٦٧]
٥٤٢	[٦٨]
٥٤٧-٥٤٣	[٧٦-٦٩]
٥٤٩-٥٤٧	[٧٧]
٥٥٠-٥٤٩	[٧٨]

الصفحة	الآيات
٥٥٣-٥٥٠	[٧٩-٨١]
٥٥٥-٥٥٣	[٨٣-٨٢]
٥٥٧-٥٥٥	[٨٥-٨٤]

سورة السجدة (فُصِّلَتْ)

٥٦٠-٥٥٨	[٤-١]
٥٦٤-٥٦٠	[٥]
٥٦٨-٥٦٤	[٧-٦]
٥٦٩	[٨]
٥٨٢-٥٦٩	[١٢-٩]
٥٨٥-٥٨٢	[١٤-١٣]
٥٨٧-٥٨٥	[١٦-١٥]
٥٩١-٥٨٧	[١٨-١٧]
٥٩٤-٥٩٢	[٢١-١٩]
٥٩٦-٥٩٤	[٢٣-٢٢]
٥٩٨-٥٩٦	[٢٥-٢٤]
٦٠٢-٥٩٨	[٢٨-٢٦]
٦٠٣-٦٠٢	[٢٩]
٦٠٥-٦٠٣	[٣٢-٣٠]
٦٠٧-٦٠٦	[٣٣]

الصفحة	الآيات
٦٠٩-٦٠٨	[٣٥-٣٤]
٦٠٩	[٣٦]
٦١١-٦١٠	[٣٨-٣٧]
٦١٢-٦١١	[٣٩]
٦١٢	[٤٠]
٦١٤-٦١٣	[٤٢-٤١]
٦١٥	[٤٣]
٦١٩-٦١٥	[٤٤]
٦٢٠-٦١٩	[٤٥]
٦٢٠	[٤٦]
٦٢٣-٦٢٠	[٤٨-٤٧]
٦٢٤-٦٢٣	[٥٠-٤٩]
٦٢٦-٦٢٤	[٥١]
٦٢٧-٦٢٦	[٥٢]
٦٣٠-٦٢٧	[٥٤-٥٣]

